تفسير القشيري

المسمّى

لطائف الإشارات

تأليف

الإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك

القشيري النيسابوري الشافعي

المتوفى ٤٦٥ هـ

وضع حواشيه وعلّق عليه

عبد اللطيف حسن عبد الرحمن



دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

تفسير القشيري

المسمّى

لطائف الإشارات

تأليف

الإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك

القشيري النيسابوري الشافعي

المتوفى ٤٦٥ هـ

وضع حواشيه وعلّق عليه

عبد اللطيف حسن عبد الرحمن

الجزء الأول

المحتوى :

أول سورة الفاتحة - آخر سورة التوبة





دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

Title: Tafsīr al-Qušayri
"Laṭā'f al-'išārāt"
(The exegesis of the Holy coran)

classification: Exegesis of the coran
Author: ʿAbdul-Karīm ben Hawāzin al-Qušayri
Editor: ʿAbdul-Laṭīf Ḥasan ʿAbdul-Raḥmān
Publisher: *Dar Al-Kotob Al-ilmiyah*
Pages: 1408 (3volumes)
Year: *2007*
Printed in: *Lebanon*
Edition: *2nd*

الكتاب: تفسير القشيري
المسمى: لطائف الإشارات
التصنيف: تفسير قرآن
المؤلف: الإمام عبد الكريم بن هوازن القشيري
المحقق: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن
الناشر: دار الكتب العلميـــة - بيروت
عدد الصفحات: 1408 (3 أجزاء)
سنة الطباعة: 2007
بلد الطباعة: لبنان
الطبعة: الثانية

ISBN 2-7451-2837-X (10 dig)
ISBN 978-2-7451-2837-9 (13 dig)





دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان





الطبعة الثانية
٢٠٠٧ م - ١٤٢٨ هـ

دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax:+961 5 804813
P.o.Box:11-9424 Beirut-lebanon
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون ، القبة
مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ١٢/١١/٨١٠ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨١٣ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان
رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
sales @al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة المؤلف

هو الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد الاستوائي القشيري النيسابوري الشافعي، المحدّث الصوفي. ولد سنة ٣٧٦هـ في شهر ربيع الأول في بلدة «إستوا» ونسبته «القشيري» إلى بني قشير بن كعب.

توفي أبوه وهو صغير، فرُبِّي يتيماً؛ ولكن النجابة ظهرت فيه من صغره؛ فتثقف بالأدب والعربية، ولكنه لم يكن يعلم الحساب فذهب إلى «نيسابور» ليتعلم طرفاً من الحساب، حتى يتمكن من إدارة قرية له بإستوا. وأرادت المقادير، أن يحضر درس أبي عليٍّ الدقاق، فيرى إخلاصاً ويرى تقوى، ويرى نوراً يرتسم على وجهه، ويشرق من كلماته فينير قلوب السامعين ويجذبهم إلى الله. وكانت فطرة القشيري النقية على استعداد تام لسلوك الطريق، ورأى الإمام أبو علي الدّقّاق فيه النجابة، فقبله في زمرة أخصائه، وزوّجه ابنته، مع كثرة أقاربها.

وانتهى الأمر بالقشيري إلى أن أصبح ـ كما يقول عنه الإمام عبد الغافر النيسابوري ـ «الإمام مطلقاً، الفقيه، المتكلم، الأصولي، المفسر، الأديب، النحوي، الكاتب الشاعر، لسان عصره وسيد وقته، وسر الله بين خلقه، مدار الحقيقة، وعين السعادة، وقطب السيادة، من جمع بين الشريعة والحقيقة، كان يعرف الأصول على مذهب الأشعري والفروع على مذهب الشافعي. . ».

ولقد ترجم له صاحب كتاب: «دمية القصر» أبو الحسن الباخرزي فقال:

«جامع لأنواع المحاسن تنقاد له صعابها ذلل المراسن، فلو قرع الصخر بصوت تحذيره لذاب، ولو ارتبط إبليس في مجلس تذكيره لتاب، وله فصل الخطاب في فصل المنطق المستطاب، ماهر في التكلم على مذهب الأشعري، خارج في إحاطته بالعلوم عن الحد البشري،

كلماته للمستفيدين فوائد وفرائد، وأعقاب منبره للعارفين وسائد. ثم إذا عقد بين مشايخ الصوفية حَبْوَته، ورأوا قربته من الحق وحظوته، تضاءلوا بين يديه، وتلاشوا بالإضافة إليه، وطواهم بساطه في حواشيه، وانقسموا بين النظر والتفكير فيه. وله شعر يتوَّج به رؤوس معاليه، إذا ختمت به أذناب أماليه».

وقد توفي الإمام القشيري صبيحة يوم الأحد في السادس عشر من شهر ربيع الأول عام ٤٦٥هـ، بمدينة نيسابور، ودفن بجوار شيخه أبي علي الدقّاق.

ومن تصانيفه التي ذكرها إسماعيل باشا البغدادي في هدية العارفين:

- أربعون في الحديث.
- استفاضة المرادات.
- بلغة المقاصد.
- التخيير في علم التذكير في معاني اسم الله تعالى.
- التيسير في علم التفسير.
- عيون الأجوبة في فنون الأسئلة.
- الفصول في الأصول.
- كتاب المعراج.
- لطائف الإشارات في تفسير القرآن. وهو الكتاب الذي بين أيدينا.
- المنتهى في نكت أولي النُّهَى.
- ناسخ الحديث ومنسوخه.
- نحو القلوب.
- حياة الأرواح والدليل إلى طريق الصلاح.
- شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة.

منثور الخطاب في شهود الألباب.

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبِّ يَسِّرْ

الحمد لله الذي شرح قلوب أوليائه بعرفانه، وأوضح نهج الحق بلائح برهانه، لمن أراد طريقه، وأتاح البصيرة لمن ابتغى تحقيقه، وأنزل الفرقان هدىً وتبياناً، على صفيِّه محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله ـ معجزة وبياناً، وأودع صدور العلماء معرفته وتأويله، وأكرمهم بعلم قصصه ونزوله ورزقهم الإيمان بمُحكَمِه ومتشابهه وناسخه، ووعده ووعيده، وأكرم الأصفياء من عباده بفهم ما أودعه من لطائف أسراره وأنـ (واره) لاستبصار ما ضمنَّه من دقيق إشاراته، وخفِّي رموزه، بما لوَّح لأسرارهم من مكنونات، فوقفوا بما خُصُّوا به من أنوار الغيب على ما استتر عن أغيارهم، ثم نطقوا على مراتبهم وأقدارهم، والحق سبحانه وتعالى يلهمهم بما به يكرمهم، فهم به عنه ناطقون وعن لطائفه مخبرون وإليه يشيرون، وعنه يفصحون، والحُكْمُ إليه في جميع ما يأتون به ويذرون.

قال الإمام جمال الإسلام أبو القاسم القشيري رحمه الله: وكتابنا هذا يأتي على ذكر طرف من إشارات القرآن على لسان أهل المعرفة، إما من معاني مقولهم، أو قضايا أصولهم، سلكنا فيه طريق الإقلا (ل) خشية الملال، مستمدين من الله تعالى عوائد المِنَّة، متبرئين من الحول والمنة[1] مستعصمين من الخطأ والخلل، مستوفقين لأصوب القول والعمل، ملتمسين أن يصلى على سيدنا محمد صلى الله عليه و (سلّم)، ليختم لنا بالحسنى بمنّه وأفضاله. وتيسَّر الأخذ في ابتداء هذا الكتاب في شهور سنة أربع وثلاثين وأربعمائة، وعلى الله إتمامه إن شاء الله تعالى عز وجلّ.

---

(١) المُنَّة: القوة. جمع مُنن.

سورة فاتحة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه السورة بدا (ية) الكتاب، ومفاتحة الأحباب بالخطاب والكتاب منه أجلُّ النُّعمى، وأكْرَمُ الحسنى إذ هي (. . .)[1] وابتداء وفى معناه قيل:

أفديك بل أيام دهري كلها ... تفدين أياماً (. . . . .)[1]

سُقْياً لمعهدك الذي لو لم يكن ... ما كان قلبي للصبابة معهدا

ولقد كان ﷺ غير مُرتقِبٍ لهذا الشأن، وما كان هذا الحديث منه على بال، وحينما نزل عليه جبريل صلوات الله عليه وسلامه أخذ في الفرار، وآثر التباعد لهذا الأمر آوى (. . .)[1] قائلاً: «دثروني دثروني، زمِّلوني زمِّلوني»[2] وكان يتحنَّث في حِراء[3]، ويخلو هنالك (. . . .)[4] فجأة، وصادفته القصة بغتةً كما قيل:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى ... فصادف قلبي فارغاً فتمكَّنا

وكان صلوات الله عليه وسلم رَضِيَ بأن يقال له أجير خديجة ولكن (الحق سبحانه وتعالى أراده لأن)[5] يكون سيد الأولين والآخرين حيث قال: ﴿يسٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يس: ٢] (رفعه إلى) أشرف المنازل وإن لم يسم إليه بطرف التأميل سُنَّة منه تعالى وتقدَّس (. . .)[6] إلا عند من تقاصرت الأوهام عن استحقاقه، ولذلك ما قصُّوا العَجَب من شأنه (. . .)[6] يتيم أبي طالب من بين البريَّة، ولقد كان صلوات الله عليه وسلم في سابق (علمه) سبحانه وتعالى مُقدَّماً على الكافة من أشكاله وأضرابه، وفي معناه قيل:

هذا (. . .) أطمار ... وكان في فقر من السيار

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٣/ ٣٧٧)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٥٥٢٨) والطبري في (التاريخ ٢/ ٣٠٤)، وابن أبي شيبة في (المصنف ١٤/ ٣/ ٧٤)، وابن حجر في (الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ١٧٩).

(٣) تحنَّث: تعبد لياني كثيرة. حِراء: جبل بمكة يسمى جبل النور وفيه غار تعبد فيه النبي ﷺ قبيل البعثة (ينون ولا ينون).

(٤) بياض في الأصل.

(٥) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٦) بياض في الأصل.

آثـرُ عـنـدي (بـمـالإكـبـار) مـن أخـي ومـن جـاري
وصـاحـب الـدرهـم (والـديـنـار) فـإن صـاحـب الأمـر مـع الإكـثـار[1]

ولقد كان ﷺ قبل النبوة حميد الشأن، (محمود) الذكر، ممدوح الاسم، أميناً لكل واحد. وكانوا يسمونه محمداً الأمين، ولكن (الكافرين) (. . .)[2] حالته، بدلوا اسمه، وحرَّفوا وصفه، وهجَّنوا ذكره، فواحد كان يقول ساحر وآخر يقول (. . .)[2] وثالث يقول كاذب، ورابع يقول شاعر:

أشاعوا لنا في الحي أشنع قصة وكانوا لنا سلماً فصاروا لنا حربا

وهكذا صفة المُحِبِّ، لا ينفك عن الملام ولكن كما قيل:

أجد الملامة في هواك لذيذة حباً لذكرك فليلمني اللُّوَّمُ

وماذا عليه من قبيح قالة (من) يقول، (والحق سبحانه يقول): ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر: ٩٧] أي استمع إلى ما يقال فيك بحسن الثناء علينا.

فصل: وتسمى هذه السورة أيضاً أمّ الكتاب، وأم الشيء أصله، وإمام كل شيء مقدّمه. وهذه السورة لما تشتمل عليه من الأمر بالعبودية، والثناء على الله بجمال الربوبية، ثم كمالها من الفضائل ـ لا تصح الفرائض إلا بها. وقوله ﷺ مخبراً عنه سبحانه وتعالى: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين»[3] يعني قراءة هذه السورة، فصارت أمّ الكتاب، وأصلاً لما تنبني عليه من لطائف الكرامات وبدائع التقريب والإيجاب.

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

الباء في بسم الله حرف التضمين؛ أي بالله ظهرت الحادثات، وبه وجدت المخلوقات، فما من حادث مخلوق، وحاصل منسوق، من عين وأثر وغبر، وغيرٍ من حجر ومدر، ونجم وشجر، ورسم وطلل، وحكم وعلل ـ إلا بالحق وجوده، والحق مَلِكه، ومن الحق بدؤه، وإلى الحق عوده، فبه وَجَدَ من وَحَّد، وبه جحد من الحد، وبه عرف من اعترف، وبه تخلَّف من اقترف.

---

(١) أبيات الشعر مضطربة بالأصل فأضيفت الكلمات التي بين الأقواس ليستقيم الوزن والمعنى بعض الشيء.
(٢) بياض في الأصل.
(٣) أخرجه الترمذي في (السنن ٢٩٥٣)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٢/ ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٣٧٥) والحميدي في (المسند ٩٧٣)، والربيع بن حبيب في (المسند ١/ ٤٦)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٢/ ٣٦٧)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٣/ ١٥٠، ١٥١ ـ ١٨٤)، وابن عبد البر في (التمهيد ٢/ ٢٣٠)، وابن الجوزي في (زاد المسير ٤/ ٤١٣)، والبيهقي في (الأسماء والصفات ٤٩، ٢١١) والسهمي في (تاريخ جرجان ١٨٥).

وقال: ﴿بسم الله﴾ ولم يقل بالله على وجه التبرك بذكر اسمه عند قوم، وللفَرْقِ بين هذا وبين القَسَم عند الآخرين، ولأن الاسم هو المسمى عند العلماء، ولاستصفاء القلوب من العلائق ولاستخلاص الأسرار عن العوائق عند أهل العرفان، ليكون ورود قوله ﴿الله﴾ على قلبٍ مُنقًّىً وسرٍ مُصَفًّىً. وقوم عند ذكر هذه الآية يتذكرون من الباء (بره) بأوليائه ومن السين سره مع أصفيائه ومن الميم منته على أهل ولايته، فيعلمون أنهم ببره عرفوا سرّه، وبمنته عليهم حفظوا أمره، وبه سبحانه وتعالى عرفوا قدره. وقوم عند سماع بسم الله تذكروا بالباء براءة الله سبحانه وتعالى من كل سوء، وبالسين سلامته سبحانه عن كل عيب، وبالميم مجده سبحانه بعز وصفه، وآخرون يذكرون عند الباء بهاءه، وعند السين سناءه، وعند الميم ملكه، فلما أعاد الله سبحانه وتعالى هذه الآية أعني بسم الله الرحمن الرحيم في كل سورة وثبت أنها منها أردنا أن نذكر في كل سورة من إشارات هذه الآية كلمات غير مكررة، وإشارات غير معادة، فلذلك نستقصي القول ها هنا وبه الثقة.

قوله جل ذكره: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

حقيقة الحمد الثناء على المحمود، بذكر نعوته الجليلة وأفعاله الجميلة، واللام ها هنا للجنس، ومقتضاها الاستغراق؛ فجميع المحامد لله سبحانه إمّا وصفاً وإمّا خلقاً، فله الحمد لظهور سلطانه، وله الشكر لوفور إحسانه. والحمد لله لاستحقاقه لجلاله وجماله، والشكر لله لجزيل نواله وعزيز أفضاله، فحمده سبحانه له هو من صفات كماله وحَوْله، وحمد الخَلْق له على إنعامه وطوْلِه، وجلاله وجماله استحقاقه لصفاتا لعلو، واستيجابه لنعوت العز والسمو، فله الوجود (قدرة)[1] القديم، وله الجود الكريم، وله الثبوت الأحدي، والكون الصمدي، والبقاء الأزلي، والبهاء الأبدي، والثناء الديمومي، وله السمع والبصر، والقضاء والقدر، والكلام والقول، والعزة والطوْل، والرحمة والجود، والعين والوجه والجمال، والقدرة والجلال، وهو الواحد المتعال، كبرياؤه رداؤه، وعلاؤه سناؤه، ومجده عزه، وكونه ذاته، وأزله أبده، وقدمه سرمده، وحقه يقينه، وثبوته عينه، ودوامه بقاؤه، وقدره قضاؤه، وجلاله جماله، ونهيه أمره، وغضبه رحمته، وإرادته مشيئته، وهو الملك بجبروته، والأحد في ملكوته. تبارك الله سبحانه!! فسبحانه ما أعظم شأنه!

فصل: عَلمَ الحق سبحانه وتعالى شدة إرادة أوليائه بحمده وثنائه، وعجزَهم عن القيام بحق مدحه على مقتضى عزه وسنائه فأخبرهم أنه حَمِد نفسه بما افتتح به خطابه بقوله: «الحمد لله» فانتعشوا بعد الذّلة، وعاشوا بعد الخمود، واستقلت أسرارهم

---

(١) بياض في الأصل.

لكمال التعزز حيث سمعوا ثناء الحق عن الحق بخطاب الحق، فنطقوا ببيان الرمز على قضية الأشكال. وقالوا:

ولوجهها من وجهها قمر ... ولعينها من عينها كحل

هذا خطيب الأولين والآخرين، سيد الفصحاء، وإمام البلغاء، لمَّا سمع حمده لنفسه، ومدحه سبحانه لحقِّه، علم النبي أن تقاصر اللسان أليق به في هذه الحالة فقال: «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»[1].

داود لو سمعت أذناه قالتَها ... لما ترنّم بالألحان داود

غنت سعاد بصوتها فتخاذلت ... ألحان داوذ من الخجل

فصل: وتتفاوت طبقات الحامدين لتباينهم في أحوالهم؛ فطائفة حمدوه على ما نالوا من إنعامه وإكرامه من نوعي صفة نفعِه ودفعِه، وإزاحته وإتاحته، وما عقلوا عنه من إحسانه بهم أكثره ما عرفوا من أفضاله معهم قال جل ذكره: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]، وطائفة حمدوه على ما لاح لقلوبهم من عجائب لطائفه، وأودع سرائرهم من مكنونات بره، وكاشف أسرارهم به من خفي غيبه، وأفرد أرواحهم به من بواده مواجده. وقوم حمدوه عند شهود ما كاشفهم به من صفات القدم، ولم يردوا من ملاحظة العز والكرم إلى تصفح أقسام النعم، وتأمل خصائص القِسَم، و(فرق بين) من يمدحه بعز جلاله وبين من يشكره على وجود أفضاله، كما قال قائلهم:

وما الفقر عن أرض العشيرة ساقنا ... ولكننا جئنا بلقياك نسعد

وقوم حمدوه مُسْتَهْلَكين عنهم فيما استنطقوا من عبارات تحميده، بما اصطلم أسرارهم من حقائق توحيده، فهم به منه يعبِّرون، ومنه إليه يشيرون، يُجري عليهم أحكام التصريف، وظواهرهم بنعت التفرقة مرعية، وأسرارهم مأخوذة بحكم جمع[2] الجمع، كما قالوا:

بيان بيان الحق أنت بيانه ... وكل معاني الغيب أنت لسانه

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٦/ ٥٨)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢/ ٧١).

(٢) جاءت في الأصل (جميع الجمع) لكن القشيري قال في رسالته: بأن الاصطلاح الصوفي جمع الجمع وهو درجة فوق الجمع ويختلف الناس في هذه الجملة حسب تباين أحوالهم وتفاوت درجاتهم، فمن أثبت نفسه أثبت الخلق، ولكن شاهد الكل كان قائماً بالحق، فهذا هو جمع، وإذا كان مختطفاً عن شهود الخلق مصطلحاً عن نفسه، مأخوذاً بالكلية عن الإحساس بكل ما ظهر واستولى من سلطان الحقيقة فذاك جمع الجمع، وجمع الجمع الاستهلاك بالكلية، وفناء الإحساس بما سوى الله عز وجل عند غلبات الحقيقة. (الرسالة القشيرية ص٦٥، ٦٦).

قوله جل ذكره: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

الرب هو السيد، والعالمون جميع المخلوقات، واختصاص هذا الجمع بلفظ العالمين لاشتماله على العقلاء والجمادات فهو مالك الأعيان ومُنشيها، ومُوجِد الرسوم والديار بما فيها.

ويدل اسم الرب أيضاً على تربية الخلق، فهو مُربِ نفوس العابدين بالتأييد ومربِ قلوب الطالبين بالتسديد، ومربِ أرواح العارفين بالتوحيد، وهو مربِ الأشباح بوجود النِّعم، ومربِ الأرواح بشهود الكرم.

ويدل اسم الرب أيضاً على إصلاحه لأمور عباده من ربيت العديم أربه؛ فهو مصلح أمور الزاهدين بجميل رعايته، ومصلح أمور العابدين بحسن كفايته، ومصلح أمور الواجدين بقديم عنايته، أصلح أمور قوم فاستغنوا بعطائه، وأصلح أمور آخرين فاشتاقوا للقائه، وثالث أصلح أمورهم فاستقاموا للقائه، قال قائلهم:

ما دام عـزُّك مسعوداً طوالعه ... فلا أبالي أعاش الناس أم فقدوا

قوله جل ذكره: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

اسمان مشتقان من الرحمة، والرحمة صفة أزلية وهي إرادة النعمة وهما اسمان موضوعان للمبالغة ولا فضل بينهما عند أهل التحقيق.

وقيل الرحمن أشد مبالغة وأتم في الإفادة، وغير الحق سبحانه لا يسمى بالرحمن على الإطلاق، والرحيم ينعت به غيره، وبرحمته عرف العبد أنه الرحمن، ولولا رحمته لما عرف أحد أنه الرحمن، وإذا كانت الرحمة إرادة النعمة، أو نفس النعمة كما هي عند قوم فالنعم في أنفسها مختلفة، ومراتبها متفاوتة فنعمة هي نعمة الأشباح والظواهر، ونعمة هي نعمة الأرواح والسرائر.

وعلى طريقة من فرَّق بينهما فالرحمن خاص الاسم عام المعنى، والرحيم عام الاسم خاص المعنى؛ فلأنه الرحمن رزق الجميع ما فيه راحة ظواهرهم، ولأنه الرحيم وفق المؤمنين لما به حياة سرائرهم، فالرحمن بما روَّح، والرحيم بما لوَّح؛ فالترويح بالمَبَارِّ، والتلويح بالأنوار: والرحمن بكشف تَجَلِّيه والرحيم بلطف تولِّيه، والرحمن بما أولى من الإيمان والرحيم بما أسدى من العرفان، والرحمن بما أعطى من العرفان والرحيم بما تولَّى من الغفران، بل الرحمن بما ينعم به من الغفران والرحيم بما يَمُنُّ به من الرضوان، بل الرحمن بما يكتم به والرحيم بما ينعم به من الرؤية والعيان، بل الرحمن بما يوفق، والرحيم بما تحقق، والتوفيق للمعاملات، والتحقيق للمواصلات، فالمعاملات للقاصدين، والمواصلات للواجدين، والرحمن بما يصنع لهم والرحيم بما يدفع عنهم؛ فالصنع بجميل الرعاية والدفع بحسن العناية.

قوله جل ذكره: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

المالك من له المُلك، ومُلك الحق سبحانه وتعالى قدرته على الإبداع. فالملك مبالغة من المالك وهو سبحانه الملك المالك، وله المُلك. وكما لا إله إلا هو فلا قادر على الإبداع إلا هو، فهو بإلهيته متوحد، وبملكه متفرد، ملك نفوس العابدين فصرفها في خدمته، وملك قلوب العارفين فشرّفها بمعرفته، وملك نفوس القاصدين فتيَّمها، وملك قلوب الواجدين فهيَّمها. ملك أشباح مَنْ عبَدَه فلاطفها بنواله وأفضاله، وملك أرواح مَنْ أحبهم (. . . .)[1] فكاشفها بنعت جلاله، ووصف جماله. ملك زمام أرباب التوحيد فصرفهم حيث شاء على ما شاء ووفَّقهم حيث شاء على ما شاء كما شاء، ولم يَكِلْهم إليهم لحظة، ولا مَلَّكهم من أمرهم سِنَّةً ولا خطرة، وكان لهم عنهم، وأفناؤهم له منهم.

فصل: مَلَكَ قلوبَ العابدين إحسانُه فطمعوا في عطائه، وملك قلوب الموحدين سلطانُه فقنعوا ببقائه. عرَّف أربابَ التوحيد أنه مالكهم فسقط عنهم اختيارهم، علموا أن العبد لا ملك له، ومن لا ملك له لا حكم له، ومن لا حكم له لا اختيار له، فلا لهم عن طاعته إعراض ولا على حكمه اعتراض، ولا في اختياره معارضة، ولا لمخالفته تعرّض، ﴿ويوم الدين﴾. يومُ الجزاء والنشر، ويوم الحساب والحشر ـ الحق سبحانه وتعالى يجزي كلاً بما يريد، فَمِنْ بين مقبولٍ يوم الحشر بفضله سبحانه وتعالى لا بفعلهم، ومن بين مردودٍ بحكمه سبحانه وتعالى لا بِجُرْمِهم. فأمَّا الأعداء فيحاسبهم ثم يعذبهم وأمَّا الأولياء فيعاتبهم ثم يقربهم:

قـــومٌ إذا ظـــفـــروا بـــنـــا ... جـــادوا بـــعـــتـــق رقـــابـــنـــا

قوله جل ذكره: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

معناه نعبدك ونستعين بك. والابتداء بذكر المعبود أتمُّ من الابتداء بذكر صفته ـ التي هي عبادته واستعانته، وهذه الصيغة أجزل في اللفظ، وأعذب في السمع. والعبادة الإتيان بغاية ما في (بابها) من الخضوع، ويكون ذلك بموافقة الأمر، والوقوف حيثما وقف الشرع.

والاستعانة طلب الإعانة من الحق.

والعبادة تشير إلى بذل الجهد والمُنَّة، والاستعانة تخبر عن استجلاب الطول والمِنَّة، فبالعبادة يظهر شرف العبد، وبالاستعانة يحصل اللطف للعبد. في العبادة وجود شرفه، وبالاستعانة أمان تلفه. والعبادة ظاهرها تذلل، وحقيقتها تعزز وتجمُّل:

---

(١) بياض في الأصل.

وإذا تــذلــلــت الــرقــاب تــقــربــاً مِــنّــا إليــك، فــعــزُّهــا فــي ذُلِّــهــا

وفي معناه:

حــيــن أســلَــمْــتَــنــي لــذالٍ ولام أَلــقــيــتــنــي فــي عــيــنٍ وزاي

فصل: العبادة نزهة القاصدين، ومستروح المريدين، ومربع الأنس للمحبين، ومرتع البهجة للعارفين. بها قُرَّةُ أعينهم، وفيها مسرة قلوبهم، ومنها راحة أرواحهم. وإليه أشار ﷺ بقوله: «أرِحنا بها يا بلال»[1] ولقد قال مخلوق في مخلوق:

يــا قــوم ثــاري عــنــد أســمــائــي يــعــرفــه الــســامــع والــرائــي

لا تــدعــنــي إلا بــيــا عــبــدهــا فــإنــه أصــدق أســمــائــي

والاستعانة إجلالك لنعوت كرمه، ونزلك بساحة جوده، وتسليمك إلى يد حكمه، فتقصده بأمل فسيح، وتخطو إليه بخطو وسيع، وتأمل فيه برجاء قوي، وتثق بكرم أزلي، وتتكل على اختيار سابق، وتعتصم بسبب جوده (غير ضعف).

قوله جل ذكره: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

الهداية الإرشاد، وأصلها الإمالة، والمهديُّ من عرف الحق سبحانه، وآثر رضاه، وآمن به. والأمر في هذه الآية مضمر؛ فمعناه اهدنا بنا ـ والمؤمنون على الهداية في الحال ـ فمعنى السؤال الاستدامة والاستزادة. والصراط المستقيم الطريق الحق وهو ما عليه أهل التوحيد. ومعنى اهدنا أي مِلْ بنا إليك، وخُذْنا لك، وكن علينا دليلنا، ويَسِّرْ إليك سبيلنا، وأقم لنا هممنا، واجمع بك همومنا.

فصل: اقطعْ أسرارنا عن شهود الأغيار، ولوِّح في قلوبنا طوالع الأنوار، وأفْرِدْ قصودنا إليك عن دَنَس الآثار، ورقِّنا عن منازل الطلب والاستدلال إلى جَمْع ساحات القُرب والوصال.

فصل: حُلْ بيننا وبين مساكنة الأمثال والأشكال، بما تلاطفنا به من وجود الوصال، وتكاشفنا به من شهود الجلال والجمال.

فصل: أرْشِدْنا إلى الحق لئلا نتكل على وسائط المعاملات، ويقع على وجه التوحيد غبار الظنون وحسبان الإعلال.

---

(١) أخرجه الطبراني في (المعجم الكبير ٦/ ٣٤٠)، وابن كثير في (التفسير ٥/٤٥٦)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ١/ ١٤٥)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ١٠/٤٤٣، ٤٤٤)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/ ١٦٥)، (وتحذير الخواص ٣٣)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ١٦)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٣/ ١٣٧).

اهدنا الصراط المستقيم أي أزِلْ عنّا ظلماتِ أحوالنا لنستضيء بأنوار قُدْسِك عن التفيؤ بظلال طلبنا، وارفع عنا ظل جهدنا لنستبصر بنجوم جودك، فنجدك بك.

فصل: اهدنا الصراط المستقيم حتى لا يصحبنا قرين من نزغات الشيطان ووساوسه، ورفيق من خطرات النفوس وهواجسها، أو يصدنا عن الوصول تعريج في أوطان التقليد، أو يحول بيننا وبين الاستبصار ركون لي معتاد من التلقين، وتستهوينا آفة من نشو أو هوادة، وظن أو عادة، وكلل أو ضعف إرادة، وطمع مالٍ أو استزادة.

فصل: الصراط المستقيم ما عليه من الكتاب والسنة دليل، وليس للبدعة عليه سلطان ولا إليه سبيل. الصراط المستقيم ما شهدت بصحته دلائل التوحيد، ونبهت عليه شواهد التحقيق، الصراط المستقيم ما دَرَجَ عليه سَلَفُ الأمة، ونطقت بصوابه دلائل العبرة. الصراط المستقيم ما باين الحظوظَ سالكُه، وفارق الحقوقَ قاصدُه. الصراط المستقيم ما يُفْضِي بسالكه إلى ساحة التوحيد، ويُشْهِدُ صاحبَه أثرَ العناية والجود، لئلا يظنَّه موجَبٌ (ببذل) المجهود.

قوله جل ذكره: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾.

يعني طريق من أنعمتَ عليهم بالهداية إلى الصراط المستقيم، وهم الأولياء والأصفياء. ويقال طريق من (أفنيتهم) عنهم، وأقمتهم بك لك، حتى لم يقفوا في الطريق، ولم تصدهم عنك خفايا المكر. ويقال صراط من أنعمت عليهم بالقيام بحقوقك دون التعريج على استجلاب حظوظهم.

ويقال صراط من (طهرتهم) عن آثارهم حتى وصلوا إليك بك.

ويقال صراط من أنعمت عليهم حتى تحرروا من مكائد الشيطان، ومغاليط النفوس ومخاييل الظنون، وحسبانات الوصول قبل خمود آثار البشر (ية).

ويقال صراط من أنعمت عليهم بالنظر والاستعانة بك، والتبري من الحول والقوة، وشهود ما سبق لهم من السعادة في سابق الاختيار، والعلم بتوحيدك فيما تُمضيه من المَسَار والمضار.

ويقال صراط الذين أنعمت عليهم بحفظ الأدب في أوقات الخدمة، واستشعار نعت الهيبة.

ويقال صراط الذين أنعمت عليهم بأن حفظت عليهم آداب الشريعة وأحكامها عند غلبات (بواده) الحقائق حتى لم يخرجوا عن حد العلم، ولم يُخِلُّوا بشيء من أحكام الشريعة. ويقال صراط الذين أنعمت عليهم حتى لم

تطفىء شموسُ معارفهم أنوارَ ورعهم ولم يُضيِّعُوا شيئاً من أحكام الشرع[١].

ويقال صراط الذين أنعمتَ عليهم بالعبودية عند ظهور سلطان الحقيقة.

قوله جل ذكره: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

المغضوب عليهم الذين صدمتهم هواجم الخذلان[٢]، وأدركتهم مصائب الحرمان، وركبتهم سطوة الرد، وغلبتهم بَوَاده الصد والطرد.

ويقال هم الذين لحقهم ذل الهوان، وأصابهم سوء الخسران، فشغلوا في الحال باجتلاب الحظوظ ـ وهو في التحقيق (شقاء)؛ إذ يحسبون أنهم على شيء، وللحق في شقائهم سر.

ويقال هم الذين أَنِسُوا بنفحات التقريب زماناً ثم أظهر الحق سبحانه في بابهم شانا؛ بُدِّلوا بالوصول بعاداً، وطمعوا في القرب فلم يجدوا مراداً، أولئك الذين ضلّ سعيُهم، وخاب ظنهم.

ويقال غير المغضوب عليهم بنسيان التوفيق، والتعامي عن رؤية التأييد. ولا الضالين عن شهود سابق الاختيار، وجريان التصاريف والأقدار.

ويقال غير المغضوب عليهم بتضييعهم آداب الخدمة، وتقصيرهم في أداء شروط الطاعة.

ويقال غير المغضوب عليهم هم الذين تقطعوا في مفاوز الغيبة، وتفرّقت بهم الهموم في أودية وجوه الحسبان.

فصل: ويقول العبد عند قراءة هذه السورة آمين، والتأمين سُنَّة، ومعناه يا رب افعلِ واستجب، وكأنه يستدعي بهذه القالة التوفيق للأعمال، والتحقيق للآمال، وتحط رِجْلُه بساحات الافتقار، ويناجي حضرة الكرم بلسان الابتهال، ويتوسل (بتبريه) عن الحول والطاقة والمُنَّة والاستطاعة إلى حضرة الجود. وإن أقوى وسيلة للفقير تعلقه بدوام الاستعانة لتحققه بصدق الاستغاثة.

---

(١) إنّ القشيري يؤكد على الالتزام بآداب الشريعة مهما غلبت على العبد سطوة الانمحاء واستلبه سلطان الفناء، وبهذا يجب أن نعرج على اصطلاح في مذهب القشيري وهو (الفرق الثاني) الثاني ويُعد هذا حالة عزيزة وهو أن يرد عندها العبد إلى الصحو عند أوقات الفرائض ليجري عليه القيام بالفرائض في أوقاتها فيكون رجوعاً لله بالله تعالى لا للعبد بالعبد. (الرسالة القشيرية ص٦٦).

(٢) يقول القشيري في رسالته: فمنهم من تفسيره البواده وتصرفه الهواجم، ومنهم من يكون فوق ما يفجؤه حالاً وقوةً أولئك سادات القوم. (الرسالة القشيرية ص٧٨).

السورة التي تذكر فيها البقرة

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

الاسم مشتق من السمو والسِّمَة، فسبيل من يذكر هذا الاسم أن يتسم بظاهره بأنواع المجاهدات، ويسمو بهمته إلى مَحَالِّ المشاهدات. فمن عَدِم سمة المعاملات على ظاهرة، وفَقَدَ سُمُوَّ الهِمَّةِ للمواصلات بسرائره لم يَجِدْ لطائف الذكر عند قالته، ولا كرائم القرب في صفاء حالته.

فصل: معنى الله: الذي له الإلهية، والإلهية استحقاق نعوت الجلال. فمعنى بسم الله: باسم من تفرَّد بالقوة والقدرة. الرحمن الرحيم من توَحَّد في ابتداء الفضل والنصرة. فسماع الإلهية يُوجِبُ الهيبة والاصطلام، وسماع الرحمة يوجِبُ القربة والإكرام. وكُلُّ مَنْ لاطفه الحق سبحانه عند سماع هذه الآية ردَّه بين صحو ومحو، وبقاء وفناء، فإذا كاشفَهَ بنعت الإلهية أشهده جلاله، فحاله محو. وإذا كاشفه بنعت الرحمة أشهده جماله فحاله صحو:

أغيب إذا شَهِدْتُك ثم أحيا ... فكم أحيا لديك وكم أبيدُ

قوله جل ذكره: ﴿الٓمٓ﴾.

هذه الحروف المقطعة في أوائل السورة من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله - عند قوم، ويقولون لكل كتاب سر، وسر الله في القرآن هذه الحروف المقطعة. وعند قوم إنها مفاتح أسمائه، فالألف من اسم «الله»، واللام يدل على اسمه «اللطيف»، والميم يدل على اسمه «المجيد» و«الملك».

وقيل أقسم الله بهذه الحروف لشرفها لأنها بسائط أسمائه وخطابه.

وقيل إنها أسماء السور.

وقيل الألف تدل على اسم «الله» واللام تدل على اسم «جبريل» والميم تدل على اسم «محمد» ﷺ، فهذا الكتاب نزل من الله على لسان جبريل إلى محمد ﷺ.

والألِف من بين سائر الحروف انفردت عن أشكالها بأنها لا تتصل بحرف في

الخط وسائر الحروف يتصل بها إلا حروف يسيرة، فينتبه العبد عند تأمل هذه الصفة إلى احتياج الخلق بجملتهم إليه، واستغنائه عن الجميع.

ويقال يتذكر العبد المخلص مِنْ حالة الألف تَقَدُّسَ الحق سبحانه وتعالى عن التخصص بالمكان؛ فإن سائر الحروف لها محل من الحَلْقْ أو الشفة أو اللسان إلى غيره من المدارج غير الألف فإنها هويته، لا تضاف إلى محل.

ويقال الإشارة منها إلى انفراد العبد لله سبحانه وتعالى فيكون كالألف لا يتصل بحرف، ولا يزول عن حالة الاستقامة والانتصاب بين يديه.

ويقال يطالب العبد في سره عند مخاطبته بالألف بانفراد القلب إلى الله تعالى، وعند مخاطبته باللام بلين جانبه في (مَرَاعاة) حقه، وعند سماع الميم بموافقة أمره فيما يكلفه.

ويقال اختص كل حرف بصيغة مخصوصة وانفردت الألف باستواء القامة، والتميز عن الاتصال بشيء من أضرابها من الحروف، فجعل لها صدر الكتاب إشارة إلى أن من تجرَّد عن الاتصال بالأمثال والأشغال حَظِي بالرتبة العليا، وفاز بالدرجة القصوى، وصلح للتخاطب بالحروف المنفردة التي هي غير مركبة، على سنة الأحباب في ستر الحال، وإخفاء الأمر على الأجنبي من القصة ـ قال شاعرهم:

قلت لها قفي قالت قاف
لا تحسبي أنَّا نسينا لا يخاف

ولم يقل وقفت ستراً على الرقيب ولم يقل لا أقف مراعاة لقلب الحبيب بل: «قالت قاف».

ويقال تكثر العبارات للعموم والرموز والإشارات للخصوص، أَسْمَعَ موسى كلامَه في ألف موطن، وقال لنبيّنا محمد ﷺ: أَلِفْ... وقال عليه السلام: «أوتيتُ جوامعَ الكلِم فاختُصِرَ لي الكلامُ اختصاراً»[1] وقال بعضهم: قال لي مولاي: ما هذا الدنَف؟ قلت: تهواني؟ قال: لام ألف.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

قيل ذلك الكتاب أي هذا الكتاب، وقيل إشارة إلى ما تقدم إنزاله من الخطاب،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (المساجد ٧، ٨)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٢٥٠، ٣١٤، ٤٤٢، ٥٠١)، وابن كثير في (التفسير ٤/ ٧٢)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/ ١١٣) والبيهقي في (دلائل النبوة ١/ ١٤)، وسعيد بن منصور في (السنن ٢٨٦٢)، وابن أبي شيبة في (المصنف ١١/ ٤٨٠)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٢٠٦٨)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ١٤ ـ ٣٠٨).

وقيل ذلك الكتاب الذي وعدْتُك إنزاله عليك يوم الميثاق.

لا ريب فيه، فهذا وقت إنزاله. وقيل ذلك الكتاب الذي كتبتُ فيه الرحمةَ على نفسي لأمتك - لا شك فيه، فتحقق بقولي.

وقيل الكتاب الذي هو سابق حكمي، وقديم قضائي لمن حكمت له بالسعادة، أو ختمت عليه بالشقاوة لا شك فيه.

وقيل (حكمي الذي أخبرت أن رحمتي سبقت على غضبي لا شك فيه).

وقيل إشارة إلى ما كتب في قلوب أوليائه من الإيمان والعرفان، والمحبة والإحسان، وإن كتاب الأحباب عزيز على الأحباب، لا سيما عند فقد اللقاء، وبكتاب الأحباب سلوتهم وأنسهم، وفيه شفاؤهم ورَوْحهم، وفي معناه أنشدوا:

وكتْبُكَ حولي لا تفارق مضجعي ... وفيها شفاء للذي أنا كاتم

وأنشدوا:

ورد الكتاب بما أَقَرَّ عيوننا ... وشفى القلوب فَنِلْن غايات المنى

وتقاسم الناسُ المسرةَ بينهم ... قِسَماً وكان أجلهم حَظّاً أنا[1]

قوله جلّ ذكره: ﴿هُدَى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

أي بياناً وحجة، وضياء ومحجة، لمن وقاه الحق سبحانه وتعالى من ظلمات الجهل، وبصَّره بأنوار العقل، واستخلصه بحقائق الوصل. وهذا الكتاب للأولياء شفاء، وعلى الأعداء عمًى وبلاء. المُتَّقي من اتقى رؤية تقاه، ولم يستند إلى تقواه، ولم يَرَ نجاته إلا بفضل مولاه.

قوله جلّ ذكره: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ﴾.

حقيقة الإيمان التصديق ثم التحقيق، وموجب الأمرين التوفيق. والتصديق بالعقل والتحقيق ببذل الجهد، في حفظ العهد، ومراعاة الحد. فالمؤمنون هم الذين صدَّقوا باعتقادهم ثم الذين صَدَقُوا في اجتهادهم.

وأمَّا الغيب فما يعلمه العبد مما خرج عن حد الاضطرار؛ فكل أمر ديني أدركه العبد بضرب استدلال، ونوع فكر واستشهاد فالإيمان به غَيْبِيٌّ. فالرب سبحانه وتعالى غيب. وما أخبر الحق عنه من الحشر والنشر، والثواب والمآب، والحساب والعذاب - غيب.

وقيل إنما يؤمن بالغيب من كان معه سراج الغيب، وأن من أيّدوا ببرهان العقول

(١) أبيات الشعر مضطربة فصححت قدر الإمكان.

آمنوا بدلالة العلم وإشارة اليقين، فأوْرَدَهم صدقُ الاستدلال ساحاتِ الاستبصار، وأوصلهم صائبُ الاستشهاد إلى مراتب السكون؛ فإيمانهم بالغيب بمزاحمة علومهم دواعي الريب. ومن كوشف بأنواع التعريف أسبل عليهم سجوف الأنوار، فأغناهم بلوائح البيان عن كل فكر وروية، وطلب بخواطر ذكية، وردٌ وردع لدواعِ ردية، فطلعت شموس أسرارهم فاستغنوا عن مصابيح استدلالهم، وفي معناه أنشدوا:

لَيْلِي من وجهك شمس الضحا وظلامه في الناس ساري[1]
والناس في سدف الظلا م ونحن في ضوء النهار[2]

وأنشدوا:

طَلعت شمس من أحبُّك ليلاً فاستضاءت وما لها من غروب
إن شمس النهار تغرب بالليل وشمس القلوب ليست تغيب[3]

ومن آمن بالغيب بشهود الغيب غاب في شهود الغيب فصار غيباً يغيب.

وأمّا إقامة الصلاة فالقيام بأركانها وسننها ثم الغيبة عن شهودها برؤية مَنْ يُصَلَّى له فيحفظ عليه أحكام الأمر بما يجري عليه منه، وهو عن ملاحظتها محو، فنفوسهم مستقبلة القِبْلة، وقلوبهم مستغرقة في حقائق الوصلة:

أراني إذا صَلَّيْت يَمَّمْت نحوها بوجهي وإنْ كان المُصَلَّى ورائيا
أصلي فلا أدري إذا ما قضيتها اثنتين صليت الضحا أم ثمانيا؟

وإن أصحاب العموم يجتهدون عند افتتاح الصلاة ليردوا قلوبهم إلى معرفة ما يؤدون من الفرض، ولكن عن أودية الغفلة ما يرجعون. أما أهل الخصوص فيردون قلوبهم إلى معرفة ما يؤدون ولكن عن حقائق الوصلة ما يرجعون؛ فشتّان بين غائبٍ يحضر أحكام الشرع ولكن عند أوطان الغفلة، وبين غائبٍ يرجع إلى أحكام الشرع ولكن عند حقائق الوصلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

الرزق ما تمكّن الإنسان من الانتفاع به، وعلى لسان التفسير أنهم ينفقون أموالهم إمّا نَفْلاً وإما فرضاً على موجب تفصيل العلم. وبيان الإشارة أنهم لا يدخرون عن الله

---

(١) رواية البيت في الرسالة القشيرية ص٧٦:
ليلي بوجهك مشرق وظلامه في الناس ساري
(٢) السدف: جمع السدفة: وهي الظلمة.
(٣) أبيات الشعر مضطربة صُححت بما يتلاءم مع الوزن والمعنى.

سبحانه وتعالى شيئاً من ميسورهم؛ فينفقون نفوسهم في آداب العبودية، وينفقون قلوبهم على دوام مشاهدة الربوبية. فإنفاق أصحاب الشريعة من حيث الأموال، وإنفاق أرباب الحقيقة من حيث الأحوال، فهؤلاء يكتفي منهم عِشْرين بنصفٍ ومن المائتين بِخَمس، وعلى هذا السَّنَن جميع الأموال يعتبر فيه النِّصاب. وأمَّا أهل الحقائق فلو جعلوا من جميع أحوالهم ـ لأنفسهم ولحظوظهم ـ لحظةً قامت عليهم القيامة.

فصل: الزاهدون أنفقوا في طريقة متابعة هواهم، فآثروا رضاء الله على مناهم، والعابدون أنفقوا في سبيل الله وسعهم وقواهم، فلازموا سراً وعلنا نفوسهم. والمريدون أنفقوا في سبيله ما يشغلهم عن ذكر مولاهم فلم يلتفتوا إلى شيء من دنياهم وعقباهم. والعارفون أنفقوا في سبيل الله ما هو سوى مولاهم فقرَّبهم الحق سبحانه وأجزاهم، ويحكم الإفراد به لقَّاهم.

فصل: الأغنياء أنفقوا من نعمهم على عاقبتهم. والفقراء أنفقوا من هممهم على مَنَابِتِهِمْ[١]. ويقال العبد بقلبه وببدنه وبماله فبإيمانهم بالغيب قاموا بقلوبهم، وبصلاتهم قاموا بنفوسهم، وبإنفاقهم قاموا بأموالهم، فاستحقوا خصائص القربة من معبودهم، وحين قاموا لِحَقِّه بالكلية استوجبوا كمال الخصوصية.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

إيمانهم بالغيب اقتضى إيمانهم بالقرآن، وبما أنزل الله من الكتب قبل القرآن، ولكنه أعاد ذكر الإيمان ها هنا على جهة التخصيص والتأكيد، وتصديق الواسطة ﷺ في بعض ما أخبر يوجب تصديقه في جميع ما أخبر، فإن دلالة صِدْقه تشهد على الإطلاق دون التخصيص، وإنما أيقنوا بالآخرة لأنهم شهدوا على الغيب فإن حارثة[٢] لما قال له رسول الله ﷺ: «كيف أصبحت؟ قال: أصبحت مؤمناً بالله حقاً، وكأني بأهل الجنة يتزاورون وكأني بأهل النار يتعاوون وكأني بعرش ربي بارزاً فقال رسول الله ﷺ: أصبْتَ فالْزَمْ»[٣].

---

(١) قال القشيري في حديثه عن التوبة: التوبة على ثلاثة أقسام أولها التوبة، وأوسطها الإنابة، وآخرها الأوبة، فجعل التوبة بداية، والأوبة نهاية، والإنابة أوسطها، فكل من تاب لخوف العقوبة فهو صاحب توبة، ومن تاب طمعاً في الثواب فهو صاحب إنابة ومن تاب مراعاة للأمر لا لرغبة في الثواب أو رهبة في العقاب فهو صاحب أوبة. (الرسالة القشيرية ص٩٤).

(٢) هو حارثة بن بدر بن حصين التميمي الفداني (. . . ـ ٦٤هـ = . . . ـ ٦٨٤م) تابعي من أهل البصرة. له أخبار في الفتوح وقصة مع عمر ومع علي ومع زياد، أُمِّر على قتال الخوارج في العراق فهزموه بنهر تيرا فلما أرهقوه دخل سفينة بمن معه فغرقت بهم. (الأعلام ٢/ ١٥٨، والإصابة ٣٧١).

(٣) أخرجه الهيثمي في (مجمع الزوائد ١/ ٥٧)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢/ ٢٣٨ ـ ٢٨٠)، والعقيلي في (الضعفاء ٤/ ٤٥٥).

وهذا عامر بن عبد القيس[1] يقول: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً». وحقيقة اليقين التخلص عن تردد التخمين، والتقصي عن مجوزات الظنون.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ يعني على بيان من ربهم ويقين وكشف وتحقيق، وذلك أنه تجلّى لقلوبهم أولاً بآياته ثم تجلّى لها بصفاته ثم تجلى لها بحقه وذاته.

وقوم ﴿على هدىً ربهم﴾ بدلائل العقول؛ وضعوها في موضعهما فوصلوا إلى حقائق العلوم، وقوم على بصيرة ملاطفات التقريب فبمشاهدة الرحمة والكرم وصلوا إلى بيان اليقين، وآخرون ظهرت الحقيقة لأسرارهم فشهدوا بالغيب حقيقة الصمدية، فوصلوا بحكم العرفان إلى عين الاستبصار.

﴿وأولئك هم المفلحون﴾ الفلاح الظفر بالبُغية، والفوز الطِلبة، ولقد نال القوم البقاء في مشهد اللقاء فظفروا بقهر الأعداء، وهي غاغة[2] النفوس من هواجسها، ثم زلات القلوب من خواطرها[3]، فوقفوا بالحق للحق بلا واسطة من عقل، أو رجوع إلى ذكر وفكر.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾

من كان في غطاء وصفه محجوباً عن شهود حقه فالإشارة لنعته أنه سيان عنده قول من دلَّه على الحق، وقول من أعانه على استجلاب الحظ، بل هو إلى دواعي الغفلة أميل، وفي الإصغاء إليها أرغب. كيف لا؟ وهو بِكَيِّ الفرقة موسوم، وفي سجن الغيبة محبوس، وعن محل القربة ممنوع، لا يحصل منهم إيمان، لأنه ليس لهم من الحق أمان؛ فلمّا لم يؤمنوا لم يؤمنِوا. حكم سبق من الله حتم، وقول له فصل، وإن القدرة لا تُعارَض، ومن زاحم الحق في القضية كبسته سطوات العزة، وقَصَمتهْ بواده[4] الحكم.

---

(١) هو عامر بن عبد الله، المعروف بابن عبد قيس العنبري (... ـ نحو ٥٥هـ = ... ـ نحو ٦٧٥م) تابعي من بني العنبر وهو أول من عرف بالنسك من عباد التابعين بالبصرة. هاجر إليها وتلقن القرآن من أبي موسى الأشعري، ثم قدم إلى البصرة وعلّم أهلها القرآن. توفي ببيت المقدس في خلافة معاوية. الأعلام ٣/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣، وحلية ٢/ ٨٧، والعقد الفريد ٣/ ٤١٤.

(٢) الغاغة: نبات يشبه الهربون. أو: الحبق. (اللسان ٨/ ٤٤٤).

(٣) قال القشيري في رسالته: الخواطر خطابات ترد على الضمائر فإذا كان من قبل النفس قيل له: الهواجس، وإذا كان من الله سبحانه وكان إلقاؤه في القلب فهو خاطر حق. (الرسالة القشيرية ص٨٣، ٨٤).

(٤) قال القشيري في حديثه عن البواده: البواده ما يفجأ قلبك من الغيب على سبيل الوهلة إما بموجب فرح أو بموجب ترح. (الرسالة القشيرية ص٧٨).

ويقال إن الكافر لا يرعوي عن ضلالتِهِ لِمَا سَبَق من شقاوته، وكذلك المربوط بأغلال نفسه محجوب عن شهود غيبه وحقه، فهو لا يبصر رشده، ولا يسلك قصده. ويقال إن الذي بقي في ظلمات رعونته سواء عنده نصح المرشدين وتسويلات المُبْطِلين، لأن الله سبحانه وتعالى نزع عن أحواله بركاتِ الإنصاف، فلا يدرك بسمع القبول، ولا يُصغي إلى داعي الرشاد، كما قيل:

وعلى النصوح نصيحتي ... وعليَّ عصيان النصوح

ويقال من ضلَّ عن شهود المِنَّةِ عليه في سابق القسمة تَوَهَّمَ أن الأمر من حركاته وسَكَنَاته فاتَّكَلَ على أعماله، وتعامى عن شهود أفضاله.

قوله جلّ ذكره: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

الختم على الشيء يمنع ما ليس فيه أن يدخله وما فيه أن يخرج منه، وكذلك حَكَمَ الحقُّ سبحانه بألا يُفارقَ قلوبَ أعدائه ما فيها من الجهالة والضلالة، ولا يدخلها شيء من البصيرة والهداية. على أسماع قلوبهم غطاء الخذلان، سُدَّت تلك المسامع عن إدراك خطاب الحق من حيث الإيمان، فوساوس الشيطان وهواجس النفوس شغلتها عن استماع خواطر الحق. وأمَّا الخواص فخواطر العلوم وجولان تحقيقات المسائل في قلوبهم شغلت قلوبهم عن ورود أسرار الحق عليهم بلا واسطة، وإنما ذلك لخاص الخاص، لذا قال رسول الله ﷺ: «لقد كان في الأمم مُحَدَّثون فإن يكن في أمتي فعمر»[1] فهذا المحدَّث مخصوص من الخواص كما أن صاحب العلوم مخصوص من بين العوام. وعلى بصائر الأجانب غشاوة فلا يشهدون لا ببصر العلوم ولا ببصيرة الحقائق، ولهم عذاب عظيم لحسبانهم أنهم على شيء، وغفلتهم عما مُنُوا من المحنة (و. . .)[2] في الحال والمال، في العاجل فُرقَته، وفي الآجل حُرقته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.

ثبتوا على نفاقهم، ودأبوا على أن يلبِّسوا على المسلمين، فهتَكَ الله أستارهم بقوله: **﴿وما هم بمؤمنين﴾** كذا قيل:

من تحلى بغير ما هو فيه ... فضح الامتحان ما يَدَّعِيه

(١) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/ ٢٥٩)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٦٠٢٦)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣/ ٢٣).

(٢) بياض في الأصل.

ولما تجردت أقوالهم عن المعاني كان وبال ما حصلوه منها أكثر من النفع الذي توهموه فيها، لأنه تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] ولولا نفاقهم لم يزدد عذابهم.

ويقال لما عَدِموا صدق الأحوال لم ينفعهم صدق الأقوال، فإن الله تعالى قال: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] فكانوا يقولون نشهد إنك لرسول الله، وكذلك من أظهر من نفسه ما لم يتحقق به افتضح عند أرباب التحقيق في الحال، وقيل:

أيها المدعي سليمى هواها لستَ منها ولا قلامة ظفر
إنما أنت في هواها كواوٍ أُلصِقت في الهجاء ظلماً بعمرو

قوله جلّ ذكره: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾

عاد وبال خداعهم والعقوبة عليه إلى أنفسهم فصاروا في التحقيق كأنهم خادعوا أنفسهم، فما استهانوا إلا بأقدارهم، وما اسْتَخَفُّوا إلا بأنفسهم، وما ذاق وبالَ فعلهم سواهم، وما قطعوا إلا وتينَهم. ومن كان عالماً بحقائق المعلومات فمن رام خداعه إنما يخدع نفسه.

والإشارة في هذه الآية أن من تناسى لطفه السابق وقال لي وبي ومني وأنا يقع في وهمه وظنه لك وبك ومنك وأنت، وهذا التوهم أصعب العقوبات[1] لأنه يرى سراباً فيظنه شراباً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفّاه حسابه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

في قلوب المنافقين مرض الشك، ويزيدهم الله مرضاً بتوهمهم أنهم نجوا بما لبَّسوا على المسلمين، ثم لهم عذاب أليم مؤلم، يَخْلُص وجعه إليهم في المآل. (وفي) الإشارة يحصل لمن خلط قصده بحظِّه، وشاب إرادته بهواه (أن) يتقدم في الإرادة بِقَدَم، ويتأخر بالحظوظ ومتابعة النَّفس بأخرى، فهو لا مريدٌ صادقٌ ولا عاقلٌ متثبت. ولوَ أن المنافقين أخلصوا في عقائدهم لأَمِنوا في الآخرة من العقوبة كما أَمِنوا في الدنيا من نحو بذل الجزية وغير ذلك مما هو صفة أهل الشرك والذمة، كذلك لو صدق المريد في إرادته لوصل بقلبه إلى حقائق الوصلة، ولأدركته بركات الصدق فيما رامه من الظفر بالبُغية، ولكن حاله كما قيل:

فما ثبتنا فيثبت لنا عدل بلا حنف ولو خلصنا تخلصنا من المحن

---

(١) قال القشيري في حديثه عن التوحيد: إسقاط الياءات فلا تقل: لي وبي ومني وإلي. (الرسالة القشيرية ص٣٠٢).

وإن من سقمت عبادته حيل بينه وبين درجات الجنات، ومن سقمت إرادته حيل بينه وبين مواصلات القُرْبِ والمناجاة. وأمَّا من ركن إلى الدنيا واتَّبع الهوىٰ فسكونُهم إلى دار الغرور سقم لقلوبهم، والزيادة في علتهم تكون بزيادة حرصهم؛ كلما وجدوا منها شيئاً ـ عَجَّلَ لهم العقوبة عليه ـ يتضاعف حرصهم على ما لم يجدوه.

ثم من العقوبات العاجلة لهم تشتتُ همومهم ثم تَبَغض عيشهم فيبغون بها عن مولاهم، ولم يكن لهم استمتاع ولا راحة فيما آثروه من متابعة هواهم، وهذا جزاء من أعرض عن صحبة مولاه، وفي معناه قيل:

تبدلت فتبدلنا واحسرتا لمن ابتغى عوضاً ليسلو فلم يجد

والإشارة في العذاب الأليم بما كانوا يكذبون إنما هي الحسرة يوم الكشف إذا رأوا أشكالهم الذين صدقوا كيف وصلوا، ورأَوْا أنفسهم كيف خسروا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾.

الإشارة منها: أنه إذا دعاهم واعظ في قلوبهم من خفي خواطرهم إلى ما فيه رشدهم تبعوا رخص التأويل، ولبَّسوا على أنفسهم ما يشهد بقساوة قلوبهم، وحين جحدوا برهان الحق من خواطر قلوبهم نزع الله البركة من أحوالهم، وأبدلهم تصامُماً عن الحق، وابتلاهم بالاعتراض على الطريقة وسلبهم الإيمان بها.

وكما أن المرتد أشد على المسلمين عداوة كذلك من رجع عن الإرادة إلى الدنيا والعادة فهو أشد الناس إنكاراً لهذه الطريقة، وأبعد من أهلها، وفي المَثَل: من احترق كُدسه[1] تمنى أن يقع بجميع الناس ما أصابه.

وإرفاق المرتدين عن طريق الإرادة ـ عند الصادقين منهم ـ غير مقبول كما أن رسول الله ﷺ لم يقبل زكاة ثعلبة.

ويقال كفى لصاحب الكذب فضيحة بأن يقال له في وجهه كذبتَ، فهم لمَّا قالوا إنما نحن مصلحون، أكذبهم الحق سبحانه فقال: **﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾**: إنَّا نَعْلَمُهم فَنَفْضَحُهم.

قوله عزّ ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

الإشارة منها أن المنافقين لما دُعُوا إلى الحق وصفوا المسلمين بالسَّفَه، وكذلك

(١) الكُدْس: العَرَمة من الطعام والتمر والدراهم ونحو ذلك، والجمع أكداس (لسان العرب ٦/ ١٩٢).

أصحاب الغنى إذا أُمِروا بِتَرْكِ الدنيا وصفوا أهل الرشد بالكسل والعجز، ويقولون إن الفقراء ليسوا على شيء، لأنه لا مال لهم ولا جاه ولا راحة ولا عيش، وفي الحقيقة هم الفقراء وهم أصحاب المحنة؛ وقعوا في الذل مخافة الذل، ومارسوا الهوان خشية الهوان، شيَّدوا القصور ولكن سكنوا القبور، زيَّنوا المهد ولكن أُدرجوا اللحد، ركضوا في ميدان الغفلة ولكن عثروا في أودية الحسرة، وعن قريب سيعلمون، ولكن حين لا ينفعهم علمهم، ولا يغني عنهم شيء.

سوف ترى إذا انجلى الغبارُ أَفَرَسٌ تحتَكَ أم حمارُ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

أراد المنافقون أن يجمعوا بين عِشْرة الكفار وصحبة المسلمين، فإذا برزوا للمسلمين قالوا نحن معكم، وإذا خَلَوْا بأضرابهم من الكفار أظهروا الإخلاص لهم، فأرادوا الجمع بين الأمْرَيْن فَنُفُوا عنهما. قال الله تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣] وكذلك من رام أن يجمع بين طريق الإرادة وما عليه أهل العادة لا يلتئم ذلك، فالضدان لا يجتمعان، و «المُكَاتَبُ عَبدٌ ما بَقِيَ عليه درهم»[١]، وإذا ادلهم الليل من ها هنا أدبر النهار من ها هنا، ومن كان له في كل ناحية خليط، وفي زاوية من قلبه ربيط كان نهباً للطوارق، ينتابه كل قوم، وينزل في قلبه كل (...)[٢]، فقلبه أبداً خراب، لا يهنأ بعيش، ولا له في التحقيق رزق من قلبه، قال قائلهم:

أراك بقية من قوم موسى فهم لا يصبرون على طعام

ولما قال المنافقون: ﴿**إنما نحن مستهزئون**﴾ قال الله تعالى: ﴿**الله يستهزىء بهم**﴾ أي يجازيهم على استهزائهم، كذلك لما ألقى القوم أزِمَّتهم في أيدي الشهوات استهوتهم في أودية التفرقة، فلم يستقر لهم قدم على مقام فتطوحوا في متاهات الغيبة، وكما يمد المنافقين في طغيانهم يعمهون يطيل مدة هؤلاء في مخايل الأمل فيكونون عند اقتراب آجالهم أطول ما كانوا أملا، وأسوأ ما كانوا عملاً، ذلك جزاء ما عملوا، ووبال ما صنعوا. وتحسين أعمالهم القبيحة في أعينهم من أشد العقوبات لهم، ورضاؤهم بما فيه من الفترة[٣] أَجَلُّ مصيبة لهم.

(١) أخرجه أبو داود (عتاق، ١)، والترمذي (بيوع ٣٥)، والموطأ (مكاتب ١، ٢).
(٢) بياض في الأصل.
(٣) انظر الرسالة القشيرية ص٣٨١.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾.

الإشارة منها أن من بقي عن الحقوق بالبقاء في أوطان الحظوظ خسرت صفقتهم، وما ربحت تجارتهم. والذي رضي بالدنيا عن العقبى لفي خسران ظاهر.

ومن آثر الدنيا أو العقبى على الحق تعالى لأشد خسرانا.

وإذا كان المصاب بفوات النعيم مغبونا فالذي مُنِيَ بالبعاد عن المناجاة وانحاز بقلبه عن مولاه، وبقي في أسْرِ الشهوات، لا إلى قلبه رسول، ولا لروحه وصول، ولا معه مناجاة، ولا عليه إقبال، ولا في سرّه شهود ـ فهذا هو المُصَابُ والمُمْتَحَن.

وإن من فاته وقت فقد فاته ربه، فالأوقات لا خَلَفَ عنها ولا بَدَلَ منها، ولقد قال بعضهم:

كنتَ السوادَ لمقلتي فبكى عليك الناظر
من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أحاذر

قوله جلّ ذكره: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾.

هذا مثل ضربه الله سبحانه للمنافقين بمن استوقد ناراً في ابتداء ليلته ثم أطفئت النيران فبقي صاحبها في الظلمة، كذلك المنافق ظهر عليه شيء من العوافي في الدنيا بظاهره ثم امْتُحِنُوا في الآخرة بأليم العقوبة، أو لاح شيء من إقرارهم ثم بقوا في ظلمة إنكارهم.

والإشارة من هذه الآية لمن له بداية جميلة؛ يسلك طريق الإرادة، ويتعنَّى مدة، ويقاسي بعد الشدّة شدة، ثم يرجع إلى الدنيا قبل الوصول إلى الحقيقة، ويعود إلى ما كان فيه من ظلمات البشرية. أورق عُودُه ثم لم يثمر، وأزهر غصنه ثم لم يدركه، وعجَّل كسوف الفترة على أقمار حضوره، وردّته يد القهر بعد ما أحضره لسان اللطف، فوطن عن القرب قلبه، وغلّ من الطالبين نفسه، فكان كما قيل:

حين قرّ الهوى وقلنا سُرِزنا وَحِسْبناً من الفراق أمِنًّا
بعث البَيْن رُسْل في خفاءٍ فأبادوا من شملنا ما جمعنا

وكذلك تحصل الإشارة في هذه الآية لمن له أدنى شيء من المعاني فيظهر الدعاوى فوق ما هو به، فإذا انقطع عنه (. . .)[1] ماله من أحواله بقي في ظلمة دعاواه.

---

(١) بياض في الأصل.

وكذلك الذي يركن إلى حطام الدنيا وزخرفها، فإذا استتبت الأحوال وساعد الأمل وارتفع المراد ـ برز عليه الموت من مكامن المكر فيترك الكُل ويحمل الكَلَّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

صم عن سماع دواعي الحق بآذان قلوبهم، بكم عن مناجاة الحق بألسنة أسرارهم، عمي عن شهود جريان المقادير بعيون بصائرهم، فهم لا يرجعون عن تماديهم في تهتكم، ولا يرتدعون عن انهماكهم في ضلالتهم.

ويقال صم عن السماع بالحق، بكم عن النطق بالحق، وعمي عن مطالعة الخلق بالحق. لم يسبق لهم الحكم بالإقلاع، ولم تساعدهم القسمة بالارتداع.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

معنى قوله أو لإباحته ضرب مثلهم إمّا بهذا وإما بذلك شبَّه القرآن بمطرٍ ينزل من السماء، وشبَّه ما في القرآن من الوعد والوعيد بما في المطر من الرعد والبرق، وشبه التجاءهم إلى الفرار عند سماع أصوات الرعد. كذلك الإشارة لأصحاب الغفلات إذا طرق أسماعَهم وعظُ الواعظين، أو لاحت لقلوبهم أنوار السعادة؛ ولو أقلعوا عمّا هم فيه من الغفلة لَسَعِدُوا، لكنهم ركنوا إلى التشاغل بآمالهم الكاذبة، وأصروا على طريقتهم الفاسدة، وتعللوا بأعذار واهية، ويحلِفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم، يهلكون أنفسهم، ويسعون في الخطرِ بأيْمانهم:

إن الكريم إذا حباك بوُدِّه ... سَتَرَ القبيحَ وأظهر الإحسانا
وكذا الملول إذا أراد قطيعةً ... ملّ الوِصال وقال كان وكانا

قوله جلّ ذكره: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

من تمام مثل المنافقين ـ كذلك أصحاب الغفلات ـ إذا حضروا مشاهد الوعظ، أو جنحت قلوبهم إلى الرقة، أو داخلهم شيء من الوهلة تَقْرُبُ أحوالهم من التوبة، وتقوى رغبتهم في الإنابة حتى إذا رجعوا إلى تدبرهم، وشاوروا إلى قرنائهم، أشار الأهل والولد عليهم بالعَوْدِ إلى دنياهم، وبسطوا فيهم لسان النصح، وهَدَّدُوهم بالضعف والعجز، فيضعف قصودُهم، وتسقط إرادتهم، وصاروا كما قيل:

إذا ارعوى، عاد إلى جهله ... كَذِي الضنى عاد إلى نكسه

وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ يعني سمع المنافقين الظاهر

وأبصارهم الظاهرة، كما أصمهم وأعماهم بالسر، فكذلك أرباب الغفلة، والقانعون من الإسلام بالظواهر ـ فالله تعالى قادر على سلبهم التوفيق فيما يستعملونه من ظاهر الطاعات، كما سلبهم التحقيق فيما يستبطنونه من صفاء الحالات.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

العبادة موافقة الأمر، وهي استفراغ الطاقة في مطالبات تحقيق الغيب، ويدخل فيه التوحيد بالقلب، والتجريد بالسر، والتفريد بالقصد، والخضوع بالنفس، والاستسلام للحكم.

ويقال اعبدوه بالتجرد عن المحظورات، والتجلد في أداء الطاعات، ومقابلة الواجبات بالخشوع والاستكانة، والتجافي عن التعريج في منازل الكسل والاستهانة.

قوله: ﴿**لعلكم تتقون**﴾: تقريب الأمر عليهم وتسهيله، ولقد وقفهم بهذه الكلمة ـ أعني لعلَّ ـ على حد الخوف والرجاء.

وحقيقة التقوى التحرز والوفاء (بالطاعة)[1] عن متوعدات العقاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

تعرَّف إليهم بذكر ما مَنَّ به عليهم من خَلْقِ السماء لهم سقفاً مرفوعاً، وإنشاء الأرض لهم فرشاً موضوعاً، وإخراج النبات لهم بالمطر رزقاً مجموعاً. ويقال أعتقهم عن مِنَّة الأمثال بما أزاح لهم من العلة فيما لا بُدَّ منه، فكافيهم السماء لهم غطاءً، والأرض وطاءً، والمباحات رزقاً، والطاعة حرفةً، والعبادة شغلاً، والذكر مؤنساً، والرب وكيلاً ـ فلا تجعلوا لله أنداداً، ولا تُعلِّقوا قلوبكم بالأغيار في طلب ما تحتاجون إليه؛ فإن الحق سبحانه وتعالى مُتَوَحدٌ بالإبداع، لا مُحْدِثَ سواه، فإذا توهمتم أن شيئاً من الحادثات من نفع أو ضرر، أو خيرٍ أو شر يحدث من مخلوق كان ذلك ـ في التحقيق شِرْكاً.

وقوله عز وجل: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن من له حاجة في نفسه لا يَصْلُحُ أن تَرفَع حاجتك إليه. وتعلُّقُ المحتاج بالمحتاج، واعتماد الضعيف على الضعيف يزيد في الفقر، ولا يزيل هو أجم الضُر.

---

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق وضعت استناداً إلى قول القشيري في حديثه عن التقوى بالرسالة ص١٠٥: وحقيقة الإتقاء التحرز بطاعة الله من عقوبته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

لبَّس على بصائر الأجانب حتى لم يشهدوا حبيبه صلوات الله عليه، فتاهوا في أدوية الظنون لما فقدوا نور العناية، فلم يزدد الرسول عليهم إتياناً بالآيات، وإظهاراً من المعجزات إلا ازدادوا ريباً على ريب وشَكًّا على شك، وهكذا سبيل من أعرض عن الحق سبحانه، لا يزيده ضياء الحجج إلا عمًى عن الحقيقة؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وليبلغ عليهم في إلزام الحجة عرّفهم عجزهم عن معارضة ما آتاهم من معجزة القرآن الذي قهر الأنام من أولهم إلى آخرهم، وقدَّر عليهم أنهم لو تظاهروا فيما بينهم، واعتضدوا بأشكالهم، واستفرغوا كُنه طاقتهم واحتيالهم لم يقدروا على الإتيان بسورة مثل سورة القرآن. ثم قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ وأخبر أنهم قطعاً لا يقدرون على ذلك ولا يفعلون فقال: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ فكان كما قال ـ فانظروا لأنفسكم، واحذروا الشِّرْكَ الذي يوجب لكم عقوبة النار التي من سطوتها بحيث وقودها الناس والحجارة، فإذا كانت تلك النار التي لا تثبت لها الحجارة مع صلابتها (   )[1] فكيف يطيقها الناس مع ضعفهم، وحين أشرفت قلوب المؤمنين على غاية الإشفاق من سماع ذكر النار تداركها بحكم التثبيت فقال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ ففي ذلك بشارة للمؤمنين. وهذه سُنَّةٌ من الحق سبحانه: إذا خوَّف أعداءه بَشَّر مع ذلك أولياءه.

وكما أنَّ كيد الكافرين يضمحل في مقابلة معجزات الرسل عليهم السلام فكذلك دعاوى المُلْبِسين تتلاشى عند ظهور أنوار الصديقين، وأمارةُ المُبْطِل في دعواه رجوعُ الزجر منه إلى القلوب، وعلامة الصادق في معناه وقوع القهر منه على القلوب. وعزيزٌ من فصّل وميَّز بين رجوع الزجر وبين وقوع القهر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

هذه البشارة بالجنان تتضمن تعريفاً بنِعِم مؤجلة لعموم المؤمنين على الوصف الذي يُشْرَح بلسان التفسير. ويشير إلى البشارةَ للخواص بنعم مُعَجَّلة مضافة إلى تلك النعم يتيحـ (ـها) الله لهم على التخصيص، فتلك المؤجلة جنان المثوبة وهذه جنان القُربَة، وتلك رياض النزهة وهذه رياض الزُّلفة[2]، بل تلك حدائق الأفضال وهذه

(١) بياض في الأصل.
(٢) الزلفة: وهو ماء شرقي سميراء.

حقائق الوِصال، وتلك رفع الدرجات وهذه رَوْح المناجاة، وتلك قضية جوده، هذه الاشتعال بوجوده، وتلك راحة الأبشار وهذه نزهة الأسرار، وتلك لطف العَطاء للظواهر وهذه كشف الغِطاء عن السرائر، وتلك لطف نواله وأفضاله وهذه كشف جماله وجلاله.

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

كما أن أهل الجنة تتجدد عليهم النعم في كل وقت، فالثاني عندهم ـ على ما يظنون ـ كالأول، فإذا ذاقوه وجدوه فوق ما تقدّم ـ فكذلك أهل الحقائق: أحوالهم في السرائر أبداً في الترقي، فإذا رُقيَّ أحدهم عن محلِّه توهَّم أن الذي سيلقاه في هذا النَّفَس مثل ما تقدم فإذا ذاقه وجده فوق ذلك بأضعاف، كما قال قائلهم:

ما زلت أنزل من ودادك منزلاً تتحيَّرُ الألباب دون نزوله

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾.

الاستحياء من الله تعالى بمعنى التَرْك، فإذا وصف نفسه بأنه يستحي من شيء فمعناه أنه لا يفعل ذلك وإذا قيل لا يستحي فمعناه لا يبالي بفعل ذلك.

والخَلْقُ في التحقيق ـ بالإضافة إلى وجود الحق ـ أقلُّ من ذرةٍ من الهباء في الهواء، لأن هذا استهلاك محدود في محدود، فِسيَّان ـ في قدرته ـ العرش والبعوضة، فلا خَلْقُ العرش أشق وأعسر، ولا خَلْق البعوضة أخف عليه وأيسر، فإنه سبحانه مُتَقَدِّسٌ عن لحوق العُسْر واليُسْر.

فإذا كان الأمر بذلك الوصف، فلا يستحي أن يضرب بالبعوضة مثلاً كما لا يستحي أن يضرب بالعرش ـ فما دونه ـ مثلاً.

وقيل إن جهة ضرب المثل بالبعوضة أنها إذا جاعت فَرَّتْ وطارت، وإذا شبعت تشققت فَتَلِفَتْ ـ كذلك ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦].

وقيل ما فوقها يعني الذباب، وجهة الإشارة فيه إلى وقاحته، حتى أنه ليعود عند البلاغ في الذب، ولو كان ذلك في الأسد لم ينجُ منه أحد من الخَلْق، ولكنه لمَّا خَلَق القوة في الأسد خلق فيه تنافراً من الناس، ولما خلق الوقاحة في الذباب خلق فيه الضعف، تنبيهاً منه سبحانه على كمال حكمته، ونفاذ قدرته.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾.

فأمّا من فتحت أبصار سرائره فلا ينظر إلى الأغيار والآثار إلا بنظر الاعتبار، ولا يزداد إلا نفاذ الاستبصار، وأمّا الذين سكرت أبصارهم بحكم الغفلة فلا يزيدهم ضربُ الأمثال إلا زيادة الجهل والإشكال والأنكال[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

هذا الكتاب لقوم شفاءٌ ورحمة، ولآخرين شقاء وفتنة. فمن تعرَّف إليه يوم الميثاق بأنوار العناية حين سمعوا قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] تذكَّروا عند ورود الواسطة ـ صلوات الله عليه وعلى آله ـ قديم عهده، وسابقَ وُدِّه فازدادوا بصيرة على بصِّيرة، ومَنْ رَسَمَهُ بِذُلِّ القطيعة، وأنطقه ذلك اليوم عن الحسبان والرهبة ما ازدادوا عند حصول الدعوة النبوية إلا جُحداً على جُحد، وما خفي عليهم اليوم صادق الدلالة، إلا لِمَا تقدم لهم سابقُ الضلالة. لذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

الإشارة فيه إلى حال من سلك طريق الإرادة، ثم رجع إلى ما هو عليه أهل العادة، قال بتَرْكِ نفسه ثم لم يَصْدُق حين عزم الأمر، ونزل من إشارة الحقيقة إلى رخص الشريعة[2]، وكما أنَّ من سلك الطريق بنفسه ـ ما دام يبقى درهم في كيسه ـ فغيرُ محمودٍ رجوعُه فكذلك من قصد بقلبه ـ ما دام يبقى نَفَسٌ من روحه ـ فغير مَرْضيٍّ رجوعهُ:

إن الأُلى ماتوا على دين الهدى   وجدوا المنية منهلًا معلولا

ويقطعون ما أمر الله به أن يُوصَل: وصل أسباب الحق بقطع أسباب الخَلْق، ولا يتم وصل مَالَهُ إلا بقطع ما لَكَ، فإذا كان الأمر بالعكس كان الحال بالضد.

ومما أُمِرَ العبد بوصله: حفظه دِمام أهل هذه الطريقة، والإنفاق على تحصيل

(١) الأنكال: القيود الشديدة (مفرده) النكل.

(٢) قال القشيري في رسالته: إذا أحكم المريد بينه وبين الله تعالى عقده، فيجب أن يحصل من علم الشريعة إما بالتحقيق وإما بالسؤال عن الأئمة ما يؤدي به فرضه، وإن اختلفت عليه فتاوى الفقهاء يأخذ بالأحوط، ويقصد دائماً الخروج من الخلاف، فإن الرخص في الشريعة للمستضعفين وأصحاب الحوائج والأشغال، وهؤلاء ليس لهم شغل سوى القيام بحقه سبحانه. ولهذا قيل: إذا انحط الفقير عن درجة الحقيقة إلى رخصة الشريعة فقد فسخ عقده مع الله تعالى، ونقض عهده فيما بينه وبين الله تعالى. (الرسالة القشيرية ص٣٨٠).

ذلك بصدق الهمم لا يبذل النّعَم، فهممهم على اتصال أسباب هذه الطريقة وانتظام أحوالها موقوفة، وقلوبهم إلى توقع الحراسة من الله تعالى لأهلها مصروفة. وفساد هذه الطريقة في الأرض: أما مَنْ لهم حواشي أحوالهم، وإطراق أمورهم فيتشاغلون عن إرشادِ مريدٍ بكلامهم، وإشحاذِ قاصدٍ بهممهم؛ وذلك مما لا يرضى به الحق سبحانه منهم.

ومِنْ نَقْضِ العهد أيضاً أن يحيد سِرُّك لحظةً عن شهوده، ومِنْ قَطْع ما أُمِرْتَ بِوَصْلِه أن يتخلل أوقاتك نَفَسٌ لحظِّك دون القيام بحقه، ومِنْ فسادِكَ في الأرض ساعة تجري عليك ولم تَرَهُ فيها. أَلَا إن ذلك هو الخسران المبين، والمحنة العظمة، والرزية الكبرى.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

هذه كلمة تعجيب وتعظيم لما فيه العبد، أي لا ينبغي مع ظهور الآيات أن يجنح إلى الكفر قلبُه.

ويقال تعرّف إلى الخَلق بلوائح دلالاته، ولوامع آياته. فقال: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ يعني نطفة، أجزاؤها متساوية، ﴿فَأَحْيَٰكُمْ﴾: بَشَراً اختصّ بعض أجزاء النطفة بكونه عظماً، وبعضها بكونه لحماً، وبعضها بكونه شَعْراً، وبعضها بكونه جِلداً.. إلى غير ذلك.

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ بأن يجعلكم عظاماً ورفاتاً، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بأن يحشركم بعدما صرتم أمواتاً، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي إلى ما سبق به حكم من السعادة والشقاوة.

ويقال: ﴿كُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ بجهلكم عنّا، ثم ﴿فَأَحْيَٰكُمْ﴾ بمعرفتكم بنا، «ثم يميتكم» عن ـ شواهدكم، «ثم يحييكم» به بأن يأخذكم عنكم، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي بحفظ أحكام الشرع بإجراء الحق[1].

ويقال ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ لبقاء نفوسكم فأحياكم بفناء نفوسكم ثم يميتكم عنكم عن شهود ذلك لئلا تلاحظوه فيفسد عليكم، ثم يحييكم بأن يأخذكم عنكم ثم إليه ترجعون بتقلبكم في قبضته سبحانه وتعالى.

ويقال يحبس عليهم الأحوال؛ فلا حياة بالدوام ولا فناء بالكلية، كلّما قالوا هذه حياة ـ وبيناهم كذلك ـ إذ أدال عليهم فأفناهم، فإذا صاروا إلى الفناء أثبتهم وأبقاهم،

(١) انظر هامش (١) من الصفحة ١٥.

فهم أبداً بين نفي وإثبات، وبين بقاء وفناء، وبين صحو ومحو. كذلك جرت سنته سبحانه معهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

سخر لهم جميع المخلوقات على معنى حصول انتفاعهم بكل شيء منها، فعلى الأرض يستقرون وتحت السماء يسكنون، وبالنجم يهتدون، وبكل مخلوق بوجه آخر ينتفعون، لا بل ما من عين وأثر فكروا فيه إلا وكمال قدرته وظهور ربوبيته به يعرفون.

ويقال مَهَّدَ لهم سبيل العرفان، ونبَّهَهُم إلى ما خصَّهم به من الإحسان، ثم علمهم علوَّ الهمة حيث استخلص لنفسه أعمالهم وأحوالهم فقال: ﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ [فصلت: ٣٧].

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

فالأكوان بقدرته استوت، لا أن الحق سبحانه بذاته ـ على مخلوق ـ استوى، وأنَّى بذلك! والأحدية والصمدية حقه وما توهموه من جواز التخصيص بمكان فمحال ما توهموه، إذ المكان به استوى، لا الحق سبحانه على مكانٍ بذاته استوى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

هذا ابتداء إظهار سِرِّه في آدم وذريته. أَمَرَ حتى سلَّ من كل بقعة طينة ثم أمر بأن يخمر طينه أربعين صباحاً، وكل واحد من الملائكة يفضي العَجَبَ: ما حكم هذه الطينة؟ فلمَّا ركب صورته لم يكونوا رأوا مثلها في بديع الصنعة وعجيب الحكمة، فحين قال: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تَرَجَّمَتْ الظنون، وتقسَّمت القلوب، وتجنَّت الأقاويل، وكان كما قيل:

وكم أبصرتُ من حسن ولكن — عليك من الورى وقع اختياري

ويقال إن الله سبحانه وتعالى خلق ما خلق من الأشياء ولم يَقُلْ في شأن شيء منه ما قال في حديث آدم حيث قال: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فظاهر هذا الخطاب يشبه المشاورة لو كان من المخلوقين. والحق سبحانه وتعالى خلق الجنان بما فيها، والعرش بما هو عليه من انتظام الأجزاء وكمال الصورة، ولم يقل إني خالق عرشاً أو جنة أو مَلَكاً، وإنما قال تشريفاً وتخصيصاً لآدم إني جاعل في الأرض خليفة.

فصل: ولم يكن قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ على وجه الاعتراض على التقدير ولكن على جهة الاستفهام، فإن حَمْلَ الخطاب على ما يُوجِب

تنزيه الملائكة أَوْلى لأنهم معصومون. . قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: ٦].

ويقال استخرج الحق سبحانه منهم ما استكنَّ في قلوبهم من استعظام طاعاتهم والملاحظة إلى أفعالهم بهذا الخطاب؛ فأفصحوا عن خفايا أسرارهم بقولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾. ثم إن الحق سبحانه عرَّفهم أن الفضيلة بالعلم أتمُّ من الفضيلة بالفعل، فهم كانوا أكثر فعلاً وأقدمه، وآدم كان أكثر علماً وأوفره، فظهرت فضيلته ومرتبته.

ويقال لم يقل الحق سبحانه أنتم لا تفسدون فيها ولا تسفكون الدماء بل قال: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، مِنْ غفراني لهم.

ويقال: في تسبيحهم إظهارُ فعلهم واشتهار خصائصهم وفضلهم، ومن غفرانه لمعاصي بني آدم إظهار كرمه سبحانه ورحمته، والحق سبحانه غني عن طاعات كل مطيع، فلئن ظهر بتسبيحهم استحقاق تمدحهم ثبت بالغفران استحقاق تمدح الخالق سبحانه.

ويقال إني أعلم ما لا تعلمون من صفاء عقائد المؤمنين منهم في محبتنا، وذكاء سرائرهم في حفظ عهودنا وإن تدنَّس بالعصيان ظاهرهم، كما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحدٍ   جاءت محاسنُه بألفِ شفيع

ويقال إني أعلم ما لا تعلمون من محبتي لهم، وأنتم تظهرون أحوالكم، وأنا أخفي عليهم أسراري فيهم، وفي معناه أنشدوا:

ما حطَّك الواشون عن رتبة   عندي ولا ضرك مغتاب
كأنهم أثنَوْا - ولم يعلموا -   عليك عندي بالذي عابوا[١]

ويقال إني أعلم ما لا تعلمون من انكسار قلوبهم وإن ارتكبوا قبيح أفعالهم، وصولةَ قلوبكم عند إظهار تسبيحكم وتقديسكم، فأنتم في رتبة وفاقكم وفي عصمة أفعالكم، وفي تجميل تسبيحكم، وهم مُنْكَرون عن شواهدهم، متذللون بقلوبهم، وإن لانكسار قلوب العباد عندنا لذماماً قوياً.

ويقال أي خطر لتسبيحكم لولا فضلي، وأي ضرر من ذنوبهم إذا كان عفوي؟ ويقال لبَّسْتُكم طاعتكم ولبستهم رحمتي، فأنتم في صدار[٢] طاعتكم وفي حُلّةِ

(١) أبيات الشعر مضطربة صُححت قدر الإمكان.
(٢) الصُدار: ثوب بلا كُمَّين يغطى به الصدر أو هو قميص صغير يغطي الصدر.

تقديسكم وتسبيحكم، وهم في تغمد عفوي وفي ستر رحمتي ألبستهم ثوب كَرَمي، وجللتهم رداء عفوي.

ويقال إن أسعدتكم عصمتي فلقد أدركتهم رحمتي.

وإيصال عصمتي بكم عنده وجودكم وتعلُّق رحمتي بهم في أزلي.

ويقال: لئن كان مُحسِنكم عتيق العصمة فإن مجرمَهُم غريق الرحمة.

ويقال: اتكالهم عليَّ زكّى أحوالهم فألجأهم إلى الاعتراف بالجهالة حتى يتبرأوا عن المعارف إلا بمقدار ما منّ به الحق عليهم فقالوا: ﴿سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾.

عموم قوله الأسماء يقتضي الاستغراق، واقتران قوله سبحانه بكُلها يوجب الشمول والتحقيق، وكما علّمه أسماء المخلوقات كلها ـ على ما نطق به تفسير ابن عباس[1] وغيره ـ علّمه أسماء الحق سبحانه، ولكن إنما أظهر لهم محل تخصصه في علمه أسماء المخلوقات وبذلك المقدار بأن رجحانه عليهم، فأما انفراده بمعرفة أسمائه ـ سبحانه ـ فذلك سِرٌّ لم يَطَّلِع عليه مَلَكٌ مُقَرَّب. ومن ليس له رتبة مساواة آدم في معرفة أسماء المخلوقات فأي طمعٍ في مداناته في أسماء الحق، ووقوفه على أسرار الغيب؟

وإذا كان التخصيص بمعرفة أسماء المخلوقات يتقضى أن يصحَّ (به سجود) الملائكة فما الظن بالتخصيص بمعرفة أسماء الحق سبحانه؟ ما الذي يُوجَبُ لِمَنْ أُكرِمَ به؟

ويقال خصوصية الملائكة بالتسبيح والتقديس وهذه طاعات تليق بالمخلوقين؛ فإنَّ الطاعةَ سِمَةُ العبيد ولا تتعداهم، والعلم في الجملة صفة مدح يجب في نعت الحق سبحانه واجباً لا يصحُّ لغيره، فالذي يُكْرِمهُ بما يتصف هو سبحانه (بيانه وإن كان للمساواة أتم من الكرام بما يكون مخلوقاً على جنس المخلوقات).

ويقال أكرمه في السر بما علّمه ثم بيَّن تخصيصه يوم الجهر وقدَّمه. ويقال قوله: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ ثم: حرف تراخٍ ومهلة.. إمّا على آدم؛ فإنه أمهله من الوقت ما تقرر ذلك في قلبه، وتحقق المعلومَ له بحقه ثم حينئذٍ استخبره عما تحقَّق به واستيقنه. وإمّا

---

(١) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي، أبو العباس (٣ق هـ ـ ٦٨هـ = ٦١٩ ـ ٦٨٧م) حبر الأمة الصحابي الجليل، ولد بمكة ونشأ في بدء عصر النبوة. لازم رسول الله ﷺ وروى عنه الأحاديث الصحيحة، وشهد مع علي الجمل وصفين وكف بصره آخر عمر فسكن الطائف، وتوفي بها. له في الصحيحين وغيرهما ١٦٦٠ حديثاً ويُنسب إليه كتاب في «تفسير القرآن».
الأعلام ٤/ ٥٩، والإصابة ت٤٧٧٢، وصفة الصفوة ١/ ٣١٤، والرسالة القشيرية ص٤٢.

على الملائكة؛ فقال لهم على وجه الوهلة: «أنبئوني» فلمَّا لم يتقدم لهم تعريف تحيَّروا، ولمَّا تقدم لآدم التعليم أجاب وأخبر، ونطق وأفلح، إظهاراً لعنايته السابقة ـ سبحانه ـ بشأنه.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيه إشارة إلى أنهم تَعَرَّضوا لدعوى الخصوصية، والفضيلة والمزية على آدم، فعرَّفهم أن الفضل ليس بتقديم تسبيحهم لكنه في قديم تخصيصه. ولمَّا عَلِمَ الحقُّ سبحانه تَقَاصُرَ علومهم عن معرفة أسماء المخلوقات ثم كلَّفهم الإنباء عنها صار فيه أوضح دلالة على أنَّ الأمر أمرهُ، والحكمَ حُكمُه، فَلَهُ تكليف المستطيع، ردّاً على من تَوَهَّمَ أن أحكام الحق سبحانه مُعَلَّلَة باستحسان أرباب الغفلة بما يدعونه من قضايا العقول، لا بل له أن يلزم ما يشاء لمن يشاء، الحَسَنُ ما حكم بتحسينه والقبيح ما حكم بتقبيحه.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

قدَّموا الثناء على ذكر ما اعتذروا به، ونزَّهوا حقيقة حُكْمِه عن أن يكون يَعرِض وهم المعترضون، يعني لا علم لنا بما سألتنا عنه، ولا يتوجَّه عليكَ لوم في تكليف العاجز بما علمتَ أنه غير مستطيع له، إنك أنت العليم الحكيم أي ما تفعله فهو حقٌّ صِدْقٌ ليس لأحد عليكَ حكمٌ، ولا منك سَفَهٌ وقبح.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

من آثار العناية بآدم عليه السلام أنَّه لمَّا قال للملائكة: «أنبئوني» دَاخَلَهُم من هيبة الخطاب ما أخذهم عنهم، لا سيما حين طالَبَهم بإنبائهم إياه ما لم تُحِطْ به علومهم. ولما كان حديث آدم عليه السلام ردَّه في الإنباء إليهم فقال: ﴿أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ ومخاطبة آدم عليه السلام الملائكة لم يوجب له الاستغراق في الهيبة. فلما أخبرهم آدم عليه السلام بأسماء ما تقاصرت عنها علومهم ظهرت فضيلته عليهم فقال: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني ما تقاصرت عنه علوم الخَلْق، وأعلم ما تبدون من الطاعات، وتكتمون من اعتقاد الخيرية على آدم عليه السلام والصلاة.

فصل: ولمَّا أراد الحق سبحانه أن يُنَجِيَ آدمَ عصمهِ، وعلَّمه، وأظهر عليه آثار الرعاية حتى أخبر بما أُخْبِر به، وحين أراد إمضاء حكمه فيه أدخل عليه النسيان حتى نَسِيَ في الحضرة عهده، وجاوز حدَّه، فقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] فالوقت الذي ساعدته العناية تقدم على الجملة بالعلم والإِحسان، والوقت الذي أمضى عليه الحكم ردَّه إلى حال النسيان والعصيان،

كذا أحكام الحق سبحانه فيما تجري وتمضي، ذلَّ بحكمه العبيد، وهو فعَّال لما يريد.

فصل: ولمَّا توهموا حصول تفضيلهم بتسبيحهم وتقديسهم عرَّفهم أن بِساط العز مقدس عن التجمل بطاعة مطيع أو التدنس بزلة جاحد عنيد، فَرَدُّهم إلى السجود لآدم أظهرَ الغَنَاء عن كل وفاق وخلاف.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

السجود لا يكون عبادة لِعَيْنِهِ ولكن لموافقة أمره سبحانه، فكأن سجودَهم لآدم عبادةٌ لله؛ لأنه كان بأمره، وتعظيماً لآدم لأنه أمرهم به تشريفاً لشأنه، فكأن ذلك النوعَ خضوعٌ له ولكن لا يسمى عبادة، لأن حقيقة العبادة نهاية الخضوع وذلك لا يصحُّ لغيره سبحانه.

ويقال بيَّن أن تقدُّسَه ـ سبحانه ـ بجلاله لا بأفعالهم، وأن التَجمُّلَ بتقديسهم وتسبيحهم عائدٌ إليهم، فهو الذي يجل من أَجَلَّه بإجلاله لا بأفعالهم، ويعز من أعزَّ قدره سبحانه بإعزازه، جَلَّ عن إجلال الخلق قدْرُه، وعزّ عن إعزاز الخَلْق ذِكْرُه.

قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ أبى بقلبه، واستكبر عن السجود بنفسه، وكان من الكافرين في سابق حكمه وعلمه. ولقد كان إبليس مدةً في دلال طاعته يختال في صدار موافقته، سلَّموا له رتبة التقدم، واعتقدوا فيه استحقاق التخصيص، فصار أمره كما قيل:

وكان سراج الوصل أزهر بيننا فهبَّت به ريحٌ من البيْن فانطفا

كان يحسب لنفسه استيجاب الخيرية، ويحسب استحقاق الزلفة والخصوصية:

فبات بخير والدني مطمئنة وأصبح يوماً والزمان تقلبا

فلا سالِفَ طاعةٍ نَفَعَه، ولا آنِفَ رجعةٍ رفعه، ولا شفاعةَ شفيعٍ أدركتهُ، ولا سابقَ عنايةٍ أَمسكتهْ. ومن غَلَبَه القضاء لا ينفعه العناء.

ولقد حصلت من آدم هفوة بشرية، فتداركتهْ رحمة أحدية، وأما إبليس فأدركته شقوة أزلية، وغلبته قسمة وقضية. خاب رجاؤه، وضلَّ عناؤه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أَسْكَنَه الجنةَ ولكن أثبت مع دخوله شجرة المحنة، ولولا سابق التقدير لكان

يبدل تلك الشجرة بالنضارة ذبولاً، وبالخضرة يبساً، وبالوجود فقدا، وكانت لا تصل يد آدم إلى الأوراق ليخصفها على نفسه ـ ويقع منه ما يقع.

ولو تطاولت تلك الشجرة حتى كانت لا تصل إليها يده حين مدَّها لم يقع في شأنه كل ذلك التشويش ولكن بدا من التقدير ما سبق به الحكم.

ولا مكانَ أفضل من الجنة، ولا بَشَرَ أكيس من آدم، ولا ناصح يقابل قولة إشارة الحق عليه، ولا غريبة (منه) قبل ارتكابه ما ارتكب، ولا عزيمة أشد من عزيمته ـ ولكنَّ القدرةَ لا تُكابَرَ، والحُكْمَ لا يُعارَض.

ويقال لما قال له: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ كان فيه إشارة إلى أن الذي يليق بالخَلْق السكون إلى الخَلْق، والقيام باستجلاب الحظ، وآدم عليه السلام وَحْدَه كان بكل خير وكل عافية، فلمَّا جاء الشكلُ والزوجُ ظهرت أنياب الفتنة، وانفتح باب المحنة؛ فحين سَاكَنَ حواء أطاعها فيما أشارت عليه بالأكل، فوقع فيما وقع، ولقد قيل:

داءٌ قـديـمٌ فـي بـنـي آدم صـبـوةُ إنـسـان بـإنـسـان

فصل: وكلُّ ما منِع منه ابن آدم توفرت دواعيه إلى الاقتراب منه.

فهذا آدم عليه السلام أبيحت له الجنة بجملتها ونُهِيَ عن شجرة واحدة، فليس في المنقول أنه مدَّ يده إلى شيء من جملة ما أبيح، وكان عِيلَ صبره حتى واقع ما نُهِيَ عنه ـ هكذا صفة الخَلْق.

فصل: وإنما نبَّه على عاقبة دخول آدم الجنة من ارتكابه ما يوجب خروجه منها حين قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فإذا أخبر أنه جاعله خليفته في الأرض كيف يمكن بقاؤه في الجنة؟

ويقال أصبح آدم عليه السلام محمود الملائكة، مسجود الكافة، على رأسه تاج الوصلة، وعلى وسطه نطاق القُربة، وفي جيده (. . .)[1] الزلفة، لا أحد فوقه في الرتبة، ولا شخص مثله في الرفعة، يتوالى عليه النداء في كل لحظة يا آدم يا آدم. فلم يُمْسِ حتى نُزِعَ عنه لباسُهُ، وسُلِبَ استئناسه، والملائكة يدفعونه بعنف أن اخْرجْ بغير مُكْثٍ:

وأَمِـنْـتُـهُ فـأتـاح لـي مـن مَـأمـنـي مـكـراً، كـذا مـن يـأمـن الأحـبـابـا

ولمّا تاه آدم عليه السلام في مِشيته لم يلبث إلا ساعة حتى خرج بألف ألف عتاب، وكان كما قيل:

لله دَرُّهُـم مـن فِـتْـيـةٍ بَـكَـرُوا مثلَ الملوكِ وراحوا كالمساكين

---

(١) بياض في الأصل.

فصل: نهاه عن قرب الشجرة بأمره، وألقاه فيما نهاه عنه بقهره، ولبَّس عليه ما أخفاه فيه من سِرّه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾.

أزلّهما أي حَمَلَهما على الزَّلة، وفي التحقيق: ما صَرَّفَتْهُما إلا القدرة، وما كان تقلبهما إلا في القضية، أخرجهما عما كانا فيه من الرتبة والدرجة جهراً، ولكن ما ازداد ـ في حكمِ الحق سبحانه ـ شأنُهما إلا رفعةً وقدراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

أوقع العداوة بينهما وبين الشيطان، ولكن كان سبحانه مع آدم (وحرب وهو معهم محالهم بالظفر).

فصل: لم يكن للشيطان من الخطر ما يكون لعداوته إثبات، فإن خصوصية الحق سبحانه عزيزة قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

فصل: لو كان لإبليس سلطان على غواية غيره لكان له إمكانٌ في هداية نفسه، وكيف يكون ذلك؟ والتفرد بالإبداع لكل شيء من خصائص نعته سبحانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

مشهد الأشباح ومألفها أقطار الأرض، ومعهد الأرواح ومرتعها رداء العرش، ولفظ الرداء استعارة وتوسع فكيف يكون للهمم بالحِدْثان تَعَلُّق، ولصعود القصود إلى الحقائق على الأغيار وقوع.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

جرت على لسان آدم مع الحق ـ سبحانه ـ كلماتٌ، وأسمع الحقُّ ـ سبحانه ـ آدمَ كلماتٍ، وأنشدوا:

وإذا خِفْنا من الرقباء عيناً ... تكلمت السرائر في القلوب

وأجمل الحقُّ سبحانه القولَ في ذلك إجمالاً ليُبْقي القصة مستورة، أو ليكون للاحتمال والظنون مساغ، ولما يحتمله الحال من التأويل مطرح[1].

ويحتمل أن تكون كلمات آدم عليه السلام اعتذاراً وتنصلا، وكلمات الحق سبحانه قبولاً وتفضلاً. وعلى لسان التفسير أن قوله تعالى له: أفراراً منا يا آدم؟ كذلك قوله عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣٠] وقوله: أمخرجي أنت من الجنة؟ فقال: نعم، فقال أتردني إليها؟ فقال: نعم.

(١) المطرح: الموضع يَطرح فيه شيء.

ويقال حين أمر بخروجه من الجنة جعل ما أسمعه إياه من عزيز خطابه زاداً، ليكون له تذكرة وعتاداً:

وأذكر ايام الحمى ثم انثني على على كبدي من خشية أن تقطّعا

ومخاطبات الأحباب لا تحتمل الشرح، ولا يحيط الأجانب بها علماً، وعلى طريق الإشارة لا على معنى التفسير والتأويل، والحكم على الغيب بأنه كان كذلك وأراد به الحق سبحانه ذلك يحتمل في حال الأحباب عند المفارقة، وأوقات الوداع أن يقال إذا خرجت من عندي فلا تنسَ عهدي، وإن تَقَاصَر عنك يوماً خبري فإياك أن تؤثر عليّ غيري، ومن المحتمل أيضاً أن يقال إن فاتني وصولك فلا يتأخَّرَنَّ عني رسولُك.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

سوء الأدب على البساط يوجب الرد إلى الباب، فلما أساء آدم عليه السلام الأدب في عين القربة قال الله تعالى: ﴿ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ بعد أن كان لكم في محل القربة قرار ومتاع إلى حين، يستمتعون يسيراً ولكن (في) آخرهم يعودون إلى الفقر، وأنشدوا:

إذا افتقروا عادوا إلى الفقر حسبة وإن أيسروا عادوا سراعاً إلى الفقر

وحين أخرجه من الجنة وأنزله إلى الأرض بَشَّره بأنه يردّه إلى حاله لو جنح بقلبه إلى الرجوع فقال: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾.

والذين قابلوا النعمة بغير الشكر، وغفلوا عن التصديق والتحقيق فلهم عذاب أليم مؤجلٌ، وفراق معجَّل.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾.

حقيقة النعمة على لسان العلماء لذة خالصة عن الشوائب، وما يوجب مثلها فهي أيضاً عندهم نعمة، وعند أهل الحقيقة النعمة ما أشهدك المُنعم أو ما ذكَّرك بالمنعم أو ما أوصلك إلى المنعم أو ما لم يحجبك عن المنعم.

وتنقسم إلى نعمة أَبشار وظواهر، ونعمة أرواح وسرائر، فالأولى وجوه الراحات والثانية صنوف المشاهدات والمكاشفات. فمن النعم الباطنة عرفان القلوب ومحاب الأرواح ومشاهدات السرائر.

فصل: ويقال أَمَرَ بني إسرائيل بذكر النِّعَم وأَمَرَ أُمَّةَ محمد ﷺ بذكر المُنعِم، وفرق بين من يقال له: ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة: ١١٠] وبين من يقال له: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾.

عهدهُ ـ سبحانه ـ حفظ المعرفة وعهدنا اتصال المغفرة، عهده حفظ محابه وعهدنا لطف ثوابه، عهده حضور الباب وعهدنا جزيل المآب.

أوفوا بعهدي بحفظ السر أوفِ بعهدكم بجميل البِر، أوفوا بعهدي الذي قبلتم يوم الميثاق أوفِ بعهدكم الذي ضمنت لكم يوم التلاق، أوفوا بعهدي في ألا تؤثروا عليّ غيري أوف بعهدكم في ألا أمنع عنكم لطفي وخيري، أوفوا بعهدي برعاية ما أثبتُّ فيكم من الودائع أوفِ بعهدكم بما أُديم لكم من شوارق اللوامع وزواهر الطوالع[1]، أوفوا بعهدي بحفظ أسراري أوف بعهدكم بجميل مَبَارِّي، أوفوا بعهدي باستدامة عرفاني أوفِ بعهدكم في إدامة إحساني، أوفوا بعهدي في القيام بخدمتي أوفِ بعهدكم في المِنَّةِ عليكم بقبولها منكم، أوفوا بعهدي في القيام بحسن المجاهدة والمعاملة أوفِ بعهدكم بدوام المواصلة والمشاهدة، أوفوا بعهدي بالتبري عن الحوْل والمُنَّة أوف بعهدكم بالإكرام بالطول والمِنَّة، أوفوا بعهدي بالتفضيل والتوكل أوفِ بعهدكم بالكفاية والتفضل، أوفوا بعهدي بصدق المحبة أوفِ بعهدكم بكمال القربة، أوفوا بعهدي اكتفوا مني بي أوفِ بعهدكم أرضي بكم عنكم، أوفوا بعهدي في دار الغيبة على بساط الخدمة بشدِّ نطاق الطاعة، وبذل الوسع والاستطاعة أوفِ بعهدكم في دار القربة على بساط الوصلة بإدامة الأُنس والرؤية وسماع الخطاب وتمام الزلفة، أوفوا بعهدي في المطالبات بترك الشهوات أوف بعهدكم بكفايتكم تلك المطالبات، أوفوا بعهدي بأن تقولوا أبداً: ربي ربي أوفِ بعهدكم بأن أقول لكم عبدي عبدي. وإياي فارهبون، أي أَفرِدُوني بالخشية لانفرادي بالقدرة على الإيجاد فلا تصح الخشية ممن ليس له ذرة ولا مِنَّة.

---

(١) قال القشيري في حديثه عن اللوائح والطوالع واللوامع برسالته: اللوامع تسبق الطوالع في الظهور والطوالع أبقى وقتاً، وأقوى سلطاناً، وأدوم مكثاً، وأذهب للظلام، وأنفى للتهمة لكنها موقوفة على خطر الأفول ليست برفيعة الأوج، ولا بدائمة المكث وأوقات حصولها وشيكة الارتحال وأحوال أفولها طويلة الأذيال. (الرسالة القشيرية ص٧٧).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾.

الإشارة أن يقرن (العبد) إيمانه من حيث البيان بإيمانه من حيث البرهان، وجمهور المؤمنين لهم إيمان برهان بشرط الاستدلال، وخواص المؤمنين لهم إيمان من حيث البيان بحق الإقبال، وأقبل الحق سبحانه عليهم فآمنوا بالله، وآخر أحوالهم الإيمان من حيث العيان، وذلك لخواص الخواص.

ولا تكونوا أول كافرٍ به، ولا تَسُنُّوا الكفر سُنَّةً فإن وِزْرَ المبتدىء فيما يَسُنُّ أعظم من وزر المقتدي فيما يتابع.

﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ لا تؤثروا على عظيمِ حقي خسيسَ حظِّكم. ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ كثيرٌ من يتقي عقوبته وعزيز من يهاب اطلاعه ورؤيته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

لا تتوهموا أن يلتئم لكم جمع الضدين، والكون في حالة واحدة في محلين، (فالعبد) إما مبسوط بحق أو مربوط بحظ، وأمّا حصول الأمْرَيْن فمحالٌ من الظن.

﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ تدنيس، ﴿وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ﴾ تلبيس، ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن حق الحق تقديس، وأنشدوا:

أيها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله، كيف يلتقيان؟!
هي شامية إذا ما استهلت وسهيلٌ إذا استهل يماني!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾.

احفظوا آداب الحضرة؛ فحفظ الآداب أتمُّ في الخدمة من الخدمة، والإشارة في إيتاء الزكاة إلى زكاة الهِمَم كما تؤدَّى زكاةُ النِّعم، قال قائلهم:

كلُّ شيءٍ له زكاةٌ تُودّى وزكاةُ الجمال رحمةُ مثلي

فيفيض من زوائد هممه ولطائف نظره على المُتَّبِعين والمَربين بما ينتعشون به و (. . .)[1]، ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾: تقتدي بآثار السلف في الأحوال، وتجتنب سنن الانفراد فإن الكون في غمار الجمع أسلم من الامتياز من الكافة.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

أتُحَرِّضون الناس على البِدار وترضَوْن بالتخلُّف؟ ويقال أتدعون الخلْقَ إلينا

---

(١) بياض في الأصل.

وتقعدون عنّا؟ أتسرحون الوفود وتقصرون في الورود؟ أتنافسون الخلق وتنافرونهم بدقائق الأحوال وترضون بإفلاسكم عن ظواهرها؟

ويقال أتبصرون من الحق مثقالَ الذَّرِ ومقياسَ الحَبِّ وتساهمون لأنفسكم أمثال الرمال والجبال؟ قال قائلهم:

وتبصر في العين مني القذى　　　وفي عينك الجذع لا تبصر؟!

ويقال أَتُسْقَوْنَ بالنُّجب[1] ولا تشربون بالنُّوَب؟

﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ثم تعاندون بخفايا الدعاوى وتجحدون بما شام قلوبكم من فضيحات الخواطر وصريحات الزواجر.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إن ذلك ذميمٌ من الخِصال وقبيحٌ من الفِعال.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾.

الصبر فطم النفس عن المألوفات، والصلاة التعرُّض لحصول المواصلات، فالصبر يشير إلى هجران الغَيْر، والصلاة تشير إلى دوام الوقوف بحضرة الغيب، وإن الاستعانة بهما لخصلة شديدة إلا على من تجلّى الحق لِسِرّه فإن في الخبر المنقول: «إن الله تعالى إذا تجلّى لشيءٍ خشع له»[2]. وإذا تجلّى الحق، خَفَّ وسَهُلَ ما توقّى الخلْق؛ لأن التوالي للطاعات يوجب التكليف بموجب مقاساة الكلفة، والتجلي بالمشاهدات ـ بحكم التحقيق ـ يوجب تمام الوصلة ودوام الزلفة.

ويقال استعينوا بي على الصبر معي، واستعينوا بحفظي لكم على صلاتكم لي، حتى لا تستغرقكم واردات الكشف والهيبة، فلا تقدرون على إقامة الخدمة.

وإن تخفيف سطوات الوجود على القلب في أوان الكشف حتى يقوى العبد على القيام بأحكام الفرق لِمَنَّةٌ عظيمة من الحق[3].

وأقسام الصبر كلها محمودة الصبر في الله، والصبر لله، والصبر بالله والصبر مع الله إلا صبراً واحداً وهو الصبر عن الله:

والصبر يحسن في المواطن كلها　　　إلا عليك فإنه مذموم[4]

---

(١) النجب: الكريم الحسن، وربما كانت النخب: الشربة العظيمة أو الشربة من الخمر أو غيرها يشربها الرجل لصحة حبيب أو محتفًى به.

(٢) أخرجه النسائي في (السنن ٣/ ١٤٥)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٣/ ٣٣٣)، والدارقطني في (السنن ٢/ ٦٥).

(٣) انظر الرسالة القشيرية ص٦٦.

(٤) رواية البيت في الرسالة القشيرية ص١٨٤:

الصبر يجمل في المواطن كلها　　　إلا عليك فإنه لا يجمل

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

الظن يُذكَر، ويقال المراد به اليقين، وهو الأظهر ها هنا.

ويذكر ويراد به الحسبان فَمَنْ ظنَّ ظن يقين فصاحب وصلة.

ومن ظنَّ ظن تخمين فصاحب فرقة. ومُلاقو ربهم، صيغة تصلح لماضي الزمان والحاضر وهم ملاقون ربهم في المستقبل. ولكن القوم لتحققهم بما يكون من أحكام الغيب صاروا كأن الوعدَ لهم تَقَرَّرَ، والغيب لهم حضور.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أَشْهَدَ بني إسرائيل فضل أنفسهم فقال: ﴿وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وأشهد المسلمين من أمة محمد ﷺ فضل نفسه فقال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨].

فشتّان بين مَنْ مشهودُه فضلُ نفسه، وبين مَنْ مشهودُه فضل ربه؛ فشهود العبد فضل نفسه يوجب له الشكر وهو خطر الإعجاب، وشهود العبد فضل الحق ـ الذي هو جلاله في وصفه وجماله في استحقاق نعته ـ يقتضي الثناء وهو يوجب الإيجاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

العوام خوَّفهم بأفعاله فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا﴾ «واتقوا النار».

والخواص خوَّفهم بصفاته فقال: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ١٠٥] وقال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ [يونس: ٦١].

وخاص الخاص خوَّفهم بنفسه فقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨].

والعدل: الفداء.

يوم القيامة لا تسمع الشفاعة إلا لمن أمر الحق بالشفاعة له، وأَذِنَ فيه، فهو الشفيع الأكبر ـ على التحقيق ـ وإن كان لا يطلق عليه لفظ الشفيع لعدم التوقيف. وفي معناه قيل:

الحمد لله شكرا ... فكلُّ خيرٍ لديه
صار الحبيب شفيعاً ... إلى شفيع إليه

والذين أصابتهم نكبة القسمة لا تنفعهم شفاعة الشافعين، وما لهم من ناصرين،

فلا يُقْبَل منهم فداء، ولو افتدوا بملء السموات وملء الأرضين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

من صبر في الله على بلاء أعدائه عوَّضه الله صحبة أوليائه، وأتاح له جميل عطائه؛ فهؤلاء بنو إسرائيل صبروا على مقاساة الضر من فرعون وقومه فجعل منهم أنبياءهم، وجعلهم ملوكاً، وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين. ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾: قيل نعمة عظيمة وقيل محنة شديدة. وفي الحقيقة ما كان من الله ـ في الظاهر ـ محنةً فهو ـ في الحقيقة لمن عرفه ـ نعمةٌ ومِنَّة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾.

تقاصرت بصائر بني إسرائيل فأراهم المعجزات عياناً، ونفذت بصائر هذه الأمة فكاشفهم بآياته سراً، وبذلك جرت سُنَّتُه سبحانه، وكل من كان أشحذَ بصيرةً كان الأمر عليه أغمض، والإشارات معه أوفر، قال ﷺ: «أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً»[1].

وحين شاهدوا ظاهر تلك الآيات من فلق البحر وإغراق آل فرعون ـ دَاخَلَهُمْ ريبٌ؛ فقالوا: إنه لم يغرق حتى قذفهم البحر، فنظر بنو إسرائيل إليهم وهم مغرقون. وهذه الأمة لفظ تصديقهم لرسول الله ﷺ وعلى آله، وقوة بصائرهم (أن) قال واحد من أفتاء[2] الناس: «كأني بأهل الجنة يتزاورون وكأني بأهل النار يتعاوون وكأني أنظر عرش ربي بارزاً»[3] فشتَّان بين من يُعاين فيرتاب مع عيانه، وبين مَنْ يسمع فكالعيان حالُه من قوة إيمانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (المساجد ٧، ٨)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٢٠٥، ٣١٤، ٤٤٢، ٥٠١)، وابن كثير في (التفسير ٤/ ٧٢)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/ ١١٣)، والبيهقي في (دلائل النبوة ١/ ١٤)، وسعيد بن منصور في (السنن ٢٨٦٢)، وابن أبي شيبة في (المصنف ١١/ ٤٨٠)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٢٠٦٨)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ١٤ ـ ٣٠٨).

(٢) أفتاء وفتاء: (ج) فتيّ: وهو الشاب من إنسان أو حيوان.

(٣) أخرجه الهيثمي في (مجمع الزوائد ١/ ٥٧)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢/ ٢٣٨ ـ ٢٨٠)، والعقيلي في (الضعفاء ٤/ ٤٥٥).

شتَّان بين أمة وأمة؛ فأُمَّةُ موسى عليه السلام ـ غاب نبيُّهم عليه السلام أربعين يوماً فاتخذوا العِجْلَ معبودَهم، ورضوا بأن يكون لهم بمثل العجل معبوداً، فقالوا: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ [طه: ٨٨] وأمة محمد المصطفى ﷺ مضى من وقت نبيِّهم سنون كثيرة فلو سمعوا واحداً يذكر في وصف معبودهم ما يوجب تشبيهاً لما أبقَوْا على حشاشتهم(١) ولو كان في ذلك ذهاب أرواحهم.

ويقال إن موسى ـ صلوات الله عليه ـ سلَّم أمته إلى أخيه فقال: اخلفني في قومي، وحين رجع وجدهم وقعوا في الفتنة، ونبيُّنا ـ صلوات الله عليه ـ توكَّل على الله فلم يُشِرْ على أحَدٍ في أمر الأمة وكان يقول في آخر حاله: الرفيق الأعلى. فانظر كيف تولَّى الحق رعاية أمته في حفظ التوحيد عليهم. لعمري يُضَيِّعون حدودَهم ولكن لا ينقضون توحيدَهم.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

سرعة العفو على عظيم الجُرْم تدل على حقارة قدرة المعفو عنه، يشهد لذلك قوله تعالى: (مخاطباً أمهاتِ المسلمين): ﴿**من يأتِ منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين**﴾ [الأحزاب: ٣٠] هؤلاء بنو إسرائيل عبدوا العجل فقال الله تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾، وقال لهذه الأمة (يقصد أمة محمد ﷺ): ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٨].

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

فرقان هذه الأمة الذي اخْتَصُّوا به نورٌ في قلوبهم، به يُفَرِّقون بين الحق والباطل، قال النبي ﷺ لوابصة: «استفتِ قلبك»(٢).

وقال: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»(٣).

وقال الله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] وذلك الفرقان ميراث ما قدَّموه من الإحسان.

---

(١) الحشاشة: رمق الحياة، وبقية الروح في المريض والجريح (ج) حشاشات.

(٢) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١/ ١٣١ ـ ١٦٠، ٧/ ٤٢ ـ ٦٠ ـ ٢٩٨)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/ ٢٠).

(٣) أخرجه الترمذي في (السنن ٣١٢٧) وأبو حنيفة في (المسند ١/ ١٨٩) وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٤/ ٩٤، ٦/ ١١٨) والطبراني في (المعجم الكبير ٨/ ١٢١) (والبغوي ١٤/ ٣١) وابن كثير في (التفسير ١/ ٤٧٩، ٤/ ٤٦١)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/ ٥٤٤، ٧/ ٢٥٩) وابن حجر في (فتح الباري ١٢/ ٣٨٨)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٠٣٠) وابن حجر في (لسان الميزان ٥/ ١١٥٤) وصاحب ميزان الاعتدال (٨٠٩٨) والشوكاني في (الفوائد المجموعة ٢٤٣) وابن عراق في (تنزيه الشريعة ٢/ ٣٠٥) والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٤٢) والسيوطي في (الدار المنثور ٤/ ١٠٣) والعقيلي في (الضعفاء ٤/ ١٢٩).

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾.

أي ما أضررتم إلا بأنفسكم فيما ارتكبتم من ذنوبكم، فأمَّا الحق سبحانه فعزيز الوصف، لا يعود إلى عِزِّه من ظلم الظالمين شيء، ومن وافق هواه واتَّبع مناه فَعِجْلُه ما علَّق به همَّه، وأفرد له قصده.

قوله جل ذكره: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾.

الإشارة إلى حقيقة التوبة بالخروج إلى الله بالكلية.

قوله جل ذكره: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾.

التوبة بقتل النفوس غير (. . .)[1] إلا أن بني إسرائيل كان لهم قتل أنفسهم جهراً، وهذه الأمة توبتهم بقتل أنفسهم في أنفسهم سراً، فأوَّلُ قَدَمٍ في القصد إلى الله الخروجُ عن النفس.

فصل: ولقد توهم الناس أن توبة بني إسرائيل كانت أشق، ولا كما توهموا؛ فإن ذلك كان مقاساة القتل مرة واحدة، وأمَّا أهل الخصوص من هذه (الأمة)[2] ففي كل لحظة قتل، ولهذا:

ليس من مات فاستراح بميتٍ ... إنما الميت ميت الأحياء

وقتل النفس في الحقيقة التبري عن حوْلِها وقوتها أو شهود شيءٍ منها، ورد دعواها إليها، وتشويش تدبيرها عليها، وتسليم الأمور إلى الحق ـ سبحانه ـ بجملتها، وانسلاخها من اختيارها وإرادتها، وانمحاء آثار البشرية عنها، فأمَّا بقاء الرسوم والهياكل فلا خطرَ له ولا عبرةَ به.

قوله جل ذكره: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

كونه لكم عنكم أتمُّ من كونكم لأنفسكم:

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾.

التعرض بمطالعة الذات على غير نعمة إلهية إفصاحٌ بِتَرْكِ الحرمة، وذلك من أمارات البعد والشقوة.

وإثبات نعت التولي بمكاشفات العزة مقروناً بملاطفات القربة من علامات الوصلة ودلالات السعادة.

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) يقصد أنه محمد (ﷺ).

فلا جَرَمَ لما أطلقوا لسان الجهل بتقوية ترك الحشمة أخذتهم الرجفة والصعقة.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أعادهم إلى حال الإحساس بعد ما استوفتهم سطوات العذاب إملاء لهم بمقتضى الحكم، وإجراء للسنَّةِ في الصفح عن الجُرْم، ومن قضايا الكرم إسبالُ الستر على هناتِ الخَدَم.

قوله جل ذكره: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

لمّا طرحهم في متاهات الغُربة لم يرضَ إلا بأن ظلَّلَهُم، وبلبسة الكفايات جَلَّلَهُم، وعن تكلف التكسُّب أغناهم، وبجميل صنعه فيما احتاجوا إليه تولّاهم؛ فلا شُعُورُهم كانت تَطُول، ولا أظفارهم كانت تنبُت، ولا ثيابهم كانت تتسِخ، ولا شعاعُ الشمس عليهم كان ينبسط. وكذلك سُنَّتُه لمن حال بينه وبين اختياره، يكون ما يختاره سبحانه له خيراً مما يختاره لنفسه.

قـولـه جـل ذكـره: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

(. . .)[١] بنو إسرائيل على تضييع ما كانوا يُؤْمَرون، حتى قالةِ أُوصُوا بحفظها فَبَدّلوها، وحالةِ من السجود أُمروا بأن يدخلوا عليها فحوّلوها، وعَرَّضوا أنفسَهم لِسهام الغيب. ثم لم يطيقوا الإصابة بقَرْعِها، وتعرضوا المفاجآت العقوبة فلم يثبتوا عند صدمات وَقْعِها. قوله جل ذكره: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

لم يمكنهم أن يردوا باب السماء باحتيالهم، أو يصدوا مِنْ دونهم أسبابَ البلاء بما ركنوا إليه من أحوالهم، فزعوا من الندم لما عضّهم ناب الألم، وهيهات أن ينفعهم ذلك لأنه محال من الحسبان.

قـولـه جـل ذكـره: ﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

إن الذي قدر على إخراج الماء من الصخرة الصمّاء كان قادراً على إروائهم بغير ماء ولكن لإظهار أثر المعجزة فيه، وإيصال محل الاستغاثة إليه، وليكون على موسى

(١) بياض في الأصل.

عليه السلام ـ أيضاً في نقل الحجر ـ مع نفسه شغل، ولتكليفه أن يضرب بالعصا مقاساةُ نوعٍ من معالجةِ ما أمضى حكمه عند استسقائه لقومه[١].

ثم أراد الحق سبحانه أن يكون كل قوم جارياً على سُنَّةٍ، ملازماً لحَدِّه، غير مُزَاحِم لصاحبه فأفرد لكل سبطة علامةً يعرفون بها مشربهم، فهؤلاء لا يَرِدُون مشرب الآخرِين، والآخرون لا يَرِدُون مشرب الأولين.

وحين كفاهم ما طلبوا أمرَهم بالشكر، وحِفْظِ الأمرِ، وتَرْكِ اختيار الوِزر، فقال: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

والمناهل مختلفة، والمشارب متفاوتة، وكلٌّ يَرِدَ مَشْرَبه فمشربٌ عَذْبٌ فُرات، ومشربٌ مِلْح أُجاج[٢]، ومشربٌ صافٍ زلال، ومشرب رتق أوشال[٣]. وسائقُ كلِّ قوم يقودهم، ورائد كُلِّ طائفة يسوقهم؛ فالنفوس تَرِدُ مناهل المنى والشهوات، والقلوب ترد مشارب التقوى والطاعات، والأرواح ترد مناهل الكشف والمشاهدات، والأسرار ترد مناهل الحقائق بالاختطاف عن الكون والمرسومات، ثم عن الإحساس والصفات ثم بالاستهلاك في حقيقة الوجود والذات.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾.

لم يرضَوْا بحسن اختياره لهم، ولم يصبروا على قيامه بتولي ما كان يَهُمُّهُم من كفاية مأكولهم وملبوسهم، فنزلوا في التحير إلى ما جرت عليه عاداتهم من أكل الخسيس من الطعام، والرضا بالدون من الحال، فردَّهم إلى مقاساة الهوان، وربطهم بإدامة الخذلان، حتى سفكوا دماء الأنبياء وهتكوا حرمة الأمر بِقِلَّة الاستحياء، وتَرْكِ الاروعاء، فعاقبهم على قبيح فعالهم، وردَّهم إلى ما اختاره لأنفسهم من خسائس أحوالهم، وحين لم تنجح فيهم النصيحة، أدركتهم النقمة والفضيحة. ويقال كان بنو إسرائيل متفرقي الهموم مُشَتَّتِي القصود؛ لم يرضوا لأنفسهم بطعام واحد، ولم يكتفوا في تدينهم بمعبود واحد، حتى قالوا لموسى عليه السلام ـ لمَّا رأوا قَوماً يعبدون الصنم ـ يا موسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم

(١) انظر مذهب القشيري في التوكل في الرسالة القشيرية ص١٦٢، ١٧٣.

(٢) الأُجاج: الشديد الملوحة أو المرارة.

(٣) الأوشال: (ج) الوشل: الماء القليل الذي يتحلب من صخرة أو جبل يقطر قليلاً قليلاً ولا يتصل قطره.

إله، وهكذا صفة أرباب التفرقة. والصبر مع الواحد شديد، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦].

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

اختلاف الطريق مع اتحاد الأصل لا يمنع من حسن القبول، فمن صدَّق الحق سبحانه في آياته، وآمن بما أخبر من حقه وصفاته، فتبايُن الشرع واختلاف وقوع الاسم غيرُ قادح في استحقاق الرضوان، لذلك قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ ثم قال: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم﴾. أي إذا اتفقوا في المعارف فالكُلُّ لهم حُسْنُ المآب، وجزيلُ الثواب. والمؤمن مَنْ كان في أمان الحق سبحانه، ومَنْ كان في أمانه ـ سبحانه وتعالى ـ فَبالحريّ ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

أخذ سبحانه ميثاقَ جميع المُكَلَّفين، ولكنَّ قوماً أجابوا طوعاً لأنه تعرَّف إليهم فوَحَّدوه وقوماً أجابوه كرهاً لأنه ستر عليهم فجحدوه، ولا حُجَّة أقوى من عيان ما رفع فوقهم من الطور ـ وهو الجبل ـ ولكن عَدِموا نورَ البصيرة، فلا ينفعهم عيانُ البصر. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾، أي رجعتم إلى العصيان بعد ما شاهدتم تلك الآيات بالعيان، ولولا حكمه بإمهاله، وحِلْمُه بأفضاله لعَاجَلكُم بالعقوبة، وأحلَّ عليكم عظيمَ المصيبة ولخَسِرَتْ صفقتُكم بالكُلِّيَة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾.

مسْخُ هذه الأمة حصل على القلوب، فكما أنهم لما تركوا الأمر واستهانوا بما أُلزموا به من الشرع ـ عجلت عقوبتهم بالخسف والمسخ وغير ذلك من ضروب ما ورد به النَّصُّ، فهذه الأمة مِنْ نَقْضِ العهدِ ورفض الحدِّ عوقبت بمسخ القلوب، وتبديل الأحوال، قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠] وعقوبات القلوب أنكى من عقوبات النفوس، وفي معناه أنشدوا:

يا سائلي: كيف كنتَ بَعْده؟ لَقِيتُ ما ساءني وسَرَّه
ما زلت أختال في وِصالي حتى أمِنت من الزمانِ مَكره[1]

(١) هذا البيت مضطرب صحح ليستقيم المعنى والوزن.

طال عليَّ الصدود حتى لم يُبْقِ مما شَهِدَت ذرّه

قوله جل ذكره: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

هكذا مَنْ مُنِيَ بالهجران، ووُسِمَ بالخذلان؛ صارت أحوالُه عِبْرة، وتجرَّع ـ مِنْ مُلاحَظته لحاله ـ عليه الحسرة، وصار المسكين ـ بعد عِزِّه لكلِّ خسيسٍ سُخْرَة. هكذا آثار سُخْطِ الملوك وإعراض السادة عن الأصاغر:

وقد أحدق الصبيان بي وتَجمعوا علـيَّ وأشـلـوا بـالـكـلاب ورائـيـا

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾.

كان الواجب عليهم استقبال الأمر بالاعتناق ولكنهم تعللوا ببقاء الأشكال توهماً بأن يكون لهم (. . .)[1] تُفضِي بالإخلاد إلى الاعتدال[2] عن عهدة الإلزام فتضاعفت عليهم المشقة وحل بهم ما حَذِرُوه من الافتضاح.

فصل: ولما قال: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي ليست بِفَتِيَّةٍ ولا مُسِنَّة بل هي بين السِّنَّيْنِ. حصلت الإشارة أن الذي يصلح لهذه الطريقة مَنْ لا يستهويه نَزَقُ[3] الشباب وسُكْره، ولم يُعَطِّلْه عجزُ المشيب وضعفُه، بل هو صاحِ استفاق عن سُكْرِه، وبقيت له ـ بَعْدُ ـ نضارةٌ من عمره.

قوله جل ذكره: ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾.

كما كان يأخذ لونها الأبصار فالإشارة منها أن من كان من أهل القصة يستغرق شاهدُه القلوبَ لِما أُلبس من رداء الجبروت، وأقيم به من شاهد الغيب حتى أن من لاحَظَه تناسى أحوال البشرية واستولى عليه ذكر الحق، كذا في الخبر المنقول: «أولياء الله الذين إذا رأوا ذكر الله»[4] (. . .)[5].

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾.

كما أن تلك البقرة لم يُذلِلْها العملُ، ولم تُبْتَذَلْ في المكاسب، لا لونَ فيها يخالف عِظَمَ لَوْنِها فالإشارة منه أن أهل الولاية الذين لم يتبذلوا بالأغيار لتحصيل ما طلبوا من الأسباب، ولم يركنوا بقلوبهم إلى الأشكال والأمثال، ولم يتكلوا على

---

(١) بياض في الأصل.
(٢) الاعتدال: الرجوع عن الشيء.
(٣) الآية (٦٩) غير موجودة.
(٤) أخرجه الألباني في (السلسلة الصحيحة ١٧٣٣).
(٥) بياض في الأصل.

الاختيار والاحتيال، وليسوا نهباً لمطالبات المنى، ولا صيداً في مخلب الدنيا، ولا حكمَ للشهوات عليهم، ولا سلطان للبشرية تَمَلُّكهم، ولم يسعَوْا قط في تحصيل مرادهم، ولم يشقوا لدرك بُغيتهم، وليس عليهم رقم الأغيار، ولا سِمَةُ الأسباب ـ فَهُمْ قائمون بالله، فانون عما سوى الله، بل هم محو، مُصَرِّفُهم الله. والغالب ـ على قلوبهم ـ الله.

وكما أن معبودَهم الله كذلك مقصودهم الله.

وكما أن مقصودهم الله كذلك مشهودهم الله، وموجودهم الله، بل هم محو بالله و (. . .)(١) عنهم الله، وأنشد قائلهم:

إذا شئتِ أن أرضَى وترضي وتملكي زِمَامِيَ ـ ما عشنا معاً ـ وعناني
إذن فارمُقي الدنيا بعيني واسمعي بأذني وانطقي بلساني

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾.

طلبوا الحيلة ما أمكنهم فلما ضاقت بهم الحِيَل استسلموا للحكم فتخلصوا من شدائد المطالبات، ولو أنهم فعلوا ما أمروا به لما تضاعفت عليهم المشاق.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

الخائن خائف، ولخشية أن يظهر سرُّه يركن إلى التلبيس والتدليس، والإنكار والجحود ولا محالة ينكشف عوارُه، وتتضح أسرارُه، وتهتك عن شَيْنِ فعله أستارُه. قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

أراد الله سبحانه أن يحيي ميتهم ليفضح بالشهادة على قاتله فأمر بقتل حيوان لهم فجعل سبب حياة مقتولهم قتل حيوان لهم، صارت الإشارة منه:

أن من أراد حياة قلبه لا يصل إليه إلا بذبح نفسه؛ فمن ذبح نفسه بالمجاهدات حَيِيَ قلبُه بأنوار المشاهدات، وكذلك من أراد الله حياةَ ذِكْرِه في الأبدال أمات في الدنيا ذكره بالخمول.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

---

(١) بياض في الأصل.

بَيَّن أنهم ـ وإن شاهدوا عظيم الآيات وطالعوا واضح البينات ـ فحين لم تساعدهم العناية ولم يخلق الله (لهم) الهداية، لم تزدهم كثرة الآيات إلا قسوة، ولم تبرز لهم من مكامن التقدير إلا شقوة (على شقوة، وشبَّه قلوبهم بالحجارة لأنها لا تنبت ولا تزكو، وكذلك قلوبهم لا تفهم، ولا تغنى. ثم بيَّن أنها أشد (. . . .)[1] من الحجارة، فإنَّ من الحجارة لما يتفجّر منه الأنهار، ومنها ما تظهر عليه آثار خشية الله[2]، وأمَّا قلوبهم فخالية عن كل خير، وكيف لا وقد مُنِيَتْ بإعراض الحقِّ عنها، وخُصَّتْ بانتزاع الخيرات منها.

قوله جل ذكره: ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

أنبأهم عن إيمانهم، وذكر أنهم بعد سماع الخطاب من الله ـ سبحانه ـ حرَّفوا وبدّلوا فكيف يؤمنون لكم وإنما يسمعون بواسطة الرسالة، ومن لم يَبقَ على الإيمان بعد العيان فكيف يؤمن بالبرهان، والذي لم يصلح للحق لا يصلح لكم، ومن لم (يحتشم من الحق) فكيف يحتشم منكم؟.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

تواصوا فيما بينهم بإنكار الحق، وإخفاء الحال على المسلمين، ولم يعلموا أن الله يُطْلِعُ رسولَه عليه السلام على أسرارهم، وأن نوراً أظهره الغيب لا ينطفىء بمزاولة الأغيار. وموافقةُ اللِّسانِ مع مخالفة العقيدة لا يزيد إلا زيادة الفُرقة.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

أخبر أنهم متفاوتون في نقائص كفرهم، فقومٌ منهم أخَسُّ درجةً وأكثر جهلاً ركنوا إلى التقليد، ولم يملكهم استيلاء شبهة بل اغتروا بظنٍّ وتخمين، فهم الذين لا نصيب لهم من كتبهم إلا قراءتها، دون معرفة معانيها. ومنهم مَنْ أكثرُ شأنه ما يتمناه في نفسه، ولا يساعده إمكان، ولا لظنونه قط تحقيق. ثم أخبر عن سوء عاقبتهم بقوله جل ذكره:

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) هنا إشارة إلى قوله تعالى: **﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾** [الحشر: ٢١].

﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾.

أي خَسِروا في الحال والمآل، والإشارة في هذه الآية لمن عَدِم الإخلاص في الصحبة في طريق الحق؛ يَنْضَمُّ إلى الأولياء ظاهراً ثم لا تَصْدُقُ له إرادة فهو مع أهل الغفلة مُصَاحِب، وله مع هذه الطريقة جانب، كلما دَعَتْهُ هواتف الحظوظ تَسَارَعَ إلى الإجابة طوعاً، وإذا قادته دواعي الحق ـ سبحانه ـ يتكلف شيئاً، فَبِئْسَتْ الحالة حين لم يخلص، وما أشد ندمه فيما ادَّخَرَ عن الله ثم لا يُفْلِحْ.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

الإشارة في هذه الآية لمن مرت على قلبه دعاواه العريضة، وغلب عليه حسبانه، فحكم لنفسه ـ لفرط غفلته ـ بأنه من أهل القصة ويَخْلَدُ إلى هواجس مناه، فيحكم على الغيب بأنه يُتجاوز عنه؛ نَسِيَ قبائح ما أسلفه، ويذكر مغاليط ما ظنَّه، فهو عَبْدُ نَفْسِه يغلب عليه حسن ظنه، وفي الحقيقة تعتريه نتائج غفلته ومكره، قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣].

قوله جل ذكره: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَـٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾.

الذي أحاطت به خطيئته هو الكافر ـ على لسان العلم.

ولكنَ الإشارة منه إلى مَنْ سكن قلبُه على استغاثاته على وجه الدوام، فإن أصحاب الحقائق كالحب على المَقْلَى ـ في أوقات صحوهم، فَمَنْ سَكَنَ فَلِفَرْطِ عَزّتِه ـ لا يفترون[١].

ومَنْ استند إلى طاعة يتوسَّلُ بها ويَظن أنه يقرب بها ينبغي أن يتباعد عن السكون إليها ومَنْ تَحقَّقَ بالتوحيد علِمَ ألا وسيلة إليه إلا به.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾.

في الحال جنان الوصل ....

....

....

..............................[٢]

---

(١) من الفترة انظر الرسالة القشيرية ص٣٨١.

(٢) بياض في الأصل. والآية (٨٣، ٨٤) لم يرد لهما ذكر.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

. . . أضرابكم وقرنائكم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان، الإشارة فيه أن نصرتكم لإخوانكم على ما فيه بلاؤهم نصرة عليهم بما فيه شقاؤهم، فالأخلاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدو.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

أي كما تراعون ـ بالفداء عنهم ـ حقوقهم، فكذلك يُفْتَرَضُ عليكم كَفُّ أيديكم عنهم، وتَرْكُ إزعاجهم عن أوطانهم، فإذا قُمتم ببعض ما يجب عليكم فما الذي يقعدكم عن الباقي، حتى تقوموا به كما أُمِرْتُم؟ أما علمتم أن مَنْ فَرّقَ بين ما أُمِرَ به فآمن ببعضٍ وكَفَرَ ببعضٍ فقط حبط ـ بما ضيَّعه ـ أجرُ ما عَمِلَهُ.

قوله جل ذكره: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

أي ظنوا أن ما فعلوه نَفَعهم، فانكشف لهم في الآخرة أن جميع ما فعلوه ـ لمَّا مزجوه بالآفات وجرَّدُوه عن الصدق والإخلاص ـ غيرُ مقبولٍ منهم.

والأُسَرَاء أصناف: فَمِنْ أسير غَرِقَ في بحار الهوى فإنقاذُه بأن تدلَّه على الهُدَى. ومِنْ أسيرٍ بقي في أيدي الوساوس فافتداؤه أن ترشده إلى اليقين بلوائح البراهين لتنقذَه من الشك والتخمين، وتخرجه عن ظلمات التقليد فيما تقوده إلى اليقين. ومن أسيرٍ تجده في أسر هواجسه استأسرته غاغة نفسه، فَفَكُّ أسْرِه بأن تدلَّه على شهود المِنن، بِتَبَرِّيه عن حسبانِ كلِّ حَوْلٍ بخلْقٍ وغَيْر. ومن أسيرٍ تجده في ربيطة ذاته ففكُّ أسره إنشاده إلى إقلاعه، وإنجاده على ارتداعه. ومن أسير تجده في أسر صفاته ففكُّ أسره أن تدله على الحق بما يحل عليه من وثائق الكون، ومن أسيرٍ تجده في قبضة الحق فتخبره أنه ليس لأسرائهم فداء، ولا لقتلاهم عَوْد، ولا لربيطهم خلاص، ولا عنهم بُدٌ، ولا إليهم سبيل، ولا مِنْ دونهم حيلة، ولا معَ سِواهم راحة، ولا لحكمهم رَدٌّ.

قوله جل ذكره: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

إن الذين آثروا عليه شيئاً خسروا في الدنيا والآخرة كما قالوا:

أنـاسٌ أعـرضـوا عـنَّـا ... بـلا جُـرْمٍ ولا مـعـنـى
فـإن كـانـوا قـد اسـتـغـنَـوْا ... فـإنَّـا عـنـهـم أغـنـى

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

الإشارة: أوصلنا لهم الخطاب، وأردفنا رسولاً بعد رسول، والجميع دَعَوْا إلى واحد. ولكنهم أصغَوْا إلى دعاء الداعين بسمع الهوى، فما استلذته النفوس قَبلُوه، وما استثقلته أهواؤهم جحدوه، فإذا كان الهوى صفتهم ثم عبدوه، صارت للمعبود صفات العابد، فلا جَرَمَ الويل لهم ثم الويل!.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

لو كان منهم شيء بمجرد الدعوى لهان وجود المعاني، ولكن عند مطالبات التحقيق تَفْتَرُّ أنيابُ المُتَلَبِّسِين عن أسنانٍ شاحذة بل (. . . .)[1] وقيل:

إذا انسكبت دموعٌ في خدود تبيَّن مَنْ بكى ممن تباكى

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

الإشارة فيه لمن عزم على الصفاء، ووعد من نفسه تحقيق الوفاء، ونشر أعلام النشاط عند البروز إلى القتال، تنادى بالنِّزال وصدق القتال ـ انهدم عند التفات الصفوف، وانجزل عن الجملة خشية هجوم المحذور، قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١].

قوله جل ذكره: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

أنزلهم التحاسُد عن مقر العزِّ إلى حضيض الخزي[2]، وسامهم ذُلَّ الصَّغرَ حين لم يَرْضَوا بمقتضى الحُكْم، فأضافوا استيجاب مقتِ آنفٍ إلى استحقاقِ مقتٍ سالف.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

الإشارة فيه: إذا قيل لهم حَقِّقوا ما أظهرتم من حكم الوفاق بتحقيق الحال

(١) بياض في الأصل.
(٢) الحضيض: ما سفل من الأرض. والخزي: الذل والهوان والفضيحة.

وإقامة البرهان سَمَحَتْ نفوسُهم ببعض ما التبس عندهم لما يوافق أهواءهم، ثم يكفرون بما وراء حظوظهم، (. . . .)[1] بُعداً عن زمرة الخواص، غير معدودين في جملة أرباب الاختصاص.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

أي دعاكم إلى التوحيد، وإفراد المعبود عن كل معبود ومحدود، ولكنكم لم تجنحوا إلا إلى عبادة ما يليق بكم من عِجْلٍ اتخذتموه، وصنم تمنيتموه. فرفع ذلك من بين أيديهم، ولكن بقيت آثاره في قلوبهم وقلوب أعقابهم، ولذلك يقول أكثرُ اليهود بالتشبيه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

كرَّرَ الإخبار عن غُلُوِّهم في حُبِّ العجل، ونُبُوِّهم عن قبول الحق، و (. . . . .)[1] وتعريفهم معاجلتهم بالعقوبة على ما يسيئون من العمل، فلا النصحُ نَجَعَ فيهم، ولا العقوبةُ أوجبت إقلاعهم عن معاصيهم، ولا بالذم فيهم احتفلوا، ولا بموجب الأمر عملوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

من علامات الاشتياق تمني الموت على بساط العوافي؛ فمن وَثِقَ بأن له الجنة قطعاً ـ فلا محالةَ ـ يشتاق إليها، ولمَّا لم يتمنوا الموت ـ وأخبر الله سبحانه أنهم لن يتمنوهُ أبداً ـ صار هذا التعريف معجزةً للرسول صلوات الله عليه وعلى آله إذ كان كما قال.

وفي هذا بشارة للمؤمنين الذين يشتاقون إلى الموت أنهم مغفور لهم، ولا يرزقهم الاشتياق إلا وتحقق لهم الوصول إلى الجنة، وقديماً قيل: كفى للمقصر الحياء يوم اللقاء. قال الله تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ

---

(١) بياض في الأصل.

﴿لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

حُبُّ الحياة في الدنيا نتيجة الغفلة عن الله، وأشد منه غفلة أَحبُّهم للبقاء في الدنيا.. وحالُ المؤمن من هذا على الضدِّ. وأما أهل الغفلة وأصحاب التهتك فإنما حرصهم على الحياة لعلمهم بما فقدوا فيها من طاعتهم؛ فالعبد الآبِق[1] لا يريد رجوعاً إلى سَيِّده. والانقلابُ إلى مَنْ هو خيرُه مَرجوٌ خيرٌ للمؤمنين من البقاء مع مَنْ شَرُّه غيرُ مأمون، ثم إن امتداد العمر مع يقين الموت (لا قيمة له) إذا فَاجَأ الأمرُ وانقطع العُمْرُ. وكلُّ ما هو آتٍ فقريب، وإذا انقضت المُدَّةُ فلا مردَّ لهجوم الأجل على أكتاف الأمل.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

زعمت اليهود أن جبريل لا يأتي بالخير، وأنهم لا يحبونه، ولو كان ميكائيل لكانوا آمنوا به، فأكذبهم الحقُّ سبحانه فقال: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ لأنه لا يأتي بالخير فأي خير أعظم مما نزل به من القرآن؟!

ثم قال إن مَنْ عادى جبريل وميكائيل فإن الله عدو له؛ فإنَّ رسولَ الحبيبِ إلى الحبيبِ العزيزِ المَوْرِد ـ كريمُ المنزلة، عظيم الشرف. وما ضرَّتْ جبريلَ ـ عليه السلام ـ عداوةُ الكفار، والحق سبحانه وتعالى وليُّه، ومَنْ عَادَى جبريلَ فالحقُّ عَدُوُّه، وما أَعْزِزِ بهذا الشرف وما أَجَلَّه! وما أكبر علوه!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ۝ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

لم يكفر بواضح آياته إلا من سُدَّتْ عن الإدراك بصائرُه، وسبقت من الله بالشقاوة قِسْمَتُه، ولا عقلَ لِمنْ يجحدُ أنَّ النهارَ نهار، وكذلك لا وَصْلَ لمن لم تساعده من الحق أنوارٌ واستبصار. أَوَ كُلَّما عاهدوا عهداً سابقُ التقدير لهم كان يشوِّش عليهم، وينقض عَهْدَهُم لاحِقُ التدبيرُ منهم، والله غالبٌ على أمره.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) الآبق: الهارب من مالكه.

جحدوا رُسلَ الحق إلى قلوبهم من حيث الخواطر، وكذَّبوا رسلهم الذين أتوهم في الظاهر، فيا جهلاً ما فيه شظية من العرفان! ويا حرماناً قارَنَه خِذلان!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾.

مَنْ فرَّقَته الأهواء وقع في كل مطرح من مطارح الغفلة، فيستقبله كل جنس من قضايا الجهالة، ثم إن مَنْ طالت به الغيبة صار للناس عِبْرة، ولِمَنْ سلك طريقةَ فتنة، فمن اقتدى به في غيِّه انخرط في سِلْكِه، والتحق بجنسه، هكذا صفة هاروت وماروت[1] فيما استقبلهما، صارا للخلْق فتنة بل عبرة، فمَنْ أصغى إلى قيلهما، ولم يعتبر بجهلهما تعلَّق به بلاؤهما، وأصابه في الآخرة عناؤهما.

والإشارة من قصتهما إلى مَنْ مآلَ في هذه الطريقة إلى تمويهٍ وتلبيس، وإظهار دعوى بتدليس، فهو يستهوي مَنْ اتّبعه، ويلقيه في جهنم بباطله، (. . . . .)[2].

ومن تهتك بالجنوح إلى أباطيله تهتكت أستارُه، وظهر لذوي البصائر عوارُه. وإن هاروت وماروت لما اغتَّرا بحاصل ما اعتاداه من المعصية بَسَطَا لسان الملامة في عُصاة بني آدم، فلِمَا رُكِّب فيهما من نوازع الشهوات، ودواعي الفتن والآفات، اقتحما في العصيان، وظهر منهما ما انتشر ذِكْرُه على ألسنة القصاص، وهما مُنَكَّسَان إلى يوم القيامة ولولا الرفق بهما وبشأنهما لَمَا انتهى في القيامة عذابُهما، ولكنَّ لطفَ الله مع الكافة كثيرٌ. ولَمَّا قال الله تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ عَلِم أهل التحصيل أن العلم بكل معلوم ـ وإن كان صفةَ مدح ـ ففيه غيرُ مرغوبٍ فيه، بل هو مستعاذٌ منه قال النبي ﷺ: «أعوذ بك من علم لا ينفعَ»[3].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

لو علم المغبونُ ماذا أبقى وماذا أبلى لتقطعت أحشاؤه حسراتٍ، ولكن سيعلم: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩] الذي فاته من الكرائم.

---

(١) هاروت وماروت: ملكان هبطا ببابل فعلّما الناس السحر.

(٢) بياض في الأصل.

(٣) أخرجه صاحب (ميزان الاعتدال ٤١١٩)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١/ ٢٢٧).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

ولو آثروا الإقبالَ على الله على اشتغالهم عن الله، لحصَّلُوا ذُخْرَ الدارَيْن، ووصلوا إلى عِزِّ الكَوْنَيْن، ولكن كَبَسَتْهُمْ سطواتَ القهر، فأثبَتَتْهم في مواطن الهجر.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قصودُ الأعداء في جميع أَحوالهم ـ من أعمالهم وأقوالهم ـ قصودٌ خبيثة؛ فهم ـ على مناهجهم ـ يبنون فيما يأتون ويَذَرُون. فسبيلُ الأولياء التَّحرزُ عن مشابهتهم، والأخذ في طريق غير طريقهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

كراهية الأعداء لانتظام صلاح الأولياء متصِلَةٌ مُستَدامةٌ، ولكن الحسود لا يسود، ولا يحصُل له مقصود. وخصائص الرحمة للأولياء كافية ـ وإنْ زَعَمَ مِنَ الأعداء أفَّاكٌ أنه انهدمت من أوطان فرحهم أكناف وأطراف.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

النسخُ الإزالة أي ما ينقلك من حال إلى ما هي فوقها وأعلى منها، فغُصنُ وَصْلِك أبداً ناضر، ونجمُ عِزِّكَ أبداً ظاهر، فلا ننسخُ من آثار العبادةِ شيئاً إلا وأبدلنا عنه أشياء من أنوار العبودية، ولا نسخنا من أنوار العبودية أشياء إلا أقمنا مكانها أشياء من أقمار العبودةِ(١).

فأبداً سِرُّك في الترقي، وقدرك في الزيادة بحسن التَوَلّيِّ.

وقيل ما رقَّاكَ عن محل العبودية إلا سَلَكَكَ بساحات الحرية، وما رَفَعَ شيئاً من صفات البشرية إلا أقامك بشاهدٍ من شواهد الألوهية.

---

(١) قال القشيري في حديثه عن العبودية برسالته: العبادة للعوام من المؤمنين والعبودية للخواص والعبودية (الطاعة والاسترقاق) لخواص الخواص. العبادة لمن له علم اليقين، والعبودية لمن له عين اليقين، والعبودة لمن له حق اليقين، والعبادة لأصحاب المجاهدات، والعبودية لأرباب المكابدات، والعبودة صفة أهل المشاهدات. (للتوسع انظر الرسالة القشيرية ص١٩٧).

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

سُنَّتُه ـ سبحانه ـ أن يجذب أولياءه عن شهود مُلْكِه إلى رؤية مِلْكِه، ثم يأخذهم من مُطالعةِ مِلْكه إلى شهود حقِّه، فيأخذهم من رؤية آياته إلى رؤية صفاته، ومن رؤية صفاته إلى شهود ذاته.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

إنَّ بني إسرائيل آذَوْا موسى عليه السلام، فنُهِيَ المسلمون عن فِعْل ما أسلفوه، وأُمِروا بمراعاة أن حشمة الرسول ﷺ بغاية ما يتسع في الإمكان. فكانوا بحضرته كأنَّ على رؤوسهم الطير. قال تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩] وحسنُ الأدب ـ في الظاهر ـ عنوانُ حسن الأدب مع الله في الباطن.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩].

مَنْ لَحِقَهُ خسران الفهم من أصحاب الغفلة ودَّ ألّا يطلعَ لأحدٍ بالسلامة نجمٌ، ومَنْ اعتراه الحسد أراد ألا تنبسط على محسوده شمسٌ.

وكذلك كانت صفات الكفار، فأرغم اللّهُ أنفَهُم، وكبَّهم على وجوههم.

والإشارة من هذا إلى حال أصحاب الإرادة في البداية إذا رغبوا في السلوك، فمن لم يساعده التوفيق (في الصحْبة، وعاشر أناساً مترسِّمين بالظواهر)[1] فإنهم يمنعون هؤلاء من السلوك ولا يزالون يخاطبونهم بلسان النصح، والتخويف بالعجز والتهديد بالفقر حتى ينقلوهم إلى سبيل الغفلة، ويقطعوا عليهم طريق الإرادة، أولئك أعداء الله حقاً، أدركهم مقت الوقت. وعقوبتهم حرمانهم من أن يشموا شيئاً من روائح الصدق.

﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟﴾ فسبيل المريد أن يحفظ عن الأغيار سِرَّه، ويستعمل مع كل أحدٍ ضلة، ويبذل في الطلب رفعة، فعن قريب يفتح الحق عليه طريقه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

(١) ما بين قوسين صحح لكي يتضح المعنى طبقاً مع وصايا القشيري للمريدين في رسالته ص٣٧٨.

الواجب على المريد إقامة المواصلات، وإدامة التوسل بفنون القُربات، واثقاً بأن ما يقدمه من صدق المجاهدات تُدرك ثمرته في أواخر الحالات.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾.

كلُّ حِزْبٍ يُمَهِّد الأملَ لنفسه، ويظنُّ النجاة لحاله، ويدعي الوسل[1] من سهمه. ولكنّ مجرد الحسبان دون تحقق البرهان لا يأتي بحاصل، ولا يجوز بطائل.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

أسلم وجهه أي أخلص لله قصده، وأفرد لله وجهه، وطهَّر عن الشوائب عقله. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾. عالِمٌ بحقيقة ما يفعله وحقيقة ما يستعمله، وهو محسن في المآل كما أنه مسلم في الحال.

ويقال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه» فتكون مستسلماً بظاهرك، مشاهداً بسرائرك، في الظاهر جهد وسجود وفي الباطن كشف ووجود.

ويقال: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ﴾ بالتزام الطاعات، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ قائمٌ بآداب الخدمة بحسن آداب الحضور، فهؤلاء ليس عليهم خوف الهجر، ولا يلحقهم خفيُّ المكر، فلا الدنيا تشغلهم عن المشاهدة ولا الآخرة تشغلهم غداً عن الرؤية.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

الإشارة في هذه الآية على العكس من حكم الظاهر؛ فالأعداء يتبرأ بعضهم من بعض اليوم، والأولياء من وجه كذلك، ولذا قالوا: لا زالت الصوفية بخيرٍ ما تنافروا، ولا يَقْبَلُ بعضهم بعضاً لأنه لو قَبِل بعضُهم بعضاً بقي بعضُهم مع بعض.

لكنّ الأعداء كلهم على الباطل: عند تَبَرّي بعضهم من بعض أمَّا الأولياء فكُلُّهم على الحق ـ وهذه ما ذكرنا من حكم العكس.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا

(١) الوسل: من الوسيلة أي ما يتقرب به إلى الشيء، أو الوسيلة إلى الله سبحانه ما يوصل إلى ثوابه وذلك بفعل الطاعات وترك المعاصي.

كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

الإشارة فيه أن الظالم مَنْ خَرَّبَ أوطان العبادة بالشهوات، وأوطان العبادة نفوس العابدين. وخَرّبَ أوطان المعرفة بالمُنى والعلاقات، وأوطان المعرفة قلوب العارفين. وخَرَّب أوطان المحبة بالحظوظ والمُسَاكنات، وهي أرواح الواجدين. وخرَّب أوطان المشاهدات بالالتفات إلى القربات وهي أسرار الموحدين.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

لأهل الإشارة خزي الدنيا بذل الحجاب، وعذاب الآخرة الامتناع بالدرجات.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

الإشارة منها إلى مشارق القلوب ومغاربها. وللقلوب شوارق وطوارق. وطوارقها هواجس النفوس تطرق في ظلمات المنى والشهوات.

وشوارقها نجوم العلوم وأقمار الحضور وشموس المعارف.

فما دامت الشوارق طالعة فَقِبلْةُ القلوب، واضحة ظاهرة، فإذا استولت الحقائق خَفَى سلطانُ الشوارق، كالنجوم تستتر عند طلوع الشمس، كذلك عند ظهور الحق يحصل اصطلام وقهر، فلا شهود رسم، ولا بقاء حِسٍّ وفَهم، ولا سلطان عقل وعلم، ولا ضياء عرفان. فإن وجدان[1] هذه الجملة صفات لائقة ببقاء البشرية، وإذا صار الموصوف محواً فأنَّى لهم ببقاء الصفة.

قال تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ ما دام يبقى من الإحساس والتمييز بقية ـ ولو شظية ـ فالقِبْلة مقصودة، فإن لم تكن معلومة تكون مطلوبة. وعلى لسان العلم إذا اشتبهت الدلائلُ بكلِّ وجِهَةٍ، ولا معرفةَ بالقِبْلة تَسَاوَتْ الجهاتُ في جواز الصلاة إلى كل واحدٍ منها إذا لم يكن للنية ترجيح.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ﴾.

مَكَرَ بهم لم يُفْنِهم ـ من الإفناء ـ في الحال، بل جعل موجب اغترارهم طول الإمهال، فنطقوا بعظيم الفِرْية على الله، واستنبطوا عجيب المِرية في وصف الله، فوصفوه بالولد! وأنَّى بالولد وهو أحدي الذات؟! لا حدَّ لذاته، ولا تجوز الشهوة في صفاته.

(١) القشيري يفضل استعمال لفظة (الوجود) بمعناها الدقيق (التواجد بداية، والوجود نهاية، والوجد واسطة بين البداية والنهاية). (الرسالة القشيرية ص٦٣).

قوله جلّ ذكره: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾.

أي ليس في الكون شيء من الآثار المفتقرة أو الأعيان المستقلة إلا وتنادي عليه آثار الحِلْقَة، وتفصح منه شواهد الفطرة، وكل صامتِ منها ناطق، وعلى وحدانيته ـ سبحانه ـ دليلٌ وشاهد.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

البديع عند العلماء مُوجِد العين لا على مِثْل، وعند أهل الإشارة الذي ليس له شيء مِثله. فهذا الاسم يشير إلى نفي المثل عن ذاته، ونفي المثال عن أفعاله، فهو الأحد الذي لا عدد يجمعه، والصمد الذي لا أَمَدَ يقطعه، والحق الذي لا وهم يصوِّره، والموجود الذي لا فهم يقدره. وإذا قضى أمراً فلا يعارض عليه مقدور، ولا ينفكُ من حكمه محظور.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾.

كلام الله سبحانه متعلق بجميع المخلوقات بأعيانها وآثارها، وأمر التكوين (يتناول المكلفين وأفعال المكلفين)، لكن من عَدم سمع الفهم تصامم عن استماع الحق، فإنه ـ سبحانه ـ خاطب قوماً من أهل الكتاب، وأسمعهم خطابه، فلم يطيقوا سماعه، وبعدما رأوا من عظيم الآيات حرَّفوا وبدَّلوا. وفي الآيات التي أظهرها ما يزيح العِلَّة من الأغيار، ويشفي الغُلَّة من الأخيار، ولكن ما تُغْنِي الدلائل ـ وإنْ وَضُحَتْ ـ عمن حُقَّتْ لهم الشقاوة وسبقت؟

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

أفردناكَ بخصائص لم نُظهِرْها على غيرك؛ فالجمهور والكافة تحت لوائك، والمقبول من وافقَك، والمردود من خالفَك، وليس عليك من أحوال الأغيار سؤال، ولا عنك لأحدٍ (. . .)[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

لا تبالِ برضاء الأعداء بعد ما حصل لك رضانا، فإنهم لا يرضون عنك إلا بمتابعة أديانهم، ودون ذلك لهم حظ القتال فأَعْلِنْ التبري منهم، وأظهر الخلاف

(١) بياض في الأصل.

معهم، وانصب العداوة لهم، وأعلم أن مساكنتهم إلى ما يرضون سبب الشقاوة المؤبدة، فاحرص ألا يخطر ذلك ببالِك، وادعُ ـ إلى البراءةِ عنهم وعن طريقتهم ـ أُمَّتَكَ، وكُنْ بِنا لَنَا، مُتبرِّياً عمن سوانا، واثقاً بنصرتنا، فإنَّكَ بِنَا وَلَنَا.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

الذين فتحنا أبصارهم بشهود حقنا وَكَلْنَا أسماع قلوبهم بسماع خطابنا، وخصصناهم بإسبال نور العناية عليهم، وأيَّدناهم بتحقيق التعريف في أسرارهم، يقومون بحق التلاوة، ويتصفون بخصائص الإيمان والمعرفة فهم أهل التخصيص، ومَنْ سِواهم أصحابُ الرد.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

جرت سُنتُه ـ سبحانه ـ في الخطاب مع قوم موسى عليه السلام أن يناديهم بنداء العلامة فيقول: يا بني إسرائيل اذكروا، أي يا بني يعقوب، ومع هذه الأُمة أن يخاطبهم بنداء الكرامة فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

أَمَّا الأعداء فلا يَقْبَلُ منهم شيئاً، وأمَّا الأولياء فقال ﷺ: «اتقوا النار ولو بِشِقِّ تمرة»[1]، والكفار لا تنفعهم شفاعة الشافعين فهذا حكم كل أمةٍ مع نبيِّها، وأمَّا المؤمنون ـ فعلى التخصيص ـ تنفعهم شفاعة نبيِّهم ﷺ.

وكلُّ أحدٍ يقول يومئذٍ نفسي نفسي ونبيُّنا ﷺ يقول: «أمتي أمتي»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في (صحيحه ٢/ ١٢٦، ٤/ ٢٤، ٨/ ٨ ـ ١٤٠ ـ ١٤٤، ٩/ ١٨١)، ومسلم في (صحيحه الزكاة ٢٨) والهيثمي في (مجمع الزوائد ٣/ ١٠٥، ١٠٦) والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٦٨٩ ـ ١٥٩٣٩ ـ ١٦٠٨٨) والسيوطي في (الدر المنثور ١/ ٣٥٥، ٦/ ٣٨٢)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٤٣) وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ١/ ٤٣٣، ٥/ ٢٧٤) وصاحب ميزان الاعتدال (٦٤٥ ـ ١٠٦٨ ـ ٩٥٨٠)، وابن حجر في (لسان الميزان ٢/ ١٠٨٩، ٦/ ٩٤٢) (أستار ٩٣٣، ٩٣٤، ٩٣٦، ٩٣٧) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٤٧٠، ٦/ ٢٦١) وابن السني في (عمل اليوم والليلة ٣١٥) والعقيلي في (الضعفاء ٢/ ٢١٥، ٤/ ٢٢، ١٢٢، ٤٥٧).

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ١/ ٢٨٢) والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٤/ ٥١٠)، والسيوطي في (الدر المنثور ٥/ ٦٤) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٤٨٧) وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ٤٢٨، ٤٤٣) وابن أبي عاصم في (السنة ٢/ ٣٨٠) وابن أبي شيبة في (المصنف ١١/ ٣١).

وقد وقع الناسخ في خطأ حين نقلها «كل عهد يقول...» والصواب ما ورد في رسالة القشيري قال: =

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾.

البلاء تحقيق الولاء، فأصدقهم ولاءً أشدُّهم بلاء.

ولقد ابتلى الحق - سبحانه - خليلَه عليه السلام بما فرض عليه وشرع له، فقام بشرط وجوبها، ووَفّى بحكم مقتضاها، فأثنى عليه سبحانه بقوله: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧] - من التوفية - أي لم يُقَصِّر بوجهٍ ألبتة.

يقال حملّه أعباء النبوة، وطالبه بأحكام الخُلّة، وأشد بلاء له كان قيامه بشرائط الخلة، والانفراد له بالتجافي عن كل واحد وكل شيء، فقام بتصحيح ذلك مختلياً عن جميع ما سواه، سِرًّا وعَلَناً.

كذلك لم يلاحظ جبريلَ عليه السلام حين تعرض له وهو يُقْذف في لُجة الهلاك، فقال: هل من حاجة؟ فقال: أمَّا إليكَ... فلا.

ومن كمال بلائه تعرض جبريل عليه السلام في تلك الحالة، وأي بقية كانت بقيت له منه حتى يكون لمخلوق فيه مساغ كائناً من كان؟!

وفي هذا إشارة دقيقة إلى الفَرْقِ بين حال نبيّنا ﷺ وحال إبراهيم عليه السلام، لأنه تعرض جبريل للخليل وعَرَضَ عليه نفسه:

فقال: أمَّا إليكَ... فَلَا. ولم يُطِقْ جبريل صحبة النبي ﷺ فنطق بلسان العجز وقال:

لو دنوتُ أنملة(1) لاحترقتُ.

وشتّان بين حالة يكون فيها جبريل عليه السلام من قُوَّتِه بحيث يعرض للخليل عليه السلام نفسه، وبين حالةٍ يعترف للحبيب - صلوات الله عليه - فيها بعجزه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾.

الإمام مَنْ يُقْتَدى به، وقد حقَّق له هذا حتى خاطب جميع الخلائق إلى يوم القيامة بالاقتداء به فقال: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨] أي اتبعوا ملة إبراهيم يعني التوحيد، وقال: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾.

هذا هو تحقيق الإمامة. ورتبة الإمامة أن يَفْهَم عن الحق ثم يُفْهِمَ الخَلْق؛ فيكون

= سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: لا يكون كمال هذا الخلق إلا لرسول الله ﷺ فإنّ كل واحد يوم القيامة يقول: نفسي نفسي، ونبينا ﷺ يقول: أمتي أمتي. (الرسالة القشيرية ٢٢٦).

(1) الأنمُلَة: رأس الإصبع أو المفصل الأعلى من الإصبع الذي فيه الظفر (ج) أنامل وأنمُلاتٌ.

واسطة بين الحق والخَلْق، يكون بظاهره مع الخَلْق لا يفتر عن تبليغ الرسالة، وبباطنه مشاهداً للحق، لا يتغير له صفاء الحالة، ويقول للخلْق ما يقوله له الحق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيٓ﴾.

نطق بمقتضى الشفقة عليهم، فطلب لهم ما أُكرِم به. فأخبره أن ذلك ليس باستحقاق نَسَب، أو باستيجاب سبب، وإنما هي أقسام مضت بها أحكام فقال له: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وليس هذا كنعيم الدنيا وسعة الأرزاق فيها، فهي لا ادِّخار لها عن أحد وإن كان كافراً، ولذلك قال جلّ ذكره: ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾.

فقال الله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا﴾.

يعني ليس للدنيا من الخطر ما يمنعها عن الكفار، ولكن عهدي لا يناله إلا مَنْ اخترته مِنْ خواص عبادي.

أمَّا الطعام والشراب فغير ممنوع من أحد.

أمَّا الإسلام والمحاب فغير مبذول لكل أحد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا﴾.

واذكر يا محمد حين جعلنا البيت ـ يعني الكعبة ـ مثابة للناس إليه يثوبون، ومأمناً لهم إليه يرجعون، وإياه من كل نحوٍ يقصدون.

هو بيت خلقتُه من الحجر ولكن أضفته إلى الأزل؛ فمن نظر إلى البيت بعين الخِلْقَة انفصل، ومن نظر إليه بعين الإضافة وصل واتصل، وكلُّ من التجأ إلى ذلك البيت أَمِنَ من عقوبة الآخرة إذا كان التجاؤه على جهة الإعظام والاحترام، والتوبة عن الآثام.

ويقال بُنيَ البيتُ من الحجر لكنه حجر يجذب القلوب كحجر المغناطيس يجذب الحديد.

بيتٌ من وقع عليه ظِلُّه أناخ بعَقْوَةِ[١] الأمن.

بيتٌ مَنْ وقع عليه طَرْفُه بُشِّرَ بتحقيق الغفران.

بيتٌ مَنْ طاف حَوْلَه طافت اللطائف بقلبه، فطَوْفَة بطوفة، وشَوْطة بشوطة وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

---

(١) العقوة: الساحة وما حول الدار والمحلة. (لسان العرب ١٥/ ٧٩).

بيتٌ ما خَسِرَ مَنْ أنفق على الوصول إليه مَالَه.

بَيت ما ربح مَنْ ضَنَّ عليه بشيءٍ؛ مَنْ زاره نَسِيَ مزارَه، وهجر ديارَه.

بيت لا تُسْتَبْعَدُ إليه المسافة، بيت لا تُتْرَكُ زيارته لحصول مخافة، أو هجوم آفة، بيت ليس له بمهجة الفقراء آفة.

بيت من قعد عن زيارته فَلِعدَمِ فُتوَّتِه، أو لقلة محبته.

بيتٌ من صَبِرَ عنه فقلبه أقسى من الحجرة. بيت من وقع عليه شعاعُ أنواره تَسَلَّى عن شموسه وأقماره.

بيت ليس العجب ممن بقي (عنه)[1] كيف يصبر، إنما العجب ممن حضره كيف يرجع!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾.

عَبْدٌ رفع لله سبحانه قَدماً فإلى القيامة جعل أثر قَدَمِه قِبْلَةً لجميع المسلمين إكراماً لا مدى له.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

الأمر في الظاهر بتطهير البيت، والإشارة من الآية إلى تطهير القلب.

وتطهير البيت بِصَوْنه عن الأدناس والأوضار، وتطهير القلب بحفظه عن ملاحظة الأجناس والأغيار.

وطوافُ الحجاج حول البيت معلومٌ بلسان الشرع، وطوافُ المعاني معلومٌ لأهل الحق؛ فقلوب العارفين المعاني فيها طائفة، وقلوب الموحدين الحقائق فيها عاكفة، فهؤلاء أصحاب التلوين[2] وهؤلاء أرباب التمكين.

وقلوبُ القاصدين بملازمة الخضوع على باب الجود أبداً واقفة.

---

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) قال القشيري في رسالته عند حديثه عن التلوين والتمكين: التلوين صفة أرباب الأحوال والتمكين صفة أهل الحقائق فما دام العبد في الطريق فهو صاحب تلوين لأنه يرتقي من حال إلى حال وينتقل من وصف إلى وصف ويخرج من مرحل ويحصل في مربع فإذا وصل تمكن وصاحب التلوين دائماً في الزيارة وصاحب التمكين قد وصل ثم اتصل، وأمارة أنه اتصل أنه بالكلية عن كليته بطل واعلم أن التغير بما يرد على العبد بكون لأحد أمرين إما لقوة الوارد أو لضعف صاحبه والسكون من صاحبه لأحد أمرين إما لقوته أو لضعف الوارد عليه. (الرسالة القشيرية ص٧٨، ٧٩).

وقلوب الموحدِّين على بساط الوصل أبداً راكعة.

وقلوب الواجدين على بساط القرآن أبداً ساجدة.

ويقال صواعد نوازع الطالبين بباب الكرم أبداً واقفة، وسوامي قصود المريدين بمشهد الجود أبداً طائفة، ووفود هِمَمِ العارفين بحضرة العِزِّ أبداً عاكفة..

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾.

السؤال إذا لم يكن مشوباً بحظّ العبد كان مستجاباً، ولم يكن سؤال إبراهيم هذا لحظِّ نفسه، وإنما كان لِحقِّ ربِّه عزَّ وجلَّ.

ولمَّا حفظ شرط الأدب طلب الرزق لمن آمن منهم على الخصوص أجيب فيهم وفي الذين لم يؤمنوا. ولـمَّا قال في حديث الإمامة: «ومن ذُرِّيتي» من غير إذن مُنِعَ وقيل له: **﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾**.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

نَجَحَ السؤال في صدق الابتهال؛ فلما فزعا إلى الخضوع في الدعاء أتاهما المدد، وتحقيق السؤال.

﴿إنك أنت السميع﴾ لأقوالنا **﴿العليم﴾** بأحوالنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

«مسلمين»: منقادين لِحكمك حتى لا يتحرك مِنّا عِرْق بغير رضاك، واجعل من ذريتنا أمة مسلمة لك لتقوم بعدنا مقامنا في القيام بحقوقك، وشتان بين من يطلب وارثاً لماله، وبين من يطلب نائباً بعده يقوم بطاعته في أحواله.

﴿وأرنا مناسكنا﴾ إذ لا سبيل إلى معرفة الموافقات إلا بطريق التوفيق والإعلام.

﴿وتب علينا﴾: بعد قيامنا بجميع ما أَمَرْتَنا حتى لا نلاحظ حركاتِنا وسكناتِنا، ونرجع إليه عن شهود أفعالنا لئلا يكونَ خطرُ الشِّرْك الخفيِّ في توهُّمِ شيءٍ مِنّا بِنَا.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

إن الواجبات لـمّا كانت من قِبَلِ الرسل دون مجرد المعقول سأل ألا يتركهم سُدًى، وألا يخليهم عن رسول وشرع. وطلب في ذلك الموقف أن يكون الرسول

«منهم» ليكونوا أَسْكَنَ إليه وأَسْهَلَ عليهم، ويصحُ أن يكون معناه أنه لما عَرَّفَهُ ـ سبحانه ـ حالَ نبيِّنا ﷺ سأل إنجاز ما وعده على الوجه الذي به (أمره).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

أخبر أنه آثر الخليل صلوات الله عليه على البرية، فجعل الدينَ دينَه، والتوحيدَ شِعارَه والمعرفةَ صِفته؛ فمن رَغِبَ عن دينه أو حاد عن سُنَّتِه فالباطلُ مطرحه، والكفر مهواه؛ إذ ليست الأنرار بجملتها إلا مقتبسة من نوره.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

الإسلام هو الإخلاص وهو الاستسلام، وحقيقته الخروج عن أحوال البشرية بالكلية من منازعات الاختيار ومعارضات النفس، قال: ﴿**أسلمت لرب العالمين**﴾: قابلت الأمر بالسمع والطاعة، واعتنقت الحكم على حسب الاستطاعة. ولم يدخل شيئاً من مالة وبدنه وولده، وحين أُمِرَ بذبح الولد قصد الذبح، وحين قال له خلِّه من الأسر (عمل) ما أُمِرَ به، فلم يكن له في الحالين «اختيار» ولا تدبير.

ويقال إن قوله: ﴿**أسلمتُ**﴾: ليس بدعوى من قِبَلِه لأن حقيقة الإسلام إنما هو التَّبري من الحوْل والقوة، فإذا قال: ﴿**أسلمت**﴾ فكأنه قال أَقِمْني فيما كلفتني، وحَقِّق مني ما بِهِ أمرتني. فهو أحال الأمر عليه، لا لإظهار معنى أو ضمان شيء من قِبَلِ نفسه.

ويقال أَمَرَه بأن يستأثر بمطالبات القدرة؛ فإن من حلَّ في الخلَّة محلَّه يحل به ـ لا محالة ـ ما حَلَّ به.

ويُسأَلُ ها هنا سؤال فيقال: كيف قال إبراهيم صلوات الله عليه: ﴿**أسلمت**﴾ ولم يَقُلْ نَبيُّنا ﷺ حينما قيل له اعْلم «علمت»؟.

والجواب عن ذلك من وجوه: منها أن النبي ﷺ قال «أنا أعلمكم بالله»[1] ولكن لم يَرِد بعده شرع فكان يخبر عنه بأنه قال علمت.

ويقال إن الله سبحانه أخبر عن الرسول عليه السلام بقوله: ﴿**آمن الرسول**﴾ لأن الإيمان هو العلم بالله سبحانه وتعالى، وقول الحق وإخباره عنه أتمُ من إخباره ـ عليه السلام ـ عن نفسه.

والآخر أن إبراهيم لما أخبر بقوله: ﴿**أسلمت**﴾ اقترنت به البلوى، ونبيُّنا ـ ﷺ ـ يتحرز عما عو صورة الدعوى فَحُفِظَ وكُفِيَ.

---

(١) أخرجه ابن حجر في (الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ١٣٩).

والآخر أن إبراهيم عليه السلام أُمِرَ بما يجرى مجرى الأفعال، فإن الاستسلامَ به إليه يشير. ونبينا ﷺ أُمِر بالعلم، (ولطائف العلم أقسام).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

أخبر أن إبراهيم عليه السلام وصَّى بنيه، وكذلك يعقوب عليه السلام قال لبنيه لا يصيبنكم الموت إلا وأنتم بوصف الإسلام. فشرائعهم ـ وإن اختلفت في الأفعال ـ فالأصل واحد، ومشرب التوحيد لا ثاني ـ له في التقسيم ـ وقوله تعالى: ﴿**إن الله اصطفى لكن الدين**﴾ بِشارة بما تقوي به دواعيهم على الرغبة فيما يكلفهم من الإسلام، لأنهم إذا تحققوا أن الله سبحانه اصطفى لهم ذلك علموا أنه لا محالة يعينهم فيسهل عليهم القيام بحق الإسلام.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ﴾.

جروا كلهم ـ صلوات الله عليهم ـ على منهاج واحد في التوحيد والإسلام، وتوارثوا ذلك خَلَفاً عن سَلَف، فهم أهل بيت الزلفة، ومستحقو القربة، والمُطَهَّرون من قِبَل الله ـ على الحقيقة.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

لم يقولوا إلهنا مراعاة لخصوصية قَدْره، حيث سلموا له المزية، ورأوا أنفسهم ملحقين بمقامه، ثم أخبروا عن أنفسهم أنهم طُيِّع له بقولهم ﴿**ونحن له مسلمون**﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

أنزل الحقُّ ـ سبحانه ـ كُلاً بمحلّه، وأفرد لكل واحدٍ قَدْراً بموجِب حكمه، فلا لهؤلاء عن أشكالهم خبر، ولا بما خَصَّ به كل طائفة إلى آخرين أثر، وكلٌّ في إقليمه مَلِك، ولكلٍ يدور بالسعادة فَلَك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

معناه إذا تجاذبتك الفِرَق، واختلفت عليك المطالبات بالموافقة، فاحكم بتقابل دعاواهم، وأَزِد من توجهك إلينا، جارياً على منهاج الخليل عليه السلام في اعتزال الجملة، سواء كان أباه، أو كان ممن لا يوافق مولاه، ولذا قال ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨] للحق بالحق.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

لمَّا آمن نبيُّنا ﷺ بجميع ما أُنزِلَ من قَبْلِهِ أُكْرِمَ بجميع ما أَكْرَمَه من قبله، فلمَّا أظهر موافقة الجميع أَمَرَ الكُلَّ بالكَوْنِ تحت لوائه فقال: «آدمُ ومَنْ دونه تحت لوائي يوم القيامة»(١).

ولمَّا آمنت أُمتُّهُ بجميع ما أنزل الله على رسله، ولم يفرقوا بين أحدٍ فهم ضربوا في التكريم بالسَّهم الأعلى فتقدموا على كافة الأمم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

إن سلكوا طريقتكم، وأخذوا بسبيلكم، أُكرموا بما أُكْرِمتم، ووصلوا إلى ما وصلتم، وإنْ أَبَوْا إلا امتيازاً أَبَيْنا إلا هوانهم، فإنَّ نَظَرَنا لمن خدمك يا محمد بالوصلة، وأعراضنا عمن بَايَنَك وخالفك (. . .)(٢)، من خالفك فهو في شق الأعداء، ومن خدمك فهو في شق الأولياء.

﴿فسيكفيكم الله وهو السميع العليم﴾: كفاية الله متحققة لأن عناية الله بكم متعلقة، فمن نابذكم قصمته أيادي النصرة، ومن خالفكم قهرته قضايا القسمة، وهو السميع لمناجاة أسراركم معنا على وصف الدوام، العليم باستحقاقكم (منا) خصائص اللطف والإكرام.

قوله جلّ ذكره: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ﴾.

معناه الزموا صبغةَ الله، فهو نصب بإضمار فعل.

والإشارة أن العبرة بما وضع الحق لا بما جمع العبد، فما يتكلفه الخلْقُ فإلى الزوال مآله، وما أثبت الحق عليه الفطرةَ فبإثباته العبرة.

---

(١) أخرجه العجلوني في (كشف الخفاء ١/ ١٦)، والسيوطي في (الدر المنثور ٦/ ٣٠١).

(٢) بياض في الأصل.

وللقلوب صبغة وللأرواح صبغة وللأسرار صبغة وللظواهر صبغة. صبغة الأشباح والظواهر بآثار التوفيق، وصبغة الأرواح والسرائر بأنوار التحقيق.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾.

كيف تصحُّ محاجة الأجانب وهم تحت غطاء الغيبة، وفي ظلال الحجبة. والأولياء في ضياء الكشف وظُهْر الشهود؟

ومتى يستوي حال من هو بنعت الإفلاس بِغَيْبَتِهِ مع حال من هو حكم الاختصاص والإخلاص لانغراقه في قُرْبَتِه؟ هيهات لا سواء!

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

مَنْ نظر مِنْ نفسه إلى الخَلْقِ يتخيَّل كُلًّا بِرَقمِه، ويحسب الجميع بنعت مثله؛ فلمَّا كانوا بحكم الأجنبيَّة حَكَم الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بمثل حالتهم، فردَّ الحقُّ ـ سبحانه ـ عليهم ظنَّهم و (...)[1] فيهم رأيهم. وهل يكون المجذوب عن شاهده كالمحجوب في شاهده؟ وهل يتساوى المختطف عن كُلِّه بالمردود إلى مثله؟

ذلك ظن الذين كفروا فتعساً لهم!

قوله جلّ ذكره: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

حالت بينكم وبينهم حواجز من القِسمةِ؛ فهم على الفُرقة والغفلة أسسوا بنيانهم، وأنتم على الزلفة والوصلة ضربتم خيامكم. وعتيق[2] فضلنا لا يشبه طريد قهرنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾.

سقمت بصائر الكفار فلم يَلُحْ لهم وجهُ الصواب في جميع أحوال المؤمنين، فطالعوها بعين الاستقباح، وانطلقت ألسنتهم بالاعتراض في كل ما كان ويكون منهم، فلم يروا شيئاً جديداً إلا أَتَوْا عليه باعتراض جديد.

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) العتيق: الحر أو الكريم.

فمن ذلك تغير أمر القِبْلة حينما حُوِّلَتْ إلى الكعبة قالوا إن كانت قبلتهم حقاً فما الذي ولَّاهم عنها؟ فقال جل ذكره:

قوله جلّ ذكره: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

يتعبَّد العباد إلى أي قطرٍ و (. . .)[1] ونحوِ شاؤوا، وكذلك أصحابُ الغيبة والحُجبة ـ عن شهود تصريف الحق لأوليائه ـ يطلبون وجوهاً من الأمر، يحملون عليها أحوالهم، ولو طالعوا الجميع من عين واحدة لتخلصوا عن ألم تَوَزُّع الفِكْر، وشِغْل تَرَجُّم الخاطر، ومطالبات تَقَسُّم الظنون، ولكنَّ الله يهدي لنوره من شاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

الوسط الخيار، فجعل هذه الأمة خيار الأمم، وجعل هذه الطائفة خيار هذه الأمة فهم خيار الخيار. فكما أن هذه الأمة شهداء على الأمم في القيامة فهذه الطائفة هم الأصول، وعليهم المدار، وهم القطب، وبهم يحفظ الله جميع الأمة، وكلُّ من قَبِلَتْهُ قلوبهم فهو المقبول، ومن رَدَّتْه قبولهم فهو المردود. فالحكم الصادق لفراستهم، والصحيح حكمهم، والصائب نظرهم عصم جميع الأمة (عن) الاجتماع على الخطأ، وعصم هذه الطائفة عن الخطأ في النظر والحكم، والقبول والرد، ثم إن بناءَ أمرهم مُسْتَنِدٌ إلى سُنَّة الرسول ﷺ. وكل ما لا يكون فيه اقتداءٌ بالرسول عليه السلام فهو عليه ردٌّ، وصاحبه على لا شيء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

بيَّن أن الحكم في تقرير أمر القبلة إلى وقت التحويل، وتحويلها من وقت التبديل كان اختباراً لهم من الحق ليتميز الصادق من المارق، ومَنْ نَظر إلى الأم بعين التفرقة لكبُر عليه أمر التحويل، ومن نظر بعين الحقيقة ظهرت لبصيرته وجوه الصواب. ثم قال: **﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾** أي من كان مع الله في جميع الأحوال على قلبٍ واحد فالمختلفات من الأحوال له واحدة، فسواءٌ غيَّر أو قرَّر، وأثبت أو بدَّل، وحقَّق أو حوَّلَ فَهُمْ بِهِ لَهُ في جميع الأحوال، قال قائلهم:

---

(١) بياض في الأصل.

كيفما دارت الزجاجة دُرْنا يحسب الجاهلون أنّا جُنِنّا

فإنْ قابلوا شرقاً أو واجهوا غَرْباً، وإنْ استقبلوا حجراً أو قاربوا مدراً، فمقصودُ قلوبهم واحدٌ، وما كان للواحد فحُكْمُ الجميع فيه واحد.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾.

حَفِظَ ـ صلوات الله عليه ـ الآدابَ حيث سكت بلسانه عن سؤال ما تمنّاه من أمر القبلة بقلبه، فَلاحَظَ السماءَ لأنها طريق جبريل عليه السلام، فأنزل الله عزَّ وجل: **﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾** أي علمنا سؤلك عمَّا لم تُفْصِحْ عنه بلسان الدعاء، فلقد غيَّرنا القِبْلَةَ لأجلك، وهذه غاية ما يفعل الحبيب لأجل الحبيب.

كلُّ العبيدِ يجتهدون في طلب رضائي وأنا أطلب رضاك **﴿فلنولينك قِبْلَةً ترضاها﴾ ﴿فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام﴾**: ولكن لا تُعَلِّقْ قلبَكَ بالأحجار والآثار، وأَفرِد قلبك لي، ولتكن القِبلةُ مقصودَ نَفْسِك، والحقُّ مشهودَ قلبك، وحيثما كنتم أيها المؤمنون فولوا وجوهكم شطره، ولكن أَخْلِصوا قلوبَكم لي وأَفرِدوا شهودكم بي.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾

ولكنه عِلْمٌ لا يكون عليهم حجة، ولا تكون لهم فيه راحة أو منه زيادة، **﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾** تهويلاً على الأعداء، وتأميلاً على الأولياء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾

سبق لكم من قديم الحكم (. . .)[1] انفرادٌ بطريق الحق، ووقوع أعدائكم في شق البُعْد، فبينكما برزخٌ لا يبغيان، فما هم بِتَابعي قبلتكم وإنْ أريتهم من الآثار ما هو أظهر من الشموس والأقمار، ولا أنت ـ بتابعِ قبلتهم وإن أتوا بكل احتيال، حُكْماً من الله ـ سبحانه ـ بذلك في سابق الأزل.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) بياض في الأصل.

حَمَلَتهم مُسْتَكنَّاتُ الحَسَدِ على مكابرة ما علموه بالاضطرار، فكذلك المغلوب في ظلمات نفسه، ألقى جلباب الحياء فلم ينجع فيه مَلَام، ولم يَرْدَعه عن انهماكه كلام.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾.

أي بعدما طلعت لك شموس اليقين فلا تَأْعَنْ إلى مجوزات التخمين. والخطاب له والمراد به الأمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الإشارة منه: أنَّ كل قوم اشتغلوا عنَّا بشيءٍ حَالَ بينهم وبيننا، فكونوا أنتم أيها المؤمنون لنا وبنا، وأنشد بعضهم:

إذا الأشغالُ أَلْهَوْني عنك بشُغْلِهم ... جعلتك أشغالي فأَنْسَيْتَني شُغْلي

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾.

كما تستقبلون أينما كنتم القِبْلَة ـ قَرُبتُم منها أم بَعُدْتُم ـ فكذلك أَقْبِلُوا علينا بقلوبكم كيفما كنتم، ؛ حَظَيتم منا أو مُنِيتُم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾.

إذا أردت ألا يكون لأحد عليك سبيلٌ، ولا يقع لمخلوق عليك ظِلٌّ، ولا تصل إليك بالسوءِ يَدٌ، فحيثما كنتَ وأينما كنتَ وكيفما كنت كن لَنَا وكُن مِنَّا، فإنَّ من انقطع إلينا لا يتطرق إليه حدثان.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي﴾.

إذا كانوا محوا عن كونهم رسوماً تجري عليهم أحكامنا ـ فأنَّى بالخشية منهم!؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

إتمام النعمة إضافة الكشف إلى اللطف، فإن من كفاه بمقتضى جوده دون من أغناه بحق وجوده، وفي معناه أنشدوا:

نحن في أكمل السرورِ ولكنْ ... ليس إلا بكم يَتمُّ السرور
عيبُ ما نحن فيه ـ يا أهلَ وُدِّي ـ ... أنكم غُيَّبٌ ونحن الحُضُور

قوله جلّ ذكره: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾.

إرسال الرسول مفاتحة لأبواب الوصول، فكان في سابق علمه ـ سبحانه ـ أن قلوب أوليائه متعطشة إلى لقائه. ولا سبيل لأحد إليه إلا بواسطة الرسل؛ فأقوام ألزمهم ـ بإرسال الرسل إليهم ـ الكُلَف، وآخرون أكرمهم ـ بإرسال الرسل إليهم ـ بفنون القُرَب والزُّلَف، وشتّان بين قوم وقوم!

قوله جلَ ذكره: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾.

الذكر استغراق الذاكر في شهود المذكور، ثم استهلاكه في وجود المذكور، حتى لا يبقى منك أثر يذكر، فيقال قد كان مرةً فلان.

﴿فاذكروني أذكركم﴾ أي كونوا مستهلكين في وجودنا، نذكركم بعد فنائكم عنكم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ [الذاريات: ١٦] كانوا وقتاً ولكنهم بانوا دائماً(١):

أنــــاس حـــديـــث حـــســـن فكن حديثاً حسناً لمن وعنى(٢)

وطريقة أهل العبارة **﴿فاذكروني﴾** بالموافقات **﴿أذكركم﴾** بالكرامات، وطريقة أهل الإشارة **﴿فاذكروني﴾** بِتَرْكِ كل حظ **﴿أذكركم﴾** بأن أقيمكم بحقي بعد فنائكم عنكم.

﴿فاذكروني﴾ مكتفين بي عن عطائي وأفضالي **﴿أذكركم﴾** راضياً بكم دون أفعالكم.

﴿فاذكروني﴾ بذكري لكم ما تذكرون، ولولا سابِقُ ذكري لما كان لاحِقُ ذكركم.

﴿فاذكروني﴾ بقطع العلائق **﴿أذكركم﴾** بنعوت الحقائق.

ويقال اذكرني لكل مَنْ لَقِيتَه أذكرك لمن خاطَبتُه، «فمن ذكرني في مَلأٍ ذكرته في ملأ خيرٍ منهم»(٣).

ويقال **﴿(واشكروني﴾** على عظيم المِنّةِ عليكم بأن قُلْتُ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾.

ويقال الشكر من قبيل الذكر، وقوله: **﴿ولا تكفرون﴾** النهي عن الكفران أمرٌ بالشكر، والشكر ذكر، فكرر عليك الأمر بالذكر، والثلاث أول حدِّ الكثرة، والأمر بالذكر الكثير أمر بالمحبة لأنَّ في الخبر: «من أحب شيئاً أكثر ذكره» فهذا ـ في الحقيقة ـ أمرٌ بالمحبة آي أحْبِبْني أحبك؛ **﴿فاذكروني أذكركم﴾** أي أحبوني أحببكم.

ويقال: **﴿فاذكروني﴾** بالتذلل **﴿أذكركم﴾** بالتفضُّل.

---

(١) قال القشيري في رسالته: سُئل يحيى بن معاذ عن العارف فقال: رجل كائن بائن، وقال مرة: كان فبان. (الرسالة القشيرية ص٣١٧).

(٢) البيت مضطرب.

(٣) أخرجه البخاري (توحيد ١٥)، والترمذي (دعاء ١٣١)، وأحمد بن حنبل ٢/ ٢٥١، ٣٥٤، ٤٠٥، ٤١٣، ٤٨٠، ٤٨٢، ٣/ ١٣٨.

﴿فاذكروني﴾ بالانكسار ﴿أذكركم﴾ بالمبار.

﴿فاذكروني﴾ باللسان ﴿أذكركم﴾ بالجِنان.

﴿فاذكروني﴾ بقلوبكم ﴿أذكركم﴾ بتحقيق مطلوبكم.

﴿فاذكروني﴾ على الباب من حيث الخدمة ﴿أذكركم﴾ بالإيجاب على بساط القربة بإكمال النعمة.

﴿فاذكروني﴾ بتصفية السِّر ﴿أذكركم﴾ بتوفية البِّر.

﴿فاذكروني﴾ بالجهد والعناء ﴿أذكركم﴾ بالجود والعطاء.

﴿فاذكروني﴾ بوصف السلامة ﴿أذكركم﴾ يومَ القيامة يومَ لا تنفع الندامة.

﴿فاذكروني﴾ بالرهبة ﴿أذكركم﴾ بتحقيق الرغبة.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

استعينوا بالصبر على الصلاة أي بصبركم ـ عند جريان أحكام الحق عليكم ـ استحقاقكم صلاة ربكم عليكم، ولذا فإنه تعالى بعد ﴿وبشر الصابرين﴾ يقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

ويقال استوجب الصابرون نهاية الذخر، وعلو القدر حيث نالوا معَيَّة الله قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾.

فاتتهم الحياة في الدنيا ولكن وصلوا إلى الحياة الأبدية في العُقْبَى، فهم في الحقيقة أحياء، يجدون من الله فنون الكرامات.

ويقال هم أحياء لأن الخَلَفَ عنهم اللَّهُ ومَنْ كان الخلفُ عنه الله لا يكون ميتاً، قال قائلهم في مخلوق:

إن يكن عنَّا مضى بسبيله فما ... مات من يبقى له مثل خالد

ويقال هم أحياء بذكرِ الله لهم، والذي هو مذكور الحق بالجميل بذكره السرمدي ليس بميت.

ويقال إنَّ أشباحهم وإنْ كانت متفرقة، فإنَّ أرواحهم ـ بالحق سبحانه ـ متحققة.

ولئن فَنِيَتْ بالله أشباحُهم فلقد بَقِيَتْ بالله أرواحُهم لأنَّ من كان فناؤه بالله كان بقاؤه بالله.

ويقال هم أحياء بشواهد التعظيم، عليهم رداء الهيبة وهُمْ في ظلال الأُنْس، يبسطهم جَمَالُه مرةً، ويستغرقهم جلاله أخرى.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

ابتلاهم بالنعمة لِيُظْهِرَ شكرهم، وابتلاهم بالمحنة ليظهر صبرهم، فلما أدخل المعلوم من حالهم في الوجود، ورسمهم بالرقم الذي قَسَمَه، وأثبتهم على الوصف الذي علمه، (ابتلاهم) بالخوف وفيه تصفية لصدورهم، وبالجوع وفيه تنقية لأبدانهم، وبنقص من الأموال تزكو به نفوسهم، وبمصائب النفوس يعظم بها عند الله أجرهم، وبآفة الثمرات يتضاعف من الله خلفهم.

﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ يعني الذين لا اعتراض لهم على تقديره فيما أمضاه.

ويقال طالبهم بالخوف (ابتعاداً) عن عقوبته ثم بمقاساة الجوعِ ابتغاء قربته وكرامته، ونقصٍ من الأموال بتصَدُّقِ الأموال والخروج عنها طلباً للخيرِ منه بحصول معرفته.

«والأنفس» تسليماً لها إلى عبادته «والثمرات» القول بترك ما يأملونه من الزوائد في نعمته ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على استحسان قضيته، والانقياد لجريان قدرته.

ومطالبات الغيب إما أن تكون بالمال أو بالنفس أو بالأقارب؛ فمن أوقف المال لله فله النجاة، ومن بذل لحكمه النَّفْسَ فله الدرجات، ومن صبر عند مصائب الأقارب فله الخلف والقُرُبات، ومن لم يدخر عنه الروح فله دوام المواصلات.

قوله جل ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾... الآية.

قابلوا الأمر بالصبر لا بل بالشكر لا بل بالفرح والفخر.

ومن طالع الأشياء مِلْكاً للحق رأى نفسه أجنبياً بينه وبين حكمه؛ فمِنشِىءُ الخَلْقِ أولى بالخَلْق من الخَلْق.

ويقال من شهد المصائب شهد نفسه لله وإلى الله، ومن شاهد المُبْلِي عَلِمَ أن ما يكون من الله فهو عبد بالله، وشتان بين من كان لله وبين من كان بالله؛ الذي كان لله فصابرٌ واقفٌ، والذي هو بالله فساقط الاختيار والحكم، إنْ أثبته ثَبَتَ، وإنْ محاه انمحى، وإنْ حرَّكه تحرك، وإن سَكَّنَه سَكَن، فهو عن اختياراته فانٍ، وفي القبضة مُصَرَّفٌ.

قوله جل ذكره: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾.

بصلواته عليهم ابتداءً وصلوا إلى صبرهم ووقوفهم عند مطالبات التقدير، لا بصبرهم ووقوفهم وصلوا إلى صلواته، فلولا رحمته الأزلية لما حصلت طاعتهم بشرط العبودية، فعنايته السابقة أوجبت لهم هداية خالصة.

قال تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ لما رحمهم في البداية اهتدوا في النهاية.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾.

تلك المشاهد والرسوم، وتلك الأطلال والرقوم، تُعَظَّم وتُزار، وتُشدُّ إليها الرحال لأنها أطلال الأحباب، وهنالك تلوح الآثار:

أهوى الديار لمن قد كان ساكنها ... وليس في الدارِ همٌّ ولا طَرَبُ

وإن لتُرابِ طريقهم بل لغبار آثارهم ـ عند حاجة الأحباب ـ أقداراً عظيمة، وكل غبرة تقع على (حافظات طريقهم) لأعزُّ من المِسْك الأذفر[1]:

وما ذاك إلا أن مشت عليه أميمةٌ ... في تربها وجرَّت به بُردا[2]

قوله جل ذكره: ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.

حَظَى الصفا والمروة[3] بجوار البيت فَشُرِعَ السعي بينهما كما شرع للبيت الطواف، فكما أن الطواف ركن في النُّسك فالسعي أيضاً ركن، والجارُ يُكْرَمُ لأجل الجار.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾.

الإشارة في هذه الآية لمن كاشفه الحقُّ سبحانه بعلم من آداب السلوك ثم ضنّ بإظهاره للمريدين على وجه النصيحة والإرشاد استوجب المقت في الوقت، ويخشى عليه نزع البركة عن علمه متى قصّر فيه لما أخَّر من تعليم المستحِق.

قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

تداركوا ما سلف من تقصيرهم بحسن الرُّجْعَى، والقيام للمريدين على وجه النصيحة، وبيَّنوا لهم ـ بجميل البيان وإقامة البرهان على ما يقولون ـ حسنَ قيامهم بمعاملاتهم. فإنَّ أظهرَ الحجَج لبيانِ أفعالك وأصدقَ الشهادةِ لتصحيح ما تدعو به الخلْق إلى الله ـ ألا يُخالِفَ بمعاملتك ما تشير إليه بمقالتك، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].

---

(١) المسك الأذفر: أي الجيد ذو الرائحة الطيبة.

(٢) البُرْد: ثوب مخطط أو موشَّى يُلتحف به (ج) برود، وأبراد، وأبرد.

(٣) الصفا: اسم أحد جبلي المسعى من مشاعر الحج بمكة. والمروة: إحدى شعائر الحج يسعى بينها الحاج وبين الصفا.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

الإشارة فيه أن الذين بدا لهم بعدما سلكوا طريق الإرادة (أنْ) يرجعوا إلى أحوال العادة، ثم في تلك الوحشة قُبضوا، وعلى تلك الحالة من الدنيا خرجوا، أولئك أصحاب الفُرقة، فلا على أرواحهم إقبال ولا لمصيبتهم جبران، ولا لأحد عليهم ترحم، خسروا في الدنيا والآخرة، يلعنهم البقُّ في الهواء والنقعُ على الماء.

﴿خَٰلِدِينَ﴾ أي مقيمين أبداً في هوانهم وصغرهم، لا تخفيف ولا إسعاف ولا رفق ولا ألطاف.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

شرّفهم غايةَ التشريف بقوله ﴿وَإِلَٰهُكُمْ﴾. وإن شيوخ هذه الطائفة قالوا: علامةُ من يَعُدُّه من خاصّ الخواص أن يقول له: عبدي، وذلك أتمُّ من هذا بكثير لأن قوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ﴾: وإضافة نَعْتِهِ أتمُّ من إضافته إياك إلى نفسه لأن إلهيته لَكَ بلا عِلّة، وكونُك له عبد يُعوِّض كل نقصك وآفتك. ومتى قال لكم ﴿وَإِلَٰهُكُمْ﴾.

حين كانت طاعتك وحركاتك وسكناتك أو ذاتك وصفاتك لا بل قبل ذلك أزل الأزل حين لا حِينَ، ولا أوَانَ، ولا رسم ولا حدثان.

و﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾ من لا مِثْلَ له يدانيه، ولا شكل يلاقيه. لا قسيم يجانسه ولا نديم يؤانسه. لا شريكَ يعاضده ولا مُعِين يساعده ولا منازعَ يعانده.

أحديُّ الحق صمديُّ العين ديموميُّ البقاء أبديُّ العز أزليُّ الذات.

واحدٌ في عز سنائه فردٌ في جلال بهائه، وِترٌ في جبروت كبريائه، قديم في سلطان عِزّه، مجيد في جمال ملكوته. وكل مَنْ أطنب في وصفه أصبح منسوباً إلى العمى (فـ) ـلولا أنه الرحمن الرحيم لتلاشى العبدُ إذا تعرَّض لعرفانه عند أول ساطعٍ من بادياب عزه.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

تَعَرَّف إلى قلوب الطالبين من أصحاب الاستدلال وأرباب العقول بدلالات قدرته، وأمارات وجوده، وسمات ربوبيته التي هي أقسام أفعاله. ونبههم على وجود الحكمة ودلالات الوحدانية بما أثبت فيها من براهينَ تلطُف عن العبارة، ووجوهٍ من الدلالات تَدِقُّ عن الإشارة، فما من عينٍ من العدم محصولة ـ من شخصٍ أو طلل، أو

رسم أو أثر، أو سماء أو فضاء، أو هواء أو ماءٍ، أو شمسٍ أو قمر، أو قَطْرٍ أو مطر، أو رَمل أو حجرٍ، أو نجم أو شجرٍ - إلا وهو على الوحدانية دليل، ولِمَنْ يقصد وجوده سبيل.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾.

هؤلاء قوم لم يجعلهم الحق سبحانه أهل المحبة، فَشَغَلهم بمحبة الأغيار حتى رضوا لأنفسهم أن يحبوا كل ما هَوَتهْ أنفسهم، فرضوا بمعمولٍ لهم أن يعبدوه، ومنحوت - من دونه - أن يحبوه.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾.

ليس المقصود من هذا ذكر محبة الأغيار للأصنام، ولكن المراد منه مدح المؤمنين على محبتهم، ولا تحتاج إلى كثير محبة حتى تزيد على محبة الكفار للأصنام، ولكن من أحبَّ حبيباً استكثر ذكره، بل استحسن كل شيء منه.

ويقال وجه رجحان محبة المؤمنين لله على محبة الكفار لأصنامهم أن (هذه) محبة الجنس للجنس، وقد يميل الجنس إلى الجنس، وتلك محبةُ من ليس بجنسٍ لهم فذلك أعزُّ وأحق.

ويقال إنهم أحبوا ما شاهدوه، وليس بعجيب محبة ما هو لك مشهود، وأمَّا المؤمنون فإنهم أحبوا من حَالَ بينهم وبين (شهوده) رداء الكبرياء على وجهه.

ويقال الذين آمنوا أشد حباً لله لأنهم لا يتبرأون من الله سبحانه وإنْ عَذَّبَهُم. والكافر تبرأ من الصنم والصنمُ من الكافر كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ الآية.

ويقال محبة المؤمنين حاصلة من محبة الله لهم فهي أتم، قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] ومحبتهم للأصنام من قضايا هواهم.

ويقال محبة المؤمنين أتمُّ وأشدُّ لأنها على موافقة الأمر، ومحبة الكفار على موافقة الهوى والطبع، ويقال إنهم كانوا إذا صلحت أحوالهم، واتسعت ذات يدهم اتخذوا أصناماً أحسن من التي كانوا يعبدونها قبل ذلك في حال فقرهم؛ فكانوا يتخذون من الفضة - عند غناهم - أصناماً ويهجرون ما كان من الحديد... وعلى هذا القياس! وأمَّا المؤمنون فأشَدُّ حباً لله لأنهم عبدوا إلهاً واحداً في السّراء والضراء.

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾.

إذا بَدَتْ لهم أوائلُ العذاب اتضح أنهم لم يقفوا من الصدق على قَدَم، وأمّا المؤمنون فيسلبهم أرواحهم وأملاكهم وأزواجهم وأولادهم، ويُسْكِنُ (أولئك)[1] في القبور سنين ثم يبتليهم في القيامة بطول الآجال وسوء الأعمال ثم يلقيهم في النار.

(أما المؤمنون)[2] فيأتي عليهم طول الأيام والأعمال فلا يزدادون إلا محبة (على محبة) ولذلك قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

عند ذلك يعرفون مرارة طعم صحبة المخلوقين ولكن لا يحصلون إلا على حسرات.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

الحرام ـ وإنْ اسْتُلِذَّ في الحال ـ فهو وبيء في المآل، والحلال ـ وإن اسْتُكْرِه في الحال ـ فهو مريء في المآل.

والحلال الصافي ما لم ينسَ مُكْتَسِبُه الحقَّ في حال اكتسابه[3].

ويقال الحلال ما حصله الجامع له والمكتسب على شهود الحق في كل حال.

وكلُّ ما يحملك على نسيان الحق أو عصيان الحق فهو من خطوات الشيطان.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

لاجترائه على الله يدعوك به إلى افترائك على الله.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

لا ترفع أبصارهم عن أشكالهم وأصنافهم، من أضرابهم وأسلافهم، فَبَنَوْا على منهاجهم، فلا جَرَمَ انخرطوا في النار، وانسلكوا في سلكهم، ولو عَلِمُوا أن أسلافهم لا عقل يردعهم، ولا رشد يجمعهم لنابذوهم مناصبين، وعاندوهم مخالفين، ولكن سلبوا أنوار البصيرة، وحُرِموا دلائل اليقين.

---

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق. (٢) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) القشيري هنا استفاد من تعريف سهل بن عبد الله التستري للحلال الصافي. سُئل سهل عن الحلال الصافي فقال: هو الذي لا يُعصى الله تعالى فيه، وقال سهل: الحلال الصافي هو الذي لا يُنسى الله تعالى فيه. (الرسالة القشيرية ص١١٢).

قوله جل ذكره: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

عدموا سمع الفهم والقبول، فلم ينفعهم سمع الظاهر، فنزلوا منزلة البهائم في الخلوّ عن التحصيل، ومَنْ رضي أن يكون كالبهيمة لم يقع عليه كثير قيمة.

قوله جل ذكره: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

الحلال ما لا تبعة عليه، والطيب الذي ليس لمخلوقٍ فيه مِنَّة، وإذا وجد العبد (طعا)ماً يجتمع فيه الوصفان فهو الحلال الطيب.

وحقيقة الشكر عليه ألا تتنفس في غير رضاء الحق ما دام تبقى فيك القوة لذلك الطعام.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

حرَّم على الظواهر هذه المعدودات وهي ما أهل به لغير الله، وحرَّم على السرائر صحبة غير الله بل شهود غير الله، فمن اضطر ـ أي لم يجد إلى الاستهلاك في حقائق الحق وصولاً ـ فلا يَسْلكَنَّ غير سبيل الشرع سبيلاً، فإما أن يكون محواً في الله، أو يكون قائماً بالله، أو عاملاً لله، والرابع همجٌ لا خطَر له.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

العلماء مُطَالَبُون بنشر دلائل العلم، والأولياء مأمورون بحفظ ودائع السِّر فإنْ كتَم هؤلاء براهين العلوم ألجموا بلجام من النار، وإن أظهر هؤلاء شظية من السر عُوجِلوا ببعاد الأسرار، وسُلِب ما أوتوا من الأنوار. ولكُلٍ جدٌّ، وعلى كل أمرٍ قطيعة.

قوله جل ذكره: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾.

إن الذين آثروا الغَيْرَ على الغيب، والخلْقَ على الحقّ، والنَّفْسَ على الأنسِ، ما أقسى قلوبهم، وما أوقح محبوبهم ومطلوبهم، وما أخس قدرهم، وما أفضح لذوي الأبصار أمرهم! ذلك بأن الله نَزَّل الكتاب بالحق، وأمضى القضاء والحكم فيه

بالصدق، وأوصلهم إلى مَالَهُ أَهَّلَهُمْ، وأثْبَتَهُم على الوجه الذي عليه جَبَلَهُمْ.

قوله جل ذكره: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

والإشارة أن الظواهِرَ ليس لها كثيرُ اعتبار إنما الخبر عن الله عزيز.

وكثرة الأوراد ـ وإن جلّت ـ فحرفة العجائز، وإخلاص الطاعات ـ وإن عزَّ ـ فصفة العوام، وَوَصْلُ الليل بالنهار في وظائف كثيرة ومجاهدات غزيرة عظيم الخطر في استحقاق الثواب، ولكنَّ معرفة الحق عزيزة.

وما ذُكِر في هذه الآية من فنون الإحسان، ووجوه قضايا الإيمان، وإيتاء المال، وتصفية الأعمال، وصلة الرحم، والتمسك بفنون الذّمم والعِصَم، والوفاء بالعهود، ومراعاة الحدود ـ عظيم الأثر، كثير الخطر، محبوب الحق شرعاً، ومطلوبه أمراً لكِنّ قيام الحق عنك بعد فنائك، وامتحائك مِنْ شاهِدِك، واستهلاكك في وجود القِدَم، وتعطل رسومك عن مساكنات إحساسك ـ أتمُّ وأعلى في المعنى؛ لأن التوحيد لا يُبقِي رسماً ولا أثراً، ولا يغادر غَيْراً ولا غَبَراً[(١)].

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

حق القِصاص مشروع، والعفو خير، فمن جنح إلى استيفاء حقه فمُسَلَّمٌ له، ومن نزل عن ابتغاء حقه فمحسن، فالأول صاحب عبادة بل عبودية، والثاني صاحب فتوة بل حرية.

والدم المراق يجري فيه القِصاص على لسان أهل العلم، وأمّا على لسان الإشارة لأهل القصة فدماؤهم مطلولة وأرواحهم هدرة قال:

وإن فـؤداً رعـتـه لَـكَ حـامـدٌ　　　وإنَّ دمـاً أجـريـتـه بِـك فـاخِـرُ

وسفك دماء الأحباب (فوق) بساط القرب خلوف أهل الوصال، قال النبي ﷺ: «اللونُ لونُ الدم والريحُ ريح المِسك»[(٢)].

(١) الغير: السوى، وإغبر: غَبَر: بقي أو مضى.
(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٣٨٤).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

في استيفاءِ القصاص حياة لأنه إذا عَلِمَ أنه إذا قَتَلَ قُتِلَ أمْسَكَ عن القتل وفي ذلك حياة القاتل والمقتول.

ولكن ترك القصاص ـ على بيان الإشارة ـ فيه أعظم الحياة لأنه إذا تَلِفَ فيه (سبحانه) فهو الخَلَفُ عنه، وحياته عنه أتم له من بقائه بنفسه. وإذا كان الوارثَ عنهم الله والخَلَفَ عنهم اللَّهُ فبقاءُ الخلفِ أعزُّ مِنْ حياةِ مَنْ ورد عليه التلف.

قوله جل ذكره: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

مَنْ تَرَكَ مالاً فالوصية له مالِه مُسْتَحبةٌ، ومَنْ لم يترك شيئاً فأنَّى بالوصية!! في حالة الأغنياء يوصون في آخر أعمارهم بالثلث، أمّا الأولياء فيخرجون في حياتهم عن الكُلِّ، فلا تبقى منهم إلا همةٌ انفصلت عنهم ولم تتصل بشيء؛ لأن الحق لا سبيل للهمة إليه، والهمة لا تَعَلُّقَ لها بمخلوق، فبقيت وحيدة منفصلة غير متصلة، وأنشدوا:

أحبكُم ما دمتُ حياً فإنْ أمُتْ يحبكم عظمي في التراب رميم

هذه وصيتهم: وقال بعضهم:

(١) ....

لا بل كما قال قائلهم:

وأتى الرسول فأخبر أنهم رحلوا قريبا
رجعوا إلى أوطانهم فجرى له دمعي صبيبا

قوله جل ذكره: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

من حرّف نُطْقَاً جرى بِحقِّهِ لِحَقه شؤمُ ذلك ووباله.

وعقوبته أن يُحرَم رائحة الصدق أن يشمه. فمن أعان الدينَ أعانه الله، ومن أعان على الدين خذله الله.

قوله جل ذكره: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

الإشارة فيه: أن من تَفرسَ في بعض المريدين ضعفاً، أو رأى في بعض أهل

(١) بياض في الأصل.

البداية رخاوةَ قصدٍ أو وجد بعض الناصحين يتكلم بالصدق المحض على من لم يحتمله ـ فرأى أن يرفق بذلك المريد بما يكون ترخيصاً له أو استمالة له أو مداراة أو رضا بتعاطي مباح ـ فلا بأسَ به فإن حَمْلَ الناس على الصدق المحض مما لم يثبت له كثيرُ أجر. فالرِّفق بأهل البداية ـ إذا لم يكن لهم صارم عزم، ولا صادق جهد ـ ركْنٌ في ابتغاء الصلاح عظيم.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

الصوم على ضربين: صوم ظاهر وهو الإمساك عن المفطرات مصحوباً بالنية، وصوم باطن وهو صَوْنُ القلب عن الآفات، ثم صون الروح عن المساكنات، ثم صون السِّرِّ عن الملاحظات.

ويقال صوم العابدين شرطه ـ حتى يَكْمُلَ ـ صونُ اللسان عن الغيبة، وصون الطَرْف عن النظر بالريبة كما في الخبر: (مَنْ صام فَلْيَصُمْ سمعه وبصره....)[1] الخبر، وأما صوم العارفين فهو حفظ السر عن شهود كل غيره.

وإن من أمسك عن المفطرات فنهاية صومه إذا هجم الليل، ومن أمسك عن الأغيار فنهاية صومه أن يشهد الحق، قال ﷺ: «صوموا وأفطروا لرؤيته»[2]: الهاء في قوله عليه السلام ـ لرؤيته ـ عائدة عند أهل التحقيق إلى الحق سبحانه، فالعلماءُ يقولون معناه عندهم صوموا إذا رأيتم هلال رمضان وأفطروا لرؤية هلال شوال، وأما الخواص فصومهم لله لأن شهودهم الله وفطرهم بالله وإقبالهم على الله والغالب عليهم الله، والذي هم به محو ـ الله.

قوله جل ذكره: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

من شهد الشهر صام لله، ومن شهد خالق الشهر صام بالله، فالصوم لله يوجب المثوبة، والصوم بالله يوجب القربة. الصوم لله تحقيق العبادة والصوم بالله تصحيح الإرادة. الصوم لله صفة كل عابد والصوم بالله نعت كل قاصد. الصوم لله قيام بالظواهر والصوم بالله قيام بالضمائر. الصوم لله إمساك من حيث عبادات الشريعة والصوم بالله إمساك بإشارات الحقيقة.

---

(١) أخرجه السيوطي في (الدر المنثور ١/ ٢٠١).

(٢) أخرجه النسائي في سننه (الصيام ب٨، ب١١)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٤٣٠٨) وابن حجر في (المطالب العالية ٩٠٩)، وأبو نعيم في (تاريخ أصبهان ١/ ١١٦).

من شهد الشهر أمسك عن المفطرات ومن شهد الحق أمسك في جميع أوقاته عن شهود المخلوقات.

من صام بنفسه سُقِيَ شرابَ السلسبيل والزنجبيل، ومن صام بقلبه سُقِيَ شراب المحاب بنعمة الإيجاب.

ومن صام بِسِرِّهِ فهم الذين قال فيهم الله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١].

شراب يا له من شراب!! شراب لا يُدار على الكف لكنه يبدو له من اللطف.

شراب استئناس لا شراب كأس.

قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي من أفطر لهذه الأعذار فعليه صوم عدة أيام بعدد ما أفطر قضاء لذلك. الإشارة لمن سقمت إرادته عن الصحة فيرجع إلى غيره إما لرخصة تأويل أو لقلة قوة واحتمال، أو عجز للقيام بأعباء أحكام الحقيقة فليُمْهَل حتى تقوى عزيمته وتشتد إرادته، فعند ذلك يُسْتَدْرَك منه ما رُخِّص له بالأخذ بالتأويل، وتلك سُنَّةُ الله سبحانه وتعالى في التسهيل على أهل البداية، ثم استيفاءُ ذلك منهم واجبٌ في آخر الحال.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ(.....)[1] طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

الإشارة منه أَنَّ مَنْ فيه بقية من القوة للوقوف لمطالبات الحقيقة ويرجع إلى تسهيل الشريعة وينحط إلى رخصة التأويل فعليه الغرامة بواجب الحال وهو الخروج عما بقي له من معلوم مال أو مرسوم حال ويبقى مجرداً للواحد.

فصل: ويقال إنه لما علم أن التكليف يقتضي المشقة خففه عليك ذلك بأن قلّل أيام الصوم في قلبك فقال: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ أي مدة هذا الصوم أيام قليلة فلا يهولنكم سماع ذكره، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨] ثم قال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] أي لا يلحقكم كثير مشقة في القيام بحق جهاده.

قوله جلّ ذكره: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

---

(١) بياض في الأصل.

رمضان يُرْمِضُ[١] ذنوب قوم ويرمض رسوم قوم، وشتان بين من تحرق ذنوبَه رحمتُه وبين من تحرق رسومَه حقيقتُه.

شهر رمضان شهر مفاتحة الخطاب، شهر إنزال الكتاب، شهر حصول الثواب، شهر التقريب والإيجاب. شهر تخفيف الكلفة، شهر تحقيق الزالفة، شهر نزول الرحمة، شهر وفور النعمة. شهر النجاة، شهر المناجاة.

قوله جلّ ذكره: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾.

أراد بك اليسر (وأنت نظن) أنه أراد بك العسر.

ومن أمارات أنه أراد بعبده اليسر أنه (أقامه) بطلب اليسر؛ ولو لم يُرِدْ به اليسر لَمَا جعله راغباً في اليسر، قال قائلهم:

لو لم تُرِدْ نَيْلَ ما أرجو وأطلبهُ ... من فيضِ جودِك ما علمتني الطلبا

حقَّق الرجاء وأكّد الطمع وأوجب التحقيق حيث قال: ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ لينفيَ عن حقيقة التخصيص مجوزاتِ الظنون.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾.

على لسان العلم تكملوا مدة الصوم.

وعلى لسان الإشارة لتقرنوا بصفاء الحال (وفاء) (المآل).

﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ في النَّفَس الأخير، وتخرجوا من مدة عمركم بسلامة إيمانكم. والتوفيق في أن تكمل صوم شهرك عظيم لكن تحقيق أنه يختم عمرك بالسعادة ـ أعظم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾.

سؤال كل أحدٍ يدلُّ على حاله؛ لم يسألوا عن حكم ولا عن مخلوق ولا عن دين ولا عن دنيا ولا عن عقبى بل سألوا عنه فقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾. وليس هؤلاء من جملة من قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ [طه: ١٠٥]، ولا من جملة من قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [البقرة: ٢٢٠] ولا من جملة من قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ولا من جملة من قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥]، ولا من جملة من قال: و﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩]؛ و﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

---

(١) رمض: وجد حر الرمضاء (الرمضاء: شدة حر الشمس).

هؤلاء قوم مخصوصون: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ...[١] عِبَادِي عَنِّي﴾.

أي إذا سألك عبادي عني فبماذا تجيبهم؟ ليس هذا الجواب بلسانك يا محمد، فأنت وإنْ كنتَ السفير بيننا وبين الخلْق فهذا الجواب أنا أتولاه ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ (رَفَعَ الواسطة من الأغيار عن القربة فلم يَقُل قل لهم إني قريب بل قال جل شأنه: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾)[٢].

ثم بَيَّن أن تلك القربة ما هي: حيث تقدَّس الحقُّ سبحانه عن كل اقتراب بجهة أو ابتعاد بجهة أو اختصاص ببقعة فقال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ وإن الحق سبحانه قريب ـ من الجملة والكافة ـ بالعلم والقدرة والسماع والرؤية، وهو قريب من المؤمنين على وجه التبرية والنصرة وإجابة الدعوة، وجلَّ وتقدَّس عن أن يكون قريباً من أحد بالذات والبقعة؛ فإنه أحديٌّ لا يتجهَ في الأقطار، وعزيز لا يتصف بالكُنْهِ والمقدار.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

لم يَعِدْ إجابة من كان باستحقاق زهد أو في زمان عبادة بل قال دعوة الداعي متى دعاني وكيفما دعاني وحيثما دعاني ثم قال: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ هذا تكليف، وقوله: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ تعريف وتخفيف، قدَّم التخفيف على التكليف، وكأنه قال: إذا دعوتني ـ عبدي ـ أجبْتُك، فأَجِبْني أيضاً إذا دَعَوْتُك، أنا لا أرضى بِرَدِّ دعائِك فلا تَرْضَ ـ عبدي ـ بردِّي من نفسك. إجابتي لك بالخير تحملك ـ عبدي ـ على دعائي، ولا دعاؤك يحملني على إجابتك. ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾: وليثقوا في، فإني أجيب من دعاني، قال قائلهم:

يا عَزُّ أُقْسِم بالذي أنا عبده ... وله الحجيج وما حوت عرفات[٣]
لا أبتغي بدلاً سِواكِ خليلة ... فثقي بقولي والكرامُ ثِقات

ثم قال في آخر الآية: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أي ليس القصد من تكليفك ودعائك إلا وصولك إلى إرشادك.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ

(١) بياض في الأصل. (٢) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.
(٣) عرفات: جبل قرب مكة يقف عليه الحجاج يوم التاسع من ذي الحجة.

﴿وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ﴾.

أخبر أنه ـ في الحقيقة ـ لا يعود إليه عائد من أوصاف الخَلْق؛ إنْ كُنتَ في العبادة التي هي حق الحق أو في أحكام العادة من صحبة جِنْسِك التي هي غاية النفس والحظ، فَسِيَّان في حالك إذا أورد فيه الإذن.

نزلت الآية في زَلَّةٍ بَدَرَتْ من الفاروق(١)، فَجَعَلَ ذلك سببَ رُخْصَةٍ لجميع المسلمين إلى القيامة. وهكذا أحكام العناية.

ويقال علم أنه لا بُدَّ للعبد عن الحظوظ فقسم الليل والنهار في هذا الشهر بين حقه وحظِّك، فقال أما حقي ﴿أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ﴾، وأما حظك ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

أخبر أن محل القدرة مقدَّس عن اجتلاب الحظوظ، وقال إذا كنتم مشاغيل بنفوسكم كنتم محجوبين بِكُم فيكم، وإذا كنتم قائمين بنَا فلا تعودوا مِنَّا إليكم.

ويقال غيرة الحق سبحانه على الأوقات أن يُمزَجَ الجدُّ بالهزلِ، قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله إني أحبك وأحب قربك فقال عليه السلام: «ذريتي يا ابنة أبي أبكر أتعبد ربي»(٢) وقال ﷺ: «لي وقت لا يسعني غير ربي»(٣).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

إذا تحاكمتم إلى المخلوقين فاعلموا أن الله مطلع عليكم، وعِلْمه محيط بكم، فراقبوا موضع الاستحياء من الحق سبحانه، ولئن كان المخلوقون عالمين بالظواهر فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ متولي السرائر.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّۗ﴾.

الأهلة ـ جمعُ هلال ـ مواقيت للناس؛ لأشغالهم ومحاسباتهم.

---

(١) الفاروق: من يفرق بين الحق والباطل، ولقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

(٢) أخرجه السيوطي في (الدر المنثور ٢/ ١١١)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١٠/ ١٦٢).

(٣) أخرجه علي القاري في (الأسرار المرفوعة ٢٩٩).

وهي مواقيت لأهل القصة في تفاوت أحوالهم؛ فللزاهدين مواقيت أورادهم، وأما أقوام مخصوصون فهي لهم مواقيت لحالاتهم، قال قائلهم.

أعد الليالي ليلةً بعد ليلةٍ وقد كنت قدماً لا أعد اللياليا

وقال آخر:

ثمانٍ قد مضَيْنَ بِلا تلاقِ وما في الصبر فضل عن ثمانِ

وقال آخر:

شهورٌ يَنْقُضَين وما شعرنا بأنصافٍ لهن ولا سِرار[1]

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

يعني ليس البر مراعاة الأمور الظاهرة، بل البر تصفية السرائر وتنقية الضمائر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

لتكن نفوسُكم عندكم ودائعَ الحق؛ إنْ أَمَر بإمساكها أَمسِكوها وصونوها، وإنْ أَمَرَ بتسليمها إلى القتل فلا تدّخروها عن أمره، وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾ وهو أن تقف حيثما أُوقِفْتَ، وتفعل ما به أُمِرْتَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾.

يعني عليكم بنصب العداوة مع أعدائي ـ كما أن عليكم إثبات الولاية والموالاة مع أوليائي ـ فلا تُشْفِقُوا عليهم وإن كان بينكم واصد الرحم ووشائج[2] القرابة.

﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾: أولاً أَخْرِجوا حبَّهم وموالاتهم من قلوبكم، ثم (. . . .)[3] عن أوطان الإسلام ليكون الصغار جارياً عليهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾.

والإشارة: أنَّ المحنةَ التي تَرِدُ على القلوب من طوارق الحجب أشد من المحنة التي تَرِدُ على النفوس مِنْ بذل الروح، لأن فوات حياة القلب أشد من فوات حياة النَّفْس، إذ النفوس حياتها بمألُوفاتها، ولكن حياة القلب لا تكون إلا بالله.

---

(١) سرر الشهر وسراره: آخر ليلة منه (اللسان ٤/ ٣٥٧).

(٢) الوشائج: (ج) وشيجة: وهي القرابة المشتبكة المتصلة.

(٣) بياض في الأصل.

ويقال الفتنة أشد من القتل: أن تنأى عن الله أعظم من أن تنأى عن روحك وحياتك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

الإشارة منه: لا تشوش وقتك[1] مع الله إذا كان بوصف الصفات بما تدخله على نفسك وإنْ كانت نوافل من الطاعات، فإن زاحمك مزاحم يشغلك عن الله فاقطع مادة ذلك عن نفسك بكل ما أمكنك لئلا تبقى لك علاقة تصدك عن الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

الإشارة منه: إذا انقطعت عنك غاغة خواطرك وأعداء نفسك، مما يخرجك عنه ويزاحمك، فَلُمْ حديثَ النفس ودَعْ مجاهداتها؛ فَإِنَّ مَنْ طولب بحفظ الأسرار لا يتفرغ إلى مجاهدات النفوس بفنون المخالفات.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

الإشارة من الآية إلى مجاهدات النفوس؛ فإنَّ أعدى عدوِّك نَفْسُك التي بين جنبيك. أي استوفِ أحكام الرياضات حتى لا يبقى للآثار البشرية شيء، وتُسلِم النَّفْسَ والقلبَ لله، فلا يكون مُعارِض ولا مُنازِعُ منك لا بالتوقي ولا بالتلقي، لا بالتدبير ولا بالاختيار ـ بحالٍ من الأحوال؛ تجري عليك صروفه كما يريد، وتكون محواً عن الاختيارات، بخلاف ما يرد به الحكم، فإذا استسلمت النفس فلا عدوان إلا على أرباب التقصير. فأمّا من قام بحق الأمر تقصى عن عهدة الإلزام.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

الإشارة فيه: إذا تقابل حقان كلاهما لله فَسلِّم الوقت بحكم الوقت، ودَلْ مع إشارات الوقت، وإياكَ أن ترجح أحدهما على الآخر بمالَكَ من حظ ـ وإنْ قلَّ ـ فتحجب عن شهود الحق، وتَعْمَى بصيرةُ قلبك. وكلُّ ما كان إلى خلاف هواكَ أقرب،

(١) قال القشيري في حديثه عن الوقت برسالته: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: (الوقت ما أنت فيه) وإن كنت بالدنيا فوقتك الدنيا، وإن كنت بالعقبى فوقتك العقبى، وإن كنت بالسرور فوقتك السرور، وإن كنت بالحزن فوقتك الحزن يريد بهذا أن الوقت ما كان هو الغالب على الإنسان. (الرسالة القشيرية ص٥٥).

وعن استجلابِكَ وسكونكَ إليه أبعد ـ كان ذلك في نفسه أصوبَ.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: الذين اتقوا إيثار هواهم على ما فيه رضاه، فإذا قاموا لله ـ فيما يأتون ـ لا لَهُم فإن الله تعالى بالنصرة معهم، قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

إنفاق الأغنياء من أموالهم، وإنفاق العابدين بنفوسهم لا يدخرونها عن العبادات والوظائف، وإنفاق العارفين بقلوبهم لا يدخرونها عن أحكامه، وإنفاق المحبين بأرواحهم لا يدخرونها عن حُبِّه.

إنفاق الأغنياء من النِّعم وإنفاق الفقراء من الهِمَم.

إنفاق الأغنياء إخراج المال من الكيس، وإنفاق الفقراء إخراج الروح عن أنفس النفيس، وإنفاق الموحِّدين إخراج الخَلْق من السِّر.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ الإشارة فيه إلى إمساك يدك عن البذل؛ فمن أمسك يده وادَّخر شيئاً لنفسه فقد ألقى بيده إلى التهلكة. ويقال: إلى إيثار هواك على رضاه.

ويقال ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ أي الغفلة عنه بالاختيار.

ويقال تَوَهُّمُ أنك تعيش من دون لطفه وإقباله لَحْظَةً.

ويقال الرضا بما أنت فيه من الفترة والحجاب.

ويقال إمساك اللسان عنْ دوام الاستغاثة في كل نَفَسٍ.

قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الإحسان أن ترفق مع كل أحد إلا معك؛ فإحسانُك إلى نفسك في صورةِ إساءتُك إليها في ظن الاعتماد، وذلك لارتكابك كل شديدة، ومقاساتك فيه كل عظيمة. والإحسان أيضاً ترك جميع حظوظك من غير بقية، والإحسان أيضاً تفرغك إلى قضاء حق كل أحد علَّق عليك حديثه. والإحسان أن تعبده على غير غفلة. والإحسان أن تعبده وأنت بوصف المشاهدة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾.

إتمام الحج على لسان العلم القيام بأركانه وسننه وهيئته، وإراقة الدماء التي تجب فيها (دون) التقصير في بعض أحوالها.

وفي التفسير أن تحرم بهما من دويرة أهلك.

وعلى لسان الإشارة الحج هو القَصْد؛ فَقَصْدٌ إلى بيت الحق وقصد إلى الحق، فالأول حج العوام والثاني حج الخواص.

وكما أن الذي يحج بنفسه يُحْرِمُ ويَقِفُ ثم يطوف بالبيت ويسعى ثم يحلق، فكذلك من يحج بقلبه؛ فإحرامه بعقد صحيح على قصد صريح، ثم يتجرد عن لباس مخالفاته وشهواته، ثم باشتماله بثوبي صبره وفقره، وإمساكه عن متابعة حظوظه من اتباع الهوى، وإطلاق خواطر المنى، وما في هذا المعنى. ثم الحاج أشعث أغبر تظهر عليه آثار الخشوع والخضوع، ثم تلبية الأسرار باستجابة كل جزء منك.

وأفضل الحج الشَّج والعجّ؛ الشَّجُّ صَبُّ الدَّم والعجُّ رفع الصوت بالتلبية، فكذلك سفك دم النفس بسكاكين الخلاف، ورفع أصوات السِّر بدوام الاستغاثة، وحسن الاستجابة ثم الوقوف بساحات القربة باستكمال أوصاف الهيبة. وموقف النفوس عَرَفات وموقف القلوب الأسامي والصفات لِعِزّ الذات (عند) المواصلات. ثم طواف القلوب حول (مشاهدة) العز، والسعي بالأسرار بين صَفَيّ كشف الجلال ولطف الجمال.

ثم التحلل بقطع أسباب الرغائب والاختيارات، والمنى والمعارضات: بكل وجه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾.

الحصر بأمرين بعدو أو مرض.

والإشارة فيه إنْ استولى عدو النفس فلم تجد بداً من الإناخة بعقوة الرُّخَص وتأويلات العلم فعند ذلك تتحلل بموجب العذر والاضطرار إذ لا مزاحمة مع الحُكمْ. ﴿الْهَدْيِ﴾ الذي يهدي به عند التحلل بالعذر، والخروج عن المعلوم، وتسليمه للفقراء، وانتظار أن يزول الحصر فيستأنف الأمر. وإن مَرِضَتْ الواردات وسَقِمتْ القصود وآل الأمرُ إلى التكليف فليجتهد ألا ينصرف كما أنه في الحج الظاهر يجتهد بألا ينصرف لكل مرض أو إن احتاج إلى اللبس والحلق وغير ذلك ـ بشرط الفدية.

ثم إن عجز، اشترط أن محله حيث حسبه فكذلك يقوم ويقعد في أوصاف القصد وأحكام الإرادة، فإن رجع ـ والعياذ بالله ـ لم يُقابَلْ إلا بالردّ والصد، وقيل:

فلا عن قِلى كان التقرب بيننا ... ولكنه دهر يُشِتُّ ويجمع[1]

وقال الآخر:

ولستُ ـ وإنْ أحببتُ مَنْ يَسْكُن الفضا ... بأولِ راجٍ حاجة لا ينالها

---

(١) القِلَى: البغض والكراهة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾.

يبذل ما أمكنه، ويخرج عن جميع ما يملكه، وعليه آثار الحسرة، واستشعار أحزان الحجبة.

فمن كان منكم مريضاً... الخ: الإشارة منه أن يبتهل ويجتهد بالطواف على الأولياء، والخدمة للفقراء، والتقرب بما أمكنه من وجود الاحتيال والدعاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

فإذا تجلت أقمار القصود عن كشوف التعزز، وانجلت غيابة الحجبة عن شموس الوصلة وأشرف نور الإقبال في تضاعيف أيام الوقفة، فليستأنف للوصلة وقتاً، وليفرش للقربة بساطاً، وليجدد للقيام بحق السرور نشاطاً، ولْيَقُلْ: حَيِّ على البهجة! فقد مضت أيام المحنة.

وليُكْمِل الحج والعمرة، ولْيَسْتَدِم القيام بأحكام الصحبة والخدمة.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ بالحجاب لمن لم يُرِه أَهِلَّة الوصلة والاقتراب.

قوله جلّ ذكره: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾.

كما أن الحج بالنفوس أَشْهُرٌ معلومات لا ينعقد الإحرام به إلا فيها، ولا يجوز فعل الحج في جميع السَّنَةِ إلا في وقت مخصوص، من فاته ذلك الوقت فاته الحج ـ فكذلك حج القلوب له أوقات معلومة لا يصح إلا فيها، وهي أيام الشباب؛ فمن لم تكن له إرادة في حال شبابه فليست له وصلة في حال مشيبه، وكذلك من فاته وقت قصده وحال إرادته فلا يصلح إلا للعبادة التي آخرها الجنة، فأما الإرادة التي آخرها الوصلة.. فلا.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾.

كذلك الإشارة لمن سلك طريق الإرادة ألا يُعرِّج على شيء في الطريق، ولا يمزج إرادته بشيء. فمن نَازَعه أو عَارَضَهُ أو زاحمه ـ سَلَّم الكل للكل، فلا لأجل الدنيا مع أحدٍ يخاصم، ولا لشيء من حظوظ النَّفْس والجاه مع أحد يزاحم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾.

تكتفي بِعِلْمِه وحُكْمِه عن شهود خَلْقِه وحُكم خلْقِه وعلم خلْقِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

تقوى العامة مُجانبة الزلات، وتقوى الخواص مجانبة الأغيار بالسرائر.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

الإشارة فيه أن ما تبتغي من فضل الله مما يُعينك على قضاءِ حقِّه، ويكون فيه نصيب للمسلمين أو قوة للدين ـ فهو محمود. وما تطلبه لاستيفاء حظك أو لما فيه نصيب لنفسك ـ فهو معلول.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾.

الإشارة فيه إذا وقفت حتى فمت بحق طلبه فاذكر فضله معك؛ فلولا أنه أَرَادَكَ لما أَرَدْتَه، ولولا أنه اختارك لما آثرتَ رضاه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

الإشارة فيه ألا تعلم نفسك بما تمتاز عن أشكالك في الظاهر؛ لا بلبسة ولا بخرقة ولا بصفة، بل تكون كواحد من الناس، وإذا خطر ببالك أنك فعلت شيئاً، أو بك أو لك أو معك شيء فاستغفرْ اللّهَ، وجَدِّدْ إيمانك فإنه شِرْكٌ خَفِيٌّ خَامَرَ قلبَك.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾.

﴿قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾ إشارة إلى القيام بحق العبودية.

﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ إشارة إلى القيام بحق المحبة.

قضاء المناسك قيامٌ بالنفس.

﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ قيامٌ له بالقلب على استدامة الوقت واستغراق العمر.

ويقال كما أنَّ الأغيار يفتخرون بآبائهم، ويستبشرون بأسلافهم فَلْيَكُنْ افتخاركم بنا واستبشاركم بنا.

ويقال إن كان لآبائكم عليكم حقُّ التربية فحقُّنا عليكم أوجب، وأفضالنا عليكم أتم.

ويقال إن كان لأسلافكم مآثر ومناقب، فاستحقاقنا لنعوت الجلال فوق ما لآبائكم من حسن الحال.

ويقال إنك لا تملُّ ذكر أبيك ولا تنساه على غالب أحوالك، فاسْتَدِمْ ذِكرنا، ولا تَعْتَرِضَنَّك ملالة أو سآمة أو نسيان.

ويقال إنْ طَعَنَ في نَسَبِكَ طاعِنٌ لم ترضَ فكذلك ما تسمع من أقاويل أهل الضلال والبِدَع فَذُبَّ عنَّا.

ويقال الأبُ يُذكَرُ بالحرمة والحشمة فكذلك اذكرنا بالهيبة مع ذكر لطيف القربة بحسن التربية.

وقال ﴿كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾ ولم يقل أمهاتكم لأن الأب يُذكَر احتراماً والأم تُذكَر شفقةً عليها، والله يَرْحَم ولا يُرْحَم.

﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ لأن الحقَّ أحقُّ، ولأنك قد تستوحش كثيراً عن أبيك، والحقُّ سبحانه مُنَزَّهٌ عن أن يخطر ببال من يعرفه أنه بخلاف ما يقتضي الواجب حتى إن كان ذرة. وقوله﴿كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾ الأب على ما يستحقه والرب على ما يستحقه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾.

خطاب لو قاله مخلوقٌ لَكَ كان شاكراً، ولو أنه شكا منك كما شكا إليك لساءت الحالة، ولكن بفضله أَحَلَّكَ محل أن يشكو إليك فقال: مِنَ الناس من لا يجنح قلبه إلينا، ويرضى بدوننا عنَّا، فلا يبصر غير نفسه وحظِّه، ولا يمكن إيمان له بربه وحقِّه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

إنما أراد بها حسنة تنتظم بوجودها جميع الحسنات، والحسنةُ التي بها تحصل جميع الحسنات في الدنيا ـ حفظُ الإيمان عليهم في المآل؛ فإنَّ مَنْ خرج من الدنيا مؤمناً لا يخلد في النار، وبفوات هذا لا يحصل شيء. والحسنة التي تنتظم بها حسنات الآخرة ـ المغفرة، فإذا غفر فبعدها ليس إلا كل خير.

ويقال الحسنة في الدنيا العزوف عنها، والحسنة في الآخرة الصون عن مساكنتها. والوقاية من النار ونيران الفُرقه إذ اللام في قوله ﴿ٱلنَّارِ﴾ لام جنس فتحصل الاستعاذة عن نيران الحرقة ونيران الفرقة جميعاً.

ويقال الحسنة في الدنيا شهود بالأسرار وفي الآخرة رؤية بالأبصار.

ويقال حسنة الدنيا ألا يُغنيك عنك وحسنة الآخرة ألا يردك إليك.

ويقال حسنة الدنيا توفيق الخدمة وحسنة الآخرة تحقيق الوصلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾.

إن كان خيراً فخير وإن كان غيراً فغير. ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ للعوام في الفرصة، وللخواص في كل نَفَس.

ويقال ذكر فريقين: منهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا، والثاني يقول في الدنيا والعقبى، وثالث لم يذكرهم وهم الراضون بقضائه، المستسلمون لأمره، الساكنون عن كل دعاء واقتضاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

هذه صفة أواخر النسك، وهو الرمي في أيام مِنىً لما قدموا بأركان الحج خَفَّفَ عنهم بأن خَيَّرهم في المقام والإفاضة والتعجيل في التفريق.

والإشارة منه أَنَّ مَنْ خمدت نفسهُ، وَحى قلبُه واستدام بحقائق الشهود (سِرُّه).

فإنْ سَقطَ عنه شيء من فروع الأوراد ففيما هو له مستديمٌ من آداب الحضور عِوَضٌ عن الذي يفوت.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾.

أخبر أن قوماً أعرض الحق سبحانه وتعالى عن قلوبهم فأعطاهم في الظاهر بَسْطَةً في اللسان ولكن ربط على قلوبهم أسباب الحرمان؛ فَهُمْ في غطاء جهلهم، ليس وراءهم معنيّ، ولا على قولهم اعتمادٌ، ولا على إيمانهم اتّكالٌ، ولا بهم ثقةٌ بوجهٍ.

والإشارة إلى أهل الظاهر الذين لم تساعدهم أنوار البصيرة فهم مربوطون بأحكام الظاهر؛ لا لهم بهذا الحديث إيمان، ولا بهذه الجملة استبصار، فالواجبُ صونُ الأسرار عنهم فإنهم لا يقابلون هذا الحديث إلا بالإنكار[1]، وإن أهل الوداعة من العوام الذين في قلوبهم تعظيم لهذه الطريقة، ولهم إيمان على الجملة بهذا الحديث لأقرب إلى هذه الطريقة من كثيرٍ ممن عدَّ نفسه من الخواص وهو بمعزل عن الايمان بهذا الأمر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾.

الإشارة لِمَنْ سَعْيُه مقصورٌ على استجلاب حظوظه، فهو لا يبالي بما يَنْحَلُّ من

(١) انظر الرسالة القشيرية ص٨٨.

عُرى الدين، ويهيىء مِن أسباب الإسلام، بعدما تَشتد حبال دنياهم، وتنتظم أسباب مناهم، من حرام جمعوه، وحُطام حَصلّوه. فإذا خَلَوْا لوساوسهم وقصودهم الردية سَعَوْا بالفساد بأحكام أسباب الدنيا، واستعمالهم مَنْ يستعينون بهم في تمشية أمورهم مِنَ القوم الذين نزع الله البصيرة من قلوبهم.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾: ما كان فيه خراب الأمور الدينية ونظام الأحوال الدنيوية فهو الفاسد الظاهر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

هؤلاء أقوام استولى عليهم التكبُّر، وزال عنهم خضوعُ الإنصاف؛ فَشَمَخَتْ آنافُهم عن قبول الحق فإذا أمرته بمعروف قال: ألمثلي يقال هذا؟!

وأنا كذا وكذا! ثم يكبر عليك (. . .)[1] فيقول: وأنت أوْلى بأن تؤمر بالمعروف وتُنهى عن المنكر فإن من حالك وقصتك كذا وكذا.

أو لو ساعده التوفيق وأدركته الرحمة، وتقلّد المنة بمن هداه إلى رؤية خطئه، ونبهه على سوء وصفه، لم يطوِ على نصيحة جنبيه وتبقى في القلب ـ إلى سنين ـ آثارها.

قال تعالى: ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ يعني ما هو فيه في الحال من الوحشة وظلمات النَّفْس وضيق الاختيار حتى لا يسعى في شيء غير مراده. فيقع في كل لحظة غير مرة في العقوبة والمحنة، ثم إنه منقول من هذا العذاب إلى العذاب الأكبر، قال الله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

أولئك الذين أدركتهم خصائص الرحمة، ونعتتهم سوابق القسمة، فآثروا رضاء الحق على أنفسهم، واستسلموا بالكلية لمولاهم، والله رؤوف بالعباد: ولرأفته بهم وصلوا إلى هذه الأحوال، لا بهذه الأحوال استوجبوا رأفته.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

كلّف المؤمنَ بأن يُسالِمَ كل أحدِ إلا نَفْسَه فإنها لا تتحرك إلا بمخالفة سيده؛

(١) بياض في الأصل.

فإن مَنْ سَالَم نَفْسَه فَتَرَ عن مجاهداته، وذلك سبب انقطاع كل قاصد، وموجِبُ فترةِ كل مريد.

و ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ ما يوسوسه إليك من عجزك عن القيام باستيفاء أحكام المعاملة، وتركِ نزعاتٍ لا عِبْرة بها، ولا ينبغي أن يُلْتَفَتَ إليها، بل كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص: ٧] ثم أَبْصِرْ ما الذي فعل به حين أَلْقَتْه، وكيف ردَّه إليها بعدما نجَّاه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

الزَّلَةُ الواحدةُ بعد كشف البرهان أقبحُ من كثيرٍ منها قبل ذلك، ومَنْ عُرِفَ في الخيانة لا يُعْتَمد عليه في الأمانة. ومحنة الأكابر إذا حلَّت كان فيها استئصالهم بالكلية.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

استبطأ القومُ قيامَ الساعةِ فأُخبروا عن شدة الأمر إذا قامت الساعة بتفصيل ما ذكر.

وتلك أفعال في معنى الأحوال، يظهرها الله سبحانه بما يزيل عنهم الإشكال في علو شأنه سبحانه وتعالى، ونفاذ قدرته فيما يريد. ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي انهتك ستر الغيب عن صريح التقدير السابق. ولقد استغنت قلوب الموحدين لما فيها من أنوار البصائر عن طلب التأويل لهذه الآية وأمثالها إذ الحق سبحانه مُنَزَّهُ عن كل انتقال وزوال، واختصاص بمكان أو زمان، تقدس عن كل حركة وإتيان.

قوله جلّ ذكره: ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

فائدة السؤال ليقرر عليهم بالسؤال الحجة، لا ليُقرِر للرسول ﷺ بسؤالهم ما أشكل عليهم من واضح المحبة.

﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ بزوال تلك النعمة. وعند ذلك يعرفون قدرها، ثم يَنْدُبُونها ولا يصلون إليها قط، قال قائلهم:

ستهجرني وتتركني فتطلبني فلا تجدِ

قوله جلّ ذكره: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

مكروا فلم يشعروا، وحملهم اشتداد الظلمة على بصائرهم على الوقيعة في

أوليائه سبحانه، والسخرية منهم، وحين تقشعت غواية الجهل عن قلوبهم (. . . . .)[1] علموا مَنْ الخاسر منهم مِن الذي كان في ضلال بعيد.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

يعني الغيبة عن الحق جمعتهم، فلما أتتهم الرسل تباينوا على حسب ما رُزقوا من أنوار البصيرة وحُرِموها. ويقال كانوا على ما سبق لهم من الاختيار القديم، وبمجيء الرسل تهود قوم وتَنَصَّر قوم، ثم في العاقبة يُرَدُّ كل واحد إلى ما سبق له من المقدير، وإن الناس اجتمعوا كلهم في علمه سبحانه ثم تفرَّقوا في حكمه، فقوم هداهم وقوم أغواهم، وقوم حجبهم وقوم جذبهم، وقوم ربطهم بالخذلان وقوم بسطهم بالإحسان، فلا مِنَ المقبولين أمر مكتسب، ولا لمردِّ المردودين سبب، بل هو حُكْمٌ بُتٌّ وقضاءٌ جُزم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

خلق الله الجنة وحفَّها بالمصاعب، وخلق النار وحفَّها بالشهوات والرغائب، فمن احتشم ركوب الأهوال بقي عن إدراك الآمال. ثم إن الحق سبحانه ابتلى الأولين بضروب من مقاساة الشدائد، وكلٌ من أُلحِقَ بهم من جنس الأولياء أدخلهم في سِلْكِهم، وأدرجهم في غمارهم، فمن ظنَّ غير ذلك فَسَرابٌ ظنه ماءً، وحكم لم يحصل على ما ظنه تأويلاً. ولقد مضت سُنَّةُ الله سبحانه مع الأولياء أنهم لا يُنيخُون بعقوة الظفر إلا بعد إشرافهم على عرصات اليأس، فحين طال بهم التَرَقُّبُ صادفهم اللطفُ بغتة وحقق لهم المُبْتَغَى فجأة. قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾.

علموا أن العبد غير منفرد بالفاعلية أن يفعل، فإنَّ العبد ليس له فعل شيء إلا بإذن مولاه فتوقفوا في الإنفاق على ما يشير إليه تفصيل الإذن، لأنَّ العبوديَة الوقوفُ حيثما أوقفك الأمر.

---

(١) بياض في الأصل.

ويقال لم ينفقوا على إشارات الهوى. وإنَّ ما طالعوه تفاصيلُ الأمر وإشارات الشرع. والواو في هذه الآية في قوله: ﴿وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ تشير إلى نوع من الترتيب؛ فالأوْلى بمعروفك والداك ثم أقاربك ثم على الترتيب الذي قاله.

قوله جلّ ذكره: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

صعبت على النفوس مباشرة القتال، فبيَّن أن راحات النفوس مؤجلة لأنها في حكم التأديب؛ وبالعكس من هذا راحات القلوب فإنها معجلة إذ هي في وصف التقريب، فالسعادة في مخالفة النفوس؛ فمن وافقها حاد عن المحبة المثلى، كما أن السعادة في موافقة القلوب فمن خالفها زاغ عن السُّنَّة العليا.

وبشرى ضمان الحق باليُسْر أَوْلَى أن تُقبَل من محذرات هواجس النفوس في حلول العسر وحصول الضر.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾.

من المعاصي ما يكون أشد من غيره وأصعب في المعنى، فسوء الأدب على الباب لا يُوجِب ما يُوجبه على البساط؛ فإذا حصلت الزلة بالنَّفْس فأثرها بالعقوبة المؤجلة وهي الاحتراق، وإذا زلّ القلب فالعقوبة معجلة وهي بالفراق. وأثر الغفلة على القلوب أعظم من ضرر الزلة على النفوس، فإن النفس عن الحظ تبقى، والقلب عن الحق يبقى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

الإشارة من هذا أن أهل الغفلة إذا راودوك أرادوا صَرْفَكَ إلى ما هم عليه من الغفلة، فلا يرضون إلا بأن تفسخ عقد إرادتك بما تعود إليه من سابق حالتك. ومَنْ فسخ مع الله عهده مَسخَ قلبه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

إن الذين صدقوا في قصدهم، وأخلصوا في عهدهم، ولم يرتدوا في الإرادة على أعقابهم، أولئك الذين عاشوا في رَوْحِ الرجاء إلى أن يصلوا إلى كمال البقاء ودار اللقاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾.

الخمر ما خامر العقول، وكما أن الخمر حرام بعينها فالسُكْر حرام بقوله ﷺ: «حُرِّمت الخمر بعينها، والسُكْر من كل شراب»(١)، فمن سَكِرَ من شراب الغفلة استحق ما يستحق شارب الخمر من حيث الإشارات، فكما أنَّ السكران ممنوع من الصلاة فصاحب السُكْر بالغفلة محجوب عن المواصلات وأوضح شواهد الوجود، فمَنْ لم يُصَدِّقْ فَلْيُجَرِّب.

ومعنى القمار موجود في أكثر معاملات أهل الغفلة إذا سلكوا طريق الحِيَل والخداع والكذب في المقال. وبذلُ الصدقِ والإنصاف عزيزٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

قيل العفوُ ما فضل عن حاجتك، وهذا للخواص يخرجون من فاضل أموالهم عن قدر كفاياتهم، فأمَّا خواص الخواص فطريقهم الإيثار وهو أن يُؤْثِر به غيرَه على نفسه وبه فاقة إلى ما يخرج وإن كان صاحبه الذي يؤثِر به غيباً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾.

إصلاح حالهم بما يكون فيه تأديبهم أتَمّ من إصلاح مالهم، ثم الصبر على الاحتمال عنهم مع بذل النصح، و (مفارقة المال مَنْ مِنْ إرشادهم خير من الترخص بأن يقول إنه لا يتوجه على فرضيهم)(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

فيُعاملُ كلاً على سواكن قلبه من القُصُود لا على ظواهر كَسْبِه من جميع الفنون.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

---

(١) أخرجه أبو حنيفة في (جامع مسانيد ٢/١٨٣، ١٨٤).

(٢) ما بين قوسين عبارة مضطربة.

صلة حبل الدين والتمسك بعصمة المسلمين أتم من الرضا بأن تنتهي إلى أحدٍ يسلك إلى الكفر، ولئن كانت رخصة الشريعة حاصلة في فعله فإشارة الحقيقة مانعة من حيث التبرئة عن اختياره، هذا في الكتابيات اللاتي يجوز مواصلتهن، فأما أهل الشِرْك فحرامٌ مواصلتهم قطعاً، وأوجهُ مباينتهم في هذا الباب حُكْمٌ جَزْمٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾.

ليس كل ما يكون موجب الاستحياء والنفور مما هو باختيار العبد، فقد يكون من النقائص ما ليس للعبد فيه كسب، وهو ابتداءَ حكمُ الحق، فمن ذلك ما كتب الله على بنات آدم من تلك الحالة، ثم أُمِرنَ باعتزال المُصَلَّى في أوان تلك الحالة، فالمصلِّى مناجٍ ربَّه، فَيُحيِّن عن محل المناجاة حكماً من الله لا جُرْماً لهن. وفي هذا إشارة فيقال: إنهن - وإنْ مُنِعْنَ عن الصلاة التي هي حضور بالبدن فلم يحجبن عن استدامة الذكر بالقلب واللسان، وذلك تعرض بساط القرب، قال ﷺ مخبراً عنه تعالى: «أنا جليس من ذكرني»(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

يقال يحب التوابين من الذنوب، والمتطهرين من العيوب.

ويقال التوابين من الزلة، والمتطهرين من التوهم أن نجاتهم بالتوبة.

ويقال التوّابين من ارتكاب المحظورات، والمتطهرين من المساكنات والملاحظات.

ويقال التوّابين بماء الاستغفار والمتطهرين بصوب ماء الخجل بنعت الانكسار.

ويقال التوّابين من الزلة، والمتطهرين من الغفلة.

ويقال التوّابين من شهود التوبة، والمتطهرين من توهم أن شيئاً بالزلة بل الحكم ابتداء من الله تعالى.

قوله جلّ ذكره: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

لمَّا كانت النفوس بوصف الغيبة عن الحقيقة أباح لها السكون إلى أشكالها إذا كان على وصف الإذن، فلمَّا كانت القلوب في محل الحضور حرم عليها المساكنة إلى جميع الأغيار والمخلوقات.

---

(١) أخرجه العجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٢٣٢)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/ ٢٨٧)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ٢٤).

﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾ من الأعمال الصالحة ما ينفعكم يوم إفلاسكم، لذلك قال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾ فانظروا لأنفسكم بتقديم ما يسركم وجدانه عند ربكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

نزهوا ذكْرَ ربكم عن ابتذاله لأجل حظ من الحظوظ.

ويقال لا تجعلوا ذكر الله شركاً لنيل ما به حطام الدنيا.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

ما جرى به اللسان على مقتضى السهو فليس له كثير خطرٍ في الخير والشر، ولكن ما انطوت عليه الضمائر، واحتوت عليه السرائر، من قصود صحيحة، وعزائم قوية فذلك الذي يؤخذ به إن كان خيراً فجزاء جميل، وإن كان شراً فعناء طويل.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾.

إذا كان حق صحبة الأشكال محفوظاً عليك ـ حتى لو أَخْلَلْتَ به ـ وأخَذَكَ بحكمه: فحقُّ الحقِّ أَحَقُّ بأن تجب مراعاته. «فإن فاؤوا» أي رجعوا إلى إحياء ما أماتوا، واستدراك ما ضيَّعوا فـ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ فلما تقاصر لسان الزوجة ـ لكونها أسيراً في يد الزوج ـ تولَّى الله ـ سبحانه ـ الأمر بمراعاة حقها فأمر الزوج بالرجوع إليها أو تسريحها.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

إنْ ملَّ حق صحبتها، وأكَّد العزم على مفارقتها فإن الله مطلع على حاله وسره، فإنْ بدا له بادٍ من ندم فلا يُلبِس بأركان الطلاق فإن الله سبحانه عليم أنه طلَّقها.

ولـمَّا كان الفراق شديداً عَزَّى المرأة بأن قال إنه ﴿السَّمِيعُ﴾ أي سمعنا موحش تلك القالة، فهذا تعزية لها من الحق سبحانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾.

أَمَرَ المطلقات بالعِدَّة احتراماً لصحبة الأزواج، يعني إنْ انقطعت العلاقة بينكما فأقيموا على شرط الوفاء لما سَلَفَ من الصحبة، ولا تقيموا غيره مقامه بهذه السرعة؛ فاصبروا حتى يمضي مقدار من المدة. ألا ترى أن غير المدخول بها لم تؤمر بالعدة حيث لم تقم بينهما صحبة؟

ثم قال جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

يعني إن انقطع بينكما السبب فلا تقطعوا ما أثبت الله من النَّسَبِ.

ثم قال جلّ ذكره: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾.

يعني من سَبَقَ له الصحبة فهو أحق بالرجعة لما وقع في النكاح من الثلمة.

﴿فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا﴾.

يعني أن يكون القصد بالرجعة استدراك ما حصل من الجفاء لا تطويل العدة عليها بأن يعزم على طلاقها بعد ما أرجعها.

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

يعني إن كان له عليها حق ما أنفق من المال فلها حق الخدمة لما سلف من الحال.

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

في الفضيلة، ولهن مزية في الضعف وعجز البشرية.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾.

ندب إلى تفريق الطلاق لئلا تسارع إلى إتمام الفراق، وقيل في معناه:

إنْ تَبَيَّنْتَ أَنَّ عَزْمَكَ قتلي　　فذريني أصدني قليلاً قليلا

ثم قال جلّ ذكره: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾

إمَّا صحبة جميلة أو فُرْقة جميلة. فأمَّا سوء العشرة بما يذهب لذة العيش بالأخلاق الذميمة فغير مَرْضِي في الطريقة، ولا محمود في الشريعة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾.

فإن في الخبر «العائد في هبته كالعائد في قَيْئِه»[1] والرجوع فيما خرجتَ عنه خِسَّة.

---

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٣/ ٢١٥)، وأبو داود في (السنن ٣٥٣٨)، والنسائي في (السنن ٦/ ٢٦٦، ٢٦٧)، والرقبى ب٢، وابن ماجه في (السنن ٢٣٨٥)، وأحمد بن حنبل في (المسند ١/ ٣٢٧)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٦/ ١٨٠)، والطبراني في (المعجم الكبير ١٠/ ٣٥٢، ١١/ ٤٦، ١٧٩، ٣٢٧، ٣٤٤)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ٤/ ١٥٣)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٤٦١٦٤، ٤٦١٧٥)، والبغوي في (شرح السنة ٨/ ٢٩٥)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٣/ ٢٨٨)، والزيلعي في (نصب الراية ٤/ ١٢٦)، وابن حجر في (فتح الباري ٥/ ٢٣٤)، والألباني في (إرواء الغليل ٦/ ٦٢)، وابن عبد البر في (التمهيد ٧/ ٢٤٤)، وابن أبي شيبة في (المصنف ٦/ ٤٧٨)، والعقيلي في (الضعفاء ٣/ ٤٥)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٦/ ٥٤)، والطبراني في (المعجم الصغير ٢/ ١١٤)، (وصاحب شرح معاني الآثار ٤/ ٧٧)، والخطابي في (إصلاح خطأ المحدثين ١٥)، وابن الجارود في (المنتقى ٩٩٣).

ثم قال جلّ ذكره: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ﴾.

يعني إنْ أرادت المرأة أن تتخلص من زوجها فلا جناح عليها فيما تبذل من مال، فإنَّ النفس تساوي لصاحبها كل شيء، والرجال إذا فاتته صحبة المرأة فلو اعتاض عنها شيئاً فلا أقلَّ من ذلك، حتى إذا فاتته راحة الحال يصل إلى يده شيء من المال.

قوله جلّ ذكره: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

هذه آداب يُعَلِّمكمها الله ويَسُنُّها لكم، فحافظوا على حدوده، وداوموا على معرفة حقوقه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥۗ﴾.

الرجلُ يَشُقُّ عليه أن ينكحَ زوجتَه غيرُه فمنعه عن اختيار الفراق بغاية الفراق بُغْية المنع لما بيَّن أنها لا تحل له إن فارقها إلا بأن تفعل غاية ما يشق عليه وهو الزواج الثاني لِيَحْذَرَ الطلاق ما أمكنه. ثم قال: «فإنْ طَلَّقَها» يعني الزوج ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ يعني تتزوج بالزوج الأول.

والإشارة فيه أن استيلاء المحبة على القلب يُهَوِّن مُقاساة كلِّ شديدة؛ فلو انطوى الزوجان بعد الفرقة على التحسُّر على ما فاتهما من الوصلة، وندما على ذلك غاية الندامة فلا جناح عليهما أن يتراجعا، والمرأة في هذه الحالة كأنها (. . .)[1] من الزوج الأول بمكان الزوج الثاني والزوج كالآتي على نفسه في احتمال ذلك.

ثم قال جلّ ذكره: ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

يعني لا يعودان بعد ذلك إلى الفراق ثانياً إذا علما حاجة أحدهما إلى صاحبه، قال قائلهم:

ولقد حلفت لئن لقيتك مرةً ... ألا أعود إلى فراقك ثانية

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

تضمنت الآية الأمر بحسن العِشرة، وتَرْكِ المغايظَة مع الزوجة، والمحك على وجه اللجاج؛ فإمَّا تخلية سبيلٍ من غير جفاء أو قيامٌ بحق الصحبة على شرط الوفاء.

---

(١) بياض في الأصل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

تضمنت الآية نهي الأولياء عن مضارتهن، وتركَ حمية الجاهلية، والانقيادَ لحكم الله في تزوج النساء إنْ أردن النكاح من دون استشعار الأنفة[١] والحمية.

بل إذا رضيت بكفوٍ يخطبها فحرام عليكم ظلمها. والتذويبُ عن أوصاف البشرية بقهر النفس أشدُّ مجاهدةً وأصدقُ معاملة لله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ﴾.

غايةُ الرحمة التي يُضرب بها المَثَلُ رحمةُ الأمهات؛ فأَمَرَ الله سبحانه الأمهاتِ بإكمال الرحمة بإرضاع المولود حَوْلَين كاملين، وقطعُ الرضاعة عنه قبل الحولين إشارةٌ إلى أن رحمة الله بالعبد أتمُّ من رحمة الأمهات.

ثم قال جلّ ذكره: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴾.

يعني الأب عليه رزقهن وكسوتهن ـ أي المرضعات ـ بالمعروف. لمَّا يَنُبْن عنك وَجَبَ حَقُّهُن عليك، فإنَّ مَنْ لك كله فعليك كله.

ثم قال جلّ ذكره: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾.

إدخارُ المستطاع بُخلٌ، والوقوفُ ـ عند العجز ـ عذر.

ثم قال جلّ ذكره: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾.

في الإرضاع وما يجب عليه.

﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ﴾.

يعني الوالد بولده يعني فيما يلزم من النفقة والشفقة. فكما يجب حق المولود على الوالدين يجب حق الوالدين على المولود.

ثم قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

يعني فطاماً قبل الحولين، فلا جناح بعدما كان القصد الصلاح. اشتملت الآية على تمهيد طريق الصحبة، وتعليم محاسن الأخلاق في أحكام العسرة وإن من لا يَرْحَم لا يُرْحَم.

---

(١) الأنفة: العزة والحمية.

وقال ﷺ لمن ذكر أنه لم يُقَبِّل أولاده: «إن الله لا ينزع الرحمة إلا من قلب شقي»(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

لمّا كان حق الميت أعظم لأن فراقه لم يكن بالاختيار كانت مدة الوفاء له أطول. وكانت عدة الوفاة في ابتداء الإسلام سَنَةً، ثم رُدت إلى أربعة أشهر وعشرة أيام لتتحق براءة الرحم عن ماء الزوج، ثم إذا انقضت العدة أبيح لها التزوج بزوجٍ آخر. والميت لا يستديم وفاءه إلى آخر العمر أحدٌ كما قيل:

وكما تَبْلى وجوهٌ في الثرى فكذا يَبْلى عليهن الحَزَن

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

أبيح من ذلك ما كان فيه استجلاب للمودة، وتأسيس لحال الوصلة. وحُرِّمَ منه ما فيه ارتكاب المحظورات من إلمام بذنب أو عِدةٍ بِجُرْم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

أي تنقضي عدة الأول فإن حُرمة الماضي لا تضيع.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾

إنْ ابتلاءَ تَمَّ بوصيلة أشكالكم ثم بدالكم فلا جناح عليكم في اختيار الفرقة ـ إذا أردتم ـ فإن الذي لا يجوز اختيار فرقته ـ واحد؛ فأما صحبة الخَلْق بعضهم مع بعض فليس بواجب، بل غاية وصفة أنه جائز.

ولمّا وقع عليهن اسمكم فنصف المسمَّى يجب لهن، فإن الفراق ـ كيفما كان ـ فهو شديد، فجعل ما يستحق من العوض كالخَلفِ لها عند تجرع كأس الفرقة.

فإن لم يكن مسمًّى فلا يخلو العقد من متعة؛ فإن تجرع الفرقة ـ مجرداً عن الراحة ـ بلاء عظيم.

---

(١) أخرجه أبو داود (أدب ٥٨)، والترمذي (بر ١٦)، وأحمد بن حنبل ٢/ ٣٠١، ٤٤٢، ٤٦١، ٥٣٩.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

ثم ذكر أن العفو أتم وأحسن، إمَّا من جهة المرأة في النصف المستحق لها، أو من قِبَل الزوج في النصف العائد إليه.

ثم قال جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

يقال من أخذ بالفضل واقتصر على الفرض فعن قريب يخل بالفرض.

ويقال نسيان الفضل يقرب صاحبه من البخل، وإن من سُنَّةِ الكرام إذا خفيت عليهم مواضع الكرم أن يشحذوا بصائر الجود لتطالع لطائف الكرم فتتوفر دواعيهم في اقتناء أسباب الفضل.

قوله جلّ ذكره: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾.

المحافظة على الصلاة أن يدخلها بالهيبة، ويخرج بالتعظيم، ويستديم بدوام الشهود بنعت الأدب، والصلاة الواسطى أبهم ذكرها على البيت لتراعي الجميع اعتقاداً منك لكل واحدة أنها هي لئلا يقع منك تقصير في شيء منها.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي لا تُخِلُّوا بمناجاتي لأوقاتها على الوصف الذي أمكنكم فإن ما تحسونه من أعدائكم أنا سلّطتُهم عليكم، فإذا خلوتم بي بقلوبكم قصرت أيديهم عنكم، وجعلت لكم الظفر عليهم، ثم إذا زال عنكم الخوف وأمنتم فعودوا إلى استقراركم باستفراغ أوقاتكم في الاعتكاف بحضرتي سراً وجهراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

كانت عِدَّةُ الوفاة في ابتداء الإسلام سَنَةً مستديمة كقول العرب وفعلهم ذلك حيث يقول قائلهم:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكم ... ومَنْ لبَّاك حولاً كاملاً فقد اعتذر

ثم نُسِخَ ذلك إلى أربعة أشهر وعشرة أيام إذ لا بد من انتهاء مدة الحداد ولقد قال قائلهم:

قال: لو مِتَّ لم أَعِشْ ... قلتُ: نافقتَ فاسْكُتِ

أي حـــــي رأيـــــتـــــه مـــات وجـــداً بـــمـــيِّـــتِ؟!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

الإشارة ألا تجمعوا عليهن الفراق والحرمان فيتضاعف عليهن البلاء.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

الدلائلَ، فتتأدبوا بما أشير عليكم، وتفلحوا بما تعقلون من إشارات حكمي.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

لمّا استبعدوا قدرة الله في الإعادة أراهم في أنفسهم عياناً، ثم لم ينفع إظهار ذلك لِمَنْ لم يشحذ بصيرته في التوحيد. ومن قويت بصيرته لم يضره عدم تلك المشاهدات فإنهم تحققوا بما أُخْبِرُوا، لِمَا آمنوا به بالغيب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

يعني إنْ مَسَّكم ألمٌ فتصاعد منكم أنين فاعلموا أن الله سميع لأنينكم، عليم بأحوالكم، بصير بأموركم. والآية توجِبُ تسهيل ما يقاسونه من الألم، وقالوا:

إذا ما تمنى الناسُ روحا وراحةً تمنيت أن أشكو إليك فتسمع

قوله جلّ ذكره: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾.

سُمِّي القرض قرضاً لأنه يقطع من ماله شيئاً ليعطيه للمقترض، والمتصدِّق لما يقطع الصدقة من ماله سميت صدقته قرضاً، فالقرض القطع، ولكن هذه التسمية لحفظ قلوب الأحباب حيث خاطبك في باب الصدقة باسم القرض ولفظه.

ويقال دلّت الآية على عِظَم رتبة الغَنِيِّ حيث سأل منه القرض، ولكن رتبة الفقير في هذا أعظم لأنه سأل لأجله القَرضَ، وقد يسأل القرض من كل أحد ولكن لا يسأل لأجل كل أحد. وفي الخبر «مات رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند أبي شحمة اليهودي على شعير أخذه لقوت عياله أَبْصِرْ مِمَّن اقترض ولأجل مَنْ اقترض»[(١)].

ويقال القرض الحسن ما لا تتطلع عليه لجزاء ولا تطلب بسببه العِوَض.

ويقال القرض الحسن ألا يعطى على الغفلة، وإنما يعطى عن شهود.

(١) أخرجه البخاري (جهاد ٨٩)، (مغازي ٨٦)، والترمذي (بيوع ٧)، والنسائي (بيوع ٥٨، ٨٣)، وابن ماجه (رهون ١)، والدارمي (بيوع ٤٤)، وأحمد بن حنبل ١/٢٣٦، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٦١، ٣/ ١٠٢، ١٣٣، ٢٠٨، ٢٣٨، ٦/٤٥٣، ٤٥٧.

ويقال القرض الحسن من العلماء إذا كان عند ظهر الغني، ومن الأكابر إذا كان بشرط الإيثار يعطى ما لا بد منه.

ويقال القرض الحسن من العلماء عن مائتين خَمْسَة، وعلى لسان القوم بذل الكل، وزيادة الروح على ما يبذل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

يقبض الصدقة من الأغنياء قبض قبوله، ويبسط عليهم بسط خَلَفِه.

ويقال يقبض الرزق أي يُضَيق، يبسط الرزق أي يوسِّع؛ يقبض على الفقراء ليمتحنَهم بالصبر، ويبسط على الأغنياء ليطالبهم بالشكر.

ويقال يقبض تسلية للفقراء ليطالبهم حتى لا يروا من الأغنياء، ويبسط لئلا يتقلدوا المِنَّةَ من الأغنياء.

ويقال قال للأغنياء: إذا أنا قبضت الرزق على الفقراء فلا تذروهم، وإذا أنا بسطت عليكم فلا تروا ذلك لفضيلة لكم.

ويقال قَبَضَ القلوب بإعراضه وبَسَطَها بإقباله.

ويقال القبض لما غلب القلوب من الخوف، والبسط لما يغلب عليها من الرجاء.

ويقال القبض لقهره والبسط لِبِرِّه.

ويقال القبض لِسرِّه والبسط لكشْفِه.

ويقال القبض للمريدين والبسط للمُرادين.

ويقال القبض للمتسابقين(١) والبسط للعارفين.

ويقال يقبضك عنك ثم يبسطك به.

ويقال القبض حقه، والبسط حظك.

ويقال القبض لمن تولَّى عن الحق، والبسط لمن تجلى له الحق.

ويقال يقبض إذا أَشْهَدَكَ فِعْلَكَ، ويبسط إذا أشهدك فضله.

ويقال يقبض بذكر العذاب ويبسط بذكر الإيجاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ﴾.

استقبلوا الأمر بالاختيار، واقترحوا على نبيِّهم بسؤال الإذن لهم في القتال، فلمَّا

(١) ربما «للسابقين» إشارة إلى سورة الواقعة آية ١٠: **﴿والسابقون السابقون أولئك المقربون﴾**.

أُجيبوا إلى ما ضمنوه من أنفسهم ركنوا إلى التكاسل، وعرَّجوا في أوطان التجادل والتغافل. ويقال إنهم أظهروا التصلب والجد في القتال ذبّاً عن أموالهم ومنازلهم حيث:

﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

فلذلك لم يتم قصدهم لأنه لم يَخْلُص ـ لحقِّ الله ـ عزمُهم، ولو أنهم قالوا: وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله لأنه قد أمرنا، وأوجب علينا، فإنه سيدنا ومولانا، ويجب علينا أمره ـ لعلَّهم وُفِّقوا لإتمام ما قصدوه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾.

نسوا حق الاختيار فنظروا إلى الحال بعين الظاهر فاستبعدوا أن يكون طالوت ملكاً لأنه كان فقيراً لا مال له، فبيَّن لهم أن الفضيلة باختيار الحق، وأنه وإن عَدِمَ المالَ فقد زاده الله علماً فَفَضَلَكم بعلمه وجسمه، وقيل أراد أنه محمود خصال النفس ولم يُرِدْ عظيم البِنْيَة فإن في المثل: «فلان اسم بلا جسم» أي ذكر بلا معنى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

إن الله سبحانه إذا أظهر نوراً أمدَّه بتأييد من قِبَلِهِ، فلما ملك طالوت عليهم أزال الإشكال عن صفته بما أظهر من آياته الدالة على صدق قول نبيِّهم في اختياره، فردَّ عليهم التابوت الذي فيه السكينة، فاتضحت لهم آية ملكه، وأن نبيهم عليه السلام صَدَقَهم فيما أخبرهم.

ويقال إن الله تعالى جعل سكينة بني إسرائيل في التابوت الذي رَضُوا عن الألواح، وعصا موسى عليه السلام، وآثار صاحب نبوتهم. وجعل سكينة هذه الأمة في قلوبهم، فقال: «هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين» ثم إن التابوت كان تتداوله أيدي الأعداء وغيرهم؛ فمرَّةً كان يُدْفَن ومرة كان يُغلب عليه فيُحمَل، ومرة يُرَد ومرة ومرة... وأما قلوب المؤمنين فَحَالَ بين أربابها وبينها، ولم يستودعها ملكاً ولا نبياً، ولا سماء ولا هواء، ولا مكاناً ولا شخصاً، وقال ﷺ:

«قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن»[(١)] يعني في قبضة الحق سبحانه، وتحت تغليبه وتصريفه، والمراد منه «القدرة»، وشتَّان بين أمة سكينتهم فيما للأعداء عليه تَسَلُّط وأمةٍ سكينتهم فيما ليس لمخلوق عليه لسلطان.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾.

الإشارة من هذه الآية أن الله سبحانه ابتلى الخَلْق بصحبة الخلْق وبالدنيا وبالنَّفس، ومن كانت صحبته مع هذه الأشياء على حدِّ الاضطرار بمقدار القوام، وما لا بد منه نجا وسَلِمَ[(٢)]، ومن جاوز حد الاضطرار وانبسط في صحبته مع شيء من ذلك من الدنيا والنفس والخلْق بموجب الشهادة والاختيار ـ فليس من الله في شيء إنْ كان ارتكاب محظور، وليس من هذه الطريق في شيء إن كان على جهة الفضيلة وماله منه بُدٌّ.

ثم قال جلّ ذكره: ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾.

كذلك الخواص في كل وقت يقل عددهم ولكن يجل قدرهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾.

فنظروا إلى الحال بعين الظاهر فَدَاخَلَهم شيء من رعب البشرية، فربط الله على قلوبهم بما ذكَرهم من نصرة الحق سبحانه لأوليائه إذا شاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾.

لا بهم ولكن بإذن الله، بمشيئته وعونه ونصرته، والله مع الصابرين بالنصرة والتأييد والقوة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

كان أهم أمورهم الصبر والوقوف للعدو، ثم بعده النصرة عليهم، فإن الصبر حق الحق، والنصرة نصيبهم، فقدَّموا تحقيق حقه ـ سبحانه ـ وتوفيقه لهم، ثم وجود

(١) أخرجه السيوطي في (الدر المنثور ٢/ ٨، ٩)، وابن أبي عاصم في (السنة ١/ ٩٩)، والطبري في (التفسير ٣/ ١٢٦)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٦/ ٦٥)، والبيهقي في (الأسماء والصفات ٣٤١)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٧/ ٢٥٥٧).

(٢) انظر الرسالة القشيرية ص٨٢، ٨٣.

حظِّهم من النصرة، ثم أشاروا إلى أنهم يطلبون النصرة عليهم - لا للانتقام منهم لأَجْل ما فاتهم من نصيبهم - ولكن لكونهم كافرين، أعداء الله.

فقاموا بكل وجهٍ لله بالله؛ فلذلك نُصِرُوا وَوَجدوا الظفر.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾.

هيب الله الأعداء بطالوت لما زاده من البسطة في الجسم ولكن عند القتال جعل الظفر على يدي داود. وكان كما في القصة رَبْعَ القامة غير عظيم الجثة، مختصر الشخص، ولم يكن معه من السلاح إلا مقلاع، ولكن الظفر كان له لأن نصرة الله سبحانه كانت معه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

فلم يبق منهم أثر ولا عين، وقتل داودُ جالوتَ وداود بالإضافة إلى جالوت في الضخامة والجسامة كان بحيث لا تُتوهَم غلبته إياه ولكن كما قال قائلهم:

استقبلني وسيفه مسلول وقال لي واحدنا معذول

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

لو تظاهر الخلْق وتوافقوا بأجمعهم لهلك المستضعفون لغلبة الأقوياء ولكن شغل بعضهم ببعض ليدفع بتشاغلهم شرَّهم عن قوم.

قوله جلّ ذكره: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

لم يكن في علمك ولا في وسع احتيالك الوقوف على هذه الغائبات من الكائنات التي سلفت، وإنما وقفْتَ عليها بتعريفِ من قِبَلِ الله سبحانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾.

جمعتهم الرسالة ولكن تباينوا في خصائص التفضيل، لكل واحدٍ منهم أنوار، ولأنوارهم مطارح، فمنهمْ من هو أعلى نورا، وأتم من الرفعة وفوراً. فلم تكن فضائلهم استحقاقهم على أفعالهم وأحوالهم، بل حُكْمٌ بالحسنى أدركهم، وعاقبة بالجميل تداركتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ

ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

ولكنهم مُصَرّفون بالمشيئة الأزلية، ومسلوبون من الاختيار الذي عليه المدار وبه الاعتبار. والعبودية شدُّ نطاق الخدمة وشهود سابق القسمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

يعني اغتنموا مساعدة الإمكان في تقديم الإحسان قبل فتور الجَلَد وانقضاء الأمل.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾.

«الله» اسم تفرّد به الحق ـ سبحانه فلا سمِيّ له فيه. قال الله تعالى: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥] أي هل تعرف أحداً غيره تسمَّى «الله»؟.

من اعتبر في هذا الاسم الاشتقاق فهو كالمتعارض، فهذا اسم يدل على استحقاق صفات الجلال لا على اشتقاق الألفاظ، فلا يعارض ما لا يعارض فيه من الأقوال.

قوله: ﴿**لا إله إلا هو**﴾: إخبار عن نفي النظير والشبيه، بما استوجب من التقديس والتنزيه. ومن تحقق بهذه القالة لا يرى ذَرّةً من الإثبات بغيره أو من غيره؛ فلا يرفع إلى غيره حاجته، ولا يشهد من غيره ذرة، فَيَصْدُقُ إليه انقطاعه، ويديم لوجوده انفرادَه، فلا يسمع إلا من الله وبالله، ولا يشهد إلا بالله، ولا يُقْبِلْ إلا على الله، ولا يشتغل إلا بالله، فهو محوٌ عما سِوى الله، فَمَالَهُ شكوى ولا دعوى، ولا يتحرك منه لغيره عِرْقٌ، فإذا استوفى الحق عبداً لم يَبْقَ للحظوظ ـ ألبتة ـ مساغ.

ثم إن هذ القالة تقتضي التحقق بها، والفناء عن الموسومات بجملتها، والتحقق بأنه لا سبيل لمخلوق إلى وجود الحق ـ سبحانه، فلا وصل ولا فصل ولا قُرْبَ ولا بُعدَ، فإن ذلكَ أجمعَ آفاتٌ لا تليق بالقِدَم.

وقوله: ﴿**الحي القيوم**﴾: المتولي لأمور عباده، القائم بكل حركة، و (المحوي)، لكل عين وأثر.

﴿**لا تأخذه سنة ولا نوم**﴾ لأنه أحدي لا ترهقه غفلة، وصمد لا تمسه علة، وعزيز لا تقاربه قلة، وجبار لا تميزه عزلة، وفَرْدٌ لا تضمه جثة، ووتر لا تحده جهة، وقديم لا تلْحَقُه آفة، وعظيم لا تدركه مسافة.

تَقَدَّس مِنْ جمالِه جلالُه، وجلالُه جمالُه، وسناؤه بهاؤه، وبهاؤه سناؤه، وأزله أبده، وأبده سرمده، وسرمدهِ قدَمُه، وقدمه وجوده.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾.

مِلكاً وإبداعاً، وخَلْقاً واختراعاً.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾.

من ذا الذي يتنفس بنَفَس (. . .)[1] إلا بإجرائه، أو يتوسل إليه من دون إذنه وإبدائه. ومن ظنَّ أنه يتوسل إليه باستحقاقٍ أو عمل، أو تذلل أو أمل، أو قربة أو نسب، أو علة أو سبب ـ فالظنُّ وطنه والجهل مألفه والغلط غايته والبعد قُصاراه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾.

لأنه لا يخرج عن علمه معلوم، ولا يلتبس عليه موجود ولا معدوم.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾.

يعني من معلوماته، أي تقاصرت العلوم عن الإحاطة بمعلوماته إلا بإذنه.

فأي طمع لها في الإحاطة بذاته وحقه؟ وأنَّى تجوز الإحاطة عليه وهو لا يقطعه في عِزِّه أَمَد، ولا يدركه حَدٌّ؟!.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾.

خطاب لهم على قدر فهمهم. وإلا فأي خَطَرٍ للأكوان عند صفاته؟

جلَّ قَدْرُه عن التعزز بعرش أو كرسي، والتجمل بجنٍ أو إنْسِي.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

كَيف تُتْعِبُ المخلوقاتُ مَنْ خَلْقُ الذرة والكونِ بجملته ـ لو سواء؛ فلا من القليل له تَيَسُّر، ولا من الكثير عليه تَعَسُّر.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾.

فإن الحجج لائحة، والبراهين ظاهرة واضحة.

﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾.

وامتاز الليل بظلامه عن النهار بضيائه، والحقوق الأزلية معلومة، والحدود الأولية معلولة فهذا بنعت القدم وهذا بوصف العَدَم.

﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾.

وطاغوتُ كلِّ واحدٍ ما يشغله عن ربه.

(١) بياض في الأصل.

﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾.

والإيمان حياة القلب بالله.

﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾.

الاستمساك بالعروة الوثقى الوقوف عند الأمر والنهي، وهو سلوك طريق المصطفى صلى الله عليه وسلم وعلى آله.

﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

فمن تحقق بها سراً، وتعلّق بها جهراً فاز في الدارين وسَعِد في الكونين.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

الولي بمعنى المتولي لأمورهم، والمتفرد بإصلاح شؤونهم، ويصح أن يكون الولي على وزن فعيل في معنى المفعول فالمؤمنون يقولون طاعته. وكلاهما حق: فالأول جمع والثاني فرق، وكلُّ جمع لا يكون مقيداً بفرقٍ وكلُّ فرقٍ لا يكون مؤيداً بجمع فذلك خطأ وصاحبه مبطل[1] والآية تُحمَلُ عليهما جميعاً.

﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾.

يعني بحكمه الأزلي صانهم عن الظلمات التي هي الضلال والبدع، لأنهم ما كانوا في الظلمات قط في سابق علمه.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾.

ما استهواهم من دواعي الكفر.

﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

باستيلاء الشُبَه على قلوبهم، فيجحدون الربوبية، أولئك الذين بقوا عن الحق بقاء أبدياً.

ويقال يخرجهم من ظلمات تدبيرهم إلى سعة شهود تقديره.

ويقال يخرجهم من ظلمات ظنونهم أنهم يتوسلون أو يَصِلُون إليه بشيء من سكناتهم وحركاتهم.

ويقال يخرجهم من ظلماتهم بأن يرفع عنهم ظِلَّ أنفسهم ويدخلهم في ظل عنايته.

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص٦٤ ـ ٦٦.

ويقال يخلصهم عن حسبان النجاة بهم.

ويقال يحول بينهم وبين الاعتماد على أعمالهم والاستناد إلى أحوالهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

عَجَّل الحق سبحانه لأعدائه عقوبة الفرقة قبل أن يعاقبهم بالحرقة، وهذه العقوبة أشد أثراً في التحقيق ـ لو كانت لهم عين البصيرة. وإن الحق سبحانه أخبر أن إبراهيم عليه السلام انتقل مع العدو اللعين من الحجة الصحيحة إلى أخرى، أَوْضَحَ منها ـ لا لِخَلَلٍ في الحجة ـ ولكنْ لقصورٍ في فهم الكافر، ومحكُّ مَنْ سُدَّتْ بصائره عن التحقيق تضييعُ الوقت بلا فائدة تُجدِي، لا بمقدار ما يكون من الحاجة لأمرٍ لا بُدَّ منه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

لم يكن لك سؤال جحدٍ، ولا قضية جهل، ولا دلالة شكٍ في القدرة، فإن هذا الخبر عن عُزَيْر النبي عليه السلام، والأنبياء عليهم السلام لا يجوز عليهم الشكُّ والجهل، ولكنه كان سؤال تعجُّب، وأراد بهذه المقالة زيادة اليقين، فأراه الله ذلك في نفسه، بأن أماته ثم أحياه ثم بعث حماره وهو ينظر إليه، فازداد يقيناً على يقين. وسؤالُ اليقين من الله، والحيلةُ في ردِّ الخواطر المشكلةُ، دَيْدَنُ[١] المتعرفين، ولذلك (. . . .)[٢] الله سبحانه عُزيرا في هذه المقالة حتى قدَّر عليه ما طلب من زيادة اليقين فيه. ثم قال ﴿**واعلم أن الله على كل شيء قدير**﴾ من الإحياء والإماتة أي ازددت معرفة بذلك، وأراني من عظيم الآيات ما أزداد به يقيناً؛ فإنَّ طعامه وشرابه لم يتغيرا في طول تلك المدة، وحماره مات بلا عظام والطعام والشراب بالتغيير أَوْلى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

---

(١) الديدن: العادة والدأب. (٢) بياض في الأصل.

قيل كان في طلب في زيادة اليقين، فأراد أن يقرن حق اليقين بما كان له حاصلاً من عين اليقين[١].

وقيل استجلب خطابه بهذه المقالة إلى قوله سبحانه: ﴿**أو لم تؤمن قال بلى**﴾ كنت أومن ولكني اشتقتُ إلى قولك لي: أوَ لم تؤمن، فإن بقولك لي: ﴿**أو لم تؤمن**﴾ تطمئناً لقلبي. والمحبُّ أبداً يجتهد في أن يجد خطاب حبيبه على أي وجه أمكنه.

وقيل: إنه طلب رؤية الحق سبحانه ولكن بالرمز والإشارة فَمُنِعَ منها بالإشارة بقوله ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. وإن موسى ـ عليه السلام ـ لما سأل الرؤية جهراً وقال: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] فَرُدَّ بالجهر صريحاً وقيل له ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾.

وقيل إنما طلب حياة قلبه فأُشير إليه بأن ذلك بذبح هذه الطيور، وفي الطيور الأربعة طاووس، والإشارة إلى ذبحه تعني زينة الدنيا، وزهرتها، والغراب لحِرْصِه، والديك لمشيته، والبط لطلبه لرزقه.

ولما قال إبراهيم عليه السلام ﴿أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؟ قيل له: وأرني كيف تذبح الحي؟ يعني إسماعيل، مطالبة بمطالبة. فلمَّا وَفَّى بما طولب به وفَّى الحق سبحانه بحكم ما طلب.

وقيل كان تحت ميعاد من الحق ـ سبحانه ـ أن يتخذه خليلاً، وأمارة ذلك إحياء الموتى على يده، فجرى ما جرى.

ووصل بين قصة الخليل ﷺ فيما أراه وأظهره على يده من إحياء الموتى وبين عُزَير إذ أراه في نفسه؛ لأن الخليل يَرْجُح على عزير في السؤال وفي الحال، فإن إبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يَرُدَّ عليه في شيء ولكنه تَلَطَّف في السؤال، وعُزَير كلمه كلام من يُشْبِه قولُه قولَ المسْتَبْعِد، فأراد الحق أن يظهر له أقوى معجزة وأتمَّ دلالة حيث أظهر إحياءَ الموتى على يده حين التبس على نمرود ما قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ ربي الذي يحيي ويميت، فقال: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ أراد إبراهيم أن يُرِيَه الله سبحانه إحياء الموتى ليعلم أنه ليس هو الذي ادَّعى.

وفي هاتين الآيتين رخصة لمن طلب زيادةَ اليقين من الله سبحانه وتعالى في حال النظر.

ويقال إن إبراهيم أراد إحياء القلب بنور الوصلة بحكم التمام، فقيل له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ يعني أما تذكر حال طلبك إيانا حين كنت تقول لكل شيء رأيته ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: ٧٧] فلم تَدْرِ كيف بَلَّغْنَاكَ إلى هذه الغاية، فكذلك يوصلك إلى ما سَمَتْ إليه هِمَّتُك.

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص٨٥ و٣١١ ـ ٣١٧.

والإشارة من هذا أن حياة القلب لا تكون إلا بذبح هذه الأشياء يعني النفس؛ فَمَنْ لم يذبح نفسه بالمجاهدات لم يَحْيَى قلبُه بالله.

وفيه إشارة أيضاً وهو أنه قال قَطِّعْ بيدك هذه الطيور، وفَرِّقْ أجزاءها، ثم ادْعُهُنَّ يأتينك سعياً، فما كان مذبوحاً بيد صاحب الخلة، مقطعاً مُفَرَّقاً بيده ـ فإذا ناداه استجاب له كل جزء مُفَرَّق.. كذلك الذي فَرَّقه الحق وشتَّته فإذا ناداه استجاب:

ولو أنَّ فوقي تُرْبةً وَدَعَوْتَني لأجَبْتُ صَوْتَكَ وَالعِظَامُ رُفَاتُ[1]

قوله جل ذكره: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

فالخَلَفُ لهم الجنة، والذين ينفقون أرواحهم في سبيل الله فالخَلَفُ عنهم الحقُّ سبحانه، وشتان بين خلف من أنفق ماله فوجد مثوبته، ومَنْ أنفق حاله فوجد قربته؛ فإنفاق المال في سبيله بالصدقة، وإنفاق الأحوال في سبيله بملازمة الصدق، وبنفي كل حظ ونصيب، فترضى لجريان حكمه عليك من غير تعبيس القلب، قال قائلهم:

أُريد وصاله ويريد هجري فأتركُ ما أريد لما يريد

والإنفاق على ضربين: إنفاق العابدين وإنفاق الواجدين. أمَّا العابدون فإذا أنفقوا حَبَّةً ضاعَفَ لهم سبعين إلى ما ليس فيه حساب، وأما الواجدون فكما قيل:

فلا حَسَنٌ نأتي به يقبلونه ولا إن أسأنا كان عندهم محو

قوله جل ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

المنُّ شهود ما تفعله، والأذى تذكيرُك ـ لمن أحسنت إليه ـ إحسانَك.

ويقال ينفقون ما ينفقون ثم لا يشهدون ألبتة أفعالهم ولا أعمالهم.

ويقال كيف يمنون بشيء تستعذرونه وتستحقونه.

ويقال لا يمنون بفعلهم بل يشهدون المنة لله بتوفيق ذلك عليهم.

قوله جل ذكره: ﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾.

يعني قولٌ ـ للفقير المجرد ـ يرد به من تعرض له بإظهار العذر خير وأتم من صدقة المعجَبِ بفعله، وما يتبع من إلزام المنة فيه.

---

(١) الرُفات: الحُطام أي كل ما تكسر وبلي فتفتت.

ويقال إقرار منك مع الله بعجزك وجُرْمك، وغفران الله لك على تلك القالة - خيرٌ مِنْ صَدَقَةٍ بالمنّ مشوبة، وبالأذى مصحوبة.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

إنما يُحْمَلُ جميلُ المنة من الحق سبحانه، فأمَّا من الخلْق فليس لأحد على غيره مِنَّة؛ فإنَّ تحمل المنن من المخلوقين أعظم محنة، وشهود المنة من الله أعظم نعمة، قال قائلهم:

ليس إجلالُك الكبار بِذُلٍّ   إنما الذُّلُّ أنْ تُجِلَّ الصِّغارا

ويقال أفقرُ الخلْق مَنْ ظنَّ نفسَه موسِراً فيَبِين له إفلاسه، كذلك أقل الخلْق قدراً من ظن أنه على شيءٍ فيبدو له من الله ما لم يكن يحتسبه.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

هذه آيات كثيرة ذكرها الله تعالى على جهة ضرب المثل للمخلص والمنافق: لمن أنفق في سبيل الله، ولمن أنفق ماله في الباطل؛ فهؤلاء يحصل لهم الشرف والخلف، وهؤلاء لا يحصل لهم في الحال إلا الردّ، وفي المآل إلا التلف. وهؤلاء ظلَّ سعيهم مشكوراً، وهؤلاء يدعون ثبوراً ويَصْلَوْنَ سعيراً. هؤلاء تزكو أعمالهم وتنمو أموالهم وتعلو عند الله أحوالهم وتكون الوصلة مآلهم، وهؤلاء حَبِطَتْ أعمالهم وخسرت أحوالهم وختم بالسوء آمالهم ويضاعف عليهم وَبالهم.

ويقال مَثَلُ هؤلاء كالذي أنبت زرعاً فزكا أصله ونما فصله، وعلا فَرْعُه وكثر نَفْعُه. ومَثَلُ هؤلاء كالذي خسرت صفقته وسرقت بضاعته وضاعت - على كبره - حيلته وتواترت من كل وجهٍ وفي كل وقت محنته... هل يستويان مثلاً؟ هل يتقاربان شَبَهاً؟

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾.

لينظرْ كلُّ واحدٍ ما الذي ينفقه لأجل نفسه، وما الذي يخرجه بأمر ربه. والذي يخرج عليك من ديوانك: فما كان لحظِّك فنفائس ملكك، وما كان لربك فخصائص مالك الذي لله (فاللُّقْمَةُ لُقْمَتُه)، والذي لأجلك فأكثرها قيمة وأكملها نعمة.

ثم أبصر كيف يستر عليك بل كيف يقلبه منك بل أبصر كيف يعوضك عليه، بل أبصر كيف يقلبه منك، بل أبصر كيف يمدحك بل أبصر كيف ينسبه إليك؛ الكلُّ منه فضلاً لكنه ينسبه إليك فعلاً، ثم يُولِي عليك عطاءه ويسمي العطاء جزاءً، يوسعك بتوفيقه بِرّاً، ثم يملأ العَالَم منك شكراً.

قوله جل ذكره: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

يَعِدُ الشيطانُ الفقرَ لفقره، والله يَعِدُ المغفرةَ لكرمه.

الشيطانُ يعدكم الفقر فيشير عليكم بإحراز المعلوم، ويقال يشير عليكم ـ بطاعته ـ بالحرص؛ ولا فقرَ فوقه.

يعدكم الفقر بالإحالة على تدبيركم واختياركم.

يعدكم الفقر بنسيان ما تَعَوَّدْتُموه من فضله ـ سبحانه.

ويقال يعدكم الفقر بأنه لا يزيد شكايتك.

ويقال يعدكم الفقر بتعليق قلبك بما لا تحتاج إليه.

ويقال بالتلبيس عليك رؤية كفايته.

﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي الرغبة في الدنيا، ويقال بالأسباب التي تقوي الحرص، ويقال بكثرة الأمل ونسيان القناعة، ويقال بمتابعة الشهوات، ويقال بإيثار الحظوظ، ويقال بالنظر إلى غيره، ويقال بإخطار شيء سواه ببالك.

ويقال بالانحطاط إلى أوطان الرُّخص والتأويلات بعد وضوح الحق.

ويقال بالرجوع إلى ما تركته لله.

﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾: الفضل الموعود ـ في العاجل ـ القناعة، وفي الآجل الثواب والجنان والرؤية والرضوان و (. . . .)[1] والغفران.

ويقال في العاجلِ الظفر بالنفس، ويقال فتح باب العرفان، ونشر بساط القرب، والتلقي لمكاشفات الأُنْس.

قوله جل ذكره: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

(١) بياض في الأصل.

الحكمة: يحكم عليكم خاطرُ الحقِّ لا داعي النفس، وتحكم عليكم قواهر الحق لا زواجر الشيطان.

ويقال الحكمة صواب الأمور.

ويقال هي ألا تحكم عليك رعوناتُ البشرية.

(ومن لا حكم له على نفسه لا حكم له على غيره).

ويقال الحكمة موافقة أمر الله تعالى، والسَّفَهُ مخالفة أمره.

ويقال الحكمة شهود الحق والسَّفَهُ شهود الغير.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

قوم تَوَعَّدَهم بعقوبته، وآخرون توعدهم بمثوبته.. وآخرون توعدهم بعلمه؛ فهؤلاء العوام وهؤلاء الخواص. قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] فلا شيء يوجب سقوط العبد من عين الله كمخالفته لعهوده معه بقلبه، فليحذر المريد من إزلال(١) نفسه في ذلك غايةَ الحذر.

قوله جل ذكره: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

إن أظهَرْتَ صحبتَكَ معنا وأعلنتَ فلقد جوَّدْتَ وأحسنْتَ، وإنْ حفظت سِرّنا عن دخول الوسائط بيننا صُنْتَ شروط الوداد، وشَيَّدت من بناء الوصلة العماد.

قوله جل ذكره: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

لكَ المقام المحمود، واللواء المعقود، والرتب الشريفة، والمنازل العلية، والسنن المرضية. وأنت سيد الأولين والآخرين، ولا يدانيك أحدٌ ـ فضلاً عن أن يساميك، ولكن ليس عليك هداهم فالهداية من خصائص حقنا، وليس للأغيار منه شطية. يا محمد: أنت تدعوهم ولكن نحن نهديهم.

قوله جل ذكره: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾.

(١) أزله: حمله على ارتكاب الذنب أو الخطيئة.

أخذ عليهم سلطانُ الحقيقة كلَّ طريقٍ، فلا لهم في الشرق مذهب، ولا لهم في الغرب مضرب. كيفما نظروا رأوا سرادقات[١] التوحيد محدقة بهم:

كأنَّ فجاجَ الأرض ضاقَتْ بِرَحْبِها عليهم فما تزداد طولاً ولا عرضا

ولا يسلم لهم نفس مع الخلق، وأنَّى بذلك ولا خَلْق!! وإذا لم يكن فإثبات ما ليس نبرّك (. . . . . .)[٢] في التوحيد.

والفقير الصادق واقف مع الله بالله، لا إشراف للأجانب عليه، ولا سبيل لمخلوق إليه تنظره عين الأغيار في لبسة سوى ما هو به؛ قال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ فأما من كان ذا بصيرة فلا إشكال عليه في شيء من أحوالهم. تعرفهم يا محمد ـ أنت ـ بسيماهم، فليست تلك السيماء مما يلوح للبصر ولكنها سيماء تدركها البصيرة. لا إشراف عليهم إلا بنور الأحدية.

ويقال: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾: استبشار قلوبهم عند انكسار نفوسهم، وصياح أسرارهم إلى العرش (نشاطاً عنه) عند ذبول ظاهرهم عن الانتعاش.

ويقال تكسر الظاهر عند تكسر الباطن وبالعكس من هذه لا يسألون الناس إلحافاً، فإن جرى منهم من الخلق بدون الإلحاف سؤال ـ لما يشير إليه دليل الخطاب ـ فذلك صيانة لهم ولسر قصتهم، لئلا يلاحظهم الخلق بعين السؤال، وليس على سرّهم ذرة من الإثبات للأغيار.

ويقال: ﴿أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: وقفوا على حكم الله، وأحْصَرُوا نفوسَهم على طاعته وقلوبَهم على معرفته، وأرواحَهم على محبته، وأسرارَهم على رؤيته.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

ما دام لهم مال لا يفترون ساعة عن إنفاقه ليلاً ونهاراً، فإذا نفد المال لا يفترون عن شهوده لحظةً ليلاً ونهاراً.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوٰا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوٰا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

---

(١) السرادقات: (ج) السرادق: ما يمد فوق صحن الدار وهو ستر الدار. أو هو الخيمة الواسعة.

(٢) بياض في الأصل.

مَنْ أعرض عن الأمر، ورخَّص لنفسه بما يسوِّله له خاطره من التأويل فلا استقلال لهم في الحال ولا انتعاش في المآل؛ خسروا في عاجلهم ولم يربحوا في آجلهم.

ومَنْ انتبه بزواجر الوعظ، وكَبَحَ لجامَ الهوى، ولم يُطْلِقْ عنان الإصرار فَلَهُ الإمهال في الحال، فإنْ عاد إلى مذموم تلك الأحوال فَلْيَنْتَظِروا أوشكَ الاستئصالِ وفجاءة النَّكال.

قوله جل ذكره: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾.

ما كان بإذن منه ـ سبحانه ـ من التصرفَّات فمقرون بالخيرات، ومصحوب بالبركات. وما كان بمتابعة الهوى يُسَلِّط عليه المَحْقَ، وكانت عاقبة أمره الخسران.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

إن الذين كانوا لنا يكفيهم ما يجدون مِنَّا، لا نضيع أجر من أحسن عملاً.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

الاكتفاء بموعود الربِّ خيرٌ للمسلم من تعليق قلبه بمقصود نفسه.

ومقصودُك من تسويلات النفس، وموعودك مما ضمنه الحق.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾.

إن صاحب الإصرار ليس له عندنا وزن ولا مقدار، ولا قَدْرٌ ولا أخطار.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

إذا تقرر عند القاضي إفلاس المحبوس فلا تحل له استدامة حَبْسه، وإن ظهرت لذي الحق حجة المفلس فذلك مرتهن بحق خصمه، ولكنه في إمهال وإنظار. والرب لا يحكم بهذا علينا؛ فمع علمه بإعسارنا وعجزنا، وصدق افتقارنا إليه وانقطاعنا له ـ يرحمنا.

قوله: ﴿إِلَىٰ مَيْسَرَةٍۚ﴾. ليس للفقير المفلس وجه يحصل له منه شيء إلا من حيث ما جعل الله سبحانه من سهم الغارمين، فأمَّا من جهة الغلات فالغلة تدخل من رقاب الأموال والعقد.. وأنَّى للمفلس به؟!

وأمَّا الربح في التجارة من تقليب رأس المال والتصرُّف فيه.. فأنَّى للمفلس به؟!

ما بقي للمفلس إلا قول من قال من الفقهاء (.....)[1] وإن كان ضعيفاً،

---

(١) بياض في الأصل.

فذلك لمن بقيت له منة الحراك أما المفلس عن قوته ـ كما هو مفلس عن ماله ـ ما بقي له وجه إلا ما يسبب له مولاه.

قوله جل ذكره: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

الرجوع على ضربين: بالأبشار والنفوس غداً عند التوفي، وبالأسرار والقلوب في كل نَفَسٍ محاسبة؛ نقدٌ ووعد، فنَقْدُ مطالبته أحقُّ مما سيكون في القيامة من وعده.

وقال للعوام: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ وقال للخواص: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۞ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

أَمَرَ الله سبحانه الخلْقَ بالقيام بالصدق، وعلَّمَهم كيفية معاملاتهم فيما بينهم، والأخذ بالاحتياط والاستشهاد لئلا يُجْرِيَ ـ بعضُهم على بعض ـ حيفاً، وذلك من مقتضى رحمته سبحانه عليهم، وموجب رِفقِه بهم كيلا يتخاصموا. فأمر بتحصين الحقوق بالكتابة والإشهاد، وأمر الشهود بالتحمل ثم بالإقامة.

ومن شرع اليومَ ما يقطع الخصومة بينهم فبالحري أن يجري ما يرفع في الآخرة آثار الخصومة بينهم، وفي الخبر المنقول: «تواهبوا فيما بينكم فقد وهبت منكم مالي عليكم، فإن الكريم إذا قدر غفر».

وفيما شرع من الدَّيْن رِفْق بأرباب الحاجات، لأن الحاجة تمس فيحمله الحال على الاحتيال، ويضيق به الصدر عن الاحتمال، ويمنعه حفظ التجمل عن الكدية والسؤال، فأذِنَ له في الاستدانة ليَجْبُرَ أمرهَ في الحال، وينتظرَ فضل الله في المآل،

وقد وعد على الإدانة الثوابَ الكثير، وذلك من لطفه تعالى.

قوله جل ذكره: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

من المعاني والدعاوى، ويقال من القصود والرغائب، وفنون الحوائج والمطالب.

ويقال ما «تبديه»: العبادة، «وما تخفيه» الإرادة.

ويقال ما «تخفيه»: الخطرات و«ما تبديه»: «العبارات».

ويقال ما «تخفيه»: السكنات والحركات.

ويقال الإشارة فيه إلى استدامة المراقبة واستصحاب المحاسبة، فلا تغفل خطرة ولا تحمل وقتك نَفَساً.

قوله جل ذكره: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

هذه شهادة الحق ـ سبحانه ـ لنبيِّه ـ ﷺ وعلى آله ـ بالإيمان، وذلك أتمُّ له من إخباره عن نفسه بشهادته.

ويقال آمن الخَلْق كلُّهم من حيث البرهان وآمن الرسول ـ عليه السلام ـ من حيث العيان.

ويقال آمن الخَلْق بالوسائط وآمن محمد ـ ﷺ ـ بغير واسطة.

ويقال هذا خطاب الحق معه ليلة المعراج على جهة تعظيم القَدْر فقال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾، ولم يقل آمنتَ، كما تقول لعظيم الشأن من الناس: قال الشيخ، وأنت تريد قلتَ.

ويقال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾، ولكن شتان بين إيمان وإيمان، الكلُّ آمنوا استدلالاً، وأنت يا محمد آمنتَ وصالاً.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾.

لكمال رحمته بهم وقفهم على حد وسعهم ودون ذلك بكثير، كل ذلك رِفق منه وفضل.

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾.

من الخيرات.

﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾.

ما تكسبه من التوبة التي تُنَجِّي من كسب.

قوله جل ذكره: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾.

كان إذا وقعت حاجة كلّموه بلسان الواسطة. قالوا: ﴿يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤] وهذه الأمة قال لهم: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وكانت الأمم (السالفة) إذا أذنبوا احتاجوا إلى مضي مدة لقبول التوبة، وفي هذه الأمة قال ﷺ: «الندم توبة»(١).

وكانت الأمم السالفة منهم من قال اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، وهذه الأمة اختصت بإشراق أنوار توحيدهم، وخصائصُهم أكثر من أن يأتي عليه الشرح.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾.

في الحال.

﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾.

في المآل.

﴿وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

في جميع الأحوال إذ ليس لنا أحد سواك، فأنت مولانا فاجعل النصرة لنا على ما يشغلنا عنك.

ولمَّا قالوا: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ خسفَ الله ذنوبهم بدل خسف المتقدمين، فأبدل ذنوبهم حسنات بدل مسخهم، وأمطر عليهم الرحمة بدل ما أمطر على المتقدمين من الحجارة.

والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في (السنن ٤٢٥٢) وأحمد بن حنبل في (المسند ١/ ٣٧٦، ٤٢٣، ٤٣٣) والبيهقي في (السنن الكبرى ١٠/ ١٥٤) والحاكم في (المستدرك ٤/ ٢٤٣) والحميدي في (المسند ١٠٥) وأبو حنيفة في (جامع مسانيد ١/ ٩٨) وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ١٠٣) والطبراني في (المعجم الصغير ١/ ٣٣) وابن عبد البر في (التمهيد ٤/ ٤٥) والمنذري في (الترغيب والترهيب ٤/ ٩٧، ٩٨) والبغوي في (شرح السنة ٥/ ٩١) والطحاوي في (مشكل الآثار ٢/ ١٩٩) والشجري في (آمالي ١/ ١٩٥، ١٩٦) والهيثمي في (مجمع الزوائد ١٠/ ١٩٩، ٢٠٠) وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٨/ ٢٥١ ـ ٣١٢، ١٠/ ٣٩٨) والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٠٣٠١ ـ ١٠٣٠٣) وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٣/ ٣٤١) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/ ٢٩٧) والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٤/ ٣) وابن عراق في (تنزيه الشريعة ٢/ ٤٣٦ ـ ٧٩٧) والهروي (٤/ ١٠٩) (وصاحب شرح معاني الآثار ٤/ ٢٩١) والسيوطي في (الدر المنثور ٥/ ٤٤) والسهمي في (تاريخ جرجان ٧٣، ١٦٢) وأبو نعيم في (تاريخ أصبهان ١/ ١٤٠ ـ ٢٠٩) والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٩/ ٤٠٥) وابن أبي حاتم الرازي في (علل الحديث ١٨١٦ ـ ١٨٤١ ـ ١٨٨٩ ـ ١٩١٨) والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٣٥) وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ١/ ٢٠٣، ٤/ ١٣٢٩ ـ ١٣٨١ ـ ١٣٦٤ ـ ١٤٩٩، ٧/ ٢٦٦٨).

السورة التي يذكر فيها آل عمران

بسم الله الرحمن الرحيم

اختلف أهل التحقيق في اسم «الله» هل هو مشتق من معنًى أم لا؟ فكثير منهم قالوا إنه ليس بمشتق من معنىً، وهو له سبحانه على جهة الاختصاص يجري في وضعه مجرى أسماء الأعلام في صفة غيره، فإذا قرع بهذا اللفظ أسماء أهل المعرفة لم تذهب فهُومُهم ولا علومهم إلى معنى غير وجوده سبحانه وحقه. وحقُّ هذه القالة أن تكون مقرونة بشهود القلب فإذا قال بلسانه «الله» أو سمع بآذانه شهد بقلبه «الله».

وكما لا تدل هذه الكلمة على معنى سوى «الله» لا يكون مشهودُ قائلها إلا «الله» فيقول بلسانه «الله»، ويعلم بفؤاده «الله»، ويعرف بقلبه «الله»، ويحب بروحه «الله»، ويشهد بسره «الله»، ويتعلق بظاهره بين يدي الله، ويتحقق بسرِّه الله، ويخلو بأحواله لله وفي الله؛ فلا يكون فيه نصيب لغير الله، وإذا أشرف على أن يصير محواً في الله لله بالله تداركه الحق سبحانه برحمته فيكاشفه بقوله الرحمن الرحيم استبقاءً لمهجتهم أن تتلف، وإرادةً في قلوبهم أن تنقى؛ فالتلطفُ سُنَّة منه سبحانه لئلا يفنى أولياؤه بالكلية.

قوله جل ذكره: ﴿الٓمٓ اللَّهُ﴾.

أشار بقوله ألف إلى قيامه بكفايتك على عموم أحوالك، فأنت في أسر الغفلة لا تهتدي إلى صلاحك ورشدك، وهو مجرٍ ما يجبرك، وكافٍ بما ينصرك، فبغير سؤالك ـ بل بغير علمك بحالك ـ يكفيك من حيث لا تشعر، ويعطيك من غير أن تطلب.

والإشارة من اللام إلى لطفه بك في خفيِّ السرِّ حتى أنه لا يظهر عليك محل المنة فيما يثبتك فيه. والإشارة من الميم لموافقة جريان التقدير بمتعلقات الطِّلْبَةِ من الأولياء، فلا يتحرك في العالم شيء، ولا تظهر ذرة إلا وهو بمحل الرضا منهم حتى أن قائلاً لو قال في قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] إن ذلك الشأن تحقيق مراد الأولياء ـ لم يكن ذلك ببعيد.

ويقال تفرَّق عن القلوب ـ باستماع هذه الحروف المقطعة التي هي خلاف عادة الناس في التخاطب ـ كلُّ معلومٍ ومرسوم، ومعتاد وموهوم، من ضرورة أو حِسٍّ أو اجتهاد، حتى إذا خلت القلوبُ عن الموهومات والمعلومات، وصفَّى الأسرار عن

المعتادات والمعهودات يَرِدُ هذا الاسم وهو قوله: «الله» على قلب مقدَّسٍ من كل غَيْرٍ، وسِرٍّ مصفىً عن كل كيف؛ فقال: ﴿الٓمٓ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾.

فهو الذي لا يلهو فيشتغل عنك، ولا يسهو فتبقى عنه، فهو على عموم أحوالك رقيبُ سِرِّك؛ إنْ خلوتَ فهو رقيبك، وإن توسطت الخَلْقَ فهو رقيبك، وفي الجملة ـ كيفما دارت بك الأحوال ـ فهو حبيبك.

قوله جل ذكره: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ﴾.

وما كنتَ يا محمد تدري ما الكتاب، ولا قصة الأحباب، ولكنما صادفك اختيار أزليّ فألقاك في أمرٍ عجيبٍ شأنُه، جَلِيٍّ برهانُه، عزيزٍ محلُّه ومكانُه.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

أي محققاً لموعوده لك في الكتاب على ألسنة الرسل عليهم السلام.

﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾.

أي إنا وإن أنزلنا قبلك كُتُبَنا على المرسلين فما أخْلَيْنا كتاباً من ذِكْرِكْ، قال قائلهم:

وعندي لأحبابنا الغائبين ... صحائفُ ذِكْرُكَ عنوانُها

وكما أتممنا بك أنوار الأنبياء زيَّنا بذكرك جميع ما أنزلنا من الأذكار.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

وهو ذُلُّ الحجاب، ولكنهم لا يشعرون.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ على أوليائه ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ من أعدائه، عزيز يطلبه كل أحد، ولكن لا يجده ـ كثيراً ـ أحد.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَآءِ﴾.

لا يتنفس عبدٌ نَفَساً إلا والله سبحانه وتعالى مُحْصِيه، ولا تحصل في السماء والأرض ذرة لا وهو سبحانه مُحْدثِهُ ومُبْدِيه، ولا يكون أحد بوصف ولا نعت إلا هو متوليه.

هذا على العموم، فأمَّا على الخصوص: فلا رَفَعَ أحدٌ إليه حاجةً إلا وهو قاضيها، ولا رجع أحدٌ إليه في نازلة إلا وهو كافيها.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾.

هذا فيما لا يزال من حيث الخلقة، وهو الذي قدَّر أحوالكم في الأزل كيف شاء، وهذا فيما لم يزل من حيث القضاء والقسمة.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

فلا يُعَقَّبُ حكمهُ بالنقض، أو يُعَارَضُ تقديره بالإهمال والرفض.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

جَنَّسَ عليهم الخطاب؛ فمِنْ ظاهرٍ واضح تنزيله، ومن غامض مشكل تأويله. القِسْم الأول لبسط الشرع واهتداء أهل الظاهر، والقِسْم الثاني لصيانة الأسرار عن اطلاع الأجانب عليها، فسبيلُ العلماء الرسوخُ في طلب معناه على ما يوافق الأصول، فما حصل عليه الوقوف فمُقَابَلٌ بالقبول، وما امتنع من التأثر فيه بمعلول الفكر سلَّموه إلى عالم الغيب.

وسبيل أهل الإشارة والفهم إلقاء السمع بحضور القلب، فما سنح لفهومهم من لائح التعريفات بَنَوْا (عليه) إشارات الكشف.

إنْ (طولبوا) باستدامة الستر وطيِّ السِّر تخارسوا عن النطق، وإنْ أُمِروا بالإظهار والنشر أطلقوا بيان الحق، ونطقوا عن تعريفات الغيبة، فأمَّا الذين أُيِّدوا بأنوار البصائر فمستضيئون بشعاع شموس الفهم، وأمّا الذين ألبسوا غطاء الريب، وحرموا لطائف التحقيق، فتتقسم بهم الأحوال وتَتَرجَّمُ بهم الظنون، ويطيحون في أودية الرَّيْبِ والتلبيس، فلا يزدادون إلا جهلاً على جهل، ونفوراً على شك.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

ومَنْ وجد علمه من الله فيكون إيمانهم بلا احتمال جولان خواطر التجويز بل عن صريحات الظهور، وصافيات اليقين. وأمّا أصحاب العقول الصاحية ففي صحبة التذكر، لظهور البراهين و(. . . .)[1] أحكام التحصيل.

قوله جل ذكره: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾.

ما ازدادوا قرباً إلا ازدادوا أدباً، واللياذ إلى التباعد أقوى أسباب رعاية الأدب ويقال حين صدقوا في حسن الاستغانة أُمِدُّوا بأنوار الكفاية.

قوله جل ذكره: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

---

(١) بياض في الأصل.

اليوم جمع الأحباب على بساط الاقتراب، وغداً جمع الكافة لمحل الثواب والعقاب، اليوم جمع الأسرار لكشف الجلال والجمال، وغداً جمع الأبشار لشهود الأحوال، ومقاساة ما أخبر عنه من تلك الأحوال.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾.

فلا فداء ينفعهم، ولا غناء يدفعهم، ولا مال يُقبَلُ منهم، ولا حجاب يُرفَع عنهم، ولا مقال يسمع فيهم، بهم يُسَعَّرُ الجحيم، ولهم الطرد الأليم، والبعد الحميم.

قوله جل ذكره: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

أصرُّوا في العتوِّ على سَنَنهم، وأدَمْنَا لهم في الانتقام سَنَنَا، فلا عن الإصرار أقلعوا، ولا في المَبَارِّ طَعِمُوا، ولعمري إنهم هم الذين نَدِموا وتحسَّرُوا على ما قدَّموا ـ ولكن حينما وجدوا البابَ مسدوداً، والندمَ عليهم مردوداً.

قوله جل ذكره: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

أخبرهم أنهم يفوتهم حديث الحق في الآجل(١)، ولا تكون لهم لذةُ عيشٍ في العاجل، والذي يلقونه في الآخرة من شدة العقوبة بالحُرْقة فوق ما يصيبهم في الدنيا من الغيبة عن الله والفرقة، ولكن سَقِمتْ البصائر فلم يحسوا بأليم العقاب.

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

إذا أراد اللّهُ إمضاءَ أمرٍ قلّل الكثير في أعين قوم، وكثَّر القليل في أعين قوم، وإذا لبَّس على بصيرة قوم لم ينفعهم نفاذ أبصارهم، وإذا فتح أسرار آخرين فلا يضرهم انسداد بصائرهم.

قوله جل ذكره: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾.

---

(١) يشير القشيري إلى سورة آل عمران الآية (٧٧): **﴿لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم﴾**.

يذكر بعض الشهوات على ما سواها مما هو في معناها، وفي الجملة ما يحجبك عن الشهود فهو من جملتها. وأصعب العوائق في هذه الطريق الشهوة الخفية. وأداء الطاعات على وجه الاستحلاء معدودٌ عندهم في جملة الشهوة الخفية. ومن المقاطع المشكلة السكون إلى ما يلقاك به من فنون تقريبك، وكأنه في حال ما يناجيك يناغيك، فإنه بكل لطيفة يصفك فيطريك وتحتها خُدَعٌ خافية. ومن أدركته السعادة كاشفه بشهود جلاله وجماله (لا)[1] بإثباته في لطيف أحواله وما يخصه به من أفضاله وإقباله.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

بيَّن فضيلة أهل التقوى على أرباب الدنيا، فقال: هؤلاء لهم متابعة المنى وموافقة الهوى وأولئك لهم الدرجات العُلى، والله بصير بالعباد؛ أنزل كل قوم مَنْزِلَه، وأوصله إلى ما لَهُ أَهَّله.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

أي ينقطعون إلينا بالكلية، ويتضرعون بين أيدينا بذكر المحن والرزية، أولئك ينالون منا القربة والخصوصية، والدرجات العليَّة، والقِسَم المُرضيَّة.

قوله جل ذكره: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾.

الصبرُ حبسُ النَّفْس، وذلك على ثلاث مراتب:

صبر على ما أُمرَ به العبد، وصبر عما نُهي عنه وصبر هو الوقوف تحت جريان حكمه على ما يريد؛ إمَّا في فوات محبوبك أو هجومَ ما لا تستطيعه[2].

فإذا ترقيتَ عن هذه الصفة ـ بألا تصيبك مشقةٌ أو تنال راحةً ـ فذلك رضاً[3] لا صبر ويقال الصابرين على أمر الله، والصادقين، فيما عاهدوا الله.

و﴿وَالْقَانِتِينَ﴾، بنفوسهم بالاستقامة في محبة الله.

و﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ﴾ عن جميع ما فعلوه لرؤية تقصيرهم في الله.

ويقال: ﴿الصَّابِرِينَ﴾ بقلوبهم و﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ بأرواحهم و﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ بنفوسهم، و﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ﴾ بألسنتهم.

---

(١) ربما تكون (لا) زائدة.

(٢) انظر الرسالة القشيرية ص٧٨.

(٣) انظر الفرق بين الرضا والصبر في الرسالة القشيرية، فصل الصبر ص١٨٣ ـ ١٨٩، وفصل الرضا ص١٩٢ ـ ١٩٧.

ويقال «الصابرين» على صدق القصود «الصادقين» في العهود «القانتين» بحفظ الحدود و«المستغفرين» عن أعمالهم وأحوالهم عند استيلاء سلطان التوحيد.

ويقال «الصابرين» الذين صبروا على الطلب ولم يتعللوا بالهرب ولم يحتشموا من التعب، وهجروا كل راحة وطلب. وصبروا على البلوى، ورفضوا الشكوى، حتى وصلوا إلى المولى، ولم يقطعهم شيء من الدنيا والعقبى.

و«الصادقين» الذين صدقوا في الطلب فقصدوا، ثم صدقوا حتى وردوا، ثم صدقوا حتى شهدوا، ثم صدقوا حتى وجدوا، ثم صدقوا حتى فقدوا. . فترتيبهم قصود ثم ورود ثم شهود ثم وجود ثم خمود.

و«القانتين» الذين لازموا الباب، وداوموا على تجرّع الاكتئاب، وتركوا المحاب، ورفضوا الأصحاب إلى أن تحققوا بالاقتراب.

و﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾ الذين جادوا بنفوسهم من حيث الأعمال، (ثم جادوا بميسورهم من الأموال)، ثم جادوا بقلوبهم بصدق الأحوال، ثم جادوا بترك كل حظٍ لهم في العاجل والآجل، استهلاكاً عند القرب والوصال بما لقوا من الاصطلام والاستئصال[1].

و﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ﴾ عن جميع ذلك إذا رجعوا إلى الصحو عند الأسحار يعني ظهور الإسفار، وهو فجر القلوب لا فجرٌ يظهر في الأقطار.

قوله جل ذكره: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي عَلِمَ اللَّهُ وأخبر اللَّهُ وحَكَمَ اللَّهُ بأنه لا إله إلا هو، فهو شهادة الحق للحق بأنه الحق، وأوّلُ مَنْ شهد بأنه اللَّهُ ـ اللَّهُ، فشهد في آزاله بقوله وكلامه وخطابه الأزلي، وأخبر عن وجوده الأحدي، وكونه الصمدي، وعونه القيومي، وذاته الديمومي، وجلاله السرمدي، وجماله الأبدي. فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ ثم في آباده، «شهد الله» أي بيَّنَ اللَّهُ بما نَصَبَ من البراهين، وأثبت من دلائل اليقين، وأوضح من الآيات، وأبدى من البينات. فكلُّ جزءٍ من جميع ما خلق وفطر، ومن كتم العدم أظهر، وعلى ما شاء من الصفة الذاتية حصل، من أعيان مستقلة، وآثار في (ثاني) وجودها مضمحلة، وذوات للملاقاة قابلة، وصفات في المَحَالِّ متعاقبة ـ فهو لوجوده

(١) الاستئصال ما عبر عنه القشيري قال: كأس وأي كأس تصطلمهم عنهم وتفنيهم، وتخطفهم منهم ولا تبقيهم كأس لا تبقي ولا تذر، تمحوهم كلياً ولا تبقي شظية من آثار البشرية، كما قال قائلهم:

ساروا فلم يبق لا رسم ولا أثر

(الرسالة القشيرية ص٧٦).

مُفْصِح، ولربوبيته موضّح، وعلى قِدَمِه شاهد، وللعقول مُخْبِر بأنه واحد، عزيز ماجد، شهد سبحانه بجلال قَدْره، وكمال عزه، حين لا جحد ولا جهود ولا عرفان لمخلوق ولا عقل، ولا وفاق، ولا كفر، ولا حدثان، ولا غير، ولا إلحاد، ولا شِرْك، ولا فهم ولا فكر، ولا سماء ولا فضاء، ولا ظلام ولا ضياء، ولا وصول للمزدوجات، ولا فضول باختلاف الآفات.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

لم يؤيِّد شهادته بوحدانيته بشهادة الملائكة بل أسعدهم وأيَّدهم، حين وفَّقهم بشهادة وسدَّدهم، وإلى معرفة وحدانيته أرشدهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾.

وهم أولياء بني آدم إذ علموا جلال قدرته، وعرفوا نعت عزته فأكرمهم حيث قرن شهادته بشهادتهم، فشهدوا عن شهود وتعيين، لا عن ظن وتخمين، إن لم يدركوه - اليوم - ضرورة وحِسَّاً، لم يعتقدوه ظنّاً وحَدْساً؛ تعرَّف إليهم فعرفوه، وأشهدهم فلذلك شهدوا، ولو لم يقُلْ لهم إنه مَنْ هو لَمَا عرفوا مَنْ هو.

ولكنَّ العلماء يشهدون بصحو عقولهم، والمُوَحِّدُون يشهدون بعد خمودهم؛ فهم كما قيل:

مُسْتَهْلَكُون بقهر الحق قد هَمَدُوا واستُنْطِقُوا بعد افتنائهمُ بتوحيد

فالمُجْرِي عليهم ما يبدو منهم - سواهم، والقائمُ عنهم بما هم عليه وبه - غيرُهم، ولقد كانوا لكنهم بانوا، قال قائلهم:

كتابيَ إليكم بعد موتي بليلة ولم أدرِ أنّي بعد موتي أكتب

وأولو العلم على مراتب: فَمِنْ عالِم نَعْتُه وفاق ورهبانية، ومن عالم وصفه فناء وربانية، وعالم يعرف أحكام حلاله وحرامه، وعالم يعلم أخباره وسننه وآثاره، وعالم يعلم كتابه ويعرف تفسيره وتأويله، ومحكمه وتنزيله، وعالم يعلم صفاته ونعوته ويستقوي حججه وتوحيده بحديث يخرجه (. . . .)[1]، وعالم لاطفه حتى أحضره ثم كاشفه فقهره، فالاسم باقٍ، والعين محو، والحكم طارق والعبد محق، قال قائلهم:

بنو حق غدوا بالحق صِرفاً فنعت الخلْق فيهمو مستورُ

وليست الإشارة من هذا إلا إلى فنائهم عن إحساسهم، وعند عِلْمِهم بأنفسهم، فأما أعمالهم أعيانهم فمخلوقة، وما يفهم بذواتهم من أحوالهم فمسبوقة، وذات الحق

(١) بياض في الأصل.

لا توصف بقبول حدثان، وصفات ذاته لا تقبل اتصالاً بالغير ولا انفصالاً عن الذات، تقدَّس الحق عن كل ضدٍّ وندٍّ، ووصل وفصل، وجمع وفرق، وعين وخلق، وملك وفلك، ورسم وأثر، وعبد وبشر، وشمس وقمر، وشخص وغَبَر.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾.

الدِّينُ الذي يرتضيه، والذي حكم لصاحبه بأنه يجازيه ويعليه، وبالفضل يُلَقِّيه - هو الإسلام.

والإسلام هو الإخلاص والاستسلام، وما سواه فمردود، وطريق النجاة على صاحبه مسدود.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

جاءهم العلم الذي عليهم حجة، لا المعرفة التي لها بيان ومحجة، فأصروا على الجحود، لأنهم حُجِبُوا عن محل الشهود.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

طالِعْهم بعين التصريف كيلا يفترق بك الحال في شهود اختلافهم وتباين أطوارهم؛ فإنَّ مَنْ طالَعَ الكائناتِ بعين القدرة علم أن المُثْبِتَ للكلِّ - على ما اختص به كل واحد من الكل - واحدٌ.

فادْعُهم جهراً بجهر، واشهد تصريفنا إياهم سِرّاً بسر، واشغل لسانك بنصحهم، وفرِّغ قلبك عن حديثهم، وأفرد سِرَّك عن شهودهم، فليس الذي كلفناك من أمورهم إلا البلاغ، والمُجرِي للأمور والمبدي - نحن.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

إن الذين ربطناهم بالخذلان ووسمناهم بوصف الحرمان - أخْبِرْهم بأن إعراضنا عنهم مؤبد، وأن حكمنا سبق بنقلهم عن دار الجنان إلى دار الهوان، من الخذلان والحرمان إلى العقوبة والنيران.

قوله جل ذكره: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

أولئك الذين ليس لهم ـ اليومَ ـ توفيق بأعمالهم، ولا غداً تحقيق لآمالهم، وما ذلك إلا لأنهم فقدوا في الدارين نصرتنا، ولم يشهدوا عِزَّنا وقدرتنا.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

امتحناك بدعوة من سبق علمنا بأنهم لا يستجيبون، فاصبر على ما أُمِرْتَ فيهم، واعلم سوء أحوالهم، فإنهم أهل التولِّي عن الإجابة، لأنهم فقدوا منا حسن التجلي بسابق الإرادة.

قوله جل ذكره: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

عاقبناهم في الدنيا بالاستدراج حتى حكموا لأنفسهم بالنجاة وتخفيف العقاب، وسوف يعلمون تضاعف البلاء عليهم، ويحسبون أنهم على شيء ألا أنهم هم الكاذبون.

ظن المخطئون حكماً...

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

هذه كلمة تعجب لما أخبر به عن تعظيم الأمر، وتفخيم الشأن عند بهتة عقولهم ودهشة أسرارهم، وانقطاع دواعيهم، وانخلاع قلوبهم من مكامنها، وتراقيها إلى تراقيهم، ثم ما يلقونه من الحساب والعتاب، والعذاب والعقاب، وعدم الإكرام والإيجاب، وما في هذا الباب.

وقيامةُ الكفار يومَ الحشر، وقيامة الأحباب في الوقت، ولِشَرْحِ هذا تفسير طويل.

قوله جل ذكره: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾.

«اللهم» معناها يا الله والميم في آخرها بدل عن حرف النداء وهو يا. فهذا تعليم الحق كيفية الثناء على الحق، أي صِفْني بما أَسْتَحِقُّه من جلال القَدْر فَقُلْ: يا مالكَ المُلْكِ لا شريكَ لكَ ولا مُعينَ، ولا ظهير ولا قرين، ولا مُقاسِمَ لكَ في الذات، ولا مُسَاهِمَ في المُلْك، ولا مُعَارِضَ في الإبداع.

﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾.

حتى نعلم أن الملك لك، والمَلِكُ من المخلوقين مَنْ تَذَلَّلَ له، ومنزوعُ المُلْكُ ممن تكبَّر عليه؛ فَتَجمُّلُ الخَلْقِ في تذللهم للحق، وعِزُّهم في محوهم فيه، وبقاؤهم في فنائهم به.

﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾.

بعز ذاتك.

﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾.

بخذلانك.

وتعز من تشاء بأن تهديه ليشهدك ويوحدك، وتذل من تشاء بأن يجحدك ويفقدك وتعزُّ من تشاء بيُمْنِ إقبالك، وتذل من تشاء بوحشة إعراضك. وتعزُّ من تشاء بأن تؤنسه بك، وتذل من تشاء بأن توحشه عنك. وتعز من تشاء بأن تشغله بك، وتذل من تشاء بأن تشغله عنك. وتعز من تشاء بسقوط أحكام نفسه، وتذل من تشاء بغلبة غاغة نفسه. وتعز من تشاء بطوالع أُنسه وتذل من تشاء بطوارق[1] نفسه. وتعز من تشاء ببسطه بك، وتذل من تشاء بقبضه عنك.

و﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ يشد نطاق خدمتك، ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ بنفيه عن بساط عبادتك. تؤتي الملك من تشاء بإفراد سِرّه لك وتنزع الملك ممن تشاء بأن تربط قلبه بمخلوق، ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ بإقامته بالإرادة، ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ يردّه إلى ما عليه أهل العادة.

﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾.

ولم يذكر الشر حفظاً لآداب الخطاب، وتفاؤلاً بذكر الجميل، وتطيراً من ذكر السوء.

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

من الحجب والجذب، (والنصرة)[2] والخذلان، والأخذ والرد، والفرق والجمع، والقبض والبسط.

قوله جل ذكره: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

تولج الليل في النهار حتى يَغْلِبَ سلطانُ ضياءِ التوحيد فلا يَبْقَى من آثار النفس وظلماتها شيءٌ، وتولج النهار في الليل حتى كأن شموسَ القلوب كُسِفَت، أو كأن الليل دام، وكأن الصبح فُقِد.

وتخرج الحي من الميت حتى كأن الفترة لم تكن، وعهد الوصال رجع فَتيّاً، وعُودُ القلوبِ صار غضّاً طريّاً.

---

(١) الطوارق: (ج) الطارق: الآتي ليلاً.

(٢) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

وتخرج الميت من الحي حتى كأن شجرة البرم أورقت شوكاً وأزهرت شوكاً، وكأن اليائس لم يجد خيراً، ولم يشم ريحاً، وتقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة.

﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

حتى لا (كدر) ولا جُهْدَ ولا عَرَقَ جبينٍ، ولا تَعَبَ يمينٍ. لَيْلَهُ روحٌ وراحة، ونهارُه طرب وبهجة، وساعاته كرامات، ولحظاته قُرُبات، وأجناس أفعاله على التفصيل لا يحصرها لسان، ولا يأتي على استقصاء كنهها عبارة ولا بيان.

وفيما لوَّحنا من ذلك تنبيه على طريق كيفية الإفصاح عنه.

ويقال لما قال: ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ انكسر خُمَارُ كلِّ ظانٍّ أنه مَلِكٌ لأنه شاهد ملكه يعرض للزوال فَعَلِمَ أن التذلل إليه في استبقاء ملكه أولى من الإعجاب والإدلال.

ويقال المَلِكُ في الحقيقة ـ مَنْ لا يشغله شيء بالالتفات إليه عن شهود من هو المَلِكُ على الحقيقة.

قوله جل ذكره: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

من حقائق الإيمان الموالاةُ في الله والمعاداة في الله.

وأوْلى مَنْ تسومه الهجرانَ والإعراضَ عن الكفار ـ نَفْسُك؛ فإنها مجبولةٌ على المجوسية حيث تقول: لي ومني وبي[1]، وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣].

وإن الإيمان في هذه الطريقة عزيز، ومن لا إيمان له بهذه الطريقة من العوام ـ وإن كانوا قد بلغوا من الزهد والجهد مبلغاً عظيماً ـ فليسوا بأهل لموالاتك، والشكل بالشكل أليق.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

صحبة الحق سبحانه وقربته لا تكون مقرونة بصحبة الأضداد وقربتهم ـ ألبتة.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾: هذا خطاب للخواص من أهل المعرفة، فأمَّا الذين نزلت رُتْبَتُهم عن هذا فقال لهم: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ﴾ [آل عمران: ١٣١] وقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ..﴾ [البقرة: ٢٨١]. إلى غير ذلك من الآيات.

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص٣٠٢.

ويقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أن يكون عندكم أنكم وصلتم؛ فإن خفايا المكر تعتري الأكابر، قال قائلهم:

وأمِنْتُه فأتاح لي من مأمني ... مكراً، كذا مَنْ يأمن الأحبابا

ويقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ لأن يجري في وهم أحد أنه يصل إليه مخلوق، أو يطأ بساطَ العِزِّ قَدَمُ همة بشر، جلَّتْ الأحدية وعزَّت!

وإنَّ من ظن أنه أقربهم إليه ففي الحقيقة أنه أبعدهم عنه.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

لا يَعْزُبُ معلوم عن علمه، فلا تحتشم من نازلة بك تسوءك، فعن قريب سيأتيك الغوث والإجابة، وعن قريب سيزول البلاء والمحنة، ويُعَجِّلُ المدَدَ والكفاية.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾.

وَدَّ أهل الطاعات أَنْ لو استكثروا منها، ووَدَّ أهل المخالفات أَنْ لو كبحوا لجامهم عن الركض في ميادينهم، قال قائلهم:

ولو إنني أُعْطِيتُ من دهري المُنَى ... وما كلُّ مَنْ يُعْطَى المنى بِمُسَدَّدِ
لَقُلْتُ لأيام مَضَيْن: ألا ارجعي ... وقلتُ لأيام أتين ألا ابعدي

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

الإشارة من قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ للعارفين، ومن قوله ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ للمستأنفين، فهؤلاء أصحاب العنف والعنوة، وهؤلاء أصحاب التخفيف والسهولة.

ويقال لمَّا قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ اقتضى أسماع هذا الخطاب تحويلهم فقال مقروناً به ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ لتحقيق تأميلهم، وكذلك سُنَّته يطمعهم في عين ما يروعهم.

ويقال أفناهم بقوله ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ ثم أحياهم وأبقاهم بقوله ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ فرق، و﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ جمع.

﴿تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾مشوب بالعلة، و ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾بلا عِلّة، بل هو حقيقة الوصلة. ومحبة العبد لله حالة لطيفة يجدها من نفسه، وتحمله تلك الحالة على موافقة أمره على الرضا دون الكراهية، وتقتضي منه تلك الحالة إيثاره ـ سبحانه ـ على كل شيء وعلى كل أحد.

وشرطُ المحبةِ ألا يكون فيها حظٌّ بحال، فَمنْ لم يَفْنَ عن حظوظه بالكلِّية فليس له من المحبة شظيَّة.

ومحبة الحق للعبد إرادته إحسانَه إليه ولطفَه به، وهي إرادةُ فضلٍ مخصوص، وتكون بمعنى ثنائه سبحانه عليه ومدحه له، وتكون بمعنى فضله المخصوص معه، فعلى هذا تكون من صفات فعله.

ويقال شرط المحبة امتحاء كليتك عنك لاستهلاكك في محبوبك، قال قائلهم:

وما الحبُّ حتى تنزف العين بالبكا ... وتخرس حتى لا تجيب المناديا

وهذا فرق بين الحبيب[1] والخليل؛ قال الخليل: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ [إبراهيم: ٣٦].

وقال الحبيبُ: ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾.

فإن كان مُتَّبعُ الخليل «منه» إفضالاً فإن متابعَ الحبيبِ محبوبُ الحقِّ سبحانه، وكفى بذلك قربة وحالاً.

ويقال قطع أطماع الكافة أن يسلم لأحدٍ نفس إلا ومقتداهم وإمامهم سيد الأولين والآخرين محمد ﷺ.

ويقال في هذه الآية إشارة إلى أن المحبة غير معلولة وليست باجتلاب طاعة، أو التجرد عن آفة لأنه قال: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾بيَّن أنه يجوز أن يكون عبد له فنون كثيرة ثم يحبُّ اللَّهَ ويحبُّه الله.

ويقال قال أولاً: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ ثم قال: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ والواو تقتضي الترتيب ليُعْلَمَ أَنَّ المحبةَ سابقةٌ على الغفران؛ أولاً يحبهم ويحبونه (وبعده) يغفر لهم ويستغفرونه، فالمحبة توجِب الغفران لأن العفو يوجب المحبة.

والمحبة تشير إلى صفاء الأحوال ومنه حَبَبُ الأسنان[2] وهو صفاؤها.

والمحبة توجب الاعتكاف بحضرة المحبوب في السر.

---

(١) المقصود بالحبيب سيدنا محمد ﷺ.

(٢) جاءت: الإنسان وهي خطأ (انظر الرسالة القشيرية ص٣٢٠).

ويقال أحب البعير إذا استناخ فلا يبرح بالضرب.

والحبُّ حرفان حاء وباء، والإشارة من الحاء إلى الروح ومن الباء إلى البَدَن، فالمُحِبُّ لا يَدَّخِر عن محبوبه لا قلبَه ولا بَدَنَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

أمرهم بالطاعة ثم قال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾أي قَصَّرُوا في الطاعة بأن خالفوا، ثم قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾لم يَقُلْ العاصين بل قال الكافرين، ودليل الخطاب أنه يجب المؤمنين وإن كانوا عُصَاة.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

اتفق آدم وذريته في الطينة، وإنما الخصوصية بالاصطفاء الذي هو من قِبَلِه، لا بالنَّسَب ولا بالسبب.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

المُحَرَّرُ الذي ليس في رِقِّ شيء من المخلوقات، حرَّره الحق سبحانه في سابق حكمه عن رق الاشتغال بجميع الوجوه والأحوال. فلمَّا نذرت أُمُّ مريم ذلك، ووضعتها أنثى خَجِلت، فلمَّا رأتها قالت ﴿رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾وهي لا تصلح أن تكون محرراً فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ ولعمري ليس الذكر كالأنثى في الظاهر، ولكن إذا تَقَبَّلَها الحقُّ ـ سبحانه وتعالى ـ طلع عنها كل أعجوبة.

ولما قالت ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا﴾ قالت ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ﴾ فاستجاب، وظهرت آثار القبول عليها وعلى ابنها، ونجا بحديثها عالَمٌ وَهَلَكَ بسببها عالَمٌ، ووقعت الفتنة لأجلهما في عالَم.

قالت: ﴿وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾استجارت بالله من أن يكون للشيطان في حديثها شيء بما هو الأسهل، لتمام ما هم به من أحكام القلوب.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ﴾.

حيث بَلَّغَها فوق ما تَمَنَّتْ أمها، ويقال تقبَّلها بقبول حسنٍ حتى أفردها لطاعته، وتولاّهَا بما تَولّى به أولياءه، حتى أفضى جمع مَنْ في عصرها العَجَبَ من حُسْنِ توليه أمرها، وإن كانت بنتاً.

ويقال القبولُ الحَسَنُ حُسْنُ تربيته لها مع علمه ـ سبحانه ـ بأنه يُقال فيه بسببها ما يُقال، فلم يُبالِ بِقُبْح مقال الأعداء.

أجد الملامة في هواكِ لذيذةً حُبّاً لذكرك فليلمني اللُّوَمُ

وكما قيل:

ليقل من شاء ما شاء فإنني لا أُبالي

ويقال القبول الحسن أَنْ ربّاها على نعت العصمة حتى كانت تقول: ﴿إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨].

﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ حتى استقامت على الطاعة، وآثرت رضاه ـ سبحانه ـ في جميع الأوقات، وحتى كانت الثمرة منها مثل عيسى عليه السلام، وهذا هو النبات الحسن، وكفلها زكريا. ومن القبول الحسن والنبات الحسن أَنْ جعل كافلَها والقَيِّمَ بأمرها وحفظها نبياً من الأنبياء مثل زكريا عليه السلام، وقد أوحى الله إلى داود عليه السلام: إنْ رأيتَ لي طالباً فكُنْ له خادماً.

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

مِنْ أمارات القبول الحسن أنها لم تكن توجد إلا في المحراب، ومن كان مسكنه وموضعه الذي يتعبَّدُ فيه وهناك يوجد المحراب ـ فذلك عَبْدٌ عزيز.

ويقال مِنَ القبول الحسن أنه لم يطرح أمرَها كُلَّه وشُغْلُها على زكريا عليه السلام: فكان إذا دخل عليها زكريا ليتعهدها بطعام وَجَدَ عندها رزقاً لِيَعْلَمَ العاملون أن الله ـ سبحانه ـ لا يُلْقِي شُغْلَ أوليائه على غير، ومن خدم ولياً من أوليائه كان هو في رفق الولي لا إنه تكون عليه مشقة لأجل الأولياء. وفي هذا إشارة لمن يخدم الفقراء أن يعلم أنه في رفق الفقراء.

ثم كان زكريا عليه السلام يقول: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾؟ لأنه لم يكن يعتقد فيها استحقاق تلك المنزلة، وكان يخاف أن غيره يغلبه وينتهز فرصة تعهدها ويسبقه بكفاية شُغْلها، فكان يسأل ويقول: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ ومن أتاكِ به؟

وكانت مريم تقول: هو من عند الله لا من عند مخلوق، فيكون لزكريا فيه راحتان: إحداهما شهود مقامها وكرامتها عند الله تعالى، والثانية أنه لم يغلبه أحد على تعهدها، ولم يسبق به. قوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ فلفظة كلّما للتكرار وفي هذا إشارة: وهو أن زكريا عليه السلام لم يَذَرْ تَعهُّدَها ـ وإنْ وجد عندها رزقاً ـ بل كل يومٍ وكل وقتٍ كان يتفقد حالها لأن كراماتِ الأولياء ليست مما يجب أن يدوم

ذلك قطعاً؛ فيجوز أن يُظهِرَ الله ذلك عليهم دائماً، ويجوز ألا يظهر، فما كان زكريا عليه السلام يعتمد على ذلك فيترك تفقد حالها، ثم كان يُجَدِّدُ السؤال عنها بقوله: ﴿يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾؟ لجواز أن يكون الذي هو اليوم لا على الوجه الذي كان بالأمس، فإنه لا واجب على الله سبحانه.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ إيضاح عن عين التوحيد، وأن رزقه للعباد، وإحسانه إليهم بمقتضى مشيئته، دون أن يكون مُعَلَّلاً بطاعاتهم ووسيلة عباداتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

أي لما رأى كرامة الله سبحانه معها ازداد يقيناً على يقين، ورجاء على رجاء؛ فسأل الوَلَدَ على كبر سِنِّه، وإجابتُه إلى ذلك كانت نقضاً للعادة.

ويقال إن زكريا عليه السلام سأل الولَدَ ليكونَ عوناً له على الطاعة، ووارثاً من نَسْلِه في النبوة، ليكون قائماً بحقّ الله، فلذلك استحق الإجابة؛ فإن السؤال إذا كان لحقّ الحقّ ـ لا لحظّ النَّفْسِ ـ لا يكون له الرد.

وكان زكريا عليه السلام يرى الفاكهة الصيفية عند مريم في الشتاء، وفاكهة الشتاء عندها في الصيف، فسأل الولد في حال الكِبَر ليكون آية ومعجزة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ﴾.

لما سأل السؤال، ولازم الباب أَتَتْهُ الإجابةُ.

وفيه إشارة إلى أن من له إلى الملوك حاجة فعليه بملازمة الباب إلى وقت الإجابة.

ويقال حكم الله ـ سبحانه ـ أنه إنما يقبل بالإجابة على من هو مُعَانِقٌ لخدمته، فأمَّا مَنْ أعرض عن الطاعة ألقاه في ذُلِّ الوحشة.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

قيل سمَّاه يحيى لحياة قلبه بالله، ولسان التفسير أنه حي به عقر أمه.

ويقال إنه سبب حياة من آمن به بقلبه.

قوله: مصدقاً بكلمة من الله: أن تصديقه بكلمة «الله» فيما تعبده به أو هو مكوَّن بكلمة الله.

وقوله ﴿وَسَيِّدًا﴾: السيِّد من ليس في رق مخلوق، تحرَّر عن أسر هواه وعن كل

مخلوق، ويقال السيد من تحقق بعلويته سبحانه، ويقال السيد من فاق أهل عصره، وكذلك كان يحيى عليه السلام.

ويقال سيد لأنه لم يطلب لنفسه مقاماً، ولا شَاهَدَ لنفسه قَدْراً. ولما أخلص في تواضعه لله بكل وجهٍ رقَّاه على الجملة وجعله سيداً للجميع.

وقوله: ﴿وَحَصُورًا﴾ أي مُعْتَقاً من الشهوات، مكفياً أحكام البشرية مع كونه من جملة البشر. ويقال متوقياً عن المطالبات، مانعاً نفسه عن ذلك تعززاً وتقرباً، وقيل منعته استئصالات بواده الحقائق عليه فلم يبق فيه فَضْلٌ لحظٍّ.

﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي مستحقاً لبلوغ رتبتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾.

قيل كان بين سؤاله وبين الإجابة مدة طويلة ولذلك قال: أنَّى يكون لي غلام؟

ويحتمل أنه قال: بأي استحقاقٍ مني تكون له هذه الإجابة لولا فضلك؟

ويحتمل أنه قال أَنَّى يكون هذا: أَعَلَى وجهِ التبني أم على وجه التناسل؟.

ويحتمل أنه يكون من امرأة أخرى سوى هذه التي طعنت في السن أو من جهة التَّسرِّي بمملوكة؟ أمْ مِنْ هذه؟

فقيل له: لا بَلْ مِنْ هذه؛ فإنكما قاسيتما وحشة الانفراد معاً، فكذلك تكون بشارة الولد لكما جميعاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾.

طلب الآية ليعلم الوقت الذي هو وقت الإجابة على التعيين لا لِشك له في أصل الإجابة.

وجعل آية ولايته في إمساك لسانه عن المخلوقين مع انطلاقها مع الله بالتسبيح، أي لا تمتنع عن خطابي فإني لا أمنع أوليائي من مناجاتي.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾.

بقلبك ولسانك في جميع أوقاتك.

﴿وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾.

في الصلاة الدائبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

يجوز أن يكون هذا ابتداء خطاب من الملائكة على مريم من قِبَلِهم رفعاً بشأنها، ويجوز أن تكون قد سمعت كلامهم وشاهدتهم، ويجوز أنها لم تشاهدهم وأنهم هتفوا بها: إن الله اصطفاك بتفضيلك، وإفرادكِ من أشكالك وأندادك، وطَهَّرَكِ من الفحشاء والمعاصي بجميل العصمة، وعن مباشرة الخلْق، واصطفاك على نساء العالمين في وقتك.

وفائدة تكرار ذكر الاصطفاء: الأول اصطفاك بالكرامة والمنزلة وعلو الحالة والثاني اصطفاكِ بأَنْ حَمَلْتِ بعيسى عليه السلام من غير أب، ولم تشبهك امرأة ـ ولن تشبَهك ـ إلى يوم القيامة، ولذلك قال ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾.

لازمي بساط العبادة، وداومي على الطاعة، ولا تُقَصِّرِي في استدامة الخدمة، فكما أفردكِ الحقُّ بمقامك، كوني في عبادته أوحد زمانك.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾.

أي هذه القصص نحن عرفناكها و(خا) طبناك بمعانيها، وإنْ قَصَصْنا نحن عليك هذا ـ فعزيزٌ خطابُنا، وأعزُّ وأتم مِنْ أَنْ لو كنتَ مشاهداً لها.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

لم يُبَشرها بنصيب لها في الدنيا ولا في الآخرة من حيث الحظوظ، ولكن بَشَّرها بما أثبت في ذلك من عظيم الآية، وكونه نبياً لله مؤيَّداً بالمعجزة.

ويقال عرَّفها أن مَنْ وقع في تغليب القدرة، وانتهى عند حكمه يَلْقَى من عجائب القدرة ما لا عهد به لأحد. ولقد عاشت مريم مدةً بجميل الصيت، والاشتهار بالعفة، فشوَّش عليها ظاهر تلك الحال بما كان عند الناس بسبب استحقاق ملام، ولكن ـ في التحقيق ـ ليس كما ظَنَّهُ الأغبياء الذين سكرت أبصارهم من شهود جريان التقدير.

وقيل إنه (. . . .)[1] عَرَّفها ذلك بالتدريج والتفصيل، فأخبرها أن ذلك الولَدَ يعيش حتى يُكلِّمَ الناس صبيًا وكهلا، وأن كيد الأعداء لا يؤثر فيه.

وقيل كهلاً بعد نزوله من السماء.

ويقال ربط على قلبها بما عرَّفها أنه إذا لم ينطق لسانها بذكر براءة سَاحتها يُنْطِقُ اللَّهُ عيسى عليه السلام بما يكون دلالة على صدقها وجلالتها.

---

(١) بياض في الأصل.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾.

كما شاهدت ظهور أشياء ناقضة للعادة في رزقنا فكذلك ننقض العادة في خلق ولد من غير مسيس بشر.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾.

أي أراد إمضاء حُكْم.

﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

فلا يتعسر عليه إبداء ولا إنشاء.

ولمَا بسطوا فيها لسان الملامة أنطق الله عيسى عليه السلام وهو ابن يومٍ حتى قال: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وتلك آياته الظاهرة، ودلالاته القاهرة الباهرة من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه[(١)] والأبرص[(٢)]، والإخبار عما عملوه مُسِرّين به، إلى غير ذلك من معجزاته. وأخبر أنه مصدِّق لما تقدمه من الشرائع، ومختص بشريعةٍ تنسخ بعض ما تقدمه، وأقرهم على البعض ـ على ما نطق به تفصيل القرآن[(٣)].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ الآية.

حين بَلّغهم الرسالة واختلفوا ـ فمنهم من صدَّقه ومنهم من كذّبه وهم الأكثرون ـ عَلِمَ أن النبوة لا تنفك عن البلاء وتسليط الأعداء، فقطع عنهم قلبه، وصدق إلى الله قصده، وقال لقومه: مَنْ أنصاري إلى الله ليساعدوني على التجرد لحقِّه والخلوص في قصده؟ فقال مَنْ انبسطت عليهم آثار العناية، واستخلصوا بآثار التخصيص: نحن أنصار الله، آمنا بالله، واشهد علينا بالصدق، وليس يشكل عليك شيءٌ مما نحن فيه.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

وأما الباقون فجدُّوا في الشقاق، وبالغوا في العداوة، ودسُّوا له المكائد، ومكروا ولكن أذاقهم الله وبال مكرهم، فتوهموا أنهم صلبوا عيسى عليه السلام

---

(١) الأكمه: من ولد أعمى أو من فقد بصره.

(٢) الأبرص: من ابتلي بالبرص (البرص: بياض يظهر في الجسد لعلة).

(٣) الآيتان ٥٠ و ٥١ غير مذكورتين.

وقتلوه، وذلك جهل منهم، ولَبْسٌ عليهم. فاللَّهُ ـ سبحانه ـ رفع عيسى عليه السلام نبيَّه ووليَّه، وحُقُّ الطردُ واللَّعنُ على أعدائه، وهذا مَكْرُهُ بهم:

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾.

الإشارة فيه إني متوفيك عنك، وقابضك منك، ورافعك من نعوت البشرية، ومطهرك من إرادتك بالكلية، حتى تكون مُصَرَّفاً بنا لنا، ولا يكون عليك من اختيارك شيء، ويكون إسبال التولي عليك قائماً عليك. وبهذا الوصف كان يظهر على يده إحياء الموتى، وما كانت تلك الأحداث حاصلة إلا بالقدرة ـ جلَّتْ.

ويقال طَهَّرَ قلبه عن مطالعة الأغيار، ومشاهدة الأمثال والآثار، في جميع الأحوال والأطوار.

﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

بالنصرة والقهر والحجة.

ومتبعوه مَنْ لم يُبَدِّل دِينه ومَنْ هو على عقيدته في التوحيد ـ وهم المؤمنون، فَهُمْ على الحقِّ، إلى يوم القيامة لهم النصرة، ثم إن الله سبحانه يحكم ـ يوم القيامة ـ بينه وبين أعدائه. فأمّا الكفار ففي الجحيم وأمّا المؤمنون ففي النعيم.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾.

ذلك نتلوه عليك يا محمد، نعرفك معانيه بما نوحي إليك، لا بتكلفك ما تصل إلى عِلْمِه، أو بِتَعلُّمِك من الأمثال، أو استنباطك ما تنزع من الاستدلال.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ الآية.

خَصَّهما بتطهير الروح عن التناسخ في الأصلاب وأفرد آدم بصفَةِ البدء؛ وعيسى عليه السلام بتخصيص نفخ الروح فيه على وجه الإعزاز، وهما وإنْ كانا كبيري الشأن فنِقْصُ الحدثان والمخلوقية لازِمٌ لهما:

﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية.

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ يا محمد، فلا تَشُكَّن في أنه ـ سبحانه ـ لا يماثله في الإيجاد أَحَدٌ، ولا على إثبات بينه لمخلوق قدرة. والموجودات التي (. . .)[1]، وجودها عن كتم العَدَم ـ من الله مبدؤها وإليه عَوْدُها.

---

(١) بياض في الأصل.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ﴾ الآية.

يعني بعدما ظَهرْتَ على صدق ما يُقال لك، وتَحقَّقَتْ بقلبك معرفة ما خاطبناك، فلا تحتشم من حملهم على المباهلة، وثِقْ بأن لك القهر والنصرة، وأنَّا تولَيناك، وفي كنف قُرْبنا آويناك، ولو أنهم رغبوا في هذه المباهلة لأحرقت الأودية عليهم نيراناً مؤججة، ولكن أخَّر الله ـ سبحانه ـ ذلك عنهم لعلمه بِمَنْ في أصلابهم من المؤمنين.

والإشارة في هذه الآية لِمَنْ نزلت حالته عن أحوال الصديقين، فإنه إذا ظهرت أنوارهم انخنست آثار هؤلاء فلا إقرار، ولا عنهم آثار.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾.

لا يتسلط على شواهد التوحيد غبار شبهة، ولا يدرك سر حكمه وهم مخلوق، ولا يدانيه معلوم يحصره الوجود، أو موهوم يصوره التقدير.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

فإن تولوا ـ يا محمد ـ فإنه لا ثَبَاتَ عند شعاع أنوارك لشبهة مُبْطِل.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾إمَّا يجتاحهم، أو يحلم حتى إذا استمكنَتْ ظنونُهم يأخذهم بغتةً وهم لا يُنْصَرون.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية.

هي كلمة التوحيدِ وإفرادِ الحق سبحانه في إنشاء الأشياء بالشهود.

وقوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾: لا تطالع بِسِرِّك مخلوقاً. وكما لا يكون غيرُه معبودَك فينبغي ألا يكون غيرُه مقصودَك ولا مشهودَك، وهذا هو اتِّقاء الشِرْك، وأنت أول الأغيار الذين يجب ألا تشهدهم.

﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا﴾ ويظهر صدقُ هذا بترك المدح والذم لهم.

ونفي الشكوى والشك عنهم، وتنظيف السر عن حسبان ذرة من المحو والإثبات منهم. قال ﷺ «أصدق كلمة قالتها العربُ قول لبيد»:

«ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا مَحالة زائل»[1]

فإنَّ الذي على قلوبهم من المشاق أشد. وأمَّا أهل البداية فالأمر مُضيَّقٌ عليهم

---

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٨/ ٤٣)، ومسلم في (الصحيح الشعر المقدمة ٣)، وابن ماجه في (السنن ٣٧٥٧)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٣٣٩)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٤٧٨٦)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٧/ ٢٤٩).

في الوظائف والأوراد، فسبيلهم الأخذ بما هو الأشق والأصعب، لفراغهم بقلوبهم من المعاني، فمن ظنَّ بخلاف هذا فقد غلط.

والإشارة من هذه الآية أيضاً في قوله جل ذكره:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية.

ضرب على خليله ـ صلوات الله ـ نقاب الضنَّة وحجاب الغيرة، فقطع سببه عن جميعهم بعد ادِّعاء الكل فيه، وحَكَمَ بتعارض شُبُهَاتِهم، وكيف يكون إبراهيم ـ عليه السلام ـ على دين مَنْ أتى بعده؟! إن هذا تناقضٌ من الظن.

ثم قال:

﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

يعني ما كان في كتابكم له بيان، ويصح أن يكون لكم عليه برهان، فَخَصَّهُمْ في ذلك إمَّا بحق وإما بباطل، فالذي ليس لكم ألبتة عليه دليل ولا لكم إلى معرفته سبيل فكيف تصديتم للحكم فيه، وادِّعاء الإحاطة به؟!

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾.

الحنيف[1] المستقيم على الحق، والأحنف هو المستقيم في حلقة الرِّجْل، ويسمى مائل القَدَم بذلك على التفاؤل وإبراهيم عليه السلام كان حنيفاً لا مائلاً عن الحق، ولا زائغاً عن الشرع، ولا مُعرِّجاً على شيء وفيه نصيب للنفس، فقد سَلَّم مَالَه ونَفْسَه ووَلَدَه، وما كان له به جملةً ـ إلى حكم الله وانتظار أمره.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

لما تفرقت الأهواء والبدع وصار كل حزب إلى خطأ آخر، بقي أهل الحقِّ في كل عصر وكل حين ووقت على الحجة المثلى، فكانوا حزباً واحداً، فبعضهم أَوْلى ببعض. وإبراهيم صاحب الحق، ومن دان بدينه ـ كمثل رسولنا ﷺ وأمته ـ على الدين الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام وهو توحيد الله سبحانه وتعالى.

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم تولَّوْا دينه، ووافقوا توحيده، وولاية الله إنما تكون بالعَوْن والنصرة والتخصيص والقربة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾.

---

(١) الحنف: الاعوجاج، والاستقامة (ضدّ).

من حلّت به فتنة، وأصابته محنة، واستهوته غواية ـ رَضِي لجميع الناس ما حلّ به، فأهل الكتاب يريدون بالمؤمنين أن يزيغوا عن الحق، ولكن أبى الله إلا أن يتم نوره، وأن يعودَ إليهم وبالُ فعلهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾.

قَبْلَ بعثه ـ ﷺ ـ على صحة نبوته، فما الذي يحملكم على غيكم حتى جحدتم ما علمتم؟

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

تكتمون الحق في شأن محمد عليه السلام وأنتم تعلمون أنه النبي الصادق، وهل هذا إلا حكم الخذلان وقضية الحرمان، ثم أخبر أَنَّ منهم من ينافق في حالته، فيريد أن يدفع عنه أذى المسلمين، ولا يخالف إخوانه من الكافرين، فتواصوا فيما بينهم بموافقة الرسول عليه السلام والمسلمين جهراً، والخلوص في عقائدهم الفاسدة بعضهم مع بعض سِرّاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

فبين الله سبحانه أن نفاقهم كُشِف للمسلمين، وأن ذلك لا ينفعُهم أمَّا في الدنيا فَلإِطّلاع الله نبيَّه عليه السلام والمؤمنين ـ عليه، وأمَّا في الآخرة فَلِفَقْدِ إخلاصهم فيه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾.

يحتمل أن يكون هذا ابتداء أمر من الله سبحانه للمسلمين، والإشارة فيه ألا تعاشروا الأضداد، ولا تفشوا أسراركم للأجانب.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾.

فهو الذي يختص من يشاء بأنوار التعريف، ويختص من يشاء بالخذلان والحرمان.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

يختص من يشاء بفنون إنعامه، فالرحمة على هذا سبب لتخصيص النعمة لمن أراده. ولا بُدَّ من إضمار فيحتمل أن يختص بالرحمة من يشاء فلا تجري الرحمة مجرى السبب فالرحمة على هذا التأويل تكون بمعنى النبوة وتكون بمعنى الولاية.

وبمعنى العصمة وجميع أقسام الخيرات التي يختصُّ ـ بشيء منها ـ عبداً من عباده، فيدخل تحت قوله: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ﴾ أي بنعمته.

فقومٌ اختصهم بنعمة الأخلاق وقوم اختصهم بنعمة الأرزاق، وقوم اختصهم بنعمة العبادة وآخرين بنعمة الإرادة، وآخرين بتوفيق الظواهر وآخرين بعطاء الأبشار، وآخرين بلقاء الأسرار، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

ويقال لمَّا سمعوا قوله: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، علموا أن الوسائل ليست بهادية[١]، وإنما الأمر بالابتداء والمشيئة.

ويقال: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ بالفهم عنه فيما يكاشفه به من الأسرار ويلقيه إليه من فنون التعريفات.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ الآية.

أخبر أنهم ـ مع ضلالتهم وكفرهم ـ متفاوتون في أخلاقهم، فكُلُّهمْ خَوَنَةٌ في أمانة الدِّين، ولكنّ منهم من يرجع إلى سداد المعاملة، ثم وإن كانت معاملتهم بالصدق فلا ينفعهم ذلك في إيجاب الثواب ولكن ينفعهم من حيث تخفيف العذاب؛ إذ الكفار مُطَالَبُون بتفصيل الشرائع، فإذا كانوا في كفرهم أقلَّ ذنباً كانوا بالإضافة إلى الأخسرين أقلَّ عذاباً، وإن كانت عقوبتهم أيضاً مؤبَّدة.

ثم بيَّن أنه ليس الحكم إليهم حتى إذا:

﴿قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾.

فلا تجري عليهم هذه الحالة، أو تنفعهم هذه القالة، بل الحكم لله تعالى.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

الذين آثروا هواهم على عُقباهم، وقدَّموا مناهم على موافقة مولاهم أولئك لا نصيب لهم في الآخرة؛ فللاستمتاع بما اختاروا من العاجل خسروا في الدارين.

بقوا عن الحق، وما استمتعوا بحظٍّ، جَمَعَ عليهم فنون المِحَن ولكنهم لا يدرون ما أصابهم، لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم، ثم مع هذا يُخَلِّدُهم في العقوبة الأبدية.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ

---

(١) أصاب الرسول الكريم حين قال: «إنه لن يدخل الجنة أحداً عمله. . .» أخرجه أحمد بن حنبل ٦/ ١٢٥.

وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

الاشارة من هذه الآية إلى المبطلين في الدعاوى في هذه الطريقة.

يزيِّنون العبارات، ويطلقون ألسنتهم بما لا خَبَرَ في قلوبهم منه، ولا لهم بذلك تحقيق، تلبيساً على الأغبياء والعوام وأهل البداية؛ يوهمون أن لهم تحقيق ما يقولونه بألسنتهم. قال تعالى في صفة هؤلاء ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، كذلك أرباب التلبيس والتدليس، يُرَوِّجون قالتَهم على المستضعفين، فأمَّا أهل الحقائق فأسرارهم عندهم مكشوفة.

قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، أي يعلمون أنهم كاذبون، كذلك أهل الباطل والتلبيس في هذه الطريقة يتكلمون عن قلوب خَرِبةَ، وأسرار محجوبة، نعوذ بالله من استحقاق المقت!

قوله جلَّ ذكره: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾.

أي ليس من صفة مَنْ اخترناه للنبوة واصطفيناه للولاية أن يدعو الخُلق إلى نفسه، أو يقول بإثبات نفسه وحظِّه، لأن اختياره ـ سبحانه ـ إياهم للنبوة يتضمن عصمتهم عَمَّا لا يجوز، فتجويز ذلك في وصفهم مُنافٍ لحالهم، وإنما دعاء الرسل والأولياء ـ للخُلق ـ إلى الله سبحانه وتعالى، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ﴾ أي إنما أشار بهم على الخُلق بأن يكونوا ربانيين، والربَّاني منسوبٌ إلى الرب كما يقال فلان دقياني ولحياني. . . وبابه.

وهم العلماء بالله الحلماء في الله القائمون بفنائهم عن غير الله، المستهلكة حظوظهم، المستغرِقون في حقائق وجوده عن إحساسهم بأحوال أنفسهم، ينطقون بالله ويسمعون بالله، وينظرون بالله، فهم بالله مَحْوٌ عمَّا سوى الله.

ويقال الرباني من ارتفع عنه ظِلُّ نفسه، وعاش في كنف ظلِّه ـ سبحانه.

ويقال الربَّاني الذي لا يُثْبِتُ غير ربِّه مُوَحِّداً، ولا يشهد ذرة من المحو والإثبات لغيره أو مِنْ غيره.

ويقال الربَّاني من هو مَحْقٌ في وجوده ـ سبحانه ـ ومحو عن شهوده، فالقائم عنه غَيْرُه، والمُجْرِي لِمَا عليه سواه.

ويقال الربَّاني الذي لا تُؤَثِّرُ فيه تصاريف الأقدار على اختلافها.

ويقال الربَّاني الذي لا تُغَيِّره محنة ولا تَضُرُّه نِعْمة ـ فهو على حالة واحدة في اختلاف الطوارق.

ويقال الربَّاني الذي لا يتأثر بورود واردٍ عليه، فَمَنْ استنطقته رقة قلبٍ، أو اسْتَمَالَه هجومُ أمر، أو تفاوتت عنده أخطار حادث ـ فليس برباني.

ويقال إنَّ الربَّاني هو الذي لا يبالي بشيء من الحوادث بقلبه وسِرِّه، ومن كان لا يقصر في شيء من الشرع بفعله.

﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ مِنْ توالي إحساني إليكم، وتضاعف نعمتي لديكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

أي لا تنسبون إليهم ذرة من الإثبات في الخير والشر.

ويقال يعرفكم حدَّ البشرية وحقَّ الربوبية.

ويقال يأمركم بتوقيرهم من حيث الأمر والشريعة، وتحقير قدر الخَلْق ـ بالإضافة إلى الربوبية. ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أيأمركم بإثبات الخَلْق بعد شهود الحق؟

ويقال: «أيأمركم بمطالعة الأشكال، ونسبة الحدثان إلى الأمثال، بعد أن لاحت في أسراركم أنوار التوحيد، وطلعت في قلوبكم شموس التفريد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الآية.

أخذ الله ميثاق محمد ﷺ على جميع الأنبياء عليهم السلام، كما أخذ ميثاقهم في الإقرار بربوبيته ـ سبحانه، وهذا غاية التشريف للرسول عليه السلام، فقد قَرَنَ اسمه باسم نفسه، وأثبت قَدْرَه كما أثبت قدر نفسه، فهو أوحد الكافة في الرتبة، ثم سَهَّلَ سبيلَ الكافة في معرفة جلاله بما أظهر عليه من المعجزات.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

الإشارة فيه: فَمَنْ حادَ عن سُنَّتِه، أو زاغ عن اتباع طريقته بعد ظهور دليله، ووضوح معجزته فأولئك هم الذين خَبُثَتْ درجتهم، ووجب المقت عليهم لجحدهم، وسقوطهم عن تعلُّق العناية بهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾.

مَنْ لاحظه على غير الحقيقة، أو طالع سواه في توهم الأهلية[١] كَرَاءِ السراب ظنّه ماءً فلّما أتاه وجده هباءً. ومغاليط الحسبانات مُقَطِّعِةٌ مُشكلَةٌ فَمَنْ حَلَّ بها نَزَلَ بوادٍ قَفْرٍ.

﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ لإجراء حكم الإلهية على وجه القهر عليهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾.

آمنا بالله لا بنفوسنا أو حَوْلنا أو قوتنا.

وآمنا بما أنزل علينا بالله، وأنَّا لا نُفَرِّق بين أحد منهم ـ بالله سبحانه ـ لا بحولنا واختيارنا، وجهدنا واكتسابنا، ولولا أنه عرَّفنا أنه مَنْ هو ما عرفنا وإلا فمتى عَلِمْنا ذلك[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

مَنْ سَلَكَ غير الخمود تحت جريان حكمه سبيلاً زَلَّتَ قَدَمُه في وهدة[٣] من المغاليط لا مدى لقعرها.

ويقال من توسَّل إليه بشيء دون الاعتصام به فخُسْرانه أكثر من رِبْحِه.

ويقال من لم يَفْنَ عن شهود الكل لم يصل إلى مَنْ به الكل.

ويقال مَنْ لم يَمْشِ تحت راية المصطفى ﷺ المُعظَّم في قَدْره، المُعَلّى في وصفه، لم يُقْبَلْ منه شيء ولا ذرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ﴾ الآية.

مَنْ أبعده عن استحقاق الوصلة في سابق حكمه فمتى يقربه من بساط الخدمة بفعله في وقته؟

ويقال: الذي أقصاه حكم (الأول) متى أدناه صدق العمل؟ والله غالبٌ على أمره.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾.

---

(١) الأهلية للأمر: الصلاحية له.

(٢) هنا أجرى مقارنة بقول ذي النون المصري عندما سُئل: بماذا عرفت ربك؟ قال: عرفت ربي بربي ولولا ربي لما عرفت ربي. (الرسالة القشيرية ص٣١٥).

(٣) الوهدة: الأرض المنخفضة كأنها حفرة. والهوة تكون في الأرض (ج) وهادٌ، ووهدٌ.

أولئك قصارى حالهم ما سبق لهم من حكمه في ابتداء أمرهم، ابتداؤهم ردُّ القسمة، ووسائطهم الصدُّ عن الخدمة، ونهايتهم المصير إلى الطرد والمذلة.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

خالدين في تلك المذلة لا يفتر عنهم العذاب لحظة، ولا يخفف دونهم الفراق ساعة.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أولئك هم الذين تداركتهم الرحمة، ولم يكونوا في شق السبق من تلك الجملة، وإن كانوا في توهم الخلق من تلك الزمرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾.

الإشارة منه: أن الذين رجعوا إلى أحوال أهل العادة بعد سلوكهم طريق الإرادة، وآثروا الدنيا ومطاوعة الهوى على طلب الحق سبحانه وتعالى، ثم أنكروا على أهل الطريقة، وازدادوا في وحشة ظلماتهم ـ لن تُقبلَ توبتهم، ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ عن طريق الحق فإنه لا يقبل الأمانة بعد ظهور الخيانة. وعقوبتهم أنهم على ممر الأيام لا يزدادون إلا نفرة قلب عن الطريقة، ولا يتحسرون على ما فاتهم من صفاء الحالة. ولو أنهم رجعوا عن إصرارهم لها لقُبِلت توبتهم، ولكن الحق سبحانه أجرى سنته مع أصحاب الفترة في هذه الطريقة إذا رجعوا إلى أصول العادة ألا يتأسّفوا على ما مضى من أوقاتهم.

قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠] وإن المرتدَّ عن الإسلام لأشدُّ عداوة للمسلمين من الكافر الأصلي، فكذلك الراجع عن هذه الطريقة لأشد إنكاراً لها وأكثر إعراضاً عن أهلها من الأجنبيِّ عنها.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

الإشارة منه: لِمنْ مات بعد فترته ـ وإن كانت له بداية حسنة ـ فلا يحشر في الآخرة مع أهل هذه القصة، ولو تشفع له ألف عارف، بل من كمال المكر به أنه يلقى شبهه في الآخرة على غيره حتى يتوهم معارفه من أهل المعرفة أنه هو ـ فلا يخطر ببال أحد أنه ينبغي أن يشفع له.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾.

لمَّا كان وجود البرّ مطلوباً ذكر فيه «مِنْ» التي للتبعيض فقال: ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾؛ فَمنْ أراد البر فلينفق مما يحبه أي البعض، وَمَنْ أراد البَارّ فلينفقْ جميع ما يحبه. ومن أنفق محبوبه من الدنيا وَجَدَ مطلوبه من الحق تعالى، ومن كان مربوطاً بحظوظ نفسه لم يحظ بقرب ربّه.

ويقال إذا كنت لا تصل إلى البر إلا بإنفاق محبوبك فمتى تصل إلى البارّ وأنت تؤثر عليه حظوظك. ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ منهم من ينفق على ملاحظة الجزاء والعِوض، ومنهم من ينفق على مراقبة دفع البلاء والحَزَن، ومنهم من ينفق اكتفاء بعلمه، قال قائلهم:

ويهتز للمعروف في طلب العلى لتُذكَرَ يوماً ـ عند سلمى ـ شمائلُه

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

الأصل في الأشياء ألا يشرع فيها بالتحليل والتحريم، فما لا يوجد فيه حدٌّ فذلك من الحق ـ سبحانه ـ توسعة ورفقة إلى أن يحصل فيه أمر وشرع؛ فإنَّ الله ـ سبحانه ـ وسَّعَ أحكام التكليف على أهل النهاية، فسبيلهم الأخذ بما هو الأسهل لتمام ما هم به من أحكام القلوب، فإن الذي على قلوبهم من المشاق أشد. وأما أهل البداية فالأمر مضيَّقٌ عليهم في الوظائف والأوراد؛ فسبيلهم الأخذ بما هو الأشق والأصعب لفراغهم بقلوبهم من المعاني، فمن ظنّ بخلاف هذا فقد غلط.

والإشارة من هذه الآية أيضاً في قوله: ﴿فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ إلى أحوال أهل الدعاوى والمغاليط؛ فإنهم يخلون بنفوسهم فينسبون إلى الله ـ سبحانه ـ هواجسها، والله بريء عنها. وعزيزٌ عبدٌ يفرّق بين الخواطر والهواجس.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

مِلَةُ إبراهيم الخروج إلى الله بالكلية، والتسليم لحُكْمِه من غير أن تبقى بقية؛ فإثبات ذرة في الحِسبان من الحدثان شِرْكٌ ـ في التحقيق.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

البيت حَجَرةٌ والعبد مَدَرَةٌ، فَرَبَطَ المدرة بالحجرة، فالمدر مع الحجر. وتعزَّز وتَقَدَّس من لم يزل.

لـمَّا كان وجود البرّ مطلوباً ذكر فيه «مِنْ» التي للتبعيض فقال: ﴿مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾؛ فَمنْ أراد البر فلينفق مما يحبه أي البعض، وَمَنْ أراد البَارَّ فلينفقْ جميع ما يحبه. ومن أنفق محبوبه من الدنيا وَجَدَ مطلوبه من الحق تعالى، ومن كان مربوطاً بحظوظ نفسه لم يحظ بقرب ربِّه.

ويقال إذا كنت لا تصل إلى البر إلا بإنفاق محبوبك فمتى تصل إلى البارّ وأنت تؤثر عليه حظوظك. ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ منهم من ينفق على ملاحظة الجزاء والعِوض، ومنهم من ينفق على مراقبة دفع البلاء والحَزَن، ومنهم من ينفق اكتفاء بعلمه، قال قائلهم:

ويهتز للمعروف في طلب العلى لتُذكَرَ يوماً ـ عند سلمى ـ شمائلُه

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُۚ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

الأصل في الأشياء ألا يشرع فيها بالتحليل والتحريم، فما لا يوجد فيه حدٌّ فذلك من الحق ـ سبحانه ـ توسعة ورفقة إلى أن يحصل فيه أمر وشرع؛ فإنَّ الله ـ سبحانه ـ وسَّعَ أحكام التكليف على أهل النهاية، فسبيلهم الأخذ بما هو الأسهل لتمام ما هم به من أحكام القلوب، فإن الذي على قلوبهم من المشاق أشد. وأما أهل البداية فالأمر مضيَّقٌ عليهم في الوظائف والأوراد؛ فسبيلهم الأخذ بما هو الأشق والأصعب لفراغهم بقلوبهم من المعاني، فمن ظنّ بخلاف هذا فقد غلط.

والإشارة من هذه الآية أيضاً في قوله: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ إلى أحوال أهل الدعاوى والمغاليط؛ فإنهم يخلون بنفوسهم فينسبون إلى الله ـ سبحانه ـ هواجسها، والله بريء عنها. وعزيزٌ عبدٌ يفرّق بين الخواطر والهواجس.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

مِلَّةُ إبراهيم الخروج إلى الله بالكلية، والتسليم لحُكْمِه من غير أن تبقى بقية؛ فإثبات ذرة في الحِسبان من الحدثان شِرْكٌ ـ في التحقيق.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

البيت حَجَرةٌ والعبد مَدَرَةٌ، فَرَبَطَ المدرة بالحجرة، فالمدر مع الحجر. وتعزَّز وتَقَدَّس من لم يزل.

ويقال البيت مطاف النفوس، والحق سبحانه مقصود القلوب!

البيت أطلال وآثار وإنما هي رسوم وأحجار ولكن:

تلك آثارنا تدلُّ علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

ويقال البيت حجر، ولكن ليس كل حجر كالذي يجانسه من الحجر.

حَجَرٌ ولكن لقلوب الأحباب مزعج بل لأكباد الفقراء منفج[1]، لا بل لقلوب قومٍ مِثْلِجٌ مبهج، ولقلوب الآخرين منفج مزعج.

وهم على أصناف: بيت هو مقصد الأحباب ومزارهم، وعنده يسمع أخبارهم ويشهد آثارهم.

بيت من طالعه بعين التفرقة عاد بسرٍ خراب، ومن لاحظه بعين الإضافة حظي بكل تقريب وإيجاب، كما قيل:

إن الديار ـ وإن صَمَتَتْ ـ فإنَّ لها عهداً بأحبابنا إذ عندها نزلوا

بيت من زاره بنفسه وجد ألطافه، ومن شهده بقلبه نال كشوفاته.

ويقال قال سبحانه: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج: ٢٦] وأضافه إلى نفسه، وقال ها هنا: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ وفي هذا طرف من الإشارة إلى عين الجمع.

وسميت (بكة) لازدحام الناس، فالكلُّ يتناجزون على البدار إليه، ويزدحمون في الطواف حواليْه، ويبذلون المهج في الطريق ليصلوا إليه.

والبيت لم يخاطِب أحداً منذ بنِيَ بُمْنَيِةٍ، ولم يستقبل أحداً بحظوة، ولا راسل أحداً بسطر في رسالة، فإذا كان البيت الذي خلقه من حجر ـ هذا وصفه في التعزز فما ظنُّك بِمَن البيتُ له. قال ﷺ مخبراً عنه سبحانه: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري»[2].

ويقال إذا كان البيت المنسوب إليه لا تصل إليه من ناحية من نواحيه إلا بقطع المفاوز والمتاهات فكيف تطمع أن تصل إلى ربِّ البيت بالهوينى دون تحمُّل المشقات ومفارقة الراحات؟!

ويقال لا تُعلِّق قلبك بأول بيتٍ وضع لَكَ ولكن أَفْرِدْ سِرَّك لأول حبيبٍ آثرك.

ويقال شتَّان بين عبدٍ اعتكف عند أول بيتٍ وُضِع له وبين عبدٍ لازم حضرة أول عزيز كان له.

---

(١) نفج الشيء: ارتفع، والنفج: الفخر والكبر أي فخر المرء بما ليس عنده.

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٤١٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/ ٣٢٨، ٨/ ٣٣٦، ٩/ ٢٨٧)، والهيثمي في (موارد الظمآن ٤٩)، وأبو حنيفة في (جامع المسانيد ١/ ٨٨ ـ ١١٣) وفي (المسند ١٦٠)، والبيهقي في (الأسماء والصفات ١٣٨).

ويقال لا يكون دخول البيت ـ على الحقيقة ـ إلا بخروجك عنك، فإذا خرجت عنكَ صَحَّ دخولُك في البيت، وإذا خرجتَ عنكَ أَمِنْتَ.

ويقال دخول بيته لا يصحُّ مع تعريجك في أوطانك ومعاهدك، فإن الشخص الواحد لا يكون في حالة واحدة في مكانين؛ فمن دخل بيت ربِّه فبالحريِّ أن يخرج عن معاهد نفسه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

شرط الغَنيِّ ألا يَدَّخِر عن البيت شيئاً مِنْ مالِه، وشرط الفقير ألا يدخر عن الوصول إلى بيته نَفَساً من روحه.

ويقال الاستطاعة فنون؛ فمستطيع بنفسه ومَالِه وهو الصحيح السليم، ومستطيع بغيره وهو الزَّمِنُ المعصوب، وثالث غفل الكثيرون عنه وهو مستطيع بربه وهذا نعت كل مخلص مستحق فإن بلاياه لا تحملها إلا مطايانا.

ويقال حج البيتِ فَرْضٌ على أصحاب الأموال، وربُّ البيتِ فرْضٌ على الفقراء فرض حتم؛ فقد يَنْسَدُّ الطريق إلى البيت ولكن لا ينسدُّ الطريق إلى رب البيت، ولا يُمْنَعُ الفقير عن ربِّ البيت.

ويقال الحج هو القصد إلى مَنْ تُعَظِّمه: فقاصدٌ بنفسه إلى زيارة البيت، وقاصد بقلبه إلى شهود رب البيت، فشتان بين حج وحج، هؤلاء تحللهم عن إحرامهم عند قضاء منسكهم وأداء فَرضِهم، وهؤلاء تحللهم عن إحرامهم عند شهود ربهم، فأمَّا القاصدون بنفوسهم فأحرموا عن المعهودات من محرمات الإحرام، وأمَّا القاصدون بقلوبهم فإنهم أحرموا عن المساكنات وشهود الغير وجميع الأنام.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ضرب رقم الكفر على من ترك حج البيت، ووقعت بسبب هذا القول قلوب العلماء في كدِّ التأويل، ثم قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهذا زيادة تهديد تدل على زيادة تخصيص.

ويقال إن سبيل من حج البيت أن يقوم بآداب الحج، فإذا عقد بقلبه الإحرام يجب أن يفسخ كلَّ عَقْدٍ يصدُّه عن هذا الطريق، وينقض كل عزم يرده عن هذا التحقيق، وإذا طَهَّرَ تَطَهَّرَ عن كل دَنَسٍ من آثار الأغيار بماء الخجل ثم بماء الحياء ثم بماء الوفاء ثم بماء الصفاء، فإذا تجرَّد عن ثيابه تجرد عن كل ملبوسٍ له من الأخلاق الذميمة، وإذا لبَّي بلسانه وجب ألا تبقى شَعْرَةٌ مِنْ بَدَنِهِ إلا وقد استجابت لله. فإذا بلغ الموقف وقف بقلبه وسِرِّه حيث وقفه الحق بلا اختيار مقام، ولا تعرض لتخصيص؛

فإذا وقف بعرفات عرف الحق سبحانه، وعرف له تعالى حقَّه على نفسه، ويتعرَّف إلى الله تعالى بِتَبَرِّيه عن مُنَّتِه وحَوْلِه، والحقُّ سبحانه يتعرَّف إليه بِمِنَّته وطَوْله، فإذا بلغ المشعر الحرام يذكر مولاه بنسيان نفسه، ولا يصحُّ ذكرُه لربِّه مع ذكره لنفسه، فإذا بلغِ مَنيّ نفي عن قلبه كل طَلَبٍ ومُنَى، وكلَّ شهوةٍ وهوى.

وإذا رمى الجمار رمى عن قلبه وقذف عن سره كل علاقة في الدنيا والعقبى.

وإذا ذبح ذبح هواه بالكلية، وتَقَرَّب به إلى الحق سبحانه، فإذا دخل الحَرَمَ عَزَمَ على التباعد عن كل مُحرَّم على لسان الشريعة وإشارة الحقيقة.

وإذا وقع طَرْفُه على البيت شهد بقلبه ربَّ البيت، فإذا طاف بالبيت أخذ سِرُّه بالجولان في الملكوت.

فإذا سعى بين الصفا والمروة صفَّى عنه كل كدورة بشرية وكل آفة إنسانية.

فإذا حَلَقَ قطع كلَّ علاقة بقيت له.

وإذا تحلل من إحرام نفسه وقصده إلى بيت ربِّه استأنف إحراماً جديداً بقلبه، فكما خرج من بيت نفسه إلى بيت ربه يخرج من بيت ربه إلى ربه تعالى.

فمن أكمل نُسُكَه فإنما عمل لنفسه، ومن تكاسل فإنَّ الله غني عن العالمين وقال ﷺ: «الحاج أشعث[1] أغبر»، فمن لم يتحقق بكمال الخضوع والذوبان عن كليته فليس بأشعث ولا أغبر.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾.

الخطاب بهذه الآية لتأكيد الحجة عليهم، ومن حيث الحقيقة والقهر يَسُدُّ الحجة عليهم، فهم مدعوون ـ شرعاً وأمراً، مطرودون ـ حُكْماً وقهراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

كيف يصد غيره مَنْ هو مصدودٌ في نَفْسِه؟ إنَّ في هذا لَسِرًّا للربوبية.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾.

الوحشة ليست بلازمة لأصحابها، بل هي متعدية إلى كل من يحوِّم حول أهلها، فَمَنْ أطاع عدوَّ الله إلى شؤم صحبة (الأعداء) ألقاه في وهدته.

---

(١) الشعث: التلبد والتغبر.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

لا ينبغي لمن أشرقت في قلبه شموسُ العرفان أن يوقع الكفرُ عليه ظِلَّه، فإنه إذا أقبل النهارُ من ها هنا أدبر الليلُ من ها هنا.

وقوله: ﴿وَمَن يَعْتَصِم﴾ الآية إنما يعتصم بالله مَنْ وَجَدَ العصمة من الله، فأمَّا مَنْ لم يَهْدِه الله فمتى يعتصم بالله؟ فالهدايةُ منه في البداية توجِبُ اعتصامك في النهاية، لا الاعتصام منك يوجب الهداية.

وحقيقةُ الاعتصام صدق اللُّجوء إليه، ودوامُ الفرار إليه، واستصحاب الاستغاثة إليه. ومَنْ كشف عن سِرِّه غطاء التفرقة تحقق بأنه لا لغير الله ذرة أو منه سينة، فهذا الإنسان يعتصم به ممن يُعْتَصَمُ به؛ قال سيد الأولين والآخرين صلوات الله عليه وعلى آله: ﴿أَعُوذُ بِكَ مِنْ﴾.

ومَنْ اعتصم بنفسه دون أن يكون محواً عن حوله وقوته في اعتصامه ـ فالشِرْكُ وطنُه وليس يشعر.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾.

حقُّ التقوى أن يكون على وفق الأمر لا يزيد من قِبَلِ نَفْسِه ولا ينقص.

هذا هو المعتمد من الأقاويل فيه، وأمره على وجهين: على وجه الحَتْم وعلى وجه النَدْب وكذلك القول في النهي على قسمين: تحريم وتنزيه، فيدخل في جملة هذا أن يكون حق تقاته أولاً اجتناب الزلة ثم اجتناب الغفلة ثم التوقي عن كل خلة ثم التنقي من كل عِلَّة، فإذا تَقِيتَ عن شهود تقواك بعد اتصافك بتقواك فقد اتَّقَيْت حقَّ تقواك.

وحق التقوى رفض العصيان ونفي النسيان، وصون العهود، وحفظ الحدود، وشهود الإلهية، والانسلاخ عن أحكام البشرية، والخمود تحت جريان الحكم بعد اجتناب كل جُرْم وظلم، واستشعار الأنفة عن التوسل إليه بشيء من طاعتك دون صرف كرمه، والتحقق بأنه لا يَقْبل أحداً بعِلَّة ولا يَرُدُّ أحداً بعلة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

لا تُصَادِفَنَّكم الوفاة إلا وأنتم بشرط الوفاء.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

الاعتصامُ بحبله ـ سبحانه ـ التمسك بآثار الواسطة ـ العزيز صلوات الله عليه ـ وذلك بالتحقق والتعلُّق بالكتاب والسُّنَّة.

ويصح أن يقال: الخواص يُقال لهم ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾، وخاص الخاص قيل لهم ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾، ولِمَنْ رجع عند سوانحه إلى اختياره واحتياله، أو فكرته واستدلاله، أو معارفه وأشكاله، والتجأ إلى ظل تدبيره، واستضاء بنور عقله وتفكيره ـ فمرفوع عنه ظل العناية، وموكول إلى سوء حاله.

وقوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾: التفرقة أشد العقوبات وهي قرينة الشِرْك.

وقوله: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً﴾. وكانوا أعداء حين كانوا قائمين بحظوظهم، مُعَرَّجِين على ضيق البشرية، متزاحمين بمقتضى شُحِّ النفوس.

﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾: بالخلاص من أسْرِ المكونات، ودَفْعَ الأخطار عن أسرارهم، فصار مقصودُهم جميعاً واحداً؛ فلو أَلْفَ أَلْفَ شخص في طلبِ واحدٍ ـ فهم في الحقيقة واحد.

﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ نعمته التي هي عصمته إياكم، إخواناً مُتَّفِقِي القصدَ والهمة، متفانين عن حظوظ النَّفْس وخفايا البخل والشحُّ.

﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾: بكونكم تحت أسْرِ مُنَاكم، ورباط حظوظكم وهواكم.

﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾: بنور الرضاء، والخمود عند جريان القضاء، وتلك حقاً هي المكانة العُظمى والدرجة الكبرى، ويدخل في هذه الجملة تَرْكُ السكون إلى ما مِنْك من المناقب والتُّقى، والعقل والحجا، والتحصيل والنُّهى، والفرار إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عن كل غَيْر وسوى.

قوله جل ذكره: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

هذه إشارة إلى أقوام قاموا بالله لله، لا تأخذهم لومة لائم، ولا تقطعهم عن الله استنامة إلى علة، وقفوا جملتهم على دلالات أمره، وقصَرُوا أنفاسَهم واستغرقوا أعمارَهم على تحصيل رضاه، عملوا لله، ونصحوا الدين لله، ودَعَوْا خَلْقَ الله إلى الله، فَرَبِحَتْ تجارتُهم، وما خَسِرتْ صفقتهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

هؤلاء أقوام أظهر عليهم في الابتداء رقومَ الطلب، ثم وسمهم في الانتهاء بِكَيِّ

الفُرقة، فباتوا في شق الأحباب، وأصبحوا في زمرة الأجانب.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

أرباب الدَّعاوَى تسودُّ وجوههم، وأصحابَ المعاني تبيض وجوههم، وأهل الكشوفات غداً تبيضُّ بالإشراق وجوهُهُم، وأصحاب الحجاب تسودُّ بالحَجبة وجوهُهُم، فتعلوها غَبَرة، وترهقها قَتَرَة.

ويقال مَنْ ابيض ـ اليومَ ـ قلبُه ابيضَّ ـ غداً ـ وجهُه، ومَنْ كان بالضد فحاله العكس.

ويقال مَنْ أعرض عن الخلْق ـ عند سوانحه ـ ابيضَّ وجهه بروح التفويض، ومَنْ علَّق بالأغيار قلبَه عند الحوائج اسودّ محيَّاه بغبار الطمع؛ فأمّا الذين ابيضت وجوههم ففي أُنْسٍ وروح، وأمّا الذين اسودّت وجوههم ففي محن ونَوْح.

قوله جل ذكره: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

نُديمُ مخاطبتنا معك على دوام الأوقات في كل قليل وكثير، عمارة لسبيل الوداد: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ وأنَّى يجوز الظلم في وصفه تقديراً ووجوداً ـ والخلْق كلُّهم خَلْقُه ـ والحكمُ عليهم حُكْمُه؟

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ حُكماً.

قوله جل ذكره: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

لمّا كان المصطفى صلوات الله عليه أشرفَ الأنبياء كانت أُمَّتُه ـ عليه السلام ـ خيرَ الأمم. ولمَّا كانوا خيرَ الأمم كانوا أشرفَ الأمم، ولمَّا كانوا أشرف الأمم كانوا أشوَقَ الأمم، فلمَّا كانوا أشوق الأمم كانت أعمارُهم أقْصَرَ الأعمار، وخَلقَهم آخِرَ الخلائق لئَلا يطولَ مُكْثُهم تحت الأرض. وما حصلت خيريتُهم بكثرة صلواتهم وعبادتهم، ولكن بزيادة إقبالهم، وتخصيصه إياهم. ولقد طال وقوف المتقدمين بالباب ولكن لما خرج الإذنُ بالدخول تقدَّم المتأخرون:

وكم باسطين إلى وَصْلِنا أكُفَّهُم لم ينالوا نصيبا

قوله جل ذكره: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾.

المعروف خدمة الحق، والمنكر صحبة النفس.
المعروف إيثار حقِّ الحق، والمنكر اختيار حظ النفس.
المعروف ما يُزْلِفُك إليه، والمنكر ما يحجبك عنه.

وشرط الآمر بالمعروف أن يكون متصفاً بالمعروف، وحقُّ النّاهي عن المنكر أن يكون منصرفاً عن المنكر.

﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

لو دَخَلَ الكافةُ تحت أمرنا لوصلوا إلى حقيقة العزِّ في الدنيا والعقبى، ولكن بَعُدُوا عن القبول في سابق الاختيار فصار أكثرُهم موسوماً بالشِّرْك.

قوله جل ذكره: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾.

إن الحق سبحانه وتعالى لا يسلط على أوليائه إلا بمقدار ما يصدق إلى الله فرارهم، فإذا حق فرارهم أكرم لديه قرارهم، وإن استطالوا على الأولياء بموجب حسبانهم انعكس الحال عليهم بالصغار والهوان.

قوله جل ذكره: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾.

علَمُ الهجران لا ينكتم، وسِمَةُ البُعْد لا تَخْفى، ودليل القطيعة لا يستتر؛ فهم في صغار الطرد، وذُلِّ الرد، يعتبر بهم أولو الأبصار، ويغترُّ بهم أضرابُهم من الكفار الفُجّار.

قوله جل ذكره: ﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

كما غَايَرَ بين النور والظلام مغايرة تضاد فكذلك أثبت منافاة بين أحوال الأولياء وأحوال الأعداء، ومتى يستوي الضياء والظلمة، واليقين والتُّهمة، والوصلة والفرقة، والبعاد والألفة، والمعتكف على البِساط والمنصرف عن الباب، والمتصف بالولاء والمنحرف عن الوفاء؟ هيهات يلتقيان! فكيف يتفقان أو يستويان؟!

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾.

لن يخيبَ عن بابه قاصد، ولم يخسر عليه (تاجر)، ولم يستوحشْ معه مصاحب، ولم يَذِلَّ له طالب.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۚ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

لا في الحال لهم بدل ولا في المآل عنهم خلف. في عاجلهم خَسِروا، وفي آجلهم في قطعٍ وهجْرٍ، وبلاءٍ وخُسْرٍ، وعذابٍ ونُكْرٍ:

تبدَّلتْ وتبدلنا واحسرةً لمن ابتغى عِوَضاً لسلمى فلم يَجدَ

قوله جل ذكره: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

ما وجدوا ميراث ما بذلوا لغير الله إلا حسراتٍ متتابعة، وما حصلوا من حسباناتهم إلا على محن مترادفة، وذلك جزاء من أعرض وتولّى.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾.

الركون إلى الضد ـ بعد تبين المشاق ـ إعانة على الحال بما لا يبلغه كيد العدو، فأشار الحقُّ ـ سبحانه ـ على المسلمين بالتحرز عن الاعتراض، وإظهار البراءة عن كل غير، ودوام الخلوص للحق ـ سبحانه ـ بالقلب والسر. وأخبر أن مضادات القوم للرسول ﷺ أصلية غير طارئة عليهم، وكيف لا؟ وهو صلوات الله عليه محلُّ الإقبال وهم محل الإعراض. ومتى يجتمع الليلُ والنهار؟!.

قوله جل ذكره: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ﴾.

أنتم بقضية كرمكم تصفو ـ عن الكدورات ـ قلوبُكم؛ فتغلبكم الشفقة عليهم، وهم ـ لعتوِّهم وخُلْفِهم ـ يكيدون لكم ما استطاعوا، ولفرط وحشتهم لا تترشح منهم إلا قطرات غيظهم. ففَرِّغْ ـ يا محمد ـ قلبك منهم.

﴿قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

دَعْهُمْ يتفردوا بمقاساة ما تداخلهم من الغيظ، واستريحوا بقلوبكم عمّا يَحِلُّ بهم، فإن الله أولى بعباده؛ يوصل إلى مَنْ يشاء ما يشاء.

قوله جل ذكره: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾.

الإشارة من هذه الآية إلى المنصرفين عن طريق الإرادة، الراجعين إلى أحوال

أهل العادة؛ لا يعجبهم أن يكون لمريد نفاذ، وإذا رأوا فترةً لقاصِد استراحوا إلى ذلك. وإنَّ الله ـ بفضله ومِنَّته ـ يُتِمُّ نوره على أهل عنايته، ويَذَرُ الظالمين الزائغين عن سبيله في عقوبة بعادهم، لا يبالي بما يستقبلهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أقامَه ـ ﷺ ـ بتبوئه الأماكن للقتال، فانتُدبِ لذلك بأمره ثم أظهر في ذلك الباب مكنونات سِرِّه، فالمدار على قضائه وقَدَرِه، والاعتبار بإجرائه واختياره.

قوله جلت قدرته: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

يُبْرِزُ الجميعَ في صدار الاختيار؛ كأنَّ الأمر إليهم في نفيهم وإتيانهم، وفعلهم وتركهم، وفي الحقيقة لا يتقلبون إلا بتصريف القبضة، وتقليب القدرة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

تذكير ما سَلَفَ من الإنعَام فتحٌ لباب التملق في اقتضاء أمثاله في المُسْتَأْنَف[1].

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾.

كان تسكينُ الحقِّ سبحانه لقلبِ المصطفى ـ ﷺ ـ بلا واسطة من الله ـ سبحانه، والربطُ على قلوب المؤمنين بواسطة الرسول ﷺ ـ فلولا بقية بقيت عليهم ما ردَّهم في حديث النصرة إلى إنزال المَلَك، وأنَّى بحديث المَلَك ـ والأمرُ كلُّه بيَدِ المَلِك؟!

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

أجرى الله ـ سبحانه ـ سُنَّتَه مع أوليائه أنه إذا ضعفت نِيَّاتُهم، أو تناقصت إرادتهم أو أشرفت قلوبهم على بعض فترة ـ أراهم من الألطاف، وفنون الكرامات ما يُقَوِّي به أسباب عِرْفانهم، وتتأكد به حقائق يقينهم.

فعلى هذه السُّنَّة أنزل هذا الخطاب. ثم قطع قلوبهم وأسرارهم عن الأغيار بالكلية فقال: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) استأنف الشيء: أخذ أوله، ابتدأه، استقبله.

قوله جل ذكره: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ﴾.

إنَّ الله لا يُشْمِتُ بأوليائه عدواً؛ فالمؤمن وإن أصابته نكبة، فعدوُّه لا محالة يكبه الله في الفتنة والعقوبة.

قوله جل ذكره: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

الإله من له الأمر والنهي، فلمَّا لم يكن له في الإلهية نظير لم يكن له ـ (ﷺ)[1] ـ من الأمر والنهي شيء.

ويقال جرَّده ـ بما عرَّفه وخاطبه ـ عن كلِّ غيرٍ ونصيب ودعوى، حيث أخبر أنه ليس له من الأمر شيء، فإذا لم يَجُزْ أن يكون لسيِّد الأولين والآخرين شيء من الأمر فَمَنْ نزلت رتبتُه عن منزلته فمتى يكون له شيء من الأمر؟

ويقال استأثر (بِسَتْرِ عباده في حكمه) فقال أنا الذي أتوب على من أشاء من عبادي وأعذِّب من أشاء، والعواقب عليك مستورة، وإنك ـ يا محمد ـ لا تدري سرى فيهم.

ويقال أقامه في وقتٍ مقاماً فقال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] رمى بقبضة من التراب فأصاب جميع الوجوه، وقال له في وقت آخر: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ ثم زاد في البيان فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾. فإذا كان المُلْك ملكه، والأمر أمره، والحكم حكمه ـ فَمَنْ شاء عذَّبه، ومن شاء قرَّبه، ومن شاء هداه، ومن شاء أغواه.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾.

حرَّم الربا على العباد ومنه إقراض الواحد باثنين تستردهما، وسأل منك القرض الواحد بسبعمائة إلى ما لا نهاية له، والإشارة فيه أن الكرم لا يليق بالخَلْق وإنما هو صفة الحق سبحانه.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾: دليل الخطاب أنَّ المؤمن لا يُعذَّبُ بها، وإن عُذِّب بها مُدَّةً فلا يُخَلَّدُ فيها.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

قَرَنَ طاعة الرسول صلوات الله عليه بطاعة نفسه تشريفاً لِقَدْرِه، وتخفيفاً على

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

الأمة حيث ردَّهم إلى صحبة شخص من أنفسهم، فإنَّ الجنسَ إلى الجنسِ أسكنُ.

قوله جل ذكره: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

معناه سارعوا إلى علمٍ يوجب لكم المغفرة، فتقسمت القلوب وتوهمت أن ذلك أمرٌ شديد فقال ﷺ: «الندمُ توبة» وإنما توجب المغفرةَ التوبةُ لأن العاصي هو الذي يحتاج إلى الغفران.

والناس في المسارعة على أقسام: فالعابدون يسارعون بقَدَمِهم في الطاعات، والعارفون يسارعون بهممهم في القربات، والعاصون يسارعون بندمهم بتجرُّع الحسرات. فَمَنْ سارع بِقَدَمِه وجد مثوبته، ومن سارع بهممه وجد قربته، ومن سارع بندمه وجد رحمته.

ولمَّا ذكر الجنة وصفها بسعة العرض، وفيه تنبيه على طولها لأن الطول في مقابلة العَرْض، وحين ذكر المغفرة لم يذكر الطول والعرض، فقومٌ قالوا: المغفرة من صفات الذات وهي بمعنى الرحمة فعلى هذا فمغفرته حُكْمُه بالتجاوز عن العبد وهو كلامه، وصفة الذات تتقدس عن الطول والعرض.

ومن قال: مغفرته من صفات فِعْلِه قال لكثرة الذنوب لم يصف الغفران بالنهاية، إشارةً إلى استغراقه جميع الذنوب.

قوله جل ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾.

لا يدَّخِرون عن الله شيئاً، ويؤثِرونه على جميع الأشياء، ينفقون أبدانهم على الطاعات وفنون الأوراد والاجتهاد، وأموالهم في إفشاء الخيرات وابتغاء القربات بوجوه الصدقات، وقلوبهم في الطلب ثم دوام المراعاة، وأرواحهم على صفاء المحبَّات والوفاء على عموم الحالات، وينفقون أسرارهم على المشاهدات في جميع الأوقات؛ ينتظرون إشارات المطالبات، متشمرين للبدار إلى دقيق المطالعات.

قوله: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾: يتجاوزون عن الخَلْق لملاحظاتهم إياهم بعين النسبة، وأقوام يَحْلُمون على الخلق علماً بأن ذلك بسبب جُرْمِهم فيشهدونهم بعين التسلط، وآخرون يكظمون الغيظ تحققاً بأن الحق سبحانه يعلم ما يقاسون فيهون عليهم التحمل، وآخرون فنوا عن أحكام البشرية فوجدوا صافِيَ الدرجات في الذُّلِّ لأن نفوسهم ساقطة فانية، وآخرون لم يشهدوا ذرة من الأغيار في الإنشاء والإجراء؛ فعلموا أنَّ المنشىء الله؛ فزالت خصوماتهم ومنازعاتهم مع غير الله لأنهم لمَّا أفردوه

بالإبداع انقادوا لحكمه؛ فلم يروا معه وجهاً غير التسليم لحكمه، فأكرمهم الحق سبحانه بِبَرْدِ الرضاء، فقاموا له بشرط الموافقة.

قوله: ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ فرضاً رأوه على أنفسهم لا فضلاً منهم على الناس، قال قائلهم:

رُبَّ رام لي بأحجار الأذى لم أجِدْ بُدّاً من العطف عليه

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه.. هذا في معاملة الحق، وأما في معاملة الخلق فالإحسان أن تَدَعَ جميع حقِّك بالكلية كم كان على من كان، وتقبل (...)[1] منه ولا تقلده في ذلك مِنَّة.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾.

أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام «قل للظلمة حتى لا يذكروني فإني أوجبت أن أذكر من ذكرني وذكري للظلمة باللعنة». وقال لظَلَمَةِ هذه الأمة.

﴿أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ ثم قال في آخر الآية: ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

ويقال فاحشةُ كلِّ أحد على حسب حاله ومقامه، وكذلك ظلمهم وإن خطور المخالفات ببال الأكابر كفِعْلها من الأغيار، قال قائلهم:

أنت عيني وليس من حق عيني غضُّ أجفانها على الأقذاء[2]

فليس الجُرْم على البساط كالذَّنب على الباب.

ويقال فعلوا فاحشة بركونهم إلى أفعالهم، أو ظلموا أنفسهم بملاحظة أحوالهم، فاستغفروا لذنوبهم بالتبري عن حركاتهم وسكناتهم علماً منهم بأنه لا وسيلة إليه إلا به، فخلصهم من ظلمات نفوسهم. وإن رؤية الأحوال والأفعال لَظُلُماتٌ عند ظهور الحقائق، ومَنْ طَهَّره الله بنور العناية صانه عن التورط في المغاليط البشرية.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ بردِّهم إلى شهود الربوبية، وما سبق لهم من الحسنى في سابق القسمة.

﴿وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ مؤجلاً من الفراديس، ومُعَجلاً في روح المباحات وتمام الأُنس.

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) الأقذاء (ج) القذى: وهو ما يتكون في العين من رَمَصٍ وغَمصَ. أو ما يقع في العين من تبنةٍ.

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

يعني اعتبروا بمن سلف، وانظروا كيف فعلنا بمن وَالَى وكيف انتقمنا ممن عَادَى، وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾: بيان لقوم من حيث أدلة العقول، ولآخرين من حيث مكاشفات القلوب، ولآخرين من حيث تجلّي الحق في الأسرار.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

يعني إذا قلتم بالله (ووصلتم) بالله فلا ينبغي أن تخافوا من غير الله، ولا تَهِنوا ولا تضعفوا فإن النصرة من عند الله، والغالب الله، وما سوى الله فليس منهم ذرة ولا منهم سينة.

قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي ينبغي للمؤمن ألا تظله مهابةٌ من غير الله.

قوله جل ذكره: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

إن نالكم فينا مشقة فالذين تقدموكم لقوا مثل ما لقيتم، ومُنوا بمثل ما به مُنيتم، فمن صبر منهم ظفر، ومَنْ ضجر مِنْ حَمْلِ ما لقي خَسِر، والأيام نُوَبٌ والحالات دُوَلٌ، ولا يخفى على الحق شيء.

قوله جل ذكره: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾.

اختبارات الغيب سبك للعبد فباختلاف الأطوار يخلصه من المشائب فيصير كالذهب الخالص لا خَبَثَ فيه، كذلك يصفو عن العلل فيتخلص لله.

﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ في أودية التفرقة. ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ [الرعد: ١٧].

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾.

من ظنَّ أنه يصل إلى محل عظيم من دون مقاساة الشدائد ألقته أمانيه في مهواة الهلاك، وإنَّ من عرف قَدْر مطلوبه سَهُلَ عليه بَذْلُ مجهوده: (. . . . .)[١] وهو بلذاته على من يظن يخلع العذار وقال قائلهم:

إذا شام[٢] الفتى برق المعاني ... فأهونُ فائتٍ طِيبُ الرُّقاد

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾.

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) شامَ: أي ظهرت بجلدته الشامة.

طوارق التمني بعد الصبر على احتمال المشاق ولكن:

إذا انسكبت دموعٌ في خُدُودٍ تبيَّن من بكى ممن تباكى

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾.

إن الرسل موقوفون حيثما وُقِفُوا، ومخبرون عمَّا عُرِّفوا بمقدار ما عَرَفُوا؛ فإذا أُيِّدُوا بأنوار البصائر اطَّلعوا على مكنونات السرائر بلطائف التلويح بمقدار ما أُعْطُوا من الإشراق بوظائف البلوغ.

﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ لما تُوُفِّي المصطفى - ﷺ - سقمت البصائر إلا بصيرة الصديق رضي الله عنه فأمَدَّه الله بقوة السكينة، وأفرغ عليه قوة التولي فقال: «من كان يعبد محمداً فإنَّ محمداً قد مات»[(١)] فصار الكُلُّ مقهورين تحت سلطان قالته لِمَا انبسط عليهم من نور حالته، كالشمس بطلوعها تندرج في شعاعها أنوارُ الكواكب فيستتر فيها مقادير مطارح شعاع كل نجم.

وإنما قال: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ لأنه ﷺ مات. وقيل أيضاً لأنه قال: «ما زالت أكلة خيبر تعاودني فهذا أوان قطعت أبهري»[(٢)].

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾.

الأنفاس محصورة؛ لا زيادة فيها، ولا نقصان منها.

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾: للصالحين العاقبة وللآخرين الغفلة.

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾: وثواب الآخرة أوله الغفران ثم الجِنان ثم الرضوان.

﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾: وجزاء الشكرِ الشكرُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا ٱسْتَكَانُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾.

إنَّ الذين درجوا على الوفاء، وقاموا بحق الصفاء، ولم يرجعوا عن الطريق،

---

(١) أخرجه البخاري (جنائز ٣)، (فضائل أصحاب النبي ٥)، (مغازي ٨٣)، وابن ماجه (جنائز ٦٥)، وأحمد بن حنبل (٦، ٢٢٠).

(٢) أخرجه القاضي عياض في (الشفا ١/ ٦٠٩)، والخطابي في (إصلاح خطأ المحدثين ٣٣) والقرطبي في (التفسير ٥/ ١٦٣)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٢١٨٩)، (وصاحب ميزان الاعتدال ٣٢٦٣)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٣/ ١٢٣٩).

وطالبوا نفوسهم بالتحقيق، وأخذوا عليها بالتضييق والتدقيق ـ وجدوا محبةَ الحقّ سبحانه ميراثَ صبرِهم، وكان الخَلَف عنهم الحقُّ عند نهاية أمرهم، فما زاغوا عن شرط الجهد، ولا زاغوا في حفظ العهد، وسلَّموا تسليماً، وخرجوا عن الدنيا وكان كلُّ منهم للعهد مقيماً مستديماً، وعلى شرط الخدمة والوداد مستقيماً.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

تحققوا بحقائق المعنى فَخَرِسُوا عن إظهار الدعوى، ثم نطقوا بلسان الاستغفار، ووقفوا في موقف الاستحياء، كما قيل:

يتجنَّبُ الآثامَ ثم يخافها فكأنَّما حسناتُه آثامُ

قوله جل ذكره: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾.

وأقل ذلك القناعة ثم الرضا ثم العيش معه ثم الأُنس في الجلوس بين يديه ثم كمال الفرح بلقائه، ثم استقلال السرِّ بوجوده.

﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

يعني دخولهم الجنة محررون عنها، غير داخلين في أسرها.

ويقال ثوابُ الدنيا والآخرة الغيبةُ عن الدارين برؤية خالقهما[1].

ولمّا قال ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ قال في الآخرة ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ فوجب أن يكون لثواب الآخرة مزية على ثواب الدنيا حيث خصَّه بوصف الحسن، وتلك المزية دوامها وتمامها وثمارها، وأنها لا يشوبها ما ينافيها، ويوقع آفةً فيها.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾.

يعني إن طاوعتم الأضداد جرّوكم إلى أحوالهم، فألقوكم في ظلماتهم، بل الله مولاكم: ناصركم ومعينكم وسيدكم ومصلح أموركم، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾: لأنه يعينكم على أنفسكم ليكفيكم شرَّها، ومَنْ سواه يزيد في بلائكم إذا ناصروكم لأنهم يعينون أنفسكم عليكم.

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ لأن مَنْ سواه يمن عليك بنصرته إياك، وهو يجازيك على استنصارك به.

---

(١) قال القشيري في حديثه عن الغيبة برسالته: الغيبة في المصطلح الصوفي هي غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق، لاشتغال الحسن بما ورد عليه، ثم يغيب إحساسه بنفسه وبغيره بوارد من تذكر ثواب أو تفكّر عقاب. (الرسالة القشيرية ص٦٩).

ويقال كل من استنصرت به احتجتَ إلى أن تُعْطِيَه شيئاً من كرائمك ثم قد ينصرك وقد لا ينصرك، فإذا استنصرته ـ سبحانه ـ يعطيك كلّ لطيفة، ولا يرضى بألا ينصرك.

قوله جل ذكره: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾.

إنّ الله سبحانه خصّ نبيّنا ـ ﷺ ـ بإلقاءِ الرعبِ منه في قلوب أعدائه، قال عليه السلام: «نُصِرْتُ بالرعب»(١). فكذلك أجرى هذه السُّنّة مع أوليائه؛ يطرح الهيبة منهم في القلوب، فلا يكاد يكون محق إلا ومنه ـ على المبطلين وأصحاب الدعوى والتمويه ـ هيبةٌ في القلوب وقهرٌ.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾.

(إنه سبحانه يجازيك على استنصارك به، ويقال كل من استنصرت به احتجت إلى أن تعطيه شيئاً من كرائمك ثم قد ينصرك وقد لا ينصرك، فإذا استنصرته ـ سبحانه ـ يعطيك كل لطيفة، ولا يرضى بألا ينصرك).

الإشارة من هذه الآية إلى أن الحق سبحانه أقام أولياءه بحق حقه: وأقعدهم عن تحصيل حظوظهم، وقام سبحانه بكفايتهم بكل وجه، فمن لازم طريق الاستقامة، ولم يزغ عن حدّه ولم يُزغْ في عهده، فإنه سبحانه يصدق وعده له بتجميل الكفاية ودوامها، ومن ضلّ عن الاستقامة ـ ولو خطوة ـ عثر في مشيته، واضطربت عليه ـ بمقدار جُرْمه ـ حاله وكفايته، فمن زَادَ زِيدَ له، ومن نَقَصَ نُقِصَ له.

قوله جل ذكره: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قيمة كل أحدٍ إرادته؛ فَمَنْ كانت همتُه الدنيا فقيمتُه خسيسةٌ حقيرة كالدنيا، ومن كانت همتُه الآخرة فشريفٌ خطره، ومن كانت همتُه ربانية فهو سيد وقته.

ويقال مَنْ صفا عن إرادته وصل إليه، ومن وصل إليه أقبل ـ بلطفه ـ عليه، وأزلفه بمحل الخصوصية لديه.

قوله: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾: الإشارة منه أنه صرف قوماً عنه فشغلهم بغيره عنه، وآخرون صرفهم عن كل غير فأفردهم له؛ فالزاهدون صرفهم عن الدنيا،

---

(١) أخرجه النسائي في (سننه ٦/ ٣)، وأحمد بن حنبل (المسند ٢/ ٢٦٤، ٢٦٨، ٣١٤، ٣٩٦، ٤١٢، ٤٥٥، ٥٠١)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ١/ ٢٦٠، ٨/ ٢٥٨)، والحميدي في (المسند ٩٤٥).

والعابدون صرفهم عن اتباع الهوى، والمريدون صرفهم عن المنى، والموحّدون صرفهم عما هو غيرٌ وسوى.

قوله جل ذكره: ﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

قوله: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ الإشارة من هذه الآية لأقوام تقع لهم فترة، ودواعي الحق سبحانه ـ من أنفسهم، ومن جميع الأقطار حتى كأنّ الأحجارَ من الشوارع واللَّبِنَ من الجدران ـ تناديه: لا تفعل يا عبد الله! وهو مُصِرٌّ في ليِّه، مقيمٌ على غيِّه، جاحد لِمَا يعلم أنه هو الأحقُّ والأولى من حاله، فإذا قضى وطره واستوفى بهمته، فلا محالة يمسك من إرسال عنانه، ويقف عن ركضه في ميدانه، فلا يحصل إلا على أنفاسٍ متصاعدة، وحسراتٍ متواترة؛ فأورثه الحقُّ ـ سبحانه ـ وحشةً على وحشة. حتى إذا طال في التحسُّر مقامه تداركه الحق ـ سبحانه ـ بجميل لطفه، وأقبل عليه بحسن عطفه، وأنقذه من ضيق أسره، ونقله إلى سعة عفوه وفضله، وكثيرٌ مِنْ هؤلاء يصلون إلى محل الأكابر ثم يقفون بالله لله (. . . . .)[1] ويقومون بالله لله بلا انتظار تقريب ولا ملاحظة ترحيب.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾: فأهل التحقيق والتوحيد يصلون بعد فتراتهم إلى القول بتَرْكِ أنفسهم، وغَسلِ أيديهم منهم، ورفع قلوبهم عنهم فيعيشون بالله، بلا ملاحظة طمع وطلبة، بل على عقيدة اليأس عن كل شيء. عليه أكّدُوا العهد، وبدَّلُوا اللحظ، وتركوا كل نصيب وحظ، وهذه صفة مَنْ أنزل عليه الأمَنةَ.

فأمَّا الطائفة التي أهمتهم أنفسهم ـ فبقوا في وحشة نفوسهم، ومِنْ عاجل عقوبتهم سوءُ عقيدتهم في الطريقة بعد إيمانهم بها؛ قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

---

(١) بياض في الأصل.

والإشارة في قوله تعالى: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ لهؤلاء أنهم يتحيَّرون في أمرهم فلا إقبال لهم على الصواب بالحقيقة، ولا إعراض بالكلية، يحيلون فترتهم على سوء اختيارهم، ويضيفون صفوة ـ لو كانت لقلوبهم ـ إلى اجتهادهم، وينسَوْن ربَّهم في الحالين، فلا يبصرون تقدير الحق سبحانه. قال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾: فَمَنْ عَرَفَ أن المنشيء الله انسلخ عن اختياره وأحواله كانسلاخ الشَّعْرِ عن العجين، وسَلَّمَ أموره إلى الله بالكلية. وأمارة مَنْ تحقق بذلك أن يستريح من كدِّ تدبيره، ويعيش في سعة شهود تقديره.

وقوله: ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾: لم يُخلِصُوا في عقائدهم، وأضمروا خلاف ما أظهروا، وأعلنوا غير ما ستروا، وأحالوا الكائنات على أسبابِ توهموها.

قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾.

أخبر أن التقدير لا يُزَاحَم، والقَدَر لا يُكابَر، وأن الكائناتِ محتومة، وأن الله غالب على أمره.

وقوله: ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾: فأمّا أهل الحقائق فإنه تعالى ينتزع من قلوبهم كل آفةٍ وحجبة، ويستخلص أسرارهم بالإقبال والزلفة، فتصبح قلوبهم خالصةً من الشوائب، صافيةً عن العلائق، منفردةً للحق، مجرَّدَةً عن الخلق، مُحَرَّرة عن الحظِّ والنَّفْس، ظاهرةً عليها آثارُ الإقبال، غالباً عليها حُسْنُ التَوَلِّي، باديةً فيها أنوارُ التجلي.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

الإشارة من هذه الآية إلى أحوال من سَقِمَتْ إرادتُهم، وضَعُفَتِ نِيَّاتُهم، وقادهم الهوى، ومَلَكَتْهُم الفترة.

قابَلَهم نصحُ الناصحين، ودعوة المنى، ووساوس الشياطين فركنوا إلى الغيبة، وآثروا الهوى على التُّقَى فبقوا عنه، ولم يتهنَّوا بما آثروه عليه.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

مَنْ تعوَّد أن يتلهف على ماضيه وسالفه، أو يتدبر في مستقبله وآنِفِه، فأقلُّ عقوبة له ضيق قلبه في تفرقة الهموم، وامتحاء نعت الحياة عن قلبه لغفلته وقالته ليت كذا

ولعلَّ كذا، وثمرةُ الفكرة في ليت ولعلَّ ـ الوحشةُ والحسرةُ وضيق القلبِ والتفرقة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾.

بذل الروح في الله خير من الحياة بغير الله، والرجوع إلى الله خير لمن عرف الله من البقاء مع غير الله، وما يؤثره العبدُ على الله فغير مبارك، إنْ شِئتَ: والدنيا، وإنْ شِئتَ: والعقبى.

قوله: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾: إذا كان المصير إلى الله طاب المسيرُ إلى الله: وإنَّ سَفرةً إليه بعدها نَحُطُّ رِحَالَنا لَمُقَاسَاتُها أحلى من العسل!.

قوله جل ذكره: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

جرَّده عن أوصاف البشرية، وأفرده بما ألبسه من نعت الربوبية، وأخبر أن ما يلوح إليه فمن أنوار التولي، لا من آثار الوفاق والتبري، ولولا أنه استخلقه بما ألبسه وإلا متى كان بتلك الصفة؟!

ويقال إن من خصائص رحمته ـ سبحانه ـ عليه أنْ قَوّاه حتى صَحِبَهُم، وصبر على تبليغ الرسالة إليهم، وعلى ما كان يقاسيه من اختلافهم ـ مع سلطان ما كان مستغرقاً له ولجميع أوقاته من استيلاء الحق عليه، فلولا قوة إلهية استأثره الحق بها وإلا متى أطلق صحبتهم؟!

ألا ترى إلى موسى عليه السلام لما كان تريب العهد بسماع كلامه كيف لم يصبر على مخاطبة أخيه فأخذ برأس أخيه يجرُّه إليه؟

ويقال لولا أنه ﷺ شاهدهم محواً فيما كان يَجْرِي عليهم من أحكام التصريف، وتحقَّق أن منشئها الله ـ لما أطاق صحبتهم.

قوله تعالى: **﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾**: لو سَقَيْتَهم صِرْفَ شراب التوحيدِ غيرَ ممزوجٍ بما فيه لهم حظٌّ لتفرقوا عنك، هائمين على وجوههم، غير مطيقين للوقوف لَحظةً، ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ فيما يكون تقصيراً منهم في حقك وتوقيرك، وما عثرت عليه مِنْ تفريطهم في خدمتنا وطاعتنا ـ فانتصِبْ لهم شفيعاً إلينا.

ويقال: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ فاعف ـ أنت ـ عنهم فإن حكمك حكمُنا، فأنت لا تعفو إلا وقد عَفَوْنا، ثم ردَّه عن هذه الصفة بما أثبته في مقام العبودية، ونقله إلى وصف

التفرقة فقال: ثم قِفْ في محل التذلل مبتهلاً إلينا في استغفارهم. وكذا سُنَّتُه ـ سبحانه ـ مع أنبيائه عليهم السلام وأوليائه، يردُّهم مِنْ جمعٍ إلى فرقٍ ومن فَرْقٍ إلى جمع، فقوله: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ جمع، وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فرق.

ويقال: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ وتجاوز عنهم في حقوقك، ولا تكتفِ بذلك ما لم تستغفِرْ لهم إكمالاً للكرم؛ ولهذا كان يقول: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون».

ويقال ما يُقصِّرون في حقِّك تعلَّق به حقَّان: حقك وحقي، فإذا عفوتَ أنت فلا يكفي هذا القَدْرُ بل إنْ لَمْ أتجاوز عنهم في حقي كانوا مستوجبين للعقوبة؛ فمن أرضى خصمَه لا يَنْجَبِر حالُه ما لم يغفر الله له فيما ترك من أمره.

وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي أثبِتْ لهم محلاً؛ فإنَّ المعفوَ عنه في صدار الخجلة لا يرى لنفسه مقام الكَرامة، فإذا شاورتَهم أزلْت عنهم انكسارهم، وطيَّبْتَ لهم قلوبهم.

ويقال تجَنَّسوا في أحوالهم: فَمِنْ مُقَصِّر في حقه أُمِرَ بالعفو عنه، ومن مرتكب لذنوبه أُمِرَ بالاستغفار له، ومن مطيعٍ غير مقصرٍ أُمِرَ بمشاورته.

ثم قال: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي لا تتكل على رأي مخلوق وكِلْ الأمور إليّ، فإنا لا نخليك عن تصريف القبض بحالٍ.

وحقيقة التوكل شهود التقدير، واستراحة القلوب عن كد التدبير.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ يذيقهم بَرْدَ الكفاية ليزول عنهم كل لغبٍ[1] ونَصَبٍ، وإنه يعامل كلاً بما يستوجبه؛ فقومٌ يغنيهم ـ عند توكلهم ـ بعطائه، وآخرون يكفيهم ـ عند توكلهم ـ بلقائه، وقوم يرضيهم في عموم أحوالهم حتى يكتفون ببقائه، ويقفون معه به له ـ على تلوينات قَدَرِه وقضائه.

قوله جل ذكره: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

المؤمنون نصرته لهم بالتوفيق للأشباح ثم بالتحقيق للأرواح.

ويقال ينصركم الله بتأييد الظواهر وتسديد السرائر.

ويقال للنصرة إنما تكون على العدو، وأعدى عدوك نَفْسُكَ التي بين جنبيك. والنصرة على النَّفْس بأن تهزم دواعي مُنْيَتِها بعواصم رحمته حتى تَنْفَضَّ جنود الشهوات بهجوم وفود المنازلات فتبقى الولاية لله خالصةً من شهبات الدواعي التي هي أوصاف

(١) اللغب: التعب والإعياء الشديد. والنَّصَب: التعب.

البشرية، وشهوات النفوس وأمانيها، التي هي آثار الحجبة وموانع القربة.

﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ الخذلان التخلية مع المعاصي، فَمَنْ نَصَرَه قبض على يديه عن تعاطي المكروه، ومن خَذَلَه ألقى حَبْله على غاربه، وَوَكَلَه إلى سوء اختياره، فيفترق عليه الحال في أودية الشهوات، فمرة يُشَرِّق غير محتشِم، وتارة يُغَرِّب غير مُحترِم، ألا ومن سبَّبه الحق فلا آخذ بيده، ومن أسلمه فلا مجيرَ له.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: في وجدان الأمان عند صدق الابتهال، وإسبال ثوب العفو على هناة الجُرْم عند خلوص الالتجاء، بالتبري من المنَّة والحول.

ويقال لما كان حديث النصرة قال: ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾، ولما كان حديث الخذلان لم يقل «فلا ناصر لكم» بل قال بالتلويح والرمز: ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾: وفي هذا لطيفةٌ في مراعاة دقائق أحكام الخطاب.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

نزَّه أحوال الأنبياء عن الدَّنَس بالخيانات، فمن حَمَّلْنَاه من الرسالة إلى عبادنا يوصلها إلى مستحقيها واجباً، ولا يعتني بشأنِ حميم له مِنْ دون أمرنا، ولا يمنع نصيب أحدٍ أمرناه بإيصاله إليه، بحقدٍ ينطوي عليه. ألا ترى كيف قال: «اذهب فوارِه» لأبي طالب لمَّا قال له أمير المؤمنين عليٌّ رضي الله عنه: مات عمُّك[1] الضال. وكيف قَبِلَ الوحشي[2] قاتِلَ حمزة لمَّا أسلم؟

ويقال ما كان لنبي من الأنبياء صلوات الله عليهم أن يضل أسرارنا في غير أهلها، بل يُنْزِلون كل أحدٍ عندما يستوجبه، وفي الأثر «أُمِرْنا أن نُنْزِلَ الناسَ منازلهم».

قوله جل ذكره: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ هُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

---

(١) أخرجه النسائي في (السنن ١/ ١١٠)، وأحمد بن حنبل في (المسند ١/ ١٣٠)، والبيهقي في (السنن الكبرى ١/ ٣٠٤، ٣٠٥، ٣/٣٥٨، ٣٩٨، ٧/ ٦٧)، وابن حبان في (المجروحين ١/ ١١١)، وابن الجوزي في (العلل المتناهية ١/ ١٨٠)، والساعاتي في (منحة المعبود ٢٣٢٧)، وفي (بدائع المنن ٥٥٥)، والبيهقي في (دلائل النبوة ٢/ ٣٤٨).

(٢) هو وحشي بن حرب الحبشي أو دسمة، مولى بني نوفل (. . . ـ نحو ٢٥هـ = . . . ـ نحو ٦٤٥م) صاحبي من سودان مكة كان من أبطال الموالي في الجاهلية وهو قاتل الحمزة عم النبي ﷺ قتله يوم أحُد. شهد اليرموك وشارك في قتل مسيلمة وكان يقول قتلت بحربتي هذه خير الناس وشر الناس، وسكن حمص فمات بها في خلافة عثمان.
(الأعلام ٨/ ١١١) (الإصابة ت٩١١١) والاستيعاب بهامشها (٣/ ٦٠٧ ـ ٦١٠).

لا يستوي مَنْ رضي عنه في آزاله ومَن سخط عليه فخذله في أحواله، وجعله متكلاً على أعماله، ناسياً لشهود أفضاله، واتباع الرضوان بمفارقة زُجِر عنه، ومعانقة ما أُمِرَ به، فَمَنْ تجرَّد عن المزجور، وتجلَّد في اعتناق المأمور فقد اتبع الرضوان، واستوجب الجنان.

﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾: أي هم أصحاب درجات في حكم الله، فَمِنْ سعيدٍ مُقَرَّب، ومِنْ شَقِيٍّ مُبْعَد.

قوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

أجزل لديهم العارفة، وأحسن إليهم النعم حيث أرسل إليهم مثل المصطفى سيد الورى صلوات الله عليه وعلى آله، وعرَّفهم دينهم، وأوضح لهم براهينهم، وكان لهم بكل وجه فلا نِعَمَهُ شكروا، ولا حَقّه وقَّروا، ولا بما أرشدهم استبصروا، ولا عن ضلالتهم أقصروا.. هذا وصف أعدائه الذين جحدوا واستكبروا. وأمَّا المؤمنون فتقلدوا المِنَّة في الاختيار، وقابلوا الأمر بالسمع والطاعة عن كنه الاقتدار، فسَعِدُوا في الدنيا والعُقْبى، واستوجبوا من الله الكرامة والزُّلفى[1].

قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

عادة الخلق نسيان ما منهم من الخطأ والعصيان، والرجوع إلى الله بالتهمة فيما يتصل بهم من المحن والخسران، وفنون المكاره والافتتان، وإنَّ مَنْ تعاطى (...)[2] الإجرام فحقيق بألا ينسى جلول الانتقام.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

هوَّن على المؤمنين وأصحاب البصائر ما لقوا من عظيم الفتنة يوم أُحُد، بأن قال إن ذلك أجمع كان بإذن الله، وإنَّ بلاءً يصيب بإذن الله لِمَن العسلِ أحلى، ومِنْ كل نعيم أشهى. ثم أخبر أن الذين لم يكن لهم في الصحبة خلوص كيف تعللوا وكيف تكاسلوا:

وكذا المَلُولُ إذا أراد قطيعةً مَلَّ الوصال وقال كان وكانا

---

(١) الزُّلفى: المنزلة والدرجة والقُربة.
(٢) بياض في الأصل.

قوله تعالى: ﴿يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم﴾ فلا جَرَم (سَقَوْا العَسَل ودَسُّوا له فيه الحنظل)[١]، ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين.

قوله جل ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

الذين ركنوا إلى ما سوَّلت لهم نفوسهم من إيثار الهوى، ثم اعترضوا على من يصرف أحكام القضاء وقالوا لو تَحرَّزُوا عن البروز للقتال لم يسقطوا عن درجة السلامة.. لمَذمُومةٌ تلك الظنون، ولَذَاهِبَةٌ عن شهود التحقيق تلك القلوب.

قُلْ لهم ـ يا محمد ـ استديموا لأنفسكم الحياة، وادفعوا عنها هجوم الوفاة!

ومتى تقدرون على ذلك؟! هيهات هيهات!.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

الحياة بذكر الحق بعد ما تتلف النفوس في رضاء الحق أتَمُّ من البقاء بنعمة الخلق مع الحجبة عن الحق.

ويقال إن الذي وارثُه الحي الذي لم يزل فليس بميت ـ وإن قُتِل:

وإن كانت العبدان للموت أُنْشِئَتْ ... فقتلُ امرىء في الله ـ لا شكَّ ـ أفضلُ

قوله: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾: مَنْ علم أن أحباءه ينتظرونه وهم في الرَّفه والنعمة لا يهنأ بعيش دون التأهب والإلمام بهم والنزول عليهم.

قوله جل ذكره: ﴿۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

عِلَّة استبشارهم وموجبه فضلٌ من الله ونعمة منه، أي لولا فضله ونعمته بهم وإلا متى استبشروا؟ فليس استبشارهم بالنعمة إنما استبشارهم بأنهم عباده وأنه مولاهم[٢]، ولولا فضله ونعمته عليهم لما كانت لهم هذه الحالة.

---

(١) الحنظل: نبات عشبي بري حولي معترش من فصيلة القرعيات، ثمرته في حجم البرتقالة ولونها، فيها لب شديدة المرارة، كان ولا يزال يُستعمل في الطب. ويُزرع في الحدائق الطبية.

(٢) قال القشيري: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: ليس شيء أشرف من العبودية، ولا اسم أتم للمؤمن من الاسم له بالعبودية. ولذلك قال سبحانه في وصف النبي ﷺ ليلة المعراج، وكان أشرف أوقاته في الدنيا ﴿سبحان الذي أسري بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾، وقال تعالى: ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾، فلو كان اسم أجل من العبودية لسمّاه به، وفي هذا المعنى أنشدوا:

لا تدعني إلا بيا عبدها ... فإنه أشرف أسمائي

(الرسالة القشيرية ص٢٠٠).

قوله جل ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

للاستجابة مزية وفضيلة على الإجابة من حيث الإشارة لا من مقتضى العربية وهو أنه يستجيب طوعاً لا كرهاً، فهم استجابوا لله من غير انطواء على تحمل مشقة بل بإشارة القلب ومحبة الفؤاد واختيار الروح واستحلاء تحمُّل الحُكم. فالاستجابة للحق بوجوده، والاستجابة للرسول ـ عليه السلام ـ بالتخلُّق بما شرع من حدوده.

استجابة الحق بالتحقق بالصفاء في حق الربوبية، واستجابة الرسول عليه السلام بالوفاء في إقامة العبودية.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾: في ابتداء معاملاتهم قبل ظهور أنوار التجلي على قلوبهم، وابتسام الحقائق في أسرارهم.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ﴾: «الإحسان أن تعبد الله كأنَّك تراه... ـ وهو المشاهدة والتقوى ـ... فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(١) ـ وهو المراقبة في حال المجاهدة.

﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لأهل البداية مؤجَّلاً، ولأهل النهاية مُعجَّلاً.

قوله جل ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

لم يلتَبِسْ على ظواهرهم شيءٌ مِنْ أحوال الدنيا إلا انفتحت لهم ـ في أسرارهم ـ طوالع من الكشوفات، فازدادوا يقيناً على يقين.

ومن أمارات اليقين استقلالُ القلوب بالله عند انقطاع المُنَى مِن الخَلْق في توهم الإنجاد والإعانة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

كذا سُنَّة الحق ـ سبحانه ـ مع مَنْ صَدَق في التجائه إليه أن يمهد مقيله في ظل كفايته؛ فلا البلاء يمسه، ولا العناء يصيبه، ولا النَّصَبَ يُظِلُّه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في (صحيحه ٦/ ١٤٤)، والبيهقي في (السنن الكبرى ١٠/ ٢٠٣) وابن خزيمة في (الصحيح ٢٢٤٤) والهيثمي في (موارد الظمآن ١٦) وابن حجر في (فتح الباري ٨/ ٥١٣)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ٤٣٤، ١٠/ ٩٤)، وابن كثير في (التفسير ٦/ ٣٥٦)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٢٤٩، ٥٢٥٤).

الإشارة في تسليط دواعي الشيطان على قلوب الأولياء صدق فرارهم إلى الله؛ كالصبيّ الذي يُخوَّف بشيء يفزع الصبيان، فإذا خاف لم يهتدِ إلى غير أمه، فإذا أتى إليها آوَتْه إلى نفسها، وضمَّته إلى نَحْرِها، وألصقَتْ بِخَدِّه خدَّها.

كذلك العبد إذا صدق في ابتهاله إلى الله، ورجوعه إليه عن مخالفته، آواه إلى كنف قربته، وتداركه بحسن لطفه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

زاد في قوة قلبه بما جدَّدَ من تأكيد العهد، بأنه لا يشمِتُ به عدوًّا، ولا يُوَصِّل إليه من قِبَلِهم سوءاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

إنْ أضرُّوا فما أضروا إلا بأنفسهم، وإنْ أصرُّوا فما أصَرُّوا إلا على خسرانهم:

فما نحن عذَّبْنا بِبُعْدِ ديارهم ولا نحن ساقتنا إليهم نوازعُ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

ومن تمام المكر بهم، والمبالغة في عقوبتهم أنَّا نعذِّبهم وهم لا يشعرون؛ ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] نملي لهم فيظنون ذلك إنعاماً، ولا يحسبونه انتقاماً، فإذا برزت لهم كوامنُ التقدير عند مغاراتها علموا أنهم لفي خسران، وقد اتَّضح لكلِّ ذي بصيرة أن ما يكون سببَ العصيان وموجبَ النسيان غيرُ معدودٍ من جملة الإنعام.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

جمعهم اليومَ من حيث الأشخاص والمباني، ولكنه فرَّقهم في الحقائق والمعاني؛ فَمِنْ طيِّبَةٍ سجيته[1]، وزمن خبيثةٍ طِينَتُه. وهم وإن كانوا مشائب[2] ففي بصيرة الخواص هم ممتازون.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾: فإنَّ أسرار الغيب لا تظهر للمتلوثين بأدناس

(١) السَّجيَّة: الخُلق والغريزة والطبية (ج) سجيات وسجايا.

(٢) مشائب: من الشوب: وهو الخلط والغش، وما اختلط بغيره من الأشياء.

البشرية، وإن الحق سبحانه مستأثر بعلم ما جلّ وقلّ، فيختص من يشاء من أنبيائه بمعرفة بعض أسراره.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

مَنْ آثر شيئاً على الله لم يبارِك له فيه؛ فلا يدوم له ـ في الدنيا ـ بذلك استمتاع، ولا للعقوبة عليه ـ في الآخرة ـ عنه دفاع.

والبخل ـ على لسان العلماء ـ منع الواجب، وعلى مقتضى الإشارة إبقاءُ شيءٍ ولو ذرةً من المال أو نَفَساً من الأحوال.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

هذا الخطاب لو كان بين المخلوقين لكان شكوى. والشكوى إلى الأولياء من الأعداء سُنَّةُ الأحباب.

ويقال علم أن في المؤمنين مَنْ يغتاب الناس، وذلك قبيح من قالتهم، فَأَظْهَرَ قُبحاً فوق ذلك ليتصاغر قبح قول المؤمنين بالإضافة إلى قبح قول الكفار، فكأنه قال: لئن قبحت قالتهم في الاغتياب فأقبحُ من قولهم قولُ الكفار حيث قالوا في وصفنا ما لا يليق بنعمتنا.

وفيه أيضاً إشارة إلى الدعاء إلى الخَلْق، والتجاوز عن الخَصْم، فإن الله ـ سبحانه ـ لم يسلبهم ما أولاهم مع قبيح ما ارتكبوه من التقصير في حقوقه.

قوله: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾: هذه الكلمة من موجبات الخجلة لأهل التقصير بأدقّ إشارة؛ يعني أنهم وإنْ نَسُوا أحوالهم وأقوالَهم فإنا ننشر لهم ما كتبنا عليهم قال قائلهم:

صحائفُ عِنْدِي للعِتاب طويتها ... سَتُنْشَرُ يوماً والعتابُ يطولُ
سأصبر حتى يجمع الله بيننا ... فإنْ نلتقِ يوماً فسوف أقول

قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ هذا لو كان من مخلوقٍ مع مخلوق لأشبه العذر مما عمله به، فكأنه ـ سبحانه ـ يقول: «عبدي: هذا الذي تلقاه ـ اليوم ـ من العقوبة لأن الذنب لك، ولو لم تفعله لما عذَّبتُك».

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

تقوَّلوا على الله ـ سبحانه ـ فيما تعللوا به من تَرْكِ الإيمان، فقالوا: لقد أُمِرْنا ألا نصدّق أحداً إلا لو أتانا بقربان يتقرب به إلى للسماء، وتنزل نار من السماء، فتأخذ القربان عياناً ببصر، فقال تعالى قلْ لهم إن من تقدَّمني من الأنبياء عليهم السلام أتَوْكم بما اقترحتم عليّ من القربان، ثم لم تؤمنوا، فلو أجبتكم إليه لن تؤمنوا بي أيضاً؛ فإن مَنْ أقصته السوابق ـ فلو خاطَبَتْه الشمسُ بلسان فصيح، أو سجدت له الجبالُ رآها بلحظِ صحيح ـ لم يَبلغ العرفان في قلبه، وما ازداد إلا شكاً على شك.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾.

أي عادة الكفار تكذيب الرسل: وعلى هذا النحو درج سَلَفُهمْ، وبهديهم اقتدى خَلَفُهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾.

أي كأسُ الموت توضع على كفُ كلّ حيٍّ فمن تحلَّاها طيِّبَةً نفسه أوْرَثَتْهُ سُكْرَ الوَجْد، ومن تَجَرعَها على وجه التعبس، وقع في وهْدَةِ الرّدِّ، وَوُسِمَ بِكَيِّ الصَّدّ، ثم يوم القيامة: فمن أُجِير من النار وصل إلى الراحة الكبرى، ومن صُلِّيَ بالسعير وقع في المحنة الكبرى.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾: لأن ما هو آتٍ فقريبٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

كفاهم أكثر أسباب الضر بما أخبرهم عن حلولها بهم قبل الهجوم، وعرّفهم أن خير الأمْرَيْن لهم إيثار الصبر واختيار السكون تحت مجاري الأقدار.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾.

أخبر أنهم أبرموا عهودهم أن لا يزولوا عن وفائه، ولكنهم نقضوا أسباب الذِّمام

بما صاروا إليه من الكفران، ثم تبيَّن أنَّ ما اعتاضوا من ذهاب الدين من أعراض يسيرة لم يُبارَكْ لهم فيه.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

إن مَنْ باشر رؤيةَ الخلْق قلبُه، ولاحَظَهم بِسِرِّه فلا تظننَّ أنَّ عقوبتَهم مؤخرةٌ إلى يوم القيامة، بل ليسوا من العذاب ـ في الحال ـ بمفازة، وأيُّ عذابٍ أشدُّ من الردِّ إلى الخلْق والحجاب عن الحق؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الإشارة من هذه الآية ها هنا إلى غناه ـ سبحانه ـ عمَّا في الكون، وكيف يحتاج إليهم؟! ولكنهم لا يجدون عنه خَلَفاً، ولا عليه بَدَلاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

الآيات التي تعرِّف الحق سبحانه وتعالى بها إلى العوام هي التي في الأقطار من العبَر والآثار، والآيات التي تعرَّف بها إلى الخواص فالتي في أنفسهم. قال سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]؛ فالآيات الظاهرة توجِب علم اليقين، والآيات الباطنة توجِب عين اليقين.

والإشارة من اختلاف الليل والنهار إلى اختلاف ليالي العباد؛ فليالي أهل الوصلة قصيرة، وليالي أهل الفراق طويلة؛ فهذا يقول:

شهور ينقضين وما شعرنا ... بأنصافٍ لهن ولا سِرار

ويقول:

صباحك سكر والمساء خمار ... فنمت وأيام السرور قصار

والثاني يقول:

ليالي أقر الظاعنين[1] (...)[2] ... شَكَوْتَ وليلُ العاشقين طويلُ

وثالث ليس له خبر عن طول الليل ولا عن قِصَرِه فهو لِمَا غَلَبَ عليه يقول:

لستُ أدري أطال لَيْلِيَ أمْ لا؟ ... كيف يدري بذاك من يَتَقَلَّى؟!

لو تَفَرَّغْتُ لاستطالةِ لَيْلِي ... ورعَيْتُ النجوم كنتُ مُخِلَّا

(١) الظاعنين: (ج) ظاعن: السائرين والمرتحلين.

(٢) بياض في الأصل.

قوله تعالى: ﴿لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: أولو الألباب هم الذين صَحَتْ عقولُهم من سِكْر الغفلة. وأمارة مَنْ كان كذلك أن يكون نظرُه بالحق؛ فإذا نظر من الحقّ إلى الحقّ استقام نظره، وإذا نظر من الخَلْق إلى الحق انتكست نعمته، وانقلبت أفكاره مُورِّثَةً للشبهة.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا﴾ الآية.

استغرق الذكرُ جميعَ أوقاتهم؛ فإن قاموا فبذكره، وإن قعدوا أو ناموا أو سجدوا فجملة أحوالهم مستهلكة في حقائق الذكر، فيقومون بحق ذكره ويقعدون عن إخلاف أمره، ويقومون بصفاء الأحوال ويقعدون عن ملاحظتها والدعوى فيها[١].

ويذكرون الله قياماً على بساط الخدمة ثم يقعدون على بساط القربة.

ومَنْ لم يَسْلَمْ في بداية قيامه عن التقصير لم يسلم له قعودٌ في نهايته بوصف الحضور.

والذكر طريق الحق ـ سبحانه ـ فما سلك المريدون طريقاً أصحَّ وأوضح من طريق الذكر، وإن لم يكن فيه سوى قوله: «أنا جليس من ذكرني» لكان ذلك كافياً.

والذاكرون على أقسام، وذلك لتباين أحوالهم: فذكر يوجب قبض الذاكر لما يذكره من نَقْصٍ سَلَفَ له، أو قُبْحٍ حصل منه، فيمنعه خجله عن ذكره، فذلك ذكر قبض.

وذكر يوجب بسط الذاكر لما يجد من لذائذ الذكر ثم تقريب الحقّ إياه بجميل إقباله عليه.

وذاكر هو محو في شهود مذكوره؛ فالذكر يجري على لسانه عادةً، وقلبه مُصْطَلَمٌ فيما بدا له.

وذاكر هو محل الإجلال يأنف من ذكره ويستقذر وصفه، فكأنه لتصاغره عنه لا يريد أن يكون له في الدنيا والآخرة (ثناء) ولا بقاء، ولا كون ولا بهاء، قال قائلهم:

ما إن ذكرتك إلا همّ يلعنني ... قلبي وروحي وسرى عند ذكراكا
حتى كأنَّ رقيباً منك يهتف بي ... إياك ويحك والتذكار إياكا

والذكر عنوان الولاية، وبيان الوصلة، وتحقيق الإرادة، وعلامة صحة البداية، ودلالة صفاء النهاية، فليس وراء الذكر شيء، وجميع الخصال المحمودة راجعة إلى الذكر، ومُنْشَأَةٌ عن الذكر.

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص٢٢٣.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ﴾.

التفكر نعمة كل طالب، وثمرته الوصال بشرط العلم، فإذا سلم الذكر عن الشوائب ورد صاحبه على مناهل التحقيق، وإذا حصل الشهود والحضور سما صاحبه عن الفكر إلى حدود الذكر، فالذكر سرمد[١].

ثم فكر الزاهدين في فناء الدنيا وقلة وفائها لطلابها فيزدادون بالفكرة زهداً فيها.

وفكر العابدين في جميل الثواب فيزدادون نشاطاً عليه ورغبةً فيه.

وفكر العارفين في الآلاء والنعم فيزدادون محبةً للحق سبحانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

التسبيح يشير إلى سبح الأسرار في بحار التعظيم.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

من ابتليته في الآجل بالحرقة فقد أخزيته، ومن ابتليته بالفرقة في العاجل فقد أشقيته، ومن أوليته بيُمْنِ الوصله فقد آويته وأدنيته.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾.

يعني أَجبْنَا الداعي ولكن أنت الهادي، فلا تَكِلْنا إلينا، ولا ترفع ظلَّ عنايتك عَنّا.

والإيمان الدخول في مُوجِبات الأَمَان، وإنما يؤمِن بالحق من أَمَّنَه الحق، فأَمَانُ الحق للعبد ـ الذي هو إجارته ـ يوجِب إيمانَ العبدِ بالحق الذي هو تصديقه ومعرفته.

﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾: وهم المختصون بحقائق التوحيد، القائمون لله بشرائط التفريد، والواقفون مع الله بخصائص التجريد.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

حَقِّق لنا ما وعدتنا على ألسنة الوسائط من إكمال النُّعمى (....)[٢] وغفران كل ما سبق منا من متابعك الهوى.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ

(١) السرمد: الدائم الذي لا ينقطع. انظر الرسالة القشيرية ص٢٢٣.

(٢) بياض في الأصل.

وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾.

كيف لا يستجيب لهم وهو الذي لَقَّنَهُم الدعاء، وهو الذي ضمن لهم الإجابة، ووَعْدُه جميل الثواب على الدعاء زائدٌ على ما يدعون لأجْل الحوائج.

﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾: يعني الديار والمزار، وجميع المخالفين والموافقين من الأغيار.

﴿وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾: إلى مفارقة معاهدهم من مألوفاتهم.

﴿وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى﴾: عُيِّروا بالفقر والملام، وفتنوا بفنون المحن والآلام.

﴿وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟﴾: ذاقوا من اختلاف الأطوار الحلو والمر.

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾: يعني لنعطينَّهم فوق آمالهم وأكثر، مما استوجبوه بأعمالهم وأحوالهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

لا تتداخلنك تهمة بأنَّ لهم عندنا قدراً وقيمة إنما هي أيام قلائل وأنفاس معدودة، ثم بعدها حسرات مترادفة، وأحزان متضاعفة.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾.

الذين وسمناهم بذُلِّ الفرقة بئست حالتهم، والذين رفعوا قَدَماً لأجلنا فنعمت الحالة والزلفة؛ وصلوا إلى الثواب المقيم، وبقوا في الوصلة والنعيم، وما عند الله مما ادَّخرنا لهم خيرٌ مما أمَّلوه باختيارهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

يريد منْ ساعَدَتْهم القسمةُ بالحسنى فهم مع أولياء الله نعمةً كما كانوا معهم قسمةً.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

الصبر فيما تفرد به العبد، والمصابرة مع العدو.

والرباط نوع من الصبر ولكن على وجه مخصوص.

ويقال أول الصبر التصبر، ثم الصبر ثم المصابرة ثم الاصطبار وهو نهاية[1].

ويقال اصبروا على الطاعات وعن المخالفات، وتصابروا في ترك الهوى والشهوات، وقطع المنى والعلاقات، ورابطوا بالاستقامة في الصحبة في عموم الأوقات والحالات.

ويقال اصبروا بنفوسكم وصابروا بقلوبكم، ورابطوا بأسراركم.

ويقال اصبروا على ملاحظة الثواب، وصابروا على ابتغاء القربة، ورابطوا في محل الدنوّ والزلفة ـ على شهود الجمال والعِزَّة.

والصبر مُرٌّ مَذاقُه إذا كان العبد يتحسَّاه على الغيبة، وهو لذيذٌ طعمُه إذا شربه على الشهود والرؤية.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: الفَلاحُ الظَّفَرُ بالبُغْية، وهِمَّتُهم اليوم الظفر بنفوسهم، فعند ذلك يتم خلاصهم، وإذا ظفروا بنفوسهم ذبحوها بسيوف المجاهدة، وصلبوها على عيدان المكابدة، وبعد فنائهم عنها يحصل بقاؤهم بالله.

(١) انظر الرسالة القشيرية ص١٨٣ ـ ١٨٩ (الصبر).

السورة التي يذكر فيها النساء

بسم الله الرحمن الرحيم

اختلفوا في الاسم عن ماذا اشْتُقَّ؛ فمنهم من قال إنه مشتق من السموّ وهو العلوّ. ومنهم من قال إنه مشتق من السِّمَة وهي الكيَّة.

وكلاهما في الإشارة: فَمنْ قال إنه مشتق من السمو فهو اسمٌ مَنْ ذكَرَه سَمَتْ رتبتُه، ومَن عَرَفَه سَمَتْ حالتُه، ومن صَحِبَه سَمَتْ هِمَّتُه؛ فسمو الرتبة يوجب وفور المثوبات والمَبَارّ، وسمو الحالة يوجب ظهور الأنوار في الأسرار، وسمو الهمة يوجب التحرز عن رِقّ الأغبار.

ومن قال أصله من السِّمَة فهو اسمٌ مَنْ قصَدَه وُسِمَ بِسِمَةِ العبادة، ومن صحبه وسم بسمة الإرادة، ومن أحبَّه وسم بسمة الخواص، ومن عرفه وسم بسمة الاختصاص. فسِمَةُ العبادةِ توجب هيبة النار أَن ترمي صاحبها بشررها، وسمة الإرادة توجب حشمة الجِنان أن تطمع في استرقاق صاحبها - مع شرف خطرها، وسمة الخواص توجب سقوط العُجْبِ من استحقاق القربة للماء والطينة على الجملة، وسمة الاختصاص توجب امتحاءَ الحكم عند استيلاء سلطان الحقيقة.

ويقال اسمٌ مَنْ واصله سما عنده (عن) الأوهام قَدْرُه (سبحانه). ومن فاصله وُسِمَ بِكيِّ الفُرقة قلبُه.

وعلى هذه الجملة يدل اسمه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

الناس اسم جنس، والاشتقاق فيه غير قوي. وقيل سمي الإنس إنساً لظهوره[1] فعلى هذه الإشارة: يا مَنْ ظهرتم عن كتم العَدَم بحكم تكليفي، ثم خصصتُ مَنْ

(١) الإنس: البشر وواحده إنسي، والجمع أناسي، وهنا ربما قصد القشيري إلى ذلك حتى يقابل الجن: وقد خلقهم الله من مارج من نار، وقد سموا بذلك لاستتارهم واختفائهم عن الأبصار.

شئتُ منكم بتشريفي، وحرمتُ من شئت منكم هدايتي وتعريفي، ونقلتكم إلى ما شئتُ بل أوصلتكم إلى ما شئت بحكم تصريفي.

ويقال لم أُظْهِرْ منَ العَدَمِ أمثالكم، ولم أُظْهِرْ على أحدٍ ما أَظْهَرْتُ عليكم من أحوالكم.

ويقال سمِّيتَ إنساناً لنسيانك، فإن نسيتني فلا شيء أَخَس منك، وإنْ نسيت ذكري فلا أحد أَحَط منك.

ويقا من نَسِيَ الحق فلا غاية لمحنته، ومن نسي الخَلْقَ فلا نهاية لعلوِّ حالته.

ويقال يقول للمُذْنِبين، يا مَنْ نسِيتَ عهدي، ورفضتَ ودي، وتجاوزت حدِّي حانَ لك أن ترجع إلى بابي، لتستحقَّ لطفي وإيجابي. ويقول للعارفين يا مَنْ نسيت فينا حظَّكَ، وصُتَ عن غيرنا لَحْظَكَ ولَفْظَك ـ لقد عظُم علينا حَقُّك، وَوَجَبَ لدينا نصرُك، وجلَّ عندنا قَدْرُك.

ويقال يا من أَنِستَ بنسيم قربي، واستروحتَ إلى شهود وجهي، واعتززت بجلال قَدْري ـ فأنت أجلُّ عبادي عندي.

قوله: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾: التقوى جماع الطاعات، وأوله ترك الشِّرْكِ وآخره اتقاء كل غير، وأولُ الأغيار لك نفسُكَ، ومَنْ اتَّقَى نفسه وقف مع الله بلا مقام ولا شهود حال، و (وقف) لله.. لا لشهود حظٍّ في الدنيا والعقبى.

قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾: وهو آدم عليه السلام، وإذا كنا مخلوقين منه وهو مخلوق باليد فنحن أيضاً كذلك، لمَّا ظهرت مزية آدم عليه السلام به على جميع المخلوقين والمخلوقات فكذلك وصفُنا، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ [البيّنة: ٧].

ولفظ «النفس» للعموم والعموم يوجب الاستغراق.

قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾: حكَمَ الحقُّ ـ سبحانه ـ بمساكنة الخَلْق مع الخَلق لبقاء النسل، ولردِّ المِثْل إلى المِثْل فربَطَ الشكلَ بالشكلِ.

قوله: ﴿وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾: تعرَّف إلى العقلاء على كمال القدرة بما ألاح من براهين الربوبية ودلالات الحكمة؛ حيث خَلق جميع هذا الخَلق من نسلِ شخصٍ واحدٍ، على اختلاف هيئتهم، وتفاوت صورهم، وتباين أخلاقهم، وإن اثنين منهم لا يتشابهان، فلكلٍ وجه في الصورة والخُلق، والهمة والحالة، فسبحان من لا حدَّ لمقدوراته ولا غاية لمعلوماته.

ثم قال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ تكرير الأمر بالتقوى يدلُّ على تأكيد حكمه.

وقوله: ﴿تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾: أي اتقوا الأرحام أن تقطعوها، فَمَنْ قَطَعَ الرحمَ قُطِع، ومَنْ وَصَلَها وَصَل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾: مطلعاً شهيداً، يعدُ عليك أنفاسكَ، ويرى حواسَك، وهو مُتَوَّلٍ خطراتِك، ومنشىءُ حركاتِك وسكناتِك. ومَنْ عَلِمَ أنه رقيب عليه فبالحريِّ أن يستحيَ منه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾.

مَنْ أُقيم بمحلِّ الرعاية فجاء على رعيَّتِه فَخَصْمُه ربُّه؛ فإنه ـ سبحانه ـ ينتقم لعباده ما لا ينتقم لنفسه. فَوَلِيُّ اليتيم إنْ أَنْصفَ وأَحْسَنَ فحقُّه على الله، وإنْ أَساء وتعدَّى فَخَصْمُه اللّهُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾.

أباح الله للرجال الأحرار التزوج بأربع في حالة واحدة، وأوجب العدل بينهن، فيجب على العبد أن يراعي الواجبَ فإنْ عَلِمَ أنه يقوم بحق هذا الواجب آثر هذا المُباح، وإنْ عَلِم أنه يقصِّر في الواجب فلا يتعرَّض لهذا المباح، فإنَّ الواجبَ مسؤولٌ عنه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾.

دلَّ هذا على أن طعامَ الفتيان[١] والأسخياء مريء لأنهم لا يُطعِمون إلا عن طيب نَفْسٍ، وطعام البخلاء رديء لأنهم يرون أنفسهم، وإنما يُطعِمون عن تكلّف لا عن طيبِ نَفْس. قال ﷺ: «طعامُ السخيِّ دواء وطعام البخيل داء»[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

السَّفيه من يمنعك عن الحقِّ، ويشغلك عن الربِّ.

والسَّفيه من العيال والأولاد من تؤثر حظوظَهم على حقوق الله تعالى.

قوله: ﴿ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾: حفظ التجمل في الحال أجدى عليكم من التعرض للتبذل والسؤال، والكدية[٣] والاحتيال. وإنما يكون البذل خيراً من الإمساك

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص٢٢٦ ـ ٢٣١ في حديث القشيري عن الفتوة.

(٢) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ١٧٥)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة ١٠٨).

(٣) الكدية: حرفة السائل المُلِحّ (الشحاذة).

عند تَحرُّرِ القلبِ والثقةِ بالصبر. فأمّا على نية الكدية وأن تجعل نفسك وعيالك كَلًّا على الناس فَحِفْظُك ما جعله الله كفايةً لنفسك أَوْلى، ثم الجود بفاضل كفايتك.

قوله: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾: إذا كان ذات يدك يتسع لكفاية يومهم ويَفْضُل فلا تدّخره عمّا تدعو إليه حاجتهم معلومك خشيةَ فقرٍ في الغد، فإنْ ضاقت يدُك عن الإنفاق فلا يَتَّسِعَنَّ لسانك بالقبيح من المقال.

ويقال إذا دَعَتْكَ نَفْسُك إلى الإنفاق في الباطل فأنت أسفه السفهاء فلا تُطِعْ نَفْسَكَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾.

إيناس الرشد العفة والديانة، والسخاء والصيانة، وصحبة الشيوخ، والحرص على مشاهدة الخير، وأداء العبادات على قضية الأمر.

ويقال الرشيد من اهتدى إلى ربّه، وعندما تسنح له (حاجة) من حوائجه لا يتّكل على حَوْله وقُوَّتِه، وتدبيره واختياره.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾.

حكم الميراث لا يختلف بالفضل والمنقبة، ولا يتفاوت بالعيب والنقص والذنب؛ فلو مات رجلٌ وخلف ابنين تساويا في الاستحقاق وإنْ كان أحدهما براً تقياً والآخر فاجراً عَصِيّاً، فلا للتقي زيادة لتقواه، ولا للفاجر بخس لفجوره، والمعنى فيه أن الميراث ابتداء عطيّةٍ من قِبَل الله، فيتساوى فيه البر والفاجر. كذلك حكم الإيمان ابتداء عطيةٌ للمسلمين: قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ﴾ [فاطر: ٣٢]، ثم قال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم...﴾ [فاطر: ٣٢] الآية.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

يريد إذا حضر قسمة المُيراث ذوو السهمان والمستحقون، وحضَرَ من لا نصيب لهم في الميراث من المساكين فلا تحرموهم من ذلك. فإن كان المستحقّ مُوَلّى عليه، فَعِدوهم وعداً جميلاً وقولوا: «إذا بلغ الصبي قلنا له حتى يعطيك شيئاً» وهذا معنى قوله: ﴿وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾. وفي هذا إشارة لطيفة للمذنبين إذا حضروا لعرصته غداً، والحق سبحانه يغفر للمطيعين ويعطيهم ثواب أعمالهم، فمن كان منكم من فقراء

المسلمين لا يحرمهم الغفران إن شاء الله بعدما كانوا من أهل الإيمان، وكذلك يوم القسمة لم تكن حاضراً، ولا لَكَ استحقاق سابق فبفضله ما أهَّلَكَ لمعرفته مع علمه بما يحصل منك في مستأنف أحوالك من زلتك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾.

بَيَّنَ في هذه الآية أن الذي ينبغي للمسلم أن يدخره لعياله التقوى والصلاح لا المال؛ لأنه لم يقل فليجمعوا المال وليكثروا لهم العقار وليخلفوا الأثاث بل قال: ﴿فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فإنه يتولى الصالحين.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾.

إنما تولَّى الحق سبحانه خصيمة اليتيم، لأنه لا أحدَ لليتيم غيرُه، وكلُّ من وَكلَ أمره إليه فتبرأ من حوله وقوته فالحق سبحانه ينتقم له بما لا ينتقم لنفسه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾.

الوصية ها هنا بمعنى الأمر، فإنه سبحانه جعل الميراث بين الورثة مستحقاً بوجهين:

١ ـ الفرض ٢ ـ التعصيب، والتعصيب أقوى من الفرض لأن العَصَبَةَ قد تستغرق جميع المال أما أكثر الفروض فلا يزيد على الثلثين، ثم إن القسمة تبدأ بأصحاب الفروض وهم أضعف استحقاقاً، ثم العَصَبَة وهم أقوى استحقاقاً. قال ﷺ:

«ما أبْقتْ الفرائض فلأَوْلَى عَصَبَةِ ذَكَر»[1] كذلك أبداً سنته، كما في قوله تعالى:

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢] أعطاهم الكتاب بلفظ الميراث ثم قدَّم الظالم على السابق، وهو أضعف استحقاقاً إظهاراً للكرم مع الظالم لأنه مُنكسِر القلب ولا يحتمل وقته طول المدافعة.

وقوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾. لو كان الأمر بالقياس لكانت الأنثى بالتفضيل أَوْلَى لضعفها، ولعجزها عن الحراك، ولكنَّ حُكْمَه ـ سبحانه ـ غيرُ معلَّل.

(١) أخرجه القرطبي في (التفسير ٥/ ٧١ ـ ١٦٧)، وصاحب (شرح معاني الآثار ٤/ ٣٩٠).

قوله جلّ ذكره: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

الأبناء ينفعونكم بالخدمة، والآباء بالرحمة؛ الآباء في حال ضعفِك في بداية عمرك، والأبناء في حال ضعفك في نهاية عمرك.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

الإشارة في ثبوت الميراث للأقربين من الورثة بالنَّسب؛ والسبب أنَّ الميت إذا مات تحمَّل القريبُ أحزانَه فعوَّض اللَّهُ الوارثَ على ما يقاسيه ويخامر قلبه من التوجُّع مالَ الموروث.. وكذا سُنَّةُ ـ سبحانه ـ التعويضُ على مقاساة الأذى ـ جوداً منه لا وجوباً عليه[1] ـ كما توَّهم قوم. وكلُّ مَنْ كان أقربَ نسباً أو أقوى سبباً من الميت كان أكثر استحقاقاً لميراثه، وفي معناه أنشدوا:

وما بات مطوياً على أريحية[2] (.... ...) عقب النوى موت الفتى ظل مغرما

قوله جلّ ذكره: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

حدوده: أوامره ونواهيه، وما تعبَّد به عباده.

وأصل العبودية حفظ الحدود، وصون العهود، ومَنْ حَفظَ حَدَّه لم يُصِبْه مكروه ولا آفة، وأصلُ كلِّ بلاء مجاوزة الحدود.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

وإنما هما عقوبتان: معجلة ومؤجلة، ويقترن بهما جميعاً الذُّلُّ؛ فلو اجتهد الخلائق على إذلال المعاصي بمثل الذل الذي يلحقهم بارتكاب المعصية لم يقدموا عليها: لذلك قال قائلهم: من بات مُلماً بذنب أصبح وعليه مذلته، فقلت ومن أصبح مُبرّاً ببِرِ ظلَّ وعليه مهابته.

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص٩١ ـ ٩٧ في حديث القشيري عن التوبة.

(٢) الأريحية: الارتياح للكرم والمعروف.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾.

إنما اعتبر في ثبوت الفاحشة ـ التي هي الزنا ـ زيادة الشهود إسبالاً لِسَتْرِ الكَرمِ على إجرامِ العِباد، فإنَّ إقامة الشهود ـ على الوجه الذي في الشرع لإثبات تلك الحالة ـ كالْمُتَعَذِّر.

وفي قوله ـ ﷺ ـ لمَا عِز لما قال له: يا رسول الله ـ صلوات الله عليك ـ إنّي زنيتُ فَطَهِّرْني. فقال: لعلَّك قَبَّلتَ[1].. ثم قال في بعض المرات: «استنكهوه»[2].

ففي هذا أقوى دليل لما ذكرت من إسباله الستر على الأعمال القبيحة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

الأمر بفنون العقوبات لهم على فعل ذلك أبلغ شيءٍ في الردع والمنع منه بالرفع، لعلّ العبد يحذر ذلك فلا يستحق التعذيب الأعظم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

لا استغفار مع الإصرار: فإن التوبة مع غير إقلاعٍ سِمَةُ الكذَّابين.

وقوله: ﴿ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾: يعني عَمِلَ عَمِلَ الجُهّال.

وذنب كل أحدٍ يليق بحاله، فالخواص ذنوبهم حسبانهم أنهم بطاعاتهم يستوجبون محلاً وكرامة، وهذا وَهَنٌ في المكانة؛ إذ لا وسيلة إليه إلا به.

قوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾: على لسان أهل العلم: قبل الموت، وعلى لسان المعاملة: قبل أن تتعود النفس ذلك فيصير لها عادة، قال قائلهم:

قلتُ للنَّفسِ إنْ أردتِ رجوعاً فارجعي قبل أنْ يُسدَّ الطريقُ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ١/ ٢٣٨، ٢٨٩)، والطبراني في (المعجم الكبير ١١/ ٣٣٨) والدارقطني في (السنن ٣/ ١٢١)، والقرطبي في (التفسير ١٩/ ١٠٥).

(٢) أخرجه الهيثمي في (مجمع الزوائد ٦/ ٢٧٩).

استنكهه: شم رائحة فمه.

يعني إذا كُشِف الغطاءُ وصارت المعارف ضرورية(١) أُغلِقَ بابُ التوبة؛ فإن مِنْ شرط التكليف أن يكون الإيمان غيبياً. ثم إن في هذه الطريقة إذا عُرِفَ بالخيانة لا يشم بعده حقيقة الصدق. قال داود ـ عليه السلام ـ في آخر بكائه لما قال الله تعالى لِمَ تبكي يا داود، وقد غفرت لك وأرضيت خصمك وقبلت توبتك؟

فقال: إلهي، الوقتُ الذي كان بي رُدَّه إليَّ.

فقال: هيهات يا داود، ذاك وُدٌّ قد مضى!!

وفي معناه أنشدوا:

فَخَلِّ سبيلَ العين بعدك للبكا فليس لأيام الصفاءِ رجوعُ

قوله جلّ ذكره: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

التلبيسُ على المستضعفين، والتدليسُ على أهل السلامة والوداعة من المسلمين ـ غيرُ محمودينَ عند الله. فمن تعاطَ ذلك انتقم الله منه، ولم يبارِك له فيما يختزل من أموال الناس بالباطل والاحتيال. ومن استصغر خصمه في الله فأهون ما يعاقبه الله به أنْ يَحْرِمَه الوصولَ إلى ما يأمل من محبوبه.

وقوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴾: أي بتعاليم الدين والتأدب بأخلاق المسلمين وحُسْنِ الصحبة على كراهة النفس، وأن تحتمل أذاهن ولا تحملهن كلف خدمتك، وتتعامى عن مواضع خجلتهن.

قوله: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا . . .﴾ كل ما كان على نفسك أشقَّ كانت عاقبته أهْنأَ وأَمْرَأَ.

واعلم أن الحقَّ سبحانه لم يُطْلِعْ أحداً على غَيْبِه، فأكثر ما يعافه الإنسان قد تكون الخيرة فيه أتم. وقد حكم الله ـ سبحانه ـ بأن مخالفة النفس توصل صاحبها إلى أعلى المنازل، وبعكس ذلك موافقتها، كما أن مخالفة القلوب توجب عمى البصيرة، وبعكس ذلك موافقتها.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾.

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص٣٠٠.

يعلمهم حسنَ العهد ونعتَ الكرم في العِشْرة، فيقول لا تجمعْ الفرقةَ واستردادَ المال عليها، فإن ذلك تَرْكُ الكرم؛ فإنْ خَوَّلْتَ واحدة مالاً كثيراً ثم جفوتها بالفراق فما آتيتها يَسيرٌ في جنب ما أَذَقْتَها من الفراق.

قوله: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ....﴾: يعني أن للصحبة السالفة حرمة أكيدة، فقفوا عند مراعاة الذمام، وأوفوا بموجب الميثاق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾.

تشير الآية إلى حفظ الذمام، والوقوف على حدّ الاحترام، فإن السَّجيَّةَ تتداخلها الأَنَفةُ من أن ينكح فِراشَه غيرُه، فنهى الأبناء عن تخطي حقوق الآباء في استفراش منكوحة الأب.

قوله جلّ ذكره: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

تكلُّفُ انتزاع المعاني التي لأجلها حصل هذا التحريم محالٌ من الأمر؛ لأن الشرعَ غيرُ مُعَلَّلٍ، بل الحق تعالى حرَّم ما شاء على من شاء، وكذلك الإباحة، ولا عِلَّةَ للشرائع بحالٍ، ولو كانت المحرَّماتُ من هؤلاء محلَّلاتٍ [محرمات](1) لكان ذلك سائغاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةًۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

إذا حافظت الحدود، وراعيت العهود، وحصل التراضي بين النساء بحكم الشرع فما لا يكون فيه للخلق خصيمة، ولا من الحق سبحانه منه تبِعة، فذلك مباحٌ طلقٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُمْۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ

---

(١) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

الرخص جعلت للمستضعفين، فأما الأقوياء فأمرهم الجِدّ، والأخذ بالاحتياط والتضييق؛ إذ لا شغل لهم سوى القيام بحق الحق، فإن كان أمر الظاهر يشغلهم عن مراعاة القلوب فالأخذ في الأمور الظاهرة بالسهولة والأخف أوْلى من الاستقصاء فيما يمنع من مراعاة السر، لأنه ترك بعض الأمور لما هو الأهم والأجَلُّ، فمن نزلت درجته عن الأخذ بالأوثق والأحوط فمباح له الانحدار إلى وصف الترخص[1].

ثم قال في آخر الآية: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: يعني على مقاساة ما فيه الشدة، وفي هذا نوع استمالة للعبيد حيث لم يقل اصبروا بل قال: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

لما عرّف النبي ـ ﷺ ـ وأمّته أخبار مَنْ مضى من الأمم، وما عملوا، وما عاملهم به انتظروا ما الذي يفعل بهم؛ فإن فيهم أيضاً من ارتكب ما لا يجوز، فقالوا: ليت شِعْرنا بأيّ نوع يعاملنا... أبا لخسف أو بالمسخ[2] أو بالعذاب أو بماذا؟

فقال تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ نعرّفكم ما الذي عملنا بهم.

﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أمّا أنتم فأتوب عليكم، أمّا من تقدّم فلقد دمّرتُ عليهم.

ويقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾: أي يكاشفكم بأسراره فيظهر لكم ما خفي على غيركم.

ويقال يريد الله ليبيِّن لكم انفرادَه ـ سبحانه ـ بالإيجاد والإبداع، وأنه ليس لأحد شيء.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ طريقة الأنبياء والأولياء وهو التفويض والرضاء، والاستسلام للحكم والقضاء.

وقيل: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي يتقبَّلُ توبتكم بعدما خلقَ توبتكم، ثم يُثِيبُكُم على ما خلق لكم من توبتكم.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾.

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص٣٨٠ في حديثه عن الوصية للمريدين.

(٢) الخسف: الظلم والإذلال. والمسخ: تحويل صورة إلى ما هو أقبح منها.

عزل بهذا الحديث حديث الأولين والآخرين.

ومن أراد اللَّهُ توبتَه فلا يُشمِتُ به عدوًّا، ولا يناله في الدارين سوء.

﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾: إرادتهم منكوسة، وهي عند إرادة الحق ـ سبحانه ـ ضائعة مردودة.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ﴾: يعني ثقل الأوزار بمواترة الأوراد إلى قلوبكم، ويقال يريد الله أن يخفف عنكم مقاساة المجاهدات بما يلج لقلوبكم من أنوار المشاهدات.

ويقال يريد الله أن يخفف عنكم أتعاب الخدمة بحلاوة الطاعات.

ويقال يخفف عنكم كلف الأمانة بحملها عنكم.

ويقال يخفف عنكم أتعاب الطلب بروح الوصول.

﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾: وصف بهذا فقرهم وضُرّهم، و(...)[1] بها عذرهم.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

كل نفقة كانت لغير الله فهي أكل مالٍ بالباطل.

ويقال القبض إذا كانَ على غفلةٍ، والبذل إذا لم يكن بمشهد الحقيقة، فكل ذلك باطل، ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْۚ﴾: يعني بارتكاب الذنوب، ويقال تعريضها لمساخطته سبحانه. ويقال بنظركم إليها وملاحظتكم إياها.

ويقال باستحسانكم شيئاً منها بإيثارها دون رضاء الحق.

ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فإنَّا لا نُخليه من عقوبة شديدة، وهو أن نَكِلَها إلى صاحبها، ونلقي حبْلَها على غاربها.

قوله جل ذكره: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾.

الكبائر ـ على لسان العلم ـ ها هنا الشِّرْكُ بالله، وعلى بيان الإشارة أيضاً الشِّرْكُ الخَفِيّ. ومن جملة ذلك ملاحظة الخلق، واستحلاء قبولهم، والتودد إليهم، والإغماض على حق الله بسببهم.

---

(١) بياض في الأصل.

ويقال إذا سلم العهد فما حصل من مجاوزة الحد فهو بعيد عن التكفير.

ويقال أكبر الكبائر إثباتُك نَفسَك فإذا شاهدت نَفيها تخلَّصْتَ من أسر المحن.

﴿وَنُدْخِلْكُم﴾ في أموركم ﴿مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ إدخالاً حسناً لا ترون منكم دخولكم ولا خروجكم وإنما ترون المُصَرِّفَ لكم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

لسان المعاملة أن الأمر بالتعني لا بالتمني، ولسان التوحيد أن الأمر بالحُكْم والقضاء لا بالإرادة والمنى. ويقال اسلكوا سبيل من تقدَّمكم في قيامكم بحق الله، ولا تتعرضوا لنَيْلِ ما خُصُّوا به من فضل الله. قوموا بحقِّ مولاكم ولا تقوموا بمتابعة هواكم واختيار مناكم.

ويقال لا تتمنوا مقام السادة دون أن تسلكوا سُبُلَهُم، وتلازموا سيرهم، وتعملوا عملهم.. فإن ذلك جَوْرٌ من الظن.

ويقال: كُن طالب حقوقه لا طالب نصيبك على أي وجه شئت: دنيا وآخرة (وإلَّا)[1] أشركت في توحيدك من حيث لم تشعر.

ويقال لا تتمنَّ مقامات الرجال فإنَّ لكل مقام أهلاً عند الله، وهم معدودون؛ فما لم يمت واحد منهم لا يورثَ مكانه غيرُه، قال تعالى: ﴿جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ [الأنعام: ١٦٥، وفاطر: ٣٩] والخليفة من يخلف من تقدَّمه، فإذا تمنَّيْتَ مقام وليِّ من الأولياء فكأنَّكَ استعجلتَ وفاتَه؛ على الجملة تمنيت أو على التفصيل، وذلك غير مُسَلَّم.

ويقال خمودُك تحت جريان حكمه ـ على ما سبق به اختياره ـ أحْظَى لكَ من تعرضك لوجود مناك، إذ قد يكون حتفك في مُنيتك.

ويقال مَنْ لم يؤدّب ظاهرهُ بفنون المعاملات، ولم يهذِّب باطنه بوجوه المنازلات فلا ينبغي أن يتصدَّى لنيل المواصلات، وهيهات هيهات متى يكون ذلك!

﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾: الفرق بين التمني وبين السؤال من فضله من وجوه: يكون التمني للشيء مع غفلتك عن ربك؛ فتتمنى بقلبك وجود ذلك الشيء من غير توقعه من الله، فإذا سألت الله فلا محالة تذكره، والآخر أن السائل لا يرى استحقاق نفسه فيحْمِلُه صِدْقُ الإرادة على التملُّق والتضرع، والتمني يخلو عن هذه الجملة.

والآخر أن الله نهى عن تمني ما فضل الله به غيرك إذ معناه أن يسلب صاحبك ما

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

أعطاه ويعطيك إياه، وأباح السؤال من فضله بأن يعطيك مثل ما أعطى صاحبك.

ويقال لا تتمنَّ العطاء وسَلِ الله أن يعطيك من فضله الرضا بِفَقْدِ العطاء وذلك أتمُّ من العطاء، فإنَّ التَّحرُّر من رقِّ الأشياء أتمُّ مِنْ تملُّكِها.

قوله جل ذكره: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾.

جعل المعاقدة في ابتداء الإسلام نظيرةَ النَّسَبِ في ثبوت الميراث بها فَنَسَخَ حكم الميراث وبقي حكم الاحترام، فإذا كانت المعاقدة بين الناس بهذه المثابة فما ظنُّك بالمعاهدة مع الله؟ قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]. وأنشدوا:

إنَّ الأُلى ماتوا على دين الهوى ... وجدوا المنيَّةَ منهلاً معسولا

قوله جل ذكره: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾.

خصَّ الرجال بالقوة فزيد بالحمل عليهم؛ فالحمل على حسب القوة. والعبرة بالقلوب والهمم لا بالنفوس والجثث.

قوله: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾: أي ارتقوا في تهذيبهن بالتدريج والرفق، وإنْ صَلُحَ الأمر بالوعظ فلا تستعمل العصا بالضرب، فالآية تتضمن آداب العِشْرة.

ثم قال: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾: يعني إن وَقَفَتْ في الحال عن سوء العشرة (. . . . .)[1] ورجعت إلى الطاعة فلا تَنْتَقِمْ منها عمَّا سَلَفَ، ولا تتمنع من قبول عذرها والتأبِّي عليها.

يقال: ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ بمجاوزتك عن مقدار ما تستوجب من نقمتك.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾.

يقال لك عليها الطاعة بالبدن، فأمَّا المحبة والميل إليك بالقلب فذلك إلى الله، فلا

---

(١) بياض في الأصل.

تكلِّفها ما لا يرزقك الله منها؛ فإن القلوب بقدرة الله، يُحبّبُ إليها من يشاء، ويُبَغِّضُ إليها من يشاء.

ويقال: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ أي لا تنسَ وفاءها في الماضي بنادر جفاءٍ يبدو في الحال فربما يعود الأمر إلى الجميل.

قوله جل ذكره: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

قوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾: العبودية معانقة الأمر ومفارقة الزجر.

﴿وَلَا تُشْرِكُوا﴾ الشِّركُ جَلِيُّه اعتقادُ معبودٍ سواه، وخفِيُّه: ملاحظةُ موجود سواه، والتوحيد أن تعرف أنَّ الحادثاتِ كلَّها حاصلةٌ بالله، قائمةٌ به؛ فهو مجريها ومنشيها ومبقيها، وليس لأحد ذوة ولا شظية[١] ولا سينة ولا شمة من الإيجاد والإبداع.

ودقائق الرياء وخفايا المصانعات وكوامن الإعجاب والعمل على رؤية الخلْق، واستحلاء مدحهم والذبول تحت ردّهم وذمِّهم ـ كلُّ ذلك من الشِّرْكِ الخَفِّي.

قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ﴾ الإحسان إلى الوالدين على وجه التدريج إلى صحبة فإنك أُمِرْتَ أولاً بحقوقهما لأنهما من جِنْسِك ومنها تربيتك، ومنهما تصل إلى استحقاق زيادتك وتتحقق بمعرفتك. وإذا صَلُحْتَ للصحبة والعِشْرة مع ذوي القربى والفقراء والمساكين واليتامى ومن في طبقتهم ـ رُقِّيتَ عن ذلك إلى استيجاب صحبته ـ سبحانه.

قوله: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾... الآية من جيرانك (....)[٢] فلا تؤذهما بعصيانك، وراعِ حقهما بما تُولِي عليهما من إحسانك.

فإذا كان جار دارك مستوجباً للإحسان إليه ومراعاة حقه فجارُ نفسِك ـ وهو قلبك ـ أَوْلى بألا تضيّعه ولا تَغْفَل عنه، ولا تُمكِّنَ حلول الخواطر الرديئة به.

وإذا كان جار نفسك هذا حكمه فجار قلبك ـ وهو روحك ـ أَوْلى أن تحامي على حقِّها، ولا تُمكِّن لما يخالفها من مساكنتها ومجاورتها. وجار روحك ـ وهو سِرُّك ـ أَوْلى أن ترعى حقّه، فلا تمكنه من الغيبة عن أوطان الشهود على دوام الساعات.

(١) الشظية: جمع شظايا، وهي فلقة العود أو العظم ونحوها.
(٢) بياض في الأصل.

قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] الإشارة منه غير ملتبسة على قلوب ذوي التحقيق.

قوله: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾... الآية البخل على لسان العلم منع الواجب، وعلى بيان الإشارة ترك الإيثار في زمان الاضطرار. وأمرُ الناسِ بالبخل معناه مَنْعُهم عن مطالبات الحقائق في معرِض الشفقة عليهم بموجب الشرع، وبيان هذا أن يقع بلسانك الانسلاخ عن العلائق وحذف فضولات الحالة فَمَن نصحه بأن يقول: «ربما لا تَقْوَى على هذا، ولأن تكون مع معلومك الحلال أولى بأن تصير مكدياً، وربما تخرج إلى سؤال الناس وأن تكون كَلّا على المسلمين ـ ويَرْوِي له في هذا الباب الأخبار والآثار أمثال هذا...» فلولا بُخْلُه المستكن في قلبه لأعانه بهمته فيما يسنح لقلبه بَدَلَ أن يمنع عنه ما (يجب أن) يقول في معرض النصح. ومن كانت هذه صفته أدركه عاجل المقت حيث أطفأ شرر إرادة ذلك المُسْتَضْعَفِ بما هو عند نفسه أنه نصيحة وشفقة في الشرع.

وقوله: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾: إن كان الله أغناهم عن طلب الفضيلة بما خوَّلهم وآتاهم كتموا ذلك طمعاً في الزيادة على غير وجه الإذن.

ويقال يكتمون ما آتاهم الله من فضله إذا سألهم مريدٌ شيئاً عندهم فيه نجاته، وضنوا عليه بإرشاده.

ويقال بخل الأغنياء بمنع النعمة، وبخْلُ الفقراء بمنع الهمة.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْءَاخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾.

أدخل هؤلاء أيضاً تحت قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ فعقوبتهم في العاجل أنهم ليسوا من جملة مُحِبِّيه، وكفى بذلك محنة.

والمختال الذي ينظر إلى نفسه والمرائي الذي ينظر إلى أبناء جنسه، وكلاهما مُسَوَّمان بالشرك الخفيِّ والله لا يحب المشركين. والفخور من الإبل كالمصراة من الغنم وهو الذي سُدَّت أخلافه ليجتمع فيها الدر[1]، فيتوهم المشتري أن جميع ذلك معتاد لها وليس كذلك، فكذلك الذي يرى من نفسه حالاً ورتبة وهو في ذلك مدعٍ وهو الفخور، والله لا يحبه، وكذلك المرائي الذي ينفق ماله رئاء الناس.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾.

---

(١) الدَّر: اللَّبن.

ليس في إيمانهم بالله عليهم مشقة، بل لو آمنوا لوصلوا إلى عِزّ الدنيا والآخرة، ولا يحملهم على الإعراض عنه إلا قلة الوفاء والحرمة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

لا ينقص من ثوابهم شيئاً بل يبتدئهم ـ من غير استحقاقهم ـ بفضله، ويضاعف أجورَهم على أعمالهم؛ فأمَّا الظلم فمحالٌ تقديره في وصفه لأن الخلقَ خلْقُه، والمُلْكَ ملكه. والظالم من يعتدي حداً رُسِمَ له ـ وهو في وصفه مُحال لِعزِّه في جلال قدره.

قوله جل ذكره: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾.

إذا كان الرسول ـ ﷺ ـ الشهيد على أمته، وهو الشفيع لهم، فإنما يشهد بما يُبْقي للشفاعة موضِعَها.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾... الآية: يحصلون على ندم ثم لا ينفعهم، ويعضون على أناملهم ثم لا يسكن عنهم جزعهم، فيتقنعون بِخِمار[1] الذُّل، وينقلبون إلى أوطان المحن والضر.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

النَّهيُ عن موجب السكر من الشراب لا من الصلاة، أي لا تصادفنكم الصلاة وأنتم بصفة السُّكر، أي امتنعوا عن شُرْبِ ما يُسْكِر فإنكم إن شربتم سكرتم، ثم إذا صادفكم الصلاة على تلك الحالة لا تُقْبَل منكم صلاتكم.

والسُّكر ذهاب العقل والاستشعار، ولا تَصِحُّ معه المناجاة مع الحق.

المُصَلِّي يناجي ربَّه؛ فكلُّ ما أوجب للقلب الذهول عن الله فهو ملحق بهذا من حيث الإشارة؛ ولأجل هذه الجملة حَصَلَ، والسُكْرُ على أقسام:

فسُكْرٌ من الخمر وسُكْرٌ من الغفلة لاستيلاء حب الدنيا.

وأصعب السكر سكرك من نفسك فهو الذي يلقيك في الفرقة عنه، فإنَّ مَنْ سَكِرَ من الخمر فقصاراه الحرقة ـ إن لم يُغْفَر له. ومن سكر من نفسه فحاله الفرقة ـ في الوقت ـ عن الحقيقة.

---

(١) الخمار: ما تغطي به المرأة رأسها (ج) أخمرة وخُمْر وخُمُر.

فأمَّا السُكْر الذي يشير إليه القوم[١] فصاحبه محفوظٌ عليه وقته حتى يصلي والأمر مخفف عليه: (فإذا خرج عن الصلاة هجم عليه غالبُه فاختطفه عنه ومن لم يكن محفوظاً)[٢] عليه أحكام الشرع (فمشوبٌ بحظ)[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾... الآية: أذن للمضطر أن يترخَّص في عبور المسجد وهو على وصف الجنابة، فإذا عرج زائداً على قدر الضرورة فمُعَاتَبٌ غيرُ معذور، وكذلك فيما يحصل من معاذير الوقت في القيام بشرائط الوقت فمرفوعةٌ عن صاحبه المطالبة به.

ثم إنه ـ سبحانه ـ بفضله جعل التيمم[٤] بدلاً من الطهارة بالماء عند عَوَزِ الماء كذلك النزولُ إلى ساحات الفَرْقِ عن ارتقاء ذروة الجمع ـ بِقَدْر ما يحصل من الضعف ـ بَدَلٌ لأهل الحقائق.

ثم إن التيمم ـ الذي هو بَدَلُ الماء ـ أعمُّ وجوداً من الماء، وأقلُّ استعمالاً من الأصل، فإن كل من كان أقرب كانت المطالبات عليه أصعب.

ثم في الظاهر أَمَرَنا باستعمال التراب وفي الباطن باستشعار الخضوع واستدامة الذبول.

وردَّ التيمم إلى التقليل، وراعى فيه صيانةً لرأسِك عن التُّراب ولقَدَمِك؛ فإنَّ العزَّ بالمؤمن ـ ومولاه باستحقاق الجلال ـ أوْلى من الذل لِمَا هو مفلس فيه من الحال، ولئن كان إفلاسه عن أعماله يوجب له التذلُّل فعرفانُه بجلال سيِّده يوجب كل تَعَزُّزٍ وتَجمُّل.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

ومكروا مكراً ولم يشعروا وجهة مكرهم أن أُعطُوا الكتابَ ثم حُرِمُوا بركاتِ الفهم حتى حرَّفوا وأصرُّوا.

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص٧١ ـ ٧٢ في حديث القشيري عن الصحو والسكر.

(٢) ما بين قوسين زيادة من الهامش.

(٣) انظر الرسالة القشيرية ص٧٢.

(٤) التيمم: تيمم للصلاة: مسح وجهه ويديه بالتراب الظاهر على هيئة مخصوصة، عوض الوضوء.

قوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ . . . الآية: تركوا حشمة الرسول - ﷺ - ورفضوا حرمته، فعوقبوا بالشك في أمره، ولذلك لم يترك أحد حشمته (محتشم)[١] إلا حيل بينه وبين نيل بركات صحبته وزوائد خدمته. ولو أنهم عاجلوا في نفي ما دَاخَلَهم من الحسد وقابلوا حاله بالتبجيل والإعظام لوجدوا بركات متابعته، فأسْعِدوا به في الدارين، وكيف لم يكونوا كذلك وقد أقصتهم السوابق فأقعدتهم القسمة عن بساط الخدمة؟ وإنَّ مَنْ قعدت به الأقدار لم ينهض به الاحتيال.

قوله جل ذكره: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ .

صرف القلوب عن الإرادة إلى أحوال أهل العادة حتى كانت دواعيه يتوفر في رفض الدنيا فعاد لا يصبر عن جمعها ومنعِها.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ .

العوام طولبوا بترك الشرْك الجليّ، والخواص طولبوا بترك الشرك الخفيّ، فمن توسَّل إليه بعمله ويظنه منه، أو توهّم أن أحكامه - سبحانه - معلولة بحركاته وسكناته، أو راعى خَلْقاً أو لاحظ نَفْساً فوطنه الشرك عند أهل الحقائق[٢].

والله لا يغفر أن يُشرَكَ به وكذلك من توهّم أن مخالفته حصلت من غير تقديره فهو ملتحق بهم.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ .

مَن ركن إلى تزكية الناس له، واستحلى قبول الخواص له - فضلاً عن العوام - فهو من زكّى نَفْسه، ورؤية النَّفْس أعظم حجاب، ومن توهَّم أنه بِتَكَلُّفِه يزكِّي نفسه: بأوراده[٣] أو اجتهاده، بحركاته أو سكناته - فهو في غطاء جهله.

قوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ﴾ . . . الآية: الإشارة إلى من أطلق لسان الدعوى من غير تحقيق، والمُفْتَرِي - في قالته في هذا الأمر - لا ينطق بشيءٍ إلا أجبَّته الآذان وانزجرت له القلوب، فإذا سكت عاد إلى قلب خراب.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ

---

(١) المحتشم: إنسان يتمتع بالحياء، ويقصد به إنسان من الأعيان والوجهاء.
(٢) انظر الرسالة القشيرية ص٦٤ - ٦٦ حديث القشيري عن الجمع والفرق.
(٣) الورد: النصيب من القرآن أو الذكر (ج) أوراد.

وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴾.

طاغوتُ كلِّ أحدٍ نَفسُه وهواه وجِبْتُه وهو(. . . .)[1] مقصوده من الأغيار، فمن لاحظ شخصاً أو طالع سبباً أو عرَّجَ على عِلَّةٍ أو طاع هوىً، فذلك جبته وطاغوته. وأصحاب الجبت[2] والطاغوت[3] يستوجبون اللعن؛ وهو الطرد عن بساط العبودية، والحجاب عن شهود الربوبية.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾.

منْ جُبِلَ على الشُّحِ لا يزداد بسعة يده إلا تأسفاً على راحةٍ ينالها الخلق، كأنَّ مَنْ شَرِبَ قطرة ماءٍ قد تحسَّى بل رَشَفَ من ماء حياته!.

قوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾: بل ينكرون تخصيص الحق سبحانه لأوليائه بما يشاء حسداً من عند أنفسهم فلا يقابلونهم بالإجلال، وسُنَّةُ الله سبحانه مع أوليائه مضت بالتعزيز والتوقير لهم. ودأبُ الكافرين جرى بالارتياب في القدرة؛ فمنهم من آمن بهم، ومنهم من ردَّ ذلك وجحد، وكفى بعقوبة الله منتقماً عنهم.

قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾: المُلْك العظيم معرفة المَلِك، ويقال هو المُلْكُ على النَّفس.

ويقال الإشراف على أسرار المملكة حتى لا يخفى عليه شيء.

ويقال الاطلاع على أسرار الخلق.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

الإشارة منه إلى الجاحدين لآيات الأولياء، يُقيمهم بوصف الصغار ويبقيهم في وحشة الإنكار؛ كلمَّا لاح لقلوبهم شيء من هذه القصة جرَّهم إنكارُهم إلى ترك الإيمان بها والإزراء بأهلها على وجه الاستبعاد، فهم مؤبدة عقوبتهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا

---

(١) بياض في الأصل.
(٢) الجِبْتُ: كل ما عُبد من دون الله تعالى، والصنم والسحر والساحر والكاهن.
(٣) الطاغوت: الشيطان أو كل ما عُبد من دون الله من الجن والإنس والأصنام (ج) طواغيت.

﴿ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾.

هم اليوم في ظل الرعاية، وغداً في ظل الحماية والكفاية، بل هم في الدنيا والعقبى في ظل العناية.

والناس في هذه الدنيا متفاوتون: فمنهم من هو في ظل رحمته، ومنهم من هو في ظل رعايته، ومنهم من هو في ظل كرامته، ومنهم من هو في ظل عنايته، ومنهم من هو في ظل قربته.

قوله جل ذكره: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾.

ردُّ الأمانات إلى أهلها تسليم أموال الخلق لهم بعد إشرافك عليها بحيث لا تفسد عليهم.

ويقال لله ـ سبحانه وتعالى ـ أماناتٌ وَضَعَها عِنْدَك؛ فردُّ الأمانة إلى أهلها تسليمها إلى الله ـ سبحانه ـ سالمةً مِنْ خيانتِك فيها؛ فالخيانة في أمانة القلب ادعاؤك فيها، والخيانة في أمانة السِّرّ ملاحظتك إياها.

والحُكْمُ بين الناس بالعدل تسويةُ القريب والبعيد في العطاء والبذل، وألا تحملك مخامرةُ حقدٍ على انتقام لنفسٍ.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

قَرَنَ طاعته بطاعة الرسول ـ ﷺ ـ تفخيماً لشأنه ورفعاً لِقَدْرِه.

وأمَّا أولو الأمر ـ فعلى لسان العلم ـ السلطان، وعلى بيان المعرفة العارفُ ذو الأمر على المستأنف، والشيخُ أولو الأمر على المريد، وإمامُ كل طائفة ذو الأمر عليهم.

ويقال الولي أولى بالمريد (من المريد)(١) للمريد.

قوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ على لسان العلم ـ إلى الكتاب والسُّنَّة، وعلى بيان التوحيد فوَّض ذلك وَوَكَلَ علمَهُ إلى الله سبحانه، وإذا اختلف الخاطران في قلب المؤمن فإن كان له اجتهاد العلماء تأمل ما يسنح لخاطره بإشارة فهمه، ومن كان صاحب قلب وكَلَ ذلك إلىٰ الحق ـ سبحانه ـ وراعى ما خوطب به في سرائره، وأُلْقِيَ ـ بلا واسطة ـ في قلبه.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن

(١) ما بين قوسين استدراك من الهامش.

قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾.

أظهروا الإخلاص، ونافقوا في السّر، ففضحهم ـ سبحانه ـ على لسان جبريل عليه السلام بقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي يرفضوه. فمن حاد عن طريقه ورجع إلى غير أستاذه استوجب الحرمان والذم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾.

كل شيء سوى كلمة الحق فهو خفيف على المنافقين، فأمّا التوحيد فلا يسمع كلمته إلا مخلص، وأهل الفترة في الله وأصحاب النفرة لا يسمعون ما هو الحق؛ لأن خلافَ الهوى يَشُقُّ على غير الصديقين. وكما أن ناظِرَ الخلق لا يقوى على مقابلة الشمس فكذلك المنافقون لم يطيقوا الثبات له ـ ﷺ ـ فلذلك كان صدودهم.

قوله جل ذكره: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾.

تَضَرُّعُ غير المخلص عند هجوم الضُّر لا أصل له، فلا ينبغي أن يكون به اعتبار لأن بقاءه إلى زوال المحنة، والمصيبة العظمى ترك المبالاة (بما يحصل من التقصير)[١].

ويقال من المصيبة أن يمحقك وقتك فيما لا يجدي عليك[٢].

قوله جل ذكره: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾.

أُبْسُطْ لهم لسانَ الوعظِ بمقتضى الشفقة عليهم، ولكن انْقَبِضْ بقلبك عن المبالاة بهم والسكون إليهم، واعلم أن من لا نكون نحن له لا يغني عنه أن تعينه شيئاً.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

ما أَمَرْنَا الرسلَ إلّا بدعوة الخلْقِ إلينا.

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ﴾. لو جعلوك ذريعتهم[٣] لوصلوا

---

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) انظر الرسالة القشيرية ص٦٥ ـ ٦٦ حديث القشيري عن الوقت.

(٣) الذريعة: الوسيلة والسبب إلى الشيء (ج) ذرائع.

إلينا، ويقال لو لازموا التذلل والافتقار وركبوا مطية الاستغفار لأناخوا بعقوة[١] المبار.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

سدَّ الطريق ـ إلى نفسه ـ على الكافة إلا بعد الإيمان بمحمد ﷺ، فمَنْ لم يمشِ تحت رايته فليس له من الله نفس.

ثم جعل من شرط الإيمان زوال المعارضات بالكلية بقلبك.

قوله: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا﴾: فلا بُدَّ لك من (. . .)[٢] تلك المهالك بوجه ضاحك، كما قال بعضهم:

وحبيبٍ إنْ لم يكن منصفاً كنتُ منصفا ... أتحسّى له الأمَرَّ وأسقيه ما صفا
إن يقل لي انشقَّ ... اخترتُ رضاً لا تكلُّفا

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

أخبر عن سُقْم إخلاصهم وقوة إفلاسهم، ثم أخبر الله بعلمه بتقصيرهم.

خلاهم عن كثير من الامتحانات ثم قال ولو أنهم جنحوا إلى الخدمة، وشدُّوا نطاق الطاعة لكان ذلك خيراً لهم من إصرارهم على كفرهم واستكبارهم. ولو أنهم فعلوا ذلك لآتيناهم من عندنا ثواباً عظيماً، ولأرشدناهم صراطاً مستقيماً ولأوليناهم عطاء مقيماً.

والأمر ـ على بيان الإشارة ـ يرجع إلى مخالفة الهوى وذبح النفوس بمنعها عن المألوفات، والخروج من ديار (تَقبُّل النَّفس)، ومفارقة أوطان (إرادة) الدنيا.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾.

جعل طاعة المصطفى ـ ﷺ ـ مفتاحَ الوصول إلى مقامات النبيين والصديقين والشهداء على الوجه الذي يصحُّ للأمة وكفى له عليه السلام بذلك شرفاً.

ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾: جرَّد عليهم محلّهم عن كل علة واستحقاق وسبب؛ فإن ما لاح لهم وأصابهم صرفُ فضله وابتداء كرمه.

---

(١) العقوة: الساحة وما حول الدار والمحلة، وجمعها عقاء.

(٢) بياض في الأصل.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾.

الفرار إلى الله من صفات القاصدين، والفرار مع الله من صفات الواصلين؛ فلا يجد القرار مع الله إلا من صدق في الفرار إلى الله. والفرارُ من كل غَيْرٍ شأنُ كل مُوحِّد.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ الآية: أي لم تستقر عقائدهم على وصفٍ واحد، فكانوا مرتبطين بالحظوظ؛ فإذا رأوا مكروهاً يظِلُّ المسلمين شكروا وقالوا: الحمد لله الذي حفظنا من متابعتهم فكان يصيبنا ما أصابهم، وإن كانت لكم نعمة وخير سكنوا إليكم، وتمنوا أن لو كانوا معكم، خسروا في الدنيا والآخرة: فَهُمْ لا كافرٌ قبيحٌ ولا مؤمنٌ مخلصٌ.

قوله: ﴿كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ﴾: يعني طرحوا حشمة الحياة فلم يراعوا حرمتكم.

قوله جل ذكره: ﴿۞ فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾.

مَنْ لم يَقْتُلْ نَفْسَه في نَفْسِهِ لا يصحُّ جهادُه بنفسِه؛ فأولا (إخراج خطر الروح) من القلب ثم تسليم النفس للقتل.

وقوله: ﴿فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ يعني بقاؤنا بعده خيرٌ له من حياته بنفسه لنفسه، قال قائلهم:

ألست لي عِوَضاً مني؟ كفى شَرَفاً ... فما وراءك لي قصدٌ ومطلوب

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾.

أي شيء يمنعكم عن القتال في سبيل الله؟ وما الذي لا يُرَغِّبُكم في بذل المهجة لله؟ وماذا عليكم لو بذلتم أرواحكم في الله ولله؟ أتخافون أن تخسرُوا على الله؟ أم لا تعلمون أنكم تُحشَرُون إلى الله؟ فلم لا تكتفون ببقائه بعد فنائكم في الله؟

قوله جل ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

المخلصون لله لا يؤثِرُون شيئاً على الله، ولا يضنون بشيء عن الله، فهم أبداً على نفوسهم لأجل الله، والذين كفروا على العكس من أحوال المؤمنين. ثم قوّاهم

وشجَّعهم بقوله: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ أي لا تُضمِرُوا لهم مخافة، فإني متوليكم وكافيكم على أعدائكم.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ﴾.

أخرِجُوا أيديَكُم عن أمورِكم، وكِلُوها إلى معبودكم.

ويقال اقصروها عن أخذ الحرام والتصرف فيه.

ويقال امْتَنِعُوا عن الشهوات.

ويقال: ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ﴾ إلا عن رَفْعِها إلى الله في السؤال بوصف الابتهال.

فلمَّا كتب عليهم القتال استثقلوا أمره، واستعجلوا لطفه. والعبودية في تَرْكِ الاستثقال، ونفي الاستعجال، والتباعد عن التبرم والاستثقال.

قوله جل ذكره: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

مَكَّنَكَ من الدنيا ثم قال: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ﴾ فلم يَعُدَّها شيئاً لك ثم لو تَصَدَّقْتَ منها بِشقِّ تمرةٍ لتَخَلَّصْتَ من النار، وحظيت بالجنة، وهذا غاية الكرم.

واستقلالُ الكثير من نفسك ـ لأجل حبيبك ـ أقوى أمارات صُحْبتك.

ويقال لما زَهَّدَهم في الدنيا قلَّلَها في أعينهم ليهون (عليها) تركها.

ويقال قل متاعُ الدنيا بجملتها قليلٌ، والذي هو نصيبك منها أقلُّ من القليل، فمتى يناقشك لأجلها (بالتخليل)، ولو سَلِم عهدك من التبديل؟

وإذا كانت قيمة الدنيا قليلة فأخَسُّ من الخسيس مَنْ رَضِيَ بالخسيس بدلاً عن النفيس.

وقد اخْتَلَعَ المؤمن من الكون بالتدريج. فقال أولاً: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ﴾ (فأحفظهم) عن الدنيا بالعقبى، ثم سلبهم عن الكونين بقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾[طه ٧٣].

قوله جل ذكره: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾.

الموت فرح للمؤمن، فالخبرُ عن قربه بِشارةٌ له، لأنه سببٌ يوصله إلى الحق، ومن أحبَّ لقاء الله أحبَّ اللَّهُ لقاءه.

ويقال إذا كان الموت لا بد منه فالاستسلام لحكمه طوعاً خيرٌ من أن يحمل كرهاً.

ثم أخبر أنهم ـ لضَعْفِ بصائرهم ومرض عقائدهم ـ إذا أصابتهم حَسَنَةٌ فرِحُوا بها، وأظهروا الشكر، وإن أصابتهم سيئة لم يهتدوا إلى الله فجرى فيهم العِرْقُ المجوسي[1] فأضافوه إلى المخلوق، فَرَدَّ عليهم وقال: قل لهم يا محمد كلٌّ من عند الله خلقاً وإبداعاً، وإنشاء واختراعاً، وتقديراً وتيسيراً.

قوله جل ذكره: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

ما أصابك من حسنة فمن الله فضلاً، وما أصابك من سيئة فمن نفسك كسباً وكلاهما من الله سبحانه خَلْقاً.

قوله جل ذكره: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.

هذه الآية تشير إلى الجَمْع لحال الرسول ـ ﷺ، فقال سبحانه طاعته طاعتنا، فمن تقرَّبَ منه تقرَّبَ منا، ومقبولُه مقبولُنا، ومردودُه مردودنا.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

يعني إذا حضروك استسلموا في مشاهدتك، فإذا خرجوا انقطع عنهم نور إقبالك، فعادوا إلى ظلمات، كما قالوا:

إذا ارعوى عاد إلى جهله ... كذي الضنى عاد إلى نكسه

قوله جل ذكره: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

تدبرُ إشارة المعاني بغوص الأفكار، واستخراجُ جواهر المعاني بدقائق الاستنباط.

قوله: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ﴾: لمَّا كانوا غافلين عن الحق لم يكن لهم من ينقل إليه أسرارهم فأظهروا السرَّ بعضُهم لبعض. فأمَّا المؤمنون فعالِمُ أسرارهم مولاهم، وما

---

(١) المجوس: معرّب عن (منج كوش) بالفارسية ومعناها: صغير الأذنين. وهم أمة يعبدون الشمس أو النار، وواحدهم مجوسي.

يسنح لهم خَاطَبُوه فيه فلم يحتاجوا إلى إذاعة السِّر لمخلوق؛ فسامِعُ نجواهم الله، وعالِم خطابهم الله.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ أي لو بَثوا أسرارهم عند من هو (. . . .)(١) ومَنْ هو من أهل القصد لأزالوا عنهم الإشكال، وأمدوهم بنور الهداية والإرشاد(٢).

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ مع أوليائه لهاموا في كل وادٍ من التفرقة كأشكالهم في الوقت.

قوله جل ذكره: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾.

اسْتَقِمْ معنا بتسليم الكُلّ مِنكَ إلى أمرنا؛ فإنَّك ـ كما لا يقارنُكَ أحَدٌ في رتبتك لعلوّك على الكل ـ فنحن لا نكلِّف غيرك بمثل ما تكلفت، ولا نُحَمِّل غيرك ما تحملت لانفرادك عن أشكالك في القدوة.

قوله جل ذكره: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾.

الشفيع يخلِّص للمشفوع له حاله. ويستوجب الشفيعُ ـ من الله سبحانه على شفاعته ـ عظيمَ الرتبة، ومَنْ سعى في أمرنا بالفساد تحمَّل الوِزْرَ واحتقب(٣) الإثم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا﴾.

تعليم لهم حُسْنَ العِشْرة وآداب الصحبة. وإن من حمَّلَكَ فضلاً صار ذلك ـ في ذمتك ـ له قرضاً، فإمَّا زِدْتَ على فِعله وإلّا فلا تنقص عن مثله.

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) أشار القشيري في هذا الخصوص في حديثه عن الوصية للمريدين قال: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: تجب البداية بتصحيح الاعتقاد بينه وبين الله تعالى. صافٍ عن الظنون والشبه خالٍ من الضلال والبدع، صادر عن البراهين والحجج، ويقبح بالمريد أن ينتسب إلى مذهب من مذاهب من ليس من هذه الطريقة، وليس انتساب الصوفي إلى مذهب المختلفين سوى طريقة الصوفية إلا نتيجة جهلهم بمذاهب أهل هذهِ الطريقة، فإن حجج هؤلاء في مسائلهم أظهر من حجج كل واحد، وقواعد مذاهبهم أقوى من قواعد كل مذهب. فالذي للناس غيب فهو لهم ظهور، والذي للخلق من المعارف مقصود، فلهم من الحق سبحانه موجود، فهم أهل الوصال والناس أهل الاستدلال. (الرسالة القشيرية ص٣٧٨].

(٣) الوِزْر: الإثم والذنب أو الحمل الثقيل. احتقب الإثم: ارتكبه.

قوله جل ذكره: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾.

هذا الخطاب يتضمن نفياً وإثباتاً؛ فالنفي يعود إلى الأغيار ويستحيل لغيره ما نفاه، والإثبات له بالإلهية ويستحيل له النفي فيما أثبته.

قوله جل ذكره: ﴿۞ فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾.

(. . . . . .)(١) العهد فيهم أنهم أعدائي، لا ينالون مِنّي في الدنيا والعقبى رضائي، وإنكم لا تُنقِذون بهممكم من أقمته بقسمتي فإن المدار على القِسَم دون (. . . .)(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾.

الإشارة إلى أرباب التخليط والأحوال السقيمة يتمنون أن يكون الصديقون منهم، وهيهات أن يكون لمناهم تحقيق! وما دام المخالفون لكم غير موافقين فباثنوهم وخالفوهم ولا تطابقوهم بحال، ولا تعاشروهم، ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً؛ وموافِقٌ لك في قصدِك خيرٌ لك من مخالفٍ على الكره تعاشره.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۢ﴾ الإشارة من هذه الآية أن عند الأعذار أذِن في معاشرة في الظاهر رفقاً بالمستضعفين.

﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ﴾ الإشارة منه أنه إذا عاشركم من ليس من أهل القصة معرجين في أوطان نصيبهم فلا تدعوهم إلى طريقتكم وسلِّموا لهم أحوالهم. فإن أمكنكم أن تلاحظوهم بعين الرحمة بحيث تؤثر فيهم همتكم وإلا فسلِّموا لهم أحوالهم.

قوله جل ذكره: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾.

إن من رام الجمع بين الضدين خاب سعيُه، ولم يرتفع عزمُه، فكما لا يكون شخص

---

(١) بياض في الأصل.

واحد منافقاً ومسلماً لا يكون شخص واحد مريداً للحق ومقيماً على أحكام أهل العادة. فإن الإرادة والعادة[١] ضدان، والواجب مباينة الأضداد، ومجانبة الأجانب.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

خفَّف أمرَ الخطأ على فاعله حتى حَمَّل موجب قتل الخطأ على العاقلة؛ فالخواص عاقلة المستضعفين من الأمة، وأهل المعرفة عاقلة المريدين، والشيوخ عاقلة الفقراء؛ فسبيلُهم أن يحمِلوا أثقال المستضعفين فيما ينوبهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾.

كما يُحرِّم قتلُ غيرك يحرِّمُ قتلُ نفسك عليك، ومن اتَّبعَ هواه سعى في دَم نفسه، ومن لم ينصح مريداً بحسنِ وعظِه ولم يُعِنْه بهمته فقد سعى في دمِه، وهو مأخوذ بحاله وخليق بأن تكون له عقوبة الأذية بألا يتمتع بما ضنّ به على المريدين من أحواله: ولقد قال ـ سبحانه ـ: يا داود إذا رأيت لي طالباً فكن له (خادماً).

قوله جل ذكره: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

عَاشِرُوا النَّاسَ على ما يُظهِرُون من أحوالهم، ولا تَتَفَرَّسوا[٢] فيهم بالبطلان؛

---

(١) قال القشيري برسالته: وقد تكلم الناس في معنى الإرادة فكلٌ عبّر حسب ما لاح لقلبه فأكثر المشايخ قالوا: الإرادة ترك ما عليه العادة، وعادة الناس في الغالب التعريج في أوطان الغفلة، والركون إلى اتباع الشهوة، والإخلاد إلى ما دعت إليه المنية، والمريد منسلخ عن هذه الجملة، فصار خروجه أمارة ودلالة على صحة الإرادة فسميت تلك الحالة إرادة، وهي خروج عن العادة فإذاً ترك العادة أمارة الإرادة، وأما حقيقتها فهي نهوض القلب في ترك الحق سبحانه وتعالى، ولهذا يقال: إنها لوعة تهوّن كل روعة. (الرسالة القشيرية ص٢٠١ ـ ٢٠٢).

(٢) الفراسة: المهارة في تعرّف بواطن الأمور من ظواهرها. والتثبت والنظر، ويطلق أيضاً على التوسم من السمة وهي العلامة، والفراسة قد تكون عادية تُعرف بقرائن الأحوال، وقد تكون وهيبة إلهامية يخلقها الله من القلب وهي المراد غالباً عند القوم.

فإنَّ مُتَوَلِّيَ الأسرار الله. هذا إذا كان غرضٌ فاسدٌ يحملكم عليه من أحكام النَّفْس، فأمَّا من كان نظرُه بالله ولم يَنْسَتِرْ عليه شيءٌ فَلْيَحْفظْ سِرَّ الله فيما كوشِفَ به، ولا يظهر لصاحبه ما أراد الله فيه.

قوله جل ذكره: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةًۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةًۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

الحقُّ سبحانه جمع جميع أوليائه في أفضاله لكنه غَايَرَ بينهم في الدرجات، فَمِنْ غنيٍّ ومن عبدٍ هو أغنى منه، ومِنْ كبيرٍ ومن هو أكبر منه، هذه الكواكب دُرِّية ولكن القمرَ فوقها، وإذا طلعت الشمسُ بهرت الجميع بنورها!

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

الإشارة منه إلى من أدركه الأجلُ وهو في أسْر نَفْسه وفي رِقِّ شهواته ـ ليس له عذر حيث لم يهاجر إلى ظِلِّ قُربته ليتخلَّصَ مِنْ هوى نفسِه إذ لا حجابَ بينك وبين هذا الحديث إلا هواك.

قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

الإشارة منه إلى الذين مَلَكَتْهُم المعاني فأفنتهم عنهم،فبَقُوا مُصَرَّفِين له، لا لهم حَوْلٌ ولا قوة، يبدو عليهم ما يُجْرِيه ـ سبحانه ـ عليهم، فهم بعد عود نفوسهم بحق الحقّ محوٌ عنهم، فلا يهتدون إلى غيره سبيلاً، ولا يتنفَّسون لغيره نَفَساً.

ويقال على موجب ظاهر الآية إن الذين أقعدتهم الأعذار عن الاختيار فعسى أن يتفضَّل الحقُّ ـ سبحانه ـ عليهم بالعفو.

قوله جل ذكره: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةًۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

مَنْ هَاجَرَ في الله عما سوى الله، وصحح قَصْده إلى الله وَجَدَ فسحة في عقوة الكَرَم، ومقيلاً في ذرى القبول، وحياة وَسَعةً في كنف القرب.

والمهاجر ـ في الحقيقة ـ من هجر نَفْسَه وهواه، ولا يصحُّ ذلك إلا بانسلاخه عن جميع مراداته، ومَنْ قَصَدَه ثم أدركه الأجلُ قبل وصوله فلا ينزل إلا بساحات وصله، ولا يكون محطُّ روحه إلا أوطان قربه.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾.

القَصْرُ في الصلاة سُنَّةٌ في السفر، وكان في ابتداء الشرع عند الخوف، فأقرَّ ذلك مع زوال الخوف رفقاً بالعباد، فلما دخل الفرضَ القَصرُ لأجل السفر عوضوا بإباحة النَّفل[1] في السفر على الراحلة أينما توجهت به دابته من غير استقبال، فكذلك الماشي؛ ليُعْلَم أنَّ الإذنَ في المناجاة مستديمٌ في كل وقت؛ فإن أردتَ الدخول فمتى شئت، وإن أردت التباعد مترخصاً فلك ما شئت، وهذا غاية الكرم، وحفظ سُنَّة الوفاء، وتحقق معنى الولاء.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ ۖ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

تدل هذه الآية على أن الصلاة لا ترتفع عن العبد ما دام فيه نَفَسٌ من الاختيار لا في الخوف ولا في الأمن، ولا عند غلبات أحكام الشرع إذا كنت بوصف التفرقة، ولا عند استيلاء سلطان الحقفة إذا كنتَ بعين الجمع.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾.

الوظائف الظاهرة مُوَقته وحضور القلب بالذكر مسرمد غير منقطع؛ أمَّا بالرسوم فوقتاً دون وقت، وأمَّا بالقلوب فإياكم والغيبة عن الحقيقة لحظة كيفما اختلفت بكم الأحوال.. الذكرُ كيفما كنتم وكما كنتم، وأما الصلاةُ فإذا اطمأننتم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

قوموا بالله وليكن استنادكم في جهادكم إلى الله.

﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ﴾: القومُ شاركوكم في إحساس الألم، ولكن خالفوكم في شهود القلب، وأنتم تشهدون ما لا يشهدون، وتجدون لقلوبكم ما لا يجدون، فلا ينبغي أن تستأخروا عنهم في الجد والجهد.

---

(١) النَّفل: ما شرع زيادة على الفريضة والواجب.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

لم يأمُرْك بالحكم بينهم على عمًى ولكن بما أراك الله أي كاشفك به من أنوار البصيرة حتى وقفت عليه بتعريفنا إياك وتسديدنا لك، وكذلك من يحكم بالحق من أمتك.

قوله: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾: أي لا تناضِل عن أرباب الحظوظ ولكن مع أبناء الحقوق، ومن جنح إلى الهوى خان فيما أودع نفسه من التقوى، ومَنْ رَكَنَ إلى أنواع نوازع المنى خان فيما طولب به من الحياء لاطلاع المولى.

﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ لأمتك؛ فإنا قد كفيناك حديثك بقولنا: ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾.

هم المؤثرون حظوظهم على حقوقه، والراضون بالتعريج في أوطان هواهم دون النقلة إلى منازل الرضا، إن الله لا يحب أهل الخيانة فيذلهم ـ لا جَرَم ـ ولا يكرمهم.

قوله: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ الغالب على قلوبهم رؤية الخلق ولا يشعرون أنَّ الحق مُطَّلِعٌ على قلوبهم أولئك الذين وَسَمَ الله قلوبهم بوسم الفرقة.

قوله جل ذكره: ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ جَـٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَـٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾.

أي ندفع عنهم ـ بحرمتك ـ لأنك فيهم، فكيف حالهم يوم القيامة إذ زالت عنهم بركاتكم أيها المؤمنون؟!

قوله جل ذكره: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

«ثم»: حرفٌ يدل على التراخي؛ أي يزجون عمرهم في البطالات والمخالفات ثم في آخر أعمارهم يستغفرون الله.

وقوله: ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ﴾: الوجود غاية الحديث[1]، والعاصي لا يطلب غير الغفران، ولكن الله ـ سبحانه يوصله إلى النهاية بفضله ـ إذا شاء، فسُنَّتُه تحقيق ما فوق المأمول لمن رجاه.

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص٦١ ـ ٦٤ في حديث القشيري عن التواجد والوجد والوجود.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

الحقُّ غنيٌّ عن طاعة المطيعين، وزلة العاصين، فمن أطاع فحظُّه حَصَّلَ، ومن عصى فحظه أخذ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

من نسب إلى بريء ما هو صفته من المخازي عكس الله عليه الحال، وألبس ذلك البريء ثواب محاسن راميه، وسحب ذيل العفو على مساويه، وقَلَبَ الحال على المتعدِّي بما يفضحه بين أشكاله، في عامة أحواله.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

الفضلُ(١) إحسانٌ غيرُ مستحق، والإشارة ههنا ـ من الفضل ـ إلى عصمته إياه، فالحقُّ ـ سبحانه ـ عَصَمَه تخصيصاً له بتلك العصمة، وكما عصمه عن تَرْكِ حقه ـ سبحانه ـ عصمته بأن كفَّ عنه كيد خلقه فقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ الآية.

كلَّا، لن يكونَ لأحدٍ سبيلُ إلى إضلالك فأنت في قبضة العزة، وما يُضِلُّون إلا أنفسهم، وما يضرونك بشيء، إذ المحفوظ منا محروس عن كل غير، وإنَّ الله سبحانه قد اختصك بإنزال الكتاب، واستخلصك بوجوه الاختصاص والإيجاب، وعلَّمك ما لم تكن تعلم، ولم يمن عليك بشيءٍ بمثل ما مَنَّ به على من خصَّه به من العلم. ويحتمل أنه أراد به علمه ـ صلى الله عليه ـ بالله وبجلاله، وعلمه بعبودية نَفْسه، ومقدار حاله في استحقاق عِزِّه وجماله.

ويقال علَّمك ما لم تكن تعلم من آداب الخدمة إذ لم تكن ملتبساً عليك معرفة الحقيقة.

ويقال أغناك عن تعليم الأغيار حتى لا يكون لأحدٍ نور إلا مُقْتَبَساً مِنْ نورِك، ومَنْ لم يمشِ تحت رايتك لا يصل إلى جميع برِّنا، ولا يحظى بقربنا وَوَصْلنا.

﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾: في الآباد؛ أنَّكَ كنت ـ لنا بشرف العز وكرم الربوبية في الآزال ـ معلوماً. ويقال وعلَّمك ما لم تكن تعلم من عُلُوِّ رُتْبَتِكَ على الكافة.

---

(١) الفضل: الزيادة.

ويقال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ أنَّ أحداً لا يُقَدِّرُ قَدْرَنا إلا بمقدار مُوافَقَتِه لأمْرِنا.

قوله جل ذكره: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أفضل الأعمال ما كانت بركاته تتعدى صاحبَه إلى غيره؛ ففضيلة الصَدَقَة يتعدى نفعها إلى من تصل إليه، والفُتُوةُ أن يكون سعيك لغيرك، ففي الخبر: «شَرُّ الناسِ مَنْ أكَلَ وَحْدَه» وكلُّ أصناف الإحسان ينطبق عليها لفظ الصدقة.

قال ﷺ في قَصْرِ الصلاة في السفر: «هذه صدقة تصدَّقها الله عليكم فاقبلوا صَدَقَتَه»[1].

والصدقة على أقسام: صدقتك على نفسك، وصدقتك على غيرك؛ فأمَّا صدقتك (على نفسك فَحَملُها على أداء حقوقه تعالى، ومَنْعُها عن مخالفة أمره، وقصرُ يدها عن أذية الخَلْق وصَوْنُ خواطرها وعقائدها عن السوء. وأمَّا صدقتك)[2]. على الغير فَصَدقةٌ بالمال وصدقة بالقلب وصدقة بالبدن.

فصدقة بالمال بإنفاق النعمة، وصدقة بالبدن بالقيام بالخدمة، وصدقة بالقلب بحسن النية وتوكيد الهمة.

والصدقة على الفقراء ظاهرة لا إشكالَ فيها، أمَّا الصدقة على الأغنياء فتكون بأن تجود عليهم بهم، فتقطع رجاءك عنهم فلا تطمع فيهم.

وأمّا المعروف: فكلُّ حَسَنٍ في الشرع فهو معروف، ومن ذلك إنجاد المسلمين وإسعادهم فيما لهم فيه قربة إلى الله، وزلفى عنده، وإعلاء النواصي[3] بالطاعة.

ومن تصدَّق بنفسه على طاعة ربه، وتصدَّق بقلبه على الرضا بحكمه، ولم يخرج بالانتقام لنفسه، وحثَّ الناس على ما فيه نجاتهم بالهداية إلى ربه، وأصلح بين الناس بِصِدْقه في حاله ـ فإنَّ لسانَ فعله أبلغ في الوعظ من لسان نطقه، فهو الصِّدِيق في وقته. ومن لم يؤدِّبْ نَفْسَه لم يتأدبْ به غيرُه، وكذلك من لم يهذِّب حالَه لم يتهذَّبْ به غيره.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ غيرَ سائلٍ به مالاً أو حائزٍ لنفسه به حالاً فعن قريب يبلغ رتبة الإمامة في طريق الله، وهذا هو الأجر الموعود في هذه الآية.

---

(١) أخرجه السيوطي في (الدر المنثور ٣/ ٢٦٤)، والقرطبي في (التفسير ٥/ ٣٦٣).

(٢) ما بين قوسين مستدرك من الهامش يقتضيه السياق.

(٣) الزلفى: المنزلة والدرجة والقُربة. والنواصي (ج) الناصية: ما يبرز من الشعر في مقدم الرأس.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

خواطر الحق سفراؤه تعالى إلى العبد، فمن خَالَفَ إشارات ما طولب به مِنْ طريق الباطن استوجب عقوبات القلوب، ومنها أنْ يَعْمَى عن إبصار رشده. وكما أن مخالفَ الإجماع عن الدين خارجٌ فمخالِفُ ما عرف من الحقيقة بعد ما تبين له الطريق ـ ساقط.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾: إثبات الغير في توهم ذرة من الإبداع عين الشِرْك، فلا للعفو فيه مساغ. وما دون الشرك فللعفو فيه مساغ، ومن توسَّل إليه سبحانه بما توهَّم من نفسه فقد أشرك من حيث لم يعلم. كلّا، بل هو الله الواحد.

قوله: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾: أوقعوا على الجماداتِ تسمياتٍ، وانخرطوا في سلك التوهم، وركنوا إلى مغاليط الحسبان، فَضَلُّوا عن الحقيقة.

﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾، أي ما يدعون إلا إبليس الذي أبعده الحقُّ عن رحمته، وأسحقه بِبُعده، وما إبليس إلا مُقَلَّبٌ في القبضة على ما يريده المنشىء، ولو كان به ذرة من الإثبات لكان به شريكاً في الإلهية. كلَّا، إنما يُجرِي الحقُّ ـ سبحانه ـ على الخلْقِ أحوالاً، ويخلق عقيب وساوسه للخلق ضلالاً، فهو الهادي والمُضِل، وهو ـ سبحانه ـ المُصَرِّفُ للكل، فيخلق (. . . .)[1] في قلوبهم عُقَيْبَ وساوسه إليهم طول الآمال، ويُحَسِّن في أعينهم قبيح الأعمال، ثم لا يجعل لأمانيِّهم تحقيقاً، ولا يعقب لما أمَلُوه تصديقاً، فهو تعالى مُوجِد تلك الآثار جملةً، ويضيفها إلى الشيطان مرةً، وإلى الكافر مرة، وهذا معنى قوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ . . . الآية ومعنى قوله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾.

الذين قسم لهم الضلالة في الحال حكم عليهم بالعقوبة في المآل، ولولا أنه

(١) بياض في الأصل.

أظهر ما أظهر بقدرته وإلا متى كانت شظية من الضلالة والهداية لأربابها؟! والوقوفُ على صدق التوحيد عزيزٌ، وأربابُ التوحيد قليلٌ.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾.

الذين أسعدناهم حكماً وقَوْلاً، أنجدناهم حين أوجدناهم كرماً وطَوْلاً، ثم إنَّا نُحقِّق لهم الموعودَ من الثواب، بما نُكرِمُهم به من حسن المآب.

قوله جل ذكره: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾.

مَنْ زَرَعَ الحنظل(١) لم يجتنِ الورد والعبهر(٢)، ومن شرب السُّمَّ الزَّعاف(٣) لم يجد طعم العسل، كذلك مَنْ ضيَّعَ حقَّ الخدمة لم يستمكِنْ على بساط القربة، وَمَنْ وُسِمَ بالشِّقوة لم يُرْزَقْ الصفوة، ومَنْ نَفَتْه القضية فلا ناصرَ له من البَرِيَّة.

قوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ الآية. مَنْ تَعَنَّي في خدمتنا لم يبق عن نَيْلِ نعمتنا، بل من أغنيناه في طلبنا أكرمناه بوجودنا، بل من جرَّعْنَاه كأسَ اشتياقنا أنلناه أُنسَ لقائنا.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾.

لا أحدَ أحسنُ ديناً ممن أسلم وجهه لله؛ يعني أفرد قصده إلى الله، وأخلص عقده لله عما سوى الله، ثم استسلم في عموم أحواله لله بالله، ولم يدَّخِرْ شيئاً عن الله؛ لا من ماله ولا من جَسَدِه، ولا من روحه ولا من جَلَدِه، ولا من أهله ولا من وَلَدِه، وكذلك كان حال إبراهيم عليه السلام.

وقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾: الإحسان ـ بشهادة الشرع ـ أن تعبد الله كأنَّك تراه، ولا بد للعبد من بقية(٤) من عين الفرق حتى يصحّ قيامه بحقوقه ـ سبحانه ـ لأنه إذا حصل

(١) الحنظل: نبات عشبي بري حولي معترش من فصيلة القرعيات، ثمرته في حجم البرتقالة ولونها، فيها لب شديد المرارة. كان ولا يزال يُستعمل في الطب، ويُزرع في الحدائق الطبية.

(٢) العبهر: الياسمين، سمي به لنعمته، وقيل: النرجس، وقيل: هو نبت ولم يُحَلّ (اللسان ٤/ ٥٣٦).

(٣) سمّ زعاف: سريع القتل.

(٤) أي يجب أن يرد إلى الفرق الثاني وهو أن يردّ إلى الصحو عند أوقات الفرائض ليجري عليه القيام بالفرائض في أوقاتها فيكون رجوعاً لله بالله تعالى. (الرسالة القشيرية ص٦٦).

مستوفيّ بالحقيقة لم يصح إسلامه ولا إحسانه، وهذا اتّباع إبراهيم عليه السلام الحنيف الذي لم يبق منه شيء على وصف الدوام.

وقوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾: جرَّد الحديث عن كل سعي وكدٍ وطلب وجهدٍ حيث قال: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ فعُلِمَ أنَ الخلَّة لُبسةٌ يُلبِسها الحقُّ لا صفةٌ يكتسبها العبد.

ويقال الخليل المحتاج بالكلية إلى الحق في كل نَفَسٍ ليس له شيء منه بل هو بالله لله في جميع أنفاسه وأحواله، اشتقاقاً من الخُلَّة التي هي الخَصَاصة وهي الحاجة.

ويقال إنه من الخلة التي هي المحبة، والخلة أن تباشِر المحبةُ جميع أجزائه، وتتخلل سِرَّه حتى لا يكون فيه مساغ للغير.

فلمَّا صفَّاه الله ـ سبحانه ـ (عليه السلام) عنه، وأخلاه منه نَصَبَه للقيام بحقه بعد امتحانه عن كل شيء ليس الله سبحانه.

ثم قال: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج: ٢٧] لا يلبي الحاج إلا لله، وهذه إشارة إلى جمع الجمع.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾.

نهاهم عن الطمع الذي يحملهم على الحيف(١) والظلم على المستضعفين من النِّسْوان واليتامى، وبَيَّنَ أنَّ المنتقِمَ به لهم الله، فَمَنْ راقب الله فيهم لم يخسر على الله بل يجد جميلَ الجزاء، ومن تجاسر عليهم قاسى لذلك أليمَ البلاء.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

صحبة الخلق بعضهم مع بعض إن تجردت عن حديث الحق فإنها تتعرض للوحشة والملامة، وممازجة النفرة والسامة(٢). فمَنْ أعرض عن الله بقلبه أعرض الخلْقُ عن مراعاة حقه، وخرج الكافة عليه باستصغار أمره واستحقار قَدْرِه. ومَنْ رجع إلى الله بقلبه، استوى له ـ في الجملة والتفصيل ـ أمرُه، واتسع لاحتمال ما يستقبل من

---

(١) الحيف: الجور والظلم.

(٢) النفرة: من الأمر: الانقباض منه. والسآمة: الملل والضجر.

سوء خُلُقِ الخَلْق صدرُه فهو يسحب ذيلَ العفو على هَنَاتِ جميعهم، ويُؤْثِرُ الصلح بترك نصيبه وتسليم نصيبهم قال الله تعالى: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾.

واتضاعك في نفسك عن منافرة مَنْ يخاصمك أجدى عليك، وأحرى لك من تطاولك على خصمك باغياً الانتقام، وشهودِ مَالَكَ في مزية المقام. وأكثر المنافقين في أسْرِ هذه المحنة.

قوله تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾: وشُحُّ النَفْس قيام العبد بحظّه.

فلا محالة مَنْ حُجِبَ عن شهود الحق رُدَّ إلى شهود النَّفْس.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟﴾: يعني يكن ذلك خيراً لكم. والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه.

﴿وَتَتَّقُوا۟﴾: يعني عن رؤيتكم مقامَ أنفسكم، وشهود قَدْرِكم، يعني وأنْ تروا ربّكم، وتفنوا برؤيته عن رؤية قدْرِكم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾: يعني إذا فنيتم عنكم وعن عملكم، فكفى بالله عليماً بعد فنائكم، وكفى به موجداً عقب امتحائكم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

يعني أنكم إذا (....)[١] في أموركم انعكس الحال عليكم، وانعكس صلاح ذات بينكم فساداً لكم، فإذا قمتم بالله في أموركم استوى العيشُ لكم، وصفا عن الكدر وقتكم.

ويقال مَنْ حَكَم الله بنقصان عقله في حاله فلا تقتدرون أن تجبروا نقصانهم بكفايتكم.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾: يعني لا تزيغوا[٢] عن نهج الأمر. قِفوا حيثما وُقِفْتم، وأنفذوا فيما أُمِرْتُم.

وقوله: ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ يعني أنكم إذا منعتموهن عن صحبة أغياركم ثم قطعتم عنهن ما هو حظوظهن منكم أضررتم بهن من الوجهين؛ لا منكم نصيب، ولا إلى غيركم سبيل، وإن هذا الحيف عظيم. والإشارة من هذا أنه إذا انسد عليك طريق حظوظك فَتَحَ ـ سبحانه ـ عليك شهود حقه، ووجود لطفه؛ فإنَّ من كان في الله تلَفُه فالحق ـ سبحانه ـ خَلَفُه، وإنْ تُصْلِحوا ما بينكم وبين الخَلْق،

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) الزيغ: الميل عن الحق.

وتثقوا فيما بينكم وبين الحق فإن الله غفور لعيوبكم، رحيم بالعفو عن ذنوبكم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾.

الصحبة التي لا بُدَّ منها صحبةُ القلب مع دوام افتقارِ إلى الله؛ إذ الحقُّ لا بُدَّ منه. فأمَّا الأغيار فلا حاجة لبعضهم إلى بعض إلا من حيث الظاهر، وذلك في ظنون أصحاب التفرقة، فأمَّا أهل التحقيق فلا تحرية لهم أن حاجة الخلق بجملتها إلى الله سبحانه.

قوله جل ذكره: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾.

كلَّف الكافة بالرجوع إليه، ومجانبة مَنْ سِواه، والوقوف على أمره، ولكن فريقاً وُفِّق وفريقاً خُذِل. ثم عَرَّفَ أهلَ التحقيق أنه غَنِيٌّ عن طاعة كلِّ وليٍّ، وبريء عن زلة كل غويٍّ.

قوله جل ذكره: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

قَطَعَ الأسرار عن التَّعلُّق بالأغيار بأن عرَّفهم انفراده بمُلْكِ ما في السموات والأرض، ثم أطمعهم في حسن تولِّيه، وقيامه بما يحتاجون إليه بجميل اللطف وحسن الكفاية بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ يصلح يملك حالك ولا يختزل مالك.

قوله جل ذكره: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾.

من استغنى عنه في آزاله فلا حاجة له إليه في آباده. ويقال لا يحتاج إلى أحدٍ والعبد لا يستغني عنه في نَفَسٍ.

ويقال لا نهاية للمقدورات فإن لم يكن عمرو فَزَيْدٌ، وإن لم يكن عبدٌ فعبيد، والذي لا بَدَلَ عنه ولا خَلَفَ فهو الواحد احد.

قوله جل ذكره: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾.

لمَّا علَّقوا قلوبهم بالعاجل من الدنيا ذكَّرهم حديث الآخرة، فقال: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ﴾ تعريفاً لهم أنَّ فوق هممهم من هذه الخسيسة ما هو أعلى منها من نعيم الآخرة، فلمَّا سَمَتْ إلى الآخرة قصودُهم قطعهم عن كل مرسوم ومخلوق بقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣].

قوله جل ذكره: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ

﴿... أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

القسط العدل، والقيام بالله العدل بإيفاء حقوقه من نفسك، واستيفاء حقوقه مِنْ كلِّ مَنْ هو لَكَ عليه أمر، وإلى تحصيل ذلك الحق سبيل إمَّا أمر بمعروف أو زجر عن مكروه أو وعظ بنصح أو إرشاد إلى شرع أو هداية إلى حق.

ومَنْ بقي لله عليه حق لم يباشر خلاصة التحقيق سره لله.

وأصل الدِّين إيثار حق الحق على حق الخلق، فمن آثر على الله ـ سبحانه أحداً إمَّا والداً أو أُمّاً أو وَلَداً أو قريباً أو نسيباً، أو ادَّخر عنه نصيباً فهو بمعزل عن القيام بالقسط.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾.

يا أيها الذين آمنوا من حيث البرهان آمِنوا من حيث البيان إلى أن تؤمنوا من حيث الكشف والعيان.

ويقال يا أيها الذين آمنوا تصديقاً آمنوا تحقيقاً بأن نجاتكم بفضله لا بإيمانكم.

ويقال يا أيها الذين آمنوا في الحال آمنوا باستدامة الإيمان إلى المآل.

ويقال يا أيها الذين آمنوا وراء كل وصل وفصل ووجد وفقد.

ويقال يا أيها الذين آمنوا باستعمال أدلة العقول آمنوا إذا أنختم بعقوة الوصول، واستمكنت منكم حيرة البديهة وغلبات الذهول ثم أفقتم عن تلك الغيبة فآمنوا أن الذي كان غالباً عليكم كان شاهد الحق لا حقيقة الذات فإن الصمدية منزهة متقدسة عن كل قرب وبعد، ووصل وفصل.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

الذين تبدَّلَتْ بهم الأحوال فقاموا وسقطوا ثم انتعشوا ثم ختم بالسوء أحوالهم، أولئك الذين قصمتهم سطوة العزة حكماً، وأدركتهم شقاوة القسمة خاتمة وحالاً ـ فالحقُّ سبحانه لا يهديهم لقصد، ولا يدلهم على رشد، فبَشِّرْهم بالفُرْقة الأبدية، وأخبرهم بالعقوبة السرمدية[1].

---

(١) السَّرمد: الدائم الذي لا ينقطع.

قوله جل ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾.

من اعتصم بمخلوقٍ فقد التجأ إلى غير مُجير، واستند إلى غير كهفٍ، وسقط في مهواة من الغلط بعيد قعرها، شديد مكرها. أيبتغون العِزَّ عند الذي أصابه ذلّ التكوين؟! متى يكون له عزٌّ على التحقيق؟ ومَنْ لا عزَّ له يلزمه فكيف يكون له عز يتعدَّى إلى غيره؟

ويقال لا ندري أي حالتهم أقبح: طلب العز وهم في ذل القهر وأسر القبضة أم حسبان ذلك وتوهمه من غير الله؟

ويقال مَنْ طَلَبَ الشيء من غير وجهه فالإخفاق غاية جهده، ومن رام الغنى في مواطن الفاقة فالإملاق قصارى كدِّه.

ويقال لو هُدُوا بوجدان العِزّ لما صُرِفَتْ قُصُودُهم إلى من ليس بيده شيء من الأمر.

قوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ العزُّ على قسمين: عزٌّ قديمٌ فهو لله وصفاً، وعزٌّ حادثٌ يختص به سبحانه من يشاء فهو له ـ تعالى ـ مِلْكاً ومنه لطفاً.

قوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآية: لا تجاوروا أرباب الوحشة فإن ظلماتِ أنفسِهم تتعدى إلى قلوبكم عند استنشاقكم ما يَرُدُّون من أنفاسهم، فمن كان بوصفٍ ما متحققاً شاركه حاضروه فيه؛ فجليسُ مَنْ هو في أُنْسٍ مستأنِسٍ، وجليسُ من هو في ظلمةٍ مستوحِش.

ويقال هجرانُ أعداءِ الحقّ فرضٌ، ومخالفة الأضداد ومفارقتهم دين، والركون إلى أصحاب الغفلة قَرْعُ بابِ الفرقة.

قوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾: أوضحُ برهانٍ على سريرة (. . . . . .)[1] صحبة من يقارنه وعِشْرة مَنْ يخادنه؛ فالشكل مقيد بشكله، والفرعُ منتشِرٌ عن أصله.

قوله جل ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

---

(١) بياض في الأصل.

لمَّا عَدِموا الإخلاص في الحقيقة، وما ذقوا فيما استشعروا من العقيدة، امتازوا[١] عن المسلمين في الحُكْم، وباينوا الكافرين في الاسم، وواجبٌ على أهل الحقِّ التحرُّزُ عنهم والتحفُّظ منهم، ثم ضمن لهم ـ سبحانه ـ جميلَ الكفاية بقوله: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ وهذا على العموم؛ فإن وبال كيدهم إليهم مصروف، وجزاء مَكْرِهم عليهم موقوف، والحقُّ ـ من قِبَلِ الحقِّ سبحانه ـ منصورٌ أهلُه، والباطلُ ـ بنصر الحقِّ سبحانه ـ مُجتثٌ أصلُه.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾.

خداع المنافقين: إظهار الوفاق في الطريقة واستشعار الشِرْك في العقيدة.

وخداع الحق إياهم: ما توهموه من الخلاص، وحكموا به لأنفسهم من استحقاق الاختصاص، فإذا كُشِفَ الغطاء أيقنوا أن الذي ظنُّوه شراباً كان سراباً، قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧].

وقوله: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟﴾ الآية: علامة النفاق وجود النشاط عند شهود الخلق، وفتور العزم عند فوات رؤية الخلق.

وقوله: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ الآية: أخسُّ الخَلْقِ من يَدَعُ صدار العبودية، ولم يجد سبيلاً إلى حقيقة الحرية[٢]، فلا له من العز شظية، ولا في الغفلة عيشة هنية.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾.

كرَّر عليهم الوعظ، وأكَّد بمباينة الأعداء عليهم الأمر، إبلاغاً في الإنذار، وتغليظاً في الزجر، وإلزاماً للحجة (. . . .)[٣] موضع العذر.

قوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾: تَوَعَّدهم على موالاتهم للكفار بما لم يتوعَّد على غيره من المخالفات، لما فيه من إيثار الغير على المعبود؛ وإيثارُ الغير على المحبوب من أعظم الكبائر في أحكام الوداد. فإذا شَغَلَ من قلبه

(١) امتاز الشيء: اعتزل وانفرد، أو بان من غيره لا يختلط ولا يلتبس.

(٢) قال القشيري برسالته: إن الحرية تتحدد في أن لا يكون العبد تحت رق المخلوقات ولا يجري عليه سلطان المكونات، وعلامة صحته سقوط التمييز عن قلبه بين الأشياء، فتتساوى عنده أخطار الإعراض. (الرسالة القشيرية ص٢١٨ ـ ٢١٩).

(٣) بياض في الأصل.

محلاً ـ كان للمؤمنين ـ بالأغيار استوجب ذلك العقوبة فكيف إذا شغل محلاً من قلبه ـ هو للحق ـ بالغير؟!

والعقوبة التي تَوَعَّدَهم بها أنْ يَكِلهَم وما اختاروه من موالاة الكفار، وبئس البدل!

كذلك مَنْ بقي عن الحق تركه مع الخَلْق؛ فيتضاعف عليه البلاءُ للبقاء عن الحق والبقاء مع الخلق، وكلاهما شديدٌ مِنَ العقوبة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾.

دلَّت الآية على أنَّ المنافق ليس بمُسْتأمنٍ لأنَّ الإيمان ما يوجب الأمان، فالمؤمن يتخلَّص بإيمانه من النار، فما يكون سبب وقوعه في الدرك الأسفل من النار لا يكون إيماناً، ويقال هذا تحقيق قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤، والأنفال: ٣٠] أي مَكْرُه فوق كل مَكْرٍ. لمَّا أظهر المنافق ما هو مكر مع المؤمنين كانت عقوبتهم أشد من عقوبة من جاهر بكفره.

ويقال نقلهم في آجلهم إلى أشد ما هم عليه في عاجلهم، لِمَا في الخبر: «من كان بحالةٍ لقي الله بها» فالمنافق ـ اليومَ ـ في الدرك ـ الأسفل من الحجر ـ فكذلك ينقلون إلى الدرك الأسفل من النار. والدرك الأسفل من الحجر ـ اليوم ـ لهم ما عليهم من اسم الإيمان وليس لهم من الله شظية وهذا هو البلاء الأكبر.

ويقال استوجبوا الدرك الأسفل من النار لأنهم صحبوا اليوم اسم الله الأعظم لا على طريقة الحرمة. ويقال استوجبوا ذلك لأنهم أساءوا الأدب في حال حضورهم بألسنتهم، وسوءُ الأدبِ يوجِبُ الطردَ.

قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

لم يشترط كل هذه الشرائط في رجوع أحدٍ عن جُرْمِه ما اشترط في رجوع المنافقين عن نفاقهم لصعوبة حالهم في كفرهم. وبعد تحصيلهم هذه الشروط قال لهم: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقل من المؤمنين، وفي هذا إشارة أيضاً إلى نقصان رتبتهم وإن تداركوا بإخلاصهم ما سبق من آفتهم، وفي معناه أنشدوا:

والعُذر مبسوطٌ ولكنما شتان بين العذر والشكر

ويقال إن حرف (مع) للمصاحبة، فإذا كانوا مع المؤمنين استوجبوا ما يستوجب جماعة المؤمنين، فالتوبة ههنا أي رجعوا عن نفاقهم، وأصلحوا ـ بصدقهم في إيمانهم، واعتصموا بالله بالتبرؤ من حولهم وقوتهم، وشاهدوا المِنَّة لله عليهم حيث هداهم، وعن نفاقهم نجَّاهم.

قوله: ﴿وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾: ونجاتهم بفضل ربهم لا بإيمانهم في الحال، ورجوعهم عن نفاقهم فيما مضى عليهم من الأحوال.

ويقال أخلصوا دينهم لله وهو دوام الاستعانة بالله في أن يثبتهم على الإيمان، ويعصمهم عن الرجوع إلى ما كانوا عليه من النفاق.

ويُقال: تابوا عن النفاق، وأصلحوا بالإخلاص في الاعتقاد، واعتصموا بالله باستدعاء التوفيق وأخلصوا دينهم لله في أن نجاتهم بفضل الله ولطفه لا بإتيانهم بهذه الأشياء ـ في التحقيق.

قوله جل ذكره: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾.

هذه الآية من الآيات التي توجب حُسْنَ الرجاء وقوة الأمل، لأنه جعل من أمارات الأمان من العقوبات شيئين اثنين: الشكر والإيمان، وهما خصلتان يسيرتان خفيفتان؛ فإن الشكر قالة، والإيمان حالة، ولقد هوَّن السبيل على العبد حين رضي منه بقالته وحالته. والشكر لا يصح إلا من المؤمنين فأمَّا الكافر فلا يصح منه الشكر؛ لأن الشكر طاعته والطاعة لا تصح من غير المؤمن.

وقوله: ﴿وَءَامَنتُمْۚ﴾ يعني في المآل؛ فكأنه بيَّن أن النجاة إنما تكون لمن كانت عاقبته على الإيمان، فمعنى الآية لا يعذبكم الله عذاب التخليد، إن شكرتم في الحال وآمنتم في المآل.

ويقال: إن شكرتم وآمنتم صدقتم بأن نجاتكم بالله لا بشكركم وبإيمانكم.

ويقال الشكر شهود النعمة من الله والإيمان رؤية الله في النعمة، فكأنه قال: إن شاهدتم النعمة من الله فلا يقطعنكم شهودها عن شهود المُنعِم.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ أي والله شاكر عليم، ومعنى كونه شاكراً أنه مادِحٌ للعبد ومُشهِدٌ عليه فيما يفعله لأن حقيقة الشكر وحَدَّه الثناء على المُحْسِن بذكر إحسانه؛ فالعبد يشكر الله أي يثني عليه بذكر إحسانه إليه الذي هو نعمته عليه، والربُّ يشكر للعبد أن يثني عليه بذكر إحسانه الذي هو طاعته له، فإن الله يثني عليه بما يفعله من الطاعة مع علمه بأن له ذنوباً كثيرة.

ويقال يشكره ـ وإنْ عَلِمَ أنه سيرجع في المستأنف إلى قبيح أعماله.

ويقال يشكره لأنه يعلم ضعفه، ويقال يشكره لأنه يعلم أنه لا يعصي وقَصْدُه مخالفةُ ربِّه ولكنه يُذْنِبُ لاستيلاء أحوال البشرية عليه من شهوات غالبة.

ويقال يشكره لأن العبد يعلم في حالة ذنوبه أنه له ربّاً يغفر له.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾.

قول المظلوم في ظالمه ـ على وجه الإذن له ـ ليس بسوءٍ في الحقيقة، لكنه يصح وقوع لفظة السوء عليه كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] والجزاء ليس بسيئة.

ويقال مَنْ عَلِمَ أن مولاه يسمع استحيا من النطق بكثيرٍ مما تدعو نفسه إليه.

ويقال الجهر بالسوء هو ما تسمعه نفسك منك فيما تُحدِّثُ في نفسك من مساءة الخلق؛ فإن الخواص يحاسبون على ما يتحدثون في أنفسهم بما (يعد) لا يُطالَب به كثيرٌ من العوام فيما يَسمعُ منهم الناس.

قوله: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾: قيل ولا من ظُلِمَ. وقيل معناه ولكن مَنْ ظُلِمَ فله أنْ يذكرَ ظالمَه بالسوء.

ويقال من لم يُؤْثِرْ مدحَ الحقِّ على القَدْحِ[1] في الخَلْق فهو المغبون في الحال.

ويقال من طَالَعَ الخلْقَ بعين الإضافة إلى الحق بأنهم عبيد الله لم يبسط فيهم لسان اللوم؛ يقول الرجل لصاحبه: «أنا أحتَمِل من (. . . .)[2] خدمتك لك ما لا أحتمله من ولدي»، فإذا كان مثل هذا معهوداً بين الخلق فالعبد بمراعاة هذا الأدب ـ بينه وبين مولاه ـ أوْلى.

ويقال لا يحب الله الجهر بالسوء من القول من العوام، ولا يحب ذلك بخطوره من الخواص.

ويقال الجهر بالسوء من القول من العوام أن يقول في صفة الله ما لم يَرِدْ به الإذن والتوفيق.

والجهر بالسوء من القول في صفة الخَلْق أن تقول ما ورد الشرع بالمنع منه، وتقول في صفة الحق ما لا يتصف به فإنك تكون فيه كاذباً، وفي صفة الخلق عن الخواص ما اتصفوا به من النقصان ـ وإن كنت فيه صادقاً.

قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾: سميعاً لأقوالكم، عليماً بعيوبكم، يعني لا تقولوا للأغيار ما تعلمون أنكم بمثابتهم.

ويقال سميعاً لأقوالكم عليماً ببراءةِ ساحةِ مَنْ تَقَوَّلْتُم عليه، فيكون فيه تهديد للقائل ـ لبرىء الساحة ـ بما يتقَوَّلُ عليه.

(١) القَدْح: الطعن والذم.

(٢) بياض في الأصل.

ويقال سميعاً: أيها الظالم، عليماً: أيها المظلوم؛ تهديدٌ لهؤلاء وتبشيرٌ لهؤلاء.

قوله جل ذكره: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾.

﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا﴾ تخلقاً بآداب الشريعة، وتخفوه تحققاً بأحكام الحقيقة.

﴿أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ﴾ أخذاً من الله ما ندبكم إليه من محاسن الخُلُق.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾ لعيوبكم ﴿قَدِيرًا﴾ على تحصيل محبوبكم وتحقيق مطلوبكم.

ويقال إن تبدوا خيراً لتكونوا للناس قدوة فيما تُسِنُّون وما تعينون غيركم على ما يُهَذون به من سلوك سُنَّتكم، وإن تخفوه اكتفاءً بعلمه، وصيانة لنفوسكم عن آفات التصنُّع، وثقةً بأن من تعملون له يرى ذلك ويعلمه منكم، وإن تعفوا عن سوءٍ أي تتركوا ما تدعوكم إليه نفوسكم فالله يجازيكم بعفوه على ما تفعلون، وهو قادر على أن يبتليكم بما ابتلى به الظالم، فيكون تحذيراً لهم من أن يغفلوا عن شهود المنَّة، وتنبيهاً على أن يستعيذوا أن يُسلَبوا العصمة، وأنْ يُخْذَلوا حتى يقعوا في الفتنة والمحنة.

ويقال إنْ تبدوا خيراً فتحسنوا إلى الناس، أو تخفوه بأن تدعوا لهم في السرّ، أو تعفوا عن سوءٍ إنْ ظُلِمْتم.

ويقال من أحسن إليك فأبْدِ معه خيراً جهراً، ومن كفاك شرَّه فأخلِصْ بالولاء والدعاء له سِرّاً، ومن أساء إليك فاعفُ عنه كرماً وفضلاً؛ تجِدْ من الله عفوَه عنك عما ارتكبت، فإن ذنوبَك أكثرُ، وهو قادرٌ على أنْ يُعطيَك من الفضل والإنعام ما لا تصل إليه بالانتصاف من خصمك، وما تجده بالانتقام.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

أخبر عنهم أنهم أضافوا إلى قبيح كفرهم ما عُدَّ من ذميم فعلهم، ثم بَيَّنَ أنه ضاعف من عذابهم ما كان جزاء جرمهم، لِتَعْلَمَ أنه لأهل الفساد بالمرصاد.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

لما آمنوا بجميع الرسل، وصَدَقُوا في جميع ما أُمِروا به استوجبوا القبول وحسن الجزاء. وتقاصر الإيمان عن بعض الأعيان كتقاصره عن بعض الأزمان، فكما أنه لا يقبل إيمان من لم يستغرق إيمانه جميع (....)[1] إلى آخر ما له ـ كذلك لا يقبل

(١) بياض في الأصل.

إيمان من لم يستغرق إيمانه جميع من أُمِرَ بالإيمان به؛ إذ جعل ذلك شرط تحقيقه وكماله. فالإشارة في هذا أن من لم يخرج عن عهدة الإلزام بالكلية فليس له من حقيقة الوصل شظية، قال ﷺ: «الحجُّ عرفة»[١] فمن قطع المسافة - وإن كان من فج عميق - ثم بقي عن عرفات[٢] بأدنى بقية لم يُدْرِك الحج.

وقال ﷺ: «المكاتَبُ عَبْدٌ ما بقي عليه درهم»[٣].

قوله جل ذكره: ﴿يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ السَّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾.

اشتملت الآية على جنسين من قبيح ما فعلوه: أحدهما سؤالهم الرؤية والثاني عبادة العجل بعدما ظهرت لهم الآيات الباهرة.

فأمّا سؤالهم الرؤية فَذُمُّوا عليه لأنهم اقترحوا عليه ذلك بعد ما قطع عذرهم بإقامة المعجزات، ثم طلبوا الرؤية لا على وجه التعليم، أو على موجب التصديق به، أو على ما تحملهم عليه شدة الاشتياق، وكل ذلك سوء أدب.

الإشارة فيه أيضاً أنْ مَنْ يكتفي بأن يكون العجلُ معبودَه - متى - يسلم له أن يكون الحقُّ مشهودَه؟

ويقال القومُ لم يباشِرْ العرفانُ أسرارَهم فلذلك عكفوا بعقولهم[٤] على ما يليق بهم من محدودٍ جوَّزوا أنْ يكون معبودَهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾.

حجةً ظاهرةً، بل تفرداً صَانَه من التمثيل والتعطيل.

والسلطان المبين التحصيل والتنزيه المانع من التعطيل والتشبيه.

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (المناسك ب٦٩)، والترمذي في (السنن ٨٨٩)، والنسائي في (السنن ٥/ ٢٥٦، ٢٦٤)، وابن ماجه في (السنن ٣٠١٥)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٥/ ١٥٢ - ١٧٣) والحاكم في (المستدرك ١/ ٢٦٤، ٢/ ٢٧٨)، وابن حجر في (فتح الباري ١/ ٩٤)، والألباني في (إرواء الغليل ٤/ ٢٥٦)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٤/ ٢٨٩)، والزيلعي في (نصب الراية ٣/ ٩٢، ٩٣)، وابن حجر في (تلخيص الحبير ٢/ ٢٥٥)، وابن الجوزي في (زاد المسير ١/ ٢١٠)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٢٠٦١، ١٢٠٦٥)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٢/ ١١١، ٥/ ٢٤٢)، وابن خزيمة في (الصحيح ٢٨٢٢)، والعقيلي في (الضعفاء ٢/ ٣٢) والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٤٤٠)، والدارقطني في (السنن ٢/ ٢٤١).

(٢) عرفات: جبل قرب مكة يقف عليه الحجاج يوم التاسع من ذي الحجة.

(٣) أخرجه أبو داود (عتاق، ١)، والترمذي (بيوع ٣٥)، والموطأ (مكاتب ١، ٢).

(٤) انظر الرسالة القشيرية ص٣٧٨.

ويقال السلطان المبين القوة بسماع الخطاب من غير واسطة.

ويقال السلطان المبين لهذه الأمة غداً، وهو بقاؤهم في حال لقائهم - قال ﷺ: «لا تضامون في رؤيته»[(١)] - في خبر الرؤية.

قوله جل ذكره: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾.

ما زادهم في الظاهر آيةً إلا زادوا في قلوبهم جحداً ونُكراً، فلم تنفعهم زيادة نصيب الإعلام؛ لمَّا لم تنفتح لشهودها بصائرُ قلوبهم، قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

قوله جل ذكره: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

معناه لارتكابهم هذه المناهي، ولاتصافهم بهذه المخازي، أحللناهم منازل الهوان، وأنزلنا بهم من العقوبة فنون الألوان.

ويقال لِحَقَهُمْ شؤم المخالفات حالة بعد حالة، لأن من عقوبات المعاصي الخذلان لغيرها من ارتكاب المناهي؛ فَبِنَقْضِهِم الميثاق، ثم لم يتوبوا، جرَّهم إلى كفرهم بالآيات، ثم لشؤم كفرهم خذِلُوا حتى قتلوا أنبياءهم - عليهم السلام - بغير حق، ثم لشؤم ذلك تجاسروا حتى ادَّعوا شدةَ التفهُّم، وقالوا: قلوبنا أوعية العلوم، فَرَدَّ الله عليهم وقال: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ فحَجَبَهُمْ عن محلِّ العرفان، فعمهوا في ضلالتهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ۝ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

مجاوزةُ الحدِّ ضلالٌ، كما أن النقصانَ والتقاصرَ عن الحقِّ ضلالٌ، فقومٌ تَقَوَّلُوا على مريم ورموها بالزنا، وآخرون جاوزوا الحدَّ في تعظيمها فقالوا: ابنُها ابنُ الله، وكلا الطائفتين وقعوا في الضلال.

ويقال مريم - رضي الله عنها - كانت وليَّةَ الله، فَشَقِيَ بها فرقتان: أهل الإفراط وأهل التفريط. وكذلك كان أولياؤه - سبحانه - فمُنْكِرُهم يَشْقَى بِتَرْكِ احترامهم،

---

(١) أخرجه مسلم (مساجد ٢١١)، والبخاري (توحيد ٢٤)، (مواقيت ١٦، ٢٦)، (تفسير سورة ٥٠، ٢)، وأبو داود (سنة ١٩)، والترمذي (جنة ١٦، ١٧)، وابن ماجه (مقدمة ١٣)، وأحمد بن حنبل ٤، ٣٦٠، ٣٦٢، ٣٦٥.

والذين يعتقدون فيهم ما لا يستوجبونه يَشْقَوْن بالزيادة في إعظامهم، وعلى هذه الجملة دَرَجَ الأكثرون من الأكابر.

قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ قيل أوقع الله شَبَهَهُ على الساعي به فقُتِلَ وصُلِبَ مكانه، وقد قيل: مَنْ حفر بئراً لأخيه وقع فيها.

وقيل إن عيسى عليه السلام قال: مَنْ رَضِيَ بأن يُلْقَى عليه شَبَهِي فيُقتَل دوني فله الجنة، فرضي به بعضُ أصحابه، فيقال لمَّا صبر على مقاساة التلف لم يعدِم من الله الخلف، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

ويقال لمَّا صَحَّتْ صحبةُ الرجل مع عيسى - عليه السلام - بِنَفْسِهِ صَحِبَه بروحه، فلمَّا رُفِعَ عيسى - عليه السلام - إلى محل الزلفة، رفع روح هذا الذي فداه بنفسه إلى محل القربة.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾.

لما حكم بأن لا أمَان لهم في وقت اليأس لم ينفعهم الإيمان في تلك الحالة، فعُلِمَ أنَّ العِبْرَةَ بأمان الحقِّ لا بإيمان العبد.

قوله جل ذكره: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

يقال ارتكاب المحظورات يوجب تحريم المُبَاحَات.

فَمَنْ ركب محظوراً بظاهره حُرِم ما كان يجده من الأحوال المباحة، والألطاف الحاصلة في سرائره.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

الراسخ في العلم هو ألا يكونَ في الدليل مُقَلِّداً، كما لا يكون في الحكم مقلداً، بل يضع النظر موضعه إلى أن ينتهي إلىٰ حد لا يكون للشكِّ في عقله مساغ.

ويقال الراسخ في العلم من يرتقي عن حد تأمل البرهان ويصل إلى حقائق البيان.

ويقال الراسخ في العلم أن يكون بعلمه عامِلاً حتى يفيد عِلمَ ما خفي على غيره، ففي الخبر: «من عمل بما علمه ورَّثه الله علم ما لم يعلم».

وخَصَّ ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في الإعراب فنَصَب اللفظ بإضمار أعني على المدح لِمَا للصلاة من التخصيص من بين العبادات لأنها تالية الإيمان في أكثر المواضع في القرآن، ولأن الله ـ سبحانه ـ أمر الرسول ﷺ (بها)[1] ليلةَ المعراج[2] بغير واسطة جبريل عليه السلام. . . وغير هذا من الوجوه.

قوله تعالى ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾: الأجر العظيم هو الذي يزيد على قدر الاستحقاق بالعمل.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾.

إفراد النبي ﷺ من الأنبياء بالإيمان لإفرادهم بالتخصيص والفضيلة؛ فأفرد نوحاً على ما استحقه من المقام وأفرد رسولنا عليه السلام على ما استحقه هو، فاشتركا في الإفراد لكنهما تباينا في الفضيلة على حسب المقام، فتفرَّد واحد من بين أشكاله بغير فضائل، وتفرَّد آخر من بين أضرابه بألف فضيلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾.

سُنَّةُ الله في أوليائه سترُ قوم، وشَهْرُ قوم، وبذلك جَرَتْ سُنَّتُه أيضاً في الأنبياء ـ عليهم السلام ـ أظهر أسماء قوم وأجمل تفصيل آخرين. والإيمان واجب بجميع الأنبياء جملة وتفصيلاً، كما أنَّ الاحترام واجب لجميع الأولياء جملة وتفصيلاً، وكذلك أحوال العباد ستر عليهم بعضاً وأظهر لهم بعضها، فما أظهرها لهم ـ طالبهم بالإخلاص فيها، وما سترها عليهم ـ فلأنه غار[3] على قلوبهم من ملاحظة أحوالهم تأهيلاً لهم للاختصاص بحقائق أفردهم بمعانيها.

---

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) المعراج: ما عَرَج عليه النبي ﷺ ليلة الإسراء.

(٣) جاء في حديث القشيري عن الغيرة: قال رسول الله ﷺ: «ما أحد أغير من الله تعالى، ومن غيرته حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن». وقال رسول الله ﷺ: «إن الله يغار، وإن المؤمن يغار وغيرة الله تعالى أن يأتي العبد المؤمن ما حرم الله تعالى عليه». فالغيرة كراهية مشاركة الآخرين، وإذا وصف الحق سبحانه بالغيرة فمعناه أنه لا يرضى بمشاركة غيره معه، فيما هو حق له من طاعة عبده. (الرسالة القشيرية ص٢٥٤ ـ ٢٥٥).

﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ : إخبار عن تخصيصه إياه باستماع كلامه بلا واسطة.

قوله جلّ ذكره: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

.وقَفَ الخلْقَ عند مقاديرهم؛ وبيَّن أنه أرسل إليهم الرسل فتفردوا عليهم إلى اجتباء ثوابهم، واجتناب ما فيه استحقاق عذابهم، وأنه ليس للخلْق سبيل إلى راحة يطلبونها ولا إلى آفة يجتنبونها إما في الحال أو في المآل.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾.

أنَّى يكون لمن له إلى الله حاجة على الله حُجَّة؟! ولكنَّ الله خاطبهم على حسب عقولهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

سلَّاه الله عن تكذيب الخلق إياه بما ذكره من علم الله بصدقه، ولذلك قال: **﴿وكفى بالله شهيداً﴾**.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾.

جعل صدَّهم المؤمنين من اتباع الحقّ كفرهم بالله، واللّهُ تعالى عظَّم حقوق أوليائه كتعظيم حقّ نفسه، ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ﴾ جعل ظُلْمَهُم سبيلَ كفرهم، فعَلَّقَ استحقاق العقوبة المؤبَّدة عليها جميعاً. والظلم ـ وإنْ لم يكن كالكفر في استحقاق وعيد الأبد ـ فلِشُؤْمِ الظلم لا يبعد أن يخذلَه اللّهُ حتى يُوافِيَ ربَّه على الكفر.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ : أخبر أنه سبحانه غني عنهم، فإنْ آمنوا فحظوظ أنفسهم اكتسبوها وإن كفروا فَبَلَايَاهُم لأنفسهم اجتلبوها. والحقُّ ـ تعالى ـ مُنَزَّه الوصف عن (الجهل) لوفاق أحدٍ، والنقص لخلاف أحد.

قوله: ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ يعني إن خرجوا عن استعمال العبودية ـ فعلاً، لم يخرجوا عن حقيقة كونهم عبيده ـ خلْقاً، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٩٣].

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

غُلُوُّهم في دينهم جَرْيُهم على مقتضى حسبانهم؛ حيث وصفوا ـ بمشابهة الخلْق ـ معبودَهم، ثم مناقضتهم؛ حيث قالوا الواحد ثلاثة والثلاثة واحد، والتمادي في الباطل لا يزيد غير الباطل.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

كيف يستنكف عن عبوديته وبالعبودية شَرَفُه، وكيف يستكبر عن التذلُّلِ وفي استكباره تَلَفُه، ولهذا الشأن نطق المسيح أول ما نطق بقوله: إني عبد الله، وتجمُّل العبيد في التذلل للسَّادة، هذا معلوم لا تدخله ريبة.

وقوله: ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ لا يدل على أنهم أفضل من المسيح، لأنه إنما خاطبهم على حسب عقائدهم، والقوم اعتقدوا تفضيل الملائكة على بني آدم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

العذاب الأليم ألا يصلوا إليه أبداً بعدما عرفوا جلاله، فإذا صارت معارفُهم ضروريةً فإنهم يعرفون أنهم عنه بقوا، فَحَسَراتُهم حينئذ على ما فاتهم أشدُّ عقوبة لهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

البرهان ما لاح في سرائرهم من شواهد الحق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾.

وهو خطابه الذي في تأملهم معانيه حصولُ استبصارهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ﴾.

﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ﴾: والسين للاستقبال أي يحفظ عليهم إيمانهم في المآل عند التوفي، كما أكرمهم بالعرفان والإيمان في الحال.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾.

هذه الهداية هي إكرامهم بأن عرفوا أن هذه الهداية من الله فضل لا لأنهم استوجبوها بطلبهم وجهدهم، ولا بتعبهم وكدّهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

قطع الخصومة بينهم في قسمة الميراث فيما أظهر لهم من النصّ على الحكم، فإن المال محبَّبٌ إلى الإنسان، وجُبِلَت النفوس على الشحّ؛ فلو لم ينص على مقادير الاستحقاق (لقابلة الأشباه) في الاجتهاد، فكان يؤدي ذلك إلى التجاذب والتواثب؛ فَحَسَمَ تلك الجملة بما نصَّ على المقادير في الميراث قطعاً للخصام. ولتوريثه للنسوان ـ وإن لم يوجد منهن الذبُّ عن العشيرة ـ دلالة على النظر لضعفهن. وفي تفضيل الذكور عليهنِ لِمَا عليهم مِنْ حَملِ المؤن وكذا السعي في تحصيل المال، والقيام عليهن.

السورة التي تذكر فيها المائدة

بسم الله الرحمن الرحيم

سَمَاعُ اسم الله يُوجِبُ الهيبة، (والهيبة)[1] تتضمن الفناء والغيبة، وسماع الرحمن الرحيم يوجب الحضور والأوبة، والحضور يتضمن البقاء والقربة.

فمن أسمعه «بسم الله» أدهشه في كشف جلاله، ومن أسمعه «الرحمن الرحيم» عَيَّشه بلُطْفِ أفضاله.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١].

«يا» حرف نداء، و «أي» اسم منادى، «ها» تنبيه و ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ صلة المنادى. ناداهم قبل أن بداهم، وسمَّاهم قبل أن يراهم، وأَهَّلهم في آزالهِ لِمَا أوصلهم إليه في آباده.

شرَّفهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وكلَّفهم بقوله ﴿أوفوا﴾ ولمَا عَلِمَ أن التكليف يوجب المشقة قَدَّم التشريف بالثناءِ على التكليف الموجِب للعناءِ.

ويقال الإيمانُ صنفان: أحدهما يشير إلى عين الجود، والثاني إلى بذل المجهود. فَبَذْلُ المجهوّدِ خِدْمَتُك، وعين الجود قِسْمَتُه؛ فبخدمتك عناءُ الأشباح، وبقسمته ضياءُ الأرواح.

وحقيقة الإيمان تحقق القلب بما أخبر من الغيب.

ويقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: يا مَنْ دخلوا في إيماني، ما وصلتم إلا أَماني إلا بسابق إحساني. ويقال يا مَنْ فتحتُ بصيرتَهم لشهود حقي حتى لا يكونوا كمن أعرضتُ عنهم مِنْ خَلْقِي.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾.

كُلُّ مُكلَّفٍ مُطَالَبٌ بالوفاء بعقده، والعقد، ما ألزمك بسابق إيجابه، ثم وفقَّكَ ـ

---

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

بعدما أظهرك عند خطابه ـ بجوابه[١]، فانبرم العقد بحصول الخطاب، والقبول بالجواب.

ويدخل في ذلك ـ بل يلتحق به ـ ما عَقَدَ القلبُ معه سِرًا بِسِرٍّ؛ من خلوصٍ له أضمره، أو شيء تبيَّنه، أو معنًى كوشف به أو طولب به فقَبِله.

ويقال الوفاء بالعهد بصفاء القصد، ولا يكون ذلك إلا بالتبرّي من المُنَّة، والتحقق بتولي الحق ـ سبحانه ـ بلطائف المِنَّة.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾.

تحليل بعض الحيوانات وإباحتها من غير جُرْم سَبَق منها، وتحريم بعضها والمنع من ذبحها من غير طاعة حصلت منها ـ دليلٌ على ألَّا عِلَّةَ لصنعه.

وحرَّم الصيد على المُحْرِم خصوصاً لأن المُحْرِمَ متجرِّدٌ عن نصيب نفسه بقصده إليه، فالأليق بصفاته كُفُّ الأذى عن كل حيوان.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.

لا حَجْرَ عليه في أفعاله، فيخصُّ من يشاء بالنُّعمى، ويفرد من يشاء بالبلوى؛ فهو يُمْضِي الأمور في آباده على حسب ما أراد وأخبر وقضى في آزاله.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾.

الشعائر معالم الدِّين، وتعظيم ذلك وإجلاله خلاصة الدين، ولا يكون ذلك إلا بالاستسلام عند هجوم التقدير، والتزام الأمر بجميل الاعتناق، وإخلال الشعائر (يكون) بالإخلال بالأوامر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾.

تعظيم المكان الذي عظَّمه الله، وإكرامُ الزمان الذي أكرمه الله. وتشريف الإعلام على ما أمر به الله ـ هو المطلوب من العبيد أمراً، والمحبوب منه حالاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾.

وبالحريِّ لمن يقصد البيت ألا يخالف ربَّ البيت.

والابتغاء للفضل والرضوان بتوقِّي موجبات السخط، ومجانبة العصيان.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾.

---

(١) يلمح هنا القشيري إلى قوله تعالى: **﴿ألست بربكم قالوا بلى﴾** [الأعراف: ١٧٢] شهدوا بذلك (اللسان ٤/ ٣٠٤).

وإذا خرجتم عن أمر حقوقنا فارجعوا إلى استجلاب حظوظكم، فأمّا ما دمتم تحت قهر بطشنا فلا نصيب لكم منكم، وإنكم لنا.

قوله ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ . . .﴾ أي لا يحملكم بغضُ قوم لأنهم صدوكم عن المسجد الحرام على ألا تجاوزوا حدَّ الإذن في الانتقام، أي كوُنوا قائمين بنا، متجردين عن كل نصيب وحَظٍّ لكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾.

البِرُّ فِعْلُ ما أُمِرتَ به، والتقوى تَرْكُ ما زُجِرتَ عنه.

ويقال البِرُّ إيثار حقه ـ سبحانه، والتقوى تركُ حظِّك.

ويقال البِرُّ موافقة الشرع، والتقوى مخالفةُ النَّفْس.

ويقال المعاونة على البِرّ بحُسْنِ النصيحة وجميل الإشارة للمؤمنين، والمعاونة على التقوى بالقبض على أيدي الخطائين بما يقتضيه الحال من جميل الوعظ وبليغ الزجر، وتمام المنع على ما يقتضيه شرط العلم.

والمعاونة على الإثم والعدوان بأن تعملَ شيئاً مما يقتدى بك لا يرضاه الدِّين، فيكون قولُك الذي تفعله ويقتدى بك (فيه) سُنَّةً تظهرها و (عليك) نبُوُّ وِزْرِها. وكذلك المعاونة على البر والتقوى أي الاتصاف بجميل الخِصال على الوجه الذي يُقْتدَى بكل فيه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

العقوبة ما تعقب الجُرْم بما يسوء صاحبه. وأشد العقوبة حجاب المُعَاقَبِ عن شهود المُعَاقِب؛ فإنَّ تَجرُّعَ كاساتِ البلاء بشهود المُبْلِي أحلى من العسل والشهد.

قوله جلّ ذكره: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾.

وأكل الميتة أن تتناول من عِرْضِ أخيك على وجه الغيبة، وليس ذلك مما فيه رخصةٌ بحالٍ لا بالاضطرارِ ولا بالاختيارِ، وغير هذا من المَيْتَةِ مباحٌ في حالِ الضرورة.

ويقال كما أَنَّ في الحيوان ما يكون المزكى منه مباحاً والميتة منه حراماً فكذلك من ذبح نفسه بسكاكين المجاهدات وطَهَّرَ نفسه ـ مُبَاحٌ قربه، حلال صحبته. ومَنْ ماتت نفسه في ظلمة غفلته حتى لا إحساسَ له بالأمور الدينية فخبيثةٌ نفسه، محظورٌ قُربُه، حرامٌ معاشرته، غيرُ مباركةٍ صحبتِه.

وإنَّ السلف سموا الدنيا خنزيرةً، ورأوا أَنَّ ما يُلْهِي قربُهُ، ويُنْسِي المعبودَ ركونُه، ويحمل على العصيان جنوحُه ـ فهو مُحرَّمٌ على القلوب؛ ففي طريقة القوم

حبُّ الدنيا حرامٌ على القلوب، وإن كان إمساكُ بعضها حلالاً على الأبدان والنفوس.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ﴾.

كما أنَّ المذبوح على غير اسمه ليس بطيِّب فَمَنْ بَذَلَ رُوحَه فيه وَجَدَ رَوْحه منه، ومن تهارشته[1] كلاب الدنيا، وقلته مخالب الأطماع، وأَسَرَتْهُ مطالبُ الأغراض والأعراض ـ فحرامٌ ماله على أهل الحقائق في مذهب التعزز، فللشريعَةِ الظرف والتقدير.

وأما المنخنقة فالإشارة منه إلى الذي ارتبك في حِبال المنى والرغائب، وأخذه خناقُ الطمع، وخنقته سلاسل (الحِرْص) فحرامٌ على السالكين سلوك خطتهم، ومحظور على المريدين متابعة مذهبهم.

وأمَّا الموقوذة فالإشارة منها إلى نفوس جُبِلَت على طلب الخسائس حتى استملكتها كنها فهي التي ذهبت بلا عوض حصل منها، وأمثال ذلك حرامٌ على أهل هذه القصة.

والإشارة من المتردية إلى من هلك في أودية التفرقة، وعمي عن استبصار رشد الحقيقة؛ فهو يهيم في مفاوز الظنون، وينهك في متاهات المنى.

والإشارة من النطيحة إلى من صَارَعَ الأمثال، وقارع الأشكال، وناطح كلاب الدنيا فحطموه بكلب حرصهم، وهزموه بزيادة تكلبهم، وكذلك الإشارة من:

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾.

وأكيلة السبع ما ولغت[2] فيه كلاب الدنيا، فإن الدنيا جيفة، وأَكَلَةُ الجيفِ الكلابُ ويستثنى منه المزكى وهو ما تقرر من متاع الدنيا لله؛ لأن زادَ المؤمِنِ من الدنيا: ما كان لله فهو محمود، وما كان للنَّفْس فهو مذموم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾.

فهو ما أُرْصِدَ لغير الله، ومقصودُ كلِّ حريص ـ بموجب شرعه ـ معبودُه من حيث هواه قال الله تعالى. ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] يعني اتخذ هواه إلهه.

﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾، الإشارة منه إلى كل معاملة ومُصَاحبةٍ بُنِيَتْ على استجلاب الحظوظ الدنيوية ـ لا على وجه الإذن ـ إذ القمار ذلك معناه. وقَلَّتْ المعاملات المجرَّدَة عن هذه الصفة فيما نحن فيه من الوقت.

---

(١) تهارشت الكلاب: تواثبت وتقاتلت.

(٢) ولغ الكلب وغيره من السباع في الإناء، ومنه، وبه: شرب ما فيه بطرف لسانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ .

أي إيثار هذه الأشياء انسلاخ عن الدين.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ .

أي بعدما أزَحتُم عن قلوبكم آثار الحسبان، وتحققتم بأن المتفرد بالإبداع نحن فلا تلاحظوا سواي، ولا يُظَلِّلَنْ قلوبكم إشفاقٌ من غيري.

ويقال إذا كانت البصائرُ متحققة بأن النَّفع والضر، والخير والشر لا تحصل شظية منها إلا بقدرة الحق ـ سبحانه، فمن المحال أن تنطوي ـ من مخلوق ـ على رَغَبٍ أو رَهَبٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾

إكمالُه الدين ـ وقد أضافه إلى نفسه ـ صَوْنُه العقيدة عن النقصان؛ وهو أنه لما أزعج قلوب المتعرفين لطلب توحيده أَمَّلها بأنوار تأييده وتسديده، حتى وضعوا النظر مَوْضِعَه من غير تقصيرٍ، وحتى وصلوا إلى كمال العرفان من غير قصور.

ويقال إكمالُ الدِّين تحقيقُ القَبُولِ في المآلِ، كما أن ابتداءَ الدِّين توفيقُ الحصول في الحال: فلولا توفيقه لم يكن للدين حصول، ولولا تحقيقه لم يكن للدين قبول.

ويقال إكمال الدين أنه لم يبق شيء يعلمه الحق ـ سبحانه ـ من أوصافه وقد علَّمك.

ويقال إكمال الدين أن ما تقصر عنه عقلك من تعيين صفاته ـ على التفصيل ـ أكرمك بأن عرَّفك ذلك من جهة الإخبار.

وإنما أراد بذكر ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ وقتَ نزول الآية. وتقييد الوقت في الخطاب بقوله ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ لا يعود إلى عين إكمال الدِّين، ولكن إلى تعريفنا ذلك الوقت.

والدِّين موهوبٌ ومطلوبٌ؛ فالمطلوب ما أمكن تحصيله، والموهوبُ ما سبق منه حصوله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ .

النعمة ـ على الحقيقة ـ ما لا يقطعك عن المنعم بل يوصلك إليه والنعمة المذكورة ها هنا نعمة الدِّين، وإتمامها وفاء المآل، واقتران الغفران وحصوله. فإكمال الدين تحقيق المعرفة، وإتمام النعمة تحصيل المغفرة. وهذا خطاب لجماعة المسلمين، ولا شك في مغفرة جميع المؤمنين، وإنما الشك يعتري في الآحاد والأفراد هل يبقى على الإيمان؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ .

وذلك لما قَسَمَ للخَلْق أديانَهم؛ فخصّ قوماً باليهودية، وقوماً بالنصرانية، إلى غير ذلك من النِّحَلِ والمِلَلِ، وأفرد المسلمين بالتوحيد والغفران.

وقدَّمَ قومٌ الإكمالَ على الإتمام، فقالوا: الإتمام يقبل الزيادة، فلذلك وَصَفَ به النعمة لقبول النِّعم للزيادة، ولا رتبةَ بعد الكمال فلذلك وصف به الدين.

ويقال لا فرق بين الدِّين والنعمة المذكورة ها هنا، وإنما ذُكِرَ بلفظين على جهة التأكيد، ثم أضافه إلى نفسه فقال: ﴿نِعْمَتِي﴾ وإلى العبد فقال: ﴿دِينَكُمْ﴾. فَوَجْهُ إضافته إلى العبد من حيث الاكتساب، ووجه إضافته إلى نفسه من حيث الخَلْق. فالدين من الله عطاء، ومن العبد عناء، وحقيقة الإسلام الإخلاص والانقياد والخضوع لجريان الحكم بلا نزاعٍ في السِّرّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

الإشارة من هذه الآية أنه لو وقع لسالكٍ فترة، أو لمريدٍ في السلوك وقفة، ثم تنبَّه لعظيم وقاعة فبادر إلى جميع الرَّجْعَةِ باستشعار التحسّر على ما جرى تدارَكَته الرحمةُ، ونظر الله ـ سبحانه ـ إليه بقبول الرجعة.

والإشارة من قوله ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ أي غير معرِّج على الفترة، ولا مستديم لعُقْدةِ الإصرار، ويحتمل أن يكون معناه من نزل عن مطالبات الحقائق إلى رُخَصِ العلم لضعفِ وَجْدِه في الحال فربما تجري معه مُساهلةٌ إذا لم يفسخ عَقْدَ الإرادة.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

لما علموا أن الحَسَنَ من أفعالهم ما ورد به الأمر وحصل فيه الإذن تعرَّفوا ذلك من تفصيل الشرع، فقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ ثم قال:

﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ وهو الحلال الذي تحصل من تناوله طيبةُ القلوب فإنَّ أَكْلَ الحرام يُوجِبُ قسوة القلب، والوحشةُ مقرونةٌ بقسوةِ القلبِ، وضياءُ القلوب وطِيبُ الأوقات متصلٌ بصَوْن الخُلُق عن تناول الحرام والشبهات.

وقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾: ولمَّا كان الكلب المُعَلَّمَ تركَ حظَّه، وأمسك ما اصطاده على صاحبه حلت فريسته، وجاز اقتناؤه، واستغرق في ذلك حكم خساسته فكذلك مَنْ كانت أعماله وأحواله لله ـ سبحانه مختصة، ولا يشوبها حظ تَجِلُّ رتبتُه وتعلو حالته.

ويقال حُسْنُ الأدب يُلْحِقُ الأَخِسَّة برتبة الأكابر، وسوء الأدب يَرُدُّ الأعِزَّة إلى حالة الأصاغر.

ثم قال: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ﴾: بيَّن أنَّ الأكلَ ـ على الغفلة ـ غير مَرْضِيٌ عنه (في القيمة).

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ بحيث لا يشغله شأنٌ عن شأنٍ، وسريعُ الحساب ـ اليومَ ـ مع الأحباب والأولياء، فهم لا يُسَامَحون في الخطوة ولا في اللحظة، معجَّلٌ حسابُهم، مُضَاعَفٌ ـ في الوقتِ ـ ثوابُهم وعقابُهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

ليس الطَّيِّبُ ما تستطيبه النفوس، ولكن الطيب ما يوجد فيه رضاء الحق ـ سبحانه ـ فتوجد عند ذلك راحةُ القلوب.

﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ﴾: القَدْرُ الذي بيننا وبينهم من الوفاق في إثبات الربوبية لم يَعْرَ من أثرٍ في القربة فقال الله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ﴾ [المائدة: ٨٢].

وكذلك الأمر في المحصنات من نسائهم. وأُحِلَّ الطعامُ والذبيحةُ بيننا وبينهم من الوجهين فيحلّ لنا أكل ذبائحهم، ويجوز لنا أن نطعمهم من ذبائحنا، ولكن التزوج بنسائهم يجوز لنا، ولا يجوز تزوجهم بنسائنا لأن الإسلام يعلو ولا يُعْلَى.

ثم قال ﴿مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ يعني إنهم وإن كانوا كفاراً فلا تجب صحبتهن بغير نكاح تعظيماً لأمرِ السِّفاح، وتنبيهاً على وجوب مراعاة الأمر من الحق. وكذلك ﴿وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ﴾ لأنه إذا لم يجز تعلق قلبك بالمؤمنين على وجه المخادنة[1] فمتى يسلم ذلك مع الكفار الذين هم الأعداء؟

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾.

كما أنَّ في الشريعة لا تصحُّ الصلاةُ بغيرِ الطهور فلا تصحُّ ـ في الحقيقة ـ بغير طهور.

وكما أن للظاهر طهارةً فللسرائر أيضاً طهارة، وطهارةُ الأبدان بماء السماء أي المطر، وطهارة القلوب بماء الندم والخجل، ثم بماء الحياء والوجل.

---

(١) المخادنة: المصادقة.

وكما يجب غسلُ الوجهِ عند القيام إلى الصلاة يجب ـ في بيان الإشارة ـ صيانةُ الوجه عن التبذُّل للأشكال عن طلب خسائس الأعراض.

وكما يجب غسلُ اليدين في اليدين في الطهارة يجب قصرهما عن الحرام والشبهة.

وكما يجب مسحُ الرأس يجب صونه عن التواضع والخفض لكل أحد.

وكما يجب غسل الرِجْلين في الطهارة يجب صونهما في الطهارة الباطنة عن التنقل فيما لا يجوز.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ﴾.

كما يقتضي غسل جميع البدن في الطهارة، كذلك في الطهارة الباطنة ما يوجب الاستقصاء؛ وذلك عندما تقع للمريد فَتْرةٌ فيقوم بتجديد عقدٍ، وتأكيد عهد، والتزام عزامة، وتسليم وقتٍ، واستدامة ندامة، واستشعار خجل.

وكما أنه إذا لم يجد المتطهرُ الماءَ فَفَرْضُه التَّيَمُّمْ فكذلك إذا لم يجد المريد مَنْ يفيض عليه صَوْبَ همته، ويغسله ببركات إشارته، ويعينه بما يؤوب به من زيادة حالته ـ اشتغل بما تيسَّر له من اقتفاء آثارهم، والاستراحة إلى ما يجد من سالف سِيَرِهِم، وما ورد من حكاياتهم.

وكما أن فرض التيمم على الشطر والنقصان فكذلك المطالبات على إصفاء هذه الحالة تكون أخف لأنه وقت الفترة وزمان الضعف.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾.

وتلوح من هذه الجملة الإشارة إلى أنه إذا بقي المريد عن أحكام الإرادة فلْيَخْطُطْ رِجْلَه بساحات العبادة، فإذا عَدِمَ اللطائف في سرائره فَلْيَسْتَدِمْ الوظائف على ظاهره، وإذا لم يتحقَّقْ بأحكام الحقيقة فليتخلق بآداب الشريعة، وإن لم يتحرج عن تَرْكِه الفضيلة فلا يدنسْ تصرفه بالحرام والشبهة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾.

أي يطهر ظواهركم عن الزلة بعصمته، ويطهر قلوبكم عن الغفلة برحمته.

ويقال يطهر سرائركم عن ملاحظة الأشكال، ويطهر ظواهركم عن الوقوع في شِباك الأشغال.

ويقال يطهر عقائدكم عن أن تتوهموا تدنُّسَ المقادير بالأعلال.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

إتمام النعمة على قومٍ بنجاة نفوسهم، وعلى آخرين بنجاتهم عن نفوسهم، وشتَّان بين قوم وقوم!.

ويقال إتمام النعمة في وفاء العاقبة؛ فإذا خرج من الدنيا على وصف العرفان والإيمان فقد تَمتْ سعادته، وصَفَتْ نعمته.

ويقال إتمام النعمة في شهود المنعِم؛ فإنَّ وجودَ النعمة لكل أحد ولكنَّ إتمامَها في شهود المنعِم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾.

الإشارة منه إلى التعريف السابق الذي لولاه ما علمْتَ أنه من هو.

ويقال أمرهم بتذكّر ما سبق لهم من القِسَم وهم في كَتْم العَدَم، فلا للأغيار عنهم خبر، ولا لهم عين ولا أثر، ولا وقع عليهم بصيرة، وقد سماهم بالإيمان، وحكم لهم بالغفران قبل حصول العصيان، ثم لما أظهرهم وأحياهم عرَّفهم التوحيد قبل أن كلّفهم الحدود، وعرض عليهم بعد ذلك الأمانة وحذّرهم الخيانة، فقابلوا قوله بالتصديق، ووعَدُوا من أنفسهم الوفاءَ بشرط التحقيق، فأمدَّهم بحسن التوفيق، وثبَّتهم على الطريق، ثم شكرهم حيث أخبر عنهم بقوله جل ذكره: ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

ثم قال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: يعني في نقض ما أبرمتم من العقود، والرجوع عمَّا قدمتم من العهود، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ لا يخفى عليه من خطرات قلوبكم ونيات صدوركم.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾.

لا يُعَوِّقنَّكم حصولُ نصيبٍ لكم في شيء عن الوفاء لنا، والقيام بما يتوجَّب عليكم من حقنا.

ويقال من لم يقسط عند مواعد رغائبه، ولم يمحُ عنه نواجم شهواته ومطالبه لم يقم لله بحق ولم يفِ لواجباته بشرط.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

أي لا تحملكم ضغائن صدوركم على الحلول بجنبات الحيف فإنَّ مرتعَ الظلمِ وبيءٌ، ومواضع الزيغ مهلكة.

ثم صرَّح بالأمر بالعدل فقال: ﴿اعدلوا﴾ ولا تكون حقيقة العدل إلا بالعدول عن كل حظٍ ونصيب.

والعدلُ أقربُ إلى التقوى، والجَوْرُ أقربُ من الرَّدَى، ويُوقِعُ عن قريبٍ في عظيم البلوى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

والمغفرة لا تكون إلّا للذنب، فوصفهم بالأعمال الصالحات، ثم وعدهم المغفرة لِيُعْلَمَ أن العبد تكون له أعمال صالحة وإن كانت له ذنوب تحتاج إلى غفرانها، بخلاف ما تَوَهَّمَ مَنْ قال إن المعاصي تَحْبِطُ الطاعات.

ويقال بيَّن أن العبد وإن كانت له أعمال صالحة فإنه يحتاج إلى عَفْوِه وغفرانه، ولولا ذلك لَهلَكَ، خلافاً لمن قال إنه لا يجوز أن يَعذِّبَ البريءَ ويجب أن يثيب المحسنين.

ويقال لو كان ثوابُ المحسنين واجباً، وعقوبةُ البريء غيرَ حسنة لكان التجاوزُ عنه واجباً عليه، ولم يكن حينئذ فضل يمن به عليهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

لهم عقوبتان: معجلة وهي الفراق، ومؤجلة وهي الاحتراق.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

يذكِّرهم ما سلف لهم من نِعَم الدفع وهو ما قصر عنهم أيدي الأعداء، وذلك من أمارات العناية. ولقد بالغ في الإحسان إليك مَنْ كان يُظْهر لك الغيبَ من غير التماسٍ أو سَبْق شفاعة فيك، أو رجاءِ نفع من المستأنف منك، أو حصول ربحٍ في الحال عليك، أو وجود حق في المستأنف لَك.

ثم قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني كما أحسنت إليكم في السالف من غير استحقاق فانتظروا جميل إحساني في الغابر من غير استيجاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ﴾.

يذكرهم حُسْنَ أفضاله معهم، وقبح (فعلهم) في مقابلة إحسانه بنقضهم عهدهم.

وعرف المؤمنين ـ تحذيراً لهم ـ ألا ينزلوا منزلتَهم فيستوجبوا مثل ما استوجبوه من عقوبتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾.

أي لئن قمتم بحقي لأوصلن إليكم حظوظكم، ولئن أجللتم أمري في العاجل لأجِلَّن قَدْرَكم في الآجل.

وإقامة الصلاة أن تشهد مَنْ تعبده، ولذا قال النبي ﷺ: «اعْبد اللَّهَ كأنَّكَ تراه»(١).

ويقال إقامة الصلاة شرطها أَنْ تُقبِلَ على ما مَنْ تناجيه بأن تستقبل القُطْرَ الذي الكعبة فيه.

وأمَّا إيتاء الزكاة فحقُّه أن تكسب المال من وجه، وتصرفه في حقه، ولا تمنع الحق الواجب فيه عن أهله، ولا تؤخر الإيتاء عن وقته، ولا تُحْوِج الفقير إلى طلبه فإنَّ الواجبَ عليكَ أن توصل ذلك إلى مستحقه.

وتعزير الرسل الإيمان بهم على وجه الإجلال، واعتناق أمرهم بتمام الجد والاستقلال، وإيثارهم عليك في جميع الأحوال.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

الأغنياء ينفقون أموالهم في سبيل الله، والفقراء يبذلون مهجَتهم وأرواحَهم في طلب الله، (فأولئك) عن مائتي درهم يُخْرِجُون خَمْسَة، وهؤلاء لا يدخرون عن أمره نَفَساً ولا ذرَّة.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

التكفير هو الستر والتغطية، وإنه يستر الذنوب حتى عن العاصي فيمحو من ديوانه، وينسِي الحَفظَة سوالف عصيانه. وينفي عن قلبه تذكر ما أسلفه، ولا يوقفه في العرصة(٢) على ما قَدَّم من ذنبه، ثم بعد ذلك يدخله الجنة بفضله كما قال: ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، كما قيل:

ولما رضوا بالعفو عن ذي زلة حتى أنالوا كفَّه وازدادوا

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ١٣٢)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ٢/ ٤٠، ٤/ ٢١٨) وابن حجر في (المطالب العالية ٣٠٩٦ ـ ٣٠٩٧)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ١/ ٢٦٨، ٣/ ٥٩٢، ٤/ ٢٤٧)، وابن كثير في (التفسير ٢/ ١٧٩)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٦/ ١١٥) وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ٢٣٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢/ ١٢٤، ٧/ ٤٥٣، ١٠/ ٥٩)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣/ ١٠٦)، والسيوطي في (الدر المنثور ١/ ٢٩٩)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٢٥٠ ـ ٥٢٥١ ـ ٥٢٥٦ ـ ٥٢٧٩ ـ ٤٤١٥٤) وابن أبي شيبة في (المصنف ١٣/ ٢٢٥).

(٢) العرصة: البقعة الواسعة بين الدور ليس فيها بناء (ج) عرصات وعراص.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

فَمَنْ جَحَدَ هذه الأيادي بعد اتضاحها فقد عَدَلَ عن نَهجِ أهل الوفاء، وحاد عن سَنَنِ أصحاب الولاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾.

جعل جزاءَ العصيان الخذلانَ للزيادة في العصيان.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾.

وتحريفُهم الكلم عن مواضعه نوعُ عصيان منهم، وإنما حرَّفوا لقساوة قلوبهم. وقسوة القلب عقوبة لهم مِنْ قِبَل الله تعالى على ما نقضوه من العهود، ونقض العهد أعظمُ وِزرٍ يلم به العبد، والعقوبة عليه أشد عقوبة يُعَاقَبُ بها العبد، وقسوة القلب عدم التوجع مما يُمتَحَنَ به من الصدِّ، وعن قريبٍ يُمتَحَن بمحنة الرد بعد الصدِّ، وذلك غاية الفراق، ونهاية البعد.

ويقال قسوة القلب أولها فَقْدُ الصفوة ثم استيلاء الشهوة ثم جريان الهفوة ثم استحكام القسوة، فإن لم يتفق إقلاع من هذه الجملة فهو تمام الشقوة.

ومن تحريف الكلم ـ على بيان الإشارة ـ حَمْلُ الكلم على وجوه من التأويل مما تسوّل لصاحبه نَفْسُه، ولا تشهد له دلائلُ العلم ولا أصلُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾.

أوّلُ آفاتِهم نسيانُهم، وما عصوا ربهم إلا بعد ما نسوا، فالنسيان أول العصيان، والنسيانُ حاصلٌ من الخذلان.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾.

الخيانة أمرها شديد وهي من الكبار أبعد، وعليهم أشد وأصعب. ومن تعوَّد اتباع الشهوات، وأُشْرِبَ في قلبه حُبَّ الخيانة فلا يزال يعيش بذلك الخُلُق إلى آخر عمره، اللهم إلا أن يجودَ الحقُّ ـ سبحانه ـ عليه بجميلِ اللطف.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

قد يكون موجب العفو حقارة قدر المعفو عنه إذ ليس كل أحدٍ أهلاً للعقاب. وللصفح على العفو مزية وهي أن في العفو رفع الجناح، وفي الصفح إخراج ذكر الإثارة من القلب، فمن تجاوز عن الجاني، ولم يلاحظه ـ بعد التجاوز ـ بعين الاستحقار والازدراء[1] فهو صاحب الصفح.

---

(١) ازدراه: احتقره.

والإحسان تعميمٌ ـ للجمهور ـ بإسداء الفضل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾.

الإشارة في هذه الآية أن النصارى أثبت لهم الاسم بدعواهم فقال: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾ وسموا نصارى لتناصرهم، وبدعواهم حرَّفوا وبدَّلوا؛ وأما المسلمون فقال: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨].

كما قال: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٢] فلا جَرَمَ ألا يسموا بالتناصر. ولمَّا سمَّاهم الحقُّ بالإسلام ورَضِيَ لهم به صانهم عن التبديل فَعُصِمُوا.

ولما استمكن منهم النسيان أبدلوا بالعداوة فيما بينهم، وفساد ذات البين[١]؛ فأرباب الغفلة لا أُلفة بينهم. وأهل الوفاء لا مباينة لبعضهم من بعض، قال ﷺ: «المؤمنون كنفس واحدة»[٢]، وقال تعالى في صفة أهل الجنة: ﴿إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الصافات: ٤٤].

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ﴾.

وصف الرسول ـ ﷺ ـ بإظهار بعض ما أخفوه، وذلك علامة على صدقه؛ إذ لولا صدقه لما عَرَفَ ذلك. ووصفه بالعفو عن كثير من أفعالهم، وذلك من أمارات خُلُقِه؛ إذ لولا خُلُقُهُ لَمَا فعل ذلك؛ فإظهار ما أبداه دليل عِلْمه، والعفو عما أخفى برهانِ حِلْمه.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

أنوار التوحيد ظاهرة لكنها لا تغني عند فقد البصيرة، فمن استخلصه بقديم العناية أخرجه من ظلمات التفرقة إلى ساحات الجمع فامتحى عن سِرِّه شواهد الأغيار، وذلك نعت كل من وقف على الحجة المثلى.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن

---

(١) ذات البين: ما بين القوم من العداوة والبغضاء أو القرابة والصلة والمودة.

(٢) هناك رواية أخرى للحديث: «المؤمنون كرجل واحد» أخرجه مسلم (بر ٦٧ ـ ٦٨).

يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

مَنْ اشتملت عليه أرحامُ الطوامثُ[1] متى يفارقه نَقْصُ الخِلْقة؟

ومَنْ لاحت عليه شواهدُ التغيُّر أنَّى يليق به نعت الربوبية؟

ولو قَطَعَ البقاءَ عن جميع ما أوجد فأي نقصٍ يعود إلى الصمد؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

البنوة تقتضي المجانسة، والحقُّ عنها مُنَزَّهٌ، والمحبةُ بين المتجانسين تقتضي الاحتظاظ والمؤانسة، والحق سبحانه عن ذلك مُقدَّس.

فردَّ الله ـ سبحانه ـ عليهم فقال تعالى: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾.

والمخلوق لا يصلح أن يكون بعضاً للقديم؛ فالقديم لا بعضَ له لأن الأحدية حقه، فإذا لم يكن له عدد لم يجز أن يكون له ولد. وإذا لم يجز له ولد لم تجز ـ على الوجه الذي اعتقدوه ـ بينهم وبينه محبة.

ويقال في الآية بشارة لأهل المحبة بالأمان من العذاب والعقوبة به لأنه قال: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾.

ويقال بيَّن في هذه الآية أن قصارى الخلْق إمَّا عذاب وإمَّا غفران ولا سبيل إلى شيء وراء ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

يقال في: كل زمان تقع فَتْرَة في سبيل الله ثم تجدد الحال، ويُعَمُّ الطريق بإبداء السالكين من كتم العَدَم، ولقد كان زمانُ الرسولِ ـ ﷺ ـ أكثرَ الأزمنة بركةً، فأحيا بظهوره ما اندرس من السبيل، وأضاء بنوره ما انطمس من الدليل، وبذلك مَنَّ عليهم، وذكَّرهم عظيمَ نعمتِه فيهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾.

---

(١) طمثت المرأة: حاضت أول ما تحيض فهي طامث أي: حائض.

كان الأمر لبني إسرائيل ـ على لسان نَبِيِّهم ـ بأن يتذكروا نعمة الله عليهم، وكان الأمر لهذه الأمة ـ بخطاب الله لا على لسان مخلوق ـ بأن يذكروه فقال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] وشتان بين من أمره بذكره ـ سبحانه ـ وبين من أمره بذكر نعمته! ثم جعل جزاءَهم ثوابَه الذي هو فضله، وجعل جزاء هذه الأمة خطابه الذي هو قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾.

المَلِكُ مِنَ المخلوقين مَنْ عَبَدَ المَلِكَ الحقيقي.

ويقال المَلِكُ مَنْ مَلَكَ هواه، والعبد من هو في رِقِّ شهواته.

ويقال ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾: لم يخرجكم إلى أمثالكم، ولم يحجبكم عن نفسه بأشغالكم، وسَهَّلَ إليه سبيلَكم في عموم أحوالِكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

لئن آتي بني إسرائيل بمقتضى جوده فقد أغنى عن الإيتاء هذه الأمة فاستقلوا بوجوده، والاستقلال بوجوده أتمّ من الاستغناء بمقتضى جوده.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.

من الفرق بين هذه الأمة وبين بني إسرائيل أنه أباح لهم دخولَ الأرض المقدسة على الخصوص فقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ ثم إنهم لم يدخلوها إلا بعد مدة، وبعد جهد وشدة، وقال في شأن هذه الأمة ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] فأولئك كتب لهم دخول الأرض كتابةَ تكليف ثم قصروا، وهذه الأمة كتب لهم جميع الأرض على جهة التشريف، ثم وصلوا إلى ما كتب لهم وما قصروا.

وقال: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ وقال لهذه الأمة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥] فهؤلاء ذلَّل لهم وسَّهل عليهم، وأولئك صعَّب عليهم الوصول إلى ما أمرهم فيما أنزل الله عليهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾.

الارتداد على قسمين: عن الشريعة وإقامة العبودية وذلك يوجب عقوبة النفوس بالقتل، وعن الإرادة وذلك يوجب الشُّقْوَة ـ التي هي الفراق ـ على القلوب.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾.

لاحظوا الأغيار بعين الحسبان فتوهموا أن شيئاً من الحدثان، وداخلتهم هواجِمُ الرعبِ فأصروا على ترك الأمر. ومَنْ طالع الأغيار بأنوار البصائر شاهدهم في أَسْرِ التقدير قوالبَ متعريةً عن إمكان الإيجاد، ولم يقع على قلبه ظلُّ التَّوهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾.

أنعم الله (عليهما)[1] بأنوار العرفان فلم يحتشما من المخلوقين، وعلما أن من رجع إليه بنعت الاستكفاء تداركته عواجلُ الكفاية ثم قال:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أي من شأن المؤمنين أن يتوكلوا، وينبغي للمؤمن أن يتوكل.

ويحتمل أن يقال التوكل من شرط الإيمان. وظاهر التوكل الذي لعوام المؤمنين العلم بأن قضاءه لا رادَّ له، وحقائق التوكل ولطائفه التي لخواص المؤمنين شهود الحادثات بالله ومِنْ الله ولله، فإنَّ مَنْ فَقَدَ ذلك انتفى عنه اسم الإيمان.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾.

مَنْ أَقْصَتْه سوابِقُ التقدير لم يزِدْه تواترُ (العظة) إلا نفوراً وجحوداً.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾.

تركوا آداب الخطابِ فصرَّحوا ببيان الجحد ولم يحتشموا من مجاهرة الرد.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

لما ادَّعى أنَّه يملك نَفْسَه عرف عجزه عن مِلْكِه لنفسه حيث أخذ برأس أخيه يجرُّه إليه.

ويقال: لا أملك إلا نفسي أي لا أدخرها عن البذل في أمرك. لا أملك إلا أخي فإنه لا يؤثر نفسه عن الذي أكلفه مِنْ قِبَلِكَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

مجاهرة الرد تعجِّل العقوبة؛ فإن من ماكَرَ الحقيقة أبدت الحقيقة له من مكامن التقدير ما يُلْجِئُه إلى التطوُّح في أوطان الذُّلِّ.

---

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

ويقال حيَّرهم في مفاوزهم حتى عموا عن القَصْد؛ فصاروا يبيتون حيث يصبحون، بعد طول التعب وإدامة السير، وكذلك من حيَّره اللَّهُ في مفاوز القلب يتقلب ليلاً ونهاراً في مطارح الظنون ثم لا يحصل إلا على مناهل الحيرة، فيحطون بحيث يرحلون عنها، فلا وجهَ للرأي الصائب يلوح لهم، ولا خلاص من بعده للتجويز يساعدهم، والذي التجأ إلى شهود الصمدية استراح عن نقلة فكره، ووقع في روح الاستبصار بعد أتعاب التوهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾.

كانت الدنيا بحذافيرها في أيديهما فحسد أحَدُهما صاحبَه، فلم يصبر حتى أسرع في شيء بإتلافه، وحين لم يُقبَلْ قربانُه اشتد حسدُه على صاحبه، ورأى ذلك منه فهدَّده بالقتل.

فأجابه بنطق التوحيد.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

يعني إنما يُتَقَبَّلُ القربانُ[1] مِمَّن طالَع في القربان مساعدةَ القدرة، وألقى توهُّم كونه باستحقاقه واستيجابه.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

لئن بدأتني بالإثارة لم أقابلك كأوصاف أهل الجهل بل أَكِلُ أمري إلى من بيده مقاليد الأمور.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

تحقَّق بأنَّ العقوبة لاحِقةٌ به على ما يسلفه من الذَّنب فَرَضِيَ بانتقامِ اللَّهِ دون انتقامه لنفسه.

وقوله: ﴿أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ الذي تستوجبه بسبب قتلك إياي، فأضافه إلى نفسه، وإذا رأى المظلوم ما يحلُّ بالظالم من أليم البلاء يهون عليه ما يقاسيه ويطيب قلبه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

---

(١) القُربان: ما يُتقرب به إلى الله من ذبيحة وغيرها (ج) قرابين.

لا تستولي هواجس النفوس على صاحبها إلا بعد استتار مواعظ الحق، فإذا توالت العزائمُ الرديئةُ، واستحكمت القصودُ الفاسدةُ من العبد صارت دواعي الحق خفيةً مغمورةً. والنَّفْسُ لا تدعو إلا إلى اتباع الشهوات ومتابعة المعصية، وهي مجبولةٌ على الأخلاق المجوسية. فمن تابع الشهوات لا يلبث أن ينزل بساحات الندم ثم لا ينفعه ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾.

إرادة الحق ـ سبحانه ـ وصولُ الخلْقِ إلى لطف الاحتياط في أسباب التعيش، فإذا أشكل عليهم وجهٌ من لطائف الحيلة سبَّب الله شيئاً يُعَرِّفُهم ذلك به.

قوله جلّ ذكره: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾.

هذا قريب مما قال النبي ﷺ:

«من سنَّ حسنة فله أَجْرُها وأجر من عمل بها إلى يوم والقيامة، ومن سنَّ سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

السعي في الفساد على ضربين: بالظاهر وعقوبته معلومة في مسائل الفقه بلسان العلم، وفي الباطن وعقوبته واردة على الأسرار، وذلك بقطع ما كان متصلاً من واردات الحق، وكسوف شمس العرفان، والستر بعد الكشف، والحجاب بعد البسط. والحجاب استشعار الوحشة بعد الأُنس، وتبديل توالي التوفيق بصنوف الخذلان، والنفي على بساط العبادة، والإخراج إلى متابعة النفوس، وذلك ـ واللّهِ ـ خِزيٌ عظيم وعذابٌ أليم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

(١) أخرجه مسلم (زكاة ٦٩)، (علم ١٥)، والنسائي (زكاة ٦٤)، وابن ماجه (مقدمة ١٤).

من أقلع عن معاصيه، وارتدع عن ارتكاب مساويه، قبل أن يهتك عنه ستر السداد لا تقام عليه ـ في الظاهر ـ حدودُ الشريعة لاشتباهها على الإمام، ولا يؤاخذه الحق سبحانه بقضايا إجرامه أخذاً بظاهرِ ما يثبت من حاله مَالَه في استيجاب السداد، فإذا بدا للإمام جُرْمُه أُقيم عليه الحدُّ وإنْ تقنَّع بنقاب التقوى.

وكذلك إذا سقط العبد عن عين الله لم يصل بعده إلى ما كان عليه من معاودة تقريب الحق ـ سبحانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

ابتغاء الوسيلة التبري عن الحول والقوة، والتحقق بشهود الطول والمِنَّة.

ويقال ابتغاء الوسيلة هو التقريب إليه بما سبق لك من إحسانه.

ويقال الوسيلة ما سبق لك من العناية القديمة.

ويقال الوسيلة اختياره لك بالجميل.

ويقال الوسيلة خلوص (العَقد) عن الشك.

ويقال ابتغاء الوسيلة استدامة الصدق في الولاء إلى آخر العمر.

ويقال ابتغاء الوسيلة تجريد الأعمال عن الرياء، وتجريد الأحوال عن الإعجاب، وتخليص النَّفْسِ عن الحظوظ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

اليومَ ـ يقبل من الأحباب مثقال ذرة، وغداً ـ لا يقبل من الأعداء ملء الأرض ذهباً، كذا يكون الأمر.

ويقال إفراط العدو في التقرب موجِبٌ للمقت، وتستر الولي في التودد إحكامٌ لأسباب الحب.

قوله جلّ ذكره: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾.

كما أن الأعداء لا محيص[1] لهم من النار كذلك المُبْعَدُون عن التوفيق كلما أرادوا إقلاعاً عن التهتك أدركهم ـ من فجأة الخذلان ـ ما يركسهم في وهدة[2] العناء.

---

(١) المحيص: المهرب والمفر.

(٢) ركس الشيء: ردّ أوله على آخره وقلبه على رأسه. والوهدة: الأرض المنخفضة كأنها حفرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

لو أنَّ ولياً من الأولياء سرق نصاباً[١] من جرز، ووجد فيه استحقاق القطع، أقيم عليه الحدُّ كما يقام على المتهتك، ولا يَسْقُطُ الحدُّ لصلاحه. والإشارة فيه أن أَمْرَ الملك مُقَابَلٌ بالتعظيم، بل كل من كان أعلى رتبةً فَخَطَرُه أتمُّ وأخفى، والمطالبةُ عليه أشدُّ. فلا يَسْتَخِفَنَّ أحدٌ الإلمام بزلة ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

من استوفى أحكام التوبة فتَدَاركَ ما ضَيَّعه، وندم على ما صنعه، وأصلح من أمره ما أفسده ـ أقبل الله عليه بفضله فغفره، وعاد إليه باللطف فَجَبَرَهُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

بيَّنَ أنه لا يعذِّب مَنْ يعذِّبُ بِعلَّة، ولا يرحم من يرحم بعلة، وإنما يتصرف في عبده بحق ملكه، وأنَّ الحكمَ حكمه، والأمرَ أمرُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ﴾.

مَنْ أقصاه الحقُّ عن محلِّ التقريب، وأرخى له عنان الإمهال وَكَلَه إلى مكره، ولبَّسَ عليه حاله وسِرَّه، فهو ينهمك في أودية حسبانه، وإنما يسعى في أمر نفسه فيعمل بما يعود إليه وبالُه، فأَمَرَ نَبيَّه ـ ﷺ ـ بترك المبالاة بأمثالهم، وقلة الاهتمام بأحوالهم، وعرَّفه أنهم بمعزلٍ عن رحمته؛ وإنَّ مَنْ ردَّته القسمة الأزلية لا تنفعه الأعلال في الاستقبال، فقال: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ﴾ يعني إنْ أَهَّلَه الله للحرمان، وقيّده بشباك الخذلان فشفاعة الأغيار فيه غير مقبولة، ولطائف القبول إليه غير موصولة.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ﴾.

أولئك الذين لم تعجن طينتهم بماء السعادة فَجُبِلُوا على نجاسة الشِرْك فإن عدم الطهارة الأصلية لا يتنقَّى بفنون المعاملات.

---

(١) النصاب: القدر من المال الذي تجب فيه الزكاة إذا بلغه.

ويقال: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾: مَنْ أرسل عليه غاغة الهوى، وسلَّط عليه نوازع المنى، وأذلَّه (. . . .)[١] القضاء، فليس يلقى عليه غير الشقاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وَرَدُوا من الهوان إلى الهوان، ووُعِدُوا بالفراق، وَرُدُّوا إلى الاحتراق، فلا تدري أي حالِهم أقرب من استيجاب الذل؟ بدايتهم في الرد أم نهايتهم في الشِرْك والجحد؟

قوله جلّ ذكره: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

يعني إنهم طرحوا حشمة الدِّين، وقنعوا بالحظوظ الخسيسة واكتفوا بالأعواض النذرة، فإذا تحاكموا إليك فأحِللْهم من حِلْمك على ما يستحق أمثالهم من الأزال، وأنت مُخيرٌ فيما تريد؛ فسواء أقبلت عليهم فحكمت أو أعرضت فرددت فالاختيار لك.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾: الإقساط الوقوف على حدِّ الأمر من غير (حَنَفٍ)[٢] إلى الحظ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

يعني أنهم قارفوا الجحد، وأصرُّوا على الغي، وتعودوا الإعراض عن الإيمان، فمتى تؤثِّر فيهم دعوتُكَ، وقد سُدَّتْ مسامعُهم عن القبول، وطُبعَ على قلوبهم سابقُ الحكم؟

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ﴾.

يخبر أنه استحفظ بني إسرائيل التوراة فحرَّفوها، فلما وَكلَ إليهم حفظها ضيَّعوها.

وأمَّا هذه الأمة فخصهُم بالقرآن، وتولّى ـ سبحانه ـ حفظه عليهم فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فلا جَرَمَ لو غيَّرَ واحدٌ حركة أو سكوناً من القرآن لنادى الصبيان بتخطيئه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ۚ﴾.

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) الحَنَف: الاعوجاج والاستقامة (ضدّ).

إنَّ الخلْقَ تجري عليهم أحكامُ القدرة وأقسام التصريف؛ فالخشية منهم فرعٌ من المحال، فإنَّ من ليس له شظية من الإيجاد فأنَّى تصحُ منه الخشية؟!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

لا تأخذوا على جحدِ أوليائي والركونِ إلى ما فيه رضاءُ أعدائي عِوَضاً يسيراً فتبقوا بذلك عنّي، ولا يُبارَكُ لكم فيما تأخذون من العوض.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ...﴾ فمن اتخذ بغيره حكماً، ولم يجد ـ تحت جريان حكمه ـ رضى واستسلاماً ففي شِرْكٍ خَامَرَ قلبَه، وكفرٍ قَارَنَ سِرَّه. وهيهات أن يكون على سَوَاء!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

بيَّن أن اعتبار العدالة كان حتماً في شرعهم، ولمّا جنحوا إلى التضييع استوجبوا الملام. ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾، يعني فمن آثر ترك مالهُ باعتناق العفو لم يخسرْ علينا باستيجاب الشكر، ومن أبى إلا تمادياً في إجابة دواعي الهوى فهم الذين وضعوا الشيءَ في غير موضعه؛ أي استبدلوا بلزوم الحقائق متابعةَ الحظوظ، وبإيثار الفتوة[1] موافقةَ البشرية.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

يعني أتبعناهم بعيسى ابن مريم، وخصصناه بالإنجيل، وفي الإنجيل تصديق لما تقدَّمه، وتحقيقِ لِمَا أوجب الله وألزمه، فلا الذِّينَ قضوا حقه، ولا الإنجيلَ عرفوا فرضه، ولا الرسولَ حفظوا أمره؛ ففسقوا وضلوا، وظلموا وزلُّوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

قال الله تعالى في هذه السورة: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وقال في موضع آخر ﴿... فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وقال في هذه الآية ﴿... فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أمّا في الأول فقال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ

(١) انظر حديث القشيرية بالرسالة عن الفتوة ص٢٢٦ ـ ٢٣١.

﴿هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لأن من لم يحكم بما أنزل الله فهو جاحد والجاحد كافر.

وفي الثاني قال: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأن مَنْ جاوز حدّ القصاص واعتبار المماثلة، وتعدى على خصمه فهو ظالم لأنه ظَلَمَ بعضهم على بعض.

وأمّا ها هنا فقال: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ... فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أراد به معصيةً دون الكفر والجحد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾.

قدّم تعريفه ـ ﷺ ـ قصص الأولين على تكليفه باتباع ما أنزل الله عليه لئلا يسلك سبيل من تقدّمه فيستوجب ما استوجبوه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

لا تتملكك مودةُ قريبٍ أو حميمٍ، واعتنِقْ ملازمةَ أمرِ الله ـ تبارك وتعالى ـ بترك كل نصيبٍ لك.

ثم قال: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ يعني طريقةً وسُنَّة؛ أي أفردنا كلَّ واحدٍ منكم ـ معاشِرَ الأنبياء ـ بطريقة، وأمّا أنت فلا يدانيك في طريقتك أحد، وأنت المقدَّمُ على الكافة، والمُفضَّلُ على الجملة، ولو شاء الله لَسَوَّى مراتَبكم، ولكن غاير بينكم ابتلاء، وفَضَّلَ بعضكم على بعض امتحاناً.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

مسارعة كل أحدٍ على ما يليق بوقته؛ فالعابدون تقدمهم من حيث الأوراد، والعارفون همتهم من حيث المواجد.

ويقال استباق الزاهدين برفض الدنيا، واستباق العابدين بقَطْع الهوى، واستباق العارفين بنفي المُنى، واستباق الموحدين بترك الورى، ونسيان الدنيا والعُقبى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

قُمْ بالله فيما تحكم بينهم، وأقِمْ حقوقه فيما تؤخر وتقدم، ولا تلاحظ الأغيار فيما (تُؤْثِر) أو تَذَر، فإن الكلَّ محوٌ في التحقيق.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾.

يعني (عِظهم) بلسان العلم فإنْ أبَوْا قبولاً فشاهِدْهم بعين الحكم. ويقال: أشْدُدْ عليهم باعتناق لوازم التكليف، فإنِ أعرضوا فعاينهم بعين التصريف؛ فإنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ بشرط التكليف يلزمهم؛ وبحكم التصريف يؤخرهم ويقدمهم، فالتكليف فيما أوجب، والتصريف فيما أوجد، والعبرة بالإيجاد والإيجاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

أيعودون في ظلمة الحجاب ووحشة الالتباس بعد ما سطع فَجْرُ العرفان، وطلعت شموسُ التحقيق، وانهتكت أستارُ الريب؟

ويقال أيطلبون منك أن تحيدَ عن المحبة المثلى، وقد اتضحت لك البراهين وتجلَّى اليقين؟

ويقال أيطمعون في استتار الحقائق في السرائر وقد تجلت شموس اليقين؟

ويقال أتحسبون أن (. . . .)[1] ظلمة الشك لها سلطان، وقد متّعَ نهارُ الحقائق؟ . . . . كلّا، فإن ذلك محال.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

لا تجنحوا إلى الموالاة مع أعدائه ـ سبحانه ـ إيثاراً للسكون إلى الحظ، أو احتشاماً من القيام للحق، أو ركوناً إلى قرابة نَسَبٍ، أو استحقاقاً لمودة حميم، أو تهيباً من استيحاش صديق. بل صمموا عقودكم على التبرّي منهم بكل وجه فهم بعضهم أولياء بعض، والضدية بينكم وبينهم قائمة إلى الدين. ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ التحق بهم، وانخرط في سِلكهم، وعُدَّ في جملتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾.

يعني إن الذين سقمت ضمائرهم، وضعفت في التحقيق بصائرهم تسبق إلى قلوبهم مداراة الأعداء خوفاً من معاداتهم، وطمعاً في المأمول من صحبتهم، ولو استيقنوا أنهم في أسر العجز وذل الإعراض ونفي الطرد لأمَلّوا الموعود من كفاية

---

(١) بياض في الأصل.

الحق، والمعهود من جميل رعايته، ولكنهم حُجِبُوا عن محل التوحيد؛ فتفرَّقوا في أودية الحسبان والظنون، وعن قريبٍ يأتيكم الفَرَجُ ـ أيها المؤمنون، وتُرْزَقُون الفتحَ بحسن الإقبال، والظفر بالمسؤول لسابق الاختيار، فيشعرون الندم، ويقاسون الألم، وأنتم (تعلون) رؤوسكم بعد الإطراق، وتصفوا لكم مَشارِب الإكرام، وتضيء بزواهر القرب مَشارِقُ القلوب. حينئذٍ يقول الذين آمنوا هؤلاء اللذينِ أقسموا بالله جهد أيمانهم يعاينون بأبصارهم ما تحققوه بالغيب في أسرارهم، ويَصِلُون من موعودهم إلى ما يوفي ويربو على مقصودهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾.

جعل صفة من لا يرتدُّ عن الدين أن اللَّهَ يحبه ويحبُّ الله، وفي ذلك بشارة عظيمة للمؤمنين لأنه يجب أن يُعْلَمَ أن من كان غير مرتد فإنَّ الله يحبه. وفيه إشارة دقيقة فإن من كان مؤمناً يجب أن يكون لله محباً، فإذا لم تكن له محبة فالخطر بصحة إيمانه. وفي الآية دليل على جواز محبة العبد لله وجواز محبة الله للعبد.

ومحبة الحق للعبد لا تخرج عن وجوه: إمَّا أن تكون بمعنى الرحمة عليه أو بمعنى اللطف والإحسان إليه، والمدح والثناء عليه.

أويقال إنها بمعنى إرادته لتقريبه وتخصيص محله.

وكما أن رحمته إرادته لإنعامه فمحبته إرادته لإكرامه، والفرق بين المحبة والرحمة على هذا القول أن المحبة إرادة إنعامٍ مخصوصٍ، والرحمة إرادة كل نعمة فتكون المحبةُ أخصَّ من الرحمة، واللفظان يعودَان إلى معنًى واحد فإن إرادة الله تعالى واحدة وبها يريد سائر مراداته، وتختلف أسماء الإرادة باختلاف أوصاف المتعلق.

وأمَّا محبة العبد لله ـ سبحانه ـ فهي حالة لطيفة يجدها في قلبه، وتحمله تلك الحالة على إيثَارِ موافقة أمره، وتَرْكِ حظوظ نفسه، وإيثارِ حقوقه ـ سبحانه ـ بكل وجه.

وتحصل العبارة عن تلك الحالة على قدر ما تكون صفة العبد في الوقت الذي يعبِّر عنه؛ فيقال المحبة ارتياح القلب لوجود المحبوب، ويقال المحبة ذهاب المُحِبِّ بالكلية في ذكر المحبوب، ويقال المحبة خلوص المحب لمحبوبه بكل وجه، والمحبة بلاء كل كريم، والمحبة نتيجة الهمة فمن كانت همته أعلى فمحبته أصفى بل أوفى بل أعلى.

ويقال المحبة سُكْرٌ لا صحوَ فيه ودَهَشٌ في لقاء المحبوب يوجِب التعطُّلَ عن التمييز، ويقال المحبة بلاء لا يُرْجَى شفاؤه، وسقام لا يعرف دواؤه. ويقال المحبة

غريمٌ يلازمك لا يبرح، ورقيبٌ من المحبوب يستوفي له منك دقائقَ الحقوق في دوام الأحوال، ويقال المحبة قضية توجب المحبة؛ فمحبة الحق أوجبت محبة العبد[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

لولا أنه يحبهم لما أحبهم، ولولا أنه أخبر عن المحبة فأنّى تكون للطينة ذِكْرُ المحبة؟ ثم بيّن الله تعالى صفة المحبين فقال: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. يبذلون المُهَجَ في المحبوب من غير كراهة، ويبذلون الأرواح في الذَبِّ عن المحبوب من غير ادخار شظية من الميسور.

ثم قال تعالى في صفتهم: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي يجاهدون بنفوسهم من حيث استدامة الطاعة، ويجاهدون بقلوبهم بقطع المنى والمطالبات، ويجاهدون بأرواحهم بحذف العلاقات، ويجاهدون بأسرارهم بالاستقامة على الشهود في دوام الأوقات.

ثم قال: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ أي لا يلاحظون نُصْحَ حميم، ولا يركنون إلى استقلال حكم، ولا يجنحون إلى حظ ونصيب، ولا يزيغون عن سَنَنِ الوفاء بحالٍ.

ثم بيَّن ـ سبحانه ـ أن جميع ذلك إليه لا منهم فقال: و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ متفضّلٌ عليم بِمَنْ يَخُصّ بذلك من عبيده.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾.

الولي أي الناصر، ولا موالاة بين المؤمنين وبين أعداء الحق ـ سبحانه ـ فأعداء الحقِّ هم أعداء الدِّين.

و «إنما» حرفٌ يقتضي أن ما عداه بخلافه، وأعدى عدوِّك نَفْسُكَ ـ كما في الخبر ـ ومَنْ عادى نَفْسَه لم يخرج بالمخاصمة عنها مع الخلْق وبالمعارضة فيها مع الحق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

الفائزون على حظوظهم الذين هم خصم لِلحقِّ على أنفسهم لا خصم لأنفسهم على مولاهم، والغلبة بالحُجَّةِ والبرهان دون اليد.

ويقال من قام لله بصدق انخنس دونه كلُّ مُبْطِل. ويقال إذا طلعت أنوار الحق أدبر ليل أهل الباطل.

---

(١) انظر حديث القشيري بالرسالة عن المحبة ص٣١٧ ـ ٣٢٩.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

نَبَّهَهُم على وجوب التحيز عنهم والتميز منهم، فإن المخالف في العقيدة لا يكون موافقاً في الحقيقة.

ويقال: أمَرَهم بأن يلاحظوهم بعين الاستصغار كما لاحظوا دين المسلمين بعين الاستحقار.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

الأذانُ دعاءٌ إلى محلِّ النجوى، فَمَنْ تحقَّق بعلوِّ المحلِّ فسماعُ الأذانِ يوجب له روْحَ القلب واسترواح الروح، ومن كان محجوباً عن حقيقة الحال لاحَظَ ذلك بعين اللعب وأدركه بسمع الاستهزاء، وذلك حكمُ الله: غايَرَ بين عباده على ما يشاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾.

ما لنا عندكم عيبٌ إلا أننا تحققنا أننا محو في الله وأنَّ الكائنات حاصلة بالله ولا نتقفى أثراً سوى لله في الله، وهذا ـ واللَّهِ ـ عيبٌ زائلٌ، ونقصٌ ليس له ـ في التحقيق ـ حاصل.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾.

يعني أخسُّ من المذكورين قَدْراً، وأقل منهم خطراً من سقط عن عين الله فأذلَّه، وأبعده عن نعت التخصيص فأضلَّه، ومنعه عن وصف التقريب وأبعده، وحجبه عن شهود الحقيقة وطرده.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾.

أظهروا الصدق، وفي التحقيق نافقوا، وافتضحوا من حيث أوهموا ولبَّسُوا؛ فلا حالُهم بقيت مستورة، ولا أسرارهم كانت عند الله مكبوتة، وهذا نعتُ كل مبطل. وعند أرباب الحقائق أحوالهم ظاهرة في أنوار فراستهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

تَملكتْهُم الأطماعُ فاستهوتهم في متاهات العناء، وذلك نعت كل (طالع) في غير مطمع؛ ذُلٌّ حاضر، وصَغَارٌ مستولٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾.

الربانيُّ من كان لله وبالله؛ لم تبق منه بقية لغير الله.

ويقال الربّانيُّ الذي ارتقى عن الحدود.

والربانيُّ مَنْ توقَّى الآفات ثم ترقَّى إلى الساحات، ثم تلَّقى ما كوشِفَ به من زوائد القربات، فخلا عن نفسه، وصفا عن وصفه، وقام لِرَبِّه وبربِّه.

وقد جعل الله الربانيين تالين للأنبياء الذين هم أولو الدِّين، فهم خلفاءُ ينهون الخلْقَ بممارسة أحوالهم أكثر مما ينهونهم بأقوالهم، فإنهم إذا أشاروا إلى الله حقق الله ما يُؤمِنُون إليه، وتحقق ما علقوا هممهم به.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

صغَّر سوء قالة الموحِّدين ـ في اغتياب بعضهم لبعض بعد ما كانوا بالتوحيد قائلين وبالشهادة ناطقين ـ بالإضافة إلى ما قاله الكفار من سوء القول في الله؛ يعني أنهم وإن أساءوا قولاً فلقد كان أسوأ قولاً منهم مَنْ نَسبَنَا إلى ما نحن عنه مُنَزَّه، وأطلق في وصفنا ما نحن عنه مُقدَّس.

ثم إن الحق ـ سبحانه قال: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ فلا ريح الصدق يشمون، ولا نَفَساً من الحقِّ يجدون.

ثم أثنى على نفسه فقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ أي بل قدرته بالغة ومشيئته نافذة، ونعمته سابغة وإرادته ماضية.

ويقال ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ أي يرفع ويضع، وينفع ويدفع، ولا يخلو أحدٌ عن نِعَمِ النفع وإن خلا عن نعم الدفع.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

إنما وعدهم الغفرانَ بشرط التقوى. ودليل الخطاب يقتضي أنه لا يغفر لمن لم يتق منهم.

وقال لظالمي هذه الأمة: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ

لِنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٢] ثم قال في آخر الآية: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [فاطر: ٣٣] أي أهل التقوى لأنه أهل المغفرة، فإنْ تركتم التقوى فهو أهلٌ لأن يغفر.

ويقال لو أنهم راعوا أمرنا أصلحنا لهم أمرهم، ولكنهم وَقَفُوا فوُقِفُوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾.

أي لو سلكوا سبيلَ الطاعة لوسَّعنا عليهم أسباب المعيشة وسَّهلنا لهم الحال حتى إن ضربوا بيمينٍ ما لقوا غيرَ اليُمْن، وإنْ ذهبوا يعسْرةٍ ما وجدوا إلا اليُسْر.

قوله جلّ ذكره: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾.

المقتصد الواقف على حدِّ الأمر؛ لا يُقَصِّر فيُنْقِص، ولا يجاوزُ فيزيد.

ويقال المقتصدُ الذي تساوى في هِمَّتِه الفقدُ والوجودُ في الحادثات.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ﴾.

لا تكتم شيئاً مما أوحينا إليك مُلَاحَظَةً لِغَيْرٍ، إذ لا غير - في التحقيق - إلا رسوم موضعة، وأحكام القدرة عليها جارية.

ويقال بَيِّنْ للكافة أنك سيِّدُ ولد آدم، وأنَّ آدم دون لوائك.

ويقال بلِّغ ما أُنزِلَ إليك أنّي أغفر للعصاة ولا إبالي، وأردُّ مِنَ المطيعين مَنْ شِئتُ ولا أُبالي.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

يحفظ ظاهرك من أن يَمَسَّكَ أذاهم، فلا يتسلط بعد هذا عليك عدوٌّ، أو يصون سِرَّك عنهم حتى لا يقع احتشامٌ منهم.

ويقال يعصمك من الناس حتى لا تغرق في بحر التوهم؛ بل تشاهدهم كما هُمْ؛ وجوداً بين طرفي العَدَم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

أي ليس انتعاشكم ولا نظام معاشكم، ولا قَدْركم في الدنيا والعُقبى، ولا مقداركم ولا منزلكم في حال من حالاتكم إلا بمراعاة الأمر والنهي، والمحافظةِ على أحكام الشرع.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

بَيّنَ أنهم ـ وإنْ تجنَّستْ أحوالهم ـ فبعدما تجمعهم أصولُ التوحيد فلهم الأمانُ من الوعيد، والفوزُ بالمزيد.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

داروا مع الهوى فوقعوا في البلاء. ومِنْ أمارات الشقاء الإصرارُ على متابعة الهوى، وحسبوا ألا تكون فتنة، فعموا وصموا. واغتروا بطول الإمهال فأصروا على قبيح الأعمال، فلما أَخَذَتْهم فجاءةُ الانتقام لم ينفعهم الندم، وبَرَّحَ بهم الألم.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

سَقِمَتْ بصائرهم والتبست عليهم أمارات الحدوث، فخَلَطُوا في عقائدهم استحقاقَ أوصافِ القِدَم بنعوت الحدوث!.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

بلغ الخذلانُ بهم حداً أَنْ كابروا الضرورة فحكموا للواحد بأنه ثلاثة، ولا يخفى فسادُ هذا على مجنونٍ.. فكيف على عاقل؟!

قوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لم يُغْلِقْ بابَ التوبة عليهم ـ مع قبيح أقوالهم، وفساد عقائدهم ـ تضعيفاً لآمال المؤمنين بخصائص رحمته.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

مَنْ اشتملت عليه الأرحامُ، وتناوبته الآثار المتعاقبة أنَّى يليق بوصف الإلهية؟

ثم مَنْ مَسَّته الحاجةُ حتى اتصف بالأكل وأصابته الضرورةُ إلى أن يَخْلُصَ من بقايا الطعام فَأَنَّى يليق به استيجابُ العبادة والتسميةُ بالإلهية؟

انظر ـ يا محمد ـ كيف نزيد في إيضاح الحجة وكيف تلبَّس عليهم سلوكُ المحجة؟

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

تعليقُ القلوب ـ بدون الرب ـ في استدفاع الشر واستجلاب الخير تمحيق للوقت فيما لا يُجْدِي، وإذهابٌ للعمر فيما لا يُغْني؛ إذ المتفردُ بالإيجاد بريءٌ عن الأنداد.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

التعمقُ في الباطل قطعٌ لآمال الرجوع؛ فكلما كان بُعْدُ المسافةِ مِنَ الحقِّ أتمَّ كان اليأسُ من الرجعةِ أوجبَ، ومُتَّبِعُ الضلالة شرٌّ مِنْ مبتدِعها؛ لأن المبتدعَ يبني والمُتَّبِع يُتِمُّ البناء، ومنْ به كمالُ الشرِّ شرٌّ ممن منه ابتداءُ الشر.

قوله جلّ ذكره: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾.

أَمَر الأنبياء ـ عليهم السلام ـ حتى ذكروا الكفار بالسوء، وأمَّا الأولياء فخصَّهم بذكر نفسه فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٣] فلعنةُ الكفار بلسان الأنبياء، وذِكْرُ المؤمنين بالجميل بلسان الحقِّ ـ سبحانه، ولو كان ذلك ذِكْراً بالسوء لكان فيه استحقاقُ فضيلةٍ، فكيف وهو ذكرٌ بالجميل!؟ ولقد قال قائلهم:

لئن ساءني أنْ تَلْقَني بمساءةٍ ... فقد سرَّني أني خَطَرْتُ ببالكا

قوله جلّ ذكره: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

الرضاءُ بمخالفة أمر الحبيب مُوَافَقَةٌ للمخالف، ولا أَنَفَةَ بعد تميز الخلاف.
والسكوتُ عن جفاءٍ تُعامَلُ به كَرَمٌ، والاغضاءُ عما يُقال في محبوبك دناءةٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾.

شرُّ خِصال اللئام مطابقةُ مَنْ يضاد الصديق، فإذا كان سخط الله في موالاة أعدائه فرحمته ـ سبحانه ـ في معاداة أعدائه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

صَرَّحَ بأنَّ مُوافِقَ مَنْ ناوَءَكَ آثَرَ التباعدَ عنك؛ إذ لو كانت بينكما شَعْرَةٌ غيرُ مُنقَطِعَةٍ لأخلصت في موالاته، وأخلصَ في مصافاتك.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

بَيَّنَ أَنَّ صفة العداوة وإن كانت تجمعهم فمعاداةُ بعضهم تزيد على بعض، وبقدر ما للنصارى من التَّرهُّب أثر فيهم بالمقاربة من أهل الحق؛ فإنهم وإن لم ينتفعوا بهم من حيث الخلاص فقد ذكرهم الله سبحانه ـ بمقاربة أهل الاختصاص.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

هذه صفة من نظر إليه الحق نظر القبول، فإذا قَرَعَتْ سَمْعَهُم دعوةُ الحقِّ ابتسمت البصيرة في قلوبهم، فسكنوا إلى المسموع لما وجدوا من التحقيق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾.

وأي عذر لنا في التعريج في أوطان الارتياب، وقد تجلَّت لقلوبنا الحجج؟ ثم ما نؤمله من حُسْنِ العاقبة.. متى بدونه يمكن أن نطلبه؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

لمَّا صَدَقَتْ آمالهم قابلها بالتحقيق، سُنَّةٌ منه ـ سبحانه ـ ألا يخيب راجيه، ولا يرد مؤمليه، وإنما علَّق الثواب على قولِ القلب الذي هو شهادةٌ عن شهوده، فأمّا النظر المنفردُ عن البصيرةِ فلا ثوابَ عليه ولا إيجاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

(هذا) أثر الإعراض عن الأعداء في مقابلة أثر الإقبال على الأولياء معجَّلاً ومؤجلاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

من أمارات السعادة الوقوفُ على حد الأمر؛ إنْ أَبَاحَ الحقُّ شيئاً قَبِلَه، وقابله بالخشوع، وإنْ خَطَرَ شيئاً وقف ولم يتعرض للجحود.

ومما أباحه من الطيبات الاسترواح إلى نسيم القرب في أوطان الخلوة، وتحريم ذلك: إنْ اسْتَبْدَلَ تلك الحالة بالخلطة دون العزلة؛ والعِشْرَةِ دون الخلوة، وذلك هو العدوان العظيم والخسران المبين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾.

الحلال الصَّافي بأن يأكلَ العبدُ ما يأكلُ على شهوده ـ سبحانه ـ فإنْ نَزَلَتْ الحالةُ عن هذا فَعَلَى ذِكْرٍ ـ سبحانه ـ فإنَّ الأكلَ على الغفلة حرامٌ في شريعة الإرادة.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْۚ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

الإشارة منه إلى وقتٍ يغلب على قلبك التعطشُ إلى شيء من إقباله أو وصاله، فَتُقْسِمُ عليه بجماله أو جلاله أن يرزقَك شظيةً من إقباله، فكذلك في شريعة الرضا نوعٌ من اليمين، فيعفو عنك رحمةً عليك لضعف حالك. والأَوْلى الذوبان والخمود بحسن الرضا تحت ما يُجْرِي عليكَ من أحكامه في الردِّ والصد، وأن تؤثِرَ استقامتَك في أداء حقوقه على إكرامك بحسن تقريبه وإقباله، كما قال قائلهم:

أُريـدُ وِصـالَـه ويـريـد هـجـري فـأتـركُ مـا أريـد لـمـا يـريـد

ومِنَ اللغوِ في اليمين ـ عندهم ـ ما يجري على لسانهم في حال غلبات الوجْد من تجريد العهد وتأكيد العقد، فيقول:

وحقِّك ما نظرتُ إلى سواكا، ولا قُلْت بغيرك.. ولا حُلْتُ عن عهدك، وأمثال هذا...

وكلُّه في حكم التوحيد لغو، وعن شهود عهد الأحدية سهوٌ... ومَنْ أنتَ في الرِّفعةِ حتى تَعْدِمَ نَفْسَكَ؟ وأين في الدار ديَّار حتى تقول بتركه أو تتحقق بوصله أو هجره؟ كلا... بل هو الله الواحد القهار(١).

(١) قال القشيري برسالته في حديث مشابه عندما تحدث عن التوحيد: سُئل الشبلي عن توحيد مجرد بلسان حق مفرد، فقال: ويحك من أجاب عن التوحيد بالعبارة فهو ملحد، ومن أشار إليه فهو ثنوي ومن أومأ إليه فهو عابد وثن، ومن نطق فيه فهو غافل، ومن سكت عنه فهو جاهل، ومن وهم أنه واصل فليس له حاصل، ومن رأى قريب فهو بعيد، ومن تواجد فهو فاقد، وكل ما ميزتموه بخيالكم وأدركتموه بعقولكم في أتم معانيكم، فهو مصروف مردود إليكم. فحدث مصنوع مثلكم. (الرسالة القشيرية ص٣٠١).

وكما أن الكفّارة الشرعية إمّا عِتق أو إطعامٌ وإما كسوةٌ فإن لم تستطع فصيام ثلاثة أيام: فكفّارتهم ـ على موجب الإشارة ـ إمّا بذل الروح بحكم الوَجْدِ، أو بذل القلب بصحة القصد، أو بذل النفس بدوام الجهد، فإن عجزتَ فإمساكٌ وصيامٌ عن المناهي والزواجر.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

الخمر ما خامر العقول، والخمر حرام.

والإشارة فيه أنه يزيد نَفَادَ العقل بما يوجب عليه من الالتباس.

ومَنْ شَرِبَ من خمر الغفلة فسُكْرُه أصعب؛ فشرابُ الغفلةِ يوجب البعد عن الحقيقة.

وكما أن من سَكِرَ من خمر الدنيا ممنوعٌ عن الصلاةِ فمن سَكِرَ من خمر الغفلة فهو محجوبٌ عن المواصلاتِ.

وكما أنَّ مَنْ شَرِبَ من خمر الدنيا وجبِ عليه الحدُّ فكذلك من شرِبَ شرابَ الغفلة فعليه الحَدُّ إذ يُضْرَبُ بسياط الخوف.

وكما أنَّ السكرانَ لا يُقامُ عليه الحدُّ ما لم يُفِقْ فالغافل لا ينجح فيه الوعظُ ما لم ينتبه.

وكما أن مفتاحَ الكبائر شربُ الخمر (فالغفلة)[1]، أصلُ كلِّ زَلَّة، وسببُ كلِّ ذِلَّة وبدءُ كل بُعْد وحجبة عن الله تعالى.

ويقال لم يحرم عليه الشرابَ في الدنيا إلا وأباح له شرابَ القلوب؛ فشراب الكبائر محظور وشراب الاستئناس مبذول، وعلى حسب المواجد حظى القوم بالشراب، وحيثما كان الشرابُ كان السكْر، وفي معناه أنشدوا:

فما ملَّ ساقيها وما ملَّ شارب عقار لحاظ كأسه يسكر اللُّبَّا
فصحوك من لفظي هو الوصل كله وسكرك من لحظي يبيح لك الشربا

وحُرِّم الميسر[2] في الشرع، وفي شريعة الحب القوم مقهورون؛ فمن حيث الإشارة أبدانهم مطروحة في شوارع التقدير، يطؤها كل عابر سبيل من الصادرين من عين المقادير، وأرواحهم مستباحة بحكم القهر، عليها خرجت القُرْعةُ من (. . . .)[3]، قال تعالى ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١].

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق. (٢) الميسر: قمار العرب في الجاهلية.
(٣) بياض في الأصل.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾.

طال بُعْدُهم عن الحقيقة فقاسوا الهوان في مطارح الغربة، وصاروا سخرة للشيطان؛ فبقوا عن الصلاة التي هي محل النجوى وكمال الراحة، وفَسَدَتْ ذاتُ بَيْنِهِم بما تولد من الشحناء والبغضاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

كما كان العبد أعرفَ بربه كان أخوفَ من ربه، وإنما ينتفي الحذر عن العبد عند تحقيق الموعد بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ [الأنعام: ٨٢] وذلك عند دخول الجنة. وحقيقةُ الحذر نهوضُ القلب بدوام الاستغاثة مع مجاري الأنفاس.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

من حافظ على الأمر والنهي فليس للقمة يتناولها من الخطر ما يُضايَق فيها، وإنما المقصود من العبد التأدبُ بصحبة طريقه سبحانه، فإذا اتَّقى الشِرْكَ تعرّف، ثم اتقى الحرامَ فما تصرّف، ثم اتقى الشحَّ فآثر وما أسرف.

وقوله ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟﴾ يعني اتقوا المنع وأحسنوا للخلْق ـ وهذا للعموم. ثم اتقوا شهود الخلْق؛ فأحسنُ الشهودِ الحقُّ، والإحسانُ أنْ تعبد الله كأنك تراه ـ وهذا للخواص.

والله يحب المحسنين أعمالاً والمحسنين (آمالاً) والمحسنين أحوالاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ❁ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

أباح الصيد لمن كان حَلّالاً، وحرّم الصيد على المُحْرِم الذي قَصدُهُ زيارة البيت. والإشارة فيه أن من قصد بيتنا فينبغي أن يكون الصيد منه في الأمان، لا يتأذى منه حيوان بحال، لذا قالوا: البرُّ مَنْ لا يؤذي الذر ولا يُضْمِر الشر.

ويقال الإشارة في هذا أنَّ مَنْ قصَدَنا فعليه نَبْذُ الأطماعِ جملةً، ولا ينبغي أن تكون له مطالبة بحالٍ من الأحوال.

وكما أنَّ الصيدَ على المُحْرِم حرامٌ إلى أن يتحلل فكذلك الطلب والطمع والاختيار ـ على الواجِد ـ حرامٌ ما دام مُحْرِماً بقلبه.

ويقال العارفُ صيدُ الحق، ولا يكون للصيد صيد.

وإذا قَتَلَ المُحرِمُ الصيدَ فعليه الكفَّارة، وإذا لاحظ العارفُ الأغيارَ، أو طمع أو رغب في شيءٍ أو اختار لَزِمَتْه الكفَّارة، ولكن لا يُكْتَفى منه بجزاء المثل، ولا بأضعاف أمثال ما تصرَّف فيه أو طمع، ولكن كفَّارته تجرده ـ على الحقيقة ـ عن كل غير، قليلٍ أو كثير، صغير أو كبير.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

حُكْمُ البحرِ خِلافُ حُكْم البر. وإذا غرق العبدُ في بحار الحقائق سَقَطَ حكمه، فصيد البحر مباح له لأنه إذا غرق صار محواً، فما إليه ليس به ولا منه إذ هو محوٌ، واللَّهُ غالِبٌ على أمره.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

حَكَمَ الله سبحانه ـ بأن يكون بيتُه ـ اليومَ ملجأ يلوذ به كل مُؤمِّل، ويستقيم ببركات زيارته كلُّ مائلٍ عن نهج الاستقامة، ويستنجح بابتهاله هنالك كلُّ ذي أَرَبٍ.

والبيتُ حَجَرٌ والعبد مَدَرٌ[1]، والحق سبحانه ربط المدر بالحجر ليُعْلَمَ أنه الذي لم يَزَلْ لا سبيل إليه للحدثان والغير.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

شديد العقاب للأعداء، غفور رحيم للأولياء.

ويقال شديد العقاب للخواص بتعجيل الحجاب إنْ زاغوا عن الشهود لحظةً، غفور رحيم للعوام إن رجعوا إليه بتوبة وحسرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

المتفرِّدُ بالإلهية اللَّهُ. والرسولُ ـ وإنْ جلَّ قَدْرُه ـ فليس عليه إلا البلاغ وهو أيضاً (بتسييره).

---

(١) المدر: قطع الطين اليابس المتماسك.

قوله: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾: الخبيث ما اكتسبه الغافل عن الله تعالى في حالة اكتسابه، والطيب ما اكتسبه على شهود الحق.

ويقال الخبيث ما لم يُخرَجْ منه حقُّ الله تعالى، والطيب ما أُخرِجَ منه حقه ـ سبحانه. ويقال الخبيث ما ادخرتَه لنفسك، والطيب ما قدَّمتَه لأمره.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

إذا أسبل عليكم ستر اللطف فلا تتعرضوا لعلم أُخْفِيَ عنكم، فيتنغص (بالتجـ. . .)[1] ـ عليكم ـ عَيْشُكم.

ويقال لا تتعرضوا للوقوف على محل الأكابر ـ حيث لا تستوجبون ذلك ـ فيسوءكم تقاصرُ رتبتك.

ويقال إذا بدا من الإعراض علم فاطلبوا له عندكم وجهاً من التفال ولا تطلبوا أسرار الباري، واركنوا إلى روْح المنى في استدفاع ما ظلكم ولا تبحثوا عن سر ذلك، وراعوا الأمر مجملاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾.

يعني توهَّم قوم أنهم محرورن عن التأثر فيما يصادفهم في فجاءة التقدير، وذلك منهم ظَنٌّ، كما يقول بعضهم:

تبيَّن يومَ البين أنَّ اعتزامَه ... على الصبر من إحدى الظنون الكواذب

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

هذه أحكامٌ ابتدعوها، فردَّهم الحقُّ ـ سبحانه ـ عن الابتداع، وأَمَرهم بحسن الاتِّباع، وأخبر أنَّ ما صدر من عاداتهم لا يُعَدُّ من جملة عبادتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

إذا هتفت بهم دواعي الحقّ بالجنوح إلى وصف الصدق صَدَّهم عن الإجابة ما مرنوا عليه من سهولة التقليد، وإن أسلافهم الذين وافقوهم لم يكونوا إلّا في ضلال.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

---

(١) بقية الكلمة بياض في الأصل.

يكفي للفقير أن يمشيَ وقد جُبِرَ بعضُ كَسْرِه، فأمَّا إذا ادَّعى التقدم أو الطمع في إنجادِ منْ سواه فمحال من الحدث والظن.

ويقال من يفرغ إلى غيره يتشاغل عن نفسه، ومن اشتغل بنفسه لم يتفرَّغ إلى غيره.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾.

حكم هذه الآية كان ثابتاً في الشرع ونُسخ، وفي بيان التفسير تفصيلُه.

والنسخُ هو الإزالة، وذلك جائزٌ في العبادات.

ومعنى النسخ يوجد في سلوك المريدين؛ فهم في الابتداء فَرْضُهم القيام بالظواهر من حيث المجاهدات، فإذا لاح لهم من أحوال القلوب شيء آلت أحوالهم إلى مراعاة القلوب فتسقط عنهم أوراد الظاهر، فهو كالنسخ من حيث الصورة.

قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]. واتصافهم بمراعاة القلوب أتمُّ بتأديبهم بأحكام المعاملات.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

يكاشفهم بنعت الجلال فتنخنس فهومُهم وعلومُهم حتى ينطقوا بالبراءة عن التحقيق ويقولون: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾، وهكذا تكون الحالة غداً: مَنْ قال لشيءٍ، أو مَالَ لشيءٍ مما يكون نعتاً بمخلوق فعند ظهور وابل التعزُّز تتلاشى الجملة، فالملائكة يقولون: «ما عبدناك حق عبادتك» والأنبياء يقولن: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

التذكيرُ بوجوه النعم يستخرج خلاصة الحُب والهيمان في المذكور وكلُّ وقتٍ للأحباب يمضي يصير لهم حديثاً يتلى من بعدهم: إما عليهم وإمَّا عنهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾.

وإنما خصَّهم بالوحي إلهاماً وإكراماً لانبساط ضياء عيسى عليهم[1]، وفي الأثر: «هُمُ القومُ لا يَشْقَى بهم جليسُ»[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

طلبوا المائدةَ لتسكن قلوبهم بما يشاهدونه من عظيم الآية وعجيب المعجزة، فعُذِرُوا وأجيبوا إليها؛ إذ كان مرادُهم حصولَ اليقين وزيادةَ البصيرة.

ويقال كلٌّ يطلب سُؤله على حسب ضرورته وحالته، فمنهم من كان سكونه في مائدة من الطعام يجدها، ومنهم من يكون سكونه في (فائدة) من الموارد يَرِدُها، وعزيز منهم من يجد الفناء عن برهان يتأمله، أو بيان دليل يطلبه.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

شَتَّان بين أمة طلب لهم نبيُّهم سكوناً بإنزال المائدة عليهم، وبين أمة بدأهم ـ سبحانه بإنزال السكينة عليهم، من غير سؤال أحد، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

وقال في صفتهم: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

وفَرْقٌ بين مَنْ زيادةُ إيمانه بآياته التي تتلى عليهم وبين من يكون سكونهم إلى كرامات وعطايا تُبَاحُ لهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أجابه إلى سؤاله لهم، ولكن توعدهم بأليم العقاب لو خالفوا بعده لِيَعْلَمَ السالكون أنَّ المراد إذا حصل، وأنَّ الكرامة إذا تحققت ـ فالخطر أشدُّ والحالُ من الآفة أقربُ،

---

(١) هذا شبيه بفكرة القشيري في الولاية. (انظر الرسالة في حديثه عنها ص٢٥٩ ـ ٢٦٣).

(٢) أخرجه الترمذي (دعوات ١٢٩)، وأحمد بن حنبل ٢، ٢٥٢، ٣٥٩، ٣٨٣.

وكلما كانت الرتبة أعلى كانت الآفة أخفى، ومحن الأكابر إذا حلَّت جلَّت.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

المراد من هذا السؤال إظهار براءة ساحته عما نسب إليه من الدعاء إلى القول بالتثليث(١)، فهذا ليس خطاب تعنيف بل هو سؤال تشريف.

ثم إن عيسى ـ عليه السلام ـ حفظ أدب الخطاب فلم يُزَكِّ نَفْسَه، بل بدأ بالثناء على الحق ـ سبحانه ـ فقال: تنزيهاً لك! إنني أنزهك عما لا يليق بوصفك.

ثم قال: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ أي إنني إن كنت مخصوصاً مِنْ قِبَلِكَ بالرسالة ـ وشرط النبوة العصمة ـ فكيف يجوز أن أفعل ما لا يجوز لي؟

ثم إني ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ﴾: كان واثقاً بأن الحقَّ ـ سبحانه ـ عليم بنزاهته من تلك القالة.

﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾: أي علمك محيطٌ بكل معلوم.

﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ﴾ أي لا أطلع على غيبك إلا بقدر ما تُعَرِّفُني بإعلامك.

﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾الذي لا يخرج معلوم عن علمك، ولا مقدور عن حكمك.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

ما دعوتُهم إلا لعبادتك، وما أمرتهم إلا لتوحيدك وتقديسك، وما دمت حياً فيهم كنت (. . . .)(٢) على هذه الجملة، فلما فارقتُهم كان تصرفهم في قبضتك على مقتضى مشيئتك، فأنت أعلم بما كانوا عليه من وَصْفَي وفاقهم وخلافهم، ونِعَمَتَيْ اقتصادهم وإسرافهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

بيَّن أن حكم المولى في عبيده نافذ بحكم إطلاق ملكه، فقال إن تعذبهم يحسن منك تعذيبهم وكان ذلك لأنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم أي المُعِز لهم بمغفرتك لهم.

---

(١) التثليث: ما كوّن من ثلاثة، ومنه الثالوث الأقدس رمزاً للأقانيم الثلاثة عند النصارى الأب والابن وروح القدس.

(٢) بياض في الأصل.

ويقال أنت العزيز الحكيم الذي لا يضرك كُفرُهم.

ويقال ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ القادر على الانتقام منهم فالعفو (عند) القدرة سِمَةُ الكرمِ، وعند العجز أمارةُ الذُّل.

ويقال إن تغفر لهم فإنك أعزُّ من أن تتجمل بطاعة مطيعٍ أو تنتقص بِزلَّةِ عاصٍ. وقوله ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ ردُّ على من قال: غفران الشِّركِ ليس بصحيحٍ في الحكمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ﴾.

مَنْ تعجَّل ميراثَ صدقه في دنياه من قبولٍ حصل له من الناس، أو رياسةٍ عقدت له، له أو نفعٍ وصل إليه من جاهٍ أو مالٍ. فلا شيء له في آجله من صواب صدقه، لأن الحقَّ ـ سبحانه ـ نصّ بأنَّ يومَ القيامة ينفع فيه الصادقين صدقهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

ورضاءُ الحق ـ سبحانه ـ إثباتُ مَحَلٍّ لهم، وثناؤه عليهم ومدحُه لهم، وتخصيصهم بأفضاله وفنون نواله. ورضاؤهم عن الحق ـ سبحانه في الآخرة وصولهم إلى مناهم؛ فهو الفوز العظيم والنجاة الكبرى.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ﴾.

تَمَدَّحَ لحقُّ ـ سبحانه ـ بقدرته القديمة الشاملة لجميع المقدورات، الصالحة لإيجاد المصنوعات، ولم يتجمل بإضافة غيرٍ إلى نفسه من اسمٍ أو أثرٍ، أو عينٍ أو طلل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾.

من الإبعاد والإسْعاد، والصد والرد، والدفع والنفع، والقمع والمنع.

السورة التي تذكر فيها الأنعام

بسم الله الرحمن الرحيم

باسمه استنارت القلوب واستقلَّت، وباسمه زالت الكروب واضمحلت، وبرحمته عرفت الأرواح وارتاحت، وبا (. . .)[1] انخنست[2] العقولُ فطاحت.

ويقال باسم الله نال كلُّ مُؤمِّلٍ مأموله، وبرحمة الله وجد كل واجد وصوله.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

بدأ الله ـ سبحانه ـ بالثناء على نفسه، فحمد نفسه بثنائه الأزليّ وأخبر عن سنائه الصمدي، وعلائه الأحدي فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

وقوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: «فالذي» إشارة و ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ عبارة. استقلت الأسرارُ بسماع «الذي» لتحققها بوجوده، ودوامها لشهوده، واحتاجت القلوب عند سماع «الذي» إلى سماع الصلة لأن «الذي» من الأسماء الموصولة بكوْنِ القلوب تحت ستر الغيب فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

خَلَقَ ظلمةَ الليل وضياءَ النهار، ووحشةَ الكفر والشِرْك، ونور العرفان والاستبصار.

ويقال جَعَلَ الظلماتِ نصيبَ قوم لا لجُرْمٍ سَلَفَ، والنورَ نصيبَ قومٍ لا لاستحقاقٍ سبق، ولكنه حُكْمٌ به جرى قضاؤه.

ويقال جعل ظلماتِ العصيان محنةَ قومٍ، ونور العرفان نزهةَ قوم.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾.

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) الانخناس: التأخر والتخلف.

أثبت الأصل من الطين وأدعها عجائب (السير) وأظهر عليها ما لم يظهر على مخلوق، فالعِبْرةُ بالوَصْلِ لا بالأصل؛ فالوَصْلُ قُرْبَةٌ والأصل تُرْبةٌ، الأصل من حيث النُّطفة والقطرة، والوصل من حيث القربة والنُّصرة.

قوله ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ﴾: جعل للامتحان أجلاً، ثم جعل للامتنان أجلاً، فَأَجَلُ الامتحان في الدنيا، وأَجَلُ الامتنان في العُقبى.

ويقال ضَرَبَ للطلب أجلاً وهو وقت المهلة، ثم عقبه بأجل بعده وهو وقت الوصلة؛ فالمهلة لها مدًى ومنتهى، والوصلة بلا مدًى ولا منتهى؛ فوقتُ الوجودِ له ابتداء وهو حين تطلع شموس التوحيد ثم يتسرمد فلا غروب لها بعد الطلوع.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾.

وهو الذي هو معبودُ مَنْ في السماء، مقصود مَنْ في الأرض، وهو الموجود قبل كل سماءٍ وفضاء، وظلام وضياء، وشمس وقمر، وعين وأثر، وغيْر وغَبَر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

أي لا يزيدهم كشفاً ولطفاً إلا قابلوهُ جحداً وكفراً، ولا يُولِيهم إقبالاً إلا قابلوه بإعراض، ولا يلقاهم بَسْطاً إلّا (. . . .)[1] بانقباض.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

إنهم أَصَرُّوا على الخلافِ مستكبرين، وعن قريب يقاسون وبالَ أمرهم، ويذوقون غِبَّ جُحْدِهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾.

يعني مَنْ تَقَدَّمَهُم كانوا أشدَّ تمكناً في إمهالنا، وأكثَر نصيباً ـ في الظاهر ـ من أقوالنا؛ سهَّلنا لهم أسبابَ المعاش، ووسَّعنا عليهم أبواب الانتعاش، فحين وَطَّنُوا على كواذب المنى قلوبَهم، وأدركوا من الدنيا محبوبهم ومطلوبَهم فتحنا عليهم من مكامن التقدير، وأبرزنا لهم من غوامض الأمور ما فزعوا عليه من النَّدَم، وذاقوا دونه طعم الألم. ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين، وأورثناهم مساكنهم، وأسكناهم

(١) بياض في الأصل.

أماكنهم، فلَّما انخرطوا ـ في الغيّ ـ عن سلكهم، ألحقناهم في الإهلاك بهم، سُنَّةً منا في الانتقام قضيناها على أعدائنا، وعادةً في الإكرام أجريناها لأوليائنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

يُخْبِرُ عن كمالِ قدرته في إبداء ما يريده بعد ما قَضَى لهم الضلالَ، فلو أشهدهم كُلَّ دليل، وأَوْضَحَ لهم كل سبيل ما ازدادوا إلّا تمادياً في الضلال والنفرة، وانهماكاً في الجهل والغيّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾.

بيَّنَ أَنَّ العبرة بالقسمة دون الاعتبار بالحجة، وما يغني السراج عند مَنْ فَقَدَ البصر؟ كذلك ما تغني الحجَجُ عند مَنْ عدم عناية الأزل؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾.

مَنْ لم يُقَدِّسْ سِرَّه لَبَّسَ عليه أَمْرَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

أي سَبَقَكَ ـ يا محمد ـ مَنْ كُذِّب به كما كُذِّبْتَ، فحقَّ لهم نصرنا، فانتقمنا ممن ناوءهم، فعاد إليهم وبالُ كيدهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

قُلْ دوخوا في الأرض، وسيحوا[١] في سيركم فيها من الطول والعَرْضِ، ثم انظروا هل أَفْلَتَ من حكمنا أحدٌ، وهل وجد من دونَ أمرنا مُلْتَحداً[٢]؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

سَلْهُم هل في الدار ديار؟ وهل للكوْنِ ـ في التحقيق ـ عند الحق مقدار؟ فإنْ بقوا عن جوابٍ يَشْفِي، فَقُلْ: الله في الربوبية يكفي.

قوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾: أخبرَ وحَكَمَ وأرادَ على حسب ما عَلِمَ، فَمَنْ تَعلَّقَ بنجاته عِلْمُه سَبَقَ بدرجاته حُكْمُه، ومَنْ عَلمِهَ في آزاله أنه يَشْقَى فبقدر شقائه في البلاء يبقى.

---

(١) ساح فلان في الأرض: ذهب في الأرض أو سار فيها.

(٢) التحد إلى الحصن أو الصديق: لجأ إليه أو اعتمد عليه. والمُلتحد: الملجأ.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

الحادثاتُ للّهِ مِلْكاً، وباللّهِ ظهوراً، ومِنَ اللّهِ بدءاً، وإلى اللّهِ رجوعاً. وهو ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لأنين المشتاقين، ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بحنين الواجدين.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أَبَعْدَ ما أكرمني بجميل ولايته أتولى غيره؟ وبعد ما وَقَعَ عليَّ ضياءُ عنايته أنظرُ في الدارين إلى أحد؟ إنَّ هذا محالٌ في الظنّ والتقدير.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ﴾.

له نعتُ الكَرَمِ فلذلك يُطْعِمُ، وله حقُّ القِدَمِ فلذلك لا يُطْعَمْ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾.

أي إنّي بعجزي متحقق، ومن عذاب ربي مُشْفِق، وبمتابعة أمره مُتَخَلِّق.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾.

من أدركه سابقُ عنايته صَرَفَ عنه لاحِقَ عقوبته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

إنَّه مَنْ ينجيك من البلاء، ومن يُلقيك في العناء. وإذ المتفرِّد بالإبلاغ واحد فالأغيارُ كلُّهم أفعاله؛ وإن الإيجاد لا يَصْلُحُ من الأفعال.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾.

عَلَتْ رُتبةُ الأحدية صفةَ البشرية، فهذا لم يزل لم يكن فحصل. ومتى يكون بقاء للحدثان مع وضوح سلطان التوحيد؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾.

غلَبَتْ شهادة الحق ـ سبحانه ـ كلَّ شهادة، فهم إذا أقبلوا يشهدون فلا تحيط بحقائقِ الشيء علومُهم، والحقُّ ـ سبحانه ـ هو الذي لا يَخْفَى عليه شيءٌ، ثم أخبره ـ ﷺ أنه مبعوثٌ إلى الكافة ومَنْ سيوجد إلى يوم القيامة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

أحاط علمُهم بصدقِ المصطفى ـ ﷺ ـ في نُبوَّتِه، ولكن أدركتهم الشقاوة الأزلية

فعقدت ألسنتهم عن الإقرار به؛ فجحدوه جهراً، وعلموا صِدْقَه سِرًّا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾.

شؤم الخذلان بلغ بالنكاية فيهم ما جرَّهم إلى الإصرار على الكذب على الله تعالى، ثم لم يستحيوا من اطلاعه، ولم يخشوا من عذابه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

يجمعهم ليوم الحشر والنشر، لكنه يفرقهم في الحكم والأمر، فالبعث يجمعهم ولكن الحكم يفرقهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

هذا الذي أخبر عنهم غايةُ التمرد؛ حيث جحدوا ما كَذبُوا فيه وأقسموا عليه، ولو كان لهم بالله عِلمٌ بأنه يعلم سِرَّهم ونجواهم، ولا يخفى عليه شيءٌ من أُولَاهم وعُقباهم، لكن الجهل الغالب عليهم استنطقهم بما فيه فضائحهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

هذه كلمة تعجب؛ يعني إنَّ قصتهم منها ما هو محلُّ التعجب لأمثالكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ﴾.

بيَّنَ أن السمعَ ـ في الحقيقة ـ سمعُ القبول، وذلك عن عين اليقين يصدر، فأما سَمْعُ الظاهر فلا عِبْرَة به.

ويقال مَنْ ابتلاه الحقُّ بقلبٍ مطبق، ووضع فوق بصيرته غطاءَ التلبيس لم يزدْه ذلك إلا نفرة على نفرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَـٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

يعني مَنْ أَقصَته القسمة الأزلية لم تنعشه الحيلة الأبدية.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

في هذه الآية إشارة صعبة (لمن) يدعو إلى الحق جهراً ثم لا يأتي بذلك سراً.

ويقال خالَفَتْ أحوالُهم قضايا أقوالهم، وجرى إجرامُهم مجرى مَنْ ألقوا حِبالَهم على غاربهم، وكذلك من أبعده عن القسمة لم يقربه فعلُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

يعني حين ينجز للعبد ما وعده له من القربة يشغل من شاء بنوعٍ من العلة حتى لا يطلع أحد على محل الأسرار.

قوله جل ذكره: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

غداً يوم تنتهك الأستار، وتظهر الأسرار ـ فكم من مُجَلَّل بثوب تقواه، ويَحْكُم له معارفُه بأنه زاهدٌ في دنياه، راغب في عقباه، محبٌ لمولاه، مُفارِقٌ لهواه، فيُكْشَفُ الأمر عن خلاف ما فهموه، ويفتضح عندهم بغير ما ظنوه.

وكم من متهتك ستر بما أظهر عليه! ظنَّ الكلُّ أنه خليع العذار هيِّن الأعلال، مشوش الأسرار، فظهر لذوي البصائر جوهره، وبدت عن خفايا الستر حقيقته.

ثم قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ أخبر عما علم أنه لا يكون أنه لو كان كيف كان يكون؛ فقال لو رُدَّ أهل العقوبة إلى دنياهم لعادوا إلى جحدهم وإنكارهم، وكذلك لو رُدَّ أهل الصفاء والوفاء إلى دنياهم لعادوا إلى حسن أعمالهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

يا حسرة عليهم من موقف الخجل، محل مقاساة الوَجَل، وتذكر تقصير العمل!

فهم واقفون على أقدام الحسرة، يقرعون أسنان الندز حين لا ندم ينفعهم، ولا شكوى تُسْمَعُ منهم، ولا رحمة تنزل عليهم.

وحين يقول لهم: أليس هذا بالحق؟ يُقِرُّون كارهين، ويصرخون بالتبري عن كل غَيْر.

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

خسران وأي خسران! لم يخسروا مالاً، ولا مقاماً ولا حالاً، ولكن كما قيل:

لعمري لئن أنزفتُ دمعي فإنه ... لفرقه مَنْ أفنيتُ في ذكره عمري

المصيبة لهم والحسرة على غيرهم، ومَنْ لم يَعْرِفْ جلالَ قدره متى تأسَّف على ما يفوته من حديثه وأمره؟!

وقوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾: ما كان للنفس فيه حظ ونصيب اليوم فهو من الدنيا، وما كان من الدنيا فإنه ـ لا محالة ـ يُلهيك عن مولاك، وما يشغلك عن الحق ركونه فغيرُ مباركٍ قُرْبُهُ.

قوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾: هذه تعزية للرسول ـ ﷺ ـ وتسلية. أي قد نعلم ما قالوا فيك وهم إنما قالوا ذلك بسَببِنا ولأَجْلِنا. ولقد كُنْتَ عظيمَ الجاه فيهم قبل أن أوقعنا عليكَ هذا الرقم؛ وكانوا يسمونك محمداً الأمين، فإنْ أصابَكَ ما يصيبك فَلأَجْلِ حديثنا، وغيرُ ضائعٍ لك هذا عندنا، وحالُكَ فينا كما قيل:

أشاعوا لنا في الحيِّ أشنع قصةٍ وكانوا لنا سِلْما فصاروا لنا حَربا

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

يعني إنَّ مَنْ سَلَكَ سبيلَنا صبر على ما أصابه من حديثنا، فلا خَسِرَتْ فينا صفقتُه، ولا خَفِيَتْ علينا حالتُه، وما قَابَلَ حُكْمَنا مَنْ عَرَفَنا إلا بالمُهج، وما حملوا ما لقوا فينا إلا على الحدق:

إنَّ الأُلى ماتوا على دين الهوى وجدوا المنيةَ منهلاً معسولا

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

لفرط شفقته ـ ﷺ ـ استقصى في التماس الرحمة من الله لهم، وحمل على قلبه العزيز بسبب ما عَلِمَ من سوء أحوالهم ما أثَّر فيه من فنون الأحزان. فعرَّفه أنهم مُبْعَدُون عن التقريب، منكوبون بسالف القسمة.

ولو أراد الحقُّ ـ سبحانه ـ لخَفَّفَ عنهم، ولو شاء أن يهديَهم لكان لهم مقيل في الصدور، ومثوى على النشاط، ولكن مَنْ كَبَسَتْهُ العِزَّةُ لم تُنْعِشْه الحيلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

مَنْ فقد الاستماع في سرائره عَدِمَ توفيقَ الاتِّباعِ بظاهره، والاختيارُ السابقُ في معلومه ـ سبحانه ـ غالبٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

استزادوا من المعجزات وقد حصل من ذلك ما يذبح العذر، ولم يعلموا أن الله

المانع لهم فلولا ما (. . .)[1] من بصائرهم لما تواهموا من عدم دلائلهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

يعني تساوت المخلوقات، وتماثلت المصنوعات في الحاجة إلى المُنْشِىء: في حال الإبداع ثم في حال البقاء، وكذلك جميع الصفات النفسية والنعوت الذاتية توقفت عن الإيجاد والاختيار، فما من شيء من عينٍ وأثر، ورسم وطلل.. إلا وهو على وحدانيته شاهِدٌ، وعلى كون أنه مخلوق.. دليلٌ ظاهرٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

الذين فاتتهم العناية الأزلية سَدَّ الحرمانُ أسماعَهم، وغَشَّى الخِذلان أبصارَهم. والإرادة لا تُعارَض، والمشيئةُ لا تَزاحَم، والحقُّ ـ سبحانه ـ في جميع الأحوالِ غالبٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾.

إذا مَسَّكم الضُرُّ، ونَابَكم أمرٌ فمِمَّنْ ترومون كَشْفَه؟ ومَنْ الذي تؤملون لُطْفَه؟ أمخلوقاً شرقياً أم شخصاً غربياً؟ أم مَلَكاً سماوياً أم عبداً أرضياً؟

ثم قال: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾: أي إنكم ـ إنْ تذللتم بنفوسكم أو فكرتم طويلاً بقلوبكم ـ لن تجدوا من دونه أحداً، ولا عن حكمه مُلْتَحَداً، فتعودون إليه في استكشاف الضر، واستلطاف الخير والبِّر، كما قيل:

ويرجعني إليك ـ وإن تناءتْ ديـاري عنكَ ـ معرفةُ الرجال
وقد تركناكَ للذي تريد فعسى إنْ خَبَرْتَه أنْ تعودا

فإذا جرَّبْتَ الكُل، وذُقْتَ الحُلْوَ والمُرَّ، أفضى بك الضُرُّ إلى بابه، فإذا رجعت بنعت الانكسار، وشواهد الذل والاضطرار، فإنه يفعل ما يريد: إنْ شاء أتاح اليُسْر وأزال العُسر، وإن شاء ضاعف الضُر وعوَّض الأجر، وإنْ شاء ترك الحال على ما (قبل) السؤال والابتهال.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾.

---

(١) بياض في الأصل.

يخبر عن سالف سنته في أبداء الأمم وما أوجب لمن أطاعه منهم من النعم والكرم، وما أحلَّ بمن خالفه من الألم وفنون النِّقَم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾.

يعني أنهم لما أَظَلَّهُم البلاء، فلو رجعوا بجميل التضرع وحسن الابتهال والتملق لكشفنا عنهم المحن، ولأتحنا لهم المنن، ولكن صدَّهم الخذلان عن العقبى فأصروا على تمردهم، فَقَسَتْ قلوبُهم وتضاعفت أسباب شقوتهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ يخبر عن خَفِيَ مكره بهم، وكيف أنه استدرجهم، ثم أذاقهم وبالَ أمرهم فقال: لما طالتْ عن الحضرة غيبتُهم، ولم تنجح مواعظُنا فيهم سَهَّلْنَا لهم أسبابَ العوافي وصببنا عليهم عزالي[1] النِّعم، وفتحنا لهم أبواب الرفاهية، فلما استمكن الرجاءُ من قلوبهم أخذناهم بغتةً وعذبنَاهم فجأة، وأذقناهم حسرةً فإذا هم من الرحمة قانطون، ولِمَا خامر قلوبَهم ـ من أسباب الوحشة عن الاستراحة بدوام المناجاة ـ آيسون.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى لم يبقَ منهم عين ولا أثر، ولم يَرِدْ حديث منهم أو خبر، والله ـ سبحانه وتعالى ـ بنعت العِزِّ واستحقاق الجلال لا عن فَقْدِهم له استيحاش، ولا بوجودهم استرواح أو استبشار.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾.

عَرَّفهم محلَّ عجزهم، وحقيقة حاجتهم إلى القدرة القديمة لدوام فقرهم.

وحذَّرهم فقال: إنْ لم يُدِمْ عليهم نعمة أسماعهم وأبصارهم، ولم يوجِبْ لهم ما ألبسهم من العوافي ـ بكل وجهٍ في كل لحظة ـ فمن الذي يهب ما سلبه، أو يضع ما منعه، أو يعيد ما نفاه، أو يَرُدُّ ما أبداه؟ كلا. . . بل هو الله تعالى.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

يقول إنْ عجَّلَ موعودَه لكم من العقاب أفترون أن غيرَ المستوجِب يُبْتَلَى؟ أو أن

(١) العزالى: يقال: أرسلت السماء عزاليها: كثر مطرها على المثل (اللسان ١١/ ٤٤٣).

المستحِقَّ له يجد من دونه مهرباً ومَنْجَى؟ إنَّ هذا محالٌ من الظن.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

يعني ليس أمرنا لهم إلا بالتزام ما فيه نجاتهم، ثم بجميل الوعد لهم، ومفارقة ما فيه هلاكهم، ثم بأليم العقوبة في الآجل ما يحل من خلافهم.

فَمَنْ آمن وصدَّق أنجزنا له الوعد، ومَنْ كفر وجحد عارضنا عليه الأمر، وأدخلنا عليه الضُّر.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾.

يعني قل لهم إني لا أتخطى خطي، ولا أتعدَّى حدِّي، ولا أُثْبِتُ من ذات نفسي شيئاً، وإنما يقال لي أَبلَغتَ؟ وأقول: أَجَلَ، أَوْصَلْتُ.

ثم قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾: هل يتشاكل الضوءُ والظلام؟ وهل يتماثل الجُحْدُ والتوحيد؟ كلا... لا يكون ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

الإنذارُ إعلامٌ بمواضع الخوف، وإنما خص الخائفين بالإنذار كما خصَّ المتقين بإضافة الهدى إليهم حيث قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] لأن الانتفاع والاتِّباع بالتقوى، والإنذار اختص بهم.

ويقال: الخوف ها هنا العلم، وإنما يخاف من علم، فأمَّا القلوب التي هي تحت غطاء الجهل فلا تباشرها طوارقُ الخوف.

قوله: ﴿مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السجدة: ٤] يعني كما أنه لا ناصر لهم من الأغيار فلا معتمدَ لهم من أفعالهم، ولا مستندَ من أحوالهم، ولا يؤمنون شيئاً سوى صرف العناية وخصائص الرحمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

هذه وصية له ـ ﷺ ـ في باب الفقراء والمستضعفين، وذلك لما قَصُرُوا لسان المعارضه عن استدفاع ما كانوا بصدده من أمر إخلاء الرسول ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ مجلسه منهم، وسكنوا متضرعين بقلوبهم بين يدي الله أرادَ أنْ يُبَيِّن له أثَر حُسْنِ الابتهال فتولَّى ـ سبحانه ـ خصيمتهم.

وقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾: لا تنظر يا محمد إلى خِرقتهم على ظاهرهم وانظر إلى حرقتهم في سرائرهم.

ويقال كانوا مستورين بحالتهم فشهرهم بأن أظهر قصتهم، ولولا أنه ـ سبحانه ـ قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ فشهد لهم بالإرادة وإلا فمن يتجاسر أن يقول إن شخصاً مخلوقاً يريد الحق سبحانه؟

ويقال إذا كانت الإرادة لا تتعلق ـ في التحقيق ـ إلا بالحدوث، وحقيقة الصمدية متقدسة عن الاتصاف بالحدثان، فمن المعلوم أن هذه الإرادة ليست بمعنى المشيئة، ولا كاشتقاق أهل اللغة لها[1].

فيقال تكلم الناس في الإرادة: وأكثر تحقيقها أنها احتياج يحصل في القلوب يسلب القرار من العبد حتى يصل إلى الله؛ فصاحب الإرادة لا يهدأ ليلاً ولا نهاراً، ولا يجد من دون وصوله إليه ـ سبحانه ـ سكوناً ولا قراراً، كما قال قائلهم:

ثم قطعتُ الليلَ في مَهْمَةٍ لا أسداً أخشى ولا ذيبا[2]
يغلبني شوقي فأطوي السُّرى ولم يَزَلْ ذو الشوق مغلوبا

ويقال تقيَّدت دعوتهم بالغداة والعشيّ لأنها من الأعمال الظاهرة، والأعمالُ الظاهرة مؤقتة، ودامت إرادتهم فاستغرقت جميع أوقاتهم لأنها من الأحوال الباطنة، والأحوال الباطنة مسرمدة غير مؤقتة، فقال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ ثم قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي مريدين وجهه فهي في موضع الحال.

ويقال أصبحوا ولا سؤال لهم من دنياهم، ولا مطالبة من عقباهم، ولا همَّ سوى حديث مولاهم، فلما تجردوا لله تمحضت عناية الحق لهم، فتولَّى حديثهم وقال: ولا تطردهم ـ يا محمد ـ ثم قال: ما عليك من حسابهم من شيء؛ فالفقير خفيف الظهر لا يكون منه على أحد كثير مؤنة؛ قال تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ لا تطالب بحسابهم ولا يطالبون بحسابك، بل كلٌّ يتولى الحقُّ ـ سبحانه ـ حسابَه؛ فإن كان أمره خيراً فهو ملاقيه، وإن كان شراً فهو مقاسيه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

أمَّا الفاضل فَلْيشكرْ، وأمَّا المَفضول فلْيَصبِرْ.

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص٢٠١ في حديث القشيري عن الإرادة.
(٢) المهمة: المفازة البعيدة (ج) مهامه.

ويقال سبيل المفضول على لسان المحبة الشكر، ولا يتقاصر شكره عن شكر الفاضل، قال قائلهم في معناه:

أتـانـي منـكِ سبُّكِ لـي فَـسُبِّـي … أليس جَرَى بفيكِ اسمي؟ فَحَسْبِي

وقال آخر:

وإنَّ فـؤاداً بِـعْـتُـه ـ لَـكَ شـاكـرٌ … وإنَّ دَمـاً أجـريـتُـه ـ لَـكَ حـامـدُ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾.

أحلَّه محل الأكابر والسَّادة، فإن السلام من شأن الجائي إلا في صفة الأكابر؛ فإن الجائي أو الآتي يسكت لهيبة المأتي حتى يبتدىء ذلك المقصودُ بالسؤال، فعند ذلك يجيب الآتي.

ويقال إذا قاسوا تعبَ المجيء فأزِلْ عنهم المشقةَ بأن قُلْ: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾.

ويقال السلام هو السلامة أي فَقُلْ لهم سلام عليكم؛ سَلِمْتُمْ في الحال عن الفُرقة وفي المآل عن الحُرْقة.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾

إنْ وَكَلَ بك من كتب عليك الزلة فقد تولَّى بنفسه لك كتابة الرحمة.

ويقال كتب بمعنى حَكَمَ، وإنه ما حكم إلا بما علم.

ويقال كتابته لك أزلية، وكتابته عليك وقتية، والوقتية لا تبْطِلُ الأزلية.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

يعني مَنْ تعاطى شيئاً من أعمال الجُهَّال ثم سوَّف في الرجوع والأوبة قابلناه، يعني مَنْ تعاطى شيئاً بحسن الإمهال وجميل الأفضال، فإذا عاد بتوبة وحسرة أقبلنا عليه بِكُلِّ لطف وقبول.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

نزيل الإشكال، ونُفصِحُ طريق الاستدلال، ونُطْلِعُ شموسَ التوحيد، ونمد أهله بحسن التأييد، ونَسِمُ قلوبَ الأعداء بوسم الخذلان، ونذيقهم شؤمَ الحرمان لئلا يبقى لأحدٍ عذرٌ، ولا في الطريق إشكال.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

يعني صرِّح بالاعتراف بجميل ما خصصناكَ به من وجوه العصمة والنعمة،

وأخبرهم أنك في كنف الإيواء مُتقلِّب، وفي قبضة (الصون) مُصَرَّفٌ؛ فلا للهوى عليك سلطان، ولا لك من محل التحقيق تباعد أو عن الحضور غيبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾.

قلْ إنَّ الله ـ سبحانه ـ لم يغادرني في قطر الطلب والتباس التحيّر، وأغناني عن (كدّ) الاستدلال، وَروَّحَني بشموس الحقيقة. ولئن بقيتم في ظلمة الالتباس فليس لي قدرة على إزالة ما مُنيتم به من التحير، ونفي ما امْتُحِنتُم به من الجهالة والتردد.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

لو قدرتُ على إبداء ما طلبتم من إقامة البراهين لأجبتكم إلى كل ما اقترحتم عليَّ ـ شفقةً عليكم، لكن المتفرِّد بالحكم لا يُعَارَضُ فيما يريد.

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾: المفتاح ما به يرتفع الغَلْقُ، والذي يحصل مقصود كلِّ أحد، وهو قدرة الحق ـ سبحانه؛ فإنَّ التأثير لها في الإيجاد، والموصوفُ بقدرةِ الإيجاد هو الله.

ويقال أراد بهذا شمول علمه، أي هو المتفرِّد بالإحاطة بكل معلوم، وقطعاً لا يُسأَل عن شيء، ولا يخفى عليه شيء.

ويقال عندك مفاتح الغيب وعنده مفاتح الغيب فإنْ آمنتَ بغيبه مدَّ الشمس على غيبك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

إنه يتوفَّى الأنفس في حال النوم وفي حال الوفاة، وكما أنه لا يعاقبك بالليل فإنه لا يعذبك ـ إذا توفَّاك ـ على ما جرحت بالنهار مع علمه بأفعالك، فبالحريِّ ألا يعذِّبَك عداً ـ إذا توفَّاك ـ على ما علمه من قبيح أحوالك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾.

فوق عباده بالقهر والرفعة، وفوقهم بالقدرة على أن يُعَذِّبهم من فوقهم بإنزال العقوبة عليهم والسخطة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾.

ردَّهم إلى نفسه. وما غابوا عن القبضة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

تذكير النعمة يوجب الزيادة في المحبة، فإنه إذا عرف جميلاً أسداه تمكَّن من قلبه الحبُّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾.

المتفرِّدُ بالقدرة على إيجادكم اللَّهُ، والذي هو (الخَلَفَ) عما يفوتكم اللَّهُ، والذي حكَمَ بنجاتكم اللَّهُ، والذي يأخذ بأيديكم كلما عثرْتم اللَّهُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾.

إذا أراد الله هلاكَ قوم أمر البلاء حتى يحيط بهم سرادقه[1] كما يحيط بالكفار غداً إذا أدركتهم العقوبة، وخرج بعضهم على بعض؛ حتى يتبرأ التابع من المتبوع، والمتبوع من التابع.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾.

لا طعمَ أردأ للإنسان من طعم الإنسان: إن شِئتَ من الولاية والمحبة، وإن شئت في العداوة والبغضة؛ فَمَنْ مُنِي بالبغضة مع أشكاله تنغَّصَ عليه عَيْشُه في الدنيا، ومَنْ مُنِيَ بمحبة أمثاله تكَدَّر عليه حالُه مع المولى، ومن صانَه عن الخُلق فهو المحفوظ (المعاني).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

يعني قل لهم إنما على تبليغ الرسالة، فأمَّا تحقيق الوصلة بالوجود والحال فَمِنْ خصائص القدرة وأحكام المشيئة الأزلية.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ﴾

لا توافقهم في الحالة، ولا ترد عليهم ببسط القالة. ذَرْهُم ووحشتَهم بِحُسْنِ الإعراض عنهم، والبعد عن الإصغاء إلى تهاويشهم بحُسْنِ الانقباض.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

---

(١) السُّرادق: ما يُمد فوق صحن الدار وهو ستر الدار.

أي إنْ بَدَرَ منك تغافلٌ فتداركْته بحسن التذكر وجميل التَّنَبُّه، فاجتهِدْ ألا (تزل) في تلك الغلطة قدمُك ثانيةً لئلا تقاسي أليمَ العقوبة مِنّا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

أي من كان نقيَّ (الثوب) عن ارتكاب الإجرام يُغزَل يوم نشره عن ملاقاة تلك الآلام.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾.

أي كِلْهم وما اختاروه فإنَّا أَعْتَدْنَا لهم (من خفيِّ المكر ما إذا أحللناه بهم كسرنا عليهم) خُمار الوهم والغِلطة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي كان الكفار يدعون المسلمين إلى الرجوع عن الدين والعوْد إلى الشِرْك، فقال لهم الله: قل لهم ـ يا محمد ـ: أَنُؤْثِرُ الضلالَ على الهدى بعد طلوع شمس البرهان؟

ونَدَعُ الطريقة المُثْلى بعد ظهور البيان؟ ونترك عِقوةَ الجَنَّةِ وقد نزلناها؟ ونطلب الجحيم مثوًى بعد ما كُفِيناها؟ إنَّ هذا بعيدٌ من المعقول، محالٌ من الظنون.

وكيف يساعدُ أتباعُ الشيطانِ مَنْ وَجَدَ الخلاصَ من صحبتهم، وأبصر الغيَّ من صفتهم؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

أي أَمَرَنا بملازمة محل المناجاة لأن اللسان إنْ تعوَّد نجوى السلطان متى ينطق (بمكالمه) الأخَسّ؟!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

يعني أنه لا يعترض على قدرته ـ سبحانه ـ حدوث مقصود، ولا يتقاصر حكمه عن تصريف موجود.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

الأصل متَّهَمٌ في الجحود، والنَّسْلُ متصِّف بالتوحيد، والحقُّ ـ سبحانه ـ يفعل ما يريد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾.

لاطَفه بسابق العناية، ثم كاشفه بِلاحِق الهداية فأراه من دلالات توحيده ما لم يبق في فضاء سِرِّه شظية من غبار العيب، فلمَّا صحا من غيم التجوز سما سِرُّه فقال بنفي الأغيار جملةً، وتبرَّأ عن الجميع ولم يغادر منها تهمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

يعني أحاطت به (سجوف)[1] الطلب، ولم يتجل له بعد صباح الوجود، فطلع نجم العقول فشاهد الحق بسره بنور البرهان، فقال: هذا ربي ثم يزيد في ضيائه فطلع له قمر العلم فطالعه بشرط البيان، فقال ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾.

ثم أسفر الصبح ومتع النهار فطلعت شموس العرفان من برج شرفها فلم يبقَ للطلب مكان، ولا للتجويز حكم، ولا للتهمة قرار فقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ إذ ليس بعد العيان ريب، ولا عَقِبَ الظهور ستر.

ويقال قوله ـ عند شهود الكواكب والشمس والقمر ـ ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ إنه كان يلاحظ الآثار والأغيار بالله، ثم كان يرى الأشياء لله ومن الله، ثم طالع الأغيار محواً في الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

أفردتُ قصدي لله، وطهَّرت عقدي عن غير الله، وحفظت عهدي في الله لله، وخلصت وجدي بالله، فإني لله بالله، بل محو في الله والله الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ

(١) السجف: أحد السترين المقرونين؛ بينهما فرجة، وأسجف الليل: أظلم.

بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

يعني قال لهم أترومون سَتْرَ الشموسِ بإسبال أكمامكم عليها أو تريدون أن تجروا ذيولكم وأن تُسْدِلوا سجوفَكم على ضياء النهار وقد تعالى سلطانُه وتوالى بيانُه؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

يعني وأي خوفٍ يقع على قلبي ظِله ولم أَلِمْ بِشِرْكٍ ولم أَجْنَحْ قطُّ إلى جحد؟ وأنتم ما شممتم رائحة التوحيد في طول عمركم، ولا ذقتم طعم الإيمان في سالف دهركم! ثم بسوء ظنِّكم تجاسرتم وما ارعويتم، وخسرتم وما باليتم. فأيُّنا أَوْلى أن يُغلِن بسرِّه ما هو بصدده من سوءِ مَكْرِه وعاقبةِ أَمْرِه؟

قوله جلّت قدرته: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

أي الذين أشاروا إلى الله ثم لم يرجعوا إلى غير الله؛ فإن من قال «الله» ثم رجع بالتفضيل ـ عند حاجاته أو مطالباته أو شيءٍ من حالاته إلى غير الله فخِصْمُه ـ في الدنيا والعقبى ـ اللَّهُ.

والظلمُ ـ في التحقيق ـ وضعُ الشيء في غير موضعه، وأصعبه حسبان أن من الحدثان ما لم يكن وكان؛ فإنَّ المنشيءَ اللَّهُ، والمُجْرِيَ اللَّهُ، ولا إله إلا الله، وسقط ما سوى الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

أشار إلى ترقِّيه من شهود آياته إلى إثبات ذاته، وذلك ترتيب أهل السلوك في وصولهم إلى الله، فالتحقق بالآيات التي هي أفعاله ومراعاة ذلك وهي الأولى؛ ثم إثبات صفاته وهي الثانية، ثم التحقق بوجوده وذاته وهو غاية الوصول، فبرسومه يعرف العبد نعوته، وبنعوته يعرف ثبوته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

ذَكَرَ عظيم المِنَّة على كَافَّتِهم ـ صلوات الله عليهم، وبَيَّنَ أنه لولا تخصيصه إياهم بالتعريف، وتفضيله لهم على سواهم بغاية التشريف، وإلا لم يكن لهم استيجاب ولا استحقاق.

ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ . . . . . يَعْمَلُونَ﴾ يعني لو لاحظوا غيراً، أو شاهدوا ـ من دوننا ـ شيئاً، أو نسبوا شظية من الحدثان ـ إلى غير قدرتنا ـ في الظهور لتلاشى ما أسلفوه من عرفانهم وإحسانهم، فإن الله ـ سبحانه ـ لا يغفر الشِرْكَ بحالٍ، وإن كان (يغفر) ما دونه لِمنْ أراد.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾.

يعني إنْ أعرض قومُك ـ يا محمد ـ فليس كلُّ من (. . . .)[1] على الجحود أظهرناهم، بل كثير من عبادنا نزَّهنا ـ عن الجحود ـ قلوبَهم، وعَجَنَّا بماء السعادة طينتهم وهم لا يحيدون عن التوحيد لحظةً، ولا يزيغون عن التحصيل شمَّة.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾.

أولئك الذين طهَّر اللَّهُ عن الجحد أسرارَهم، ورَفَعَ على الكافة أقدارَهم، فاقْتَفِ ـ يا محمد ـ هداهم، فإنَّ مَنْ سلك الجادَّة أَمِن من العناء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

مَنْ توهَّم أَنَّ العلومَ تحيط بجلاله فالإحاطة غير سائغة في نعته، كما أنَّ الإدراك غير جائزٍ في وصفه، وكما أن الإشراف مُحالٌ على ذاته.

ثم قال: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا﴾ أي سَلْهم عن الأحوال، وخاطِبْهم في معاني أحكام الرسوم والأطلال، فَإنْ بقوا في ظلمة (الحيره) فَقُلْ: الله تعالى، ثم ذَرْهُم. يعني صَرِّح بالإخبار عن التوحيد، ولا يهولنَّك تماديهم في الباطل، فإنَّ تمويهاتِ الباطلِ لا تأثير لها في الحقائق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

---

(١) بياض في الأصل.

كتابُ الأحبابِ عزيزُ الخَطَرِ جليلُ الأثَرِ، فيه سلوة عند غلبات الوجد، ومن بقي عن الوصول تذلّل للرسول، وقيل:

وكُتْبُكَ حولي لا تفارق مضجعي وفيها شفاءٌ للذي أنا كاتِمُ
كأني ملحوظٌ من الجِنِّ نظرةً ومِنْ حواليَّ الرُّقى والتمائمُ(١)

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

يعني إن الذين يَنْزِلون منزلة المُحدَّثين، ولم تُلق إلى أسرارهم خصائصُ الخطاب ـ فالحقُّ ـ سبحانه عنهم بريء. والمتَّبعُ بما لم يَسَلْ كلابسِ ثوبي زور، وفي معناه أنشدوا:

إذا اشتبكت دموع في خدود تبيَّن مَنْ بكى ممن تباكى

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

دَخلْتَ الدنيا بخرقةٍ، وخَرَجْتَ منها بخرقة، ألَا وتلك الخرقة أيضاً (. . . .)(٢)، وما دخلت إلا بوصف التجرد، ولا خرجتَ إلا بحكم التفرد. ثم الأثقالُ والأوزارُ، والأحمالُ والأوضارُ(٣) لا يأتي عليها حَصْرٌ ولا مقدار؛ فلا ما لكم أغني عنكم ولا حالكم يَرْفَعُ منكم، ولا لكم شفيعٌ يخاطبنا فيكم؛ فقد تَقَطَّعَ بَيْنُكم، وتفَرق وَصْلُكم، وتبدَّد شملُكم، وتلاشى ظنُكم، وخانكم ـ في التحقيق ـ وسعُكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

موجِد ما في العالَم من الأعيانِ والآثار والرسوم والأطلال يُسَلِّط العَدَمَ على ما يريد من مصنوعاته، ويحكم بالبقاء لما يريد من مخلوقاته، فلا لحكمه ردٌّ، ولا لحقّه جحدٌ.

---

(١) الرقى: (ج) الرقية، كلام يطلب به شفاء المريض ونحوه.
التمائم: (ج) التميمة: العُوذة، وهي ما يُعلق في العنق لدفع العين.
(٢) بياض في الأصل.
(٣) الأوضار: (ج) الوضر: الوسخ من الدسم أو غيره.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

وكما فَلَقَ صبحَ الكون فأشرقَتْ الأنوارُ كذلك فَلَقَ صبحَ القلوبِ فاستنارت به الأسرار، وكما جعل الليل سَكَناً لِتَسْكَنَ فيه النفوس من كدِّ التصرف عن أسباب المَعَاش كذلك جعل الليلَ سَكَناً للأحباب يَسْكَنونَ فيه إلى روْح المناجاة إذا هدأت العيونُ من الأغيار.

وجعل الشمس والقمر يجريان بحسبان معلوم على حد معلوم، فالشمس بوصفها مذ خُلِقَت لم تنقص ولم تزِدْ، والقمر لا يبقى ليلةً واحدةً على حالة واحدة فأبداً في الزيادة والنقصان، ولا يزال ينمو حتى يصير بدراً، ثم يتناقص حتى لا يُرى، ثم يأخذ في الظهور، وكذلك دأبُه دائماً إلى أَنْ تُنْقَضَ عليه العادة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

كما أن نجوم السماء يُهتدى بها في الفلوات فكذلك نجوم القلوب يهتدى بها في معرفة ربِّ الأرضين والسموات.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾.

ذكرَهم وصفهم حين خَلَقَهم من آدم عليه السلام. وكما أن للنفوس والأبشار مستقراً ومستودعاً فللأسرار والضمائر مستقر ومستودع، فَمِنْ عَبْدٍ مُسْتَقَرُّ قلبِه أوطانُ الشهواتِ والمنى، ومن عبدٍ مستقره موقع الزهد والتُّقى، ومن عبدٍ مستقره ـ حيث لا مسكن ولا مأوى ـ وراء الورى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

تجانست أجزاءُ الأرض وتوافقت أقطارُ الكون، وتباين النبات في اللون والطَّعم واختلفت الأشياء، ودلَّ كلُّ مخلوقٍ بلسان فصيح، وبيان صريح أنه بنفسه غير مُسْتَقِل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

سُدَّت بصائرهم فاكتفوا بكل منقوصٍ أن يعبدوه، وتلك عقوبةٌ لأرباب الغفلة عن الله تعالى عُجِّلَتْ.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

البديع الذي لا مثل له، أو هو المنشيء لا على مثال، وكلاهما في وصفه مستحق.

والواحد يستحيل له الوَلَدُ لاقتضائه البعضية، والتوحيد ينافيه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

تعرَّف إليهم بآياته، ثم تعرَّف إليهم بصفاته، ثم كاشفهم بحقائق ذاته.

فقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تعريف للسادات والأكابر، وقوله: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ تعريف للعوام والأصاغر.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

قَدَّسَ الصمديةَ عن كل لحوقٍ ودَرَك، فأنَّى بالإدراك ولا حدَّ له ولا طرف؟! ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾ الذي لا يخفى عليه شيء، ﴿الْخَبِيرُ﴾ الذي أحاط علمُه بكل معلوم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾.

أَوضحَ البيانَ وأَلاحَ الدليلَ، وأزاحَ العِلَلَ وأنارَ السبيلَ، ولكن قيل:

وما انتفاعُ أخي الدنيا بمقلته ... إذا استوت عنده الأنوارُ والظُّلَمُ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

أوقع الفتنةَ في قلوبهم فَخَنِسَتْ عليهم الأحوال: فَمِنْ شُبْهةٍ دَاخَلَتْهم ومن حَيْرةٍ مَلَكَتْهُم. ومن تحقيق أدركه قوم، وتعريفٍ توقف على آخرين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾(١).

العَجَبُ ممن أقرَّ بقصور حاله عن استحقاق المدح ببقائه عن مراده، وكيف يصف معبوده بجواز ألا يرتفع في ملكه مراده؟!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

---

(١) الآية (١٠٦) من سورة الأنعام غير مذكورة.

يعني خَاطِبْهم بلسان الحجة والتزام الدلائل ونفي الشبهة، ولا تُكلِّمْهم على موجب نوازع النَّفْس والعادة، فَيَحمِلَهم ذلك على ترك الإجلال لذكر الله.

ويقال لا تطابِقْهُم على قبيح ما يفعلون فيزدادوا جرأة في غيِّهم، فسيكون فِعْلُكَ سبباً وعِلَّةً لزيادةِ كفرهم وفِسْقهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

لبَّسْنا عليهم حقائق الأشياء حتى ظنوا القبيحَ جميلاً، ولم يَرَوْا لسوءِ حالتهم تبديلاً، فركنوا إلى الهوى، ولم يميزوا بين العوافي والبَلا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وعدوا من أنفسهم الإيمان لو شاهدوا البرهان، ولم يعلموا أنهم تحت قهر الحكم، وما يُغْنِي وضوحُ الأدلة لمن لا تساعده سوابقُ الرحمة، ولواحق الحفظ بموجبات القسمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

العَجَبُ ممن تبْقَى على قلبه شبهةٌ في مسألة القَدَر[1]، والحقُّ ـ سبحانه ـ يقول: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ﴾، لا بل من حقائق التقليب بقاء إشكال هذا الأمر ـ مع وضوحه ـ على قلوب مَنْ هو مِنْ جملة العقلاء، فسبحان مَنْ يُخْفِي هذا الأمر مع وضوحه! هذا هو قهر القادر وحكم الواحد.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾.

لأن الآيات وإنْ توالت، وشموس البرهان وإنْ تعالَتْ فَمَنْ قَصَمَتْه العِزَّةُ وكَبَسْته القِسمة لم يَزِدْه ذلك إلا حيرة وضلالاً، ولم يستنجز إلا للشقوة حالاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

كلمَّا كان المحلُّ أعلى كانت البلايا أوفى، والمطالبات أقوى، فلمَّا كانت رتبُ

---

(١) هنا إشارة إلى القدرية: تقابل الجبرية: مذهب من يرى أن للمرء حرية فيما يريد أو يفعل، وقدرة واستطاعة عليه (مو).

الأنبياء ـ عليهم ـ السلام ـ أشرفَ كانت العداوة معهم أشد وأصعب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾.

وكلت أسماع الكفار باللغو وقلوبهم بالسوء فَرَضُوا لأنفسهم أخَسَّ الأنصباء[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾.

قلْ لهم أترون أنى ـ بعد ظهور البيان ووضوح البرهان ـ أَذَرُ اليقين، وأوثر التخمين وأفارق الحقَّ، وأقارن الحظ؟ إن هذا محال من الظن.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

تقدَّسَتْ عن التغيير ذاتُه، وتنزهت عن التبديل صفاتُه. والتمام ينفي النقصان. وكلُّ نقصانٍ فمن الحَدَثِ أصلُه، وأَنَّى بالنقص ـ والقِدَمُ وصفُه؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

أهلُ الله قليلون عدداً وإن كانوا كثيرين وزناً وخَطَراً، وأمَّا الأعداء ففيهم كثرة. فإنْ لاحظْتَهُم ـ يا محمد ـ فَتَنُوكَ، وإنْ صاحبتهم منعوك عن الحق وقلبوكَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

تقاصرت علومُ الخَلْق عن إدراك غيبه إلا بقدر ما عَرَّفهم من أمره، والذي لا يخفى عليه شيءٌ فهو الواحدُ ـ سبحانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾.

هذا في حكم التفسير مختص بالذبيحة، وفي معنى الإشارة منع الأكل على الغفلة، فإن من أكل على الغفلة فما دامت تلك القوةُ باقيةً فيه فخواطره إما هواجس النَّفس أو وساوس الشيطان.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

(١) الأنصباء: (ج) النصيب: الحصة والحظ من كل شيء.

يعني أي شيء عليكم لو تركتم الغفلة؟ وما الذي يضركم لو استدمتم الذكر؟

وقد تبيَّن لكم الفَرْقُ بين أُنس الذكر ووحشة الغفلة في الحال والوقت، أَلَا تعرفوا حكم الثواب والعقاب في المآل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾.

ظاهر الإثم ما للأغيار عليه اطلاع، وباطن الإثم هو سرٌّ بينك وبين الله، لا وقوفَ لمخلوقٍ عليه.

ويقال باطن الإثم خَفِيُّ العقائد و (. . . .)[1] الألحاظ.

ويقال باطن الإثم ما تمليه عليك نفسك بنوع تأويل.

ويقال باطن الإثم ـ على لسان أهل المعرفة ـ الإغماض عَمَّا لَك فيه حظ، ويقال باطن الإثم ـ على لسان أهلِ المحبة ـ دوام التغاضي عن مطالبات الحب؛ وإنَّ بِناءَ مطالبات الحب على التجني والقهر، قال قائلهم:

إذا قلتُ: ما أذنبتُ؟ قالت مجيبةً: حياتُك ذنبٌ لا يقاس به ذنبُ

ويقال أسبغتُ عليكم النِّعم ظاهراً وباطناً، فذروا الإثم ظاهراً وباطناً، فإنَّ من شرط الشكر تركَ استعمال النعمة فيما يكون إثماً ومخالفة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

ما كانت (. . . .)[1] من الأحوال عاصياً ولربِّه ناسياً فتوقِّيه شرط عند أصحاب (. . .)[1].

ثم قال: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ فهذا يدل على أنَّ مَنْ توقَّى ذلك اتحدت لله خواطِرُه، وانقطعت عنه خواطر الشيطان. وأصلُ كل قسوةٍ متابعةُ الشهوات، ومَنْ تعوَّد مُتابَعَتها فليودِّعْ صفوةَ القلب.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

الإيمان عند هؤلاء القوم حياةُ القلب بالله. وأهل الغفلة إذْ لَهُمْ الذكر فقد صاروا أحياءً بعد ما كانوا أمواتاً، وأربابُ الذكرِ لو اعتراهم نسيانٌ فقد ماتوا بعد الحياة. والذي هو في أنوار القرب وتحت شعاع العرفان وفي روْح الاستبصار لا يدانيه مَنْ هو في (أَسْرِ) الظلمات، ولا يساويه مَنْ هو رهين الآفات.

---

(١) بياض في الأصل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

لبَّسنا عليهم حقائق التوحيد، وسوَّلت لهم ظنونهم أن بهم شظية من المحو والإثبات؛ فانهمكوا ظانين أنهم يَمْكرون، وهم في التحقيق مخادعون، وسيعلمون حين لا ينفعهم علم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۘ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾.

بعد إزاحة العلة، وبيان الحجة، وزوال الشبهة (فالتعلُّل) باستزادة البصيرة إعلام عن سوء الأدب، وذلك منهم من التعدي؛ لمساواة مَنْ جاء بالاستحقاق بمَنْ جاء بنوع من تسويلات النَّفْس يوجب مقاساة الهوان. وملازمةُ الحدود. وتركُ التعدي على الحقْ قضيةُ التوفيق.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾.

الْمُسْلِمُ لا يتحرك في باطنه عِرْقٌ للمنازعة مع التقدير، فإن الإسلام يقتضي تسليم الكل بلا استئثار، ومَنْ استثقل شيئاً من التكليف أو بقي منه نَفَسٌ لكراهية شيء فيعدُّ غير مستسلمٍ لحُكْمِه.

ويقال نورٌ في البداية هو نور العقل، ونورٌ في الوسائط هو نور العلم ونور في النهاية هو نور العرفان؛ فصاحب العقل مع البرهان، وصاحب العلم مع البيان، وصاحب المعرفة حكم العيان.

ويقال مَنْ وَجَدَ أنوار الغيب ظهرت له خفايا الأمور فلا يشكل عليه شيء من ذوات الصدور عند ظهور النور، وقال ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى»[1].

ويقال أول أثر لأنوار الغيب في العبد يُنَبِّهه إلى نقائص قَدْرِه ومساوىء غيِّه، ثم

---

(١) أخرجه الترمذي في (السنن ٣١٢٧)، وأبو حنيفة في (المسند ١/ ١٨٩)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٤/ ٩٤، ٦/ ١١٨) والطبراني في (المعجم الكبير ٨/ ١٢١)، (البغوي ١٤/ ٣١) وابن كثير في (التفسير ١/ ٤٧٩، ٤/ ٤٦١)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/ ٥٤٤، ٧/ ٢٥٩)، وابن حجر (فتح الباري ١٢/ ٤٨٨)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٠٧٣٠)، وابن حجر في (لسان الميزان ٥/ ١١٥٤)، وصاحب (ميزان الاعتدال ٨٠٩٨)، والشوكاني في (الفوائد المجموعة ٢٤٣)، وابن عراق في (تنزيه الشريعة ٢/ ٣٠٥)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٤٢)، والسيوطي في (الدر المنثور ٤/ ١٠٣)، والعقيلي في (الضعفاء ٤/ ١٢٩).

يشغله عن شهود نفسه مما يلوح لقلبه من شهود ربه، ثم غَلَبَاتُ الأنوار على سِرِّهِ حتى لا يشهد السرَّ بعد ما كان يشهد؛ كالنَّاظِر في قُرصِ الشمس تُسْتَهْلَكُ أنوار بصره في شعاع الشمس كذلك تستهلك أنوار البصيرة في حقائق الشهود، فيكون العبد صاحب الوجود دون الشهود ثم بعده خمود العبد بالكلية، وبقاء الأحدية بنعت السرمدية.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وذلك حتى لا يسعى في غير مراد الحق سبحانه، وحدُّ البشرية ضيق القلب، وصاحبه في أسْرِ الحدثان والأعلال، ولا عقوبةَ أشدُّ من عقوبة الغفلة عن الحق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

الصراطُ المستقيمُ إقامة العبودية عند تحقق الربوبية فهو فرق مؤيَّدٌ بجمع، وجمعٌ مقيدٌ بشرع، وإثباتٌ للعرفان بغاية الوسع، ونبو عن المخالفات بغاية الجهد، والتحقق بأنَّ المُجْرِي واحدٌ لا شريك له، ثم تركُ الاعتماد ونفي الاستناد، لا على (حركاته) يعتمد، ولا إلى سكناته يستند، (بل)[1] ينتظر ما يفتح به التقدير، فإن زاغَ صاحبُ الاستقامة لحظةً، والتفت يمنةً أو يسرةً سقط سقوطاً لا ينتعش.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

دار السلام أي دار السلامة، ومَنْ كان في رِقِّ شيءٍ من (الأغراض) والمخلوقات لم يجد السلامة، وإنما يجد السلامة مَنْ تحرر عن رِقِّ المُكَوَّنَات، والآية تشير إلى أنَّ القومَ في الجنة لكنهم ليسوا في أَسْرِ الجنة، بل تحرروا من رِقِّ كل مُكَوَّن.

ويقال مَنْ لم يُسلِّمْ ـ اليوم ـ على نفسه وروحه وكلِّ مالَه من كل كريمة وعظيمة تسليمَ وداعٍ لا يجد ـ غداً ـ ذلك الفضْل، فمن أراد أن يُسلِّم عليه ربُّه ـ غداً ـ فَلْيُسَلِّمْ على (الكونِ) بجملته، وأولاً على نفسه وروحه.

ويقال دار السلام غداً لمن سَلِمَ ـ اليوم ـ لسانُه عن الغيبة، وجَنانه عن الغيبة، وأبشاره وظواهره من الزَّلَّة، وأسراره وضمائره من الغفلة، وعقله من البدعة، ومعاملته من الحرام والشبهة، وأعماله من الرياء والمصانعة، وأحواله من الإعجاب.

ويقال شرفُ قَدْرِ تلك الدار لكونها في محل الكرامة، واختصاصها بِعِنْدية الزُّلفة، وإلا فالأقطار كلها ديار، ولكن قيمة الدار بالجار، قال قائلهم:

إنّي لأحسد داراً في جِوارِكمُ ... طوبى لمن أضحى لدارك جارا[2]

---

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) الطوبى: الحُسنى، والخير، وكل مستطاب في الجنة من بقاء بلا فناء، وعزّ بلا زوال، وغنى بلا فقر.

يا ليت جارَكَ يعطيني من داره شِبراً إذاً لأعـــطـــيـــه بِـــشــبــرٍ دارا

ويقال: وإن كانت الدارُ منزهةً عن قبول الجار، وليس القرب منه بتداني الأقطار، فإطلاق هذا اللفظ لقلوب الأحباب مؤنسٌ، بل لو جاز القربُ في وصفه من حيث المسافة لم يكن لهذا كبير أثر، وإنما حياة القلوب بهذا، لأن حقيقته مقدسة عن هذه الصفات؛ فهو لأَجْلِ قلوب الأحباب يُطْلق هذا ويقع العلماء في كد التأويل، وهذا هو أمارة الحب، قال قائلهم:

أنــا مــن أَجْــلِــكَ حُــمِّــلْــتُ الأ ذى الـــذي لا أســتـــطـــيـــع

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

هذا شرف قدر تلك المنازل حيث قال: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ لأنه إذا كان ـ سبحانه ـ هو وليَّهم فإنَّ المنازل بأَسْرِها طابت كيفما كانت، قال قائلهم:

أهوى هواها لمن قد كان ساكنها وليس في الدار لي همٌ ولا وَطَرُ[١]

هو وليُّهم في دنياهم، ووليُّهم في عقباهم، هو وليهم في أولادهم وفي أخراهم، وليهم الذي استولى حديثه على قلوبهم، فلم يَدَعْ فيها لغيره نصيباً ولا سِوىً وليهم الذي هو أَوْلَى بهم منهم وليُّهم الذي آثرهم على أضرابهم وأشكالهم فآثروه في جميع أحوالهم وليهم الذي تطلب رضاهم، وليهم الذي لم (يَكْلهُم) إلى هواهم، ولا إلى دنياهم، ولا إلى عقباهم.

وليهم الذي بأفضاله يلاطفهم، وبجماله وجلاله يكاشفهم.

وليُّهم الذي اختطفهم عن كل حظ ونصيب، وحال بينهم وبين كل حميم وقريب، فحرَّرهم عن كل موصوف ومطلوب ومحبوب، وليُّهم الذي هو مؤنِس أسرارهم.

مَشَاهِدهُ مُعْتَكَفُ أبصارهم، وحضرَتهُ مَرْتَع أرواحهم.

وليُّهم الذي ليس لهم سواه، وليهم الذي لا يشهدون إلا إياه، ولا يجدون إلا إياه، لا في بدايتهم يقصدون غيره، ولا في نهايتهم يجدون غيره، ولا في وسائلهم يشهدون غيره.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

(١) الوطر: الحاجة والبغية (ج) أوطار.

يعتذرون فلا يسمع، ويحتجون بما لا ينفع، ولقد كانوا من قبل لو أتوا بأقلَّ منه قُبِلَ منهم، لكنْ سبقت القسمة فحقت لهم الشقوة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

يعني نجمع بين الأشكال، فالأولياء مجموعون يستمتع بعضهم ببعض، والأعداء مجموعون يفرُّ بعضهم من بعض.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾.

عرَّفهم أنه أزاح لهم العِلَلَ من حيث التزام الحجة، لكنه حكم لهم بالشقوة في الأزل، (فلبَّسَ) عليهم المحجة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾.

متى يصحُّ في وصفة توهم الظلم والمُلكُ مُلكه والخَلْقُ خلقُه؟

ومتى يقبح منه تصرُّفٌ في شخصٍ بما أراد، والعبد عبده والحكم حكمه؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

المحسن في روْح الثواب متنعِّم، والمذنب في نوْح العذاب متألم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾.

الغنيُّ يشير إلى كشفه وذو الرحمة يشير إلى لطفه.

أخبرهم بقوله الغني عن جلاله، وبقوله: ذو الرحمة عن أفضاله؛ فبجلاله يكاشفهم فيُفْنِيهم، وبأفضاله يلاطفهم فيحييهم.

ويقال سماع غِناه يوجِب محوَهم، وسماعه رحمته يوجب صحوهم، فهم في سماع هذه الآية مترددون بين بقاءٍ وبين فناءٍ، وبين إكرام وبين اصطلام، وبين تقريبٍ وبين تذويب، وبين اجتياحٍ وبين ارتياح.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

الإشارة من هذه الآية إلى قِصَر الأمل، ومَنْ قصُرَ أملُه حَسُنَ عملُه، وكل ما هو آتٍ فقريبٌ أجَلُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

هذا غاية الزجر لأنه تهديد وإن كان في صيغة الأمر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

لما بَنَوْا قاعدة أمرِهم على موجب الهوى صارت فروعُهم لائقةً بأصولهم؛ فهو كما قيل:

إذا كان القضاءُ إلى ابن آوى فتعويل الشهود إلى القرود[(١)]

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

وسوست إليهم شياطينهم بالباطل فقبلت نفوسهم ذلك؛ إذْ الأشكالُ يتناصرون، فالنَّفسُ لا تدعو إلا إلى الأجنبية، لأنها مُدَّعيةٌ تتوهم أن منها شيئاً، وأصلُ كلِّ شِرْكٍ الدعوى، والشيطان لا يوسوس إلا بالباطل والكفر، فهم أعوانٌ يتناصرون.

ثم قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ صَرَّح بأن المراد على المشيئة، والاعتبار (بسابق) القضية.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

أخبر عن أشياء ابتدعوها على ما أرادوا، وأمورٍ شرعوها على الوجه الذي اعتادوا، ثم أضافوا ذلك إلى الحق بغير دليل، وشرعوها بلا حجةٍ من إذن رسول، والإشارة فيه أن من (نحا نحوهم) في زيادة شيء في الدين، أو نقصان شيءٍ من شرع المسلمين فمضاهٍ لهم في البطلان، ينخرط في سلكهم في الطغيان.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾.

فسدت عليهم طريقة الثقة بالله فحملتهم خشيةُ الفقر على قتل الأولاد، ولذلك

---

(١) ابن آوى: حيوان مفترس من الفصيلة الكلبية ورتبة اللواحم (آكلات اللحوم) وطائفة الثدييات، وهو أصغر حجماً من الذئب، يتغذى من الطيور الدواجن والثدييات الصغيرة والجيف (ج) بنات آوى.

قال أهل التحقيق: من أمارات اليقين وحقائقه كثرة العيال على بساط التوكل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾.

يعني كما أنشأ في الظاهر جنّاتٍ وبساتينَ كذلك أنشأ في السِّر جناتٍ وبساتين، ونزهة القلوب أتم من جنات الظاهر؛ فأزهار القلوب مونِقة، وشموس الأسرار مشرقة، وأنهار المعارف زاخرة.

ويقال كما تتشابه الثمار كذلك تتماثل الأحوال، وكما تختلف طعومها وروائحها مع تشاكلها من وجه، فكذلك الأحوال مختلفة القضايا، وإن اشتركت في كونها أحوالاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾.

حَقُّ الواجبِ يومَ الحصاد إقامة الشكر، فأمَّا إخراج البعض فبيانه على لسانه العلم، وشهودُ المنعم في عين النعمة أتمُّ من الشكر على وجود النعمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾.

الإسراف ـ على لسان العلم ـ مجاوزة الحد.

وعلى بيان الإشارة فالإسرافُ كلُّ ما أَنفقْتَه في حظِّ نَفسِكَ ـ ولو كانت سمسمة، وما أنفقته في سبيله ـ سبحانه ـ فليس بإسراف، ولو أربى على الآلاف.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ﴾.

يعني تسخير الحيوانات للإنسان آية مزية في الفضيلة على المخلوقات. وكما سخَّر الأعيان للإنسان كذلك سخر الأزمان في تصريف الحدثان لخواصِّ الإنسان.

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

الرزق لا يتخصص بالمأكولات بل هو شائعٌ في جميع ما يحصل به الانتفاع.

وينقسم الرزق إلى رزق الظواهر ورزق السرائر، ذلك وجود النعم وهذا شهود الكَرَم بل الخمود في وجود القِدَم.

وللقلب رزق وهو التحقيق من حيث العرفان، وللروح رزق وهو المحبة بصدق التحرر عن الأكوان، وللسِّر رزق وهو الشهود الذي يكون للعبد وهو قرين العيان.

قوله ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ الإشارة من ذكر الضأن أن يتأدَّب العبدُ

باستدامة السكون والتزام حُسْنِ الخُلُق، فإنَّ الضانية مستسلمةٌ لمن يلي عليها، فلا بصياحها تُؤذِي ولا (بـ. . . . وها)[١]، يعني كذلك سبيل من وَطْىءَ هذا البساط.

وكذلك «في الإبل آيات» منها انقيادها لمن جرَّ زِمَامَها، واستناختها حيثما تُنَاخ، بلا نزاع ولا اختيار. ومنها ركوبها عند الحَمْل، ومنها صبرها على مقاساة العطش، وذوبانها في السير.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

بيَّن أنَّ الشارعَ اللَّهُ، والمانعَ عن الخلْق هو الله، وما كان من غيرِ الله فضائعٌ باطِلٌ عند الله. بيَّن أنه إذا جاء الاضطرارُ زال حكمُ الاختيار.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

بيَّن أن ما حرَّم عليهم ضيَّعوه؛ إذ لمَّا لم يعاقبهم عليه لم يشهدوا مَكْرَه العظيم فيما ابتدعوه من قِبَلِ نفوسهم ـ فأهملوه ولم يحافظوا عليه، فاستوجبوا عظيم الوِزْر وأليم العجر.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

الإشارة منه بيان تخصيص الأولياء بالرحمة وتخصيص الأعداءِ بالطرد واللعنة. والصورة الإنسانية جامعة ولكن القسمة الأزلية فاصلةٌ بينهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾.

كذبت إقالتُهم لأنها لم تَصْدُرْ عن تصديق، فَذُمُّوا على جهالتهم وإن كانت (. . . .)[١] في التحقيق.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

---

(١) بياض في الأصل.

صَرَّحَ بأن إرادته ـ سبحانه ـ لا تتقاصر عن مراد، وليس عليه اعتراض.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

أشار إلى أَنَّ مَنْ تجرَّد عن برهانٍ يُصَرِّحه وبيان (يُوَضِّحهُ) فغيرُ مقبول من فاعله.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

هذه أشياء عشرة تضمنتها هذه الآية أولها الشِرْك فإنه رأس المحرمات، والذي لا يقبل معه شيءٌ من الطاعات، وينقسم ذلك إلى شِرك جَلِيٍّ وشِرْك خَفِيٍّ؛ فالجَليُّ عبادةُ الأصنامِ، والخفيُّ ملاحظةُ الأنامِ، بعين استحقاق الإعظام.

والثاني من هذه الخصال ترك، العقوق، وتوقير الوالدين بحفظ ما يجب من أكيدات الحقوق.

وبعد ذلك قتل الأولاد خشية الإملاق، وإراقة دمائهم بغير استحقاق.

ثم ارتكاب الفواحِش ما ظهر منها وما بطن، وما بدا وما استتر، ويدخل في ذلك جميع أقسام الآثام.

ثم قتل النَّفس بغير الحق، وذلك إنما يكون لفقد شفقة الخلق.

ثم مجانبة مال اليتيم والنظر إليه بعين التكريم.

ثم بذل الإنصاف في المعاملات والتوقي من جميع التبعات.

ثم الصدق في القول والعدل في الفعل.

ثم متابعة السبيل بما تشير إليه لوائح الدليل.

فَمَنْ قابل هذه الأوامر بجميل الاعتناقُ سعد في داريه وحظي بعظائم منزلته.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

يهوِّن عليهم مشقة مقاساة التكليف بما ذكر من التعريف بأنَّ الذين كانوا قبلنا كانوا في الضعف والعجز مثلها، ثم صَبرُوا فظَفروا، وأخْلَصُوا فخَلُصُوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

إنزال الكتاب عليهم تحقيق للإيجاب، وإذا بَقِيَ العبدُ عن سماع الخطاب تسلى بقراءة الكتاب، ومن لم يجدْ في قراءة القرآن كمالَ العيشِ والإنس فلأنَّه يقرأ ترسماً لا تحققاً[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿أَن تَقُولُوٓا إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾.

أزاح كلَّ عِلّة، وأبدى كل وصلة، فلم يُبْقِ لك تعللا، ولا في آثار الالتجاء إلى العذر موضعاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾.

عقوبةُ كلِّ جُرْم مؤجلة، وعقوبة التكذيب معجلة، وهي ما يوجب بقاءهم في أَسْرِ الشك حتى لا يستقر قلبهم على شيء.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾.

أخبر أنه بعدما (أزاح) لهم العلل اقترحوا ما ليس لهم، واغتروا بطول السلامة لهم، ثم بيَّن أنه إذا أمضى عقوبة عبدٍ حُكْماً فلا معارِضَ لتقديره، ولا مُناقِضَ لتدبيره.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

اتفقوا بأبدانهم وافترقوا بقلوبهم، فكانوا مجتمعين جهراً بجهر؛ متفرقين ـ في التحقيق ـ سِرّاً بِسِرٍّ.

قوله: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾. لا نجمعك وإياهم، يعني شِقُّكَ شقُّ الحقائق، وشِقُّهم شِقُّ الباطل، ولا اجتماعَ للضدين.

---

(١) انظر رأي القشيري من موضوع «السماع» في رسالته ص٣٣٥ ـ ٣٥٠.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾.

هذه الحسنات للظاهر: وأمّا حسنات القلوب فللواحد مائة إلى أضعاف مضاعفة.

ويقال الحسنة منْ فضله تعالى تَصْدُر، وبلطفه تحصل، فهو يُجْرِي، ثم يَقْبَلُ ويثني، ثم يجازي ويُعطي.

ويقال إحسانه ـ الذي هو التوفيق ـ يوجِبُ إحسانك الذي هو الوفاق، وإحسانه ـ الذي هو خَلق الطاعة ـ يوجِبُ لك نعت الإحسان الذي هو الطاعة؛ فالعناءُ منك فِعْلُه والجزاءُ لكَ فَضْلُه.

ويقال إحسان النفوس تَوْفِيَة الخدمة، وإحسان القلوب حفظ الحرمة، وإحسان الأرواح مراعاة آداب الحشمة.

ويقال إحسان الظاهر يوجب إحسانه في السرائر فالذي منك مجاهدتُك، والذي إليك مشاهدتك.

ويقال إحسان الزاهدين ترك الدنيا، وإحسان المريدين رفض الهوى، وإحسان العارفين قطع المنى، وإحسان الموحدين التخلّي عن الدنيا والعقبى، والاكتفاء بوجود المولى.

ويقال إحسان المبتدئين الصدق في الطلب، وإحسان أصحاب النهاية حفظ الأدب، فشرطُ الطلبِ ألا يبقى ميسورٌ إلّا بَذَلْتَه، وشرط الأدب ألا تسمو لك هِمَّةٌ إلى شيءٍ إلا قطعتَه وتركته.

ويقال للزهاد والعبّاد، وأصحاب الأوراد وأرباب الاجتهاد جزاءٌ محصور معدود ولأهل المواجيد لقاء غير مقطوع ولا ممنوع.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

يعني (يُكالُ) عليه بالكيل الذي يكيل، ويُوقَفُ حيث يرضى لنفسه بأن يكون له موقفاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

أرشده الى الطريق الصحيح. ولا يكون الإرشاد إليه إلا بانسداد الطرق أجمع إلى سواه. ومَنْ وَجَدَ سبيلاً إلى مخلوق عرج في أوطان الحسبان لأن الأغيار ليس لها من الإبداع شظية، ومن سلك إلى مخلوق سبيلاً وأبرم فيهم تأميلاً أو قدَّم عليهم تعويلاً، فقد استشعر تسويلاً، وجُرِّعَ تضليلاً.

و «الصراط المستقيم» ألّا ترى من دونه مثبتاً لذرةٍ ولا سنة.

و «الدين القيم» ما لا تمثيلَ فيه ولا تعطيل، ولا نفي للفَرْقِ الذي يشير إلى العبودية، ولا رد للجمع الذي هو شهود الربوبية(١).

والحنيف المائل إلى الحق، الزائغ عن الباطل، الحائل عن ضد الحقيقة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾.

مَنْ كوشِفَ بحقائق التوحيد شَهِدَ أن القائم عليه والمجري عليه والممسك له والمُنَقِّل إياه من وصفٍ إلى وصف، و (...)(٢) عليه فنون الحدثان ـ واحدٌ لا يشاركه قسيم، وماجِدٌ لا يضارعه نديم.

ويقال مَنْ عَلِمَ أنه بالله علم أنه لله، فإذا علم لله لم يَبْقَ فيه نصيب لغير الله؛ فهو مستسلمٌ لحكم الله، لا مُعْتَرِضٌ على تقدير الله، ولا معارِضٌ لاختيار الله، ولا مُعْرِضٌ عن اعتناق أمر الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

كيف أوثِر عليه بَدَلاً وإني لا أجد عن حكمه حِوَلا، وكيف أقول بغيرٍ أو ضدٍ أو شريك؟ أو أقول بدونه معبود أو مقصود؟ وإنْ لاحظتُ يمنةً ما شاهدتُ إلا مُلْكَه، وإنْ طالعتُ يَسْرةً ما عايَنْتُ إلا مُلكَه! بل إني إنْ نظرتُ يمنةً شهدت يُمْنَه، وإنْ نظرتُ يَسْرَةً وجدتُ نحوي يُسْرَه!.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

صير التوبة إليكم، وقَصَرَ حكم عصركم عليكم، فأنتم المقصودون اليوم دون

---

(١) يمكن أن نوضح مقصود القشيري هنا من خلال أقواله أو حديثه عن الجمع والفرق برسالته قال: إن ما يكون كسباً للعبد من إقامة العبودية وما يليق بأحوال البشرية فهو فرق، وما يكون من قبل الحق من إبداء معان وإسداء لطف وإحسان فهو جمع، هذا أدنى أحوالهم في الجمع والفرق، لأنه من شهود الأفعال، فمن أشهده الحق سبحانه أفعاله من طاعاته ومخالفاته فهو عبد يوصف بالتفرقة، ومن أشهده الحق سبحانه ما يوليه من أفعال نفسه سبحانه فهو عبد يشاهد الجمع فإثبات الخلق من باب التفرقة، وإثبات الحق من نعت الجمع، ولا بد للعبد من الجمع والفرق فإنّ لا تفرق لا عبودية له، ومن لا جمع له لا معرفة له، فقوله تعالى: **﴿إياك نعبد﴾** إشارة إلى الفرق، وقوله: **﴿وإياك نستعين﴾** إشارة إلى الجمع. (الرسالة القشيرية ص٦٤ ـ ٦٥).

(٢) بياض في الأصل.

من هو سواكم. ثم إنه جعلكم أصنافاً، وخلقكم أخيافاً[1] فمنْ مُسَخَّرٍ له، مُرَفَّهٌ، مُرَوَّحٍ، يتعب لأَجْله كثيرٌ. ومن مُعَنَّيٍ، وذي مشقةٍ أُدِيرَ عليه رأسهُ. وجاء البلاءُ ليختبِركم فيما آتاكم، ويمتحنكم فيما أعطاكم. إنَّ حسابه لكم لاحِقٌ، وحكمه فيكم سابق. والله أعلم.

---

(١) الأخياف: من الناس: الضروب المختلفة الأخلاق والأشكال. وإخوة أخياف، أي: أمهم واحدة والآباء شتى.

السورة التي يذكر فيها الأعراف

بسم الله الرحمن الرحيم

الباء مكسورة في نفسها وعملها الخفض لأنها من الحروف الجارة للأسماء، وهي صغيرة القامة في الخط، ونَقْطُها الذي تتميز به عن غيرها واحد وهو نهاية القِلّة، ثم موضع هذه النقطة أسفل الحرف، فهي تشير إلى التواضع والخضوع بكل وجه.

والسين «من بسم الله» حرفٌ ساكنٌ فالإشارة من الباء ألا تَذَرَ - في الخضوع والتذلل، والجهد والتوسل - ميسوراً، ثم تسكن منتظراً للتقدير؛ فإنْ مَنَّ القبولَ بفضله.

فذلك المأمول، وإنْ ردَّ بحكمٍ فله الحكم، فتوافق تقديره بالموافقة في الرضا به، إذا الميم تشير إلى مِنته إن شاء، ثم إلى موافقتك لتقديره بالرضا به إنْ لم يَمُنَّ.

ويقال الباء تشير إلى بيان قلوب أهل الحقائق بلطائف المكاشفات بما يختصهم الحق - سبحانه - بذلك من دون الخلق، فهم على بيانٍ مما يخفى على الخلْق، فالغيب لهم كشف، والخبرُ لهم عيان، وما للناس عِلْم فلهم وجود.

والسين تشير إلى سرور قلوبهم عند تقريبات البَسط بما (. . .)[1] فيه من وجوه المراعاة! وصنوف لطائف المناجاة، فهم في جنات النعيم، وعيشِ بسطٍ وتكريم، ودوام روْحٍ مقيم

والميم تشير إلى محبة الحق - سبحانه - لهم بدءاً فإنها هي الموجبة لمحابِّهم، إذ عنها صَدَرَ كلُّ حب فبمحبته لهم أحبوه، وبقصده إليهم طلبوه، وبإرداته لهم أرادوه.

ويقال نزهة أسرار الموحدين في الإناخة بعقوة بسم الله، فَمَنْ حَلَّ تلك الساحة رَتَعَ في حدائق القُدْس، واستروح إلى نسيم الأُنْس.

ويقال بسم الله موقف الفقراء بقلوبهم؛ فللأغنياء موقفهم عرفات، وللفقراء موقفهم المكاشفات والمشاهدات.

---

(١) بياض في الأصل.

ويقال قالة «بسم الله» ربيع الأحباب؛ أزهارها لطائف الوصلة، ونَوْرُها زوائد القربة.

قوله جلّ ذكره: ﴿الٓمٓصٓ﴾ [الأعراف: ١].

هذه الحروف من المتشابه في القرآن على طريقة قوم من السَلَف، والحق ـ سبحانه ـ مستأثر بعلمها دون خلقه. وعلى طريقة قوم فلها معانٍ تُعْرَف، وفيها إشارات إلى أشياء توصَف: فالألِف تشير إلى أُلفة الأرواح العطرة أصابت الشكلية مع بعض الأرواح العطرة، فهي ـ في التحقيق ـ في ذلك المعنى كالمتحدة؛ فمنه تقع الألفة بين المتشاكين، ولأجل اتحاد المقصود يتفق القاصدون.

ويقال أَلِفَ القلبُ حديثَه فلم يحتشم من بَذْل روحه.

ويقال الألف تجرُّد مَنْ قَصَدَه عن كل غَيْرٍ فلم يتصل بشيء، وحين استغنى عن كل شيء اتصل به كل شيء على جهة الاحتياج إليه.

ويقال صورة اللام كصورة الألف ولكن لما اتصلت بالحروف تعاقبتها الحركات كسائر الحروف؛ فمرةً أصبحت مفتوحة، ومرةً مسكونة، ومرة مرفوعة، وأمّا الألف التي هي بعيدة عن الاتصال بالعلاقات فباقية على وصف التجرد عن تعاقب الحركات عليها فهي على سكونها الأصلي.

وأمّا الصاد فتشير إلى صدق أحوال المشتاقين في القصد، وصدق أحوال العارفين في الوجد، وتشير إلى صدق قلوب المريدين وأرباب الطلب، إذ العطش نعت كلِّ قاصد، كما أن الدهشة وصف كل واحد.

ويقال الصاد تبدي محبةً للصدورِ وهو بلاء الأحباب.

ويقال الصاد تطالبك بالصدق في الود، وأمارة الصدق في الود بلوغ النهاية والكمال، حتى لا يزيد بالبر، ولا ينقص بالمنع.

قوله جلّ ذكره: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

كتاب الأحباب تحفة الوقت، وشفاءٌ لمقاساة ألم البعد، وهو لداء الضنى مُزيل، ولشفاء الشكّ مُقِيل، وقال تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ ولم يقل: في قلبك؛ فإن قلبه ـ عليه السلام ـ في محل الشهود، ولذلك قال ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧] وكذلك قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾. وقال للمصطفى صلوات الله عليه: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾ [الشرح: ١]. فإن القلب في محل الشهود، وهو أبداً بدوام أُنس القرب، قال ﷺ: «تنام عيني ولا ينام

قلبي»[١] وقال: «أسألك لذة النظر»[٢] وصاحب اللذة لا يكون له حرج.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

اسْتَسْلِموا لمطالبات التقدير، قِفُوا حيثما وقفتم، وتحققوا بما عرفتم، وطالعوا بما كوشفتم، ولا تلاحظوا غيراً، ولا تركنوا إلى عِلَّةٍ، ولا تظنوا أن لكم من دونه وسيلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

يعني كم من قرية ركنوا إلى الغفلة، واغتروا بطول المهلة؛ باتوا في (خَفْضِ) الدعة وأصبحوا وقد صادقتهم البلايا بغتة، وأدركتهم القضيةُ فجأة، فلا بلاء كُشِف عنهم، ولا دعاءَ سُمِع لهم، ولا فرار نَفَعَهم، ولا صريخ أنقذهم. فما زالوا يفزعون إلى الابتهال، ويصيحون: الويل! ويدعون إلى كشف الضر، ويبكون من مسِّ السوء؟! بادوا وكأنه لا عين ولا أثر، ولا لأحدٍ منهم (خبر). تلك سُنَّة الله في الذين خَلَوْا من الكافرين، وعادته في الماضين من الماردين.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾.

﴿**فلنسألن الذين أرسل إليهم**﴾ سؤال تعنيف وتعذيب.

﴿**ولنسأل المرسلين**﴾ سؤال تشريف وتقريب.

﴿**فلنسألن الذين أرسل إليهم**﴾ عن القبول فيتقنَّعون بذل الخجل.

﴿**ولنسألن المرسلين**﴾ عن البلاغ فيتكلمون ببيان الهيبة، فالكلُّ بِسِمةِ العبودية والتوقير، والحقُّ بنعت الكبرياء والتقدير.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾.

فلنخبرنهم يومَ الفصلِ ما هم عليه اليوم، ونوقفهم على ما أسلفوه، ونقيمنهم في مقام الصَّغَارِ ومحل الخزي، وسيعلمون أنه لم يَغِبْ عن علمنا صغير ولا كبير.

ويقال أجرى الحقُّ ـ سبحانه ـ سُنَّتَه بتخويف العباد بعلمه مرة كما خوَّفهم بعقوبته تارة؛ فقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾ [البقرة: ٤٨] يعني العذاب الواقع في ذلك

---

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٤/ ٢٣٢)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٢٥١، ٤٣٨) وابن الجارود في (المنتقى ١٢).

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في (السنة ١/ ١٨٥).

اليوم، وقال في موضع آخر: ﴿ويحذِّركم الله نفسه﴾ [آل عمران: ٢٨] وهذا أبلغ في التخويف، وقال ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾.

يَزِنُ أعمالَهم بميزان الإخلاص، وأحوالهم بميزان الصدق. فَمَنْ كانت أعمالُهم بالرياء مصحوبة لم يَقْبَلْ أعمالَهم، ومَنْ كانت أحوالُهم بالإعجاب مشوبةً لم يرفع أحوالَهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

سَهَّلنا عليكم أسباب المعيشة، ويسَّرنا لكم أحوال التصرف، ثم أراد منكم أنْ تتخذوا إليه سبيلاً، ولم يعتصِ عليه مراد.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ لاستعمالكم ـ في الخلاف ـ أبدانكم، ولإنفاقكم ـ بالإسراف ـ أحوالكم، ولاستغراقكم ـ في الحظوظ ـ أوقاتكم. فلا نعمة الفراغ شكرتم، ولا من مسِّ العقوبة شكوتم... خسرتم وما شعرتم!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

ثَبَّتْنَاكم على النعت الذي أردناكم، وأقمناكم في الشواهد التي اخترنا لكم؛ فمِنْ قبيح صورته خَلْقاً ومن مليح، ومن سقيم حالته خُلُقاً، ومن صحيح. ثم إنا نعرفكم سابِقَ آيادينا إلى أبيكم، ثم لاحِقَ خلافه بما بقي عِرْقٌ منه فيكم، ثم ما علمنا به (من مكان يحسدكم) ويعاديكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾.

أي لولا قهر الربوبية جرى عليك وإلا فما مُوجِبُ امتناعك عن السجودِ لآدم لو كُنْتَ تُعَظِّم أمري؟ فيتحقق الموحدون أن موجِبْ امتناعه عن السجود الخذلانُ الحاصلُ، ولو ساعده التوفيق لم يبرح بعد من السجود.

قال: ﴿أنا خير منه﴾ ادَّعى الخيرية، وكان الواجب عليه ـ لولا الشقوة ـ أَنْ يُؤْثِرَ التذلُّلَ على التكبُّر، لا سيما والخطاب الوارد عليه من الحقّ.

ثم إنه وإنْ سَلَكَ طريق القياس فلا وجه له مع النَّفس لأنه بِحَظٌّ، فلم يزِدْه قياسُه إلا في استحقاق نفيه إذ ادَّعى الخيرية بجوهره، ولم يعلم أن الخيرية بحكمه ـ سبحانه ـ وقسمته.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾.

فارِقْ بساطَ القربة؛ فإنَّ التكبّرَ والترفُّعَ على البساط تركٌ للأدب، وتركُ الأدبِ يوجِب الطرد.

ويقال مَنْ رأى لنفسه محلاً أو قيمة فهو متكبِّر، والمتكبِّر بعيد عن الحق سبحانه، ورؤية المقام قَدْحٌ في الربوبية إذ لا قَدْرَ لغيره تعالى، فَمَنْ ادَّعى لنفسه محلا فقد نازع الربوبية.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾.

أجاب دعاءَه في الحال ولكن كان ذلك مكراً به لأنه مكَّنه من مخالفة أمره إلى يوم القيامة، فلم يَزِدْه بذلك التمكين إلا شِقوةً. ليعلمَ الكافةُ أنه ليس كل إجابة للدعاء نعمةً ولطفاً بل قد تكون بلاءً ومكراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

جَاهَرَ الحقيقةَ بالخلاف بعدما أظهر من نفسه غايةَ الخلوص في العبودية، فَعُلِمَ أن جميع ما كان منه في سالف حاله لم يصدر عن الإخلاص والصدق.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾.

أخبر أنه يأخذ عليهم جوانبَهم، ويتسلطُ عليهم من جميع جهاتهم، ولم يَعْلَمْ أن الحقَّ سبحانه قادر على حفظهم عنه، فإنَّ ما يكيد بهم مِنَ القدرةِ حَصَلَ، وبالمشيئة يوجد، ولو كان الأمر به أو إليه لَكَانَ أَوْلى الخلْقِ بأنْ يُؤَثِّر فيه كدْحُه نَفْسَه، وحيْث لم ينفعه جهدُه في سالِف أحواله لم يضرهم كيده بما توعدهم به من سوء أفعاله.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

أخرجه من درجته، ومن حالته ورتبته، ونقله إلى ما استوجبه من طرده ولعنته، ثم تخليده أبداً في عقوبته، ولا يذيقه ذرةً من يَزْدِ رحمته، فأصبح وهو مقدَّمٌ على الجملة، وأمسى وهو أبعد الزُمرة، وهذه آثار قهر العِزَّة. فأيُّ كَبِدٍ يسمع هذه القصة ثم لا يتفتت؟!.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

لما أسكن آدمَ الجنةَ خَلَق معه سببَ الفتنةِ، وهو ما أكرمه به من الزوجة، وأي نقصٍ يكون في الجنة لو لم يخلق فيها تلك الشجرة التي هي شجرة المحنة لولا ما أخفى من سِرِّ القسمة؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

نِسبتُه ما حَصَلَ منهما إلى الشيطان من أمارات العناية، كانت الخطيئةُ منهما لكنَّه تعالى قال: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

ويقال التقى آدمُ بإبليس بعد ذلك فقال: يا شَقِيُّ! وسوستَ إليَّ وفعلتُ!، فقال إبليس لآدم. يا آدم! هَبْ أنّي إبليسَك فَمَنْ كان إبليسي!؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾.

وفي ذلك دلالة على عناية زائدة حيث قال: ﴿لِيُبْدِىَ لَهُمَا﴾ فلم يطلع على سوأتهما غيرهما.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾.

تاقت أنفسهما إلى أن يكونا مَلَكين ـ لا لأن رتبة الملائكة كانت أعلى من رتبة آدم عليه السلام ـ ولكن لانقطاع الشهوات والمنى عنهما.

ويقال لمَّا طمعا في الخلود وقعا في الخمود، ووقعا في البلا والخوف؛ وأصلُ كلِّ محنةِ الطمعُ.

ويقال إذا كان الطمع في الجنة ـ وهي دار الخلود ـ أَوْجَبَ كُلَّ تلك المحن فالطمع في الدنيا ـ التي هي دار الفناء ـ متى يسلم صاحبه من ذلك؟ ويقال إن يكونا إنما ركنا إلى الخلود فلا لنصيبِ أنفسهما، ولكن لأجْل البقاء مع الله تعالى، وهذا أَوْلى لأنه يوجب تنزيه محلِّ النبوة. وقيل ساعاتُ الوصال قصيرة وأيام الفراق طويلة، فما لبثا في دار الوصلة إلَّا بعضاً من النهار؛ دَخَلَا ضحوةَ النهار وخَرَجَا نِصْفَ النهار! ويقال إن الفراقَ عينٌ تصيب أهلَ الوصلة، وفي معناه قال قائلهم:

إنْ تكُنْ عينٌ أصابتك فما ... إلا لأنَّ العين تصيب الحَسَنَا

ويقال حين تمَّتْ لهما أسباب الوصلة، وَوَطَّأَ نفوسهما على دوام البربة بدا الفراق من مكامنه فأباد من شملهما ما انتظم، كما قيل:

حين تمَّ الهوى وقلنا سُررنا ... وحَسِبْنا مِنْ الفراق أَمنَّا
بَعَثَ البَيْنُ رُسْلَه في خفاءِ ... فأبادوا من شملنا ما جمعنا

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾.

حُسْنُ ظنِّ آدم ـ عليه السلام ـ حَملَه على سكون قلبه إلى يمين العدو لأنه لم يخطر بباله أن يكذب في يمينه بالله، ثم لمَّا بان له أنه دلَّاهما بغرورٍ تاب إلى الله بصدق الندم، واعترف بأنه أساء وأجرم، فَعَلِمَ ـ سبحانه ـ صِدْقَه فيما ندم، فتداركه بجميل العفو والكرم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾.

لم يحصل استيفاء من الأكل والاستمتاع به للنفس حتى ظهرت تباشيرُ العقاب، وتَنَغُّصِ الحال، وكذا صفة مَنْ آثر على الحق ـ سبحانه ـ شيئاً يبقيه عنه، فلا يكون له بما آثر استمتاع. وكذلك مَنْ ادَّخر عن الله ـ سبحانه ـ نَفْسَه أو مالَه أو شيئاً بوجهٍ من الوجوه ـ لا يبارك الله فيه، قال تعالى في صفة الأعداء: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ﴾ [الحج: ١١].

ويقال مَّا بَدَتْ سوأتهما احتالا في السَّتْرِ، وطَفِقَا يخصفان عليهما من ورق الجنة فبعدما كانت كسوتهما حُلَلَ الجنة ظَلَّا يستتران بورق الجنة، كما قيل:

لله دَرُّهــمُ مِــنْ فِــتْــيَــةٍ بــكــروا مثل الملوك، وراحوا كالمساكين

وأنشدوا:

لا تعجبوا لمذلتي فأنا الذي عَبَثَ الزمان بمهجتي فأذلَّها

ثم إن آدم عليه السلام لم يساعده الإمكان في الاستتار بالورق إذ كانت الأشجار أجمع كلُّها تتطاول وتأبى أن يأخذ آدم ـ عليه السلام ـ شيئاً من أوراقها. وقيل ذلك كان لا يلاحِظ الجنة فكان يتيه على الكون بأسره ولكنه صار كما يقال:

وكانت ـ على الأيام ـ نفسي عزيزة فلمَّا رأت صبري على الذلِّ ذلَّتِ

ولمّا أُخْرِج آدمُ من الجنة وأُسْكِن الأرض كلِّف العملَ والسعيَ والزرع والغرس، وكان لا يتجدد له حال إلا تجّدد بكاؤه، وجبريل ـ عليه السلام ـ يأتيه ويقول: أهذا الذي قيل لك: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ [طه: ١١٨].

فَلَمْ تعرِف قدره. «فَذُقْ جزايا خِلافِك» فكان يسكن عن الجزع. ويقال بل الحكم بالخنوع كما قيل:

وجاشَتْ إليَّ النفسُ أوَّلَ مرةٍ وزيدت على مكروهها فاستقرتِ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

كانت لا تصل يدُه إلى الأوراق حين أراد قطافها ليخصفها على نفسه، فلو لم تصل يده إلى تلك الشجرة ـ التي هي شجرة المحنة ـ لكان ذلك عنايةً بشأنه، ولكن وصلت يده إلى شجرة المحنة، تتمةً للبلاء والفتنة، ولو لم تصل يده إلى شجرة الستر ـ إبلاغاً في القهر ـ لَمَا خالف الأمر، ولَمَا حَصَلَ ما حَصَلَ.

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾: فكان ما دَاخَلَهما من الخجل أشدَّ من كل عقوبة؛ لأنهما لو كانا من الغيبة عند سماع النداء فإن الحضور يوجب الهيبة،

فلما ناداهما بالعتاب حَلَّ بهما من الخجل ما حلّ، وفي معناه أنشدوا:

واخجلتا من وقوفي وَسْطَ دَارِهِمُ إذ قال لي مغضبا: من أنت يا رجل؟

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾.

اعترفا بالظلم جهراً، وعرفا الحكم في ذلك سِرّاً؛ فقولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ اعتراف بالظلم من حيث الشريعة، وعرفان بأن المدارَ على الحكم من حيث الحقيقة، فَمَنْ لم يعترف بظلم الخلْق طوى الشريعة، ومن لم يعرف جريان حكم الحق فقدْ جَحَدَ الحقيقة، فلمَّا أقرّا بالظلم قالا: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ نطقا على عين التوحيد حيث لم يقولا بظلمنا خَسِرْنا، بل قالا: فَعَلْنَا فإنْ لم تغفر لنا خسرنا، فبِتَرْكِ غفرانك تخسر لارتكاب ظلمنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

أَهْبَطَهم، ولكنه أهبط إبليسَ عن رتبته فوقع في اللعنة، وأهبط آدم عن بقعته فتداركته الرحمة.

ويقال لم يُخرِج آدم عليه السلام من رتبة الفضيلة وإنْ أُخرِجَ عن دار الكرامة، فلذلك قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [طه: ١٢٢] وأما إبليس ـ لعنةُ الله عليه ـ فإنه أُخرِجَ من الحالة والرتبة؛ فلم ينتعش قط عن تلك السَّقْطة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ هذا عامٌ ﴿وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾: أراد به إبليسَ على الخصوص.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾.

أخبر أنه يستقبلهم اختلافُ الأحوالِ في الدنيا، ويتعاقب عليهم تفاوتُ الأطوار، فَمِنْ عُسْرٍ ومن يُسْر، ومن خير ومن شر، ومن حياةٍ ومن موت، ومن ظَفَرٍ ومِنْ فَوْت... إلى غير ذلك من الأحوال.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

ستَرناكم عن الأسباب الظاهرة، ويَسَّرنا لكم ما تدفعون به صنوفَ المضار عنكم بما مَكَّنَّا لكم من وجوه المنافع.

ثم قال: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ فإن اللباس الظاهر يقي آفاتِ الدنيا، ولباس التقوى يصون عن الآفات التي توجب سخط المولى، ولباس التقوى بجميع أجزاء العبد وأعضائه. وللنَّفْس لباسٌ من التقوى وهو بذل الجهد والروح والقلب، لباس من

التقوى وهو صدق القصد بنفي الطمع. وللروح لباس من التقوى وهو ترك العلائق وحذف العوائق. وللسرِّ لباسٌ من التقوى وهو نفي المساكنات والتصاون من الملاحظات.

ويقال تقوى العُبَّاد ترك الحرام، وتقوى العارفين نفي مساكنة الأنام. ويقال للعوام التقوى، وللخواص للباس التقوى عن شهود التقوى.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ﴾.

من أصغى إلى وساوس نفسه بأسماع الهوى وجد الشكَّ بين وسواس[١] الشيطان وهاجس النَّفْس، ويتناصر الوسواس والهاجس وتصير خواطرُ وزواجرُ العلم مغمورةً مقهورةً ـ فعن قريبٍ تشمل تلك الهواجس والوساوس صاحبها، وينخرط في سلك موافقة الهوى فيسقط في مهواة الزلة[٢]، فإذا لم يحصل تداركٌ بوشيك التوبة صارت الحالةُ قسوةً في القلب، وإذا قسا القلبُ فارقته الحياة وتمَّ له البلاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

لا يحصل للعبد احتراس من رؤية الشيطان إياه وهو عنه غائب إلا برؤية العبد للحق ـ سبحانه ـ بقلبه، فيستغيث إليه من كيده، فيُدْخِلُه ـ سبحانه ـ في كنف عنايته فيجدْ الخلاص من مكر الشيطان.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

استروحوا في التعلل إلى سلوكهم نهجَ أسلافِهم، فاستمسكوا بحبلٍ واهٍ فزلَّت بهم أقدامُ الغرور، وقعوا في وهذه المحنة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾.

القِسط العدل، ويقع ذلك في حق الله تعالى، وفي حق الخلْق، وفي حق نفسك؛ فالعدلُ في حقِّ الله الوقوفُ على حدِّ الأمر من غير تقصير في المأمور بِهِ أو إقدامٍ على المنهيِّ عنه، ثم ألا تدخرَّ عنه شيئاً مما خوَّلك، ثم لا تُؤْثِرَ عليه شيئاً فيما

---

(١) الوسواس: (ج) وساوس، وهو الاسم من وسوس ويعني الشيطان، أو مرض يحدث من غلبة السوداء ويختلط معه الذهن، أو حديث النفس مما يخطر بالقلب من شر ومما لا خير فيه.

(٢) انظر الرسالة القشيرية ص٨٣ـ ٨٥ في حديث القشيري عن الخواطر.

أحلّ لك. وأمّا العدل مع الخلْق ـ فعلى لسان العلم ـ بذلُ الإنصاف، وعلى موجِب الفتوة ترك الانتصاف. وأمّا العدل في حق نَفْسِك فإدخال العتق عليها، وسدُّ أبواب الراحة بكل وجه عليها، والنهوض بخلافها على عموم الأحوال في كل نَفَس.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

الإشارة منه إلى استدامة شهوده في كل حالة، وألا تنساه لحظةً في كلِّ ما تأتيه وتذره وتقدمه وتؤخره.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

من كانت قِسمتهُ ـ سبحانه ـ له بالسعادة كانت فطرته على السعادة، وكانت حالته بنعت السعادة، ومن كانت حالته بنعت السعادة كانت عاقبته إلى السعادة، ومن كانت القسمة له بالعكس فالحالة بالضد، قال رسول الله ﷺ: «من كان بحالةٍ لقي الله بها».

وجملة العلم بالقضاءِ والقَدَرِ أن يتحقق أنه علم ما يكون أنه كيف يكون، وأراد أن يكون كما علم. وما عِلِم ألا يكون ـ مما جاز أن يكون أراده ألا يكون ـ أخبر أنه لا يكون. وهو على وجه الذي أخبر، وقضى على العبد وقدَّر أجرى عليه ما سبق به الحكم، وعلى ما قضى عليه حصل العبد على ذلك الوصف.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

على لسان العلم: يجب سَتْرُ العَوْرة في الصلاة، وعلى موجِب الإشارة: زينة العبد بحضور الحضرة، ولزوم السُّدَّة، واستدامة شهود الحقيقة.

ويقال زينة نفوس العابدين آثار السجود، وزينة قلوب العارفين أنوار الوجود؛ فالعبد على الباب بنعت العبودية، والعارف على البساط بحكم الحرية. وشتَّان بين عبدٍ وعبد!.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

الإسراف ما تناولته لَكَ ولو بقدر سمسمة.

ويقال الإسراف هو التعدي عن حدِّ الاضطرار فيما يتضمن نصيباً لك أو حظّاً بأي وجهٍ كان.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

الإشارة منها إلى زينة السرائر؛ فزينة العابدين آثار التوفيق، وزينة الواجدين أنوار

التحقيق، وزينة القاصدين ترك العادة، وزينة العابدين حسن العبادة.

ويقال زينةُ النفوس صدارُ الخدمة، وزينة القلوب حفظ الحرمة، وزينة الأرواح الإطراق بالحضرة باستدامة الهيبة والحشمة.

ويقال زينة اللسان الذكر وزينة القلب الشكر.

ويقال زينة الظاهر السجود وزينة الباطن الشهود.

ويقال زينة النفوس حسن المعاملة من حيث المجاهدات، وزينة القلوب دوام المواصلة من حيث المشاهدات.

ومعنى قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ﴾ يعني إن الله لم يمنع هذه الزينة عمن تعرض لوجدانها، فمن تصدى لطلبها فهي مباحة له من غير تأخير قصود.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾.

أرزاق النفوس بحكم أفضاله سبحانه، وأرزاق القلوب بموجب إقباله تعالى.

ويقال أرزاق المريدين إلهام ذكر الله، وأرزاق العارفين الإكرام بنسيان ما سوى الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ما ظهر منها الزَّلَّةُ، وما بطن منها الغفلةُ.

ويقال ما ظهر منها كان بنسيان الشريعة، وما بطن بإشارة الحقيقة.

ويقال لقومٍ تركُ الرخص يكون علة، والأَولى بهم والأفضل لهم الأخذ به. وقومٌ لو ركنوا إلىَ الرُّخص لقامت عليهم القيامة.

ويقال فاحشة الخواص تتبع ما لأنفسهم فيه نصيب ولو بذرة ولو بذرة أو سِنَّة.

ويقال فاحشة الأحبابِ الصبر على المحبوب[1].

ويقال فاحشةُ الأحبابِ أن تبقى حيّاً وقد منيت بالفراق، قال قائلهم:

لا عيشَ بعد فراقهم هذا هو الخطب الأجَلُّ

ويقال فاحشة قومٍ أن يلاحظوا غيراً بعين الاستحقاق، قال قائلهم:

يا قُرَّةَ العين سَلْ عيني هل اكتحلت بمنظر حسنٍ مذ غبت عن عيني؟

ويقال فاحشةُ قوم أنْ تبقى لهم قطرةٌ من الدمع ولم يسكبوها للفرقة، أو يبقى لهم نَفَسٌ لم يَتَنَفَّسُوا به في حسرة، وفي معناه أنشدوا:

لئن بقِيَتْ في العين منّي دمعةٌ فإني إذاً في العاشقين دخيلُ

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص٣١٧ ـ ٣٢٩.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

لكلِّ قوم مدةٌ مضروبةٌ، فإذا تناهت تلك المدة زالت تلك الحالة؛ فلنعمةِ المُتْرَفين مُدَّةٌ، فإذا زالت فليس بعدها إلا الشِّدّة، ولمحنةِ المستضعفين مدةٌ فإذا انقضت تلك المدة زالت تلك الشدة.

ويقال إذا سقط قرصُ الشمس زال سلطانُ النهار فلا يزداد بعده إلا تراكم الظلمة، فإذا ارتحلت عساكرُ الظلام بطلوع الفجر فبعد ذلك لا تبقى فيه للنهار تهمةٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

إذا أتاكم الرُّسُلُ فلا تركنوا إلى مجوزاتِ الظنون، واحملوا الأمرَ على الجِدِّ فإنَّا - مع استغنائنا عن الأغيار، وتَقَدُّسِنا عن المنافع والمضار - نُطَالِبُ بالقليل والكثير، ونحاسِبُ على النقير والقطمير[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

مَنْ قَابَلَ ربوبيتَنا بالجُحْدِ، وحكمنا بالرد، لقِيَ الهوانَ، وقاسى الآلام والأحزان، ثم العَجْزُ يلجئه إلى الخنوع، ولكن بعد ألا ينفع ولا يسمع.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾.

يصيبهم من الكتاب ما سبق لهم به الحكم، فمن جرى بسعادته الحكمُ وقع عليه رقم السعادة، ومن سبق بشقاوته الحكمُ حُقَّ عليه عَلَمُ الشقاوة.

ويقال من سبقت له قسمة السعادة فلو وقع في قَعْرِ اللَّظَى تداركتْه العنايةُ وأخرجتْه الرحمةُ، ومَنْ سَبَقَتْ له قسمةُ الشقاوةِ.. فلو نزل الفراديس[2] تداركته السخطة وأخرجته اللعنة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا

---

(١) النقير: النقطة في ظهر النواة كالثقبة فيها، ويُضرب بها المثل في القلة.
القطمير: القشرة الرقيقة الملتفة على النواة أو الشيء الهيّن يُضرب مثلاً للتافه القليل الشأن.
(٢) الفراديس: (ج) الفردوس: حديقة في الجنة (مذكر ومؤنث)، وفردوس النعيم: اسم الجنة.

فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾.

آثار إعراض الحق عنهم أورثَتْ لهم وحشةَ الوقت؛ تبرَّم بعضُهم ببعض، وضاق كلُّ واحدٍ منهم عن كل شيء حتى عن نفسه، فدعا بعضهم على بعض، وتبرّأ بعضهم من بعض، وكذلك صفة المطرودين.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾.

فلا دعاؤهم يُسمَع، ولا بكاؤهم ينفع، ولا بلاؤهم يكشف، ولا عناؤهم يُرْفَع.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

كما أحاطت العقوبات بهم في الدنيا فَتَدَنَّس بالغفلة باطنُهم، وتلوَّثَ بالزَّلة ظاهرهم، فكذلك أحاطت العقوبات بجوانبهم؛ فَمَنْ فوقهم عذاب ومن تحتهم عذاب، وكذلك من جوانبهم في القلب من ضيق العيش واستيلاء الوحشة ما يفي ويزيد على الكل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾.

رفعنا عن ظاهرهم وباطنهم كلفة العمل فيسَّرنا عليهم الطاعاتِ بحسن التوفيق، وخَفَّفْنَا عنهم العباداتِ بتقليل التكليف.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُۖ﴾.

طهرنا قلوبهم من كل غش، واستخلصنا أسرارهم عن كل آفة. وظَهَّرَ قلوب العارفين من كل حظ وعلاقة، كما طهَّر قلوب الزاهدين عن كل رغبة ومُنْية، وطهَّر قلوب العابدين عن كل تهمة وشهوة، وطهَّر قلوب المحبين عن محبة كل مخلوق وعن غل الصدر ـ كل واحد على قدر رتبته.

ويقال لمَّا خَلَق الجنة وَكَلَ ترتيبها إلى رضوان، والعرش ولي حفظه إلى الجملة، والكعبة سلَم مفتاحها إلى بني شيبة، وأمَّا تطهير صدور المؤمنين فتولّاه بنفسه.

وقال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾.

ويقال إذا نزع الغل من الصدور مِنْ قِبَله فلا محلّ للغرم الذي لزمهم بسبب الخصوم حيث كان منه سبحانه وجه آدائه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ﴾.

في قولهم اعترافٌ منهم وإقرارٌ بأنهم لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه من جزيل تلك العطيات، وعظيم تلك الرتب والمقامات بجهدهم واستحقاق فعلهم، وإنما ذلك أجمع ابتداء فضل منه ولطف.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

تسكينٌ لقلوبهم، وتطييبٌ لهم، وإلا فإذا رأوا تلك الدرجات علموا أن أعمالهم المشوبة بالتقصير لم توجب لهم كل تلك الدرجات.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ كَـٰفِرُونَ﴾.

اعترف أهل النار بحقيقة الدِّين، وأقروا بسوء ما عملوا، ولكن حين لم ينفعهم إقرارٌ بحالٍ من الأحوال.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ﴾.

ذلك الحجاب الذي بينهما حصل من الحجاب السابق؛ لمَّا حُجِبُوا في الابتداء في سابق القسمة عما خُصَّ به المؤمنون من القربة والزلفة حُجِبوا في الانتهاء عما خَصَّ به السعداء من المغفرة والرحمة.

ويقال حجاب وأي حجاب! لا يُرفَع بحيلة ولا تنفع معه وسيلة.

حجابٌ سبق به الحكم قبل الطاعة والجُرْم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ﴾.

هؤلاء الأشراف خصوا بأنوار البصائر اليوم فأشرفوا على مقادير الخلْق بأسرارهم، ويشرفون غداً على مقامات الكل وطبقات الجميع بأبصارهم.

ويقال يعرفونهم غداً بسيماهم التي وجدوهم عليها في دنياهم؛ فأقوامٌ موسومون بأنوار القرب، وآخرون موسومون بأنوار الرد والحجب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَادَوْا۟ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾.

سَلِمُوا اليومَ عن النكرة والجحودِ، وأكرِمُوا بالعرفان والتوحيد.

وسلموا غداً من فنون الوعيد، وسَعِدُوا بلطائف المزيد. وتحققوا أنهم بلغوا من الرتب ما لم يَسْمُ إليه طرْفُ تأميلهم، ولم يُحِطْ بتفصيله كُنْهُ عقولهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

إنما يصرف أبصارهم اليومَ تقديراً عليهم عظيم المِنّة التي بها نجاتُهم، فيزيدون في الاستغاثة وصدق الابتهاء، فتكمل بهم العارفة بإدامة ما لاطفهم به من الإيواء والحفظ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ۝ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

ذلك ما يرون عليهم من غبار الرد وأمارات البعد، وهي مما لا يخفى على ذي عينين، فيقولون لهم: هل يُغْنِي عنكم ما ركنتم إليه من أباطيلكم، وسكنتم إليه من فاسد ظنونكم، وباطل تأويلكم؟ فشاهِدوا ـ اليومَ ـ تخصيص الحق لمن ظننتم أنهم ضعفاؤكم، وانظروا هل يغني عنكم الذين زعمتم أنهم أولياؤكم وشركاؤكم؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

دلَّت الآية على أن من أواخر ما يبقى على الإنسان الأكلَ والشربَ؛ فإنهم في تلك العقوبات الشديدة يقع عليهم الجوعُ والعطش حتى يتضرعون كلَّ ذلك التضرع؛ فيطلبون شربة ماء أو لقمة طعام وهم في غاية الآلام، والعادة ـ اليومَ ـ أن من كان في ألم شديد لا يأكل ولا يشرب، وهذا شديد.

ثم أَبْصِرْ كيف لا يسقيهم قطرةً ـ مع استغنائه عن تعذيبهم، وقدرتِه على أن يعطيه ما يريدون! ولكنه قهر الربوبية وعِزُّ الأحدية، وأنه فَعَّالٌ لما يريد. فكما لم يرزقهم ـ اليومَ ـ من عرفانه ذرة، لا يسقيهم غداً في تلك الأحوال قطرة، وفي معناه أنشدوا:

وأَقْسَمْنَ لا يسقيننا ـ الدهرَ ـ قطرةً ولو فُجِّرت من أرضهن بحورُ

ويقال إنما يطلبون الماء ليبكوا به بعدما نفدت دموعهم، وفي هذا المعنى قيل:

يا نازحاً نَزَفَتْ دمعي قطيعتُه هَبْ لي من الدمعِ ما أبكي عليكَ به

وفي هذا المعنى أنشدوا.

جرف البكاءُ دموعَ عينك فاستعِرْ عيناً لغيرك دمعها مدرار
مَنْ ذا يُعيرك عينَه تبكي بها أرأيتَ عيناً للبكاء تُعار؟

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

كما تركوا أمره وضيَّعوه تركهم في العقوبة، ولا (. . .)[1] فيما يشكون، فتأتي عليهم الأحقاب، فلا كشف عذاب، ولا بَرْد شراب، ولا حسن جواب، ولا إكرامٌ بخطاب. ذلك جزاءٌ لِمَنْ يعرف قَدْرَ الوصلة في أوقات المهلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أنزلنا عليهم من الكتاب وأوحينا إليهم من الخطاب ما لو قابلوه بالتصديق وصاحَبُوه بالتحقيق لوجدوا الشفاء من محنة البعاد، ونالوا لضياء بقرب الوداد، ووصلوا في الدنيا والعقبى إلى جميل المراد، ولكنه ـ سبحانه أَبَى القسمة في نصيبهم إلا الشِّقْوة.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

إذا كُشِفَ جلالُ الغيب، وانتفت عن قلوبهم أغطيةُ الرَّيب، فلا بكاءَ لهم يَنْفَع، ولا دعاء منهم يُسْمَع، ولا شكوى عنهم تزفَع، ولا بلوى من دونهم تُقْطَع.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

تعرّف إلى الخلق بآياته الظاهرة الدالة على قدرته وهي أفعاله، وتعرّف إلى الخواص منهم بآياته الدالة على نصرته التي هي أفضاله وإقباله، وظهر لأسرار خواص الخواص بنعوته الذاتية التي هي جماله وجلاله، فشتان بين قومٍ وقوم!.

ثم كما يدخل في الظاهر الليل على النهار والنهارَ على الليل فكذلك يدخل القبض على البسط والبسط على القبض. ومنه الإشارة إلى ليل القلوب ونهار القلوب: فَمِنْ عبدٍ أحواله أجمع قبض، ومن عبدٍ أحواله أجمع بسط، ومن عبيد يكون مرة بعين القبض ومرة بعين البسط كما أن بعض أقطار العالَم فيها نهار بلا ليل، وفي بعضها ليل بلا نهار، وفي بعضها ليل يدخل على نهار ونهار يدخل على ليل.

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فمنه الخير والشر، والنفع والضر، فإن له الخلْقَ والأمر.

(١) بياض في الأصل.

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ هذه الكلمة مجمع الدعاء الاشتمالها على إفادة معنى قِدَمِه ودوامِ ثبوته من حيث يُقال بَرَكَ الطيرُ على الماء.

وأفادت معنى جلاله الذي هو استحقاقه لنعوت العِزِّ لأنه قد تبارك أي تعظَّم. وأشارت إلى إسداد النِّعم وإتاحة الإحسان من حيث إن البَرَكَة هي الزيادة فهي مجمع الثناء والمدح للحق سبحانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

الأمر بالدعاء إذنٌ ـ في التسلِّي ـ لأرباب المحنة، فإنهم إلى أن يصلوا إلى كشف المحنة ووجود المأمول استروحوا إلى روْح المناجاة في حال الدعاء؛ والدعاء نزهةٌ لأرباب الحوائج، وراحةٌ لأصاحب المطالبات، ومعجل من الإِنس بما (. . .)[1] إلى القلب عاجل التقريب. وما أخلص عبدٌ من دعائه إلا رَوَّحَ ـ سبحانه ـ في الوقت قلبَه.

ويقال علَّمهم آداب الدعاء حيث قال: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وهذا أدب الدعاء؛ أن يَدْعُوا بوصف الافتقار والانكسار ونشر الاضطرار. ومن غاية ما تقرر لديك نعت كرمه بك أنه جعل إمساكَكَ عن دعائه ـ الذي لا بد منه ـ اعتداء منك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

من الإفساد بعد الإصلاح إحمالُ النفس عن المجاهدات بخلع عذارها[2] حتى تتبع هواها بعدما كَبَحْتَ لجامَها مدةً عن العَدْوِ في ميدان الخلاف، ومن ذلك إرسالُ القلب في أودية المنى بعد إمساكه على أوصاف الإرادة، ومن ذلك الرجوعُ إلى الحظوظ بعد القيام بالحقوق، ومن ذلك استشعارُ محبة المخلوق بعد تأكيد العقد معه بألا تحب سواه، ومن ذلك الجنوحُ إلى تتبع الرُّخص في طريق الطلب بعد حمل النَّفس على ملازمة الأَوْلى والأشق، ومن ذلك الانحطاطُ بِحَظٍّ إلى طلبِ مقامٍ منه أو إكرام، بعد القيام معه بترك كل نصيب.

وفي الجملة: الرجوعُ من الأعلى إلى الأدنى إفسادٌ في الأرض بعد الإصلاح.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

يقال المحسنين عملاً والمحسنين أملاً، فالأول العابدون والثاني العاصون.

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) العذار: يقال: خلع فلان عذاره؛ أي: انهمك في الغيّ ولم يستح منه واتبع هواه.

ويقال المحسن من كان حاضراً بقلبه غير لاهٍ عن ربه ولا ناسياً لِحقِّه.

ويقال المحسن القائم بما يلزم من الحقوق.

ويقال المحسن الذي لم يخرج (...)[١] عن إحسانه بقدر الإمكان ولو بشطر كلمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾.

تباشير القرب تتقدم فيتأدى نسيمُه إلى مشام الأسرار، وكذلك آثار الإعراض تتقدم فتوجد ظلمة القبض في الباطن، فظلُّ الوحشة يتقدمها، ونسيم الوصلة بعدها، وفي قريبٍ منه قال قائلهم:

ولقد تشمَّمْتُ القضاءَ لحاجتي ... فإذا له من راحتيك نسيم

قوله جلّ ذكره: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

الإشارة منه أنه يحصل بالمهجور ما يتأذى به الصدر ويُبَرِّحُ به الوجه ويَنْحلُ به الجسم، بل يُبْطِلُ كلَّه البعدُ، فيأتيه القُرب فيعود عود وصاله بعد الذبول طرياً، ويصير دارس حاله عقيب السقوط نديا، كما قال بعضهم:

كُنا كمن أُلْبِسَ أكفانه ... وقُرِّب النعشُ من اللَّحد

فجالتْ الروحُ في جسمه ... وردَّه الوصلُ إلى المولد

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾.

إذا زكا[٢] الأصلُ نما الفرع، وإنْ خبُث الجوهر لم يَطِبْ ما تحلَّل منه، وإن طاب العنصر فالجزء يحاكي أصله، والأَسِرَّةُ تدل على السريرة، فَمَنْ صفا باطنُ قلبه زكا ظاهرُ فعله، ومن كان بالعكس فحاله بالضد.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

بَلَّغَ الرسالةَ فلم ينجعْ فيهم ما أظهر من الآلاء، لأنَّ محرومَ القسمة لا ينفعه مجهودُ الحيلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) زكا: نما وزاد.

قوله: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾: نسبوا نوحاً ـ عليه السلام ـ إلى الضلالة، فتولَّى إجابتهم بنفسه فقال ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾، ونبيُّنا ـ ﷺ ـ نُسِبَ إليه فتولَّى الحق ـ سبحانه ـ الردَّ عنه فقال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٢] فشتّان بين مَنْ دافع عن نفسه، وبين مَنْ دَافَع عنه ونفى عنه ربُّه!.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

إني أعلم أنّي وإنْ بالغت في تبليغ الرسالة فمَنْ سبقت له القسمة بالشقاوة لا ينفعه نصحي، ولا يُؤَثِّرُ فيه قولي، فمَنْ أسقطته القسمةُ لم تنعشه النصيحة.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

عجبوا مِنْ كوْنِ شخصٍ رسولَ اللّهِ، ولم يتعجبوا من كون الصنمِ شريكاً لله، هذا فَرْطُ الجهالة وغاية الغباء!

قوله جلّ ذكره: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾.

تسربلوا غِبَّ[1] التكذيب لمَّا ذاقوا طعم العقوبة، فلم يسعدوا بما حملوه ولم يصلوا إلى ما أملَّوه.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾.

أخبر أنهم سلكوا طريق أسلافهم وإخوانهم، فوقعوا في وهدتهم، ومُنُوا بمثل حالتهم فلا خيرَ فيمن آثر هواه على رضاءِ الله، ولا رَبحَ مَنْ قَدَّم هواه على حقِّ الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾.

جعل الله الخلقَ بعضهم خَلَفاً عن بعض، فلا يُفْنِي فوجاً منهم من جنسٍ إلا أقام فوجاً منهم مِنْ ذلك الجنس. فأهل الغفلة إذا انقرضوا خَلَفَ عنهم قوم، وأهلَ الوصلة إذا درجوا خلف عنهم قوم، ولا ينبغي للعبد أن يسمو طَرْفُ تأميله إلى الأكابر فإن ذلك المقام مشغول بأهله، فما لم تنتهِ نوبةُ أولئك لا تنتهي النوبة إلى هؤلاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾.

---

(١) تسربل: لبس. الغِبُّ: العاقبة.

كما زاد قوماً على من تقدمهم في بسطة الخَلْقِ زاد قوماً على من تقدمهم في بسطة الخُلُق، وكما أوقع التفاوتَ بين شخصٍ وشخص فيما يعود إلى المباني أوقع التباين بين قوم وقوم فيما يرجع إلى المعاني.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

النَّعماء عام، والآلاء خاص، فتلك تتضمن ترويح الظواهر، وهذه تتضمن التلويح في السرائر، تلك بالترويح بوجود المبار، وهذه بالتلويح بشهود الأسرار.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

طاحوا في أودية التفرقة فلم يجدوا قراراً في ساحات التوحيد، فَشَقَّ عليهم الإعراضُ عن الأغيار، وفي معناه قال قائلهم:

أراكَ بقيةً من قوم موسى ... فهم لا يصبرون على طعام

ويقال شخص لا يُخرِجُه من غش التفرقة، وشخص لا يحيد لحظةً عن سَنَنِ التوحيد فهو لا يعبد إلا واحداً، وكما لا يعبد إلا واحد لا يشهد إلا واحداً، قال قائلهم:

لا يهتدي قلبي إلى غيركم ... لأنه سُدَّ عليه الطريق

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

إذا أراد اللَّهُ هوانَ عبدٍ طَرَحَه في مفازات التفرقة؛ وإنَّ من علامات غضبه وإعراضه ردَّ العبد إلى شهود الأغيار، وتغريقَه إياه في بحار الظنون، إذ لا تحصيل للأغيار في معنى الإثبات.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾.

لا رتبةَ فوق رتبة النبوة، ولا درجة أعلى من درجة الرسالة.

وأخبر ـ سبحانه ـ أنه نجَّى هوداً برحمته، وكذلك نجَّى الذين آمنوا معه برحمته، ليُعْلَمَ أنَّ النجاةَ لا تكون باستحقاق العمل، وإنما تكون بابتداء فضلٍ من الله ورحمته؛ فما نَجَا مَنْ نجا إلا بفضل الحق سبحانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ

غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

غاير الحقُّ ـ سبحانه ـ بين الرسل من حيث الشرائع، وجمع بينهم في التوحيد؛ فالشرائع التي هي العبادات مختلفة، ولكن الكل مأمورون بالتوحيد على وجه واحد.

ثم أخبر عن إمضاءِ سُنَّتِه تعالى بإرسال الرسل عليهم السلام، وإمهال أُمَمِهم ريثما ينظرون في معجزات الرسل.

ثم أخبر عما دَرَجُوا عليه في مقابلتهم الرسل بالتكذيب تسليةً للمصطفى صلى الله عليه وسلم وعلى آله ـ فيما كان يقاسي من بلاء قومه.

قوله جلَّ ذكره: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

أزاح علتهم في بسط الدلالة، ووسع عليهم حالتهم بتمكينهم من العطايا على ما دعت إليه حالتُهم.. فلا الدليلَ تأمَّلُوه، والسبيل لازموه، ولا النعمة عرفوا قدرها، ولا المِنَّة قدَّموا شكرها، فصادفهم من البلاء ما أدرك أشكالهم.

قوله جلَّ ذكره: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

أجرى الله ـ سبحانه ـ سُنَّتَه ألا يخص بأفضاله، وجميل صنعه وإقباله ـ في الغالب من عباده ـ إلَّا مَنْ يسمو إليه طَرْفُه بالإجلال، وألَّا يوضحَ له قَدْرَه بين الأضراب والأشكال؛ فأنصار كلِّ نبي إنما هم ضعفاء وقته، ويلاحظهم أهل الغفلة بعين الاحتقار، ولكن ليس الأمر كما تذهب إليه الأوهام، ولا كما يعتقد فيهم الأنام، بل الجواهر مستورة في معادنها، وقيمة المَحَالِّ بساكنيها، قال قائلهم:

وما ضرَّ نصلَ السيف إخلاقُ غمده ... إذا كان عَضْباً حيث وجهته وترا

وقال رسول الله ﷺ: «كم من أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبرَّه»(١).

---

(١) هناك رواية أخرى للحديث «كم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يُؤبه له...» أخرجه الترمذي (مناقب ٥٤).

قوله تعالى: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ الحيلة تدعو إلى وِفاق الهوى؛ فتستثقل النفسُ قولَ الناصحين، فيخرجون عليهم وكأن الناصحين هم الغائبون، قال قائلهم:

وكم سُقْتُ في آثاركم من نصيحةٍ وقد يستفيد البغضة المتنصح

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

أباح الحقُّ ـ سبحانه ـ في الشرع ما أزاح به العذر، فمن تَخَطَّ هذا الأمر وجرى على مقتضى الهوى استقبل هوانه، واستوجب إذلاله، واستجلب ـ باختياره ـ صغره.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

خسَّت هِممُ قومِ شعيبٍ فقنعوا بالتطفيف[1] في المكيال والميزان عند معاملاتهم، ثم إنّ الحقَ ـ سبحانه ـ لم يُساهِلْهم في ذلك ليُعْلَم أنَّ الأقدار ليست من حيث الأخطار.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.

من المعاصي ما لا يكون لازماً لصاحبه وحدَه بل يكون متعدّياً عنه إلى غيره. ثم بِقَدْرِ الأثر في التعدّي يحصل الضر للمبتدىء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

مَنَّ عليهم بتكثير العدد لأن بالتناصر والتعاون تمشي الأمور ويحصل المراد.

ويقال كما أن كل أمرٍ بالأعوان والأنصار خيراً أو شراً، فلا نعمة فوق اتفاق الأنصار في الخير، ولا محنة فوق اتفاق الأعوان في الشر.

---

(١) التطفيف: نقص المكيال أو البخس في المكيال والميزان.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾.

كما أن (أهل) الخير لا يميلون إلا إلى أشكالهم فأهل الشر لا ينصرون إلا من رأوا بأنه يساعدهم على ما هم عليه من أحوالهم، والأوحد في بابه مَنْ بايَنَ نهج أضرابه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾.

نطقوا عن صحة عزائمهم حيث قالوا: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾، ثم أقروا بالشكر حيث قالوا: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ﴾، ثم تبرأوا عن حولهم وقوتهم حيث قالوا: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ﴾ يعني إنْ يُلْبِسنا لِباسَ الخذلان نُرَدُّ إلى الصغر والهوان.

ثم اشتاقوا إلى جميل التوكل فقالوا: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ﴾ أي به وَثِقنا، ومنه الخيرَ أَمَّلْنا.

ثم فوضوا أمورهم إلى الله فقالوا: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ فتداركهم الحقُّ ـ سبحانه ـ عند ذلك بجميل العِصْمة وحسن الكفاية.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾.

تواصوا فيما بينهم بتكذيب نبيِّهم، وأشار بعضهم باستشعار وقوع الفتنة بمتابعته، وكانوا مخطئين في حكمهم، مبطلين في ظنهم، فعُلِمَ أنَّ كل نصيحة لا يجب قبولها، وكل إشارة لا يَحْسُنُ اتباعُها.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ﴾ كانت لهم غلبتهم في وقتهم، ولكن لما اندرست أيامُهم سَقَطَ صِيتُهم، و (خمد) ذكرهم، وانقشع سحابُ مَنْ تَوَهَّم أنَّ منهم شيئاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

الحقُّ غالِبٌ في كل أمر، والباطل زاهق بكل وصف، وإذا كانت العِزَّةُ نعتَ مَنْ هو أزليُّ الوجود، وكان الجلال حقَّ مَنْ هو المَلِك فأي أثر للكثرة مع القدرة؟ وأي خطر للعلل مع الأزل؟ ولقد أنشدوا في قريبٍ من هذا:

استقبلني وسيفه مسلول　　وقال لي واحدنا معذول

قوله جلّ ذكره: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾.

بَيَّنَ أنه راعى حدَّ الأمر؛ فإذا خرج عن عهدة التكليف في التبليغ فما عليه من إقرارهم أو إنكارهم، من توحيدهم أو جحودهم؛ إنْ أحسنوا فالميراثُ الجميلُ لهم، وإن أساءوا فالضررُ بالتألم عائدٌ عليهم، ومَالِكُ الأعيان أوْلى بها من الأغيار، فالخَلْقُ خَلْقُه والمُلكُ مُلْكُه؛ إن شاءَ هداهم، وإن شاء أغواهم، فلا تأسُفُ على نفيٍ وفقد، ولا أثر من كَوْنٍ ووجود.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

حرَّكهم بالبلاء الأَهْوَنِ تحذيراً من البلاء الأصعب، فإذا تمادوا في غيهم، ولم ينتبهوا من غفلتهم مَدَّ عليهم ظلالَ الاستدراجِ، ووسّع عليهم أسبابَ التفرقة مكراً بهم في الحال، فإذا وَطَّنوا ـ على مساعدة الدنيا ـ قلوبهم، وركنوا إلى ما سوَّلت لهم من امتدادها، أبرز لهم من مكامن التقدير ما نَغَّصَ عليهم طيبَ الحياة، واندق بغتةً عُنُقُ السرور، وشَرِقُوا بما كانوا ينهلون من كاسات المنى، فتبدّل ضياءُ نهارهم بِسُدْفَةِ الوحشة، وتكدّر صافي مشربهم بيد النوائب، كما سبقت به القسمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾.

لو آمنوا بالله، واتَّقُوا الشِرْكَ لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض بأسبابِ العطاء ـ ولكنْ سَبَقَ بخلافه القضاء ـ وأبوابِ الرضاء، والرضاءُ أتمُّ من العطاء.

ويقال ليست العِبْرة بالنعمة إنما العبرة بالبركة في النعمة، ولذا لم يَقُلْ أضعفنا لهم النعمة ولكنه قال: باركنا لهم فيما خوَّلنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾.

أكثر ما ينزل البلاء ينزل فجأةً على غفلةٍ من أهله، ويقال مَنْ حَذِرَ البيات لم يجدْ روْحَ الرُّقاد.

ويقال رُبَّ ليلةٍ مُفْتَتَحةٍ بالفَرَحِ مختتمةٌ (بالترح). ويقال رُبَّ يومٍ تطلع شمسه من أوج السعادة قامت ظهيرته على قيام الفتنة.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

يقال مَنْ عرف علوّ قدره ـ سبحانه ـ خشي خفيّ مكره، ومَنْ أمِنَ خفيّ مكره نَسِيَ عظيم قَدْرِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

أَوَ لا يعلم المغترون بطول سترنا أنْ لو أردنا لعجَّلنا لهم الانتقام، أو بلغنا فيهم الاصطلام، ثم لا ينفعهم ندم، ولا يُشْكى عنهم ألم.

قوله جلّ ذكره: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾.

سلكوا طريقاً واحداً في التمرد، واجتمعوا في خطٍ واحد في الجحد والتَّبلُّد؛ فلا للإيمان جَنَحُوا، ولا عن العدوان رجعوا، وكذلك صفة من سَبَقَتْ بالشقاء قِسمتُه، وحقت بالعذاب عليه كَلِمتُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾.

نجم في الغدر طارِقُهم، وأَقَلَ من سماء الوفاء شارِقُهم، فَعَدِمَ أكثرُهم رعاية العهد، وحقت من الحق لهم قسمة الرد والصد.

ويقال: شكا مِنْ أكثرِهم إلى أقلِّهم، فالأكثرون مَنْ ردَّتهم القسمة، والأقلون مَنْ قَبِلَتْهم الوصلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾.

لما انقرضت أيامُهم، وتَقَاصَر عن بساط الإجابة إقدامُهم بعث موسى نبيَّه، وضمَّ إليه هارون صفيَّه، فقُوبِلا بالتكذيب والجحود، فسلك بهم مسلك إخوانهم في التعذيب والتبعيد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

الرجوعُ إلى دعاء فرعون إلى الله بعد سماع كلام الله بلا واسطة صعبٌ شديد، ولكنه لمَّا وَرَدَ الأمرُ قابله بحسن القبول، فلما ترك اختيار نفسه أيّده الحق ـ سبحانه ـ بنور التأييد حتى شَاهَدَ فرعونَ محواً في التقدير فقال: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ فإذا لم يصح له أن يقول على الخلق؛ فالخلق محوٌ فيما هو الوجود الأزلي فأيُّ سلطانٍ لآثار التفرقة في حقائق الجمع؟

قوله: ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾: من المعلوم أن مجرَّد الدعوى لا حجة فيه، ولكن إذا ظهر برهانٌ لم يبق غيرُ الانقياد لِمَا هو الحق،

فَمَنْ استسلم (. . . .)[(١)]، ومَنْ جَحَدَ الحقائق بعد لوح البيان سقط سقوطاً لا ينتعش.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾.

إنما أظهر له المعجزةَ مِنْ عَصَاه لطولِ مقارنته إياها، فالإنسانُ إلى ما أَلِفَه أَسْكَنُ بقلبه. فلَّما رأى ما ظهر في العصا من الانقلاب أخذ موسى عليه السلام في الفرار لتحققه بأن ذلك من قهر الحقائق، وفي هذا إشارة إلى أنَّ السكونَ إلى شيءٍ غِرَّةً وغفلةً ايش ما كان، فإنَّ تقلب العبد في قَبْضِ القدرة، وهو في أَسْر التقلُّب، وليس للطمع في السكوْن مساغٌ بحال.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ﴾.

العصا ـ وإنْ كانت معه من زمنٍ ـ فيَدُه أخصُّ به لأنها عضو له، فكاشَفَه أولاً بِرَسَم مِنْ رسْمِه ثم أشهده من ذاته في ذاته ما عَرَفَ أنه أوْلى به منه، فلما رأى انقلابَ وصفٍ في يده عَلمَ أنه ليس بشيء من أمره بيده.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾.

إذا أراد اللَّهَ هوان عبدٍ لا يزيد الحقّ حُجَّةً إلا ويزيد لذلك المُبْطِل فيه شبهةً؛ فكلَّما زاد موسى ـ عليه السلام ـ في إظهار المعجزات ازدادوا حيرةً في التأويلات.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾.

تَوهَّمَ الناسُ أنهم بالتأخير، وتقديم التدبير، وبذل الجهد والتشمير يُغَيِّرون شيئاً من التقدير بالتقديم أو بالتأخير، ولم يعلموا أن القضاءَ غالِبٌ، وأنَّ الحكمَ سابقٌ، وعند حلول الحكم فلا سلطانَ للعلم والفهم، والتسرع والحِلْم. . كلا، بل هو الله الواحد القهار العلّام.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾.

ظنوا أنهم يَغلِبُون بما يسحرون، ولم يعلموا أن تأثير القدرة فيهم أغلب من تأثير سحرهم، وأنه لا يرد عنهم ما زَوَّرُوه في أنفسهم من فنون مكرهم فكادوا وكِيدَ لهم، فهو كما قيل:

ورمانسي بأسهم صائباتٍ وتعمدته بسهم فطاشا

---

(١) بياض في الأصل.

فبيْنَاهم في توهُّم أنَّ الغلبة لهم فُتِحَ عليهم ـ من مكامن القدرة ـ جيشٌ، فوجدوا أنفسهم ـ في فتح القدرة ـ مقهورين بسيف المشيئة.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾.

مَوَّهُوا بسحرهم أنهم غَلَبُوا، فَأَدْخَل الله ـ سبحانه ـ على تمويهاتهم قهرَ الحق، وطاشت تلك الحِيَلُ، وخاب منهم الأمل، وجذب الحقُّ ـ سبحانه ـ أسرارهم على الوهلة فأصبحوا في صدر العداوة، وكانوا ـ في التحقيق ـ من أهل الود. فسبحان مَنْ يُبْرِز العدوَّ في نعت الولي؛ ثم يقلب الكتابَ ويُظْهِرُ الوليَّ في نعت العدو، ثم يأبى الحالُ إلا حصولَ المَقْضِيِّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

خاطَبَهم معتقداً أنهم هم الذين كانوا[1]، وهم يعلمون أن تلك الأسرار قد خرجت عن رِقِّ الأشكال، وأن قلوبهم طهرت عن توهم التفرقة، وأن شمسَ العرفان طلعت في سماءِ أسرارهم، فأشهدوا الحقَّ بنظر صحيح، ولم يبقَ لتخويفات النفس فيهم سلطان، ولا لشيء من العلل بينهم مساغ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾.

لمَّا كان مصيرهم إلى الله سَهُلَ عليهم ما لقوا في مَسيرهم إلى الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾.

لما عَمِلُوا لله، وأوذوا في الله، صدقوا القصد إلى الله، وطلبوا المعونة من قِبَلِ الله، كذا سُنَّةُ مَنْ كان لله أن يكون كلُّه على الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾.

لما استزادوا من فرعون في التمكين من موسى وقومه استنكف أن يقر بعجزه، ويعترف بقصور قدرته، فتوعد موسى وقومه بما عكس الله عليه تدبيره، وغلب عليه تقديره.

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص٣١٧.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

أحالهم على الله فإن رجوعَه إليه، فقال لهم: إن رجوعي ـ عند تحيري في أموري ـ إلى ربي، فليكن رجوعُكم إليه، وتوكُّلُكم عليه، وتَعَرَّضوا لنفحات يُسْرِه، فإنه حَكَمَ لأهل الصبر بجميل العُقبى.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

خفي عليهم شهودُ الحقيقة، وغُشِيَ على أبصارهم حتى قالوا توالت علينا البلايا؛ ففي حالك بلاء، وقَبْلكَ شقاء.. فما الفضل؟ فأجابهم موسى ـ عليه السلام ـ بما علق رجاءهم بكشف البلاء فقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ فوقفهم على الانتظار. ومن شهد ببصر الأسراء شهد تصاريف الأقدار.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

شدّد عليهم وطأة القدرة بعدما ضاعف لديهم أسباب النعمة، فلا الوطأة أصلحتهم شِدَّتُها ولا النعمة نبهتهم كثرتها، لا بل إنْ مَسَّهم يُسْرٌ لاحظوه بعين الاستحقاق، وإن مَسَّهم عُسْرٌ حملوه على التَّطَيُّرِ بموسى ـ عليه السلام ـ بمقتضى الاغترار.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾.

الكفورُ لا يرى فضل المنعم؛ فيلاحظ الإحسان بعين الاستحقاق، ثم إذا اتصل بشيء مما يكرهه تجنّي وحمل الأمر على ما يتمنّى:

وكذا المَمْلُولُ إذا أراد قطيعة ... ملَّ الوصال وقال كان وكانا

إن الكريم إذا حباكَ بودِّه ... سَتَر القبيح وأظهر الإحسانا

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

المتفرد بالإيجاد هو الواحد ولكن بصائرهم مسدودة، وعقولهم عن شهود الحقيقة مصدودة، وأفهامهم عن إدراك المعاني مردودة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

جعلوا الإصرارَ على الاستكبار شعارَهم، وهتكوا بألسنتهم ـ في العتوّ ـ أستارهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

جَنَّسَ عليهم العقوباتِ لمَّا نوَّعُوا وجَنَّسوا فنونَ المخالفات، فلا إلى التكفير عادوا، ولا إلى التطهير تصدوا، وعوقبوا بِصَرْفِ قلوبهم عن شهود الحقائق وذلك أبلغُ مما اتصل بظواهرهم من فنون البلايا.... ونعوذُ بالله من السقوط عن عين الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

لم يقولوا ادع لنا ربَّنا، بل ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ فهم ما ازدادوا بزيادة تلك المحن إلا بعداً وأجنبية.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾.

أبرزوا العهد ثم نقضوه، وقدموا العهد ثم رفضوه، وكما قيل:

إذا ارعوى عاد إلى جهله كذي الضنى عاد إلى نكسه[١]
والشيخُ لا يترك أخلاقَه حتى يُوارى في ثرى رمسه[٢]

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾.

مَنْ صبر على مقاساة الذُّلّ في الله وضع الله على رأسه قلنسوة[٣] العرفان، فهو العزيز سبحانه، لا يُشمِتُ بأوليائه أعداءهم، ولا يضيع من جميل عهده جزاءَهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

لم تَخلُصْ في قلوبهم حقائقُ التوحيد فتاقت نفوسهم إلى عبادة غير الله، حتى قالوا لنبيِّهم موسى ـ عليه السلام ـ: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة. وكذا صفة من لم يتحرر قلبُه من إثبات الأشغال والأعلال، ومن المساكنة إلى الأشكال والأمثال.

---

(١) ارعوى عن القبيح والجهل ارعواء: كف عنه ورجع.
(٢) الرمس: القبر أو ترابه (ج) أرماس ورموس.
(٣) القلنسوة: لباس للرأس مختلف الأنواع والأشكال (ج) قلانس.

ويقال مَنْ ابتغى بالصنم أن يكون معبودَه متى يُتَوَّهم في وصفِه أَنْ يُخلِصَ إلى اللَّهِ قصودَه؟

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ذكَّرهم انفرادَه ـ سبحانه ـ بإنشائهم وإبداعهم، وأنه هو الإله المتفرد بالإيجاد، ونَبَّهَهُم أيضاً على عظيم نعمته عليهم، وأنه ليس حقٌّ إتمام النعمة عليهم مقابلتَهم إياها بالتولِّي لغيره والعبادةِ لِمَنْ سواه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

ما ازداد موسى ـ عليه السلام ـ في تعديد إنعام الله عليهم، وتنبيههم على عظيم آلائه إلا ازدادوا جحداً، وبُعْداً بالقلوب ـ عن محل العرفان ـ على بُعْد، وهذه أمارة من بلاه ـ سبحانه ـ في السابق بالقطع والرد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ﴾.

عِدَةُ الأحباب عزيزة، فإذا حصلت المواعدة بين الأحباب، فهي عذبة حلوة كيفما كانت، وفي هذا المعنى أنشدوا:

أمطلينا وسَوِّفي وعِدِينا ولا تَفِي[1]

ويقال عَلَّلَ الحقُّ ـ سبحانه ـ موسى بالوعد الذي وعده بأن يُسْمِعَه مرةً أخرى كلامَه، وذلك أنه في المرة الأولى ابتلاه بالإسماع من غير وعد، فلا انتظار ولا توقع ولا أمل، فأُخذ سماعُ الخطاب بمجامعِ قلب موسى ـ عليه السلام ـ فعلَّق قلبه بالميقات المعلوم ليكون تأميله تعليلاً له، ثم إن وعد الحقّ لا يكون إلا صدقاً، فاطمأن قلبُ موسى ـ عليه السلام ـ للميعاد، ثم لمَّا مضت ثلاثون ليلة أتى كما سَلَفَ الوعد فزاد له عشراً في الموعد. والمطل في الإنجاز غير محبوب إلا في سُنَّةُ الأحباب، فإن المطل عندهم أشهى من الإنجاز، وفي قريب من هذا المعنى أنشدوا:

أقيمي لعمرك لا تهجرينا ومَنِّينا المنى، ثم امطلينا
عِدينا موعداً ما شِئْتِ إنَّا نحبُّ وإنْ مطلت تواعدينا
فإما تنجزي وعدَكِ أو فإنا نعيش نؤمل فيك حينا

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

---

(١) مطله: أجلّ موعد الوفاء به مرة بعد أخرى. التسويف: المطل والتأخير.

كان هارون ـ عليه السلام ـ حمولاً بحسن الخُلُق؛ لمَّا كان المرورُ إلى فرعونَ استصحب موسى ـ عليه السلام ـ هارونَ، فقال الله ـ سبحانه ـ: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ [طه: ٣٢] بعد ما قال: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤]. ولمَّا كان المرور إلى سماع الخطاب أفرده عن نفسه، فقال: و﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾ وهذا غاية الحَمْلِ من هارون ونهاية التصبر والرضاء، فلم يَقُلْ: لا أقيم في قومك. ولم يقل: هلَّا تحملني مع نفسك كما استصحبتني حال المرور إلى فرعون؟ بل صبر ورضي بما لزم، وهذه من شديدات بلاء الأحباب، وفي قريب منه أنشدوا:

قال لي من أحب والبين قد حلَّ وفاقاً لزفرتي وشهيقي
ما تُرى في الطريق تصنع بعدي قلت: أبكي عليك طول الطريق

ثم إن موسى لما رجع من سماع الخطاب، فرأى من قومه ما رأى من عبادة العِجْل أخذ برأس أخيه يجره إليه حتى استلطفه هارون ـ عليه السلام ـ في الخطاب، فقال: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾ [طه: ٩٤].

ويقال لو قال هارون ـ عليه السلام: إن لم تعوضني عما فاتني من الصحبة فلا تعاتبني فيما لم أذنب فيه بحال ذرةً ولا حبَّةً.. لكان موضع هذه القالة.

ويقال الذنبُ كان من بني إسرائيل، والعتاب جرى مع هارون، وكذا الحديث والقصة، فما كلُّ مَنْ عصى وجنى استوجب العتابَ، فالعتابُ ممنوعٌ عن الأجانب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ﴾.

جاء موسى مجيء المشتاقين مجيء المُهيَّمين، جاء موسى بلا موسى، جاء موسى ولم يَبْقَ من موسى شيءٌ لموسى. آلافُ الرجال قطعوا مسافاتٍ طويلة فلم يذكرهم أحد، وهذا موسى خطا خطواتٍ فإلى القيامة يقرأ الصبيان: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ﴾.

ويقال لمَّا جاء موسى لميقات باسطِ الحقِّ ـ سبحانه ـ سقط بسماع الخطاب، فلم يتمالك حتى قال: ﴿أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ﴾، فإنَّ غَلَبَاتِ الوجد عليه استنطقته بطلب كمال الوصلة من الشهود، وكذا قالوا:

وأبرحُ ما يكونُ الشوقُ يوماً إذا دَنَتِ الخيامُ من الخيام

ويقال صار موسى ـ عليه السلام ـ عند سماع الخطاب بعين السُّكْر فنطق ما نطق، والسكران لا يُؤخذ بقوله، ألا ترى أنه ليس في نص الكتاب معه عتاب بحرف؟

ويقال أخذته عِزَّةُ السَّماعِ فخرج لسانه عن طاعته جرياً على مقتضى ما صحبه مِنَ الأَرْيَحِيَّةَ وبَسْطِ الوصلة.

ويقال جمع موسى ـ عليه السلام ـ كلماتٍ كثيرةً يتكلم بها في تلك الحالة؛ فإن في القصص أنه كان يتحمل في أيام الوعد كلمات الحق، ويقول لمعارفه: ألكم حاجة إلى الله؟ ألكم كلام معه؟ فإني أريد أن أمضي إلى مناجاته.

ثم إنه لما جاء وسمع الخطاب لم يذكر ـ مما دبَّره في نفسه، وتحمله من قومه، وجمعه في قلبه ـ شيئاً ولا حرفاً، بل نطق بما صار في الوقت غالباً على قلبه، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ وفي معناه أنشدوا:

فيا ليلَ كم من حاجةٍ لي مهمة إذا جئتُكم ليلى فلم أدرِ ماهِيَا

ويقال أشدُّ الخَلْقِ شوقاً إلى الحبيب أقربُهم من الحبيب؛ هذا موسى عليه السلام، وكان عريق الوصلة، واقفاً في محل المناجاة، محدقة به سجوفُ التولي، غالبة عليه بوادِهُ الوجود، ثم في عين ذلك كان يقول: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ كأنه غائبٌ عن الحقيقة. ولكن ما ازداد القومُ شَرْباً إلا ازدادوا عطشاً، ولا ازدادوا تيماً إلا ازدادوا شوقاً، لأنه لا سبيل إلى الوصلة إلا بالكمال، والحقُّ ـ سبحانه ـ يصونُ أسرار أصفيائه عن مداخلة الملال.

ويقال نطق موسى عليه السلام بلسان الافتقار فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ ولا أقلَّ من نظرة ـ والعبد قتيل هذه القصة ـ فقوبل بالردِّ، وقيل له: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ وكذا قهر الأحباب ولذا قال قائلهم:

جَوْرُ الهوى أحسن من عَدْلِه وبخله أظرف من بذله

ويقال لمَّا صرَّح بسؤال الرؤية، وجهر صريحاً رُدَّ صريحاً فقيل له: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، ولما قال نبيُّنا ـ ﷺ ـ بِسِرِّه في هذا الباب، وأشار إلى السماء منتظراً الرد والجواب من حيث الرمز نزل قوله تعالى: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ﴾ [البقرة: ١٤٤] فردَّه إلى شهود الجهات والأطلال إشارة إلى أنه أعزُّ من أن يطمح إلى شهوده ـ اليومَ ـ طَرْفٌ، بل الألحاظ مصروفة موقوفة ـ اليومَ ـ على الأغيار.

ويقال لما سَمَتْ همَّتُه إلى أسنى المطالب ـ وهي الرؤية ـ قوبل «بِلَنْ»، ولمَّا رجعَ إلى الخَلق وقال للخضر ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ [الكهف: ٦٦]، قال الخضر: ﴿إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ [الكهف: ٦٧] فقابله بلن، فصار الردُّ موقوفاً على موسى ـ عليه السلام من الحق ومن الخَلق، ليكون موسى بلا موسى،

ويكون موسى صافياً عن كل نصيب لموسى من موسى، وفي قريب منه أنشدوا:

(. . . . . . .)(١) نحنُ أهلُ منازلٍ أبداً غرابُ البيْن فينا ينعق(٢)

ويقال طلب موسى الرؤية وهو بوصف التفرقة فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ فأجيب بلن لأن عين الجمع أتم من عين الفَرْق. فزع موسى حتى خَرَّ صعقاً(٣)، والجبل صار دَكّاً. ثم الروح بعد وقوع الصعقة على القالب مكاشفته بما هو حقائق الأحدية، ويكون الحقُّ ـ بعد امتحاء معالم موسى ـ خيراً لموسى من بقاء موسى لموسى، فعلى الحقيقة: شهود الحقائق بالحقِّ أتمُ من بقاء الخْلق بالخْلق، كذا قال قائلهم:

ولوجهها من وجهها قمرٌ ولعينها من عينها كحل

ويقال البلاء الذي ورد على موسى بقوله: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ أتمُّ وأعظم منه قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ لأن ذلك صريحٌ في الرد، وفي اليأس راحة. لكنَّه لما قال فسوف أطْمِعُه فيما مُنِعه فلما اشتد موقُفه جعل الجبل دكاً، وكان قادراً على إمساك الجَبَل، لكنه قهر الأحباب الذي به جَرَتْ سُنَّتُهم.

ويقال في قوله: ﴿ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾ بلاءٌ شديد لموسى لأنه نُفِيَ عن رؤية مقصوده ومُنِيَ برؤية الجبل، ولو أذِنَ له أنْ يُغْمِضَ جفنَه فلا ينظر إلى شيء بعدما بقي عن مراده من رؤيته لكان الأمرُ أسهلَ عليه، ولكنه قال له: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾.

ثم أشدُّ من ذلك أنه أعطى الجبل التَّجلي؛ فالجبل رآه وموسى لم يَرَه، ثم أَمَرَ موسى بالنظر إلى الجبل الذي قدم عليه في هذا السؤال، وهذا ـ واللَّهِ ـ لصعبٌ شديد!! ولكن موسى لم ينازع، ولم يقل أنا أريد النظر إليك فإذا لم أرَكَ لا أنظر إلى غيرك بل قال: لا أرفع بصري عما أمرتني بأن أنظر إليه، وفي معناه أنشدوا:

أريدُ وصالَه ويريد هجري فأترك ما أريد لما يريد

ويقال بل الحق سبحانه أراد بقوله: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾ تداركه قلبَ موسى ـ عليه السلام ـ حيث لم يترك على صريح الرد بل علله برفق كما قيل:

فذريني أفني قليلاً قليلاً

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) الغُراب: جنس طير من الجواثم. يطلق على أنواع كثيرة، منها الأسود. والعرب يتشاءمون به إذا نعق قبل الرحيل، ويسمونه غراب البين، ويُضرب به المثل في السواد والبكور والحذر والبُعد.

(٣) أي غُشي عليه.

ويقال لما رُدَّ موسى إلى حال الصحو وأفاق رجع إلى رأس الأمر فقال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ يعني إن لم تكن الرؤية هي غايه المرتبة فلا أقل من التوبة، فَقَبِلَه ـ تعالى ـ لسمو همته إلى الرتبة العلية.

قوله جلّ ذكره: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾.

هذه إناخة بعقوة العبودية، وشرط الإنصاف ألا تبرحَ محلّ الخدمة وإنْ حيل بينك وبين وجود القربة؛ لأن القربةَ حظُّ نفسك، والخدمةَ حقُّ ربك، وهي تتم بألا تكون بحظ نفسك.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

هذا الخطاب لِتَدَارُكِ قلب موسى ـ عليه السلام ـ بكل هذا الرِّفق، كأنه قال: يا موسى، إني منعتُكَ عن شيء واحد وهو الرؤية، ولكني خصصتُك بكثيرٍ من الفضائل؛ اصطفيتُك بالرسالة، وأكرمتُك بشرف الحالة، فاشكرْ هذه الجملة، واعرفْ هذه النعمة، وكنْ من الشاكرين، ولا تتعرضْ لمقام الشكوى، وفي معناه أنشدوا:

إنْ أعرضوا فهم الذين تَعَطَّفُوا ... وإنْ جَنَوْا فاصبرْ لهم إن أخلفوا

وفي قوله سبحانه: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ إشارة لطيفة كأنه قال: لا تكن من الشاكين، أي إنْ منعتُكَ عن سُؤلِك، ولم أعطِك مطلوبَك فلا تَشْكُنِي إذا انصرفتَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾.

وفي الأثر: أن موسى عليه السلام كان يسمع صريرَ القلم، وفي هذا نوع لطف لأنه إنْ منع منه النظر أو منعه من النظر فقد علله بالأثر.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾.

فيه إشارة إلى أن الأَخْذَ يُشير إلى غاية القرْبِ، والمراد ها هنا صفاءُ الحال، لأن قربَ المكانِ لا يَصِحُّ على الله سبحانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾.

فَرْقٌ بين ما أمر به موسى من الأخذ وبين ما أمره أن يأمر به قومه من الأخذ، أَخْذُ موسى عليه السلام من الحق على وجهٍ من تحقيق الزلفة وتأكيد الوصلة، وأَخْذُهم أخذُ قبولٍ من حيث التزام الطاعة، وشتان ما هما!.

قوله: ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾ بمعنى بِحُسْنِها، ويحتمل أن تكون الهمزة للمبالغة

يعني: بأحسنها ألا تعرِّج على تأويل وارجعْ إلى الأَوْلى[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

يعني عليها غَبَرةُ العقوبة، خاوية على عروشها، ساقطة على سقوفها، مُنْهَدٌّ بنيانُها، عليها قَتَرةُ العِقاب.

والإشارة من دار الفاسقين إلى النُّفوس المتابعة للشهوات، والقلوب التي هي معادن المنى وفاسد الخطرات، فإنَّ الفِسقَ يوجب خرابَ المحل الذي يجري فيه؛ فمن جرى على نفسه فِسْقٌ خربت نفسه. وآية خراب النفوس انتفاءُ ما كان عليها وفيها من سكان الطاعات، فكما تتعطل المنازل عن قطانها إذا تداعت للخراب فكذلك إذا خربت النفوس بعمل المعاصي فتنتفي عنها لوازم الطاعات ومعتادها، فبعد ما كان العبد يتيسر عليه فعل الطاعات لو ارتكب شيئاً من المحظورات يشق عليه فعل العبادة، حتى لو خُيِّر بين ركعتي صلاة وبين مقاساة كثيرٍ من المشاق آثر تحمل المشاقّ على الطاعة.. وعلى هذا النحو ظلمُ القلوب وفسادُها في إيجاب خراب محالها.

قوله جلّ ذكره: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾.

سأَحْرِمُ المتكبرين بركاتِ الاتباع حتى لا يقابلوا الآياتِ التي يُكاشَفُون بها بالقبول، ولا يسمعوا ما يُخَاطَبُون به بسمع الإيمان.

والتكبُّر جحدُ الحق ـ على لسان العلم، فَمَنْ جَحَدَ حقائقَ الحقِّ فجحودُه تكبُّره واعتراضُه على التقدير مما يتحقق جحودُه في القلب.

ويقال التكبُّر توهمُ استحقاقِ الحقِّ لك.

ويقال من رأى لنفسه قيمةً في الدنيا والآخرة فهو متكبِّر.

ويقال مَنْ ظنَّ أَنَّ شيئاً منه أو له أو إليه ـ من النفي والإثبات ـ إلا على وجه الاكتساب فهو متكبِّر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾

تبيَّن بهذا أنه لا يكفي شهودُ الحقِّ حقاً وشهودُ الباطلِ باطلاً بل لا بُدَّ من شهود الحق من وجود التوفيق للحق، ومنع شهود الباطل من وجود العصمة من اتباع الباطل.

---

(١) هنا يلمح إلى موضوع الرخص (انظر الرسالة القشيرية ص٣٨٠ ـ ٣٨١).

ويقال إنَّ الجاحِدَ للحقِّ ـ مع تحققه به ـ أقبحُ حالةً من الجاهل به المُقصِّرِ في تعريفه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾.

لم يُطَهِّر قلوبَهم ـ في ابتداء أحوالهم ـ عن توهم الظنون، ولم يتحققوا بخصائص القِدَم وشروط الحدوث، فعثرت أقدام فكرهم في وهاد المغاليط لما سلكوا المسير.

ويقال إن أقواماً رضوا بالعِجْلِ. أن يكونَ معبودَهم متى تشم أسرارُهم نسيمَ التوحيد؟ هيهات لا! لا ولا مَنْ لاحظ جبريلَ وميكائيلَ والعرشَ أو الثَّرى، أو الجِنَّ أو الورى. وإنَّ مَنْ لَحِقَه ذلك أو وجد من قبيل ما يقبل نعوت الحدثان، أو صحَّ في التجويز أن ترتقي إليه صواعد التقدير وشرائط الكيفية فغيرُ صالحٍ لاستحقاق الإلهية.

ويقال شتَّان بين أمة وأمة! أمة خرج نبيهم عليه السلام من بينهم أربعين يوماً فعبدوا العِجْلَ، وأمة خرج نبيُّهم ـ عليه السلام ـ من بينهم وأتى نيف وأربعمائة سنة فمن ذكر بين أيديهم أن الشموس والأقمار أو شيئاً من الرسوم والإطلال تستحق الإلهية أحرقوه بهممهم.

ويقال لا فصلَ بين الجسم والجسد، فكما لا يصلح أن يكون المعبود جسماً لا يصلح أن يكون متصفاً بما في معناه، ولا أن يكون له صوت فإن حقيقة الأصوات مُصَاكَّةُ الأجرام الصلبة، والتوحيد الأزلي ينافي هذه الجملة.

ويقال أَجْهِلْ بقوم آمنوا بأن يكونَ مصنوعُهم معبودَهم! ولولا قهر الربوبية وأنه تعالى يفعل ما يشاء ـ فأيُّ عقلٍ يُقِرُّ مثل هذا التلبيس؟!

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾.

جعل من استحقاقه نعوت الإلهية صحة الخطاب وأن تكون منه الهداية، وهذا يدل على استحقاق الحق بالنعوت بأن متكلِّمٌ في حقائق آزاله، وأنه متفرِّد بهداية العبد لا هاديَ سواه. وفيه إشارة إلى مخاطبة الحق ـ سبحانه ـ وتكليمه مع العبد، وإنَّ الملوكَ إذا جلَّتْ رتبتهم استنكفوا أن يخاطبوا أحداً بلسانهم حتى قال قائلهم:

وما عَجَبٌ تناسي ذِكْرِ عبدٍ ... على المولى إذا كَثُرَ العبيدُ

وبخلاف هذا أجرى الحقُّ ـ سنَّتَه مع عباده المؤمنين، أما الأعداء فيقول لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] وأمَّا المؤمنون فقال ﷺ: «ما منكم إلا يكلمه ربُّه ليس بينه وبينه ترجمان»(١)، وأنشدوا في معناه.

(١) هناك رواية أخرى للحديث: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان يوم القيامة». =

وما تزدهينا الكبرياءُ عليهمُ إذا كلَّمونا أن نكلمهم مَرْدًا

قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

حين تحققوا بقبح صنيعهم تجرَّعوا كاساتِ الأسف ندماً، واعترفوا بأنهم خَسِروا إنْ لم يتداركهم من الله جميلُ لطفِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾.

لو وجد موسى قومه بألف ألف وِفاقٍ لكان متنغِّصَ العيش لِمَا مني به من حرمان سماع الخطاب والرد إلى شهود الأغيار.. فكيف وقد وجد قومه قد ضلوا وعبدوا العجل؟ ولا يُدْرَي أيُّ المحن كانت أشدَّ على موسى:

أَفِقدانُ سماع الخطابِ؟ أو بقاؤه عن سؤال الرؤية؟ أو ما شاهد من افتتان بني إسرائيل، واستيلاء الشهوة على قلوبهم في عبادة العجل؟ سبحان الله! ما أشدَّ بلاءه على أوليائه!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

إن موسى عليه السلام وإنْ كان سَمِعَ من اللّهِ فتَنَ قومه فإنه لما شَاهَدَهم أثَّرت فيه المشاهدةُ بما لم يؤثر فيه السماع، وإنْ عُلِمَ قطعاً أنه تأثر بالسماع إلا أن للمعاينة تأثيراً آخر.

ثم إن موسى لما أخذ برأس أخيه يجره إليه استلطفه هارونُ في الخطاب.

فقال: ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ [طه: ٩٤] فَذَكَرَ الأمَّ هنا للاسترفاق والاسترحام.

= أخرجه مسلم في الصحيح (الزكاة ٦٨، ٦٨ مكرر)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٤/ ٣٧٧) والبيهقي في (السنن الكبرى ٤/ ١٧٦)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٢/ ١٠)، والطبراني في (المعجم الكبير ١٧/ ٨٢)، وابن أبي عاصم في (السنة ١/ ٢٦٩)، والسيوطي في (الدر المنثور ١/ ٣٥٥)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٥٩٤٢)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ١/ ٤٣٣)، والبيهقي في (الأسماء والصفات ٢١٨).

وكذلك قوله: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ [طه: ٩٤] يريد بهذا أنه قد توالت المحنُ علي فذرني وما أنا فيه، ولا تَزِدْ في بلائي، خلفتني فيهم فلم يستنصحوني. وتلك عليّ شديدةٌ. ولقيتُ بَعْدَكَ منهم ما ساءني، ولقد علمت أنها كانت علي عظيمة كبيرة، وحين رجعتَ أخذتَ في عتابي وجر رأسي وقصدْتَ ضربي، وكنت أود منك تسليتي وتعزيتي. فرِفقاً بي ولا تُشْمِتْ بي الأعداء، ولا تضاعِفْ عليّ البلاء.

وعند ذلك رقَّ له موسى ـ عليه السلام، ورجع إلى الابتهال إلى الله والسؤال بنشر الافتقار فقال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَۖ﴾ وفي هذا إشارة إلى وجوب الاستغفار على العبد في عموم الأحوال، والتحقق بأنَّ له ـ سبحانه ـ تعذيبَ البريء؛ إذ الخَلْقُ كُلُّهم مِلْكُه، وتَصَرُّفُ المالكِ في مِلْكه نافذٌ.

ويقال: ارتكابُ الذَّنْبِ كان من بني إسرائيل، والاعتذارُ كان من موسى وهارون عليهما السلام، وكذا الشرط في باب خلوص العبودية.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ﴾.

يعني إن الذين اتخذوا العِجْلَ معبوداً سَيَنالهُم في مستقبل أحوالهم جزاءُ أعمالهم. والسين في قوله «سينالهم» للاستقبال، ومَنْ لا يضره عصيان العاصين لا يبالي بتأخير العقوبة عن الحال، وفَرْقٌ بين الإمهال والإهمال، والحق ـ سبحانه ـ يمهل ولكنه لا يهمل، ولا ينبغي لِمَنْ يذنب ثم لا يُؤَاخَذُ في الحال أَنْ يَغْتَرَّ بالإمهال.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وَصَفَهُم بالتوبة بعد عمل السيئات ثم بالإيمان بعدها، ثم قال: ﴿مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. والإيمان الذي هو بعد التوبة يحتمل آمنوا بأنه يقبل التوبة، أو آمنوا بأن الحق سبحانه لم يُضِرْه عصيانٌ، أو آمِنوا بأنهم لا ينجون بتوبتهم من دون فضل الله، أو آمنوا أي عَدُّوا ما سبق منهم من نقْض العَهْدِ شِرْكاً.

ويقال استداموا للإيمان فكان موافاتهم على الإيمان.

أو آمنوا بأنهم لو عادوا إلى ترك العهد وتضييع الأمر سقطوا من عين الله، إذ ليس كل مرة تسلم الجرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَۖ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾.

تشير إلى حسن إمهاله ـ سبحانه ـ للعبد إذا تغيَّر عن حدِّ التمييز، وغَلَبَ عليه ما لا يطيق ردَّه من بواده الغيب.

وإذا كانت حالة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ أنه يغلبهم ما يعطلهم عن الاختيار فكيف الظن بِمنْ دونهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾.

شتَّان بين أمة وأمة؛ أمة يختارهم نبيُّهم ـ عليه السلام، وبين أمة اختارها الحقُّ ـ سبحانه، فقال: ﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢].

الذين اختارهم موسى قالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ [النساء: ١٥٣] والذين اختارهم الحق ـ سبحانه ـ قال الله تعالى فيهم: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ [القيامة: ٢٢].

ويقال إن موسى ـ عليه السلام ـ جاهر الحقَّ ـ سبحانه ـ بنعت التحقيق وفارق الحشمة وقال صريحاً: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ﴾ ثم وَكَلَ الحكمَ إليه فقال: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ﴾ ثم عقَّبها ببيان التضرع فقال: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ﴾، ولقد قدَّم الثناءَ على هذا الدعاء فقال: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾.

نَطَقَ بلسان التضرع والابتهال حيث صَفَّى إليه الحاجة، وأخلص له في السؤال فقال: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي اهدنا إليك.

وفي هذه إشارة إلى تخصيص نبِّينا ـ ﷺ ـ في التبري من الحول والقوة والرجوع إلى الحقِّ لأن موسى ـ عليه السلام قال: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي....﴾ ونبيُّنا ﷺ قال: «لا تكلني إلى نفسي طرفة عين»[(١)] ولا أقلَّ من ذلك، وقال: «واكفلني كفالة الوليد» ثم زاد في ذلك حيث قال: «لا أحصي ثناء عليك»[(٢)].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾.

أي مِلْنَا إلى دينك، وصِرْنا لكَ بالكلية، في غير أنْ نترك لأنفسنا بقية.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾.

وفي هذا لطيفة؛ حيث لم يقل: عذابي لا أُخلِي منه أحَداً، بل علَّقه على المشيئة. وفيه أيضاً إشارة؛ أنَّ أفعاله ـ سبحانه ـ غيرُ مُعَلَّلَة بأكساب الخلق؛ لأنه لم

---

(١) أخرجه صاحب (الجامع الكبيرالمخطوط الجزء الثاني ٢/٧٠٣).

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٦/٥٨)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢/٧١).

يقل: عذابي أصيب به العصاة بل قال: ﴿مَنْ أَشَآءُ﴾؛ وفي ذلك إشارة إلى جواز الغفران لمن أراد لأنه قال: ﴿أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ فإذا شاء ألا يصيب به أحداً كان له ذلك، وإلا لم يكن حينئذٍ مختاراً.

ثم لمَّا انتهى إلى الرحمة قال: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ لم يُعلِّقها بالمشيئة؛ لأنها نفس المشيئة ولأنها قديمة، والإرادة لا تتعلق بالقديم. فلَّما كان العذابُ من صفات الفعل علَّقه بالمشيئة، بعكس الرحمة لأنها من صفات الذات.

ويقال في قوله تعالى: ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ مجالٌ لآمالِ العُصَاة؛ لأنهم وإن لم يكونوا من جملة المطيعين والعبادين والعارفين فهم ﴿شَىْءٍ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي سأوجبها لهم، فيجب الثواب للمؤمنين من الله ولا يجب لأحدٍ شيء على الله إذ لا يجب عليه شيءٌ لعزِّه في ذاته.

قوله ها هنا: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي يجتنبون أنْ يروا الرحمة باستحقاقهم، فإذا اتقوا هذه الظنون، وتيقنوا أن أحكامه ليست معللةً بأكسابهم ـ استوجبوا الرحمة، ويحكم بها لهم.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي بما يكاشفهم به الأنظار مما يقفون عليه بوجوه الاستدلال، وبما يلاطفهم به في الأسرار مما يجدونهِ في أنفسهم من فنون الأحوال.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ﴾.

أظهر شرفَ المصطفى ـ ﷺ ـ بقوله: ﴿ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ أي أنه لم يكن شيء من فضائله وكمال علمه وتهيؤه إلى تفصيل شرعه مِنْ قِبَلِ نفسِه، أو من تعلُّمه وتكلُّفه، أو من اجتهاده وتصرُّفه.. بل ظهر عليه كلُّ ما ظهر مِنْ قِبَله ـ سبحانه ـ فقد كان هو أميّاً غير قارىءٍ للكتب، ولا مُتتبِّع للسِّيَر.

ثم قال: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾: والمعروف هو القيام بحق الله، والمنكر هو البقاء بوصف الحظوظ وأحكام الهوى، والتعريج في أوطان المُنَى، وما تصوِّره للعبد تزويراتُ الدعوى. والفاصلُ بين الجسمين، والمميزُ بين القسمين ـ الشريعةُ، فالحَسَنُ من أفعال العباد ما كان بنعت الإذن من مالك الأعيان فلَهُم ذلك، والقبيح ما كان موافقاً لِلنَّهْي والزجرِ فليس لهم فعل ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

الإصرُ الثُّقلُ، ولا شيءَ أثقلُ من كَدِّ التدبير، فَمَنْ ترك كد التدبير إلى روْح شهود التقدير، فقد وُضِع عنه كلُّ إصر، وكُفِيَ كُلَّ وِزر وأمر.

والأغلالُ التي كانت عليهم هي ما ابتدعوه مِنْ قبَلِ أنفسهم باختيارهم في التزام طاعات الله ما لم يُفْتَرضْ عليهم، فوُكِلُوا إلى حَوْلِهِمْ ومُنَّتِهم فيها؛ فأهملوها، ونقضوا عهودهم.

ومَنْ لَقِيَ ـ بخصائص الرضا ـ ما تجري به المقادير، وشَهِدَ الحقَّ في أجناس الأحداث، فقد خُصَّ بكل نعمة وفضل.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

اعترف لهم بنصرة الرسول ـ ﷺ ـ وإلا فالنبي ﷺ كان الله حسيبه، ومَنْ كان استقلاله بالحق لم يقف انتعاشه على نصرة الخلْق.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

صَرِّحْ بما رقَّيْناكَ إليه من المقام، وأفصِحْ عما لقيناك به من الإكرام، قُلْ إني إلى جماعتكم مُرسلٌ، وعلى كافتكم مُفضَّل، وديني ـ لِمَنْ نظر واعتبر، وفكَّر وسَبَرَ ـ مُفَصَّل. فإلهي الذي لا شريكَ له ينازعه، ولا شبيهَ يُضَارِعه له حقُّ التصرف في مُلْكِه بما يريد من حكمه. ومن جملة ما حكم وقضى، ونفذ به التقدير وأَمْضى ـ إرسالي إليكم لتطيعوه فيما يأمركم، وتحذوروا من ارتكاب ما يزجركم. وإِنَّ مما أَمَرَكُم به أنه قال لكم: آمِنوا بالنبي الأمِّي، واتبعوه لتُفْلِحوا في الدنيا والعقبى، وتستوجبوا الزُّلفى والحسنى، وتتخلصوا من البلوى والهوى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾.

هم الذين سبقت لهم العناية، وصدقت فيهم الولاية فبقوا على الحق من غير تحريف ولا تحويل، وأدركتهم الرحمةُ السابقةُ، فلم تتطرق إليهم مفاجأة تغيير، ولا خفيُّ تبديل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

فَرَّقهم أصنافاً، وجعلهم في التحزب أخيافاً، ثم كفاهم ما أَهَمهُم، وأعطاهم ما لم يكن لهم بُدٌّ منه فيما نابَهم؛ فظللنا عليهم ما وقاهم أذى الحرّ والبرد، وأنزلنا عليهم المَنَّ والسلْوى مما نفى عنهم تعبَ الجوعِ والجهد والسعي والكد، وفجَّرنا لهم العيونَ عند النزول حتى كانوا يشاهدونهم عياناً، وألقينا بقلوبهم من البراهين ما أوجب لهم قوة اليقين، ولكن ليست العِبْرةُ بأفعال الخَلْقِ ولا بأعمالهم إنما المدارُ على مشيئة الحق، سبحانه وتعالى فيما يُمضِي عليهم من فنون أحوالهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

يخبر عما ألزمهم من مراعاة الحدود، وما حصل منهم من نقض العهود. وعما ألزمهم من التكليف، ولقَّاهم به من صنوف التعريف، وإكرامه من شاء منهم بالتوفيق والتصديق، وإذلاله من شاء منهم بالخذلان وحرمان التحقيق، ثم ما عاقبهم به من فنون البلاء فما لقوا تعريفاً، وأذاقهم من سوء الجزاء، حُكْماً ـ من الله ـ حتما، وقضاء جزماً.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾.

جاء في التفسير أنهم زادوا حرفاً في الكلمة التي قيلت لهم فقالوا: حنطة بدل «حِطَّة» فلقوا من البلاء ما لقوا تعريفاً أن الزيادةَ في الدِّين، والابتداعَ في الشرع عظيمُ الخَطَرِ، ومجاوزةُ حدِّ الأمر شديدُ الضرر.

ويقال إذا كان تغييرُ كلمةٍ هي عبارة عن التوبة يوجب كل ذلك العذاب ـ فما الظنُّ بتغيير ما هو خبرٌ عن صفات المعبود؟

ويقال إنَّ القولَ أَنْقَصُ من العمل بكلِّ وجهٍ ـ فإذا كان التغيير في القول يُوجِبُ كلَّ هذا.. فكيف بالتبديل والتغيير في الفعل؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾.

كان دينهم الأخذ بالتأويل، وذلك رَوَغانٌ[1] ـ في التحقيق، وإن الحقائق تأبى إلا الصدق، وإنَّ التعريج في أوطان الحظوظ والجنوحَ إلى محتملات الرُّخَص فسْخٌ

---

(١) رواغه: خادعه، وصارعه.

لأكيد مواثيق الحقيقة، ومن شاب شوِّبَ له، ومن صَفَّى صفي له.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

الحقائق ـ وإن كانت لازمة ـ فليست للعبد عند لوازم الشرع عاذِرةً بل الوجوبُ يُفْتَرَضُ شرعاً، وإن كان التقدير غالباً بكل وجه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

إذا تمادى العبد في تَهتُّكِه، ولم يُبالِ بطول الإمهال والسَّتْر لم تُهْمِلْ يدُ التقرير عن استئصال العين، ومحو الأثر، وسرعة الحساب، وتعجيل العذاب الأدنى قبل هجوم الأكبر. ثم البرءُ في فضاء السلامة، وتحت ظِلّ الحفظ، ودوام رَوْح التخصيص وبَرْدِ عيش التقريب.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾.

إذا انتهت مدةُ الإمهال فليس بعده إلا حقيقة الاستئصال، وإذا سقط العبدُ من عين الله لم ينتعشْ بعده أبداً، فمن أسقطه حكمُ الملوك فلا قبول له بعد الردّ، وفي معناه أنشدوا:

إذا انصرفتْ نفسي عن الشيء لم تكَدْ ... إليـه بـوجـهٍ آخرَ الـدهـرِ تُـقْـبِـلُ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

إذا الحقُّ ـ سبحانه ـ أمضى سُنَتَه بالإنذار وتقديم التعريف بما يستحقه كلُّ أحد على ما يحصل منه من الآثار إبداءً للعذر ـ وإنْ جلت رتبته عن كل عذر ـ فإنْ يَنْجَعْ فيهم القولُ وإلا دَمَّرَ عليهم بالعذاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

أجراهم على ما علم أنهم يكونون عليه من صلاح وسداد، ومَعَاصٍ وفساد. ثم ابتلاهم بفنون الأفعال من محنٍ أزاحها، ومن مِنَنٍ أتاحها، وطالبهم بالشكر على ما أسدى، والصبرِ على ما أبلى، ليظهر للملائكة والخلائق أجمعين جواهرَهم في الخلاف والوفاق، والإخلاص والنفاق؛ فأمَّا الحسناتُ فهي ما يُشْهِدهم المُجْرِي، ولا يُلْهِيهم عن المُبْدي، وأمَّا السيئاتُ فالتردد بين الإنجاز والتأخير، والإباحة والتقصير.

ويقال الحسنة أن يُنسِيَك نفسك، والسيئةُ أَنْ يُشْهِدَكَ نفسك.

ويقال الحسنات بتيسير وقتٍ عن الغفلات خالٍ، وتسهيل يومٍ عن الآفات بائن. والسيئاتُ التي ابتلاهم بها خذلانٌ حاصل وحرمانٌ متواصل.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾.

استوجبوا الذم بقوله ـ سبحانه: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ﴾ لأنهم آثروا العَرَض الأدنى، وركنوا إلى عاجل الدنيا، وجعلوا نصيبهم من الآخرة المنى فقالوا: ﴿سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾.

ويقال من أمارات الاستدراج ارتكابُ الزلة، والاغترارُ بزمان المُهْلة، وحَمْلُ تأخيرِ العقوبة على استحقاق الوصلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ﴾.

أخبر عن إصرارهم على الاغترار بالمنى، وإيثار متابعة الهوى.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا﴾.

استفهام في معنى التقرير، أي أُمِروا ألا يَصِفُوا الحقَّ إلا بنعت الجلال، واستحقاق صفات الكمال، وألا يتحاكموا عليه بما لم يأتِ منه خبر، ولم يشهد بصحته برهانٌ ولا نظر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

يعني تحققوا بمضمون الكتاب ثم جحدوا بعد لوح البيان وظهور البرهان. يعني التعرضُ لنفحات فضله ـ سبحانه ـ خيرٌ لمن أَمَّلَ جودَه من مقاساة التعب ممن بَذَلَ ـ في تحصيل هواه ـ مجهودَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

يمسكون بالكتاب إيماناً، وأقاموا الصلاة إحساناً، فبالإيمان وجدوا الأَمَان، وبالإحسان وجدوا الرضوان؛ فالأَمانُ مُعَجَّل والرضوان مؤجل. ويقال **﴿يمسكون بالكتاب﴾** سبب النجاة، وإقامة الصلاة تحقق المناجاة. فالنجاة في المآل والمناجاة في الحال.

ويقال أفرد الصلاة ها هنا بالذكر عن جملة الطاعات ليُعْلَمَ أنها أفضل العبادات بعد معرفة الذات والصفات.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾.

مَنْ أَمَّلَ سببَ إنعامنا لم تَخسِرْ له صفقة، ولم تخْفِق له في الرجاء رفقة، ويقال من نقل (. . .)[١] إلى بابه قَدَمَه لم يَعْدم في الآجل نِعمَهَ، ومَنْ رَفَعَ إلى ساحاتِ جوده هِمَمَه نالَ في الحالِ كرمه.

ويقال مَنْ تَوَصَّلَ إليه بجوده نال في الدارين شَرَفَه. ومن اكتفى بجوده كان اللَّهُ عنه خَلَفَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

ليس من يأتي طوعاً كمن يأتي جَبْراً، فإن الذي يأتي قهراً لا يعرف للحق ـ سبحانه ـ قدراً، وفي معناه أنشدوا:

إذا كان لا يرضيك إلا شفاعة ... فلا خير في ود يكون لشافعِ

وأنشدوا:

إذا أنا عاتبتُ الملولَ فإنَّما ... أَخُطُّ بأقلامي على الماء أَحْرُفَا

وَهَبْهُ ارْعَوَى بعد العتاب ... ألم يكن توده طبعاً، فصار تكلُّفا؟

ويقال قصارى من أتى خيراً أن ينكص على عقبيه طوعاً، كذلك لمَّا قابلوا الكتاب بالإجبار ما لبثوا حتى قابلوه بالتحريف.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

أخبر بهذه الآية عن سابق عهده، وصادق وعده، وتأكيد عناج[٢] ودِّه، بتعريف عبده، وفي معناه أنشدوا:

سُقياً لليلَى والليالي التي ... كُنَّا بَلَيلَى نلتقي فيها

أفديكِ بل أيامُ دهري كلها ... يفدين أياماً عَرَفْتُكِ فيها

ويقال فأجابهم بتحقيق العرفان قبل أن يقع لمخلوق عليهم بَصَرٌ، أو ظهر في قلوبهم لمصنوع أَثَرٌ، أو كان لهم من حميمٍ أو قريب أو صديق أو شفيق خبر، وفي معناه أنشدوا:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى ... وصَادَفَ قلبي فارغاً فتمكَّنا

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) العِنَاج: خيط أو سَير يُشَدّ في أسفل الدلو ثم يُشد في عروتها أو عرقوتها (اللسان ٢/ ٣٣٠).

ويقال جمعهم في الخطاب ولكنه فرَّقهم في الحال. وطائفةٌ خاطبهم بوصف القربة فعرَّفهم في نفس ما خاطبهم، وفِرْقةٌ أبقاهم في أوطان الغيبة فأقصاهم عن نعت العرفان وحجبهم.

ويقال أقوام لاطَفَهم في عين ما كاشَفَهم فأقروا بنعت التوحيد، وآخرون أبعدهم في نفس ما أشهدهم فأقروا عن رأس الجحود.

ويقال وَسَمَ بالجهل قوماً فألزمهم بالإشهاد بيان الحجة فأكرمهم بالتوحيد، وآخرين أشهدهم واضِحَ الحجة (. . .)[1].

ويقال تجلَّى لقوم فتولَّى تعريفهم فقالوا: «بلى» عن حاصل يقين، وتَعَزَّزَ عن آخرين فأثبتهم في أوطانَ الجحد فقالوا: «بلى» عن ظنٍ وتخمين.

ويقال جمع المؤمنين في الأسماء ولكن غاير بينهم في الرتب؛ فَجَذبَ قلوبَ قوم إلى الإقرار بما أطمعها فيه من المبَارّ، وأنطق آخرين بصدق الإقرار بما أشهدهم من العيان وكاشفهم به من الأسرار.

ويقا فرقةٌ ردَّهم إلى الهيبة فهاموا، وفِرْقَةٌ لاطفَهم بالقربة فاستقاموا.

ويقال عرَّف الأولياء أنه مَنْ هو فتحققوا بتخليصهم، ولَبَّسَ على الأعداء فتوقفوا لحيرة عقولهم.

ويقال أسمعهم وفي نفس أحضرهم، ثم أخذهم عنهم فيما أحضرهم، رفَم عنهم فأنطقهم بحكم التعريف، وحفظ عليهم ـ بحسن التولي ـ أحكامَ التكليف وكان ـ سبحانه ـ لهم مُكَلِّفاً، وعلى ما أراده مُصَرِّفاً، وبما استخلصهم له مُعَرِّفاً، وبما رقاهم إليه مُشَرِّقاً.

ويقال كاشف قوماً ـ في حال الخطاب ـ بجماله فطوحهم في هيمان حبه، فاستمكنت محابُّهم في كوامن أسرارهم؛ فإذا سمعوا ـ اليومَ ـ سماعاً تجددت تلك الأحوال، فالانزعاجُ الذي يَظْهَرُ فيهم لِتَذَكُّرِ ما سَلَفَ لهم من العهد المتقدم.

ويقال أسمع قوماً بشاهد الربوبية فأصحاهم عن عين الاستشهاد فأجابوا عن عين التحقيق، وأسمع آخرين بشاهد الربوبية فمحاهم عن التحصيل فأجابوا بوصف الجحود.

ويقال أظهر آثارَ العناية بدءاً حين اختصَّ بالأنوار التي رشت عليهم قوماً، فَمَنْ حَرَمَه تلك الأنوار لم يجعله أهلاً للوصلة، ومَنْ أصابته تلك الأنوارُ أَفْصَحَ بما خُصَّ به من غير مقاساة كَلَفَة.

---

(١) بياض في الأصل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

إذا سُدَّت عيونُ البصائر فما ينفع وضوح الحُجَّة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾.

الحقُّ ـ سبحانه ـ يظهر الأعداء في دار الخُلَّة ثم يردُّهم إلى سابق القسمة، ويُبْرِزُ الأولياء بنعتِ الخلاف والزَّلَّة، ثم يغلب عليهم مقسومات الوصلة.

ويقال أقامه في محل القربة، ثم أبرز له من مكامن المكر ما أعدَّ له من سابق التقدير؛ فأصبح والكلُّ دونه رتبة، وأمسى والكلب فوقه ـ مع خساسته.. وفي معناه أنشدوا:

فبينا بخيرٍ والدُّنى مطمئنة وأصبح يوماً ـ والزمان تقلَّبا

ويقال ليست العِبْرَةُ بما يلوح في الحال، إنما العبرة بما يؤول إليه في المآل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾.

لو ساعدته المشيئة بالسعادة الأزلية لم تَلْحَقْه الشقاوةُ الأبدية، ولكن من قصمته السوابق لم تنعشه اللواحق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾.

إذا كانت مساكنةُ آدم للجنّةِ وَطمَعُه في الخلود فيها أوجبا خروجَه عنها، فالركونُ إلى الدنيا ـ متى يوجِب البقاءَ فيها؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾.

موافقة الهوى تُنْزِلُ صاحبَها من سماءِ العِزّ إلى تراب الذُّل، وتلقيه في وهدة الهوان؛ ومن لم يُصَدِّقِ عِلْماً فعن قريبٍ يقاسيه وجوداً.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾.

من أخلاق الكلب التعرُّضُ لِمَنْ لم يُخِفْه على جهة الابتداء، ثم الرضاء عنه بلقمة.. كذلك الذي ارتدَّ عن طريق الإرادة يصير ضيق الصدر، سيئ الخُلُق، يبدأ بالجفاء كُلَّ بريءٍ، ثم يهدأ طياشه بنَيْل كُلِّ عَرَضٍ خسيس.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

المحجوب عن الحقيقة عنده الإساءةُ والإحسانُ (سيان)[1]، فهو في الحالين:

---

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

إمَّا صاحب ضَجَر أو صاحب بَطَر؛ لا يحمل المحنة إلا زوال الدولة، ولا يقابل النعمة إلا بالنهمة، فهو في الحالين محجوبٌ عن الحقيقة.

ويقال الكلب نجاسته أصلية، وخساسته كلية، كذلك المردوده في الصفة؛ له نقصان القيمة وحرمان القسمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾.

أي صفته أدنى من نعتى من بُلِيَ بالإعراضِ الأزليّ، وأيُّ نعتٍ أعلى من وصف مَنْ أُكرِمَ بالقبول الأبديّ؟ وأيُّ حيلةٍ تنفع مع مَنْ يخلق الحيلة؟ وكيف تَصِحُّ الوسيلةُ إلا لمن منه الوسيلة؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾.

ليست الهدايةُ من حيث السعايةَ، إنما الهداية من حيث البداية، وليست الهداية بفكر العبد ونَظَرِه، إنما الهداية بفضل الحق وجميل ذكره.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ﴾.

مَنْ خَلَقه لجهنم ـ متى يستوجب الجنَّاتِ؟

ومَنْ أَهَّلَه للسخطة ـ أنَّى يستحق الرضوان؟

ولولا انسداد البصائر وإلا فأيُّ إشكالٍ بقي بعد هذا الإيضاح؟

ويقال هم ـ اليومَ ـ في حجيم الجحود، مُقَرَّنين في أصفاد الخذلان، مُلْبَسِين ثياب الحرمان، صعامُهم ضريع الوحشة، وشرابهم خميم الفرقة، وغداً هُمْ في جحيم الحرقة كما فَصَّلَ في الكتاب شرعَ تلك الحالة.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾.

أي لا يفقهون معاني الخطاب كما يفهم المُحَدَّثون، وليس لهم تمييز بين خواطر الحق وبين هواجس النفس ووساوس الشيطان، ولهم أعينٌ لا يُبْصِرون بها شواهدَ التوحيد وعلاماتِ اليقين؛ فلا ينظرون إلا من حيث الغفلة، ولا يسمعون إلا دواعي الفتنة، ولا ينخرطون إلا مع من سلك ركوب الشهوة.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ﴾: لأنَّ الأنْعَامَ قد رُفِعَ عنها التكليفُ، وإن لم يكن لها وِفاقُ الشرع فليس منها أيضاً خلاف الأمر.

والأنعامُ لا يَهُمُّها إلا الاعتلاف، وما تدعو الحيلة من مباشرة الجنس، فكذلك مَنْ أُقيم بشواهد نفسه وكان من المربوطين بأحكام النَّفْس، وفي معناه أنشدوا:

نهارك يا مغرورُ سَهْوٌ وغفلةٌ وليلك نومٌ والرَّدى لك لازِمٌ

وسعيك فيها سوف تكره غِبَّه كذلك في الدنيا تعيش البهائمُ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

سبحان مَنْ تعرَّف إلى أوليائه بنعوته وأسمائه فعرَّفهم أنه مَنْ هو، وبأي وصفٍ هو، وما الواجب في وصفه، وما الجائز في نعته، وما الممتنع في حقِّه وحكمه؛ فتجلى لقلوبهم بما يكاشفهم به من أسمائه وصفاته، فإن العقولَ محجوبةٌ عن الهجوم بذواتها بِمَا يَصِحُّ إطلاقُه في وصفه، وإنْ كانت واقفةً على الواجب والجائز والممتنع في ذاته، فللعقل العرفان بالجملة، وبالشرع الإطلاق والبيان في الإخبار، والقول فيما وَرَدَ به التوفيق يُطْلَق، وما سَكَتَ عنه التوفيق يُمْنَع. ويقال مَنْ كان الغالب عليه وصفٌ من صفاته ذَكَره بما يقتضي هذا الوصف؛ فمن كان مكاشَفاً بعَطائه، مربوطَ القلبِ بأفضاله فالغالبُ على قالته الثناء عليه بأنه الوهاب والبار والمُعْطِي وما جرى مجراه. ومن كان مجذوباً عن شهود الإنعام، مكاشفاً بنعت الرحمة فالذي يغلب على ذكره وصفه بأنه الرحمن والرحيم والكريم وما في معناه. ومَنْ سَمتْ هِمَّتُه عن شهود وجوده، واستهلك في حقائق وجوده فالغالب على لسانه الحق. ولذلك فأكثر أقوال العلماء في الإخبار عنه: «الباريء» لأنهم في الترقي في شهود الفعل إلى شهود الفاعل. وأمَّا أهل المعرفة فالغالب على لسانها «الحق» لأنهم مُخْتَطفُون عن شهود الآثار، متحققون بحقائق الوجود.

وقال إنَّ الله ـ سبحانه ـ وقف الخلْق بأسمائه فهم يذكرونها قالةً، وتعزَّزَ بذاته، والعقول ـ وإنْ صَفَتْ لا تهجم على حقائق الإشراف، إذ الإدراك لا يجوز على الحق؛ فالعقول عند بواده الحقائق متقنعة بنقاب الحيرة عند التعرض للإحاطة، والمعارف تائهة عند قصد الإشراف على حقيقة الذات، والأبصار حسيرةٌ عند طلب الإدراك في أحوال الرؤية، والحق سبحانه عزيز، وباستحقاق نعوت التعالي مُتَفَرِّد.

قوله: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: الإلحاد هو الميل عن القصد، وذلك على وجهين بالزيادة والنقصان؛ فأهل التمثيل زادوا فألحدوا، وأهل التعطيل نقصوا فألحدوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾.

أجرى الحقُّ ـ سبحانه ـ سُنَّته بألا يُخْلِيَ البسيطةَ من أهل لها هم الغياث وبهم دوام الحق في الظهور، وفي معناه قالوا:

إذا لم يكن قطبٌ فمن ذا يديرها؟

فهدايتهم بالحق أنهم يدعون إلى الحق، ويدلون على الحق، ويتحركون بالحق،

ويسكنون للحق بالحق، وهم قائمون بالحق؛ يصرفهم الحق بالحق أولئك هم غياث الخَلْق؛ بهم يُسْقَوْنَ إذا قحطوا، ويُمْطَرون إذا أجدبوا، ويُجَابُون إذا دَعَوْا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾.

الاستدراج أن يلقى في أوهامهم أنهم من أهل الوصلة، وفي الحقيقة: السابقُ لهم من القسمة حقائقُ الفُرقة.

ويقال الاستدراجُ انتشار الصيت بالخير في الخلْق، والانطواء على الشر ـ في السر ـ مع الحق.

ويقال الاستدراج ألا يزداد في المستقبل صحبةً إلا ازداد في الاستحقاق نقصان رتبة.

ويقال الاستدراج الرجوع من توهم صفاء الحال إلى ركوب قبيح الأعمال، ولو كان صادقاً في حاله لكان معصوماً في أعماله.

ويقال الاستدراج دعاوى عريضة صدرت عن معانٍ مريضة.

ويقال الاستدراج إفاضة البِرِّ مع (. . .)[1] الشكر.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

أو لم يتأملوا بأنوار البصائر ليشهدوا أخلاق آثار التقريب بجملة أحواله ـ عليه السلام ـ ليعلموا أن ذلك الشاهد ليس بشاهد متخرص.

ويقال إن برود الواسطة ـ صلوات الله عليه وعلى آله ـ كانت بنسيم القربة معطرة، ولكن لا يُدْرَكُ ذلك النَّشْرُ إلا بِشَمِّ العرفان، فمَنْ فَقَدَ ذلك ـ فأي خبر له عن حقيقة حاله ـ صلوات الله عليه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾.

أطلع الله ـ سبحانه ـ أقمار الآيات، وأماط عن ضيائها سحاب الشبهات؛ فَمَنْ استضاء بها ترّقى إلى شهود القدرة.

ويقال ألاح الله تعالى ـ لقلوب الناظرين بعيون الفكر ـ حقائقَ التحصيل؛ فَمَنْ لم يُعَرِّج في أوطان التقصير أَنْزَلَته مراكبُ السِّرِّ بساحات التحقق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾.

الناس في مغاليط آمالهم ناسون لو شيك آجالهم، فكم من ناسجٍ لأكفانه! وكم من بانٍ لأعدائه! وكم من زارعٍ لم يحصد زرعه!

---

(١) بياض في الأصل.

هيهات! الكبش يعتلف والقَصَّابُ مستَعِدٌ له!.

ويقال سرعة الأَجَل تُنَغِّص لذة الأمل.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

مَنْ حرمه أنوارَ التحقيق فهو في ضباب الجهل، فهو يَزِلُّ يميناً ويسقط شمالاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

السائلُ عن الساعةِ رجلان؛ مُنكِرٌ يتعجَّبُ لفَرْطِ جهله، وعارِفٌ مشتاقٌ يستعجل لِفَرْطِ شوقه، والمتحقق بوجوده ساكِنٌ في حاله؛ فسيان عنده قيام القيامة ودوام السلامة.

ويقال الحق ـ سبحانه ـ استأثر بعلم الساعة؛ فلم يُطلِعْ على وقتها نَبيًّا ولا صفيًّا، فالإيمان بها غيبيٌ، ويقين أهل التوحيد صادق عن شوائب الرِّيب. ثم مُعجَّل قيامتهم يُوجِبُ الإيمانَ بمؤجَّلها[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أَمَره بتصريح الإقرار بالتبري عن حوله ومُنَّتِهِ، وأن قيامه وأمرَه ونظامَه بطوْل ربِّه ومنّه؛ ولذلك تتجنَّسُ عليَّ الأحوال، وتختلف الأطوار؛ فَمِنْ عُسْرٍ يَمَسُّني، ومِنْ يسرٍ يخصني، ولو كان الأمر بمرادي، ولم يكن بِيدِ غيري قيادي لتشابهت أحوالي في اليسر، ولتشاكلت أوقاتي في البعد من العسر.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.

أخرج النَّسَمة من نَفْس واحدة وأخلاقهم مختلفة، وهممهم متباينة، كما أن الشخص من نطفة واحدة وأعضاؤه وأجزاؤه مختلفة. فَمَنْ قَدِرَ على تنويع النطفة المتشاكلة أجزاؤها فهو القادر على تنويع أخلاق الخَلْق الذين أخرجه من نَفْس واحدة.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص٣٧٨ قال القشيري في حديثه عن الوصية للمريدين: الناس إما أصحاب النقل والأثر، وإما أرباب العقل والفكر، وشيوخ هذه الطائفة ارتقوا عن هذه الجملة فالذي للناس غيب فهو لهم ظهور، والذي للخلق من المعارف مقصود، فلهم من الحق سبحانه موجود، فهم أهل الوصال، والناس أهل الاستدلال.

ردَّ المِثْل إلى المِثْل، وربط الشَّكلَ بالشكل، ليَعْلَمَ العالمون أن سكون الخلْق مع الحقّ لا إلى الحق، وكذلك أنسل الخلْق من الخلق لا من الحق، فالحقُّ تعالى قدوس؛ منه كل حظ للخلق خلقاً، منزه عن رجوع شيءٍ إلى حقيقته حقاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

شرُّ الناس من يبتهل إلى الله عند هجوم البلاء بخلوص الدعاء، وشدة التضرع والبكاء، فإذا أزيلت شكاتِه، ودُفِعت ـ بِمِنتَّهِ ـ آفاتُه ضيَّعَ الوفاء، ونَسِيَ البلاء، وقابل الرِّفْدَ بنقْضِ العهد وأبدل العقد برفض الود، أولئك الذين أبعدهم الله في سابق الحكم، وخرطهم في سِلْك أهل الرد.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

كما لا يجوز أن يكون الربُّ مخلوقاً لا يجوز أن يكون غير الرب خالقاً، فَمَنْ وَصَفَ الحقَّ بخصائص وصف الخلْق فقد أَلْحَدَ، ومَنْ نَعَتَ الخلْقَ بما هو من خصائص حق الحق فقد جحَدَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾.

مَنْ حَكَمَ بأنه ليس في مقدور الحق شيء لو فعله اسم الجاهل طوعاً إلا فعله فقد وصف بأنه لا يقدر على نصره فَمُضَاهٍ الذي يعبد الجماد ونعوذ بالله من الضلالة عن الرشاد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾.

المعبودُ هو القادر على هداية داعيه، وعِلْمُ العبد بقدرة معبوده يوجِبُ تَبَرِّيه عن حوْله وقوته، وإفرادَ الحق ـ سبحانه ـ بالقدرة على قضاء حاجته، وإزالة ضرورته فتتقاصر عن قعضدِ الخلْق خطاه، وتنقطع آماله عن غير مولاه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

إذا قُرِنَتْ الضرورةُ بالضرورة تضاعف البلاء، وترادف العناء؛ فالمخلوق إذا استعان بمخلوقٍ مثلِه ازداد بُعْدُ مرادِه عن النُّجح. وكيف تشكو لمن هو ذو شكاية؟! هيهات! إن ذلك خطأ من الظن، وباطل من الحسبان.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۗ﴾.

بيَّن بهذه الآيات أن الأصنام التي عبدوها دونَهم فيما اعتقدوا فيه صفة المدح، ثم لم يعبد بعضهم بعضاً، فكيف استجازوا عبادةَ ما فاقهم في النقص؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾.

صدق التوكل على الله يوجب ترك المبالاة بغير الله، كيف لا.. والمتفرِّدُ بالقدرة ـ على النفع والضرر، والخير والشر ـ اللَّهُ؟

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾.

مَنْ قام بحقِّ الله تولَّى أمورَه على وجه الكفاية، فلا يخرجه إلى مثاله، ولا يَدَعُ شيئاً من أحواله إلّا أجراه على ما يريده بِحُسْنِ أفضاله، فإن لم يفعل ما يريده جعل العبدَ راضياً بما يفعل، ورَوْحُ الرضا على الأسرار أتَمُّ من راحة العطاء عل القلوب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

شاهدوه بأبصارهم لكنهم حُجِبوا عن رؤيته ببصائر أسرارهم وقلوبهم فَلَمْ يُعْتَدَّ برؤيتهم.

ويقال رؤية الأكابر ليست بشهود أشخاصهم، لكن بما يحصل للقلوب من مكاشفات الغيب، وذلك على مقادير الاحترام وحصول الإيمان.

قوله جلّ ذكره: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾.

من خصائص سُنَّةِ الله في الكرم أنه أمر نبيَّه ـ صلوات الله عليه وعلى آله ـ بالأخذ به، إذ الخبر وَرَدَ بأنَّ المؤمن أخذ من الله خُلُقاً حسناً. وكلما كان الجُرْمُ أكبرَ كان العفو عنه أجرَّ وأكمل، وعلى قَدْرِ عِظَم رتبة العبد في الكرم يتوقف العفو عن الأصاغر والخدم، قال النبي ﷺ في الجراحات التي أصابته في حرب أحد[1]: «اللهم اغفِرْ لقومي فإنهم لا يعلمون»[2].

---

(١) أُحُد: اسم الجبل الذي كانت عنده غزوة أحد، بينه وبين المدينة قرابة ميل شمالها وعنده كانت الوقعة الفظيعة التي قُتل فيها حمزة عم النبي ﷺ وسبعون من المسلمين، وكسرت رباعية النبي ﷺ، وشج وجهه الشريف، وكُلِمت شفته، وكان يوم بلاء وتمحيص، وذلك لسنتين وتسعة أشهر وسبعة أيام من مهاجرة النبي ﷺ، وهو في سنة ثلاث. (معجم البلدان ١/ ١٠٩).

(٢) أخرجه البخاري في (الصحيح ٤/ ٢١٤)، وأحمد بن حنبل في (المسند ١/ ٤٤١)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ٦/ ١١٧)، والطبري في (التفسير ١/ ١٣)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٣/ ٤١٩)، والقرطبي في (التفسير ٤/ ١٩٩، ٨/ ٢٧٣، ١٤/ ١٥٦)، والقاضي عياض في (الشفا ١/ ٢٢٢)، والطحاوي في (مشكل الآثار ٣/ ١٨٩)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/ ٣١٣)،=

قوله ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾: أفضل العرف أن يكون أكمل العطاء لأكثر أهل الجفاء، وبذلك عامل الرسول ـ صلى الله عليه وعلى آله ـ الناسَ.

قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾: الإعراض عن الأغيار بالإقبال عن من لم يَزل ولا يزال، وفي ذلك النجاة من الحجاب، والتحقق بما يتقاصر عن شرحه الخطاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

إنْ سَنَح في باطنك من الوساوس أثرٌ فاستعِذْ بالله يدركك بحسن التوفيق، وإنْ هَجَسَ في صدرك من الحظوظ خاطر فاستعِذْ بالله يدركك بإزالة كل نصيب، وإنْ لَحِقَتْكَ في بذل الجهد فَترَةٌ فاستعذْ بالله يدركك بإدامة آلائه، وإنْ اعْتَرَتْكَ في الترقي إلى محل الوصول وقفةٌ فاستعِذْ بالله يدركك بإدامة التحقيق، وإنْ تقاصر عنك شيء من خصائص القرب ـ صيانةً عن شهود المحل ـ فاستعِذْ بالله يُثْبِتْك له بدلاً مِنْ لَكَ بِكَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾.

إنما يمس المتقين طيفُ الشيطانِ في ساعات غفلتهم عن ذكر الله، ولو أنهم استداموا ذكر الله بقلوبهم لما مسَّهم طائف الشيطان، فإن الشيطانَ لا يَقرَبُ قلباً في حال شهوده الله؛ لأنه ينخنس عند ذلك. ولكن لكل صارمٍ نبوة، ولكلِّ عالمٍ هفوة، ولكل عابدٍ شدة، ولكل قاصدٍ فترة، ولكل سائر وَقفة، ولكل عارفٍ حجبة، قال ﷺ: «إنه لَيُغَان على قلبي...»[(١)] أخبر أنه يعتريه ما يعتري غيرَه، وقال ﷺ: «الحِدَّةُ تعتري خيار أمتي»[(٢)]، فأخبر أنَّ الأمة ـ وإنْ جَلَّتْ رُتْبَتَهم لا

= ٣/ ٦٨ ـ ٢٨٣)، (مناهل الصفا ١٦)، والآجري في (الشريعة ٤٦٠)، والسيوطي في (الدر المنثور ٣/ ٩٥)، والطبراني في (المعجم الكبير ٦/ ١٤٦ ـ ٢٠١)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥/ ٥٤، ٧/ ٩٣ ـ ١٠٨ ـ ٣٦٠، ٨/ ٢٥٨)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٩٨٨٣ ـ ٣٥٥٦٣)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٩٧٩٩ ـ ٩٨٧٢) وابن حجر في (فتح الباري ٧/ ٣٧٣، ١٢/ ٢٨٢)، والبيهقي في (دلائل النبوة ٣/ ٢١٥).

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (الذكر ٤١)، وأبو داود في (السنن ١٥١٥)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٤/ ٢١١، ٢٦٠)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٧/ ٥٢)، والطبراني في (المعجم الكبير ١/ ٢٨٠)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٢٣٢٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥/ ٥٧، ٨/ ٢٩٩، ٥١٧، ٩/ ٥٩ ـ ٦٢٨)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٢/ ٤٣) (البغوي ٦/ ١٨٠)، والسيوطي (الدر المنثور ٦/ ٦٣)، والألباني في (فتح الباري ١١/ ١٠١)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٠٧).

(٢) أخرجه الطبراني في (المعجم الكبير ١١/ ١٩٤)، وأبو نعيم في (تاريخ أصفهان ٢/ ٧ ـ ٦١) والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٨٠١)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ١٣)، وابن حجر في=

يتخلصون عن حِدَّةٍ تعتريهم في بعض أحوالهم، فَتُخْرِجُهم عن دوام الحِلْم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾.

إخوانُ الشيطانِ أربابُ دوام الغيبة؛ فهم في كمال الغفلة تدوم بهم الحجبة؛ فمنهم بالزَّلَّة مَنْ لم يُلِمْ، أو أَلَّم ولكن لَم يُصِرّ فهم خِياره، ومنهم مَنْ غَفَلَ واغترَّ. وعلى دوام العيبة أَصَرَّ ـ فهم المحجوبون قطعاً، والمُبْعَدُون ـ عن محلِّ القربِ ـ صدًّا وردًّا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

مَنْ شَاهَدَ الحقَّ من حيث الخلْق سقط في مهواة المغاليط، فهو في متاهات الشَّكِّ يجوب منازلَ الرِّيب، ولا يزداد إلا عمىً على عمىً. ومَنْ طالَعَ الخَلْق بعين تصريف القدرة إياهم تحقق بأنهم لا يظهرون إلا في معرض اختيار الحق لهم، فهو ينظر بنور البصيرة، ويستديم شهود التصريف بوصف السكينة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

اسْتَمِعُوا بسمع الإيمان والتصديق، وأَنْصِتوا (بصون) الخواطر عن معارضات الاعتراض، ومطالباتِ الاستكشاف. ومن باشرَ التحقيقُ سِرَّه لازم التصديقُ قلبَه.

والإنصات ـ في الظاهر ـ من آداب أهل الباب، والإنصات ـ بالسرائر ـ من آداب أهل البِساط، قال الله تعالى في نعت تواصي الجنّ بعضهم لبعض عند شهود الرسول ﷺ ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾ [الأحقاف: ٢٩]؛ فإذا كان الحضور إلى الواسطة عليه السلام يوجب هذه الهيبة فلزومُ الهيبة وحفظُ الأدب عند حضور القلب بشهود الربِّ أولى وأَحق، قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾.

التضرعُ إذا كوشِفَ العبدُ بوصف الجمال في أوان البسط، والخيفة إذا كوشف بنعت الجلال في أحوال الهيبة، وهذا للأكابر.

= (المطالب العالية ٣٢٣١)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ٣٦٤)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٣٦٥ ـ ٤٢٢)، وابن عزاق في (تنزيه الشريعة ٢/ ٤٠٤)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٣/ ١١٤٨)، والفتني في (تذكرة الموضوعات ١٩٠)، وابن الجوزي في (العلل المتناهية ٢/ ٢٤٧)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ٧٤)، والألباني في (السلسلة الضعيفة ٢٦).

فأمّا مَنْ دونَهم فَتَنوُّعُ أحوالهم من حيث الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة. ومن فوق الجميع فأصحاب البقاء والفناءِ، والصحو والمحو ووراءهم أرباب الحقائق مُثْبَتُون في أوطان التمكين، فلا تَلَوُّنَ لهم ولا تجنُّسَ لقيامهِم بالحق، وامتحائهم عن شواهدهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾.

أثبت لهم عندية الكرامة، وحفظ عليهم أحكام العبودية لئلا ينفك حال جمعهم عن نعت فرقهم، وهذه سُنَّة الله تعالى مع خواصِ عباده؛ يلقاهم بخصائص عين الجمع ويحفظ عليهم حقائق عين الفَرْق لئلا يُخِلُّوا بآداب العبودية في أوان وجود الحقيقة.

السورة التي تذكر فيها الأنفال

قال الله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله إخبار عن قدرته على الإبداع والاختراع، الرحمن الرحيم إخبار عن تصرفه بالإقناع وحُسْنِ الدِّفاع؛ فبقدرته أوجد ما أوجد من مراده، وبنصرته وَحَّد مَنْ وحَّد.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

الأنفال ها هنا ما آل إلى المسلمين من أموال المشركين، وكان سؤالهم عن حكمها، فقال الله تعالى: قُلْ لهم إنها للّهِ مِلْكاً، ولرسوله ـ عليه السلام ـ الحُكْمُ فيها بما يقضي به أمراً وشرعاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾.

أي أجيبوا لأمر الله، ولا تطيعوا دَوَاعِيَ مناكم والحكمَ بمقتضى أحوالكم، وابتغوا إيثارَ رضاء الحقّ على مراد النّفْس، وأصلحوا ذات بَيْنِكم، وذلك بالانسلاخ عن شُحّ النّفْس، وإيثار حقّ الغير على مَالَكُم من النصيب والحظّ، وتنقية القلوب عن خفايا الحَسَد والحقد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

أي في الإجابة إلى ما يأتيكم من الإرشاد.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أي سبيلُ المؤمنِ ألا يخالِفَ هذه الجملة.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

الوَجَل شِدَّة الخوف، ومعناه ها هنا أن يُخْرِجَهم الوَجَلُ عن أوطان الغفلة، ويزعجهم عن مساكن الغيبة. فإذا انفصلوا عن أوْدية التفرقة وفاؤوا إلى مَشَاهِدِ الذكر

نالوا السكون إلى الله ـ عز وجل؛ فيزيدُهم ما يُتْلَى عليهم من آياته تصديقاً على تصديق، وتحقيقاً على تحقيق. فإذا طالعوا جلال قَدْرِهِ، وأيقنوا قصورَهم عن إدراكه، توكلوا عليه في إمدادهم بالرعاية في نهايتهم، كما استخلصهم بالعناية في بدايتهم.

ويقال سُنَّة الحقّ ـ سبحانه مع أهل العرفان أن يُرَدِّدَهم بين كَشْفِ جلالٍ ولُطْف جمال، فإذا كاشفهم بجلاله وَجِلَتْ قلوبُهم، وإذا لاطفهم بجماله سَكَنَتْ قلوبهم، قال الله تعالى: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨]. ويقال وجلت قلوبهم بخوف فراقه، ثم تطمئن وتسكن أسرارهم بروْح وصاله. وذكر الفراق يُفْنيهم وذكر الوصال يُضحيهم ويُخييهم.

ويقال الطالبون في نَوْحِ رهبتهم، والواصلون في روْح قربتهم، والموحِّدون في محو غيبتهم؛ استولت عليهم الحقائق فلا لهم تطلع لوقتٍ مستأنف فيستفزهم خوف أو يجرفهم طمع، ولا لهم إحساس فَتَمْلِكُهم لذة؛ إذ لَّما اصْطُلِمُوا ببوادهِ ما مَلَكَهُمْ فَهُمْ عنهم مَحْوٌ، والغالبُ عليهم سواهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

لا يرضَوْن في أعمالهم بإخلال، ولا يتصفون بجمْع مال من غير حلال، ولا يُعَرِّجون في أوطان التقصير بحال، أولئك الذين صفتهم ألا يكون للشريعة عليهم نكير، ولا لهم عن أحكام الحقيقة مقيل.

﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي حققوا حقاً وصدقوا صدقاً. ويقال حق لهم ذلك حقاً.

قوله: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ على حسب ما أَهَّلَهُمْ له من الرُّتَبِ؛ فبِسَابقِ قِسْمَتِه لهم استوجبوها، ثم بصادقِ خِدْمَتِهِم ـ حين وفَّقَهم لها ـ بلغوها.

ولهم مغفرةٌ في المآل، والسَّتْرُ في الحال لأكابرهم، فالمغفرة الستر، والحق سبحانه يستر مثالِبَ العاصين ولا يفضحهم لئلا يحجبوا عن مأمول أفضالهم، ويستر مناقِبَ العارفين عليهم لئلا يُعْجَبُوا بأعمالهم وأحوالهم، وفَرْقٌ بين سَتْرٍ وَسَتْرٍ، وشَتَّان ما هما!

وأَمَّا الرزق الكريم فيتحمل أنه الذي يعطيه من حيث لا يُحْتَسَبُ، ويحتمل أنه الذي لا يَنقُصُ بإجرامهم، ويحتمل أنه ما لا يشغلهم بوجوده عن شهود الرزاق، ويحتمل أنه رزق الأسرار بما يكون استقلالها به من المكاشفات.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾.

بَيَّنَ ـ سبحانه ـ أن الجِدالَ منهم عادةٌ وسَجِيَّة، ففي كل شيء لهم جدال واختيار؛ فكرهُوا خروجَه إلى بَدْرٍ، كما جادلوا في حديث الغنيمة، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ وما يكون من خصال العبد غير متكرر ويكون على وجه الندرة كان أقربَ إلى الصفح عنه والتجاوز، فأمَّا إذا صار ذلك عادةً فهو أصعب.

ويقال ما لم تباشر خلاصةُ الإيمان القلبَ يوجد كمالُ التسليم وترك الاختيار، وما دام يتحركُ من العبد عِرْقٌ في الاختيار فهو بعيدٌ عن راحة الإيمان.

ولقد أجرى الله سُنَّتِه مع أنبيائه ألا يفتح لهم كمالَ النُّعْمى إلا بعد مفارقة مألوفات الأوطان، والتجرد عن مساكنة ما فيه حظ ونصيب مِنْ كل معهود.

ويقال إن في هجرة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ عن أوطانهم أماناً لهم من عادية الأعادي، وإحياءً لقلوب قوم تقاصرت أقْدامُهم عن المسير إليهم.

وكذلك هجرة الأولياء من خواصه؛ فيها لهم خلاصٌ من البلايا، واستخلاصٌ للكثيرين من البلايا.

قوله جلّ ذكره: ﴿يُجَـٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾.

جحودُ الحقّ بعد وضوح برهانه عَلَمٌ لاستكبار صاحبه، وهو ـ في الحال ـ في وحشة غَيِّه، مُعَاقَبٌ بالصَّد وتَنغُّص العَيْشِ، يَملُّ حياتَه ويتمنى وفاتَه؛ ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

التعريجُ في أوطان الكسل، ومساكنة مألوفات الراحة من خصائص أحكام النَّفس، فهي بطبعها تؤثِر في كل حالٍ نصيبَها، وتتعجل لذَّةَ حظِّها. ولا يصل أحدٌ إلى جلائل النِّعم إلا بتجرُّع كاسات الشدائد، والانسلاخ عن معهودات النصيب. ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ أي إذا أراد اللَّهُ ـ سبحانه ـ تخصيصَ عبدٍ بولايته قضى على طوارقِ نفسه بالأُفول، وحكم لبعض شهواته بالذبول، وإلى طوالع الحقائق بإشراقها، ولجامع الموانع باستحقاقها.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

ليحق الحقَّ بالتوفيق فيما يحصل ببذل المجهود، والتحقيق لما يظهر من عين الجود.

ويقال لِيُحِقَّ الحقّ بنشر أعلام الوصل، ويُبْطِلَ الباطلَ بقهر أقسام الهزل.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

الاستغاثة على حسب شهود الفاقة وعدم المنة والطاقة. والتحقق بانفراد الحق بالقدرة على إزالة الشكاة تيسيرٌ للمسؤول وتحقيق للمأمول. فإذا صدقت الاستغاثة بتعَجُل الإجابة حَصُلَتْ الآمالُ وقُضِيَتْ الحاجة.. بذلك جَرَتْ سُنَّتُه الكريمة.

ويقال بَشَرَّهم بالإمداد بالمَلَك، ثم رقَّاهم عن هذه الحالة بإشهادهم أن الإنجاز من المَلِكِ، ولم يَذرْهم في المساكنة إلى الإمداد بالمَلَك فقال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ فالنجاة من البلاء حاصلة، وفنون الإنجاز والإمداد بالطاقة متواصلة، والدعوات مسموعة، والإجابة غير ممنوعة، وزوائد الإحسان مُتَاحة، ولكن الله عزيز.

الطالبُ واجدٌ ولكن بعطائه، والراغب واصل ولكن إلى مبارّه. والسبيلُ سهلٌ ولكن إلى وجدان لطفه، فأمّا الحقُّ فهو عزيز وراء كل وصل وفصل، وقُرْبٍ وبُعْد، وما وَصَلَ أحدٌ إلا إلى نصيبه، وما بقي أحدٌ إلا عن حظه، وفي معناه أنشدوا:

وقُلْنَ لنا نحن الأهِلَّةُ إنما نضيءُ لمن يسري بليلٍ ولا نُقْرِي
فلا بَذْلَ إلا ما تزوَّدَ ناظرٌ ولا وصلَ إلا بالجمال الذي يسري

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾.

غَشيَهم النُّعاسُ تلك الليلة فأزال عن ظواهرهم ونفوسهم كَدَّ الأغيار والكلال، وأنزل على قلوبهم رَوْحَ الأمن، وأمطرت السماءُ فاغتسلوا بعدما لزمتهم الطهارة الكبرى بسب الاحتلام، واشتدت الأرض بالمطر فلم ترسب الأقدام في رَمْلِها، وانتفى عن قلوبهم ما كانت الشياطين توسوس به إليهم أنه سيصيبهم العناءُ بسلوك رَمْلِها وبالانتفاء عن الغُسْل، فلمّا (...)[1] الإحساسِ، واستمكن منهم النُّعاس، وتداركتهم الكفاية والنصرة استيقنوا بأن الإعانة من قِبَل الله لا بسكونهم وحركتهم، وأشهدهم صرف التأييد وإتمام الكفاية.

وكما طَهَّرَ ظواهرهم بماء المساء طهَّر سرائرهم بماء التحقيق عن شهود كلِّ غير وكلِّ عِلَّة، وصان أسرارهم عن الإصغاء إلى الوساوس، وربط على قلوبهم

(١) بياض في الأصل.

بشهودهم جريان التقدير على حسب ما يجري الحقُّ من فنون التصريف.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾.

أقدامَ الظاهر في مَشَاهِدِ القتال، وأقدامَ السرائر على نهج الاستقامة بشهود مجاري التقدير.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾.

عَرَّفَنَا أنَّ الملائكة محتاجون إلى تعريف الحق إياهم قضايا التوحيد. وتثبيتُ الملائكة للمؤمنين: قيل كانوا يَظْهَرُون للمسلمين في صور الرجال يخاطبونهم بالإخبار عن قلة عدد المشركين واستيلاء المسلمين عليهم، وهم لا يعرفون أنهم ملائكة.

وقيل تثبيتهم إياهم بأن كانوا يلقون في قلوبهم ذلك مِنْ جهة الخواطر، ثم إن الله يخلق لهم فيها ذلك، فكما يُوَصِّلُ الحق سبحانه ـ وساوسَ الشيطان إلى القلوب يوصل خواطرَ المَلَكِ، وأَيَّدَهم بإلقاء الخوف والرعب في قلوب الكفار.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

وذلك بأمر الله وتعريفه من جهة الوحي والكتاب، ويكون معناه إباحة ضربهم ونيلهم على أي وجه كان كيفما أصابوا أسافلهم وأعاليهم. ويحتمل فاضربوا فوق الأعناق ضرباً يوجِبُ قَتْلَهم؛ لأنه لا حياةَ بعد ضَرْبِ العُنُقِ. ولفظُ فوق يكون صلة.

﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي ضرباً يعجزهم عن الضرب ومقاتلة المسلمين؛ لأنه لا مقاتلة تحصل بعد فوات الأطراف.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بين أنهم في مغاليط حسبانهم وأكاذيب ظنونهم والمُنْشِيءُ ـ بكلِّ وجهِ ـ اللَّهُ؛ لانفراده بقدرة الإيجاد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

يُمْهِلُ المجرمَ أياماً ثم لا يهمله، بل يُذِيقه بأْسَ فِعله، ويزيل عنه شُبْهةَ ظنِّه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

ذلك العذاب فذوقوه ـ أيها المشركون ـ مُعَجَّلاً، واعلموا أن للكافرين عذاباً مُؤَجَّلاً، فللعاصين عقوبتان مُحَصَّلٌ بنقد ومؤخَّرٌ بوعد.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ

وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

يقول إذا لقيتم الكفار في المعركة زحفاً مجتمعين فأثبتوا لقتالهم، ولا تنهزموا فالشجاعة ثبات القلوب، وكما قيل الشجاعة صبر على الطاعة وفي الجهاد مع العدو، فالواجب الثبات عند الصولة ـ هذا في الظاهر، وفي الباطن جهاد مع الشيطان، والواجب فيه الوقوف عن دواعيه إلى الزَّلة؛ فَمَنْ وقف على حدِّ الإمساك عن إجابته، بلا إنجازٍ لما يدعوه بوساوسه فَقَدْ وفَّى الجهاد حقَّه.

وكذلك في مجاهدة النَّفس، فإذا وقف العبدُ عن إجابة النَّفْس فيما تدعوه بهواجسها، ولم يُطِعْ شهوتَه فيها تحمله النفسُ عليه من البلاء إلى ابتغاء حظِّه فقد وفَّى الجهادَ حقَّه.

والإشارة في قوله: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ بإيثار بعض الرُّخص ليتقوَّى على ما هو أشد؛ كأكله مثلاً ما يُقِيم صُلْبَه ليقوى على السَّهر، وكترفقه بنفسه بإيثار بعض الراحة من إزالة عطش، أو نفي مقاساة جوع أو بَرْدٍ أو غيره لئلا يبقى عن مراعاة قلبه، ولاستدامة اتصال قلبه به، فإنْ تَرَكَ بعضَ أورادِ الظاهر لئلا يبقى به عن الاستقامة في أحكام واردات السرائر أَخَذَ في حقِّ الجهاد بحزم.

والإشارة في قوله: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ إلى اعتضاد المريد بصحبة أقرانه فيما يساعدونه في المجاهدة، ويُبْقِي شهودُ ما هم فيه من المكابدة من إقامته على مجاهدته. ثم باستمداده من همم الشيوخ؛ فإن المريدَ ربيبُ هِمَّةِ شيخه، فالأقوياء من الأغنياء ينفقون على خَدَمِهم من نعمهم، والأصفياء من الأولياء ينفقون على مريديهم من هِمَمِهم، يجبرون كَسْرَهم، ويتوبون منهم، ويساعدونهم بحسن إرشادهم. ومَنْ أهمل مريداً وهو يعرف صِدْقه، أو خالَفَ شيخاً وهو يعرف فضلَه وحَقَّه فقد باءَ من الله بسخطٍ، واللَّهُ تعالى حسيبُه في مكافأته على ما حصل من قبيح وصفه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾.

الذي نَفَى عنهم من القتل، هو إماتة الروح وإثبات الموت، وهو من خصائص قدرته ـ سبحانه، والذي يُوصَفُ به الخلق من القتل هو ما يفعلونه في أنفسهم، ويحصل ذهاب الروح عقيبه.

وفائدة الآية قطع دعاواهم في قول كل واحد على جهة التفاخر قتلتُ فلاناً، فقال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ أي لم تكن أفعالكم مما انفردتم بإيجادها بل المنشىء والمبدىء هو الله عزَّ وجل. وصَانَهم بهذه الآية وصان نَبِيَّه ـ عليه السلام ـ عن ملاحظة أفعالهم وأحوالهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

أي ما رَمَيْتَ بنفسك ولكنك رميْت بنا، فكان منه (صلوات الله عليه)[1] قبضُ التراب وإرساله من يده ولكن من حيث الكسب، وكَسْبُهُ مُوجَدٌ من الله بقدرته، وكان التبليغ والإصابة مِن قِبَل الله خَلْقاً وإبداعاً، وليس الذي أثبت ما نفي ولا نفي ما أثبت إلا هو، والفعلُ فِعْلٌ واحدٍ ولكن التغاير في جهة الفعل لا في عينه.

فقوله: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ فَرْقٌ، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ جمع. والفرق صفة العبودية، والجمع نعت الربوبية، وكلُّ فرقٍ لم يكن مُضَمَّناً بجمعٍ وكلُّ جمع لم يكن - في صفة العبد - مُؤَيَّداً بفرق فصاحبُه غير سديد الوتيرة.

وإن الحقَّ - سبحانه - يَكِلُ الأغيار إلى ظنونهم، فيتيهون في أودية الحسبان ويتوهمون أنهم منفردون بإجراءِ ما منهم، وذلك منه مكرٌ بهم.

قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] وأما أرباب التوحيد فَيُشْهِدهم مطالِعَ التقدير، ويعرِّفهم جريان الحُكمْ، ويُريهم أَنْفُسَهم في أَسْرِ التصريف، وقهر الحكمْ. وأمَّا الخواص من الأولياء وأصحاب العرفان فيُجري عليهم ما يُجْرِي و (ما) لهم إحساس بذلك، مأخوذون يثبتهم بشواهد النظر والتقدير، ويتولَّى حفظهم عن مخالفة الشرع.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾.

البلاء الاختبار، فيختبرهم مرة بالنعم ليظهر شكرهم أو كفرانهم، ويختبرهم أخرى بالمحن ليظهر صبرهم، أو ذِكْرَهم أو نسيانهم.

«البلاء الحسن»: توفيق الشكر في المِنْحة، وتحقيق الصبر في المحبة، وكل ما يفعله الحقُّ فهو حَسَنٌ من الحقِّ لأنَّ له أَنْ يفعلَه. وهذه حقيقة الحَسَن: وهو ما للفاعل أن يفعله.

ويقال حَسُنَ البلاءُ لأنه منه و (. . .)[2] البلاء لأنه فيه.

ويقال البلاء الحسن أن تَشْهَدَ المُبْلِي في عين البلاء.

ويقال البلاء الحسن ما لا دعوى لصاحبه إنْ كان نعمة، ولا شكوى إن كان محنة.

ويقال البلاء الحسن ما ليس فيه ضجر إنْ كان عُسْراً، ولا بطر إن كان يسراً.

ويقال بلاءُ كلِّ أحدٍ على حسبِ حاله ومقامه؛ فأصفاهم ولاءً، قال عليه

---

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق. (٢) بياض في الأصل.

السلام: «أشدُّ الناس بلاءً الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل»[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

تنفيسٌ لقومٍ وتهديدٌ لقومٍ؛ أصحابُ الرِّفق يقول لهم إن الله «سميعٌ» لأنينكم؛ فَيُرَوِّح عليهم بهذا، وَقْتَهم، ويحمل عنهم ولاءهم، وأنشدوا:

إذا ما تمنَّى الناسُ رَوْحاً وراحةً ... تمنيتُ أَنْ أشكو إليك فتسمعا

وقالوا:

قُلْ لي بألسنةِ التَّنفُّس ... كيفَ أنتَ وكيفَ حالُك؟

وأمَّا الأكابر فلا يُؤْذَنُ لهم في التَّنفُّس، وتكون المطالبةُ متوجِّهةً عليهم بالصبر، والوقوف تحت جريان التقدير من غير إظهارٍ ولا شكوى، فيقول: لو ترشح منك ما كُلِّفْتَ بِشُرْبِه تَوَجَّهَتْ عليك الملامةُ، فإن لم يكن منك بيانٌ فإنِّي لقالتك، عليمٌ بحالتك.

ويقال في قوله «عليم» تسلية لأرباب البلاء؛ لأنَّ من عَلِم أنَّ مقصودَه يعلم حالَه سَهُل عليه ما يقاسيه فيه، قال ـ سبحانه ـ لنبيِّه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧].

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

موهن كيدهم: بتقوية قلوب المؤمنين بنور اليقين، والثبات على انتظار الفضل من قِبَلِ الله، وموهن كيدهم: بأن يأخذَ الكافرين من حيث لا يشعرون، ويظفر جندُ المسلمين عليهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾.

قال المشركون ـ يوم بدر[٢] ـ اللهم انصرْ أَحَبَّ الفِئتين إليك، فاستجابَ دعاءَهم ونصر أحبَّ الفئتين إليه.. وهم المسلمون، فسألوا بألسنتهم هلاكَ أنفسِهم، وذلك لانجرارهم في مغاليط ما يُعَلِّقون من ظنونهم، فهم توهَّموا استحقاق القربة، وكانوا في عين الفرقة وحُكْم الشِّقْوَةِ، موسومين باستيجاب اللعنة بدعائهم، والوقوع في شقائهم؛ فاختيارهم مُنُوا ببوارِهم.

---

(١) أخرجه المتقي الهندي في (كنز العمال ٣٢٥٣ ـ ٣٢٥٥ ـ ٦٧٨٣)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥/ ١١٦، ٨/ ١٢١، ٥٦٠، ٩/ ٥٢٣).

(٢) بدر: ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء بينه وبين الجار، وهو ساحل البحر، وبهذا الماء كانت الوقعة المشهورة التي أظهر الله بها الإسلام وفرق بين الحق والباطل في شهر رمضان سنة اثنتين للهجرة. (معجم البلدان ١/ ٣٥٧، ٣٥٨).

ويقال ظنوا أنهم من أهل الرحمة فَزَلُّوا، فلما كُشِفَ السترُ خابوا وذَلُّوا، فعند ذلك علموا أنهم زاغوا في ظنهم وضلوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

فيغفر لكم ما قد سَلَفَ من خلاف محمد ﷺ.

﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ليس المراد منه المبالغة؛ لأنه يقال هذا خير لك من هذا إذا كان الثاني ليس في شر، وترك موافقتهم للرسول ﷺ ـ بكل وجهٍ ـ هو شرٌّ لهم، ولكنه أراد به في الأحوال الدنيوية، وعلى موجب ظنِّهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ﴾.

يعني إنْ عُدتُم إلى الجميل من السيرة عُدْنا عليكم بجميل المِنَّة، وإنْ عاودتم الإقدام على الشَّرِّ أَعَدْنا عليكم ما أذقناكم من الضُّرِّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

مَنْ غَلَبَتْه قدْرُة الأحد لم تغْنِ عنه كثرة العدد.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

الناس في طاعة الله على أقسام: فمطيعٌ لخوفِ عقوبتِه، ومطيعٌ طمعاً في مثوبته، وآخر تحققاً بعبوديته، وآخر تشرفاً بربوبيته.

وكم بين مطيعٍ ومطيعٍ! وأنشدوا:

أحبك يا شمسَ النهارِ وبدْرَه ... وإنْ لامني فيك السُّها والفراقد[1]

وذاك لأنَّ الفضلَ عندك زاخِرٌ ... وذاك لأنَّ العَيْشَ عندك بارِدُ

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ولم يقل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، وفي ذلك نوع تخصيص، وحزب تفضيل يَلْطُفُ عن العبارة ويَبْعُد عن الإشارة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾.

أي تسمعون دعاءه إياكم، وتسمعون ما أُنْزِلَ عليه من دعائي إياكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

لا تكونوا ممن يشهد جهراً، ويجحد سِرًّا.

ويقال لا تُقِرُّوا بلسانكم، وتصِرُّوا على كفرانكم.

---

(١) السُّها: نجم خفي الضوء ملاصق للنجم الأوسط من الذيل في بنات نعش الكبرى.
الفرقد: اسم لنجمين من نجوم الدب الأصفر، وهما فرقدان.

ويقال مَنْ نطق بتلبيسه تشهد الخِبرة بتكذيبه.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

دواعي الحق بحسن البيان ناطقة، وألسنة البرهان فيما ورد به التكليف صادقة، وخواطر الغيب بكشف ظُلَم الريَبِ مُفصِحة، وزواجر التحقيق عن متابعة التمويه للقلوب ملازمة. فَمنْ صُمَّ عَن إدراك ما خوطب به سرُّه، وعمِيَ عن شهود ما كوشف به قلبه، وخَرِسَ ـ عن إجابة ما أُرْشِدَ إليه من حجة ـ فَهْمُه وعقله فَدُونَ رُتْبةِ البهائم قَدْرُه، وفوق كل (. . .)[1] من حكم الله ذُلُّه وصغره.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

مَنْ أَقْصته سوابقُ القسمة لم تُدْنِه لواحقُ الخدمة، ومنْ عَلِمه اللَّهُ بنعت الشِّقوة حَرَمَه ما يوجبُ عَفْوَه.

ويقال لو كانوا في متناولات الرحمة لألبسهم صدارَ العصمة، ولكن سبَق بالحرمان حكمُهم، فختم بالضلالةِ أمرُهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾.

أجاب واستجاب بمعنىً مثل أوقد واستوقد، وقيل للاستجابة مزية وخصوصية بأنها تكون طوعاً لا كرهاً، وفَرْقٌ بين من يجيب لخوفٍ أو طمع وبين من يستجيب لا بِعِوَضٍ ولا على ملاحظة غَرَضٍ. وحقُّ الاستجابة أن تجيب بالكلية من غير أَنْ تَذَرَ من المستطاع بقية.

والمستجيبُ لربه محوٌ عن كلِّه باستيلاء الحقيقة، والمستجيب للرسول ـ صلى الله عليه وسلم وعلى آله ـ قائم بشريعته من غير إخلال بشيء من أحكامها. وقد أمر الله سبحانه وتعالى بالاستجابة له ـ سبحانه، وبالاستجابة للرسول؛ فالعبدُ المستجيبُ ـ على الحقيقة ـ من قام بالله سرّاً، واتصف بالشرع جهراً فيُفْرِده الحقُّ ـ سبحانه ـ بحقائق الجمع و (. . .)[1] في مشاهدة الفرق، فلا يكون للحدثان في مشرب حقائقه تكدير، ولا لمطالبات الشرع على أحواله نكير.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

إذْ لمَّا أفناهم عنهم أحياهم به.

ويقال العابدون أحياهم بطاعته بعد ما أفناهم عن مخالفته، وأما العالِمون

---

(١) بياض في الأصل.

فأحياهم بدلائل ربوبيته، بعد ما أفناهم عن الجهل وظُلْمته. وأمَّا المؤمنون فأحياهم بنور موافقته بعد ما أفناهم بسيوف مجاهدتهم. وأمَّا الموَحِّدونَ فأحياهم بنور توحيده بعد ما أفناهم عن الإحساس بكل غير، والملاحظة لكل حدثان.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾.

يصون القلب عن تقليب أربابها فيُقلّبها كما يشاء هو، من بيان هداية وضلال، وغَيبةٍ ووصالٍ، وحُجْبةٍ وقُرْبة، ويقينٍ ومرية، وأُنْسٍ ووحشة.

ويقال صان قلوب العُبَّادِ عن الجنوح إلى الكسل، فجدُّوا في معاملاتهم، وصان قلوب المريدين عن التعريج في أوطان الفشل فصدقوا في منازلاتهم، وصان قلوب العارفين ـ على حدِّ الاستقامة ـ عن الميْل فتحققوا بدوام مواصلاتهم.

ويقال حال بينهم وبين قلوبهم لئلا يكون لهم رجوعٌ إلا إلى الله، فإذا سنح لهم أمر فليس لهم إلا الأغيار سبيل، ولا على قلوبهم تعويل. وكم بين من يرجع عند سوانحه إلى قلبه وبين من لا يهتدي إلى شيء إلا إلى ربِّه! كما قيل:

لا يهتدي قلبي إلى غيركم لأنه سُدَّ عليه الطريق

ويقال العلماء هم الذين وجدوا قلوبهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ [ق: ٣٧] والعارفون هم الذين فقدوا قلوبهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾.

احذروا أن ترتكبوا زلَّةً توجب لكم عقوبة لا تخص مرتكبها، بل يعمُّ شؤمُها من تعاطاها ومن لم يتعاطها.

وغير المجرم لا يُؤخَذ بجُرْم من أذنب، ولكن قد ينفرِد أحدٌ بجرم فيحمل أقوامٌ من المختصين بفاعل هذا الجُرْم، كأن يتعصبوا له إذا أُخِذَ بحكم ذلك الجرم فبعد أن لم يكونوا ظالمين يصيرون ظالمين بمعاونتهم وتعصبهم لهذا الظالم؛ فتكون فتنة لا تختص بمن كان ظالماً في الحال بل إنها تصيب أيضاً ظالماً في المستقبل بسبب تعصبه لهذا الظالم ومطابقته معه، ورضاه به، وهذا معنى التفسير من حيث الظاهر. فأمَّا من جهة الإشارة: فإن العبدَ إذا باشر زَلّةً بنفسه عادت إلى القلب منها الفتنة وهي العقوبة المعجلة، وتصيب النَّفْس منها العقوبة المؤجلة، والقلبُ إذا حصلت منه فتنة الزلة ـ عندما بهم بما لا يجوز ـ تَعدَّتْ فتنته إلى السِّر وهي الحُجْبَةُ.

والمُقَدَّمُ في شأنه إذا فعل ما لا يجوز انقطعت البركاتُ التي كانت تتعدى منه إلى مُتَّبِعِيه وتلامذتِه، وكان لهم نصيبهم من الفتنة وهم لم يعملوا ذنباً. ويقال إن

الأكابر إذا سكتوا عن التنكير على الأصاغر عند تَرْكِهم الأذكار أصابتهم فتنةٌ ما فعلوه؛ فلقد قيل إنَّ السفيه إذا لم يُنْهَ مأمورٌ. فعلى هذا تصيب فتنةُ الزَّلةِ مرتكبَها ومَنْ تَرَكَ النَّهي عن المنكر ـ مثل مَنْ ترك الأمر بالمعروف ـ يؤخذ بجُرْمه.

ويقال إنَّ الزاهد إذا انحط إلى رخص الشرع في أخذ الزيادة من الدنيا مما فوق الكفاية ـ وإن كان من وجهٍ حلال ـ تؤدي فتنته إلى من يخرج به من المبتدئين، فبجملة ما أبدى من الرغبة في الدنيا، وتَرْكِ التقلل يؤدي إلى الانهماك في أودية الغفلة والأشغال الدنيوية.

والعابد إذا جَنَحَ عن الأَشَقِّ وتَرَكَ الأَوْلى تعدَّى ذلك إلى من كان ينشط في المجاهدة؛ فيستوطنون الكسل، ثم يحملهم الفراغ وترك المجاهدة على متابعة الشهوات فيصيرون كما قيل:

إن الشبابَ والفراغ والجدة ... مَفْسَدةٌ للمرء أي مفسدة

وهكذا يكون نصيبهم من الفتنة.

والعارف إذا رجع إلى ما فيه حَظٌّ له، نَظَرَ إليه المريدُ، فتتداخله فترة فيما هو به من صدق المنازلة، ويكون ذلك نصيبه من فتنة العارف.

وفي الجملة إذا غفل المَلِكُ، وتَشَاغَل عن سياسة رعيته تَعَطَّلَ الجندُ والرعية، وعَظُمَ فيهم الخَلَلُ والبَلِيَّة، وفي معناه أنشدوا:

رُعَاتُك ضيَّعوا ـ بالجهل منهم ـ ... غُنَيْماتٍ فَاسَتْها ذِئَابُ

﴿ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ بتعجيله ذلك، ومن شدة عقوبته أنه إذا أخذ عبداً ليُعَاقِبَه لا يُمَكِّنه من تلافي موجب تلك العقوبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾.

يُذَكرهم ما كانوا فيه من القِلَّة والذِّلة وصنوف (. . .)[1] ثم ما نَقَلَهم إليه من الإمْكان والبَسْطَة، ووجوه الأمان والحيطة، وقَرَّبهم إلى إقامة الشكر على جزيل تلك القِسَم، وإدامة الحمد على جميل تلك النِّعم، فمهَّد لهم في ظل أبوابه مقيلاً، ولم يجعل للعدوِّ إليهم ـ بيُمْنِ رعايته ـ سبيلاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

رَزَقَ الأشباحَ والظواهرَ من طيبات الغذاء، ورزق الأرواح والسرائر من صنوف

(١) بياض في الأصل.

الضياء. وحقيقة الشكر على هذه النعم الغيبة عنها بالاستغراق في شهود المُنْعم.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

الخيانة الاستبطان بخلاف ما يُؤَمَّل منك بحق التعويل، فخيانةُ اللَّهِ بتضييع ما ائتمنك عليه، وذلك بمخالفة النُّصح في دينه، وخيانة الرسولِ بالاتصاف بمخالفة ما تبدي من مشايعته.

والخيانة في الأمانات بترك الإنصاف، والاتصاف بغير الصدق.

وخيانة كل أحد على حسب ما وضع عنده من الأمانة، فمن اؤتمِنَ في مالٍ فتصرَّفَ فيه بغير إذن صاحبه ـ خيانة، ومن اؤتمن على الحُرَم فملاحظته إياهن ـ خيانة. فعلى هذا: الخيانةُ في الأعمال الدعوى فيها بأنها من قِبَلك دون التحقيق بأنَّ مُنْشِئها اللَّهُ.

والخيانة في الأحوال ملاحظتُك لها دون غيبتك عن شهودها باستغراقك في شهود الحق، إن لم يكن استهلاكك في وجود الحق. وإذا أَخْلَلْتَ بِسُنَّةٍ من السُّنَنِ أو أدبٍ من آداب الشَّرع فتلك خيانة الرسول ﷺ.

والخيانة في الأمانات ـ بينك وبين الخلْق ـ تكون بإيثار نصيب نفسك على نصيب المسلمين، بإرادة القلب فضلاً عن المعاملة بالفعل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

أموالكم وأولادكم سبب فتنتكم لأن المرءَ ـ لأجل جمع ماله ولأجل أولاده ـ يرتكب ما هو خلاف الأمر، فيورثه فتنة العقوبة.

ويقال الفتنةُ الاختبارُ؛ فيختبرك بالأموال.. هل تؤثرها على حقّ الله؟

وبالأولاد.. هل تتركُ لأجلهم ما فيه رضاء الله؟

فإنْ آثرتم حقَّه على حقّكم ظهرت به فضيلتُكم، وإنْ اتصفتم بضدّه عوملتم بما يوجِبه العكس من محبوبكم.

ويقال المالُ فتنةٌ إذا كان عن اللَّهِ يشغلكم، والأولادُ فتنةٌ إذا لأَجْلِهم قَصَّرْتُم في حقِّ الله أو فَرَّطتُم.

ويقال المال ـ ما للكفافِ والعفافِ ـ نِعْمَةٌ، وما للتقاصر والتفاخرِ فتنةٌ، وفي الجملة ما يشغلكَ عن اللَّهِ فهو فتنة.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

الفرقان ما به يفرق بين الحق والباطل مِنْ عِلْمٍ وافر وإلهام قاهر، فالعلماء فرقانُهم مجلوبُ برهانِهم، والعارفون فرقانهم موهوبُ عرفانهم؛ فأولئك مع مجهود أنفسهم، وهؤلاء بمقتضى جُودِ ربِّهم.

العرفانُ تعريفٌ من الله، والتكفيرُ تخفيفٌ من الله، والغفرانُ تشريفٌ للعبد من الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾.

ذكره عظيم مِنَّتِه عليه حيث خَلَّصَه من أعدائه حين خرج من مكة مهاجراً إلى المدينة، وهمُّوا بقتله، وحاولوا أن يمكروا به في السِّر، فأعلمه الله ذلك.

والمكرُ إظهارُ الإحسانِ مع قَصْدِ الإساءةِ في السِّر، والمكرُ من الله الجزاءُ على المكر، ويكون المكرُ بهم أَنْ يُلْقِيَ في قلوبهم أنه مُحْسِنٌ إليهم ثم - في التحقيق - يُعذِّبهم، وإذا شَغَلَ قوماً بالدنيا صَرَفَ همومَهم إليها حتى يَنْسَوْا أمر الآخرة، وذلك مكرٌ بهم، إذ يُوطِّنُون نفوسهم عليها، فيتيح لهم من مأمنِهم سوءاً، ويأخذهم بغتةً.

ومن جملة مكره اغترارُ قوم بما يرزقهم من الصيت الجميل بين الناس، وإجراءِ كثير من الطعات عليهم، فأسرارهم تكون بالأغيار منوطةً، وهم عن الله غافلون، وعند الناس أنهم مُكْرَمون، وفي معناه قيل:

وقد حسدوني في قرب داري منكم … وكم من قريب الدار وهو بعيد

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

فَرْطُ جهلهم، وشؤم جحدهم سَتَرَ على عقولهم قُبْحَ دعاويهم في القدرة على معارضة القرآن فافتضحوا عند الامتحان بعدم البرهان، والعجز عما وصفوا به أنفسهم من الفصاحة والبيان، وقديماً قيل:

مَنْ تحلَّى بغير ما هو فيه … فَضَحَ الامتحان ما يدَّعيه

ويقال لمَّا لاحظوا القرآن بعين الاستصغار حُرِموا بركات الفهم فعدُّوه من جملة أساطير الأولين، وكذلك منْ لا يراعي على حرمة الأولياء، يعَاقَبُ بأَنْ تُسْتَرَ عليه أحوالُهم، فيظنهم مثله في استحقاق مثالبه، فيطلق فيهم لسان الوقيعة، وهو بذلك أَحَقُّ، كما قيل: «رَمَتْني بدائِها وانسَلَّتْ».

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

دَلَّ سؤالهم العذابَ على تصميم عقدهم على تكذيب الرسول ﷺ، واستيقنوا عند أنفسهم بأنه لا يُستجَابُ فيهم ما يدعونه على أنفسهم.

وفي هذا أظهر دليل على أن سكون النفس إلى الشيء ليس بعلم؛ لأنه كما يوجد مع العلم يوجد مع الجهل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾.

ما كان الله معذبهم وأنت فيهم، وما كان الله ليعذِّبَ أسلافهم وأنت في أصلابهم، وليس يعذبهم اليوم وأنت فيما بينهم إجلالاً لقَدْرِك، وإكراماً لمحلِّك، وإذا خرجتَ من بينهم فلا يعذبهم وفيهم خدمك الذين يستغفرون، فالآية تدل على تشريف قَدْر الرسول ـ ﷺ.

ويقال للجوَارِ حُرْمةٌ، فَجَارُ الكرام في ظل إنعامهم؛ فالكفار إن لم يَنْعَموا بقرب الرسول ـ ﷺ ـ منهم فقد اندفع العذاب ـ بمجاورته ـ عنهم:

وأحـبُـهـا وأحـبُّ مـنـزلَـهـا الـذي نَـزَلَـتْ بـه وأُحِـبُّ أهـلَ الـمـنـزِلِ

ويقال إذا كان كون الرسول ـ ﷺ ـ في الكفار يمنع العذاب عنهم فكون المعرفة في القلوب أوْلى بدفع العذاب عنها.

ويقال إن العذاب ـ وإنْ تأَخَّر عنهم مدة مقامهم في الدنيا ما دام هو عليه السلام فيهم ـ فلا محالة يصيبهم العذابُ في الآخرة، إذ الاعتبار بالعواقب لا بالأوقات والطوارق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

علم أنه ـ عليه السلام ـ لا يتأَبَّد مُكْثُه في أمته إذ قال له: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، فقال إني لا أضيع أُمَّتَه وإن قضى فيهم مُدَّتَه، فما دامت ألسنتُهم بالاستغفار مُتَطَلِّعةً فصنوف العذاب عنهم مرتفعة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ﴾.

نَفَى العذابَ عنهم في آية، وأَثْبَتَه في آية، فالمنفيُّ في الدنيا والمثْبَتُ في الآخرة.

ثم بيَّنَ إيصالَ العذاب إليهم في الآخرة بقوله تعالى. ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ دليل الخطاب أن إعانة المسلمين على ما فيه قيام بحق الدين يوجب استحقاق القربة والثواب.

وفي الآية دليلٌ على أنه لا يعذِّب أولياءه بقوله: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ﴾ فإذا

عذَّبَ مَنْ لم يكونوا أولياءَه دلَّ على أنه يعذِّب من كان من جملة أوليائه. والمؤمنون كلُّهم أولياءُ الله لأنه قال: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧]. والمؤمِنَ - وإنْ عذِّب بمقدار جُرْمِه زماناً فإنه لا يُخَلَّد في دار العقوبة، فما يُقاسون بالإضافة إلى تأبيد الخَلاصِ جَلَلٌ، وقيل:

إذا سَلِمَ العهدُ الذي كان بيننا فوُدِّي وإنْ شطَّ المزار سليمُ

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وليس أولياؤه إلا المتقون، وهم الذين اتقوا الشِّرْك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾.

تجردت أعمالهم بظواهرهم عن خلوص عقائدهم، فلم يوجِدْ - سبحانه وتعالى - لها احتساباً؛ فزكاءُ القالة لا يكون إلا مع صفاء الحالة، وعناء الظاهر لا يُقْبَلُ إلا مع ضياء السرائر.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

كان العذابُ مُعَجَّلا وهو حسبانهم أنهم على شيء، قال الله تعالى.

﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، ومؤجَّلاً وهو كما قال الله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ [الرعد: ٣٤].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

يرومون بإنفاقهم صنوفَ أموالهم صلاحاً ونظاماً لأحوالهم، ثم لا يَحْظَوْن إلا بخسرانٍ، ولا يحصلون إلا على نقصان. خَسِروا وهم لا يشعرون، وخابوا وسوف يعلمون:

سوف ترى إذا انجلى الغبارُ أفَرَسٌ تحتك أم حِمارُ؟

قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ إنَّهم وإن ألْهَتْهُم أموالُهم فإلى الهوان والذِّلة مآلُهم، لم تُغْنِ عنهم أموالُهم، ولم تنفعهم أعمالُهم، بل خُتِمَتْ بالشقاوة أحوالُهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

الخبيث ما لا يصلح لله، والطيب ما يصلح لله.

الخبيث ما حكم الشرعُ بقبحه وفساده، والطيب ما شهد العلم بحسنه وصلاحه.

ويقال الخبيث الكافرُ، والطِّيبُ المؤمِنُ.

الخبيثُ ما شَغَل صاحبَه عن الله، والطِّيبُ ما أوصل صاحبه إلى الله.

الخبيثُ ما يأخذه المرءُ وينفقه لحظِّ نفسه، والطيب ما ينفقه بأمر ربه.

الخبيث عملُ الكافرِ يُصَوَّر له ويُعَذَّبِ بإلقائه عليه، والطِّيبُ عملُ المؤمن يُصَورُ له في صورةٍ جميلة فيحمل المؤمن عليه.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

إنْ كبحوا لجام التمرد، وأقلعوا عن الركض في ميدان العناد والتَّجَبُّر أَزَلْنا عنهم صَغَارَ الهوان، وأوْجَبْنا لهم رَوْحَ الأمان.

ويقال إن حلُّوا نطاق العناد أطلقنا عنهم عقال البعاد.

ويقال إن أبصروا قُبْحَ فِعالهم جُدْنا عليهم بإصلاح أحوالهم.

ويقال إنْ جنحوا للاعتذار ألقينا عليهم حالة الاغتفار.

ويقال إن عادوا إلى التَّنَصُّل[1] أبحنا لهم حُسْنَ التَّفَضُّل:

أنـــاسٌ أعـــرضـــوا عـــنّـــا ... بـــلا جُـــرْمٍ ولا مـــعـــنـــى
أســاءوا ظَــنَّــهــم فــيــنــا ... فــهــلَّا أحــسَــنــوا الــظــنّــا
فــإن كــانــوا لــنــا ـ كُــنَّــا، ... وإنْ عــادوا لــنــا عُــدْنــا
وإن كــانــوا قــد اسْــتَــغْــنَــوْا ... فــإنَّــا عــنــهــمُ أغــنــى

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

أمرهم بمقاتلة الكفار والإبلاغ فيها حتى تُستأصل شأفتُهم بحيث يأمَن المسلمون مَضَرَّتَهم، ويكْفَونَ بالكلية فتنتهم.. وحَيَّةُ الوادي لا تُؤمَنُ ما دامت تبقى فيها حركة؛ كذلك العدو إذا قُهِر فحقُّه أن تُقْتَلعَ جميعُ عروقه، وتُنَقَّى رِباعُ الإسلام من كل شكيره[2] تنبت من الشرك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾.

فإن أَبَوْا عُتُوّا، وعن الإيمان إلا نُبُوّاً، فَلَا على قلوبكم ظِلُّ مخافةٍ منهم؛ فإن

---

(١) تنصّل فلان من ذنبه: تبرأ.

(٢) شكرت الشجرة تشكر شكراً أي خرج منها الشكير: وهو ما ينبت حول الشجرة من أصلها. (اللسان ٤/٤٢٦).

اللَّهَ ـ سبحانه ـ وليُّ نصرتكم، ومتولِّي كفايتكم؛ إنْ لم تكونوا بحيث نِعْمَ العبيد فهو نِعْم المولى لكم ونِعْمَ الناصر لكم.

ويقال نِعمَ المولى لكم يوم قسمة العرفان، ونِعْم الناصرُ لكم يوم نعمة الغفران ويقال نِعْم المولى لك حين لم تكن، ونِعْمَ الناصر لك حين كنتَ.

ويقال نعم المولى بالتعريف قَبْلَ التكليف، ونِعْم الناصر لكم بالتخفيف والتضعيف؛ يُخَفِّفُ عنكم السيئات ويضاعف الحسنات:

وهـواكِ أولُ مـا عَـرَفْـتُ مِـنَ الـهـوى والـقـلـبُ لا يـنـسـى الـحـبـيـبَ الأوَّلا

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

الغنيمةُ ما أخذه المؤمنون من أموال الكفار إذا ظَفِروا عند المجاهدة والقتال معهم. فإذا لم يكن قتال ـ أو ما في معناه ـ فهو فَيْءٌ.

والجهاد قسمان: جهاد الظاهر مع الكفار، وجهاد الباطن مع النَّفْس والشيطان وهو الجهاد الأكبر ـ كما في الخبر(١).

وكما أن في الجهاد الأصغر غنيمةً عند الظَّفَرِ، ففي الجهاد الأكبر غنيمة، وهو يملك العبدُ نَفْسَه التي كانت في يد العدو: الهوى والشيطان. فبعد ما كانت ظواهرُه مقرًّا للأعمال الذميمة، وباطنُه مستقراً للأحوال الدَّنِيَّة يصير محلُّ الهوى مَسْكَنَ الرِّضا، ومَقَرُّ الشهواتِ والمُنَي مُسَلَّماً لِمَا يَرِدُ عليه من مطالبات المولى، وتصير النَّفْسُ مُسْتَلَبَةً مِنْ أَسْرِ الشهوات، والقلبُ مُخْتَطَفاً من وصف الغفلات، والرُّوحُ مُنْتَزَعَةً من أيدي العلاقات، والسِّرُّ مصُوناً عن الملاحظات. وتصبح غاغةُ النَّفْسِ مُنْهَزِمةً، ورياسةُ الحقوقِ بالاستجابة لله خافِقةً.

وكما أن من جملة الغنيمة سَهْماً لله وللرسول، وهو الخُمْسُ فمما هو غنيمة ـ على لسان الإشارة ـ سهمٌ خالِصٌ لله؛ وهو ما لا يكون للعبد فيه نصيب، لا من كرائم العُقْبى، ولا من ثمرات التقريب، ولا من خصائص الإقبال، فيكون العبدُ عند ذلك

---

(١) الخبر هو قول الرسول ﷺ: «رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/ ٣٧٩، ٧/ ٢١٨)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣/ ٧) والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٥١، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ٢٠٦)، والفتني في (تذكرة الموضوعات ١٩١)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ٨٩).

مُحَرَّراً عن رِقِّ كلِّ نصيب، خالصاً لله بالله، يمحو ما سوى الله، كما قيل:

مَنْ لم يكن بِكَ فانياً عن حظِّه ... وعن الهوى والإنس والأحبابِ
فكأنه ـ بين المراتب ـ واقِفٌ ... لِمنالِ حظٍّ أو لِحُسْنِ ثوابِ

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

يخبر ـ سبحانه ـ أنَّ ما جرى يَومَ بدرٍ من القتال، وما حَصَلَ من فنون الأحوال كان بحكم التقدير، لا بما يحصل من الخَلْق من التدبير، أو بحكم تقتضيه رَوِيَّةُ التفكير. بل لو كان ذلك على اختيار وتَوَاعُد، كنتم عن تلك الجملة على استكراه وتَبَاعُدٍ، فجرى على ما جرى ليقضِيَ الله أمراً كان مقضيًا، وحصل من الأمور ما سَبَقَ به التقدير.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي ليُضِلَّ منْ زاغ عن الحقِّ بعد لزومه الحجبة، ويهتديَ مَنْ أقام على الحقّ بعد وضوح الحُجَّة.

ويقال الحقُّ أوْضَحَ السبيلَ ونَصَبَ الدليلَ، ولكن سَدَّ بصائرَ قومٍ عن شهود الرشد، وَفَتح بصائرَ آخرين لإدراك طرق الحق.

الهالك من وقع في أودية التفرقة، والحيُّ مَنْ حَيِيَ بنور التعريف.

ويقال الهالك من كان بحظِّه مربوطاً، والحيُّ من كان من أَسْرِ كلِّ نصيبٍ مُسْتَلَباً مجذوباً.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

قيل أراه إياهم في نومه ـ ﷺ ـ بوصف القِلَّة، وأخبر أصحابه بذلك فازدادوا جسارة[1] عليهم.

وقيل أراه في منامه أي في محل نومه أي في عينه، فمعناه قلّلهم في عينيه؛ لأنهم لو استكثروهم لفشلوا في قتالهم، ولانكسرت بذلك قلوبُ المسلمين.

---
(١) الجسارة: الشجاعة.

وفي الجملة أراد اللَّهُ جريانَ ما حصل بينهم من القتال يومَ بدر، وإنَّ اللَّهَ إذا أراد أمراً هَيَّأ أسبابَه؛ فقلَّلَ الكفارَ في أعين المسلمين فزادوا جسارةً، وقلَّلَ المسلمين في أعين الكفار فازدادوا ـ عند نشاطهم إلى القتال ـ صغراً في حكم الله وخسارةً.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]: وكيف لا؟ ومنه تَصدُرُ المقاديرُ، وإليه تُرْجَع الأمور.

ويقال إذا أراد الله نصرة عبدٍ فلو كَادَ له جميعُ البشر، وأراده الكافةُ بكل ضَرَرٍ، لا ينفع مَنْ شاءَ مَضَرَّتَه كَدٌّ، ويحصل بينه وبين متاح لطفه به سَدٌّ.

وإذا أراد بعبدٍ سوءاً فليس له رَدٌّ، ولا ينفعه كَدٌّ، ولا ينعشه بعد ما سقط في حكمه جَهْدٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

أراد إذا لقيتم فئةً من المشركين فأثبتوا. والثباتُ إنما يكون بقوة القلب وشدة اليقين، ولا يكون ذلك إلا لنفاذ البصيرة، والتحقق بالله، وشهود الحادثات كلها مِنْهُ، فعند ذلك يستسلم الله، ويرضى بحكمه، ويتوقع منه حُسْنَ الإعانة، ولهذا أحالَهم على الذكر فقال: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

ويقال إنَّ جميعَ الخيراتِ في ثبات القلب، وبه تَبِينُ أقدارُ الرجالِ، فإذا وَرَدَ على الإنسان خاطرٌ يزعجه أو هاجِسٌ في نفسه يهيجه... فَمَنْ كان صاحبَ بصيرةٍ تَوَقفَ ريثما تَتَبَيَّنُ له حقيقةُ الوارد، فيثبُتُ لكونه رابطَ الجأش، ساكنَ القلب، صافيَ اللُّب.. وهذا نعت الأكابر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

الموافقة بين المسلمين أصلُ الدِّين. وأولُ الفساد ورأسُ الزَّلَلِ الاختلافُ. وكما تجب الموافقة في الدين والعقيدة تجب الموافقة في الرأي والعزيمة.

قال تعالى في صفة الكفَّار: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤]، وإنما تتحد عزائم المسلم لأنهم كلُّهم يجمعهم التبرِّي مِنْ حوْلِهم وقُوَّتِهم، ويتمحضون في رجوعهم إلى الله، وشهودهم التقدير، فيتحدون في هذه الحالة الواحدة.

وأمَّا الذين تَوهَّمُوا الحادثاتِ من أنفسهم فضَلُّوا في ساحات حسبانهم، وأجْرَوْا الأمور على ما يسنح لرأيهم، فكلٌّ يبني على ما يقع له ويختار، فإذا تنازعوا تَشَعَّبَتْ

بهم الآراءُ، وافترقت بهم الطرقُ، فيضعفون، وتختلف طُرُقُهم. وكما تجب في الدين طاعةُ رسول الله ـ ﷺ ـ تجب طاعة أولي الأمر، ولهذا يجب في كل وقت نَصْبُ إمام للمسلمين، ثم لا تجوز مخالفته، قال النبي ـ ﷺ ـ: «أطيعوه ولو كان عبداً مجده»[١] وكان الرسول ـ ﷺ ـ إذا بعث سرِيَّةً[٢] أمَّر عليهم أميراً وقال: «عليكم بالسواد الأعظم»[٣].

وإجماعُ المسلمين حُجَةٌ، وصلاة الجماعة سُنَّةٌ مؤكَّدة، والاتِّباعُ محمودٌ والابتداع ضلالة.

قوله ﴿واصبِروا﴾ الصبر حَبْسُ النَّفس على الشيء، والمأمور به من الصبر ما يكون على خلاف هواك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ يتولى بالكافية إذا حصل منهم الثباتُ وحَسُنَ التفويضُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

يريد أَنَّ أهل مكة لما خرجوا من مكة عام بدر لنصرة العير[٤] مَلَكَتْهُم العِزَّةُ، واستمكن منهم البَطَرُ، وداخَلَهم رياءُ الناس، فارتكبوا في شِبَاكِ غَلَطِهم، وحصلوا على ما لم يحتسبوه. وأمَّا المؤمنون فنصَرَهم نَصْراً عزيزاً، وأزال عن نبيِّه ـ عليه السلام ـ ما أظلَّه من الخوف وبِصِدْقِ تبريه عن حوله ومُنَّتِه ـ حين قال: «لا تكلني إلى نفسي»[٥] ـ كفاه بحسن التوليّ فقال ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

الشيطان إذا زيَّن للإنسان بوساوسه أمراً، والنَّفْسُ إذا سوَّلت له شيئاً عَمِيَتْ بصائرُ أرباب الغفلة عن شهود صواب الرُّشد، فيبقى الغافل في قِياد وساوسه، ثم تلحقه هواجمُ التقدير من كوامن المكر من حيث لا يرتقب، فلا الشيطان يفي بما

(١) هناك رواية أخرى للحديث: «إن أُمِّر عليكم عبدٌ مجدّع...» أخرجه مسلم (حجج ٣١١) والترمذي (جهاد ٢٨)، وابن ماجه (جهاد ٣٩)، وأحمد بن حنبل ٤، ٧٠، ٥، ٣٨١، ٦، ٤٠٢، ٤٠٣.

(٢) السَّرية: قطعة من الجيش (ج) سرايا.

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في (السنة ١/ ٣٩)، والقرطبي في (التفسير ١٤/ ٥٦).

(٤) العير: القوم معهم حملهم من الميرة. يقل للرجال وللجمال معاً، ولكل واحد منهما دون الآخر.

(٥) سبق تخريجه.

يَعِدُه، ولا النفس شيئاً مما تتمنّاه تجده، وكما قال القائل:

أحسنتَ ظنَّك بالأيام إذ حَسُنَتْ ولم تَخَفْ سوءَ ما يأتي به القَدَرُ
وسالمتْكَ الليالي فاغترَرتَ بها وعند صفوِ الليالي يَحدُثُ الكَدرُ

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

إن أصحابَ الغفلة وأرباب الغِرَّة إذا هبَّتَ رياحُ صَوْلَتِهِم في زمان غفلتهم يلاحظون أهلَ الحقيقة بعينِ الاستحقار، ويَحْكمُون عليهم بضعف الحال، وينسبونهم إلى الضلال، ويعدونهم من جملة الجهَّال، وذلك في زمان الفترة ومدة مُهْلةِ أهل الغيبة.

والذين لهم قوة اليقين ونور البصيرة ساكنون تحت جريان الحكم، يَرَوْن الغائبات عن الحواس بعيون البصيرة من وراء ستر رقيق؛ فلا الطوارقُ تهزمهم، ولا هواجم الوقت تستفزهم[1]، وعن قريب يلوح عَلَمُ اليُسْرِ، وتنجلي سحائبُ العُسْر، ويمحق اللَّهُ كيد الكائدين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

يُسَلِّيهم عندما يُقَاسُون من اختبارات التقدير بما يُذَكِّرهم زوالَ المحنة، ووَشْكَ رَوْحِ اليسر، وسرعةَ حصول النصر، وحلولَ النِّقَم بمرتكبي الظلم. والمؤمنُ كثيرُ الظَّفَرِ؛ فإذا شاهد بأرباب الجرائم حلولَ الانتقامِ رقَّ قلبُه لهم، فلا ينخرط في سِلْكِ الشماتة؛ إذ يخلو قلبه من شهوة الانتقام، بل يجب أن يكون كل أحد بحُسْنِ الصفة، وكما قيل.

قومٌ إذا ظَفِروا بنا جادوا بعتق رقابنا

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

يُعرِّفهم أَنَّ ما أصابهم مِنْ شِدَّةِ الوَطْأَةِ جَزَاءٌ لهم على ما أسلفوه من قبيح الزَّلَّة، كما قيل:

سَنَنْتَ فينا سننا قذف البلايا عُقْبَه
يصير على أهوالها مَنْ بَرَّ يوم ربَّه

---

(١) قال القشيري برسالته عند حديثه عن البواده والهجوم: الهجوم ما يرد على القلب بقوة الوقت من غير تصنع. (للتوسع انظر الرسالة القشيرية ص٧٨).

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي كيفما يعاملهم في السَّراء والضرَّاء فذلك منه حَسَن وعَدْلٌ، إذ المُلْكُ مُلْكُه، والخلْقُ خَلْقُه، والحكمُ حُكْمُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

لمَّا سلكوا مسلكَ أهلِ فرعون في الضلال، سَلَكْنا بهم مسلكهم فيما أذقناهم من العذاب وسوء الحال، وسُنَّةُ الله ألا تغيير في الإنعام، وعادته ألا تبديلَ في الانتقام، ومَنْ لم يعْتَبِرْ بما يشهد اعْتَبَرَ بما يصنعه به.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

إذا أنْعَمَ الحقُّ ـ سبحانه ـ على قوم نِعمةً وأراد إمهالهم أكرمهم بتوفيق الشكر، فإذا شكروا نعمته فبقدر الشكر دامت فيهم.

وإذا أراد ـ سبحانه ـ إزالةَ نعمةٍ عن عبدٍ أَذَلَّه بخذلان الكفر، فإذا حَالَ عن طريق الشكر عرَّض النِّعمة للزوال. فما دام العبدُ يشكر النعمة مقيماً كان الحقُّ في إنعامه عليه مُديماً، فإذا قابل النعمة بالكفرِ انتثر سِلْكُ نظامه، فبقدر ما يزيد في إصراره يزول الأمر عن قراره.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾.

تنوَّعَتْ من آل فرعون الذنوب فَنَوَّعَ لهم العقوبة، وكذلك هؤلاء: عُوقِبوا بأنواعٍ من العقوبة لَمَّا ارتكبوا أنواعاً من الزَّلة.

وفائدةُ تكرارِ ذِكْرِهم تأكيدٌ في التعريف أنه لا يهمل المُكَلَّفَ أصلاً، وإنْ أهمله حيناً ودهراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: في سابق علمه وصادق حكمه؛ فإذا كانوا في عِلْمِهِ شَرَّ الخلائق فكيف يسعدون باختلاف السعايات وصنوف الطوارق؟

هيهات أن تتبدل الحقائق!.

وإذا قال: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ـ وكلامه صِدقٌ وقولُه حقٌّ ـ فلم يبقَ للرجاء فيهم مساغ، ولا ينجع فيهم نُصْحٌ وإبلاغ.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾.

أي الذين صار نقضُ العهد لهم سجيةً؛ فلم يَذَروا من استفراغ الوسع في جهلهم بقية.

وإن من الكبائر التي لا غفران لها من هذه الطريق أن ينقض العبدُ عهداً، أو يترك عقداً التزمه بقلبه مع الله. أولئك الذين سقطوا عن (. . . .)[1] الله، فرفع عنهم ظلَّ العناية والعصمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

يريد إنْ صَادَفْتَ واحداً من هؤلاء الذين دأبُهم نقضُ العهد فاجعلهم عِبْرَةً لمن يأتي بعدهم لئلا يسلكوا طريقَهم فيستوجبوا عُقُوبتَهُم.

كذلك مَنْ فَسَخَ عقده مع الله بقلبه برجوعه إلى رُخَصِ التأويلات، وتزوله إلى السكون مع العادات يجعله الله نكالا لمن بعده، بحرمانه ما كان خوَّله، وتنغيصه عليه ما من حظوظه أَمَّلَه، فيفوته حق الله، ولا يكون له امتناع عما آثره على حق الله:

تبدَّلت وتبدَّلنا واحسرتا لمن ابتغى عِوضاً لليلى فلم يجد

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾.

يريد إذا تحقَّقتَ بخيانة قوم منهم فَصَرِّح بأنه لا عهدَ بينك وبينهم، فإذا حصلت الخيانةُ زال سَمْتُ الأمانة، وخيانَةُ كلِّ أحدٍ على ما يليق بحاله، ومَنْ ضَنَّ بميسورٍ له فقد خانَ في عهده، وزاغ عن جده، وعقوبته مُعَجَّلة، فهو لا يحبُّه الله، وتكون عقوبته بإذلاله وإهانته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾.

كيف يعارِضُ الحقَّ أو ينازعه مَنْ في قَبْضَتِه تَقَلُّبُه، وبقدرته تَصَرُّفه، وبتصريفه إياه عَدَمه وثبوتُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾.

أعدوا لقتالِ الأعداءِ ما يبلغ وسعكم ذلك من قوة، وأَتَمُّهَا قوةُ القلبِ باللَّهِ، والناسُ فيها مختلفون: فواحِدٌ يَقْوَى قلبه بموعود نَصْرِه، وآخرُ يَقْوى قَلْبُه بأَنَّ الحقَّ عالِمٌ بحاله، وآخر يقوى قلبه لتحققه بأن يشهد من ربه، قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، وآخر يقوى قلبُه بإيثار رضاء الله تعالى على مراد نفسه، وآخر يقوى قلبه برضاه بما يفعله مولاه به.

---

(١) بياض في الأصل.

ويقال أقوى محبة للعبد في مجاهدة العبد وتبرِّيه عن حاله وقوَّتِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

الإشارة فيه أنه لا يجاهد على رجاء غنيمة ينالها، أو لاشتفاء صدره من قضية حقد، بل قصده أن تكون كلمةُ الله هي العليا.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

بعث الله نبيه ـ ﷺ ـ بالرحمة والشفقة على الخلْق، وبمسالمة الكفار رَجَاء أن يُؤمِنوا في المُسْتَأنف فإنْ أَبَوْا فليس يخرج أَحدٌ عن قبضة العِزَّة.

ويقال العبوديةُ الوقوفُ حيثما وقفت؛ إنْ أُمِرْتَ بالقتال فلا تُقَصِّرْ، وإنْ أُمِرْتَ بالمواعَدةِ فمرحباً بالمُسَالَمةِ، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في الحالين فإنه يختار لك ما فيه الخيرة، فيوفِّقُك لِمَا فيه الأَوْلى، ويختار لك ما فيه من قِسمي الأمرِ ـ في الحربِ وفي الصُّلحِ ـ ما هو الأعلى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

أي إنْ لَبَّسُوا عليك، وراموا خِداعَك بطلب الصُّلح منك ـ وهم يستبطنون لك بخلاف ما يظهرونه ـ فإنَّ اللَّهَ كافِيكَ، فلا تَشْغلْ قلبَك بغفلتك عن شرِّ ما يكيدونك؛ فإني أعْلَمُ ما لا تعلم، وأقْدِر على ما لا تقدر.

هو الذي بنصره أفردَكَ، وبلطفِه أيَّدَكَ، وعن كل سوءٍ ونصيبٍ طَهَّرَك، وعن رقِّ الأشياء جَرَّدَكَ، وفي جميع الأحوال كان لك.

هو الذي أيَّدك بمن آمن بك من المؤمنين، وهو الذي ألَّف بين قلوبهم المختلفة فجَمَعَها على الدِّينِ، وإيثارِ رضاء الحق. ولو كان ذلك بِحَيلِ الخلْق ما انتَظَمَتْ هذه الجملة، ولو أبلغتَ بكلِّ ميسورٍ من الأفعال، وبذلتَ كُلَّ مُستطاعٍ من المال ـ لَمَا وَصَلَتْ إليه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أحسنُ التأويلات في هذه الآية أن تكون «مَنْ» في محل النَّصب؛ أي ومَنْ اتبعك من المؤمنين يَكفيهم الله.

ومن التأويلات في العربية أن تكون «مَنْ» في محل الرفع أي حسبُك مَنْ اتبعك من المؤمنين.

وقد عُلِمَ أن استقلال الرسول - ﷺ - كان بالله لا بمن سوى الله، وكلُّ مَنْ هو سوى الله فمحتاجٌ إلى نصرة الله، كما أن رسول الله محتاج إلى نصرة الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾.

المؤمن لا يزداد بنفسه ضعفاً إلّا ازداد بقلبه قوةً، لأن الاستقلال بقوة النَّفس نتيجةُ الغفلة، وقوةُ القلب بالله - سبحانه - على الحقيقة.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾.

هذا لهم، فأمَّا النبي - ﷺ - فهو بتوحيده كان مُؤمَّلاً بأنْ يَثْبُتَ لجميع الكفار لكمال قوَّته بالله تعالى، قال عليه السلام: «بِكَ أصول»[1]، وفي تحريضه للمؤمنين على القتال كانت لهم قوة، وبأمر الله كانت لهم قوة؛ فقوة الصحابة كانت بالنبي - عليه الصلاة والسلام، وتحريضه إياهم وقوتهم بذلك كانت بالله وبأمره إياه... وشتَّان ما هما!

قوله: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾: والضَّعْفُ الذي علم فيهم كان ضَعْفَ الأشباح فخفَّفَ عنهم، أما القلوبُ فلم يتداخلها الضعف فحُمِلَ من ممارسة القتال بالعذر المذكور في الكتاب.

والعوام يحملون المشاقَّ بنفوسهم وجسومهم، والخواص بقلوبهم وهممهم، وقالوا: «والقلبُ يحمِل ما لا يَحْمِلُ البَدَنُ» وقال آخر.

وإنْ تَرَوْني أُعاديها فلا عَجَبٌ ... على النفوسِ جناياتٌ من الهِمَم

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

أي لا ينبغي لنبي من الأنبياء - عليهم السلام - أن يأخذ أسارى من أعدائه ثم يرضى بأن يأخذ منهم الفِداء، بل الواجب عليه أن يُثْخِنَ في الأرض أي يبالغ في قتل أعدائه - إذ يُقال أثخنه المرضُ إذا اشتدَّ عليه. وقد أَخذ النبي - ﷺ - يوم بدرٍ منهم الفِداء، وكان ذلك جائزاً لوجوب القول بعصمته، ولكن لو قاتلتم كان أَوْلى. وأراد «بعَرَضِ الدنيا» أخذ الفداء، والله جعل الفداء، والله جعل رضاه في أن يقاتلوهم،

(١) أخرجه العقيلي في (الضعفاء ٣/ ٢٩٩).

وحرمة الشرع خلاف رحمة الطبع؛ فشرطُ العبودية أن يؤثر العبدُ الله، وإذا كان الأمر بالغِلظة فكما قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢].

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾: بالانتقام من أعدائه «حكيمٌ»: في جميع ما يصنع من التمليك والإملاك، والتيسير والتدبير.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

لولا أن الله حكم في آزاله بإحلال الغنيمة لمحمد ﷺ وأمته لَمَسَّكُم ـ لأجلِ ما أخذتُم من الفداء منهم يومَ بدر ـ عذابٌ عظيم، ولكن الله أباح لكم الغنيمة فأزال عنكم العقوبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

الحلال ما كان مأذوناً فيه، والحلالُ الطيِّبُ أنْ تعلم أن ذلك مِنْ قَبلِ الله فضلاً، وليس لَكَ مِنْ قَبَلِكَ استحقاقاً.

ويقال الحلال الصافي ما لم يَنْسَ صاحبُه فيه معبوده(١).

ويقال هو الذي لا يكون صاحبُه عن شهود ربِّه ـ عند أخذه ـ غافلاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

الذي يعطَونه خيرٌ مما أُخِذَ منهم. ويحتمل أن يكون ما في الآخرة من حسن الثواب، ويحتمل أن يكون ما في الدنيا من جميل العِوَض. ويقال هو ما يوصلهم إليه من توفيق الطاعات، وحلاوة الإيمان، وهو خيرٌ مما أُخِذَ منهم.

ويقال ما أعطاهم من الرضاء بما هم فيه من الفقر، بعدما كانوا أغنياء في حال الشِّرْك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

يريد إنْ عادوا إلى قتالك بعدما مَنَنْتَ عليهم بالإطلاق وخانوا عَهْدَكَ، فالخيانة لهم دأب، وطريقة، ثم إنَّا نُمَكِّنُكَ منهم ثانياً كما أمْكَنَّاكَ من أسْرهم أولاً، وقيل:

إنْ عَادَتْ العَقْربُ عُدْنَا لها وكانت النَّعْلُ لها حاضرة

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ

(١) انظر الرسالة القشيرية ص١٦٢.

حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

ذَكَرَ صفةَ المهاجرين مع الرسول ـ ﷺ ـ وصفتهم أنهم آمنوا ثم هاجروا مع الرسول صلوات الله عليه وسلامه، ثم ﴿وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ هؤلاء هم المهاجرون.

أما الذين آووا فهم الأنصار؛ آووا الرسول ـ عليه السلام ـ والمؤمنين.

فهذان الفريقان بعضهم أولياء بعض في النصرة والدين.

وأما الذين آمنوا ولكن لم يهاجروا فليست لهم هذه الموالاة إلى أن يهاجروا، وإنْ استعانوا بكم فعليكم نصرهم.

﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ﴾ وهم المُعاهِدون معكم.

وكمالُ الهجرةِ مفارقَةُ الأخلاق الذميمة، وهجران النَّفْس في تَرْكِ إجابتها إلى ما تدعو إليه من شهواتها. ومن ذلك هجران إخوان السوء، والتباعد عن الأوطان التي باشر العبدُ فيها الزَّلة، ثم الهجرة من أوطان الحظوظ إلى أوطان رضاء الحق(١).

وأما قوله ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟﴾ فهم الذين يؤثرون إخوانَهم على أَنْفُسِهم ولو كان بهم خصاصه، عَوَامُّ هؤلاء في الأمور الدنيوية، وخواصُّهم في الكرائم في الآخرة، وخاصُّ الخاصِّ في كل ما يصحُّ به الإثبات من سنِّي الأحوال إلى ما لا يدرك الوهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

قطَعَ العصمةَ بينهم وبين المؤمنين، فالمؤمنِ للأجانب مُجَانِبٌ، وللأقارب مقارِبٌ. والكفَّارُ بعضهم لبعضهم، كما قيل: «طيرُ السماءِ على أُلَّافِها تقعُ».

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾.

يريد مَنْ سَلَكَ مَسْلَكهم في الحال، ومَنْ سيلحق بهم في الاستقبال وآتى الأحوال فالألفَةُ تجمعهم، والولاية تشملهم، فلهم من الله في العقبى جزيلُ الثواب، والنجاةُ من العذابِ. ولهم في الدنيا الولايةُ والتناصُر، والمودة والتقارب، والله أعلم.

---

(١) قال القشيري برسالته مؤكداً على أهمية السفر: «... والشبان الذين يخرجون إلى الحج من هؤلاء القوم من غير إشارة الشيوخ فهي بدلالات نشاط النفوس، فهم متوسمون بهذه الطريقة، وليس سفرهم عن أصل، والذي يدل على ذلك أنه لا يزداد سفرهم، إلا وتزداد تفرقة قلوبهم، فلو أنهم ارتحلوا من نفسهم بخطوة، لكان أحظى لهم من ألف سفرة...» (الرسالة القشيرية ص٣٨٢، ٣٨٤).

السورة التي تذكر فيها التوبة

جرَّد الله ـ سبحانه ـ هذه السورة عن ذكر «بسم الله الرحمن الرحيم» لِيُعْلَمَ أنه يَخُصُّ مَنْ يشاء وما يشاء بما يشاء، ويُفْرِدُ مَنْ يشاء وما يشاء بما يشاء، ليس لِصُنْعِه سَبَبٌ، وليس له في أفعاله غَرَضٌ ولا أَرَبٌ، واتَّضَحَ للكافة أن هذه الآية أُثْبِتَتْ في الكتاب لأنها مُنَزَّلَة، وبالأمر هنالك مُحَصَّلة.

ومَنْ قال: إنه لم يذكر التسميةَ في هذه السورة لأنها مفتتحةٌ بالبراءة عن الكفار فهو ـ وإن كان وجهاً في الإشارة ـ فضعيفٌ، وفي التحقيق كالبعيد؛ لأنه افتتح سوراً من القرآن بذكر الكفار مثل: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البينة: ١] وقوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١] وقوله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]... هذه كلها مفاتِحُ للسُّوَرِ.. وبسم الله الرحمن الرحيم مُثْبَتَةٌ في أوائلها ـ وإن كانت مُتَضَمِّنَةً ذِكرَ الكفار. على أنه يحتمل أن يقال إنها وإن كانت في ذكر الكفار فليس ذكر البراءة فيها صريحاً وإنْ تَضَمَّنَتْهُ تلويحاً، وهذه السورة أولها ذكر البراءة منهم قطعاً، فلم تُصَدَّرْ بِذِكْرِ الرحمة.

ويقال إذا كان تجرُّدُ السورة عن هذه الآية يشير إلى أنها لذكر الفراق فبالحريِّ أن يُخْشى أنَّ تجردَ الصلاة عنها يمنع عن كمال الوصلة والاستحقاق.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١].

الفراقُ شديدٌ، وأشدُّه ألا يَعْقُبَه وصال، وفراقُ المشركين كذلك لأنه قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

ويقال مَنْ مُنِيَ بفراق أحبائه فبئست صحبته. وقد كان بين الرسول عليه السلام وبين أولئك المشركين عهد، ولا شكَّ أنهم كانوا قد وطَّنوا نفوسَهم عليه، فنزل الخبرُ من الغيب بغتةً، وأتاهم الإعلامُ بالفرقةِ فجأةً، فقال: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة: ١]، أي هذه براءة من الله ورسوله، كما قيل:

فَبِتُّ بخيرٍ ـ والدُّنَى مطمئنةٌ   وأصبحتَ يوماً والزمانُ تَقَلَّبَا

وما أشدَّ الفُرقةَ ـ لا سيَّما إذا كانت بغتةً على غير تَرَقُّبٍ ـ قال تعالى:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ [مريم: ٣٩] وأنشدوا:

وكان سراجُ الوصلِ أزهر بيننا فهبَّتْ به ريحٌ من البَيْن فانطفا

قوله جلّ ذكره: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

إنْ قَطَعَ عنهم الوصلةَ فقد ضَرَبَ لهم مدةً على وجه المُهْلَةِ، فَأَمَّنَهُم في الحالِ ليتأهبوا لِتَحَمُّلِ مقاساةِ البراءةِ فيما يستقبلونه في المآلِ.

والإشارةُ فيه: أنهم إنْ أقلعوا في هذه المهلة عن الغَيِّ والضلال وجدوا في المآل ما فقدوا من الوصال، وإنْ أَبَوْا إلا التمادي في تَرْكِ الخدمة والحرمة انقطع ما بينه وبينهم من العصمة.

ثم قال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ والإشارة فيه: إنْ أصررتم على قبيح آثاركم سعَيْتُم إلى هلاككم بِقَدَمِكُم. وندمتم في عاجلكم على سعيكم، وحَصُلْتُم في آجِلِكم على خسرانكم؛ وما خَسِرْتُم إلا في صفقتكم، وما ضَرَّ جُرْمُكم سواكم وأنشدوا:

تَبَدَّلَتْ وتَبَدَّلْنا واحسرتا مَنْ ابتغى عِوَضاً لليلى فلم يَجِدِ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾.

أي لِيَكُنْ إعلامٌ من الله ورسوله للناس بنقض عهدهم، وإعلانٌ عنهم بأنهم ما انقطعوا عن مألوفهم من الإهمال ومعهودهم، وقد برح الخفاء من اليوم بأنهم ليس لهم ولاءٌ، ولم يكن منهم بما عقدوا وفاءٌ، فَلْيَعَلَمْ الكافةُ أنهم أعداءٌ، وأنشدوا:

أشاعوا لنا في الحيِّ أشنعَ قصةٍ وكانوا لنا سِلْماً فصاروا لنا حربا

قوله جلّ ذكره: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾.

مَنْ رأى من الأغيار ـ شظيةً من الآثار، ولم يَرَ حصولَها بتصريفِ الأقدار فقد أشرك ـ في التحقيق ـ واستوجب هذه البراءة.

ومَنْ لاحَظَ الخَلق تَصَنُّعاً، أو طالَعَ نَفْسَه إعجاباً فقد جعل ما للَّهِ لغيرِ الله، وظنَّ ما لله لغير الله، فهو على خطرٍ من الشِّرْكِ بالله.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

إنْ عادوا إلى البابِ لم يقطعْ رجاءهم، ومدَّ إلى حدِّ وضوحِ العُذْرِ إرجاءَهم. وبيَّن أنهم إنْ أَصرُّوا على عُتُوِّهم فإلى ما لا يُطِيقون من العذاب مِنْقَلبهُم، وفى النار مثواهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

منْ وَفَّى الحقَّ في عقدِه فَزِدْه على حفظِ عهدِه؛ إذ لا يستوي مَنْ وفَّاه ومنْ جفاه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾.

يريد إذا انسلخ الحُرُمُ فاقتلوا مَنْ لا عهدَ له من المشركين، فإنَّهم ـ وإن لم يكن لهم عهد وكانوا حُرُماً ـ جعل لهم الأمانَ في مدة هذه المُهلَة، (. . . . .)[1] فكرتم يأمر بترك قتال مَنْ أَبَى كيف يرضى بقطع وصال مَنْ أَتى؟!

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾.

أَمَرَهم بمعالجة جميع أنواع القتال مع الأعداء.

وأَعْدَى عدوِّك نَفْسُكَ التي بين جَنْبَيْك؛ فسبيلُ العبدِ في مباشرة الجهاد الأكبر مع النَّفْس بالتضييق عليها بالمبالغة في جميع أنواع الرياضات، واستفراغ الوسع في القيام بصدق المعاملات. ومِنْ تلك الجملة ألا ينزلَ بساحات الرُّخَصِ والتأويلات، ويأخذَ بالأشقِّ في جميع الحالات.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

حقيقة التوبة الرجوعُ بالكلية من غير أن تتركَ بقية. فإذا أَسْلَم الكافرُ بعد شِرْكه، ولم يُقَصِّرْ في واجبٍ عليه من قِسْمَيْ فِعْله وتَرْكِه، حَصَلَ الإذنُ في تَخْلِيَةِ سبيله وفكِّه:

إن وَجَدْنا لِمَا ادَّعَيْتَ شهوداً لم تَجِدْ عندنا لحقٍّ حدودا

وكذلك النَّفْسُ إذا انخنست، وآثارُ البشرية إذا انْدَرَسَتْ، فلا حَرَجَ ـ في التحقيق ـ في المعاملات في أوان مراعاة الخطرات مع الله عند حصول المكاشفات. والجلوسُ مع الله أَوْلَى من القيام بباب الله تعالى، قال تعالى فيما ورد به الخبر: «أنا جليس مَنْ ذكرني»[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) أخرجه العجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٢٣٢)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/ ٢٨٧) والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ٢٤).

إذا استجار المُشرِكُ ـ اليومَ ـ فلا يُردُّ حتى يسمعَ كلامَ الله، فإذا استجار المؤمنُ طول عمره من الفراق ـ متى يُمْنَعُ من سماع كلام الله؟ ومتى يكون في زمرة مَنْ يقال لهم: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

وإذ قال ـ اليومَ ـ عن أعدائه: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ فإنْ لم يؤمن بعد سماع كلامه نُهِيَ عن تعرضه حيث قال: ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ ـ أترى أنه لا يُؤَمِّنُ أولياءَه ـ غداً ـ مِنْ فراقه، وقد عاشوا اليومَ على إيمانه ووفائه؟! كلا.. إنه يمتحنهم بذلك، قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ فإذا كان هذا بِرَّه بِمَنْ لا يَعْلَم فكيف بِرُّه بِمَنْ يعلم؟

ومتى نُضَيِّعُ مَنْ يَنيخُ بِبَابِنَا والمُعْرِضون لهم نعيمٌ وافِرُ؟!

قوله جلّ ذكره: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

كيف يكون المُفْلِسُ من عرفانه كالمخلص في إيمانه؟

وكيف يكون المحجوبُ عن شهوده كالمستهلَكِ في وجوده؟

كيف يكون مَنْ يقول «أنا» كمن يقول «أنت»؟ وأنشدوا:

وأحبابُنا شتَّان: وافٍ وناقِصٌ ولا يستوي قطُّ مُحِبٌّ وباغِضُ

قوله: ﴿فَمَا ٱسْتَقَـٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ﴾، إنْ تَمَسَّكُوا بحبل وفائنا أحللناهم ولاءنا، وإنْ زاغوا عن عهدنا أبليناهم بصدِّنا، ثم لم يَرْبَحُوا في بُعْدِنا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: المُتَّقي الذي يستحق محبةَ مَنْ يُتَّقى؛ وذلك حين يتقي محبَّةَ نَفْسِه، وذلك بِتَرْكِ حظِّه والقيام بحقِّ ربِّه.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾.

وَصَفَهم بلؤم الطبع فقال: كيف يكونون محافظين على عهودهم مع ما أضمروه لكم من سوء الرضاء؟ فلو ظَفِرُوا بكم واستولوا عليكم لم يُراعوا لكم حُرْمةً، ولم يحفظوا لكم قرابةً أو ذِمَّةً.

وفي هذا إشارة إلى أنَّ الكريمَ إذا ظَفِرَ غَفَرَ، وإذا قدر ما غَدَرَ، فيما أَسَرَّ وَجَهَرَ.

قوله: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ أي لا عَجَبَ مِنْ طَبْعِهِمْ؛ فإنهم في

حقًّا كذلك يفعلون: يُظْهِرُون لباسَ الإيمان ويُضْمِرُون الكفر. وإنهم لذلك يعيشون معكم في زِيِّ الوفاق، ويستبطنون عين الشِّقاق وسوءَ النِّفاق.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

مَنْ رَضِيَ مِنَ الله بغير الله أرخص في صفقته ثم إنه خسر في تجارته؛ فَلَا لَهُ ـ وهو عن الله ـ أثر استمتاع، ولا له ـ في دونه سبحانه ـ اقتناع؛ بَقِيَ عن الله، ولم يستمتع عن الله. وهذا هو الخسران المبين.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾.

كيف يراعي حقَّ المؤمنين مَنْ لا يراعي حقَّ الله في الله؟ أخلاقُهم تَشَابهت في تَرْكِ الحُرْمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

معناه: وإن قبلناهم وصَلُحوا لولائنا فلُحْمَةُ[1] النَّسَبِ في الدِّين بينكم وبينهم وشيجة[2]، وإلا فليكن الأجانبُ مِنا على جانبٍ منكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾.

إذا جنحوا إلى الغَدْرِ، ونكثوا ما قدَّموه من ضمان الوفاء بالعهد، وبسطوا ألسنتَهم فيكم باللوم فاقصدوا مَنْ رحى الفتنةِ عليه تدور، وغُصْنُ الشَّرِّ مِنْ أَصْلِه يَتَشَعَّبُ، وهم سادةُ الكفار وقادتُهم.

وحقُّ القتالِ إعدادُ القوةِ جهراً، والتبرِّي عن الحول والقوة سِرّاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

حَرَّضَهم على القتال ـ على ملاحظة أمرِ الله بذلك ـ لا على مقتضى الانطواء على الحقد لأحد، فإنَّ مَنْ غَضِبَ لنفْسِه فمذمومُ الوصف، ومَنْ غَضِبَ لله فإنَّ نصرَ اللَّهِ قريبٌ.

وقال: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾: فالخشية من الله بشير الوَصْلة، والخشية من غير الله نذير الفُرقة. وحقيقة الخشية نَفْضُ السِّرِّ عن ارتكاب الزَّجر ومخالفة الأمر.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ

---

(١) اللُّحمة: القرابة. (٢) الوشيجة: القرابة المشتبكة المتصلة (ج) وشائج.

صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

هوَّن عليهم كلفةَ المخاطرة بالمهجة بما وَعَدَهُم مِن الظَّفَرِ والنصرة، فإنَّ شهودَ خِزْيِ العدوِّ مما يُهَوِّنُ عليهم مقاساة السوء. والظَّفَرُ بالأَرَب[1] يُذْهِبُ تَعَبَ الطَّلَب.

وشفاءُ صدور المؤمنين على حسب مراتبهم في المقام والدرجات؛ فمنهم مَنْ شفاءُ صدره في قَهْرِ عدوِّه، ومنهم مَنْ شفاءُ صدرِه في نيْلِ مَرْجُوِّه. ومنهم مَنْ شفاء صدره في الظَّفَر بمطلوبه، ومنهم مَنْ شفاءُ صدرِه في لقاء محبوبه. ومنهم من شفاء صدره في درك مقصوده، ومنهم من شفاء صدره في البقاء بمعبوده.

وكذلك ذهابُ غيظِ قلوبهم تختلف أسبابه، وتتنوَّعُ أبوابُه، وفيما ذَكَرْنَا تلويحٌ لِمَا تركنا.

﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ حتى يكون استقلاله بمحوِّل الأحوال.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

مَنْ ظَنَّ أنه يُقْنَعُ منه بالدعوى ـ دون التحقق بالمعنى ـ فهو على غَلَطٍ في حسبانه. والذي طالبهم به من حيث الأمر صِدْقُ المجاهدةِ في الله، وتَرْكُ الركونِ إلى غير الله، والتباعدُ عن مُساكَنَةِ أعداءِ الله.. ثِقةً بالله، واكتفاءً بالله، وتبرِّياً من غير الله.

وهذا الذي أمرهم به ألا يتخذوا من دون المؤمنين وليجةً[2] فالمعنى فيه: ألا يُفْشُوا في الكفارِ أسرارَ المؤمنين.

وأولُ مَنْ يهجره المسلمُ ـ لئلا تَطَّلِعَ على الأسرار ـ نَفْسُه التي هي أعدى عدوِّه، وفي هذا المعنى قال قائلهم:

كتابي إليكم بعد موتي بليلةٍ ... ولم أدرِ أنّي بعد مَوْتِيَ أكتبُ

ويقال: إن أبا يزيد[3] ـ فيما أُخْبِرَ عنه ـ أنه قال للحقِّ في بعض أوقات مكاشفاته: كيف أطلبك؟ فقال له: فَارِقْ نَفْسَكَ.

---

(١) الأرب: الحاجة والبغية والأمنية (ج) آراب.

(٢) الوليجة: من تتخذه معتمداً عليه من غير أهلك. (ج) ولائج.

(٣) هو طيفور بن عيسى البسطامي، أبو يزيد، ويقال: بايزيد (١٨٨ ـ ٢٦١ هـ = ٨٠٤ ـ ٨٧٥م) زاهد مشهور له أخبار كثيرة. نسبة إلى بسطام أصله منها، ووفاته فيها، وفي المستشرقين من يرى أنه كان يقول بوحدة الوجود، وأنه ربما كان أول قائل بمذهب الفناء، ويُعرف أتباعه بالطيفورية أو البسطامية.
الأعلام ٣/ ٢٣٥، وطبقات الصوفية ٦٧ ـ ٧٤، ووفيات الأعيان ١/ ٢٤٠، وميزان الاعتدال ١/ ٤٨١، وحلية ١٠/ ٣٣، والشعراني ١/ ٦٥، الرسالة القشيرية ص٣٩٥ ـ ٣٩٧.

ويقال إن ذلك لا يتمُّ، بل لا تحصل منه شظيّة إلا بكَيِّ عُرُوقِ الأطماع والمطالباتِ لِمَا في الدنيا ولِمَا في العُقبى ولِمَا في رؤية الحال والمقام ـ ولو بذَرَّةٍ. والحريةُ عزيزةٌ. . . قال قائلهم:

أتمنى على الزمانِ مُحالاً أنْ ترى مُقْلَتايَ طَلْعَةَ حُرّ

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾.

عمارةُ المساجد بإقامة العبادة فيها، والعبادةُ لا تُقْبَلُ إلا بالإخلاص، والمشركُ فاقِدُ الإخلاص، وشهادتُهم على أنفسهم بالكفر دعواهم حصول بعض الحدثان بتأثير الأسباب، فمن أثبت في عقده جوازَ ذَرَّة في العالم من غير تقديره ـ سبحانه ـ شارَكَ أربابَ الشِّرْكِ في المعنى الذي لزمَتْهم به هذه السِّمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

لا تكون عمارةُ المساجد إلا بتخريب أوطان البشرية، فالعابد يُعَمِّرها بتخريب أوطان شهوته، والزاهدُ يعمرها بتخريب أوطان مُنْيته، والعارف يعمرها بتخريب أوطان علاقته، والموَحِّدُ يعمرها بتخريب أوطان ملاحظته ومُسَاكنتِه. وكلُّ واحدٍ منهم واقفٌ في صفته؛ فلصاحب كلِّ موقفٍ منهم وصفٌ مخصوص.

وكذلك رُتْبتهُم في الإيمان مختلفة؛ فإيمانٌ من حيث البرهان، وإيمان من حيث البيان، وإيمان من حيث العيان، وشتان ما هم! قال قائلهم:

لا تعْرِضَنَّ بِذِكْرِنا في ذِكْرِهِم ليس الصحيحُ ـ إذا مشى ـ كالمُقْعَدِ

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ليس مَنْ قام بمعاملة ظاهره كمن استقام في مواصلة سرائره، ولا مَنْ اقتبس من سراج علومه كمن استبصر بشموس معارفه، ولا من نُصِبَ بالباب من حيث الخدمة كمن مُكِّنَ من البِسَاط من حيث القربة وليس نعْتُ مَنْ تَكلَّفُ نِفَاقاً كوصفِ مَنْ تَحقَّقَ وِفَاقاً، بينهما بَوْن[1] بعيدٌ!

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾.

(١) البون: مسافة ما بين الشيئين. يقال: بينهما بون بعيد؛ أي: بين درجتيهما أو بين اعتبارهما في الشرف.

﴿ءَامَنُواْ﴾ أي شاهدوا بأنوار بصائرهم حتى لم يبقَ في سماءِ يقينهم سحابُ رَيْبٍ، ولا في هواءِ معارفهم ضبابُ شك.

﴿وَهَاجَرُواْ﴾: فلم يُعرِّجوا في أوطان التفرقة؛ فتَمَحَّضَتْ[1] حركاتُهم وسكناتهم بالله لله.

﴿وَجَٰهَدُواْ﴾: لا على ملاحظة غَرَضٍ أو مطالعة عِوَضٍ؛ فلم يَدَّخِرُوا لأنفسِهم ـ مِنْ ميسورهم ـ شيئاً إلا آثروا الحقَّ عليه؛ فَظَفِروا بالنعمة؛ في قيامهم بالحقِّ بعد فنائهم عن الخَلْق.

قوله جلّ ذكره: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

البشارة من الله تعالى على قسمين: بشارة بواسطة المَلَكِ، عند التوفي:

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ﴾ [فصلت: ٣٠].

وبشارة بلا واسطة بقول المَلَك، إذ يُبَشِّرهم ربُّهم برحمةٍ منه، وذلك عند الحساب. يبشرهم بلا واسطة بِحُسْنِ التولّي؛ فعاجِلُ بشارتهم بنعمة الله، وآجِل بشارتهم برحمة الله، وشتان ما هما!

ويقال البشارة بالنعمة والجنة لأصحاب الإحسان، والبشارة بالرحمة لأرباب العصيان، فأصحاب الإحسان صَلُحَ أمرهم للشهرة فأَظْهَرَ أَمْرَهُم للمَلَكِ حتى بَشَّروهم جَهْراً، وأهلُ العصيان صلح حالهم لِلسَتْرِ فتولّى بشارتهم ـ مِنْ غير واسطة سِرّاً.

ويقال إنْ كانت للمطيع بِشارةٌ بالاختصاص فإنَّ للعاصي بشارة بالخلاص. وإن كان للمطيع بشارة بالدرجات فإن للعاصي بشارة بالنجاة.

ويقال إنَّ القلوبَ مجبولةٌ على محبة من يُبَشِّر بالخير؛ فأراد الحقُّ ـ سبحانه ـ أن تكون محبةُ العبد له ـ سبحانه ـ على الخصوص؛ فتولّى بشارته بعزيز خطابه من غير واسطة، فقال: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ [التوبة: ٢١] وفي معناه أنشدوا:

لولا تَمتُّعُ مُقْلتي بلقائه ... لوَهَبْتُها بُشْرَى بقرب إيابه

ويقال بَشَّرَ العاصِيَ بالرحمة، والمطيعَ بالرضوان، ثم الكافةَ بالجنة؛ فقدّم العاصِيَ في الذكر، وقدَّم المطيع بالبرّ، فالذِّكر قوْلُه وهو قديم والبِرُّ طَوْلُه وهو عميم وقولُه الذي لم يَزَلْ أعَزُّ مِنْ طَوْله الذي حصَلَ. قَدَّم العصاة على المطيعين لأنَّ ضَعْفَ الضعيف أَوْلى بالرِّفق من القوي.

---

(١) المحض من كل شيء: الخالص.

ويقال قدَّم أمر العاصي بالرحمة حتى إذا كان يومُ العَرْضِ وحضورِ الجمعِ لا يفتضح العاصي.

ويقال: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ﴾ يُعَرِّفُهم أنهم لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه من تلك الدرجات بسعيهم وطاعتهم، ولكن برحمته ـ سبحانه ـ وصلوا إلى نعمته، قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحدٍ يُنَجِّيه عمله. قالوا: ولا أنتَ يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته»(١).

قوله: ﴿لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾: قومٌ نعيمُهم عطاءُ ربِّهم على وصف التمام، وقومٌ نعيمُهم لقاءُ ربهم على نعت الدوام؛ فالعابدون لهم تمام عطائه، والعارفون لهم دوام لقائه.

ثم قال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ والكناية في قوله «فيها» كما ترجع إلى الجنة تصلح أن ترجع إلى الحالة، سيما وقد ذكر الأجر بعدها؛ فكما لا يَقْطَعُ عطاءَه عنهم في الجنة لا يمنع عنهم لقاءَه متى شاءوا في الجنة، قال تعالى: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٣] أي لا مقطوعةٌ عنهم نعمتُه، ولا ممنوعةٌ منهم رؤيتُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

مَنْ لم يَصْلُحْ بطاعته لربه لا تَسْتَخْلِصْه لصحبة نَفْسِك.

ويقال من آثر على الله شيئاً يُبَارِكْ له فيه؛ فيَبْقى بذلك عن الله، ثم لا يُبْقِي ذلك معه، فإنْ استبقاه بجهده ـ كيف يستبقي حياته إذا أَذِنَ الله في ذهاب أَجَلِه؟ وفي معناه أنشدوا:

مَنْ لم تَزُلْ نعمتُه قَبْلَهُ زَالَ مع النعمة بالموتِ

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

ليس هذا تخييراً لهم، ولا إذناً لهم، ولا إذناً في إيثارِ الحظوظِ على الحقوقِ، ولكنه غاية التحذير والزَّجر عن إيثار شيءٍ من الحظوظ على الدِّين،

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٣٤٤، ٥١٩)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ٤١٦، ٩/ ١٨٤)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٣٩٧)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ٢٩٥)، وأبو نعيم (حلية الأولياء ٨/ ٣٧٩)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣/ ٣٦٣).

ومرورُ الأيامِ حَكَمٌ عَدْلٌ يَكْشِفُ في العاقبة عن أسرار التقدير، قال قائلهم:

سوف ترى إذا انجلى الغبارُ أَفَرَسٌ تحتك أم حمار؟

ويقال علامةُ الصدقِ في التوحيد قطعُ العلاقات، ومفارقةُ العادات، وهجران المعهودات والاكتفاءُ بالله في دوام الحالات.

ويقال مَنْ كَسَدَت سوقُ دِينِه كَسَدَتْ أسواقُ حظوظه، وما لم تَخْلُ منك مَنَازِلُ الحظوظ لا تعْمُرُ بك مَشَاهِدُ الحقوق.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾.

النصرة من الله تعالى في شهود القدرة، والمنصورُ مَنْ عَصَمه الله عزَّ وجلَّ عن التوهُّم والحسبان، ولم يَكِله إلى تدبيره في الأمور، وأثبته الحقُّ ـ سبحانه ـ في مقام الافتقار متبرياً عن الحَوْل والمُنَّة، مُتَحَقِّقاً بشهود تصاريف القدرة، يَأْخُذُ الحقُّ ـ سبحانه ـ بيدِه فيخرجه عن مهواة تدبيره. ويوقفه على وصف التصبُّر لقضاء تقديره.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾.

يعني نَصَرَكم يومَ حُنَيْن[1] حين تَفَرَّقَ أكثرُ الأصحاب، وافترت أنياب الكَرَّةِ عن نِقاب القَهْر فاضطربت القلوبُ، وخانت القوى أصحابَها، ولم تُغْنِ عنكم كَثْرتُكم، فاستخلص اللَّهُ أسرارَكم ـ عند صدق الرجوع إليه ـ بِحُسْنِ السكينةِ النازلة عليكم، فَقَلَبَ اللَّهُ الأمرَ على الأعداء، وخَفَقَتْ راياتُ النصرة، ووقعت الدائرةُ على الكفار، وارتدَّتْ الهزيمةُ عليهم فرجعوا صاغرين.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

السكينةُ ثَلَجُ القلب عند جريان حُكْم الربِّ بنعت الطمأنينة، وخمودُ آثار البشرية بالكلية، والرضاءُ بالبادي من الغيب من غير معارضةِ اختيارِ.

ويقال السكينة القرار على بساط الشهود بشواهد الصحو، والتأدب بإقامة صفات العبودية من غير لحوق مشقة، وبلا تحرُّكِ عِرْقٍ لمعارضةِ حُكْم. والسكينة المنزلةُ على ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ خمودُهم تحت جريان ما وَرَدَ من الغَيْب من غير كراهةِ بنوازع البشرية، واختطافُ الحقِّ إياهم عنهم حتى لم تستفزهم رهبةٌ من مخلوق؛ فَسَكَنَتْ عنهم كلُّ إرادةِ واختيار.

---

(١) يوم حُنَين: وهو اليوم الذي ذكره جل وعز في كتابه الكريم وهو قريب من مكة، وقيل: هو وادٍ قبل الطائف، وقيل: واد بجنب ذي المجاز. (معجم البلدان ٢/٣١٣).

﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ من وفور اليقين وزوائد الاستبصار.

﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالتطوح في متاهات التفرقة، والسقوط في وهدة ضيق التدبير، ومِحنَةِ الغَفْلةِ، والغَيْبَةِ عن شهود التقدير.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ردهم من الجهل إلى حقائق العلم، ثم نَقَلَهم من تلك المنازل إلى مشاهد اليقين، ثم رقَّاهم عن تلك الجملة بما لقَّاهم به من عين الجمع.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾.

فقدوا طهارة الأسرار بماءِ بالتوحيد؛ فبقوا في قذورات الظنون والأوهام، فَمُنِعُوا قُربانَ المساجدِ التي هي مشاهدُ القرب. وأمَّا المؤمنون فطهَّرَهم عن التدنُّس بشهود الأغيار، فطالعوا الحقَّ فَرْداً فيما يُبيِّنُهُ مِنَ الأمرِ ويُمضِيه من الحُكْم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

تَوَقُّعُ الأرزاقِ من الأسبابِ من قضايا انغلاق باب التوحيد، فَمَنْ لم يفرِدْ معبودَه بالقسمة بَقِيَ في فقرٍ مُسرْمَدٍ.

ويقال مَنْ أناخَ بعُقْوةِ كَرَم مولاه، واستمطر سَحَابَ جودِه أغناه عن كل سبب، وكفاه كلَّ تَعَبٍ، وقضى له كلَّ سُؤْلٍ وأرَب، وأعطاه من غير طلب.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

مَنْ استوجب الهوانَ لا ينجِيكَ مِنْ شَرِّه غير ما يستحقه من الإذلال على صغره، ومَنْ دَاهَن عدوَّه فبالحريِّ أنْ يلقى سوءَه.

وَمِنْ أشدِّ الناس لَكَ عداوة، وأبعدهِم عن الإيمان ـ نَفْسُكَ المجبولةُ على الشرّ فلا تُقْلِعُ إلَّا بذبحها بِمُدْيَةِ المجاهدات. وهي لا تؤمن بالتقدير، ولا يزول شَكها قط، وكذلك تَخلدُ إلى التدبير، ولا تسكن إلا بوجود المعلوم، ولا تقبل منك إلا كاذِبَ المواعيد، ولذلك قالوا:

وأكْذِبْ النَّفْسَ إذا حَدَّثْتَها فإنَّ صِدْقَ القول يذري بالأمل

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾.

لو كان هذا في تخاطب المخلوقين لكان عينَ الشكوى؛ والشكوى إلى الأحباب تشير إلى تحقق الوصلة.

شكا إليهم ما حصل من قبيح أعمالهم، وكم بين مَنْ تشكو منه وبين مَنْ تشكو إليه!!

قوله جلّ ذكره: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

الكفار قبلهم جحدوا الربوبية، وهؤلاء أقروا بالله، ثم لما أثبتوا له الوَلَدَ نقضوا ما أقروا به من التوحيد، فصاروا كالكفار قَبْلَهم.

ويحتمل أن تكون مضاهاةُ قولهم في وصف المعبود بأنَّ عيسى ابنه وعزيراً ابنه كقولِ الكفار قَبْلَهم إنَّ الملائكةَ بناتُ الله.

ويقال لمَّا وصفوا المعبود بما يتعالى عن قولهم لم ينفَعْهم صِدْقُهم في الإقرار بربوبيته مما أضافوا إليه من سوء القالة. وكلُّ مَنْ أطلق في وصفه ما يتقدَّسُ ـ سبحانه ـ عنه فهو للأعداء مُشَاكِلٌ في استحقاق الندم والتوبيخ.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

كما لا تجوز مجاوزة الحد في وَضْع القدْرِ لا تجوز مجاوزة الحد في رَفْع القَدْر، وفي الخبر: «أُمِرْنا أَنْ نُنْزِلَ الناسَ منازِلَهم»[1].

فَمَنْ رأى من المخلوقين شظيةً من الإبداع أَنْزَلَهم منزلةَ الأرباب، وذلك ـ في التحقيق ـ شِرْك، وما أخلص في التوحيد مَنْ لم يَرَ جميعَ الحادثات بصفاتها (. . . .)[2] من الله.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾: فمن رفع في عقده مخلوقاً فوق قدره فقد أشرك بربِّه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (المقدمة ٦)، والسيوطي في التحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ٢١)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٢٢٤، ٢/ ٢٦٢).

(٢) بياض في الأصل.

من رام أن يستر شعاع الشمس بدخان يوجهه من نيرانه، أو عالج أنْ يمنع حكم السماء بحيلته، وتدبيره، أو يُسْقِطَ نجوم الفَلَكِ بسهام قوسِه ـ أظهرُ رُعونَته ثم لم يَحظَ بمراده. كذلك مَنْ توهَّم أن سُنَّةَ التوحيد يعلوها وَهَجُ الشُّبَه فقد خاب في ظنِّه، وافتضح في وهمه.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

أزاحَ العِلَل بما ألاح من الحُجَج، وأزال الشُّبَهَ بما أفصح من النهج؛ فشموسُ الحقِّ طالِعةٌ، وأدلة الشرع لامعة، كما قالوا:

هي الشمسُ إلا للشمس غيبةً وهذا الذي نعنيه ليس يَغيب

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

العالِمُ إذا ارتفق بأموال الناس عِوَضاً عما يُعلِّمُهم زالَتْ بركاتُ عِلْمِه، ولم يَطِبْ في طريق الزهد مَطْعَمُه.

والعارِفُ إذا انتفع بخدمة المريد، أو ارتفق بشيءٍ من أحواله وأعماله زالت آثارُ هِمَّتِه، ولم تُجْدِ في حكْمِ التوحيد حالتُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

لهم في الآجلِ عقوبةٌ. والذين لا يؤثِرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة فلهم في العاجل حجبة. وقليلٌ مِنْ عبادِهِ مَنْ سَلِمَ من الحجاب في مُحتَضَرِه والعقاب في مُنْتَظَرِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾.

لمَّا طلبوا الجاهَ عند الخلْقِ بمالِهم، وبخُلوا بإخراج حقِّ الله عنه شانَ وجوهَهم. ولمَّا أسندوا ظهورَهم إلى أموالهم. قال تعالى: ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾.

ويقال: لمَّا (عبسوا) في وجوه العفاة وعقدوا حواجِبَهم وُضِعَتْ الكيَّةُ على تلك الجباه المقبوضة عند رؤية الفقراء، ولمَّا طَوَوْا كَشْحَهُم دون الفقراء ـ إذا جالسوهم ـ وَضَعَ المِكواةَ على جُنوبِهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾.

لمَّا عَلِم أنهم لا يُداوِمُون على مُلازَمةِ القُرْبِ أَفْرَدَ بعضَ الشهور بالتفضيل، ليخُصُّوها باستكثار الطاعة فيها. فأمَّا الخواصُ مِنْ عبادِه فجميعُ الشهورِ لهم شعبانُ ورمضانُ، وكذلك جميع الأيام لهم جمعة، وجميع البقاع لهم مسجد... وفي معناه أنشد بعضهم.

يا ربُّ إنَّ جهادي غيرُ مُنقَطِعٍ وكلُّ أرضٍ لي ثَغْرُ طرسوس[1]

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

قال للعوام: لا تَظْلِموا في بعض الشهور أَنْفُسَكُم، يعني بارتكاب الزَّلَّة. وأَمَّا الخواص فمأمورون ألا يَظْلِمُوا في جميع الشهور قلوبَهم باحتقاب الغفلة.

ويقال: الظلم على النَّفْس أن يجعلَ العبدُ زمامَه بيد شهواته، فَتُورِدُه مَواطِنَ الهلاك.

ويقال: الظلم على النَّفْس بخدمة المخلوقين بَدَل طاعة الحقِّ.

ويقال: مَنْ ظَلَم على قلبه بالمضاجعات امْتُحِنَ بِعَدمِ الصفوة في مرور الأوقات.

﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾: ولا سِلاحَ أمضى على العدوِّ مِن تَبرِّيكَ عن حَوْلِكَ وقُوَّتِك.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ[2] زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

الدِّينُ ملاحظةُ الأمر ومجانَبةُ الوِزر[3] وتركُ التقدم بين يدي الله سبحانه ـ في جميع أحكام الشرع، فالآجالُ في الطاعاتِ مضروبة، والتوفيقُ في عرفانه متَّبَع، والصلاح في الأمور بالإقامة على نعت العبودية؛ فالشهرُ ما سمَّاه الله شهراً، والعامُ والحوْلُ ما أَعْلَمَ الخَلْقَ أنه قَدْرُ ما بَيَّنه شرعاً.

---

(١) طرطوس: مدينة في تركيا (قيليقيا). كانت من العواصم. فتحها المأمون ٧٨٨ م. وفيها دُفن الرسالة القشيرية ص٢٧٥.

(٢) النسيء: تأخير حرمة المحرّم إلى صفر زمن الجاهلية لكي يُستباح القتال فيه.

(٣) الوِزر: الإثم والذنب.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

عاتَبهم على تَركِ البدار عند توجيه الأمر، وانتهاز فُرْصَةِ الرُّخصَة.

وأَمَرَهم بالجد في العزم، والقَصْدِ في الفعل؛ فالجنوحُ إلى التكاسل، والاسترواحُ إلى التثاقل أماراتُ ضعفِ الإيمان إذ الإيمان غريمٌ مُلازِمٌ لا يرضى من العبد بغير ممارسة الأشقّ، وملابسة الأحَقّ.

قوله: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: وهل يَجْمُل بالعابدِ أَنْ يختارَ دنياه على عقباه؟

وهل يحسُن بالعارف أنْ يُؤْثِرَ هواه على رضا مولاه؟ وأنشدوا.

أيجملُ بالأحبابِ ما قد فعلوا ... مضَوْا وانصرفوا يا ليتهم قَفَلُوا!

إنَّ غيبةَ يوم للزاهد عن الباب تَعْدِل شهوراً، وغيبةُ لحظةٍ للعارف عن البِساط تعدل دهوراً، وأنشدوا:

الإلْفُ لا يصْبِرُ عن إلْفِه ... أكْثَرَ من طَرْفَةِ عَيْنِ[1]
وقد صبَرْنا عَنكُمُ ساعةً ... ما هكذا فِعْلُ مُحِبَّيْنِ

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

العذابُ الأليمُ إذا أعرض العَبْدُ عن الطاعةِ ألا يبعث وراءه من جنود التوفيق ما يردُّه إلى الباب.

العذابُ الأليمُ أنْ يَسْلُبَه حلاوةَ النَّجوى إذا آب.

العذابُ الأليمُ الصدودُ يومَ الورود، وقيل:

واعدوني بالوصالِ ـ والوصالُ عَذْبٌ ـ ... ورَمَوني بالصُّدودِ والصدُّ صعبُ

العذابُ الأليمُ الوعيدُ بالفِراق، فأمَّا نَفْسُ الفِراق فهو تمامُ التَّلَفِ، وأنشدوا:

وزَعَمْتَ أَنَّ البَيْنَ مِنْكَ غداً ... هَدَّدْ بذلك مَنْ يعيش غدا

قوله: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يصرف ما كان مِنْ إقباله عليه إلى غيره من أشكاله، وليس كلُّ مَنْ حَفَرَ بئراً يشربُ مِنْ معِينها، وأنشدوا:

تَسْقِي رَيَاحِينَ الحِفَاظِ مدامعي ... وسِوَايَ في رَوْضِ التواصُلِ يَرْتَع

---

(١) الإلف: المألوف.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

مِنْ عزيزِ تلك النصرة أنه لم يستأنِسْ بثانية الذي كان معه بل رد الصِّدِّيقَ إلى الله، ونهاه عن مساكنته إياه، فقالَ: «ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما؟»(١).

قال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

ويقال من تلك النصرة إبقاؤه إياه في كشوفاته في تلك الحالة، ولولا نصرتُه لتلاشى تحت سطواتِ كَشْفِه.

ويقال كان ـ عليه السلام ـ أَمانَ أهلِ الأرض على الحقيقة، قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]، وجعله ـ في الظاهر ـ في أمان العنكبوت حين نَسَجَ خَيْطَه على باب الغار فَخَلَّصَه من كيدهم.

ويقال لو دخل هذا الغار لا تشقُّ نسيج العنكبوت... فيا عجباً كيف سَتَرَ قصةَ حبيبه ـ صلوات الله عليه وعلى آله وسلم؟!.

ويقال صحيحٌ ما قالوا: للبقاع دول، فما خَطَرَ ببالِ أحدٍ أَنَّ تلك الغار تصير مأوى ذلك السيِّد ـ ﷺ! ولكنه يختص بقسمته ما يشاء ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ١٠٥].

ويقال ليست الغِيران كلها مأوى الحيَّاتِ، فمنها ما هو مأوى الأحباب. ويقال علقت قلوب قوم بالعرش فطلبوا الحق منه، وهو تعالى يقول:

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ فهو سبحانه ـ وإن تقدَّس عن كل مكان ـ ولكن في هذا الخطاب حياة لأسرار أرباب المواجيد، وأنشدوا:

يا طالبَ الله في العرشِ الرفيعِ به لا تطلب العرشَ إن المجد في الغار

وفي الآية دليل على تحقيق صحبة الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ حيث سمَّاه الله سبحانه صاحبَه، وعَدَّه ثانِيه، في الإيمان ثانيه، وفي الغار ثانيه ثم في القبر ضجيعه، وفي الجنة يكون رفيقه.

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٥/ ٤، ٦، ٨٣)، ومسلم في الصحيح (فضائل الصحابة ب١ رقم١) وأحمد بن حنبل في (المسند ١/ ٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/ ٦٨)، وابن أبي شيبة في (المصنف ١٤/ ٣٣٣)، وابن حجر في (فتح الباري ٨/ ٣٢٥)، وابن أبي عاصم في (السنة ٢/ ٥٧٦) وأبو نعيم في (تاريخ أصفهان ١/ ١٤٩)، وابن الجوزي في (زاد المسير ٣/ ٤٤٠)، وصاحب (الأذكار النووية ٢٤٥)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٥/ ٤٣٥، ١١/ ٤٣٤، ١٢/ ١٣٤) وابن حبان في (المجروحين ١/ ٢٩٥).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾.

الكناية في الهاء من «عليه» تعود إلى الرسول عليه السلام، ويحتمل أن تكون عائدةً إلى الصديق رضي الله عنه، فإن حُمِلَتْ على الصديق تكون خصوصية له من بين المؤمنين على الانفراد، فقد قال عز وجلّ لجميع المؤمنين: ﴿**هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين**﴾ [الفتح: ٤].

وقال للصدِّيق ـ على التخصيص ـ فأنزل الله سكينته عليه، كما قال النبي ﷺ: «إن الله يتجلّى للناس عامة ويتجلّى لأبي بكر خاصة».

وإنما كان حزنُ الصديقِ ذلك اليوم لأجل الرسول ـ ﷺ ـ إشفاقاً عليه.. لا لأجْلِ نَفْسِه. ثم إنه ـ عليه السلام ـ نفي حزنه وسلّاه بأن قال: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾، وحُزنٌ لا يذهب إلا لِمَعِيَّة الحقِّ لا يكون إلّا «لحقِّ الحق»[(١)].

قوله جل ذكره: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

يريد به النبي ﷺ. وتلك الجنودُ وفودُ زوائد اليقين على أسراره بتجلّي الكشوفات.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ﴾ بإظهار حُجج دينه، وتمهيد سُبُل حقِّه ويقينه؛ فراياتُ الحقِّ إلى الأبدِ عالية، وتمويهات الباطل واهية، وحِزبُ الحقِّ منصورون، ووفد الباطل مقهورون.

ويقال لما خلا الصديق بالرسول عليه السلام في الغار، وأشرقت على سِرِّه أنوار صحبة الرسول عليه السلام، ووقع عليه شعاعُ أنواره، واشتاق إلى الله تعالى لفَقْدِ قراره ـ أزال عنه لواعِجه[(٢)] بما أخبره مِنْ قُرْبه ـ سبحانه ـ فاستبدل بالقلق سكوناً، وبالشوق أُنساً، وأنزل عليه من السكينة ما كاشفه به من شهود الهيبة.

ويقال كان الرسول ـ ﷺ ـ ثاني اثنين في الظاهر بشبه ولكن كان مُسْتَهلَكَ الشاهد في الواحِد بِسِرِّه.

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ١٢/ ١٩)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٩/ ٥٨٢) والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٤/ ٣٠٥)، والفتني في (تذكرة الموضوعات ١٩٣)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ٤٧٦)، والسيوطي في (اللآلىء المصنوعة ١/ ١٤٨، ٢/ ١٤٤)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٢٨٥، ٢/ ٥٨٣)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٥/ ١٨٥٨) وابن الجوزي في (الموضوعات ١/ ٣٠٦ ـ ٣٠٧).

(٢) اللواعج: (ج) اللاعج: الهوى المحرق.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أمرهم بالقيام بحقه، والبدار إلى أداء أمره في جميع أحوالهم.

«خفافاً» يعني في حال حضور قلوبكم، فلا يمسُّكم نَصَبُ المجاهدات.

«وثقالا» إذا زُدِدْتُم إليك في مقاساة تعب المكابدات. فإنَّ البيعةَ أُخِذَتْ عليكم في (...)[1] و (...)[1].

ويقال «خفافا» إذا تحررتم من رِقِّ المطالبات والاختيار، «وثقالا» إذا كان على قلوبكم ثقل الحاجات، وأنتم تؤمِّلون قضاءَ الحقِّ مآربكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

يريد به المتخلفين عنه في غزوة «تبوك»[2]، بيَّنَ سبحانه أنه لو كانت المسافةُ قريبةً، والأمرُ هيِّناً لَمَا تخلَّفوا عنك؛ لأنَّ مَنْ كان غيرَ متحقِّقٍ في قَصْدِه كان غيرَ بالغ في جهده، يعيش على حَرْفٍ، ويتصرَّف بحرف، فإنْ أصابه خيرٌ اطمأنَّ به وإنْ أصابَتْه فتنةٌ انقلبَ على وجهه. وقال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١].

فإذا رأيتَ المريدَ يتبعُ الرُّخَصَ ويَجْنَحُ إلى الكسل، ويتعلَّلُ بالتأويلاتِ.. فاعلَمْ أنه مُنْصَرِفٌ عن الطريق، متخلِّفٌ عن السلوك، وأنشدوا:

وكذا المَمْلُولُ إذا أراد قطيعةً ... مَلَّ الوصال وقال: كان وكانا

ومَنْ جَدَّ في الطلب لم يُعَرِّج في أوطان الفشل، ويواصل السير والسُّرى، ولا يحتشم من مقاساة الكدِّ والعناء، وأنشدوا:

ثم قطعتُ الليلَ في مهمهٍ ... لا أسداً أخشى ولا ذئبا

يغلبني شوقي فأطوي السُّرى ... ولم يَزَلْ ذو الشوقِ مغلوبا

قوله: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٢]: يمين المتعلِّلِ والمُتَأَوِّلِ يمينٌ فاجرةٌ تشهد بكذبها عيون الفراسة، وتنفر منها القلوب، فلا تجد من القلوب محلاً.

(١) بياض في الأصل.

(٢) تبوك: موضع بين وادي القُرى والشام، وقيل: تبوك بين الحِجر وأول الشام على أربع مراحل من الحجر نحو نصف طريق الشام، وهو حصن به عين ونخل وحائط نسب إلى النبي ﷺ. وبه كانت آخر غزوات الرسول ﷺ سنة تسع للهجرة. (معجم البلدان ٢/ ١٤، ١٥).

قوله جلّ ذكره: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾.

لم يكن منه ﷺ خرْقُ حَدٍّ أو تعاطي محظورٍ، وإنما نذر منه ترك ما هو الأَوْلى. قَدَّم الله ذِكْرَ العفو على الخطاب الذي هو في صورة العتاب بقوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾.

أو مِنْ جواز الزَّلة على الأنبياء ـ عليهم السلام ـ إذ لم يكن ذلك في تبليغ أمر أو تمهيد شرع بقول قائله: أنشدوا بالعفو قبل أن وقف للعذر وكذا سُنَّة الأحباب مع الأحباب، قال قائلهم:

ما حطَّك الواشون عن رتبة عندي ولا ضَرَّك مُغْتَابُ
كأنهم أَثْنَوْا ـ ولم يعلموا ـ عليكَ عندي بالذي عابوا

ويقال حسناتُ الأعداء ـ وإن كان حسنات ـ فكالمردودة، وسيئات الأحباب ـ وإن كانت سيئات ـ فكالمغفورة:

مَنْ ذا يؤاخِذُ مَنْ يحبُّ بِذَنْبِه وله شفيعٌ في الفؤاد مُشَفَّع

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾.

المخلصُ في عقده غيرُ مُؤْثِرٍ شيئاً على أمره، ولا يدَّخر مستطاعاً في استفراغ وُسْعِه، وبَذْلِ جُهْدِه، ومقاساة كَدِّه، واستعمال جِدِّه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾.

مَنْ رام عن عهدة الإلزام خروجاً انتهز للتأخير والتخلُّف فرصةً لِعَدم إيمانه وتصديقه، ولاستمكان الريبة في قلبه وسِرِّه. أولئك الذين يتقلبون في رَيبهم، ويترددون في شكِّهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾.

أي لو صدقوا في الطاعة لاستجابوا ببذل الوسع والطاقة، ولكن سَقِمَتْ إرادتُهم، فحصلت دون الخروج بَلادَتُهم، وكذلك قيل:

لو صحَّ منكَ الهوى أُرْشِدْتَ للحِيَلِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾.

أَلْزَمهم الخروجَ من حيث التكليف، ولكن ثبَّتهم في بيوتهم بالخذلان؛ فبالإلزام.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

أخبر عن سابق علمه بهم، وذكر ما علم أنه لا يكون أَنْ لو كان كيف يكون، فقال: ولو ساعدوكم في الخروج لكان ما يلحقكم من سوء سيرتهم في الفتنة بينكم، والنميمة فيكم، والسعي فيما يسوؤكم أكثر مما نالكم بتخلُّفِهم من نقصان عددكم. ومَنْ ضررُه أكثرُ من نفعِه فَعَدَمُهُ خيرٌ مِنْ وجودِه، ومَنْ لا يحصل منه شيء غيرُ شرورِهِ فتخلُّفُه أَنْفَعُ مِنْ حضوره.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾.

إنَّهم وإِنْ أظهروا وِفاقَكم فقد استبطنوا نِفاقكم؛ أعلنوا أنهم يؤازرونكم ولكن راموا بكيْدِهم تشويشَ أموركم، حتى كَشَفَ اللَّهُ عوراتِهم، وفَضَحَهم، حتى تَحَذَّرْتُم منهم بما تحققتم من أسرارهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

أبرزوا قبيحَ فِعالِهم في مَعْرِض التخرج، وراموا أَنْ يُلَبِّسُوا على الرسول ـ صلى الله وسلم وعلى آله ـ وعلى المسلمين خبث سيرتهم وسريرتهم، فَبَيَّنَ الله أَنَّ الذين (. . .)[1] بزعمهم سقطوا فيه بفعلهم، وكذلك المتجلِّدُ بما يهواه متطوح في وادي بلواه، وسَيَلْقَى في الآخرة من الهَوَان ما يَغْنِي عن الحاجة إلى البرهان.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾.

هكذا صفة الحسود، يتصاعد أنينُ قلبه عند شهود الحسنى، ولا يَسُرُّ قلبَه غيرُ حلولِ البلوى، ولا دواءَ لجروح الحسود؛ فإنه لا يرضى بغير زوال النعمة ولذا قالوا:

كلُّ العداوةِ قد تُرجَى إماتَتُها ... إلا عداوةَ مَنْ عاداك من حَسَدِ

وإنَ اللَّهَ تعالى عَجَّلَ عقوبةَ الحاسد، وذلك: حزنُ قلبِه بسلامة محسوده؛ فالنعمة للمحسود نقد والوحشة للحاسد نقد.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

---

(١) بياض في الأصل.

المؤمن لا تلحقُه شماتةُ عدوِّه لأنه ليس يرى إلا مُرادَ وليِّه، فهو يتحقق أنَّ ما ينالُه مرادُ مولاه فيسقطُ عن قلبِه ما يهواه، ويستقبله بروح رضاه فَيَعْذُبُ عنده ما كان يَصْعُبُ مِنْ بلواه، وفي معناه أنشدوا:

إنْ كان سَرَّكُمُ ما قال حاسدُنا   فما لِجُرْحٍ ـ إذا أَرْضَاكُم ـ أَلَمُ.

ويقال شَهودُ جريانِ التقدير يخفف على العبد تَعَبَ كلِّ عسير.

قوله ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾: تعريفٌ للعبد أن له ـ سبحانه ـ أن يفعل ما يريد، لأنه تصرفُ مالكِ الأعيانِ في مُلْكِه، فهو يُبْدِي ويُجْرِي ما يريد بحقِّ حُكْمِه.

ثم قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: وأولُ التوكلِ الثقةُ بوعده، ثم الرضا باختياره، ثم نسيانُ أمورِك بما يغْلِبُ على قلبك من أذكاره.

ويقال التوكل سكونُ السِّرِّ عند حلول الأمر ونهاية التفويض، وفيها يتساوى الحلوُ والمرُّ، والنعمةُ والمحنةُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾.

بَيَّنَ اللّهُ في هذه الآية الفَرْقَ بين المؤمنين وبين الكفار، فقال قُلْ للذين ينتظرون: أيها الكفار إن كان من شأن المؤمنين وقوعُ الدائرة عليهم في القتال، أو أنَّ القَتْلَ ينالهُم فأيُّ واحدٍ من الأمْرَيْن ينالهم فهو لهم من الله نعمة؛ لأنَّا إنْ ظَفِرْنا بكم فَنَصْرٌ وغنيمة، وعِزٌّ للدِّين ورفعة، وإنْ قُتِلْنَا فشهادةٌ ورحمة، ورضوانٌ من الله وزُلْفَى[1]. وإنْ كان الذي يصيبنا في الدنيا هزيمة ونكبةٌ، فذلك مُوجِبٌ للأجْرِ والمثوبة، فإذاً لن يستقبِلَنا إلا ما هو حُسْنَى ونعمة.

وأمَّا أنتم، فإنْ ظَفِرْناً بكم فتعجيلُ لذُلِّكم ومحنة، وإن قُتِلْتُم فعقوبةٌ من اللّهِ وسخطة، وإن كانت اليد لكم في الحال فخذلانٌ من اللّهِ، وسببُ عذابٍ وزيادةُ نقمة.

ويقال: ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ أمَّا قيامُ بحقِّ الله في الحال فنكون بوصف الرضاء وهو ـ في التحقيق ـ الجنَّةُ الكبرى، وإمَّا وصولٌ إلى الله تعالى في المآل بوصف الشهادة، ووجدان الزلفى في العقبى وهو الكرامة العظمى.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

---

(١) الزُلفى: المنزلة والدرجة والقُربة.

المردودُ لا يقبلُ منه توصُّل، ولا يُغَيِّر حُكمُ شقاوته بتكثير التكلُّف والتعمل.

ويقال تقُرُّبُ العدوِّ يوجِبُ زيادةَ المقت له، وتحبُّبُ الحبيب يقتضي زيادة العطف عليه، قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ [الفرقان: ٧٠].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾.

فقدوا الإخلاص في أموالهم فعدموا الاختصاص في أحوالهم، وحُرِموا الخلاصَ في عاجلهم وفي مآلهم.

قوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾: مَنْ أطَاعَ من حيث العادة ـ مِنْ غَيْرِ أن تحملَه عليها لوعةُ الإرادة ـ لم يَجِدْ لطاعته راحةً وزيادة.

ويقال مَنْ لَاحظَ الخَلْقَ في الجهر من أعماله، ورَكَنَ إلى الكسلِ في السِّرِّ من أحواله فقد وُسِمَ بالخذلان، وخُتِمَ بالحرمان، وهذه هي أمارة الفرقة والقطيعة، قال تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

بَيَّنَ أن ما حسبوه نعمة واعْتَدُّوه من الله مِنَّةً فهو ـ في التحقيق ـ مِحْنَةٌ، وسببُ شقاءٍ وفُرْقة، وإنما دَسَّ التقديرُ لهم سُمومَ الصَّابِ، فيما استلذوه من الشرابِ؛ ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٦].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦].

التَّقَرُّبُ بالأَيمانِ الفاجرةِ لا يوجِبُ للقلوب إلا بُعْداً عن القُبول.

ويقال إنَّ إظهارَ التلبيس لا (. . .)[1] الأسرارَ بَرْدَ السكون، ولا يَشْفِي البصائر بِرْدُ الثقة واليقين. . فما لايكون فلا يكون بحيلةٍ أبداً، وما هو كائنٌ سيكون.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾.

إن المماذِق[2] في الخُلَّة ينسلُّ عن سِلْكِها بأضعف خلَّة، وإنْ وَجَدَ مهرباً آوَى إليه، ويأمل أن ينال فرصةً ما يتعللُ بها عند ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾.

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) مَذَق الوُدَّ: لم يُخلصه.

أولئك أصحابُ الأطماع؛ يتملقون في الظاهر ما دامت الأرفاقُ واصلةً إليهم، فإنْ انقطَعَتْ انقلبوا كأن لم يكن بينكم وبينهم مودة.

ويقال مَنْ كان رضاؤه بوجدان سبب، وسُخْطُه في عدم ما يوصِّله إلى نصيبه فهو ليس من أهل الولاء، إنما هو قائمٌ بحظِّه، غيرُ صالحٍ للصحبة، وأمَّا المتحقِّقُ فكما قيل:

فَسِرْتُ إليكَ في طلبِ المعالي وسَارَ سِوَايَ في طلبِ المعاشِ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾.

لو وقفوا مع الله بِسِرِّ الرضا لأَتَتْهُم فنونُ العطاء وتحقيقات المنى، ولحفظوا مع الله ـ عند الوجدان ـ مالهم من الأدب، من غير معاناة تَعبٍ، ولا مُقاساة نَصَبٍ.. ولكنهم عَرَّجُوا في أوطانِ الطمعِ فوقعوا في الذُّلِّ والحَرب.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾.

تكلَّم الفقهاءُ في صفةِ الفقيرِ، والفرقِ بينه وبين المسكين لما احتاجوا إليه في قسمة الزكاة المفروضة.. فأبو حنيفة[1] رحمة الله عليه ـ يقول: المسكينُ الذي لا شيءَ له. والفقيرُ الذي له بُلْغَةٌ من العيش.

ويقول الشافعي رحمة الله عليه: الفقير الذي لا شيء له، والمسكين الذي له بُلْغَةٌ من العيش ـ أي بالعكس.

وأهل المعرفة اختلفوا فيه؛ فمنهم من قال بالأول، ومنهم من قال بالقول الثاني، واختلافهم ليس كاختلاف الفقهاء؛ وذلك لأن كلَّ واحدٍ منهم أشار إلى ما هو حالُه ووقته ووجوده وشربه ومقامه. فَمِنْ أهل المعرفة مَنْ رأى أَنَّ أَخْذَ الزكاةِ المفروضة أَوْلى، قالوا إلى الله تعالى جعل ذلك مِلْكا للفقير، فهو أَحَلُّ له مما يُتَطَوَّعُ به عليه.

---

(١) هو النعمان بن ثابت، التيمي بالولاء الكوفي (٨٠ ـ ١٥٠ هـ = ٦٩٩ ـ ٧٦٧م) أبو حنيفة، إمام الحنفية، الفقيه المجتهد المحقق، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. قيل: أصله من أبناء فارس ولد ونشأ بالكوفة. وكان يبيع الخز ويطلب العلم في صباه، ثم انقطع للإفتاء والتدريس وأراده عمر بن هبيرة على القضاء فامتنع ورعاً، وأراده المنصور العباسي بعد ذلك على القضاء ببغداد فأبى فحبسه إلى أن مات. له «مسند» في الحديث، و «المخارج» في الفقه، و «الفقه الأكبر» وغير ذلك. توفي ببغداد وأخباره كثيرة.

(الأعلام ٨/٣٦، وتاريخ بغداد ١٣/٣٢٣ ـ ٤٢٣، وابن خلكان ٢/١٦٣، والنجوم الزاهرة ٢/١٢ والبداية والنهاية ١٠/١٠٧).

ومنهم من قال: الزكاة المفروضة مستحقة لأقوام، ورأوا الإيثار على الإخوان أوْلى من أن يزاحموا أرباب السهمان ـ مع احتياجهم أخذ الزكاة ـ وقالوا: نحن آثرنا الفَقْرَ اختياراً. . فَلِمَ نأخذ الزكاة المفروضة؟

ثم على مقتضى أصولهم في الجملة ـ لا في أخذ الزكاة ـ للفقر مراتب:

أوَّلُها الحاجةُ ثم الفقرُ ثم المسكنةُ؛ فذو الحاجة مَنْ يرضى بدنياه وتسدُّ الدنيا فقرَه، والفقير مَنْ يكتفي بعقباه وتجبُرُ الجنة فقرُه. والمسكين مَنْ لا يرضى بغير مولاه؛ لا إلى الدنيا يلتفت، ولا بالآخرة يشتغل، ولا بغير مولاه يكتفي؛ قال رسول الله ﷺ «اللهم أحيني مسكيناً وأمتني سكيناً، واحشرني في زمرة المساكين»[١] وقال ﷺ «أعوذ بك من الفقر»[٢] لأن عليه بقية؛ فهو ببقيته محجوبٌ عن ربِّه.

ويحسن أن يقال إن الفقر الذي استعاذ منه ألا يكون له منه شيء، والمسكنة المطلوبة أن تكون له بُلْغَةٌ ليتفرَّغَ بوجود تلك البلغة إلى العبادة؛ لأنه إذا لم تكن له بلغة شَغَلَه فَقْرُه عن أداء حقِّه، ولذلك استعاذ منه.

وقوم سَمَتْ هِمَمهُم عن هذا الاعتبار ـ وهذا أَوْلى بأصولهم ـ فالفقير الصادق عندهم مَنْ لا سماءَ تُظِله ولا أرضَ تُقِلُّه ولا معلومَ يشغله، فهو عبدٌ بالله لله، يردُّه إلى التمييز في أوان العبودية، وفي غير هذا الوقت فهو مُصطَلَم[٣] عن شواهده، واقِفٌ بربِّه، مُنْشَقٌّ عن جملته.

ويقال الفَقيرُ من كُسِرَتْ فقاره ـ هذا في العربية.

والفقير ـ عندهم ـ مَنْ سَقَطَ اختياره، وتعطلت عنه دياره، واندرست ـ

---

(١) أخرجه الترمذي في (السنن ٢٣٥٢)، وابن ماجه في (السنن ٤١٢٦)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٧/ ١٢)، والحاكم في (المستدرك ٤/ ٣٢٢)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٦٥٩٢ ـ ١٦٥٩٣ ـ ١٦٦٦٨ ـ ١٦٦٦٩)، والقرطبي في (التفسير ٨/ ١٦٩)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ١٠/ ٢٦٢)، والشوكاني في (الفوائد المجموعة ٢٤٠)، والعجلوني في (كشف الخفا ١/ ٢٠٦)، وابن عراق في (تنزيه الشريعة ٢/ ٣٠٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/ ٢٨٩، ٨/ ١٥٢، ٩/ ٢٧٢) وصاحب (ميزان الاعتدال ١٠٥٦٠)، والفتني في (تذكرة الموضوعات ٥٩)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٤/ ١١١)، والألباني في (إرواء الغليل ٣/ ٣٥٨، ٦/ ٢٧٢)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥١٤٥ ـ ٥٢٤٤)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٧/ ١٩٤، ٩/ ٧٥)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ٢٧٤)، والسيوطي (اللآليء المصنوعة ٢/ ١٧٤)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٢/ ٢٠٦، ٣/ ٢٢٩، ٤/ ١٨٩)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٩٧٠٢، ٩٧٠٣، ٩٧٠٤)، وابن كثير في (البداية والنهاية ٦/ ٥٨)، وابن الجوزي في (الموضوعات ٣/ ١٤١، ١٤٢) والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ٤٤).

(٢) أخرجه النسائي (استعاذة ١٤، ١٦)، وأحمد بن حنبل ٢/ ٣٠٥، ٣٢٥، ٣٥٤.

(٣) اصطلم: استؤصل.

لاستيلاء مَنْ اصْطَلَمَه ـ آثارُه، فكأنه لم تبقَ منه إلا أخبارُه، وأنشدوا:

أَمَّا الرسومُ فَخَبَّرتْ أنهم رحلوا قريباً

ويقال المسكين هو الذي أسكنه حالُه بباب مقصوده، لا يبرح عن سُدَّتِه، فهو مُعْتَكِفٌ بقلبه، ولا يغفل لحظةً عن ربِّه.

وأمَّا ﴿وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ فعلى لسان العلم: مَنْ يتولى جمع الزكاة على شرائطها المعلومة. وعلى لسان الإشارة: أَوْلَى الناس بالتصاون عن أخذ الزكاة مَنْ صَدَقَ في أعماله لله، فإنهم لا يرجون على أعمالهم عِوَضاً، ولا يتطلبون في مقابلة أحوالهم عَرَضًا، وأنشدوا:

وما أنا بالباغي على الحب رِشْوَةً ... قبيحٌ هوىً يُرجَى عليه ثواب

وأمّا المؤلَّفةُ قلوبهم ـ على لسان العلم ـ فمَنْ يُسْتَمَالُ قلبه بنوع إرفاقٍ معه، ليتوفَّر في الدين نشاطُه؛ فلهم من الزكاة سهمٌ استعطافاً لهم، وبيان ذلك مشهورٌ في مسائل الفقه.

وحاشا أن يكون في القوم مَنْ يكون حضورُه بسبب طَمَع أو لنَيْل ثوابٍ أو لرؤية مقام أو لاطلاع حال.. فذلك في صفة العوام، فأما الخواص فكما قالوا.

من لم يكن بك فانياً عن حظه ... وعن الهوى والإنْسِ والأحباب
أو تيمته صبابة جمعت له ... ما كان مفترقاً من الأسباب
فلأنَّ بين المراتب واقفٌ ... لِمَنَالِ حظٌ أو الحُسْنِ مآبِ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾.

وهم على لسان العلم: المكاتَبُون، وشرحه في مسائل الفقه معلوم.

وهؤلاء لا يتحررون ولهم تعريج على سبب، أو لهم في الدنيا والعقبى أرب، فهم لا يستفزُّهم طلب، فَمَنْ كان به بقية من هذه الجملة فهو عبدٌ لم يتحرر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله: «المكاتَبُ عَبْدٌ ما بقي عليه درهم»(١) وأنشد بعضهم:

أتمنى على الزمان مُحَالاً ... أَنْ ترى مقلتاي طَلْعَةَ حُرّ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾.

وهم على لسان العلم: مَنْ عليهم دَيْنٌ في غير معصية.

---

(١) أخرجه أبو داود (عتاق، ١)، والترمذي (بيوع ٣٥)، والموطأ (مكاتب ١، ٢).

وهؤلاء القوم لا يقضى عنهم ما لزمهم امتلاك الحق، ولهذا قيل المعرفة غريم لا يُقْضَى دَيْنُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

وعلى لسان العلم: مَنْ سلك سبيلَ الله وَجبَ له في الزكاة سهمٌ على ما جاء بيانُه في مسائل الفقه.

وفي هذه الطريقة: مَنْ سلك سبيلَ الله تتوجَّبُ عليه المطالبات؛ فيبذل أولاً مالَه ثم جاهَه ثم نَفْسه ثم روحَه.. وهذه أول قَدَمٍ في الطريق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

وهو على لسان العلم: مَنْ وقع في الغُربة، وفارَقَ وطَنه على أوصاف مخصوصة.

وعند القوم: إذا تَغَرَّبَ العبدُ عن مألوفات أوطانه فهو في قِرَى[1] الحقِّ؛ فالجوعُ طعامُه، والخلوةُ مجلسُه، والمحبةُ شرابُه، والأُنْسُ شهودُه، والحقُّ ـ تعالى ـ مشهودُه. قال تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]: لقوم وَعْدٌ في الجنة، ولآخرين نَقْدٌ في الوقت؛ اليوم شرابُ المحابِّ وغداً شراب الثواب، وفي معناه أنشدوا:

وَمُقعدِ قومٍ قد مشى من شرابنا ... وأعمى سقيناه ثلاثاً فأبْصَرَا
وأخرسَ لمْ ينطِقْ ثلاثين حِجَّةً ... أَدِرْنا عليه الكأسَ يوماً فأخبرا

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾.

عين العداوة بالمساوىء مُوَكَّلَة، وعين الرضا عن المعايب كليلة.

بسطوا اللائمة في رسول الله ﷺ فعابوه بما هو أمارة كرمه، ودلالة فضله، فقالوا: إنه بحسن خُلُقِه يسمع ما يقال له، فقال عليه السلام: «المؤمن غِرٌّ كريم والمنافق خَبٌّ لئيم»[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقيل: مَنْ العاقلُ؟ قالوا: الفَطِنُ المُتَغَافِل. وفي معناه أنشدوا:

وإذا الكريمُ أتيْتَه بخديعةٍ ... ولقِيتَه فيما ترومُ يُسارعُ

---

(١) القِرى: ما يقدّم إلى الضيف.

(٢) أخرجه أبو داود (أدب، ٥)، والترمذي (برّ ٤١)، وأحمد بن حنبل ٢/ ٢٩٤.

فاعلمْ بأنّكَ لم تُخادِعْ جاهلاً إنَّ الكريمَ - بفضله - يتخادع

قوله جلّ ذكره: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾.

أخبر أنَّ من تزيَّن للخَلْق، وتقرَّب إليهم وأدامَ رضاهم، واتَّبعَ في ذلك هواهم، فإن اللَّهَ سبحانه يُسْقِط به عن الخَلْق جاهَهُم، ويُشِينُهم فيما توهَّموا أنه يزينهم، والذي لا يَضِيعُ ما كان الله، فأمَّا ما كان لغير الله فَوَبَالٌ لِمَنْ أصابه، ومُحالٌ ما طَلَبَه.

ويقال إنَّ الخَلْق لا يصدقونك وإنْ حَلَفْت لهم، والحقُّ يَقْبَلُك وإنْ تخلَّفتَ عنه؛ فالاشتغالُ بالخلْقِ محنةٌ أنت غيرُ مأجورٍ عليها، والإقبالُ على الحقّ نعمةٌ أنت مشكورٌ عليها. والمغبونُ مَنْ تَرَكَ ما يُشكَرُ عليه ويُؤثِر ما لا يؤَجرُ عليه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

مَنْ كَفرَ بالله وأشرك في توحيده بإثباتِ موهوم استحق ما هو حقٌّ لله: تعَجّلُ عقوبته في الحال بالفُرقة، وفي المآلِ بالخلود في الحرقة.

فليس كلُّ مَنْ مُنِي بمصيبة يعلم ما ناله من المحنة، وأنشدوا:

غَداً يَتَفَرَّقُ أهلُ الهوى ويكْثُر باكٍ ومُسْتَرْجِع

قوله جلّ ذكره: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾.

ظَنُّوا أَنَّ الحقَّ - سبحانه - لا يفضحهم، فَدَلَّسُوا عليكم، وأنكروا ما انطوت عليه سرائرهم، فأرخى الله - سبحانه - عنانَ إمهالهم، ثم هتك الستر عن نفاقهم؛ فَفَضَحَهم عند أهل التحقيق، فتقنعوا بِخِمار الخجل، وكشف لأهل التحقيق مكامنَ الاعتبار. ونعوذ بالله من عقوبة أهلِ الاغترار! ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾.

مَنْ استهانَ بالدِّين، ولم يَحْتَشِمْ مِنْ تَرْكِ حُرْمةِ الإسلام جعله الله في الحال نكالاً، وسامَه في الآخرة صِغَراً وإذلالا، والحقُّ - سبحانه - لا يرضى دون أن يذيق العُتَاةَ بَأْسَه، ويَسْقِيَ كُلّا - على ما يستوجبه - كأسَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾.

جَرَّدَ العفوَ والعذابَ من عِلَّة الجُرْم، وسببَ الفِعْل مِنْ حُجّةَ العبد؛ حيث أحالَ الأمر على المشيئة. . إذ لو كان الموجِبُ لعفوِه أو تعذيبِه صفةَ العبد لَسَوَّى بينهم عند تساويهم في الوصف، فلَمَّا اشتركوا في الكفر بعد الإيمان، وعفا عن بعضهم وعذَّب بعضَهم دَلَّ على أنه يفعل ما يشاء، ويختصُّ من يشاء بما يشاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾.

المؤمِنُ بالمؤمِن يَتَقَوَّى، والمنافقُ بالمنافق يتعاضد، وطيور السماء على أُلَّافِها تَقَعُ. فالمنافِقُ لصاحبه أسٌّ[1] به قوامه، وأصلٌ به قيامه؛ يُعِينُه على فساده، ويُعَمِّي عليه طريقَ رشادِه.

والمومِنُ ينصر المؤمنَ ويُبَصِّره عيوبَه، ويُبغِّضُ لديه ويُقَبِّحُ ـ في عينه ـ ذنوبَه، وهو على السدادِ يُنْجِدُه، وعن الفسادِ يُبْعِده.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ﴾.

عن طلب الحوائج من الله تعالى.

قوله جلّ ذكره: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ﴾.

جازاهم على نسيانهم، فسمَّى جزاءَ النسيانِ نسياناً. . تركوا طاعتَه، وآثروا مُخالَفَته، فتَرَكَهُم وما اختاره لأنفسهم، قال تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

وَعَدَهم النارَ في الآخرة، ولهم العذابُ المقيمُ في الحاضرة، فمؤجَّلُ عذابِهم الحُرقَةُ، ومُعَجَّلُه الفُرقةُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

يقال: سلكتم طريقَ مَنْ قَبْلَكم من الكفار وأهل النفاق وقد كافأناهم. ويقال الذين تقدموكم زادوا عليكم فكافأناهم كما نكافىء أهل الشقاق والنفاق؛ في كثرة المدَّةِ وقوةِ العُدَّةِ، والاستمتاع في الدنيا، والاغترار بالانخراط في سِلْك الهوى. .

(١) الأُس: الأساس: أي: أصل البناء (ج) أساس.

ولكن لم تَدُمْ في الراحة مُدَّتُهم، ولم تُغنِ عنهم يومَ الشِدَّةِ عُدَّتُهم، وعما قريبٍ يَلْحَقُ بِكُم ما لَحِقَ بالذين هم قبلكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

ألم يَنْتَهِ إليهم خبرُ القرون الماضية، ونبأُ الأممِ الخالية كيف دَمَّرْنا عليهم جَمْعَهُم، وكيف بَدَّدْنا شمْلَهم؟ قَضَيْنا فيهم بالعَدْل، وحَكَمْنا باستئصالِ الكُلّ، فلم يَبْقَ منهم نافخُ نار، ولم يحصلوا إلّا على عارٍ وشنار(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

يُعين بعضُهم بعضاً على الطاعات، ويتواصَوْن بينهم بترك المحظورات؛ فتَحابُّهم في الله، وقيامُهم بحقّ الله، وصحبتُهم لله، وعداوتُهم لأجْلِ الله؛ تركوا حظوظَهم لحقّ الله؛ وآثروا على هواهم رِضاءَ الله. أولئك الذين عَصَمَهم اللّهُ في الحالِ، وسيرحمهم في المآل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وَعَدَهُم جميعاً الجنةَ، ومساكنَ طيبة، ولا يطيب المَسْكَنُ إلا برؤيةِ المحبوبِ، وكلُّ مُحِبٍ يطيب مَسْكَنُه برؤية محبوبه، ولكنهم مختلفون في الهمم؛ فَمِنْ مربوطٍ بحظٍّ مردودٍ إلى الخَلْق، ومِنْ مجذوب بحقٍّ موصول بالحق، وفي الجملة كما يقال:

أجيرانَنا ما أوحشَ الدارَ بَعْدَكُم إذا غِبْتُمُ عنها ونحن حضورُ!

ويقال قومٌ يطيب مسكنُهم بوجودِ عَطَائِه، وقومٌ يطيب مسكنُهم بشهود لقائه، وأنشدوا:

وإنّي لأَهْوى الدارَ لا يستقرُّ لي بها الودُّ إلا أنَّها من دِيارِكا

ثم قال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾: وأمارةُ أهلِ الرضوانِ وجدانُ طَعْمِه؛ فهم في رَوْحِ الأُنْسِ، ورَوْح الأنسِ لا يتقاصر عن راحة دار القُدْس بل هو أتَمُّ وأعظم.

---

(١) الشَّنار: أقبح العيب أو العار.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

دعا نَبيُّنا ـ ﷺ ـ كافةَ الخَلْقِ إلى حُسْن الخُلُق.

قال لموسى عليه السلام: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ [طه: ٤٤].

وقال لنبيِّنا ـ ﷺ ـ: ﴿واغلُظْ عليهم﴾ [التحريم: ٩] ويقال إنما هذا بعد إظهار الحجج، وبعد أزاح عُذْرَهُم بأيام المهلة؛ ففي الأول أَمَرَه بالرِّفق حيث قال: ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ﴾ [سبأ: ٤٦]، فلما أصروا واستكبروا أَمَرَه بالغِلظة عليهم. والمجاهدة أولها اللسان لشرح البرهان، وإيضاح الحجج والبيان، ثم إنْ حَصَلَ من العدوِّ جُحْدٌ بعد إزاحة العذر، فبالوعيد والزجر، ثم إنْ لم ينجعْ الكلامُ ولم ينفع الملامُ فالقتالُ والحربُ وبَذْلُ الوسعِ في الجهاد.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾.

تَسَتَّروا بأَيْمانِهم فهتَكَ اللَّهُ أستارهم وكشف أسرارهم.

قوله: ﴿وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾: وهي طَعْنُهُم في نُبوَّةِ رسوله الله ـ ﷺ ـ. وكلُّ مَنْ وَصَفَ المعبودَ بصفاتِ الخَلْق أو أضاف إلى الخلْق ما هو من خصائص نعت الحقِّ فقد قال كلمة الكفر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾.

أي أظهروا من شعار الكفر ما دَلَّ على جُحْدِهم بقلوبهم بعد ما كانوا يُظْهِرون الموافقة والاستسلامَ، وهمُّوا بما لم ينالوا من قتلِ لرسول الله ﷺ، وما سوَّلت أنفسهم أنه يُخْرِج الأَعَزُّ منها الأذلَّ، وغير ذلك.

يقال تمنوا زوالَ دولةِ الإسلام فأبى اللَّهُ إلا إعلاء أمْرِها.

ثم قال: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾: أي ما عابوه إلا بما هو أَجَلّ خصاله، فلم يحصلوا من ذلك إلا على ظهور شأنهم للكافة بما لا عذر لهم فيه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾.

وأقوى أركان التوبة حلُّ عقْدة الإصرار عن القلب، ثم القيام بجميع حقِّ الأمر على وجه الاستقصاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

منهم مَنْ أَكَّدَ العَقْدَ مع الله، ثم نَقَضَه، فَلَحِقَه شُؤْمُ ذلك؛ فَبقِي خالداً في نِفاقِه.

ويقال تطلَّبَ إحسانَ ربِّه، وتقرَّبَ إليه بإبرام عهده فلمَّا حقَّق اللَّهُ مسؤولَه واستجاب مأموله، فَسخَ ما أبرمه، وانسلخ عما التزمه، واستولى عليه البُخْلُ، فَضَنَّ بإخراج حقه، فَلَحِقَه شؤمُ نِفاقِه، بأنَ بَقِيَ إلى الأبد في أَسْرِه.

وحدُّ البخل ـ على لسان العلم ـ مَنْعُ الواجب. وبُخْلِ كلُّ أحدٍ على ما يليق بحاله، وكلُّ مَنْ آثر شيئاً من دون رضاء ربِّه فقد اتصف ببخله، فَمَنْ يَبْخَلْ بماله تَزلْ عنه البركةُ حتى يؤول إلى وارثٍ أو يزول بحارث. ومَنْ يبخلْ بنَفْسِه ويتقاعس عن طاعته تفارقه الصحةُ حتى لا يستمتع بحياته. والذي يبخل بروحِه عنه يُعاقَبُ بالخذلان حتى تكون حياتُه سبباً لشقائه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾.

أعقبهم ببخلهم نفاقاً في قلوبهم، ويصحُّ أعقبهم الله نفاقاً في قلوبهم، وفي الجملة: مَنْ نَقَضَ عهده في نفسه رفض الودَّ من أصله، وكلُّ من أظهر في الجملة خيراً واستبطن شراً فقد نافق بقسطه. والمنافق في الصف الأخير في دنياه، وفي الدَرْكِ الأسفل من النار في عقباه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

خوَّفَهم بعلمه كما خوَّفهم بفعله في أكثر من موضعٍ من كتابه.

و ﴿سِرَّهُمْ﴾ ما لا يطلع عليه غير الله.

و ﴿وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ ما يتسارون بعضهم مع بعض. ويحتمل أن يكونَ ما لنفوسهم عليه إشرافٌ من خواطرهم[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ

(١) قال القشيري في رسالته عند حديثه عن السر: يُحتمل أن الأسرار لطيفة مودعة في القالب الإنساني كالأرواح، وأصولهم تقتضي أنها محل المشاهدة، كما أن الأرواح محل للمحبة والقلوب محل للمعارف، وقالوا: السر مالك عليه إشراف، وسرّ السرّ ما لا إطلاع عليه لغير الحق ويطلق لفظ السر على ما يكون مصوناً مكتوماً بين العبد والحق سبحانه في الأحوال، وعليه يحمل قول من قال: أسرارنا بكر لم يفتضها وهم واهم. (الرسالة القشيرية ص٨٨).

﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

عابوا الذين قَصُرَتْ أيديهم عن الإكثار في الصَدَقة وجادوا بما وصَلَتْ إليه أيديهم، فَشَكَرَ اللَّهُ سَعْيَ مَنْ أخلصَ في صدقته بعدما عَلمَ صِدْقَه فيها. وقليلُ أهلِ الإخلاص أفضلُ مِنْ كثيرِ أهلِ النفاقِ.

ولمَّا أوجدوا المسلمين بسخريتهم وَصَفَ اللَّهُ ـ سبحانه وتعالى ـ نفْسَه بما يستحيل في وصفه ـ على التحقيق ـ هو السخرية بأحدٍ. . تطيباً لقلوبِ أوليائه، فقد تقدَّس عن ذلك لعِزَّة ربوبيته.

قوله جلّ ذكره: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

خَتَمَ القضايا بأنَّه لا يغفر لأهل الشِرْكِ والنفاق، فلا تنفعهم الوسائل، ولا ينتعش منهم الساقط.

ويقال: مَنْ غَلَبَته شِقْوتُنا لم ينفعه تضرعه ودعوته.

ويقال: صريعُ القدرة لا يُنْعِشُه الجُهد والحيلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾.

استحوذ عليهم سرورُهم بتخلفهم، ولم يعلموا أن ثبورَهم في تأخرهم وما آثروه من راحة نفوسهم على أداء حق الله، والخروج في صحبة رسول الله ـ ﷺ، فنزع الله الراحةَ بما عاقَبَهم، وسَيَصْلَوْنَ سعيراً في الآخرة بما قدَّموه من نفاقهم، وسوف يتحسرُون ولات حينَ تحسُّر.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

بَدَّل الله مَسَرَّتهم بِحَسْرةٍ، وفَرْحَتَهم بتَرْحَةٍ، وراحتهم بِعَبْرَةٍ، حتى يكثر بكاؤهم في العُقبى كما كثر ضحكُهم في الدنيا، وذلك جزاءُ مَنْ كَفَرَ بربِّه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾.

يقول: بعدما ظهرت خيانَتُهم، وتقرر كذبهم ونفاقهم، لا تَنْخَدِعْ بتملقهم، ولا تَثِقْ بقولهم، ولا تُمَكِّنْهم مِنْ صُحبتك فيما يُظْهِرونه مِنْ وفاقك. فإذا وَهَنَ سِلْكُ العهدِ فلا يَحْتَملُ بَعْدَهُ الشَّدَّ، وإذا اتسع الخَرْقُ لا ينفع بَعْدَهُ الرَّقْعُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

ليس بعد التَّبَرِّي التولي، ولا بعدَ الفراق الوفاق، ولا بعد الحجبة قربة. مضى لهم من الزمان ما كان لأملهم فيه فسحة، أو لرجائهم مساغ، أو لظنِّهم تحقيق، ولكن سَبَقَ لهم القضاءُ بالشقاوة، ونعوذ بالله مِنْ سوءِ الخاتمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

يقول لا تحسبنَّ تمكينَ أهل النِّفاق مِنْ تنفيذ مرادهم، وتكثيرَ أموالهم إسداءَ معروف مِنّا إليهم، أو إسباغَ إنعام مِنْ لَدُنَّا عليهم، إنما ذلك مَكْرٌ بهم، واستدراجُ لهم، وإمهالٌ لا إهمال. وسيلقون غِبه[1] عن قريب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ﴾.

إذا تَوَجَّه عليهم الأمرُ بالجهاد، واشتدَّ عليهم حكمُ الإلزام، تعلَّلوا إلى السَّعَةِ، وركنوا إلى اختيار الدَّعَةَ واحتالوا في موجِباتِ التَّخَلُّفِ، أولئك الذين خَصَّهم بخذلانه، وصَرَفَ قلوبهم عن ابتغاء رضوانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

بَعُدُوا عن بِساط العِبادة فاستطابوا الدّعة، ورضوا بالتعريج في منازل الفرقة، ولو أنهم رجعوا إلى الله تعالى بِصِدقِ النَّدم لقابَلهُم بالفضل والكرم، ولكنْ القضاءَ غالِبٌ، والتكلفَ ساقطٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

ليس مَنْ أَقْبَلَ كمَنْ أعرض وصُدَّ، ولا مَنْ قُبِلَ أَمْرُه كَمَنْ رُدَّ، ولا من وحَّدَ كمن جَحَد، ولا من عَبَدَ كمن عَنَدَ، ولا مَنْ أَتَى كمن أَبَى... فلا جَرَمَ رَبِحتْ تِجَارَتُهم، وجَلتْ رُتْبَتُهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

تشير الآية إلى أن راحاتِهم موعودة، وإنْ كانت الأتعابُ في الحال موجودةً مشهودة.

---

(١) الغِبُّ: العاقبة.

ويقال صادقُ يقينهم بالثواب يُهوِّن عليهم مقاساةَ ما يلقونه ـ في الوقت ـ من الأتعاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وهم أصحاب الأعذار ـ في قول أهل التفسير ـ طلبوا الإذنَ في التأخرِ عن رسول الله ـ ﷺ ـ في غزوة تبوك فسقط عنهم اللَّوْمُ.

أما الذين تأخروا بغير عُذْرٍ فقد توجَّه عليهم اللوم، وهو لهم في المستقبل الوعيد.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قيمةُ الفقرِ تظهر عند سقوط الأمر، ولو لم يكن في القلة خيرٌ إلا هذا لكفي لها بهذا فضيلة؛ بقوا في أوطانهم ولم يتوجَّه عليهم بالجهادِ أمرٌ، ولا بمفارقة المنزل امتحان. واكتفى منهم بنصيحة القلب، واعتقادِ أَنْ لو قدروا لخرجوا.

وأصحابُ الأموال امتُحِنوا ـ اليومَ ـ بِجَمْعِهَا ثم بِحِفظِها، ثم مَلَكَتْهُم محنتُها حتى شقَّتْ عليهم الغيبةُ عنها، ثم توجَّه اللومُ عليهم في تَرْكِ إنفاقها، ثم ما يعقبه ـ غداً من الحسابِ والعذاب يربو على الجميع.

وإنَّما رفع الحَرَجَ عن أولئك بشرطٍ وهو قوله: ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فإذا لم يوجد هذا الشرطُ فالحرجُ غيرُ مرتفعٍ عنهم.

قوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾: المُحْسِنُ الذي لا تكون للشرع منه مطالبة لا في حقِّ الله ولا في حقِّ الخَلْق.

ويقال هو الذي يعلم أَنَّ الحادثاتِ كلَّها من الله تعالى.

ويقال هو الذي يقوم بحقوقِ ما نِيط به أَمْرُه؛ فلو كان طيرٌ في حكمه وقَصَّرَ في عَلَفِه ـ لم يكن محسناً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾.

منَعَهم الفقرُ عن الحَرَاك فالتمسوا من الرسول ـ ﷺ ـ أن يحملهم معه ويهيئ أسبابَهم، ولم يكن في الحال للرسول عليه السلام سَعَةٌ ليوافقَ سُؤْلَهم، وفي حالة ضيق صدره ـ ﷺ ـ حَلَفَ إنه لا يَحْمِلُهم، ثم رآهم ﷺ يتأهبون للخروج، وقالوا في ذلك، فقال عليه السلام: «إنما يحملكم الله»[1].

(١) أخرجه السيوطي في (الدر المنثور ٦/ ١٤).

فلمَّا رَدَّهم الرسول ـ ﷺ ـ عن الإجابة في أن يحملهم رجعوا عنه بوصف الخيبة كما قال تعالى: ﴿تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ كما قال قائلهم:

قال لي مَنْ أُحِبُّ والبيْن قد حَلَّ ودمعي مرافِقٌ لشهيقي
ما تُرى في الطريقِ تصنع بعدي؟ قلتُ: أبكي عليك طول الطريق

قوله: ﴿حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ شقَّ عليهم أنْ يكونَ على قلب الرسول ـ ﷺ ـ بسببهم شُغْلٌ فَتَمَنَّوْا أن لو أُزيحَ هذا الشغلُ، لا ميلاً إلى الدنيا ولكن لئلا تعودَ إلى قلبه ـ عليه السلام ـ مِنْ قِبَلِهم كراهةٌ، ولهذا قيل:

مَنْ عَفَّ خَفَّ على الصديقِ لِقاؤه وأخو الحوائجِ مُمْجِجُ مَمْلولُ

ثم إنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ لمَّا عَلِمَ ذلك منهم، وتمحضت قلوبُهم للتعُّلق بالله، وخَلَتْ عقائدُهم عن مُساكنةِ مخلوقٍ تَدَارَكَ اللَّهُ أحوالَهم؛ فأمر اللَّهُ رسولَه عليه السلام أَنْ يَحمِلَهم.. بذلك جَرَتْ سُنَّتُه، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ [الشورى: ٢٨].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَئْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾.

يريد السبيل بالعقوبة والملامة على الذين يتأخرون عنك في الخروج إلى الجهادِ ولهم الأُهبة والمُكْنَة، وتساعدهم على الخروج الاستطاعةُ والقدرةُ؛ فإذا استأذنوك للخروج وأظهروا لم يَصْدقُوا، فهم مُسْتَوجِبُون للنكير عليهم، لأنَّ مَنْ صَدَقَ في الولاء لا يحتشم من مقاساةِ العناء، والذي هو في الوْلاءِ مما ذِقّ وللصدْقِ مفارِقٌ يتعلَّلُ بما لا أصل له، لأنه حُرِمَ الخلوصَ فيما هو أَهْلٌ له، وكذا قيل:

إنَّ المملولَ إذا أراد قطيعةً مَلَّ الوصَالَ وقال كان وكانا

قوله جلّ ذكره: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾.

قيل في التفسير: مع النساء في البيوت.

والإسلام يثني على الشجاعة، وفي الخبر: «إنَّ الله تعالى يحب الشجاعة، ولو على قتل حية»[١]، وفي معناه أنشدوا:

كُتِبَ القتلُ والقتالُ علينا وعلى المُحْصَنَاتِ جرُّ الذُيولِ[٢]

ومَنْ استوطن مركبَ الكسلِ، واكتسى لِباسَ الفَشَلِ، ورَكَنَ إلى مخاريق الحِيَل ـ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في (قضاء الحوائج ٤٤).
(٢) المُحْصنات: (ج) المحصنة: الحُرّة أو العفيفة أو المتزوجة.

حُرِمَ استحقاقَ القُربة. ومَنْ أراد اللَّهُ ـ تعالى ـ هَوَانَه، وأذاقه خِذْلانَه، فليس له عن حكم الله مناصٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أراد إذا تَقَوَّلُوا بما هم فيه كاذبون، وضللوا عما كانوا في تخلفهم به يتَّصِفون ـ فأَخْبِرُوهم أنَّا عرَّفَنَا اللَّهُ كَذِبَكم فيما تقولون، واتضحت لَنَا فضائحُكم، وتَميَّزَ ـ بما أظهره الله لنا ـ سَيِّئُكم وصالِحُكم، فإنَّ اللَّهَ تعالى لا يَخْفَى عليه شيءٌ مِنْ أحوالكم، وستَلْقَوْنَ غِبَّ أعمالكم في آجلكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

يريد أنهم في حَلِفِهم باللَّهِ لكم أن يدفع السوءَ مِنْ قِبَلِكم، وليس قصْدهم بذلك خلوصاً في اعتذارهم، ولا ندامةً على ما احتقبوه من أوزارهم، إنما ذلك لتُعْرِضُوا عنهم... فأَعْرِضوا عنهم؛ فإنَّ ذلك ليس بمُنْجِيهم مما سيلقونه غداً من عقوبة الله لهم، فإنَّ اللَّهَ يُمْهِلُ العاصيَ حتى يتوهَّمَ أنه قد تَجاوزَ عنه، وما ذلك إلا مَكْرٌ عُومِل به، فإذا أذاقه ما يستوجِبُه عَلِمَ أن الأمَر بخلاف ما ظنّه، وما ينفع ظاهرٌ مغبوطٌ، والحال ـ في الحقيقة ـ يأْسٌ من الرحمة وقنوطٌ، وفي معناه قالوا:

وقد حسدوني في قُرْبِ داري مِنهُمُ   وكم مِن قريبِ الدارِ وهو بعيدُ!

قوله جلّ ذكره: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

من كان مسخوطَ الحقِّ لا ينفعه أن يكون مرضيَّ الخَلْقِ، وليست العِبْرَةُ بقولِ غيرِ اللَّهِ إنَّما المدارُ على ما سَبَقَ من السعادة في حُكْمِ الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

جُبِلَتْ قلوبُهم على القسوةِ فلم تَقْرَعْها هواجِمُ الصفوة، وكانوا عن أشكالهم في الخِلْقَةِ مستأخرين بما (....)[1] من سوء الخُلُق؛ فَهُمْ مِنَ استبانةِ الحقائق أبعد، ومن استيجاب الهوان أقرب.

---

(١) بياض في الأصل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

خَبُثَت عقائدُهم فانتظروا للمسلمين ما تعلقت به مناهم من حلول المِحن بهم، فأبى اللَّهُ إلا أن يَحيقَ بهم مكرُهم، ولهذا قيل في المثل: إذا حَفَرْتَ لأخيك فَوَسِّعْ فربما يكون ذلك مقيلَك!

ويقال مَنْ نَظَر إلى ورائه يُوَفَّق في كثيرٍ من تدبيره ورأيه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

تَنَوَّعوا؛ فمنهم مَنْ غَشَّ ولم يربح، ومنهم مَنْ نَصَحَ فلم يَخْسِرْ، فأمّا الذين مذقوا فهم في مهواةِ هوانِهم، وأما الذين صَدَقُوا ففي رَوْح إحسانهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

السابقون مختلفون؛ فَمِنْ سابقٍ بِصِدقِ قَدَمِه، ومِنْ سابقٍ بصدقِ هِمَمِه.

ويقال السابقُ مَنْ ساعَدَتْه القسمةُ بالتوفيق، وأسعَدَتْه القضية بالتحقيق، فسبقت له من الله رحمتُه.

ويقال سبقهم بعنايته ثم سبقوا بطاعتهم له.

ويقال جَمَعَ الرِّضاءُ صَفَّيْهِم: السابقَ منهم واللاحقَ بهم؛ قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾.

ويقال ليس اللاحقُ كالسابق، فالسابقُ في رَوْحِ الطلبِ، واللاحِقُ في مقاساةِ التعبِ، ومُعاناةِ النَّصَبِ، وأنشدوا:

السُّبَّاقَ السُّبَّاقَ قولاً وفعلاً   حَذِّروا النَّفْسَ حَسْرَةَ المسبوقِ.

ويقال رِضَاهُم عن اللَّهِ قضيةُ رضاء الله عنهم؛ فلولا أنه رَضِيَ عنهم في آزالِه... فمتى وصلوا إلى رضاهم عنه؟!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾.

تشاكل المخلِصُ والمنافِقُ في الصورة فلم يَتَمَيَّزا بالمباني، وإن تنافَيا في الحقائق

والمعاني وتقاصر عِلْمُهم عن العرفان فَهَتَك الله لنبيِّه أستارَهم. . فَعَرَفَهم، وهم بإشرافه عليهم جاهلون، وعلى الإقامة في أوطان نفاقهم مصروفون، فلم ينفعهم طولُ إمهاله لهم.

﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾: الأولى في الدنيا بالفضيحة فيما ينالهم من المحن والفتن والأمراض، ولا يحصل لهم عليها في الآخرة عِوَضٌ ولا أَجْرٌ ولا مَسَرَّةٌ، والثانية عذابُ القبر.

وقيل المرة الأولى بِقَبْضِ أرواحهم، والثانية عذاب القبر ثم يوم القيامة يُمْتحنون بالعذاب الأكبر.

ويقال المرة الأولى ظنهُّم أنهم على شيء، والمرة الثانية بخيبة آمالهم وظهور ما لم يحتسبوه لهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

إنْ اتصفوا بعيوبهم فلقد اعترفوا بذنوبهم. والإقرارُ توكيدُ الحقوق فيما بين الخَلْق في مشاهد الحكم، ولكن الإقرار بحق الله ـ سبحانه ـ يوجِبُ إسقاط الجُرْم في مقتضى سُنَّةِ. كَرَم الحقّ ـ سبحانه، وفي معناه أنشدوا:

قيل لي: قد أَساءَ فيكَ فلانٌ ... وسكوتُ الفتى على الضيم عارُ
قلتُ: قد جاءني فأَحْسَنَ عُذرا ... دِيَةُ الذَّنبِ عندنا الاعتذار

﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾: ففي قوله: ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ بعد قوله: ﴿صَٰلِحًا﴾ دليلٌ على أن الزَّلَّةَ لا تحبِطُ ثوابَ الطاعةِ؛ إذ لو أحبطته لم يكن العملُ صالحاً.

وكذلك قوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾: وعسى تفيد أنه لا يجب على الله شيء فقد يتوب وقد لا يتوب. ولأَنَّ قوله صِدْقٌ. . فإذا أخبر أنَّه يجِيبُ فإنه يفعل، فيجب منه لا يجب عليه.

ويقال قوله: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾: يحتمل معناه أنهم يتوبون؛ فالتوبة عملٌ صالح. وقوله: ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾: يحتمل أنه نَقْضُهم التوبة، فتكون الإشارة في قوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أنهم إن نقضوا توبتهم وعادوا إلى ما تركوه من زَلَّتهم فواجبٌ مِنَّا أن نتوب عليهم، ولئن بطلت ـ بنَقْضِهم ـ توبتُهم. . لَمَا اخْتَلَّتْ ـ بفضلنا ـ توبتُنا عليهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

تطهرهم مِنْ طَلَبِ الأعواض عليها، وتزكيهم عن ملاحظتهم إياها.

تطهرهم بها عن شُحِّ نفوسهم، وتزكيهم بها بألا يتكاثروا بأموالهم؛ فَيَرَوْا عظيم مِنَّةِ الله عليهم بوجدان التجرُّد منها.

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾: إنْ تُعاشِرْهم بِهِمَّتِكَ معهم أَثْمنُ لهم من استقلالهم بأموالهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

تمدَّحَ ـ سبحانه ـ بقبول توبة العاصين إذ بها يُظْهِرُ كَرَمَه، كما تمدَّح بجلال عِزِّه ونَبَّههم على أَنْ يَعرِفوا به جَلاله وقِدَمَه.

وكما تَوَحَّدَ باستحقاق كبريائه وعظمته تَفَرَّدَ بقبول توبة العبد عن جُرْمِه وزَلَّتِه. فكما لا شبيهَ له في جماله وجلاله لا شريكَ له في أفضاله وإقباله؛ يأخذ الصدقاتِ ـ قَلَّتْ أو كَثُرتْ، فَقَدْرُ الصَّدَقةِ وخَطرُها بِأَخْذِه لها لا بكثرتها وقِلَّتها؛ قَلَّتْ في الصورة صَدَقَتُهم ولكِنْ لمَّا أَخَذَها وقَبِلها جَلَّتْ بقبوله لها، كما قيل:

يكون أُجاجاً ـ دونكم، فإذا انتهى إليكم تَلَقى طيبَكم فيطيبُ[(١)]

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

خوَّفهم برؤيته ـ سبحانه ـ لأعمالهم، فلمَّا عَلِمَ أَنَّ فيهم مَنْ تتقاصر حالتُه عن الاحتشام لاطِّلاعِ الحقِّ قال: ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾، ثم قال لِمَنْ نَزَلَتْ رتبتُه: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾. وقد خَسِرَ مَنْ لا يمنعه الحياءُ، ولا يردعه الاحتشامُ، وسَقَطَ من عينِ اللَّهِ مَنْ هَتَكَ جلبابَ الحياءِ، كما قيل:

إذا قَلَّ ماءُ الوَجْهِ قَلَّ حياؤه ولا خيرَ في وجهٍ إذا قَلَّ ماؤه

ومَنْ لم يَمْنَعْه الحياءُ عن تعاطي المكروهاتِ في العاجل سيلقى غِبَّ ذلك، وخسرانَه عن قريبٍ في الآجل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

لم يُصَرِّحْ بقبول توبتهم، ولم يَسِمْهُم باليأسِ من غفرانه، فوقفوا على قَدَمِ الخجلِ، متميلين بين الرهبة والرغبة، متردِّدين بين الخوف والرجاء. أخبر اللَّهُ ـ

(١) الأُجاج: الشديد الملوحة أو المرارة.

سبحانه ـ أنَّه إنْ عَذَّبَهم فلا اعتراضَ يتوجّه عليه، وإنْ رَحِمَهم فلا سبيلَ لأحدٍ إليه، قال بعضهم:

ويشبعني من الآمال وعدٌ ومن علمي بتقصيري وعيد

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

مَنْ لم يكن مخلصاً في ولائه لم يأنسْ القلبُ بكدِّه وعنائه، فَتَوَدُّدُه في الظاهر ينادي عليه بالتوائه، وبقوله بالتكلُّفِ شهادةُ صِدْقٍ على عَدَمِ صفائه:

مَنْ لم يكنْ للوصال أهلاً فكلُّ إحسانِه ذنوبُ

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾.

المقام في أماكن العصيان، والتعريج في أوطان أهل الجحود والطغيان ـ من علامات الممالأة مع أربابها، وسُكَّانِها وقُطَّانِها.

والتباعدُ عن مَسَاكِنِهم، وهجرانُ مَنْ جَنَحَ إلى مَسالِكهم عَلَمٌ لِمَنْ أشرب قلبه مخالفتهم، وباشرت سِرَّه عداوتُهم.

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾: يتطهرون عن المعاصي وهذه سِمَةُ العابدين، ويتطهرون عن الشهوات والأماني وتلك صفة الزاهدين، ويتطهرون عن محبة المخلوقين، ثم عن شهود أنفسهم بما يتصفون وتلك صفة العارفين.

قوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾: أسرارَهم عن المساكنةِ إلى كل مخلوق، أو ملاحظةِ كل مُحْدَثٍ مسبوق.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

المريدُ يجب أن يؤسِّسَ بنيانَه على يقينٍ صادقٍ فيما يعتقده، ثم على خلوص في العزيمة ألا ينصرِفَ قبل الوصولِ عن الطريق الذي يسلكه، ثم على انسلاخه عن جميع مُناه وشهواتِه، ومآربه ومطالبِه، ثم يبني أَمْرَه على دوام ذِكْرِه بحيث لا يعترِضُه نِسيان، ثم على ملازمة حق المسلمين وتقديم مصالحهم... بالإيثار على نفسه. والذي ضَيَّعَ الأصولَ في ابتدائه حُرِمَ الوصول في انتهائه، والذي لم يُحْكِمُ الأساسَ في بنائِه سَقَطَ السَّقْفُ على جدرانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

عروقُ النِّفاقِ لا تُقتَلَعُ من عَرَصَاتِ اليقين إلا بِمِنجَل التَّحَقُّقِ بصحيح البرهان؛ فَمَنْ أُيِّدَ لإدامة المسير، وَوُفِّقَ لتأمل البرهان وَصَلَ إلى ثَلَجِ الصدر وَرَوْحِ العرفان.

ومَنْ أقام على مُعْتَادِ التقليد لم يسترِحْ قلبُه من كَدِّ التردُّدِ، وظلمةِ التجويز، وَجَوَلَانِ الخواطر المشكلة في القلب.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

لمّا كان من المؤمنين تسليمُ أَنفسهم وأموالهم لحُكْم الله، وكان من الله الجزاءُ والثوابُ؛ أي هناك عِوَضٌ ومُعَوض، فَلِمَا بَين ذلك وبين التِّجارة من مشابهة أطلق لفظَ الاشتراءِ، وقد قال تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ...﴾ [الصف: ١٠]، وقال: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦].

وفي الحقيقة لا يصحُّ في وصف الحق ـ سبحانه ـ الاشتراء لأنه مَالِكُ سِوَاه، وهو مالِكُ الأعيانِ كلِّها. كما أَنَّ مَنْ لم يستَحدِثْ مِلْكاً لا يُقَال إنه ـ في الحقيقة ـ باع.

وللمقال في هذه الآية مجال... فيقال: البائعُ لا يستحقُّ الثمنَ إذا امتنع عن تسليم المبيع، فكذلك لا يستحق العبدُ الجزاءَ الموعودَ إلا بعد تسليمِ النَّفسِ والمالِ على موجب أوامر الشرع، فَمَنْ قَعَدَ أو فَرَّطَ فغيرُ مستحقٍ للجزاء.

ويقال لا يجوز في الشرع أن يبيع الشخصُ ويشتري شيئاً واحداً فيكونَ بائعاً ومشترياً إلا إذا كان أَباً وجَدّاً! ولكن ذلك هنا بلفظ الشفقة؛ فالحقُّ بإذنه كانت رَحْمَتُه بالعبد أتمَّ، ونظرُه له أبلغَ، وكان للمؤمِن فيه من الغبطة، ما لا يخفى، فصحَّ ذلك وإن كان حُكمه لا يقاس على حكم غيره.

ويقال إنما قال: ﴿ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ ولم يقل «قلوبهم» لأنَّ النَّفْسَ محلُّ الآفات فجعل الجنة في مقابلتها، وجعل ثَمَنَ القلبِ أَجَلَّ من الجنة، وهو ما يخصُّ به أولياءه في الجنة مِنْ عزيزِ رؤيته.

ويقال النَّفسُ محلُّ العيب، والكريم يرغب في شراء ما يزهد فيه غيره.

ويقال مَنْ اشترى شيئاً لينتفع به اشترى خيرَ ما يجده، ومن اشترى شيئاً لِيَنْتَفِعَ به غيرهُ يشتري ما رُدَّ على صاحبه لِيَنْفَعَه بثمنه.

وفي بعض الكتب المنزلة على بعض الأنبياءِ ـ عليهم السلام ـ: يا بني آدم، ما خلقتُكم لأربحَ عليكم ولكن خَلَقْتُكم لتربحوا عليَّ.

ويقال اشترى منهم نفوسَهم فرهبوا على قلوبهم شكراً له حيث اشترى نفوسَهم، وأمَّا القلبُ فاستأثره قهراً، والقهر في سُنَّةِ الأحبابِ أعزُّ من الفضل، وفي معناه أنشدوا:

بُنِيَ الحبُّ على القَهْرِ فلو عَدَلَ المحبوبُ يوماً لَسَمُج[1]
ليس يُسْتَحْسَنُ في حكم الهوى عاشِقٌ يَطْلُبُ تأليفَ الحُجَج

وكان الشيخ أبو علي الدقاق[2] رحمه الله يقول: «لم يقل اشترى قلوبَهم لأن القلوبَ وَقْفٌ على محبته، والوقفُ لا يُشترى».

ويقال الطيرُ في الهواء، والسَّمَكُ في الماءِ لا يصحُّ شراؤهما لأنه غير ممكن تسليمهما، كذلك القلبُ.. صاحبُه لا يمكنه تسليمه، قال تعالى:

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وفي التوراة: «الجنَّةُ جنتي والمالُ مالي فاشتروا جنتي بمالي فإنْ ربحتم فلكم وإنْ خَسِرْتُم فعليَّ».

ويقال عَلِمَ سوءَ خُلقِك فاشتراك قبل أنْ أوجدك، وغَالِي بثمنك لئلا يكونَ لَكَ حقُّ الاعتراض عند بلوغك.

ويقال ليس للمؤمن أن يتعصَّبَ لنفسه بحالٍ لأنها ليست له، والذي اشتراها أَوْلى بها من صاحبها الذي هو أجنبيٌّ عنها.

ويقال أخبر أنه اشتراها لئلا يَدَّعِيَ العبدُ فيها؛ فلا يساكنها ولا يلاحظها ولا يُعْجَبُ بها.

قوله: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ سيّان عندهم أن يَقْتُلوا أو يُقْتَلوا، قال قائلهم:

وإنَّ دَماً أجريتَه لكَ شاكرٌ وإنَّ فؤاداً خِزْتَه لكَ حامدُ

ويقال قال: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ﴾ ولم يقل بثمن مبيعكم لأنه لم يكن مِنَّا بَيْعٌ، وإنما أخبر عن نفسه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فجعل بَيْعَه بَيْعَنا، وهذا مثلما قال في صفة نبيه ـ ﷺ ـ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]وهذا عين الجَمْع الذي أشار إليه القوم.

---

(١) سمج الشيء: قبح.
(٢) هو أبو علي الحسن بن علي النيسابوري المعروف بالدقاق (الرسالة القشيرية ص٩) وهو أستاذ القشيري.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾.

مَدَحَهُم بعد ما أوقع عليهم سِمَةَ الاشتراء بقوله ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ...﴾ ومَنْ رَضِيَ بما اشتراه فإنَّ له حقَّ الردِّ إذا لم يَعْلَمْ العيبَ وقتَ الشراء، فأمَّا إذا كان عالماً به فليس له حقُّ الردِّ؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢].

ويقال مَنْ اشترى شيئاً فَوَجَدَ به عيْباً ردَّه على مَنْ منه اشتراه ولكنه ـ سبحانه ـ اشترى نفوسَنا منه، فإذا أراد الردَّ فلا يردُّ إلا على نَفْسِه؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ وكما أنَّ الردَّ إليه فلو ردَّنا كان الردُّ عليه.

قوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ أي الراجعون إلى الله، فَمِنْ راجعٍ يرجع عن زلَّتِه إلى طاعته، ومِنْ راجعٍ، يرجع عن متابعة هواه إلى موافقة رضاه، ومِنْ راجعٍ يرجع عن شهود نفسه إلى شهود لطفه، ومِنْ راجعٍ يرجع عن الإحساس بنفسه وأبناءِ جِنسِه إلى الاستغراق في حقائق حقِّه.

ويقال تَائِبٌ يرجع عن أفعاله إلى تبديل أحواله؛ فيجد غداً فنونَ أفضاله، وصنوفَ لطفه ونواله، وتائبٌ يرجع عن كل غيرٍ وضدٍ إلى ربِّه بربِّه لربِّه بِمَحْوِ كلِّ أَرَبٍ، وعَدَمِ الإحسان بكلِّ طلب.

وتائب يرجع لحظِّ نَفْسِه من جزيل ثوابه أو حَذَراً ـ على نفسه ـ من أليم عذابه، وتائب يرجع لأمره برجوعه وإيابه، وتائب يرجع طلباً لفرح نفسه حين ينجو مِنْ أوضاره[1]، ويخلص من شؤم أوزاره، وتائب يرجع لَمَّا سمع أنه قال: إنَّ اللَّهَ أَفْرَحُ بتوبةِ عَبْدِه من الأعرابي الذي وَجَدَ ضَالَّتَه ـ كما في الخبر، «وشتَّان ما هما»! وأنشدوا:

أيا قادماً من سَفْرَةِ الهَجْرِ مَرْحَبا   أُنَادِيكَ لا أنساكَ ما هبَّتْ الصَّبَا

وأمَّا قوله ﴿ٱلْعَٰبِدُونَ﴾: فهم الخاضعون بكلِّ وجه، الذين لا تَسْتَرِقُّهم كرائمُ الدنيا، ولا تستعبدهم عظائمُ العُقْبَى. ولا يكون العبدُ عبداً لله ـ على الحقيقة ـ إلا بعد تجرُّدِه عن كل شيءٍ حادثٍ. وكلُّ أحدٍ فهو له عَبْدٌ من حيث الخِلْقة؛ قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]. ولكنَّ صاحبَ العبودية خاصٌّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلْحَٰمِدُونَ﴾.

هم الشاكرون له على وجود أفضاله، المُثْنُون عليه عند شهود جلاله وجماله.

---

(١) الأوضار: (ج) الوضر: الوسخ من الدسم أو غيره.

ويقال: الحامدون بلا اعتراضٍ على ما يحصل بقدرته، وبلا انقباضٍ عما يجب من طاعته.

ويقال الحامدون له على منعه وبلائه كما يحمدونه على نفعه وعطائه.

ويقال الحامدون إذا اشتكى مَنْ لا فُتُوَّة[1] له المادحون إذا بكى مَنْ لا مروءةَ له.

ويقال الشاكرون له إنْ أدناهم، الحامدون له إن أقصاهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾.

الصائمون ولكن عن شهود غير الله، الممتنعون عن خدمة غير الله، المكتفون من الله بالله.

ويقال السائحون الذين يسيحون في الأرض على جهة الاعتبار طلباً للاستبصار، ويسيحون بقلوبهم في مشارق الأرض ومغاربها بالتفكُّر في جوانبها ومناكبها، والاستدلال بتغيُّرها على مُنْشِئِها، والتحقق بحكمةِ خالِقها بما يَرَوْنَ من الآيات فيها، ويسيحون بأسرارهم في الملكوتِ فيجدون رَوْحَ الوصال. ويعيشون بنسيم الإنْسِ بالتحقق بشهود الحق.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ﴾.

الخاضعون لله في جميع الأحوال بخمودهم تحت سلطان التجلّي، وفي الخبر. «إن الله ما تجلَّى لشيءٍ إلا خَشَع له»[2].

وكما يكون ـ في الظاهر ـ راكعاً يكون في الباطن خاشعاً، ففي الظاهر بإحسان الحقّ إليه يُحْسنِ تولِّيه، وفي الباطن كالعيان للعيان للحقّ بأنوار تجلِّيه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلسَّٰجِدُونَ﴾.

في الظاهر بنفوسهم على بِساط العبودية، وفي الباطن بقلوبهم عند شهود الربوبية. والسجود على أقسام: سجود عند صحة القصود فيسجد بنعت التذلل على بساط الافتقار، ولا يرفع رأسه عن السجود إلا عند تباشير الوصال. وسجودٌ عند الشهود إذا تجلَّى الحقُّ لقلبه سَجَدَ بقلبه، فلم ينظر بعده إلى غيره، وسجودٌ في حال الوجود وذلك بخموده عن كليته، وفنائه عن الإحساس بجميع أوصافه وجملته.

---

(١) قال القشيري في رسالته عند حديثه عن الفتوة: سأل شقيق البلخي جعفر بن محمد عن الفتوة فقال: ما تقول أنت؟ فقال شقيق: إن أُعطينا شكرنا، وإن منعنا صبرنا، فقال جعفر بن محمد: الكلاب عندنا بالمدينة تفعل كذلك، فقال شقيق: يا ابن بنت رسول الله: ما الفتوة عندكم؟ فقال: إن أُعطينا آثرنا، وإن مُنعنا شكرنا. (الرسالة القشيرية ص٢٣٠).

(٢) أخرجه النسائي (كسوف ١٦)، وابن ماجه (إقامة ١٥٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلْآمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

هم الذين يَدْعُون الخَلْقَ إلى الله، ويُحَذرونهم عن غير الله. يتواصَوْن بالإقبال على الله وتَرْكِ الاشتغال بغير الله. يأمرون أنفسَهم بالتزام الطاعات بحَمْلِهم إياها على سَنَن الاستقامة، وينْهَوْن أنفسَهم عن اتِّباع المنى والشهوات بِتَرْكِ التعريج في أوطان الغفلة، وما تعودوه من المساكنة والاستنامة.

والحافظون لحدود الله، هم الواقفون حيث وقفهم الله، الذين لا يتحركون إلا إذا حرّكهم ولا يَسْكنُون إلا إذا سكنهم، ويحفظون مع الله أَنْفاسَهُمْ.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

أصلُ الدين التَبَرّي من الأعداء، والتولّي للأولياء، والوليُّ لا قريبَ له ولا حميم، ولا نسيبَ له ولا صَديق؛ إنْ وَالَى فبأمر، وإنْ عادى فَلِزَجْر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾.

لما أَمَرَ المسلمين بالتبرّي عن المشركين والإعراض عنهم والانقباض عن الاستغفار لهم بَيَّنَ أَنَّ هذا سبيلُ الأولياء، وطريقُ الأنبياء عليهم السلام، وأَنَّ إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ وإنْ استغفر لأبيه فإنما كان مِنْ قَبْل تَحقُّقِهِ بأنه لا يُؤمِنُ، فلمَّا عَلِمَ أنه عدوٌ لله أَظْهَرَ البراءةَ منه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

إنَّ الله لا يحكم بضلالكم وذهابكم عن طريق الحقّ باستغفاركم للمشركين إلا بعد ما تبيَّن لكم أنكم مَنْهِيُّون عنه، فإذا علمتم أنكم نُهِيتُمْ عن استغفارَكم لهم فإنْ أَقْدَمْتُمْ على ذلك فحينئذ ضللتم عن الحقّ بفعلكم بعد ما نُهيتم عنه... هذا بيان التفسير للآية، والإشارة فيها أنه لا سَلْبَ لعطائه إلا بِتَرْكِ أدب منكم.

ويقال مَنْ أَحَلَّه بِسَاطَ الوصلة ما مُنِيَ بعده بعذاب الفرقة، إلا لِمَنْ سَلَفَ منه تَرْكُ حُرْمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

الحقُّ لا يَتجمَّلُ بوجود مملوكاته، ولا يلحق نَقْصٌ بِعَدَم مخلوقاته، فَقَبْلَ أَنْ أوجد شيئاً من الحادثات كان مَلِكاً ـ والمَلِكُ أكثر مبالغةً من المالك ـ ومُلْكُه قدرتُه على الإبداع؛ والمعدوم مقدوره ومملوكه، فإذا أَوْجَدَه فهو في حال حدوثه مقدوره ومملوكه، فإذا أعدمه خرج عن الوجود ولم يخرج عن كونه مقدوراً له.

﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ يحيي مَن يشاء بعرفانه وتوحيده، ويميت من يشاء بكفرانه وجحوده.

ويقال يُحيي قلوبَ العارفين بأنوار المواصلات، ويُميتُ نفوسَ العابدين بآثار المنازلات.

ويقال يُحيي مَنْ أقبل عليه بِتَفَضُّله، ويميت من أعرض عنه بِتَكَبُّرِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

قَبِلَ توبتهم، وتاب على نبيِّه ـ ﷺ ـ في إذنه للمنافقين في التخلف عنه في غزوة تبوك، وأمَّا على المهاجرين والأنصار الذين قد خرجوا معه حين هَمُّوا بالانصراف لِمَا أصابَهم من العُسْرة من الجوع والعطش والإعياء في غزوة تبوك، كما قال: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾: وتوبته عليهم أنه تداركَ قلوبَهم حتى لم تزغ، وكذا سُنَّةَ الحقِّ ـ سبحانه ـ مع أوليائه إذا أشرفوا على العَطَبِ، وقاربوا من التَّلفِ، واستمكن اليأسُ في قلوبهم من النصر، ووَطَّنوا أنفسهم على أَنْ يذوقوا البأسَ ـ يُمْطِرُ عليهم سحائبَ الجود، فيعود عودُ الحياةِ بعد يَبْسِه طريّاً، ويُرَدُّ وَرْدُ الأُنس عقب ذبوله غضاً جَنِيّاً، وتصير أحوالهم كما قال بعضهم:

كُنَّا كَمَنْ أُلْبِسَ أكفانَه ... وقُرِّب النَّعْشُ من اللَّحْدِ
فجال ماءُ الرُّوحِ في وَحْشَةٍ ... وردَّه الوصل إلى الوِرْدِ
تبارك الله سبحانه ... ما (...)[1] هو بالسرمد

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

لمَّا صَدَقَ منهم اللجاء تداركهم بالشِّفاء وأسقط عنهم البلاء، وكذلك الحقُّ يكوِّرُ

---

(١) بياض في الأصل.

نهار اليُسْرِ على ليالي العُسْر، ويُطِلعُ شموسَ المحنة على نحوسَ الفتنة، ويُدِير فلكَ السعادة فيمحق تأثير طوارق النكاية؛ سُنَّةً منه ـ تعالى ـ لا يُبَدِّلها، وعادةً منه في الكَرَمِ يُجْرِيها ولا يحوِّلها.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

يا أيها الذين آمنوا برُسُلِ الله، يا أيها الذين آمنوا من أهل الكتاب. . . كونوا مع الصادقين المسلمين، يا أيها الذين آمَنُوا في الحال كونوا في آخر أحوالكم مع الصادقين؛ أي استديموا الإيمان. استديموا في الدنيا الصدقَ تكونوا غداً مع الصادقين في الجنة.

ويقال الصادقون هم السابقون الأولون وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضيً الله عنهم وغيرهم.

ويقال الصدق نهاية الأحوال، وهو استواءُ السِّرِّ والعلانية، وذلك عزيز. وفي الزَّبو: «كذب مَنْ ادَّعَى محبتي وإذا جَنَّة الليلُ نام عنِّي».

والصدقُ ـ كما يكون في الأقوال يكون في الأحوال، وهو أَتَمُّ أقسامِهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

لا يجوز لهم أن يؤثِروا على النبيِّ ـ ﷺ ـ شيئاً من نَفْسٍ وروح، ومالٍ ووَلَدٍ وأهلٍ، وليسوا يخسرون على الله وأنَّى ذلك. .؟ وإنهم لا يرفعون لأجْلِه خطوةً إلَّا قابَلَهم بألفِ خطوة، ولا ينقلون إليه قَدَماً إلا لقَّاهم لطفاً وكرماً، ولا يُقاسُون فيه عَطَشاً إلا سقاهم من شراب محابِّه كاسا، ولا يتحملون لأجله مشقةً إلا لقَّاهم لطفاً وإيناساً. ولا ينالون من الأعداء أذىً إلا شَكَرَ اللّٰهُ سَعْيَهَم بما يوجب لهم سعادة الدارين!.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

لو اشتغل الكُلُّ بالتَّفقُّه في الدِّين لَتَعَطَّلَ عليهم المعاش، ولبقي الكافة عن درك ذلك المطلوب، فجعل ذلك فرضا على الكفاية.

ويقال جعل المسلمين على مراتب: فعوامُّهم كالرعية للمَلِك، وكَتَبَةُ الحديثِ

كخُزّان المَلِك، وأهلُ القرآن كحُفّاظ الدفاتر ونفائس الأموال، والفقهاء بمنزلة الوكلاء للمَلِك إذ الفقيه (. . .)[١] عن الله، وعلماءُ الأصول كالقُوّادِ وأمراء الجيوش، والأولياءُ كأركان الباب، وأربابُ القلوبِ وأصحابُ الصفاء كخواص المَلِكِ وجُلَسائه.

فيشتغل قومٌ بحفظ أركان الشرع وآخرون بإمضاء الأحكام، وآخرون بالردّ على المخالفين، وآخرون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقوم مُفْرَدُون بحضور القلب وهم أصحاب الشهود، وليس لهم شُغْلٌ، يراعون مع الله أنفاسَهم وهم أصحاب الفراغ، لا يستفزُّهم طَلَبٌ ولا يهزُّهم أَرَبٌ، فَهُمْ بالله لله، وهم محو عما سوى الله[٢].

وأمّا الذين يتفقهون في الدّين فهم الداعون إلى الله، وإنما يُفْهِمُ الخلْقَ عن الله مَنْ كان يَفْهَمُ عن الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

أقربُ الأعداء إلى المسلم من الكفار، الذي يجب عليه منازعته هو أعدى عدوِّه أي نَفْسُه. فيجب أن يبدأ بمقاتلة نَفْسِه ثم بمجاهدة الكفار، قال عليه السلام: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»[٣].

قوله: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ من حابى عدوه قهره، وكذلك المريد الذي ينزل عن مطالباتِ الحقيقة إلى ما يتطلبه من التأويلات فيفسخ عَهْدَه، وينقض عَقْدَه، وذلك كالرِّدَّةِ لأهل الظاهر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

جَعَلَ الله[٤] ـ سبحانه ـ إنزالَ القرآن لقوم شِفَاءً. ولقوم شَقَاءً؛ فإذا أُنْزِلَتْ سورةٌ جديدةٌ زاد شكُّهم وتحيُّرهم، فاستعلم بعضُهم حالَ بعضٍ، ثم لم يزدادوا إلا تحسُّراً؛ قال تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤] وأمّا المؤمنون فزادتْهم السورةُ إيماناً

---

(١) بياض في الأصل.
(٢) انظر الرسالة القشيرية ص٢٧٩ ـ ٢٨٣ عند حديث القشيري عن التصوف.
(٣) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/ ٣٧٩، ٧/ ٢١٨)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣/ ٧)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٥١١)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ٢٠٦)، والفتني في (تذكرة الموضوعات ١٩١)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ٨٩).
(٤) الآية (١٢٥) لم ترد.

فارتقوا مِنْ حدِّ تأمل البرهان إلى روْح البيان، ثم مِنْ روْح البيان إلى العيان، فالتجويز والتردد و (. . . .)[1] والتحيُّر مُنْتَفَى بأجمعه عن قلوبهم، وشموسُ العرفانِ طالعةٌ على أسرارهم، وأنوار التحقيق مالكة أسرارهم، فلا لَهُم تعبُ الطلب، ولا لهم حاجة إلى التدبير، ولا عليهم سلطان الفكر. وأشِعةُ شموس العرفان مستغرقة لأنوار نجوم العلم، يقول قائلهم:

ولما استبانَ الصبحُ أدرك ضوءُه ... بإسْفارِه أنوارَ ضوءِ الكواكب

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

لم يُخْلِ الحقُّ ـ سبحانه ـ أربابَ التكليف من دلائل التعريفِ، التعريفُ لهم في كل وقت بنوع من البيان، والتكليفُ في كل أوان بضرب من الامتحان؛ فما لم يزد لهم في إيضاح البرهان لم يتجدد لهم من الله إلا زيادة الخذلان والحجبة عن البيان.

وأمّا أصحاب الحقائق فما للأغيار في كل عام مرة أو مرتين فلهم في كل نَفَسٍ مرة، لا يخليهم الحقُّ ـ سبحانه ـ من زواجِرَ توجِبُ بصائر، وخواطر تتضمن تكليفاتٍ وَأوَامِرَ قال قائلهم:

كأنَّ رقيباً منك حَلَّ بمهجتي ... إذا رُمْتُ تسهيلاً عليَّ تَصَعَّبا

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

تَقَنَّعوا بِخمارِ التلبيس ظانِّين أنهم يبقون في سِرّ بتكلفهم، والحقُّ أَبى إلا أن فَضَحَهم، وكما وَسَمَهم برقم النَّكرَة أَطْلَعَ أسرارَ الموحِّدِين على أحوالهم فعرفوهم على ما هم عليه من أوصافهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

جاءكم رسولٌ يشاكِلُكم في البشرية، فَلِمَا أفردناه به من الخصوصية ألبسناه لباسَ الرحمة عليكم، وأقمناه بشواهد العطف والشفقة على جملتكم، قد وَكَلَ هِمَمَه بشأنكم، وأكبرُ هَمِّه إيمانُكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

---

(١) بياض في الأصل.

أَمَره أَنْ يَدْعُوَ الخَلْقَ إلى التوحيد، ثم قال: فإنْ أعرضوا عن الإجابة فكُنْ بنا بنعت التجريد.

ويقال قال له: يأيها النبي حسبُك الله، ثم أمره بأن يقول حسبي الله... وهذا عين الجمع، وقوله ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ فَرْق... بل هو جمع الجمع أي: قُلْ، ولكنك بنا تقول، ونحن المتولي عنك وأنت مُسْتَهْلَكٌ في عين التوحيد؛ فأنت بنا، ومَحْوٌ عن غيرنا.

تم الجزء الأول، ويليه الجزء الثاني
وأوله: سورة يونس عليه السلام

فهرس المحتويات

سورة آل عمران

سورة النساء

سورة المائدة

سورة الأنعام

سورة الأعراف

سورة الأنفال

سورة التوبة

تفسير القشيري

المسمّى

لطائف الإشارات

تأليف

الإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك

القشيري النيسابوري الشافعي

المتوفى ٤٦٥ هـ

وضع حواشيه وعلّق عليه

عبد اللطيف حسن عبد الرحمن

الجزء الثاني

المحتوى :

أول سورة يونس - آخر سورة العنكبوت





دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

Title: Tafsīr al-Qušayri
"Laṭā'f al-'išārāt"
(The exegesis of the Holy coran)

classification: Exegesis of the coran
Author: ʿAbdul-Karīm ben Hawāzin al-Qušayri
Editor: ʿAbdul-Laṭīf Ḥasan ʿAbdul-Raḥmān
Publisher: *Dar Al-Kotob Al-ilmiyah*
Pages: 1408 (3volumes)
Year: *2007*
Printed in: *Lebanon*
Edition: 2nd

الكتاب: تفسير القشيري
المسمى: لطائف الإشارات
التصنيف: تفسير قرآن
المؤلف: الإمام عبد الكريم بن هوازن القشيري
المحقق: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن
الناشر: دار الكتب العلميـة - بيروت
عدد الصفحات: 1408 (3 أجزاء)
سنة الطباعة: 2007
بلد الطباعة: لبنان
الطبعة: الثانية


ISBN 2-7451-2837-X (10 dig)
ISBN 978-2-7451-2837-9 (13 dig)
90000
9 782745 128379



دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان




الطبعة الثانية
٢٠٠٧م - ١٤٢٨هـ

دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax:+961 5 804813
P.o.Box:11-9424 Beirut-lebanon
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون ، القبة
مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨١٠/١١/١٢ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨١٣ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان
رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
sales @al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

سورة يونس عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمةٌ سماعُها يوجِب شِفَاءَ كلِّ عابد، وضياءَ كلِّ قاصد، وعزاء كلِّ فاقد، وبلَاءَ كلِّ واجد، وهُدُوَّ كلِّ خائف، وسُلُوَّ كل عارف. وأَمَانَ كل تائب، وبيانَ كلِّ طالب. قلوبُ العارفين لا تفرح إلا بسماع بسم الله، وكروبُ الخائفين لا تبرح إلا عند سماع بسم الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

الألف مفتاح اسم «الله»، واللام مفتاح اسم «اللطيف» والراء مفتاح اسم «الرحيم». أقسم بهذه الأسماء إن هذه الكتابَ هو الموعودُ لكم يوم الميثاق. والإشارة فيه أنا حققْنَا لكم الميعاد، وأَطَلنا لكم عِنان الوداد... وانقضى زمانُ الميعاد، فالعَصَاةُ مُلْقَاة، والأيامُ بالسرور مُتَلَقَّاة، فبادِروا إلى شُرْبِ كاساتِ المحابِّ، واستقيموا على نَهجِ الأحباب.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾.

تعجبوا من ثلاثة أشياء: من جواز البعث بعد الموت، ومن إرسال الرسل إلى الخَلْق، ثم من تخصيص محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة مِنْ بين الخلق. ولو عرفوا كمال مُلْكِه لم يُنْكِروا جواز البعث، ولو علموا كمالَ ملكه لم يجحدوا إرسالَ الرُّسل إلى الخلْق، ولو عرفوا أنَّ له أنْ يفعلَ ما يريد لم يتعجبوا من تخصيص محمد ـ ﷺ ـ بالنبوة مِنْ بين الخَلْق، ولكنْ سُدَّتْ بصائرُهم فتاهوا في أودية الحيرة، وعَثَرُوا ـ من الضلالةِ ـ في كل وَهْدَةٍ. وكان الأستاذ أبو علي الدَّقاق ـ رحمه الله ـ يقول: جَوَّزُوا أن يكون المنحوتُ من الخشبِ والمعمولُ من الصخر إلهاً معبوداً، وتعجبوا أن يكون مثلُ محمد ـ ﷺ ـ في جلالةِ قَدْرِه رسولاً..!! هذا هو الضلال البعيد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

وهو ما قدَّموه لأنفسهم من طاعاتٍ أخلصوا فيها، وفنونِ عباداتٍ صَدَقُوا في القيام بقضائها.

ويقال هو ما قَّدم الحقُّ لهم يومَ القيامة، مع مقتضى العناية بشأنهم، وما حَكَمَ لهم من فنونِ إحسانه بهم، وصنوفِ ما أفردهم به من امتنانهم.

ويقال: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: هو ما رفعوه من أقدامهم في بدايتهم في زمان إرادتهم، فإنّ لأَقْدامِ المريدين المرفوعةِ لأَجْلِ اللَّهِ حُرْمَةً عند الله، ولأيامِهم الخاليةِ في حالِ تردُّدِهم، ولياليهم الماضية في طلبه وهم في حُرْقَةِ تحيّرهم.. مقاديرَ عند الله. وقيل:

مَــنْ يَــنْــسَ داراً قــد تــخــونــهــا رَيْــبُ الزمان فإنـي لـسـت أنـسـاكـا

وقيل:

تــلــك الـعـهـودُ تـشـدُّهـا لِـتَـحُـلَّـهـا عـنـدي كـمـا هـي عـقـدهـا لـم يُـحْـلـلِ

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

لا يحتاج فِعْله إلى مُدّةٍ، وكيف ذلك ومن جملة أفعاله الزمان والمدة؟ فَخَلَقَ السموات والأرضَ في ستة أيام، وتلك الأيام أيضاً من جملة ما خَلَقَ الله سبحانه وتعالى.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي تَوَحَّدَ بجلال الكبرياء بوصف الملكوت. وملوكنا إذا أرادوا التجلّي والظهورَ للحَشَم والرعية برزوا لهم على سرير مُلْكِهم في ألوان مشاهدهم. فأخبر الحقُّ ـ سبحانه ـ بما يَقْرُب من فَهْم الخلْقِ ما ألقى إليهم من هذه الجملة: استوى على العرش، ومعناه اتصافه بعز الصمدية وجلال الأحدية، وانفراده بنعت الجبروت وعلاء الربوبية، تقدَّس الجبَّارُ عن الأقطار، والمعبودُ عن الحدود.

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾: أي الحادثاتُ صادرةٌ عن تقديره، وحاصلةٌ بتدبيره، فلا شريكَ يعضده، وما قضى فلا أحد يردُّه. ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾: هو الذي يُنْطِقُ مَنْ يخاطبه، وهو الذي يخلق ما يشاء على من يشاء إذا التمس يُطالِبهُ.

﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾: تعريف وقوله: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾: تكليف؛ فحصولُ التعريف بتحقيقه، والوصولُ إلى ما وَرَدَ به التكليف بتوفيقه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

الرجوع يقتضي ابتداء الأرواح قبل حصولها في الأشباح، فإن لها في مواطن

التسبيح والتقديس إقامة، والغائب إذا رجع إلى وطنه من سفره فلقدومه أثر عند مُحبِّيه وذويه، كما قيل:

أيا قداماً من سَفْرةِ الهجر مرحباً ... أناديك لا أنساك ما هبَّت الصَّبا

ويقال المطيع إذا رجع إلى الله فله الزُّلفى، والثواب والحسنى. والعاصي إذا رجع إلى ربِّه فَبَنَعْتِ الإفلاس وخسران الطريق؛ فيتلقى لِباس الغفران، وحُلَّةَ الصفح والأمان، فرحمةُ مولاه خيرٌ له من نُسُكِه وتقواه.

قوله: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ﴾: موعودُ المطيع الفراديسُ العُلَى، وموعودُ العاصي الرحمة والرِّضى. والجنَّةُ لُطفُ الحقِّ والرَّحمةُ وصفُ الحق؛ فاللُّطفُ فِعْلٌ لم يكن ثم حصل، والنَّعْتُ لم يزل.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾: مَنْ كان له في جميع عمره نَفَسٌ على وصفِ ما ابتدأ الحقُّ سبحانه به ففي الإشارة: تكون لذلك إعادة، وأنشدوا:

كلُّ نَهْرٍ فيه ماءٌ قد جَرَى ... فإليه الماءُ يوماً سيعودُ

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾.

أنوار العقول نجومٌ وهي للشياطين رجوم، وللعلوم أقمار وهي أنوار واستبصار، وللمعارف شموس ولها على أسرار العارفين طلوع، كما قيل:

إنَّ شمسَ النهار تَغْرُبُ بالليل ... وشمسُ القلوب ليست تَغِيبُ

وكما أَنَ في السماء كوكبين شمساً وقمراً؛ الشمسُ أبداً بضيائها، والقمرُ في الزيادة والنقصان؛ يُسْتَرُ بمحاقه ثم يكمل حتى يصير بدراً بنعت إشراقه، ثم يأخذ في النقص إلا أَنْ لا يبقى شيءٌ منه لتمام امتحاقه، ثم يعود جديداً، وكل ليلة يجد مزيداً، فإذا صار بدراً تماماً، لم يَجِدْ أكثر من ليلةٍ لكَمَالِه مقاماً، ثم يأخذ في النقصان إلى أن يَخْفَى شَخْصُه ويتِمَّ نَقْصُه.

كذلك مِنَ النَّاسِ مَنْ هو مُتَرَدِّدٌ بين قَبْضِه وبَسْطِه، وصَحْوِه ومَحْوِه، وذهابه وإيابه؛ لا فَنَاءَ فيستريح، ولا بقاءَ له دوامٌ صحيحٌ، وقيل:

كلَّما قُلْتُ قد دنا حَلُّ قيدي ... كَبَّلوني فأوثقوا المِسْمَارا

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ﴾.

اخْتُصَّ النهارُ بضيائه، وانفرد الليلُ بظلمانه، من غير استيجابٍ لذلك، ومن غير استحقاق عقاب لهذا، وفي هذا دليلٌ على أَنَّ الردَّ والقبولَ، والمَنْعَ والوصولَ، ليست

معلولةً بسببٍ، ولا حاصلةً بأمرِ مُكْتَسَبٍ؛ كلَّا.. إنها إرادةٌ ومَشِيئَةٌ، وحُكْمٌ وقضية.

النهارُ وقتُ حضورِ أهلِ الغفلة في أوطان كَسْبِهِم، ووقتُ أربابِ القربة والوصلة لانفرادهم بشهود ربِّهم، قال قائلهم:

هو الشمس، إلا أنَّ للشمسِ غَيبةً   وهـذا الـذي نـعـنـيـه لـيـس يـغـيـبُ

والليلُ لأحدِ شخصين: أمَّا للمُحِبِّ فَوَقْتُ النَّجوى، وأمَّا للعاصي فَبَثُّ الشكوى.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

أنكروا جوازَ الرؤية فَلَمْ يرجوها، والمؤمنون آمنوا بِجَوازِ الرؤية فأمَّلُوها.

ويقال: لا يرجون لقاءَه لأنهم لم يشتاقوا إليه، ولم يشتاقوا إليه لأنهم لم يُحبُّوه لأنهم لم يعرفوه، ولم يعرفوه لأنهم لم يطلبوه ولن يطلبوه لأنه أراد ألَّا يطلبوه، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢].

ويقال لو أراد أن يطلبوه لطلبوه، ولو طلبوا لعرفوا، ولو عرفوا لأحبُّوا، ولو أحبُّوا لاشتاقوا، ولو اشتاقوا لرجوا، ولو رجعوا لأمَّلوا لقاءَه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣].

قوله تعالى: ﴿وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾: أصحابُ الدنيا رضوا بالحياة الدنيا فَحُرِمُوا الجنةَ، والزُّهَّادُ والعُبَّادُ رَكَنُوا إلى الجنة ورضوا بها فبقوا عن الوصلة، وقد عَلِمَ كلُّ أناسٍ معشرَبهم، ولكلِّ أحدٍ مقامٌ.

ويقال إذا كانوا لا يرجون لقاءَه فمأواهم العذابُ والفرقة، فدليلُ الخطاب أن الذي يرجو لقاءَه رآه، ومآلُه ومنتهاه الوصلةُ واللقاء والزُّلفة.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

كما هداهم اليومَ إلى معرفته من غير ذريعة يهديهم غداً إلى جنته ومثوبته من غير نصيرٍ من المخلوقين ولا وسيلة.

ويقال أمَّا المطيعون فنورهم يسعى بين أيديهم وهم على مراكب طاعاتهم، والملائكةُ تتلقَّاهم والحقُّ، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥] نحشرهم، والعاصون يَبْقَوْن منفردين متفرقين، لا يقف لهم العابدون، ويتطوحون في مطاحات[1] القيامة.

---

(١) المطاح والمطاحة: المسلك الوعر المُهلك (ج) مطاوح.

والحقُّ ـ سبحانه ـ يقول لهم: عِبَادي، إنَّ أصحابَ الجنة ـ اليومَ ـ في شُغلٍ عنكم، إنهم في الثواب لا يتفرَّغون إليكم، وأصحابُ النار من شدة العذابِ لا يرقبون لكم معاشِرَ المساكين.

كيف أنتم إنْ كان أشكالكم وأصحابُكم سبقوكم؟ وواحدٌ منهم لا يهديكم فأنا أهديكم. لأني إنْ عاملتُكم بما تستوجِبُون. . . فأين الكرمُ بحقنا إذا كنا في الجفاء مِثْلَهم وهجرناكم كما هجروكم؟

قوله جلّ ذكره: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

قالتُهم الثناءُ على الله، وذلك في حال لقائهم. وتحيتهم في تلك الحالة من الله: «سلام عليكم» ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: والحمد ها هنا بمعنى المدح والثناء، فيثنون عليه ويحمدونه بحمدٍ أبديٍّ سرمديٍّ، والحقُّ ـ سبحانه ـ يُحَيِّيهم بسلامٍ أزليٍّ وكلام أبدي، وهو عزيزٌ صمديٌّ ومجيدٌ أحديٌّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

أي لو أَجبناهم إذا دعوا على أنفسهم عند غيظهم وضَجَرِهم لعَجَّلنا إهلاكَهم، ولكن تَحَمَّلْنَا ألا نُجيبَهم، وبرحمتنا عليهم لا نسمع منهم دعاءَهم. وربما يشكو العبدُ بأنَّ الربَّ لا يجيب دُعاءَه، ولو عَلِمَ أنه تَرَكَ إجابَتَهُ لُطْفاً منه وأَنَّ في ذلك بلاءً لو أجابه، كما قيل:

أُنَاسٌ أعرضوا عنَّا … بلا جُرْمٍ ولا معنى
أساءوا ظنَّهم فينا … فهلَّا أحسنوا الظنَّا

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

إذا امتُحِنَ العبدُ وأصابه الضُّرُّ أزعجته الحالُ إلى أَنْ يرومَ التخلُّصَ مما ناله، فيعلمَ أنَّ غيرَ الله لا يُنجيه، فتحمله الضرورةُ على صِدْق الالتجاءِ إلى الله، فإذا كَشَفَ اللَّهُ عنه ما يدعو لِأَجلِه شَغَلَتْه راحةُ الخلاصِ عن تلك الحالة، وزَايَلَه ذلك الالتياع، وصار كأنه لم يكن في بلاءٍ قط:

كأنَّ الفتى لم يَعْرَ يوماً إذ اكتسى … ولم يكُ صُعلوكاً إذا ما تَموَّلا

ويقال بلاءٌ يُلْجِئُك إلى الانتصاب بين يَدَيْ معبودِك أجدى لك من عطاءٍ يُنسِيك ويكفيك عنه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

أخبر الحقُّ سبحانه بإهلاك الظالمين، كما في الخبر: «لو كان الظلم بيتاً في الجنّة لسلّط اللّهُ عليه الخراب». والظلمُ وَضْعُ الشيء في غير موضعه، فإذا وَضَعَ العبدُ قَصْدَه ـ عند حوائجه ـ في المخلوقين، وتعلّق قلبُه بهم في الاستعانة، وطَلَبِ المأمول فقد وَضَعَ الشيءَ في غير موضعه، وهو ظلم؛ فعقوبة هذا الظلم خرابُ القلب، وهو انسداد طريق رجوع ذلك القلب إلى الله؛ لأنه لو رجع إلى الله لأعانة وكفاه، ولكنه يُصِرُّ على تعليق قلبه بالمخلوق فيبقى عن الله، ولا ترتفع حاجتُه من غيره، وكان من فقره وحاجته في مَضَرَّةٍ. فإنْ صار إلى مضرة المذلة والحاجة إلى اللئيم فتلك محنةٌ عظيمةٌ.

وعلى هذا القياس إذا أحبَّ مخلوقاً فقد وَضَعَ محبته في غير موضعها، وهذا ظلم؛ وعقوبَتُه خرابُ روحه لِعَدَم صفاءِ ودِّه ومحبته لله، وذهاب ما كان يجده من الأُنس بالله، إذا بقي عن الله يُذيقه الحقُّ طعمَ المخلوقين، فلا له مع الخُلقِ سَلْوة، ولا من الحقِّ إلا الجفوة، وعدم الصفوة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

عرَّفناكم بِسِرِّ مَنْ قَبْلَكُم، وما أصابهم بسبب ذنوبهم، فإذا اعتبرتم بهم نَجْوتُم، ومن لم يعتبرْ بما سمعه اعتبر به من تبعه.

ويقال أحللنا بهم من العقوبة ما يعتريكم، ومَنْ لم يعتبرْ بِمَنْ سَبَقَه اعتبر به مَنْ لَحِقَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

إذا اقترحوا عليك بأنْ تأتيَهم بما لم نأمركَ به، أو تُرِيَهُم ما لم نُظْهِرْ عليك من الآياتِ.. فأَخبِرْهم أنّكَ غير مُسْتَقِلٍ بِك، ولا موكولٍ إليك؛ فنحن القائمُ عليكَ، المصَرفُ لكَ، وأنتَ المتَّبعُ لما نُجريه عليك غيرَ مُبْتَدِعٍ لِما يَحصُل منك.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

قد عِشْتُ فيكم زماناً، وعرفتم أحوالي فيما تطلبون مني عليه برهاناً، فما ألفيتموني (. . .)[1] بل وجدتموني في السداد مستقيماً، وللرشاد مستديماً، فلولا أنَّ

(١) بياض في الأصل.

الله تعالى أرسلني، ولِمَا حَمَّلَني مِنْ تكليفه أَهَّلَني لمَا كنتُ بهذا الشرع آتياً ولا لهذا الكتاب تالياً.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما لكم تعترضون؟ ولا لأنفسكم تنظرون؟

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

الكَذِبُ في الشرع قبيحٌ، وإذا كان على الله فهو أقبح.

ومِنَ المفتَرين على الله: الذين يُظْهِرون من الأحوال ما ليسوا فيه صادقين، وجزاؤُهم أَنْ يُحْرَمُوا ذلك أبداً، فلا يَصلِون إلى شيء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ذَمَّهُم على عبادة ما ليس منه ضَرٌ ولا نَفْعٌ.

فدليلُ الخطاب يقتضي أَنْ يكونَ المعبودُ منه الضَّرُ والنفع، ومِنْ فَرْطِ غباوتهم أنهم انتظروا في المآلِ الشفاعةَ ممن لا يوجَدُ منه الضَّرُ والنَّفْعُ في الحال. ثم أخبر أنهم يخبرون عما ليس على الوجه الذي قالوا معلوماً، ولو كان كما قالوا لَعلِموا أنه سبحانه لا يَعْزُبُ عن علمه معلومٌ.

ومعنى قوله: ﴿لَا يَعْلَمُ﴾: خلافه. ومَنْ تَعَلَّقَ قلبُه بالمخلوقين في استدفاع المضَارّ واستجلاب المسَارّ فكالسالكِ سبيلَ مَنْ عَبَدَ الأصنام؛ إذ المنْشِيءُ والموجِدُ للشيءِ مِنَ العَدم هو الله ـ سبحانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وذلك مِنْ زمان آدم عليه السلام إلى أن تحاربوا، والحق ـ سبحانه ـ سَبَقَ قضاؤه بتأخير حسابهم إلى الآخرة، ولذلك لا يُجيبُهم إلى ما يستعجلونه من قيام القيامة.

وإنما اختلفوا لأنَّ الله خَصَّ قوماً بعنايته وقبوله، وآخرين بإهانته وإبعاده، ولولا ذلك لَمَا كانت بينهم هذه المخالفة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾.

أخبر أنه ـ عليه السلام ـ في سَتْرِ الغَيْبة وخفاء الأمر عليه في الجملة لتقاصُرِ

علمه عما سيحدث، فهو في ذلك بمنزلتهم، إلا في مواطن التخصيص بأنوار التعريف، فكما أنهم في الانتظار لما يحدث في المستأنف فهو أيضاً في انتظار ما يوجِدُ ـ سبحانه ـ من المقادير. والفَرْقُ بينه ـ عليه السلام ـ وبينهم أنه يشهد ما يحصل به ـ سبحانه ـ ومنه، وهم مُتَطَوِّحون في أودية الجهالة؛ يُحيلُون الأمرَ مرةً على الدَّهْرِ، ومرةً على النجم، ومرةً على الطبع.. وكلُّ ذلك حَيْرَةٌ وعَمى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾.

يعني إذا أصابهم ضُرٌّ ومحنة فرحمناهم وكَشَفنا عنهم، أحالوا الأمر على غيرِنا، وتوهموه مما هو سوانا مثل قولهم: «مُطِرْنَا بنوء كذا»[1]، ومثل قولهم إن هذه سعادة نجْمٍ أو مساعدةُ دولة أو تأثيرُ فَلَكٍ أو خيراتُ دهر.

فهذا كان مكرُهم أما مكر الله ـ سبحانه ـ بهم فهو جَزاؤهم على مكرهم. والإشارة في هذا أنه ربما يكون للمريد أو للطالب حجبة أو فترة.. فإذا جاء الحقُّ بكشفٍ أو تجلٍّ أو إقبال فَمِنْ حقِّهم ألا يلاحظوها فضلاً عن أن يساكنوها، لأنهم إذا لم يرتقوا عن ملاحظة أحوالهم إلى الغيبة بشهود الحقّ مَكَرَ الله بهم بأَنْ شتَّتهم في تلك الأحوال من غير تَرَقٍّ عنها أو وجود زيادة عليها، وهذا مَكْرُه بخَواصِّهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

يريد أنهم يُصْبِحون في النِّعم يجرُّون أذيالَهُم، ثم يُمْسُون يبكون لَيَالِيَهُم. وقد يَبِيتُون والبهجةُ مَلَكَتْهُم ثم يصبحون وخفايا التقدير أهلكَتْهُم، وأنشدوا:

أقمتَ زماناً والعيونُ قريرةٌ ... وأصبحتَ يوماً والجفونُ سوافِكُ

فإذا رجعوا إلى الله بإخلاص الدعاء يجود عليهم بكَشْفِ البلاء.

فلمَّا أنجاهم بالإجابة لدعائهم إذا هم إلى غيره يرجِعون، وعلى مناهجهم ـ في تمرُّدهم يسلكون.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا

---

(١) أخرجه البخاري (أذان ١٥٦)، (استسقاء ٢٨)، (مغازي ٣٥)، ومسلم (إيمان ١٢٥)، وأبو داود (طب ٢٢)، والترمذي (تفسير سورة ٤٠٥٦)، والنسائي (استسقاء ١٦)، والدارمي (رقاق ٤٩)، والموطأ (استسقاء ٤)، وأحمد بن حنبل ١، ٨٩، ١٠٨، ١٣١، ٢، ٤١٥، ٤٥٥، ٥٢٥، ٣، ٤٢٩، ٤، ١١٧.

بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ معناه: تُمَتِّعكم أياماً قلائلَ، ثم تَلْقَوْن غِبَّ ذلك وتبدأون تقاسون عذاباً طويلاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

شَبَّهَ الحياةَ الدنيا بالماء المُنَزَّلِ من السماء يَنْبُتُ به النباتُ وتَخْضَرُّ الأرضُ وتَظْهَرُ الثمار، ويوطِّن أربابُها عليها نفوسَهم، فتصيبهم جائحةٌ سماوية بغتةً، وتصير كأن لم تكن.

كذلك الإنسانُ بعد كمال سِنِّه وتمام قُوَّتِه واستجماع الخصال المحمودة فيه تَخْتَرِمُه المَنِيَّة[1]، وكذلك أموره المنتظمةُ تَبْطُلُ وتختلُّ لوفاته، كما قيل:

فَقَدْنَاه لمَّا تمَّ واختمَّ بالعُلَى كذاك كسوفُ البدرِ عند تمامه

ومن وجوه تشبيه الأحوال الدنيوية بالماء المُنَزَّلِ من السماء أن المطرَ لا ينزل بالحيلة، كذلك الدنيا لا تساعدها إلا القسمة.

ثم إن المطر إن كان لا يجيء إلا بالتقدير فقد يُسْتَسْقَى.. كذلك الرزق ـ وإنْ كان بالقسمة ـ فقد يُلْتَمَسُ من الله ويُسْتَعْطَى.

ومنها أن الماء في موضعه سببُ حياة الناس، وفي غير موضعه سببُ خرابِ الموضع، كذلك المال لمستحقه سببُ سلامته، وانتفاع المتصلين به، وعند مَنْ لا يستحقه سبب طغيانِه، وسببُ بلاءِ مَنْ هو متصل به، كما قيل: نِعَمُ الله لا تُعاب ولكنه ربما استعجم على إنسان، وكما قيل:

يا دولةً ليس فيها من المعالي شظيَّةْ زولى فما أنتِ إلا على الكرام بَلِيَّةْ[2]

ومنها أن الماء إذا كان بمقدارٍ كان سببَ الصلاح، وإذا جاوز الحدَّ كان سببَ الخراب.. كذلك المال إذا كان بقَدْرِ الكفاية والكفاف فصاحبه مُنَعَّمٌ، وإذا زاد وجاوز الحدَّ أوجب الكُفران والطغيان.

ومنها أن الماءَ ما دام جارياً كان طيباً، فإذا طال مكثه تغيَّر.. كذلك المال إذا

---

(١) اخترمت المنية فلاناً: أخذته.

(٢) الشظية: عظم الساق أو العظم الصغير الوحشي من عظمي الساق.

أنفقه صاحبُه كان محموداً، فإذا ادَّخَره وأمسكه كان معلولاً مذموماً.

ومنها أن الماءَ إذا كان طاهراً كان حلالاً يصلح للشرب ويصلح للطهور ولإزالة الأذى، وإذا كان غيرَ طاهرٍ فبالعكس.. كذلك المال إذا كان حلالاً، وبعكسه لو كان حراماً.

ويقال كما أن الربيعَ تتورد أشجارُه، وتظهر أنوارُه، وتخضرُ رِباعُه، وتتزين بالنبات وِهَادُه وتِلاعه[1] لا يُؤمَن أنْ تصيبَه آفة من غير ارتقاب، وينقلب الحال بما لم يكن في الحساب. كذلك مِنَ الناسِ مَنْ تكون له أحوالٌ صافية، وأعمالٌ بشرط الخلوص زاكية؛ غصونُ أُنسِه مُتَدَلِّية، ورياضُ قربِه مونِقةٌ.. ثم تصيبه عَيْنٌ فيذبل عودُ وِصاله، وتنسدُّ أبوابُ عوائدِ إقباله، كما قيل:

عينٌ أصابَتْكَ إنّ العينَ صائبةٌ والعينُ تُسْرِعُ أحياناً إلى الحَسَدِ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

دعاهم إلى دار السلام، وفي الحقيقة دعاهم إلى ما يوجِب لهم الوصول إلى دار السلام؛ وهو اعتناق أوامره والانتهاء عن زواجره. والدعاء من حيث التكليف، وتخصيص الهداية لأهلها من حيث التشريف.

ويقال الدعاء تكليف والهداية تعريف؛ فالتكليف على العموم والتعريف على الخصوص.

ويقال التَكليف بحقّ سلطانه، والتعريف بِحُكْمِ إحسانه.

ويقال الدعاء قَوْلُه والهداية طَوْلُه؛ دَخَلَ الكلُّ تحت قوله، وانفرد الأولياءُ بتخصيص طَوْلِه. دار السلام دار الله لأن السلام اسم مِنْ أسمائه.

ويكون السلام بمعنى السلامة فهي دار السلامة أي أهلها سالمون فيها؛ سالمون من الحُرقَة وسالمون من الفُرقة؛ سَلِموا من الحرقة فحصلوا على لذة عطائه، وسَلِموا من الفُرْقة فوصلوا إلى عزيز لقائه.

ويقال لا يصل إلى دار السلام إلا من سَلِمَتْ نَفْسُه عن السجود لِلصَنَم، وَسِلَم قلبُه عن الشِّرْكِ والظُلم.

ويقال تلك الدار درجات؛ والذي سَلِمَ قلبُه عن محبة الأغيار درجتُه أعلى من درجة مَنْ سَلِمَتْ نَفْسُه من الذنوب والأوضار.

ويقال قوم سلمت صدورُهم من الغِلِّ والحسد والحقد؛ وسَلِمَ الخَلْقُ منهم؛

(١) التلاع: (ج) التلعة: ما ارتفع من الأرض وأشرف، أو هي ما انهبط منها (ضدّ).

فليس بينهم وبين أحدٍ محاسبة، وليس لهم على أحد شيء؛ «فالمسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده، والمحسنُ من سَلِمَ الخَلقُ بأجمعهم من قلبه»[١].

﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾: طريق المسلمين، فهذا للعوام بشرط علم اليقين، ثم طريق المؤمنين وهو طريق الخواص بشرط عين اليقين، ثم طريق المحسنين وهو طريق خاص الخاص بشرط حق اليقين؛ فهؤلاء بنور العقل أصحاب البرهان، وهؤلاء بكشف العلم أصحاب البيان، وهؤلاء بضياء المعرفة بالوصف كالعيان، وهم الذين قال ﷺ فيهم: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه»[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

﴿أَحْسَنُوا۟﴾: أي عَمِلُوا وأحسنوا إذ كانت أفعالُهم على مقتضى الإذن.

ويقال: «أحسنوا»: لم يُقَصِّروا في الواجبات، ولم يُخِلُّوا بالمندوبات.

ويقال: «أحسنوا»: أي لم يَبْقَ عليهم حقٌّ إلا قاموا به؛ إن كان حقَّ الحقِّ فَمِنْ غير تقصير، وإن كان من حقِّ الخَلْق فأداءٌ من غير تأخير.

ويقال «أحسنوا»: في المآل كما أحسنوا في الحال؛ فاستداموا بما فيه واستقاموا، والحسنى التي لهم هي الجنة وما فيها من صنوف النِّعم.

ويقال: الحسنى في الدنيا توفيق بدوام، وتحقيق بتمام، وفي الآخرة غفران مُعَجَّل، وعيان على التأبيد مُحَصل.

قوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾: فعلى موجِب الخبر وإجماعِ السلف النظرُ إلى الله. ويحتمل أن تكون «الحسنى»: الرُّؤية، «والزيادة»: دوامُها. ويحتمل أن تكون «الحسنى»: اللقاء، «والزيادةُ»: البقاء في حال اللقاء.

ويقال الحسنى عنهم لا مقطوعة ولا ممنوعة، والزيادة لهم لا عنهم محجوبة ولا مسلوبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري (إيمان ٥)، (رقاق ٢٦)، ومسلم (إيمان ٦٤ ـ ٦٥)، وأبو داود (جهاد، ٢) والترمذي (قيامة ٥٢)، (إيمان ١٢)، والنسائي (إيمان ٨، ٩، ١١)، والدارمي (رقاق ٤، ٨) وأحمد بن حنبل ٢/ ١٦٠، ١٦٣، ١٨٧، ١٩١، ١٩٢، ١٩٥، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٩، ٢١٢، ٢١٥، ٢٢٤، ٣٧٩.

(٢) أخرجه البخاري في (الصحيح ٦/ ١٤٤)، والبيهقي في (السنن الكبرى ١٠/ ٢٠٣)، وابن خزيمة في (الصحيح ٢٢٤٤)، والهيثمي في (موارد الظمآن ١٦)، وابن حجر في (فتح الباري ٨/ ٥١٣) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ٤٣٤، ١٠/ ٩٤)، وابن كثير في (التفسير ٦/ ٣٥٦)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٢٤٩، ٥٢٥٤).

لا يقع عليهم غبارُ الحجاب، وبعكسه حديث الكفار حيث قال: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ [عبس: ٤٠].

«والذلة» التي لا تصيبهم أي لا يُرَدُّوا مِنْ غير شهودٍ إلى رؤية غيره، فهم فيها خالدون في فنون أفضالهم، وفي جميع أحوالهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

والذين كسبوا السيئاتِ وعملوا الزَّلاتِ لهم جزاء سيئة مثلها، والباء في «بمثلها»: صلة أي للواحد واحد.

﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾: هو تأبيد العقوبة.

﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي ما لهم من عذابه من عاصم، سِيمُوا ذُلَّ الحجاب، ومُنُوا بتأبيد العذاب، وأصابهم هوان البعاد. وآثارُ الحجاب على وجوههم لائحة فإنَّ الأَسِرَّةَ تدلُّ على السريرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾.

يجمع بين الكفار والأصنام التي عبدوها من دون الله، فتقول الأصنام: ما أمرناكم بعبادتنا. فيدعون على الشياطين التي أطاعوها، وعلى الأصنام التي أمرتهم أن يعبدوها، وتقول الأصنام: كفى بالله شهيداً، على أنَّا لم نأمركم بذلك؛ إذ كُنَّا جماداً. وذلك لأنَّ اللَّهَ يُحْيِيها يوم القيامة ويُنْطِقها.

وفي الجملة... يتبرَّأُ بعضُهم مِنْ بعض، ويذوقُ كلٌّ وبالَ فِعْلِه.

وفائدةُ هذا التعريف أنه ما ليس لله فهو وبالٌ عليهم؛ فاشتغالُهم ـ اليومَ ـ بذلك مُحَالٌ، ولهم في المآلِ ـ مِنْ ذلك ـ وبالٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

إنما يقفون على خسرانهم إذا ذاقوا طَعْمَ هوانِهم؛ فإذا رُدُّوا إلى الله لم يجدوا إلا البعدَ عن الله، والطرْدَ من قِبَلِ الله، وذلك جزاءُ مَنْ آثَرَ على اللَّهِ غيرَ الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

كما تَوَحَّدَ الحقُّ ـ سبحانه ـ بكونه خالقاً تَفَرَّدَ بكونه رازقاً، وكما لا خالِقَ سواه فلا رازقَ سواه.

ثم الرزق على أقسام: فللأشباح رزق: وهو لقوم توفيق الطاعات، ولآخرين خذلان الزَّلات. وللأرواح رزق: وهو لقومٍ حقائق الوصلة، ولآخرين ـ في الدنيا ـ الغفلة وفي الآخرة العذاب والمهْلة.

﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ﴾: فيكمل بعض الأبصار بالتوحيد، وبعضها يعميها عن التحقيق.

﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾: يخرج المؤمنَ من الكافر، والكافرَ من المؤمن.

﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾: ولكنْ ظنًّا... لا عن بصيرة، ونُطْقاً... لا عن تصديق سريرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾.

ما يكون من موضوعاتِ الحق، ومتعلقاتِ الإرادة، ومتناولاتِ المشيئة، ومُجَنَّساتِ التقدير، ومُصَرَّفاتِ القدرة ـ فهي أشباحٌ خاوية، وأحكامُ التقديرِ عليها جارية.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

سَبَق لهم الحُكْمُ، وصَدَقَ فيهم القولُ؛ فلا لِحُكْمِه تحويل ولا لقوله تبديل، فإنَّ العِلَلَ لا تُغيِّر الأزل.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

كَشَف قبيحَ ما انطوت عليه عقائدُهم من عبادتهم ما لا يصحُّ منه الخلقُ والإعادة، وأثبت أن المعبودَ مَنْ مِنه الخَلْقُ والإعادة.

قومٌ جعلوا له في الإيجاد شركاءَ بدعوى القَدَرِ، وقوم منعوا جواز قدرته على الإعادة. وكل هذا جنوحٌ إلى الكُفرِ وذهابٌ عن الدِّين.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

الحقُّ اسمٌ من أسمائه سبحانه، ومعناه أنه موجود، وأنه ذو الحق، وأنه مُحِقُّ الحقِّ.

والحقُّ من أوصاف الخَلْق ما حَسُنَ فعله وصحَّ اعتقاده وجاز النطق به.

و﴿ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ﴾: أي إلى الحق هدايته. وهداه له وهداه إليه بمعنىً؛ فَمَنْ هداه الحقُّ للحقِّ وَقَفَه على الحقِّ، وعزيزٌ مَنْ هداه الحقُّ إلى الحقِّ للحقِّ، فماله نصيبٌ وما له حَظٌّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾.

الظَّنُّ يُنافي اليقين، فإنه ترجيح أحد طَرَفَيْ الحكم على الآخر من غير قَطْعٍ.

وأربابُ الحقائق على بصيرة وقطع؛ فالظنُّ في أوصاف الحقِّ معلولٌ، والقطع ـ في أوصاف النَّفْس ـ لكل أحدٍ معلول. والعَبْدُ يجب أن يكون في الحال خالياً عن الظن إذْ لا يَعْرِفُ أحدٌ غيْبَ نَفْسِه في مآلِه.

وفي صفة الحقّ يجب أن يكونَ العبدُ على قطعٍ وبصيرة؛ فالظنُّ في الله معلول، والظن فيما مِنَ الله غير محمود. ولا يجوز بوجهٍ منَ الوجوه أن يكون أهلُ المعرفةِ به سبحانه ـ فيما يعود إلى صفته ـ على الظن، كيْف وقد قال الله تعالى فيما أمر نبيّه ـ عليه السلام ـ أنْ يقول: ﴿ٱدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: ١٠٨]؟ وكما قلنا:

طَلَعَ الصباحُ فلات حين سراج ... وأتى اليقين فلات حين حجاج
حصل الذي كُنَّا نؤمِّل نَيْلَه ... من عَقْدِ ألويةٍ وحلِّ رتاج(١)
والبعد قَوَّضَ بالدُّنو خيامه ... والوصلُ وَكَّدَ سَجْلَه(٢) بعِاج(٣)
قَدْ حَانَ عَهْدٌ للسرور فحيهلا ... لهواجم الأحزان بالإزعاج

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

انسدَّتْ بصائرهم فلا يزدادون بكثرة سماع القرآن إلا عمى على عمى، كما أن أهل الحقيقة ما ازدادوا إلا هُدىً على هدى، فسبحان مَنْ جعل سماعَ خطابه لقومٍ سببَ تحَيُّرهم، ولآخرين موجِبَ تَبصُّرهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.

---

(١) الرتاج: الباب العظيم. أو الباب المغلق وعليه باب صغير (ج) رُتُج.
(٢) السَّجْل: الدلو العظيمة مملوءة. أو فيها ماء قلّ أو كثر (ج) سجال وسجول.
(٣) العناج: خيط أو سَير يُشدّ في أسفل الدلو ثم يُشدّ في عروتها أو عرقوتها (اللسان ٢/ ٣٣٠).

كلَّتْ القرائح، وخَمَدَتْ نيرانُ الفصاحة، واعترف كلُّ خطيب مِصقَعٍ بالعجز عن معارضة هذا الكتاب، فلم يتعرَّض لمعارَضته إلا مَنْ افتضح في قالته.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.

قابلوا الحقَّ بالتكذيب لِتَقاصُرِ علومهم عن التحقيق، فالتحقيقُ من شرط التصديق، وإنما يؤمِن بالغيب مَنْ لوَّح ـ سبحانه ـ لقلبه حقائق البرهان، وصَرَفَ عنه دواعي الرِّيَب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾.

فأمَّا الذين آمنوا فهم الذين كَحَلَ الحقُّ أبصارَ قلوبِهم بنور اليقين، والذين لم يؤمنوا فهم الذين وَسَمَ قلوبَهم بالعمي فزلُّوا ـ بالضلالة ـ عن الهُدَى.. تلك سُنَّةُ الله في الطائفتين، ولن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تحويلاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

بَرِحَ الخفاءُ، واستبانت الحقائق، وامتاز الطريقان، فلا المحسنُ بِجُرْمِ المسيءِ مُعَاقَبٌ، ولا المسيءُ بِجُرْمِ المحسن مُعاتَب، كُلٌّ على حِدَةٍ بما يعمله وعلى ما يفعله مُحَاسَب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾.

من استمع بتكلفه ازداد في تَخَلُّفِه بزيادة تصرفه، ومَنْ استمع الحقَّ بِتَفَضُّلِه ـ سبحانه ـ استغنى في إدراكه عن تَعَمُّلِه. والحقُّ ـ سبحانه ـ يُسْمِعُ أولياءَه ما يناجيهم به في أسرارهم، فإذا سمعوا دعاء الواسطة قابلوه بالقبول لِمَا سَبَقَ لهم من استماع الحقِّ. ومَنْ عَدِمَ استماعَ الحقِّ إياه من حيث التفهيم لم يَزِدْه سماعُ الخَلْقِ إلا جحداً على جحد، ولم يحظَ به إلا بُعْداً على بُعْد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾.

مَنْ سُدَّتْ بصيرتُه بالغفلة والغيبة لم يَزِدْه إدراكُ البَصَرِ إلا حجبةً على حجبة، ومَنْ لم ينظر إلى الله بالله، ولم يسمع من الله بالله، فقصاراه العمى والصمم، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] وقال عليه السلام فيما أخبر عن الله: «فبي يسمع وبي يبصر»(١).

---

(١) هذا حديث قدسي يُروى هكذا «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به...» أخرجه البخاري (رقاق ٣٨).

وأنشد قائلهم:

تأمَّلْ بعين الحقِّ إنْ كنتَ ناظراً إلى منظرٍ منه إليه يعود

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

نَفَى عن نَفْسِه ما يستحيل تقديره في نعته، وكيف يوصَفُ بالظلم وكلُّ ما يُتَوَهَّمُ أَنْ لو فَعَلَه كان له ذلك؟ إذ الحقُّ حقُّه والمُلْكُ مُلْكُه. ومَنْ لا يَصِحُّ تقديرُ قبيحٍ منه ـ أَنَّى يوصف بالظلم جوازاً أو وجوباً؟!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾.

الأيامُ والشهور، والأعوام والدهور بعد مُضيها في حُكْم اللحظة لمن تفكَّرَ فيها، ومتى يكون لها أثر بعد تقضيها؟ والآتي من الوقت قريب، وكأنَّ قَدْرَ الماضي من الدهر لم يُعْهَدْ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾.

معناه أن خبره صدق، ووعده ووعيده حق، وبعد النَّشْرِ حَشْرٌ، وفي ذلك الوقت مُطَالَبَةٌ وحسابٌ، ثم على الأعمال ثواب وعقاب، وما أسرع ما يكون المعلومُ مُشاهَداً موجوداً!.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

لم يُخْلِ زماناً مِنْ شَرْعٍ، ولم يُخْلِ شرعاً مِنْ حُكْم، ولم يُخْلِ حُكْماً مما يُعْقِبُه من ثوابٍ وعقاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

الاستعجال بهجوم الموعود من أمارات أصحاب التكذيب، فأمَّا أهل التحقيق فليس لهم لواردٍ يرِدُ عليهم اشتغالٌ قبل وجوده، أو استعجالٌ على حين كَوْنِه، ولا إذا وَرَدَ استقالٌ لما تضمنه حُكْمُه؛ فهم مطروحون في أسْرِ الحُكْم، لا يتحرك منهم ـ باختيارهم ـ عِرْقٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

الملوكُ متى يكون له مِلْك؟!

وإذا كان سيِّدُ البرايا ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً.. فَمَنْ نَزَلَتْ رُتْبَته، وتقاصرَتْ حالتُه متى يملك ذرةً أو تكون باختياره وإيثاره شمةٌ؟

طاح الذي لم يكن ـ في التحقيق، وتفرَّدَ الجبارُ بنعت الملكوت.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

مَنْ عَرَفَ كمالَ القُدرة لم يأمَنْ فجأةَ الأخذِ بالشدة، ومن خاف البيات لم يستلذ السُّبات.

ويقال مَنْ توسَّدَ الغفلةَ أيقظته فجاءةُ العقوبة، ومَنْ استوطن مركب الزَّلَّة عَثَرَ في وَهْدَةِ المحنة.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

بعد انتهاك سِتْرِ الغيب لا يُقْبَلُ تضرعُ المعاذير.

ويقال لا حُجَّة بعد إزاحة العلة، ولا عذْرَ بعد وضوح الحجة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

لا تُكَلَفُ نَفسٌ إلا تجرع ما منه سَقَتْ، ولا يحصد زارعٌ غَلَّةَ ما منه زرع، وفي معناه قالوا:

سَنَنْتِ فينا سَنَناً ... قَذَفَ البلايا عقبه
يصبر على أهوالها ... مَنْ بَرَّ يوماً رَبَّه

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

صرِّحْ بالإخبار عند استخبارهم، وأَعْلِمْ بما يزيل الشُّبْهَةَ عمَّا التبس على جُهَّالِهم، وأَكِّدْ إخبارَكَ بما تذكره مِنَ القَسَم واليمين، مضافاً ذلك إلى ما تُسْلِفُه من التَّبيين. على أنه لا ينفعهم نُصْحُك، ولا يُؤَثِّر فيهم وعظُكَ.. كيف لا؟ وقد جُرِّعوا شرابَ الحُجبة، وَوِسُمُوا بَكِيِّ الفُرقة؛ فلا بصيرة لهم ولا (....)[1] ولا فهمَ ولا حصافة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

---

(١) بياض في الأصل.

لا يُقْبَلُ منهم عَدْلٌ ولا سَرَفٌ[١]، ولا يحصل فيما سَبَقَ لهم من الوعيد خَلَفَ. ولا ندامة تنفعهم وإنْ صَدَقوها، ولا كرامة تنالهم وإنْ طلبوهَا، ولا ظُلْمَ يجري عليهم ولا حيف، كلا. . . بل هو اللَّهُ العَدْلُ في قضائه، الفَرْدُ في علائه بنعت كبريائه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الحادثات بأسْرِها لله مِلْكاً، وبه ظهوراً، ومنه ابتداءً، وإليه انتهاء؛ فقولُه حقٌّ، ووعدهُ صِدْقٌ، وأمره حَتْمٌ وقضاؤه باتٌّ. وهو العَلِيُّ، وعلى ما يشاء قويٌّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

يحيي القلوبَ بأنوار المشاهدة، ويميت النفوسَ بأنواع المجاهدة فنفوسُ العابدين تَلَفُها فنون المجاهدات، وقلوب العارفين شَرفُها عيون المشاهدات.

ويقال يحيي مَنْ أقبل عليه، ويميت مَنْ أعرض عنه.

ويقال يحيي قلوب قوم بجميل الرجاء، ويميت قلوبَ قوم بِوَسْم القنوط[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

الموعظة للكافة.. ولكنها لا تنجع في أقوام، وتنفع في آخرين؛ فَمَنْ أصغى إليها بسَمْعِ سِرِّه اتضح نورُ التحقيق في قلبه، ومَنْ استمع إليها بنعت غَيْبَتِه ما اتصف إلا بدوام حجبته.

ويقال الموعظة لأربابِ الغيبة لِيَؤوبُوا، والشِّفاء لأصحاب الحضور ليطيبوا.

ويقال «الموعظة»: للعوام، «والشفاء»: للخواص، «والهُدى» لخاص الخاص، «الرحمة» لجميعهم، وبرحمته وِصَلوا إلى ذلك.

ويقال شفاءُ كلِّ أحدٍ على حَسَبِ دائه، فشفاءُ المذنبين بوجود الرحمة، وشفاء المطيعين بوجود النعمة، وشفاء العارفين بوجوذ القربة، وشفاء الواجدين بشهود الحقيقة.

ويقال شفاء العاصين بوجود النجاة، وشفاء المطيعين بوجود الدرجات، وشفاءُ العارفين بالقرب والمناجاة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

«الفضل»: الإحسانُ الذي ليس بواجبٍ على فاعله «والرحمة» إرادة النعمة وقيل هي النعمة.

---

(١) السَّرَف: مجاوزة الحدّ. (٢) القنوط: اليأس.

والإحسان على أقسام كذلك النعمة، ونِعَمُ اللّهِ أكثر من أنْ تحْصَى.

ويقال الفضل ما أتاح لهم من الخيرات، والرحمة ما أزاحَ عنهم من الآفات.

ويقال فضل الله ما أكرمهم من إجراء الطاعات، ورحمته مَا عَصَمَهم به من ارتكاب الزَّلات. ويقال فضل الله دوام التوفيق ورحمته تمام التحقيق.

ويقال فضل الله ما يُخصُّ به أهل الطاعات من صنوف إحسانه، ورحمته يخصُّ به أهلَ الزلَّات من وجوه غفرانه.

ويقال فضل الله الرؤية، ورحمته إبقاؤهم في حالة الرؤية.

ويقال فضل الله المعرفة في البداية، ورحمته المغفرةُ في النهاية.

ويقال فضل الله أَنْ أَقَامَكَ بشهود الطلب، ورحمته أن أشهدك حقَّه بحكم البيان إلى أنْ تراه غداً بكشف العيان.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ أي بما أهَّلَهم له، لا بما يتكلَّفون من حَرَكاتهم وسَكَناتهم، أو يَصِلُونَ إليه بنوعٍ من تكلفهم وتعملهم. ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾: أي ما تُتحفُونَ به من الأحوال الزاكية خيرٌ مِمَّا تجمعون من الأموال الوافية.

ويقال الذي لَكَ منه ـ في سابق القسمة ـ خيرٌ مما تتكلَّفه من صنوف الطاعة والخدمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾.

يعَنِّفُهم ويُقَرِّعهُم[1] على ما ابتدعوه من التحليل والتحريم، ويُظْهِر كذبهم فيما تقوَّلُوه من نسبتهم ذلك إلى إذن وشرع.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

هذا على جهة التهويل والتعظيم لما أسلفوه من الكذب.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ في إمهال مَنْ أجرَم، والعصْمةِ لِمَنْ لم يُجْرِمْ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

---

(١) قرّعه: عنّفه وأوجعه باللوم والعتاب.

خَوَّفَهم بما عرفَّهم من اطلاعه عليهم في جميع أحوالهم، ورؤية ما سيفعلونه من فنون أعمالهم. والعلْمَ بأنه يراهم يوجِبُ استحياءَهم منه، وهذه حال المراقبة، والعبد إذا عَلمَ أن مولاه يراه استحي منه، وتَركَ متابعة هواه، ولا يحُوِّم حَوْلَ ما نهاه، وفي معناه أنشدوا:

كأنَّ رقيباً منك حَالٌّ بمهجتي ... إذا رُمْتُ تسهيلاً عليَّ تَصعَّبَا

وأنشدوا:

أُعَاتِبُ عَنكَ النَّفْسَ في كلِّ خَصْلَةٍ ... تعاتبني فيها وأنت مقيم

﴿وما يعزُبُ عن ربك من مثقال ذرة﴾: وكيف يخفى ذلك عليه، أو يتقاصر علمه عنه، وهو منشئُه وموجِدُه؟ وبعض أحكامه الجائزة مخصصة، وإنما قال: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾: ردَّهم إلى كتابته ذلك عليهم ـ لعدم اكتفائهم في الامتناع عمَّا نُهُوا عنه ـ برؤيته وعلمه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾.

الوليُّ على وزن فعيل مبالغة من الفاعل، وهو مَنْ تَوَالَت طاعاته، من غير أن يتخللها عصيان.

ويجوز أن يكون فعيل بمعنى مفعول كجريح وقتيل بمعنى مجروح ومقتول؛ فيكون الوليُّ مَنْ يتوالى عليه إحسانُ الله وأفضاله، ويكون بمعنى كونه محفوظاً في عامة أحواله من المحن.

وأشدُّ المحن ارتكابُ المعاصي فيعصمه الحقُّ ـ سبحانه ـ على دوام أوقاته من الزلَّات.

وكما أن النبيَّ لا يكون إلا معصوماً فالوليُّ لا يكون إلا محفوظاً.

والفَرْقُ بين المحفوظ والمعصوم أن المعصوم لا يُلِمُّ بِذَنْبٍ أَلْبَتَّةَ، والمحفوظُ قد تحصُل منه هَنَات، وقد يكون له ـ في الندرة ـ زَلَّاتٌ، ولكن لا يكون له إصرار: ﴿أولئك الذين يتوبون من قريب﴾ [النساء: ١٧].

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

حسنٌ ما قيل إنه ﴿لا خوف عليهم﴾: في الدنيا، ﴿ولا هم يحزنون﴾: في العاقبة. ولكن الأوْلى أنْ يقال إن الخواص منهم لا خوفٌ عليهم في الحال ـ لأنَّ حقيقةَ الخوفِ توقُّع محذورٍ فيٌّ المستقبل، أو ترقُّب محبوب يزول في المستأنف. . وهم بِحُكْمِ الوقت؛ ليس لهم تطلّعُ إلى المستقبل. والحزن هو أن تنالهم حُزُونة في الحال، وهم في رَوْحِ الرضا بكلِّ ما يجري فلا تكون لهم حزونة الوقت. فالوليُّ لا خوفٌ عليه في الوقت، ولا له حزن بحال، فهو بحكم الوقت.

ولا يكون وليّاً إلا إذا كان موفَّقاً لجميع ما يلزمه من الطاعات، معصوماً بكل وجه عن جميع الزلات. وكلُّ خَصْلَةٍ حميدة يمكن أن يُعْتَبَرَ بها فيقال هي صفة الأولياء. ويقال الوليُّ مَنْ فيه هذه الخصلة.

ويقال الوليُّ من لا يُقَصِّر في حقّ الحق، ولا يؤخِّر القيام بحق الخَلق؛ يطيع لا لخوف عقاب، ولا على ملاحظةِ حسن مآب، أو تطلع لعاجلِ اقتراب، ويقضي لكلِّ أحدٍ حقاً يراه واجباً، ولا يقتضي من أحدٍ حقاً له، ولا ينتقم، ولا ينتصف ولا يشمت ولا يحقد، ولا يقلد أحداً مِنّةً، ولا يرى لنفسه ولا لما يعمله قَدْراً ولا قيمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾.

هذه صفة الأولياء؛ آمنوا في الحال، واتقوا الشِّرْكَ في المآل. ويقال ﴿ءَامَنُواْ﴾ أي قاموا بقلوبهم من حيث المعارف. ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾: استقاموا بنفوسهم بأداء الوظائف.

ويقال «آمنوا» بتلقي التعريف. «واتقوا»: بالتقوى عن المحرمات بالتكليف.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

القيام بالأمر يدل على الصحة؛ فإذا قاموا بما أُمِروا به، واستقاموا بِتَرْكِ ما زُجروا عنه بَشَّرَتْهُم الشريعة بالخروج عن عهدة الإلزام، وبشَّرتهم الحقيقة باستجياب الإكرام، بما كوشِفوا به من الإعلام.. وهذه هي البشرى في عاجلهم. وأما البُشرى في آجِلِهم: فالحقُّ ـ سبحانه ـ يتولَّى ذلك التعريف، قال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ﴾ [التوبة: ٢١].

ويقال البشارة العُظْمَى ما يجدون في قلوبهم مِنْ ظَفَرِهم بنفوسهم بسقوط مآربهم، وأيُّ مُلْكٍ أتمُّ من سقوط المآرب، والرضا بالكائن؟ هذه هي النعمة العظمى، ووجدانُ هذه الحالة هو البشرىٰ الكبرى.

ويقال الفرق بين هذه البشارة التي لهم وبين البشارة التي للخلْق أنَّ للخلْق عِدَةً بالجميل، والذي له نَقْدٌ ومحصول.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

العبدُ ما دام متفرقاً يضيقُ صدرُه ويستوحش قلبُه بما يسمع ويشهد من الأغيارِ والكفارِ ما تَتَقدَّسُ عنه صفةُ الحقّ، فإنْ صار عارفاً زالَتْ عنه تلك الصفة لتحققه بأنَّ الحقَّ سبحانه وراء كلّ طاعةٍ وزَلَّةٍ، فلا له ـ سبحانه ـ من هذا استيحاش، ولا بذلك استئناس.

ثم يتحقق العارفُ بأنَّ المُجَرِيَ لطاعةِ أربابِ الوفاق ـ اللَّهُ، والمُنْشِيءُ لأحوال أهل الشِّقاقِ ـ اللَّهُ. لا يبالي الحقُّ بما يجري ولا يبالي العبدُ بشهود ما يجري، كما قيل:

بنو حقٍّ قضوا بالحقِّ صِرْفا   فَنَعْتُ الخَلْقِ فيهم مستعار

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

لله مَنْ في السموات ومَنْ في الأرض مِلْكاً، ويبدي عليهم ما يريد، حكما جَزْماً؛ فلا لقبوله عِلَّة، ولا موجِبَ لردِّه زَلَّة، كلا... إنها أحكامٌ سابقة، لم تُوجِبْها أجرامٌ لاحقة، ولا طاعاتٌ وعباداتٌ صادقة.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

الليلُ لأهل الغفلة بُعْدٌ وغيبة، ولأهل الندم توبة وأوبة(١)، وللمحبين زُلْفَةٌ وقربة؛ فالليل بصورته غير مُؤنِسٍ، لكنه وقت القربة لأهل الوصلة كما قيل:

وكم لظلامِ الليلِ عندي من يَدٍ   تُخَبِّر أن المانوية تكذب(٢)

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بِهَـٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

الوَلَدُ بعض الوالد، والصمدية تَجِلُّ عن البعضية، فَنَزَّهَ الله نَفْسَه عن ذلك بقوله **﴿سبحانه﴾**.

ثم إنه لم يعجِّلْ لهم العقوبة ـ مع قبيح قالتهم ومع قدرته على ذلك ـ تنبيهاً على طريق الحكمة لعباده.

ولا تجوز في وصفه الولادة لِتَوَحُّده، فلا قسيمَ له، ولا يجوز في نعته التبني أيضاً لِتَفَرُّدِه وأنه لا شبيهَ له.

قوله: ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾: الغِنَى نَفْيُ الحاجة، وشهوةُ المباشرةِ حاجة، ويتعالى عنها سبحانه.

---

(١) الأوبة: المرة من الأوب. والأوب: العادة أو الجهة والناحية.

(٢) المانوية: أتباع ماني بن فاتن وهو رجل ظهر في زمن سابور بن أردشير بعد عيسى عليه السلام وادعى النبوة وأحدث ديناً بين المجوسية والنصرانية، وكان يقول بنبوة المسيح عليه السلام، ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام، وقال: إن العالم مصنوع من النور والظلمة وأنهما لم يزالا قديمين حساسين سميعين بصيرين. المانوية مذهب تأثر بالبوذية والغنوصية، كما أخذ عن الزرداشتية قضت النصرانية على هذا المذهب حوالي ٥٠٠ م. (صبح الأعشى ١٣/٢٩٨).

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾.

ليس لهم بما هم فيه استمتاع، إنما هو أيامٌ قليلة ثم تتبعها آلامٌ طويلة، فلا قَدَمٌ لهم بعد ذلك تُرْفَع، ولا نَدَمٌ ينفع.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾.

أنزل الله هذه الآية على وجه التسلية لنبيِّه - ﷺ - لِمَا كان يمسُّه من مقاساة الشِّدَّة من قومه، فإنَّ أيامَ نوحٍ - وإنْ طالَت - فما لَبِثَتْ كثيراً إلا وقد زالت، كما قيل:

وأحْسَن شيءٍ في النوائب أنها إذا هي نابت لم تكن خلدا

ثم بيَّنَ أنه كان يتوكل على ربِّه مهما فعلوا. ولم يحتشم عبدٌ - ما وَثِقَ بربِّه - منْ كلِّ ما نَزَلَ به. ثم إن نوحاً - عليه السلام - قال: «إني توكلت على الله»(١) وهذا عين التفرقة، وقال لنبيِّه ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٤] وهذا عين الجمع فبانت المزية وظهرت الخصوصية.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

إذا كان عملِه لله لم يَطْلُبْ الأَجْرَ عليه من غير الله، وهكذا سنَّته في جميع أولياء الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

أغرق قومَه بأمواج القَطْرة، وفي الحقيقة أغرقهم بأمواج الأحكام والقدرة، وحفظ نوحاً - عليه السلام - وقومه في السفينة، وفي الحقيقة نَجَّاهم في سفينة السلامة. وكان نوحٌ في سابق حكمه من المحروسين، وكان قومُه في قديم قضائه من جملة المُغْرَقين، فَجرَتْ الأحوال على ما جَرَتْ به القسمةُ في الأزل.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

(١) أخرجه أبو داود (أدب ١٠٣)، والترمذي (دعاء ٣٤)، وابن ماجه (دعاء ١٨)، وأحمد بن حنبل ١/ ٦٦، ٦، ٣٠٦.

قصَّ عليه ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ أنباءَ الأولين، وشرح له جميع أحوال الغابرين، ثم فَضَّلَه على كافتهم أجمعين، فكانوا نجوماً وهو البدر، وكانوا أنهاراً وهو البحر، ثم به انتظم عِقْدُهم، وبنورِه أَشْرَقَ نهارُهم، وبظهوره خُتِم عددُهم، كما قيل:

يومٌ وحَسْبُ الدهرِ من أَجْلِه ... حيًّا غدٌ والتفت الأمسُ

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

ما زَادَهم الحقُّ سبحانه بياناً إلا ازدادوا طغياناً، وذلك أنه تعالى أجرى سُنَّتَه في المردودين عن معرفته أنه لا يزيد في الحجج هدًى إلا ويزيد في قلوبهم عَمًىٰ، ثم خفى عليهم قصود النبيين صلوات الله عليهم أجمعين[(١)].

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٥]: نظروا من حيث كانوا لم يعرفوا طعماً غير ما ذاقوا، وكذا صفةُ مَنْ أَقصتْه السوابقُ، وردَّته المشيئة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾.

ركنوا إلى تقليد آبائهم فيما عليه كانوا، واستحبُّوا استدامة ما عليه كانوا... فلحقهم شؤمُ العقيدةِ وسوءُ الطريقة حتى توهموا أن الأنبياءَ عليهم السلام إنما دَعَوْهم إلى الله لتكونَ لهم الكبرياءُ على عباد الله، ولم يعلموا أنهم إنما دَعَوْهم إلى الله بأمر الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾.

لما استعان في استدفاع ما استقبله بغير الله لم يلبث إلا يسيراً حتى تَبَرَّأَ منهم وتَوَعدَّهم بقوله: لأفعلنَّ ولأصنعنَّ، وكذلك قصارى كل حجة وولاية إذا كانت في غير الله فإنها تؤول إلى العداوة والبغضة، قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الزخرف: ٦٧].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

أَمَرَهُم أمراً يُظْهِرُ به بُطْلانَهم ليُدخِلَ الحقَّ على ما أتوا به من التمويه، فلذلك قال موسى عليه السلام: «إن الله سيبطله»؛ فلمَّا التقمت عصا موسى ـ جميع ما جاءوا به من حِبَالِهم وعِصِيِّهم ـ حين قَلَبَها اللَّهُ حيَّةً.. عَلِمُوا أنَّ اللَّهَ أبطل تلك الأعيان وأفناها.

---

(١) الآية (٧٧) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

من جملة ما أَحقَّه أن السَّحَرَةَ كان عندهم أنهم يَنْصُرون فرعون ويجيبونه فكانوا يُقْسِمون بِعِزَّته حيث قالوا «بِعِزَّةِ فرعونَ إنا لنحن الغالبون» وقال الحقُّ ـ سبحانه: بعزتي إنكم لمغلوبون، فكان على ما قال تعالى: دون ما قالوه، وفي معناه قالوا:

كم رَمَتْني بِأَسْهُمٍ صائباتٍ وتَعَمَّدْتُها بِسَهْمٍ فطاشا

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

أهلُ الحقيقة في كل وقتٍ قليلٌ عَدَدُهم، كبيرٌ عند الله خَطَرُهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾.

بيَّن أن الإيمان ليس من حيث الأقوال.. بل لا بد فيه من صدق الأحوال قصداً.

وحقيقةُ التوكل تَوَسُّلٌ تقديمُه مُتَّصِلٌ، ثم يعلم أنه بفضله ـ سبحانه ـ تَحْصُلُ نجاتُه، لا بما يأتي به من التكلُّف ـ هذه هي حقيقة التوكل[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

تبرأنا مما مِنَّا مِنَ الحوْل والمُنَّة، وتحققنا بما منك من الطوْل والمِنَّة.

فلا تجعلنا عرضةً لسهام أحكامك في عقوبتك بانتقامك، وارحمنا بلطفك وإكرامك، ونجّنا مِمَّنْ غَضِبْتَ عليهم فَأَذْلَلْتَهم، وبِكَيِّ فراقك وسَمْتَهُم[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

مَهَّدَ إليهم لعبادتنا مَحَالَّ وهي نفوسهم، ولمعارفنا منازِلَ وهي قلوبهم، ولمحبتنا مواضعَ وهي أرواحهم، ولمشاهدتنا معاهِدَ وهي أسرارهم؛ فنفوس العابدين بيوت الخدمة، وقلوب العارفين أوطان الحشمة، وأرواح المهيمين مشاهد المحبة، وأسار الموحدين منازل الهيبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾

(١) انظر حديث القشيري عن التوكل بالرسالة ص١٦٢.
(٢) الآية (٨٦) لم ترد.

لما يَئِس من إجابتهم حين دعاهم إلى الله دعا عليهم بإنزال السُّخطة وإذاقة الفرقة. ومن المعلوم أنّ الأنبياء ـ عليهم السلام ـ مِنْ حقهم العصمة، فإذا دعا موسى عليهم بمثل هذه الجملة لم يكن ذلك إلا بإذن من قِبَل الله تعالى في الحقيقة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الاستقامةُ في الدعاء تَرْكُ الاستعجال في حصول المقصود، ولا يَسْقُطُ الاستعجالُ من القلب إلا بوجدان السكينة فيه، ولا تكون تلك السكينة إلا بِحُسْن الرضاء بجميع ما يبدو من الغيب.

ويقال ينبغي للعبد أن يستقلَّ بالله ما أمكنه فعند هذا يقلُّ دعاؤه. ثم إذا دعاه بإشارة من الغيب ـ في جوازه ـ فالواجب ألا يستعجل، وأن يكون ساكِنَ الجأشِ.

ويقال من شرط الدعاء صِدْقُ الافتقار في الابتداء، ثم حُسْنُ الانتظار في الانتهاء، وكمال هذا الرضاء بجريان الأقدار بما يبدو من المسار والمضار.

ويقال الاستقامة في الدعاء سقوط التقاضي على الغيب، والخمود عن الاستعجال بحُسْنِ الثقة، وجميل الظّن.

ويقال في الآية تنبيهٌ على أنَّ للأمورِ آجالاً معلومة، فإذا جاء الوقت فلا تأخير للمقسوم في الوقت المعلوم.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

حَمَلَتْ العِزَّةُ فِرعونَ على تَقَحُّمِ البحر على إثرهم، فلمَّا تحقَّقَ الهلاكُ حَمَلَتْه ضرورةُ الحيلةِ على الاستعاذة، فلم ينفعه ذلك لفوات وقت الاختيار.

ويقال لما شهد صَوْلَةَ التقدير أفاق من سُكْرِ الغلطة، لكن: «بعد شهود البَاسْ لا ينفع التخاشعُ والابتئاسْ».

قوله جلّ ذكره: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

أَبَعْدَ طولِ الإمهال، والاصرار على ذميم الأفعال، والرَّكْضِ في ميدان الاغترار، وانقضاء وقت الاعتذار؟! هيهات! لقد استوجَبْتَ أن تُرَدَّ في وجهك، فلا لِعُذْرِك قَبُولٌ، ولا لَكَ إلى ما ترومه وصولٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾.

لَنُشْهِرَنَّ تعذيبَكَ، ونُظْهِرَنَّ ـ لِمَنْ استبصر ـ تأديبَك، لِتكونَ لِمَنْ خَلْفَكَ عِبْرة، وتزدادَ حين أَفَقْتَ أَسَفاً وحسرةً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

أذْلَلْنَا لهم الأيامَ، وأكثرنا لديهم الإنعامَ، وأكرمنا لهم المقامَ، وأتَحْنَا لهم فنونَ الحسناتِ، وأدَمْنَا لهم جميع الخيراتِ... فلمَّا قابلوا النعمة بالكفران، وأصَرُّوا على البَغْي والعدوان أذقناهم سوءَ العذاب، وسَدَدْنا عليهم أبوابَ ما فتحنا لهم من التكريم والإيجاب، وذلك جزاءُ مَنْ حَادَ عن طريق الوِفاق، وجَنَحَ إلى جانب الشِّقاق.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾.

ما شكَّ ـ ﷺ ـ فيما عليه أُنزِل، ولا عن أحدٍ منهم ساءَل، وإنما هذا الخطابُ على جهة التهويل، والمقصودُ منه تنبيهُ القوم على ملازمة نهج السبيل.

ويقال صفةُ أهل الخصوص ملاحظةُ أنفسِهم وأحوالِهم بعين الاستصغار.

ويقال فإنْ تَنَزَّلْتَ منزلةَ أهلِ الأدب في تَرْكِ الملاحظات فَسَلْ عَمَّن أرسلنا قَبْلَكَ فهل بَلَّغْنَا أحداً منزلتك؟ وهل خَصَصْنَا أحداً بمثل تخصيصكَ؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

ما كان منهياً عنه، وكان قبيحاً فبالشرع كان قبيحاً، فلا بدّ من ورود الأمر به حتى تكون منه طاعة وعبادة. وإنما لم يَجُزْ في صفته ـ ﷺ ـ التكذيبُ بآياتِ الله؛ لأنه نُهِيَ عنه لا لكونه قبيحاً بالعقل حتى يقال كيف نُهِيَ عنه وكان ذلك بعيداً منه؟

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

فالأعداء[1] حَقَّتْ عليهم كلمةٌ بالعقاب، والأولياء حقت عليهم كلمةٌ بالثواب؛ فالكلمة أزليَّة، والأحكام سابقة، والأفعال في المستأنف على ممر الأوقات على موجب القضية لاحقة، فالذين نصيبهم من القسمة الشِقْوةُ لا يؤمِنون وإن شاهدوا كل دلالة، وعاينوا كل معجزة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

قومُ يونس تداركتْهم الرحمةُ الأزليةُ فيما أجرى عليهم من توفيقِ التضرع،

---

(١) الآية (٩٧) لم ترد.

فكَشَفَ عنهم العذابَ، وصَرَفَ عنهم ما أظلَّ عليهم من العقوبة بعد ما عاينوا من تلك الأبواب؛ فبرحمته وصلوا إلى تضرعهم، لا بتضرعهم وصلوا إلى رحمته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾.

كيف يعتصي عليه سبحانه مرادٌ ـ والذي يبقي شيءٌ عن مراده ساهٍ أو مغلوبٌ؟ والذي يستحق جلالَ العِزَّةِ لا يفوته مطلوب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

لا يمكن حَمْل الإذن في هذه الآية إلا على معنى المشيئة؛ لأنه للكافة بالإيمان، والذي هو مأمورٌ بالشيء لا يقال إنه غير مأذون فيه. ولا يجوز حملُ هذه الآية على معنى أنه لا يُؤمِنُ أحدٌ إلا إذا ألجأه الحقُّ إلى الإيمان واضطره ـ لأنَّ موجِبَ ذلك ألا يكون أحدٌ في العَالَم مؤمناً بالاختيار، وذلك خطأ، فدلَّ على أنه أراد به إلا أنْ يشاءَ اللَّهُ أنْ يُؤمِنَ هو طوعاً. ولا يجوز بمقتضى هذا أنه يريد من أحدٍ أن يؤمِن طوعاً ثم لا يؤمِن؛ لأنه يُبْطِلُ فائدةَ الآية، فَصَحَّ قولُ أهل السُّنَّة بأنَّ ما شاءَ اللَّه كان وما لم يشأ لم يكن.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

الأدلة ـ وإنْ كانت ظاهرة ـ فما تغْنِي إذا كانت البصائرُ مسدودةً، كما أن الشموسَ ـ وإن كانت طالعة ـ فما تُغْنِي إذا كانت الأبصار عن الإدراك بالعمى مردودة، كما قيل:

وما انتفَاعُ أخي الدنيا بمقلته ... إذا استوَتْ عنده الأنوارُ والظُّلَمُ؟

قوله جلّ ذكره: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

تَمَنِّي ألطافِ أنوارِ الحقيقةِ تَعَنٍّ في تسويل، واستنادٌ إلى غير تحصيل، وتمادٍ في تضليل.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

حروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض فقوله تعالى: ﴿عَلَيْنَا﴾ ها هنا معناها «منَّا»، فلا شيء يجب على الله لكونه إلهاً مَلِكاً، فيجب الشيءُ من الله ـ لصدقه ـ ولا يجب عليه ـ لِعِزَّتِه.

وكما لا يجوز أن يَدْخُلَ نبيٌّ من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ في النار لا يجوز أن يُخَلَّدَ واحدٌ من المؤمنين في النار لأنه أخبر أنه يُنَجِّي الرسلَ والمؤمنين جميعاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

إن كنتم في غطاء الرَّيْبِ فأنا في ضياءٍ مِنَ الغيبِ، إنْ كنتم في ظلمة الجهل فأنا في شموس الوَصْلِ، إن كنتم في سدفة الضَّلالة فأنا في خلعة الرسالة وعلى أنوار الدلالة.

ويقال قد تميزنا على مفرق الطريق: فأنتم وقعتم في وهدة العِوَجِ، وأنَا ثابِتٌ على سَوَاء النَّهَجِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

أي أَخْلِصَ قلبَك للدّين، وجرِّدْ قلبَكَ عن إثبات كلِّ ما لَحِقَه قهرُ التكوين، وكنْ مائلاً عن الزيغ والبِدع، داخِلاً في جُمْلَةِ مَنْ أخلص في الحقيقة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

لا تعبدْ ما لا تنفعكَ عِبَادتُه ولا تَضُرُّك عبادتُه، وتلك صفة كل ما يعبَد من دون الله. واستعانة الخَلق بالخَلْق تمحيقٌ للوقتِ بلا طائلٍ؛ فَمَنْ لا يَملكُ لَنفِسه ضَرّاً ولا نَفعَاً كيف يستعين به مَنْ هو في مثل حاله؟ وإذا انضاف الضعيفُ إلى الضعيف ازدادَ الضعفُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

كما تفرَّد بإبداع الضُرِّ واختراعه فلا شريكَ يُعَضِّدُه.. كذلك توحَّدَ بكشف الضُرِّ وصَرْفِه فَلا نصيرَ يُنجِدُه.

ويقال هوَّنَ على المؤمِن الضُرَّ بقوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ حيث أضافه إلى نفسه، والحنظلُ يُسْتَلذُّ مِنْ كفِّ مَنْ تحبه.

وفَرَّقَ بين الضُرِّ والخير بإضافة الضرِّ إليه فقال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ ولم يقل: وإنْ يُرِدْكَ بضرٍ ـ وإنْ كان ذلك الضرُّ صادراً عن إرادته ـ وفي ذلك من حيث اللفظ دِقّة.

ويقال: عَذُبَ الضرّ حيث كان نفعه؛ فلمَّا أوجب مقاساة الضُرِّ من الحرَبَ أبدل مكانَه السرورَ والطَّرَب.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾.

مَنْ استبصر رَبِحَ رُشْدَ نفسِه، ومَنْ ضلَّ فقد زاغ عن قَصْدِه؛ فهذا بلاءٌ اكتسب، وذلك ضياء وشِفاء اجتلب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

قِفْ عند جريان أحكامنا، وانسلِخْ عن مرادِك بالكلية، ليُجْرِيَ عليك ما يريد، والله أعلم بالصواب.

السورة التي يذكر فيها هود عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه كلمة استولت على عقولِ قومٍ فَبَصَّرَتْها، وعلى قلوب آخرين فَجَّردَتْها، فالتي بَصَّرَتْها فبنور برهانه، والتي جَرَّدتْها فبقهر سلطانه.. فعالِمٌ سَلَكَ سبيلَ بحثه واستدلاله فَسَكَنَ لمَّا طلعت نجومُ عقله تحت ظلال إقباله، وعارِفٌ تعرَّضَ إلى وصاله فطاح لمَّا لاحت لَمعَةٌ ممن تقدَّس بالإعلام باستحقاق جلاله.

قوله جلّ ذكره: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

الألف إشارة إلى انفراده بالربوبية.

واللام إشارة إلى لُطْفِه بأهل التوحيد.

والراء إشارة إلى رحمته بكافة البَرِيَّةِ.

وهي في معنى القَسَم: أي أقسم بانفرادي بالربوبية ولطفي بمن عَرَفَني بالأحدية، ورحمتي على كافة البرية ـ إنَّ هذا الكتابَ أُحْكِمَتْ آياتُه.

ومعنى ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾: أي حُفِظَتْ عن التبديل والتغيير، ثم فُصِّلَتْ ببيان نعوتِ الحقِّ فيما يتصف به من جلال الصمدية، وتعبَّد به الخَلْقُ من أحكام العبودية، ثم ما لاح لقلوب الموحِّدين والمحبين من لطائف القربة، في عاجِلِهم البُشْرى بما وَعَدَهم به من عزيز لقائه في آجِلهم، وخصائصهم التي امتازوا بها عَمَّنْ سواهَم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾.

أي فصلَتْ آياتُه بألا تعبدوا إلا الله.

ويقال معناه في هذا الكتاب ألا تعبدوا إلا الله، إني لكم منه «نذيرٌ» مبينٌ بالفرقة، «وبشيرٌ» بدوام الوصلة، (فالفرقة بل في عاجله واحداً).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾.

استغفروا رَبّكم أولاً ثم توبوا إليه بعده.

والاستغفار طلب المغفرة، يعني قبل أن تتوبوا اطلبوا منه المغفرة بحسن النَّظرة،

وحَمْل الرجاء والثقة بأنه لا يُخَلِّد العاصِيَ في النار، فلا محالةَ يُخْرِجُه منها. . فابْتَدِئوا باستغفاركمْ، ثم توبوا بِتَرْكِ أوزاركم، والتَنَقِّي عن إصراركم.

ويقال استغفروا في الحال مما سلف، ثم إنْ أَلْمَمْتُم بزلَّةٍ أخرى فتوبوا.

ويقال استغفروا في الحال ثم لا تعودوا إلى ارتكاب الزلة فاستديموا التوبة ـ إلى مآلِكم ـ مما أسلفتم من قبيح أعمالكم.

ويقال ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ﴾: الاستغفار هو التوبة، والتنقي من جميع الذنوب، ثم «توبوا» منْ تَوَهُّم أنكم تُجَابُون بتوبتكم، بل اعلموا أنه يُجِيبكم بِكَرَمِه لا بأعمالكم.

ويقال «الاستغفار»: طَلبُ حظوظكم مِنْ عَفونا. . فإذا فعلْتُم هذا فتوبوا عن طلب كل حظ ونصيب، وارجعوا إلينا، واكتفوا بنا، راضين بما تحوزونه من التجاوز عنكم أو غير ذلك مما يخرجكم به.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

أي نُعَيِّشكم عيشاً طيباً حسناً مباركاً.

ويقال هو إعطاء الكفاية مع زوال الحرص.

ويقال هو القناعة بالموجود.

ويقال هو ألا يخرجَه إلى مخلوق، ولا يجعل لأحد عليه مِنَّةً لا سيما للئيم.

ويقال هو أن يوفقه لاصطناع المعروف إلى المستحقين.

ويقال هو أن تُقْضَى على يديه حوائج الناس.

ويقال هو ألا يُلِمَّ في حال شبابه بِزَلَّةٍ، وألا يتصفَ بأنه عن الله في غفلة.

ويقال هو أن يكون راضياً بما يجري عليه من نَوْعَي العسر واليسر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾.

مَنْ زادتْ حسناتُه على سيئاتِه أعطاه جزاءَ ما فَضَلَ له من الطاعات، ومن زادت سيئاته على حسناته كافأه بما يستوجبه من زيادة السيئات. . . هذا بيان التفسير.

ويقال مَنْ فَضَّلَه بحسن توفيقه أوصله إلى ما يستوجبه من لطفه ويزيده. .

ويقال هو أن يستر عليه فضلَه حتى لا يلاحظ حالَه ومقامه، بل ينظر إلى نفسه، وما منه ومَا لَه. . بِعَيْن الاستحقار والاستصغار.

ويقال هو أن يرقيه عن التعريج في أوطان البشرية إلى طاعات شهود الأحدية، ويُنقيّه عن (. . . . .)[1] البشرية، والتكدر بما يبدو من مفاجآت التقدير.

---

(١) بياض في الأصل.

ويقال هو ألا يُوحِشَه شيء بما يجري في الوقت.

ويقال هو أن يُحَقِّقَ له ما تسمو إليه هِمَّتُه، ويُبَلِّغَه فوق ما يستوجبه محلَّه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

تنقطع الدعاوى عند الرجوع إلى الله، وتنتفي الظنونُ، ويحصل اليأسُ مِنْ غير الله بكل وجه، ويبقى العبدُ بنعتِ الاضطرار، والحقُّ يُجْرِي عليه ما سَبَقَتْ به القسمة من أنواع الأقدار.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

أي يسترون ما تنطوي عليه عقائدهم، ويُضْمِرون للرسول ـ عليه السلام ـ وللمؤمنين خِلافَ ما يُظْهِرون، والحقُّ ـ سبحانه ـ مُطَّلِعٌ على قلوبهم، ويعلم خفايا صدورِهم، فتلبيسُهم لا يُغْني عنهم من الله شيئاً، وكان الله ـ سبحانه ـ يُطْلِعُ رسولَه ـ عليه السلام ـ على ما أَخْفَوْه إمَّا بتعريفِ الوحي، أو بإشهادِ لِقُوَّةِ نورٍ، وكذلك المؤمنون كانوا مخصوصين بالفراسة، فكل مؤمن له بِقَدْرِ حاله من الله هداية، قال ﷺ: «اتقوا فراسةَ المؤمن فإن المؤمن ينظر بنور الله»[1] ولقد قال قائلهم.

أَبِعَيْنِي أَرَاكَ أَمْ بِفُؤادي؟ كلُّ ما في الفؤاد للعين بادِ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾.

أراح القلوبَ من حيرة التقسيم، والأفكارَ من نَصَبِ التفكير في باب الرزق حيث قال: ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ فَسَكَنَتْ القلوبُ لمَّا تَحَقَّقَتْ أَنَّ الرزقَ على الله.

ويقال إذا كان الرزق على الله فصاحبُ الحانوتِ في غَلَطٍ من حسبانه. ثم إن اللَّهَ سبحانه بيَّن أَنَّ الرزقَ الذي «عليه» ما حالُه فقال: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ [الذاريات: ٢٢]، وما كان في السماءِ لا يوجد في السوق، ولا في التَّطواف في الغرب والشرق.

ويقال الأرزاق مختلفة فَرِزْقُ كل حيوانٍ على ما يليق بصفته.

---

(١) أخرجه الترمذي في (السنن ٣١٢٧)، وأبو حنيفة في (المسند ١/ ١٨٩)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٤/ ٩٤، ٦/ ١١٨)، والطبراني في (المعجم الكبير ٨/ ١٢١)، (البغوي ١٤/ ٣١)، وابن كثير في (التفسير ١/ ٤٧٩، ٤/ ٤٦١)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/ ٥٤٤، ٧/ ٢٥٩)، وابن حجر في (فتح الباري ١٢/ ٣٨٨)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٠٧٣٠) وابن حجر في (لسان الميزان ٥/ ١١٥٤)، وصاحب (ميزان الاعتدال ٨٠٩٨)، والشوكاني في (الفوائد المجموعة ٢٤٣)، وابن عراق في (تنزيه الشريعة ٢/ ٣٠٥)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٤٢)، والسيوطي في (الدر المنثور ٤/ ١٠٣)، والعقيلي في (الضعفاء ٤/ ١٢٩).

ويقال للنفوسِ رزقٌ هو غذاءُ طريقُه الخَلقُ، وللقلوب رزق وهو ضياءٌ مُوجِدُهُ الحق.

ويقال لم يقل ما يشتهيه أو مقدار ما يكفيه بل هو موكولٌ إلى مشيئته؛ فَمِنْ مُوَسَّعٍ عليه ومِنْ مُقَتَّرٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

قيل أراد به به أصلابَ الآباءِ وأرحامَ الأمهات، أو الدنيا والآخرة. ويقال مُسْتَقرُّ المريدِ ببابِ شيخِه كمستقرِّ الصبيِّ بباب والديه. ويقال مستقر العابدين المساجد، ومستقر العارفين المَشَاهد، فالمساجِدُ مستقرُّ نفوسِ العابدين، والمشاهِدُ مُسْتَقَرُّ قلوب العارفين.

ويقال مستقرُّ المحب رأسُ سِكَّةِ محبوبِه لعلَّه يشهده عند عبوره.

ويقال المساجِدُ للعابدين مستقرُّ القَدَم، والمشاهِدُ للعارفين مستقرُّ الهِمَم، والفقراء مستقرهم سُدَّةُ الكَرَم.

ويقال الكلُّ له مثوىً ومستقر، أما الموحِّد فإنه لا مأوى له ولا مستقر ولا مثوى ولا منزل.

ويقال النفوس مستودَعُ التوفيق من الله، والقلوبُ مستودعُ التحقيق من قِبَلِ الله.

ويقال القلوبُ مستودعُ المعرفة؛ فالمعرفة وديعة فيها. والأرواح مستودع المحبة فالمحابُ ودائع فيها. والأسرار مستودع المشاهدات فالمشاهدات ودائع فيها.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

وأَحْسَنُ الأعمالِ موافقةُ الأمرِ، ولم يَقُلْ أكثر عملاً.

ويقال أحسن الأعمال ما كان صاحبُه أشدَّ إخلاصاً فيه.

ويقال أحسنهم عملاً أبعدُهم عن ملاحظة أعماله.

ويقال أحسن الأعمال ما ينظر إليه صاحبه بعين الاستصغار.

ويقال أحسن الأعمال ما لا يطلبُ صاحبُه عليه عِوَضاً.

ويقال أحسن الأعمال ما غابَ عنه صاحبه لاستغراقه في شهود المعبود.

قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ الابتلاءُ مِنْ قِبَلِه تعريفُ الملائكة حالَ من يبتليه في الشكر عند اليُسْر والصبر عند العُسر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

استبعدوا النَّشْرَ لِتَقاصُرِ علومهم عن التحقُّق بكمال قدرة الحق، ولو عرفوا ذلك

لأيقنوا أن البعث ليس بمعتاصٍ في الإيجاد ولا يمستحيلٍ في التقدير.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

يقول: إنْ أَمْهَلْنَا، وأخَّرنا عليهم العذابَ لا يَرْعَوُون، بل يستعجلون العقوبة. ولئن عَجَّلْنا لهم العقوبةَ لا يتوبون ولا يستغفرون... استولى عليهم الجهلُ في الحاليْن، وعَمِيَتْ بصائرُهم عن شهودِ التقدير والإيمان بالغيب في النوعين. ويوم يأتيهم العذابُ فلا مناصَ ولا منجاةَ ولا مراحَ لهم منه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾.

تَكَدُّرُ ما صفا من النِّعم، وتَغيُّرُ ما أُتيح من الإحسان والمِنَن حالٌ معهودةٌ وخُطَّة عامة، فلا أحدَ إلا وله منها خِطَّه[1] فَمَنْ لم يرجع بالتأسُّفِ قلبه، ولم يتضاعفْ في كل نَفَسٍ تَلَهفُّهُ وكَرْبُه ففي ديوان النسيان، وأثبت اسمه في جملة أهل الهجران. ومن استمسكَ بعروة التضرع، واعتكف بعقوة التذلل، احتسى كاساتِ الحسرة عُلَلاً بعد نهل طاعته للحق بنعت الرحمة، وجَدَّدَ له ما اندرس من أحوال القربة، وأَطْلَعَ عليه شمسَ الإقبال بعد الأفول والغيبة، كما قيل.

تَقَشَعَ غيمُ الهجرِ عن قمر الحبِّ وأشرق نورُ الصبح في ظلمة الغيب

وليس للأحوال الدنيوية خَطَرٌ في التحقيق، ولا يُعدُّ زوالُها وتكدُرها من جملة المحن عند أرباب التحصيل، لكنَّ المحنة الكبرى والرزيةَ العظمى ذبولُ غصنِ الوصال؛ وتكدرُ مشرب القرب، وأفولُ شوارق الأُنْسِ، ورَمَدُ بصائر أرباب الشهود... فعند ذلك تقوم قيامتُهم، وهناك تُسْكَبُ العَبَراتُ. ويقال إذا نَعَقَ في ساحاتِ هؤلاء غرابُ البيْن ارتفع إلى السماء نُوَاحُ أسرارهم بالويل، ومن جملة ما يبثون ن نحيبهم ما قلتُ:

قولاً لِمَنْ سَلَبَ الفؤادَ فراقُه ولقد عَهِدْنا أن يُباحَ عِتاقُه
بَعُدَ الفراقِ... فبالذي هو بيننا هَلَّا رحمتم مَنْ دنا إزهاقُه؟
عهدي بمن جحد الهوى أزمان كُـ ـنَّا بالصبابةِ - لا يَضيق نِطاقُه
والآن مُذْ بَخِلَ الزمانُ بوصلنا ضاق البسيطة حين دام فراقُه

(١) الخُطَّة: الحال والأمر والخطب، والخِطَّة: الأرض تنزل من غير أن ينزلها نازل قبل ذلك وقد خطها لنفسه خطاً واختطها وهو أن يعلّم عليها علامة بالخط ليُعلم أنه قد احتازها ليبنيها داراً. (لسان العرب ٧/٢٨٨ ـ ٢٩٠).

هل تُرتَجى من وصلِ عِزّك رجعةٌ تحنو على قمرٍ يدوم محاقُه؟
إن كان ذاك كما تروم فأخبِروا أنّى له أن يعودَ شروقُه؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾.

إذا كشفنا الضُرَّ عنهم رحمةً مِنّا عادوا إلى تهتكهم بدلاً من أن يتقربوا إلينا، وأساءوا بخلع عذارهم بدل أن يقوموا بشكرنا، وكلما أتَحْنا لهم من إمهالنا أَمِنوا لمكرنا، ولم يخافوا أنْ نأخذَهم فجأة بقهرنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

الإنسان في الآية السابقة اسم جنس.

وإلا للاستثناء منه، وقيل بمعنى «لكن»، يريد إذا أذقناهم نعمة بعد الشدة بطروا، إلا المؤمنين فإنهم بخلاف ذلك، أي لكنَّ الذين آمنوا بخلاف ذلك، فإنهم لصبرهم على ما به أُمِروا، وعما عنه زُجِروا، ولمعانقتهم للطاعات ومفارقتهم الزّلات.. فلهم مغفرة وأجر، مغفرة لعصيانهم، وأجرٌ على إحسانهم. والفريقان لا يستويان، قال قائلهم.

أَحبابُنا شتّان وافٍ وناقِصٌ ولا يستوي قطُّ مُحبٌّ وباغض

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾.

اقترحوا عليه أن يأتي بكتابٍ ليس فيه سَبُّ آلهتهم، وبيَّن الله ـ سبحانه ـ له ألا يتركَ تبليغ ما أُنزِل عليه لأجْلِ كراهتهم، ولا يُبَدِّلَ ما يُوحَى إليه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

وهذا على وجه الاستبعاد؛ أي لا يكون منك تركُ ما أُوحِيَ إليك، ولا يضيق صَدرُك بما يبدو من الغيب.. ومَنْ شرح الله بالتوحيد صدرَه، ونوَّر بشهود التقدير سِرَّه ـ متى يلحقه ضيقُ صدْرٍ أو استكراهُ أمْرٍ؟ ثم قال: ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾: أي أنت بالإرسالِ منصوبٌ، وأحكامُ التقدير عليكَ مُجْرَاةٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

في الآية بيانٌ أنّ المكلَّف مُزَاحُ العِلّةِ لِمَا أُقِيمَ له من البرهانِ وأُهِّلَ له من

التحقيق. وأنَّ الإيمانَ بالواسطة ـ صلى الله عليه وسلم وآله ـ واجِبٌ لِما خُصَّ به من المعجزات التي أوضحها الكتابُ المُنَزَّلُ والقرآنُ المُفَصَّلُ الذي عجز الكفار عن معارضته.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

يعني فإن لم يستجيبوا لكم يعني إلى الإتيان بمثله ـ وهم أهل بلاغة ـ فتحققوا أنه من قِبَلِ الله، وليس على سنة التحقيق (.....)[1] إنما العمى في بصائر من ضلُّوا عن الحقّ، وتاهوا في سدفة الحيرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾.

مَنْ قَنَع منهم بدنيا الدناءةُ صِفَتُها وَسَّعْنَا عليه في الاستمتاع بأيام فيها، ولكن عَقِبَ اكتمالِها سيرى زوالَها، ويذوق بعد عسلِها حَنْظَلَها.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

أولئك الذين خَابَتْ آمالُهم، وظهرت لهم ـ بخلاف ما احتسبوا ـ آلامُهم، حَبِطَتْ أعمالُهم، وحاق بهم سوء حالهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

فيه إضمار ومعناه أفمن كان على بينة كمن ليس على بينة.. لا يستويان.

والبيِّنةُ لأقوامٍ برهانُ العِلْم، ولآخرين بيانُ الأمر بالقطع والجزم؛ يُشْهِدهم الحقُّ ما لا يطلع عليه غيرُهم، كما قلت:

ليلى من وجهك شمس الضحا (..............................)[1]

فالناس في الظلمة من ليلهم ونحن من وجهك في الضوء والشاهد

فالذي يتولاه فهو مشاهِدٌ، وفي الخبر «أولياءُ الله الذين إذا أرادوا ذكر الله....»[2]

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) أخرجه الألباني في (السلسلة الصحيحة ١٧٣٣).

قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ [محمد: ٣٠].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

مَنْ ادَّعى على الله حالاً لم يكن متحققاً بها فقد افترى على الله كذباً، واستوجب المقت، وعقوبته أَلَّا يُرْزَق بركةً في أحواله، ثم إنه يكشف للشهداء عيوبَه، فيفضحه بين الخلق، والشهداءُ قلوبُ الأولياء، ومَنْ شهدت القلوبُ عليه بالردِّ فهو غيرُ مقبولٍ عند الحقِّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ . . .﴾ الآية.

هذا من جملة صفات المفترين على الله الكذب، ومِنْ صدِّهم عن السبيل أن يُظهِروا من أنفسهم أحوالاً تُخِلُّ بأحكام الشريعة، ولا يَرَوْن ذلك كبيرةً في الطريقة، ويُوهِمون المُسْتَضْعفين من أهل الاعتراض عليهم أنَّ لهم في ذلك رخصة، فَيضِلُّون ويُضِلُّون. ومن جملة صدِّهم عن السبيل تغريرهم بالناس، وإيقاعهم في الغَلَطِ، ويرتفقون بشيءٍ مما في أيديهم من حطام الدنيا، ولا يَسْتَحُون منْ أَخْذِ شيءٍ لا يستوجبونه بأي وجه حقٍّ، ويُدَاهِنُون في دين الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ . . .﴾ الآية.

مَنْ هذه[1] صفتهم لا يربحون في تجارتهم، ولا يلحقون غايةَ طلبوها؛ فيبقون عن الحق، ولا يبارك لهم فيما اعتاضوا من صحبة الخَلْق. خَسِرتْ صفقتُهُمْ، وبَارَتْ بضاعتُهم، لَقُوا الهوان، وذاقوا اليأس والحرمان.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾.

لا محالةَ أنهم في الآخرة أشدُّ خسراناً، وأوفر ـ من الخيرات ـ نقصاناً.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ﴾.

الإخباتُ التخشع لله بالقلب بدوام الانكسار، ومن علامته الذبول تحت جريان المقادير بدوام الاستغاثة بالسر.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ . . . وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ . . .﴾ الآية.

مثلُ الكافر في كفره كالأعمى والأصم، ومَثَلُ المؤمن في إيمانه كالسميع والبصير ـ هذا بيان التفسير.

والإشارة فيه أن الأعمى مَنْ عَمِيَ عن الإبصار بِسِرِّه، والأصمُّ الذي طَرِش بسَمْع

(١) الآية (٢١) لم ترد.

قلبه؛ فلا باستدلاله شَهِدَ سر تقديره في أفعاله، ولا بنور فراسةٍ توهم ما وقف عليه من مكاشفات الغيب لقلبه، ولا بسَمْع القبولِ استجابَ لدواعي الشريعة، ولا بِحُكْم الإنصاف انْقَادَ لما يتوجَّب عليه من مطالبات الوقت مما يلوح لِسرِّه من تلويحات الحقيقة.

وأما البصير فهو الذي يشهد من الحق أفعاله بعلم اليقين، ويشهد صفاته بعين اليقين، ويشهد ذاته بحق اليقين، والغائبات له حضور، والمستورات له كشف. فالذي يسمع فَصِفَتُه ألا يسمعَ هواجسَ النَّفس ولا وساوس الشيطان؛ فيسمع من دواعي العلم شرعاً، ثم من خواطر التعريف قدراً، ثم يكاشف بخطاب من الحق سِرًّا[١].

فهؤلاء لا يستويان، ولا في طريق يلتقيان:

راحَتْ مُشَرِّقَةً ورُحْتُ مُغَرِّباً فمتى التقاءُ مُشَرِّقٍ ومُغَرِّبِ؟!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

كان نوحٌ عليه السلام أطولَ الأنبياء عُمْراً وأشدَّهم بلاءً، وسمي نوحاً لكثرة نَوْحِه على نَفْسِه.. وسببُ ذلك أنه مرَّ بكلبٍ فقال: ما أقبحه! فأوحى الله إليه أَنْ اخلقْ أنت أَحْسَنَ من هذا. فأخذ يبكي وينوح على نفسه كلَّ ذلك النَّوْح. فكيف بحالِ مَنْ لم يذكر يوماً مما مضى من عمره في مدة تكليفه ـ ولم يحصل منه لله كثير من ولاية!؟

قوله جلّ ذكره: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾.

أنكروا صحة كوْنِه نبيًّا لمشاكلته إياهم في الصورة، ولم يعلموا أن المباينة بالسريرة لا بالصورة.

ثم قال: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾: نظروا إلى أتباعه نَظْرَةَ استصغارٍ، ونَسَبُوهم إلى قِلَّةِ التحصيل.. وما استصغر أحدٌ أحداً من حيث رؤية الفضل عليه إلا سَلَّطَ اللّهُ عليه، وأذاقه ذُلَّ صَغَارِه، فبالمعاني يحصل الامتيازُ لا بالمباني:

ترى الرجلَ النحيف فتزدريه وفي أثوابه أسد هصور

(١) انظر الرسالة القشيرية عن حديث القشيري عن السماع ص٣٣٥.

فإن أكُ في شِراركم قليلاً فإني في خِيارِكم كثير

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾.

الصُبحُ لا خَلَلَ في ضيائه لِكَوْن الناظرين عمياناً، والسيفُ لا خَلَلَ في مَضائِه لِكَوْنِ الضاربين صبياناً. . . وكيف لِبَشَرٍ من قدرةٍ على هداية مَنْ أَضَلَّه اللَّهُ ـ ولو كان نبيًّا؟

هيهات لا ينفع مع الجاهل نُصْحٌ، ولا ينجح في المُصِرّ وعظٌ!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾.

سُنَّة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ألا يطلبوا على رسالتهم أجراً، وألّا يُؤَمِّلُوا لأنفسهم عند الخَلق قَدْراً، عَمَلُهُم لله لا يطلبون شيئاً من غير الله. فَمَنْ سَلَكَ من العلماء سبيلَهم حُشِرَ في زمرتهم، ومَنْ أَخَذَ على صلاحِه مِنْ أحدٍ عِوَضاً، أو اكتسب بسداده جاهاً لم يَرَ من الله إلا هواناً وصَغَاراً،

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

مجالسةُ الفقراءِ اليومَ ـ وهم جُلَساءُ الحقّ غداً ـ أجدى من مجالسة قومٍ من الأغنياء هم من أهل الردّ.

ومَنْ طَرَدَ مَنْ قَرَّبَه الله وأدناه استوجب الخِزْيَ في دنياه، والصَّغَارَ في عقباه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾.

لا أتخطّى خَطّي عما أبلغت مما حملتُ من رسالتي، ولا أتعدَّى ما كُلِّفْتُ به، ولا أزيد عما أُمِرْتُ، ولن أخرجَ عن الذي أنبأوني، بل أنتصب بشاهدي فيما أقاموني.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

إن أولياء الله سبحانه في أثوابِهم ولا يراهم إلا من قارَبَهُم في معناهم. اللَّهُ أعلمُ بأحوالهم، وفي الجملة: طيرُ السماءِ على أُلّافها تقع.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

أوضح لهم من البراهين مالوا أنعموا النظر فيه لتمّ لهم اليقين، ولكنهم أصروا

على الجحود، ولم يقنعوا من الموعود بغير المشهود.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

أقرَّ بالعبودية، وتبرَّأ عن الحول والقوة، وأحال الأمرَ على المشيئة. ولقد أنصف مَنْ لم يُجَاوِزْ حَدَّه في الدعوى. والأنبياء عليهم السلام ـ وإن كانوا أصحاب التحدي للناس بمعجزاتهم فهم معترفون بأنهم موقوفون عند حدودهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

مَنْ لم يُساعده تعريفُ الحقّ ـ بما له بحكم العناية ـ لم ينفعه نُصْحُ الخَلْقِ في النهاية.

ويقال مَنْ لم يُوَصِّلْه الحقُّ للوصال في آزاله لم ينفعه نُصْحُ الخَلْقِ في حاله.

ويقال مَنْ سَبَقَ الحُكْمُ له بالضلالة أنَّى ينفعه النصحُ وبَسْطُ الدلالة؟

ويقال من لم تساعدْه قسمةُ السوابق لم ينفعه نُصْحُ الخلائق.

قوله: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾: من المحال اجتماع الهداية والغواية؛ فإذا أراد اللَّهُ بقوم الغواية لم يصح أن يقال إنهم من أهل الهداية.

ثم بيَّن المعنى في ذلك بأن قال: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ لِيَعْلَم العالِمون أنَّ الربَّ تعالى له أن يفعل بعباده ما شاء بحكم الربوبية.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾.

ومهما وصفتموني فإني أُجِيبُ اللَّهَ.. وكُلٌّ مُطالَبٌ بفعله دون فِعْلِ صاحبِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

عرَّفه الحقُّ أنَّه غنيٌّ عن إيمانهم، فكَشَفَ له أحكامَهم، وأنَّ مَنْ لم يؤمن منهم قد سبق الحكمُ بشقائهم، فعند ذلك دعا عليهم نوحٌ ـ عليه السلام ـ بالإهلاك.

ويقال لم يدعُ عليهم ما دام للمطمع في إيمانهم مساغٌ، فلما حَصَل العكسُ نطق بالتماس هلاكهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾.

أي قُمْ ـ بشرط العبودية ـ بصنع السفينة بأمرنا، وتحقق بشهودنا، وأنَّك بمرأىً

منا. ومَنْ عَلِمَ اطلَاعه عليه لم يلاحِظْ نَفسَه ولا غيرَه، لا سيما وقد تحقق بأنَّ المُجْرِي هو سبحانه.

وقال له: راعِ حَدَّ الأَدَبِ، فما لم يكن لك إذْنٌ منا في الشفاعة لأحدٍ فلا تُخاطِبْنا فيهم.

ويقال سبق لهم الحكمُ بالغَرَقِ ـ وأمواج بحر التقدير تتلاطم ـ فكلٌّ في بحار القدرة مُغْرَقُون إلا من أهَّلَه الحقُّ بِحُكْمِه فَحَمَلَه في سفينة العناية.

ويقال كان قومُ نوحٍ من الغَرْقَى في بحار القَطْرة، ومِنْ قبلُ كانوا غرقى في بحار القدرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾.

لما تَحقَّقَ بما أمر اللَّهُ به لم يأبَه عند إمضاءِ ما كُلِّفَ به بما سَمِعَ من القيل، ونظر إلى الموعود بطَرْفِ التصديق فكان كالمُشاهِد له قبلَ الوجود.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

لا طاعةَ لمخلوقٍ في مقاساة تقديره ـ سبحانه ـ إلا من تحمل عنه بفضله ما يحمله بحُكْمه.

قوله جلّ ذكره: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾.

طال انتظارُهم لِمَا كان يَتَوَعَّدُهم به نوحٌ عليه السلام على وجه الاستبعاد، ولم يَزِدْهُم تطاولُ الأيامِ إلا كفراً، وصَمَّمُوا على عقد تكذيبهم.

ثم لمَّا أتاهم الموعودُ إياهم بغتةً، وظهر من الوضع الذي لم يُجِبُّوه فآرَ الماءُ من التنور المسجور(١)، وجادت السماءُ بالمطر المعبور.

﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾: استبقاءً للتناسل.

ويقال: قد يؤْتَى الحَذِرُ من مَأْمَنِه؛ فإن إبليسَ جاء إلى نوحٍ ـ عليه السلام ـ.

وقال: احْمِلني في السفينة فأَبَى نوحٌ عليه السلام، فقال له إبليس: أَمَا عَلِمْتَ أَني من المُنْظَرين إلى يومٍ معلوم، ولا مكانَ لي اليومَ إلا في سفينتك؟

فأوحى الله إلى نوحٍ أن يَحْمِلَه معه.

(١) التَّنُّور: ضرب من الكوانين يُخبز فيه، أعلاه أضيق من أسفله (اللسان ٤/ ٩٥) المسجور: المملوء (اللسان ٤/ ٣٤٥).

ويقال لم يكن لابن نوح معه مكان، وأُمِرَ بِحَمْل إبليس وهو أصعب الأعداء! وفي هذا إشارة إلى أن أسرارَ التقدير لا تجري على قياس الخَلْق؛ كأنه قيل له: يا نوح.. ابنك لا تحمله، وعدوك فَأَدْخُلْه، فالله سبحانه فعَّالٌ لما يريد.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ بالشقاوة. وفيه تعريف بأن حُكْمَ الأزَل لا يُرَدُّ، والحقُّ ـ سبحانه ـ لا يُنَازَعُ، والجبَّارُ لا يُخَاصَمُ، وأن مَنْ أقصاه ربُّه لم يُدْنِه تنبيهٌ ولا بِرٌّ ولا وَعظ.

﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ولكن بَارَكَ الحقُّ ـ سبحانه ـ في الذين نجَّاهم من نَسْلِه، ولم يدخل خَللٌ في الكونِ بعد هلاكِ مَنْ أَهْلَك مِنْ قومه.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

عَرَفَ أَنَّ نجاتَه من القَطْرةِ لمَّا تقَاطرَتْ ليست بالحِيَلِ ـ وإنْ تَنوّعَتْ وكَثُرَتْ، فباسم اللَّهِ سلامتُه، وبتوكلِه على الله نجاتُه وراحتُه، وبتفضله ـ سبحانه ـ صلاحُه وعافيته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وكان في معزل بظاهره، وكان في سرِّ تقديره أيضاً بمعزلٍ عما سبق لنوح وقومه من سابق فضله. فحينما نطق بِلسانِ الشفقةِ وقال: ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ـ لم يقل له: ولا تكن من الكافرين؛ لأن حالته كانت مُلْتبِسةً على نوح إذ كان ابنُه ينافقه ـ فقيل لهُ: يا نوح إنه مع الكافرين لأنه في سابق حُكْمِنا من الكافرين.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾.

أَخْطأَ مِنْ وجهين: رأى الهلاكَ من الماءِ وكان مِنَ اللَّهِ، ورأى النجاةَ والعِصمةَ من الجبلِ وهما من الله، فقال له نوح: لا عاصِمَ اليومَ من أمرِ الله. قيل أراد لا معصومَ اليوم من الله. وقيل لا أحدَ يَعْصِم أحداً من أمر الله، لكنْ مَنْ رَحِمَه ربُّه فهو معصومٌ من ذلك، وله عاصمٌ وهو الله.

ولقد كان نوح ـ عليه السلام ـ مع ابنه في هذه المخاطبات فجاءت أمواجُ الماءِ وحالَتْ بينهما وصار من المُغْرَقِين، فلا وعظُه ونُصْحُه نفعاه، ولا قولُه وتذكيره نَجَّيَاه وخَلصَّاه.

ويقال احتمل أن لو قيل له يا نوح عَرَّفْنا العالَم بدعائك ولا عليكَ إنْ عَرَفَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

فلما غَرِقَ ابنُ نوح سَكَنَ الموجُ ونضَبَ الماءُ وأقلعت السماء، وكأنه كان المقصودُ من الطوفانِ أَنْ يَغرقَ ابنُ نوح ـ عليه السلام ـ وقيل:

عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدهرُ بيني وبينها فلما انقضى ما بيننا سَكَنَ الدهرُ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

خَاطَبَ الحقَّ ـ سبحانه ـ في باب ابنِهِ، واستعطفَ في السؤال فقال:

و﴿إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾: فقال له: إنَّه ليست مِنْ أهل الوصلة قِسْمَتُه ـ وإنْ كان من أَهلِكَ نَسَباً ولُحْمَةً، وإنَّ خطابَك في بابه عملٌ غيرُ صالح، أو إنه أيضاً عَمِلَ غيرَ صالح.

﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾: أي سَتَرْتُ غيبي في حال أوليائي وأعدائي، فلا يُعْلَمُ سِرُّ تقديري.

قوله: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ﴾: وذلك لحُرْمةِ شيخوخته وكِبَرِه، ولأنه لم يَسْتَجِبْ له في وَلَدِه، فتدارَكَ بِحُسْنِ الخطابِ قَلْبَه.

وقيل إن ابنَ نوح بَنَي من الزجاج بيتاً وقتَ اشتغال أبيه باتخاذ السفينة، فلما ركب نوحٌ السفينةَ دَخَلَ ابنُه في البيتِ الذي اتخذه من الزجاج، ثم إن الله تعالى سلَّطَ عليه البوْلَ حتى لمتلأ بيْتُ الزجاج من بَوْلِه؛ فَغَرِق الكلُّ في ماء البحر، وغرق ابنُ نوحٍ في بَوْلِه! ليُعْلَمَ أنه لا مفرَّ مِنَ القَدَر.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

نَسِيَ نوحٌ ـ عليه السلام ـ حديثَ ابنه في حديث نفسه، فاستعاذ بفضله واستجار بلطفه، فوجد السلامةَ من ربِّه في قوله جل ذكره:

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

طَهَّرَ وجهَ الأرضِ من أعدائه، وحفظ نوحاً عليه السلام من بلائه، هو ومن معه من أصدقائه وأقربائه.

والأمَمُ التي أخبر أنه سَيُمَتِّعُهم ثم يَمَسُّهم العذابُ هم الذين ليسوا من أهل السعادة.

قوله جلّ ذكره: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

أعلمناكَ بهذه الجملة، وأنبأناك بهذه القصص لما خصصناك من غير أن تتعلَّمه من شخص، أو من قراءةِ كتاب؛ فإنْ قابَلَكَ قومك بالتكذيب فاصبِرْ، فَعَنْ قريبٍ تنقلب هذه الأمور.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾.

كَلَّفَ الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بالذهاب إلى الخَلْق لا سيما وقد عاينوا ـ بالحق ـ مَنْ تَقَدَّمَهُم من فترة الملأ، ولكنهم تَحَمَّلُوا ذلك حين أَمَرهُم الحقُّ بالتوجُّهِ إليهم فَرَضُوا، وأظهروا الدلالةَ، وأَدَّوْا الرسالةَ، ولكن ما زادِ الناسُ إلا نفرةً على نفرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

لم يأتِ نبيٌّ من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ إِلَّا وأَخْبَرَ أنه ليس له أنْ يطلبَ في الجملة أجْراً إِلَّا من اللّهِ لا من غير الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾.

استغفروا ربكم ثم توبوا إليه بعد الاستغفار، مِنْ توهمكم أن نجاتَكم باستغفارِكم. بل تَحقَّقُوا بأنكم لا تجدون نجاتَكم إلا بفضلِ ربِّكم؛ فَبِفَضْلِه وبتوفيقه توصَّلْتُم إلى استغفاركم لا باستغفاركم، وصلتم إلى نجاتكم، وبرحمته أهَّلَكُم إلى استغفاركم، وإِلَّا لَمَا وصلتم إلى توبتكم ولا إلى استغفاركم.

والاستغفار قَرْع باب الرزق، فإذا رجع العبد إلى الله بحسن تضرعه، فتح عليه أبوابَ رحمته، ويَسَّرَ له أسبابَ نعمته.

ويقال يُنَزِّل على ظواهركم أمطارَ النِّعمة، وعلى ضمائرِكم وسرائرِكم يُنَزِّل أنواعَ المِنَّة، ويزيدكم قوة على قوة؛ قوة تحصلون بها توسعة أنواع الرِزْقِ، وقوةً تحصلون بها تحسين أصناف الخُلُقِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

ما زادهم هودُ عليه السلام بَسْطا في الآية وإيضاحاً في المعجزة إلا زادهم اللَّهِ تعالى عَمًى على عَمًى، ولم يرزقْهم بصيرةً ولا هديً، ولم يزيدوا في خطابِهم إلا بما دَلُّوا على فَرْطِ جهالتهم، وشدة ضلالتهم بعد إطنابهم وانتهابهم، وقالوا:

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

وكيف ظَنُّوا أنَّ آلهتَهم تَمسُّ أعداءَهم بسوءٍ وهي لا تضرُّ أعداءها ولا تنفع أولياءَها؟ فهؤلاء الغوايةُ عليهم مُسْتَوْلية. ثم إن هوداً عليه السلام أفْصَحَ عن فضل ربِّه عليه؛ وصَرَّحَ بإخلاصه وحُسْنِ يقينه فقال: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ثم قال:

﴿مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾.

فلم يَختخْ معهم إلى تضرع واستخذاء، ولا راوَدَهم في سَلم واستمهال، ولم يَتَّصِفْ في ذلك بركونٍ إلى حَوْله ومُنَّته، ولم يستند إلى جِدِّه وقوَّته بل قال:

﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

أخبر أنه بموعودِ الله له بنُصْرتِه واثق، وأنه في خلوص طاعته لربِّه وفي صفاء معرفته (غيرُ مُفَارِقٍ).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾.

أوحينا إليه أنْ قُلْ لهم: إنْ تَوَلَّوْا ولم تُؤمنوا بي فقد بَلَّغْتُ ما حُمِّلْتُ من رسالتي، وإني واثقٌ بأنَّ الله إذا أهلككم يأتِ بأقوامٍ آخرين سواكم أطْوعَ له منكم، وإنْ أفناكم ما اختلَّ مُلْكُه؛ إذ الحقُّ - سبحانه - بوجود الأغيار لا يلحقه زيْنٌ - وإنْ وَحَّدُوا، وبفقدهم لا يَمُسه شَيْنٌ - وإنْ جحدوا وألحدوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

ولما جاء أمْرنا بإهلاكِهم نَجَّيْنا هوداً والذين آمنوا برحمتنا، ولم يَقُلْ باستحقاقه النجاةَ بوسيلةِ نُبُوته، أو لجسامة طاعته ورسالته بل قال: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾، ليَعْلَمَ الكافةُ أنَّ الأنبياء - عليهم السلام - ومَنْ دونَهم عتيقُ رحمته، وغريقُ مِنَّتِه، لا لاستحقاقِ أحدٍ ولا لواجبٍ على الله في شيء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

في إنزالِ قصصهم تسلية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم وآله ـ فيما كان يقاسي من العناء، وللمؤمنين فيما بذلوا من حسن البلاء، والعِدَةُ بتبديل ـ ما كانوا يلقَوْنه من الشِدَّة ـ بالرجاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾.

أخبر أنهم خسروا الدنيا والآخرة، أمَّا في هذه الدنيا فبالاستئصال بأليم الشدة وما تَبِعَه من اللَّعنة، ثم ما يلقونه في الآخرة من تأبيد العقوبة. وبقاؤهم عن رحمة الله أصعبُ من صنوف كل تلك المحنة، وكما قيل:

لِمَنْ ابتغى عوضاً لِسَلْمى فَلَمْ يَجِد ... تَبَدَّلَتْ وتبدلنا واحسرتا

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾.

عُقَيْبَ ما مضى من قصة عادٍ ذَكرَ ثمود، وثمودهم قوم لصالح، وقد انخرطوا في الغيِّ في سِلْكِ مَنْ سَبَقَهم، فَلَحِقتُ العقوبةُ بجميعهم. ثم أخبر أنهم قابلوا نَبِيَّهم ـ عليه السلام ـ بالتكذيب، ولم يقفوا على ما نبَّهَم عليه من التوبة والتصديق، وأصرُّوا على الإقرار أنهم في شأنه لفي شكٍ مريب.

ثم بيَّن أنَّ صالحاً لم يُعرِّجْ ـ في التبليغ ـ على تقصير.

وبَعْدَ تَمَرُّدِهم وامتناعهم عن الإنابةِ، وإصرارهم على تَرْكِ الإجابة حقَّ عليهم ما توعدهم به من عذاب غير مكذوب، ونجَّى نبيَّهم ـ عليه السلام ـ، ونجَّى مَنْ اتَّبَعَه من كل عقوبة. . سُنَّةٌ منه ـ سبحانه ـ في إنجاءِ أوليائه أمضاها، وعادةٌ في تلطفه ورحمته بالمستحقين أجراها.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌۖ فَمَا لَبِثَ أَن

جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾.

أخبر أن الملائكة أتوا إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ بالبشارة. وأخبر أن إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ أنْكَرَهُم، ولم يَعْرِفْ أنهم ملائكةٌ. فيُحتمل أنَّه ـ سبحانه ـ أراد أن تكونَ تلك البشارة فجأةً من غير تنبيهٍ لتكونَ أتَمَّ وأبلغَ في إيجاد السرور، ولا سيما وقد كانت بعد خوف لأنه قال: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾.

ويقال إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان صاحبَ النبوة والخُلَّة والرسالة فلا بُدَّ أن تكونَ فراستُه أعلى من فراسة كلِّ أحدٍ، ولكنه في هذه الحالة لم يَعْرِفْ الملائكةَ ليُعْلَمَ أنَّ الحقَّ ـ سبحانه وتعالى ـ إذا أراد إمضاءِ حُكْمٍ يَسُدُّ على مَنْ أرادَ عيونَ الفراسة، وإنْ كان صاحبُ الفراسة هو خليل الله، كما سَدَّ الفراسة على نبيِّنا ـ ﷺ ـ في قصة الإِفْكِ إلى الوقت الذي نزل فيه الوحيُ، وكذلك التبس على لوطٍ ـ عليه السلام ـ إلى أن تبيَّن له الأمر.

وتكلموا في هذه «البشرى» ما كانت؛ فقيل كانت البشارة بإسحاق؟ أنَّه سيولد له ولد ومن نَسْله وسُلالته؛ قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾.

ويقال بسلامة قومه ـ حيث كانوا مُرْسَلين بإهلاك قوم لوط ـ عليه السلام.

ويقال بشارة بالخُلَّة وتمام الوصلة.

ويقال إن الخُلَّة والمحبة بناؤهما كتمان السِّرِّ؛ فَيَعْلَمَ أنهم أُرْسِلُوا بشارةٍ ما ولم يكن للغير اطلاع، قال قائلهم:

بين المحبين قولٌ لست أفهمه

ويقال إن تلك البشارة هي قولهم: «سلاماً» وأن ذلك كان من الله، وأيُّ بشارة أتمُّ من سلام الحبيب؟ وأيُّ صباحٍ يكون مُفْتَتَاً بسلام الحبيب فصَبَاحٌ مباركٌ، وكذلك المبيتُ بسلام الحبيب فهو مباركٌ.

قوله: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩]: لمَّا توهمهم أضيافاً قام بحقِّ الضيافة، فقدَّم خَيْرَ ما عنده مما شكره الحقُّ عليه حيث قال في موضعٍ آخر: ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦]. والمحبةُ توجِبُ استكثارَ القليلِ من الحبيبِ واستقلالَ ما مِنْكَ للحبيب، وفي هذا إشارة إلى أنه إذا نَزَلَ الضيفُ فالواجبُ المبادرةُ إلى تقديم السُّفرة(١) مِمَّا حضر في الوقت.

---

(١) السُّفرة: طعام يتخذه المسافر وأكثر ما يُحمل في جلد مستدير فنقل اسم الطعام إليه وقيل: السفرة: التي يؤكل عليها سميت سفرة لأنها تبسط إذا أُكل عليها. (اللسان ٤/ ٣٦٨ ـ ٣٦٩).

قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ [هود: ٧٠] تمامُ إحسانِ الضيف أن تتناولَ يَدُه ما يُقدَّم إليه من الطعام، والامتناعُ عن أكل ما يُقدَّم إليه معدودٌ في جملة الجفاء في مذهب أهل الظَّرْف.[١] والأكل في الدعوة واجبٌ على أحد الوجهين.

﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾: أي خاف أنه وقع له خَلَلٌ في حاله حيث امتنع الضِّيفانُ عن أكل طعامه؛ فأوجس الخيفةَ لهم لا منهم.

وقيل إن الملائكة في ذلك الوقت ما كانوا ينزلون جهراً إلا لعقوبة؛ فلمَّا امتنعوا عن الأكل، وعَلِمَ أنهم ملائكةٌ خَافَ أنْ يكونوا قد أُرْسِلُوا لعقوبة قومه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾.

كانت امرأتُه قائمةً بخدمة الأضياف، فضحكت تَعَجُّباً مِنْ أَنْ يكونَ لمثلها في هذه السِّنِّ ولدٌ.

وقيل كان سرورُها السلامة. ويحتمل أنها ضحكت تعَجُّباً من امتناع الضيِّفان عن الأكل. أو تَعَجبَتْ من كوْن الملائكة في صورة البشر لَمَّا عَلِمَتْ أنهم ملائكة. ويحتمل أنها ضحكت لاستبشارها بالوَلَد وقد بُشِّرتْ باستحقاقه ومن ورائه يعقوب، ثم أفصَحَتْ عما ينطوي عليه قلبُها من التعجب فقالت: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾!

فأحال الملائكة خَلْقَ الوَلَدِ على التقدير: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾؟ فزال موضِعُ التعجب، وقالوا: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ فبقي الدعاء في شريعتنا بآخر الآية حيث يقول الداعي: كما صَلّيْتَ وباركتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

والبركة الزيادة؛ فقد اتصل النَّسْلُ من الخليل، وبنو إسرائيل منهم ـ وهم خَلْقٌ كثير، والعرب من أولاد إسماعيل ـ وهم الجَمُّ الغفير[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾.

لما كانت مراجعته مع الله في أمر قوم لوطٍ بحقِّ الله لا لحظِّ نَفْسِه سَلِمَ له الجِدال، وهذا يدلُّ على علوِّ شأنه حيث تجاوزَ عنه ذلك.

---

(١) الظرف: البراعة وذكاء القلب. فالظرف في اللسان البلاغة، وفي الوجه الحَسن، وفي القلب الذكاء. (لسان العرب ٩/٢٢٨ ـ ٢٢٩ مادة: ظرف).

(٢) الجمّ الغفير: الجمع الكثير (ج) جمام وجموم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾.

والإشارة فيه أنه كان يقَابِل ما وَرَدَ على ماله ونفسِه وولده بالاحتمال، ولمَّا كان حقُّ الحقِّ في حديثِ قوم لوط أخَذَ في الجِدالِ إلى أن أبَانَ له سلامةَ لوط ـ عليه السلام ـ وقال الله سبحانه: ـ

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾

يا إبراهيم أعْرِضْ عن هذا فإنَّ الحُكْمَ بعذابِهم قد نَزَل، ووقتُ الانتقامِ منهم قد حصل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾.

أي أنه حزن بسبب خوفه عليهم أن يَجْرِيَ عليهم من قومه ما لا يجوز في دِين الله؛ فذلك الحزنُ كان لحقِّ الله لا لنصيبٍ له أو حظٍّ لنفسه، ولذلك حُمِدَ عليه لأنَّ مقاساةَ الحزنِ لحقِّ الله محمودةٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾.

قوله ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾: قيل إنه أراد به نساء أمته، فنبيُّ كلِّ أمةٍ مثل الوالد لأولاده في الشفقة والنصيحة.

ويقال إنه أراد بناتِه منْ صُلْبِه.

«أليس منكم رجل رشيد» يرتدي جلبابَ[1] الحشمة، ويؤثِر حقَّ الله على ما هو مقتضى البشرية، ويرعى حق الضيافة، ويترك معصية الله؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾.

أصرُّوا على عصيانهم، وزهدوا في المأذون لهم شرعاً، وانجرُّوا إلى ما قادهم إليه الهوى طبعاً، وهذه صفة البهائم؛ لا يَرْدَعُها عقلٌ، قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠].

لو أن لي قوةً فأمنعكم عن ارتكابِ المعصية؛ فإنَّ أهمَّ الأشياء على الأولياء ألا يَجْرِيَ من العصاةِ ما ليس الله فيه لا رضاء.

---

(١) الجلباب: القميص أو الثوب المشتمل على الجسد كله.

ويقال: لو كان لي قدرةٌ لإيصال الرحمةِ إليكم ـ مع ارتكابكم المعاصي ـ لَرَحِمْتُكم وتجاوزتُ عنكم.

ويقال لو أنَّ لي قوةً لهَدَيْتُكم إلى الدِّين، ولَعَصَمْتُكم عن ارتكاب المخالفات.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٖ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْۚ﴾.

لمَّا ضَاقَ به الأمْر كَشَفَ اللَّهُ عنه الضُرَّ فَعَرَّفَ إليه الملائكةُ وقالوا: لا عليكَ فإنهم لا يصلون إليكَ بسوءٍ، وإنَّا رُسُلُ ربك جئنا لإهلاكهم، فاخرُجْ أنت وقومُك من بينهم، واعلمْ أنَّ مَنْ شَارَكَهم في عملهم بنوعٍ فَلَهُ مِنْ العذابِ حِصَّة. ومن جملتهم امرأتك التي كانت تدل القوم على المَلَكِ لفعْلة الفاحشة، وإن العقوبة لاحقةٌ بها، مُدْرِكَة لها.

والإشارة منه أن الجسارةَ على الزَّلّةِ وخيمةُ العاقبةِ ـ ولو بعد حين، ولا ينفع المرءَ اتصالُه بالأنبياء والأولياءِ إذا كان في الحكم والقضاء من جملة الأشقياء.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٖ﴾.

ما هو كائِنٌ فقريبٌ، والبعيدُ ما لا يكون. وإنَّ مَنْ أَقْدَمَ على محظورٍ ثم حُوسِبَ عليه ـ ولو بعد دهورٍ خالية وأعوام غير محصورة ماضية ـ تصور له الحال كأنه وقتُ مُبَاشَرَتِه لتلك الزَّلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ﴾.

سُنَّةُ الله في عباده قلبُ الأحوال عليهم، والانقلابُ مِنْ سِمَاتِ الحدوث، أمّا الذي لا يزول ولا يحولُ فهو الذي لم يزل ولا يزال بنعوته الصمدية.

وإنَّ مَنْ عاش في السرور دهراً ثم تبدل يُسْرُه عُسْراً فَكَمَنْ لم يَرَ قطُّ خيراً، والذي قاسَى طولَ عمره ثم أُعْطِي يُسْراً فكمن لم يَرَ عُسْراً.

قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [الأنعام: ١١٠].

قوله جلّ ذكره: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾.

ذكر سبحانه ما نالهم من العقوبة على عصيانهم، ثم أخبر أنَّ تلك العقوبةَ لاحقةٌ بمن سَلَكَ سبيلَهم تحذيراً لمن لم يعتبر بهم إذا عرف طريقَهم، كما قيل:

ومَنْ يَرَني ولم يعتبر بَعْدِي ... فإنَّ لكلِّ معصيةٍ عقابا

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

أخبر سبحانه عن قصتهم، وما أصابهم من العذاب الأليم، وما نالهم من البلاء العظيم.

وفي الظاهر لهم كانت أجرامُهم كاليسيرة، ولعدم الفهم يعدون أمثالها صغيرة، ولا يقولون إنها كبيرة، وإن ذلك تطفيف في المكيال.

وليس قَدْرُ الأجرام لأعيانها، ولكن لمخالفة الجبارِ عَظُمَ شأنُها، قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

ولما أن قال لهم شعيب:

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾.

يعني القليل من الحلالِ أجدى من الكثير المُعْقِبِ للوَبالِ لم يقابلوا نصيحَته لهم إلا بالعِناد والتمادي فيما هو دائمٌ من الجحد[1] والكنود[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾.

استوطؤوا مركب الجهل، واستحلبوا مشْربَ التقليد، وأغفَوْا قلوبَهم من استعمال الفكرِ، واستبصارِ طريقِ الرُّشدِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾.

البيِّنَةُ نورٌ تَسْتَبْصِرُ به ما خَفِيَ عليك تحت غطاء الغفلة.

والرزق الحسن ما به دوام الاستقلال، وما ذلك إلا مقتضى عنايته الأزلية، وحُسْنُ توليه لشأنك ـ في جميع ما فيه صلاحك ـ من إتمام النعمة ودوام العصمة.

وقيل الرزق الحسنُ ما تعنِّي صاحبُه لِطَلَبِه، ولم يصبْه نَصَبٌ بسببه.

وقيل الرزق الحَسَنُ ما يستوفيه بشهود الرزق ويحفظه عند التنعم بوجود الرَّزّاق.

---

(١) الجحد: قلة الخير، والجحود: الإنكار مع العلم.

(٢) الكنود كند النعمة: جحدها ولم يشكرها.

ويقال الرزق الحسن ما لا يُنْسِي الرزَّاق، ويحمل صاحبَه على التوسعة والإنفاق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ﴾.

يمكن للواعظ أو الناصح أنْ يساهِل المأمورَ في كل ما يأمره به، ولكن يجب ألا يجيز له ما ينهاه عنه؛ فإنَّ الإتيانَ بجميع الطاعات غيرُ مُمْكن، ولكنَّ التجرُّد عن جميع المحرَّمات واجبٌ.

ويقال مَنْ لم يكنْ له حُكْمٌ على نفسه في المنع عن الهوى لم يكن له حُكْمٌ على غيره فيما يرشده إليه من الهدى.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ﴾.

مَدَارُ الأمر على الأغراض المقضية حُسْنُ القصد بالإصلاح؛ فيَقْرِنُ اللّهُ به حسن التيسير، ومَنْ انطوى على قصدٍ بالسوء وَكَلَ الحقُّ بشأنه التعويق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾.

حقيقةُ التوفيق ما ينفق به الشيء، وفي الشريعة التوفيق ما تنفق به الطاعة، وهو قدرة الطاعة، ثم كل ما تقرب العبد به من الطاعة من توفير الدواعي وفنون المَنْهيات يُعدُّ من جملة التوفيق - على التوسُّع.

والتوفيقُ باللّهِ ومن اللّهِ، وهو - سبحانه - بإعطائه متفضِّلٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

التوكل تفويض الأمر إلى الله، وأمارته تركُ التدبير بشهود التقدير، والثقة بالموعود عند عدم الموجود. ويتبين ذلك بانتفاء الاضطراب عند عدم الأسباب.

ويقال التوكلُ السكون، والثقةُ بالمضمون.

ويقال التوكل سكون القلب بمضمون الرَّبّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾.

تورثكم مُخالَفَتُكم إياي فيما أدعوكم إليه من طاعةِ اللّهِ أَنْ يلحقكم من أليم العقوبة ما أصاب مَنْ تقدَّمَكم من الذين سِرْتُم على منهاجهم، وما عهدُكم ببعيد بمن تحققتم كيف حَلَّتْ بهم العقوبة، وكيف أنهم ما زادتْهم كثرةُ النصيحةِ إلَّا غُلُوًّا في ضلالتهم، وعُتُوًّا في جهالتهم، وكما قيل.

وكمْ صُغْتُ في آثاركم من نصيحةٍ وقد يستفيد البغضةَ المُتَنَصِّحُ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾.

الاستغفار هو التوبة.

ومعنى قوله ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ أي توبوا ثم لا تُنقِضُوا توبتَكم؛ فهو أمرٌ باستدامة التوبة؛ فإذا لم يتصل وفاءُ المآلِ بصفاءِ الحال لم يحصل قَبُولٌ، وكأن لم يكن لِمَا سَلَفَ حصولٌ.

﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾: يرحم العصاةَ ويودُّهم.

ويقال يرحمهم ولذلك يودونه؛ فالودود يكون بمعنى المودود كَحلُوب بمعنى محلوب. والرحمةُ تكون للعاصي لأنَّ المطيعَ بوصف استحقاقه للثواب على طاعاته، ثم ليس كلُّ من يُحِبُّ السلطانَ في محلّ الأكابر، فالأصاغِرُ من الجُنْدِ قد يحبون المَلِكَ، وأنشدوا:

ألا رُبَّ مَـنْ يـدنـو ويـزعـم أنـه يـودُّك، والـنـائـي أودُّ وأقـربُ

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾.

لاحظوا شعيباً بعين الاستصغار فَحُرِمُوا فَهْمَ معاني الخطاب، وأقرُّوا على أنفسِهم بالجهل، وأحالوا إعفاءَهم إياه من الأذى على حشمتهم من رهطه وعشيرته، فعاتبَهُم عليه:

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

أترون مِنْ حقِّ رهطي[1] ما لا تَرَوْنَ من حقِّ ربي؛ وإنَّ ربي يُكافئكم على أعمالكم بما تستوجبون في جميع أحوالكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾.

أرخى لهم ستر الإمهال فلمَّا أصرُّوا على تماديهم في الغواية حلَّت بهم العقوبة، وصاروا وكأن لم يكن بينهم نافخ نارٍ، ولا في دِيارِ الظالمين ديَّار، قال تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢].

---

(١) الرَّهط: ما دون العشرة من الرجال، ورهط الرجل عشيرته وقبيلته والأقربون.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾.

كَرَّر قصة موسى عليه السلام تفخيماً لشأنه، وتعظيماً لأمره، وتنبيهاً على علوّ قدره عند الله وعلى مكانة الآيات التي أرسله بها، ومعجزاته الباهرة، وبراهينه القاهرة.

ويقال أصعبُ عدوٍّ قَهَرَهُ أولا نَفْسُه، وقد دَله ـ سبحانه ـ على ذلك لمَّا قال: إلهي! كيف أطلبك؟

فقال: عند المنكسرةِ قلوبُهم من أجلي.

فَنَبَّهَه إلى استصغارِه لنفسه، وانكساره لله بقلبه، فزادت صولتُه لما صار معصوماً عن شهود فضلٍ لنفسه؛ والسلطانُ الذي خصَّه به استولى على قلوبِ مَنْ رآه، كما قال: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩] فما رآه أحدٌ إلا أحبَّه، ثم إنه لم يأخذه في الله ضعفٌ، مثلما لَطَمَ وجهَ فرعون ـ وهو رضيع ـ كما في القصة، ولَطَمَ وجهَ مَلَكِ الموت لمّا طالبه بقبض روحه.. كما في الخبر، «وأخذ برأس أخيه يجرُّه إليه لمّا رجع من سماع الخطاب عند المعاتبة، وأقدم بالجسارة على سؤال الرؤية، وقتل القبطيَّ لما استعان به مَنْ وافقه في العقيدة، وقال الله ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] لمَّا أخبره الحق بما عمله قومه من عبادة العجل بحكم الضلالة... ففي جميع هذا تَجَاوَزَ اللَّهُ عنه لمَا أعطاه من السلطان والقوة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَاتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾.

رضوا بمتابعة فرعون، فاستحقوا ما استحقه. لم يشعروا بخطئِهم، وكانوا يحسبون أنهم يُحْسِنون صُنْعاً. وإذا ما أوردهم النارَ فهو إمامُهم، وسيعلمون ما أصابهم من الخسران حين لا ينفع تضرعُهم وبكاؤهم ولا ينقطع عذابُهم وعناؤهم، وتغلب خسارتهم وشقاؤهم ـ وذلك جزاءُ مَنْ كَفَرَ بمعبوده، وأسرف في مجاوزة حدوده.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾.

بَعُدُوا في عاجلهم من الإيمان، وفي آجلهم من الغفران والجنان. والذي لهم في الحال من الفُرقة أعظمُ ـ في التحقيق ـ من الذي لهم في المآلِ من الحُرقَة، وهذه صفةُ مَنْ امتحنه اللَّهُ باللعنة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾.

لم يكن في جملة مَنْ قصَّ عليه مِنَ الأنبياء ـ عليهم السلام ـ مَنْ أكثر منه تبجيلا، ولا فيمن ذكره من الأمم أعظم من أمته تفضيلاً، فكما تَقَدَّم على الأنبياءِ ـ عليهم السلام تقدَّمَتْ أمتُه على الأمم، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠١].

لا يجوز الظلمُ في وصفه؛ فتصرُّفُه في مُلْكه بحقِّ إلهيته ـ مطلقٌ؛ يحكم بحسب إرادته ومشيئته، ولا يتوجه حقٌّ عليه، فكيف يجوز الظلمُ في وصفه؟

ويقال هذا الخطاب لو كان من مخلوقٍ مع مخلوق لأشبه العذر، ولكن في صفته لا يجوز العذر إذ الخلقُ خلقُه، والمُلْكُ مُلْكُه، والحُكْمُ حُكْمُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

إنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ يمهل ولكن لا يهمل، ويحكم ولكن لا يعجّل، وهو لا يُسأل عمَّا يفعل.

وقيل إذا أخذ النفوسَ بالتوفيق فلا سبيل للخذلان إليها، وإذا أخذ القلوبَ بالتحقيق فلا طريق للحرمان عليها. قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾.

مشهودٌ يشهدِه مَنْ حُشِرَ من جميع الخلائق في ذلك اليوم.

ويقال الأيام ثلاثة: يومٌ مفقود وهو أمسِ ليس بيدك منه شيء، ويومٌ مقصود وهو غدٌ لا تدري أتدركه أم لا، ويومٌ مشهودٌ وهو اليوم الذي أنت فيه؛ فالمفقودُ لا يرجع، والمقصود ربما لا تبلغ، والمشهود وقتك وهو مُعَرَّضٌ للزوال.. فاستغله فيما ينفع.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾.

الأَجَلُ لا يَتَقَدَّم ولا يتأخر لكل (. . .)[1]، والآجالُ على ما عَلِمها الحقُّ ـ سبحانه ـ وأرادها جاريةٌ؛ فلا طلبٌ يُقَدِّمُ أو يؤخر وقتاً إذا جاء أجلُه، وكذلك للوصول وقت، فلا طلب مع رجاء الوصول، ولا طلب مع خوف الزوال، ولقد قيل:

عيبُ السلامةِ أنَّ صاحبَها ... متوقِّعٌ لقواصمِ الظَّهرِ
وفضيلةُ البلوى ترقبُ أهلِها ... عَقِبَ البلاءِ ـ مَسَرَّةَ الدهرِ

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾.

الشقيُّ من قُسِم له الحرمانُ في حاله، والسعيد مَنْ رُزِق الإيمان في مآله.

---

(١) بياض في الأصل.

ويقال الشقاء على قسمين: قومٌ شقاؤهم غير مؤبد، وقومٌ شقاؤهم على التأبيد وكذلك القول في السعادة. الشقيُّ مَنْ هو في أَسْرِ التدبير ونسيان جريان التقدير، والسعيد مَنْ رَجِعَ من ظلماتِ التدبير، وحصل على وصف شهود التقدير.

ويقال الشقيُّ من كان في رق العبودية ظانًّا أَنَّ منه طاعاته، والسعيد مَنْ تحرر عن رقِّ البشرية وعَلِمَ أن الحادثاتِ كلها لله سبحانه.

وأمَّا الأشقياء ـ على التأبيد ـ فهم أهل الخلود في مقتضى الوعيد، والسعداء ـ على التأبيد ـ من قال الله تعالى في صفتهم: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ أن يزيد على مُدَّةِ السموات والأرضِ.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ أن ينقلهم إلى نوعٍ آخر من العذاب غير الزفير والشهيق.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ ألا تلحقهم تلك العقوبة قبل أَنْ يُدْخِلَهم النار؛ فلا استثناء لبعض أوقاتِهم من العقوبة لا قَبْلَ إدخالهم فيها ولا بعده.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ من إخراج أهل التوحيد من النار فيكون شقاؤهم غير مؤبَّد.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

فيه إشارة إلى أن الذي يحصل لهم يحصل بمشيئته لا باستحقاق عمل.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾.

لهم اليوم جنات القُربة، ولهم غداً جنات المثوبة. والكفار اليوم في عقوبة الفرقة، وغداً في عقوبة الحرقة.

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ فلا استثناء لبعض أوقات أهل الجنة من أول أمرهم قبل دخولهم الجنة أو بعده. أو يحتمل أنه يزيد على مدة السموات والأرض.

وفي قوله ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ ـ أي عطاءً غير مقطوع ـ دليلٌ على أن تلك النعم غير مقطوعة ولا ممنوعة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾.

لا يريد أنَّه عليه السلام في شَكٍ، ولكنه أراد به تحقيق كونهم مُضاهين لآبائهم، كما تقول: لا شكَّ أنَّ هذا نهارٌ.

ويقال الخطابُ له والمرادُ به لأُمَّتِه.

﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾: تجازيهم على الخبر بخير وعلى الشر بضُر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾.

اختلفوا في الكتاب الذي أوتي، وهو التوراة.

واختلفوا في كونه رسولاً، فمِنْ مُصَدِّقٍ ومِنْ مُكَذِّب.

ثم أخبر أنه ـ سبحانه ـ حَكَمَ بتأخير العقوبة، ولولا حكمته لعجَّل لهم العقوبة.

وفائدةُ الآية من هذا التعريفِ التخفيفِ على المصطفى ـ ﷺ ـ فيما كان يلقاه من قومه من التكذيب، ففي سماع قصة الأشكال ـ وبعضُهم من بعض ـ سلوة، ولقد قيل:

أجارتَنا إنَّا غريبان ها هنا وكلُّ غريبٍ للغريب نسيب

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

أعاد ذكر الجزاء على الأعمال بالثواب والعقاب، وكرَّر ذلك في القرآن في كثير من المواضع إبلاغاً في التحذير، وتنبيهاً على طريق الاعتبار بحسن التفكير.

ثم إن الجزاءَ على الأعمال معجَّلٌ ومؤجَّل، وكلُّ مَنْ أعرض عن الغفلة وجَنَحَ إلى وصف التيقظ وَجَدَ في معاملاته ـ عاجلاً ـ الربحَ لا الخُسران، وآجلاً الزيادةَ لا النقصان، وما يجده المرءُ في نفسه أتمُّ مما يدركه بعلمه بشواهد برهانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

يحتمل أن تكون السين في الاستقامة سين الطلب؛ أي سَلْ من الله الإقامة لَكَ على الحقّ.

ويحتمل أن تكون الإقامة في الأمر بمعنى أقام عليه.

وحقيقة الاستقامة على الطاعة المداومة على القيام بحقِّها من غير إخلالٍ بها، فلا يكون في سلوك نهج الوِفاقِ انحرافٌ عنه.

ويقال المستقيمُ مَنْ لا ينصرف عن طريقه، يواصل سيره بمسراه، وورعه بتقواه ويتابع في ترك هواه.

ويقال استقامة النفوس في نفي الزَّلَّة، واستقامة القلوب في نفي الغفلة، واستقامة الأرواح بنفي العلاقة، واستقامة الأسرار بنفي الملاحظة.

استقامة العابدين ألا يدخروا نفوسَهم عن العبادة وألا يُخِلُّوا بأدائها، ويقضون عسيرَها ويسيرَها. واستقامة الزاهدين ألا يرجوا من دنياهم قليلها ولا كثيرها. واستقامة

التائبين ألا يُلِمُّوا بعقوة زلة فَيَدَعُونَ صغيرَها وكبيرَها . . . وعلى هذا النحو استقامة كلِّ أحدٍ. قوله ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾: أي فَلْيَستَقِمْ أيضاً مَنْ معك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

لا تعملوا أعمالَهم، ولا ترضوا بأعمالِهم، ولا تمدحوهم على أعمالهم، ولا تتركوا الأمرَ بالمعروف لهم، ولا تأخذوا شيئاً من حرام أموالهم، ولا تساكنوهم بقلوبكم، ولا تخالطوهم، ولا تعاشروهم. . . كل هذا يحتمله الأمرُ، ويدخل تحت الخطاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾.

أي اسْتَغْرِقْ جميعَ الأوقاتِ بالعبادات، فإنَّ إخلالَكِ لحظةً من الزمان بفَرْضٍ تؤديه، أو نَفْلٍ تأتيه حَسْرَةٌ عظيمةٌ وخُسرَانٌ مبينٌ.

قوله ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الحسنات ما يجود بها الحق، والسيئات ما يذنبها العبد، فإذا دخلت حسناتُه على قبائح العبد مَحَتْها وأَبطَلَتْها.

ويقال حسناتُ القُربة تَذْهَبُ بسيئات الزَّلَّة.

ويقال حسناتُ الندم تَذْهَبُ بسيئات الجُرْم.

ويقال (انسكاب) العَبْرَة تُذْهِبُ العَثْرَة.

ويقال حسنات العرفان تُذْهِبُ سيئاتِ العصيان.

ويقال حسنات الاستغفار تُذْهِبُ سيئات الإصرار.

ويقال حسناتُ العنْاية تذهب سيئات الجناية.

ويقال حسنات العفو عن الإخوان تذْهِبُ الحقدَ عليهم.

ويقال حسنات الكَرَم تُذْهِبُ سيئاتِ الخَدَم.

ويقال حسنُ الظنِّ يُذْهِبُ سوأتهم بكم.

ويقال حسنات الفضل من الله تُذْهِبُ سيئاتِ حسبان الطاعة من أنفسكم.

ويقال حسناتُ الصدق تَذْهَبُ بسيئاتِ الإعجاب.

ويقال حسناتُ الإخلاص تَذْهَبُ بسيئاتِ الرياء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

الصبر تجرُّع كاساتِ التقدير من غير تعبيس.

ويقال الصبرُ حُسْنُ الإقبال على معانقة الأمر ومفارقة الزجر.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ المحسنُ: العاملُ الذي يعلم أنَّ الأجرَ على الصبر والطاعة بفضله ـ سبحانه ـ لا باستحقاق عملٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾.

معناه لم يكن فيكم مِنْ هؤلاء الذين كانوا ينهون عن القبائح إلا قليل.

وقيل معناه لم يكن فيمن قبلكم من الأمم مَنْ يَنْهى عن الفساد، ويحفظ الدِّين، ويطيعون أنبياءَهم ـ إلا قليل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾.

أي لم يُهلِكْ اللَّهُ أحداً كان مصلحاً وإنما أهلك مَنْ كان ظالماً.

ويقال معناه: لو أهلك الله أهلَ القرى وهم مصلحون لم يكن ذلك ظلماً من الله؛ لأن المُلكَ مُلكُه، والخلْقَ عبيدُه.

ويقال «المصلح» مَنْ قام بحقِّ ربِّه دون طلب حظِّه.

ويقال: «المصلح» من آثر نجاته على هلاكه.

ويقال مصلحٌ تُصْلِحُ نَفْسَه طاعتُه، ومصلحٌ تصْلِحُ قلبَه معرفةُ سَيِّدِه. ومصلح تُصْلِحُ سِرَّه مشاهدةُ سيِّدِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾.

لو شاء لَجَعلهم أربابَ الوفاق ثم لا يوجبون لمُلْكِه زَيْناً، ولو شاء لجعلهم أرباب الخلافِ ثم لا يوجِبُون لمُلْكِه شَيْنا.

ثم قال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ لأنه كذلك أراد بهم.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٩] في سباق حكمه فعصمهم عن الخلاف في حاصل أمورهم، وأقامهم به، ونصبهم له، وأثبتهم في الوفاق والمحبة والتوحيد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

أي لا تبديلَ لقوله، ولا تحويلَ لحُكْمه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾.

سكَّنَ قلبه بما قصَّ عليه من أنباء المرسلين، وعرَّفه أنه لم يُرَقِّ أحداً إلى المحلِّ الذي رقّاه إليه، ولم يُنْعِمْ على أحد بمثل ما أنعم عليه.

ويقال قَصَّ عليه قِصَصَ الجميع، ولم يذكر قصته لأحد تعريفاً له وتخصيصاً. ويقال لم يكن ثباتُ قلبه بما قصَّ عليه ولكن لاستقلال قلبه بِمَنْ كان يقص عليه،

وفَرْقٌ بين من يفعل بما يسمع وبين مَنْ يَستقل بِمَنْ منه يسمع، وأنشدوا:

وَحَدَّثْتَنِي يا سَعْدُ عنها فَزِدْتَنِي   حَنِيناً فَزِدْنِي مِنْ حديثِكَ يا سعدُ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾.

إن الذين يجحدون التوحيد، ويؤثِرون على الحقِّ غيرَ الحق، ولم يُصَدِّقوا الوعيد، يوشِكُ أَنْ يَنصَبَ عليهم الانتقامُ فيغرقون في بحار العقوبة، ويسقطون في وهاد الهوان، فلا لويلهم انتهاءٌ، ولا لِذُلِّهم انقضاءٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

عمَّى عن قلوبهم العواقبَ، وأخفى دونهم السوابق، وألزمهم القيامَ بما كَلَّفهم في الحال، فقال: ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ فإنْ تقسَّمَ القلبُ وتَرَجَّمَ الظَّنُّ وخيف سوءُ العاقبة.. فتوكَّلْ عليه أي استَدْفِعْ البلاءَ عنك بِحُسْنِ الظَّنِّ، وجميل الأمل، ودوام الرجاء.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: أحاط بكل شيءٍ عِلماً، وأمضى في كل أمرٍ حُكْماً.

السورة التي يذكر فيها يوسف عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الاسم مِنْ وَسَمَ؛ فَمَنْ وَسَمَ ظاهرَه بالعبودية، وسرائرَه بمشاهدة الربوبية فَقَدْ سَمَتْ هِمَّتُه إلى المراتب العَلِيَّة، وأُزْلِفَتْ رتَبتُه من المنازل السنيَّة.

أو أن الاسم مشتق من السِّمة أو من السموّ.

وقدَّم الله ـ سبحانه ـ اسمَ اللَّهِ في هذا المحل على اسميه الرحمٰن والرحيم على وجه البيان والحكم، فبرحمته الدنيوية وصل العبد إلى معرفته الإلهية.

والإشارة من الباء ـ التي هي حرف التضمين والإلصاق ـ إلى أنَّ «به» عَرَفَ مَنْ عَرَف، و «به» وقف مَنْ وقف؛ فالواصل إليه محمولٌ بإحسانه، والواقف دونه مربوط بخذلانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١].

التخاطبُ بالحروف المتفرقة غير المنظومة سُنَّةُ الأحباب في سَتْر المحابِّ؛ فالقرآنُ ـ وإنْ كان المقصودُ منه الإيضاحَ والبيانَ ـ ففيه تلويح وتصريح، ومُفَصَّلٌ ومُجْمَلٌ، قال قائلهم:

أبكي إلى الشرق إنْ كانت منازِلُكم مما يلي الغربَ خوفَ القيل والقالِ

ويقال وقفت فهُومُ الخَلْق عن الوقوف على أسراره فيما خاطب به حبيبه ـ ﷺ ـ، فهم تعبدوا به وآمنوا به على الجملة أفرد الحبيبَ بفهمه، فهو سِرُّ الحبيب عليه السلام بحيث لا يطلع عليه الرقيب، يقول قائلهم:

بين المحبين سِرٌّ ليس يُفْشيه قولٌ، ولا قلم للخلق يحكيه

وفي إنزال هذه الحروف المقطعة إشارة: وهي أنَّ مَنْ كان بالعقل والصحو استنبط من اللفظ اليسير كثيراً من المعاني، ومن كان بالغيبة والمحو يسمع الكثير فلا يفهم منه اليسير؛ ذاك لكمال عقله وهذا لتمام وَصْلِه؛ فأنزل اللَّهُ هذه الحروف التي لا سبيلَ إلى الوقوف على معانيها، ليكون للأحباب فُرْجَةٌ حينما لا يقفون على معانيها

بِعَدَم السبيل إليها فلا تتوجه عليهم مُطَالَبةٌ بالفهم، وكان ذلك لائقاً بأحوالهم إذا كانوا مستغرِقين في عين الجَمْع، ولذا قيل: استراح من العقل له.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى أن هذا خَبَرُ الوعد الذي وعدناك.

وقيل هذا تعريفنا: إليك بالتخصيص، وإفرادُنا لك بالتقريب ـ قد حقَّقْناه لكَ؛ فهذه الحروف بيانٌ للإنجاز ولتحقيق الموعود.

والإشارة من ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ هنا هنا إلى حُكْمِه السابق له بأَنْ يُرَقِّيَه إلى الرتبة التي لا يبلغها غيرُه، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص: ٤٦] أي حين كلَّمنا موسى عليه السلام، وأخبرناه بعلوِّ قَدْرِك، ولم تكن حاضراً، وأخبرناه بأننا نُبَلِّغُك هذا المقامَ الذي أنت فيه الآن. وكذلك كلُّ مَنْ أوحينا إليه ذَكَرْنَا له قِصَتَكَ، وشَرَحْنَا له خِلقَتَك، فالآنَ وقتُ تحقيق ما أخبرنا به، وفي معناه أنشدوا:

سُقْياً لمعهدِكَ الذي لو لم يكن ... ما كان قلبي للصبابةِ معهدا

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] يعني بعد التوراة ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ يعني أمة محمد.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

في إنزال الكتاب عليه، وإرسالِ الرسول إليه ـ تحقيقٌ لأحكام المحبة، وتأكيدٌ لأسباب الوصلة؛ فإنَّ مَنْ عَدِمَ حقيقة الوصول استأنس بالرسول، وَمنْ بَقِيَ عن شهود الأحباب تَسَلَّى بوجود الكتاب، قال قائلهم:

وكتْبُكَ حَوْلي لا تُفارقُ مضجعي ... ففيها شفاءٌ للذي أنا كاتِمُ

قوله جلّ ذكره: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾.

﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾: لخلوِّه عن الأمر والنهي الذي سماعه يوجب اشتغال القلب بما هو يعرِّض لوقوع التقصير.

﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾: ففيه ذكر الأحباب.

﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾: لأن فيه عفوَ يوسف عن جناياتِ إخوته.

﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾: لما فيه من ذِكْرِ تَرْكِ يوسف لامرأة العزيز وإعراضه عنها عندما راودته عن نفسه.

﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾: بالإضافة إلى ما سألوه أن يقص عليهم من أحوال الناس.

﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾: لأنه غير مخلوق.

ويقال لمَّا أخبره الله ـ سبحانه ـ أن هذه القصةَ أحسنُ القصصِ وجد رسولُ الله ـ ﷺ ـ لنفسه مزايا وزوائد لتخصيصه؛ فعَلِمَ أن الله تعالى لم يُرَقِّ أحداً إلى مثل ما رقاه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾.

أي الذاهبين عن فهم هذه القصة. أي ما كنتَ إلا من جملة الغافلين عنها قبل أن أوحينا إليك بها، أي إنك لم تَصِلْ إلى معرفتها بكدِّك وجهدك، ولا بطلبك وجِدِّك.. بل هذه مواهبُ لا مكاسب؛ فبعطائِنا وَجَدْتَها لا بعنائك، وبِتَفَضُّلِنَا لا بتعلُّمِك، وبِتَلَطُّفِنا لا بتكلُّفِك، وبنا لا بك.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾.

لما ذكر يوسف ـ عليه السلام ـ رؤياه لأبيه عَلِمَ يعقوبُ ـ عليه السلام صِدْقَ تعبيرها، ولذلك كان دائم التذكُّر ليوسف مدةَ غيبته، وحين تطاولتْ كان يَذْكُرُه حتى قالوا: ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٥] فقال: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦] فهو كان على ثقةٍ من صِدْقِ رؤياه.

فإنْ قيل: فإذا كان الصبيُّ لا حُكْم لِفعلِه فكيف يكون حكم لرؤياه؟ وما الفرق؟ فيقال: إن الفعل بِتَعَمُّدٍ يحصل فيكون مُعَرَّضاً لتقصير فاعله، أمَّا الرؤيا فلا تكون بتعمد منه فتنسب إلى نقصان.

ويقال إنَّ حقَّ السِّرِّ ولو كان على مَنْ هو قريب منك؛ فإن يوسف لما أظهر سِرَّ رؤياه على أبيه اتصل به البلاءُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

إذا جاء القضاءُ لا ينفع الوعظ والحذر؛ فإن النصيحة والحذر لا يزيدان على ما نصح يعقوب ليوسف عليهما السلام، ولكن لمَّا سبق التقديرُ في أمر يوسف ـ عليه السلام ـ حصل ما حصل.

ويقال إن يوسف خَالَفَ وصية أبيه في إظهارِ رؤياه إذ لو لم يُظْهِرْها لما كادوا له، فلا جَرَم بسبب مخالفته لأبيه ـ وإن كان صبياً صغيراً ـ لم يَعْرَ مِنَ البلايا.

ويقال لما رأى يوسف في منامه ما كان تأويلُه سجودَ الإخوة له رأى ما تعبيره: وسجود أبيه وخالته حيث قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾؛ فدخل الإخوة الحَسَدَ. أما الأب فلم يدخله إلا بنفسه لِفَرْطِ شفقة الأبوة.

ويقال صَدَقَ تعبيره في الإخوة فسجدوا له حيث قال: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠] ولم يسجد الأبُ ولا خالته حيث قال: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف: ١٠٠] فإن يوسفَ صانَهما عن ذلك مراعاةً لحشمة الأبوة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾.

أي كما أمرك بهذه الرؤيا التي أَرَاكَها يجتبيك ويُحْسِنُ إليك بتحقيق هذه الرؤيا، وكما أكرمك بوعد النعمة أكرمك بتحقيقها.

ويقال الاجتباء ما ليس للمخلوق فيه أثر، فما يحصل للعبد من الخيرات ـ لا بتكلفه ولا بتعمده ـ فهو قضية الاجتباء.

ويقال من الاجتباء المذكور أَنْ عَصَمَه عن ارتكاب ما راودته امرأة العزيز عن نفسه.

ويقال من قضية الاجتباء إسباله الستر على فعل إخوته حيث قال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠]، ولم يذكر خلاصَه من البئر ومن قضية الاجتباء توفيقه لسرعة العفو عن إخوته حيث قال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾.

أي لتعرِفَ قَدْرَ كلِّ أحد، وتقفَ على مقدار كلِّ قائلٍ بما تسمع من حديثه.. لا مِنْ قوله بل لِحدَّةِ كياستك وفَرْطِ فراستك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

مِنْ إتمامِ النعمة توفيقُ الشكرِ على النعمة، ومن إتمام النعمة صَوْنُها عن السَّلْبِ والتغيير، ومن إتمام النعمة التَّحرز[1] منها حتى تَسْهُلَ عليكَ السماحةُ بها.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾.

يعني لكلِّ ذي مِحنة حتى يعلم كيف يصبر، ولكلِّ ذي نعمة حتى يعلم كيف يشكر.

ويقال في قصتهم كيفية العفو عن الزَّلَّة، وكيفية الخَجْلَةِ لأهل الجفاءِ عند اللقاء.

ويقال في قصتهم دلالاتُ لطفِ الله سبحانه بأوليائه بالعصمة، وآياتٌ على أنَّ المحبة (...)[2] من المحنة.

ويقال فيها آياتٌ على أنَّ من صَدَقَ في رجائه يُخْتَصُّ ـ يوماً ـ ببلائه.

---

(١) تحرّز منه: توقاه.

(٢) بياض في الأصل.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

عُرِّفُوا على ما سَتَرُوه من الحَسَدِ، ولم يحتالوا في إخراج ذلك من قلوبهم بالوقيعة في أبيهم حتى قالوا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

ويقال لما اعترضوا بقلوبهم على أبيهم في تقديم يوسف في المحبة عاقبهم بأن أمهلهم حتى بسطوا في أبيهم لسانَ الوقيعة فوصفوه بلفظ الضلال، وإن كان المرادُ منه الذهابَ في حديث يوسف عليه السلام، ولمّا حسدوا يوسف على تقديم أبيهم له لم يَرْضَ ـ سبحانه ـ حتى أَقَامَهم بين يدي يوسف عليه السلام، وخرُّوا له سُجَّداً ليَعلَموا أَنَّ الحسودَ لا يسود.

ويقال أطولُ الناسِ حُزْنا مَنْ لَاقى الناسَ عن مرارةٍ، وأراد تأخيرَ مَنْ قَدَّمه اللَّهُ أو تقديمَ مَنْ أَخَّرَه اللَّهُ؛ فإخوةُ يوسف ـ عليه السلام ـ أرادوا أن يجعلوه في أسفل الجُبِّ فرفعه الله فوقَ السرير!

قوله جلّ ذكره: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾.

أي يخْلُصْ لكم إقبالُ أبيكم عليكم، وقديماً قيل: مَنْ طَلَبَ الكُلَّ فَاتَه الكلُّ؛ فلمّا أرادوا أن يكون إقبالُ يعقوب ـ عليه السلام ـ بالكليَّةِ ـ عليهم قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٩٣].

ويقال كان قَصْدُهم ألا يكونَ يوسفُ أمامَ عينه فقالوا: إمَّا القتلُ وإمَّا النَّفْيُ، ولا بأسَ بما يكونُ بعد ألا يكونَ يوسف عليه السلام.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾.

عَجَّلوا بالحرام، وَعلَّقُوا التوبةَ بالتسويف والعزم، فلم يمحُ ما أَجَّلُوا من التوبة ما عجَّلوا من الحَوْبة[1].

ويقال لم تَطِبْ نفوسُهم بأن يذهبوا عن بابِ اللَّهِ بالكليّة فدبَّروا لحُسْنِ الرجوع قبل ارتكاب ما دعته إليه نُفُوسُهم، وهذه صفة أهل العرفان بالله.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾.

إخوةُ يوسف ـ وإنْ قابلوه بالجفاء ـ مَنَعَتْهُم شفقةُ النَّسَبِ وحُرْمةُ القرابةِ من الإقدام على قتله؛ فقالوا لا تقتلوه وغَيِّبُوا شَخْصَه.

---

(١) الحوب: الإثم والهلاك.

ويقال إنما حَمَلَهم على إلقائه مرادُهم أن يخلوَ لهم وجهُ أبيهم، فلمَّا أرادوا حصولَ مرادهم في تغييبه لم يبالغوا في تعذيبه.

ويقال لمَّا كان المعلومُ له ـ سبحانه ـ في أمر يوسف تبليغَه إياه تلك القربة ألقى اللَّهُ في قلبِ قائلهم حتى قال: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾.

ثم إنه ـ وإن أبلاه في الحال ـ سَهَّلَ عليه ذلك في جَنْبِ ما رقَّاه إليه في المآل، قال قائلهم:

كم مرةٍ حَفَّت بِكَ المكارِه خارَ لَكَ اللَّهُ ـ وأنت كاره

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ﴾.

كلامُ الحسودِ لا يُسمَع، ووعدُه لا يُقْبل ـ وإنْ كانا في مَعْرِضِ النُّصحِ؛ فإنَّهُ يُطْعِمُ الشَهْدَ ويَسْقِي الصَّاب.

ويقال العَجَبُ من قبول يعقوب ـ عليه السلام ـ ما أبدى بنوه له من حفظ يوسف عليه السلام وقد تفرَّسَ فيهم قلبه فقال ليوسف: ﴿فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥] ولكن إذا جاء القضاءُ فالبصيرةُ تصير مسدودةً.

ويقال من قِبَلِ على محبوبه حديثَ أعدائه لَقِيَ ما لَقِيَ يعقوبُ في يوسف ـ عليهما السلامُ ـ من بلائه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾.

يقال أطمعوا يعقوبَ عليه السلام في تمكينهم من يوسف بما فيه راحةُ نَفْسٍ في اللعب، فطابَتْ نَفْسُ يعقوب لإذهابهم إياه من بين يديه ـ وإنْ كان يشُقُّ عليه فراقُه، ولكنَّ المحبَّ يؤثِرُ راحةَ محبوبه على محبةِ نَفْسِه.

ويقال ما رَكَنَ إلى قولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ ـ أي مِنْ قِبَلِهم ـ حتى قالوا: ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٧]؛ فَمَنْ أَسلم حبيبَه إلى أعدائه غُصَّ بتحسِّي بلائه.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ﴾.

يَحزُنني أن تذهبوا به لأني لا أصْبِر عن رؤيته، ولا أطيق على فُرقتِه... هذا إذا كان الحالُ سلامته.. فكيف ومع هذا أخاف أن يأكله الذئب؟!

ويقال: لما خاف عليه من الذئب امتُحِنَ بحديث الذئب، ففي الحبر ما معناه: «إنما يُسَلِطُ على ابن آدم ما يخافه»[1] وكان في حقه أن يقول أخافُ الله لا الذئب، وإنْ

(١) أخرجه المتقي الهندي في (كنز العمال ٣٧٢٥٧)، وابن حجر في (لسان الميزان ٢/ ١٨٣).

كانت مَحَالُّ الأنبياءِ عليهم السلام ـ محروسةً من الاعتراض عليها.

ويقال لمَّا جرى على لسان يعقوب ـ عليه السلام ـ من حديث الذئب صار كالتلقين لهم، ولو لم يسمعوه ما اهْتَدَوْا إلى الذئب.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾.

لَحِقَ إخوة يوسف عليه السلام ما وصفوا به أنفسهم من الخسران حيث قالوا: ﴿إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾: لأنَّ مَنْ باع أخاً مثل يوسف بمثل ذلك الثمن حقيقٌ بأن يقال قد خسرت صفقتُه.

ويقال لمَّا عدُّوا القوة في أنفسهم حين قالوا: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ خُذِلُوا حتى فعلوا.

ويقال لمَّا ركَنَ يعقوبُ ـ عليه السلام ـ إلى قولهم: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ لَقِيَ ما لَقِيَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

الجوابُ فيه مُقَدَّر؛ ومعناه فلما ذهبوا بيوسف وعزموا على أن يلقوه في البئر فعلوا ما عزموا عليه. أو فلمَّا ذهبوا به وألقوه في غيابة الجُبِّ أوحينا إليه؛ فتكون الواو صلة. والإشارة فيه أنه لمَّ حَلَّتْ به البلوى عجَّلنا له التعريفَ بما ذكرنا من البُشْرَى؛ ليكون محمولاً بالتعريف فيما هو متحمِّلٌ له من البلاء العنيف.

ويقال حين انقطعت على يوسف عليه السلام مراعاةُ أبيه حَصَلَ له الوحيُ مَنْ قِبَل مولاه، وكذا سُنَّتُه تعالى أنه لا يفتح على نفوس أوليائه باباً من البلاءِ إلا فَتَحَ على قلوبهم أبوابَ الصفاء، وفنون لطائف الولاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾.

تمكينُ الكذَّاب من البكاء سِمَةُ خذلان الله تعالى إياه، وفي الخبر: «إذا كَمُلَ نفاقُ المرء مَلَكَ عَيْنَه حتى يبكي ما شاء».

ويقال: لا يَبْعُدُ أَنْ يقال إنهم وإنْ جَنَوْا على يوسف عليه السلام فقد ندموا على ما فعلوا، فَعَلَاهُمْ البكاءُ لندمهم ـ وإن لم يُظْهروا لأبيهم ـ وتَقَوَّلُوا على الذِّئبِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾.

لم يُؤثِّرْ تزويرُ قَالَبِهِم في إيجاب تصديق يعقوب ـ عليه السلام لكذبهم بل أخبره قلبُه أَنَّ الأمرَ بخلاف ما يقولونه فقال:

﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾.

فَعَلم على الجملة وإنْ لم يعلمْ على التفصيل. . وهكذا تقرع قلوبَ الصديقين عواقبُ الأمور على وجه الإجمال، إلى أنْ تَتَّضحَ لهم تفاصيلُها في المستأنف.

ويقال عوقبوا على ما فعلوه بأن أُغْفلوا عن تمزيق قميصه حتى عَلم يعقوب تَقَوُّلَهم فيما وصفوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

ليس كلُّ من طلب شيئاً يُعطى مرادَه فقط بل ربما يُعْطَى فوق مأموله؛ كالسيارة كانوا يقنعون بوجود الماء فوجدوا يوسفَ عليه السلام.

ويقال ليس كل مَنْ وَجَدَ شيئاً كان كما وجده السيارة؛ توهموا أنهم وجدوا عبداً مملوكاً وكان يوسف ـ في الحقيقة ـ حُرّاً.

ويقال لـمَّا أراد اللَّهُ تعالى خلاصَ يوسف ـ عليه السلام ـ من الجُبِّ أزعج خواطر السَّيارة في قصد السفر، وأعدمهم الماءَ حتى احتاجوا إلى الاستقاء لِيَصِلَ يوسف عليه السلام إلى الخلاص، ولهذا قيل: ألا رُبَّ تشويشٍ يقع في العَالَم، والمقصودُ منه سكونُ واحدٍ. كما قيل: رُبَّ ساعٍ له قاعد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾.

لم يعرفوا خسرانهم في الحال ولكنهم وقفوا عليه في المآل.

ويقال قد يُبَاعُ مثل يوسف عليه السلام بثمن بخس، ولكن إذا وقعت الحاجةُ إليه فعند ذلك يعلم ما يلحق من الغَبْن.

ويقال: لم يحتشموا من يوسف ـ عليه السلام ـ يوم باعوه ثمنِ بَخْسٍ، ولكن لمَّا قال لهم: أنا يوسف ـ وقع عليهم الخجل، ولهذا قيل: كفى للمقصر الحياء يوم اللقاء.

ويقال لمَّا خَرُّوا له سُجَّداً علموا أنَّ ذلك جزاءُ مَنْ باع أخاه بثمنٍ بخسٍ.

ويقال لمَّا وصل الناسُ إلى رفق يوسف عاشوا في نعمته، واحتاجوا إلى أن يقفوا بين يديه في مقام الذُّلّ قائلين ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ [يوسف: ٨٨]، وفي معناه أنشدوا:

ستسمع بي وتذكرني ... وتطلبني فلا تجدِ

ويقال ليس العَجَبُ ممن يبيع مثلَ يوسف ـ عليه السلام ـ بثمنٍ نَجْسٍ إنما العَجَبُ ممن (. . . .)[1] مثل يوسف ـ عليه السلام ـ بثمن بخس، لا سيَّما ﴿وَكَانُوا۟

(١) بياض في الأصل.

فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ الخرق لا غاية له، وكذا العجب لا نباته له.

ويقال ليس العجب ممن يبيع يوسف ـ عليه السلام ـ بثمنٍ بخسٍ، إنما العجب ممن يبيع وقته الذي أعزُّ من الكبريت الأحمر بعَرَضٍ حقيرٍ من أعراض الدنيا.

ويقال إنَّ السيارة لم يعرفوا قيمته فزهدوا في شرائه بدراهم، والذين وقفوا على جماله وشيءٍ من أحواله غالوا ـ بمصر ـ في ثمنه حتى اشتروه بزنته دراهم ودنانير مراتٍ ـ كما في القصة، وفي معناه أنشدوا:

إنْ كنتُ عندكَ يا مولاي مُطَّرَحاً فعند غيرِك محمولٌ على الحَدَقِ[1]

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ﴾.

لمَّا نودي على يوسف في مصر بالبيع لم يَرْضَ الحقُّ ـ سبحانه ـ حتى أصابتهم الضرورةُ ومَسَّتْهُمْ الفاقةُ حتى باعوا من يوسف ـ عليه السلام ـ جميعَ أملاكهم، ثم باعوا كلُّهم منه أنفُسَهم ـ كما في القصة ـ وفي آخر أمرهم طلبوا الطعام، فصاروا بأجمعهم عبيدَه، ثم إنه عليه السلام لما مَلَكَهم مَنَّ عليهم فأعتقهم؛ فَلَئِنْ مَرَّ عليه بمصرَ يومٌ نودي فيه عليه بالبيع؛ فقد أصبح بمصر يوماً آخر وقد مَلَكَ جميعَ أملاكهم، ومَلَكَ رقابَ جميعهم؛ فيومٌ بيومٍ، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥] يومان شَتَّان بينهما!

ثم إنه أعتقهم جميعاً... وكذا الكريمُ إذا قدر غفر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾.

أراد مَنْ حَسَدَه ألا تكونَ له فضيلةٌ على إخوته وذويه، وأراد اللَّهُ أن يكونَ له مُلْكُ الأرضِ، وكان ما أراد اللَّهُ لا ما أراد أعداؤه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾.

أرادوا أن يكونَ يوسفُ عليه السلام في الجُبِّ، وأراد اللَّهُ ـ سبحانه ـ أن يكون يوسف على سرير المُلْكِ؛ فكان ما أراد الله، والله غالبٌ على أمره.

وأرادوا أن يكون يوسفُ عبداً لمن ابتاعوه من السيارة، وأراد اللَّهُ أن يكونَ عزيزَ مصر ـ وكان ما أراد اللَّهُ.

ويقال العِبْرَةُ لا ترى من الحقِّ في الحال، وإنما الاعتبارُ بما يظهر في سِرِّ تقديره في المآل.

---

(١) الحدق: (ج) الحدقة: السواد المستدير وسط العين. و (في الطب): فتحة مستديرة ضيقة وسط قرينة العين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

من جملة الحُكمْ الذي آتاه اللَّهُ نفوذُ حُكْمِه على نَفْسِه حتى غَلَبَ شهوته، وامتنع عما رَاوَدَتْه تلك المرأةُ عن نَفْسِه؛ ومن لا حكم له على نفسه فلا حكْمَ له على غيره.

ويقال إنما قال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ أي حين استوى شبابُه واكتملت قُوّته، وكان وقت استيلاء الشهوة، وتوفر دواعي مطالبات البشرية ـ آتاه الله الحِكْمَ الذي حبسه على الحقّ وصَرَفَه عن الباطل، وعَلِمَ أنَّ ما يعقب اتباع اللذاتِ من هواجم النَّدم أشدُّ مقاساةً من كلفة الصبر في حال الامتناع عن دواعي الشهوة... فآثَرَ مَشَقَّةَ الامتناع على لَذَّةِ الاتباع. وذلك الذي أشار إليه الحقُّ ـ سبحانه من جميل الجزاء الذي أعطاه هو إمدادُه بالتوفيق حتى استقام في التقوى والورع على سَوَاءِ الطريق، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾: [العنكبوت: ٦٩] أي الذين جاهدوا بسلوك طريق المعاملة لنهدينهم سُبَلَ الصبرِ على الاستقامة حتى تتبين لهم حقائقُ المواصلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

لما غَلَّقَتْ عليه أبوابَ المسكنِ فَتَحَ الله عليه باب العصمة، فلم يُضِرْه ما أُغْلِقَ بعد إكرامه بما فُتِحَ.

وفي التفسير أنه حفظ حُرْمةَ الرجل الذي اشتراه، وهو العزيز.

وفي الحقيقة أشار بقوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾ إلى ربِّه الحقِّ تعالى: هو مولاي الحق تعالى، وهو الذي خلَّصني من الجُبِّ، وهو الذي جعل في قلب العزيز لي محلاً كبيراً فأكرم مثواي فلا ينبغي أَنْ أُقْدِمَ على عصيانه ـ سبحانه ـ وقد غمرني بجميل إحسانه.

ويقال إن يوسف عليه السلام قال لها: إن العزيز أمرني أَنْ أنفعَه. ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ فلا أَخُونُه في حُرْمَتِه بظهر الغيب.

ويقال لمَّا حفظ حُرْمة المخلوقِ بظهر الغيب أكرمه الحقُّ سبحانه بالإمداد بالعصمة في الحال ومَكَّنَه من مواصلتها في المآل على وجه الحَلاَل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

ما ليس بفعل الإنسان مما يعتريه ـ بغير اختياره ولا بِكَسْبِه ـ كان مرفوعاً لأنه لا يدخل تحت التكليف، فلم يكن «الهمُّ» منه ولا منها زَلَّةً، وإنما الزَّلَّةُ من المرأة كانت من حيث عَزَمَتْ على ما هَمَّتْ، فأمّا نفسُ الهمّ فليس مما يَكْسِبُه العبد.

ويقال اشتركا في الهمّ وأُفْرِد ـ يوسف عليه السلام ـ بإشهاده البرهان.

وفي تعيين ذلك البرهان ـ ما الذي كان؟ ـ تكلُّفٌ غيرُ محمودٍ إذ لا سبيل إليه إلا بالخَبَرِ المقطوع به.

وفي الجملة كان البرهانُ تعريفاً من الحقّ إياه بآية من آيات صُنْعِه، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ صَرَفَ عنه السُّوءَ حتى لم يوجَد منه العزمُ على ذلك الفعل ـ وإنْ كان منه همٌّ ـ إلا أن ذلك لم يكن جُزْماً كما ذكرنا.

والصَّرْفُ عن الطريق بعد حصول الهمّ ـ كشفٌ، والسوءُ المصروفُ عنه هو العزمُ على الزنا والفحشاء أو نفسُ الزنا، وقد صرفهما الله تعالى عنه.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾: لم تكن نجاتُه في خلاصه، ولكن في صرفِ السوء عنه واستخلاصه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾.

استبقا، هذا ليَهْرَبَ، وهذه للفعلة التي كانت تطلب.

ولم يضر يوسفَ ـ عليه السلام ـ أَنْ قَدَّتْ[1] قميصه وهو لِبَاسُ دنياه بعد ما صحَّ عليه قميصُ تقواه.

ويقال لم تَقْصِدْ قَدَّ القميصِ وإنما تَعَلَّقَتْ به لتَحْبِسَه على نفسها، وكان قصدُها بقاءَ يوسف ـ عليه السلام ـ معها، ولكن صار فعلُها وَبالاً على نَفْسِها، فكان بلاؤها من حيث طَلَبَتْ راحتَها وشفاءَها.

ويقال تولَّد انخراقُ القميصِ من قبضها عليه وكان في ذلك افتضاح أمرها؛ لأن قَبْضَها على قميصه كان مزجوراً عنه.. لِيُعْلَمَ أنَّ الفاسِدَ شَجُّه[2] فاسدٌ.

ويقال لشدة استيلاء الهوى عليها لم تعلم في الحالِ أنها تقدُّ قميصه من ورائه أو من قُدَّامِه.. كذلك صاحبُ البلاءِ في الهوى مسلوبُ التمييز.

ويقال لمّا لم تَصِلْ ولم تتمكن من مرادها من يوسف خَرَقَتْ قميصَه ليكونَ لها في إلقائها الذَّنْبَ على يوسف ـ عليه السلام ـ حُجَّةٌ، فَقَلَبَ اللّهُ الأمرَ حتى صار ذلك عليها حجة، وليوسف دلالة صدق، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾: لمّا فَتَحا البابَ وجدا سيدها لدى الباب، والإشارة فيه إلى أن ربك بالمرصاد؛ إذا خَرَجَ العبدُ عن الذي هو عليه من التكليف في الحال وقع في ضِيق السؤال.

---

(١) انقد الثوب: انشق.

(٢) شجه: جرح وجهه أو رأسه.

ويقال قال: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾ ولم يقل سيدهما لأن يوسف في الحقيقة كان حراً ولم يكن العزيزُ له سيداً.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

شَغَلَتْهُ بإغرائها إياه بيوسف عن نَفْسِها بأن سَبَقَتْ إلى هذا الكلام.

ويقال لقنته حديث السجن أو العذاب الأليم لئلا يقصد قتلَه؛ ففي عين ما سَعَتْ به نظرت له وأَبقتْ عليه.

ويقال قالت ما جزاء من فعل هذا إلا السجن فإن لم ترضَ بذلك، وستزيد؛ فالعذاب الأليم يعني الضَرب المُبرِّح.. كأنما ذكرت حديث العقوبة بالتدريج.

ويقال أوقعت السجن الذي يبقى مؤجَّلاً في مقابلة الضرب الأليم المعجل ليُعْلَم أَنّ السجنَ الطويل ـ وإنْ لم يكن فيه في الظاهر ألم ـ فهو في مقابلة الضرب الشديد الموجِع؛ لأنه ـ وإنْ اشتدّ فلا يقابله.

ويقال قالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ فذِكْرُ الأهل ها هنا غايةُ تهييج الحميّة وتذكيرُ بالأَنَفَةِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

أفصح يوسف عليه السلام بِجُرْمِها إذ ليس للفاسق حُرْمَة يجب حِفْظُها، فلم يُبَالِ أَنْ هَتَك سترها فقال: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِيۚ﴾ فلمّا كان يوسفُ صادقاً في قوله؛ ولم يكن له شاهدٌ أنطق اللّهُ الصبيَ الصغير الذي لم يبلغ أوانَ النطق. ولهذا قيل إذا كان العبد صادقاً في نفسه لم يبالِ اللّهُ أن يُنْطِقَ الحجرَ لأجله.

قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ...﴾ لما اتضح الأمرُ واستبان الحالُ وظهرت براءة ساحة يوسف عليه السلام قال العزيز: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾: دلّت الآيةُ على أَنَّ الزنا كان مُحرّماً في شرعهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾.

لم يُرِدْ أن يهتك ستر امرأته فقال ليوسف: أَعرِضْ عن هذا الحديث، ثم قال لها: ﴿وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِۖ﴾: دلَّ على أنه لم يكن في شرعهم على الزنا حدٌّ ـ وإن كان مُحَرّماً حيث عَدَّه ذنباً.

ويقال ليس كلُّ أحد أهلاً للبلاء؛ لأن البلاء من صفة أرباب الولاء، فأمّا

الأجانب فَيُتَجَاوَزُ عنهم ويُخلَى سبيلُهم ـ لا لكرامةِ مَحَلِّهم ـ ولكن لحقارة قدرهم، فهذا يوسف عليه السلام كان بريءَ السَّاحةِ، وظهرت للكلِّ سلامةُ جانبه وابتُلِيَ بالسجن. وامرأة العزيز في سوء فِعْلها حيث قال: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾، وقال لها: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾.. ثم لم تنزل بها شظيةٌ من البلاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

إنَّ الهوى لا ينكتم، ولا تكون المحبة إلا وأبيح لها لسان عذول، فلما تحققت محبتها ليوسف بسطت النِّسوةُ فيها لسانَ الملامة.

ولما كانت أحسن منهن قيمةً ـ فقد كُنَّ من جملة خَدَمِها ـ كانت أسرعَ إلى الملامة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾.

أرادتْ أن يغلب عليهن استحقاقُ الملامة، وتَنْفِيَ عن نفسها أن تكون لها أهلاً، ففعلت بهن ما عَمِلَتْ، فلمَّا رأينه تَغَيَّرْنَ وتحيَّرْنَ ونطقن بخلاف التمييز، فقلن: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾: وقد كان بشراً، وقلن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾: ولم يكن مَلَكاً.

قوله: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾: أثَّرتْ رؤيتُهن له فيهن فَقَطَّعْنَ أيديَهن بدل الثمار، ولم يشعرن، وضعفن بذلك عندها فقالت: ألم أقل لكن؟ أنتن لم تتمالكن حتى قَطَّعْتنَّ أيديَكُنَّ! فكيف أصبر وهو في منزلي؟! وفي معناه أنشدوا:

(أنت عند الخصام عدوي.. ....)[1].

ويقال[2] إن امرأة العزيز كانت أَتَم في حديث يوسف ـ عليه السلام ـ من النسوة فَأَثَّرتْ رؤيته فيهن ولم تُؤَثِّرْ فيها، والتَّغَيُّرُ صفة أهل الابتداء في الأمر، فإذا دام المعنى زال التغيُّر؛ قال أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ لمن رآه يبكي وهو قريب العهد في الإسلام: هكذا كُنَّا حتى قَسَتْ القلوبُ. أي وَقَرَتْ وصَلُبَتْ. وكذا الحريق أول ما يطرح فيها الماء يُسْمَعُ له صوتٌ فإذا تَعَوَّدَ شُرْبَ الماء سَكَنَ فلا يُسْمعُ له صوت.

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) انظر الرسالة القشيرية ص٧٨ ـ ٨٠ عند حديث القشيري عن التلوين والتمكين مركزاً على رأي الدقاق.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

الاختبار مقرونٌ بالاختيار؛ ولو تمنَّى العافية بدل ما كان يُدْعى إليه لعلَّه كان يُعَافَى، ولكنه لما قال: ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ طُولِبَ بِصِدْقِ ما قال.

ويقال إن يوسف عليه السلام نَطَقَ من عين التوحيد حيث قال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ فقد عَلمَ أن نجاته في أن يَصْرِفَ ـ سبحانه ـ البلاءَ عنه لا بتكلُّفِه ولا بتَجنبِه.

ويقال لمَّا آثر يوسفُ ـ عليه السلام ـ لحوقَ المشقة في اللّهِ على لذَّة نفسه آثره عَصْرُه حتى قيل له: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٩١].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

لمَّا رجع إلى الله بصدق الاستغاثة تداركه الله سبحانه بوشيكِ الإغاثة... كذلك ما اغبرَّ لأحدٍ ـ في الله تعالى ـ قَدَمٌ إلَّا روَّحه بِكَرَمِه وتولَّاه بِنِعَمِه ـ إنه هو ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال السائلين، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾.

لمَّا سَجَنَ يوسفَ ـ عليه السلام ـ مع ظهور براءة ساحته اتقاءَ على امرأته أن يُهتَكَ سترُها حوَّل اللّهُ مُلْكهَ إليه، ثم في آخر الأمر حَكَمَ اللّهُ بأن صارت امرأته بعد مقاساتها الضُر... وهذا جزاء مَنْ صَبَرَ.

ويقال لمَّا ظُلِمَ يوسفُ عليه السلام بما نُسِبَ إليه أنطق الله تلك المرأة حتى قالت في آخر أمرها بما كانٍ فيه هتك سترها، فقالت: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٥١].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

لصحبة السجن أثرٌ يظهر ولو بعد حين؛ فإنَّ يوسف عليه السلام لمَّا قال لصاحبه اذكرني عند ربك فأنساه الشيطانُ ذكر ربِّه فبقي يوسف في السجن زماناً، ثم إن خلاصه كان على لسانه حيث قال: فأَرسِلوا إلى يوسف وقيل له: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ... أَفْتِنَا﴾ الآية [يوسف: ٤٦] فالصحبة تُغطى بَرَكَاتِها وإن كانت تُبْطِي.

قوله: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: الشهادة بالإحسان للمحسن ذريعةٌ، بها يَتَوَسَّلُ إلى استجلاب إحسانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

التَّثَبُّتُ في الجواب دون التسرع من أمارات أهل المكارم، كيوسف عليه السلام وعدهما أن يجيبهما ولم يُسْرِعْ الإجابةَ في الوقت.

ويقال لمَّا أَخَّرَ الإجابة عَلَّقَ قلوبَهما بالوعد؛ وإذا لم يكن نَقْدٌ فليكن وَعْدٌ.

ويقال لمَّا فاتحوه بسؤالهم قدَّم على الجواب ما اقترحه عليهما من كلمة التوحيد فقال: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ...﴾ ثم قال:

﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

ولما فَرغَ من تفسير التوحيد، والدعاء إلى الحق سبحانه أجابهما فقال:

﴿يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

هكذا كاد يوسف عليه السلام ألا يسكتَ حين أخذ في شرح التوحيد وذكر المعبود، وفي الخبر: «مَنْ أحبَّ شيئاً أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِه».

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

اشتركا في السؤال واشتركا في الحكم وفي دخول السجن، ولكن تباينا في المآلِ؛ واحدٌ صُلِبَ، وواحِدٌ قُرِّبَ ووُهِبَ.. وكذا قضايا التوحيد واختيار الحق؛ فمِنْ مرفوعٍ: فوق السِّماكِ[1] مَطْلَعُه، ومن مدفونٍ: تحت التراب مضجعُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾.

يتبيَّن أنَّ تعبير الرؤيا ـ وإنْ كان حقاً ـ فهو بطريق غَلَبَةِ الظَّنِّ دون القطع.

ثم إنه عاتب يوسفَ عليه السلام لأنه نَسِيَ في حديثه مَنْ يستعين به حين قال: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾.

(١) السِّماك: السماكان: نجمان نيران. يقال لأحدهما السماك الرامح وللآخر السماك الأعزل. يقال: بلغ فلان السماك؛ أي: بلغ رتبة عالية. (اللسان ١٠/ ٤٤٣).

ويقال إنه طَلَبَ من بَشَرٍ عِوَضاً على ما عَلَّمه، وفي بعض الكتب المنزلة: يا ابن آدم، عَلِّمْ مجاناً كما عُلِّمْتَ مجاناً.

ولما استعان بالمخلوقِ طال مُكْثُه في السجن، كذلك يجازي الحقُّ ـ سبحانه ـ مَنْ يُعَلِّقُ قلبَه بمخلوق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾.

كان ابتداءُ بلاءِ يوسف ـ عليه السلام ـ بسبب رؤيا رآها فَنَشَرَها وأظهرها، وكان سببُ نجاتِه أيضاً رؤيا رآها المَلِكُ فأظهرها، ليُعْلَم أَنَّ اللَّهَ يفعل ما يريد؛ فكما جعل بلاءَه في إظهار رؤيا جعل نجاته في إظهار رؤيا؛ لِيَعْلَمَ الكافةُ أن الأمر بيد الله يفعل ما يشاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾.

حال الرؤيا لا يختلف بالخطأ في التعبير؛ فإنَّ القومَ حكموا بأن رؤياه أضغاثُ أحلام[1] فلم يُضِرْه ذلك، ولم يؤثِّرْ في صحة تأويلها.

قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾: مَنْ طلَبَ الشيءَ مِنْ غيرِ موضِعه لم يَنَلْ مطلوبه، ولم يَسْعَد بمقصوده.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾.

لمَّا كان المعلومُ لله والمحكومُ أن يوسفَ عليه السلام يكون في ذلك الوقت هو مَنْ يُعَبِّر الرؤيا ـ قَبَضَ القلوبَ حتى خَفِيَ عليها تعبيرُ تلك الرؤيا، ولم يحصل للمَلِكِ ثَلَجُ الصَّدْرِ إلا بتعبير يوسف، ليُعْلَم أنَّ اللَّهَ ـ سبحانه ـ إذا أراد أمراً سَهلَّ أسبابَه.

ويقال: إن الله تعالى أَفْرَد يوسفَ عليه السلام من بين أشكاله بشيئين: بحُسْن الخِلْقة وبزيادة العلم؛ فكان جمالُه سببَ بلائه، وصار علمُه سببَ نجاته، لتُعْلَمَ مزيَّةُ العلمِ على غيره، لهذا قيل: العلم يُعْطِي وإن كان يُبْطِي.

ويقال إذا كان العلم بالرؤيا يوجِب الدنيا فالعلمُ بالمولى أَوْلَى أن يوجِبَ العقبى، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠].

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾[2].

(١) أضغاث أحلام: الرؤيا التي لا يصحّ تأويلها لاختلاطها. (اللسان ٢/ ١٦٣).
(٢) الآية (٤٦) لم ترد.

لم يقدِّم الدعاءَ إلى الله تعالى على تعبير هذه الرؤيا كما فعل في المرة الأولى، لأن هذا السائل هو الذي دعاه في المرة الأولى. فإمَّا أنه قد قَبِلَ في المرة الثانية، وإمَّا أنه لم يقبل فَيَئِسَ منه فأهمله.

وصاحبُ الرؤيا الثانية كانت المَلِكَ وكان غائباً، والوعظ والدعاء لا يكونا إلا في المشاهدة دون المغايبة.

ويقال يحتمل أن يكون قد تفرَّس في الفَتَيان قبولَ التوحيد فإنَّ الشباب أَلينُ قلباً، أمَّا في هذا الموضع فقد كان المَلِكُ أصلبَ قلباً وأفظَّ جانباً؛ فلذلك لم يَدْعُه إلى التوحيد لِمَا تفرَّسَ فيه من الغِلظة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[1].

أراد عليه السلام ألا يلاحظه الملِكُ بعين الخيانة فيُسْقِطَه عيبُه من قلبه؛ فلا يؤثِّر فيه قوله، فلذلك تَوقَّفَ حتى يَظْهَرَ أمرُه للمَلِكِ وتنكشفَ براءةُ ساحته.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾.

الحقائق لا تنكتِم أصلاً ولا بُدَّ من أن تَبِينَ.. ولو بعد حين.

نُسِبَ يوسفُ إلى ما كان منه بَريئاً، وأُنْبَ على ذلك مدةً، وكان أمرُه في ذلك خَفِيًّا. ثم إن الله تعالى دَفَعَ عنه التهمة ورفع عنه المَظَنَّة، وأنطق عِذَالَه، وأظهر حالَه، عما فرق به سرباله[2]؛ فَقُلْنَ: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

لمَّا كانت امرأةُ العزيز غيرَ تامَّةٍ في محبة يوسف تركَتْ ذنبَها عليه وقالت لزوجها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولم يكن ليوسف عليه السلام ذنب. ثمَّ لمَّا تناهَتْ في محبته أقَرَّت بالذنبِ على نفسها فقالت: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ...﴾ فالتناهي في الحبِّ يوجب هتكَ الستر، وقلة المبالاة بظهور الأمر[3] والسِّر، وقيل:

لِيَقُلْ مَنْ شاءَ ما شاءَ فإني لا أُبالي

---

(١) الآيتان (٤٨ ـ ٤٩) لم تردا.

(٢) السربال: ما يُلبس من قميص أو درع (ج) سرابيل.

(٣) انظر الرسالة القشيرية ص٣١٧ ـ ٣٢٩ عند حديث القشيري عن المحبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾.

إنما أراد اللَّهُ أن يُظْهِرَ براءةَ ساحةِ يوسف، لأنه علم أنهم يستحقون العقوبة على ما يبسطون فيه من لسان الملامة وذكر القبيح، ولم يُرِدْ يوسف أن يصيبَهم بسببه ـ من قِبلِ اللّهِ ـ عذابٌ شَفَقَةً منه عليهم، وهذه صفةُ الأولياءِ: أن يكونوا خَصْمَ أنفسِهم، ولهذا قيل: الصوفي دمه هَدَرٌ ومِلْكه مُباحٌ[1] ـ ولذلك قال:

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

لمَّا تمدَّح بقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ كأنه نودي في سِرِّه: ولا حين همَمْتَ؟ فقال: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾.

ويقال: قوله ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ بيانُ الشكر على ما عصمه الله، وقوله: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ بيانُ العُذْرِ لما قصَّر في أمر الله، فاستوجب شكرُه زيادةَ الإحسان، واستحقَّ بعذره العفوَ.

والعفو بادٍ من قوله:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

لما اتضحت للملِك طهارةُ فِعْلِه ونزاهةُ حالِه استحضره لاستصفائه لنفسه، فلمَّا كَلَّمَه وسَمِعَ بيانَه رَفَعَ مَحلَّه ومكانه، وضمنه بِرَّه وإحسانَه، فقال: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

إنما سأل ذلك ليضعَ الحقَّ مَوْضِعَه، وليصلَ نصيبُ الفقراءِ إليهم، فَطَلَبَ حقَّ الله تعالىٰ في ذلك، ولم يطلب نصيباً لنفسه.

ويقال لم يقل إني حَسَنٌ جميلٌ بل قال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ أي كاتِبٌ حاسِبٌ، ليُعْلَمَ أنَّ الفضلَ في المعاني لا في الصورة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

لمَّا لم تكن له دواعي الشهوات من نَفْسِه مَكّنَه اللّهُ من مُلْكِه ـ قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا﴾ [الشورى: ٢٣] ـ فقال: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

ثم أخبر عن حقيقة التوحيد، وبيّن أنه إنما يوفّي عبادَه من ألطافه بفضله لا

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص٢٨١ فهذا تعريف سهل بن عبد الله للصوفي.

بفعلهم، وبرحمته لا بخُذمتِهم؛ فقال: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ ثم يرقى هممهم عما أولاهم من النِّعَم فقال:

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾.

لِيُعْلَمَ أَنَّهُ لا بُدّ من التقوى ومخالفة الهوى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾.

عَرَفَ يوسفُ ـ عليه السلام ـ إخوتَه وأنكروه، لأنهم اعتقدوا أنّه في رِقّ العبودية لمّا باعوه، بينما يوسف ـ في ذلك الوقت ـ كان قاعداً بمكانِ المَلِكِ. فَمَنْ طلب الملِكَ في صفة العبيد متى يعرفه؟

وكذلك مَنْ يعتقد في صفات المعبودِ ما هو مِنْ صفات الخَلْق... متى يكون عارفاً؟ هيهات هيهات لما يحسبون!

ويقال لمَّا أَخْفَوْه صار خفاؤه حجَاباً بينهم وبين معرفتهم إياه، كذلك العاصي.. بخطاياه وزلاتِه تقع غَبَرَةٌ على وجه معرفته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾.

المحِبُّ غيورٌ؛ فلمَّا كان يعقوبُ عليه السلام قد تَسَلّى عن يوسف برؤية ابنه بنيامين غار يوسف أن ينظر إليه يعقوب[1].

ويقال تَلَطَّفَ يوسف في استحضار بنيامين بالترغيب والترهيب، وأما الترغيب ففي مالِه الذي أوصله إليهم وهو يقول: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾ وفي إقباله عليهم وفي إكرامه لهم وهو يقول: ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾.

وأمّا الترهيب فبمنع المال وهو يقول:

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾.

أي فإن لم تؤامِنوني عليه فلا كيل لكم عندي، وأمنع الإكرام والإقبال عنكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾.

لما عَلِمَ يوسفُ من حالهم أنهم باعوه بثمنٍ بَخْسٍ عَلِمَ أنهم يأتونه بأخيهم طمعاً في إيفاء الكيل، فلن يَصْعُبَ عليهم الإتيان به.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

(١) انظر الرسالة القشيرية ص٢٥٤ ـ ٢٥٩ حديث القشيري عن الغيرة.

جَعْلُ بضاعتهم في رحالهم ـ في باب الكَرَمِ ـ أتمُّ مِنَ أنْ لَوْ وَهَبَها لهم جَهْراً؛ لأنه يكون حينئذٍ فيه تقليد منه بالمواجَهَةِ، وفي تمليكها لهم بإشارةٍ تجَرُّدٌ مِنْ تكلُّفِ تقليد منه بالمحاضرة.

ويقال عَلِمَ أنهم لا يَسْتحِلُّون مالَ الغَيْر قَدَسَّ بضاعتَهم في رحالِهم، لكن إذا رأَوْها قالوا: هذا وقع في رحالنا منهم بِغَلَطٍ، فالواجبُ علينا ردُّها عليهم. وكانوا يرجعون بسبب ذلك شاءوا أم أَبَوْا.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

لم يمنع يوسفُ منهم الكيْلَ، وكيف مَنَعَ وقد قال: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾؟

ولكنهم تجوزوا في ذلك تفخيماً للأمر حتى تسمح نَفْسُ يعقوب عليه السلام بإرسال بنيامين معهم.

ويقال أرادوا بقولهم: ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ في المستقبل إذا لم تَجْمِلْه إليه.

ويقال إنهم تَلَطَّفُوا في القول ليعقوبَ ـ عليه السلام ـ حيث قالوا: ﴿أَخَانَا﴾ إظهاراً لشفقتهم عليه، ثم أكَّدوا ذلك بقولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾.

مَنْ عَرَفَ الخيانة لا يلاحظ الأمانة، ولذا لم تَسْكنْ نَفْسُ يعقوبَ بضمانهم لِمَا سَبَقَ إليه من شأنهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾: يحفظ بنيامين فلا يصيبه شيءٌ مِنْ قِبَلِهم.

ولم يقل يعقوب فالله خيرُ مَنْ يَرُدُّه إليَّ، ولو قال ذلك لعلَّه كان يرده إليه سريعاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾.

بيَن يوسفُ ـ عليه السلام ـ أنه حين عاملهم لم يَحْتَجْ إلى عِوَضٍ يأخذه منهم، فلمَّا باعهم وجَمَعَ لهم الكيلَ ما أخذ منهم ثمناً، والإشارة من هذا إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧].

وكلُّ مَنْ خطا للدِّين خطوةً كافأه اللَّهُ تعالى وجازاه، فَجَمَع له بين رَوْحِ الطاعةِ ولذَّةِ العيش من حيث الخدمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

إنَّ الحَذَرَ لا يُغْنى من القَدَر. وقد عَمِل يعقوب ـ عليه السلام ـ معهم في باب بنيامين ما أمكنه من الاحتياط، وأخذ الميثاق ولكن لم يُغْنِ عنه اجتهادُه، وحَصَلَ ما حكم به الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

يحتمل أن يكون أراد تفريقهم في الدخول لعلَّ واحداً منهم يقع بَصَرُه على يوسف، فإن لم يره أحدهم قد يراه الآخر.

ويقال ظنَّ يعقوب أنهم في أمر يوسف كانوا في شدة العناية بشأنِه، ولم يعلم أنهم كارهون لمكانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

إن لم يحصل مقصودُ يعقوب عليه السلام في المآل حصل مراده في الحال، وفي ذلك القَدْرِ لأرباب القلوب استقلال.

ويقال على الأصاغر حفظُ إشاراتِ الأكابر، والقولُ فيما يأمرون به هل فيه فائدةٌ أم لا ـ تَرْكٌ للأدب.

ويقال إذا كان مثل يعقوب عليه السلام يشير على أولاده ويتمنَّى به حصولَ مرادِه..

ثم لا يحصل مرادُه عُلِمَ أنه لا ينبغي أن يُعْتَقَدَ في الشيوخ أنَّ جميع ما يريدون يتَّفِقُ كونُه على ما أرادوا؛ لأنَّ الذي لا يكونُ إلا ما يريده واجباً وما أراده فهو كائن.. هو اللَّهُ الواحدُ القهارُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

حديثُ المحبةِ وأحكامها أقسام: اشتَاقَ يعقوبُ إلى لقاء يوسف عليهما السلام فَبقِيَ سنين كثيرة، واشتاقَ يوسف إلى بنيامين فَرُزِقَ رؤيته في أَوْجَزِ مدةٍ.

وهكذا الأمر؛ فمنهم موقوفٌ به، ومنهم صاحب بلاء.

ويقال لئِن سَخِنَت[١] عين يعقوب عليه السلام بمفارقة بنيامين فلقد قَرَّتْ عيْنُ يوسفَ بلقائه. كذا الأمر: لا تَغرُبُ الشمس على قوم إلا وتطلع على آخرين.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾.

احتمل بنيامينُ ما قيل فيه من السرقة بعدما التقى مع يوسف.

ويقال: ما نُسِبَ إليه من سوء الفعال هان عليه في جَنْبِ ما وجد من الوصال.

ويقال لئن نَسَبَ أخاه للسرقة تعرَّف إليه بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ ـ سِرّاً، فكان مُتَحَمِّلاً لأعباء الملامة في ظاهره، محمولاً بوجدان الكرامة في سِرِّهِ، وفي معناه أنشدوا:

أَجِدُ الملامةَ في هواكِ لذيذةً حُبّاً لذكرك فَلْيَلُمْني اللُّومُ

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ﴾[٢].

يعني حُسْنُ سيرتنا في سير المعاملة يدلكم على حسن سريرتنا في الحالة.

ويقال لو كُنَّا نسرق متاعكم لما رددناه عليكم ولَمَا وجدتموه في رحالنا بعد أن غِبْنَا عنكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ﴾.

تَجَاسَرَ إخوةُ يوسف بجريانِ جزاءِ السَّرقةِ عليهم ثقةً بأنفسهم أنهم لم يُباشِروا الزَّلَّةِ، وكان بنيامينُ شريكَهم في براءة السَّاحةِ، فلما استُخْرِجَ الصَّاعُ مِنْ وعائه بَسَطَ الإخوةُ فيه لسانَ الملامةِ، وبقي بنيامين فلم يكن له جوابٌ كأنَّه أقَرَّ بالسرقة، ولم يكن ذلك صدقاً إذ أنه لم يَسْرِقْ، ولو قال: لم أَفْعَلْ لأفشى سِرَّ يوسف عليه السلام الذي احتال معهم ذلك لأجْلِه حتى يُبْقِيه معه، فَسَكَتَ لسان بنيامين، وتحقَّق بالحالِ قَلْبُه.

ويقال لم يستصعب الملامة ـ وإنْ كان بريئاً ـ مما قُرِنَ به، ولا يَضُرُّ سوءُ المقالةِ بالمكاشفين بعد حُسْنِ الحالةِ مع الأحباب.

ويقال سيئ بما أَظْهَرَتْ عليه المقالة، ولكن حَصَلَ له بذلك صفاءُ الحالة.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾[٣].

(١) سخنت العين سخناً: لم تقرّ، فهي سخينة.

(٢) الآيتان (٧١ ـ ٧٢) لم تردا. (٣) الآيتان (٧٥، ٧٦) لم تردا.

كان بنيامينُ بريئاً مما رُمِيَ به من السرقة، فأنطقهم الله تعالى حتى رَمَوْا يوسف عليه السلام بالسرقة، واحدٌ بواحد ليَعْلَم العالمون أنَّ الجزاءَ واجبٌ.

ويقال كان القُرْحُ بالقَدح[1] أوجعَ ما سَمِعَه يوسف منهم حيث قالوا: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ فقد كان ذلك أشدَّ تأثيراً في قلبه من الجفاءِ الأول.

ويقال إذا حَنِقَ عليك المِلكُ فلا تأمَنْ غِبَّه ـ وإنْ طالت المدة ـ فإن يوسف عليه السلام حَنِق عليهم فلقوا في المستأنف منه ما ساءَهم مِنْ حَبْسِ أخيه، وما صاحبَهم من الخَجل من أبيهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

لم تنفعهم كثرةُ التَّنَصُّلِ[2]، وما راموا به من ذكر أبيهم ابتغاءَ التوسُّل، ولم ينفعهم ما قيل منهم حين عَرَضُوا عليه أن يأخذَ أحدَهم في البَدَل.. كذلك فكلُّ مُطَالَبٌ بفعل نفسه: ﴿**لا تزرُ وازرةٌ وِزرَ أخرى**﴾ [الأنعام: ٦٤]؛ فلا الأبُ يُؤخَذُ بَدَلَ الولد، ولا القريبُ يُرضَى به عوضاً عن أحد؛ لذلك قال يوسف عليه السلام:

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ توهموا أن الحديث معهم من حيث معاملة الأموال، فعَرَضُوا أنفسهم كي يؤخَذ واحدٌ منهم بَدَلَ أخيهم، ولم يعلموا أن يوسف عليه السلام كادَهم في ذلك، وأنَّ مقصودَه من ذلك ما استكَنَّ في قلبه مِنْ حُبٍّ لأخيه، وكلَّا.. أَنْ يكونَ عن المحبوبِ بَدَلٌ أو لقوم مقامُ أحدٍ.. وفي معناه أنشدوا:

إذا أَوْصَلْتَنا الخُلْدَ كيما تُذِيقنا ... أَبَيْنا وقُلْنا: أنتَ أَوْلَى إلى القلب

وقيل:

أُحِبُّ لَيْلَى وبُغِّضَتْ إليَّ ... نساءٌ ما لَهُنَّ ذُنُوبُ

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

لما عَلِموا أن يوسف عليه السلام ليس يبرح عن أخيه خلا بعضُهم ببعضٍ

---

(١) القُرْح: الجُرح (ج) قروح. القَدْح: الطعن والذم.

(٢) تنصل فلان من ذنبه: تبرأ.

فعملت فيهم الخجْلة، وعلموا أن يعقوب في هذه الكرَّةِ يتجدد له مثلما أسلفوه من تلك الفَعْلة، فلم يرجع، أكبرهم إلى أبيهم، وتناهى إلى يعقوبَ خَبَرُهم، فاتهمهم وما صدّقهم، واستخونهم وما استوثقهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾.

كان لهم في هذه الكَرَّةِ حجة على ما قالوه، ولكن لم يسكن قلبُ يعقوب عليه السلام إليها، فإنَّ تعيُّنَ الجُرْمِ في المرة الأولى أَوْجَبَ التُّهمةَ في الكرَّةِ الأخرى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

ما ازدادوا إقامةَ حُجَّةٍ إلا ازداد يعقوبُ ـ عليه السلام ـ في قولهم شُبْهةً.

ويقال: في مُساءلة الأطلال أَخْذٌ لقلوب الأحباب، وسَلْوَةٌ لأسرارهم.. وهذا البابُ مما للشرح فيه مجال.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ﴾.

لجأ إلى قُرْبِ خلاصه من الضُرِّ بالصبر.

ويقال لما وعد من نفسه الصبر فلم يُمْسِ حتى قال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ ليُعْلَمَ أنَّ عَزْمَ الأحبابِ على الصبر منقوضٌ غيرُ محفوظ[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

تولَّى عن الجميع ـ وإن كانوا أولادَه ـ ليُعْلَمَ أَنَّ المحبةَ لا تُبْقي ولا تَذَرْ.

ويقال أراد إخوةُ يوسفَ أن يكونَ إقبالُ يعقوب عليهم بالكليَّةَ فأَعْرَضَ، وتولَّى عنهم، وفَاتَهُم ما كان لهم، ولهذا قيل: مَنْ طَلَبَ الكُلَّ فاته الكلُّ.

---

(١) قال القشيري في رسالته موضحاً هذا المعنى: واعلم أن الصبر على ضربين: صبر العابدين وصبر المحبين فصبر العابدين أحسنه أن يكون محفوظاً، وصبر المحبين أحسنه أن يكون مرفوضاً، وفي هذا المعنى أنشدوا:

تبيّن يوم البين أن اعتزامه ... على الصبر من إحدى الظنون الكواذب

وفي هذا المعنى سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: أصبح يعقوب عليه السلام وقد وعد الصبر في نفسه، فقال: (فصبر جميل) أي فشأني صبر جميل، ثم لم يمس حتى قال: (يا أسفا على يوسف). (الرسالة القشيرية ص١٨٨ ـ ١٨٩).

ويقال لم يَجِدْ يعقوبُ مُساعِداً لنفسِه على تأسفه على يوسف فتولَّى عن الجميع، وانفرد بإظهار، أسفه، وفي معناه أنشدوا:

فـريـدٌ عـن الـخِـلَّانِ فـي كـل بـلـدةٍ إذا عَـظُـمَ الـمطـلـوبُ قَـلَّ الـمُـسـاعِـدُ

ويقال كان بكاءُ داود عليه السلام أكثرَ من بكاء يعقوب عليه السلام، فلم يذهب بَصَرُ داود وذهب بَصَرَ يعقوب؛ لأن يعقوب عليه السلام بكى لأَجْلِ يوسف ولم يكن في قدْرةِ يوسف أن يحفظَ بصره من البكاء لأجله، وأمَّا داود فقد كان يبكي لله، وفي قدرة الله ـ سبحانه ـ ما يحفظ بَصَرَ الباكي لأَجْلِه.

سمعتُ الأستاذ أبا علي الدقاق ـ رحمه الله ـ يقول ذلك، وقال رحمه الله: إن يعقوبَ بكى لأجل مخلوقٍ فذهب بَصَرَهُ، وداود بكى لأَجْل الله فبقي بَصَرُه.

وسمعته ـ رحمه الله ـ يقول: لم يقل الله: «عَمِيَ يعقوب» ولكن قال: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾، لأنه لم يكن في الحقيقة عَمَىً، وإنما كان حجاباً عن رؤيةِ غير يوسف.

ويقال كان ذهابُ بصرِ يعقوب حتى لا يحتاج إلى أن يرى غير يوسف، لأنه لا شيءَ أشدُّ على الأحبابِ من رؤية غير المحبوب في حال فراقه، وفي معناه أنشدوا:

لـمـا تَـيَـقَّـنْـتُ أنـي لَـسْـتُ أُبْـصِـرِكـم أغـمضتُ عيني فلم أنظر إلى أحد

وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول: كان يعقوب عليه السلام يتسلَّى برؤية بنيامين في حال غيبة يوسف، فلما بقي عن رؤيته قال: ﴿يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أي أنه لما مُنِعَ من النظر كان يتسلى بالأثر، فلمَّا بقي عن النظر قال: يا أسفا على يوسف.

قـولـه جـلّ ذكـره: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ﴾.

هددوه بأن يصير حرضاً ـ أي مريضاً مشفياً على الهلاك ـ وقد كان، وخوفُّوه مما لم يبالِ أن يصيبه حيث قالوا ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ﴾.

ويقال أطيب الأشياء في الهلاكِ ما كان في حكم الهوى ـ فكيف يُخَوَّف بالهلاكِ من كان أحبُّ الأشياءِ إليه الهلاكَ؟.

قـولـه جـلّ ذكـره: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

شكا إلى الله ولم يَشْكُ مِنَ اللَّهِ، ومَنْ شكا إلى الله وَصَلَ، ومَنْ شكا من الله انفصل.

ويقال لمَّا شكا إلى الله وَجَدَ الخَلَفَ من الله.

ويقال كان يعقوبُ ـ عليه السلام ـ مُتَحَمِّلاً بنفسه وقلبه، ومستريحاً محمولاً بسِرِّه وروحه؛ لأنه عَلِمَ من الله ـ سبحانه ـ صِدْقَ حالِه فقال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وفي معناه أنشدوا:

إذا ما تمنَّى الناسُ رَوْحاً وراحةً   تمنَّيْتُ أن أشكو إليكَ فَتَسْمَعَا

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

كان يعقوب عليه السلام يبعث بنيه في طلب يوسف، وكان الإخوة يخرجون بطلب المسيرة وفي اعتقادهم هلاكُ يوسف.. وكلُّ إنسانٍ وهمُّه.

ويقال قوله ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أمرٌ بطلب يوسف بجميع حواسِّهم؛ بالبَصَرِ لعلَّهم تقع عليه أعينهم، وبالسَّمْعِ لعلَّهم يسمعون ذِكْرَه، وبالشمِّ لعلهم يجدون رِيحَه؛ وقد توهَّم يعقوبُ أنهم مثله في إرادةِ الوقوفِ على شأنه. ثم أحالهم على فضل الله حيث قال: ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

ويقال لم يكن ليعقوب أحدٌ من الأولاد بمكان يوسف، فَظَهَر من قِلَّةِ الصبرِ عليه ما ظهر، وآثَرَ غَيْبَةَ الباقين من الأولاد في طلب يوسف على حضورهم عنده.. فشتَّان بين حاله معهم وبين حاله مع يوسف! واحدٌ لم يَرَهْ فابْيَضَّتْ عيناه من الحزن بفرقته، وآخرون أَمرَهُم ـ باختياره ـ بِغَيْبَتِهم عنه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾.

لما دخلوا على يوسف خاطبوه بذكر الضُّرِّ، ومقاساة الجوع والفقر، ولم يذكروا حديث يوسف عليه السلام، وما لأجله وَجَّهَهُم أبوهم.

ويقال استلطفوه بقولهم: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ ثم ذكروا بعد ذلك حديث قلة بضاعتهم.

ويقال لمَّا طالعوا فقرهم نطفوا بقدرهم فقالوا: وجئنا ببضاعة مزجاة ـ أي رديئة ـ ولما شاهدوا قدر يوسف سألوا على قدره فقالوا: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾.

ويقال قالوا كلنا كيلاً يليق بفضلك لا بفقرنا، وبكرمك لا بعدمنا، ثم تركوا هذا اللسان وقالوا: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾: نَزَلوا أَوْضَعَ مَنْزِلٍ؛ كأنهم قالوا: إنْ لم نستوجِبْ معاملةَ البيع والشراء فقد استحققنا بَذْلَ العطاءِ، على وجه المكافأة والجزاء.

فإنْ قيل كيف قالوا وتصدَّقْ علينا وكانوا أنبياء ـ والأنبياء لا تحل لهم الصدقة؟

فيقال لم يكونوا بعد أنبياء، أو لعلّه في شرعهم كانت الصدقةُ غيرَ مُحَرَّمةٍ على الأنبياء.

ويقال إنما أرادوا أنَّ مِنْ ورائنا مَنْ تَحِلُّ له الصدقة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾.

افتضحوا بحضرة يوسف عليه السلام وقالوا: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ فعرفهم فعلمهم ووقفهم عند أحدهم فقال: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه؟ يعني إنَّ مَنْ عَامَل يوسفَ وأخاه بمثل معاملتكم فلا ينبغي له أن يتجاسَرَ في الخطاب كتجاسركم.

ويقال إن يوسف عليه السلام قال لهم: أنهيتم كلامكم، وأكثرتم خطابكم، فما كان في حديثكم إلا ذكر ضرورتكم.. أفلا يخطر ببالكم حديث أخيكم يوسف؟! وذلك في باب العتابِ أعظم من كلِّ عقوبة.

ولمَّا أخجلهم حديث العتاب لم يَرْضَ يوسفُ حتى بسط عندهم فقال: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

في الابتداء حين جهلوه كانوا يقولون له في الخطاب: «يا أيها العزيز» فلمّا عرفوه قالوا: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾؛ لأنه لمَّا ارتفعت الأجنبيةُ سقط التكلُّفُ في المخاطبة، وفي معناه أنشدوا:

إذا صَفَتْ المودَّةُ بين قومٍ ودام ودادُهم قَبُحَ الثناءُ

ويقال إنَّ التفاصُلَ والتفارُقَ بين يوسف وإخوته سَبَقا التواصلَ بينه وبين يعقوب عليهما السلام؛ فالإخوةُ خَبَره عرفوه قبلَ أنْ عَرَفَه أبوه ليعلَم أن الحديث بلا شكٍ.

ويقال لم يتقدموا على أبيهم في استحقاق الخبر عن يوسف ومعرفته، بل إنهم ـ وإن عرفوه ـ فلم يلاحظوه بعين المحبة والخلة، وإنما كان غرضُهم حديثَ الميرة والطعام فقط، فقال: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي﴾: يعني إني لأخٌ لِمِثْلِ هذا لمثلكم؛ ولذا قال: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي﴾، ولم يقل وأنتم إخوتي، كأنَّه أشار إلى طرفٍ من العتاب، يعني ليس ما عاملتموني به فِعْلَ الإخوة.

ويقال هَوَّنَ عليهم حالَ بَدَاهَةِ[٢] الخجلة حيث قال ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ بقوله:

---

(١) هنا القشيري يطبق فكرة القبض والبسط (انظر الرسالة القشيرية ص٥٨ ـ ٦٠.

(٢) البداهة: ما يفجأ من الأمر.

﴿وَهَٰذَآ أَخِىۖ﴾، وكأنه شَغلَهم بقوله: ﴿وَهَٰذَآ أَخِىۖ﴾ كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧] إنه سبحانه شَغَلَ موسى عليه السلام باستماع: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧] بمطالعة العصا في عين ما كوشِف به من قوله: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [طه: ١٤].

ثم اعترف بوجدان الجزاء على الصبر في مقاساة الجهد والعناء فقال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وسمعتُ الأستاذ أبا علي الدقاق ـ رحمه الله ـ يقول لما قال يوسف: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ أحَالَ في استحقاق الأجر على ما عمل من الصبر... فأنطقهم الله حتى أجابوه بلسان التوحيد فقالوا: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ يعني ليس بِصَبْرِك يا يوسفُ ولا بتقواك، وإنما هو بإيثارِ اللَّهِ إياك علينا؛ فبه تقدمت علينا بحمدك وتقواك. فقال يوسف ـ على جهة الانقياد للحقِّ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ﴾؛ فأسقط عنهم اللوم، لأنه لمَّا لم يَرَ تقواه من نفسه حيث نبَّهوه عليه نَطَقَ عن التوحيد، وأخبر عن شهود التقدير.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾.

اعترفوا بالفضل ليوسف ـ عليه السلام ـ حيث قالوا: لقد آثرك الله علينا، وأكَّدوا إقرارَهم بالقَسَم بقوله ﴿تَٱللَّهِ﴾ وذلك بعد ما جحدوا فَضلَه بقولهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وهكذا من جحد فلأنه ما شهد، ومن شهد فما جحد.

ويقال لمَّا اعترفوا بفضله وأقرُّوا بما اتصفوا به من جُرْمِهم بقولهم: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ وجدوا التجاوزَ عنهم حين قال يوسف:

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

أسرع يوسفُ في التجاوز عنهم، وَوَعَد يعقوبُ لهم بالاستغفار بقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓۖ﴾ لأنه كان أشدَّ حباً لهم فعاتبهم، وأما يوسف فلم يرهم أهلاً للعتاب فتجاوز عنهم على الوهلة، وفي معناه أنشدوا:

تـركُ الـعـتـابِ إذا استـحـق أخ ... مِـنـك الـعـتـابَ ذريـعـةُ الـهَـجْـرِ

ويقال أصابهم ـ في الحال ـ مِنَ الخجلة مقا مقام كلِّ عقوبة، ولهذا قيل:

كفى للمقصِّر الحياءُ يوم اللقاء.

قـولـه جـلّ ذكـره: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

البلاءُ إذا هَجَمَ هَجَمَ مَرَّةً، وإذا زال بالتدريج؛ حلَّ البلَاءُ بيعقوب مرةً واحدةً حيث قالوا: ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ ولما زال البلاءُ.. فأولاً وَجَدَ ريحَ يوسفَ عليه السلام، ثم قميص يوسف، ثم يوم الوصول بين يدي يوسف، ثم رؤية يوسف.

ويقال لَمَّا كان سببُ البلاءِ والعمى قميصَ يوسف أراد اللَّهُ أن يكونَ به سَبَبُ الخلاص من البلاء.

ويقال علمَ أن يعقوب عليه السلام ـ لِمَا يلحقه من فَرْطِ السرور ـ لا يطيقه عند أخذ القميص فقال: ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى﴾.

ويقال القميص لا يصلح إلا للباس إلا قميص الأحباب فإنه لا يصلح إلا لوجدان ريح الأحباب.

ويقال كان العمى في العين فأمر بإلقاء القميص على الوجه ليجدَ الشفاءَ من العمى.

ويقال لَمَّا كان البكاء بالعين التي في الوجه كان الشفاء في الإلقاء على العين التي في الوجه، وفي معناه أنشدوا:

وما بات مطوياً على أريحية عُقَيب النَّوى إلا فتًى ظلَّ مغرما

وقوله ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾: لما عَلِمَ حزنَ جميعَ الأهلِ عليه أراد أن يشترك في الفرح جميعُ من أصابهم الحزن.

ويقال عَلِمَ يوسفُ أن يعقوبَ لن يطيق على القيام بكفاية أمور يوسف فاستحضَرَه، إبقاءً على حالِه لا إخلالاً لِقَدْرِه وما وَجَبَ عليه من إجلاله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾.

ما دام البلاءُ مُقْبِلاً كان أمرُ يوسفَ وحديثُه ـ على يعقوب ـ مُشْكِلاً، فلما زالت المحنة بعثرت بكل وجهٍ حاله.

ويقال لم يكن يوسف بعيداً عن يعقوب حين ألقوه في الجُبِّ ولكن اشتبه عنيه خَبَرُه وحالُه، فلما زال البلاءُ وَجدَ ريحَه وبينهما مسافة ثمانين فرسخاً ـ من مصر إلى كنعان.

ويقال إنما انفرد يعقوبُ عليه السلام بوجدان ريح يوسف لانفرادِه بالأسف عند فقدان يوسف. وإنما يجد ريح يوسف مَنْ وَجَدَ على فراق يوسف؛ فلا يعرف ريحَ الأحبابِ إلا الأحبابُ، وأمَّا على الأجانب فهذا حديثٌ مُشْكِل.. إذ أنَّى يكون للإنسان ريح!؟.

ويقال لفظ الريح ها هنا توسع، فيقال هبَّتْ رياحُ فلانٍ، ويقال إني لأَجِدُ ريح الفتنة.. وغير ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾.

تَفَرَّسَ فيهم أنهم يبسطون لسان الملامة فلم ينجع فيهم قولُه، فزادوا في الملامة فقالوا: ـ

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾.

قرنوا كلامهم بالشتم، ولم يحتشموا أباهم، ولم يُراعوا حقَّه في المخاطبة، فوصفوه بالضلال في المحبة.

ويقال إن يعقوب عليه السلام قد تعرَّف من الريح نسيمَ يوسف عليه السلام، وخبر يوسف كثير حتى جاء الإذن للرياح، وهذه سُنَّةُ الأحباب: مساءلة الديار ومخاطبة الأطلال وفي معناه أنشدوا:

وإنّي لأستهدي الرياح نسيمكم إذا هي أقبَلتْ نحوكم بهُبُوب
واسألها حَمْلَ السلامِ إليكمُ فإنْ هي يوماً بلَغَتْ فأَجيبُوا

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

لو أُلْقِيَ قميصُ يوسف على وجه مَنْ في الأرض مِنَ العميان لم يرتد بصرهم، وإنما رجع بصرُ يعقوب بقميص يوسف على الخصوص؛ فإنَّ بَصَرَ يعقوبَ ذهب لفراق يوسف، ولمَّا جاءوا بقميصه أَنْطَقَ لسانَه، وأَوْضحَ برهانَه، فقال لهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ عن حياة يوسف، وفي معناه أنشدوا:

وَجْهُك المأمولُ حُجَّتُنا يومَ يأتي النَّاسُ بالحجج

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ﴾.

كلُّ إنسانٍ وهمُّه؛ وَقَعَ يعقوبُ ويوسفُ عليها السلام في السرور والاستبشار، وأَخَذَ إخوةُ يوسف في الاعتذارِ وطَلَبَ الاستغفار.

ويقال إخوة يوسف ـ وإنْ سَلَفَتْ منهم الجفوة كلَّموا أباهم بلسان الانبساط لتقديم شفقةِ الأبوةِ على ما سَبَقَ منهم من الخطيئة.

ويقال يومٌ بيوم؛ اليوم الذي كان يعقوب محزوناً بغيبة يوسف فلا جَرَمَ اليوم كان يعقوب مسروراً بمقيص يوسف، وكان الأخوة في الخَجلة مما عملوا بيوسف.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وَعدَهُم الاستغفارَ لأنه لم يَفْرَغْ من استبشاره إلى الاستغفار.

ويقال لم يُجِبْهُم على الوهلة ليدلَّهم على ما قَدَّمُوا من سوء الفَعْلَةِ؛ لأن يوسفَ

كان غائباً وقتئذٍ، فوْعدهم الاستغفارَ في المستأنف ـ إذا رضِي عنهم يوسف حيث كان الحقُّ أكثرُه له، ولو كان كله ليعقوب لوهبهم على الفور.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾.

اشتركوا في الدخول ولكن تباينوا في الإيواء فانفرد الأَبَوان به لِبُعْدِهما عن الجفاء، كذلك غداً، إذا وصلوا إلى الغفران يشتركون في وجود الجنان، ولكنهم يتباينون في بساط القربة فيختص به أهل الصفاء دون من اتصف اليوم بالاستواء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ﴾.

أوقف كُلاً بمحلِّه؛ فَرفَعَ أبويه على السرير، وتَرَك الإخوةَ نازلين بأماكنهم.

قوله: ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾: كان ذلك سجودَ تحيةٍ، فكذلك كانت عادتهم. ودَخَلَ الأَبَوان في السجود ـ في حقِّ الظاهر ـ لأنَّ قوله ﴿وَخَرُّوا۟﴾ إخبارٌ عن الجميع، ولأنه كان عن رؤياه قد قال: ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] وقال ها هنا: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

شهد إحسانه فَشَكَره.. كذلك مَنْ شهد النعمة شَكَر، ومَنْ شهد المُنْعِمَ حمده.

وذَكَرَ حديثَ السجن ـ دون البئر ـ لطول مدة السجن وقلة مدة البئر.

وقيل لأن فيه تذكيراً بِجُرْمِ الإخوة وكانوا يخجلون. وقيل لأن ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾. وقيل لأن كان في البئر مرفوقاً به والمبتدىء يُرفَقُ به وفي السجن فَقَدَ ذلك الرِّفق لقوة حاله؛ فالضعيف مرفوقٌ به والقويُّ مُشَدَّدٌ عليه في الحال، وفي معناه أنشدوا:

وأسررتني حتى إذا ما سَبَبْتَني ... بقولٍ يحل العُصْم سهل الأباطح[١]

تجافيتَ عنّي حين لا لي حيلة ... وغادرت ما غادرت بين الجوانح

وفي قوله: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ إشارة إلى أنه كما سُرَّ برؤية أبويه سُرَّ بإخوته ـ وإنْ كانوا أهل الجفاء، لأنَّ الأُخُوَّةَ سَبقتْ الجفوة.

(١) الأباطح: (ج) الأبطح: مسيل واسع فيه دقاق الحصى والتراب.

قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ أظهر لهم أمرهم بما يشبه العذر، فقال كان الذي جرى منهم من نزعات الشيطان، ثم لم يرض بهذا حتى قال: ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ يعني إن وَجَدَ الشيطان سبيلاً إليهم، فقد وجد أيضاً إليَّ حيث قال: ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾.

ثم نطق عن عين التوحيد فقال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ فبلطفه عصمهم حتى لم يقتلوني.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾.

في حرف تبعيض؛ لأن المُلك ـ بالكمال ـ لله وحده.

ويقال المُلْكُ الذي أشار إليه قسمان: مُلْكه في الظاهر من حيث الولاية، ومُلْكٌ على نفسه حتى لم يعمل ما همَّ به الزَّلة.

ويقال ليس كلُّ مُلْكِ المخلوقين الاستيلاءَ على الخَلق، إنما المُلْكُ ـ على الحقيقة ـ صفاءُ الخُلُق.

قوله: ﴿وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾: التأويل للخواص، وتفسير التنزيل للعوام.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ـ هذا ثناء، وقوله: ﴿تَوَفَّنِي﴾ ـ هذا دعاء.

فَقَدَّمَ الثناء على الدعاء، كذلك صفة أهل الولاء.

ثم قال: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ هذا إقرارٌ بِقَطْع الأسرار عن الأغيار.

ويقال معناه: الذي يتولّى في الدنيا والآخرة بعرفانه أنتَ؛ فليس لي غيرك في الدارين.

قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا﴾: قيل عَلِمَ أنه ليس بعد الكمال إلا الزوال فَسأَلَ الوفاة.

وقيل من أمارات الاشتياق تمنّي الموت على بساط العوافي مثل يوسف عليه السلام أُلْقِيَ في الجُبِّ فلم يقل توفني مسلماً، وأقيم فيمن يزيد فلم يقل توفني مسلماً، وحُبِسَ في السجن سنين فلم يقل توفني مسلماً، ثم لما تمَّ له المُلْكُ، واستقام الأمر، ولَقِيَ الإخوةَ سُجَّداً، وألْفَى أبويه معه على العرش قال:

﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا﴾[1] فعُلِمَ أنه كان يشتاق للقائه (سبحانه).

وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق ـ رحمه الله يقول. قال يوسف ليعقوب: عَلِمْتَ أنَّا نلتقي فيما بعد الموت.. فلِمَ بكيْتَ كلَّ هذا البكاء؟

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص٣٣١.

فقال يعقوب، يا بُنَيّ إنَّ هناك طرُقاً، خِفْتُ أن أسلكَ طريقاً وأنت تسلك طريقاً، فقال يوسف عند ذلك: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾.

ويقال إن يوسف ـ عليه السلام ـ لما قال: توفني مسلماً، فلا يبعد من حال يعقوب أن لو قال: يا بني دَعْني أشتفي بلقائك من الذي مُنِيتُ به في طول فراقك، فلا تُسْمِعْني ـ بهذه السرعة ـ قولَكَ: توفَّني مسلماً.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾.

تبيّن للكافة أن مثل هذا البيان لهذه القصة على لسان رجلٍ أميٍّ لا يكون إلا بتعريف سماويّ.

ويقال كونُ الرسولِ ـ ﷺ ـ أُميًا في أول أحواله علامةُ شرَفِه وعلوّ قدْرِه في آخر أحواله، لأنَّ صِدْقَهُ في أن هذا من قِبَل اللّهِ إنما عُرِفَ بكونه أميا، ثم أتى بمثل هذه القصة من غير مدارسة كتاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

أخبر عن سابق علمه بهم، وصادق حُكْمِه حكمته فيهم.

ويقال معناه: أَقَمْتُكَ شاهداً لإرادة إيمانهم، وشِدَّةِ الحِرْصِ على تحقُّقهم بالدِّين، وإيقانهم. ثم إنِّي أعلم أنهم لا يؤمن أكثرُهم، وأخبرتك بذلك، وفُرِضَ عليكَ تصديقي بذلك، وفرضتُ عليك إرادتي كونَ ما عَلِمْتُ أنه لا يكون من إيمانهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

هذه سُنَّةُ الله ـ سبحانه ـ مع أنبيائه حيثُ أَمَرَهُم بألا يأخذوا على تبليغ الرسالة عِوَضاً ولا أجراً، وكذلك أمره للعلماءِ ـ الذين هم وَرثَةُ الأنبياء عليهم السلام ـ بألَا يأخذوا مِنَ الخَلقِ عِوَضاً على دعائهم إلى الله. فَمنْ أخذ منهم حَظا من الناس لم يُبَارَكْ للمستمِع فيما يسمع منه؛ فلا له أيضاً بركة فيما يأخذ منهم فتنقطع به.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

الآياتُ ظاهرة، والبراهين باهرة، وكلُّ جُزْءٍ من المخلوقات شاهِدٌ على أنّه واحد، ولكن كما أَنَّ مَنْ أغْمَضَ عينه لـم يستمتع بضوء نهاره فكذلك مَنْ قَصَّرَ في نَظَرِه واعتباره لم يحظَ بعرفانه واستبصاره.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.

الشِّرْكُ الجَليُّ أن يتَّخِذَ من دونه ـ سبحانه ـ معبوداً، والشِّرْكُ الخفِيُّ أن يتخذ بقلبه عند حوائجه من دونه ـ سبحانه ـ مقصوداً.

ويقال شِرْكُ العارفين أن يتخذوا من دونه مشهوداً، أو يطالعوا سواه موجوداً.

ويقال مِنَ الشِّركِ الخفيِّ الإحالةُ على الأشكال في تجنيس الأحوال، والإخلاد إلى الاختيار والاحتيال عند تزاحم الأشغال.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

أَفَأَمِنَ الذي اغترَّ بطول الإمهال ألا يُبْتلى بالاستئصال، أَفَأَمِنَ مَنْ اغترَّ بطول السلامة ألا يقوم البلاءُ عليه يومَ القيامة.

ويقال الغاشيةُ حجابٌ من القسوة يحصل في القلب، لا يزول بالتضرع ولا ينقشِع بالتخشع.

ويقال الغاشيةُ من العذاب أن تزولَ من القلب سرعةُ الانقلاب إلى الله تعالى، حتى إذا تمادى صاحب الغفلة استقبله في الطريق ما يوجب قنوطه من زواله، وفي معناه أنشدوا:

قلتُ للنَّفسِ إنْ أردتِ رجوعاً فارجعي قَبْلَ أَنْ يُسَدَّ الطريقُ

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

«البصيرة»: اليقين الذي لا مِرْيَةَ فيه، والبيان الذي لا شكَّ فيه. البصيرةْ يكون صاحبُها مُلاطَفاً بالتوفيق جَهْراً، ومكاشَفاً بالتحقيق سِرًّا.

ويقال البصيرة أن تطلع شموسُ العرفانِ؛ فتندرجُ فيها أنوارُ نجومِ العقل.

قوله: ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ أي ذلك سبيلي، وسبيلُ مَنْ اقتدى بهديي فهو أيضاً على بصيرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

تعجبوا أن يبعثَ اللَّهُ إلى الخلق بشراً رسولاً، فبيَّن أنه أجرى سُنَّته ـ فيمن تقدَّمَ من الأمم ـ ألا يكونَ الرسولُ إليهم بَشَراً، فإما أن جحدوا جوازَ بعثةِ الرسولِ أصلاً، أو أنهم استنكروا أن يبعث بشراً رسولاً.

ثم أَمَرهُم بالاستدلال والتفكر والاعتبار والنَّظَر فقال: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ . . .﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

حتى إذا استيأس الرسلُ مِنْ إيمانِ قومهم، وتَيَقَّنُوا أنهم كذبوهم ـ والظن ها هنا بمعنى اليقين ـ فعند ذلك جاءهم نصرُنا؛ للرسل بالنجاةِ ولأقوامهم بالهلاك، ولا مَرَدَّ لبأسنا.

ويقال حكم الله بأنه لا يفتح للمريدين شيئاً من الأحوال إلا بعد يأسهم منها، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى: ٢٨]، فكما أنّه يُنَزِّلُ المطَر بعد اليأسِ فكذلك يفتح الأحوالَ بعد اليأس منها والرضا بالإفلاس عنها.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

عِبْرةٌ منها للملوك في بَسْطِ العدل كما بسط يوسفُ عليه السلام، وتأمينهم أحوال الرعية كما فعل يوسف حين أَحسن إليهم، وأعتقهم حين مَلَكهم.

وعبرة في قصصهم لأرباب التقوى؛ فإن يوسفَ لمَّا ترك هواه رقَّاه الله إلى ما رقَّاه.

وعبرةٌ لأهل الهوى فيما في اتباع الهوى من شدة البلاء، كامرأة العزيز لمَّا تبعت هواها لقيت الضرَّ والفقر.

وعبرةٌ للمماليك في حضرة السادة، كيوسف لما حفظ حرمة زليخا مَلَكَ مُلْكَ العزيز، وصارت زليخا امرأته حلالاً.

وعبرةٌ في العفو عند المقدرة، كيوسف عليه السلام حين تجاوز عن إخوته.

وعبرةٌ في ثمرة الصبر، فيعقوب لما صبر على مقاساة حزنه ظفر يوماً بلقاء يوسف عليه السلام.

السورة التي يذكر فيها «الرعد»

بسم الله الرحمن الرحيم

«بسم الله» كلمةٌ سماعُها يُورِثُ لقومٍ طلباً ثم طرباً، ولقومٍ حزناً ثم هَرَباً، فَمَنْ سَمِع بشاهد الرجاء طلب وجود رحمته فأذّنَه لها طَرَب، ومَنْ سَمِعَ بشاهد الرهبة حزن من خوف عقوبته ثم إليه هرب.

قوله جلّ ذكره: ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾.

أقسم بما تدل عليه هذه الحروف من أسمائه إنَّ هذه آيات الكتاب الذي أخبرتُ أنّي أُنَزِّلُ عليك.

فالألف تشير إلى اسم «الله»، واللام تشير إلى اسم «اللطيف»، والميم تشير إلى «المجيد»، والراء تشير إلى اسم «الرحيم» قال بسم الله اللطيف المجيد الرحيم إن هذه آياتُ الكتاب الذي أَخبرتُ أني أنزله على محمد ـ ﷺ. ثم عَطَفَ عليه بالواو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ هو حق وصدق، لأنه أنزله على نَبِيِّه ـ ﷺ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي ولكن الأكثر من الناس من أصناف الكفار لا يؤمنون به، فَهُمْ الأكثرون عدداً، والأقلون قَدْراً وخَطَراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

دَلَّ على صفاته وذاته بما أخبر به من آياته، ومن جملتها رفعُ السمواتِ وليس تحتها عمادٌ يَشُدُّها، ولا أوتادٌ تُمْسِكُها. وأخبر في غير هذه المواضع أنه زَيَّنَ السماءَ بكواكبها، وخصَّ الأرض بجوانبها ومناكبها.

و﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: أي احتوى على مُلْكِه احتواءَ قُدْرَةٍ وتدبير. والعرشُ هو المُلْكُ حيث يقال: اندكَّ عرشُ فلان إذا زال مُلْكُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ...﴾.

كلٌّ يجري في فَلَكٍ. ويدلُّ كل جزء من ذلك على أنه فِعلُ في مُلْكِه غير مشترك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

بَسَطَ الأرضَ ودحاها، والجبالَ أرساها، وفَجَّرَ عيونها، وأجرى أنهارها، وجَنَّسَ بِحارها، ونَوَّعَ من الحيوانات ما جعل البحرَ قرارها، وأنبت أشجارها، وصَنَّفَ أزهارَها وثمارَها، وكوَّر عليها ليلَها ونهارَها.. ذلك تقديرُ العزيز العليم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

فَمِنْ سبخٍ[1] ومن حَجَرٍ ومن رملٍ.. أنواع مختلفة، وأزواج متفقة. وزروع ونبات وأشجار أشتات، وأصل الكل واحد، فأجزاؤها متماثلة، وأبعاضها متشاكلة، ولكن جعل بعضها غدقاً[2]، وبعضها قشراً، وبعضها غُصْناً، وبعضها جذعاً، وبعضها أزهاراً، وبعضها أوراقاً.. ثم الكلُّ واحد، وإن كان لكلٍّ واحدٍ طبعٌ مخصوص وشكلٌ مخصوص، ولون مخصوص وقشر مخصوص مع أنها تُسْقَى بماءٍ واحدٍ؛ إذ يصل إلى كل جزء من الشجر من الماء مقدارُ ما يحتاج إليه، ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

وإن تعجبْ ـ يا محمد ـ لقولهم فهذا موضعٌ يَتَعَجَّبُ منه الخَلْق، فالعَجَبُ لا يجوز في صفة الحقِّ، إذ إن التعجبَ الاستبعادُ والحقُّ لا يَسْتَبْعِدُ شيئاً، وإنما أثبت موضعَ التعجب للخَلْق، وحَسَنٌ ما قالوا: «إنما تعجب من حجب» لأنَّ مَنْ يَنَلْ عيونَ البصيرةِ لا يتعجَّبُ مِنْ شيء.

وقومٌ أطلقوا اللفظ بأن هذا من باب الموافقة أي إنك إن تعجب فهذا عجب موافقتك له.

وإطلاق هذا ـ وإن كان فيه إشارة إلى حالة لطيفة ـ لا يجوز، والأدبُ السكوتُ عن أمثال هذا. والقوم عبّروا عن ذلك فقالوا: أعجبُ العجبِ قول ما لا يجوز في وصفه العجب.. وإنْ تعجَّب.

---

(١) السَّبَخُ: المكان يسبخ فيُنْبِت الملح وتسوخ فيه الأقدام (لسان العرب ٢٤ مادة: سبخ).

(٢) الغدق: من العشب: بلله وريُّه. (اللسان ١٠/ ٢٨٢ مادة: غدق).

وقوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ﴾: استبعادُهم النشأةَ الثانيةَ ـ مع إقرارهم بالخَلْقِ الأولِ وهما في معنًى واحد ـ موضعُ التعجب، إذ هو صريح في المناقضة، وكان القومُ أصحابَ تمييز وتحصيل، فقياسٌ مثل هذا يدعو إلى العجب. ولكن لولا أن الله ـ سبحانه ـ لَبَّسَ عليهم كما قال: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩] ـ وإلا ما كان ينبغي أَنْ يخفي عليهم جواز هذا مع وضوحه[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۗ﴾.

الكناية في: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ راجعةٌ إلى العبد، أي أن الله وَكَلَ بكلٍّ واحدٍ منهم معقباتٍ وهم الملائكة الذين يعقب بعضهم بعضاً بالليل والنهار يحفظون هذا المكلَّف وذاكَ من أمر الله، أي من البلاء الذي بقدرة الله. يحفظونهم بأمر الله من أمر الله، وذلك أن الله ـ سبحانه ـ وَكَلَ لكلٍّ واحدٍ من الخَلْق ملائكةً يدفعون عنهم البلاءَ إذا ناموا وغفلوا، أو إذا انتبهوا وقاموا ومشوا... وفي جميع أحوالهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾.

إذا غيَّروا ما بهم إلى الطاعات غيَّر الله ما بهم منه من الإحسان والنعمة، وإذا كانوا في نعمة فغيَّروا ما بهم من الشكر لله تغيَّر عليهم ما مَنَّ به من الإنعام فيسلبهم ما وهبهم من ذلك، وإذا كانوا في شدة لا يغير ما بهم من البلاء حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أخذوا في التضرع، وأظهروا العجز غيَّر ما بهم من المحنة بالتبديل والتحويل.

ويقال إذا غيَّروا ما بألسنتهم من الذِّكرِ غيَّر الله ما بقلوبهم من الحظوظ فأبدلهم به النسيانَ والغفلة، فإذا كان العبد في بسطةٍ وتقريب، وكشفٍ بالقلب وترقب.. فاللَّهُ لا يُغَيِّر ما بأنفسهم بتركِ أدبٍ، أو إخلال بحقٍ، أو إلمام بذنبٍ.

ويقال لا يَكُفُّ ما أتَاحه للعبد من النعمة الظاهرة أو الباطنة حتى يتركَ ويُغَيِّر ما هو به من الشكر والحمد. فإذا قابل النعمة بالكفران، وأبدل حضور القلب بالنسيان وما يُطيح به من العصيان.. أبدل اللَّهُ تعالى ما به من النعمة بالحرمان والخذلان، وسَلَبَه ما كان يعطيه من الإحسان.

ويقال إذا توالت المحنُ وأراد العبدُ زوالَها فلا يصل إليه النَّفْضُ[2] منها إلَّا بأَنْ يغير ما هو به؛ فيأخذ في السؤال بعد السكوت، وفي إظهار الجَزَع بعد السكون، فإذا أخذ في التضرع غيَّر ما به من الصبر.

---

(١) الآيات: من (٥ ـ ١٠) لم ترد.

(٢) النفض: نفض الرجل من مرضه: بَرىء منه.

قوله: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾: يقال إذا أراد اللّهُ بقومٍ بلاءً وفتنة فما تعلَّقَتْ به المشيئة لا محالة يجري.

ويقال إذا أراد الله بقوم سوءاً (. . .)[1] أعينهم حتى يعملوا ويختاروا ما فيه بلاؤهم، فهم يمشون إلى هلاكهم بأقدامهم، ويسعون ـ في الحقيقة ـ في دَمِهِم كما قال قائلهم:

إلى حَتْفِي مَشَى قدمي إذا قَدَمِي أراق دمي

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾.

كما يريهم البرقَ ـ في الظاهر ـ فيكونون بين خوفٍ وطمع؛ خوفٍ من إحباس المطر وطمع في مجيئه. أو خوفٍ للمسافر من ضرر مجيء المطر، وطمعٍ للمقيم في نفعه. . كذلك يُريهم البرقَ في أسرارهم بما يبدو فيها من اللوائح ثم اللوامع ثم كالبرق في الصفاء، وهذه أنوار المحاضرة ثم أنوار المكاشفة.

﴿خَوۡفٗا﴾: من أن ينقطع ولا يبقى، ﴿وَطَمَعٗا﴾: في أن يدومَ فيه نقلُ صاحبِه من المحاضرة إلى المكاشفة، ثم من المكاشفة إلى المشاهدة، ثم إلى الوجود ثم دوام الوجود ثم إلى كمال الخمود.

ويقال: ﴿يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ﴾: من حيث البرهان، ثم يزيد فيصير كأقمار البيان، ثم يصير إلى نهار العرفان. فإذا طلعت شموسُ التوحيدِ فلا خفاءَ بعدها ولا استتار ولا غروب لتلك الشموس، كما قيل:

هي الشمسُ إلا أنَّ للشمس غيبةً وهذا الذي نَعْنيه ليس يغيب

ويقال تبدو لهم أنوار الوصال فيخافون أن تجنَّ عليهم ليالي الفرقة، فَقَلَّمَا تخلو فرحةُ الوصال من أن تعقبها موجة الفراق، كما قيل:

أي يومٍ سررتني بوصالٍ لم تَدَعْني ثلاثةً بصدود؟!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾.

إذا انتاب السحابةَ في السماء ظلامٌ في وقتٍ فإنه يعقبه بعد ذلك ضحكُ الرياض، فمَا لَمْ تَبْكِ السماءُ لا يضحكُ الروضُ، كما قيل:

ومأتمٌ فيه السماءُ تبكي والأرضُ من تحتها عَرُوسُ

كذلك تنشأ في القلب سحابة الطلب، فيحصل للقلب ترددُ الخاطر، ثم يلوح

(١) بياض في الأصل.

وجهُ الحقيقة، فتضحكُ الروح لفنونِ راحاتِ الأُنس، وصنوفِ أزهارِ القُرْب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾.

أي الملائكة أيضاً تسبح من خوفه تعالى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾.

قد يكون في القلب حنين وأنين، وزفير وشهيق. والملائكة إذا حصل لهم على قلوب المريدين ـ خصوصاً ـ اطلاعٌ يبكون دَمَاً لأَجْلهم، لا سيّما إذا وقعت لواحدٍ منهم فترةٌ، والفترةُ في هذه الطريقة الصواعقُ التي يصيب بها من يشاء، وكما قيل:

ما كان ما أَوْلَيْتَ مِن وَصْلنا　　　إلا سراجاً لاح ثم انطفا

قوله جلّ ذكره: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ﴾.

دواعي الحق تصير لائحةً في القلوب من حيث البرهان فمن استمع إليها بسمع الفهم، استجاب لبيان العلم. وفي مقابلتها دواعي الشيطان التي تهتف بالعبد بتزيين المعاصي، فمن أصغى إليها بسمع الغفلة استجاب لصوت الغيّ، ومعها دواعي النّفس وهي قائدةٌ للعبد بزمام الحظوظ، فمن رَكَنَ إليها ولاحَظَها وقع في هوانِ الحِجاب.

ودواعي الحقِّ تكون بلا واسطة مَلَكٍ، ولا بدلالة عقل، ولا بإشارة علم، فمن أسمعه الحقُّ ذلك استجاب لا محالَة لله بالله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾.

هواجس النَّفس ودواعيها تدعو ـ في الطريقة ـ إلى الشِّرْكِ، وذلك بشهود شيءٍ منكَ، وحسبان أمرٍ لَكَ، وتعريجٍ في أوطان الفرْق، والعَمَى عن حقائق الجَمْع.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾.

المؤمن يسجد لله طوعاً، وإذا نزل به ضر الجاه إلى أَنْ يتواضع ويسجد، وذلك معنى سجوده كرهاً ـ وهذا قول أهل التفسير. والكافر يسجد طائعاً مختاراً، ولكن لمَّا كان سجودُه لطلبِ كَشْفِ الضُّرِّ قال تعالى: ﴿**إنه يسجد كرهاً**﴾ على مقتضى هذا كلُّ مَنْ يَسْجُدُ لابتغاءِ عِوَضٍ أو لكشفِ محنة.

ويقال السجودُ على قسمين: ساجدٌ بِنَفْسِه وساجدٌ بقلبه؛ فسجودُ النَّفْسِ معهود، وسجودُ القلب من حيث الوجود.. وفَرْقٌ بين من يكون بنفسه، وواجد بقلبه.

ويقال الكلُّ يسجدون لله؛ إمَّا من حيث الأفعال بالاختيار، أو من حيث الأحوال

بنعت الافتقار والاستبشار: سجودٌ من حيث الدلالة على الوحدانية؛ فكلُّ جزءٍ من عين أو أثر فَعَلَى الوحدانيةِ شاهدٌ، وعلى هذا المعنى للّهِ ساجدٌ. وسجود من حيث الشهادة على قدرة الصانع واستحقاقه لصفات الجلال.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ﴾.

سَلْهُمْ ـ يا محمد ـ مَنْ موجِدُ السموات والأرض ومُقَدِّرُها، ومُخْتَرِعُ ما يحدث فيها ومدبِّرها؟ فإنْ أَسْكَتَهُمْ عن الجواب ما استكَنَّ في قلوبهم مِنَ الجهلِ فقُلْ الله منشيها ومجريها.

ثم قال: ﴿أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾: يعني الأصنام، وهي جمادات لا تملك لنفسها نَفعاً ولا ضَرًّا، ويلتحق في المعنى بها كلُّ مَنْ هو موسومٌ برقم الحدوثِ، فَمَنْ علَّقَ قلبَه بالحدثان ساوَى ـ مِنْ وجهٍ ـ مَنْ عَبَدَ الأصنام، قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ﴾.

الأعمى مَنْ على بصيرته غشاوة وحجبة، والبصيرُ مَنْ كَحَّلَ الحقُّ بصيرة سِرِّه بنور التوحيد.. لا يستويان!

ثم هل تستوي ظلماتُ الشِّرك وأنوارُ التوحيد؟ ومن جملة النور الخروجُ إلى ضياء شهود التقدير.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾.

أي لو كان له شريك لَوَجَبَ أن يكون له نِدٌّ مُضَاهٍ، وفي جميع الأحكام له موازٍ، ولم يُجْدِ حينئذٍ التميزُ بين فِعْلَيْهما.

وكذلك لو كان له نِدٌّ.. فإنَّ إثباتَهما شيئين اثنين يوجِب اشتراكَهما في استحقاق كل وصف، وأن يكون أحدهما كصاحبه أيضاً مستحقاً له، وهذا يؤدي إلى ألا يُعْرَفَ المَحَلُّ.. وذلك محال.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾.

﴿وَكُلُّ شَىْءٍ﴾ تدخل فيه المخلوقات بصفاتها وأفعالها، والمخاطِبُ لا يدخل في الخطاب.

﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ﴾: الذي لا خَلَفَ عنه ولا بَدَل، الواحد الذي في فضله منزه عن فضل كل أحد، فهو الكافي لكلِّ أحد، ويستعين به كل أحد.

و﴿ٱلْقَهَّارُ﴾: الذي لا يجري بخلاف حُكْمِه ـ في مُلْكِه ـ نَفَسٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾.

هذه الآية تشتمل على أمثالٍ ضربها اللَّهُ لتشبيه القرآنِ المُنَزَّلِ بالماءِ المُنَزَّلِ من السماء، وشبَّه القلوب بالأودية، وشبَّه وساوسَ الشيطان وهواجسَ النَّفس بالزَّبَدِ[١] الذي يعلو الماء، وشبَّه الخُلُق بالجواهر الصافية من الخَبَثِ كالذهب والفضة والنحاس وغيرها. وشبَّه الباطلَ بِخَبَثِ هذه الجواهر. وكما أن الأودية مختلفة في صغرها وكبرها وأن بقدرها تحتمل الماء في القلة والكثرة ـ كذلك القلوبُ تختلف في الاحتمال على حسب الضعف والقوة. وكما أَن السيلَ إذا حَصَلَ في الوادي يُطَهِّرُ الوادي فكذلك القرآن إذا حصل حِفْظُه في القلوب نَفَى الوساوسَ والهوى في الوادي عنها، وكما أَنَّ الماءَ قد يصحبه ما يكدره، ويخلص بعضة مما يشوبه ـ فكذلك الإيمان وفَهْمُ القرآن في قلوب المؤمنين حين تخلص من نَزَغَاتِ الشيطان ومن الخواطر الرَّدِيَّة، فالقلوب بين صافٍ وكَدِرٍ.

وكما أنَّ الجواهَر التي تتخذ منها الأواني إذا أذيبت خَلَصَتْ من الخَبَثِ كذلك الحق يتميز من الباطل، ويبقى الحقُّ ويضمحل الباطل.

ويقال إن الأنوار إذا تلألأت في القلوب نَفَت آثار الكلفة، ونور اليقين ينفي ظلمة الشك، والعلم ينفي تهمة الجهل، ونور المعرفة ينفي أثر النكرة، ونور المشاهدة ينفي آثار البشرية، وأنوار الجمع تنفي آثار التفرقة. وعند أنوار الحقائق تتلاشى آثار الحظوظ، وأنوارُ طلوعِ الشمس من حيث العرفان تنفي سَدَفَةَ الليل من حيث حسبان أثر الأغيار.

ثم الجواهر التي تتخذ منها الأواني مختلفة فَمِنْ إناءٍ يتخذ من الذهب وآخر من الرصاص، إلى غيره، كذلك القلوب تختلف، وفي الخبر: «إن لله تعالى أوانيَ وهي القلوب»[٢]؛ فزاهد قاصدٌ ومحب واجِدٌ، وعابدٌ خائفٌ ومُوحِّدٌ عارفٌ، ومتعبِّدٌ متعفِّفٌ ومتهجِّدٌ متصوف، وأنشدوا:

ألوانُها شتَّى الفنونِ وإنما … تُسْقَى بماءٍ واحدٍ من مَنْهَلِ

---

(١) الزَّبد: ما يعلو الماء وغيره من الرغوة.

(٢) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/ ٢٠٩)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٢/ ١٧٣.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ .

﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ : الوعد بقبول استجابتهم، وذلك مِنْ أَجَلِّ الأشياءِ عندهم؛ فلا شيء أعزُّ على المحبِّ مِنْ قبولِ محبوبه منه شيئاً.

أما الذين لم يستجيبوا له فلو أنّ لهم جميع ما في الأرض وأنفقوه عَمْداً لا يُقْبَلُ منهم، ولهم سوءُ الحساب، وهو المناقشة في الحساب، ثم مأواهم جهنم ودوام العذاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ .

استفَهام في معنى النفي، أي لا يستوي البصير والضرير، ولا المقبول بالمردود بالحجبة، ولا المُؤَمَّل بالتقريب بالمُعَرَّض للتعذيب، ولا الذي أقصيناه عن شهودنا بالذي هديناه بوجودنا. إنما يتَّعِظُ مَنْ عقله له تشريف، دونَ مَنْ عقله له سببُ إقصاءٍ وتعنيف.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ .

الوفاء بالعهد باستدامة العرفان، والوفاء بشرط الإحسان، والتوقيُ مس ارتكاب العصيان ـ بذلك أُبْرِمَ العقدُ يوم الميثاق والضمان.

وميثاقُ قوم ألا يعبدوا شيئاً سواه، وميثاق قوم ألا يسألوا سواه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ .

الذين يَصِلون الإيمان به بالإيمان بالأنبياء والرسل.

ويقال الذين يصلون أنفاسَهم بعضاً ببعض؛ فلا يتخلَّلُها نَفَسٌ لغير الله، ولا بغير الله، ولا في شهود غير الله.

ويقال يَصِلُون سَيْرَهم بِسُرَاهم في إقامة العبودية، والتبرّي من الحول والقوة.

وقوله: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ : الخشية لجامٌ يُوقفُ المؤمنَ عن الرَّكْضِ في ميادين الهوى، وزِمامٌ يَجُرُّ إلى استدامة حكم التُّقَى.

وقوله: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ هو أن يبدو من الله ما لم يكونوا يحتسبون.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ .

الصبر يختلف باختلاف الأغراض التي لأَجْلِها يصبر الصابر، فالعُبّاد يصبرون

لخوف العقوبة، والزهاد يصبرون طمعاً في المثوبة، وأصحاب الإرادة هم الذين صبروا ابتغاء وجهِ ربهم، وشرطُ هذا النوع من الصبر رَفْضُ ما يمنع من الوصول، واستدامةُ التوقي منه، فيدخل فيه ترك الشهوات، والتجردُ عن جميع الشواغل والعلاقات، فيصبر عن العِلَّةِ والزَّلةِ، وعن كل شيءٍ يشغل عن الله.

ومما يجب عليه الصبر الوقوفُ على حكم تعزُّزِ الحق، فإنَّه ـ سبحانه ـ يتفضَّلُ على الكافة من المجتهدين، ويتعزز ـ خصوصاً ـ على المريدين، فيمنحهم الصبر في أيام إرادتهم، فإذا صَدَقُوا في صبرهم جَادَ عليهم بتحقيق ما طلبوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.

الأغنياء ينفقون أموالَهم. والعُبَّاد ينفقون نفوسَهم ويتحملون صنوف الاجتهاد، ويصبرون على أداء الفرائض والأوراد. والمريدون ينفقون قلوبهم فيسرعون إلى أداء الفرائض والأوراد ويصبرون إلى أن يبوحَ علم من الإقبال عليهم. وأمَّا المحبون فينفقون أرواحَهم.. وهي كما قيل:

ألستَ لي خَلَفاً؟ كفى شَرَفاً ... فما وراءَكَ لي قَصْدٌ ومطلوبُ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

يعاشرون الناس بِحُسْنِ الخُلُق؛ فيبدأون بالإنصاف ولا يطلبون الانتصاف، وإِنْ عَامَلَهم أحدٌ بالجفاء قابلوه بالوفاء، وإِنْ أذنب إليهم قومٌ اعتذروا عنهم، وإن مرضوا عادوهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

يتم النعمة عليهم بأن يجمع بينهم وبين مَن يُحبون صحبتهم مِنْ أقاربهم وأزواجهم، وقد ورد في الخبر: «المرءُ مع مَنْ أَحَب»[1] فَمَنْ كان محبوبُه أمثالَه وأقاربَه حُشِرَ معهم، ومَنْ كان اليومَ بقلبه مع الله، فهو غداً مع الله، وفي الخبر: «أنا جليسُ مَنْ ذكرني»[2]. وهذا في العاجل، وأمَّا في الآجل، ففي الخبر: «الفقراء الصابرون جُلَسَاءُ الله يومَ القيامةِ».

---

(١) أخرجه البخاري (أدب ٩٦)، ومسلم (بز ١٦٥)، والترمذي (زهد ٥٠)، (دعوات ٩٨) والدارمي (رقاق ٧١)، وأحمد بن حنبل ١/ ٣٩٢، ٣/ ١٠٤، ١١٠، ١٥٩، ١٦٥، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٨، ١٩٢، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٣، ٢٢٢، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٥٥، ٢٦٨، ٢٧٦، ٢٨٣، ٢٨٨، ٣٣٦، ٣٩٤، ٤، ١٠٧، ١٦٠، ٢٣٩، ٢٤٩، ٣٩٢، ٣٩٥، ٤٠٥.

(٢) أخرجه العجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٢٣٢)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/ ٢٨٧)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ٢٤).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.

مَنْ كفر بعد إيمانه نَقَضَ عهدَ الإسلام في الظاهر، ومن رجع إلى أحكام العادة بعد سلوكه طريق الإرادة، فقد نقض عَهْدَه في السِّرّاء... فهذا مُرْتَدٌّ جهراً، وهذا مرتَدٌّ سِرًّا، والمرتد جهراً عقوبته قطعُ رأسِه، والمرتد سِرًّا عقوبته قَطْعُ سِرِّه.

وقوله: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾، هو نقض قوله: ﴿يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ [الرعد: ٢١].

ويقال نقض العهد هو الاستعانة بالأغيار، وتَرْكُ الاكتفاء بالله الجبّار.

ويقال نَقضُ العهد الرجوع إلى الاختيار والتدبير بعد شهودِ الأقدار، وملاحظة التقدير.

ويقال نقض العهد بتَرْكِ نَفْسِه، ثم يعود إلى ما قال بتركه.

قوله جلّ ذكره: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾.

يبسط الرزق للأغنياء ويُطَالِبُهم بالشكر؛ ويُضَيِّقُ على الفقراء ويطالبهم بالصبر. وَعَدَ الزيادةَ للشاكرين، ووعد المَعِيَّة للصابرين. للأغنياء الأموال بمزيدها، وللفقراء التجرد في الدارين عن طريفها وتليدها.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾.

فَرِحَ الأغنياءُ بزكاء أموالهم، وفَرِحَ الفقراءُ بصفاء أحوالهم.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ قليلٌ بالإضافة إلى ما وعدهم الله؛ فأموالُ الأغنياء - وإنْ كَثُرَت - قليلةٌ بالإضافة إلى ما وَعَدَهم من وجود أفضاله، وأحوال الفقراء - وإنْ صَفَتْ - قليلة بالإضافة إلى ما وعدهم من شهود جماله وجلاله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾.

﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾: وهم الذين لم يشهدوا ما أعطى نبينا - ﷺ - من الشواهد والبرهان حتى (...)[1] الزيادة.

﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٤٦]: وهم الذين أبصروا بعيون أسرارهم ما خُصَّ به من الأنوار فسكنوا بنور استبصارهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

---

(١) بياض في الأصل.

قومٌ اطمأنت قلوبُهم بذكرهم الله، وفي الذكر وَجَدُوا سَلْوَتَهم، وبالذكر وصلوا إلى صفوتهم. وقومٌ اطمأنت قلوبُهم بذكر الله فَذَكَرَهُمْ الله ـ سبحانه ـ بلطفه، وأَثْبَت الطمأنينةَ في قلوبهم على وجه التخصيص لهم.

ويقال إذا ذكروا أَنَّ اللَّهَ ذَكَرَهم استروحت قلوبُهم، واستبشرت أرواحُهم، واستأنست أسرارُهم، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ لِمَا نالت بِذِكْرِهِ من الحياة، وإذا كان العبدُ لا يطمئن قلبُه بذكر الله، فذلك لِخَلَلٍ في قلبه، فليس قلبه بين القلوب الصحيحة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾.

طابت أوقاتُهم وطابت نفوسُهم.

ويقال طوبى لمن قال له الحقُّ: طوبى.

طوبى لهم في الحال، وحُسْنُ المآب في المآل.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾.

لئن أرسلناك بالنبوة إليهم فلقد أرسلنا قبلك كثيراً من الرسل، ولئن أصابك منهم بلاءٌ فلقد أصاب مَنْ قَبْلَكَ كثيرٌ من البلاء، فاصْبِرْ كما صَبَرُوا تُؤْجَرْ كما أُجِرُوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾.

لئن كفروا بنا فآمِنْ أنت، وإذا آمنتَ فلا تبالِ بِمَنْ جَحَد، فإِنَّك أنت المقصودُ من البَرِيَّة، والمخصوصُ بالرسالة والمحبة.

لو كان يجوز في وصفنا أن يكون لنا غرضٌ في أفعالنا.

ولو كان الغرض في الخِلْقَة فأنت سيد البَشَر، وأنت المخصوص من بين البشرية بحسن الإقبال، فهذا مخلوق يقول في مخلوق:

وكنتُ أَخَّرْتُ أوطاري لوقت ... فكان الوقت وقتك والسلام[1]

وكنت أطالِبُ الدنيا بِحُبٍّ ... فكنتَ الحُبَّ.. وانقطع الكلام

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾.

---

(١) الأوطار: (ج) الوطر: الحاجة والبغية.

لو كان شيء من المخلوقات يظهر بغيرنا في الإيجاد لكان يحصل بهذا القرآن، ولكن المنشىء الله، والخير والشر جملةً من الله، والأمر كله لله. فإذا لم يكن شيء من الحدثان بالقرآن ـ والقرآن كلام الله العزيز ـ فلا تكون ذرة من النفي والإثبات لمخلوق.. فإن ذلك محال.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾.

معناه أفلم يعلم الذين آمنوا، ويقال أفلم ييأسوا من إيمانهم وقد علموا أنه من يهديه الحق فهو المهتدي؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

يعني شؤمُ كُفرِهم لا يزال واصلاً إليهم، ومقتصُّ فعلهم لاحِقٌ بهم أبداً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

أنزل هذه الآية على جهة التسلية للرسول ـ ﷺ ـ عما كان يلاقيه منهم. وكما أن هؤلاء في التكذيب جَرَوْا على نهجهم فنحن أَدَمْنَا سُنَّتَنا في التعذيب معهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ﴾.

الجواب فيه مضمر؛ أي أفمن هو مُجْرِي ومنشىء الخَلْقِ والمُطَّلِعُ عليهم، لا يَخْفَى عليه منهم شيءٌ كَمَنْ ليس كذلك؟ لا يستويان غداً أبداً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ﴾.

قُلْ لهم أروني أي تأثير منهم، وأي نفع لكم فيهم، وأي ضرر لكم منهم؟ أتقولون ما يعلم الله بخلافه؟ وهذا معنى قوله: ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

أي قد تبين لكم أن ذلك من كيد الشيطان، وزين للذين كفروا مكرهم، وصاروا مصدودين عن الحق، مسدودة عليهم الطُّرُقُ، فإنَّ مَنْ أَضلَّه حُكْمُه ـ سبحانه ـ لا يهديه أحدٌ قطعاً[1].

---

(١) الآية (٣٤) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾.

المَثَلُ أي الصفة، فصفة الجنة التي وعد المتقون هي أنها جنة تجري من تحتها الأنهار، وأُكُلُها دائم وظلها دائم، أي أن اللذاتِ فيها متصلةٌ. وإنما لهم جنات معجلة ومؤجلة، فالمؤجَّلَةُ ما ذكره الله ـ سبحانه ـ في نص القرآن، والمعجلة جنة الوقت.. والدرجات ـ من حيث البسط ـ فيها متصلة، ونفحاتُ الأُنْسِ لأربابها لا مقطوعة ولا ممنوعة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾.

يريد بهم مؤمني أهل الكتاب الذين كانوا يفرحون بما ينزل من القرآن لصدق يقينهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾.

أي الأحزاب الذين قالوا كان محمد يدعو إلى إله واحد، فالآن هو ذا يدعو إلى إلهين لمَّا نزل: ﴿قُلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠].

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾.

قل يا محمد: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾. والعبوديةُ المبادرة إلى ما أُمِرْتُ به، والمحاذرة مما زجُرْتُ عنه، ثم التبرّي عن الحَوْل والمُنَّة، والاعتراف بالطوْل والمِنَّة.

وأصل العبودية القيام بالوظائف، ثم الاستقامة عند رَوْح اللطائف.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾.

أي حُكْماً ببيان العرب؛ لأنَّ اللَّهَ تعالى أرسل الرسلَ في كلِّ وقتٍ كُلاً بلسان قومه ليهتدوا إليه.

ويقال مِنْ صفات العرب الشجاعة والسخاء ومراعاة الذِّمام، وهذه الأشياء مندوبٌ إليها في الشريعة.

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾: أي ولئن وافقتهم، ولم تعتصم بالله، ووقَعَتْ على قلبك حشمةٌ من غير الله ـ فَمَا لَكَ من واقٍ من الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

أي أرسلنا رسلاً من قبلك إلى قومهم، فلم يكونوا إلا من جنسك، وكما لكم

أزواج وذرية كانت لهم أزواج وذرية، ولم يكن ذلك قادحاً في صحة رسالتهم، ولا تلك العلاقات كانت شاغلة لهم.

ويقال إن من اشتغل بالله فكثرة العيال وتراكم الأشغال لا تؤثر في حاله؛ ولا يضره ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾.

أي لكل شيء أجل مثبت في كتاب الله وهو المحفوظ، وله وقت قُسِمَ له، وأنه لا اطلاعَ لأحدٍ على علمه، ولا اعتراضَ لأحدٍ على حُكْمه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

المشيئة لا تتعلق بالحدوث، والمحو والإثبات متصلان بالحدوث.

فصفات ذات الحق ـ سبحانه ـ من كلامه وعلمه، وقوْلِه وحُكْمِه لا تدخل تحت المحو والإثبات، وإنما يكون المحو والإثبات من صفات فعله؛ المحوُ يرجع إلى العَدَم، والإثباتُ إلى الإحداثِ، فهو يمحو من قلوب الزُّهاد حُبَّ الدنيا ويُثْبِتُ بَدَلَه الزهدَ فيها، كما في خبر حارثَةَ: «عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حَجَرُها وذَهَبُها».

ويمحو عن قلوب العارفين الحظوظَ، ويُثْبِتُ بدلها حقوقَه تعالى، ويمحو عن قلوب المُوحِّدين شهودَ غير الحق ويثبت بَدَلَه شهود الحق، ويمحو آثار البشرية ويثبت أنوار شهود الأحدية.

ويقال يمحو العارفين عن شواهدهم، ويثبتهم بشاهد الحق.

ويقال يمحو العبد عن أوصافه ويثبته بالحقّ فيكون محواً عن الخَلق مثبتاً بالحق للحق.

ويقال يمحو العبد فلا يجري عليه حكم التدبير، ويكون محواً بحسب جريان أحكام التقدير، ويثبت سلطانَ التصديق والتقليب بإدخال ما لا يكون فيه اختيار عليه على ما يشاء.

ويقال يمحو عن قلوب الأجانب ذِكْرَ الحق، ويثبت بَدَلَه غلباتِ الغفلةِ وهواجِمَ النسيان.

ويقال يمحو عن قلوب أهل الفترة ما كان يلوح فيها من لوامع الإرادة، ويثبت بدلها الرجوعَ إلى ما خرجوا عنه من أحكام العادة.

ويقال يمحو أوضارَ[1] الزَّلَّة عن نفوس العاصين، وآثار العصيان عن ديوان

(١) الأوضار: (ج) الوضر: الوسخ من الدسم أو غيره.

المذنبين (ويثبت) يدل ذلك لَوْعَةَ النَّدم، وانكسار الحَسْرَةِ، والخمودَ عن متابعة الشهوة.

ويقال يمحو عن ذنوبهم السيئةَ، ويثبت بدلها الحسنة، قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ [الفرقان: ٧٠].

ويقال يمحو الله نضارةَ الشباب ويثبت ضعفَ المشيب.

ويقال يمحو عن قلوب الراغبين في مودة أهل الدنيا ما كان يحملهم على إيثار صحبتهم، ويثبت بدلاً منه الزهد في صحبتهم والاشتغال بعِشْرَتِهم.

ويقال يمحو الله ما يشاء من أيام صَفَتْ من الغيب، وليالٍ كانت مُضاءةً بالزلفة والقربة ويثبت بدلاً من ذلك أياماً في أشدُّ ظلاماً من الليالي الحنادس(١)، وزمانا يجعل سَعَةَ الدنيا عليهم محابِس.

ويقال يمحو العارفين بكشف جلاله، ويثبتهم في وقت آخر بلطف جماله.

ويقال يمحوهم إذا تجلّى لهم، ويثبتهم إذا تعزَّز عليهم.

ويقال يمحوهم إذا ردَّهم إلى أسباب التفرقة لأنهم يبصرون بنعت الافتقار والانكسار، ويثبتهم إذا تجلّى لقلوبهم فيبصرون بنعت الاستبشار، ويشهدون بحكم الافتخار.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

قيل اللوح المحفوظ الذي أثبت فيه ما سبق به عِلْمُه وحُكْمُه مما لا تبديلَ ولا تغييرَ فيه.

ويقال إنه إشارة إلى علمه الشامل لكل معلوم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾.

نفي عنه الاستعجال أمراً، و (.....)(٢) في قلوبهم أنه يوشك أن يجعل الموعود جهراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

في التفاسير: بموت العَلماء، وفي كلام أهل المعرفة بموت الأولياء، الذين إذا أصاب الناسَ بلاءٌ ومحنةٌ فزعوا إليهم فيدعون الله ليكشف البلَاءَ عنهم.

---

(١) الحنادس: (ج) الحندس: الليل الشديد الظلمة.

(٢) بياض في الأصل.

ويقال هو ذهابُ أهلِ المعرفة حتى إذا جاء مسترشِدٌ في طريق الله لم يجد مَنْ يهديه إلى الله.

ويقال: في كل زمان لسانٌ ينطق عن الحقِّ سبحانه، فإذا وَقَعَتْ فترةٌ سكنَ ذلك اللسانُ ـ وهذا هو النقصان في الأطراف الذي تشير إليه الآية، وأنشد بعضهم:

طوى العصران ما نشراه مني وأبلى جدتي نشرٌ وطيُّ

أراني كلَّ يومٍ في انتقاصٍ ولا يبقى مع النقصان شيءُ

ويقال ينقصها مِنْ أطرافها أي بفتحِ المدائن وأطراف ديار الكفار، وانتشار الإسلام، قال تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الفتح: ٢٨].

ويقال ينقصها من أطرافها بخرابِ البلدان، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] وقال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] فموعودُ الحقِّ خرابُ العَالَم وفناءُ أهلِه، ووعدُه حقٌّ لأن كلامَه صِدْقٌ، واللَّهُ يحكم لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِه، ولا ناقِضَ لما أبرمه، ولا مُبْرِمَ لِمَا نَقَضَه، ولا قابلَ لِمَنْ رَدَّه، ولا رادَّ لِمَنْ قَبِلَه ولا مُعِزَّ لِمَنْ أهانه، ولا مُذِلَّ لمن أَعَزَّه.

﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١]: لأن ما هو آتٍ فقريب.

ويقال ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١] في الدنيا؛ لأنَّ الأولياءَ إذا ألموا بشيءٍ، أو هَمُّوا لمزجورٍ عُوتِبُوا في الوقت، وطولِبوا بِحُسْنِ الرُّجعي.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

مكرُهم إظهارُ الموافقة مع إسرارهم الكُفرَ، ومكرُ الله بهم تَوَهُّمُهُم أنهم مُحْسِنون في أعمالهم، وحسبانهم أنهم سَنأْمَنُ أحوالُهم، وظَنُّهم أنه لا يحيق بهم مكرُهم، وتخليتُه إياهم ـ مع مَكرِهم ـ مِنْ أَعْظَم مَكْرِه بهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

وَبالَ تكذيبِهم عائدٌ إليهم، فإنَّ اللَّهَ شهيدٌ لَكَ بِصَدْقِك. ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هو الله سبحانه وتعالى عنده عِلْمُ جميع المؤمنين. فالمعنى كفى بالله شهيداً فعنده علم الكتاب وكفى بالمؤمنين شهيداً؛ إذ المؤمنون يعلمون ذلك.

السورة التي يذكر فيها إبراهيم عليه السلام

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله معناه بالله؛ فقلوب العارفين بالله إشراقُها، وقلوب الوالهين بالله احتراقُها، لهؤلاء فا (. . .)[1] محبته، ولهؤلاء شوقاً إلى عزيز رؤيته.

وأصحاب الوصول قالوا: بالله. . فَوَصلَ من الطالبين مَنْ وصل.

قوله جلّ ذكره: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

أقسم بهذه الحروف: إنَّه لَكِتَابٌ أُنزِل إليك لتُخرِجَ الناسَ به من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومِنْ ظُلماتِ الشَّكِّ إلى نور اليقين، ومن ظلمات التدبير إلى فضاء شهود التقدير، ومن ظلمات الابتداع إلى نور الاتباع، ومن ظلمات دَعَاوَى النَّفْسِ إلى نورِ معارفِ القلب، ومن ظلمات التفرقة إلى نور الجَمْعِ ـ بإذن ربهم، وبإرادته ومشيئته، وسابقِ حُكْمِه وقضائه إلى صراط رحمته، وهو نهج التوحيد وشواهد التفريد.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

عرَّف الخَلْقَ أنَّ اللَّهَ هو الذي له ما في السمٰوات وما في الأرض.

فَمَنْ عَرَف فله المآب الحميد، ومَنْ جَحَدَ فله العذاب الشديد؛ وذلك العذاب هو جَهْلُه بأنه ـ سبحانه ـ مَنْ هو.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾.

ثم ذكر ذميمَ أخلاقِهم، فقال: هُمُ الذين يُؤْثِرُونَ اليسيرَ مِنْ حُطَام الدنيا على الخطير من نِعَم الآخرة، وذلك من شدة جُحْدِهم، ويبغون للدِّين عِوَجاً بكثرة جَمْعِهم، أولئك لهم في الدنيا الفراق وهو أشد عقوبة، وفي الآخرة الاحتراق وهو أجلُّ محنة ومصيبة.

---

(١) بياض في الأصل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

إنما كان كذلك ليكون آكَدَ في إلزام الحجة: وأنَّى ينفع ذلك إذا لم يُوَفَّقُوا لِسُلُوكِ المحجَّةِ؟ فأهلُ الهدايةِ فازوا بالعنايةِ السابقة، وأصحابُ الغواية وقعوا في ذُلِّ العداوة: فلا اعتراضَ عليه فيما يصنع، ولا يُسأَلُ عما يفعل أو لم يفعل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

أَخْرِجْ قومَك بدعوتك من ظلمات شكهم إلى نور اليقين، ومنْ إشكالِ الجهل إلى رَوْحِ العِلْم. وذَكِّرْهُم بأيام الله؛ ما سلف لهم من وقت الميثاق، وما رفع عنهم من البلاء في سابق أحوالهم.

ويقال ذكِّرْهُم بأيام الله وهي ما سبق لأرواحهم من الصفوة وتعريف التوحيد قبل حلولها في الأشباح:

سقياً لها ولطيبها ولحسنها وبهائها
أيــــــام لـــــــم (.....)[1]

ويقال ذكِّرهم بأيام الله وهي التي كان العبدُ فيها في كتم العدم، والحق يتولَّى عباده قبل أن يكون لِلعَبادِ فِعْلٌ؛ فلا جُهْدَ للسابقين، ولا عناءَ ولا تَرْكَ للمقتصدين، ولا وقع من الظالم لنفسه ظلم.

إذ كان متعلق العلم متناول القدرة، والحكم على الإرادة.. ولم يكن للعبد اختيار في تلك الأيام.

قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

﴿صَبَّارٍ﴾: راضٍ بحكمه واقف عند كون لذيذ العيش يَسُرُّه.

﴿شَكُورٍ﴾: محجوبٌ بشهود النِّعم عن استغراقه في ظهور حقه.. هذا واقفٌ مع صبره وهذا واقف مع شكره، وكلٌّ مُلْزَمٌ بحده وقَدْرِه: والله غالب على أمره، مقدَّسٌ في نَفْسِه مُتعزِّزٌ بجلال قُدْسِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

---

(١) بياض في الأصل.

تَذَكُّرُ ما سَلَفَ من النِّعَم يوجِبُ تجديد ما سَبقَ من المحبة، وفي الخبر: «جُبِلَتْ القلوبُ على حُبِّ مَنْ أحسن إليها»[١]؛ فالحقُّ أَمَرَ موسى عليه السلام. بتذكير قومه ما سبق إليهم من فنون إنعامه، ولطائف إكرامه.. وفي بعض الكتب المنزلة على الأنبياء ـ عليهم السلام: «عبدي، أنا لَكَ مُحِبُّ فبحقي عليكَ كنْ لي محباً».

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

إن شكرتم لأزيدنكم من إنعامي وإكرامي، وإن كفرتم بإحساني لأعذبنكم اليوم بامتحاني، وغداً بفراقي وهجراني.

لئن عرفتم وصالي لأزيدنكم من وجود نوالي إلى شهود جمالي وجلالي.

ويقال لئن شكرتم وجوه توفيق العبادة لأزيدنكم بتحقيق الإرادة.

ويقال لئن شكرتم شهود المَكَافِي لأزيدنكم بشهود أوصافي.

ويقال لئن شكرتم صنوف إنعامي لأزيدنكم بشهود إكْرَامِي ثم إلى شهود إِقْدَامي.

ويقال لئن شكرتم مختص نعمائي لأزيدنكم مُنْتَظرَ آلائي.

ويقال لئن شكرتم مخصوصَ نِعَمي لأزيدنكم مأمول كَرَمِي.

ويقال لئن شكرتم ما خَوَّلناكُم من عطائي لأزيدنكم ما وعدناكم من لقائي.

ويقال لئن شكرتم ما لَوَّحتُ في سرائركم زِدْناكُم ما أَلْبسْنَا من العصمة لظواهركم.

ويقال لئن كفرتم نِعْمَتِي بأَنْ توهمتم استحقاقَها لَجَرَّعْنَاكم ما تَسْتَمِرُّون مذاقها.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

إن اجتمعتم أنتم ومن عَاضَدَكَم، وكل من غاب عنكم وحضركم، والذين

(١) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٩/ ٥٥٤)، وابن كثير في (البداية والنهاية ١١/ ٥٨، ١٢/ ١٣)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٤٤١٠٢)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٤/ ٢٧٧، ١١/ ٩٤)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٤/ ١٢١)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ١٧٠)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ٦٧)، والفتني في (تذكرة الموضوعات ٦٨)، والشوكاني في (الفوائد المجموعة ٨٢)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٣٩٥)، وابن أبي حاتم الرازي في (علل الحديث ٢٥٢٣)، والألباني في (السلسلة الضعيفة ٦٠٠)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٢/ ٧٠١).

يقتفون أثركم ـ على أن تكفروا بالله جميعاً، وأخذتم كل يوم شركاء قطيعاً ـ ما أوجهتم لِعزِّنا شَيْنا، كما لو شكرتم ما جعلتم بِمُلْكِنا زَيْنا. والحقُّ بنعوته ووصف جبروته عَليٌّ وعن العالَمِ بأَسْرِه غنيٌّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾.

استفهام في معنى التقرير. أخبره أنه لما جاءتهم الرسلُ قابلوهم بالكنود. وعاملوهم بالجحود وردوا أيديهم في أفواههم، وحَذَوْا سبيلَ أمثالهم في الكفر، وبنوا على الشك والريبة قواعدَهم، وأسسوا على الشِّرْكِ والغَيِّ مذاهبهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

استفهام والمراد منه توبيخ ونفي. سبحانه لا يتحرك نَفَسٌ إلا بتصريفه.

وكيف يبصر جلالَ قَدْرِهِ إلا من كَحَّله بنور بِرِّه؟

ثم قال. ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾: ليس العجب ممن تكلف لسيده المشاق وتحمل ما لا يطاق، وألّا يهربَ من خدمةٍ أو يجنحَ إلى راحة.. إنما العَجَبُ من سيدٍ عزيزٍ كريم يدعو عَبْدَه ليغفرَ له وقد أخطأ، ويعاملَه بالإحسانِ وقد جفا.

والذي لا يَكُفُّ عن العناد، ولا يؤثر رضاءَ سيده على راحة نفسه لا يُحْمَلُ هذا إلا على قِسمةٍ بالشقاء سابقة.. وإن أحكام الله بردِّه صادقة. ثم أخبر أنهم قالوا لِرُسُلِهِم:.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

نظروا إلى الرسل من ظواهرهم، ولم يعرفوا سرائرهم، ومالوا إلى تقليد أسلافهم، وأصروا على ما اعتادوه من شقاقهم وخلافهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

قالت لهم الرسلُ ما نحن إلا أمثالكم، والفرق بيننا أنه ـ سبحانه ـ مَنَّ علينا بتعريفه، واسْتخلَصنا بما أَفْرَدَنا به من تشريفه. والذي اقترحتم علينا من ظهور الآيات

فليس لنا إلى الإتْيَانِ به سبيلٌ إلّا أن يُظهِرَه الله علينا إذا شاء بما شاء ـ وهو عليه قدير.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾: وقد رقَّانا من حدِّ التكليف بالبرهان إلى وجود روح البيان بكثرة ما أفاض علينا من جميل الإحسان، فكفانا من مهان الشان. ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾: وقد حقَّق لنا ما سبق به الضمان من وجود الإحسان، وكفاية ما أظلَّنا من الامتنان. ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ولم نخرج إلى التقاضي على الله فيما وعدنا الله.

قوله: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ﴾: والصبر على البلاءَ يهون إذا كان على رؤية المُبْلِي، وفي معناه أنشدوا:

يستقدمون بلاياهم كأنهمُ ... لا ييأسون من الدنيا إذا قبلوا

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

لما عجز الأعداءُ عن معارضة الأنبياء عليهم السلام في الإتيان بمثل آياتهم أخذوا في الجفاء معهم بأنواع الإنذار، والتهديد بفنون البلاء من الإخراج عن الأوطان، والتشريد في البلدان. وبسط الله على قلوبهم بوعد نصره ولقائه ما أظلَّهم من الأمر، ومَكَّن لهم من مساكن أعدائهم بما قَوَّى قلوبهم على الصبر على مقاساة بلائهم فقال: ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وقال:

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾: أي خاف مقامه في محل الحساب غداً فأناب إلى نفسه على وجه التخصيص.

ويقال خاف مقامي أي هاب إطلاعي عليه، فالأول تذكير المحاسبة في الآجل، والثاني تحقيق المراقبة في العاجل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

الاستفتاح طلب الفتح، والفتح القضاء، واستعجلوا حلول القضاء مثل قولهم: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] وغيره فلما نزل بهم البلاء، وتحقق لهم الأمر لم ينفعهم تضرعهم وبكاؤهم، ولم تُقْبَلْ منهم صدقتُهم وفداؤهم، وندموا حين لا ندامة، وجزعوا بعدما عَدِموا السلامة.

ويقال: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾: بغير الرسل، ولما وجد الرسل إصرارَ قومهم سألوا

النصرة عليهم من الله كقول نوح ـ عليه السلام: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، وقول موسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [يوسف: ٨٨] فأجابهم الله بإهلاكهم.

ويقال إذا اشتد البلاءُ وصَدَقَ الدعاءُ قَرُبَ النَّجاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾.

لفظ «وراء» يقع على ما بين يديه وعلى ما خَلْف، والوراء ما توارى عليك أي استتر؛ يريد الكافر يأتيه العذاب فيما بين يديه من الزمان، وعلى ما خَلْفَه؛ أي لأجل ما سلف من الماضي من قبيح أفعاله، ويُسْقَى من النار ما يشربه جرعة بعد جرعة، فلصعوبته ومرارته لا يشربه مرةً واحدةً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ﴾.

يرى العذابَ ـ من شدته ـ في كل عضو، وفي كل وقت، وفي كل مكان. وليس ذلك الموت؛ لأنَّ أهلَ النار لا يموتون، ولكنه في الشدة كالموت. ثم ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ﴾: وهو الخلود في النار، وهذا جزاء مَنْ اغترَّ بأيامٍ قلائل ساعدته المشيئةُ فيها، وانخدع فلم يشرع بما يليها.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾.

أي وفيما يُتْلَى عليكَ ـ يا محمد ـ مَثَلٌ لأعمال الكفار في تلاشيها، وكيف أنه لا يُقْبَلُ شيءٌ منها كَرَمَادٍ في يوم عاصف، فإنه لا يَبْقَى منه شيء ـ كذلك أعمالُهم. ومَنْ كان كذلك فقد خاب في الدارين، وحلَّ عليه الويل.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾.

خَلَقَ السمواتِ والأرضَ بالحُكْمِ الحق، أي له ذلك بحقِّ ملكه، وخلقهما بقوله الحق؛ فجعل كلَّ جزءٍ منهما على وحدانيته دليلاً، ولِمَنْ أراد الوصول إلى ربِّه سبيلاً.

ثم قال: إنْ يَشَأْ يذهبكم بالإفناء، ويأتِ بِخَلْقٍ جديدٍ في الإنشاء، وليس ذلك عليه بعزيز... وأنَّى ذلك وهو على كل شيء قدير؟![1].

---

(١) الآية (٢٠) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ . . .﴾.

لم يكونوا عن الحقّ ـ سبحانه ـ متسترين حتى يظهروا له، ولكن معناه صارت معارفهم ضرورية فحصلوا في مواطن لم يكن لغير الله فيها حكم، فصاروا كأنهم ظهروا لله. فقال الضعفاء للذين استكبروا: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ توهماً أن يرفعوا عنهم شيئاً من العناء، فأجابهم المتكبرون: إنَّا جميعاً في العذاب مشتركون، ولو أمكننا أنْ ترفعَ عنكم من العذاب، وقدرنا على أن نهديَكُم إلى طريق النجاة لنجيناكم مما شكوتم، وأجبناكم إلى ما سألتم، ولكنكم لستم اليوم لنا بمصرخين، ولا نحن لكم بمغيثين، ولا لما تدعونا إليه بمستجيبين. . .

فلا تلومونا ولوموا أنفسكم، ولات حين ملام! إنما ينفع لومُ النَّفْس فيما تتعاطاه من الإساءة في زمان المُهْلَةِ وأوقات التكليف؛ فإنَّ أبوابَ التوبةِ مفتوحة، ولكن لمن لم ينزع روحَه[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾.

ذلك الذي مضى ذِكْرُ صفةُ الكفار والأعداء. وأمَّا المؤمنون والأولياء، فقال: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ والإيمان هو التصديق، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ تحقيق التصديق. ويدخل في جملة الأعمال الصالحة ما قلَّ أو كَثُرَ من وجوه الخيرات حتى القَذَر تميطه[2] عن الطريق.

و ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ ـ وكذلك قال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٧]، فالوصفُ العام والتحيةُ لهم من الله السلامُ.

ويقال إن أحوالهم متفاوتة في الرتبة؛ فقومُ سَلِمُوا من الاحتراق ثم من الفراق ثم من العذاب ثم من الحجاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾.

هذا مثل ضربه الله للإيمان والمعرفة به سبحانه، فشبهه بشجرة طيبة، وأصل تلك الشجرة ثابت في الأرض وفروعها باسقة وثمراتها وافية. تؤتى أكلها كل وقت، وينتفع بها أهلُها كل حين.

(١) الآية (٢٢) لم ترد.

(٢) أماطه: نحاه وأبعده.

وأصل تلك الشجرة المعرفة، والإيمان مُصَحَّحاً بالأدلة والبراهين. وفروعها الأعمال الصالحة التي هي الفرائض ومجانبة المعاصي.

والواجب صيانة الشجرة مما يَضُرُّ بها مثل كشف القِشْر وقَطْع العِرْق وإملاق الغصن وما جرى مجراه.

وأوراق تلك الشجرة القيام بآداب العبودية، وأزهارها الأخلاق الجميلة، وثمارها حلاوة الطاعة ولذة الخدمة.

وكما أن الثمار تختلف في الطَّعم والطبع والرائحة والصورة.. كذلك ثمرات الطاعات ومعاني الأشياء التي يجدها العبدُ في قلبه تختلف من حلاوة الطاعة وهي صفة العابدين، والبسط الذي يجده العبدُ في وقته وهو صفة العارفين، وراحةٍ في الضمير وهو صفة المريدين، وأُنسٍ يناله في سِرِّه وهو صفة المحبين. وقلقٍ واهتياج يجدهما ولا يعرف سببهما، ولا يجد سبيلاً إلا سكونه وهو صفة المشتاقين... إلى ما لا يفي بشرحه نطقٌ، ولا يستوفيه تكلُّفُ قَوْلٍ. وذكرٍ من لوائح ولوامع، وطوارق وشوارق، كما قيل:

طوارق أنوار تلوح إذا بدت فتُظْهِرُ كتمانا وتُخْبِرُ عن جمع

ثم إن ثمراتِ الأشجار في السنة مرة، وثمرات هذه الشجرة في كل لحظة كذا كذا مرة. وكما قال الله تعالى في ثواب الجنة: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٣] كذا لطائف هذه الشجرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، وقلوب أهل الحقائق عنها لا مصروفة، ولا محجوبة، وهي في كل وقت ونَفَسٍ تبدو لهم غيرَ محجوبة.

وثمرات الشجرة أشرف الثمار، وأنوارها ألطف وأظرف الأنوار، وإشارات أهل هذه القصة وألفاظهم في مراتبهم ومعانيهم كالرياحين والنَّوْر.

ويقال الكلمة الطيبة هي الشهادة بالإلهية، وللرسول - ﷺ - بالنبوة. وإنما تكون طيبة إذا صدرت عن سرٍّ مخلص.

والشجرة الطيبة المعرفة، وأصلها ثابت في أرضٍ غير سبخةٍ، والأرض السبخة قلب الكافر والمنافق، فالإيمان لا ينبت في قلبيهما كما أن الشجرة في الأرض السبخة لا تنبت. ثم لا بدَّ للشجرة من الماء، وماء هذه الشجرة دوام العناية، وإنما تُورِقُ بالكفاية، وتَتَوَرَّدُ بالهداية.

ويقال ماءُ هذه الشجرة ماءُ الندمِ والحياءِ والتلهفِ والحسرةِ والأمانة والخشوع وإسبال الدموع.

ويقال ثمرات هذه الشجرة مختلفة بحسب اختلاف أحوالهم؛ فمنها التوكل

والتفويض والتسليم، والمحبة والشوق والرضا، والأحوال الصافية الوافية، والأخلاق العالية الزكية.

ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة هي كلمة الكفر، وخبثُها ما صحبها من نجاسة الشِّرك، فَخُبْث الكلمة لصدورها عن قلبٍ هو مُسْتَقَرُّ الشِّرْكِ ومنبعه.

والشجرة الخبيثة هي الشِّرْكُ اجتُثَّ[1] من فوق الأرض؛ لأن الكفر متناقض متضاد، ليس له أصل صحيح، ولا برهان موجب، ولا دليل كاشف، ولا علة مقتضية، وإنما شُبَهٌ وأباطيل وضلال، تقتضي وساوسَ وتسويلاتٍ ما لها من قرار، لأنها حاصلة من شُبَهٍ واهية وأصول فاسدة.

قوله جلّ ذكره: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾.

بالقول الثابت وهو البقاء على الاستقامة، وترك العِوَج.

ويقال القول الثابت هو الشهادة الضرورية عن صفاء العقيدة وخلوص السريرة.

ويقال القول الثابت هو بنطق القلوب لا بذكر اللسان.

ويقال القول الثابت هو قول الله العزيز القديم الذي لا يجوز عليه الفناء والبطول فهو بالثبوت أَوْلَى من قول العبد؛ لأن قولَ العبد أَثَرٌ، والآثار لا يجوز عليها الثبوت والبقاء وإنما يكون باقياً حُكْماً ثباتُ العبد لقول الله؛ وهو حكمه بالإيمان وأخباره أنه مؤمن وتسميته بالإيمان. وقول الله لا يزول؛ ففي الدنيا يثبتُه حتى لا بِدْعَةَ تعتريه، وفي الآخرة يثبتُه برسله من الملائكة، وفي القيام يثبتُه عند السؤال والمحاسبة وفي الجنة يثبتُه لأنه لا يزول حمد العبد لله، ومعرفته به. وإذا تنوعت عليه الخواطر ورفع إليه ـ سبحانه ـ دعاءه ثَبَّتَه حتى لا يحيد عن النهج المستقيم والدين القويم.

ويقال إذا دَعَتْه الوساوسُ إلى متابعةِ الشيطان، وصيَّرتْه الهواجسُ إلى موافقة النَّفْس فالحق يثبته على موافقة رضاه.

ويقال إذا دَعَتْه دواعي المحبة من كل جنس كمحبة الدنيا، أو محبة الأولاد والأقارب والأموال والأحباب أعانه الحقُّ على اختيار النجاة منها، فيترك الجميع، ولا يَتَحسَّسُ إلا دواعيَ الحقِّ ـ سبحانه كما قيل:

إذا ما دَعَتْنا حاجةٌ كي تردَّنا أبيْنا وقلنا: مطلبُ الحقِّ أَوَّلا

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾.

---

(١) الجث: القطع أو انتزاع الشجر من أصله.

وضعوا الكفران محل الشكر، فاستعملوا النعمة للكفر، بدلاً من استعمالها فيما كان ينبغي لها من الشكر. واستعمال النعمة في المعصية من هذه الجملة، فأعضاءُ العبد كلها نِعَمٌ من الله على العبد، فإذا استعمل العاصي بَدَنَه في الزَّلة بدلاً من أن يستعملها في الطاعة فقد بَدَّلَ النعمة كفراً، وكذلك إذا أودع الغفلَة قلبَه مكانَ المعرفة، والعلاقَة فيه مكان الانقطاع إليه، وعَلَّقَ قلبه بالأغيار بَدَلَ الثقة به، ولَطَّخَ لسانَه بذكر المخلوقين ومَدْحِهِم بَدَلَ ذكرِ الله واشتغل بغير الله دون العناء في ذكره... كلُّ هذا تبديلُ نِعَم الله كفراً. وإذا كان العبدُ منقطعاً إلى الله، مكفياً من قِبَلِ الله.. وَجَدَ في فراغه مع الله راحةً عن الخَلْق، ومن إقباله عليه ـ سبحانه ـ كفاية، فإذا رجع إلى أسباب التفرقة، ووقع في بحار الاشتغال ومعاملة الخلْق ومدحهم وذمهم فقد أحلَّ قومه دار البوار؛ على معنى إيقاعه قلبَه ونَفْسَه وجوارحَه في المذلة من الخَلْق، والمضرة في الحال، وشأنه كما قيل:

ولم أرَ قَبْلي مَنْ يُفَارِقُ جَنَّةً ... ويقرع بالتطفيل بابَ جهنمِ

قوله جلّ ذكره: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾.

وهي الجحيم المُعجَّل.. وعذابُها بها الفُرْقَة لا الحُرْقَة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

. رضوا بأن يكون معمولُهم معبودَهم، ومنحوتُهم مقصودَهم، فضلُّوا عن نَهج الاستقامة، ونأوا عن مقر الكرامة وسيلقون غِبَّ ما صنعوا يوم القيامة كما قيل:

قد تركناكَ والذي تريد. ... فعسى أن تَمَلَّهُم فتعودا

قل تمتعوا أياماً قليلة فأيامُ السرور قِصارٌ، ومُتَعُ الغفلة سريعة الانقضاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾.

جعل الله راحةَ العبدِ ـ اليومَ ـ بكمالها في الصلاة؛ فإنَّها محلُّ المناجاة، قال الرسول ﷺ: «أَرِحْنا يا بلال بالصلاة»[1] والصلاة استفتاح باب الرزق، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ﴾ [طه: ١٣٢].

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٥/ ٣٦٤ ـ ٣٧١)، والطبراني في (المعجم الكبير ٦/ ٣٤٠) وابن كثير في (التفسير ٥/ ٤٥٦)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ١/ ١٤٥)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ١٠/ ٤٤٣ ـ ٤٤٤)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/ ١٦٥)، (تحذير الخواص ٣٣)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ١٦)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٣/ ١٣٧).

وفي الصلاة يبث العبد أسرارَه مع الحق؛ فإذا كان لقاءُ الإخوان ـ كما قالوا ـ مَسْلَاةً لهم فكيف بمناجاتك مع الله، ونشر قصتك بين يديه؟ كما قيل:

قُلْ لي بألسنة التَنَفُّسِ ... كيف أنت وكيف حالك؟

﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾: أمرهم بإنفاق اللسان على ذكره، وإنفاق البَدَنِ على طاعته، والوقتَ على شكره، والقلبَ على عرفانه، والروح على حبه، والسِّرَّ على مشاهدته. . ولا يكلِّف الله نَفْساً إلا ما آتاها، وإنما يطالبك بأن تحضر إلى الباب، وتقف على البساط بالشاهد الذي آتاك. . يقول العبد المسكين: لو كان لي نَفْسٌ أطوع من هذه لأَتَيْتُ بها، ولو كان لي قلبٌ أشدُّ وفاءً من هذا لَجُدْتُ به، وكذلك بروحي وسِرِّي، وقيل:

يفديك بالروح صَبٌّ لو أنَّ له ... أعز من روحه شيئاً فداك به

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾: وفي هذا المعنى أنشدوا:

قلتُ للنَّفْس إنْ أردتِ رجوعاً ... فارجعي قبل أن يُسدَّ الطريق

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.

في الظاهر رفعَ السماءَ فأعلاها، والأرض من تحتها دحاها، وخلقَ فيها بحاراً، وأجرى أنهاراً، وأنبت أشجاراً، وأثبت لها أنوار وأزهاراً، وأمطر من السماء ماء مدراراً. وأخرج من الثمرات أصنافاً، ونوَّع لها أوصافاً، وأفرد لكلٍّ منها طعماً مخصوصاً، ولإدراكه وقتاً معلوماً.

وأمَّا في الباطن فسماءُ القلوب زَيَّنَها بمصابيح العقول، وأطلع فيها شمس التوحيد، وقمر العرفان. ومَرج في القلوب بحري الخوف والرجاء، وجعل بينهما برزخاً لا يبغيان؛ فلا الخوف يقلب الرجاء ولا الرجاء يقلب الخوف، كما جاز في الخبر: «لو وزنا لاعتدلا»[1] ـ هذا لعوام المؤمنين، فأمَّا للخواص فالقبض والبسط، ولخاص الخاص فالهيبة والأُنْس والبقاء والفناء.

وسَخَّر لهم الفُلْكَ في هذه البحار ليعبروها بالسلامة، وهي فلك التوفيق والعصمة، وسفينة الأنوار والحفظ. وكذلك ليالي الطلب للمريدين، وليالي الطرب لأهل الأُنس من المحبين، وليالي الحرب للتائبين، وكذلك نهار العارفين باستغنائهم عن سراج العلم عند متوع نهار اليقين.

---

(١) للحديث رواية أخرى تقول: «قال ﷺ: «لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا» أخرجه السيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ١٣٣).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

ما سَمَتْ إليهِ هِمَمُكُم، وتعلّق به سؤالُكم، وخَطَر تحقيقُ ذلك ببالِكم، أنلناكم فوق ما تُؤَمّلُون، وأعطيناكم أكثر مما تَرْجُون، قال تعالى:

﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وقرأ بعض القراء: ﴿مِّن كُلٍّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤] فَيُنَوِّنُ قوله: كلٍ، ويجعل ما سألتموه (ما) للنفي أي كل شيء مما لم تسألوه.

كذلك جاز أن يكون المعنى، قل يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني ـ وهذا لأرباب الطاعات، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني ـ وهذا لأصحاب الزلات. عَلِمَ قصور لسان العاصي وما يمنعه من الخجل وما يقبض على لسانه إذا تذكَّر ما عمله من الزلّات، فأعطاه غفرانه، وكفاه حشمةَ السؤال، والتفضل؛ فقال: غفرتُ لكم قبل أن تستغفروني.

ولكن متى يخطر على قلب العبد ما أهّلَه الحق ـ سبحانه ـ من العرفان؟ وكيف يكون ذلك الحديث؟... قَبْلَ أَنْ كان له إمكانٌ، أو معرفة وإحسان، أو طاعة أو عصيان، أو عبادة وعرفان، أو كان له أعضاء وأركان، أو كان العبد شيخاً أو عيناً أو أثراً.. لا بَلْ:

أتاني هواها قبل أنْ أَعْرِفَ الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكّنا

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

كيف يكون شكركم كفاء نِعَمِه..؟ وشكرُكُم نَزْرٌ يسير، وإنعامُه وافر غزير.

وكيف تكون قطرة الشكر بجوار بحار الإنعام؟

إنَّ نِعَمَه عُلُومُكم عن تفصيلها متقاصرةٌ، وفُهُومُكم عن تحصيلها متأخّرةٌ.

وإذا كان ما يدفع عن العبد من وجوه المحن وفنون البلايا من مقدوراته لا نهاية له.. فكيف يأتي الحصر والإحصاء على ما لا يتناهى؟

وكما أن النَّفْعَ من نِعِمَه فالدفعُ أيضاً من نعمه.

ويقال إن التوفيق للشكر من جملة ما ينعم به الحقُّ على العبد فإذا أراد أن يشكره لم يمكنه إلا بتوفيقٍ آخر فلا يبقى من النعم إلا ما يشكر عليه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ﴾.

كما سأل أن يجعل مكةَ بلداً آمناً طلب أن يجعل قلبَه محلاً آمناً؛ أي لا يكون فيه شيءٌ إلا بالله. ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾: والصنم ما يعبد من دونه، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] فصنمُ كلِّ أحدٍ ما يشغله عن الله تعالى من مالٍ ووَلَدٍ وجاهٍ وطاعة وعبادة.

ويقال إنه لمَّا بنى البيتَ استعان بالله أن يجرِّدَه من ملاحظة نفسه وفعله.

ويقال إنه ـ ﷺ ـ كان متردداً بين شهود فضل الله وشهود رفق نفسه، فلما لقي من فضله وجوده قال من كمال بسطه: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦]. ولما نظر من حيث فقر نفسه قال: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾.

ويقال شاهد غيره فقال: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾، وشاهد فضله ورحمته ولطفه فقال: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾: أي موافق لي ومن أهل مِلَّتِي، ومن عصاني خالفني وعصاك.

قوله: ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: طلبٌ للرحمة بالإشارة، أي فارحمهم.

وقال: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾... ولم يَقُلْ: مَنْ عصاك، وإنْ كان من عصاه فقد عصى الله، ولكن اللفظ إنما لطلب الرحمة فيما كان نصيب من ترك حقه، ولم ينتصر لنفسه بل قابلهم بالرحمة.

ويقال إن قولَ نبينا ﷺ في هذا الباب أتمُّ في معنى العفو حيث قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»، وإبراهيم ـ عليه السلام ـ عَرَّضَ وقال: ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ويقال لم يجزم السؤال لأنه بدعاء الأدب فقال: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

أخبر عن صدق توكله وصدق تفويضه بقوله: ﴿إني أسكنت﴾ وإنما رأى الرِّفقَ بهم في الجوارِ لا في المَبارّ فقال: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ ثم قال: ﴿لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي أسكنتُهم لإقامة حقِّكَ لِطَلَبِ حظوظهم.

ويقال اكتفى أن يكونوا في ظلال عنايته عن أن يكونوا في ظلال نعمته.

ثم قال: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي ليشتغلوا بعبادتك، وأقم قومي ـ ما بقوا ـ بكفايتك، ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: فإنَّ مَنْ قام بحقِّ الله أقام اللَّهُ

بحقّه قَوْمَه، واستجاب اللّهُ دعاءَه فيهم، وصارت القلوبُ من كل بَر وبحرٍ كالمجبولة على محبة تلك النسبة، وأولئك المتصلين، وسكان ذلك البيت.

ويقال قوله: ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ [إبراهيم: ٣٧]: أي أسكنتُهم بهذا الوادي حتى لا تتعلق بالأغيار قلوبُهم، ولا تشتغل بشَيْءٍ أفكارهم وأسرارُهم، فهم مطروحون ببَابِكَ، مصونون بحضرتك، مرتبطون بحُكْمِك؛ إنْ رَاعيتَهم كَفَيْتَهُم وكانوا أعَزَّ خَلْقِ الله، وإنْ أقصيتَهم ونفيتهم كانوا أضعفَ وأذلَّ خَلْقِ الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾.

استأثرتَ بعلم الغيب فلا يَعْزُبُ عن علمك معلومٌ، وحالي لا تخفى عليك، فهي كما عرفتَ، أنت تعلم سِرِّي وعَلَنِي.. ومَنْ عرف هذه الجملة استراح من طوارق الأغيار، واستروح قلبُه عن تَرَجُّمِ الأفكار، والتَّقَسُّمِ في كون الحوادث من الأغيار.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

أسعده بمنحه الولد على الكبر، ويلتحق ذلك بوجهٍ من المعجزات؛ فحمد عليه. ولمَّا كان هذا القول عقيب سؤاله ما قدَّم من ذكر نعمته ـ سبحانه ـ عليه، وأكرامه بأنواره، وهذا يكون بمعنى المَلق[١]، ويكون استدعاءَ نعمةٍ بنعمة، فكأنه قال: كما أكرمتني بِهِبَة الوَلَدِ على الكِبَر؛ فأَكْرِمْني بهذه الأشياء التي سألتُها.

ويقال الإشارة في هذا أنه قال: كما مَنَنْتَ عليَّ فوهبتني على الكِبَر هذه الأولاد فأَجْنِبْنَا أن نعبد الأصنام لتكونَ النعمةُ كاملةً. وفي قوله: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].. إشارة إلى هذه الجملة.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِىۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾.

في قوله: ﴿**ربِّ اجعلني مقيم الصلاة**..﴾ إشارة إلى أن أفعال العباد مخلوقة، فمعناه اجعل صلاتي، والجَعْلُ والخَلْقُ بمعنى، فإذا جعله مقيمَ الصلاة فمعناه أن يجعل له صلاةً

وقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِىۚ﴾: أي اجعل منهم قوماً يُصَلُّون، لأنه أخبره في موضع آخر بقوله: ﴿**لا ينال عهدي الظالمين**﴾ [البقرة: ١٢٤].

---

(١) المَلَق: الزيادة في التودد والدعاء والتضرع فوق ما ينبغي (اللسان ١٠/٣٤٧ مادة: ملق).

ثم قال: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ وهذا قبل أن يعلم أنه لا يُؤْمِن.

ويقال إن إجابة الدعاءِ ابتداءُ فضلٍ منه. ولا ينبغي للعبد أن يَتَّكِلَ على دُعاءِ أحد وإن كانَ عَلِيَّ الشأن، بل يجب أن يعلق العبد قلبه بالله؛ فلا دعاءَ أتمُّ منْ دعاءِ إبراهيم عليه السلام، ولا عنايةَ أتمُّ من عنايته بشأن أبيه، ثم لم ينفعه ولا شفع الله له.

ويقال لا ينبغي للعبد أن يترك دعاءه أو يقطعَ رجاءَه في ألا يستجيبَ الله دعاءَه، فإن إبراهيمَ الخليلَ عليه السلام دعا لأبويه فلم يُسْتَجَبْ له، ثم إنه لم يترك الدعاء، وسأل حينما لم يُجَبْ فيه. فلا غضاضةَ على العبد ولا تناله مَذَلَّةٌ إنْ لم يُجِبْهُ مولاه في شيء؛ فإنَّ الدعاءَ عبادةٌ لا بدَّ للعبد من فِعْلها، والإجابةُ من الحقِّ فضلٌ، وله أن يفعل وله ألا يفعل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

هذا وعيدٌ للظالمين وتسلية للمظلومين؛ فالمظلوم إذا تحقَّق بأنه ـ سبحانه ـ عالِمٌ بما يلاقيه من البلاء هانت على قلبه مقاساته، وحق عليه تحمله.

والظلم على وجوه؛ ظلمٌ على النَّفْس بوضع الزَّلَّةِ مكان الطاعة، وظلم على القلب بتمكين الخواطر الردية منه، وظلم على الروح بجعلها لمحبة المخلوقين.

ويقال من جملة الظالمين الشيطانُ، فالعبدُ المؤمِنُ مظلومٌ من جهته، والحقُّ ـ سبحانه ـ ينتصف له منه غداً، وذلك إنْ لم يَتَّبِعْهُ اليومَ، ودَفَعَه عن نفسه بالمجاهدة وترك وساوسه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي. . .﴾.

وهذا للعوام من المؤمنين، علَّق قلوبهم بالانتقام منهم في المستأنف، وأمّا الخواص فإذ علموا أنه ـ سبحانه ـ عالِمٌ بهم وبحالهم فإنهم يعفون ويكتفون بذلك، وأمّا خواص الخواص فإذْ علموا أنهم عبيده فإنهم لا يرضون بالعفو عن ظُلْمِهم حتى يستغفرَ لهم، كما قال النبي ـ ﷺ ـ: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»، وفي معناه أنشدوا:

وما رضوا بالعفو عن ذي زلة ... حتى أنالوا كفَّه وازدادوا

وأمّا أصحاب التوحيد فإذ عَلِمُوا أنه المنشئ، وألا مخترعَ سواه فليس بينهم وبين أحدٍ محاسبة، ولا مَعَ أحدٍ مُعَاتَبَة، ولا منه مطالبة، لأنهم يَعُدُّون إثباتَ الغيرِ في الظن والحسبان شِرْكاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾.

أفسدوا في أول أمورهم، وقصَّروا في الواجب عليهم، ولم يكن للخَلَلِ في أحوالهم جبران، ولا لعذرهم قبول لتصحَّ الحجة عليهم، فافتضح المجرم منهم، وخاب الكافر، وحُقَّ الحكمُ عليهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾.

أحللنا بهم العقوبة، وأشهدناكم ذلك مما اعتبرتم، وجريتم على منهاجهم، وفعلتم مثلَ فِعْلِهم، وبإمهالنا لكم اغتررتم.. فانْتَظِرُوا منَّا ما عاملناكم به جزاءً لكم على ما أسلفتم.

ويقال إن معاشرةَ أهلِ الهوى والفسق ومجاورتَهم مُشَارَكةٌ لهم في فِعْلِهم، فيستقبلُ فاعلُ ذلك استقبالَهم، ومَنْ سَلَكَهُم ينخرط في التردِّي نحو وَهْدَةِ هلاكِهِ مِثْلَهم[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

أي لا تحسبنَّه يخلف رسله وعده؛ لأنه لا يخلف الوعد لصدقه في قوله، وله أن يعذبهم بما وعدهم لحقِّه في مُلْكِه، وهو ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يصل إليه أحد، وإن كان ولياً. ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ لا يفوته أحد وإن كان (....)[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

لا يختلف عَيْنُها وإنما تختلف صورتها، وكذلك إذا انكدرت النجوم، وانشقت السماء يقال ما بدّل عينها وإنما بدّل الأزمانَ والمكانَ على الناس باختلاف أحوالهم في السرور والمحن؛ كَمَنْ صار من الرخاء إلى البلاء يقول: تغيَّر الزمانُ والوقتُ... وكذلك من صار من البلاء إلى الرخاء.

ويقال إن آدم لما قتل أحدُ ابنيه الآخرَ قال:

تغيرت البلادُ ومَنْ عليها ... فوجهُ الأرضِ مُغْبَرٌّ قبيحُ

وفي هذه القصة من كان صاحب بسطٍ فَرُدَّ إلى حال القبض، ومن كان صاحب أُنسٍ فصار صاحب حجاب ـ يصحُّ أن يقال بدل له الأرض، قال بعضهم:

ما الناس بالناس الذي عهدي بهم ... ولا البلاد بتلك التي كنت أعرفها

وكذلك العبد المريد إذا وقعت له وقفة أو فترة كانت الشمس له كاسفة، وكانت الأرض به راجفة، وكان النهار له ليلاً، وكان الليل له ويلا، وكما قيل:

---

(١) الآية (٤٦) لم ترد.

(٢) بياض في الأصل.

فما كانت الدنيا بسهل ولا الضحا بِطَلْقٍ ولا ماءُ الحياة ببارد

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

الأصفاد الأغلال. الأصفاد تجمعهم، والسلاسل تقيدهم، والقطران سرابيلهم، والحميم شُرْبُهم، والنارُ محيطةٌ بهم.. وذلك جزاء مَنْ خالَف إلهه.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

الحجج ظاهرة، والأمارات لائحة، والدواعي واضحة، والمهلة متسعة، والرسول عليه السلام مُبَلِّغ، والتمكين من القيام بحق التكليف مساعد. ولكنَّ القسمةَ سابقةٌ، والتوفيقَ عن القيام ممنوعٌ، والربُّ ـ سبحانه ـ فعَّالٌ لما يريد، فَمَنْ اعتبر نجا، ومن غفل تردَّى. ولله الأمر من قبل ومن بعد، والله أعلم.

السورة التي يذكر فيها الحجر

بسم الله الرحمن الرحيم

سقطت ألف الوصل من كتابة بسم الله وليس لإسقاطها علة، وزيد في شكل الباء من بسم الله وليس لزيادتها علة، ليُعْلَمَ أن الإثبات والإسقاط بلا علة؛ فلم يَقْبَلْ من قَبِلَ لاستحقاق علة، ولا رَدَّ مَنْ رَدَّ لاستيجاب علة. فإنْ قيل العِلَّةُ في إسقاط الألف من بسم الله كثرةُ الاستعمال في كتابتها أُشْكِلَ بأن الباء من بسم الله زيد في كتابتها وكثرة الاستعمال موجودة. فإن قيل العلة في زيادة شكل الباء بركة أفضالها باسم الله أشكل بحذف ألف الوصل لأن الاتصال بها موجود، فلم يبقَ إلا أن الإثبات والنفي ليس لها علة؛ يرفع من يشاء ويمنع من يشاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾.

أسمعهم هذه الحروف مُقَطَّعَةَ على خلاف ما كانوا يسمعون الحروف المنظومة في الخطاب، فأعرضوا عن كل شيءٍ وسمعوا لها. ونبههم القرآنُ إلى أن هذه التي يسمعونها آياتُ الكتاب، فقال لهم لما حضرت ألبابُهم، واستعدت لسماع ما يقول آذانُهم: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾.

ووصف القرآن بأنه مبين؛ لأنه يُبَينُ للمؤمنين ما يسكن قلوبهم، وللمريدين ما يقوي رجاءَهم، وللمحسنين ما يهيج اشتياقهم، وللمشتاقين ما يثير لواعجَ أسرارهم، ويبيِّن للمصطفى ـ ﷺ ـ تحقيقَ ما مَنَعَ غَيْرَه بعد سؤاله.. ألم تر إلى ربك قال لموسى عليه السلام: «لن تراني» بعد سؤاله: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

قوله جلّ ذكره: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾.

إذا عرفوا حالهم وحال المسلمين يوم القيامة لعلموا كيف شقوا، وأي كأس رشفوا.

ويقال إذا صارت المعارفُ ضروريةً أحرقَتْ نفوسَ أقوامِ العقوبةُ، وقطَّعَتْ قلوبَهم الحَسْرَةُ.

ويقال لو عرفوا حالَهم وحالَ المؤمنين لَعَلِمُوا أن العقوبةَ بإهلاكهم حاصلةٌ لقوله تعالى بعدئذ:

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

قيمةُ كل امرئٍ على حسب هِمَّتِه؛ فإذا كانت الهمةُ مقصورةً على الأكل والتمتع بالصفة البهيمية لا يُحَاسَبُ، وعلى العقل لا يُطَالَبُ: فالتَّكليفُ يتبعه التشريف! وغداً سوف يعلمون.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾.

الآجال معلومة، والأحوال مقسومة؛ والمشيئة في الكائنات ماضية، ولا تخفى على الحق خافية.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾.

الجنون معنى يوجب إسناد ما ينكشف للعقلاء من التحصيل على صاحبه، فلمَّا كانوا بوصف التباس الحقائق عليهم فهم أَوْلَى بما وصوفه به، فهم كان في المَثَل: رَمَتْنِي بِدَائِها وانْسَلَّت.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ﴾.

اقترحوا عليه الإتيان بالملائكة بعد ما أزيحت العلة عليهم بما أيِّد به معجزاتِه، فيتوجب اللَّوْمُ عليهم لسوءِ أَدَبِهم. وأخبر الحقُّ ـ سبحانه ـ أنه أجرى عادته أنه إذا أظهر الملائكةَ لأبصارِ بني آدم فيكون ذلك عند استبصارهم؛ لأنه تصير المعرفة ضرورية. وفي المعلوم أنه لم يكن ذلك الوقتُ أَوَانَ هَلَاكِهم؛ لِعِلْمِه أنَّ في أصلابهم مَنْ يُؤمِنُ بالله سبحانه في المستأنف.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

أنزل التوراة وقد وَكَلَ حفظها إلى بني إسرائيل بما استحفظوا من كتاب الله، فحرَّفوا وبَدَّلوا، وأنزل الفرقان وأخبر أنه حافظة، وإنما يحفظه بقرائه؛ فقلوبُ القُرَّاءِ خزائنُ كتابهِ، وهو لا يضيع كتابه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾.

أخبر أنه كانت عادتهم التكذيب، وأنه أدام سُنَّته معهم في التعذيب. ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾: وهم لا يؤمنون به لأنه أزاح قلوبهم عن شهود الحقيقة، وسَدَّ ـ بالحرمان ـ عليهم سلوكَ الطريقة، وبيَّن أنه لو أراهم الآياتِ عياناً ما

ازدادوا إلا عتواً وطغياناً، وأن مَنْ سَبَقَ له الحُكْمُ بالشقاء فلا يزداد على ممر الأيام إلا ما سَبَقَ به القضاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾.

مَنْ عليه التقدير كان بأمر التكليف مدعوا، وبأمر التكوين مقضيـ . فمتى ينفع فيه النصح؟ ومتى يكون للوعظ فيه مساغ؟ كلا . . إن البصيرةَ له مسدودةٌ، و (. . .)[1] الخذلان بِقَدَمِه مشدودة، فهو يحمل النصيحة له على الوقيعة، والحقيقة على الخديعة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ﴾.

بروجاً أي نجوماً هي لها زينة، ثم تلك النجوم للشياطين رجوم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾.

إذا رام الشياطينُ أن يسترقوا السمعَ كانت النجومُ لها رجوماً.

كذلك للقلوب نجومٌ وهي المعارف وهي في الوقت ذاته رجوم على الشياطين؛ فلو دنا إبليسُ وجنودُه من قلب ولِّي من الأولياء أحرقَتْه بل محقَتْه نجومُ عقلِه وأقمارُ علمِه وشموسُ توحيدِه.

وكما أنَّ نجومَ السماءِ زينةٌ للناظرين إذا لاحظوها فقلوبُ العارفين إذا نظر إليها ملائكة السماءِ لهي زينة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾.

النفوس أرض عبادة العابدين، وقلوبُ العارفين أرض المعرفة وأرواح المشتاقين أرض المحبة، والخوف، والرجاء لها رواسٍ. وكذلك الرغبة والرهبة.

ويقال من الرواسي التي أثبتها في الأرض الأولياءُ فَبِهِمْ يثبت الناس إذا وَقَعَ بهم الفزعُ ومن الرواسي العلماءُ الذين بهم قِوَامُ الشريعة؛ فعلماءُ الأصول هم قِوامُ أصلِ الدِّين، والفقهاء بهم نظامُ الشرع، قال بعضهم:

واحسرتا من فراق قوم ... هم المصابيحُ والأمنُ والمُزْنُ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾.

كما أنبت فنوناً من النبات ذات أنوار[2] أنبت في القلوب صنوفاً في الأنوار،

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) أنوار: (ج) نور: الزهر أو الأبيض منه، الواحدة: نورة.

منها نور اليقين ونور العرفان، ونور الحضور ونور الشهود، ونور التوحيد. . إلى غير ذلك من الأنوار.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾.

سببُ عيشٍ كلٍّ مختلفٌ؛ فعَيْشُ المريدين من إقباله، وعيش العارفين التجمل بأفضاله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾.

خزائنه في الحقيقة مقدوراته، وهو ـ سبحانه ـ قادر على كل ما هو مرسوم بالحدوث.

ويقال خزائنه في الأرض قلوبُ العارفين بالله، وفي الخزانة جواهر في كل صنف؛ فحقائقُ العقل جواهر وضعها في قلوب قوم، ولطائف العلم جواهر بدائع المعرفة، وأسرار العارفين مواضع سِرّه، والنفوس خزائن توفيقه، والقلوب خزائن تحقيقه، واللسان خزانةُ ذِكْرِه.

ويقال من عرف أن خزائن الأشياء عند الله تقاصرت خُطَاه عن التردد على منازل الناس في طَلَبِ الإرفاق منهم، وسعى في الآفاق في طلب الأرزاق منها، قاطعاً أَمَلَه عن الخَلْق، مُفْرِداً قلبَه لله متجرِّداً عن التعلّق بغير الله.

قوله ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾: عَرَفَ القِسْمَة منْ استراح عن كدِّ الطلب؛ فإنَّ المعلومَ لا يتغير، والمقسوم لا يزيد ولا ينقص، وإذا لم يَجِبْ عليه شيءٌ لأحد فبقدرته على إجابة العبد إلى طلبته لا يتوجب عليه شيء.

ويقال أراح قلوب الفقراء مِنْ تَحمُّلِ المِنَّةِ من الأغنياء مما يعطونهم، وأراح الأغنياء من مطالبة الفقراء منهم شيئاً، فليس للفقير صَرْفُ القلب عن الله سبحانه إلى مخلوقٍ واعتقادُ مِنَّةٍ لأحد، إذ المُلْكُ كله لله، والأمر بيد الله، ولا قادر على الإبداع إلا الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾..

كما أن الرياحَ في الآفاق مُقَدِّمَاتُ المطر كذلك الآمال في القلوب، وما يقرب العبد مما يتوارد على قلبه من مبشرات الخواطر، ونسيم النجاة في الطلب يحصل، فيستروح القلب إليه قبل حصول المأمول من الكفاية واللطف.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾.

أسقاه إذا جعل له السُّقيا؛ كذلك يجعل الحق ـ سبحانه ـ لأوليائه ألطافاً معلومة في أوقات محدودة! كما قال في وصف أهل الجنة: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢].

كذلك يجعل من شراب القلوب لِكُلٍّ ورداً معلوماً، ثم قضايا ذلك تختلف: فمِنْ شراب يُسْكِر، ومن شراب يُخضِر، ومن شراب يزيل الإحساس، كما قيل:

فصحوك من لفظي هو الصحو كله ... وسُكْرُكَ من لحظي يبيح لك الشُّرْبا

ويقال إذا هبت رياح التوحيد على الأسرار كنست آثار البشرية، فلا للأغيار فيها أثر، ولا عن الخلائق لهم خبر.

ويقال إذا هبَّت رياح القرب على قلوب العارفين عَطَّرَتْها بنفخات الأنس، فيَسْقَوْنَ في نسيمها على الدوام، وفي معناه أنشدوا:

وهبَّتْ شمال آخر الليل قَرَّةٌ ... ولا ثوبَ إلا بُرْدَةَ وردائيا[١]

وما زال بُرْدِي لينا من ردائها ... إلى الحوْلِ حتى أصبح البُرْدُ باليا

ويقال إذا هبَّت رياح العناية على أحوال عبد عادت مَسَاوِيه مناقِبَه ومثالبُه محاسنه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾.

نحيي قلوبهم بالمشاهدة، ونميت نفوسهم بالمجاهدة.

ويقال نحييهم بأن نفْنِيَهمْ بالمشاهدة، ونميتَهم بأَنْ نأخذَهم عن شواهدهم.

ويقال يحيي المريدين بذكره، ويميت الغافلين بهجره.

ويقال يحيي قوماً بموافقة الأمر في الطاعات، ويميت قوماً بمتابعة الشهوات.

ويقال يحيي قوماً بأن يلاطفهم بلطف جماله، ويميت قوماً بأن يحجبهم عن أفضاله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾.

العارفون مستقدمون بِهَمَمِهم، والعابدون مستقدمون بقَدَمِهم، والتائبون بندمهم وأقوام مستأخِرون بقدمهم وهم العُصاة، وآخرون مستأخرون بهمومهم وهم الراضون بخسائس الحالات.

ويقال المستقدمون الذين يسارعون في الخيرات، والمستأخرون المتكاسلون عن الخيرات.

ويقال المستقدمون الذين يستجيبون خواطرَ الحقِّ ـ من غير تَعريجٍ إلى تفكر، والمستأخِرون الذين يرجعون إلى الرُّخَصِ والتأويلات.

ويقال المستقدمون الذين يأتون على مراكب التوفيق، والمستأخرون الذين تثبطهم مشقة الخذلان.

---

(١) الليلة القرة: الباردة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

يبعث كلاً على الوصل الذي خرجوا من الدنيا عليه: فمن منفرد القلب بربه، ومن مُتَطَوِّحٍ في أودية التفرقة، ثم يحاسبهم على ما يستوجبونه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾.

ذَكَّرَهم بِخِسَّتِهم لئلا يُعْجَبُوا بحالتهم.

ويقال القيمة في القُربةِ لا بالتُّربة؛ والنسب تربة ولكن النعتَ قربة.

﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾: وإذا انطفأت النار صارت رماداً لا يجيء منها شيء، والطين إذا انكسر عاد به الماء إلى ما كان عليه، كذلك العدو لمَّا انطفأ ما كان يلوح عليه من سراج الطاعة لم ينجبر بعده، وأمَّا آدم ـ عليه السلام فلمَّا اغْتَرَّ جَبَرَهُ ماءُ العناية، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [طه: ١٢٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

أظهرهم بهذا القول، وفي عين ما أظهرهم سَتَرهم.

ويقال ليست العِبْرَة بقوالبهم. إنما الاعتبار بالمعاني التي أودعها فيهم.

ويقال الملائكة لاحظوه بعين الخِلْقة فاستصْغروا قَدْرَه وحاله، ولهذا عَجِبوا من أَمْرِ الله ـ سبحانه ـ لهم بالسجود له، فكشف لهم شظية مما اختَصَّه به فسجدوا له.

قوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾: وكذا أمرُ مَنْ حُجِبَ عن أحواله ادَّعى الخَيْرَةَ وبَقِيَ في ظُلمة الحَيْرةِ.

ويقال بَخِلَ بسجدةٍ واحدةٍ، وقال: أَسْتَنْكِفُ أَنْ أسجد لغير الله. ثم من شقاوته لا يبالي بكثرة معاصيهِ، فإنه لا يَعْصِي أحدٌ إلَّا وهو سببُ وسواسه، وداعيه إلى الزَّلَّةِ.. وذلك هو عين الشَّقوة وقضية الخذلان.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

سأله ومعلومٌ له حالُه، ولو ساعدته المعرفةُ لقال: قُلْ لي مالك؟ وما مَنَعَكَ؟ وَمَنْ مَنَعَكَ حتى أقول أنت.. حيث أَشْقَيْتني، وبقهرك أَغْوَيْتني، ولو رَحِمْتَني، لَهَدَيْتَنِي وفي كنف عصمتك آويتني... ولكنَّ الحرمانَ أدركه حتى قال: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾.

ولمّا أبعده الحقُّ ـ سبحانه ـ عن معرفته، وأفرده باللعنة استنظره إلى يوم القيامة والبعث، فأجابه. وظَنَّ اللَّعينُ أنه حصل في الخير مقصوده، ولم يعلم أنه أراد بذلك تعذيبه عذاباً شديداً، فكأنه كان في الحقيقة مكراً ـ وإن كان في الحال في صورة إجابة السؤال بما يُشْبِهُ اللطفَ والبِرّ.

وبعض أهل الرجاء يقول: إن الحق ـ سبحانه ـ حينما يهين عدوَّه لا يَرُدُّ دعاءَه في الإمهال ولا يمنعه من الاستنظار؛ فالمؤمن ـ إذ أَمْرُهُ الاستغفارُ والسؤالُ بوصفِ الافتقارِ ـ أَوْلَى ألا يقنطَ مِنْ رحمتِه، لأنَّ إنظارَ اللعين زيادةُ شقاءٍ له تحقيق عطاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

الباء في: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ باء القَسَم، ولم يكن إغواؤه إياه مما يجب أن يُقْسِم به لولا فَرْطُ جَهْلِه. ثم هو في المعنى صحيح، لأنَّ الإغواء مما يتفرَّدُ بالحق بالقدرة عليه، ولا يشاركه فيه أحد، ولكن اللَّعِينَ لا يعرف الله الحقيقة، إذ لو عَرَفَه لم يدعُ إلى الضلال، لأنه لو قدر على إضلالِ غيرِه لاستبقى على الهدايةِ نَفْسَه. وعند أهل التحقيق إنه يقول جميع ذلك حَدْساً وهو لم يَعْرِفْ الله ـ على الحقيقة ـ قَطُّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾.

الإخلاصُ هو تصفيةُ الأعمالُ عن الغَيْن وعن الآفات المانعة من صالح الأعمال. وقد عَلِمَ اللعينُ أنه لا سبيل له إليهم بالإغواء لمَّا تَحَقَّقَ من عناية الحقِّ بشأنهم.

﴿قال هذا صراط عليّ مستقيم﴾ تهديدٌ، كما تقول: افعل ما شِئْتَ.. وهذا طريقي.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾.

السلطان الحجة، وهي لله على خَلْقه، وليس للعدوِّ حجة على مخلوق، إذ لا تَتَعدَّى مقدرتُه محلَّه، فلا تَسلُّطَ ـ في الحقيقة ـ لمخلوق بالتأثير فيه.

﴿إِنَّ عِبَادِى﴾: إذا سمى الله واحداً عبداً فهو من جملة الخواص، فإذا أضافه إلى نفسه فهو خاص الخاصِّ، وهم الذين محاهم عن شواهدهم، وحفظهم وصانهم عن أسباب التفرقة وجرَّدهم عن حَوْلهم وقُوَّتِهم، وكان النائبَ عنهم في جميع تصرفاتهم وحالاتهم، وحفظ عليهم آدابَ الشرع، وألبَسُهم صِدارَ الاختيار في أوان أداء التكليف، وأخذهم عنهم باستهلاكهم في شهوده، واستغراقهم في وجوده.. فأيُّ سبيلٍ للشيطان إليهم؟ وأي يدٍ للعدو عليهم؟

ومَنْ أشهدِ الحقُّ حقائقَ التوحيد، ورأى العالَمَ مُصَرَّفاً في قبضة التقدير، ولم يكن نهباً للأغيار.. فمتى يكون لِلَّعين عليه تسلط، وفي معناه قالوا:

جحودي فيك تقديسُ   وعقلي فيك تهويسُ
فمن آدم إلَّاكَ   ومَنْ في البيت إبليسُ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾.

اجتمعوا اليومَ في أصل الضلالة، ثم الكفر مِلَلٌ مختلفةٌ، ثم يجتمعون غداً في العقوبة وهم زُمَرٌ مختلفون، لكلِّ دَرَكَةٍ من دركات جهنم قوم مُخَصُّون.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾.

المتقي مَنْ وقَّاه الله بفضله لا مَنْ اتَّقَى بتَكلُّفِه، بل إنه ما اتقى بتكلفه إلَّا بعد أن وقَّاه الحقُّ ـ سبحانه ـ بفضله. هم اليومَ في جنات ولها دَرَجات بعضها أرفعُ من بعض، كما أنهم غداً في جنَّات ولها درجات بعضها فوق بعض.

اليوم لقوم درجةُ حلاوة الخدمة وتوفيق الطاعة، ولقوم درجة البسط والراحة، ولآخرين درجة الرجاء والرغبة، ولآخرين درجة الأنْسِ والقربة، قد علم كلُّ أناسٍ مشربَهم ولزم كلُّ قومٍ مذهبَهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾.

معناه يقال لهم: ﴿أدخلوها﴾، وأَجْمَلَ ذلكَ ولم يقل مَنْ الذي يقول لهم. ويرى قومٌ أن المَلَكَ يقول لهم: أدخلوها.

ويقال إذا وافَوْا الجنة وقد قطعوا المسافة البعيدةَ، وقاسوا الأمورَ الشديدةَ، فَمِنْ حقِّهم أن يدخلوا الجنة، خاصةً وقد علموا أَنَّ الجنةَ مُباحةٌ لهم، ولعلهم لا يفقهون حتى يقال لهم.

ويقال يحتمل أنهم لا يدخلونها بقول المَلَكِ حتى يقول الحقُّ: أدخلوها، كما قالوا:

ولا أَلْبَسُ النُّعمى وغيرُكَ مُلْبِسٌ   ولا أَقْبَلُ الدنيا وغيرك واهبُ

قوله: ﴿بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾: بمعنى السلامة، وهي الأمان، فيأمنون أنهم لا يخرجون منها.

ويقال كما لا يخرجون من الجنة لا يخرجون عما هم عليه من الحال؛ فالرؤية لهم وما هم فيه من الأحوال الوافية ـ مديدةٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾.

أمَرَ الخليلَ عليه السلام ببناء الكعبة وتطهيرها فقال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج: ٢٦]، وأمَرَ جبريلَ عليه السلام حتى غَسَلَ قلبَ المصطفى ـ ﷺ ـ فطَهَّرَه. وتولّى هو ـ سبحانه ـ بنفسه تطهيرَ قلوب العاصين، فقال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الحجر: ٤٧] وذلك رفقاً بهم، فقد يصنع الله بالضعيف ما يتعجَّبُ منه القوي، ولو وكل تطهير قلوبهم إلى الملائكة لاشتهرت عيوبُهم، فتولّى ذلك بنفسه رفقاً بهم.

ويقال قال: ﴿مَا فِي صُدُورِهِم﴾ ولم يقل ما في قلوبهم لأن القلوب في قبضته يقلبها، وفي الخبر: «قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن»[1]: يريد بذلك قدرته، فاستعمل لفظ الإصبع لذلك توسعاً. وقيل بين إصبعين أي نعمتين.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾.

قابل بعضُهم بعضاً بالوجه، وحفظ كلُّ واحدٍ عن صاحبه سِرَّه وقلبَه، فالنفوس متقابلة ولكنَّ القلوبَ غيرُ متقابلة؛ إذ لا يشتغل بعضهم ببعض، قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾.

أي لا يلحقهم تعبٌ؛ لا بنفوسهم ولا بقلوبهم. وإذا أرادوا أمراً لا يحتاجون إلى أن ينتقلوا من مكانٍ إلى مكان، ولا تحار أبصارهم، ولا يلحقهم دَهَشٌ، ولا يتغير عليهم حالٌ عما هم عليه من الأمر، ولا تشكل عليه صفة من صفات الحق.

﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ أي لا يلحقهم ذلُّ الإخراج بل هم بدوام الوصال.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

لمَّا ذَكَرَ حديثَ المتقين وما لهم من علوِّ المنزلة انكسرت قلوب العاصين، فَتَدارَكَ اللَّهُ قلوبهم، وقال لنبيِّه ـ ﷺ ـ أخبر عبادي العاصين أني غفور رحيم، وأني إنْ كنتُ الشكورَ الكريمَ بالمطيعين فأنا الغفورُ الرحيمُ بالعاصين.

ويقال مَنْ سَمِعَ قوله: ﴿أَنِّي أَنَا﴾ بسمع التحقيق لا يبقى فيه مساغٌ لسماع المغفرة والرحمة؛ لأنه يكون عندئذ مُختَطَفاً عن شاهده، مُسْتَهلكاً في أنيته.

---

(١) للحديث رواية أخرى: «قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن». أخرجه السيوطي في (الدر المنثور ٢/ ٨، ٩)، وابن أبي عاصم في (السنة ١/ ٩٩)، والطبري في (التفسير ٣/ ١٢٦) وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٦/ ٦٥)، والبيهقي في (الأسماء والصفات ٣٤١)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٧/ ٢٥٥٧).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾.

العذابُ الأليم هنا هو الفراق، ولا عذابَ فوق الفراق في الصعوبة والألم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾.

أَلا عرِّفهم كيف كانت فتوة الخليل في الضيافة، وقيامه بحقِّ الضيفان، وكان الخليلُ عليه السلام يقوم بنفسه بخدمة الضيفان، فلمَّا سلموا من جانبهم وردَّ عليهم وانقَضُّوا عن تناولِ طعامِه:

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾.

وَجلون أي خائفون، فإنَّ الإمساكَ عن تناول طعام الكرام موضعٌ للريبة. ولمَّا عَلِمَ أنهم ملائكة خاف أن يكونوا نزلوا لتعذيب قومه إذ كانوا مجرمين. ولكن سكن رَوْعُه عندما قالوا له:

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾.

فليس لك موضِعٌ للوَجَلِ لكن موضِعٌ للفَرَجِ؛ فإنا جئناك مُبَشِّرين، وإن كُنَّا لغيرِكَ مُعَذِّبين.

نحن **﴿نبشرك بغلام عليم﴾**: أي يعيش حتى يعلم، لأن الطفل ليس من أهل العلم، وكانت بشارتُهم بالوَلَدِ وببقاءِ الولد هي العجب فقال:

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾.

قال أبشرتموني وقد مسَّني الكِبَرُ؟ وإنَّ الكبير قد فاته الوقت الذي يفرح فيه من الدنيا بشيء. بماذا تبشروني وقد طَعَنْتُ في السنِّ، وعن قريب أرتحل إلى الآخرة؟ قالوا: بشرناك بالحق فلا تكن من جملة من يقنط من رحمة الله، ولا يقنط من رحمة ربه إلا من كان ضالاً.

قال: كيف أخطأ ظنكم فيَّ فتوهمتم أني أقنط من رحمة ربي؟

فلما فرغ قلبه من هذا الحديث، وعرف أنه لن يُصيبَه ضررٌ منهم سألهم عن حالهم:

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

قال ما شأنكم؟ وإلى أين قصدكم؟

قالوا: أُرسِلْنا لعذاب قوم لوط، ولننجيَ أهله إلا امرأته لمشاركتها معهم في الفساد، وكانت تدل على أضيافه، فاستوجبت العقوبة.

فلمَّا وافى المرسلون من آل لوطٍ أنكرهم لأنه لم يجدهم على صورة البشر، وتفرَّس فيهم على الجملة أنهم جاءوا لأمرٍ عظيم، قالوا: بل جئناكَ بما كان قومُك يَشُكُّونَ فيه مِنْ تعذيبنا إياهم، وآتيناك بالحق، أي بالحكم الحق[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾.

فأَسْرِ بأهلك بعدما يمضي شيءٌ من الليل، وامش خلفهم، وقدِّمهم عليك، واتبع أدبارهم، ولا يلتفت منكم أحد لئلا يَرَوْا ما ينزل بقومهم من العذاب، وإنا ننقذك وأهلَكَ إلا امرأتك، فإنا نعذبها لمشاركتها مع قومك في العصيان. ﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ فلكم السلامة ولقومكم العقوبة.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ أي علَّمْناه وعرَّفناه: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾؛ أي أنهم مُهْلَكون ومُسْتأْصَلُون بالعقوبة.

ثم لما نزل الملائكةُ بلوط عليه السلام قال لقومه إن هؤلاء أضيافي، فلا تتعرضوا لهم فتفضحوني، واتقوا اللَّهَ، وذروا مخالفة أمره ولا تخجِلوني. فقال قومه: ألم نَنْهَكَ عن أن تحمي أحداً، وأمرناك ألا تمنعَ مِنَّا أحداً؟ فقال: هؤلاء بناتي يعني نساء أمتي. وقال قومٌ: أراد بناتِه من صلبه، عَرَضَهن عليهم لئلا يُلِمُّوا بتلك الغلطة الفحشاء، فلم تنجع فيهم نصيحة، ولم يُقْلِعوا عن خبيثِ قَصْدِهم.

فأخبره الملائكة ألا يخافَ عليهم، وسكنوا من رَوْعه حين أخبروه بحقيقة أمرهم، وأنهم إنما أرسلوا للعقوبة[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

أقسم بحياته تخصيصاً له في شرفه، وتفضيلاً له على سائر البرية، فقال وحياتك ـ يا محمد ـ إنهم لفي ضلالتهم وسكرة غفلتهم يترددُّون، وإنهم عن شِرْكهم لا يُقْلِعون.

ويقال أقسم بحياته لأنه لم يكن في وقته حياة أشرف من حياته ـ إنهم في خُمَارِ سُكْرِهم، وغفلةِ ضلالتهم لا يترقبون عقوبةً، ولا يخافون سوءاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

باتوا في حبور وسرور، وأصبحوا في محنة وثبور[٣]، وخرَّت عليهم سقوفُهم،

---

(١) الآيات من (٦١ ـ ٦٤) لم ترد. (٢) الآيات من (٦٧ ـ ٧١) لم ترد.
(٣) الثبور: الهلاك.

وجعلنا مُدَنَهم ومنازلهم عاليَها سافِلَها، وأمطرنا عليهم من العقوبة ما لم يُبْقِ عيناً ولا أثراً، إنَّ في ذلك لَعِبْرةً لمن اعتبر، ودلالةً ظاهرة لمن استبصر، ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ لِمَنْ شاءَ أن يَعْتَبِرْ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾.

جاء في التفسير «المتفرسين»، والفراسةُ خاطرٌ يحصل من غير أن يعارضه ما يخالفه عند ظهورِ برهانٍ عليه، فيخرج من القلب عين ما يقع لصاحب الفراسة. مشتق من فريسة الأسد إذ لفريسته يقهر. والحق ـ سبحانه ـ يُطْلِعُ أولياءه على ما خفي على غيرهم. وصاحب الفراسة لا يكون بشرط التفرس في جميع الأشياء وفي جميع الأوقات؛ بل يجوز أن تُسَدَّ عليه عيونُ الفراسة في بعض الأوقات كالأنبياء عليهم السلام؛ فَنبِيُّنا ـ ﷺ ـ كان يقول لعائشة ـ رضي الله عنها ـ في زمان الإفك: «إنْ كُنْتِ فعلتِ فتوبى إلى الله». وكإبراهيم ولوط ـ عليهما السلام ـ لم يعرفا الرسل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

أصحاب الأيكة[١] هم قوم شعيب، وكان شعيب ـ عليه السلام ـ مبعوثاً لهم فكَذَّبوه، فانتقمنا منهم.

قوله: ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ يعني مدين والأيكة. . . ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾: أي بطريق واضح مَنْ قصده (. . .)[٢].

وكذلك أخبر أن أصحاب الحجر[٣] ـ وهم ثمود ـ كذبوا المرسلين إليهم، وأنهم أعرضوا عن الآيات التي هي المعجزات كناقةِ صالح وغيرها، وأنهم كانوا أخلدوا إلى الأرضين وكانوا مُغْتَرِّين بطول إمهال الله إياهم من تأخير العقوبة عنهم، وكانوا يتخذون من الجبال بيوتاً، ويظنون أنهم على أنفسهم آمِنُون من الموت والعذاب.

ثم أخبر أنهم أَخَذَتْهم الصيحةُ على بغتةٍ، ولم تُغْنِ عنهم حيلتُهم لمَّا حَلَّ حَيْنُهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

---

(١) الأيكة: الشجر الكثير الملتف. وأصحاب الأيكة: قوم شُعيب عليه السلام كانت مساكنهم كثيفة الأشجار.

(٢) بياض في الأصل.

(٣) الحِجْر: اسم ديار ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام. (معجم البلدان ٢/ ٢٢١).

دلَّت الآيةُ على أنَّ أكسابَ العباد مخلوقةٌ لله لأنها بين السموات والأرض.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾.

﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾: أي وأنا مُحقٌّ فيه ويقال ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: بالأمرِ العظيم الكائن إنْ الساعة لآتيةٌ يعني القيامةَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾.

يقال الصفح الجميل الذي تذكر الزَّلَّةُ فيه.

ويقال الصفح الجميل سحبُ ذيل الكَرَمِ على ما كان مِنْ غير عَقْدِ الزَّلَّةِ، بلا ذِكْرِ لما سَلَفَ من الذنب، كما قيل:

تـعـالـوا نـصـطـلـح ويـكـون مِـنَّـا
(.......................)(١)

ويقال الصفح الجميل الاعتذار عن الجُرْم بلا عدِّ الذنوب من المجرم، والإقرار بأن الذنب كان منك لا من العاصي، قال قائلهم:

(وتُـذْنِـبـون فـنـسـي ونـعـتـذر)

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

﴿هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ إذ لا يصح الفعل بوصف الانتظام والاتساق من غير عالِم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾.

أكثرُ المفسرين على أنها سورة الفاتحة، وسميت مثاني لأنها نزلت مرتين: مرة بمكة ومرة بالمدينة، ولأنها شيء في كل صلاة يتكرر، من «التثنية» وهي التكرير، أو لأن بعضها يضاف إلى الحق وبعضها يضاف إلى الخلق.. ومعنى هذا مذكور في كتب التفاسير.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾.

لم يُسَلِّمْ له إشباع النظر إلى زَهْرَةِ الدنيا وزينتِها.

ويقال غار على عينيه ـ ﷺ ـ أن يستعملَها في النظر إلى المخلوقات.

ويقال أدَّبَه اللَّهُ ـ سبحانه ـ بهذا التأديبِ حتى لا يُعِيرَ طَرْفَه من حيث الاستئناس به.

ويقال أمره بحفظ الوفاء لأنه لمَّا لم يكن اليومَ سبيلٌ لأحد إلى رؤيته، فلا تمدن عينيك إلى ملاحظة شيء من جملة ما خَوَّلْناهم، كما قال بعضهم:

لـمَّـا تـيـقَّـنْـتُ أنـي لـسْـتُ أبـصـركـم   أغـمـضـتُ عيني فـلـم أنظر إلى أحد

(١) بياض في الأصل.

ويقال شَتَّانَ بينه وبين موسى ـ عليه السلام! قال له: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ونبينا ـ ﷺ ـ مَنَعَه من النظر إلى المخلوقات بوصفٍ هو تمام النظر فقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾ [الحجر: ٨٨].

ويقال إذا لم يسلم له إشباع النظر بظاهره إلى الدنيا فكيف يسلم له السكون بقلبه إلى غير الله؟!

ويقال لما أُمِرَ بِغَضِّ بَصَرِه عما يتمتَّع به الكفارُ في الدنيا تَأَدَّبَ ـ عليه السلام ـ فلم ينظرْ ليلةَ المعراج إلى شيءٍ مما رأى في الآخرة، فأثنى عليه الحقُّ بقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧] وكان يقول لكل شيءٍ رآه: «التحيات لله»[١] أي المُلْكُ لله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾.

أدّبه حتى لا يتغير بصفة أحدٍ، وهذه حال التمكين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

أي أَلِنْ لهم جانبَكَ. وكان عليه السلام إذا استعانت به الوليدة[٢] في الشافعة إلى مواليها يمضي معها.. إلى غير ذلك من حسن خُلُقِ ـ صلوات الله عليه ـ وكان في الخبر إنه كان يخدم بتيه وكان في (مهنة) أهله. وتولّى خدمة الوفد، وكان يقول؛ «سيدُ القومِ خادمُهم»[٣].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ﴾.

لمَّا لم يكن بنفسه وكان قائماً بحقه ـ سبحانه وتعالى ـ سَلَّمَ له أن يقول: إني وأنا. وفي الخبر: أن جابراً[٤] دَقَّ عليه الباب، فقال: مَنْ؟ قال: أنا.. فقال النبي عليه السلام: «أنا أنا».. كأنه كرهها.

---

(١) أخرجه التبريزي في (مشكاة المصابيح ٩١٠)، والألباني في (السلسلة الصحيحة ٣/ ٤٧٢).

(٢) الوليدة: الجارية المولودة بين العرب. (اللسان ٣/ ٤٦٩ مادة: ولد).

(٣) أخرجه السيوطي في (الحاوي للفتاوى ٢/ ١٠١)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٣٩٢٥) والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٧٥١٦ ـ ١٧٥١٨ ـ ١٧٥١٩ ـ ٢٤٨٣٤ ـ ٢٤٨٣٥)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ١٠/ ١٨٧)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ٩٥) والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٥٦١ ـ ٥٦٢).

(٤) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي الأنصاري السلمي (١٦ ق هـ ـ ٧٨ هـ = ٦٠٧ ـ ٦٩٧م صحابي، من المكثرين في الرواية عن النبي ﷺ وروى عنه جماعة من الصحابة، له ولأبيه صحبة غزا تسع عشرة غزوة. وكانت له في أواخر أيامه حلقة في المسجد النبوي يؤخذ عنه العلم. روى له البخاري ومسلم وغيرهما ١٥٤٠ حديثاً. وله «مسند».
الأعلام ٢/ ١٠٤، والإصابة ١/ ٢١٣، وذيل المذيل ٢٢، وتهذيب الأسماء ١/ ١٤٢.

ويقال: قُلْ لا حدَّ لاستهلاكك فينا، سلَّمنا أن تقول: إني أنا، لما كنتَ بنا ولنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾.

أي قل إني أنا لكم مُنْذِرٌ بعذابٍ كالعذاب الذي عذَّبنا به المقتسمين؛ وهم الذين تقاسموا بالله لنبيِّه في قصه صالح عليه السلام. وقيل هم من أهل الكتاب الذين اقتسموا كتاب الله؛ فآمنوا ببعضِه وكفروا ببعضِه.

ويقال إني لكم نذير أخوفكم عقوبة المقتسمين الذين اقتسموا الجبال والطرق بمكة في الموسم، وصدوا الناس. وكان الواحد منهم يقول لِمَنْ مَرَّ به: لا تُؤْمِنْ بمحمدٍ فإنه ساحر، ويقول الآخر: إنه كاهن ويقول ثالث: إنه مجنون، فهم بأقسامهم: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾[1].

ففرقوا القول فيه، فقال بعضهم إنه شعر، وقال بعضهم إنه سحر، وقال بعضهم إنه كهانة... إلى غير ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

العوام يسألهم عن تصحيح أعمالهم، والخواص يسألهم عن تصحيح أحوالهم.

ويقال يسأل قوماً عن حركات ظواهرهم، ويسأل آخرين عن خطرات سرائرهم. ويسأل الصديقين عن تصحيح المعاني بفعالهم، ويسأل المدَّعين عن تصحيح الدعاوى تعنيفاً لهم.

ويقال سماع هذه الآية يوجب لقوم أُنساً وسروراً حيث علموا أنه يكلِّمهم ونُسْمِعُهُم خطابَه لاشتياقِهم إليه، ولا عَجَبَ في ذلك فالمخلوق يقول في مخلوق:

في الخَفِراتِ البيضِ وَدَّ جليسُها إذا ما انتهت أُحْدُوثَةٌ لَوْ تُعِيدُهَا[2]

فلا أسعدَ مِنْ بَشَرٍ يعرف أَنَّ مولاه غداً سيكلمه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

كُنْ بنا وقُلْ بنا، وإذَا كنتَ بِنا ولَنَا فلا تجعلْ حِساباً لغيرنا، وصرِّحْ بما خاطبناك به، وأَفْصِحْ عَمَّا نحن خصصناكَ به، وأَعْلِنْ محبتنا لك:

فسبِّحْ باسم مَنْ تَهوى ودَعْنا من الكُنى فلا خيرَ في اللَّذاتِ مِنْ بعدها سَتْرُ

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) عضين: (ج) عضة: القطعة. وعضة نقصانها الواو أو الهاء، وهي من الأسماء الناقصة، وأصلها عضوة. (اللسان ١٥/٦٨ مادة: عضا).

(٢) الخفرات: (ج) الخفرة: الشديدة الحياء (اللسان ٤/٢٥٣ مادة: خفر).

الذين دَفَعْنَا عنكَ عادية[١] شرِّهم، ودَرَأْنا عنكَ سوءَ مكرهم، ونصرناك بموجب عنايتنا بشأنك.. فلا عليكَ فيما يقولون أو يفعلون، فما العقبى إلا لَك بالنصر والظفر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

وقال: ﴿يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ ولم يقل يضيق قلبك؛ لأنه كان في محل الشهود، ولا راحة للمؤمن دون لقاء الله، ولا تكون مع اللقاء وحشة.

ويقال هَوَّنَ عليه ضيق الصدر بقوله: ﴿**ولقد نعلم**﴾ ويقال إن ضاق صدرُك بسماع ما يقولون فيك من ذمِّكَ فارتفع[٢] بلسانك في رياض تسبيحنا، والثناءِ علينا، فيكون ذلك سبباً لزوال ضيق صدرك؛ وسلوة لك بما تتذكر من جلال قدرنا وتقديسنا، واستحقاق عِزِّنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾.

قف على بساط العبودية معتنقاً للخدمة، إلى أَنْ تَجلس على بِساط القربة، وتطالَبَ بآداب الوصلة.

ويقال التزِمْ شرائطَ العبودية إلى أنْ تَرَقَّى بل تُكْفَى بصفات الحرية.

ويقال في ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[٣]: إن أشرف خصالك قيامك بحقِّ العبودية.

(١) يقال: دفعت عنك عادية فلان؛ أي: ظلمه وشره (ج) عوادٍ.

(٢) الصواب أن تكون: فارتع. قال القشيري برسالته عند حديثه عن الذكر: وفي الخبر المشهور عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا رأيتم الجنة فارتعوا فيها، فقيل له: وما رياض الجنة؟ فقال: مجالس الذكر» الحديث رواه أنس بن مالك وأخرجه الترمذي رقم ٣٥٠٥ في الدعوات باب رقم (٨٧) وقال: إنه حديث حسن. (الرسالة القشيرية ص٢٢٢).

(٣) قال القشيري برسالته عند حديثه عن العبودية: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول: العبادة لمن له علم اليقين، والعبودية لمن له عين اليقين، والعبودة لمن له حق اليقين. (الرسالة القشيرية ص١٩٧).

السورة التي يذكر فيها النحل

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ألف الوصل في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ لم يكن لها في التحقيق أصل، جُلِبَتْ للحاجة إليها للتوصل بها إلى النطق بالسَّاكن، وإذ وقع ذلك أنفاً عنها أُسْقِطَتْ في الإدراج، ولكن كان لها بقاءٌ في الخط وإنْ لم يكن لها ظهور في اللفظ، فلمَّا صارت إلى ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ أسقطت من الخط كذلك.. وكذلك من ازداد صحبةً استأخر رتبةً.

ويقال أي استحقاق لواو عمرو حتى ثبتت في الخط؟ وأي استحقاق إلى الألف في قولهم قتلوا وفعلوا؟ وأيُّ موجبٍ لحذف الألف من السموات؟

طاحت العِلَلُ في الفروق، وليس إلا اتفاق الوضع.. كذلك الإشارة في أرباب الردِّ والقول، قال تعالى ﴿**إن ربك فعال لما يريد**﴾ [هود: ١٠٧].

قوله جلّ ذكره: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١].

صيغة أتى للماضي، والمراد منه الاستقبال لأنه بشأن ما كانوا يستعجلونه من أمر الساعة، والمعنى «سيأتي» أمر القيامة، والكائناتُ كلُّها والحادثات بأسْرِها من جملة أمره؛ أي حصل أمرُ تكوينه وهو أمر من أموره لأنه حاصلٌ بتقديره وتيسيره، وقَضَائه وتدبيره؛ فما يحصل من خير وشرٍّ، ونفع وضرٍّ، وحلو ومُرٍّ. فذلك من جملة أمره تعالى.

﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ وأصحاب التوحيد لا يستعجلون شيئاً باختيارهم لأنهم قد سقطت عنهم الإرادات والمطالبات، وهم خامدون تحت جريان تصريف الأقدار؛ فليس لهم إيثار ولا اختيار فلا يستعجلون أمراً، وإذا أَمَّلوا شيئاً، أو أُخْبِروا بحصول شيءٍ فلا استعجال لهم، بل شأنهم التأنِّي والثباتُ والسكونُ. وإذا بَدَا من التقدير حُكمٌ فلا استعجالَ لهم لما يَرِدُ عليهم، بل يتقبلون مفاجأةَ التقدير بوجهٍ ضاحك، ويستقبلون ما يبدو من الغيب من الردِّ والقبول، والمنع والفتوح بوصف الرضاء، ويحمدون الحق ـ سبحانه وتعالى ـ على ذلك.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: تعالى عما يشركون بربهم، والكفار لم ييسر لهم حتى أنَّه لا سكَنَ لقلوبهم من حديثه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾.

ينزل الملائكة على الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بالوحي والرسالة، وبالتعريف والإلهام على أسرار أرباب التوحيد وهم المُحَدَّثون. وإنزالُ الملائكةِ على قلوبهم غيرُ مردودٍ لكنهم لا يُؤْمَرُون أن يتكلموا بذلك، ولا يكملون رسالةً إلى الخَلْق.

ويُراد بالروح الوحي والقرآن، وفي الجملة الروح ما هو سبب الحياة؛ إمَّا حياة القلب أو حياة الدنيا.

قوله جلّ ذكره: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

خَلَقَها بالحق، ويَحكمُ فيها بالحق، فهو مُحِقٌّ في خَلْقِها لأنَّ له ذلك، ويدخل في ذلك أمرُه بتكليف الخَلْق، وما يَعْقُبُ ذلك التكليفَ من الحَشْرِ والنَّشْرِ، والثواب والعقاب.

﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: تقديساً وتشريفاً له عن أن يكون له شريك أو معه مليك.

قوله جلّ ذكره: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾.

تَعرَّفَ إلى العقلاء بكمال قدرته حيث أخبر أنه قدر على تصوير الإنسان على ما فيه من التركيب العجيب، والتأليف اللطيف؛ من نطفةٍ متماثلة الأجزاء، متشاكلة في وقت الإنشاء، مختلفة الأعضاء وقت الإظهار والإبداء، والخروج من الخفاء. ثم رَكَّبَ فيه من تمييز وعقل، ويَسَّرَ له النطقَ والفعل، والتدبير في الأمور، والاستيلاء على الحيوانات على وجه التسخير.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

ذكَّرهم بما تفَضَّل عليهم، وأخبرهم بما للحيوانات من النِّعم، وما لهم فيها من وجوه الانتفاع في جميع الأحوال، كالحَمِل وكالسفر عليها وقطع المسافات، والتوصُّل على ظهورها إلى مآربهم، وما لِنَسْلِها ولدرِّها من المنافع.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

الغنيُّ له جمال بماله، والفقير له استقلال بحاله.. وشتَّان ما هما! فالأغنياء يتجملون بأنعامهم حين يريحون وحين يسرحون، والفقراء يستقبلون بمولاهم حين يصبحون وحين يمسون. أولئك تحمل أثقالَهم جِمالُهم، وهؤلاء يحمل الحقُّ عن قلوبِهم أثقالَهم.

﴿لَّمْ تَكُونُوا بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾: قومٌ أحوالهم مقاساة الشدائد؛ يَصِلُون سيرهم بسُراهم، وقومٌ في حمل مولاهم؛ بعيدون عن كَدِّ التدبير، مستريحون بشهود التقدير، راضون باختيار الحقّ في العسير واليسير.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

فالنفوس في حَمْلها كالدواب، والقلوب معتقة عن التعنّي[1] في الأسباب. ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: كما أن أهل الجنة من المؤمنين يجدون في الآخرة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بَشَرٍ فكذلك أرباب الحقائق يجدون ـ اليومَ ـ ما لم يخطر قطُّ على بال، ولا قرأوا في كتاب، ولا تلقنوه من أستاذ، ولا إحاطة بما أخبر الحق أنه لا يعلم تفصيله سواه.. وكيف يعلم من أخبر الحقُّ ـ سبحانه ـ أنه لا يعلم؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

قومٌ هداهم السبيل، وعَرَّفَهم الدليل، فصرفَ عن قلوبهم خواطر الشكّ، وعَصَمَهم عن الجُحْدِ والشِّرْك، وأَطْلَعَ في قلوبهم شمسَ العرفان، وأفردهم بنور البيان. وآخرون أضلّهم وأغواهم، وعن شهود الحُجَجِ أعماهم، وفي سابقُ حكْمِه من غير سببٍ أَذَلَّهم وقمعهم، ولو شاء لعرَّفهم وهداهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أنزل المطر وجعل به سُقيا النبات، وأجرى العادة بأن يديمَ به الحياة، وينبت به الأشجار، ويخرج الثمار، ويجري الأنهار.

ثم قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ثم قال بعده بآيات: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، ثم قال بعده: ﴿لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾. وعلى هذا الترتيب تحصل المعرفة؛ فأولاً التفكر ثم العلم ثم التذكر، أولاً يضع النظر موضعه فإذا لم يكن في نظره خَلَلٌ وجب له العلم لا محالة، ولا فرق بين العلم والعقل في الحقيقة، ثم بعده استدامة النظر وهو التذكر.

ويقال إنما قال: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: على الجمع لأنه يحصل له كثير من العلوم حتى يصير عارفاً، وكل جزء من العلم تحصل له آية ودليل، فللعالِم حتى يكون عارفاً بربِّه آياتٌ ودلائل، لأن دليل هذه المسألة خلاف دليل تلك المسألة؛ فبدليل واحد يعلم وَجْهَ النظر، وبأدلة كثيرة يصير عارفاً بربه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.

الليل والنهار ظرفا الفعل، والناس في الأفعال مختلفون: فموفَّقٌ ومخذول؛ فالموفَّق يجري وقته في طاعة ربه، والمخذول يجري وقته في متابعة هواه.

---

(١) تعنّى: تعب تعباً شديداً. وتعنّى الأمر: تكلفه على مشقة.

العابد، يكون في فَرْضٍ يقيمه أو نَفْلٍ يديمه، والعارف في ذكره وتحصيل أوراده بما يعود على قلبه فيؤنسه، وأما أرباب التوحيد فهم مُخْتَطَفُون عن الأحيان والأوقات بغلبة ما يَرِدُ عليهم من الأحوال كما قيل:

لستُ أدري أطال لَيْلِي أم لا ... كيف يدري بذاك مَنْ يَتَقَلَّى؟

لو تَفَرَّغْتُ لاستطالة لَيْلِي ... ورعيت النجومَ كنت مُخِلَّا

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

هذا في الظاهر، وفي الباطن نجوم العلم وأقمار المعرفة وشموس التوحيد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

أقوامٌ خَلَقَ لهم في الأرض الرياضَ والغياض[1]، والدور والقصور، والمساكن والمواطن، وفنون النِّعم وصنوف القِسَم.. وآخرون لا يقع لهم طير على وكر، ولا لهم في الأرض شِبْر؛ لا ديار تملكهم، ولا علاقة تُمْسِكُهُم ـ أولئك ساداتُ الناس وضياء الحق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

سخر البحر في الظاهر، وسهَّل ركوبه في الفُلْك، ويَسَّر الانتفاع بما يستخرج منه من الحُلِيِّ كاللؤلؤ والدُّرِّ، وما يقْتَاتُ به من السمك وحيوان البحر.

ومن وجوه المعاني خلق صنوفاً من البحر، فقومٌ غَرْقَى في بحار الشغل وآخرون في بحار الحزن، وآخرون في بحار اللهو. فالسلامةُ من بحر الشغل في ركوب سفينة التوكل، والنجاة من بحر الحزن في ركوب سفينة الرضا، والسلامة من بحر اللهو في ركوب سفينة الذكر، وأنشد بعضهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

الرواسي في الظاهر الجبال، وفي الإشارة الأولياء الذين هم غياث الخَلْق، بهم يرحمهم، وبهم يغيثهم.. ومنهم أبدال ومنهم أوتاد ومنهم القطب. وفي الخبر: «الشيخ في قومه كالنبي في أمته»[2] وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾

---

(١) الغياض: جمع غيضة وهي الشجر الملتف. (اللسان ٧/ ٢٠٢ مادة: غيض).

(٢) للحديث رواية أخرى: «الشيخ في أهله كالنبي في أمته». أخرجه المتقي الهندي في (كنز العمال ٤٢٦٣٢)، والعجلوني في (كشف الخفاء ٢/ ٢٢)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ٢٢٩)، (أحاديث القصاص ٢٤).

[الأنفال: ٣٣]، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾، [الفتح: ٤٥]، وأنشد بعضهم:

واحسرتا من فراق قوم هم المصابيح والأمن والمزن

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

الكواكبُ نجومَ السماء ومنها رجومٌ للشياطين، والأولياء نجومٌ في الأرضِ. وكذلك العلماء وهم أئمة في التوحيد وهم رجومٌ للكُفَّار والملحدين.

ويقال فرْقٌ بين نجوم يهْتَدَى بها في فِجَاج الدنيا، ونجومٍ يُهْتَدَى بهم إلى الله تعالى.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

تدل هذه الآية على نفي التشبيه بينه ـ سبحانه ـ وبين خَلْقِه. وصفاتُ القِدَم لله مُستَحَقَّة، وما هو من خصائصِ الحدثان وسِماتِ الخَلق يتقدَّس الحقُّ ـ سبحانه ـ عن جميع ذلك. ولا تُشَبَّه ذاتُ القديم بذواتِ المخلوقين، ولا صفاتُه بصفاتِهم، ولا حُكمُه بحُكمِهم، وأصلُ كلِّ ضلالةِ التشبيهُ، ومِنْ قُبْحِ ذلك وفسادِه أَنَّ كلَّ أحدٍ يتبرَّأُ منه ويستنكِفُ من انتحاله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

الموجوداتُ لا تحصوها لِتقاصُرِ علومِكم عنها، وما هو من نِعمَ الدفع فلا نهاية له. وهو غفور رحيم حيث يتجاوز عنكم إذا عجزتم عن شكره، ويرضى بمعرفتكم (. . . . .)[1] لكم عن شكره.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

ما تُسِرُّون من الإخلاص وملاحظة الأشخاص.. فلا يخفى عليه حسبان، وما تعلنون من الوفاق والشقاق، والإحسان والعصيان. والآيةُ توجِبُ تخويف أَربابِ الزَّلات، وتشريفَ أصحابِ الطاعات.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

أخبر أن الأصنامَ لا يَصِحُّ منها الخَلقُ لكونها مخلوقةً، ودلَّت الآيةُ على أنَّ من وُجِدَتْ له سِمَةُ الخَلق لا يصِحُّ منه الخَلق، والخَلقُ هو الإيجاد؛ ففي الآية دليلٌ على خَلقِ الأعمال.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

---

(١) بياض في الأصل.

لأنَّ مَنْ لَحِقَهُ وصفُ التكوين لا يصِحُّ منه الإيجاد. وفي التحقيق كُلُّ مَنْ عَلقَ قلبَه بشيءٍ، وتَوَهَّم منه خيراً أو شراً فقد أشرك بالله بظنِّه، وإنما التوحيدُ تجريدُ القلبِ عن حسبان شظيَّةٍ من النفي والإثبات من جميع المخلوقين والمخلوقات.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾.

لا قَسِيمَ لِذَاتِه جوازاً أو وجوباً، ولا شبيهَ له ولا شريك.. ومَنْ لم يتحققْ بهذه الجملة قطعاً، وبشهادة البراهين له تفصيلاً فهو في دَرَكَاتِ الشِّرك واقعٌ، وعن حقائق التوحيد بمعزل، قال تعالى في صفة الكفار: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أي في أَسْرِ الشِّرْكِ وغطاء الكفر، ثم ليس فيه اتصاف لطلب العرفان؛ لأنَّ العلةَ ـ لِمَنْ أراد المعرفة ـ مُتاحة، وأدلة الخَلق لائحة.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ﴾.

فيفضحهم ويبيِّنُ نفاقَهم، ويُعْلِنُ للمؤمنين كفرهم وشِقاقهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾.

دليل الخطاب أنه يحب المتواضعين المتخاشعين، ويكفيهم فضلاً بشارة الحق لهم بمحبته لهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

لَحِقَهم شؤمُ تكذيبهم، فأَصرُّوا على إعراضهم عن النظر، وقَسَتْ قلوبُهم ولم تجنح إلى الإقرار بالحق، فَلَبَّسُوا على من يسائلهم، وقالوا: هذا الذي جاء به محمد من أكاذيب العجم[1]. فضلُّوا وأَضلوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

لما سَعَوْا في الدنيا لغير الله لم تَصْفُ أعمالُهم، وفي الآخرة حَمَلُوا معهم أوزارهم.. أولئك الذين خَسِروا في الدنيا والآخرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

اتصفوا بالمكر فحاق بهم مَكْرُهم، ووقعوا فيما حفروه لغيرهم، واغتروا بطول الإمهال، فأخذهم العذابُ من مأمَنِهم، واشتغلوا بِلهوهِم فَنَغَّصَ عليهم أطيب عَيْشهم:

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

---

(١) العجم: من ليسوا عرباً، الواحد: عجمي نطق بالعربية أو لم ينطق.

الذي وصف نفسه به في كتابه من الإتيان فمنعاه العقوبة، وذلك على عادة العرب في التوسع في الخطاب.

وهو سبحانه يكشف الليلَ ببَذْره ثم يأخذ الماكر بما يليق بمَكْره، وفي معناه قالوا:

وأَمِنْتُه فأتَاحَ لي من مأمَني مكْراً، كذا مَنْ يَأمَنُ الأيامـا

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

في الدنيا عاجلُ بلائهم، وبين أيديهم آجِلُه. وحَسْرةُ المُفلس تتضاعف إذا ما حُوسِبَ، وشاهَدَ حاصِلَه.

﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ...﴾: يُسْمِعُ الكافرين قولَ المؤمنين، ويبيِّن للكافة صِدْقَهم. ويقع الندمُ على جاهلهم. وأما اليومَ فعليهم بالصبر والتحمُّل، وعن قريب ينكشف الغطاء، وأنشد بعضهم:

خليليَّ لو دارت على رأسِيَ الرَّحى من الذُّلِّ لم أَجْزَعْ ولم أَتكلَّم
وأطرقتُ حتى قيل لا أعرفُ الجفا ولكنني أفصحتُ يومَ التكلُّم

قوله جلّ ذكره: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ۚ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

﴿ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾: بارتكاب المعاصي وهم الكفار.

﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾: انقادوا واستسلموا لحكم الله.

﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾: جحدوا وأنكروا ما عملوا من المخالفات.

﴿بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: هكذا قالت لهم الملائكة، ثم يقولون لهم: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ...﴾: وكذلك الذين تقسو نفوسُهم بإعراضهم عن الطاعات إذا نزَلَتْ بهم الوفاةُ يأخذون في الجزع وفي التضرع، ثم لا تطيبُ نفوسهم بأن يُقِرُّوا بتفاصيل أعمالهم عند الناس، فيما يتعلق بإرضاء خصومهم لما أَخَلُّوا من معاملاتهم، ثم الله يؤاخذهم بالكبير والصغير، والنقير والقطمير، ثم يبقون أبداً في وبال ما أحقبوه، لأن شؤم ذلك يلحقهم في أُخراهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.

أما المسلمون فإذا وردوا عليهم، وسألوهم عن أحوال محمد ـ ﷺ، وعما أَنزل اللَّهُ عليه، قالوا: دينه حقٌّ، واللَّهُ أَنزل عليه الحقَّ. . والذين أحسنوا في الدنيا يجِدُون الخير في الآخرة.

ويقال في هذه الدنيا حسنة، وهي ما لهم من حلاوة الطاعة بصفاء الوقت ويصحُّ أن تكونَ تلك الحسنةُ زيادةَ التوفيق لهم في الأعمال، وزيادةَ التوفيقِ لهم في الأحوال.

ويصح أن يقال تلك الحسنة أَنْ يُوَفِّقَهم بالاستقامة على ما هم عليه من الإحسان.

ويصح أن يقال تلك الحسنة أن يُبَلِّغهم منازلَ الأكابر والسادةِ.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤].

ويصح أن تكون تلك الحسنة ما يتعدَّى منهم إلى غيرهم من بركات إرشادهم للمريدين، وما يجري على من اتبعهم مما أخذوه وتعلموه منهم، قال النبي ﷺ: «لأن يهتدي بهداك رجل خير لك من حمر النعم»(١).

ثم قال: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾، لأن ما فيها يبقى، وليس فيها خطر الزوال. ولأن في الدنيا مشاهدة وفي الآخرة معاينة.

قوله جلّ ذكره: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾.

كما أن الإرادات والهِمَم تختلف في الدنيا فكذلك في الآخرة، وفي الخبر: «مَنْ كان بحالةٍ لَقِيَ الله بها» فَمِنْ مريدٍ يكتفي من الجنة بورودها، ومن مريدٍ لا يكتفي من الجنة دون شهود ربِّ الجنة.

ويقال إذا شاءوا أن يعودوا إلى ما فاتهم من قصورهم، وما وجدوا في ذلك من صحبة اللَّعينِ في سائر أحوالهم وأمورهم يسلم لهم ذلك، ومن شاء لَمْ تدومَ رؤيتُه، ويتأبَّدَ سماعُ خطابه فلهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد، وهو ما لم يخطر ببال أحد.

قوله جلّ ذكره: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

يقبض أرواحَهم طيبةً. أو يقال: ﴿طَيِّبِينَ﴾ حال.

والأسباب التي تطيب بها قلوبُهم وأرواحهُم مختلفة، فمنهم مَنْ طاب وقتُه لأنه قد غُفِرتْ ذنوبُه، وسُتِرتْ عيوبه، ومنهم مَنْ طاب قلبُه لأنه سَلَّمَ عليه محبوبُه، ومنهم من طاب قلبه لأنه لم يَفُتْه مطلوبه.

---

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٤/٥٨ ـ ٢٧٣، ٥/٢٣ ـ ١٧١)، ومسلم في الصحيح (فضائل الصحابة ب٤ رقم ٣٤).

ومنهم من طاب وقته لأنه يعود إلى ثوابه، ويصل إلى حُسْنِ مآبه.

ومنهم من يطيب قلبه لأنه أَمِنَ من زوال حالِه، وحظي بسلامة مآله، ومنهم من يطيب قلبُه لأنه وصل إلى أفضاله، وآخر لأنه وصل إلى لطف جماله، وثالث لأنه خُصَّ بكشف جلاله ـ قد عَلِمَ كلُّ أناسٍ مَشْرَبَهم.

ويقال: ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ طيبةً نفوسهم أي طاهرةً من التدنُّس بالمخالفات، وطاهرةً قلوبُهم عن العلاقات، وأسرارهم عن الالتفات إلى شيء من المخلوقات.

قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ إحْظَوْا بالجنة، منهم مَنْ يخاطبه بذلك المَلَكَ، ومنهم مَنْ يُكَاشِفه بذلك المَلِكُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

القومُ ينتظرون مجيءَ المَلَكِ لأنهم لم يعرفوه ولم يعتقدوا كونَه. ولكن لمَّا كانوا يستعجلون معتقدين أن الرسلَ غيرُ صادقين، ولمَّا سلكوا مسلكَ أضرابهم من المتقدمين ـ عوملوا بمثل ما لَقِي أسلافُهم، وما كان ذلك من الله ظلماً، لأنه يتصرف في مُلْكه من غير حُكْمِ حاكمٍ عليه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

خَبثَتْ قصودُهم فيما قالوا على وجه التكذيب والاستهزاء، وغَلَبَتْ على نطقهم ظلمات جهلهم وجحدهم، وانكشف عدمُ صِدْقِهم في أحوالهم.

وقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ...﴾ يشبه قولهم: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧]. ولا خلاف أن الله لو شاء أن يطعمهم لكان ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

لم يُخْلِ زماناً من الشرع توضيحاً لحجته، ولكن فرَّقهم في سابقِ حُكْمِه؛ ففريقاً هداهم، وفريقاً حَجَبَهم وأعماهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

ألزمهم الوقوفَ على حدِّ العبودية في إرادة هدايتهم ومعرفتهم حقائق الربوبية فقال: إنك وإنْ كنتَ بأمرنا لك حريصاً على هدايتهم؛ فإن من قَسَمْتُ له الضلالَ لا يجري عليه غيرُ ما قَسمْتُ له.

ويقال من ألبستُه صدارَ الضلال لا تنزعه وسيلةٌ ولا شفاعة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

القَسَمُ يؤكّد الخبرَ، ولكنَّ يمينَ الكاذب توجِب ضَعْفَ قوله؛ لأنه كلما زاد في جحد الله ازداد القلبُ نفرةً من قوله:

قوله جلّ ذكره: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ﴾.

إذا بيَّن الله صِدْقَ ما ورد به الشرع في الآخرة بكشف الغيب زاد افتضاحُ أهل التكذيب فيكون في ذلك زيادةٌ لهم في التعذيب.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

فيكون بالسمع عِلْمُ تَعَلُّقِ قَوْلِه بما يفعله، وحَمَله قومٌ على أن معناه أنه لا يتعسَّرُ عليه فعلُ شيءٍ أراده، فالآية على القولين جميعاً.

والذي لا يحتاج في فعله إلى مادة يخلق منها لا يفتقر إلى مدةٍ يقع الفعل فيها.

وتدل الآيةُ على أَنَّ قولَه ليس بمخلوق؛ إذ لو كان مخلوقاً لكان مقولاً له: كن، وذلك القول يجب أن يكون مقولاً له بقولٍ آخر... وهذا يؤدي إلى أن يتسلسلَ ما يحصل إلى ما لا نهاية له.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

مَنْ هَاجَرَ عن أوطان السوء ـ في الله ـ أبدل له اللَّهُ في جوار أوليائه ما يكون له في جوارهم معونَةٌ على الزيادة في صفاء وقته. ومَنْ هَجَرَ أوطانَ الغفلة مَكَّنَهُ الله مِنْ مشاهدِ الوصلة. ومَنْ فَارقَ مجالسة المخلوقين، وانقطع بقلبه إليه ـ سبحانه ـ باستدامة ذكره ـ فكما في الخبر: «أنا جليس من ذكرني». وبدايةُ هؤلاء القوم نهايةُ أهل الجنة؛ ففي الخبر «الفقراء الصابرون جلساءُ الله يوم القيامة». ويقال القلبُ مظلومٌ من جهة النَّفْس لما تدعوه إليه من شهواتها، فإذا هجرها أورث اللَّهُ القلبَ أوطانَ النَّفْس حتى تنقادَ لما يطالِبُ به القلبُ من الطاعة؛ فبعد ما تكون أوطان الزَّلَّةِ بدواعي الشهوة تصير أوطانَ الطاعة لسهولة أدائها.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

الصبرُ الوقوفُ بحسب جريان القضاء، والتوكل التوقي بالله بحُسْن الرجاء.

ويقال صبروا في الحال، وتوكلوا على الله في تحقيق الآمال.

ويقال الصبر تحسِّي كاساتِ المقدور، والتوكل الثقة في الله في استدفاع المحذور.

ويقال الصبرُ تجرُّعُ ما يُسْقَى، والتوكل الثقة بما يرجو.

ويقال إنما يقوَوْن على الصبر بما حققوا من التوكل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

تعجبوا أن يكون من البَشرِ رُسلا، فأخبر أنَّ الرسلَ كلّهم كانوا من البشر، وأنَّ فيمن سبق مَنْ أقَرَّ بذلك. ﴿أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ هم العلماء؛ والعلماء مختلفون: فالعلماءُ بالأحكام إليهم الرجوعُ في الاستفتاء من قِبَل العوام فَمَنْ أُشْكِل عليه شيءٌ من أحكام الأمر والنهي يرجع إلى الفقهاء في أحكام الله، ومن اشتبه عليه شيءٌ من علم السلوك في طريق الله يرجع إلى العارفين بالله، فالفقيه يوقِّع عن الله، والعارف ينطق ـ في آداب الطلب وأحكام الإرادة وشرائط صحتها ـ عن الله، فهو كما قيل: أليس حقاً نطقت بين الورى فاشتهرت، كاشفها يعلم ما منَّ عليها فجرت، فهي عناء به عينيه قد طهرت.

قوله جلّ ذكره: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي إن البيانَ إليك، فأنت الواسطة بيننا وبينهم، وأنت الأمين على وحينا.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

العبدُ في جميع أحواله عُرْضَةٌ لِسِهام التقدير، فينبغي أن يستشعر الخوفَ في كلِّ نَفَسٍ من الإصابة بها، وألَّا يأمنَ مَكْرَ الله في أي وقت، وأكثر الأسنة تعمل في الموطأةِ نفوسُهم وقلوبُهم على ما عَوَّدَهم الحقُّ من عوائد المِنّة، ولكن كما قيل:

يا راقدَ الليلِ مسروراً بأوَّلِه ... إنَّ الحوادثَ قد يَطْرُقْنَ أسحارا

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾.

كل مخلوقٍ من عين أو أثر، مِنْ حَجَر أو مَدَرٍ أو غَبَرٍ فلله ـ من حيث البرهان ـ ساجد، ومن حيث البيان على الوحدانية شاهد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

ذلك سجود شهادة لا سجود عبادة، فإذا امتَنَعَتْ عن إقامة الشهادة لقوم قالةٌ، فقد شهد كل جزء منهم من حيث البرهان والدلالة.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

يخافون الله أن يُنزلَ عليهم عذاباً من فوق رؤوسهم.

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ لا يعصونه ولا يحيدون عن طاعته.

ويقال خيرُ شيء للعبد في الدنيا والآخرة الخوفُ؛ إذ يمنعه من الزَّلة ويحمله على الطاعة.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

الحاجة إلى إثبات صانعٍ واحد داعية، وما زاد على الواحد (فالا....)[1] فيه متساوية.

ويقال إثبات الواحد ضرورة، وقُدْرَةُ الاثنين محصورة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾.

له الدين خالصاً وله الدين دائماً، وله الدينُ ثابتاً، فالطاعة له واجبة. فلا تتقوا غيره، وأطيعوا شَرْعَه بخلاف هواكم، واعبدوه وَحْدَه، واستجيبوا له في المَسَرَّةِ والمَضَرَّةِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾.

النعمة ما يُقَرِّبُ العبدَ من الحق، فأمَّا ما لا يوجِب النسيانَ والطغيان، والغفلةَ والعصيانَ فأَوْلَى أن يكون محبة.

ويقال ما للعبد فيه نفع، أو يحصل به للشر منع فهو على أصح القولين نعمة؛ سواء كان دينياً أو دنيوياً، فالعبد مأمورٌ بالشكر على كل حال. وأكثر الناس يشكرون على نعم الإحسان، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] على كل حال.

وفائدةُ الآيةِ قَطْعُ الأسرارِ عن الأغيار في حالتي اليُسْر والعُسْر، والثقة بأن الخير والشر، والنفع والضر كلاهما من الله تعالى.

---

(١) بقية الكلمة بياض في الأصل.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ .

إذ ليس لكم سواه؛ فإذا أَظَلَّتْ العبدَ هواجمُ الاضطرار التجأ إلى الله في استدفاع ما مَسَّه من البلاء ثم إذا مَنَّ الحقُّ عليه، وجاد عليه بكشف بلائه صار كَأَنْ لم يمسه سوءٌ أو أصابه همٌّ كما قيل:

كأنَّ الفتى لم يَعْرَ يوماً إذا اكتسى ... ولم يَكُ صعلوكاً إذا ما تَموَّلَا

وقال:

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ .

الخطاب عام، وقوله: ﴿مِّنكُم﴾ : لأنَّ القومَ منهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ .

في هذا تهديد أي أنهم سوف يندمون حين لا تنفع لهم ندامةٌ، ويعتذرون حين لا يُقْبَلُ لهم عُذْرٌ. . ومَنْ زَرَعَ شراً فلن يَحْصُدَ إلا جزاءَ عَمَلِهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ .

أي يجعلون لما لا يعلمون ـ وهي أصنامهم التي ليس لها استحقاق العلم ـ نصيباً من أرزاقهم؛ فيقولون هذا لهم وهذا لشركائنا.

﴿تَٱللَّهِ﴾ أقسم إنهم سيلْقَوْن عقوبةَ فِعْلِهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ .

من فَرْطِ جهلهم وصفوا المعبودَ بالولد، ثم زاد اللَّهُ في خذلانهم حتى قالوا: الملائكة بنات الله. وكانوا يكرهون البنات، فرضوا لله بما لم يرضوا لأنفسهم. ويلتحق بهؤلاء في استحقاق الذمّ كلُّ مَنْ آثر حَظَّ نَفْسِه على حقِّ مولاه، فإذا فعل مَالَهُ فيه نصيبٌ وغرضٌ كان مذمومَ الوصف، ملوماً على ما اختاره من الفعل.

ثم إنه عابهم على قبيح ما كانوا يفعلونه ويتصفون به من كراهةِ أَنْ تُولَد لهم الإناثُ فقال:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ .

استولت عليهم رؤية الخَلْق، وملكتهم الحيرة، فَلحَقُوا على البنات مما يلحقهم عند تزويجهن وتمكين البَعْلِ فيهن. . وهذه نتائج الإقامة في أوطان التفرقة، والغيبة عن شهود الحقيقة.

ثم قال: ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ أي يحبس المولودَ إذا كان أنثى على مَذَلَّة، ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِ﴾ ليموت؟ وتلك الجفوةُ في أحوالهم جَعَلَتْ ـ من قساوة قلوبهم في أحوالهم ـ العقُوبةَ أشدَّ مما كانت بتعجيلها لهم. وجَعَلَهُم فرطُ غيظهم، وفَقْدُ رضائهم، وشدة حنقهم على من لا ذنبَ له من أولادهم ـ من أهل النار في دَرَكَاتِ جهنم، وتكدَّر عليهم الوقتُ، واستولت الوحشةُ.. ونعوذ بالله من المَثَلِ السوء!

قوله جلّ ذكره: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

مَثَلُ السوءِ للكفار الذين جحدوا توحيدَه فلهم صفة السوء.

ولله صفات الجلال ونعوت العِزِّ، ومَنْ عَرَفَه بنعت الإلهية تَمَّتْ سعادتُه في الدارين، وتعجلت راحته، وتنَزَّه سِرُّه على الدوام في رياضِ عرفانه، وطَرِبَتْ روحُه أبداً في هيجان وَجْدِه.

أمَّا الذين وُسِمُوا بالشِّرْكِ ففي عقوبة مُعَجَّلة وهموم مُحَصَّلة. ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ...﴾ أي لو عاملهم بما استحقوا عاجلاً لَحَلَّ الاستئصالُ بهم، ولكنَّ الحُكْمَ سَبَقَ بإمهالهم، وسَيَلْقَوْن غِبَّ أعمالهم في مآلِهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ۚ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾.

انخدعوا لمَّا لانَ لهم العيشُ، فظنوا أنهم ينجون، وبما يُؤَمِّلونه يحيطون؛ فَحسُنَتْ في أعينهم مقابِحُ صفاتهم، ويومَ يُكْشَفُ الغطاءُ عنهم يعضون بنواجذ الحسرة على أنامل الخيبة، فلا تسْمَعُ منهم دعوة، ولا تتعلق بأحدهم رحمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أنزل هذه الآية على جهة التسلية للنبي ـ ﷺ؛ وذلك أنه أخبر أن مَنْ تَقدَّمَه من الأمم كانوا في سلوك الضلالة، والانخراط في سِلْكِ الجهالة كما كان من قومه، ولكن اللَّهَ ـ سبحانه ـ لم يعجز عنهم. وكما سَوَّلَ الشيطانُ لأُمَّتِه، وكان ولياً لهم، فهو وليُّ هؤلاء. وأمَّا المؤمنون فالله وليُّهم، والكافرون لا مَوْلى لهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أنت الواسطة بيننا وبين أوليائنا، ولك البرهان الأعلى والنور الأوفى؛ تُبَلِّغُ عنَّا وتؤدِّي مِنَّا، فأنت رحمةٌ أرسلناك لأوليائنا.. فَمَنْ تَبِعَكَ اهتدى، ومَنْ عصاك ففي هلاكه سعى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

أحياء بماء التوفيق قلوبَ العابدين فَجَنَحَتْ إلى جانب الوفاق، وأحيا بماء التحقيق أرواح العارفين فاستروحت على بساط الوصال، وأحيا بماء التجريد أسرار الموحدين فتحررت من رِقِّ الآثار، وانفردت بحقائق الاتصال.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾.

سَخَّرَها لكم، وهيأها للانتفاع بلحمها وشحمها، وجِلْدِها وشَعْرِها ودَرِّها، وأصلها ونَسْلِها. ثم عجيبٌ ما أظهر من قدرته من إخراج اللبن ـ مع صفائه وطعمه ونَفْعِه ـ من بين الروث[1] والدم، وذلك تقدير العزيز العليم. والذي يقدر على حفظ اللبن بين الروث والدم يقدر على حفظ المعرفة بين وحشة الزَّلَّةِ من وجوهها المختلفة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

مَنَّ على العباد بما خَلَقَ لهم من فنون الانتفاع بثمرات النخيل كالتمر والرطب واليابس.. وغير ذلك.

والرزق الحسن ما كان حلالاً. ويقال هو ما أتاك من حيث لا تحتسب، ويقال هو الذي لا مِنَّة لمخلوقٍ فيه ولا تَبِعَةَ عليه.

ويقال هو ما لا يعصي الله مكتسبُه في حال اكتسابه.

ويقال هو ما لا يَنْسَى الله فيه مُكْتَسِبُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أوحى إلى النحل: أراد به وحي إلهام.. ولما حَفِظَ الأمر وأكل حلالاً، طَابَ مأكلُه وجعل ما يخرج منه شفاءً للناس.

(١) الروث: رجيع ذي الحافر، والجمع أرواث. (اللسان ٢/١٥٦ ـ ١٥٧ مادة: روث).

ثم إن الله ـ سبحانه ـ عَرَّفَ الخَلْقَ أنَّ التفضيل ليس من جهة القياس والاستحقاق؛ إذ أن النحلَ ليس له خصوصية في القامة أو الصورة أو الزينة، ومع ذلك جعل منه العَسَلَ الذي هو شفاء للناس.

والإنسان مع كمال صورته، وتمام عقله وفطنته، وما اختص به الأنبياء عليهم السلام والأولياء من الخصائص جعل فيهم من الوحشة ما لا يخفى.. فأيُّ فضيلةٍ للنحل؟ وأيُّ ذنبٍ للإنسان؟ ليس ذلك إلا اختياره ـ سبحانه.

ويقال إن الله ـ سبحانه ـ أجرى سُنَّتَه أَنْ يُخْفِيَ كلَّ شيء عزيز في شيء حقير؛ فجعل الإِبْرَيْسَمَ[1] في الدود وهو أضعف الحيوانات، وجعل العسل في النحل وهو أضعف الطيور، وجعل الدُّرَّ في الصدف[2] وهو أوحش حيوان من حيوانات البحر، وكذلك أودع الذهب والفضة والفيروزج[3] في الحجر... كذلك أودع المعرفة به والمحبة له في قلوب المؤمنين وفيهم من يعصي وفيهم من يخطىء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

خَلَق الإنسانَ في أحسن تركيب، وأملح ترتيب، في الأعضاء الظاهرة والأجزاء الباطنة، والنور والضياء، والفهم والذكاء. ورَزَقَه من العقل والتفكر، والعلم والتبصر، وفنون المناقب التي خُصَّ بها من الرأي والتدبير، ثم في آخر عمره يجعله إلى أرذل العمر مردوداً، ويرى في كل يوم أَلَماً جديداً.

ويقال ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾: وهو أن يرد إلى الخذلان بعد التوفيق؛ فهو يكون في أول أحوال عمره مطيعاً ثم يصير في آخر عمره عاصياً.

ويقال أرذل العمر أن يرغب في عنفوان شبابه في الإرادة، ويسلك طريق الله مدةً، ثم تقع له فترةٌ، فيفسخ عقد إرادته، ويرجع إلى طلب الدنيا. وعند القوم هذه رِدَّةٌ في هذا الطريق.

ويقال أرذلُ العمر رغبةُ الشيخ في طلبٍ.

ويقال أرذلُ العمر حُبُّ المرءِ للرياسة.

ويقال أرذلُ العمر اجتماع المظالم على الرجل وألا يُرْضِيَ خصومَه.

---

(١) الإِبْرَيْسَمُ: أحسن الحرير (معربة فارسية).

(٢) الصدف: صدف الدرة: غشاؤها (اللسان ٩/ ١٨٨ مادة: صدف).

(٣) الفيروزج: حجر كريم غير شفاف، أزرق اللون، بلون السماء أو أميل إلى الخضرة يُحَلّى به (مع).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾.

أرزاق المخلوقات مختلفة؛ فَمِنْ مضيَّقٍ عليه رزقُه، ومَنْ مُوَسَّعٍ عليه رزقه، ومِنْ أرزاق هي أرزاق النفوس، وأرزاقٍ للقلوب وأرزاق للأرواح، وأرزاقٌ للأسرار؛ فأرزاقُ النفوسِ لقوم بتوفيق الطاعات، ولآخرين بخذلان المعاصي. وأرزاق القلوب لقوم حضورُ القلب باستدامة الفكر، ولآخرين باستيلاء الغفلة ودوام القسوة. وأرزاقُ الأرواح لقوم صفاء المحبة، ولآخرين اشتغال أرواحهم بالعلاقة بينهم وبين أشكالهم، فيكون بلاؤهم في محبتهم لأمثالهم. وأرزاق الأسرار لا تكون إلا بمشاهدة الحقِّ، فأمَّا من لم يكن من هذه الجملة فليس من أصحاب الأسرار.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ﴾.

شَغَلَ الخَلْقَ لأنَّ الجنس أَوْلَى بالجنس. ولمَّا أراد الحقُّ - سبحانه - بقاء الجنس هَيَّأَ سبب التناسب والتناسل لاستيفاء مثل الأصل. ثم مَنَّ على البعض بخلْق البنين، وابتلى قوماً بالبنات - كلٌّ بتقديره على ما يشاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾.

والرزق الطيب لعبدٍ ما تستطيبه نَفْسُه، ولآخر ما يستطيبه سِرُّه.

فمنهم من يستطيب مأكولاً ومشروباً، ومنهم من يستطيب خلوةً وصفوةً... إلى غير ذلك من الأرزاق.

﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ﴾، وهو حسبان حصول شيءٍ من الأغيار، وتعلُّق القلبِ بهم استكفاءً منهم أو استدفاعاً لمحذور أو استجلاباً لمحبوب.

﴿وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾ والنعمة التي كفروا بها هي الثقةُ بالله، وانتظارُ الفَرَجِ منه، وحسنُ التوكلِ عليه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾.

ومَنْ يَتَعَلَّقُ بشخصٍ أو بسببٍ مُضاهٍ لعُبَّاد الأصنام من حيث إنه يضيِّعُ وقتَه فيما لا يُعِينُه، فالرزقُ، من الله - في التحقيق - مُقَدَّرٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

كيف تُضرَبُ الأمثالُ لمن لا يساويه أحدٌ في الذات والصفات وأحكام الأفعال؟

ومَنْ نَظَرَ إلى الحقِّ من حيث الخَلْق وقع في ظلمات التشبيه، وبقي عن معرفة المعبود.

قوله جلّ ذكره: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

شَبَّهَ الكافرَ بالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء ولا مِلْكَ له في الشرع، والمؤمنَ المخلصَ بمَنْ رَزَقه الخيراتِ ووفقه إلى الطاعات ثم وعده الثوابَ وحُسْنَ المآبِ على ما أنفقه.

ثم نفى عنهما المساواة إذ ليس مَنْ كان بنفسِه، ملاحِظاً لأبناء جِنسِه، متمادياً في حسبان مغاليطه كمَنْ كان مُدرِكاً بربِّه مصْطَلماً عن شاهده، غائباً عن غيره، والمُجرِي عليه ربُّه ولا حَوْل له إلا به.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

هذا المَثلُ أيضاً للمؤمن والكفار؛ فالكافر كالجاهل الأبكم الذي لا يجيء منه شيءٌ، ولا يحصل منه نفع، والمؤمن على الصراط المستقيم يتبرأ عن حَوْله وقُوَّته، ولا يغترف إلا بطوْله ـ سبحانه ـ ومِنَّتِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

استأثر الحقُّ ـ سبحانه ـ بعلم الغيبيات، وسَترَها على الخلْق؛ فيخرِجُ قوماً في الضلالة ثم ينقلهم إلى صفة الولاية، ويقيم قوماً برقم العداوة ثم يردهم إلى وصف الولاية.. فالعواقبُ مستورة، والخواتيم مبهمة، والخَلْقُ في غفلة عما يُرَادُ بهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

خلَقَهُم مِنْ غير أنْ شاورهم، وأثبتهم ـ على الوصف الذي أراده ـ دون أن خَيَّرهم، ولم يعلموا بماذا سبق حُكْمُهم.. أبا لسعادة خلقهم أم على الشقاوة من العدَم أخرجهم من بطون أمهاتهم؟ فلا صلاحَ أَنْفُسِهِمْ عَلِمُوا، ولا صفةَ ربِّهم عَرفوا. ثُمَّ بحُكْم الإلهام هداهم حتى قَبَّلَ الصبيُّ ثدي أمه وإن لم يكن قد تقدمه تعريف أو تخويف أو تكليف أو تعنيف.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾: لتسمعوا خطابه، ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لتُبصِروا أفعالَه، ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لِتَعْرِفُوا حقَّه، ثم لتشكروا عظيم إنعامه عليكم بهذه الحواس.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الطائر إذا حَلّقَ في الهواء يبقى كالواقف ولا يسقط، وقد قامت الدلالة على أن الحقَّ ـ سبحانه ـ متفرِّدٌ بالإيجاد، ولا يَخْرُجُ حادثٌ عن قدرته، وفي ذلك دلالة على كمال قدرته سبحانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

للنفوس وطن، وللقلوب وطن. والناس على قسمين مستوطنٌ ومسافر: فكما أن الناس بنفوسهم مختلفون فكذلك بقلوبهم؛ فالمريد أو الطالب مسافِرٌ بقلبه لأنه يَتَلَوَّنُ، ويرتقي من درجة إلى درجة، والعارف مقيمٌ ومستوطِنٌ لأنه واصل متمكن. والطريق منازلُ ومراحلُ، ولا تقطع تلك المنازل بالنفوس وإنما تقطع بالقلوب، والمريد سالِكٌ والعارف واصِلٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾.

في الظاهر جعل لكم من الأشجار والسقوف ونحوها ظلالاً.. كذلك جعل في ظل عنايته لأوليائه مثوًى وقراراً.

وكما سَتَرَ ظواهركم بسرابيل تقيكم الحرَّ وسرابيل تقيكم بأس عدوكم ـ كذلك ألبس سرائركم لباساً يلفكم به في السراء والضراء، ولباسَ العصمة يحميكم من مخالفته، وأظلكم بظلال التوفيق مما يحملكم على ملازمة عبادته، وكساكم بحُلَلِ الوصل مما يؤهلكم لقربته وصحبته.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ...﴾، إتمام النعمة بأن تكون عاقبتُهم مختومة بالخير، ويكفيهم أمورَ الدين والدنيا، ويصونهم عن اتباع الهوى، ويُسَدِّدُهم حتى يؤثروا ما يوجِبُ من الله الرضاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

إذا بَلَّغْتَ الرسالة فما جعلنا إليك حكم الهداية والضلالة.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

يَسْتَوْفِقُونَ إلى الطاعةِ، فإذا فعلوا أُعْجِبُوا بها[1].

---

(١) قال القشيري برسالته عند حديثه عن المقام: سمعت الشيخ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: =

ويقال يستغيثون، فإذا أجابهم قَصَّروا في شُكْرِه.

ويقال إذا وَقَعَتْ لهم محنةٌ استجاروا بربهم، فإذا أزال عنهم تلك المحن نسوا ما كانوا فيه من الشدة، وعادوا إلى قبيح ما أسلفوه من أعمالهم التي أوجبت لهم تلك الحالة.

ويقال يعرفون في حال توبتهم قُبْحَ ما كانوا فيه حال زلتهم، فإذا نقضوا توبتهم صاروا كأنهم لم يعرفوا تلك الحالة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

إذا كان يومُ الحشر سأل الرسلُ عن أحوال أُمَمِهم، فمن نَطَقَ بحجةٍ أُكْرِمَ، ومَنْ لم يُدْلِ بحجةٍ لا تُراعى له حُرْمةٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

أي يُشَدَّد عليهم الأمرُ ولا يُسَهَّل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

تمنوا أن يَنْقِمُوا من إخوانهم الذين عاشروهم، وحملوهم على الزَّلَّة، فيتبرأون من شركائهم، ويلعن بعضهم بعضاً، وتضيق صدورهم من بعض.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

واستسلموا لأمر الله وحُكْمه، ويومئذ لا تضرُّع منهم يُرَى، ولا مِحْنَةَ ـ يصرخون من ويلها ـ عنهم تُكْشَف.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

تأتي ـ يومَ القيامة ـ كلُّ أمة مع رسولها، فلا أُمةَ كهذه الأمةِ فضلاً، ولا رسولَ كرسولنا ﷺ رتبةً وقَدْراً.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي القرآن تبياناً لكل شيء، فيه للمؤمنين شفاء، وهو لهم ضياء، وعلى الكافرين بلاء، وهو لهم سبب محنة وشقاء.

= لما دخل الواسطي نيسابور سأل أصحاب أبي عثمان: بماذا كان يأمركم شيخكم؟ فقالوا: كان يأمرنا بالتزام الطاعات ورؤية التقصير فيها، فقال: أمركم بالمجوسية المحضة، هلّا أمركم بالغيبة عنها برؤية منشئها ومجريها، وإنما أراد الواسطي بهذا صيانتهم عن محل الإعجاب، لا تعريجاً في أوطان التقصير أو تجويزاً للإخلال بأدب من الآداب. (الرسالة القشيرية ص٥٧).

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

العدل ما هو صواب وحسن، وهو نقيض الجور والظلم.

أمر اللّهُ الإنسانَ بالعدل فيما بينه وبين نفسه، وفيما بينه وبين ربه، وفيما بينه وبين الخَلْق؛ فالعدلُ الذي بينه وبين نفسه مَنْعُها عما فيه هلاكُها، قال تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]، وكمالُ عدلِه مع نفسه كيُّ عُروقِ طمعِه.

والعدلُ الذي بينه وبين ربّه إيثارُ حقِّه تعالى على حظِّ نفسه، وتقديمُ رضا مولاه على ما سواه، والتجرد عن جميع المزاجر، وملازمة جميع الأوامر.

أو العدل الذي بينه وبين الخَلْق يكون ببذل النصيحة وترك الخيانة فيما قل أو كثر، والإنصاف بكل وجه وألا تَشِيَ إلى أحد بالقول أو بالفعل، ولا بِالهَمّ أو العزم.

وإذا كان نصيبُ العوام بَذْلَ الإنصافَ وكَفَّ الأذى فإنَّ صفةَ الخواص تَرْكُ الانتصاف، وإسداءُ الإِنْعَام، وتَرْكُ الانتقام، والصبرُ، على تَحَمُّلِ، ما يُصيبُكَ من البلوى.

وأما الإحسان فيكون بمعنى العلم ـ والعلمُ مأمورٌ به ـ أي العلم بحدوثِ نَفْسه، وإثباتِ مُحْدِثِه بصفات جلاله، ثم العلم بالأمور الدينية على حسب مراتبها. وأما الإحسانُ في الفعل فالحَسَنُ منه ما أمر الله به، وأَذِنَ لنا فيه، وحَكَمَ بمدح فاعله.

ويقال الإحسان أن تقوم بكل حقٍّ وَجَبَ عليك حتى لو كان لطيرٍ في مِلكِك، فلا تقصر في شأنه.

ويقال أن تَقْضِيَ ما عليك من الحقوق وألا تقتضِيَ لك حقاً من أحد.

ويقال الإحسان أن تتركَ كل ما لَكَ عند أحد، فأما غير ذلك فلا يكون إحساناً.

وجاء في الخبر: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه» وهذه حال المشاهدة التي أشار إليها القوم.

قوله: ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ إعطاء ذي القرابة، وهو صلةُ الرَّحِمِ، مع مُقاساةِ ما منهم من الجَوْرِ والجفاءِ والحَسَدِ.

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾: وذلك كلُّ قبيح مزجورٍ عنه في الشريعة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

يُفْرَضُ على كافةِ المسلمينِ الوفاءُ بعهد الله في قبول الإسلام والإيمان، فتجبُ عليهم استدامةُ الإيمان. ثم لكلِّ قوم منهم عهدٌ مخصوص عاهدوا الله عليه، فهم مُطَالَبُون بالوفاء به؛ فالزاهدُ عَهْدُه ألا يَرجِعَ إلى الدنيا، فإذا رجع إلى ما تركه منها فقد

نَقضَ عهده ولم يفِ به. والعابد عاهده في تَرْكِ الهوى. والمريدُ عَاهَدَه في ترك العادة، وآثره بكل وجه. والعارف عهده التجرد له، وإنكار ما سواه. والمحب عهده تركُ نَفْسِهِ معه بكل وجه والموحِّد عهده الامتحاء[1] عنه، وإفراده إياه بجميع الوجوه والعبد مَنْهِيٌّ عن تقصير عهده، مأمورٌ بالوفاء به.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾.

مَنْ نَقَضَ عهده أفسد بآخِرِ أمرِه أوَّلَه، وهَدَمَ بِفِعْلِهِ ما أَسَّسَه، وقَلَعَ بيده ما غَرَسَه، وكان كمن نقضت غَزْلَها من بعد قوة أنكاثاً[2] أي من بعد ما أبرمت فَتْلَه.

وإنَّ السالكَ إذا وقعت له فترة، والمريدَ إذا حصلت له في الطريق وقفةٌ، والعارف إذا حصلت له حجبَةٌ، والمحبَّ إذا استقبلته فرقةٌ ـ فهذه مِحَنٌ عظيمةٌ ومصائِبُ فجيعةٌ، فكما قيل:

فَلأَبْكِيَنَّ على الهلالِ تأسُّفاً   خوفَ الكسوفِ عليه قبل تمامه

فما هو إلا أَنْ تُكْشَفُ شَمْسُهُم، وينطفِيءَ ـ في الليلة الظلماءِ ـ سِراجُهم، ويتشتَّتَ من السماء نجومِهم، ويصيبَ أزهارَ أُنْسِهِم وربيعَ وَصْلِهم إعصارٌ فيه بلاءٌ شديدٌ، وعذابٌ أليم. فإنَّ الحقَّ ـ سبحانه إذا أراد بقوم بلاءً فكما يقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠] فإنَّ آثارَ سُخْطِ الملوكِ مُوجِعةٌ، وقصةَ إعراضِ السلطانِ مُوحِشَةٌ وكما قيل:

والصبر يَحْسُنُ في المواطن كلها   إلا عليكَ ـ فإنَّه مذمومٌ[3]

هنالك تنسكب العَبَراتُ، وتُشَق الجيوب، وتُلْطَم الخدود، وتُعطَّلُ العِشار، وتخَرَّبُ المنازلُ، وتسودُّ الأبواب، وينوح النائح:

وأتى الرسول فأخـ   ـبر أنهم رحلوا قريبا
رجعوا إلى أوطانهم   فجرى لهم دمعي صبيبا

---

(١) قال القشيري برسالته: من أقاويل الشيوخ بالمحبة: محو المحب لصفاته، وإثبات المحبوب. (الرسالة القشيرية ص٣٢١).

(٢) الأنكاث: واحدها نِكْث: وهو الغزل من الصوف أو الشعر، تُبرم وتُنسج، فإذا خَلَقَت النسيجة قُطِّعت قطعاً صغاراً، ونكثت خيوطها المبرومة، وخُلطت بالصوف الجديد، ونَشِبت به، ثم ضُربت بالمطارق وغزلت ثانية واستعملت، والذي ينكثها يقال له: نكّاث ومن هذا نكث العهد وهو نقضه بعد إحكامه، كما تُنكث خيوط الصوف المغزول بعد إبرامه. (لسان العرب ٢/ ١٩٧ مادة: نكث).

(٣) رواية البيت في الرسالة القشيرية ص١٨٤:

الصبر يجمل في المواطن كلها   إلا عليك فإنه لا يجمل

وتـركـن نـاراً فـي الـضـلـوع وزرعـن فـي رأسـي مـشـيـبـا

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

بلاءُ كلِّ واحدٍ على ما يليق بحاله؛ فمن كان بلاؤه بحديث النَّفْسِ أو ببقائه عن هواه، وبحرمانه لكرائمه في عُقْباه فاسمُ البلاءِ في صفته مَجَازٌ، وإنما هذا بلاء العوام. ولكنَّ بلاَءَ الكِرامِ غيرُ هذا فهو كما قيل:

مَنْ لم يَبِتْ ـ والحبُّ مِلْءُ فؤادِه لـم يَـدْرِ كـيـف تَـفَـتُّـتُ الأكـبـادِ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

ليست واقعةُ القوم بخسرانٍ يُصيبهم في أموالهم، أو من جهة تقصيرهم في أعمالهم ولِمَا صنيَّعوه من أحوالهم.. فهذه ـ لعمري ـ وجوهٌ وأسبابٌ، ولكنَّ سِرَّ القصةِ كما قيل:

أنـا صَـبٌّ لِـمَـنْ هَـوَيْـتُ ولـكـن ما احتيـالـي بـسـوء رأي الـمـوالـي؟

قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾: لو شاء الله سَعَادَتَهمْ لَرَحِمَهُم، وعن المعاصي عَصَمَهُم، وبدوامِ الذكر ـ بَدَلَ الغفلة ـ ألهمهم.. ولكن سَبَقَتْ القسمةُ في ذلك، وما أحسن ما قالوا:

شـكـا إلـيـك مـا وَجَـدْ مَـنْ خـانـه فـيـك الـجَـلَـدْ

حـيـرانُ.. لـو شِـئْـتَ اهـتـدى ظـمـآنُ.. لـو شِـئْـتَ وَرَدْ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أَبْعَدَكُم عَدَمُ صِدْقِكم في إيمانِكم عن تحقُّقِكم ببرهانكم، لأنكم وقفتم على حَدِّ التردد دون القطع والتعيين، فأفضى بكم تردُّدُكم إلى أوطانِ شِرْكِكُم، إذ الشكُّ في الله والشِّركُ به قرينان في الحُكْم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

لا تختاروا على القيام بحقِّ اللَّهِ والوفاءِ بعهده عِوَضاً يسيراً مما تنتفعون به من حُطام دنياكم من حلالكم وحرامكم، فإنَّ ما أعدَّ اللَّهُ لكم في جناته ـ بشرط وفائكم لإيمانكم ـ يوفي ويربو على ما تتعجلون به من حظوظكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

الذي عندكم عَرَضٌ حادث فانٍ، والذي عند الله من ثوابكم في مآلِكُم نِعَمٌ مجموعةٌ، لا مقطعوعةٌ ولا ممنوعة.

ويقال ما عندكم أو ما منكم أو مالكم أفعالٌ معلولة وأحوالٌ مدخولة، وما عند الله فثوابٌ مقيمٌ ونعيمٌ عظيمٌ.

ويقال ما منكم من معارفكم ومحابكم آثارٌ متعاقبةٌ، وأصناف متناوبة، أعيانُها غيرُ باقية وإن كانت أحكامُها غير باطلة والذي يتصف الحقُّ به من رحمته بكم ومحبته لكم وثباته عليكم فصفاتٌ أزلية ونعوتٌ سرمدية.

ويقال ما عندكم من اشتياقكم إلى لقائنا فَمُعَرَّضٌ للزوال، وقابلٌ للانقضاء، وما وَصَفْنَا به أَنْفُسَا من الإقبال لا يتناهي وأفضال لا تفنى، كما قيل:

ألا طال شوقُ الأبرار إلى لقائي   وإني للقائهم لأشَدُّ شوقا

قوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ...﴾: جزاءُ الصبر الفوزُ بالطَّلْبَةِ، والظَّفَرُ بالبُغية. ومآلهم في الطلبات يختلف: فَمَنْ صَبَرَ على مقاساة مشقةٍ في الله. فعِوَضُه وثوابُه عظيمٌ من قِبَل الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

ومَنْ صبر عن اتباع شهوةٍ لِأجْل الله، وعن ارتكاب هفوةٍ مخافةً لله فجزاؤه كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٥٧].

ومَنْ صبر تحت جريان حُكْمِ الله، متحققاً بأنه بِمَرْآةٍ من الله فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1] [البقرة: ١٥٣].

قوله جلّ ذكره: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

الصالح ما يصلح للقبول، والذي يصلح للقبول ما كان على الوجه الذي أمر الله به. وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾: في الحال، ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾: في المآل؛ فصفَاءُ الحالِ يستوجِبُ وفاءَ المآلِ، والعملُ الصالحُ لا يكون من غير إيمان، ولذا قال: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

ويقال ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي مصدِّقٌ بأن إيمانه من فضل الله لا بعمله الصالح. ويقال

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص١٨٣ ـ ١٨٩ حديث القشيري عن الصبر.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي مصدِّقٌ بأن عمله بتوفيق الله وإنشائه وإبدائه. قوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾: الفاء للتعقيب، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ...﴾ الواو للعطف ففي الأولى مُعَجَّل، وفي الثانية مؤجَّل، ثم ما تلك الحياة الطيبة فإنه لا يُعْرَف بالنطق، وإنما يعرف ذلك بالذوق؛ فقوم قالوا إنه حلاوة الطاعة، وقوم قالوا إنه القناعة، وقوم قالوا إنه الرضا، وقوم قالوا إنه النجوى، وقوم قالوا إنه نسيم القرب... والكل صحيحٌ ولكلٍّ واحدٍ أهل.

ويقال الحياة الطيبة ما يكون مع المحبوب، وفي معناه قالوا:

نحن في أكمل السرور ولكنْ ... ليس إلا بكم يَتِمُّ السرورُ
عَيْبُ ما نحن فيه يا أهلَ ودِّي ... أنكم غُيَّبٌ ونحن حُضُورُ

ويقال الحياة الطيبة للأولياء ألا تكون لهم حاجةٌ ولا سؤالٌ ولا أَرَبٌ ولا مُطالبةٌ؛ وفرقٌ بين من له إرادة فتُرْفَع وبين من لا إرادةَ له فلا يريد شيئاً[1]، الأولون قائمون بشرط العبودية، والآخرون مُعْتَقُون بشرط الحرية.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

شيطانُ كُلِّ واحدٍ ما يشغله عن ربه، فمن تَسَلَّطَتْ عليه نَفْسُه حتى شَغَلَتْه عن ربه ولو بشهود طاعةٍ أو استحلاءِ عبادة أو ملاحظةِ حال - فذلك شيطانُه. والواجبُ عليه أن يستعيذَ بالله من شرِّ نَفْسِه، وشرِّ كل ذي شر.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

أنَّى يكون للشيطانِ سلطانٌ على العبد والحقُّ - سبحانه - متفرِّدٌ بالإبداع، متوحِّدٌ بالاختراع؟

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾.

إنما سلطانُه على الذين هم في غطاء غفلتهم، وستر ظنونهم ومشتبهاتهم. فأمّا أصحاب التوحيد فإنهم يرون الحادثاتِ بالله ظهورُها، ومن اللّهِ ابتداؤها، وإلى الله مآلها وانتهاؤها.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

---

(١) قال القشيري برسالته عند حديثه عن الإرادة بهذا الصدد: والمريد على موجب الاشتقاق من له إرادة، كما أن العالم من له علم، لأنه من الأسماء المشتقة، ولكن المريد في عرف هذه الطائفة من لا إرادة له، فمن لم يتجرد عن إرادته لا يكون مريداً، كما أن من لا إرادة له على موجب الاشتقاق لا يكون مريداً. (الرسالة القشيرية ص٢٠١).

ما ازدادوا في طول مدتهم إلا شكاً على شكٍ، وجحداً على جحدٍ، وجرَوْا على منهاجهم في التكذيب، فلم يُصدِّقوه ﷺ، وما زادوا في ولايته إلا شكاً ومُرْية:

وكذا الملولُ إذا أَرادَ قطيعة مَلَّ الوصال وقال كان وكانا

قوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾: ردٌّ على فرط جهلهم بربهم، وبُعْدِ رتبتهم عن التحصيل، فلمَّا كانوا متفرقين في شهود المَلِكِ رُدُّوا في حين التعريف إليهم بِذِكْرِ المَلَكِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾.

لم يستوحش الرسولُ ـ ﷺ ـ من تكذيبهم، وخفاءِ حاله وقَدْرِه عليهم.. وأيُّ ضررٍ يلحق مَنْ كانت مع السلطان مُجالَسَتُه إذا خَفِيَتَ على الأَخَسِّ مِنَ الرعيةِ حالتُه؟

ثم إنه أقام الحجةَ في الردِّ عليهم حيث قال: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾: فَمِنْ فَرْطِ جهلهم توهموا أنَّ القرآنَ ـ الذي عجز كافةُ الخَلْق عن معارضته في فصاحته وبلاغته ـ مقولٌ وحاصلٌ باتصاله بِمَنْ هو أعجمي النطق.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

إنَّ من سَبَقَتْ بالشقاوة قسمتُه لم تتعلق من الحق ـ سبحانه ـ به رحمتُه، ومَنْ لم يَهْدِهِ اللَّهُ في عاجله إلى معرفتِهِ لا يهديه اللَّهُ في آجلِه إلى جنته.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾.

هذا من لطائف المعاريض؛ إذ لمَّا وصفوه ـ عليه السلام ـ بالافتراء أنار الحقُّ ـ سبحانه ـ في الجواب، فقال: لستَ أنت المفترِي إنما المفترِي مَنْ كذَّبَ معبودَه وجَهِلَ توحيدَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

إذا عَلِمَ اللَّهُ صِدْقَ عبده بقلبه، وإخلاصَه في عَقْدِه، ولحقته ضرورة في حاله خَفَّفَ عنه حُكْمَه، ودَفَعَ عنه عناءَه فلا يَلْفِظُ بكلمة الكفر إلا مُكْرَهاً ـ وهو مُوَحِّدٌ، وهو مستحقّ العُذْرَ فيما بينه وبين الله تعالى... وكذلك الذين عقدوا بقلوبهم،

وتجردوا لسلوكِ طريق الله ثم عَرَضَتْ لهم أسبابٌ، واتفقت لهم أعذارٌ؛ كأن يكون لهم ببعض الأسباب اشتغالٌ أو إلى شيءٍ من العلوم رجوعٌ... لم يكن ذلك قادحاً في صحة إرادتهم، ولا يُعَدُّ ذلك فسخاً لعهودهم، ولا ينفي بذلك عنهم سِمَةَ القَصْدِ إلى الله تعالى.

أمَّا ﴿مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾: فرجع باختياره، ووضع قَدَماً ـ كان قد رَفَعَه في طريق الله ـ بِحُكْم هواه فقد نَقَضَ عهْدَ إرادته، وفَسَخَ عقده، وهو مستوجب (...)[1] إلى (....)[1] تتداركه الرحمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

السالك إذا آثر الحظوظ على الحقوق بَقِيَ عن الله، ولم يبارِكْ له فيما آثره على حقِّ الله، ولقد قالوا:

قد تركناكَ والذي تريد فعسى أنْ تَمَلهم فتعود

قوله جلّ ذكره: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾.

إذا تمادى في غفلته، ولم يتدارك حالَه بملازمةِ حَسْرَتِه، ازداد قسوةً على قسوة، ولم يستمتع بما هو فيه من قوة، وكما قال جل ذكره:

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾.

هم في الآخرة محجوبون، وبِذُلِّ البعد موسومون.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَـٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ومَنْ صَبَرَ حين عزم الأمر، ولم يجنح إلى جانب الرُّخَصِ، وأخذ في الأمور بالأشَقِّ أكرم اللَّهُ حَقَّه، وقرَّب مكانَه، ولَقَّاه في كل حالةٍ بالزيادة، وربحت صفقتُه حين خسِرَ أشكالُه، وتَقَدَّم على الجملة وإنْ قَلَّ احتيالُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

غداً كلٌّ مشغولٌ بنفسه، ليس له فراغ إلى غيره. وعزيزٌ عبدٌ لا يشتغل بنفسه، قال ﷺ: «من كان بحالٍ لقي الله بها». إنما يكون الفارغ غداً من كان اليوم فارغاً،

---

(١) بياض في الأصل.

ويجادل عن نفسه من كان له اليوم اهتمامٌ بنفسه. والمؤمن لا نَفْسَ له؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١] اشتراها الحقُّ منهم، وأودعها عندهم، فليس لهم فيها حق، وإنما يراعون فيها أمرَ الحق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

فراغ القلبِ من الأشغال نعمة عظيمة، فإذا كفر عبدٌ بهذه النعمة بأن فتح على نَفْسِه بابَ الهوى، وانجرف في فساد الشهوة، شَوَّشَ الله عليه قلبه، وسَلَبَه ما كان يَجِدُه من صفاء وقته؛ لأنَّ طوارقَ النفسِ تُوجِبُ غروبَ شوارقِ القلب، وفي الخبر: «إذا أقبل الليلُ من ها هنا أدبر النهارُ من ها هنا»(١). وكذلك القلبُ إذا انقطع عنه معهودُ ما كان الحقُّ أتاحه له أصابه عطَشٌ شديد ولهبٌ عظيم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

كما جاءهم الرسولُ جهراً فإنه تتأدَّى إليهم منْ قِبَل خواطرهم إشاراتٌ تترى، فمَنْ لم يستجِبْ لتلك الإشارات بالوفاق والإعتاق أخذه العذابُ من حيث لا يشعر.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

الحلالُ الطيبُ ما يتناوله العبدُ على شريطة الإذن بشاهد الذكر على قضية الأدب في ترك الشبهة، وحقيقةُ الشكر على النعمةِ الغيبةُ عن شهودِ النعمة بالاستغراق في شهود المنعِم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

يُبَاحُ تناولُ المحرماتِ عند هجوم الضرورات حسب بيان الشرع، ولا يُرَخَّصُ في ذلك إلا على أوصاف مخصوصة، وبِقَدْرِ ما يَسُدُّ الرَّمق، كذلك عند استهلاكِ العبدِ

---

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٣/ ٤٦)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٤/ ٢١٦)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ١٩٨٥)، والبغوي في (شرح السنة ٦/ ٢٥٩)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٣٨٧٦)، وابن كثير في (البداية والنهاية ٨/ ٣١٣)، والسيوطي في (الدر المنثور ١/ ٢٠٠)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/ ١٩٥)، والطبري في (التفسير ٢/ ١٠٣) (بغوي ١/ ١٦٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٣/ ٣٥٢)، والحميدي في (المسند ٢٠).

بغلبات الحقيقة لا بدّ من رجوعه إلى حال الصحو بقدر ما يؤدى الفرض الواجب عليه، ثم لا يُمكَّن من التعريج في أوْطان التفرقة والتمييز بعد مضي أوقات الصحو من أجل أداء الشرع[١]، كما قيل:

فإنْ تَكُ منه غيبة بعد غيبةٍ ... فإنّ إليه بالوجود إيابي

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

الصدق في كل شيء أوْلَى من الكذب، وكثيرٌ من أقوالهم في الاعتراض عَيِّنَاتٌ[٢] من الكذب.

والصِّدِّيق لا يكذب صريحاً، ولا يتداول أقوال كاذبٍ مهين. وصاحبُ الكذبِ تظهر عليه المذَلَّةُ لما هو فيه من الزَّلَّةِ، وله في الآخرة عذابٌ أليم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

بيَّن أنه أوضح لِمَنْ تَقَدَّمَ الحلالَ والحرامَ، فمنهم مَنْ أتى بما أُمِرَ به ومنهم مَنْ خالف.. وكلٌّ عُومِل بما استوجبه؛ فمن أطاع قلبُه قرّبَه، ومَنْ عَصَى رَدَّه وحَجَبَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

إذا نَدِمُوا على قبيح ما قَدَّمُوا، وأَسِفوا على كثيرٍ مما أسلفوا وفيه أسرفوا، ومَحَا صِدْقُ عَبْرَتِهم آثارَ عَثْرَتِهم ـ نظَرَ اللَّهُ إليهم بالرحمة، فتابَ عليهم إذا أصلحوا، ونجَّاهم إذا تضرَّعوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

قيل آمن بالله وحدَه فقام مقام الأمة، وفي التفسير: كان معلِّماً ـ للخير ـ لأمةٍ.

ويقال اجتمع فيه من الخصال المحمودة ما يكون في أمةٍ متفرقاً.

ويقال لمَّا قال إبراهيمُ لكلِّ ما رآه: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٧] ولم ينظر إلى المخلوقات من حيث هي بل كان مُسْتَهْلَكاً في شهودِ الحقّ، ورأى الكوْنَ كُلَّه بالله، وما ذكر حين ذكر غيرَ الله.. كذلك كان جزاء الحق فقال: أنت الذي تقوم مقام الكلّ، ففي القيامِ بحق الله منك على الدوام غُنْيةٌ عن الجميع.

---

(١) هذه هي حالة الفرق الثاني (انظر الرسالة القشيرية ص٦٦).

(٢) العيّنات: (ج) العيّنة: جزء من المادة يؤخذ منها نموذجاً لسائرها.

و «الحنيف»: المستقيم في الدِّين، أو المائل إلى الحق بالكلية.

قوله جلّ ذكره: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

الشاكرُ في الحقيقة ـ مَنْ يرى عَجْزَه عن شكره، ويرى شُكْرَهُ من الله عزَّ وجل، لِتَحَقُّقِه أنه هو الذي خَلَقَه، وهو الذي وَفَّقَه لشكره، وهو الذي رزقه الشكرَ، وهو الذي اجتباه حتى كان بالكلية له ـ سبحانه.

﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي تحقَّق بأنه عَبْدُه، وأنه رقَّاه إلى محلِّ الأكابر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

الحسنةُ التي آتاه اللَّهُ هي دوامُ ما آتاه حتى لم تنقطِعْ عنه.

ويقال هي الخلة. ويقال هي النبوة والرسالة.

ويقال آتيناه في الدنيا حسنةً حتى كان لنا بالكلية، ولم تكن فيه لغيرٍ بقية.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي الكون بالحق، والامتحاء عن شاهد نفسه؛ فكان نبينا ـ ﷺ ـ في اتباعه إبراهيم مؤتَمِراً بأمر الله. وكانت ملةُ إبراهيم ـ عليه السلام ـ الخُلُقَ والسخاءَ والإيثارَ والوفاءَ، فاتبعه الرسول ﷺ وزاد عليه، فقد زاد على الكافة شأنه، وبانت مَزِيَّتُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

قومٌ حرَّموا العملَ فيه وقومٌ حللوه معصيةً منهم، وقيل جعل الجمعةَ لهم فقالوا: لا نريد إلا يومَ السبت.. فهذا اختلافهم فيه.

والإشارة من ذلك أنهم حادوا عن موجب الأمر، ومالوا إلى جانب هواهم. ثم إنهم لم يراعوها حق رعايتها فصار سبب عصيانهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

الدعاءُ إلى سبيل الله بحثِّ الناسِ على طاعةِ الله، وزجرهم عن مخالفة أمر الله. والدعاءُ بالحكمة ألا يخالفَ بالفعل ما يأمر به الناس بالنطق.

والموعظة الحسنة مَّا يكون صادراً عن علمٍ وصوابٍ، ولا يكون فيها تعنيف.

﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾: بالحجة الأقوى، والطريقة الأوضح. قال تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]: فشرطُ الأمرِ بالمعروف استعمالُ ما تأمر به، والانتهاء عما تنهي عنه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾.

إذا جرى عليكم ظُلْمٌ من غيرَكم وأردتم الانتقامَ.. فلا تتجاوزُوا حَدَّ الإذنِ بما هو في حكم الشرع.

﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾: فتركتم الانتصافَ لِأَجْلِ مولاكم فهو خيرٌ لكم إنْ فَعَلْتُمْ ذلك. والأسبابُ التي قد يترك لأجلها المرءُ الانتصافَ مختلفة؛ فمنهم من يترك ذلك طمعاً في الثواب غداً فإنه أوفر وأكثر، ومنهم من يترك ذلك طمعاً في أن يتكفَّل اللَّهُ بخصومه، ومنهم من يترك ذلك لأنه مُكْتَفٍ بعلم الله تعالى بما يجري عليه، ومنهم من يترك ذلك لِكَرَمِ نَفْسِه، وتَحرُّرِه عن الأخطار ولاستحبابه العفوَ عند الظَّفَرِ، ومنهم مَنْ لا يرى لنفسه حقاً، ولا يعتقد أَنَّ لأحدٍ هذا الحق فهو على عقد إرادته بِتَرْكِ نَفْسِه؛ فمِلْكُه مُبَاحٌ ودَمُهُ هَدَر. ومنهم من ينظر إلى خصمه ـ أي المتسلط عليه ـ على أنَّ فِعْلَه جزاءٌ على ما عمله هو من مخالفة أمر الله، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]. فاشتغاله باستغفاره عن جُرْمِه يمنعه عن انتصافه من خصمه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾.

«واصبر» تكليف، «وما صبرك إلا بالله»: تعريف. «واصبر» تحققٌ بالعبودية، «وما صبرك إلا بالله» إخبارٌ عن الربوبية.

«ولا تحزن عليهم..» أي طالِعِ التقدير، فما لا نجعلُ له خطراً عندنا لا ينبغي أن يوجِبَ أثراً فيك، فمَنْ أَسْقَطْنا قَدْرَه فاستَصْغِر أَمْرَه. وإذا عرفتَ انفرادَنا بالإيجادِ فلا يضيق قلبُك بشدة عداوتهم، فإنَّا ضَمِنَّا كِفايتَك، وألا نُشْمِتَهم بك، وألا نجعلَ لهم سبيلاً إليك.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾.

إن الله معهم بالنصرة، ويحيطهم بالإحسان والبسطة.

«الذين اتقوا» رؤيةَ النصْرةِ مِنْ غيره، والذين هم أصحاب التبري من الحَوْلِ والقوة.

والمحسن الذي يعبد الله كأنه يراه، وهذه حال المشاهدة.

السورة التي يذكر فيها بنو إسرائيل

قوله تعالى وتَقَدَّس: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

كلمةٌ ما سَمِعَها عابدٌ إلّا شكر عصمتَه، وما سمعها سالِكٌ إلا وَجَدَ رحمتَه، وما تَحَقَّقَها عارفٌ إلَّا تَعَطَّرَ قلبُه بنسيم قُربته، وما شهدها موحِّدٌ إلا تَقَطَّرَ دمُه لخوفِ فُرقته.

قوله جلّ ذكره: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

افتتح السورةَ بِذِكْرِ الثناءِ على نَفْسه فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ﴾ [الإسراء: ١]: الحقُّ سبَّحَ نَفْسَه بعزيزِ خطابِه، وأخبر عن استحقاقه لجلال قَدْرِه، وعن توحُّده بعلوِّ نُعُوتِه.

ولمَّا أراد أَنْ يَعْرِفَ العبادُ ما خَصَّ به رسولَه ـ ﷺ ـ ليلةَ المعراجِ من عُلوِّ ما رقَّاه إليه، وعِظَم ما لقَّاه به أزالَ الأُعجوبةَ بقوله: ﴿أَسْرَىٰ﴾، ونفى عن نبيِّه خَطَرَ الإعجاب بقوله: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾؛ لأنَّ مَنْ عَرَفَ ألوهيته، واستحقاقَه لكمالِ العِزِّ فلا يُتَعَجَّبُ منه أن يفعل ما يفعل، ومَنْ عرف عبوديةَ نَفْسِه، وأنَّه لا يَمْلِكُ شيئاً من أمره فلا يُعْجَبُ بحاله. فالآية أوضحت شيئين اثنين: نَفَى التعجُّبِ من إظهارِ فِعْلِ اللَّهِ عزَّ وجل، ونفَى الإعجاب في وصف رسول الله عليه السلام.

ويقال أخبر عن موسى عليه السلام ـ حين أكرمه بإسماعه كلامه من غير واسطة ـ فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وأخبر عن نبينا ﷺ بأنه ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ وليس مَنْ جاءَ بنفسِه كمنْ أَسْرَى به ربُّه، فهذا مُتَحَمِّلٌ وهذا محمول، هذا بنعت الفَرْقِ وهذا بوصف الجمع، هذا مُريدٌ وهذا مُرَادٌ.

ويقال جعلِ المعراجَ بالليل عند غَفْلَةِ الرُّقَبَاءِ وغَيْبَةِ الأجانب، ومن غير ميعاد، ومن غير تقديم أُهْبَةٍ واستعداد، كما قيل:

ويقال جعل المعراجَ بالليل ليُظْهرَ تصديقَ مَنْ صَدَّقَ، وتكذيبَ مَنْ تعجَّب وكَذَّبَ أو أنكر وجحد.

ويقال لما كان تعبُّدهُ ﷺ وتهجُّدُه بالليل جَعَلَ الحقُّ سبحانه المعراجَ بالليلِ.

ويقال:

لـيـلـةُ الـوَصْـلِ أَصْـفَـى　　　مـن شـهـور ودهـور سـواهـا

ويقال أرسله الحقُّ ـ سبحانه ـ ليتعلَّم أهلُ الأرضِ منه العبادة، ثم رَقَّاه إلى السماءِ ليتعلَّمَ الملائكةُ منه آدابَ العبادة، قال تعالى في وصفه ـ ﷺ ـ: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧]، فما التَفَتَ يميناً ولا شمالاً، وما طمع في مقامٍ ولا في إكرام؛ تجرَّد عن كلِّ طلبٍ وأَرَبٍ.

قوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾: كان تعريفه بالآيات ثم بالصفات ثم كَشْفٌ بالذات.

ويقال من الآيات التي أراها له تلك الليلة أنه ليس كمثله ـ سبحانه ـ شيءٌ في جلالِه وجماله، وعِزِّه وكبريائه، ومجده وسنائه.

ثم أراه من آياته تلك الليلة ما عَرَفَ به صلوات الله عليه ـ أنه ليس أحدٌ من الخلائق مثلَه في نبوته ورسالته وعلوِّ حالته وجلال رتبته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾.

أرسل موسى عليه السلام بالكتاب كما أرسل نبينا ﷺ، ولكنَّ نَبِيَّنا ـ صلوات الله عليه ـ كان أوفى ـ سماعاً، فإنَّ الشمسَ في طلوعها وإشراقها تكون أقربَ ممن طلعت له من حقائقها.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾.

أي يا ذريةَ مَنْ حملنا مع نوح ـ على النداء.. إنه كان عبداً شكوراً.

والشكور الكثير الشكر؛ وكان نوح قد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وكان يضرب في كل (...)[1] كما في القصة ـ سبعين مرة، وكان يشكر. كما أنه كان يشكر الله ويصبر على قومه إلى أن أوحى الله إليه: أنه لن يؤمن إلا من قد آمن، وأُمِرَ حين دعا عليهم فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]

ويقال الشكور هو الذي يكون شكره على توفيقِ اللّهِ له لِشُكْرِه، ولا يتقاصر عن شكره لِنِعَمِه.

ويقال الشكور الذي يشكر بماله، ينفقه في سبيل الله ولا يدَّخِره، ويشكر بنفْسِه فيستعملها في طاعة الله، ولا يُبْقِي شيئاً من الخدمة يدخره، ويشكر بقلبِه ربَّه فلا تأتي عليه ساعةٌ إلا وهو يذكره.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

---

(١) بياض في الأصل.

القضاءُ ها هنا بمعنى الإعلام، والإشارة في تعريفهم بما سيكون في المُسْتَأنَفِ منهم وما يستقبلهم، ليزدادوا يقيناً إذا لقوا ما أُخْبِروا به، وليكونَ أبلغَ في لزوم الحُجَّةِ عليهم، وليحترزوا من مخالفة الأمر بجحدهم، وليعلموا أن ما سَبَقَ به القضاءُ فلا محالةَ يحصل وإنْ ظُنَّ التباعدُ عنه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾.

إن الله سبحانه يُعِدُّ أقواماً لأحوالٍ مخصوصةٍ حتى إذا كان وقتُ إرادته فيهم كان هؤلاء موجودين.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾.

يدلُّ على أنه مُقَدِّرُ أعماله العباد، ومدبِّرُ أفعالِهم؛ فإنَّ انتصارَهم على أعدائهم من جملة أكسابهم، وقد أخبر الحقُّ أنه هو الذي تولَّاه بقوله: ﴿رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾.

إنْ أحسنتُم فثوابكم كسبتم، وإنْ أساتم فعداءكم جلَبْتُم ـ والحقُّ أعزُّ مِنْ أنْ يعودَ إليه من أفعال عبادِه زَيْنٌ أو يلحقه شَيْنٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ﴾.

كلمةُ ﴿عَسَىٰ﴾ فيها ترجية وإطماع، فهو ـ سبحانه ـ وقفهم على حد الرجاء والأمل، والخوف والوجل.

وقوله ﴿عَسَىٰ﴾: ليس فيه تصريح بغفرانهم، ورحمتهم، وإنما فيه للرجاء موجِبٌ قويٌّ؛ فبلطفه وعد أن يرحمكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾.

أي إنْ عُدْتُمْ إلى الزَّلَّة عُدْنا إلى العقوبة، وإن استقمتم في التوبة عدنا إلى إدامة الفضل عليكم والمثوبة.

ويقال إن عُدْتُم إلى نَقْضِ العَهْد عُدنا إلى تشديد العذاب.

ويقال: إن عُدْتُم للاستجارة عدنا للإجارة.

ويقال إن عُدتُم إلى الصفاء عدنا إلى الوفاء.

ويقال إن عُدْتُمْ إلى ما يليق بكم عُدْنا إلى ما يليق بكرمنا.

﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾، لأنهم (....)[1] وهم ناس كثير فهذه جهنم ومن يسكنها من الكافرين.

و ﴿حَصِيرًا﴾ أي محبساً ومصيراً. فالمؤمنُ ـ وإنْ كان صاحبَ ذنوب وإنْ كانت كبيرة ـ فإنَّ مَنْ خرج من دنياه على إيمانه فلا محالةَ يصل يوماً إلى غفرانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾.

القرآنُ يدل على الحقِّ والصواب. و﴿أَقْوَمُ﴾: هنا بمعنى المستقيم الصحيح كأكبر بمعنى الكبير؛ فالقرآن يدل على الحق والصواب، ولكنَّ الخللَ من جهة المُسْتَدِلِّ لا الدليل، إذ قد يكون الدليل ظاهراً ولكنَّ المستدِلَّ مُعْرِضٌ، وبآداب النظر مُخِلٌّ، فيكون العيبُ في تقصيره لا في قصور الدليل.

القرآنُ نورٌ؛ مَنْ استضاء به خَلَصَ من ظُلُماتِ جَهْلِه، وخرج من غمار شَكِّه. ومَنْ رَمَدَتْ عيونُ نظرِه التبس رُشْدُه.

ويقال الحَوَلُ ضَرَرُه أشدُّ من العَمَى؛ لأنَّ الأعمى يعلم أنه ليس يُبْصِر فيَتْبَعُ قائدَه، ولكن الأحول يتوهَّمُ الشيء شيئين، فهو بتخيُّلِه وحسبانه يماري مَنْ كان سليماً. كذلك المبتدِعُ إذا سَلَكَ طريقَ الجَدَل، ولم يضع النظر موضعه بَقِيَ في ظُلُماتِ جَهْلِه، وصال بباطل دعواه على خَصْمِه، كما قيل:

بأطرافِ المسائلِ كيف يأتي ـ ولا أَدْرِي لَعَمْرُكَ ـ مُبْطِلُوها؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾[2].

من الأدب في الدعاء ألّا يسألَ العبدُ إلّا عند الحاجة، ثم ينظر فإنْ كان شيءٌ لا يعنيه ألا يتعرَّضَ له؛ فإنَّ في الخبر: «مِن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[3]. ثم من آداب الداعي إذا سأل من اللهِ حاجَته ورأى تأخيراً في الإجابة إلا يَتَّهِم الحقَّ ـ سبحانه ـ ويجب أن يعلم أن الخير في ألا يجيبَه، والاستعجالُ ـ فيما يختاره العبد ـ غيرُ محمود، وأَوْلى الأشياءِ السكونُ والرضا بحُكْمِه سبحانه، إن لم يساعدْه الصبرُ وسَأَلَ فالواجبُ تَرْكُ الاستعجال، والثقةُ بأنَّ المقسومَ لا يفوته، وأنَّ اختيارَ الحقِّ للعبد خيرٌ له من اختياره لنفسه.

---

(١) بياض في الأصل. (٢) الآية (١٠) لم ترد.

(٣) أخرجه ابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٣/ ٩٠٧، ٤/ ١٥٨٨، ٦/ ٢٣٤١)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ٨/ ١٨)، وأحمد بن حنبل في (المسند ١/ ٢٠)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣/ ٨٢٩١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾.

جعل الليلَ والنهارَ علامةً على كمال قدرته، ودلالةً على وجوب وحدانيته؛ في تعاقبهما وتناوبهما، وفي زيادتهما ونقصانهما.

ثم جعلهما وقتاً صالحاً لإقامة العبادة، والاستقامة على معرفة جلال إلهيته؛ فالعبادةُ شرطُها الدوامُ والاتصال، والوظائف حقُّها التوفيق والاختصاص.

ولو وقع في بعض العبادات تقصيرٌ أو حَصَلَ في أداءِ بعضِها تأخيرٌ تَدارَكه بالقضاءِ حتى يَتَلافَى التقصير.

ويقال من وجوه الآيات في الليلِ والنهارِ إفرادُ النهار بالضياء من غير سبب، وتخصيصُ الليل بالظلام بغير أمرٍ مكتسب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾: وهو اختلاف أحوال القمر في إشراقه ومحاقة، فلا يبقى ليلتين على حال واحدة، بل هو في كل ليلة في منزل آخر، إما بزيادة أو بنقصان.

وأمَّا الشمس فحالها الدوام.. والناس كذلك أوصافهم؛ فأربابُ التمكينِ الدوامُ شرطُهم، وأصحابُ التلوينِ التنقلُ حَقُّهم، قال قائلهم:

ما زلت أنزل من ودادك منزلاً ... تتحير الألبابُ دون نزوله

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾.

ألزم كلَّ أحدٍ ما لَبِسَ بجيدِه. فالذين هم أهلُ السعادة أسرج لهم مركبَ التوفيقَ، فيسير بهم إلى ساحات النجاة، والذين هم أهل الشقاوة أركبهم مَطِيَّةَ الخذلان فأَقْعَدَتْهم عن النهوض نحو منهج الخلاص، فوقعوا في وَهْدَةِ الهلاك.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾.

مَنْ ساعَدَته العنايةُ الأزليةُ حِفظَ عند معاملاته مما يكون وبالاً عليه يوم حسابه، ومَنْ أبلاه بحُكْمِه رَدَّه وأمْهَلَه، ثم تركه وعَمَلَه، فإذا استوفى أَجَلَه عرف ما ضيَّعَه وأهمله، ويومئذ يُحَكِّمه في حالِ نفسه، وهو لا محالةَ يحكم بنفسه باستحقاقه لعذابه عندما يتحقق من قبيح أعماله... فكم من حسرةٍ يتجرَّعُها، وكم من خيبةٍ يتلقَّاها!

ويقال مَنْ حاسَبَه بكتابه فكتابةُ مُلازِمُه في حسابه فيقول: رَبِّ: لا تحاسبني بكتابي.. ولكن حاسِبْني بما قلتَ: إنَّكَ غافرُ الذَّنْبِ وقابلُ التوبِ.. لا تعاملني بمقتضى كتابي: ففيه بواري وهلاكي.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾.

قضايا أعمال العبد مقصورةٌ عليه؛ إنْ كانت طاعةً فضياؤها لأصحابها، وإنْ كانت زَلَّةً فبلاؤها لأربابها. والحقُّ غنيٌّ مُقَدَّسٌ، أَحَدِيٌّ مُنَزَّهٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

كُلٌّ مُطَالَبٌ بجريرته. وكلُّ نَفْسٍ تحمل أوزارها لا وِزْرَ نَفْسٍ أخرى.. ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾: دلَّ ذلك على أن الواجباتِ إنما تَتَوَجَّهُ من حيث السمع.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾.

إذا كَثُرَ أهلُ الفسادِ غَلَبُوا، وقَلَّ أهل الصلاح وفقدوا: فعند ذلك يغمر اللَّهُ الخَلْقَ ببلائه، ولا يكون للناس ملجأ من أوليائه ليتكلموا في بابهم، ولا فيهم من يبتهل إلى الله فَيُسْمَعُ دعاؤه، فَيَخْتَرِمُ أولياءَه، ويُبْقِي أربابَ الفساد، وعند ذلك يشتدُّ البلاءُ وتَعْظُمُ المِحَنُ إلى أن ينظرَ اللَّه تعالى إلى الخَلْق نَظَرَ الرحمةِ والمِنَّة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾.

في الآية تسليةٌ للمظلومين إذا استبطأوا هلاكَ الظالمين، و (...)[1] قِصَرِ أيديهم عنهم. فإذا فَكَّروا فيما مضى من الأمم أمثالِهم وكيف بَنَوْا مَشِيداً، وأَمَّلُوا بعيداً.. فبادوا جميعاً، يعلمون أَنَّ الآخرين ـ عن قريب ـ سينخرطون في سلكهم، ويُمْتَحَنُون بمثل شأنهم. وإذا أَظَلَّتْهم سُحُبُ الوحشةِ فاءوا إلى ظلِّ شهود التقدير، فتزول عنهم الوحشة، وتطيب لهم الحياةُ، وتحصل الهيبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾.

مَنْ رَضِيَ بالحظ الخسيس من عاجل الدنيا بَقِيَ عن نفيس الآخرة، ثم لا يحظى إلا بِقَدْر ما اشْتَمَّهُ، ثم يكون آنَسَ ما به قلباً وأشدَّ ما يكون به سكوناً... ثم يُخْتَطَفُ عن نعمته، ولا يخصه بشيءٍ مما جمع من كرائمه، ويمنعه من قربه في الآخرة.. ولقد قيل:

يا غافلاً عن سماع الصوتْ ... إنْ لم تبادِرْ فهو الفوتْ
مَنْ لم تَزُلْ نعمته عاجلاً ... أزاله عن نعمته الموتْ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾.

---

(١) بياض في الأصل.

علامة مَنْ أراد الآخرةَ ـ على الحقيقة ـ أن يسعى لها سَعْيها؛ فإرادةُ الآخرة إذا تجرَّدَتْ عن العمل لها كانت مجرَّد إرادة، ولا يكون السعيُ مشكوراً. قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: أي من المآلِ كما أنه مؤمِنٌ في الحال. ويقال وهو مؤمن أنَّ نجاته بفضله لا بسببه.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ أي مقبولاً، ومع القبول بكون التضعيف والتكثير؛ فكما أن الصدقة يُرْبِيها كذلك طاعةُ العبدِ يُكَثِّرُها ويُنَمِّيها.

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾.

يجازي كلاً بِقَدْرِهِ؛ فَلِقَوْمٍ نجاة ولقومٍ درجات، ولقوم سلامة ولقومٍ كرامة، ولقومٍ مثوبتُه، ولقومٍ قربتُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

التفضيلُ على أقسام، فالعُبَّاد فَضَّلَ بعضَهم على بعض ولكن في زكاء أعمالهم، والعارفون فَضَّلَ بعضَهم على بعض ولكن في صفاء أحوالهم، وزكاء الأعمال بالإخلاص، وصفاء الأحوال بالاستخلاص؛ فقومٌ تفاضلوا بصدق القَدَم، وقوم تفاضلوا بعلوِّ الهِمَم. والتفضيل في الآخرة أكبر: فالعُبَّادُ تفاضلهم بالدرجات، قال ﷺ: «إنكم لَتَرَوْنَ أهلَ عِلِّيين كما ترون الكوكبَ الدريَّ في أفق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم»[(١)].

وأهلُ الحضرةِ تفاضُلُهم بلطائفهم من الأُنْس بنسيم القربة بما لا بيانَ يصفه ولا عبارة، ولا رمز يدركه ولا إشارة. منهم من يشهده ويراه مرةً في الأسبوع، ومنهم من لا يغيب من الحضرة لحظة، فهم يجتمعون في الرؤية ويتفاوتون في نصيبِ كلِّ أحد، وليس كلُّ مَنْ يراه بالعين التي بها يراه صاحبه، وأنشد بعضهم:

لو يسمعون ـ كما سمعتُ حديثها خَرُّوا لِعَزَّةَ رُكَّعاً وسجودا

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾.

الذي أشرك بالله أصبح مذموماً من قِبَلِ الله، ومخذولاً من قِبَلِ مَنْ عَبَدَه من دون الله.

---

(١) أخرجه مسلم (جنة ١٠، ١١)، والدارمي (رقاق ١٠٧)، وأحمد بن حنبل ٢، ٣٣٩، ٣، ٢٦، ٥٠، ٦١، ٥، ٣٤٠.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾.

أَمَرَ بإفراده ـ سبحانه ـ بالعبادة، وذلك بالإخلاص فيما يستعمله العبدُ منها، وأن يكون مغلوباً باستيلاء سلطانِ الحقيقةِ عليه بما يَحْفَظُه عن شهودِ عبادته.

وأَمَرَ بالإحسان إلى الوالدين ومراعاةِ حقِّهما، والوقوفِ عند إشارتهما، والقيام بخدمتهما، وملازمة ما كان يعود إلى رضاهما وحُسْنِ عشرتهما ورعاية حُرْمَتهما، وألا يبديَ شواهدَ الكسلِ عند أوامرهما، وأن يَبْذُل المُكْنَةَ فيما يعود إلى حفظ قلوبهما.. هذا في حال حياتهما، فأمّا بعد وفاتهما فبِصِدْقِ الدعاء لهما، وأداءِ الصَدَقَةِ عنهما، وحِفْظِ وصيتهما على الوجهِ الذي فَعَلاه، والإحسان إلى مَنْ كان مِنْ أهلِ ودِّهما ومعارفهما.

ويقال إنَّ الحقَّ أَمَرَ العبادَ بمراعاة حقِّ الوالدين وهما من جنس العبد.. فَمَنْ عجز عن القيام بحقِّ جنسه أنَّى له أن يقومَ بحقِّ ربه؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾.

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ بحسن المداراة ولين المنطق، والبدار إلى الخدمة، وسرعة الإجابة، وترك البَرَمَ بمطالبهما، والصبر على أمرهما، وألا تَدَّخِرَ عنهما ميسوراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾.

إذا عَلِمَ اللَّهُ صِدْقَ قلبِ عبدٍ أَمَدَّه بحسن الأمجاد، وأكرمه بجميل الامتداد، ويَسَّر عليه العسيرَ من الأمور، وحفظه عن الشرور، وعطف عليه قلوب الجمهور.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾.

إيتاءُ الحقِّ يكون من المال ومن النَّفْس ومن القول ومن الفعل، ومَنْ نَزَل على اقتضاء حقِّه، وبذل الكُلَّ لأجل ما طالبه به من حقوق. فهو القائم بما ألزمه الحقُّ سبحانه بأمره.

والتبذيرُ مجاوزةُ الحدِّ عمَّا قدَّره الأمرُ والإذنُ. وما يكون لحظِّ النَّفْسِ ـ وإن كان سمسمة[١] ـ فهو تبذيرٌ، وما كان له ـ وإن كان الوفاءَ بالنَّفْس ـ فهو تقصيرٌ.

---

(١) السمسمة: واحدة السمسم: نبات له حبّ صغير دُهنه زيت الشيرج.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾.

إنما كانوا إخوانَ الشياطين لأنهم أنفقوا على هواهم، وجَرَوْا في طريقهم على دواعي الشياطين ووساوسهم، ولمَّا أفضى بهم ذلك إلى المعاصي فقد دعاهم إخوانَ الشياطين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾.

إن لم يُسَاعِدْكَ الإمكانُ على ما طالبوكَ من الإحسان فاصْرِفْهم عنكَ بوعدٍ جميلٍ إن لم تُسْعِفهم بنقدٍ جزيل. . وإنَّ وَعْدَ الكرام أَهْنأُ من نقد اللئام.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾.

لا تُمْسِكْ عن الإعطاء فتُكْدِي[1]، ولا تُسْرِفْ في البذلِ بكثرة ما تُسْدِي، واسْلُكْ بين الأمرين طريقاً وَسَطاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾.

إذا بَسَطَ لا تَبْقَى فاقة، وإذا قبض استنفد كلَّ طاقة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾.

مَنْ عَرَفَ أَنَّ الرازقَ هو الله خفَّ عن قلبه همُّ العيال ـ وإنْ كَثُروا، ومن خفي عليه أنه قَسَّمَ ـ قبل الخَلْقِ ـ أرزاقَهم تطوح في متاهات مغاليطه، فيقع فيها بالقلب والبَدَنِ ثم لا يكون غير ما سبق به التقدير.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾.

ترَجحَ الزنا على غيره من الفواحش لأن فيه تضييعَ حُرْمَةِ الحقِّ، وهتكَ حُرْمَةِ الخلْق، ثم لِمَا فيه من الإخلال بالنَّسَبِ، وإفسادِ ذات البين من مقتضى الأَنَفَةِ والغضب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾.

لا يجوز قَتْلُ نَفْسِ الغير بغير الحق، ولا للمرء أن يقتل نَفْسَه أيضاً بغير الحق. وكما أنَّ قتلَ النَّفس بالحديد وما يقوم مقامه من الآلات مُحَرَّمٌ فكذلك القَصْدُ إلى هلاكِ المرءِ مُحَرَّمٌ.

---

(١) كدى الرجل يكدي وأكدى: قلل عطاءهُ، وقيل: بخل (اللسان ٥/ ٢١٦ مادة: كدا).

ومن انهمك في مخالفة ربه فقد سعى في هلاك نفسه. ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾: أي تسلطاً على القاتل في الاقتصاص منه، وعلى معنى الإشارة: إلى النصرة مِنْ قِبَلِ الله: ومنصورُ الحقِّ لا تنكسر سِنَانُه، ولا تطيشُ سِهَامُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾.

لمَّا لم يكن لليتيم مَنْ يهتم بشأنه أمَرَ ـ سبحانه ـ الأجنبيَّ الذي ليس بينه وبين اليتيم سَبَبٌ أَنْ يتولَّى أمرَه، ويقومَ بشأنِ.، وأوصاه في بابه؛ فالصبيُّ قاعد بصفة الفراغ والهوينى[1]، والوليُّ ساعٍ بمقاساة العَنَا..

فأَمْرُ الحقِّ ـ سبحانه ـ للوليِّ أَحْظَى للصبيِّ مِنْ شفقةِ آلِه عليه في حال حياتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

كما تدين تدان، وكما تعامِلُ تُجازَى، وكما تكيل يُكَالُ لكَ، وكما تكونون يكون عليكم، ومَنْ وَفَى وفَوْا له، ومَنْ خان خانوا معه، وأنشدوا:

أَسَأْنا فساءوا.. عَدْلٌ بلا حيفِ ... ولو عَدَلْنا لَخُلِّصْنا من المِحَنِ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

إذا غَلَبَتْ عليكَ مُجوِّزَاتُ الظنونِ، ولم يُطْلِعْكَ الحقُّ على اليقين فلا تتكلف الوقوف عليه من غير برهان، وإذا أُشْكِلَ عليك شيءٌ من أحكام الوقت فارجِعْ إلى الله؛ فإنْ لاحَ لقلبك وَجْهٌ من الدليل على حَدِّ الالتباس فَكِلْ عِلْمَه إلى الله، وِقِفْ حيثما وقفت.

ويقال الفرق بين من قام بالعلم وبين من قام بالحق أَنَّ العلماءَ يعرفون الشيءَ أولاً ثم يعلمون بعلمهم، وأصحابُ الحقِّ يجرِي عليهم بحكم التصريف شيءٌ لا عِلمَ لهم به على التفصيل، وبعد ذلك يُكشَف لهم وجهُه، وربما يجري على ألسنتهم شيءٌ لا يدرون وَجْهَه، ثم بعد فراغهم من النطق به يظهر لقلوبهم برهانُ ما قالوه، ودليلُ ما نطقوا به من شواهد العلم[2].

---

(١) الهوينى: الخفض والدَّعة.

(٢) فرق القشيري بين المعرفة عند أرباب العلوم والمعرفة عند أرباب الحقائق. قال في رسالته عند حديثه عن الوصية للمريدين: ولم يكن عصر في الحكم الإسلامي إلا وفيه شيخ من شيوخ هذه الطائفة، فمن له علوم التوحيد وإمامة القوم، إلا وأئمة ذلك الوقت من العلماء قد استسلموا لذلك=

قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ﴾ هذه أمانة الحق ـ سبحانه ـ عند العبد، وقد تقدم في بابها بما أوضحته ببراهين الشريعة.

ومَنْ استعمل هذه الجوارح في الطاعات، وصانها عن استعمالها في المخالفات فقد سَلَّم الأمانة على وصف السلامة، واستحق المدحَ والكرامة. ومَنْ دَنَّسَها بالمخالفات فقد ظهرت عليه الخيانة، واستوجب الملامة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾.

الخُيَلاءُ والتجبُّر، والمدح والتكُبُّر ـ كل ذلك نتائجُ الغيبة عن الذكر، والحجبة عن شهود الحقّ؛ «فإنَّ اللَّهَ إذا تجلَّى لشيءٍ خشع له»[١] بذلك وَرَدَ الخبر. فأمَّا في حال حضورِ القلبِ واستيلاءِ الذكر وسلطان الشهود. فالقلبُ مُطْرِقٌ، وحُكْمُ الهيبة غالِبٌ. ونعتُ المدحِ وصفةُ الزَّهْوِ وأسبابُ التفرقة ـ كل ذلك ساقط.

والناسُ ـ في الخلاص من صفة التكبر ـ أصنافٌ: فأصحابُ الاعتبار إذْ عرفوا أنهم مخلوقونَ من نطفةٍ أمشاج[٢]، وما تحمله أبدانهم مما يترشح من مسامهم من بقايا طعامهم وشرابهم.. تعلو هِمَمُهم عن التضييق والتدنيق[٣]، ويَبْعُدُ عن قلوبهم قيامُ أَخْطارٍ للأشياء، ولا يخطر على داخلهم إلا ما يزيل عنهم التكبر، وينزع عنهم لباس التجبُّر.

وأمَّا أرباب الحضور فليس في طلوع الحق إلا انخناس[٤] النَّفْس، وفي معناه قالوا:

إذا ما بدا لي تَعاظَمْتُه فأصدر في حال من لم يرد

= الشيخ وتواضعوا له وتبركوا به، ولولا مزية لهم وخصوصية وإلا كان الأمر بالعكس، هذا أحمد بن حنبل كان عند الشافعي رضي الله عنهما، فجاء شيبان الراعي، فقال أحمد: أريد يا أبا عبد الله أن أنبّه هذا على نقصان علمه، ليشتغل بتحصيل بعض العلوم، فقال الشافعي: لا تفعل، فلم يقع، فقال لشيبان: ما تقول فيمن نسي صلاة من خمس صلوات في اليوم والليلة، ولا يدري أية صلاة نسيها، ما الواجب عليه يا شيبان؟ فقال شيبان: يا أحمد هذا قلب غفل عن الله تعالى، فالواجب أن يؤدب حتى لا يغفل عن مولاه بعد، فغشي على أحمد، فلما أفاق. قال له الشافعي: ألم أقل لك لا تحرك هذا، وشيبان الراعي كان أمياً، فإذا كان الأمي منهم هكذا فما الظن بأئمتهم. (الرسالة القشيرية ص٣٧٨، ٣٧٩).

(١) أخرجه النسائي (كسوف ١٦)، وابن ماجه (إقامة ١٥٢)، وأحمد بن حنبل ٤، ٢٦٧؛ ٢٦٩.

(٢) الأمشاج: هي الأخلاط: ماء الرجل وماء المرأة والدم والعلقة (لسان العرب ٢/ ٣٦٧ مادة: مشج).

(٣) التدنيق: المُداقّة والاستقصاء كنايات عن البخل والشح. (اللسان ١٠/ ١٠٦ مادة: دنق).

(٤) الانخناس: التأخر والتخلف.

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾.

إذا سَعِدَتْ الأقدامُ بحضور ساحاتِ الشهود، وعَطِرَتْ الأسرارُ بنسيم القُرْب تجرَّدَتْ الأوقاتُ عن الحجبة، واستولى سلطان الحقيقة، فيحصل التنفّي من هذه الأوصاف المذمومة.

وقال تعالى لنبيِّه: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾: بالوحي والإعلام، ولأوليائه تعريف بحكم الإلهام.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾.

جَوَّزوا أن يكونَ لله ـ سبحانه ـ ولدٌ، وفكَّروا في ذلك، ثم لم يَرْضَوْا حتى جعلوا له ما استنكفوا منه لأنفسهم، فما زادوا في تَمَرُّدِهم إلا عُتُوًّا، وفي طغيانهم إلا غُلُوًّا، وعن قبول الحقِّ إلا نُبُوًّا.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[1].

بيَّن أنه لو كان الصانعُ أكثرَ من واحدٍ لَجَرَى بينهم تَضَادٌ وتمانُعٌ، وصحَّ عند ذلك في صفتهم العجزُ، وذلك من سِمات المحدثات.

ثم قال سبحانه ـ تنزيهاً له عن الشَّريك والظهير، والمعين والنظير.

قوله جلّ ذكره: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

الأحياءُ من أهل السموات والأرض يُسَبِّحون له تسبيحَ قالة، وغير الأحياء يسبح من حيث البرهان والدلالة. وما من جزءٍ من الأعيان والآثار إلا وهو دليل على الربوبية، ولكنهم إذا استمعوا توحيداً للإله تعجبوا ـ لجهلهم وتَعَسُّر إدراكهم ـ وأنكروا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾.

أي أدخلناك في إيواءِ حفِظْنَا، وضربنا عليك سرادقاتِ[2] عصمتنا، ومنعنا الأيدي الخاطئةَ عنك بلطفنا.

---

(١) الآية (٤١) لم ترد.

(٢) السرادقات: (ج) السرادق: الخيمة الواسعة أو ما يُمد فوق صحن الدار وهو ستر الدار.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا﴾.

صَرَّح بأنه خالقُ ضلالتهم، وهو المثبت في قلوبهم ما استكنَّ فيها من فرط غوايتهم. ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ أحبوا أن تذكر آلهتهم، قد ختم الله على قلوبهم فلا حديثَ يُعْجِبُهم إلَّا مِمَّنْ لهم شَكْلٌ ومِثْلٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾.

لَبَّسُوا على رسول الله ـ ﷺ ـ أحوالَهم، وأظهروا الوفاقَ من أنفسهم، فَفَضَحَهم اللَّهُ تعالى، وكَشَفَ أسرارَهم، وبَيَّنَ مقابِحَهم، وهَتَكَ أستارَهم، فما تنطوي عليه السريرة لا بُدَّ أن يَظْهَر لأهل البصيرة بما يبدو على الأَسِرَّة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾.

عابوه بما ليس بنقيصةٍ في نفسه حيث قالوا: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ أي ذا سِحْرٍ. وأيُّ نقيصة كانت له إذا كان ﷺ ـ من جملة البَشَر؟ والحقُّ سبحانه وتعالى متولِ نصرته، ولم يكن تخصيصه ببنْيَة، ولا بصورة، ولا بِحِرْفةٍ، ولم يكن منه شيء بسببه وإنما بَانَ شرفُه لجملة ما تعلَّقه به لُطْفُه القديم ـ سبحانه ـ ورحمتُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

أقرُّوا بأنَّ الله خَلَقَهم، ثم أنكروا قدرته على إعادتهم بعد عَدَمِهم، ولكن.. كما جاز أن يوجِدَهم أولاً وهم في كتم العَدَمِ ولم يكن لهم عين ولا أثر، ولكنهم كانوا في متناول القدرة ومتعلق الإرادة، فَمِنْ حَقِّ صاحبِ القدرة والإرادة أن يعيدَهم إلى الوجود مرة أخرى.. وهكذا إذا رَمَدَت عينُ قلبٍ لم يستبصر صاحبه.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾.

أخبر ـ سبحانه وتعالى ـ أنه لا يتعصَّى عليه مقدورٌ لأنه موصوف بقدرة أزلية، وقُدْرَتُه عامَّةُ التعلق: فلا المشقة تجوز في صفته ولا الرفاهية. فالخلْقُ الأول والإعادة عليه سِيَّان؛ لا مِنْ هذا عائدٌ إليه ولا من ذاك، لأن قِدَمَه يمنع تأثير الحدوث فيه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

يدعوكم فتستجيبونه وأنتم حامدون. فالحمد بمعنى الشكر، وإنما يشكر العبدُ على النعمة والآية تدل على أنهم ـ وهم في قبورهم ـ في نعمته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾.

القولُ الحسنُ ما يكون للقائل أن يقوله. ويجوز أن يكون الأحسن مبالغة من الحَسَنِ، فعلى هذا الأحسن من القول ما لا يجوز تركُه. ويقال الأحسن من القول ما يخاف قائله من العقوبة على تركه. ويقال الأحسن من القول إقرار المُحِبِّ بعبودية محبوبه.

ويقال أحسنُ قولٍ من المذنبين الإقرارُ بالجُرْم، وأحسنُ قولٍ من العارفين الإقرارُ بالعجز عن المعرفة، قال ﷺ: «سبحانك لا أُحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيتَ على نفسك»(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾.

سَدَّ على كلِّ أحدٍ طريقَ معرفته بنفسه ليتعلَّق كُلُّ قلبه بربه. وجَعَلَ العواقبَ على أربابها مشتبهةً، فقال ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾. ثم قدَّمَ حديثَ الرحمةِ على حديثِ العذاب، فقال: ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ وفي ذلك تَرَجٍّ للأمل أَنْ يَقْوى.

ويوصف العبدُ بالعلم ويوصف الربُّ بالعلم، ولكن العبدَ يعلم ظاهرَ حاله، وعِلْمُ الرب يكون بحاله وبمآله، ولهذا فالواجبُ على العبد أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله تعالى، وهذا معنى: ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ بعد قوله: ﴿أَعْلَمُ بِكُمْ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾.

فَضَّلَ بعضَ الأنبياءِ على بعضٍ في النبوة والدرجة، وفي الرسالة واللطائف والخصائص. وجعل نبيَّنا ـ ﷺ ـ أفضلهم؛ فهم كالنجوم وهو بينهم بَدْرٌ، وهم كالبدور وهو بينهم شمس، وهم شموسٌ وهو شمسُ الشموس.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾.

استعينوا فيما يستقبلكم بالأصنام التي عبدتموها من دون الله حتى تتحققوا أنه لا تنفعكم عبادةُ شيءٍ من دون الله، ولا يضركم تَرْكُ ذلك، ولقد قيل في الخبر: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (صلاة ٢٢٢)، وأبو داود (صلاة ١٤٨)، (وتر، ٥) والنسائي (قيام الليل ٥١) والترمذي (دعوات ٧٥ ـ ١١٢)، وابن ماجه (دعاء، ٣)، (إقامة ١١٧)، والموطأ (مسّ القرآن ٣١)، وأحمد بن حنبل ١، ٩٦، ١١٨، ١٥٠، ٦، ٥٨.

(٢) أخرجه الترمذي (زهد، ١١)، وابن ماجه (فتن ١٢)، والموطأ (حسن الخلق ٣)، (كلام ١٧).

قوله جلّ ذكره: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾.

يعني الذين يعبدونهم ويدعونهم ـ كالمسيح وعُزَير والملائكة ـ لا يملكون نَفْعَاً لأنفسهم ولا ضَرّاً، وهم يطلبون الوسيلةَ إلى الله أيْ يتقربون إلى الله بطاعتهم رجاءَ إحسانَ الله، وطمعاً في رحمته، ويخافون العذاب من الله... فكيف يرفعون عنكم البلاءَ وهم يرجون الله ويخافونه في أحوال أنفسهم؟

ويقال في المَثَلِ: تعلُّقُ الخَلْقِ بالخَلْق تعلُّقُ مسجونٍ بمسجون.

ويقال: إذا انضمَّ الفقيرُ إلى الفقيرِ ازدادا فاقةً.

ويقال إذا قاد الضريرُ ضريراً سقطا معاً في البئر، وفي معناه أنشدوا:

إذا التقى في حَدَبٍ واحدٍ سبعون أعمى بمقادير

وسَيَّروا بعضَهم قائداً فكُلُّهم يسقط في البير

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾.

العذاب على أقسام: فالألم الذي يَرِدُ على النفوسِ والظواهر يتصاغر بالإضافة إلى مَا يَرِدُ على القلوب والسرائر؛ فعذابُ القلوبُ لأصحابِ الحقائقِ أَحَدُّ في الشِّدَّةِ مِما يُصيب أصحابَ الفقر والقلة.

ثم إن الحقَّ سبحانه أجرى سُنَّتَه بأن مَنْ وصلت منه إلى غيره راحةٌ انعكست الراحةُ إلى موصلها، وبخلاف ذلك مَنْ وصلت منه إلى غيره وَحْشَةٌ عادت الوحشةُ إلى موصلها. ومَنْ سام الناس ظُلْماً وخَسْفاً فَبِقَدْرِ ظُلْمِه يَعذِّبُه اللَّهُ ـ سبحانه وتعالى ـ في الوقت بتنغيص العَيْشِ(١)، واستيلاءِ الغضب مِنْ كلِّ أحدٍ عليه، وتَتَرَجَّمُ ظنونُه وتتقسَّمُ أفكاره في أحواله وأشغاله، ولو ذاق من راحة الفراغ وحلاوة الخلوة شظية لَعَلِمَ ما طعم الحياة.. ولكنْ حُرِموا النِّعَم، وما علموا ما مُنُوا به من النِّقَم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا﴾.

أجرى الله سُنَّتَه أنه إذا أظهر آية اقْتَرَحَتْها أُمَّةٌ من الأمم ثم لم تؤمن بها بعد إظهارها أَنْ يُعَجِّلَ لها العقوبة، وكان المعلومُ والمحكومُ به ألا يجتاحَ العذابُ القومَ الذين كانوا في وقت الرسول ـ عليه السلام ـ لأجْلِ مَنْ في أصلابهم مِنَ الذين عَلِمَ أنهم يؤمِنُون؛ فلذلك أَخَّرَ عنهم العذاب الذي تعجَّلوه.

(١) تنغّص العيش: تكدّر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾.

التخويف بالآيات ذلك من مقتضى تجمله؛ فإنْ لم يخافوا وَقَعَ عليهم العذاب. ثم إنه عَلِمَ أنه لا يفوته شيءٌ بتأخير العقوبة عنهم فَأَخَّر العذابَ. وله أن يفعل ما يشاء بمقتضى حُكْمِه وعِلْمه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾.

الإيمانُ بما خَصَصْنَاكَ به امتحانٌ لهم وتكليفٌ، ليتميزَ الصادقُ من المنافقِ، والمؤمنُ من الجاحد؛ فالذين تَدَاركَتْهُم الحمايةُ وقفوا وثبتوا، وصَدَّقوا بما قيل لهم وحققوا. وأما الذين خَامَر الشكُّ قلوبَهم، ولم تباشِرْ خلاصةُ التوحيد أسرارَهم، فما ازدادوا بما امتُحِنُوا به إلا تحيُّراً وضلالاً وَتَبَلُّداً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾.

امتنع الشقيُّ وقال: لا أسجد لغيرك بوجهٍ سَجَدْتُ لَكَ به، وكان ذلك جهلاً منه، ولو كان بالله عارفاً لكان لأمره مؤثِراً، ولمحيط نفسه تاركاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

لو علقت به ذرَّةٌ من المعرفة والتوحيد لم يحطب على نفسه بالإضلال والإغواء، لكنَّه أقامه الحقُّ بذلك المقام، وأنطقه بما هو لقلوبِ أهلِ التحقيق مُتَّضِح.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

هذا غاية التهديد، وفيه إشارة وبيان بألا مراء ولا تفويتِ، ولو أخرَّ عقوبةَ قومٍ فإن ذلك إمهالٌ لا إهمال، ومكرٌ واستدراجٌ لا إنعامٌ وإكرامٌ.

﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾: أي افعل ما أمكنكَ، فلا تأثيرَ لفعلك في أحد، فإنَّ المنشئ والمُبْدِعَ هو الله.. وهذا غاية التهديد.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾.

السلطان الحجة، فالآية تدل على العموم، ولا حجة للعذر على أحد، بل الحجة لله وحده.

ويقال السلطان هو التَّسَلُّط، وليس لإبليس على أحدٍ تسلط؛ إذ المقدور بالقدرة الحادثة لا يخرج عن محل القدرة الإلهية، فالحادثاتُ كلها تحدث بقدرة الله؛ فلا لإبليس ولا لغيره من المخلوقين تسلط من حيث التأثير في أحد، وعلى هذا أيضاً فالآية للعموم.

ويقال أراد بقوله: ﴿عِبَادِى﴾ الخواصَ من المؤمنين الذين هم أهل الحفظ والرحمة والرعاية من قِبَلَ الله؛ فإن وساوسَ الشيطان لا تضرُّهم لالتجائهم إلى الله، ودوام استجارتهم بالله، ولهذا فإن الشيطان إذا قَرُبَ من قلوب أهل المعرفة احترق بضياء معارفهم.

ويقال إنَّ فرار الشيطان من المؤمنين أشدُّ من فرار المؤمنين من الشيطان.

والخواص من عباده هم الذين لا يكونون في أَسْرِ غيره، وأَمَّا مَنْ استعبده هواه، واستمكنت منه الأطماع، واستَرقته كل خسيسة ونقيصة فلا يكون من جملة خواصه.. وفي الخبر «تَعِسَ عبد الدرهم تعس عبد الدينار»(١).

ويقال في ﴿عِبَادِى﴾ هم المُتَفَيِّئُون في ظلال عنايته، المُتَبَرُّون عن حَوْلِهِم وقُوَّتِهم، المتفرِّدُون بالله بحسن التوكل عليه ودوام التعلُّق به.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.

تعرَّف إلى عباده بخَلْقِه وإنعامه، فما من حادثٍ من عينٍ أو أثرٍ أو طَلَلٍ أو غَبَرٍ إلا وهو شاهِدٌ على وحدانيته، دالٌ على ربوبيته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾.

جُبِلَ الإنسانُ على أنه إذا أصابته نقمةٌ، أو مَسَّته محنة فَزِعَ إلى الله لاستدفاعها، وقد يُعْتَقَدُ أنهم لن يعودوا بعدها إلى ما ليس فيه رضاء الله، فإذا أزال اللَّهُ تلك النِّقمة وكَشَفَ تلك المحنة عادوا إلى ما عنه تابوا، كأنهم لم يكونوا في ضُرٍّ مَسَّهم، وفي معناه أنشدوا:

فكم قد جهلتم ثم عُذْنا بِحِلْمِنا ... أحباءَنا كم تجهلون! وَتَحْلُمُ!

---

(١) أخرجه ابن ماجه في (السنن ٤١٣٥، ٤١٣٦)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٩/ ١٥٩، ١٠/ ٢٤٥) والهيثمي في (مجمع الزوائد ١٠/ ٢٤٨، ٢٦٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥/ ٣٥٦، ٨/ ١٥٢، ١٠/ ٧٥)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٢/ ٢٤٧)، وابن كثير في (التفسير ٢/ ١٧٦، ٧/ ٢٩٣)، والقرطبي في (التفسير ١٦/ ٢٣٣، ١٨/ ١٤١)، والسيوطي في (الدر المنثور ٢/ ١١٥)، وابن حجر في (تغليق التعليق ٩٥٢)، وفي (فتح الباري ١١/ ٢٥٣، ٢٥٤)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥١٦١)، والشجري في (الأمالي ٢/ ١٥٤)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٢/ ٤٦، ٣/ ٢٣٠، ٤/ ٣٧٦)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٨/ ٥٣).

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾.

الخوفُ ترقُّبُ العقوبات مع مجاري الأنفاس ـ كذلك قال الشيوخ[١]. وأعرفُهم بالله أخوفُهم من الله. وصنوفُ العذابِ كثيرة؛ فكم من مسرورٍ أوّلَ ليْلهِ أصبح في شِدَّة! وكم من مهموم بات يتقلب على فراشه أصبح وقد جاءته البشرى بكمال النِّعم! وفي معناه قالوا: إن من خاف البيات لا يأخذه السُّبات. ووصفوا أهل المعرفة فقالوا:

مستوفزون على رِجْلٍ كأنهمو ... يريدون أن يمضوا ويرتحلوا

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

المراد من قوله: ﴿بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ هنا المؤمنون لأنه قال في صفة الكفار: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]. والتكريم التكثير من الإكرام، فإذا حَرَمَ الكافرَ الإكرامَ.. فمتى يكون له التكريم؟

ويقال إنما قال: ﴿كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ ولم يقل المؤمنين أو العابدين أو أصحاب الاجتهاد توضيحاً بأن التكريم لا يكون مقابلَ فِعْلٍ، أو مُعَلَّلاً بِعِلةٍ، أو مُسَبَّباً باستحقاقٍ يوجب ذلك التكريم.

ومن التكريم أنهم متى شاءوا وقفوا معه على بساط المناجاة.

ومن التكريم أنه على أي وصف كان من الطهارة وغيرها إذا أراد أن يخاطبه خاطَبه، وإذا أراد أن يسأل شيئاً سأله.

ومن التكريم أنه إذا تاب ثم نقض توبته ثم تاب يقبل توبته، فلو تكرر منه جُرْمُه ثم توبته يضاعف له قبولَه التوبة وعفوَه.

ومن التكريم أنه إذا شَرَعَ في التوبة أَخَذَ بيده، وإذا قال: لا أعود ـ يقبل قولَه وإنْ عَلِمَ أنه ينقض توبته.

ومن التكريم أنه زَيَّنَ ظاهرَهم بتوفيق المجاهدة، وحَسَّنَ باطنَهم بتحقيق المشاهدة.

ومن التكريم أنه أعطاهم قبل سؤالهم، وغفر لهم قبل استغفارهم، كذا في

(١) هذا القول للجنيد (انظر الرسالة القشيرية ص١٢٧) وهو فيها: سُئل الجنيد عن الخوف فقال: توقّع العقوبة مع مجاري الأنفاس.

الأثر: «أعطيتكم قبل أن تسألوني، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني».

ومن تكريم جملتهم أنه قال لهم: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] ولم يقل ذلك للملائكة ولا للجن.

وكما خَصَّ بني آدم بالتكريم خصَّ أمة محمد ـ ﷺ ـ منهم بتكريم مخصوص، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] و ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩] وقوله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ومن التكريم قوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

ومن التكريم ما ألقى عليهم من محبة الخالق حتى أحبوه.

ومن التكريم لقوم توفيقُ صِدْق القَدَم، ولقوم تحقيقُ علوِّ الهِمَم. قوله: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾: سَخر البحر لهم حتى ركبوا في السفن، وسَخر البرَّ لهم حتى قال: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ [فصلت: ٣٧].

ويقال محمولُ الكرامِ لا يقع، فإنْ وَقَعَ وَجَدَ مَنْ يأخذ بيده.

ويقال الإشارة في حملهم في البرِّ ما أوصل إليهم جهراً، والإشارة بحديث البحر ما أفردهم به من لطائف الأحوال سِرًّا.

ويقال لمّا حَمَلَ بنو آدم الأمانة حملناهم في البر، فحَمْلٌ هو جزاءُ حَمْلٍ، حَمْلٌ هو فِعْلُ مَنْ لم يكن وحَمْلٌ هو فَضْلُ من لم يَزَل.

قوله: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾: الرزق الطيب ما كان على ذكر الرازق؛ فَمَنْ لم يكن غائباً بقلبه[1] ولا غافلاً عن ربِّه استطاب كُلَّ رزقٍ، وأنشدوا:

يا عاشقي إني سَعِدْتُ شراباً ... لو كان حتى علقماً أو صابا

قوله: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾: أي الذين فضلناهم على خلقٍ كثير، وليس يريد أن قوماً بقوا لم يفضلهم عليهم، ولكن المعنى أنا فضلناهم على كلِّ مَنْ خَلَقْنا، وذلك التفضيل في الخِلْقة. ثم فَاضَلَ بين بني آدم في شيء آخر هو الخُلق الحسن، فَجَمَعهم في الخُلقة ـ التي يفضلون بها سائر المخلوقات ـ ومَايَزَ بينهم في الخُلق.

ويقال: ﴿كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾: هذا اللفظ للعموم، والمراد منه الخصوص، وهم

---

(١) قال القشيري برسالته عند حديثه عن الغيبة: هي غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق، لاشتغال الحس بما ورد عليه، ثم يغيب إحساسه بنفسه وبغيره بوارد من تذكر ثواب أو تفكّر عقاب. (الرسالة القشيرية ص٦٩).

المؤمنون، وبذلك يفضل قومٌ على الباقين، ففَضَّل أولياءَه على كثير ممن لم يبلغوا استحقاقَ الولاية.

ويقال فضَّلهم بألّا ينظروا إلى نفوسهم بعين الاستقرار، وأن ينظروا إلى أعمالهم بعين الاستصغار.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

إمامُ كلِّ أحدٍ مَنْ يَقْتَدِي به، ولكن.. مِنْ إمامٍ يهتدي به مُقْتَدِيه، ومن إمام يتردَّى به مقتديه.

﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ﴾: لكمالِ صحوهم وقيادة عقلهم، والذين لا يؤتون كتابهم بيمينهم فهم لخوفِهم وتَرَدُّدِهم لا يقرأون كتابهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

في الآخرة أعمى عن معاينته ببصيرته.

في الآخرة عذابُه الفُرقةُ وتضاف إليها الحُرْقَة ـ لهذا فهو ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾.

ضربنا عليك سرادقاتِ العصمة، وآويناكَ في كنف الرعاية، وحفظناك عن خطر اتباعك هواكَ، فالزَّلَّةُ منك محال، والافتراءُ في نعتك لا يجوز.. ولو جَنَحْتَ لحظةً إلى الخلاف لَتَضاعفَتْ عليكَ تشديداتُ البلاء، لكمالِ قَدْرِك وعُلُوِّ شأنك؛ فإنَّ مَنْ كان أعلى درجةً فَذَنْبُه ـ لو حصل ـ أشدُّ تأثيراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾.

لو وكلناكَ ونَفْسَكَ، ورفعنا عنك ظِلَّ العصمة لألَمَمْتَ بشيءٍ مما لا يجوز من مخالفة أمرنا، ولكننا أفردناكَ بالحفظ، فلا تتقاصر عنكَ آثارُه، ولا تَغْرُبُ عن ساحتك أنوارُه.

قوله: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ...﴾ الآية هبوطُ الأكابر على حسب صعودهم، ومِحَنُ الأَحِبَّةِ وإِنْ قَلَّتْ جَلَّتْ، وفي معناه أنشدوا:

أنت عيني وليس من حقِّ عيني غضُّ أجفانها على الأقذاء[1]

(١) الأقذاء: (ج) القذى: ما يقع في العين وما ترمي به (اللسان ١٥/ ١٧٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

مَنْ ظنَّ أنه يستمتع بحياته بعد مضيّ الأَعِزَّة والأكابر غَلِطَ في حسابه، وإن الحسودَ لا يسود:

وفي تعبٍ مَنْ يَحْسُدُ الشمسَ ضوءَها ويجهد أن يأتي لها بضريب

والأرض كلها مِلْكٌ لنا، ونُقَلِّب أولياءَنا في ترددهم في البلاد وتطوافهم في الأقطار، تردداً على بساطنا، وتقلباً في ديارنا؛ فالبقاع لهم سواء، وأنشدوا:

فَسِرْ أو أَقِمْ وَقْفٌ عليكَ محبتي مكانُكَ من قلبي عليك مصونُ

قوله جلّ ذكره: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾.

الحقُّ أمضى سُنَّته مع الأولياء بالإنعام، ومع أعدائه بالإدغام[1]، فلا لهذه أو هذه تحويل.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

الصلاةُ قَرْعُ باب الرزق. والصلاةُ الوقوفُ في محل المناجاة.

والصلاةُ اعتكافُ القلبِ في مشاهد التقدير.

ويقال هي الوقوف على بساط النجوى. وفَرَّقَ أوقات الصلاة ليكون للعبد عَوْدٌ إلى البساط في اليوم والليلة مراتٍ.

﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾: تشهده ملائكة الليل والنهار ـ على لسان العلم. وأمَّا على لسان القوم فإن قرآن الصبح ـ الذي هو وقت إتيانه ـ يُبْعِدُ مِنَ النومِ وكَسَلِ النفس فله هذه المزية.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾.

الليل لأحدِ أقوام: لطالبي النجاة وهم العاصون مَنْ جَنَح منهم إلى التوبة، أو لأصحاب الدرجات وهم الذين يَجِدُّون في الطاعات، ويسارعون في الخيرات، أو لأصحاب المناجاة مع المحبوب عندما يكون الناس فيما هم فيه من الغفلة والغيبة.

ويقال الليل لأحد رجلين: للمطيع والعاصي: هذا في احتيال أعماله، وهذا في اعتذاره عن قبيح أفعاله.

---

(١) الدغم: أن يميل وجه الفرس إلى السواد.

والمقام المحمود هو المخاطبة في حال الشهود، ويقال الشهود.

ويقال هو الشفاعة لأهل الكبائر. ويقال هو انفراده يوم القيامة بما خُصَّ به - ﷺ - بما لا يشاركه فيه أحد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا﴾.

أي أدخلني إدخالَ صدقٍ وأَخرجني إخراجَ صدقٍ. والصدقُ أن يكون دخولُه في الأشياء بالله لله لا لغيره، وخروجه عن الأشياء بالله ﷺ لا لغيره.

﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا﴾: فلا ألاحظ دخولي ولا خروجي.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

أراد بالحقِّ ها هنا الإسلام والدين، وأراد بالباطل الكفر والشِّرْك، والحقُّ المطلق هو الموجود الحق، والحق المقيد ما كان حسناً في الاعتقاد والفعل والنطق، والباطل نقيض الحق. واللَّهُ حقٌّ: على معنى أنه موجود وأنه ذو الحق وأنه مُحِقُّ الحق.

ويقال الحقُّ ما كان لله، والباطل ما كان لغير الله.

ويقال الحقُّ من الخواطر ما دعا إلى الله، والباطلُ ما دعا إلى غير الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾.

القرآن شفاءٌ من داء الجهل للعلماء، وشفاءٌ من داء الشِّرْكِ للمؤمنين، وشفاءٌ من داء النكرة للعارفين، وشفاء من لواعج الشوق للمحبين، وشفاء من داء الشطط للمريدين والقاصدين، وأنشدوا:

وكُتْبُكَ حَوْلِي لا تفارق مضجعي ... وفيها شفاءٌ للذي أنا كاتِمُ

قوله: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾: الخطاب خطابٌ واحد، والكتابُ كتابٌ واحد، ولكنه لقوم رحمةٌ وشفاء، ولقوم سخطٌ وشقاء. قومٌ أنار بصائرهم بنور التوحيد فهو لهم شفاء، وقوم أغشي على بصائرهم بستر الجحود فهو لهم شقاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾.

إذا نزعنا عنه موجباتِ الخوفِ، وأرخينا له حَبْلَ الإمهال، وهَيَّأْ له أسبابَ الرفاهية اعترته مغاليطُ النسيانِ، واستولت عليه دواعي العصيان، فأعرض عن الشكر، وتباعد عن بساط الوفاق.

ويقال إعراضه في هذا الموضوع نسيانُه، ورؤية الفضل منه لا من الحقّ، وتوهمه أنَّ ما به من النِّعم فباستحقاق طاعةٍ أخلصها أو شدةٍ قاساها.. وهذا في التحقيق شِرْكٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾.

كُلٌّ يترشح بِمُودَعِ باطنه، فالأَسِرَّةُ تدل على السريرة، وما تُكِنُّه الضمائرُ يلوح على السرائر، فَمَنْ صفاً مِنَ الكدورة جوهرهُ لا يفوح منه إلا نَشْرُ مناقبه، ومنْ طبِعَتْ على الكدورةِ طينتُه فلا يشمُّ مَنْ يحوم حولَه إلا ريحَ مثالبه.

ويقال حركات الظواهر تدُلُّ وتُخْبِرُ عن بواطنِ السرائر.

ويقال حَبُّ (. . .)[1] لا يُنْبِتُ غضَّ العود.

ويقال من عُجِنَتْ بماء الشِّقْوةِ طينتُه، وطُبِعَتْ على النَكَرَةِ جِبِلَّتُه[2] لا تسمح بالتوحيد قريحتُه، ولا تنطِقُ بالتوحيد عبارتُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أرادوا أن يجادلوه ويُغَلِّطُوه فأَمَرَه أن ينطق بلفظٍ يُفْصِحُ عن أقسام الروح؛ لأَنَّ ما يُطْلَقُ عليه لفظُ ﴿ٱلرُّوحِ﴾ يدخل تحت قوله تعالى:

﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾.

ويقال إن روح العبد لطيفة أودعها الله سبحانه في القالب، وجعلها محل الأحوال اللطيفة والأخلاق المحمودة، (وكما يصح أن يكون البَصَرُ محلَّ الرؤية والأذنُ محلَّ السمع.. إلى آخره، والبصير والسامع إنما هو الجملة ـ وهو الإنسان ـ فكذلك محل الأوصاف الحميدة الروح، ومحل الأوصاف المذمومة النَّفْس، والحكم أو الاسمُ راجعٌ إلى الجملة)[3].

وفي الجملة الروح مخلوقة، والحق أجرى العادة بأن يخلق الحياة للعبد ما دام الروح في جسده.

والروح لطيفة تقررت للكافة طهارتها ولطافتها، وهي مخلوقة قبل الأجساد بألوفٍ من السنين. وقيل إنه أدركها التكليف، وإن لها صفاء التسبيح، وصفاء المواصلات، والتعريف من الحق.

---

(١) بياض في الأصل. (٢) الجبِلّة: الخلقة (ج) جبلات.

(٣) ما بين قوسين صُحح استناداً للرسالة القشيرية ص٨٧.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾: لأن أحداً لم يشاهد الروح ببصره.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾.

سُنَّةُ الحقِّ ـ سبحانه ـ مع أحبائه وخواص عباده أن يُدِيمُ لهم افتقارهم إليه، ليكونوا في جميع الأحوال مُنقادين لجريانِ حُكْمِه، وألا يتحركَ فيهم عِرْقٌ بخلافِ اختيارِه، وعلى هذه الجملة خاطب حبيبَه ـ صلوات الله عليه ـ بقوله: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾: فمن كان استقلاله بالله يقدِّم مرادَ سيده ـ في العزل والولاية ـ على مراد نفسه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾.

والمقصودُ من هذا إدامةُ تَفَرُّدِ سِرِّهِ ﷺ به ـ سبحانه ـ دونَ غيره.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

سائر الأنبياء معجزاتُهم باقيةٌ حُكْماً، ونبيُّنا ـ ﷺ ـ معجزته باقيةٌ عيناً، وهي القرآن الذي نتلوه، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا مِنْ خَلْفِهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾.

لا شيءَ أَحْظَى عند الأحباب من كتاب الأحباب، فهو شفاء من داء الضنى، وضياء لأسرارهم عند اشتداد البَلَا، وفي معناه أنشدوا:

وكتبك حولي لا تفارق مضجعي ... وفيها شفاء للذي أنا كاتم

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾.

اقترحوا الآيات بعد إزاحة العِلَّة وزوالِ الحاجة، فَرَكَضُوا في مضمارِ سوءِ الأدب، وحُرِموا الوُصْلة والقُربة. ولو أُجِيبوا إلى ما طلبوا ما ازدادوا إلا جُحْداً ونكَرَةً، وقد قيل:

إنَّ الكريمَ إذا حباكَ بودِّه ... سَتَرَ القبيحَ وأظهر الإحسانا

وكذا الملولُ إذا أراد قطيعةً ... مَلَّ الوصال وقال كان وكانا

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾: قل يا محمد: سبحان ربي! مِن أين لي الإتيان بما سألتم من جهتي؟ فهل وَصْفِي إلا العبودية؟ وهل أنا إلا بَشَر؟ قال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ [النساء: ١٧٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾.

تعجَّبوا مما ليس بمحلِّ شُبهة، ولكن حَمَلَهم على ذلك فَرْطُ جَهْلِهم، ثم أَصَرُّوا على تكذيبِهم وجحدهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾.

الجنسُ إلى الجنسِ أميلُ، والشكلُ بالشكلِ آنسُ، فقال سبحانه لو كان سكانُ الأرضِ ملائكةً لَجَعَلْنا الرسولَ إليهم مَلَكاً، فلمَّا كانوا بَشَراً فلا ينبغي أن يُسْتَبْعدَ إرسالُ البشرِ إلى البشرِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾.

الحقُّ ـ سبحانه ـ هو الحاكم وهو الشاهد، ولا يُقاسُ حُكمَه على حُكْمِ الخَلْق، ولا يجوز في صفةِ المخلوقِ أَنْ يكونَ الحاكمُ هو الشاهد، فكما لا تشبه ذاتُه ذاتَ الخَلْقِ لا تشبه صفتُه صفةَ الخَلْق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾.

مَنْ أراده بالسعادةِ في آزاله استخلصه في آباده بأفضاله، ومَنْ عَلِمَه في الأزل بالشقاء وَسَمَه وفي أيده بِسِمةِ الأعداء. فلا لِحُكْمِه تحويل، ولا لِقَوْلِهِ تبديل.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

لمَّا أَصَرُّوا على تكذيبهم جازاهم الحقُّ بإدامة تعذيبهم، ولو ساعدهم التوفيقُ لَوُجِدَ منهم التحقيق، لكنهم عَدِمُوا التأييد فحُرِموا التوحيد.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾.

مَهَّدَ بهذه الآية طريق إثبات القياس، فلم يغادر في الكتاب شيئاً من أحكام الدِّين لم يؤيده بالدليل والبيان، فَعَلِمَ الكلُّ أن الركونَ إلى التقليد عينُ الخطأ والضلال.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا﴾.

إذ البُخْلُ غريزةُ الإنسان، والشحُّ سجيته [(. . . . .)[1] المعروف لا يعرف الخلقة][2].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾.

هي أمارات كرامته وعلامات محبته.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾.

أنت ـ يا فرعون ـ سلكتَ طريق الاستدلال فَعلِمْتَ أن مثل هذه الأشياء لا يكون أمرها إلا مِنْ قِبَلِ الله، ولكنَّكَ رَكَنْتَ إلى الغفلةِ في ظلمات الجهل.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾.

أراد فرعونُ إهلاكَ بني إسرائيل واستئصالَهم، وأراد الحقُّ ـ سبحانه ـ نصرتهم وبقاءهم، فكان ما أراد الحقُّ لا ما كاد اللعين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾.

أورثهم منازلَ أعدائهم، ومكَّنهم من ذخائرهم ومساكنهم، واستوصى بهم شُكْرَ نعمته، وعرَّفَهم أنهم إنْ سلكوا في العصيان مَسْلَكَ مَنْ تَقَدَّمَهم ذاقوا من العقوبة مثلَ عقوبتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا﴾.

القرآن حقٌّ، ونزوله بحق، ومُنَزِّلهُ حق، والمُنَزَّلُ عليه حق، فالقرآن بحقٍّ أنزل ومِنْ حقٍّ نزل وعلى حقٍّ نزل. وقد فَرَّق القرآنَ لِيُهَوِّنَ عليه ـ صلوات الله عليه ـ حِفْظَه، وليكثر تردد الرسول من ربِّه عليه، وليكون نزوله في كل وقت وفي كل حادثة وواقعة دليلاً على أنه ليس مما أعان عليه غيره.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ

(١) بياض في الأصل. (٢) ما بين حاصرتين غامض.

يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾.

إنْ آمنتم حَصَلَ النفعُ لكم، وإنْ جَحَدْتُم ففي إيمان مَنْ آمن مِنْ أوليائنا عنكم خَلَفٌ، وإنَّ الضَّرَرَ عائدٌ عليكم.

وإنَّ مَنْ أَضأْنَا عليهم شموس إقبالنا لتُشْرِقُ أنوار معارفهم؛ فإذا تُليت عليهم آياتُنا سَجَدُوا بَدَلَ جُحْدِهم، واستجابوا بدل تمردهم، وقابلوا بالتصديق ما يقال لهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾.

تأثيره في قلوب قوم يختلف؛ فتأثير السماع في قلوب العلماء بالتبصُّر، وتأثير السماع في أنوار الموحِّدين بالتحير؛ تبصُّر العلماء بصحة الاستدلال، وتحيُّر الموحدين في شهود الجمال والجلال.

وبكاء كل واحدٍ على حسب حاله: فالتائب يبكي لخوف عقوبته لما أَسْلَفَهُ من زَلَّته وحَوْبته، والمطيعُ يبكي لتقصيره في طاعته، ولكيلا يفوته ما يأمله من مِنَّتِه.

وقوم يبكون لاستبهام عاقبتهم وسابقتهم عليهم.

وآخرون بكاؤهم بلا سبب متعين. وآخرون يبكون تحسراً على ما يفوتهم من الحق.

والبكاء عند الأكابر معلول، وهو في الجملة يدل على ضعف حال الرجل، وفي معناه أنشدوا:

خُلِقْنا رجالاً للتجلدِ والأَسَى وتلك الغواني للبُكا والمآتِم

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ ﴾.

مِنْ عظيم نعمته ـ سبحانه ـ على أوليائه تَنَزُّهُهم بأسرارهم في رِياض ذِكْرِه بتعداد أسمائه الحسنى من روضة إلى روضة، ومن مَأْنَسٍ إلى مأنس.

ويقال الأغنياءُ ترددهم في بساتينهم، والأولياءُ تنزههم في مشاهد تسبيحهم، يستروحون إلى ما يلوح لأسرارهم من كشوفات جلاله وجماله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾.

لا تجهر بجميعها، ولا تخافت بكُلِّها، وارفع صوتك في بعضها دون بعض.

ويقال ولا تجهر بها جهراً يَسْمَعهُ الأعداءُ، ولا تخافت بها حيث لا يسمع الأولياء.

﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾: يكون للأحباب مسموعاً، وعن الأجانب ممنوعاً.

ويقال ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾: بالنهار، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾: بالليل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾.

احْمَدْه بذكر تقدسه عن الولد، وأنه لا شريك له؛ ولا ولي له من الذل؛ إما على أنه لم يَذَلَّ فيحتاج إلى ولي، أو على أنه لم يوالِ أحداً من أجل مذلة به فيدفعها بموالاته. ويقال اشكره على نعمته العظيمة حيث عرَّفك بذلك.

ويقال له الأولياءُ ولكن لا يعتريهم بِذُلِّهم، إذ يصيرون بعبادته أَعِزَّةً.

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ بأَنْ تَعْلَمَ أَنَّك تصل إليه به لا بتكبيرك.

السورة التي يذكر فيها الكهف

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ما سَعِدَتْ القلوبُ إلا بسماع اسم الله، وما استنارت الأسرارُ إلا بوجود الله، وما طَرِبَتْ الأرواح إلا بشهود جلال الله.

سماع ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ راحةُ القلوبِ وضياؤُها، وشفاءُ الأرواح ودواؤها.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ قُوتُ العارفين؛ بها يزول كدُّهم وعناؤهم، وبها استقلالهم وبقاؤهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ [الكهف: ١].

إذا حُمِلَ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ هنا على معنى الشكر فإنزالُ الكتابِ من أَجَلِّ نِعَمِهِ، وكتابُ الحبيب لدى الحبيب أجلُّ مَوْقِعٍ وأشرفُ محلّ، وهو من كمال إنعامه عليه، وإنْ سمَّاه ـ عليه السلام ـ عَبْدَه فهو من جلائلِ نَعمه عليه لأنَّ من سمَّاه عَبْدَهَ جَعَلَه من جملة خواصِّه.

وإذا حُمِلَ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ في هذه الآية على معنى المدح كان الأمر فيه بمعنى الثناء عليه ـ سبحانه، بأنه الملِكُ الذي له الأمرُ والنهيُ والحكمُ بما يريد، وأنه أعدَّ الأحكامَ التي في هذا الكتاب للعبيد، وسمَّاه ﷺ عبدَه لمَّا كان فانياً عن حظوظه، خالصاً لله بقيامه بحقوقه.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾.

﴿قَيِّمًا﴾: أي صانه عن التعارض والتناقض، فهو كتابٌ عزيزٌ من ربٍّ عزيز.

«واليأس الشديد»: مُعَجَّلُه الفراق، ومؤجَّلُه الاحتراق.

ويقال هو البقاء عن الله تعالى، والابتلاء بغضب الله.

ومعنى الآية لينذرهم ببأس شديد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾.

والعملُ الصالحُ ما يصلح للقبول، وهو ما يُؤَدَّى على الوجهِ الذي أُمِرَ به. ويقال العمل الصالح ما كان بنعت الخلوص، وصاحبُه صادقٌ فيه.

ويقال هو الذي لا يستعجِل عليه صاحبه حَظّاً في الدنيا مِنْ أَخذِ عِوَضٍ، أو قَبُولِ جاهٍ، أو انعقادِ رياسة. . . وما في هذا المعنى.

وحصلت البشارةُ بأَنَّ لهم أجراً حسناً، والأجرُ الحَسَنُ ما لا يجري مع صاحبه استقصاءٌ في العمل.

ويقال الأجر الحَسَنُ ما يزيد على مقدار العمل.

ويقال الأجر الحَسَنُ ما لا يُذَكِّر صاحبَه تقصيرَه، ويستر عنه عيوبَ عمله.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾.

البشارة منه أَنَّ تلك النِّعم على الدوام غير منقطعة، وأعظم من البشارة بها قوله: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

قالتهُم القبيحةُ نتيجةُ جَهْلِهم بوحدانيةِ الله، ولقد توارثوا ذلك الجهلَ عن أسلافهم؛ والحيَّةُ لا تَلِدُ حَيَّةً!

كبُرَتْ كلمتُهم في الإثم لمَّا خَصَّت في المعنى. ومَنْ نطق بما لم يحصل له به إذنٌ لِحَقَه هذا الوصف. ومَنْ تكلَّمَ في هذا الشأن قبل أوانه فقد دخل في غمار هؤلاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾.

مِنْ فَرْطِ شفقته ـ ﷺ ـ داخَلَه الحزنُ لامتناعهم عن الإيمان، فهوَّن الله ـ سبحانه ـ عليه الحالَ، بما يشبه العتابَ في الظاهر؛ كأنه قال له: لِمَ كل هذا؟ ليس في امتناعهم ـ في عَدِّنا ـ أثر، ولا في الدِّين من ذلك ضرر. . فلا عليكَ من ذلك.

ويقال أشهده جريانَ التقدير، وعَرَّفه أنه ـ وإِنْ كان كُفرُهم منهِيّاً عنه في الشرع ـ فهو في الحقيقة مُرادُ الحق.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾.

ما على الأرض زينة لها تُدْرَكُ بالأبصار، وممن على الأرض من هو زينة لها يُعْرَفُ بالأسرار. وإِنَّ قيمةَ الأوطانِ لقُطَّانها، وزينة المساكن في سُكَّانها.

ويقال العُبَّاد بهم زينة الدنيا، وأهلُ المعرفة بهم زينة الجنة.

ويقال الأولياءُ زينةُ الأرض وهم أَمانُ مَنْ في الأرض.

ويقال إذا تلألأت أنوار التوحيد في أسرار الموحدين أشرقت جميع الآفاق بضيائهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

أحسنهم عملاً أصدقهم نِيَّةً، وأخلصهم طوية[١].

ويقال أحسنهم عملاً أكثرهم احتساباً؛ إذ لا ثوابَ لمن لا حسبة له، وأعلى من هذا بل وأَوْلى من هذا فأحسنهم عملاً أشدُّهم استصغاراً لفعله، وأكثرهم استحقاراً لطاعته؛ لشدة رؤيته لتقصير فيما يعمله، ولانتقاصه أفعاله في جنب ما يستوجبه الحقُّ بحقِّ أمره.

ويقال أحسنُ أعمال المرءِ نَظَرُه إلى أعماله بعين الاستحقار والاستصغار، لقول الشاعر:

وأكبرهُ من فِعْله وأعظمُه ... تصغيرُه فِعْلَه الذي فَعَله

معناه: أكبرُ مِنْ فعلِه ـ الذي هو عطاؤه وبَذْلُه ـ تقليلُه واستصغارُه لِمَا يُعْطِيه ويجود به.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا﴾.

كَوْنُ ما على الأرض زينةً لها في الحال سُلِبَ قَدْرُه بما أخبر أنه سيُفْنِيهِ في المآل.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾.

أزال الأعجوبةَ عن أوصافهم بما أضافه إلى ربّه بقوله: ﴿مِنۡ ءَايَٰتِنَآ﴾؛ فَقَلْبُ العادةِ مِنْ قِبَلِ اللّهِ غيرُ مُسْتَنْكَرٍ ولا مُبْتَدَعٍ.

ويقال مكثوا في الكهف مدةً فأضافهم إلى مُسْتَقَرِّهم فقال: ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ﴾، وللنفوس مَحَالٌّ، وللقلوب مَقَارٌّ، وللهمم مَجَال، وحيثما يعتكف يُطْلَبُ أبداً صاحبه.

ويقال الإشارة فيه ألا تَتَعَجَّبَ من قصتهم؛ فحالُك أعجبُ في ذهابك إلينا في شطر من الليل حتى قاب قوسين[٢] أو أدنى، وهم قد بقوا في الكهف سنين.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾.

آواهم إلى الكهف بظاهرهم، وفي الباطن فهو مُقِيلُهم في ظِلِّ إقباله وعنايته، ثم أخذهم عنهم، وقام عنهم فأجرى عليهم الأحوال وهم غائبون عن شواهدهم.

وأخبر عن ابتداء أمرهم بقوله. ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾:

---

(١) الطَّوِيَّة: الضمير ينطوي عليه الإنسان. يقال: فلان حسن الطوية، أي: النية والضمير (ج) طوايا.

(٢) القاب: المقدار، أو ما بين نصف وتر القوس وطرفه. يُقال: هو على قاب قوسين: كناية عن القُرب.

أي أنهم أَخَذُوا في التبرّي مِنْ حَوْلِهم وقُوَّتِهِم، ورجعوا إلى الله بِصِدْقِ فَاقَتِهِم، فاستجاب لهم دعوتَهم، ودفع عنهم ضرورتَهم، وبَوَّأهم في كنف الإيواء مقيلاً حسناً.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾.

أخذناهم عن إحساسهم بأنفسهم، واختطفناهم عن شواهدهم بما استغرقناهم فيه من حقائقِ ما كاشفناهم به من شهود الأحدية، وأطلعناهم عليه من دوام نعت الصمدية.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا﴾.

أي رددناهم إلى حال صحوهم وأوصاف تمييزهم، وأقمناهم بشواهد التفرقة بعد ما محوناهم عن شواهدهم بما أقمناهم بوصف الجمع.

قوله جلّ ذكره: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ﴾.

لمَّا كانوا مأخوذين عنهم تولّى الحق ـ سبحانه ـ أَنْ قَصَّ عنهم، وفَرَقَ بين من كان عن نفسه وأوصافه قاصاً؛ لبقائه في شاهده وكونه غيرَ منتفٍ بجملته.. وبين من كان موصوفاً بواسطة غيره؛ لفنائه عنه وامتحائه منه وقيام غيره عنه.

ويقال لا تُسَمعُ قصةُ الأحباب أعلى وأَجَلّ مما تُسَمعُ من الأحباب، قال عزَّ من قائل: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾، وأنشدوا:

وحَدَّثْتَنِي يا سَعْدُ عنها فَزِدْتني حنيناً فَزِدْني من حديثك يا سعدُ

قوله: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ﴾: يقال إنهم فتية لأنهم آمنوا ـ على الوهلة ـ بربِّهم، آمنوا من غير مهلة، لمَّا أتتهم دواعي الوصلة[1].

ويقال فتية لأنهم قاموا لله، وما استقروا حتى وصلوا إلى الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾.

لَاطفهم بإحضارهم، ثم كاشفهم في أسرارهم، بما زاد من أنوارهم، فلقَّاهم أولاً التبيين، ثم رقّاهم عن ذلك باليقين.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: بزيادة اليقين حتى متع نهار[2] معارفهم، واستضاءت شموسُ تقديرهم، ولم يَبْقَ للتردد مجالٌ في خواطرهم، و (...)[3] في التجريد أسرارهم، وتَمَّتْ سكينةُ قلوبهم.

(١) انظر حديث القشيري برسالته ص٢٢٦ عن الفتوة.

(٢) فَتَح نهاره: كناية عن استمرار العطاء الإلهي والكشف الرباني بتمديد وقت النهار إلى الليل، حتى ينعدم الليل.

(٣) بياض في الأصل.

ويقال: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: بأن أفنيناهم عن الأغيار، وأغنيناهم عن التفكُّر بما أوليناهم من أنوار التبصُّر.

ويقال ربطنا على قلوبهم بما أسكَنَّا فيها من شواهدِ الغيب، فلم تسنح فيها هواجسُ التخمين ولا وساوس الشياطين.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

قاموا لله بالله، ومَنْ قام بالله فُقِدَ عمَّا سوى الله.

ويقال من قام لله لم يقعد حتى يصلَ إلى الله.

ويقال قعدت عنهم الشهوات فَصَحَّ قيامُهم بالله.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾.

مَنْ أحال الشيءَ على الحوادثِ فقد أشرك بالله، ومَنْ قال إنَّ الحوادث من غير الله فقد اتخذ إلهاً مِنْ دون الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

لمَّا لم يكن لهم حجة اتضح فيما ادعوه كذبُهم، فمن اكتفى بِنَفْي القالة دون ما يشهد لقوله من أدلته فهو معلول في نحلته.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾؟ فمن ذَكَرَ في الدِّين قولاً لم يؤيَّد ببرهان عقلي أو نقلي فهو مفترٍ، ومَنْ أظهر مِنْ نَفْسه حالاً لم يوجبه صدق مجاهدته أو منازلته فهو على الله مُفْتَرٍ. والذي يصدق في قوله ـ في هذه الطريقة ـ فهو الذي يسمع من الحق بسرِّه، ثم ينطق بلفظه[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾.

العزلةُ عن غير الله توجِبُ الوصلة بالله. بل لا تحصل الوصلةُ بالله إلا بعد العُزْلَةِ عن غير الله.

ويقال لما اعتزلوا ما عُبِدَ من دون الله آواهم الحقُّ إلى كنف رعايته، ومهد لهم مثوىً في كهفِ عنايته.

ويقال مَنْ تبرَّأ مِنَ اختياره في احتياله، وصَدَقَ رجوعه إلى الله في أحواله، ولم يستَعِنْ ـ بغير الله ـ من أشكاله وأمثاله آواه إلى كَنَفِ أفضاله، وكفاه جميعَ أشغاله، وهَيأ له مَحَلاً يتفيؤ فيه في بَرْدِ ظِلالِه، بكمالِ إقباله.

---

(١) انظر حديث القشيري عن الصدق بالرسالة ص٢١٠ ـ ٢١٤.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ[1] عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

كانوا في مُتَّسَعٍ من الكهف، ولكن كان شعاعُ الشمس لا ينبسط عليهم مع هبوب الرياح عليهم.

ويقال أنوار الشمس تتقاصر وتتصاغر بالإضافة إلى أنوارهم.

إن نورَ الشمسِ ضياءٌ يستضيءُ به الخَلْقُ، ونور معارفهم أنوار يُعْرَف بها الحق، فهذا نور يظهر في الصورة، وهذا نور يلوح في السريرة. وبنور الشمس يدرك الخلْق وبنورهم كانوا يعرفون الحق.

وفي قوله ـ عَزّ اسمه: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ فيه دلالة على أن في الأمر شيئاً بخلاف العادة، فيكون من جملة كرامات الأولياء؛ ويحتمل أن يكون شعاعُ الشمسِ إذا انتهى إليهم ازورَّ عنهم، ومضى دونَهم بخلاف ما يقول أصحاب الهبة، ليكونَ فعلاً ناقضاً للعادة فلا يبعد أن يقال إن نور الشمس يُسْتَهْلَكُ في النور الذي عليهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾.

فاللَّه يهْدِي قوماً بالأدلةِ والبراهين، وقوماً بكشف اليقين؛ فمعارفُ الأولين قضية الاستدلال، ومعارف الآخرين حقيقة الوصال، فهؤلاء مع برهان، وهؤلاء على بيان كأنهم أصحاب عيان:

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾: أي مَنْ وَسَمه بِسِمَةِ الحرمان فلا عرفانَ ولا علمَ ولا إيمان.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾.

هم مسلوبون عنهم، مُخْتَطَفُون منهم، مُستَهلَكون فيما كوشِفوا به من وجود الحق؛ فظاهرهم ـ في رأي الخَلْق ـ أنهم بأنفسهم، وفي التحقيق: القائمُ عنهم غيرُهم. وهم محوٌ فيما كوشفوا به من الحقائق.

ثم قال: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾: وهذا إخبارٌ عن حُسْنِ إيوائه لهم؛ فلا كشفقةِ الأمهات بل أتم، ولا كرحمة الآباء بل أعزُ... وبالله التوفيق.

ويقال إن أهلَ التوحيدِ صفتهم ما قال الحقُّ ـ سبحانه ـ في صفة أصحاب الكهف: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ فَهُمْ بشواهد الفَرْقِ في ظاهرهم، لكنهم بعين الجمع بما كُوشِفوا به في سرائرهم، يُجْرِي عليهم أحوالِهم وهم غير متكلِّفين، بل هم يثبتون ـ وهم خمودٌ عما هم به ـ أن تصرفاتِهم القائمُ بها عنهم سواهم، وكذلك في نطقهم.

(١) الزَّوَرُ: الميل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَلْبُهُم بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾.

كما ذَكَرَهُم ذَكَرَ كلبَهم، ومَنْ صَدَقَ في محبة أحدٍ أحبَّ مَنْ انتسب إليه وما يُنْسَبُ إليه.

ويقال كلبٌ خَطَا مع أحبائه خطواتٍ فإلى القيامة يقول الصبيان ـ بل الحق يقول بقوله العزيز ـ: ﴿وَكَلْبُهُم بَـٰسِطٌ﴾ فهل ترى أَنَّ مُسْلِماً يصحب أولياءه من وقت شبابه إلى وقت مشيبه يردُّه يوم القيامة خائباً؟ إنه لا يفعل ذلك.

ويقال في التفاسير إنهم قالوا للراعي الذي تبعهم والكلب معه: اصرف هذا الكلب عنَّا.. فقال الراعي: لا يمكنني، فإني أنا ديته.

ويقال أنطق الله سبحانه ـ الكلبَ فقال لهم: لِمَ تضربونني؟

فقالوا: لِتَنْصَرِفَ عنَّا.

فقال: لا يمكنني أن أنصرف.. لأنه ربَّاني.

ويقال كلبٌ بَسَطَ يده على وصيد[1] الأولياء فإلى القيامة يقال ﴿وَكَلْبُهُم بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾... فهل إذا رَفَعَها مسلمٌ إليه خمسين سنة ترى يردُّها خائبةً؟ هذا لا يكون.

ويقال لما صَحِبَهم الكلبُ لم تضره نجاسةُ صِفتِهِ، ولا خساسةُ قيمته.

ويقال قال في صفة أصحاب الكهف إن كانوا ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢]، أو ﴿خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ فقد قال في صفة هذه الأمة: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧].

وشتَّان ما هما!

ويقال كُلٌ يُعامَلُ بما يليق به من حالته ورتبته؛ فالأولياء قال في صفتهم: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾، والكلب قال في صفته: ﴿وَكَلْبُهُم بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾.

ويقال كما كرَّر ذكرَهم، كرر ذِكْرَ كلبِهم.

وجاء في القصة أن الكلبَ لما لم ينصرفْ عنهم قالوا: سبيلنا إذا لم ينصرف عنَّا أَنْ نَحْمِلَه حتى لا يُسْتَدَلَ علينا بأثر قَدَمِه فحملوه، فكانوا في الابتداء (بل إياه) وصاروا في الانتهاء مطاياه.. كذا مَنْ اقتفى أَثَرَ الأحباب.

---

(١) الوصيد: فناء الدار والبيت.

ويقال في القصة إن الله أنطق الكلب معهم، وبِنُطْقِهِ رَبَطَ على قلوبهم بأَنْ ازدادوا يقيناً بسماع نطقه، فقال: لِمَ تضربونني؟ فقالوا: لتنصرف، فقال: أنتم تخافون بلاءً يصيبكم في المستقبل وأنتم بلائي في الحال.

ثم إنَّ بلَاءَكم الذي تخافون أنْ يصيبكم من الأعداء، وبلائي منكم وأنتم الأولياء.

ويقال لما لزم الكلبُ محلَّه ولم يجاوزْ حَدَّه فوضع يديه على الوصيد بقي مع الأولياء... كذا أدب الخدمة يوجب بقاءَ الوُصلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾.

الخطاب له ـ ﷺ. والمرادُ منه غيره.

ويقال لو اطلعتَ عليهم من حيث أنت لوليت منهم فراراً، ولو شاهدتَهم من حيث شهود تولِّي الحق لهم لبقيت على حالك.

ويقال لو اطلعتَ عليهم وشاهدتَهم لَوَلَّيْت منهم فراراً مِنْ أَنْ تُرَدَّ عن عالي منزلتك إلى منزلتهم؛ والغنيُّ إذا رُدَّ إلى منزلة الفقير فَرَّ منه، ولم تَطِبْ به نَفسُه. ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ بأن يُسْلَبَ عظيمُ ما هو حالك، وتُقَامَ في مثل حالهم النازلة عن حالك.

ويقال: ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ لأنك لا تريد أن تشهد غيرنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

استقلوا مدة لُبْثهم وقد لَبِثُوا (طويلاً)، ولكنهم كانوا مأخوذين عنهم، ولم يكن لهم عِلْمٌ بتفصيل أحوالهم، قال قائلهم:

لستُ أدري أطالَ لَيْلِي أم لا؟ كيف يدري بذاك من يتقلَّى؟
لو تَفَرَّغْتُ لاستطالةِ لَيْلِي ورعيتُ النجومَ كنتُ مُخِلَّا

ويقال أيامُ الوصالِ عندهم قليلة ـ وإنْ كانت طويلة، ولو كان الحال بالضدِّ لكان الأمر بالعكس، وأنشدوا:

صَبَاحُكَ سُكْرٌ والمِساءُ خُمارُ[1] نَعِمْتَ وأيامُ السرورِ قِصارُ

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمٍ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾.

لأنه هو الذي خَصَّكم بما به أقامكم.

---

(١) الخُمار: ما يعقب شرب الخمر من صُداع وأذى.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾.

ما داموا مأخوذين عنهم لم يكن لهم طلبٌ لأكلٍ ولا شربٍ ولا شيء من صفة النَّفْس، فلمَّا رُدُّوا إلى التمييز أخذوا في تدبير الأكل أوّلَ ما أحسوا بحالهم، وفي هذا دلالة على شدة ابتداء الخَلْق بالأكل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾.

تَوَاصَوْا فيما بينهم بحسن التَّخَلقِ وجميل الترفُّقِ، أي ليتلطف مع من يشتري منه شيئاً.

ويقال أوصوا مَنْ يشتري لهم الطعامَ أنْ يأتيهم بألطف شيءٍ وأطيبِه، ومن كان من أهل المعرفة لا يوافقه الخشن من الملبوس ولا المبتذل في المطعم من المأكول.

ويقال أهل المجاهدات وأصحاب الرياضات طعامهم الخشن ولباسهم كذلك والذي بلغ المعرفة لا يوافقه إلا كل لطيف، ولا يستأنس إلا بكل مليح.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾.

تواصوا فيما بينهم بكتمان الأسرار عن الأجانب وأخبر أنهم إن اطلعوا عليهم وعلى أحوالهم بالغوا في مخالفتهم إمَّا بالقتل وإما بالضرب وبما أمكنهم من وجوه الفعل، ولا يرضون إلا بردِّهم إلى ما منه تخلصوا، فمَنْ احترق كدسهُ فما لم يحترق كدس غيره لا تطيب نَفْسُه.

ويقال من شأن الأبرار حفظ الأسرار عن الأغيار.

ويقال مَنْ أظْهَر لأعدائه سِرَّه فقد جَلبَ باختياره ضُرَّه، وفَقَدَ ما سَرَّه.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

جعل أحوالَهم عِبْرةً لِمَنْ جاءَ بَعْدَهم حين كشف لأهل الوقت قصتهم، فعاينهم الناس، وازداد يقين مَنْ كان يؤمن بالله حين شاهدوا بالعيان ما كان نَقْضاً للعادة المستمرة.

ثم إن الله تعالى ردَّهم إلى ما كانوا عليه من الحالة، كانوا مأخوذين عن التمييز، متقلبين في القبضة على ما أراده الحق، مستودعين فيما كوشفوا، مستهلكين عنهم في وجود الحق ـ سبحانه.

قوله جل ذكره: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

أخبر أنَّ علومَ الناسِ متقاصرةٌ عن عددهم؛ فالأحوالُ التي لا يطلع عليها إلا الله في أسرارهم وقلوبهم... متى يكون للخَلْق عليها إشرافٌ؟

أشكل عليهم عددهم، وعددهم يُعْلَم بالضرورة، وهم لا يُدْرَكُون بالمشاهدة.

ويقال سَعِدَ الكلبُ حيث كَرَّرَ الحقُّ ـ سبحانه ـ ذِكْرَهم وذكَرَ الكلبَ معهم على وجه التكرار، ولمَّا ذَكَرَهم عَدَّ الكلب في جملتهم.

قوله جل ذكره: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

لما كانوا من أوليائه فلا يعلمهم إلا خواصُّ عباده، ومَنْ كان قريباً في الحالِ منهم؛ فهم في كتم الغَيْرة وإيواء الستر لا يَطَّلِعُ الأجانبُ عليهم؛ ولا يعلمهم إلا قليلٌ؛ لأنَّ الحق ـ سبحانه ـ يستر أولياءه عن الأجانب، فلا يعلمهم إلا أهل الحقيقة؛ فالأجانب لا يعرفون الأقارب، ولا تشكل أحوال الأقارب على الأقارب. كذلك قال شيوخ هذه الطائفة: «الصوفية أهل بيتٍ واحدٍ لا يدخل فيهم غيرهم».

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾.

كما لا يعرفهم من كان بمعزلٍ عن حالتهم، ولا يهتدي إلى أحكامهم من لا يعرفهم.. فلا يصحُّ استفتاءُ مَنْ غاب علمهم عنه في حالهم. ومَنْ لم يكن قلبُه محلاً لمحبة الأحباب لا يكون لسانُه مقراً لذكرهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

إذا كانت الحوادثُ صادرةً عن مشيئة الله فَمَنْ عَرَفَ الله لم يَعُدّ من نفسه ما علم أنه لا يتم إلا بالله.

ويقال مَنْ عَرَفَ الله سقط اختيارُه عند مشيئته، واندرجت أحكامه في شهوده لحكم الله.

ويقال المؤمن يعزم على اعتناق الطاعة في مستقبله بقلبه، لكنه يتبرأ عن حَوْلِهِ وقُوَّتِه بِسِرِّه، والشرعُ يستدعي منه نهوض قلبه في طاعته، والحقُّ يقف سِرَّه عند شهود ما منه لمحبوبه تحت جريان قسمته.

قولـه جـلّ ذكـره: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾.

إنْ طَرأَتْ عليك طوارقُ النسيان ـ لا يتعهدك ـ فجرِّدْ بذكرك قَصْدَكَ عن أوطان غفلتك.

ويقال ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾: في الحقيقة نَفْسُك تمنعك من استغراقك في شهود ذكرك.

ويقال واذكر ربك إذا نسيت ذكرك لربِّك: فإن العبدَ إذا كان ملاحظاً لذكره كان ذلك آفة في ذكره.

ويقال واذكر ربك إذا نسيت حَظَّك منه.

ويقال واذكر ربَّك إذا نسيت غيرَ ربِّك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾.

كانوا مأخوذين عنهم في إحساسهم بأنفسهم لم يقفوا على تطاول مدتهم، وفي المثل: أيام السرور قصار والدهور في السرور شهور، والشهور في المحن دهور، وفي معناه:

أَعُدُّ الليالي ليلةً بعد ليلةٍ وقد كنت قبلاً لا أعد اللياليا

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾.

مَنْ لم يعد أيامَه لاشتغاله بالله أحصى اللّهُ أنفاسَه التي الله، قال تعالى: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾.

تَسَلَّ ـ حينما تتنوع عليك الأحوال ـ بما نُطْلِعُكَ عليه من الأخبار؛ وإنَّ كُتُبَ الأحبابِ فيها شفاءٌ لأنها خطابُ الأحباب للأحباب.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾.

أي لا تغيير لِحُكْمِه؛ فَمَنْ أقصاه فلا قبولَ له، ومَنْ أدناه فلا وصولَ له، ومَنْ قَبِلَه فلا رَدَّ له، ومَنْ قَرَّ به فلا صَدَّ له.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.

قال: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ ولم يقل: «قلبك» لأن قلبه كان مع الحقّ، فأمره بصحبته جَهْرَاً بجهر، واستخلص قلبه لنفسه سِرّاً بِسرٍّ.

ويقال ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾: معناها مريدين وجهه أي في معنى الحال، وذلك يشير إلى دوامِ دُعائِهم ربهم بالغداة والعشيّ وكون الإرادة على الدوام.

ويقال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾: فآويناهم في دنياهم بعظائمنا، وفي عقباهم بكرائمنا.

ويقال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ : فكشف قناعَهم، وأظهر صفتَهم، وشَهَرَهم بعدما كان قد سَتَرَهم، وأنشدوا:

وكشفنا لكَ القناعَ وقلنا نعم وهتكنا لك المستورا

ويقال لما زالت التُّهمُ سَلِمَتْ لهم هذه الإرادة، وتحرروا عن إرادةِ كلِّ مخلوقٍ وعن محبةِ كل مخلوق.

ويقال لَمَّا تقاصَرَ لسانُهم عن سؤالِ هذه الجملة مراعاةً منهم لهيبة الرسول ﷺ، وحُرْمَةِ باب الحقِّ ـ سبحانه ـ أَمَرَه بقوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ وبقوله:

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

أي لا ترفع بصَرَكَ عنهم، ولا تُقْلِعْ عنهم نظرك.

ويقال لما نظروا بقلوبهم إلى الله أَمَرَ رسولَه ـ عليه السلام ـ بألا يرفعَ بَصَرَه عنهم، وهذا جزاء في العاجل.

والإشارة فيه كأنه قال: جعلنا نظرك اليوم إليهم ذريعةً لهم إلينا، وخَلَفاً عما يفوتهم اليوم من نظرهم إلينا، فلا تَقْطَعْ اليومَ عنهم نَظَرَكَ فإنا لا نمنع غداً نظرهم عنَّا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾.

هم الذين سألوا منه ـ ﷺ ـ أن يُخْلِيَ لهم مجلسَه من الفقراء، وأن يطردَهم يوم حضورهم من مجلسه ـ صلى الله عليه وسلم وعلى آله.

ومعنى قوله: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ : أي شغلناهم بما لا يعنيهم.

ويقال: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي شغلناهم حتى اشتغلوا بالنعمة عن شهود المنعِم.

ويقال هم الذين طوَّح قلوبَهم في التفرقة، فهم في الخواطر الرَّدِيَّة مُثْبَتُون، وعن شهود مولاهم محجوبون.

ويقال أغفلنا عن ذكرنا الذين ابْتُلُوا بنسيان الحقيقة لا يتأسَّفُون على ما مُنُوا به ولا على ما فَاتَهُم.

ويقال الغفلةُ تزجيةُ الوقتِ في غيرِ قضاءِ فَرْضٍ أو أداء نَفْلٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

قُلْ يا محمد: ما يأتيكم من ربِّكم فهو حقٌّ، وقوله صِدْقٌ ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾. هذا غاية التهديد، أي إنْ آمنتم ففوائدُ إيمانكم عليكم مقصورة، وإنْ أَبَيْتُم فَعذَابُ الجحود موقوفٌ عليكم، والحقُّ ـ سبحانه ـ عزيز لا يعود إليه بإيمان الكافة ـ إذا وَحَّدُوا ـ زَيْنٌ، ولا مِنْ كُفْرِ الجميع ـ إنْ جحدوا ـ شَيْنٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾.

العقوبة الكبرى لهم أن يشغلهم بالألم حتى لا يتفرغوا عنه إلى الحسرة على ما فاتهم من الحقّ، ولو علموا ذلك لَعَلّه كان يرحمهم. والحقُّ ـ سبحانه ـ أكرم من أن يعذِّبَ أحداً يُتَّهَمُ لأَجْلِه.

ويقال لو علموا مَنْ الذي يقول: ﴿وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ لعلّه كان لهم تَسَلِّ ساعةً، ولكنهم لا يعرفون قَدْرَ مَنْ يقول هذا، وإلا فهذا شِبْهُ مرتبةٍ لهم، والعبارة عن هذا تدق.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرًا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾.

أهلُ الجنة طابتْ لهم حدائقُها، وأهلُ النار أَحاط بهم سُرادِقُها.

والحقُّ ـ سبحانه ـ مُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ يعودَ إليه من تعذيبِ هؤلاء عائدة ولا من تنعيم هؤلاء فائدةٌ... جَلَّتْ الأحديةُ، وتَقَدَّسَتْ الصمدية!

ومَنْ وَقَعَتْ عليه غَبَرَةٌ في طريقنا لم تَقَعْ عليه قَتَرَةُ فراقنا، ومَنْ خطا خطوةً إلينا وَجَدَ حظوةً لدينا، ومَنْ نَقَلَ قَدَمَه نحونا غفرنا له ما قَدَّمَه، ومَنْ رَفَعَ إلينا يَداً أَجْزَلْنا له رَغَداً، ومَنْ التجأ إلى سُدَّةِ[1] كَرَمِنا آويناه في ظِلِّ نِعَمِنا، ومن شكا فينا غليلاً مَهَّدْنا له ـ في دار فضلنا ـ مقيلاً.

﴿أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾: العملُ أحسنُه ما كان مضبوطاً بشرائط الإخلاص.

ويقال: ﴿مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ بأن غاب عن رؤية إحسانه.

ويقال مَنْ جَرَّدَ قَصْدَه عن كلِّ حظٍّ ونصيب.

ويقال الإحسان في العمل ألا ترى قضاء حاجتك إلا في فَضلِه، إذا أخلصتَ في تَوسلِكَ إليه بفضله، وتوصُّلِكَ إلى ما مَوَّلَكَ من طَوْلِهِ بِتَبرِّيكَ عن حَوْلِكَ وقُوَّتِك استوجبتَ حُسْنَ إقباله، وجزيل نواله.

قوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أولئك هم أصحابُ الجنان، في رَغَدِ العيش وسعادة الجَدِ[2] وكمال الرِفْد[3]، يلبسون حُلَلَ الوُصلة، ويُتَوَّجُون بتاج القُربة، ويُحْمَلون على المباسط، ويَتَّكِئون على الأرائك[4]، ويشمون رياحينَ الأُنس،

---

(١) السُّدَّة: باب الدار.
(٢) الجَدُّ: الحظ والحظوة.
(٣) الرِّفد: العطاء والصلة (ج) أرفاد.
(٤) الأرائك: (ج) الأريكة: مقعد منجَّد.

ويقيمون في مجال الزُّلفة، ويُسْقَوْنَ شرابَ المحبة، ويأخذُون بِيَدِ الزلفة ما يتحفهم الحقُّ به من غير واسطة، ويسقيهم شراباً طهوراً يُطَهِّر قلوبَهم عن محبة كلِّ مخلوقٍ.

﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾: نِعْم الثوابُ ثوابُهم، ونعم الربُّ ربُّهم، ونعم الدارُ دارُهم، ونعم الجارُ جارُهم، ونعم الحالُ حالُهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾.

أخبر أنه خَلَقَ رجلين جعل لهما جنتين على الوصف الذي ذَكَرَه، فَشَكَرَ أحدُهما لخالقِه وكَفَرَ الآخرُ برازقه، فأصبح الكافرُ وجنَّتُه أصابتها جائحةٌ، وندم على ما ضَيَّعَه من الشكر، وتوجَّه عليه اللومُ.

وفي الإشارة يخلق عَبْدين يُطَيِّبُ لهما الوقت، ويُمَهِّدُ لهما بساط اللطف، ويمكِّن لهما من البَسْط.. فيستقيم أحدُهما في الترقي إلى النهاية من مقامات البداية بحُسْن المنازلة وصدق المعاملة، فتميز له المجاهدةُ ثمراتِ أحسن الأخلاق فيعالجها بحسنِ الاستقامة، ثم يتحقق بخصائص الأحوال الصافية، ثم يُخْتَطَفُ عنها بما يُكاشفُ به من حقائق التوحيد، ويصبح مُنْتَفًى عن جملته باستهلاكه في وجود ما بان له من الحقائق.

والثاني لا يُقَدِّرُ قَدْرَ ما أَهَّلَ له من حُسْن البداية فيرجِعُ إلى مألوفاتِه، فينتكِسُ أمرُه، بانحطاطه إلى ذميم عاداته، فيرتدُّ عن سلوكِ الطريقة ويتردَّى في ظُلْمَةِ الغفلة؛ فيصيرُ وقتُه ليلاً مظلماً، ويتطوحُ في أودية التفرقة، ويُوسَمُ الطرد، ويُسْقى شرابَ الإهانة، وينخرطُ في سلك الهَجْر.. وذلك جزاءُ مَنْ لم يَرَهُم الحقُّ لو صلته أَهْلاً، ولم يجعل لولائهم في التحقيق والقبول أَصْلاً:

تبدَّلَتْ وتبدلنا يا حسرةً لِمَنْ ابتغى عوضاً لسلمى فلم يَجِدِ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾.

إذا ظَهَرَ خسرانُ مَنْ آثر حظَّه على حقِّ الله، قَرَعَ بابَ ندامته، ثم لا ينفعه.

ولو قرع باب كَرمِه في الدنيا ـ حين وقَعتْ له الفترةُ ـ لأشكاه[1] عند ضرورته، وأنجاه من ورطته.. ولكنه رُبط بالخذلان، ولُبِّسَ عليه الأمرُ بحُكْمِ الاستدراج.

قوله: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ﴾: مَنْ اشْتَهَرَ أمرُهُ بِسُخْطِ السلطانِ عليه لم ينظر إليه أحدٌ من الجُنْدِ والرعية، كذلك مَنْ وَسمَه الحقُّ بكيِّ الهَجْر لم يَرْثِ له مَلَكٌ ولا نبيٌّ، ولم يَحْمِه صديقٌ ولا وليٌّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾.

هو الحقُّ المتفرِّدُ بنعتِ ملكوته، لا يشرك في جلال سلطانه من الحدثان أحداً، وإذا بدا من سلطان الحقيقة شظية فلا دعوى ولا معنى لبشر، ولا وزن فيما هنالك لحدثان ولا خطر، كلا.. بل هو الله الخلّاق الواحد القهار.

هنالك الوِلاية لله أي القدرة ـ والواو هنا بالكسر.

وهنالك الوَلاية لله أي النصرة ـ والواو هنا بالفتح.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾.

منْ وَطَّنَ النَّفْسَ على الدنيا وبهجتها غرّته بأمانيها، وخدعته بالأطماع فيها. ثم إنها تُخفي الصَّابَ في شرابها، والحنظل[2] في عَسَلها، والسرابَ في مآربها؛ تَعِدُ ولا تفي بعِدَاتِها، وتُوفِي آفاتُها على خيراتها.. نِعمُها مشوبةٌ بنِقَمِها، وبؤسُها مصحوبٌ بمأنوسها، وبلاؤها في ضمن عطائها. المغرورُ مَنْ اغترَّ بها، والمغبونُ مَنْ انخدع فيها.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾.

مَنْ اعتضد بعتاده، واغترَّ بأولاده، ونَسِيَ مولاه في أوان غَفَلَاتِهِ.. خَسِرَ في حاله، ونَدِمَ على ما فاته في مآله.

ويقال زينةُ أهل الغفلة في الدنيا بالمال والبنين، وزينة أهل الوصلة بالأعمال واليقين.. فهؤلاء رُتَبُهم لظواهرهم.. وهؤلاء زينتهم لعبوديته، وافتخارهم بمعرفة ربوبيته.

ويقال ما كان للنَّفْس فيه حُظٌّ فهو من زينة الحياة الدنيا، ويدخل في ذلك الجاهُ وقبول المدح، وكذلك تدخل فيه جميع المألوفات والمعهودات على اختلافها وتفاوتها.

---

(١) أشكى فلاناً: قبل شكواه.

(٢) الحنظل: نبات عشبي بري حوليّ معترش من فصيلة القرعيات، ثمرته في حجم البرتقالة ولونها، فيها لب شديد المرارة. كان ولا يزال يُستعمل في الطب. ويُزرع في الحدائق الطبية.

ويقال ما كان للإنسان فيه شِرْبٌ ونصيبٌ فهو معلول: إن شئت في عاجله وإن شئت في آجله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾.

وهي الأعمال التي بشواهد الإخلاص والصدق.

ويقال ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾: ما كان خالصاً لله تعالى غيرَ مُشوب بطمعٍ، ولا مصحوبٍ بِغَرَضٍ.

ويقال ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾: ما يلوح في السرائر من تحلية العبد بالنعوت، ويفوح نَشْرُه في سماءِ الملكوت.

ويقال هي التي سبقت من الغيب لهم بالقربة وشريف الزلفة.

ويقال هي ضياءُ شموسِ التوحيد المستكِنّ في السرائر مما لا يتعرَّضُ لكسوف الحجبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾.

كما تُسيَّرُ جبالُ الأرض يوم القيامة فإنها تُقْتَلَع بموت الأبدال[١] الذين يديم بهم الحقُّ ـ اليومَ ـ إمساكَ الأرض، فهؤلاء السادَة ـ في الحقيقة ـ أوتادُ العالَم.

قوله: ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾: الإشارة منه أنه ما من أحد إلا ويُسْقَى كأسَ المنية، ولا يغادر الحقُّ أحداً اليوم على البسيطة إلا وينخرط عن نظامه، وإنَّ شَرَفَهم في الدرجات في تَوَقِّيهم عن مساكنة الدنيا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾.

يقيم كُلَّ واحدٍ يومَ العَرْضِ في شاهد مخصوص، ويُلْبِسُ كُلاً ما يُؤَهِّله له؛ فَمِنْ لباسِ تقوى، ومن قميصِ هوى، ومن صِدَارِ وَجْدٍ، ومن صُدْرَةِ محبة، ومن رداءِ شوقٍ، ومن حُلَّة وُصْلَة.

ويقال يجرِّدهم عن كلِ صفة إلا ما عليه نظرهم يوم القيامة. وينادِي المنادي على أجسادهم: هذا الذي أَتَى وَوَجَدَ، وهذا الذي أَبَى وَجَحَدَ. وهذا الذي خالَفَ فأصَرَّ، وهذا الذي أنعمنا عليه فَشَكَرَ، وهذا الذي أَحْسَنَّا إليه فَذَكَرَ. وهذا الذي أسقيناه شرابَنا، ورزقناه محابَّنا، وشَوَّقناه إلى لقائنا، ولَقَّيْناه خصائص رِعَايْنا.

وهذا الذي وَسَمْناه بحجبتنا، وحرمناه وُجُوهَ قربتنا. وألبسناه نطاق فراقنا، ومنعناه، توفيق وفاقنا، وهذا، وهذا...

واخجلتي من وقوفي وَسْطَ دارِهِمُ! وقال لي مُغْضَباً: مَنْ أنت يا رجلُ؟

(١) الأبدال: (عند الصوفية) إحدى طبقاتها، يزعمون أنه إذا مات بدل من الأبدال حل محله آخر.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾.

جئتمونا بلا شفيعٍ ولا ناصر، ولا مُعينٍ ولا مُظاهِر.

قوم يُقال لهم: سلامٌ عليكم... كيف أنتم؟ وكيف وَجَدْتُم مقيلَكم؟ وكم إلى لقائنا اشتقتم!

وقوم يُقال لهم: ما صنعتُم، وما ضَيَّعْتُم؟ ما قدَّمتُم، وما أخرتم؟ ما أعلنتم، وما أسررتُم؟

قُلْ لي بألسنةِ التنفُّسِ[1] كيف أنت وكيف حالك؟

ويقال يجيب بعضهم عند السؤال فيُفْصِحون عن مكنون قلوبهم، ويشرحون ما هم به من أحوالٍ مع محبوبهم. وآخرون تملكهم الحيرة وتُسْكِتُهم الدهشة، فلا لهم بيان، ولا ينطق عنهم لسان. وآخرون كما قيل:

قالت سكينةُ مَنْ هذا فقلتُ لها: أنا الذي أنتِ من أعدائه زَعمُوا

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾.

إنما يصيبهم ما كُتِبَ في الكتاب الأول وهو المحفوظ، لا ما في الكتاب الذي هو كتاب أعمالهم نَسَخَه ما في اللوح المحفوظ.

ويقال إنْ عامَلَ عبداً بما في الكتاب الذي أثبته المَلَكُ عليه فكثيرٌ من عباده يعاملهم بما في كتاب المَلِكِ ـ سبحانه، وفرقٌ بين من يُعَامَل بما في كتاب الحقِّ من الرحمة. والشفقة وبين مَنْ يحاسبه بما كَتَبَ عليه المَلَكُ من الزَّلة.

ويقال إذا حسابهم في القيامة يتصور لهم كأنهم في الحال، ما فارقوا الزَّلَة، وإن كانت مباشرةُ الزَّلةِ قد مَضَت عليها سنون كثيرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

يملك الحزنُ قلبَه لأنه يعلم أنه يرى في عمله سيئةً فهو في موضع الخجل لتقصيره. وإنْ رأى حسنةً فهو في موضع الخجل أيضاً لِقِلَّةِ توقيره؛ فَخَجْلَةُ أَهلِ الصدقِ عند شهود حسناتهم توفي وتزيد على خجلة أهل الغفلة إذا عثروا على زَلَّاتهم.

ويقال أصحابُ الطاعةِ إذا وجدوا ما قدَّموا من العبادات فمآلهم السرور والبهجة وحياة القلب والراحة، وأمَّا أصحاب المخالفات فإنما يجدون فيما قدَّموا

---

(١) التنفس: تنفس نفساً طويلاً من تعب أو كرب.

مجاوزةَ الحدّ ونقضَ العهْدِ، وما في هذا الباب من الزَّلة وسوء القصد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾.

أَظْهَرَ للملائكة شَطِيَّة مما استخلص به آدم فسجدوا بتيسيرٍ من الله ـ سبحانه، وسَكَّرَ بَصَرَ اللعين فما شهد منه غير الْعَيْنِ ففسق عن أمر ربه، ولا صدق في قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ لمَا فَسَقَ عن الأمر، ولكن أدركته الشقَاوة الأصيلة فلم تنفعه الوسيلة بالحيلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾.

في الآية إشارة إلى أَنَّ مَنْ يُفرِده بالولاية فلا يقتفي غَيْرَه ولا يخافُ غيرَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾.

أكذب المنجمين[١] والأطباء الذين يتكلمون في الهيئات والطبائع بقوله: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾: وبَيَّنَ أن ما يقولونه من إيجاب الطبائع لهذه الكائنات لا أصلَ له في التحقيق.

﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾: أي لم أجعل للذين يُضِلُّون الناسَ عن دينهم بِشُبَهِهِمْ في القول بالطبائع حجةً، ولم أعطهم لتصحيح ما يقولونه برهاناً.

ويقال إذا تقاصرت علومُ الخَلق عن العلم بأنفسهم فكيف تحيط علومُهم بحقائق الصمدية، واستحقاقِه لنعوته إلا بمقدار ما يخصُّهم به من التعريف على ما يليق برتبة كل أحد بما جعله له أهلاً؟

ويقال أخبر أَنَّ علومَهم تتقاصر عن الإحاطة بجميع أوصافهم وجميع أحوالهم وعن كُلِّ ما في الكون، ولا سبيلَ لهم إلى ذلك؛ ولا حاجةَ بهم إلى الوقوف على ما قَصَرَتْ علومُهم عنه، إذ لا يتعلّق بذلك شيء من الأمور الدينية. فالإشارة في هذا أن يَصْرِفُوا عنايتَهم إلى طلب العلم بالله وبصفاته وبأحكامه، فإنه لا بُدَّ لهم ـ بحكم الديانة ـ من التحقق بها؛ إذ الواجبُ على العابد معرفة معبوده بما يزيل التردد عن قلبه في تفاصيل مسائل الصفات والأحكام.

---

(١) جمع المنجّم: الناظر في النجوم بحسب مواقيتها وسيرها في طلوعها وغروبها ويستطلع من ذلك أحوال الكون.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾.

عِلمَ الحقُّ ـ سبحانه ـ أنَّ الأصنامَ لا تغني ولا تنفع ولا تضر، ولكن يعرِّفهم في العاقبة بما يُصَيِّر معارفَهم ضرورية حَسْماً لأوهام القوم؛ حيث توهموا أنَّ عبادتهم للأصنام فيها نوع تقرب إلى الله على وجه التعظيم له كما قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

فإذا تحققوا بذلك صدقوا في الندم، وكان استيلاء الحسرة عليهم، وذلك من أشد العقوبات لهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾.

إذا صارت الأوهامُ منقطعةً، والمعارفُ ضروريةً، والنارُ مُعَاينةً استيقنوا أنهم واقعون في النار، فلا يُسْمَعُ لهم عُذْرٌ، ولا تنفع لهم حيلةٌ، ولا تُقْبَلُ فيهم شفاعة، ولا يؤخذ منهم فداء ولا عدل.. لقد استمكنت الخيبةُ، وغَلَبَ اليأسُ، وحَصَلَ القنوط، وهذا هو العذاب الأكبر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾.

أوضح للكافة الحججَ، ولكن لَبَّسَ على قوم النهج فوقعوا في العِوَج.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ الجَدَلُ في الله محمود مع أعدائه، والجدل مع الله شِرْكٌ لأنه صَرْفٌ إلى مخالفةٍ تُوهِمُ أن أحداً يعارض التقدير، وتجويزُ ذلك انسلاخٌ عن الدِّين. ومن أمارات السعادة للمؤمن فَتْحُ بابِ العملِ عليه، وإغلاقُ بابِ الجدل دونه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾.

لا عُذْرَ لهم إذا لجأوا إلى ما تعاطوه من العصيان وتركِ المبادرة إلى المأمور، ولا توفيقَ يساعدهم فيخرجهم عن حوار الداعي إلى عزم الفعل، فَهُمْ ـ وإن لم يكونوا بنعت الاستطاعة على ما ليسوا يفعلونه ـ ليسوا عاجزين عن ذلك؛ ولكنهم بحيث لو أن العبدَ منهم أراد ما أُمِرَ به لَتَأَبَّى منه ذلك، وتعذَّر عليه؛ ففي الحال ليس بقادرٍ على ما ليس يفعله ولا هو عاجزٌ عنه، وهذا يسميه القوم حال التخلية وهي واسطة بين القدرة والعجز.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا﴾.

أرسل الرسلَ ـ عليهم السلام ـ تترى، وأيَّدَهم بالحجج والبراهين، وأمرهم بالإنذار والتخويف، والتشريف في عين التكليف، وتضمين ذلك بالتحقيق، ولكن سَعِدَ قومٌ باتباعهم، وشَقِيَ آخرون بخلافهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾.

لا أحدَ أظلمُ مِمَّنْ ذُكِّر ووُعِظَ بما لوَّح له من الآيات، وبما شاهده وعرفه من أمرٍ أُصْلِحَ أو شُغْلٍ كُفِيَ أو دعاءٍ أُجِيب له، أو سوءِ أدبٍ حصل منه، فأُدِّبَ بما يكون تنبيهاً له، أو حصلت منه طاعة وكوفىء في العاجل إمَّا بمعنى وَجَدَه في قلبه من بَسْطٍ أو حلاوةٍ أو أُنْسٍ، وإما بكفاية شُغْلٍ أو إصلاحِ أمرٍ. ثم إذا استقبله أمرٌ نَسِيَ ما عُومل به، أو أعرض عن تَذَكُّرِه، ونَسِيَ ما قَدَّمَتْ يداه من خيره وشرِّه، فوجدَ في الوقت موجبه.. ومَنْ كانت هذه صِفَتُه جعل على قلبه ستراً وغفلة وقسوة حتى تنقطع عنه بركاتُ ما وُهِبَه.

ويقال مَنْ أظلم ممن يستقبله أمرٌ مجازاةً لما أسلفه من تَرْكِ أَرَبِه فَيَتَّهِمُ رَبَّه، ويشكو مِما يلاقيه، ويَنْسَى حُرْمة الذي بسببه أصابه ما أصابه؟ وكما قيل:

وعاجزُ الرأيِ مِضياعٌ لِفُرصته حتى إذا فاتَ أمرٌ عاتَبَ القَدَرا

قوله جلّ ذكره: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾.

﴿ٱلْغَفُورُ﴾: لأنه ذو الرحمة، ورحمته الأزلية أوجَبَتْ المغفرةَ لهم.

ويقال ﴿ٱلْغَفُورُ﴾: للعاصين من عباده، و ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ بجميعهم فيُصلح أحوالَ كافتهم.

﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟﴾: لعجّل لهم العذابَ؛ أي عَامَلَهم بما استوجبوه من عصيانهم، فعجَّلَ لهم العقوبة، لكنه يؤخرها لمقتضى حكمته، ثم في العاقبة يفعل ما يفعل على قضية إرادته وحكمه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾.

لمَّا لم يشكروا النِّعم ولم يصبروا في المحن عَجَّلنا لهم العقوبة.

ويقال لمَّا غَفَلُوا عن شهود التقدير، وحُرِمُوا رَوْح الرضا وَكَلْناهم إلى ظُلُماتِ تدبيرهم، فطاحوا في أودية غفلاتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾.

لما صَحّتْ صحبة يوشع مع موسى عليهما السلام استحقّ اسم الفتوة، ولذا قال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ وهو اسم كرامة لا اسم علامة.

جعل دخول السمك الماء علامة لوجود الخضر هنالك، ثم أدخل النسيان عليهما ليكون أبلغَ في الآية، وأبْعَدَ من اختيار البَشَر.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾.

كان موسى في هذا السّفرِ مُتَحَمّلاً، فقد كان سَفَر تأديبٍ واحتمالِ مشقةٍ، لأنه ذهب لاستكثار العلم. وحالُ طلب العلم حالُ تأديبٍ ووقتُ تحمُّلٍ للمشقة، ولهذا لَحِقَهُ الجوعُ، فقال: ﴿لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾.

وحين صام في مدة انتظار سماع الكلام من الله صبر ثلاثين يوماً، ولم يلحقه الجوعُ ولا المشقةُ، لأن ذهابَه في هذا السفر كان إلى الله، فكان محمولاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾.

طال عليهما السفر لأنهما احتاجا إلى الانصرافِ إلى مكانهما، ثم قال يوشع: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾: الله ـ سبحانه ـ أَدْخَلَ عليه النسيانَ ليكونَ الصَّيْدُ من تكلفِه، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾: يعني دخول السمك الماء وكان مشوياً؛ فصار ذلك معجزة له، فلما انتهيا إلى الموضع الذي دخل السمك فيه الماء لَقِيَا الخضر.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾.

إذا سَمّى الله إنساناً بأنه عَبْدُه جَعَلَه من جملة الخواص؛ فإذا قال: «عبدي» جعله من خاص الخواص.

﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾: أي صار مرحوماً من قِبَلِنا بتلك الرحمة التي خصصناه بها من عندنا، فيكون الخضر بتلك الرحمة مرحوماً، ويكون بها راحماً على عبادنا.

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾: قيل العلم من لدن الله ما يتحصل بطريق الإلهام دون التكلف بالتّطَلُّب.

ويقال ما يُعَرِّف به الحقُّ ـ سبحانه ـ الخواصَ من عباده.

ويقال ما يعرِّف به الحق أولياءه فيما فيه صلاح عباده.

وقيل هو ما لا يعود منه نَفْعٌ إلى صاحبه، بل يكون نفعُه لعباده مِمَّا فيه حقُّ الله ـ سبحانه.

ويقال هو ما لا يَجِد صاحبُه سبيلاً إلى جحده، وكان دليلاً على صحة ما يجده قطعاً؛ فلو سألتَه عن برهانه لم يجد عليه دليلاً؛ فأقوى العلوم أبعدها من الدليل.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾.

تَلَطَّفَ في الخطاب حيث سَلَكَ طريق الاستئذان، ثم صَرَّح بمقصوده من الصحبة بقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾.

ويقال إن الذي خُصَّ به الخضرُ من العلم لم يكن تَعَلَّمَه من أستاذ ولا من شخص، فما لم يكن بتعليم أحد إياه.. متى كان يعلمه غيره؟

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾.

سؤال بذلك العطف وجوابٌ بهذا العطف!

ثم تدارك قلبَه بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾؟، فأجابه موسى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ...﴾ وعد من نفس موسى بشيئين: الصبر، وبأن لا يعصيَه فيما يأمر به، فأمَّا الصبر فَقَرَنَه بالاستثناء بمشيئة الله فقال: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ فصبر حتى وُجِدَ صابراً، فلم يقبض على يدي الخضر فيما كان منه من الفعل، والثاني قوله: ﴿وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾: أطلقه ولم يُقرِنه بالاستثناء، فما استثنأ لِأجله لم يخالفه فيه، وما أطلقه وقع فيه الخُلْفُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

فإنه ليس للمريد أن يقول: «لا» لشيخه، ولا التلميذ لأستاذه، ولا العاميّ للعالمِ المفتي فيما يفتي ويحكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾.

لما ركبوا الفُلْكَ خرقها وكان ذلك إبقاءً على صاحبها لئلا يرغبَ في السفينةِ المخروقةِ المَلِكُ الطامعُ في السفن.

وقوله: ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ أي لتؤديَ عاقبةُ هذا الأمر إلى غَرَقِ أهلها؛ لأنه علم أنه لم يكن قَصَدَ إغراقَ أهلِ السفينة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾.

أي أنت تنظر إلى هذا من حيث العلم، وإنا نُجزيه من حيث الحُكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾.

طالبَه بما هو شرط العلم حيث قال: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾؛ لأن الناسيَ لا يدخل تحت التكليف، وأيَّدَ ذلك بما قَرَنَ به قوله: ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ فالمُتَمَكِّنُ من حقه التكليف، ومَنْ لا يصحُ منه الفعلُ والتَرْكُ لا يتوجه ( )[1] والناس من جملتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾.

كان بِخُلُقِ العلم واجباً على موسى ـ عليه السلام ـ قَصْرُه حيث يرى في الظاهر ظُلْماً، ولكن فيما عرف من حال الخضر من حقه التوقف ريثما يعلم أنه أَلَمَّ بمحظورٍ أو مُباحٍ، ففي ذلك الوقت كان قلب العادة.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

كرَّر قوله: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ...﴾ لأنه واقف بشرط العلم، وأمَّا في محل الكشف فَشَرَطَ عليه موسى عليه السلام فقال:

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾.

بلغ عصيانه ثلاثاً؛ والثلاثةُ آخِرُ حَدِّ القِلَّة وأَوَّلُ حَدِّ الكثرة، فلم يَجِدْ المُسامَحَة بعد ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

كان واجباً في ملتهم على أهل القرية إطعامهما، ولم يعلم موسى أنه لا جدوى من النكير عليهم؛ ولو كان أَغضَى على ذلك منهم لكان أحسن.

فلمَّا أقام الخضر جدارهم ولم يطلب عليه أجراً لم يقل موسى إنك قُمْتَ بمحظور، ولكنه قال له: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي إن لم تأخذ بسببك فلو أخذت بسببنا لكان أَخْذُكَ خيراً لنا من تركك ذلك، ولئن وَجَبَ حقُّهم فَلِمَ أخللتَ بحقنا؟

ويقال إنَّ سَفَرَه ذلك كان سفرَ تأديب فَرْدً إلى تَحَمُّلِ المشقة، وإلّا فهو حين سقى لبنات شعيب فإنَّ ما أصابه من التعبِ وما كان فيه من الجوع كان أكثر، ولكنه

(١) بياض في الأصل.

كان في ذلك الوقت محمولاً وفي هذا الوقت مُتَحَمِّلاً. فلما قال موسى هذا قال له الخضر:

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

أي بعد هذا فلا صحبة بيننا.

ويقال قال الخضر إنَّك نبيٌّ.. وإنما أؤاخذك بما قُلْتَ، فأنت شَرَطْتَ هذا الشرط؛ وقلتَ: إنْ سألتُك عن شيء بعدها فلا تصاحبني؛ وإنما أعاملك بقولك.

ويقال لمّا لم يصبر موسى معه في تَرْكِ السؤال لم يصبر الخضرُ أيضاً معه في إدامة الصحبة فاختار الفراق.

ويقال ما دام موسى عليه السلام سأله لأجل الغير ـ في أمر السفينة التي كانت للمساكين، وقَتْلِ النَّفْس بغير حق ـ لم يفارقه الخضر، فلمَّا صار في الثالثة إلى القول فيما كان فيه حَظٌّ لنفسه من طلب الطعام ابْتُلِيَ بالفرقة، فقال الخضر: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾.

ويقال كما أن موسى ـ عليه السلام ـ كان يحب صحبة الخضر لما له في ذلك من غرض الاستزادة من العلم فإن الخضر كان يحب تَرْكَ صحبة موسى عليه السلام إيثاراً للخلوة بالله عن المخلوقين.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾.

لما فارق الخضرُ موسى عليه السلام لم يُرِدْ أَنْ يبقى في قلبِ موسى شِبْهُ اعتراضٍ؛ فأزَالَ عن قلبه ذلك بما أوضح له من الحال، وكشف له أَنَّ السِّرَّ في قصده من خَرْقِ السفينة سلامتُها وبقاؤها لأهلها حيث لن يطمعَ فيها المَلِكُ الغاصبُ، فبقاءُ السفينةِ لأهلها ـ وهي معيبةٌ ـ كان خيراً لهم من سلامتها وهي مغصوبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾.

بيَّن له أَنَّ قَتْلَ الغلام لمَّا سَبَقَ به العلمُ مضى من الله الحُكْمُ أنَّ في بقائه فتنةً لوالديه، وفي إبدال الخَلَفِ عنه سعادةً لهما.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[1].

---

(١) الآيات من (٨٣ حتى ٨٩) لم ترد.

أما تسوية الجدار فلاستبقاءِ كنز الغلامين وترك طلب الرفق من الخَلْق.

قوله جلّ ذكره: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾.

أقوامٌ هم أهل مطلع الشمس الغالب عليهم طولُ نهارهم، وآخرون كانوا من أهل مغرب الشمس الغالب عليهم استتار شمسهم. كذلك الناس في طلوع شمس التوحيد: منهم الغالب عليهم طلوع شموسهم، والحضور نعتهم والشهود وصفهم والتوحيد حقّهم، وآخرون لهم من شموس التوحيد النصيب الأقل والقسط الأرذل.

قوله جلّ ذكره: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾.

أي ما كانوا يهتدون إلا إلى لسانِ أنفسِهم، وما كانوا يفقهون فقهَ غيرِهم فلجؤوا إلى عَبَرَاتهم[١] في شرح قصتهم، ورفعوا إليه ـ في باب ياجوج وماجوج ـ مظلمتَهم، وضمنوا له خراجاً يدفعونه إليه، فأجابهم إلى سؤلهم، وحقَّق لهم بُغْيَتَهم، ولم يأخذ منهم ما ضمنوا له من الجباية، لمَّا رأى أنَّ من الواجبِ عليه حق الحماية على حسب المُكْنَة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾.

استعانَ بهم في الذي احتاج إليه منهم من الإمداد بما قال: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ فلمَّا فعلوا ما أمرهم به، ونفخوا فيه النار جعل السد بين الصدفين أي جانبي الجبل. ثم أخبر أنه إنما يبقى ذلك إلى أنْ يَأْذَنَ اللَّهُ له في الخروج، وتندفعَ عن الناس عادية (. . .)[٢] إلى الوقت المضروب لهم في التقدير.

وبعد ذلك يكون مِنْ شأنهم ما يريد الله. وبيَّنَ ـ سبحانه ـ أَنَّ خروجَهم من وراء سَدِّهم مِنْ أشراط الساعة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾[٣].

نظروا بأعين رؤوسهم لأنهم فقدوا نظر القلب من حيث الاعتبار والاستدلال،

---

(١) العبرات: (ج) العبرة: الدمعة قبل أن تفيض.

(٢) بياض في الأصل.

(٣) الآيات من (٩٧ حتى ١٠٠) لم ترد.

ولم يكن لهم سمع الإجابة لِمَا فقدوا من التوفيق، فتوجه عليهم التكليف ولم يساعدهم التعريف.

قوله: ﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾: لأنهم فقدوا من قِبَلِهِ ـ سبحانه ـ الإسماع؛ فلم يستطيعوا لهم القبول.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ نُزُلًا﴾.

أي توهموا أنه ينفعهم ما فعلوه حسب ظنهم، واعتقدوا في أصنامهم استحقاق التعظيم، وكانوا يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

ضلَّ سعيُهم لأنهم عَمِلُوا لغيرِ اللَّهِ. وما كان لغيرِ الله فلا ينفع.

ويقال الذين ضلَّ سعيُهم هم الذين قَرَنُوا أعمالَهم بالرياء، ووصفوا أحوالَهم بالإعجاب، وأبطلوا إحسانهم بالملاحظات أو بالمَنِّ.

ويقال هم الذين يُلاحِظُون أعمالهم وما مِنْهُم بعينِ الاستكثار.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾.

لم يكونوا أصحاب التحقيق، فعَمِلوا من غير عِلْم، ولم يكونوا على وثيقة(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾.

عموا عن شهود الحقيقة فبقوا في ظلمة الجحد، فتفرَّقَتْ بهم الأوهام والظنون، ولم يكونوا على بصيرة، ولم تستقر قلوبُهم على عقيدة مقطوع بها؛ فليس لهم في الآخرة وزنٌ ولا خَطَرٌ، اليومَ هم كالأنعام، وغداً واقعون ساقطونَ (. . .)(٢) الأقدام.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَـٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾.

هم اليومَ في عقوبة الجحد، وغداً في عقوبه الردِّ. اليوم هم في ذُلِّ الفراق، وغداً في أليم الاحتراق.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾.

لهم جنات مُعَجَّلة سراً، ولهم جنان مؤجلة جهراً.

---

(١) الوثيقة: ما يُحكم به الأمر (ج) وثائق. (٢) بياض في الأصل.

اليوم جنان الوصل وغداً جنان الفضل.

اليوم جنان العرفان وغداً جنان الرضوان.

قوله جلّ ذكره: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾.

عرَّفنا ـ سبحانه ـ أن ما يخوِّله لهم غداً يكون على الدوام، فهم لا ينفكون عن أفضالهم، ولا يخرجون عن أحوالهم؛ فهم أبداً في الجنة، ولا إخراج لهم منها. وأبداً لهم الرؤية، ولا حجاب لهم عنها[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾.

أي لا تُعَدُّ معاني كلمات الله لأنه لا نهاية لها؛ فإنَّ متعلقاتِ الصفةِ القديمةِ لا نهاية لها؛ كمعلوماتِ الحق ـ سبحانه ـ ومقدوراته وسائر متعلقات صفاته.

والذي هو مخلوقٌ لا يَسْتَوْفِي ما هو غير مُتَنَاهٍ ـ وإنْ كثُرَ ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

أَخْبِرْ أَنَّكَ لهم من حيث الصورة والجنسية مُشاكِلٌ، والفَرْقُ بينكَ وبينهم تخصيصُ الله ـ سبحانه ـ إياكَ بالرسالة، وتَرْكِه إياهم في الجهالة.

ويقال: قل اختصاصي بما لي من (الاصطفاء)[2]، وإن كنا ـ أنا وأنتم ـ في الصورة أكفاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

حَمْلُ الرجاءِ في هذه الآية على خوف العقوبة ورجاء المثوبة حَسَنٌ، ولكنَّ تَرْكَ هذا على ظاهره أَوْلَى؛ فالمؤمنون قاطبةً يرجون لقاءَ الله.

والعارف بالله ـ سبحانه ـ يرجو لقاءَ الله والنظرَ إليه.

والعمل الصالح الذي بوجوده يصل إلى لقائه هو صَبْرُه على لواعجِ اشتياقه، وأَنْ يُخْلِصَ في عمله.

﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ﴾: أي لا يُلاحِظُ عَمَلَه، ولا يستكثر طاعته، ويتبرأ من حَوْلِه وقُوَّتِه.

ويقال العمل الصالح هنا اعتقاد وجود الصراط ورؤيته وانتظار وقته.

---

(١) قال القشيري برسالته عند حديثه عن رؤية الله بالأبصار: فإن قيل: فهل تجوز رؤية الله بالأبصار في الدنيا على جهة الكرامة؟ فالجواب عنه: أن الأقوى فيه أنه لا يجوز لحصول الإجماع عليه. ولقد سمعت الإمام أبا بكر بن فورك يروي عن أبي موسى الأشعري أنه قال في ذلك قولان، وذلك في كتاب (الرؤية الكبير). (الرسالة القشيرية ص٣٦٠).

(٢) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

سورة مريم عليها السلام

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

بسم الله، اسم عزيز مَنْ عَبَدَه وَاصَلَ جِهادَه، ومَنْ طَلَبَه وَدَّعَ وِسادَه، ومَنْ عَرَفَه أنكر أحبابَه. ومَنْ يَسَّر له أوقفه على محبته.

مَنْ ذكره نَسِيَ اسمَه، ومن شَهِدَه فَقَدَ عقلَه ولُبَّه.

اسم عزيز جُبِلَتْ القلوبُ على محبته، وكل قلب ليس يوقفه على محبته، فليس بحيلةٍ يصل.

اسمٌ ما اتصفت أشباحُ الأبرارِ إلا بعبادته، وما اعتكفت أرواحُ الأحرار إلا بمشاهدته.

اسم عزيز مَنْ عَرَفَه اعترف أنه وراء ما وصفه.

قوله جل ذكره: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾.

تعريفٌ للأحباب بأسرار معاني الخطاب، حروف خَصَّ الحقُّ المخَاطبَ بها بفهم معانيها، وإذا كان للأخيار سماعُها وذِكْرُها، فللرسولِ ـ عليه السلام ـ فَهْمُها وسِرُّها.

ويقال أشار بالكاف إلى أنه الكافي في الإنعام والانتقام، والرفع والوضع على ما سبق به القضاء والحُكْم.

ويقال في الكاف تعريفٌ بكونه مع أوليائه، وتخويفٌ بخَفي مَكْرِه في بلائه.

ويقال في الكاف إشارة إلى كتابته الرحمة على نَفْسِه قبل كتابة الملائكة الزَّلَّةَ على عباده.

والهاءُ تشير إلى هدايته المؤمنين إلى عِرفانه، وتعريف خواصه باستحقاق جلال سلطانه، وما له من الحق بحكم إحسانه.

والياء إشارة إلى يُسْر نِعَمِه بعد عُسْرِ مِحَنِه. وإلى يده المبسوطة بالرحمة للمؤمنين من عباده.

والعين تشير إلى عِلْمِه بأحوالِ عَبْدِهِ في سِرِّه وجَهْرِهِ، وقُلِّه وكُثْرِه، وحالِه ومآلِه، وقدْرِ طاقته وحق فاقته.

وفي الصاد إلى أنه الصادق في وعده.

قوله جل ذكره: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾.

تخصيصه إياه بإجابته في سؤال وَلَدِه، وما أراد أن يتصل بأعقابه من تخصيص القربة له ولجميع أهله.

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾.

وإنما ذلك لئلا يَطَّلعَ أحدٌ على سِرِّ حاله فأخفى نداءه عن الأجانب وقد أمكنه أن يخفيه عن نفسه بالتعامي عن شهود محاسنه، والاعتقاد بالسُّوء في نفسه، ثم أخفى سِرَّهُ عن الخلْق لئلا يقعَ لأحدٍ إشرافٌ على حاله، ولئلا يَشْمَتَ بمقالته أعداؤه.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾.

أي لَقِيتُ بضعفي عن خدمتك ما لا أحِبُّه؛ فطعنتُ في السنِّ، ولا قوةَ بعد المشيب؛ فهَبْ لي ولداً ينوب عني في عبادتك.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾.

أي إني أسألك واثقاً بإجابتك؛ لعلمي بأني لا أشقَى بدعائِك فإنَّك تحِبُّ أن تُسأل.

ويقال إنك عوَّدتني إجابة الدعاء، ولم تردَّني في سالف أيامي إذا دعوْتُك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾.

إني خِفْتُ أَنْ تذهبَ النبوة من أهل بيتي، وتنتقل إلى بني أعمامي فهبْ لي وَلَداً يعبدك، ويكون من نَسلِي ومن أهلي.

وهو لم يرِدْ الولدَ بشهوةِ الدنيا وأَخْذِ الحظوظِ منها، وإنما طلبَ الولدَ ليقومَ بحقِّ الله، وفي قوله: ﴿يَرِثُنِى﴾ دليلٌ على أنه كما سأل الولدَ سأل بقاء ولده؛ فقال: ولداً يكونِ وارثاً لي؛ أي يبقى بَعْدِي، ويرث من آل يعقوب النبوةَ وتبليغ الرسالة.

واجعله ربِّ رضياً: رَضِي فعيل بمعنى مفعول أي ترضى عنه فيكون مَرْضِياً لك. ويحتمل أن يكون مبالغة من الفاعل أي راضياً منك، وراضياً بتقديرك.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾.

أي استجبنا لدعائِك، ونرزقك ولداً ذكَراً اسمُه يحيى؛ تحيا به عُقْرَةُ أُمِّه، ويحيا به نَسَبُكَ، يحيا به ذكْرُك، وما سألَته من أن يكون نائباً عنك؛ فيحيا به محلُّ العبادة والنبوة في بيتك.

﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾: انفراده ـ عليه السلام ـ بالتسمية يدل على انفراده بالفضيلة؛ أي لم يكن له سَمِيٌّ قَبْله؛ فلا أحَدَ كُفوٌ له في استجماع أوصاف فَضْله.

ويقال لم تجعل له من قبل نظيراً؛ لأنه لم يكن أحد لا ذنبَ له قَبْلَ النبوة ولا بعدها غيره.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾.

سأل الوَلدَ فلمَّا أُجيب قال أنَّى يكون لي غلام؟ ومعنى ذلك ـ على ما جاء في التفسير ـ أن بين سؤاله الولد وبين الإجابة مدةً طويلة؛ فكأنه سأل الولدَ في ابتداء حال سِنِّه، واستجيبت دعوتُه بعد ما تناهى في سِنِّه، فلذلك قال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ﴾؟.

ويقال أراد أن يعرف ممن يكون هذا الولد.. أمِنْ هذه المرأة وهي عاقر أم من امرأة أخرى أتزوج بها مملوكة أستفرشها؟ فالسؤال إنما كان لتعيين مَنْ منها يكون الولد. فقال تعالى:

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾.

معناه إجابة الولد لك فيها معجزة ودلالة في هذا الوقت الذي فيه حسب مستقرِّ العادة ولادة مثلِ هذه المرأة دلالةٌ ومعجزةٌ لك على قومك، فتكون للإجابة بالولد مِنْ وَجْهٍ معجزةٌ؛ ومن وجهٍ راحةٌ وكرامةٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾.

دلَّت الآية على أن المعدومَ ليس بشيءٍ، لأنه نفي أن يكون قبل خَلْقِه له كان شيئاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾.

أراد علامةً على علوقِ المرأة بالولد؛ ولم يُرِدْ علامةً يَسْتَدلُّ بها على صِدْق ما يقال له. فأخبره تعالى: «أُنبِئُكَ علامةَ وقت إجابتك.. إنَّ لسانَك لا ينطق معهم بالمخاطبة ـ ولو اجتهدت كُلَّ الجهد ـ ثلاثةَ أيام، وعليكَ أن تخاطبني، وأن تقرأ الكتب المُنَزَّلَةَ التي كانت في وقتك. فكان لا ينطق لسانه إذا أراد أن يُكلِّمهم، وإذا أراد أن يقرأ الكتبَ أو يسبِّحَ اللَّهَ انطلق مع الله لسانُه».

قوله جلّ ذكره: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

أي فلمَّا خرج عليهم عرَّفهم ـ من طريق الإشارة ـ أنَّ اللسانَ الذي كان يخاطبهم به ليس الآن منطلقاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا﴾.

أي قلنا له يا يحيى خذ الكتاب بقوة مِنَّا، خَصَصْنَاكَ بها.. لا قوةَ يدٍ ولكن قوة قلبٍ، وذلك خيرٌ خَصَّه اللَّهُ تعالى به وهو النبوة.

ودلَّت الآية على أنه كان من الله له كتاب.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أي النبوة، بَعَثَه اللَّهُ بها إلى قومه، وأوحى إليه وهو صبيّ.

ويقال الحُكْمُ بالصوابِ والحقِّ بين الناس.

ويقال الحكم هو إحكام الفعل على وجه الأمر.

قوله ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا...﴾ أي آتيناه رحمةً من عندنا، وطهارةً وتوفيقاً لمجلوبات التقوى وتحقيقاً لموهوباتها؛ فإن التقوى على قسمين: مجموعٍ ومجلوبٍ يتوصَّلُ إليه العبدُ بتكَلُّفِهِ وتَعَلُّمِه، وموضوعٍ من الله تعالى وموهوبٍ منه يصلُ إليه العبدُ ببَذْله سبحانه وبفضله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾.

﴿براً بوالديه﴾ كأمر الله ـ سبحانه ـ له بذلك لا لمودَّةِ البَشَرِ وموجِبِ عادة الإنسانية. ولم يكن متمرداً عن الحق، جاحداً لربوبيته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾.

أي له مِنَّا أمانٌ يوم القيامة، ويوم ولادته في البداية، ويوم وفاته في النهاية، وهو أن يصونَه عن الزَيْغِ والعِوَجِ في العقيدة بما يُشْهِدُه على الدوام من حقيقة الإلهية.

وكذلك هو في القيامة له منه ـ سبحانه ـ الأمان؛ فهو في الدنيا معصومٌ عن الزَّلَّة، محفوظٌ عن الآفة. وفي الآخرة معصومٌ عن البلاء والمحنة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾.

اعتزلت عنهم لتحصيلِ يطهرها، فاستترت عن أبصارهم.

فلمَّا أبصرت جبريلَ في صورةِ إنسانٍ لم تتوقعه أَحَسَّتْ في نفسها رُعْباً، ولم تكن لها حيلةٌ إلا تخويفه بالله، ورجوعها إلى الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾.

قالت مريمُ لجبريل ـ وهي لم تعرفه ـ إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت ممن يجب أن يُخَافَ ويُتَّقَى منه؛ أي إنْ كنتَ تَقْصِد السوءَ. ومعنى قولها ﴿بِٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ ولم تقل: «بالله» ـ أي بالذي يرحمني فيحفظني منك.

ويقال يحتمل أن يكون معناه: إن كنتَ تعرف الله وتكون متقياً مخالفة أمره فإنِّي أعوذ بالله منك وأحذر عقوبته.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا﴾.

تعرَّف جبريلُ إليها بما سكَّن رَوْعَها، وقَرَنَ مقالته بالتبشير لها بعيسى عليه السلام.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾.

قالت أنى يكونُ لي وَلَدٌ ولم أَلِمّ بِزَلَّةٍ ولا فاحشةٍ؟ فقال جبريلُ ـ عليه السلام ـ: الأمرُ كما قلتُ لَكِ؛ فلا يتعَصى ذلك على الله تعالى؛ إذ هو أَقْدَرُ أَنْ يجعل هذا الوَلَدَ دلالةً على كمال قدرته، ويكون هذا الولدُ رحمةً منه ـ سبحانه ـ لِمَنْ آمَنَ، وسَبَبَ جهلٍ للآخرين.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾.

لمَّا ظهر بها الحَمْلُ، وعَلِمَتْ أَنَّ الناسَ يستبعدون ذلك، ولم تَثِقْ بأحدٍ تُفْشِي إليه سِرَّها.. مَضَتْ إلى مكانٍ بعيد عن الخَلْق.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾.

أَلجأها وَجَعُ الولادةِ إلى الاعتماد إلى جِذْع النخلة. ولمَّا أخذها الطَلْقُ، وداخَلَها الخَجَلُ مِنْ قومِها نَطَقَتْ بلسانِ العَجزِ، وقالت: ﴿يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا﴾.

ويقال يحتمل أنها قالتها إشْفاقاً من قومها، لأنها عَلِمَتْ أنَّهم سيبسطون لسانَ الملامةِ فيها بلسانِ الفُجْر؛ وينسبونها إلى الفحشاء.

ويقال قالتها شفقةً على قومها لئلا تُصِيبَهم بِسبَبِها عقوبةٌ.

ويقال قالت: ﴿يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا﴾ حتى لم أسمع مَنْ قال في الله تعالى بسببي إن عيسى ابن الله وابن مريم، وإن مريمَ زوجتُه... تعالى الله عن ذلك عُلُوّاً كبيراً!

ويقال ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾: في الوقت الذي كنتُ مرفوقاً بي، ولم تستقبلني هذه الخشونةُ في الحالةِ التي لَحِقَتْني.

ويقال ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾: في الوقت الذي لم يكن قلبي متعلقاً بسبب.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾[1].

في التفسير أن المَعْنِيَّ بقوله ﴿مِن تَحۡتِهَآ﴾: جبريلُ عليه السلام، وقيل عيسى عليه السلام. والمقصودُ منه تسكينُ ما كان بها من الوحشة، والبشارة بعيسى عليه السلام، أي يرزقك الله ولداً سرياً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾.

وكان جِذْعاً يابساً أخرج اللَّهُ تعالى منه في الوقتِ الثمرةَ، وهي الرُّطبُ الجنيُّ، وكان في ذلك آية ودلالة لها؛ فالذي قدر على فعل مثل هذا قادر على خلق عيسى - عليه السلام - من غير أبٍ.

ويقال عندما كانت مُجَرَّدَةً بلا علاقة، فقد كان زكريا - عليه السلام - يَجِدُ عندها رزقاً من غير أن أُمِرَتْ بتكلف، فلمَّا جاءَتْ علاقةُ الولدِ أُمِرَتْ بهزِّ النخلةِ اليابسةِ - وهي في أضعف حالها؛ زمان قرب عهدها بوضع الولد، لِيُعْلَمَ أَنَّ العلاقةَ توجِبُ العناءَ والمشقة.

ويقال بل أُمِرَتْ بهزِّ النخلة اليابسة، وكان تمكنُها من ذلك أوضحَ دلالة على صدقها في حالها.

ويقال لمّا لم يكن لها في هذه الحالة مَنْ يقوم بتعهدها تولّى الله تعالى كفايتها؛ ليَعْلَمَ العالمون أنه لا يضيع خواصَّ عِبادِه في وقت حاجتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾.

كفاها أسبابَ ما احتاجت إليه مِنْ أَكْلِهَا وشُرْبِها، وسَكَّنَ من خوفها، وطيَّبَ قلبَها.

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا﴾: فلا تخاطبيهم وعرِّفيهم - بالإشارة - أنَّكِ نَذَرْتِ للرحمن الصمتَ مع الخَلْق، وتَرْكَ المخاطبةِ معهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾.

بسط قومُها فيها لسانَ الملامةِ لما رَأَوْها قد وَلَدَتْ - وظاهرُ الحالِ كان معهم -

---

(١) السَّري: الجدول، أو النهر الصغير.

فقالوا لها على سبيل الملامة: يا مَنْ كنا نَعُدُّكِ في الصلاح بمنزلة هارون المعروف بالسداد والصلاح.. مِنْ أين لكِ هذه الحالة الشنعاء؟

ويقال كان أخوها اسمه هارون. ويقال كان هارون رجلاً فاسقاً في قومهم، فقالوا: يا شبيهته في الفساد.. ما هذا الولد؟

ويقال كان هارون رجلاً صالحاً فيهم فقالوا: يا أخت هارون، ويا مَنْ في حسابنا وظنّنا ما كان أبواكِ فيهما سوء ولا فساد.. كيف أتيتِ بهذه الكبيرة الفظيعة؟!

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾.

في الظاهر أشارت إلى الولد، وفي الباطن أشارت إلى الله، فأخذهم ما قرب وما بعد وقالوا: كيف نكلِّم مَنْ هو أهل بأن يُنَوَّم في المهد؟!

فـ «كان» ها هنا في اللفظ صلة... وحملوا ذلك منها على الاستهانة بفعلتها.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾.

لما قالوا ذلك أنطق اللّهُ عيسى حتى قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾، فظهرت براءةُ ساحتِها بكلام عيسى قبل أن يتكلم مثلُه. وجرى على لسانه حتى قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾؛ ليُقَال للنصارى إنْ صَدَقَ عيسى أنه عبدُ الله بطل قولُكم إنه ثالث ثلاثة، وإن كذب فالذي يكذب لا يكون ابناً لله، وإنما يكون عبداً لله، وإذا لم يكن عَبْدَ هواه، ولا في أسْرِ شيءٍ سواه فمَنْ تحرر مِنْ غيره فهو في الحقيقة عَبْدُه.

﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾: أي سيؤتيني الكتاب أو آتاني في سابق حكمه.

﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ بفضله. وفي الآية ردٌّ على من يقول إن النبوة تُسْتَحقُّ بكثرة الطاعة لأنه قال ذلك في حال ولادته؛ ولم تكُنْ منه بَعْدُ عبادةٌ وأخبر أن الله جعله نبياً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾.

أي نافعاً للخلْق يرشدهم إلى أمور دينهم، ويمنعهم من ارتكاب الزَّلَةِ التي فيها هلاكهم، ومَنْ استضاء بنوره نجا.. فهذه بركاتُه التي كانت تصل إلى الخلْق. ومَنْ بركاتِه إغاثةُ الملهوف، وإعانةُ الضعيف، ونصرة المظلوم، ومواساة الفقير، وإرشاد الضال، والنصيحة للخلْق، وكفُّ الأذى عنهم وحَمْلُ الأذى منهم.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أي لم يجعلني غيرَ قابلٍ للنصيحة.

ويقال ﴿شَقِيًّا﴾: أي متكبراً متجبراً. ويقال مختوماً بكُفْرٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

قال عيسى عليه السلام: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ﴾، وقال لنبينا عليه السلام ليلة المعراج: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته».. فشتان ما هما!

والسلام بمعنى السلامة، أي سلامة لي يوم الولادة مما نسبوا إليَّ من قول النصارى في مجاوزة الحدِّ في المدح، ومما وصفني به اليهود من الذمِّ، فَلَسْتُ كما قالت الطائفتان جميعاً.

وسلام عليَّ يوم أموت؛ ففي ذلك اليوم تكون لي سلامة حتى تكون بالسعادة وفاتي.

وسلام عليّ يوم أُبْعَثُ؛ أي سلامةٌ لي في الأحوالِ مِمَّا يُبْتَلَى به غيرُ أهل الوصال.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾.

أي الذي قال ما أخبر الله عنه هو عيسى ابن مريم... أيكون بقول إله؟

وقد شكَّ فيه أكثر الخَلْق فَرَدَّه قومٌ وَقَبِلَه قومٌ، والفَرق بينهما في استحقاقه.

وقوله: ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ أي يكون بقوله الحق وهو:

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

لا يجوز أن يكون له وَلَدٌ على الحقيقة؛ لأنه واحد، والوَلَدُ بعضُ والده.

ولأنه لا داعي له إلى صحبة زوجة فيكون له ولد على الحقيقة. ولا يجوز عليه التبني لأحدٍ لِعَدَم الجنسية بينهما.

وقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا...﴾ إذا أراد إحداثَ شيءٍ خَلَقَه بقدرته، وخاطَبه بأمر التكوين، ولا يتعصَّى عليه ـ في التحقيق ـ مقدور.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ أي أمرني بأن تعلموا ذلك؛ وأمرني بتبليغ رسالتي، واتباع ما شَرَعَ اللَّهُ من العبادات.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

فَمَنْ عُجِنَتْ بماءِ السعادةِ طينتُه أَطَاعَ في عاجله وما ضاع في آجله، ومَنْ أَقْصَتْه القِسْمة السابقة لم تُدْنِه الخِدْمَةُ اللاحقة، وسَيَلْقَوْنَ غِبَّ هذا الأمر.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

تصير معارفهم ضروريةً، وأحوالُهم كلُّها معكوسةً، والحُجَّة تتأكَّد عليهم، والحاجةُ لا تُسْمَعُ منهم، والرحمةُ لا تتعلَّق بهم، فلا تُرْحَم شكاتُهم، ولا يُسْمَعُ نِداؤُهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

تقوم الساعةُ بغتةً، وتصادفهم القيامةُ وهم غيرُ مستعدين لها فيتحسَّرون على ما فاتهم.

ويقال يوم الحسرة يوم القسمة حين سَبَقَتْ لقوم الشقاوةُ ـ وهم في محو العَدَم، ولآخرين السعادة ـ وهم بنعت العدم، ولم يكن من أُولئك جُرْم بَعْدُ، ولا مِنْ هؤلاء وِفَاقٌ بعدُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

يريد به إذا قَبَضَ أرواحَ بني آدم بجملتهم، ولم يبقَ على وجه الأرض منهم واحدٌ، وليس يريد به استحداث مُلْكِه، وهو اليومَ مالِكُ الأرض ومَنْ عليها، ومالكُ الكونِ وما فيه.

ويقال إن زكريا قال ـ لمَّا سأل الولد: ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٦] وقال تعالى في صفة بني إسرائيل: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩] وقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، ولما انتهى إلى هذه الأمة قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾.. فشتان بين مَنْ وارِثُه الوَلَدُ وبين مَنْ وارِثُه الأَحَدُ!

ويقال هان على العبد المسلم إذا مات إذا كان الحقُّ وارثَه.. وهذا مخلوق يقول في صفة مخلوق:

فإنْ يكُ عتَّابٌ مضى لسبيله فما مات من يبقى له مِثْلُ خالدِ

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ [آل عمران: ١٦٨] لماذا؟ لِأَنَّ وارثَهم اللَّهُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾.

الصِدِّيق الكثير الصدق، الذي لا يمازج صِدْقَه شوبٌ.

ويقال هو الصادق في أقواله وأعماله وأحواله.

ويقال الصِدِّيق لا يناقِضُ سِرُّهُ عَلَنَه.

ويقال هو الذي لا يشهد غيرَ الله مُثْبِتاً ولا نافياً.

ويقال هو المستجيب لِمَا يُطَالَب به جملةً وتفصيلاً.

ويقال هو الواقفُ مع اللّهِ في عموم الأوقات على حدِّ الصدق.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾.

دلَّت الآيةُ على استحقاقِ المعبودِ الوصفَ بالسمع والبصرِ على الكمال دون نُقْصانٍ فيه، وكذلك القول في القدرةِ على الضُّرِّ والنفع.

وإذا رجع العبدُ إلى التحقيق عَلِمَ أن كلَّ الخَلْق لا تَصْلُحُ قدرةُ واحدٍ منهم للإبداع والإحداث، فمن عَلَّقَ قلبه بمخلوق، أو تَوَهَّمَ شظية منه من النفي والإثبات فَقَدْ ضَاهَى عَبَدَةَ الأصنام.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾.

أَمَرَه باتباعه لمَّا ترجح عليه جانبُه في كَوْنِ الحقِّ معه ـ وإنْ كان أكبرَ منه سِنًّا، وبيَّن أن الخلاص في اتباع أهل الحقِّ، وأنَّ الهلاكَ في الابتداع والتطوع في مغاليط الطرق.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾.

بيَّن أَنَّ العلةَ في منعه من عبادة الشيطان عصيانه للرحمن فَبانَ أنه لا ينبغي أَنْ تكون طاعةٌ لِمَنْ يَعْصِي اللَّهَ بحالٍ.

ويقال أساسُ الدِّين هِجْرانُ أَربابِ العصيان.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾.

لم يغادِرْ الخليل شيئاً من الشفقة على أبيه، ولم ينفعه جميل وعظه، ولم تنجع فيه كثْرَةُ نُصْحه؛ فإنَّ مَنْ أَقْصَتْه سوابقُ التقدير لم تُخلِّصْه لواحقُ التدبير.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ﴾.

منَّاه إبراهيمُ بجميل العُقْبَى، فقابلَه بتوعدُّ العقوبة فقال:

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾.

فأجابه الخليل بمقتضى سكون البصيرة فقال:

﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾.

وهذا قبل أن ييأسَ من إيمانه، إذ كانت لديه بعدُ بقيةٌ من الرجاء في شأنه، فلمَّا تحقق أنه مختومٌ له بالشقاوة قال له:

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾.

﴿وَمَا تَدْعُونَ﴾: أي ما تعبدون، ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّي﴾: أي أعبده.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾.

لما أَيِسَ من أَصلِه آنَسه اللَّهُ بما أكرمه من نَسْلِه، فأنبتهم نباتاً حسناً، ورزقهم النبوةَ، ولسان الصدق بالذكر لهم على الدوام فقال:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾.

مُخْلَصاً خالصاً لله، ولم يكن لغيره بوجهٍ؛ فلم تأخذه في الله لومةُ لائم، ولم يستفزه طمع نحو إيثار حظٍ، ولم يُغْضِ في اللَّهِ على شيءٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾.

للنجوى مزية على النداء، فجمع له الوصفَيْن: النداءَ في بدايته، والسماعَ والنجوى في نهايته؛ فوقّفَه الحقُّ وناداه، وفي جميع الحالين تولّاه.

﴿مِن جَانِبِ الطُّورِ﴾: ترجع إلى موسى فموسى كان بجانب الطور[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾.

من خصائص موسى أنه وهب له أخاه هارون نبيًّا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾.

كان صادق الوعد إذ وعد من نفسه الصبر على ذبح أبيه، وصبر على ذلك إلى أن ظهر الفِداء. وصدق الوعد لأنه حفظ العهد. وكان يأمر أهله بالصلاة ـ بأمر الله إياه ـ وبالزكاة، ويشتمل هذا على ما أمره إياهم بالعبادة البدنية والمالية حيثما وكيفما كان.

﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ وكان هذا أشرفَ خِصاله وأَجلَّ صفاته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.

الصِّدِّيق كثير الصدق، لا يشوب صدقه مَذْقٌ[2]، ويكون قائماً بالحقِّ للحق، ولا يكون فيه نَفَسٌ لغير الله.

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾: درجة عظيمة في التربية لم يُسَاوِه فيها أَحَدٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾.

أقامهم بشواهد الجمع، وأخبر أن مِنَّته كامِنَةٌ في تخصيصهم بأحوالهم، وتأهيلهم لِمَا رقَّاهم إليه من المآل، وأنه بفضله اختارهم واجتباهم. ومما أنعم به عليهم من الخصائص رِقَّةُ قلوبِهم؛ فهم إذا تُتْلَى عليهم الآياتُ سجدوا، وسجودُ ظواهرِهم يدل

(١) الطُّور: جبل قرب أيلة يُضاف إلى سيناء أو سينين، وهو الذي ناجى فيه موسى عليه السلام ربّه.

(٢) المذق: المزج والخلط، والمماذقة في الودّ: ضد المخالصة، ومذق الود: لم يخلصه. (اللسان ١٠/ ٣٤٠ مادة: مذق).

على سجودِ سرائرهم بما حقَّقَ لهم من شواهد الجمع، وأمارة صحته ما وفقهم إليه من عين الفرق؛ فبوصف التفرقة قاموا بحق آداب العبودية، وبنعَت الجمع تحققوا بحقائق الربوبية.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾.

الذين حادوا عن طريقهم، وضيعُّوا حقَّ الشرع، وتخطوا واجبَ الأمر، وزاغوا عن طريق الرشد، وأخلوا بآداب الشرع، وانخرطوا في سِلْكِ متابعة الشهوات ـ سيلقون عن قريبٍ ما يستوجبونه، ويُعَامَلُون بما يستحقونه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَـٰمًا﴾.

فأولئك الذين تداركتهم الرحمةُ الأزليةُ، وسيبقون في النعم السرمدية. يستنجز الحقُّ لهم عِدَاتِهم، ويُوَصِّلُهم إلى درجاتِهم، ويُحَقِّق لهم ما وعدهم.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾: لأن ما أُتِيته فقد أتاك أو ما أَتَاكَ فقد أتيته.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾: فإن أسماعَهم مصونةٌ عن سماعِ الأغيارِ، لا يسمعون إلا من اللّهِ وبالله، فإن لم يكن ذلك فلا يسمعون إلا الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

كانوا يعدون مَنْ عنده طعام البكرة والعشية مِنْ جملة المياسيرِ والأغنياءِ لكونهم فقراءَ؛ إنْ وجدوا غَداءَهم ففي الغالب يَعْدِمُون عشاءَهم، وإنْ وجدوا عشاءَهم فَقَلَّما كانوا يجدون غداءَهم. ويقال في: ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ فيها﴾ [النحل: ٥٧]: بمقدار الغدو والعشي من الزمان في الجنة أي كالوقت. ثم إن الأرزاق تختلف في الجنة؛ فللأشباحِ رِزقٌ من مطعوم ومشروب، وللأرواحِ رزقٌ من سماعٍ وشهود، ولكلٍ ـ على قَدْرِ استحقاقه ـ قِسْطٌ معلوم.

قوله جلّ ذكره: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾.

فالجنة للأتقياء من هذه الأمة مُعَدّةٌ له، والرحمةُ لعصاةِ المسلمين مُدَّخرةٌ لهم، الجنةُ لُطفٌ من الله تعالى، والرحمةُ وَصْفٌ لله تعالى. وقوله: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾: فَعَبْدُه على الخصوصية مَنْ كان اليومَ في قيد أمره. وقوله: ﴿مَن كَانَ تَقِيًّا﴾: قوم يتقون المعاصي والمخالفات، وقوم يتقون الشهواتِ، وآخرون يتقون الغفلاتِ، وآخرون يتقوَن شهود كُلِّ غيره.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾.

إن الملائكةَ ـ عليهم السلام ـ أبداً يَنزِلون بإذنِ الحقِّ تعالى، فبعضهم بإنجاد المظلومين، وبعضهم بإغاثة الملهوفين، وبعضهم بتدمير الجاحدين، وبعضهم بنصرة المؤمنين، وبعضهم إلى ما لا يحصى من أمور الناس أجمعين. واللَّهُ ـ سبحانه ـ لا يترك جاحداً ولا عابداً من حِفْظٍ وإنعام، أو إمهالٍ ونَكَال...

قوله جلّ ذكره: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾.

بحق الإظهار يجب أن يكون هو ربَّها، ويكون مالكها، ويكون قادراً عليها.

وإذا وجدت فهو فاعلها، فمعنى كون فعل الشيء لفاعله أنه في مقدوره وجوده.

ويقال إذا كان ربَّ الأكابرِ من الأقوياء فهو أيضاً ربُّ الأصاغر من الضعفاء، وقيمةُ العَبْدِ بمالِكِه وقَدْرِه، لا بثمنه في نَفْسِه وَخَطَرِه.

قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ أي قِفْ حيثما أمرك، ودَعْ ما يقع لك، وخَلِّ رأيك وتدبيرك.

قوله: ﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾: الاصطبار غاية الصبر.

قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾: أي كفواً ونظيراً. ويقال هل تعرف أحداً يسمى «الله» غيرَ اللَّهِ؟ ويقال أنَّى بالنظير... وهو بالقِدَم متوحد! والتشبيه يقتضي التسوية بين المتشابهين، ولا مِثْلَ له... لا موجوداً ولا موهوماً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾.

أنكروا حديثَ البعثِ غاية الإنكار، فأقام الحَجة عليهم بالنشأة الأولى؛ فقال: إن الذي قدر على خَلْقٍ في الابتداء وهم نُطَفٌ ضعفاء، وقَبْلُ كانوا في أصلابِ الآباءِ وأرحام الأمهاتِ فَفَطَرَهُمْ، وعلى ما شاءَ صَوَّرَهم، وفي الوقت الذي أراد ـ عن بطون أمهاتهم أَخْرَجَهُم.

قوله: ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ فيه دليل على صحة أهل البصائر أنّ المعدومَ لم يك شيئاً في حال عَدَمِه.

ويقال أبطل لهم كلَّ دعوى حيث ذَكَّرَهم نَسبَهم وكَوْنَهم مِنَ العَدَمِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾.

نحشرهم جميعاً فيجتمعون في العَرْصَةِ[١]. ثم يختلف مُنقَلَبُهم؛ فيصير قومٌ إلى النار ثم إلى دَرَكاتٍ بعضها أسفل من بعض ـ واسمُ جهنم يجمع أماكنهم. ويصير قومٌ إلى الجنة ثم هي دَرَجَاتٌ بعضها أعلى رتبةً ودرجةً من بعض ـ واسمُ الجنة يشتمل على جميع مساكنهم.

ويقال التفاوتُ في الجنةِ بين الدرجاتِ أكثرُ من التفاوت بين أهل الدارين.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾.

مَنْ تَقدَّمَ عليهم في الإضلال والضلال ضوعف عليه غداً العذاب والأغلال.

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾.

ينزل في كل دَرَكَةٍ من دركاتها من هو أهل لها، فمن كان عتوُّه اليومَ أشدَّ غلوا كان في النار أبعدَ من الله وأشدَّ عقوبةً وإذلالاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾.

كلٌّ يَرِدُ النارَ ولكن لا ضيْرَ منها ولا احتباسَ بها لأحدٍ إلا بمقدار ما عليه من (. . .)[٢] والزلل؛ فأشدُّهم انهماكاً أشدهم بالنار اشتعالاً واحتراقاً. وقوم يردونها ـ كما في الخبر: «إن للنار عند مرورهم عليها إذوابة[٣] كإذوابةِ اللَّبَن، فيدخلونها ولا يحسون بها، فإذا عبروها قالوا: أو ليس وعدنا جهنم على طريق؟ فيقال لهم. عبرتم وما شعرتم»!.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

يُنَجِّي مَنْ كان مؤمناً، بعضهم قَبْلَ بعض، وبعضهم بَعْدَ بعض، ولكن لا يبقى من المؤمنين مَنْ لا ينجيهم. ويترك الكفار فيها بنعت الخيبة عن الخروج منها، وعند ذلك يشتدُّ عليهم البلاء، وتُطْبَقُ عليهم أبوابُ جهنم، وينقطع منهم الرجاء والأمل.

وإنما ينجو القوم بحسب تقواهم؛ فزيادة التقوى توجِب لهم التعجيل في النجاة؛ فمن سابقٍ ومن لاحقٍ، ومن منقطع، ومن محترق. . . إلى كثيرٍ من الأصناف والألوان.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.

---

(١) العرصة: البقعة الواسعة بين الدور ليس فيها بناء (ج) عرصات وعراص.

(٢) بياض في الأصل.

(٣) الإذوابة: الزُّبْد يُذاب في البُرمة ليُطبخ سمناً، فلا يزال ذلك اسمه حتى يُحقن في الشقاء. (اللسان ١/ ٣٩٧ مادة: ذوب).

يعني إذا قُرِئَتْ عليهم آياتُ القرآن قابلوها بالردِّ والجحد والعتو والزيغ، ويَدَّعُون أنهم على حقٍ، ولا يعتمدون في ذلك إلا على الحَدْسِ والظَّنِّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾.

أي إن هؤلاء ينخرطون في سِلْكِ مَنْ تَقَدَّمهم، كما سلكوا في الريب منهاجهم، وسَيَلْقَوْن ما يستوجبونه على سوء أعمالهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾.

إن الله تعالى يُمْهِلُ الكفارَ ليركنوا إلى أباطيل ظنونهم، ويَغْتَرُّوا بسلامةِ أحوالهم، فينسونه في غفلة الإمهال والاغترار بسلامة أحوالهم، ثم يغشاهم التقدير بما يستوجب حسبانهم.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ...﴾ أي يحل بهم موعودُ العقوبة عاجلاً أو قيام الساعة آجلاً، فعند ذلك يتضح لهم ما تعامَوْا عنه من شدة الانتقام، وسيعلمون عند ذلك ما فاتهم وما أصابهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ﴾.

أي يُغْنيهم بنور البدر عن الاستضاءة بنور النجم، ثم بطلوع الفجر قبل طلوع الشمس، فإذا مَتَعَ نهارُ العرفانِ فلا ظلمة ولا تهمة.

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾: الشهادةُ بالربوبيةِ خيرٌ من غيرها مما لا يوجد فيه صدق الإخلاص.

ويقال: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾: التي تبقى عند الله مقبولة.

قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ﴾ لأن في استحقاقِ القبول زيادةً للهدى؛ فيصير عِلْمُ اليقين عينَ اليقين، وعينُ يقينهم حَقَّ اليقين.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾.

أَخْبِرْ بقصة ذلك الكافر الذي قال بيمين ـ من غير حجة ـ لأُعْطَيَنَّ مالاً وولداً، ورأى أن يكون ليمينه تصديق، فهل هو:

﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾.

هل يقول ما يقول بتعريفِ منا؟ أم هل اتخذ مع الله عهداً؟ ليس الأمر كذلك.

ودليل الخطاب يقتضي أن المؤمن إذا ظن بالله تعالى ظناً جميلاً، أو أَمَّلَ منه

أشياء كثيرة فالله تعالى يحققها له، ويَصْدُقُ ظَنُّه لأنه على عهد مع الله تعالى، والله تعالى لا يخلف عهده.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَلَّاۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾.

كلا... ليس الأمر على ما يقول، وليس لقولهم تحقيق، بل سنمد لهم من العذاب مداً أي سنطيل في العذاب مدتهم.

﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ...﴾ لن نُمتِّعه بأولاده وَحَشمِه وخَدَمهِ وقَوْمه، ويعود إلينا منفرداً عنهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾.

حكموا بظنهم الفاسدِ أنَّ أصنامَهم تمنعهم، وأَنَّ ما عبدوه من دون الله تعالى توجِبُ عبادتهم لهم عند الله تعالى وسيلةً... وهيهات! هيهات أن تكون لمغاليط حسبانهم تحقيق، بل إذا حُشِرُوا وحُشِرَتْ أصنامُهم تَبرَّأَتْ أصنامُهم منهم، وما أَمَّلُوا نفعاً منها عاد ضرراً عليهم.

ويقال طلبوا العِزَّ في أماكن الذل، فأخفقوا في الطلب، ونُفُوا عن المراد.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾.

تؤزهم أي تزعجهم، فخاطر الشيطان يكون بإزعاج وغُمَّة، وخاطر الحقِّ يكون بَروحٍ وسكينة، وهذه إحدى الدلائل بينهما.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾.

الأنفاس في الحكْم معدودة؛ فمن لم يستوف فلا انقضاء لها. وإذا انتهى الأَجَلُ فلا تنفع بعد ذلك الحِيَلُ، وقبل انقضائه لا يزيد ولا ينقص بالعلل.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾.

قيل ركباناً على نجائب طاعاتهم، وهم مختلفون؛ فَمِنْ راكبٍ على صدور طاعاته، ومن راكبٍ على مراكب هِمَمِه، ومن راكبٍ على نجائب أنواره. ومِنْ محمولٍ يحمله الحقُّ في عقباه كما يحمله اليومَ في دنياه. وليس محمولُ الحقِّ كمحمول الخَلْق!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾.

فأولئك يُساقون بوصف العِزِّ، وهؤلاء يُساقون بنعت الذُّلِّ، فيجمعهم في السَّوْقِ، ولكن يُغَابر بينهم في معانيه... فشتَّان ما هما!!

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾.

وذلك العهدُ حِفظُهم في دنياهم ما أُخِذَ عليهم ـ يومَ الميثاق ـ من القيام بالشهادة بوحدانية مولاهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾.

ما أعظم بهتانَهم في مقالتهم! وما أشدَّ جرأتَهم في قبيح حالتهم! لكنَّ الصمديةَ متقدِّسةٌ عن عائدٍ يعود إليها من زَيْنٍ بتوحيدِ مُوَحِّد، أو شَيْنٍ بإلحاد مُلْحِد... فما شاهت إلَّا وجوهُهم بما خاضوا فيه من مقالهم، وما صاروا إليه من ضلالهم. كما لم يَتَجمَّلْ بما قاله الآخرون إلا القائل، وما عاد إلا القائل مقابلٌ من عاجلٍ أو آجل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾.

أنَّى بالولد وهو واحد؟! وأنَّى بالولادة ولا جنسَ له وجوباً ولا جوازاً؟!

﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ...﴾: لا يَعْزُب عن عِلْمِه معلومٌ، ولا ينفكُّ عن قدرته ـ مما يصح أن يقال حدوثه ـ موهوم.

﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾: لا خَدَمَ يصحبهم، ولا حَشَمَ يلحقهم، كلٌّ بِنَفْسِهِ مشتغِلٌ، وعن غيره منفرد.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾.

يجعل في قلوبهم وداً لله نتيجةً لأعمالهم الخالصة، وفي الخبر: «لا يزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى يحبني وأحبه»(١).

ويقال يجعل لهم الرحمن وداً في قلوب عباده، وفي قلوب الملائكة، فأهل الخير والطاعة محبوبون مِنْ كلِّ أحد من غير استحقاق بفعل.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾.

الكلام واحد والخطاب واحد، وهو لقوم تيسير، ولآخرين تخويف وتحذير. فطوبى لِمَنْ يُسِّر لما وفِّق به، والويل لمن خُوِّف بل خُذِلَ فيه. والقومُ بين موفقٍ ومَخْذُولٍ.

(١) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١/ ٤٠٣، ٩/ ٦١٠)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/ ٧١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾.

أثبتهم وأحياهم، وعلى ما شاء فطرهم وأبقاهم، ثم بعد ذلك ـ لما شاء ـ أماتهم وأفناهم، فبادوا بأجمعهم، وهلكوا عن آخرهم، فلا كبير منهم ولا صغير، ولا جليل ولا حقير، وسَيُطَالبونَ ـ يومَ النشْور[1] ـ بالنقير والقطمير.

(١) يوم النشور: يوم القيامة.

سورة طه

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله اسم عزيز مَنْ تَحقَّق بجلال عِزَّته تمحض في خلوصِ عبوديته، وإذا وصل إلى ضياء صفوته نزل عن سيماء نعوته.

اسم عزيز مَنْ عرفه سَمَتْ هِمَّتُه، وإذا سمت همته سقطت عن الدارين طِلْبَتُه.

اسم مَنْ عَرَفَهَ زال كَرْبهُ وطابَ قلبُه؛ دِينُه ربُّه وجنَّتُه حُبُّه.

اسم عزيز من وَسَمه بعبوديته حَرَّرَه من رِقِّ شهواته، وأعتقه من أَسْرِ مَطَالِبه؛ فلا له لمحبوبٍ طلبٌ، ولا يستفزُّه لمحذورٍ هربٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿طه مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾.

الطاء إشارة إلى قلبه ـ عليه السلام ـ من غير الله، والهاء إشارة إلى اهتداء قلبه إلى الله.

وقيل طَأْ بِسرِّكَ بساط القربة فأنتَ لا تهتدي إلى غيرنا.

ويقال طوينا عن سرِّكَ ذِكْرَ غيرنا، وهديناك إلينا.

ويقال طوبى لمن اهتدى بك. ويقال طاب عيشُ مَنْ اهتدى بك.

﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾: أي ليس المقصود من إيجابنا إليك تعبدك، وإنما هذا استفتاحُ الوُصلة، والتمهيد لبساط القُرْبَةِ.

ويقال إنه لما قال له: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٨] وقف بِفَرْدِ قدم تباعدا وتنزهاً عن أن يقرب من الدنيا استمتاعاً بها بوجهٍ فقيل له: طأ الأرض بقدميك... لِمَ كل هذا التعب الذي تتحمله؟ فزاد في تعبده، ووقف، حتى تقدمت قدماه وقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[1] أي لما أهلني من التوفيق حتى أعبده.

---

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٢/ ٦٣، ٦/ ١٦٩، ٨/ ١٢٤)، ومسلم في (الصحيح صفات المنافقين ٧٩، ٨٠، ٨١)، والترمذي في (السنن ٤١٢)، والنسائي في (السنن ٣/ ٢١٩)، وابن ماجه في (السنن ١٤١٩ ـ ١٤٢٠)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٤/ ٢٥١، ٢٥٥، ٦/ ١١٥) والبيهقي في=

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾.

فالقرآنُ تَبْصِرةٌ لذوي العقول، تذكرة لذوي الوصول، فهؤلاء به يستبصرون فينالون به راحةَ النَّفْسِ في آجِلِهم، وهؤلاء به يذكرون فيجدون رَوْحَ الأُنْسِ في عاجِلهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾.

جَعَلَ الأرض قراراً لِعبادِه. ونفوسُ العابدين أرضٌ وقرارٌ لطاعتهم، وقلوبُ العارفين قرارٌ لمعارفهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾.

استواء عَرْشِه في السماءِ معلوم، وعَرْشه في الأرض قلوبُ أهل التوحيد.

قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] وعرش القلوب: قال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٧٠]. أمّا عرش السماء فالرحمن عليه استوى، وعرشُ القلوبِ الرحمنُ عليه استولى. عرشُ السماءِ قِبْلَةُ دعاءِ الخَلْق، وعرشُ القلبِ مَحَلُّ نَظَرِ الحق... فشتَّان بين عرشٍ وعرش!

قوله جلّ ذكره: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾.

له الأشياء على العموم مِلْكاً، والأولياء تخصيصاً وتشريفاً. له ما بين السموات والأرض مما أظهر من العَدَم؛ فالكلُّ له إثباتاً وخَلْقاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾.

النَّفْسُ لا تقف على ما في القلب، والقلبُ لا يقف على أسرار الرُّوح، والروح لا

= (السنن الكبرى ٢/ ٤٩٧، ٣/ ١٦، ٧/ ٣٩)، والطبراني في (المعجم الصغير ١/ ٧١، ١١٨) وابن خزيمة في (الصحيح ١١٨٢، ١١٨٣، ١١٨٤)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ٢/ ٢٧١)، وابن حجر في (المطالب العالية ٥٢٩)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ١/ ٢٦، ٢/ ٣٧٣)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٧/ ٢٥٠، ٨/ ٢٨٩)، (البغوي ٤/ ١٧٤، ٧/ ٣٨٧)، والساعاتي في (بدائع المنن ٣١٦، ٣١٧)، وابن حجر في (فتح الباري ٨/ ٥٨٤، ٩/ ١٠٥، ١١/ ٣٠٣)، والبغوي في (شرح السنة ٤/ ٤٥)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ١٢٢٠) وصاحب (ميزان الاعتدال ٤٧٣١)، وابن حبان في (المجروحين ١/ ١٦١، ٢/ ٣١)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥/ ١٨٥، ١٨٦، ٧/ ٧٨)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٤/ ٧٨ ـ ٨٥)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٤/ ٣٣١، ٧/ ١٩٧، ٢٦٥، ١٤/ ١٠١ ـ ٣٠٦) والقاضي عياض في (الشفا ١/ ٤٦٥، ٢/ ٢٥١، ٣٩١، ٩/ ٤٧ ـ ٥٩)، وأحمد بن حنبل في (الزهد ١٧، ٩٢)، وابن المبارك في (الزهد ٣٦)، (مناهل الصفا ٢٦)، والترمذي في (الشمائل ١٤٠)، والسيوطي في (الدر المنثور ٢/ ١١١، ٦/ ٧٠)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٨٥٨٠، ١٨٥٨١)، وابن عبد البر في (التمهيد ٦/ ٢٢٤)، وابن أبي شيبة في (المصنف ١٣/ ٢٣٢).

سبيل له إلى حقائق السرّ. والذي هو أخفى من السِّرّ فهو ما لا يَطَّلِعُ عليه إلا الحق[١].

ويقال الذي هو أخفى من السر لا يفسده الشيطان، ولا يكتبه المَلَكَانِ، ويستأثِرُ بعِلْمه الجبَّارُ، ولا تقف عليه الأغيار.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

نَفَى كل موهوم من الحدثان بأن يكون شيءٌ منه صالحاً للإبداع، وأثبت كُلَّ ما في الوجود له باستحقاق القِدَم.

﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي صفاته، على انقسامها إلى صفة ذات وصفة معنى.

ويقال ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾: تعريفٌ للخَلْق بأنَّ استحقاقَ العلو والتقدُّس عن النقائص له على وصف التفرُّد به.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾.

سؤال في صيغة الاستفهام والمراد منه التقرير والإثبات. وأجرى ـ تعالى ـ سُنَّته في كتابه أن يذكر قصة موسى عليه السلام في أكثر المواقع التي يذكر فيها حديث نبينا ﷺ، فيعقبه بذكر موسى عليه السلام.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾.

ألاح له النار حتى أخرجه من أهله يطلبها، وكان المقصودُ إخراجَه من بينهم، فكان موسى عليه السلام يدنو والنار تنأى، وقال لأهلِه:

﴿ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ فقال أهلُه: كيف تتركنا والوادي مسبع؟

فقال: لأَجْلِكُم أفارقكم؛ فلَعَلِّي آتيكم من هذه النار بقبس.

ويقال استولى على موسى عند رؤيته النار الانزعاجُ، فلم يتمالك حتى خرج. ففي القصة أنه لما أتاها وَجَدَ شجرةً تشتعل من أولها إلى آخرها، فجمع موسى ـ عليه السلام ـ حشائشَ ليأخذ من تلك النار، فعرف أن هذه النار لا تسمح نَفْسُها بأَنْ تُعْطِي إلى أحدٍ شعلة:

وقُلْنَ لنا نحن الأَهِلَّةُ إنما ... نضيءُ لِمَنْ يَسْرِي بليلٍ ولا نُقْرِي

يا موسى هذه النارُ تضيءُ ولكن لا تعطي لأحدٍ منها شعلة. يا موسى هذه النارُ تحرق القلوبَ لا النفوس.

---

(١) قال القشيري برسالته عند حديثه عن السر: السر ما لك عليه إشراف، وسرّ السير ما لا إطلاع عليه لغير الحق. (الرسالة القشيرية ص٨٨).

ويقال كان موسى عليه السلام في مزاولة قَبسٍ من النار فكان يحتال كيف يأخذ منها شيئاً، فبينما هو في حالته إذ سمع النداء من الحقِّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾.

علم موسى أنه كلام الحق ـ سبحانه ـ لَمَّا سَمِعَ فيه الترتيبَ والتنظيمَ والتركيب، فعَلِمَ أنه خطاب الحق.

ويقال إنما عرف موسى ـ عليه السلام ـ أنه كلامُ الله بتعريفٍ خصَّه الحق ـ سبحانه ـ به من حيث الإلهام دون نوع من الاستدلال.

قوله: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ...﴾ فإن بِساطَ حضرةِ الملوكِ لا يُوطأُ بنَعْلٍ.

ويقال ألقِ عصاك يا موسى، واخلع نعليك، وأَقِمْ عندنا هذه الليلةَ ولا تَبْرَحْ.

ويقال الإشارة في الأمر بخلع النعلين تفريغ القلب من حديث الدارَيْن، والتجرد للحقِّ بنعت الانفراد.

ويقال: ﴿اخلع نعليك﴾: تَبَرَّأْ عن نَوْعَيْ أفعالك، وامْحُ عن الشهود جنْسَيْ أحوالِك من قربٍ وبُعْدٍ، ووَصْلٍ وفَصْلٍ، وارتياح واجتياح، وفناء وبقاء... وكُنْ بوصفنا؛ فإنما أنت بحقنا.

أَثْبَتَه في أحواله حتى كان كالمجرد عن جملته، المُصْطَلَم عن شواهده.

قوله: ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾: أي إنك بالوادي المقدس عن الأعلال؛ وساحاتُ الصمدية تَجِلُّ عن كل شيْن، وإيمانٍ وزَيْن؛ عن زَيْنٍ بإحسان وشَيْنٍ بعصيان؛ لأنَّ للربوبية سَطَعَاتِ عِزٍّ تقهر كل شيء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾.

وعلى علمٍ مني بك اصطفيتكُ، وجَرَّدْتُكَ ونقيتك عن دَنَسِ الأوهام وكلِّ ما يُكَدِّرُ صَفْوَك.

ويقال بعدما اخترتُك فأنت لي وبي، وأنت محو في فنائك عنك.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي﴾.

تقدَّستُ عن الأعلال في أزلي، وتنزهت (.....)[1] والأشكال باستحقاقي لجلالي وجمالي.

ويقال: ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾: الأغيار في وجودي فَقْدٌ، والرسومُ والأطلالُ عند ثبوتِ حَقِّي محوٌ.

---

(١) بياض في الأصل.

قوله: ﴿فَٱعۡبُدۡنِي﴾: أي تَذَلَّلْ لِحُكْمي، وأنفِذْ أمري، واخضعْ لجبروتِ سلطاني.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾.

إقامتُها من غير ملاحظة مُجْرِيها ومنْشِيها يُورِث الإعجاب. وإذا أقام العبدُ صلاتَه على نعت الشهود والتحقق بأن مجريها غيره كانت الصلاة بهذا فتحاً لباب المواصلة، والوقوف على محل النجوى، والتحقق بخصائص القرب والزلفة.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾.

الفائدة في تعريف العِباد بِقُرْبِ الساعةِ أن يستفيقوا من غفلات التفرقة، فإذا حضروا بقلوبهم ـ ففي حال استدامة الذكر ـ فما هو موعودٌ في الآجل أكثره للحاضرين موجودٌ في العاجل؛ والحاضرة لهم كالآخرة. وكذلك جعلوا من أمارات الاستقامة شهودَ الوقتِ قيامة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ﴾.

إذا أكرمه اللَّهُ بحُسْنِ التنبيه، وأحضره بنعت الشهود فلا ينبغي أن ينزل عن سماء صفاته إلى جحيم أهل الغفلة في تطوحهم في أودية التفرقة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾.

كرَّرَ عليه السؤالَ في غير آية من عصاه لمَّا كان المعلوم له سبحانه فيها من إظهاره فيها عظيم المعجزة.

ويقال إنما قال ذلك لأنه صَحِبَتْهُ هيبةُ المقام عند فَجْأةِ سماعِ الخطاب؛ فَلِيُسَكِّنَ بعضَ ما به من بَوَادِهِ[1] الإجلال... رَدَّهُ إلى سماعِ حديث العصا، وأراه ما فيها من الآيات.

ويقال لو تركه على ما كان عليه من غَلَبَاتِ الهيبة لعلَّه كان لا يعي ولا يطيق ذلك... فقال له: وما تلك بيمينك يا موسى؟

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾.

قال هي عصاي، وأخذ يُعدِّد ما له فيها من وجوه الانتفاع فقال له:

﴿قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾.

فإنَّك بنعت التوحيد، واقفٌ على بساط التفريد، ومتى يصحُ ذلك، ومتى يَسْلَمُ لك أن يكون لَكَ معتمدٌ تتوكأ عليه، ومستند عليه تستعين، وبه تنتفع؟

---

(١) البواده: ما يفجأ قلبك من الغيب على سبيل الوهلة، إما بموجب فرح أو بموجب ترح. (الرسالة القشيرية ص٧٨).

ثم قال: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾: أوّلُ قَدَم في الطريق تَرْكُ كلِّ سَبَبٍ، والتَّنَقِّي عن كل طَلَبٍ؛ فكيف كان يَسْلَمُ له أن يقول: أَفْعَلُ بها، وأمتنع، ولي فيها مآرب أخرى.

ويقال ما ازداد موسى ـ عليه السلام ـ تفصيلاً في انتفاعه بعصاه إلا كان أقوى وأَوْلى بأن يؤمن بإلقائها، والتنقي عن الانتفاع بها على موجب التفرُّد لله.

ويقال التوحيد التجريد، وعلامةُ صحته سقوط الإضافات[1] بأسْرِها؛ فلا جَرَمَ لما ذكر موسى ـ عليه السلام ـ ذلك أُمِرَ بإلقائها فجعلها اللَّهُ حَيَّةً تسعى، وولَّى موسى هارباً ولم يُعَقِّب. وقيل له يا موسى هذه صفة العلاقة؛ إذا كوشِفَ صاحبُها بِسِرِّها يهرب منها.

ويقال لمَّا باسطه الحقُّ بسماع كلامه أخذته أريحية سماع الخطاب، فأجاب عما يُسْأَل وعمَّا لم يُسْأَل فقال: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾، وذَكَرَ وجوها من الانتفاع؛ منها أنه قال تؤنسني في حال وحدتي، وتضيءُ لي الليلَ إذا أظلم، وتحملني إذ عَيِيتُ في الطريق فأركبُها، وأَهُشُّ به على غنمي، وتدفع عني عَدُوِّي. وأعظم مأربٍ لي فيها أَنَّكَ قُلْتَ: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ؟﴾ وأيةُ نعمةٍ أو مأربٍ أو منفعةٍ تكون أعظَمَ مِنْ أَنْ تقولَ لي: وما تلك؟ ويقال قال الحقُّ ـ بعد ما عدَّد موسى وجوه الآياتِ وصنوفَ انتفاعِه بها ـ ولَكَ يا موسى فيها أشياءُ أخرى أنت غافلٌ عنها وهي انقلابُها حيةً، وفي ذلك لك معجزةٌ وبرهانُ صِدْقٍ.

ويقال جميعُ ما عَدَّدَ من المنافع في العصا كان من قِبَلِ الله... فكيف له أن ينسبها ويضيفها إلى نفسه، ولهذا قالوا:

يا جنَّة الخُلْدِ، والهدايا إذا ... تُهدَى إليك فما مِنْكِ يُهْدَى

ويقال قال موسى لها رآها حيةً تهتز: لقد عَلِمْتُ كلَّ وصفٍ بهذه العصا، أمَّا هذه الواحدة فلم أعرفها.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾.

لا عِبْرةَ بما يوهِمُ ظاهرُ الأشياء؛ فقد يُوهِمُ الظاهرُ بشيءٍ ثم يبدو خِلافُه في المستقبل؛ فعصا موسى صارت حيةً.

---

(١) قال القشيري في رسالته عند حديثه عن التوحيد: التوحيد إسقاط الياءات، فلا تقل: لي وبي ومني وإليّ. (الرسالة القشيرية ص٣٠٢).

ثم قال المقصود بذلك أن تكون لك آيةً ومعجزةً لا بلاءً وفتنةً.

قوله: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ . . .﴾ أشهدَه ـ بانقلاب العصا من حالٍ إلى حال؛ مرةً عصا ثم ثعباناً ثم عصا مرةً أخرى ـ أنَّه يُثَبِّتُ عِبادَه في حال التلوين[1] مرةً ومرةً؛ فَمِنْ أَخْذٍ ومِنْ رَدٍّ، ومن جَمْعٍ ومن فَرْقٍ الخ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾.

كما أراه آيةً من خارج أراه آيةً من نَفْسِه، وهي قلْبُ يَدِه بيضاءَ؛ إذْ جَعَلَها في جيبه من غير البَرَص[2]. قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وإنما قال: أَدْخِلْ يَدَكَ في جيبِك ولم يقل كُمِّك لأنه لم يكن لِمَا عليه من اللِّباس كُمَّان.

قوله: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾: الآية الكبرى هي ما كان يجده في نفسه من الشهود والوجود، وما لا يكون بتكلُّفِ العبد وتصرُّفِهِ من فنون الأحوال التي يدركها صاحبُها ذوقاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾.

بعدما أسمعه كلامه من غير واسطة، وشَرَّفَ مقامَه، وأَجْزَلَ إكرامَه أَمَرَه بالذهاب ليدعوَ فرعونَ إلى الله ـ مع عِلْمِه بأنه لا يؤمن ولا يجيب ولا يسمع ولا يَعْرِف ـ فشَقَّ على موسى ذهابُه إلى فرعون، وسماعُ جُحدِه منه، بعدما سمع من الله كلامه سبحانه، ولكنه آثر أَمْرَ محنته على مرادِ نفسه.

ويقال لـمَّا أَمَرَه بالذهاب إلى فرعونَ سأل اللَّهَ أُهْبَةَ النَّقْلِ وما به يتمُّ تبليغ ما حمل من الرسالة، ومن ذلك قوله:

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾.

لِيُعْلَمَ أَنَّ مِنْ شَرْطِ التكليفِ التَّمَكُّنَ مِنْ أداءِ المأمور به.

ويقال إن موسى لما أَخَذَ في المخاطبة مع الله كاد لا يسكت من كثرة ما سأله فظل يدعو: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى . . .﴾ وهكذا إلى آخر الآيات والأسئلة.

---

(١) التلوين: صفة أرباب الأحوال، والتمكين صفة أهل الحقائق، فما دام العبد في الطريق فهو صاحب تلوين، لأنه يرتقي من حال إلى حال، وينتقل من وصف إلى وصف، ويخرج من مرحل ويحصل في مربع، فإذا وصل تمكن. (الرسالة القشيرية ص٧٨).

(٢) البرص: بياض يظهر في الجسد لعلة.

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي﴾: حتى أُطِيقَ أنْ أَسمعَ كلامَ غيرك بعدما سَمِعْتُ منك. ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾: حتى ينطلقَ بمخاطبة غيرك، وقَوِّني حتى أرُدَّ ما أرِدُ... بِكَ لا بي.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي هَٰرُونَ أَخِي ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي﴾.

سَأَلَ أنْ يَصْحَبَ أخاه معه، ولما ذهب لسماع كلام الله حين قال تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٣] كان بمفرده، لأن الذهاب إلى الخَلْق يوجِب الوحشةَ؛ فَطَلَبَ من أخيه الصحبة لِيُخَفِّفَ عليه كلفة المشقة.

ويقال إن المحبةَ توجِبُ التجرُّدَ والانفراد وألا يكونَ للغيرِ مع المحبِّ مساغ؛ ففي ذهابه إلى فرعون استصحب أخاه، ولمَّا كان الذهابُ إلى الميقاتِ لم يكن للغيرِ سبيلٌ إلى صحبته، إذ كان المقصود من ذهابِه أن يكونَ مخصوصاً بحاله.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾[١].

بين أن طَلَبَه مُشاركةَ أخيه له بحقِّ ربه لا بحظِّ نَفْسِه حيث قال: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾.

أعطيناكَ ما سألتَ، وتناسيت ابتداءَ حالِكَ حين حفظناك في اليمّ[٢] وَنَجَّيْنا أُمَّكَ من ذلك الغَمِّ، وربَّيْنَاك في حِجْرِ العَدُوِّ... فأين ـ حينذاك ـ كان سؤالُكَ واختيارُكَ ودعاؤُك؟

وأثبتنا في قلب امرأة فرعون شفقتك، وألقينا عليكَ المحبةَ حتى أحبّكَ عدوُّك، وربَّاكَ حتى قَتَلَ بِسَبَبِكَ ما لا يُحْصَى من الولدان، والذي بَدَأَكَ بهذه المِنَنِ هو الذي آتاك سُؤْلَكَ، وحقَّقَ لك مأمولَكَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾[٣].

كان ذلك وحيَ إلهامٍ؛ ألقَى اللَّهُ في قلبها أن تجعله في تابوت، وتلقيه في اليم يعني نهر النيل، فَفَعَلَتْ، فألقاه النهر على الساحل، فَحُمِلَ إلى فرعون. فَلَمَّا وَقَعَ بَصَرُ امرأةِ فرعون عليه باشر حبُّه قلبَها، وكذلك وقعت محبتُه في قلبِ فرعون، ولكنها

(١) الآية (٣٢) لم ترد.
(٢) اليم: البحر ذو الماء الملح، أو النهر الكبير ذو الماء العذب.
(٣) الآية (٣٧) لم ترد.

كانت أضعفَ قلباً، فسبقت بقولها: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ...﴾ [القصص: ٩]، ولولا أنها عَلِمَتْ أنه أخذ شعبةً من قلبِ فرعون ما أخذ من قلبها لم تقل: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ [القصص: ٩].

قوله: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾: ربَّاه في حِجْرِ العدو وكان قد قَتَلَ بسببه ألوفاً من الولدان... ولكنْ مِنْ مَأمِنِه يُؤتَى الحَذِرُ! وبلاءُ كلِّ أحدٍ كان بَعْدَه إلا بلَاءَ موسى عليه السلام فإنه تَقَدَّمَ عليه بسنين؛ ففي اليوم الذي أخذ موسى في حِجْرِه كان قد أمر بقتل كثير من الولدان، ثم إنه ربَّاه ليكونَ إهلاكُ مُلْكِهِ على يده... لِيُعْلَمَ أَنَّ أَسرارَ الأقدار لا يعلمها إلا الجبارُ.

ويقال كان فرعون يُسَمَّى والدَ موسى وأباه ـ ولم يكن. وكان يقال لأُمِّ موسى ظئر[1] موسى ـ ولم تكن؛ فَمِنْ حيثُ الدعوى بالأبوة لم يكن لها تحقيق، ومن حيث كان المعنى والحقيقة لم يكن عند ذلك خبر ولا عند الآخر من ذلك معرفة... هكذا الحديث والقصة.

ولقد جاء في القصة أنّ موسى لمَّا وُضِعَ في حِجْر فرعون لَطَمَ وجهه فقال: إنَّ هذا من أولاد الأعداء فيجب أَنْ يُقْتَلَ، فقالت امرأتُه: إنه صبيٌّ لا تمييزَ له، ويشهد لهذا أنه لا يُمَيِّزُ بين النار وبين غيرها من الجواهر والأشياء، وأرادت أن يصدِّق زوجُها قالتَها، فاستحضرت شيئاً من النار وشيئاً من الجواهر، فأراد موسى عليه السلام أن يمدَّ يَدَه إلى الجواهر فأخذ جبريلُ عليه السلام بيده وصَرَفَها إلى النار فأَخَذَ جَمْرةً بيده، وقرَّبها مِنْ فيه فاحترقَ لِسانُه ـ ويقال إنَّ العقدةَ التي كانت على لسانه كانت من ذلك الاحتراق ـ فعند ذلك قالت امرأةُ فرعون: ها قد تبينَّ أن هذا لا تمييزَ له؛ فقد أخذ الجمرةَ إلى فيه. وتخلَّص موسى بهذا مما حصل منه من لَطْم فرعون.

ويقال إنهم شاهدوا ولم يشعروا أنه لم يحترق مِنْ أَخْذِ الجمرة وهو صبيٌّ رضيع، ثم احترق لسانه، فعلم الكلُّ أن هذا الأمر ليس بالقياس. فإنه سبحانه فعَّال لما يريد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾.

أي أحببتك. ويقال في لفظ الناس: فلانٌ ألقى محبته على فلان أي أَحَبَّه. ويقال: ﴿ألقيت عليك محبة مني﴾: أي طَرَحْتُ في قلوب الناس محبةً لك، فالحقُّ إذا أحبَّ عبداً فكلُّ مَنْ شاهده أحبَّه. ويقال لملاحةٍ في عينيه؛ فكان لا يراه أحدٌ إلا أَحبَّه.

---

(١) الظِّئر: العاطفة على غير ولدها المرضعة له من الناس والإبل، الذكر والأنثى في ذلك سواء. والجمع أظؤر وأظآر وظؤور، وظؤار. (اللسان ٤/ ٥١٤ مادة: ظأر).

ويقال: ﴿ألقيت عليك محبة مني﴾: أي أثْبَتُّ في قلبك محبتي؛ فإن محبةَ العبدِ لله لا تكون إلا بإثباتِ الحق ـ سبحانه ـ ذلك في قلبه، وفي معناه أنشدوا:

إنَّ المحبةَ أَمْرُها عَجَبٌ تُلْقَى عليكَ وما لها سَبَبُ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾.

أي بمرأىً مني، ويقال لا أُمَكِّن غيري بأَنْ يستَبْعِدَكَ عني.

ويقال أحفظك من كل غَيْرٍ، ومن كلِّ حديثٍ سوى حديثنا. ويقال ما وَكَلْنَا حِفْظَكَ إلى أحدٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾.

البلاء على حَسَبِ قوة صاحبه وضعفه، فكلما كان المرء أقوى كان بلاؤه أوفى، وكلما كان أضعف كان بلاؤه أخف. وكانت أمُّ موسى ضعيفةً فَرَدَّ إليها وَلَدَها بعد أيام، وكان يعقوبُ أقوى في حاله فلم يُعِدْ إليه يوسفَ إلا بعد سنين طويلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾.

أجرى اللَّهُ عليه ما هو في صورةِ كبيرةٍ من قَتْلِ النَّفْسِ بغير حق، ثم بيَّن اللَّهُ أنه لا يضره ذلك، فليست العِبْرةُ فعل العبد في قلَّته وكثرته إنما العِبرةُ بعناية الحقِّ بشأنِ أحدٍ أو عداوته.

ويقال قد لا يموتَ كثيرٌ من الخلْقِ بفنون من العذابِ، وكم من أناس لا يموتون وقد ضُرِبُوا ألوفاً من السياط[1]! وصاحبُ موسى عليه السلام ومقتولُه مات بوكزةٍ[2]! إيش الذي أوجب وفاته لولا أنه أراد به فتنةً لموسى؟ وفي بعض الكتب أنه ـ سبحانه ـ أقام موسى كذا وكذا مقاماً، وأسمعه كلامه كل مرة بإسماع آخر، وفي كل مرة كان يقول له: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾.

﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾: أريناكَ عينَ الجمع حتى زال عنك ما داخَلَكَ من الغمِّ بصفة مقتضى التفرقة، فلمَّا أريناكَ سِرَّ جريانِ التقديرِ نجَّيْنَاكَ من الغم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾.

استخلصناكَ لنا حتى لا تكون لغيرنا. ويقال جَنَّسْنَا عليك البلاءَ ونَوَّعْنَاه حتى جَرَّدْنَاكَ عن كل اختيارٍ وإرادة، ثم حينئذٍ رَقَّيْنَاكَ إلى ما استوجَبْتَه من العِلم الذي أَهَّلْنَاكَ له.

---

(١) السياط: (ج) السوط: الذي يُجلد به. (اللسان ٧/ ٣٢٦ مادة: سوط).

(٢) الوكز: الطعن. وذكره أيضاً: طعنه بجمع كفه. (اللسان ٥/ ٤٣٠ مادة: وكز).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾.

وكنتَ عند الناس أنك أجيرٌ لشعيب، ولم يظهر لهم ما أودعنا فيك، وكان يكفي ـ عندهم ـ أن تكون خَتَناً[1] لشعيب.

﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾.

أي عَدَدْنا أيامَ كونك في مدين شعيب، وكان أهل حضرتنا من الملائكة الذين عرفوا شرَفَكَ ومحبَّتَكَ منتظرين لك؛ فجئتَ على قَدَرٍ.

ويقال إنَّ الأَجَل إذا جاء للأشياء فلا تأخيرَ فيه ولا تقديم، وأنشدوا في قريب من هذا المعنى:

بينما خاطرُ المنى بالتلاقي سابحٌ في فؤاده وفؤادي
جمع اللَّهُ بيننا فالتقينا هكذا بغتةً بلا ميعادِ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾.

استخلصتُكَ لي حتى لا تَصْلُحَ لأحدٍ غيري، ولا يَتَأَتَّى شيءٌ منك غير تبليغ رسالتي، وما هو مرادي منك.

ويقال أفردتُ سِرَّك لي، وجعلْتُ إقبالَكَ عليَّ دون غيري، وحُلْتُ بينك وبين كل أحدٍ ممن هو دوني.

ويقال: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾: قَطَعَهُ بهذا عن كلِّ أحدٍ، ثم قال له: **﴿اذهب إلى فرعون﴾.**

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾.

تعلَّلَ موسى عليه السلام لمَّا أرسله الحقُّ إلى فرعون بوجوهٍ من العِلَلِ مثل قوله: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ [القصص: ١٣]، ﴿إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣].. إلى غير ذلك من الوجوه، فلم ينفعه ذلك، وقال الله: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، فاستقل موسى عليه السلام بذلك، وقال: الآن لا أُبالي بعد ما أنت معي.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾.

إنما أمرهما بالملاينة معه في الخطاب لأنه كان أول مَنْ دَعَوْه إلى الدِّين، وفي حال الدعوة يجب اللِّين؛ فإنه وقت المُهلةِ، فلا بدَّ من الإمهال ريثما ينظر؛ قال الله

---

(١) الختن: زوج البنت أو الأخت (الصهر). وفي الحديث: عليّ ختن رسول الله ﷺ أي زوج ابنته. (لسان العرب ١٣/ ١٣٨ مادة: ختن).

لنبينا ﷺ: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]: وهو الإمهال حتى ينظروا ويستدلوا، وكذلك قال: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ [سبأ: ٤٦].

ثم إذا ظهر من الخَصمِ التمرُّدُ والإباء فحينئذٍ يُقابَلُ بالغلظة والحتف.

ويقال علَّمهما خطابَ الأكابرِ ذوي الحشمة؛ ففرعونُ ـ وإن كان كافراً ـ إلا أنه كان سلطانَ وقتِهِ، والمتسلِّطَ على عِبادِ الله.

ويقال إذا كان الأمرُ في مخاطبة الأعداء بالرِّفق والملاينة... فكيف مع المؤمن في السؤال؟

ويقال في هذا إشارة إلى سهولة سؤال المَلَكين في القبر للمؤمن.

ويقال إذا كان رِفقُه بِمَنْ جَحَدَه فكيف رِفقُه بِمَنْ وَحَدَه؟

ويقال إذا كان رِفقُه بالكفَّارِ فكيف رفقه بالأبرار؟

ويقال إذا كان رفقه بمن قال: أنا... فكيف رفقه بمن قال: أنت؟

ويقال إنه أَحسَنَ تربيةَ موسى عليه السلام؛ فأراده أن يرفق به اليومَ في الدنيا على جهة المكافأة.

وقيل تفسير هذا ما قال في آية أخرى: ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [النازعات: ١٨].

وقوله: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾: أي كُونَا على رجاء أن يُؤمِنَ. ولم يخبرهما أنه لا يؤمن لئلا تتداخَلَهُما فَترةٌ في تبليغ الرسالة عِلْماً منه بأنه لا يؤمن ولا يقبل.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾.

في الآية دليلٌ على أنَّ الخوفَ[1] الذي تقتضيه جِبْلَةُ الإنسانِ غيرُ ملومٍ صاحبُه عليه، حيث قال مثل موسى ومثل هارون عليهما السلام: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ﴾.

ثم إنَّه سبحانه سَكَّنَ ما بهما من الخوف بوعد النصرة لهما.

ويقال لم يخافا على نَفْسَيْهِما شفقةً عليهما، ولكن قالا: إننا نخاف أن تحل بنا مكيدةٌ من جهته، فلا يحصل فيما تأمرنا به قيامٌ بأمرك، فكان ذلك الخوفُ لأجل حقِّ الله لا لأجل حظوظ أنفسهما.

ويقال لم يخافا من فرعون، ولكن خافا من تسليط الله إياه عليهما، ولكنهما تأدَّبا في الخطاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾.

---

(١) انظر حديث القشيري عن الخوف برسالته ص١٢٤ ـ ١٣١.

تَلَطَّفَ في استجلاب هذا القول من الحق سبحانه، وهو قوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ بقولهما: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ﴾، وكان المقصود لهما أن يقول الحق لهما: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ وإلا فأنّي بالخوف لِمَنْ هو مخصوصٌ بالنبُوَّةِ؟!

ويقال سَكَّنَ فيهما الخوف بقوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾، فقَويا على الذهاب إليه؛ إذ مِنْ شَرْط التكليف التمكين.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾.

طالَ البلاءُ ببني إسرائيل من جهة فرعون، فتدراكَهُم الحقُّ سبحانه ولو بعد حين، بذلك أجرى سُنَّتَهُ أنه يُرخي عِنَانَ الظالمِ، ولكن إذا أَخَذَهُ فإِنَّ أَخْذَهُ أليمٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾.

من شَرْطِ التكليفِ التمكينُ بالبيِّنة والآيةِ للرسولِ حتى يَتَّضِحَ ما يَدُلُّ على صِدْقِه فيما يدعو إليه من النبوة. ثم إن تلك الآية وتلك البيِّنة ما نفعتهم، وإنا تأكدتْ بهما عليهم الحُجَّةُ؛ فإذا عَمِيَ بَصَرُ القلبِ فأنَّى تنفع بصيرةُ الحجة؟ وفي معناه قالوا:

وفي نَظَرِ الصادي إلى الماء حَسْرَةٌ ... إذا كان ممنوعاً سبيل الموارِدِ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾.

إنما يَتَّبع الهُدَى مَنْ كَحَّلَ قلبَه بنور العرفان، فأما من كانت على قلبِه غشاوة الجهل... فمتى يستمع إلى الهُدَى؟

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

ما بعث اللَّهُ نبياً إلَّا وقد أَنْذَرَ قومَه بالعذابِ على تَرْكِ الأمر، وبَشَّرَهُم بالثوابِ على حِفْظِ الأمر. والعذابُ مُعَجَّلٌ ومؤجَّلٌ؛ فمؤجَّلُه لا يُوقَفُ على تفصيله الأعداءُ وكذلك مُؤَجَّل الثوابُ، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

وأما مُعَجَّلُ العقوبةِ فأنواع، وعلى حسب مقام المرءِ تَتَوَجَّهُ عليه المُطَالَبَاتُ، والزيادةُ في العقوبةِ تَدُلُّ على زيادةِ استحقاقِ الرُّتْبَةِ؛ كالحرِّ والعَبْدِ في الحَدِّ. وقسوةُ القلبِ نوعُ عقوبة، وما يتداخل الطاعة نوعُ عقوبة، وخسرانُ نصيبٍ في المالِ والأَنْفُس نوعُ عقوبة... إلى غير ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ على التثنية، ثم قال: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ فأفرده بالخطاب بعدما قال: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا؟﴾. فيحتمل أن ذلك لمُشَاكَلَة رؤوسِ الآي، ويحتمل أن موسى كان مُقَدَّماً على هارون فَخَصَّه بالنداء.

وإنما أجاب موسى عن هذا السؤال بالاستدلال على فِعْلِه ـ سبحانه فقال: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ ليُعْلَم أنَّ الدليلَ على إثباته ـ سبحانه ـ ما دلَّتْ عليه أفعالُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾.

لا يمكنني أن أُخْبِرَكُم إلا بما أخبرني به ربي فَمَا عَرَّفَني عَرَّفْتُ، وما ستره عليَّ وَقفْتُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾.

جَعَلَ الأرضَ مستقراً لأبدانهم، وجعل أبدانَهم مستقراً لعبادته، وقلوبهم مستقراً لمعرفته، وأرواحَهم مستقراً لمحبته، وأسرارهم مستقراً لمشاهدته.

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾.

هيَّأَ لهم أسبابَ المعيشة، وكما نَظَرَ إليهم وَرَزَقَهم رَزَقَ دوابَّهم التي ينتفعون بها، وأَمَرَهُم أنْ يَتقَوا بما تَصِلُ إليه أيديهم، وأنْ ينتفِعُوا ـ ما أمكنهم ـ بأَنْعَامِهِمِ لِيَكْمُلَ لديهم إنْعَامُهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾.

إذ خَلَقْنا آدمَ من الترابِ، وإذ أَخرَجْناكم من صُلْبه. . . فقد خَلَقْنَاكم من الترابِ أيضاً. والأجسادُ قوالِبُ والأرواحُ ودائعُ، والقوالب نسبتها التُّربة، والودائع صفتها القُرْبة، فالقوالب يزِّينها بأفضاله، والودائع يحييها بكشف جلاله ولطف جماله. وللقوالب اليوم اعتكافٌ على بِساطِ عبادته، وللودائع اتصافٌ بدوام معرفته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾.

أمره بجهره، وأعماه عن شهود ذلك بِسِره، فما نَجَعَ فيه كلامهُ، وما انتفعَ بما حذَّره من انتقامه، ويَسَّرَ له من إنعامه.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾.

دعاهم موسى إلى الله، وخاطَبَهُم في حديث الآخرة من تبشيرٍ بثواب، وإنذارٍ بعذاب، فلم يُجِيبُوا إلَّا من حيث الدنيا، وما زادهم تذكيراً إلا ازدادوا غفلة وجهالة.

كذلك صفةُ مَنْ وَسَمه الحقُّ بالإبعاد، لم يكن له عرفان، ولا بما يقال إيمان، ولا يتأسَّفُ على ما يفوته، ولا تصديق له بحقيقة ما هو بصدده.

قوله: ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ...﴾ تأهَّبوا لِمُنَاصَبةِ الحقيقة؛ وتَشَمَّرُوا للمُخَالَفة، فَقَصَمَتْهُم المشيئةُ؛ وكَبَسَتْهُم القدرة، وكما قيل:

استقبلني وسيفُه مسلول وقال لي واحدنا معذول

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾.

فكان في ذلك اليوم افتضاحهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ﴾.

كادَ فرعونَ فَكِيد لَه، وأراد فارتدَّ إليه، ودعا للاستعداد فأُذِلَّ وأُذِيقَ البأسَ. ولم يَدَعْ موسى شيئاً من الوعظ والرِّفْق، ولم يغادِرْ فرعونَ شيئاً من البَلَهِ والحُمْق، ولكن: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾.

اعلموا أنه لا طاقةَ لأحدٍ مع الله ـ سبحانه ـ إذا عذَّبه، فحملوا مقالتَه على الإفك، ورَمَوْا معجزته بالسحر فقالوا: ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾.

هما في دعواهما كاذبان يَقْصِدان إلى إخراجكم من بَلَدِكم، والتشويشِ عليكم في مُعْتَقَدِكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾.

أظهروا من أنفسهم التجلُّدَ ظنًّا بأنَّ النصرةَ لهم، وإخلاداً إلى ما كان السَّحَرَةُ يُسَوِّلُون لهم، فخَيَّروا موسى في الابتداء بناءً على ما توهموا من الإلقاء، فقال لهم موسى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾.

قال لهم موسى بل ألقوا أنتم، وليس ذلك إذناً لهم في السحر، ولكن أراد الحقُّ إظهارَ تمويههم، فلمَّا خَيَّلوا للناس بإلقاءِ الحِبال أنها حياتٌ ابتَلَعَتْ عصا موسى جُمْلَةَ ما صَنَعُوا، وتحقَّقَ السَّحَرة أنَّ ذلك أمرٌ سماويٌّ حيث تلاشى عين ما كان معهم من أوقار الحِبَال، وصار الثعبانُ عَصاً كما كان، فسجدوا لله مؤمنين، وانقلب فرعونُ وقومُه خائبين، وتَوَعَّدَهم بالقتل والصَّلْبِ، وفنونٍ من العذابِ الصعب، وبعدما كانوا يقْسِمُون بِعِزَّةِ فرعونَ صاروا يَحْلِفُونَ بالله.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾.

أي بالله الذي فطرنا إنَّا لن نُؤْثِرَكَ على ما جاءَنا من البينات. ولما طلعت في أسرارهم شموسُ العرفان، وانبسطت عليهم أنوار العناية أبصروا الحقَّ سبحانه بأسرارهم؛ فنطقوا ببيان التصديق، وسجدوا بقلوبهم لمشهودهم، ولم يحتشموا مما توعدهم به من العقوبة، ورأوا ذلك من الله فاستعذبوا البلاء، وتحملوا اللأواء[1]، فكانوا في الغَدَاةِ كُفَّاراً سَحَرَةً، وأَمْسَوْا أخياراً بَرَرَةً.

قوله: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ...﴾ عَلِمُوا أَنَّ البلاءَ في الدنيا يَنْقَضي - وإنْ تمادى، وينتهي وإن تناهى.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

أَهمُّ الأشياء - على مَنْ عرَفه - مغفرتُه لخطاياه؛ فهذا آدمُ - عليه السلام - لما استكشف من حاله، وحلَّ به ما حلَّ قال: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ [القصص: ١٦] وقال لنبينا - ﷺ - ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]. وقال ﷺ: «إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة»[2]. ومَنَّ عليه بقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[3] [الفتح: ٢٠٠].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾.

لما عَبَرَ موسى ببني إسرائيل البحر، وقرب منه فرعون، ورأى البحرَ منفلقاً والطريقَ فيه يَبَساً عَيَّرَ قَوْمَه بتلبيسه فقال: «إنه بحشمتي انفلق، فأنا ربُّكم الأعلى!» وحصل - كما في القصة - من دخوله بعَسْكَرِه البحرَ حتى دخل آخرهم، وهمَّ أن

---

(١) اللأواء: المشقة والشدة والقحط والعلة. (اللسان ١٥/ ٢٣٨).

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح (الذكر ٤١)، وأبو داود في (السنن ١٥١٥)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٤/ ٢١١، ٢٦٠)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٧/ ٥٢)، والطبراني في (المعجم الكبير ١/ ٢٨٠)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٢٣٢٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥/ ٥٧، ٨/ ٢٩٩، ٥١٧، ٩/ ٥٩، ٦٢٨)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٢/ ٤٣)، والبغوي في (شرح السنة ٦/ ١٨٠)، والسيوطي في (الدر المنثور ٦/ ٦٣)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ١٠١)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٠٧).

(٣) الآيات من ٧٤ حتى ٧٦ لم ترد.

يخرج أوَّلُهم، فأمر اللَّهُ البحرَ حتى التطمت أمواجه فغرقوا بجملتهم، وآمن فرعون لما ظهر له اليأسُ، ولم ينفعه إقراره، وكان ينفعه لو لم يكن إصرارُه، وقد أدركته الشقاوةُ التي سَبَقَتْ له من التقدير.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾.

يُذَكِّرُهم آلاءه، ويعدُّ عليهم نعماءه، ويأمرهم بالتزام الطاعة والقيام بالشكر لِمَا أسبغ عليهم من فنون النِّعم، ثم يذكرهم ما مَنَّ به على أسلافهم من إنزال المنِّ والسلوى، وضروب المِحَنِ وفنون البلوى.

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ﴾.

الطيبُ ما كان حلالاً. ويقال الطيب من الرزق ما لا يَعْصِي اللَّهَ مُكْتَسِبهُ. ويقال الطيب من الرزق ما يكون على مشاهدة الرزاق. ويقال الطيب من الرزق ما حَصَلَ منه الشكرُ. ويقال الطيب من الرزق ما يأخذه العبدُ من اللَّهِ؛ فما لأهل الجنةِ مُؤَجَّلٌ في عقباهم جهراً، معجّلٌ لأصفيائه في دنياهم سِرّاً، قال تعالى: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ [الذاريات: ١٦].

والأرزاقُ مختلفةٌ؛ فلأقوام حظوظُ النفوس ولآخرين حقوقُ القلوب، ولأقوام شهودُ الأسرار؛ فرزق النفوس التوفيق، ورزق القلوب التصديق، ورزق الأرواح التحقيق.

قوله: ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ﴾: بمجاوزة الحلالِ إلى الحرام.

ويقال: **﴿لا تطغوا فيه﴾**: بالزيادة على الكفاف[1] وما لا بُدَّ منه مما زاد على سدِّ الرمق.

ويقال: **﴿لا تطغوا فيه﴾**: بالأكل على الغفلة والنسيان.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾.

فيحل عليكم غضبي بالخذلانِ لمتابعة الزَّلَّة بعد الزَّلَّة.

ويقال فيحل عليكم غضبي لِفَقْدِكم التأسُّفَ على ما فاتكم.

ويقال بالرضا بما أنتم فيه من نقصان الحال.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾.

الغفَّار كثيرُ المغفرة؛ فَمِنْك التوبةُ عن زَلَّةٍ واحدةٍ ومنه المغفرة لذنوبٍ كثيرةٍ،

---

(١) الكفاف: من القوت: الذي على قدر نفقه لا فضل فيها ولا نقص. (اللسان ٩/٣٠٦).

ومنه السِّرِّيةُ التي لا اطلاع لأحدٍ غيره عليها وما للملائكة عليها اطلاع. وهو يغفر لِمَنْ عَمِلَ مثل عَمَلِكَ، وهو يغفر لِمنْ قَلْبُكَ مُرِيدٌ له بالخير والنعمة، وكما قالوا:

إني - على جَفَواتها - فبِرَبِّها وبكل مُتَّصِلٍ بها متوسِّلُ
وأُحِبُّها وأُحِبُّ منزلَها الذي نَزَلَتْ به وأُحِبُّ أهلَ المنزِلِ

قوله: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ﴾: فلا تَصِحُّ التوبةُ إلا لمن يكون مؤمناً.

وقوله هنا: ﴿وَءَامَنَ﴾: أي آمن في المآلِ كما هو مؤمِنٌ في الحال.

ويقال آمن بأنه ليست نجاته بتوبته وبإيمانه وطاعته، إنما نجاتُه برحمته.

ويقال ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾: مِنَ الزَّلَّة ﴿وَءَامَنَ﴾: فلم يَرَ أعماله من نَفْسه، وآمن بأن جميع الحوادثِ من الحقِّ - سبحانه - ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾: فلم يُخِلَّ بالفرائض ثم اهتدى للسُّنَّةِ والجماعة.

ويقال ﴿ثُمَّ﴾: للتراخي؛ أي آمن في الحال «ثم» اهتدى في المآل.

ويقال مَنْ سَمِعَ منه ﴿وَإِنِّى﴾ لا يقول بعد ذلك: «إنِّي».

ويقال من شَغَلِه سماعُ قوله: ﴿وَإِنِّى﴾ اسْتُهْلِكَ في استيلاءِ ما غَلَبَ عليه من ضياء القربة، فإذا جاءت ﴿لَغَفَّارٌ﴾ صار فيه بعين المحو، ولم يتعلق بذنوب أصحابه وأقاربه وكل من يعتني بشأنه.

ويقال ﴿إني لغفار﴾ كثير المغفرة لمن تاب مرةً؛ فيغفر له أنواعاً من ذنوبه التي لم يَتُبْ منها سِرِّها وجَهْرِها، صغيرِها وكبيرِها، وما يتذكر منها وما لا يتذكر. ولا ينبغي أنْ يقولَ: علمت «عملاً صالحاً»: بل يلاحظُ عَمَلَه بعينِ الاستصغارِ، وحالته بغير الاستقرار.

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾: أي اهتدى إلينا بنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾.

أَخرَجَهُمْ مع نَفْسِه لمَّا استصحبهم، ثم تقدَّمهم بخطواتٍ فتأخروا عنه، فقيل له في ذلك مراعاةً لحقِّ صحبتهم.

ويقال قومٌ يُعاتَبون لتأخرهم وآخرون لتقدمهم.. فشتان ما هما!

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾.

أي عَجِلْتُ إليكَ شوقاً إليك، فاستخرج منه هذا الخطاب، ولولا أنه استنطقه لما أخبر به وموسى.

قوله: ﴿هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ أي ما خَلَّفْتُهم لتضييعي أيامي، ولكني عَجِلْتُ إليك

لترضى. قال: يا موسى إنَّ رضائي في أن تكون مَعهم وألّا تَسْبِقَهم، فكونُكَ مع الضعفاءِ الذين استصحبتَهم ـ في معاني حصول رضائي ـ أبلغ مِنْ تَقَدُّمِكَ عليهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾.

فَتَنَّا قومَك فَضَلُّوا وعبدوا العِجْلَ؛ فأخبر الحقُّ ـ سبحانه ـ أنَّ ذلك منه تقدير، وفي هذا تكذيبٌ لِمَنْ جَحَدَ القولَ بالقَدَرِ.

ويقال طَلَبَ موسى ـ عليه السلام ـ رِضَاءَ الحق، وقدَّر الحقُّ ـ سبحانه ـ فتنةَ قَوْمِه فقال: **﴿إنا قد فتنا قومك من بعدك﴾**، ثم الحُكْمُ لله، ولم يكن بُدٌّ لموسى عليه السلام من الرضاء بقضاء الله ـ فلا اعتراضَ على الله ـ ومِنَ العلم بِحقِّ اللّهِ في أنْ يفعلَ ما يشاء، وأنشدوا:

أُريد وِصَالَه ويريد هجري ... فأتركُ ما أُريد لما يُريد

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾.

بدعائه إياهم إلى عبادة العجل، وهو نوع من التعزير، وحصل ما حصل، وظهر ما ظهر من (...)[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾.

ورجع نبيُّنا ـ ﷺ ـ من المعراج بنعت البسط، وجاء بالنجوى لأصحابه فيما أوجب الله عليهم من الصلاة، وأكرمهم به من القربة بالزلفة.. فشتان ما هما!

ورجع موسى إلى قومه بوصف الغضب والأسف، وخاطبهم ببيان العتاب: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾.

ظنوا بنبيِّهم ظنَّ السَّوْءِ في خلفه الوعد، فَلَحِقَهُمْ شؤمُ ذلك حتى زاغوا عن العهد، وأشركوا في العقد.. وكذلك يكون الأمر إذا لم يفِ المرءُ بعقده، فإنه ينخرط في هذا السِّلْكِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ﴾.

قالوا لم نكن في ابتداءِ حالِنا قاصدين إلى ما حَصَلَ مِنَّا، ولا عالمين بما آلَتْ إليه عاقبةُ حالِنَا، وإن الذي حملنا من حُلِيِّ القبط صاغَ السامريُّ منه العجلَ.. وكذلك الحرامُ من حطام الدنيا لا يخلو من شؤمِ أثره. فلقد كانت الغنيمة وأموال المشركين

---

(١) بياض في الأصل.

حراماً عليهم، فاستعاروا الحليَّ من القبط، وآل إليهم ما كان في أيديهم من الملْكِ، فكان سبب عبادتهم العِجْل.. كذلك مَنْ انهمك في طلب الدنيا من غير وجهِ حلالٍ يكون على خَطَرٍ من رِقَّةِ دِينهِ، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾.

يقال إنهم لمَّا مَرُّوا على قوم يعبدون أصناماً لهم قالوا لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، وكان ذلك الصنم على صورة العجل فكان مَيْلُهم إلى عبادته مُسْتَكِنًّا في قلوبهم، فصاغ السامريُّ العجل على تلك الصورة. وفي هذه إشارة إلى أن خفايا الهوى إذا استكنَّت في القلب فَمَا لم يُنقَش ذلك الشرك بمنقاش المنازلة يُخْشَى أن يَلْقَى صاحبهُ (...)[1].

ويقال إن موسى ـ عليه السلام ـ خرج من بين أمته أربعين يوماً فَرَضِيَ قومهُ بعبادة العجل، ونبيُّنا ـ عليه السلام ـ خرج من بين أمته وأتت سنون كثيرة ولو ذَكَرَ واحدٌ عند مَنْ أخلص مِنْ أمته في التوحيدِ حديثاً في التشبيه لعدوا ذلك منه كبيرةً ليس له منها مَخْلَصٌ.

كذلك فإنهم استحفظوا كتابهم فبدَّلوه تبديلاً، بينما ضَمِنَ الحقُّ ـ سبحانه ـ إعزازَ هذا الكتاب بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقال: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الفتح: ٢٨].

قوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا...﴾ بيّنَ أَنَّ مَنْ لا قول له لا يتكلم، ومن لا يملك الضر والنفع لا يستحق العبادة، وفيه رَدٌّ على مَنْ لم يُثْبِتْ له في الأَزَلِ القولَ، ولم يَصِفْه بالقدرة على الخير والشر:

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾.

إنهم لم يحفظوا أمر موسى وهو فوق هارون، والإشارة في هذا أن من لم يحفظ أمر مَنْ هو أعلى رتبةً كيف يحفظ أمر من هو أدنى منزلةً؟ فَمَنْ تَرَكَ أَمْرَ الحقّ.. كيف يُطْمَعُ فيه أن يحترم الشيوخَ وأكلَ الناس؟ لهذا قيل: لا حُرْمَةَ لفاسق؛ لأنه إذا تَرَكَ حقَّ الحقِّ فمتى يحفظ حَقَّ الخَلْقِ؟

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾.

(١) بياض في الأصل.

كان ذلك تَعَلُّلاً منهم بالباطل، فقالوا إنهم كانوا عازمين على تَرْكِ عبادة العجل؛ إذ به يتحققون أن موسى عليه السلام دعاهم إلى التوحيدِ وتَرْكِ عبادةِ غير اللَّهِ.. ولكنْ كلُّ مُتَعلِّلٍ يَسْتَنِدُ إلى ما يحتج به من الباطل.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾.

ضاق قلبُ موسى ـ عليه السلام ـ لمَّا شاهد من قومه بالمعاينة عبادة العجل. ولقد كان سمع من الله أَنَّ السامريّ أظلّهم حين قال: **﴿إنَّا قد فتنا قومك﴾** [طه: ٨٥]، ولكن قديماً قيل: ليس الخبر كالعيان، فلمَّا عايَنَ ذلك ضاق قلبهُ، فكان يقول لأخيه ذلك فظهر منه ما ظهر، وقيل: مَنْ ضاق قلبُه اتسع لسانُه. ولما ظهر لموسى ـ عليه السلام ـ ما ظهر أخذ هارون يقابله بالرفق واللطف وحسن المداراة.. وكذلك الواجب في الصحبة لئلا يرتقي الأمرُ إلى الوحشة، فاستلطفه في الخطاب واستعطفه بقوله:

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾.

أنتَ أَمَرْتَني أَلّا أُفارِقَهم. وقد يُقال إن هارون لو قال لموسى: في الوقتِ الذي احتجْتَ أَنْ تَمْضِيَ إلى فرعون قلتَ: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤]، وقلت: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ﴾ [القصص: ٣٤]، وقلت حين مضيتَ إلى سماع كلام الحق: ﴿اخْلُفْنِى فِى قَوْمِى...﴾ [الأعراف: ١٤٢] فما اكتفيت بأَنْ لم تستصحبني. وخَلَّفْتَني! وقد عَلِمْتَ أني بريءُ الساحةِ مما فعلوا فأخذتَ بلحيتي وبرأسي... ألم ترضَ بما أنا فيه حتى تزيدني حُزْناً على حُزني؟!... لو قال ذلك لكان مَوْضِعَه، ولكنْ لِحلْمِه، ولِعلْمِه ـ بأنَّ ذلك كُلَّه حُكْمُ ربِّهم ـ فقد قابَلَ كلَّ شيءٍ بالرضا.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ﴾.

سأل موسى كلَّ واحدٍ منهم بنوعٍ آخر، وإن معاتبته مع قومه، ومطالبته لأخيه، وتَغَيُّرَه في نَفْسِه، واستيلاءَ الغضب عليهِ ـ لم يغيِّرْ التقدير، ولم يُؤَخِّرْ المحكوم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾.

عَلِمْتُ ما لم يعلمه بنو إسرائيل فرأيتُ جبريلَ، فَقَبَضْتُ الترابَ من موضع حافرِ دابته، وأُلْقِيَ في رَوْعي أن ذلك سببُ حياةِ العجل فطرحتُها في جوفه... هكذا زَيَّنَتْ لي نفسي فاتَّبَعْتُ هواها.

ثم كان هلاكُه. . لئلا يأمَنَ أحدٌ خفي مَكْرِ التقدير، ولا يركنَ إلى ما في الصورة من رِفْقٍ فَلَعَلَّه ـ في الحقيقة ـ يكون مكراً، ولقد أنشدوا:

فأَمِنتُه فأَتَاحَ لي من مَأْمَنِي مَكْراً، كذا مَنْ يَأْمَنُ الأحبابا

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾.

لم يَخْفَ على موسى ـ عليه السلام ـ تأثيرُ التقديرِ وانفرادُ الحقِّ بالإبداع، فلقد قال في خطابه مع الحق: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، ولكنه لم يدع ـ مع ذلك ـ بإحلال العقوبةِ بالسامري والأمر في بابه بما يستوجبه؛ ليُعْلَمَ أن الحُكمَ في الإِبداع والإِيجاد ـ وإنْ كان لله ـ فالمعاتبةُ والمطالبة تتوجهان على الخَلْقِ في مقتضى التكليف، وإجراءُ الحقِّ ما يُجْرِيه ليس حُجَّةً للعبد ولا عُذْراً له.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾.

كلُّ ما تَعَلَّقَ به القلبُ من دون الله يَنْسِفُه الحقُّ ـ سبحانه بمُحِبِّه ولهذا يُلْقي الأصنامَ غداً في النار مع الكفار، وليس له جُرْمٌ، ولا عليها تكليف، ولا لها عِلْمٌ ولا خبر. . وإنما هي جماداتٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾.

أي إلهكم الذي تجب عليكم عبادتُه بحقِّ أمره هو اللَّهُ الذي لا إله إلا هو، وهو بوصف الجلال، والذي لا يخفى عليه شيءٌ من المعلومات هو الله، وليس مِثْلَ الذي هو جماد لا يَعْلَمُ ولا يَقْدِرُ، ولا يحيا ولا يسمع ولا يبصر. ويمكنه أن يَسْحَقَ هذا الجماد ويحرقه.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾.

نعرِّفك أحوالَ الأولين والآخرين لئلا يَلْتَبِسَ عليكَ شيءٌ من طُرُقِهم؛ فتتأدبَ بآدابهم وتجتمعَ فيك مُتَفَرِّقَاتُ مناقِبهم. . ولكن اعلمْ أنّا لم نُبلِغْ أحداً مَبْلَغَكَ، ولم يكن لأحدٍ منّا مالَكَ؛ آتيناك من عندنا شَرَفاً وفخراً لم يشركك فيهما أحدٌ، وذكَّرْناك ما سَلَفَ لَكَ من العهد معنا، وجَدَّدْنا لك بينهم تخصيصنا إياك، وكريمَ إقبالِنا عليك.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾.

المُعْرِضُون عنه شركاءُ يحملون غداً وِزراً وثِقْلاً، أولئك بعُدُوا عن محلِّ الخصوصية، ولم يكن لهم خَطَرٌ في التحقيق؛ فعقوبتُهم لا تزيد على آلام نفوسِهم وإحراقِ أشباحهم، وأمّا أهل الخصوصية فلو غفلوا عنه ساعةً ونَسَوْه لحظةً لدَار ـ في

الحال ـ على رؤوسهم البلاءُ بحيث تتلاشى في جَهنّم عقوبةُ كلِّ أحدٍ (بالإضافة إلى هذه العقوبة)[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾.

قومٌ يومُ القيامة لهم مُؤجّل، وهو بعد النفخ في الصُّور على ما وَرَدَ في الكتاب وفي الخبر المأثور.

وللآخرين قيامةٌ مُعَجَّلةٌ؛ فيها محاسبة وعليهم فيها مطالبة، وهوانٌ حاضر وعذاب حاصل، فكما تَرِدُ على ظواهرِ قوم في الآخرة عقوباتٌ، تَرِدُ على سرائر آخرين عقوباتٌ في الحياة الحاضرة، والمعاملةُ مع كلِّ أحدٍ تخالف المعاملةَ مع صاحبه.

قوله: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ...﴾ مَنْ تَفرَّغَ لِعَدِّ الأوقاتِ والتمييز بين اختلاف الحالات فنوعٌ غيرُ مستوفٍ في بلائه، وأمره سهلٌ... ومَنْ كان يُرَادُ المعنى من حديثه لا يتفرغ إلى نعت الحال؛ فالأحوال تخبر عنه وهو لا يُسْأَلُ عن الخبر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾.

كما أنَّ في القيامةِ الموعودةِ تُغَيِّرُ الجبالُ عن أحوالِها فهي كالعِهْن المنفوش[٢] فكذلك في القيامة الموجودة... فلا يخبرك عنها إلا الأكابر الذين هم كالرواسي ثباتاً؛ فإنه يُدْخِلُ عليهم من الأحوال ما يمحقهم عن شواهدهم، ويأخذهم عن أقرانهم... كذا سُنَّته سبحانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾.

تنقطع الأوهام، وتقف الأفهام، وتنخنس العقول، وتندرِس العلومُ، وتتحير المعارفُ، ويتلاشى ما هو نَعْتُ الخَلْق، ويستولي سلطانُ الحقيقة.. فعند ذلك لا عينٌ ولا أَثَرٌ، ولا رسم ولا طلل ولا غَبَرٌ، في الحضور خَرَسٌ، وعلى البِساط فَنَاءٌ، وللرسوم امتحاءٌ، وإنما الصحة على الثبات.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾.

---

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق. والآية (١٠١) لم ترد.
(٢) العهن: الصوف المصبوغ ألواناً. (اللسان ١٣/ ٢٩٧ مادة: عهن).

دليلُ الخطابِ أَنَّ مَنْ أَذِنَ له في الشفاعةِ تنفعه الشفاعةُ، وإذا قُبِلَتْ شفاعة أحدٍ بإذن الرحمن فَمِنَ المُحالِ أَلَّا تُقْبَلَ شفاعةُ الرسولِ ـ ﷺ ـ وهو أفضل الكافة، وشفاعةُ الأكابر من صفوته مقبولةٌ في الأصاغر في المُؤجَلِّ وفي المُعَجّل. والحقُّ سبحانه يُشَفِّعُ الشيوخَ في مريديهم اليوم.

ويقال شفاعة الرسول عليه السلام غداً للمطيعين بزيادة الدرجة، وللعاصين بغفران الزَّلَّة، كذلك شفاعة الشيوخ ـ اليوم ـ للمريدين على قسمين: للذين هم أصحاب السلوك فبزيادة التحقيق والتوفيق، وللذين هم أصحاب التَّخَبُّطِ والغِرَّة فبالتجاوز عنهم، وعلى هذا يُحْمَلُ قولُ قائلهم:

إِذَا مَرِضْتُم أَتَيْنَاكُم نَعودُكُم   وتُذْنِبُون فنأتيكم ونعتَذِرُ!

وحكاياتُ السَّلفِ من الشيوخ مع مريديهم في أوقات فترتهم معروفة، وهي مُشَاكِلةٌ لهذه الجملة، وإن شفاعتَهم لا تكون إلا بتعريفٍ من قِبَلِ الله في الباطن، ويكون ذلك أدباً لهم في ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾.

لا يخفى على الحق شيءٌ مما مضى من أحوالهم ولا مِنْ آتيها، ولا يحيطون به عِلماً. والكناية في قوله: «به» يحتمل أن يعود إلى ما بين أيديهم وما خلفهم، ويحتمل أن يعود إلى الحقِّ ـ سبحانه ـ، وهو طريقة السَّلَف؛ يقولون: يعلم الخلْقَ ولا يحيط به العلم، كما قالوا: إنه يَرَى ولا يُدْرَك.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾.

ذلَّتْ له الرقاب واستسلم لحُكْمِه الخلْقُ، وخَضَعَت له الجبابرةُ، ومَنْ اقترف الظلمَ بقي في ظُلُماته، وعلى حسب ذلك في الزيادة والنقصان.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾.

العمل الصالح ما يصلح للقبول، وفاعِلُه هو المتجرِّدُ عن الآفات الواقفة لحقيقة الأمر.

ويقال العمل الصالح ما لم يستعجل عليه صاحبُه أجراً.

قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: أي في المآل كما هو مؤمن في الحال.

ويقال هو مؤمنٌ مصدِّق لربِّه أنه لا يعطي المؤمنَ لأَجْلِ إيمانه شيئاً، ولكن بفضله، وإيمانُه أمارةٌ لذلك لا موجِبٌ له.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾.

أتبَعْنا دليلاً بعد دليل، وبعثنا رسولاً بعد رسول، وحَذَّرْناهم بوجوهٍ من التعريفات، وإظهارِ كثيرٍ من الآيات.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾.

تعالى اللَّهُ في كبريائه؛ وكبرياؤه: سناؤه وعُلاه ومَجْدُه ورِفْعَتُه وعظَمَتُه، كل ذلك بمعنًى واحد، وهو استحقاقه لأوصاف الجلال والتعظيم.

و ﴿ٱلْمَلِكُ﴾: مبالغةٌ من المالك، وحقيقة الملك القدرة على الإيجاد، والانفراد بذلك.

و ﴿ٱلْحَقُّ﴾: في وصفه ـ سبحانه ـ بمعنى الموجود، ومنه قوله عليه السلام: «العين حق»[1] أي موجود.

ويكون الحق بمعنى ذي الحقّ، ويكون بمعنى مُحِقّ الحق.. كل ذلك صحيح.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾.

كان يتعجل بالتلقف من جبريل مخافةَ النسيان، فأَمَرَه بالتثبت في التلقين، وأَمَّنَه من طوارِق النسيان، وعرَّفه أن الذي يحفظ عليه ذلك هو الله.

والآية تشير إلى طَرَفٍ من الاحتياط في القضاء بالظواهر قبل عرضها على الأصول، ثم إنْ لم يوجد ما يُوجِبُ بالتحقيق أجراه على مقتضى العموم بحقِّ اللفظ، بخلاف قول أهل التوقف.

---

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٧/ ١٧١ ـ ٢١٤)، ومسلم في الصحيح (السلام ٤١، ٤٢)، والطبراني في (المعجم الكبير ب ٣٦)، والترمذي في (السنن ٢٠٦١)، وأبو داود في السنن (الطب ب١٥)، وابن ماجه في ـ (السنن ٣٥٠٦، ٣٥٠٧)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٢٨٩، ٣١٩، ٤٢٠، ٤٨٧، ٤/ ٦٧، ٥/ ٣٧٩)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٩/ ٣٥١)، وعبد الرزاق في (المصنف ١٩٧٧٨)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٤٤٣٢)، وابن أبي شيبة في (المصنف ٧/ ٤١٧)، والطحاوي في (مشكل الآثار ٤/ ٧٥)، وابن حجر في (فتح الباري ١٠/ ٢٠٣ ـ ٢٣٣ ـ ٣٧٩)، وابن الجوزي في (زاد المسير ٨/ ٣٤٤)، والدولابي في (الكنى والأسماء ٢/ ٤١)، والسيوطي في (الدر المنثور ٦/ ٢٥٨)، والكمال في (الأحكام النبوية في الصناعة الطبية ١/ ١٥٤ ـ ١٥٦)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٧٦٥٦، ١٧٦٥٧، ١٧٦٥٨ ـ ١٧٦٦٠)، وصاحب (الأذكار النووية ٢٨٣)، وابن كثير في (التفسير ١/ ٢٠٩، ٨/ ٢٢٨ ـ ٢٣٣)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٢/ ٩ ـ ٢٥١)، وأبو نعيم في (تاريخ أصفهان ١/ ٩١)، والألباني في (السلسلة الصحيحة ١٢٤٨)، والذهبي في (الطب النبوي ١٣٤، ١٣٥) والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ١١٤)، والشوكاني في (الفوائد المجموعة ٥٦٣)، والعجلوني في (كشف الخفاء ٢/ ٩٩).

فالآية تشير إلى التثبت في الأمور وضرورة التمكث واللبث قصداً للاحتياط.

قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾: فإذا كان أَعْلَمُ البَشَرِ، وسيِّدُ العرب والعجم، ومَنْ شهد له الحقُّ بخصائص العلم حين قال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣] يقال له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ - عُلِمَ أَنَّ ما يخصُّ به الحقُّ أولياءَه من لطائف العلوم لا حَصْرَ له.

ويقال أحاله على نفسه في استزادة العلم. وموسى عليه السلام أحاله على الخضر حتى قال له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦] فشتان بين عبدٍ أحيل على عبدٍ في ذلك ثم قيل له: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢] ثم بعد كل ذلك التلطف قال له في آخر الأمر: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ...﴾ [الكهف: ٧٨] وبين عبدٍ أَمَرَه عند استزادة العلم بأن يطلبه من قِبَلِ ربه فقال: قُلْ يا محمد: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾.

ويقال لما قال عليه السلام: «أنا أعلمكم بالله وأخشاكم له»(1)، قال له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ لِيُعْلَمَ أَنَّ أشرف خِصالِ العبدِ الوقوفُ في محلِّ الافتقار، والاتصاف بنعت الدعاء دون الوقوف في مَعْرِض الدعوى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾.

لم تجد له قوةً بالكمال، وانكماشاً في مراعاة الأمر حتى وقعت عليه سِمةُ العصيان بقوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ [طه: ١٢١].

ويقال: ﴿**لم نَجِدْ له عزماً**﴾: على الإصرار على المخالفة.

ويقال لم نجد له عزماً في القصد على الخلاف، وإنْ كان.. فذلك بمقتضى النسيان، قال تعالى: ﴿فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ على خلاف الأمر، وإنْ كان منه اتباعٌ لبعض مطالبات الأمر.

ويقال شرح قصة آدم - عليه السلام - لأولاده على حجة التسكين لقلوبهم حتى لا يقنطوا من رحمة الله؛ فإن آدم عليه السلام وقع عليه هذا الرقم، واستقبلته هذه الخطيئة، وقوله تعالى: ﴿فَنَسِىَ﴾ من النسيان، ولم يكن في وقته النسيان مرفوعاً عن الناس.

ويقال عاتبه بقوله: ﴿فَنَسِىَ﴾ ثم أظهر عُذْرَه فقال: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾.

---

(١) للحديث رواية أخرى: «والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم» أخرجه ابن حجر في (فتح الباري ١٠/ ٥١٤).

ورواية تقول: «والله إني لأعلمكم بالله وأخشاكم له» أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٦/ ١٢٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾.

السجود نوع من التواضع وإكبار القَدْر، ولم تتقدم من آدم عليه السلام طاعة ولا عبادة فَخَلَقه الحقُّ بيده، ورَفَعَ شأنه بعدما علَّمه، وحُمِلَ إلى الجنة، وأمَرَ الملائكةَ في كل سماءٍ أن يسجدوا له تكريماً له على الابتلاء، واختباراً لهم. فسجدوا بأجمعهم، وامتنع إبليسُ من بينهم، فَلَقِيَ من الهوان ما سبق له في حكم التقدير. والعَجَبُ ممن يخفى عليه أنَّ مثل هذا يجري من دون إرادة الحقِّ ومشيئته وهو عالِمٌ بأنه كذلك يجري، واعتبروا الحكمةَ في أفعاله وأحكامه، ويزعمون أنه علم ما سيكون من حال إبليس وذريته، وكثرة مخالفات أولاد آدم، وكيف أن الشيطان يوسوس لهم... ثم يقولون إن الحقَّ سبحانه أراد خلاف ما عَلِمَ، وأجرى في سلطانه ما يكرهه وهو عالِمٌ، وكان عالماً بما سيكون! ثم خلق إبليس ومكَّنه من هذه المعاصي مع إرادته ألا يكون ذلك! ويدَّعُون حُسْنَ ذلك في الفعل اعتباراً إنما هو الحكمة... فسبحان مَنْ أَعْمَى بصائِرَهم، وعَمَّى حقيقةَ التوحيد عليهم!

قوله جلّ ذكره: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾.

وما كان ينفعهم النُّصْحُ وقد أراد بهم ما حذَّرَهم، وعَلِم أنهم سيلقون ما خوَّفهم به.

قوله: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾: علم أنهم سيلقون ذلك الشقاء؛ وأَمَّا إنَّه أضاف الشقاءَ إلى آدم وحدَه ـ وكلاهما لحقَهَ شقاءُ الدنيا ـ فذلك لمضارعة رؤوس الآي، أو لأن التعبَ على الرجال دون النساء. ومَنْ أصغى إلى قول عدوِّه فإنه يتجرَّعُ النَّدَمَ ثم لا ينفعه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾.

لا تصديقَ أتمُّ من تصديقِ آدم، ولا وعظَ أشدُّ رحمةً من الله، ولا يقينَ أقوى من يقينه.. ولكن ما قاسى آدمُ الشقاءَ قبل ذلك، فلمَّا استقبله الأمرُ وذاق ما خُوِّف به من العناءِ والكدِّ نَدِمَ وأطال البكاء، ولكن بعد إبرام التقدير.

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ أُوثِرَ بكل وجه؛ فلم يعرف قَدْرَ العافيةِ والسلامةِ، إلى أن جرى ما هو محكومٌ به من سابقِ القسمة.

ويقال تنعَّمَ آدمُ في الجنة ولم يعرف قدر ذلك إلى حين استولى في الدنيا عليه الجوعُ والعطشُ، والبلاء من كل (...)[1].

وكان آدم عليه السلام إذا تجدَّد له نوعٌ من البلاء أخذ في البكاء، وجبريل عليه

---

(١) بياض في الأصل.

السلام ـ يأتي ويقول: ربُّك يُقرِئكُ السلامَ ويقول: لِمَ تبكي؟ فكان يُذَكِّر جبريلَ عليه السلام وهو يقول: أهذا الذي قُلْتَ: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾.. ! وغير هذا من وجوه الضمان والأمن؟!

قوله جلّ ذكره: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾.

وسوس إليه الشيطان وكان الحقُّ يعلم ذلك ولم يذكُرْ آدمُ في الحال أن هذا من نزعات مَنْ قال له ـ سبحانه ـ: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ﴾ [طه: ١١٧].

ويقال: لو عَمَّى على إبليس تلك الشجرة حتى لم يعرفها بعينها، ولو لم يكن (. . .)[1] حتى دلَّه على تلك الشجرة إيش الذي كان يمنعه منه إلا أَنَّ الحُكمَ منه بذلك سَبَقَ، والإرادةَ به تعلَّقت؟

ويقال إن الشيطان ظهر لآدم عليه السلام بعد ذلك فقال له: يا شقيُّ، فعلتَ وصنعتَ.. !

فقال إبليس لآدم: إنْ كنتُ شيطانَك فَمَنْ كان شيطاني؟

ويقال سُمِّي الشيطان شيطاناً لبعده عن طاعة الله، فكلُّ بعيدٍ عن طاعة الله يُبْعِدُ الناسَ عن طاعة الله فهو شيطان، ولذلك يقال: شياطين الإِنْسِ، وشياطين الإِنْسِ شرٌّ من شياطين الجن.

ويقال لما طمع آدم في البقاء خالداً وَجَدَ الشيطان سبيلاً إليه بوسوسَتِه.

والناسُ تكلموا في الشجرة: ما كانت؟ والصحيحُ أَنْ يقالَ إنها كانت شجرة المحنة.

ويقال لو لم تُخْلَقْ في الجنة تلك الشجرةُ لَمَا كان في الجنة نقصانٌ في رتبتها.

ويقال لولا أنه أراد لآدم ما كان لطالت تلك الشجرة حتى ما كانت لِتَصِلَ إليها يَدُه، ولكنه ـ كما في القصة ـ كانت لا تصل إلى أوراقها يده ـ بعد ما أكل منها ـ حينما أراد أَنْ يأخذَ منها لِيَسْتُرَ عورتَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾.

لمَّا ارتكبا المنهيَّ عنه ظهر ما يُسْتَحْيَي مِنْ ظهوره، ولكنَّ اللَّهَ ـ سبحانه ـ أَلْطَفَ معهما في هذه الحالة بقوله: فَبَدَتْ لهما سوآتهما، ولم يَقُلْ ـ مُطْلَقاً ـ فبدت سَوْءَتُهما؛ أي أنه لم يُطْلِع على سوءتهما غيرَهما.

ويقال لَمَّا تجرَّدَا عن لِباس التقوى تناثر عنهما لباسهما الظاهر.

---

(١) بياض في الأصل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾.

أولُ الحِرَفِ والصناعات ـ على مقتضى هذا ـ الخياطةُ، وخياطةُ الرِّقاع بعضها على بعض للفقراء ميراثٌ من أبينا آدم ـ عليه السلام.

ويقال كان آدمُ ـ عليه السلام ـ قد أصبح وعليه من حُلَلِ الجنة وفنونِ اللِّباس ما اللَّهُ به أعلمُ، ثم لم يُمسِ حتى كان يخصف على نفسه من ورق الجنة، وهكذا كان في الابتداء ما هو موروثٌ في أولاده من هناء بعده بلاء.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾: [الأعراف: ٢٢] عند ذلك وقعت عليهما الخَجْلةُ لمَّا وَرَدَ عليهما خطاب الحقِّ: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا . . . عَن﴾ [الأعراف: ٢٢] ولهذا قيل: كفى للمُقَصِّر الحياء يوم اللقاء.

قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا . . .﴾: [الأعراف: ٢٣] لم يتكلما بلسان الحجة فقالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]، ولم يقولا: بظلمنا صرنا من الخاسرين، بل قالا: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] ليُعْلَم أَنَّ المدارَ على حُكْمِ الربِّ لا على جُرْمِ الخَلْق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾.

لَمَّا وَقَعَتْ عليه سِمَةُ العصيان ـ وهو أَوَّلُ البشرِ ـ كان في ذكر هذا تنفيسٌ لأولاده؛ أن تجري عليهم زَلَّةٌ وهم بوصف الغيبة في حين الفترة.

ويقال كانت تلك الأكلةُ شيئاً واحداً، ولكن قصتها يحفظها ويرددها الصبيانُ إلى يومِ القيامة.

وعصى آدم ربَّه ليُعْلَم أن عِظَمَ الذنوبِ لمخالفةِ الآمِر وعِظَمِ قَدْرِه. . لا لكثرة المخالفة في نفسها.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾.

أخبر أنه بعدما عصى، وبعد كلِّ ما فَعَلَه اجتباه ربُّه؛ فالذي اصطفاه أولاً بلا عِلَّة اجتباه ثانياً بعد الزَّلَّة، فَتَابَ عليه، وغَفَر ذنبَه، ﴿وَهَدَىٰ﴾: أي هداه إليه حتى اعتذر واستغفر.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾.

أوقع العداوة بين آدم وإبليس والحية، وقد توالت المحنُ على آدم وحواء بعد خروجهما من الجنة بسمة العصيان، ومفارقة الجنة، ودخول الدنيا، وعداوة الشيطان، والابتلاء بالشهوات. ثم قال:

﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ . . .﴾ وتَرَكَ هواه، ولم يعمل بوسوسة العدوّ فله كُلُّ خير، ولا يلحقه ضَيْر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾.

الكافر إذا أعرض عن ذكره بالكلية فله المعيشة الضنك في الدنيا، وفي القبر، وفي النار، وبالقلب من حيث وحشة الكفر، وبالوقتِ من حيث انغلاق الأمور.

ويقال مَنْ أعرض عن الانخراط في قضايا الوفاق انثالت عليه فنون الخذلان، ومن أعرض عن استدامة ذكره ـ سبحانه ـ بالقلب توالت عليه من تفرقة القلب ما يسلب عنه كلَّ رَوْحٍ.

ومَنْ أعرض عن الاستئناس بذكره انفتحت عليه وساوسُ الشيطان وهواجسُ النَّفس بما يوجِب له وحشةَ الضمير، وانسداد أبواب الراحة والبسط.

ويقال مَنْ أعرض عن ذِكْرِ الله في الخلوةِ قَيَّضَ اللَّهُ له في الظاهر من القرينِ السوءِ ما توجِبُ رؤيتُه له قَبْضَ القلوبِ واستيلاءَ الوحشة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾.

في الخبر: «مَنْ كان بحالةٍ لَقِيَ اللَّهِ بها» فَمَنْ كان في الدنيا أعمى القلب يُحْشَرُ على حالته، ومَنْ يَعِشْ على جهلٍ يحشر على جهلٍ، ولذا يقولون: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾؟ [يس: ٥٢] إلى أَنْ تصيرَ معارفُهم ضرورية.

وكما يَتْرُكُون ـ اليومَ ـ التَدبُّرَ في آياتِه يُتْرَكُون غداً في العقوبة من غير رحمةٍ على ضعفِ حالاتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

جَرَتْ سُنَّتُه بأَنْ يُجازِيَ كُلاً بما يليق بحاله، فما أسلفه لنفسه سيلقى غِبَّه؛ على الخير خيراً، وعلى الشرِّ شرّاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾.

أي أفلا ينظرون فيتفكرون؟ ثم إذا استبصروا أفلا يعتبرون؟ وإذا اعتبروا أفلا يزدجرون؟ أم على وجوههم ـ في ميادين غَفَلاتِهم يركضون، وعن سوءِ معاملاتهم لا يرجعون؟ أَلا ساء ما يعملون!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾.

لولا أَنَّ كلمةَ اللَّهِ سَبَقَتْ بتأخير العقوبة عن هذه الأمة، وأنه لا يستأصلهم لأنَّ

جماعةً من الأولياء في أصلابهم لعَجَلَ عقوبتَهم، ولكن. . كما ذَكَرَ من الأحوال أمهلهم مدةً معلومة، ولكنه لم يهملهم أصلاً.

وإذا كانت الكلمةُ بالسعادة لقومٍ والشقاوة لقوم قد سبقت، والعلمُ بالمحفوظ بجميع ما هو كائن قد جرى ـ فالسعيُ والجهدُ، والانكماشُ والجدُّ. . متى تنفع؟ لكنه من القسمة أيضاً ما ظهر.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾.

سماعُ الأذى يوجِب المشقة، فأزال عنه ما كان لَحِقَه من المشقة عند سماع ما كانوا يقولون، وأَمَرَهُ: إنْ كان سماعُ ما يقولون يُوحشُكَ فتسبيحُنا ـ الذي تُثْنِي به علينا ـ يُرَوِّحُك.

﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾: أي في صدر النهار؛ ليُبَارِكَ لكَ في نهارِك، ويَنْعَمَ صباحُك.

﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ أي عند نقصان النهار؛ ليطيبَ لَيْلُكَ، وينعم رَواحُك.

﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ﴾ أي في ساعات الليل؛ فإن كمال الصفوة في ذكر الله في حال الخلوة.

﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي استَدِمْ ذِكْرَ اللَّهِ في جميع أحوالك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾.

فضل الرؤية فيما لا يُحْتَاجُ إليه معلولٌ كفَضْلِ الكلام، والذي له عند الله مَنْزِلٌ وقَدْرٌ فَلِلْحَقِّ على جميع أحواله غَيْرَةٌ؛ إذ لا يَرْضَى منه أَنْ يبذل شيئاً من حركاته وسكناته وجميع حالاته فيما ليس الله ـ سبحانه ـ فيه رِضاءٌ، وفي معناه أنشدوا:

فعيني إذا استَحْسَنتْ غيرَكم أَمَرْتُ الدموعَ بتأديبها

ويقال لمّا أَدَّبَه في ألا ينظرَ إلى زينة الدنيا بكمال نظره وَقَفَ على وجه الأرض بِفَرْدِ قَدَم تصاوناً عنها حتى قيل له: «طه» أي طَأْ الأرضَ بِقَدَمِك. . ولِمَ كلُّ هذه المجاهدةَ وكل هذا التباعد حتى تقف بفَرْدِ قَدَمٍ؟ طَأ الأرض بقدميك.

﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا. . .﴾ الفتنة ما يُشْغَل به عن الحقّ، ويستولي حُبُّه على القلب، ويُجَسِّر وجودُه على العصيان، ويحمل الاستمتاع به على البَطَر والأَشَر(١).

(١) البَطَر: النشاط. أو قلة احتمال النعمة والطغيان بها وشدة المرح. الأشر: البطر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.

القليلُ من الحلال ـ وفيه رضاءُ الرحمن ـ خيرٌ من الكثير من الحرام والحطام.. ومعه سُخْطُه. ويقال قليلٌ يُشهِدُكَ ربَّكَ خيرٌ مِن كثير يُنْسِيكَ ربَّك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾.

الصلاةُ استفتاحُ بابِ الرزق، وعليها أحال في تيسير الفتوح عند وقوع الحاجة إليه. ويقال الصلاة رزق القلوب، وفيها شفاؤها، وإذا استأخر قُوتُ النَّفْس قَوِيَ قُوتُ القلب.

وأَمَرَ ـ الرسولَ ـ عليه السلام ـ بأن يأمرَ أهلَه بالصلاةِ، وأَنْ يَصْطَبِرَ عليها. وللاصطبار مزية على الصبر؛ وهو أَلَّا يَجِدَ صاحبةُ الألَمَ بل يكون محمولاً مُرَوَّحاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾.

أي لا نكلفك برزق أحدٍ؛ فإنَّ الرازقَ اللَّهُ ـ سبحانه ـ دون تأثيرِ الخَلْق، فنحن نرزقك ونرزق الجميع.

قوله جلّ ذكره: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

هما شيئان: وجود الأرزاق وشهود الرزاق؛ فوجود الأرزاق يوجب قوة النفوس، وشهود الرزاق يوجب قوة القلوب.

ويقال استقلال العامة بوجود الأرزاق، واستقلال الخواص بشهود الرزَّاق.

ويقال نَفي عن وقته الفَرْقَ بين أوصاف الرزق حين قال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾؛ فإنَّ مَنْ شَهِدَ وتحقق بقوله: ﴿نَّحْنُ﴾ سقط عنه التمييز بين رزقٍ ورزقٍ.

ويقال خفَّفَ على الفقراءِ مقاساةَ قِلَّةِ الرزقِ وتأخُّرِه عن وقتٍ إلى وقتٍ بقوله: ﴿نَّحْنُ﴾.

قوله: ﴿وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾: أي العاقبة بالحسنى لأهل التقوى.

ويقال المراد بالتقوى المُتَّقِي، فقد يسمَّى الموصوف بما هو المصدر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾.

عَمِيَتْ بصائرهم وادَّعوا أنه لا برهانَ معه، ولم يكن القصورُ في الأدلة بل كان الخَلَلُ في بصائرهم، ولو جمع اللَّهُ لهم كلَّ آيةِ اقْتُرِحَتْ على رسولٍ ثم لم يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يؤمِنوا لَمَا ازدادوا إلا طغياناً وكفراً وخسراناً... وتلك سُنَّةُ أسلافهم في تكذيب أنبيائهم، ولذا قال:

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾.

إنْ أرسلنا إليهم الرسلَ قابلوهم بفنونٍ من الجحد، ووجوهٍ من العلل؛ مرةً يقولون فما بالُ هذا الرسول بَشَر؟ هلَّا أرسله مَلَكاً؟ ولو أرسلنا مَلَكاً لقالوا هلَّا أرسل إلينا مثلنا بَشَراً؟ ولو أظهر عليهم آيةً لقالوا: هذا سِحْرٌ مُفْتَرَى! ولو أخليناهم من رسولٍ وعاملناهم بما استوجبوه من نكيرٍ لقالوا:

هلَّا بَعَثَ إلينا رسولاً حتى كنا نُؤمِن؟ فليست تنقطع أعلالُهم، ولا تنفك ـ عما لا يُرْضَى ـ أحوالُهم. وكذلك سبيلُ مَنْ لا يجنح إلى الوصال ولا يرغَب في الوداد، وفي معناه أنشدوا:

وكذا الملولُ إذا أراد قطيعةً   مَلَّ الوِصال وقال كان وكانا

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾.

الكل واقفون على التجويز غير حاصلين بوثيقة، ينتظرون ما سيبدو في المستأنف، إلَّا أَنَّ أربابَ التفرقة ينتظرون ما سيبدو مِمَّا يقتضيه حُكْمُ الأفلاك، وما الذي توجبه الطبائعُ والنجومُ. والمسلمون ينتظرون ما يبدو من المقادير فهم في رَوْحِ التوحيد، والباقون في ظُلُمَاتِ الشِّرْكِ.

السورة التي يذكر فيها الأنبياء

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

بسم الله اسم عزيز مَنْ توسَّلَ إليه بطاعته تفضَّلَ عليه بجميل نعمته؛ إنْ أطاع فَضَّلَه، وإن أضاع أمْهَلَه، ثم إنْ آبَ وأقرّ.. ذَكَرَه، وإن عصى وعاب سَتَرَه، فإن تَنَصَّل رَحِمَه، وإنْ تكَبَّرَ قَصَمَه.

اسم عزيز ما استنارت الظواهر إلَّا بآثار توفيقه، وما استضاءت السرائرُ إلا بأنوار تحقيقه؛ بتوفيقه وَصَلَ العابدون إلى مجاهدتهم، وبتحقيقه وَجَدَ العارفون كمالَ مشاهدتهم، وبتمام مجاهدتهم وجدوا آجِلَ مثوبتهم، وبدوام مشاهدتهم نالوا عاجل قربتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾.

فالمطيعون منهم عَظُمَ لدينا ثوابُهم، والعاصون منهم حَقَّ مِنَّا عقابُهم.

﴿فِي غَفۡلَةٖ﴾ [الأنبياء: ١] يقال الغفلة على قسمين: غافلٍ عن حسابه باستغراقه في دنياه وهواه، وغافلٍ عن حسابه لاستهلاكه في مولاه؛ فالغفلة الأولى سِمَةُ الهجر والغفلة الثانية صِفَةُ الوَصْل؛ فالأولون لا يستفيقون من غفلتهم إلا من سكرة الموت، وهؤلاء لا يرجعون عن غيبتهم أبد الأبدِ لفنائهم في وجود الحق تعالى.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾.

لم يجدد إليهم رسولاً إذا ازدادوا نفوراً، ولم يُنزِّلْ عليهم خِطاباً إلا ردُّوه جحداً وتكذيباً، وما زدناهم فصلاً إلا عدُّوه هَزْلاً، وما جددنا لهم نعمةً إلا فعلوا ما استوجبوا نقمة، فكان الذي أكرمناهم به محنةً بها بلوناهم.. وهذه صفة مَنْ أساء مع الله خُلُقَه، وخَسِرَ عند الله حقَّه.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾.

عَمِيَتْ بصائرُهم وعامت أفهامهم، فهم في غباوة لا يستبصرون، وفي أكنة عمَّا أقيم لهم من البرهان فهم لا يعلمون.

قوله: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى...﴾ لَمَّا عجزوا عن معارضته، وسقطوا عند التحدي،

وظهرت عليهم حُجّتُهُ رَجَمُوا فيه الفِكْرَ، وقَسَّمُوا فيه الظن؛ فمرةً نسبوه إلى السحر، ومرةً وصفوه بقول الشعر، ومرة رَمَوْه بالجنونِ وفنونٍ من العيوب. وقبل ذلك كانوا يقولون عنه: هو محمدٌ الأمين، كما قيل:

أشاعوا لنا في الحيِّ أشنعَ قصةٍ وكانوا لنا سِلْماً فصاروا لنا حَرْبا

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

الأقاويل التي يسمعها الحقُّ ـ سبحانه ـ مختلفة؛ فَمِنْ خطابِ بعضهم مع بعض، ومن بعضهم مع الحق. والذين يخاطِبون الحقَّ: فَمِنْ سائلٍ يسأل الدنيا، ومِنْ داعٍ يطلب كرائمَ العُقْبَى، ومِنْ مُثْنٍ يثني على الله لا يقصد شيئاً من الدنيا والعقبى.

ويقال يسمع أنينَ المُذْنبين سِراً عن الخَلْق حَذَراً أن يفتضحوا، ويسمع مناجاةَ العابدين التسبيح إذا تهجدوا، ويسمع شكوى المحبين إذا مَسَّتْهم البُرَحاء[1] فَضَجُّوا من شدة الاشتياق.

ويقال يسمع خطابَ مَنْ يناجيه سِرًّا بسرٍّ، وكذلك تسبيح مَنْ يمدحه ويثني عليه بلسان سِرِّه.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

نَوَّعُوا ما نسبوا إليه ـ بعدما نزَّلنا إليه الأمر ـ من حيث كانوا، ولم يشاهدوا هِمَمَه على الوصف الذي كانوا يصفونه به من صدق في الحال والمقال، وكما قيل:

رمتني بدائها وانسلت

قوله جلّ ذكره: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

أخبر أن الله تعالى أجرى سُنَّتَه أن يُعَذِّبَ من كان المعلوم من شأنه أنه لا يؤمن لا في الحال ولا في المآل. وإنَّ هؤلاء الذين كفروا في عصر الرسول ﷺ أمثالُهم في الكفران، وقد حَكَم الحقُّ لهم بالحرمان والخذلان.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

لمَّا قالوا لولا أنزل علينا الملائكة أخبر أنه لم يُرْسِلْ إلى الناس رسولاً فيما سَبَقَ من الأزمان الماضية والقرون الخالية إلا بَشراً، وذَكَرَ أنَّ الخصوصية لهم كانت بإرسال الله إياهم.

---

(١) البُرحاء: الشدة والمشقة.

ثم قال: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾: الخطاب للكلِّ والمراد منه الأمة، وأهلُ الذكر العلماءُ من أكابر هذه الأمة والذين آمنوا بنبينا محمد ـ ﷺ ـ ويقال هم أهل الفهم من الله أصحاب الإلهام الذين في محل الإعلام من الحقِّ ـ سبحانه ـ أو من يُحْسِنُ الإفهامَ عن الحق.

ويقال العالم يرجع إلى الله في المعاملات والعبادات، وإذا اشتكلت الواقعةُ فيخبر عن اجتهاده، وشرطه ألا يكون مقلداً، ويكون من أهل الاجتهاد، فإذا لم يخالف النصَّ وأدى اجتهاده إلى شيء ولم يخالف أصلاً مقطوعاً بصحته وجب قبول فتواه، وأمَّا الحكيم فإذا تكلم في المعاملة فإنما يقبل منه إذا سبقت منه المنازلة لما يُفْتَى به فإن لم تتقدم له من قِبَله المنازلة ففتواه في هذا الطريق كفتوى المقلِّد في مسائل الشرع.

فأمَّا العارف فيجب أن يتكلم في هذا الطريق عن وَجْدِه ـ إنْ كان ـ وإلا فلا تُقْبَلُ فتواه ولا تُسْمَع.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾.

لمَّا عَيَّروا الرسولَ ـ عليه السلام ـ بقولهم: ما لهذا الرسول يأكل الطعام؟.. أخبر أن أَكْلَ الطعام ليس بقادح في المعنى الذي يختص به الأكابر، فلا منافاة بين أكل الطعام وما تُكِنُّه القلوبُ والسرائر من وجوه التعريف.

ويقال: النفوس لا خبر لها مما به القلوب، والقلب لا خبر له مما تتحقق به الروح وما فوق الروح وألطف منه وهو السرُّ.

قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾: أي إنهم على ممرٍ ومعبرٍ، ولا سبيلَ اليومَ لمخلوقٍ إلى الخُلْد.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

الحقُّ ـ سبحانه ـ يُحَقِّق وعْدَه وإنْ تباطأ بتحقيقه الوقتُ فيما أخبر أنه يكون. والموعود من نصرة الله لأهل الحق إنما هو بإعلاء كلمة الدِّين، وإرغام مَنْ نَابَذَ الحقَّ مِنَ الجاحدين، وتحقيق ذلك بالبيان والحجة، وإيضاح وجه الدلالة، وبيان خطأ الشبهة.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

يريد بالكتاب القرآن، وقوله: ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾: أي شرفُكم ومحلُّكم، فَمَنْ استبصرَ بما فيه من النور سَعِدَ في دنياه وأخراه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾.

إنَّ اللَّهَ يُمْهِل الظالمَ حيناً لكنه يأخذه أَخْذَ قهرٍ وانتقام، وقد حَكَمَ اللَّهُ بخرابِ مساكنِ الظالمين، وقد جاء الخبر: «لو كان الظلم بيتاً في الجنة لَسُلِّطَ عليه الخراب»؛ فإذا ظلم العبدُ نَفْسَه حَرَّمَ اللَّهُ أَنْ يقطنها التوفيقُ وجعلها موطنَ الخذلان، فإذا ظَلَمَ قلبَه بالغفلة سَلَّط عليه الخواطرَ الردية التي هي وساوس الشيطان ودواعي الفجور. وعلى هذا القياس في القلة والكثرة؛ إنَّ الروح إذا خربت زايلتها الحقائقُ والمحابُّ، واستولت عليها العلائقُ والمساكنات.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾.

لمَّا ذاقوا وبالَ أفعالهم اضطربوا في أحوالهم فلم ينفعهم نَدَمُهم، ولم تَعُدْ إلى محالِّها أقدامُهم، وبعد ظهور الخيانة لا تُقْبَلُ الأمانة.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾.

وللخيانة سراية، فإذا حصلت الخيانة لم تقف السراية، وإذا غرقت السفينةُ فليس بيد المَلَّاحِ إلا إظهار الأسف، وهيهات أن يُجْدِي ذلك!

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

للإقرار زمانٌ؛ فإذا فات وقتُه فكما في المَثَل: يسبق الفريض الحريضُ. ووَضْعُ القوسِ بعد إرسال السهم لا قيمة له.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾.

إنّ مِنَ البلاءِ أَنْ يشكوَ المرءُ فلا يُسْمَع، ويبكي فلا يَنْفَع، ويدنو فَيُقْصَى، ويمرض فلا يُعادَ، ويعتذر فلا يُقْبَل.. وغايةُ البلاءِ التَّلَفُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾.

اللَّعِبُ نعتُ من زَالَ عن حَدِّ الصواب، واستجلب بفعله الالتذاذ، وانجرَّ في حَبْلِ السَّفَهِ. وحَقُّ الحقِّ مُتقدِّسٌ عن هذه الجملة.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾.

يخاطبهم على حسب أفهامهم؛ وإلا.. فالذي لا يعتريه سهوٌ لا يستفِزُّه لَهْوٌ، والحقُّ لا يعتريه ولا يضاهيه كُفْوٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾.

نُدْخِلُ نهارَ التحقيق على ليالي الأَوهام فينقشع سحابُ الغيبة، وينجلي ضبابُ الأوهام، وتنير شمسُ اليقين، وتصحو سماءُ الحقائق عن كلِّ غُبار التُّهَم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾.

الحادثات له سبحانه مِلْكاً والكائنات له حُكماً، وتعالى اللَّهُ عن أنْ يَتَجمَّلَ بوفاقٍ أو ينقص بخلاف، وبالقَدَرِ ظهورُ الجميع، وعلى حسب الاختيار تنصرف الكلمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾.

المطيعُ المختارُ يُسبِّحه بالقول الصدق، والكلُّ من المخلوقات تسبيحها بدلالة الخِلْقَة، وبرهان البيِّنة.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾.

تفرَّد الحقُّ بالإبداع والإيجاد، وتقدَّس عن الأمثال والأنداد، فالذين يُعْبَدُون مِنْ دونه أمواتٌ غيرُ أحياءٍ. وهم بالضرورة يعرفون.. أفلا يَعْتَبِرُون وألا يَزْدَجِرُون؟

قوله جلّ ذكره: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

أخبر أَنَّ كلَّ أمر يُنَاطُ بجماعةٍ لا يجري على النظام؛ إذ ينشأ بينهم النزاعُ والخلافُ. ولمَّا كانت أمورُ العالَم في الترتيب مُنَسَّقَة فقد دلَّ ذلك على أنها حاصلةٌ بتقديرِ مُدَبِّرٍ حكيم؛ فالسماءُ في علوِّها تدور على النظام أفلاكُها، وليس لها عُمُدٌ لإمساكها، والأرضُ مستقرةٌ بأقطارها على ترتيب تعاقب ليلها ونهارها. والشمسُ والقمرُ والنجومُ السائرةُ تدور في بروج، ورقعة السماء تتسع من غير فروج.. ذلك لتقديرِ العزيزِ العليمِ علامةٌ، وعلى وحدانيته دلالةٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾.

لِكَوْنِ الخلْق له، وهم يُسألون للزوم حقه عليهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

دلت الآيةُ على فسادِ القولِ بالتقليد، ووجوبِ إقامة الحجة والدليل.

ودلَّت الآية على توحيد المعبود، ودلَّت الآية على إثبات الكسب للعبيد؛ إذ لولاه لم يتوجه عليهم اللومُ والعَتْبُ. وكلُّ مَنْ علَّقَ قلبه بمخلوقٍ، أو تَوَهَّمَ من غير الله حصولَ شيءٍ فَقَد دَخَلَ في غمار هؤلاء لأنَّ الإله مَنْ يصحُّ منه الإيجاد.

قوله: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾: الإشارة منه أن الدِّينَ توحيدُ الحق، وإفرادُ الربِّ على وصف التفرد ونعت الوحدانية.

ثم قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ إنما عِدموا العلم لإعراضهم عن النظر، ولو وضعوا النظر موضعه لوَجَبَ لهم العلم لا محالة، والأمر يدل على وجوب النظر، وأنَّ العلومَ الدينية كُلَّها كسبية.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾.

التوحيدُ في كل شريعة واحدٌ، والتعبدُ ـ على من أرسل إليه الرسول ـ واجبٌ، ولكنَّ الأفعالَ للنسخِ والتبديلِ مُعَرَّضةٌ، أما التوحيدُ وطريقُ الوصول إليه فلا يجوز في ذلك النسخُ والتبديل.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾.

في الآية رخصةٌ في ذِكْر أقاويل أهل الضلال والبدع على وجه الردِّ عليهم، وكَشْفِ عوراتهم، والتنبيه على مواضع خطاياهم، وأنَّه إنْ وَسْوَسَ الشيطان إلى أحدٍ بشيء منه كان في ذلك حجةٌ للانفصال عنه.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾.

أخبر أن الملائكة معصومون عن مخالفة أمره ـ سبحانه، وأنهم لا يُقَصِّرون في واجبِ عليهم.

قوله جل ذكره: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾.

عِلْمُه القديمُ ـ سبحانه ـ لا يختصُّ بمعلوم دون معلوم، وإنما هو شامل لجميع المعلومات، فلا يعزب عن علم الله معلوم.

قوله: ﴿**لا يشفعون إلا لمن ارتضى**﴾ دلَّ على أنهم يشفعون لقومٍ، وأنَّ الله يتقبل شفاعتهم.

قوله: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾: ليس لهم ذنب ثم هم خائفون؛ ففي الآية دليل على أنه سبحانه يعذبهم وأن ذلك جائز، فإذا لم يَجُزْ أن يُعذِّب البريء لكانوا لا يخافونه لعلمهم أنهم لم يرتكبوا زلةً.

قوله جل ذكره: ﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

أخبر أنهم مُعْرِضُون عن الزَّلَّةِ بكلِّ وجهٍ. ثم قال: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ﴾ وقد علم أنهم لا يقولون ذلك، ولكن علم لو كان ذلك كيف كان يكون حكمه، فالحقُّ ـ سبحانه ـ يعلم ما لا يكون كيف كان يكون.

قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾.

داخَلَتْهُم الشبهةُ في إعادة الخلْقِ والقيامةِ والنَّشرِ، فأقام الله الحجةَ عليهم بأن قال: أليسوا قد عَلِمُوا أنه خلق السموات والأرض؛ سَمَكَ السماء وبَسَط الأرض.. فإذا قدر على ذلك فكيف لا يقدر على الإعادة بعد الإبادة؟

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

كُلُّ شيءٍ مخلوقٍ حيٌ فَمِنَ الماء خَلْقُه، فإنَّ أصلَ الحيوان الذي حَصَلَ بالتناسل النطفةُ، وهي من جملة الماء.

وحياة النفوس بماء السماء من حيث الغذاء، وحياة القلوب بماء الرحمة، وحياة الأسرار بماء التعظيم. وأقوامٍ حياتُهم بماءِ الحياء.. وعزيزٌ هُمْ.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾.

الأولياء هم الرواسي في الأرض وبهم يُرْزَقُون، وبهم يُدْفع عنهم البلاء، وبهم يُوفَى عليهم العطاءُ. وكما أنه لولا الجبالُ الرواسي[1] لم تكن للأرض أوتادٌ.. فكذلك الشيوخ الذين هم أوتادُ الأرضِ (فلولاهم) لنَزَلَتْ بهم الشدة.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

كما أن في الأرض سُبُلاً يسلكونها ليَصِلُوا إلى مقاصدهم كذلك جعل السُّبُلَ إليه مسلوكة بما بيَّن على ألسنتهم من هداية المريدين، وقيادة السالكين، كما يَسَّر بهداهم الاقتداء بهم في سيرهم إلى الله.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾.

في ظاهر الكون السماء منيرة، والأرض مسكونة.. كذلك للنفوس أراضٍ هي مساكن الطاعات، وفي سماء القلوب نجومُ العقل وأقمارُ العلم وشموسُ التوحيد والعرفان. وكما جُعِلَتْ النجومُ رجوماً للشياطين جَعَلَ من المعارفِ رجوماً للشياطين. وكما أن الناس عن آياتها معرضون لا يتفكرون فالعوام عن آياتِ القلوب مما فيها من الأنوار غافلون، لا يكاد يعرفها إلا الخواص.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

كما أن الحق ـ سبحانه ـ في الظاهر يكوِّر الليل على النهار، ويكور النهار على الليل فكذلك يُدْخِلُ في نهارِ البسط ليلَ القبض.. والبسط في الزيادة والنقصان. فكما أنَّ الشمس أبداً في برجها لا تزيد ولا تنقص، والقمرَ مرةً في المحاق[2]، ومرةً في

---

(١) أي الجبال الشوامخ.

(٢) المحاق: آخر الشهر القمري حيث لا يظهر القمر، وقيل: ثلاث ليالٍ من آخره، أو أن يستسرّ القمر ليلتين فلا يُرى غدوة ولا عشية.

الإشراق. . فصاحبُ التوحيدِ بنعت التمكين - يرتقي عن حَدّ تأمُّلِ البرهان إلى رَوْحِ البيان، ثم هو متحققٌ بما هو كالعيان. وصاحبُ العِلْم مرةً يُرَدُّ إلى تجديد نَظَرِه وتَذَكُّرِه، ومرةً يغشاه غَيْرٌ في حال غفلته فهو صاحب تلوين.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ﴾.

إنك في هذه الدنيا عابرُ سبيلٍ، لكننا لم نتركك فرداً في الدنيا، ولذلك قال عليه السلام لصاحبه في الغار: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟!»[١].

قوله جل ذكره: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾.

الموتُ به آفةُ قوم، وفيه راحة قوم؛ لقوم انتهاءُ مدة الاشتياق، والآخرين افتتاح باب الفراق، لقوم وقوعِ فتنتهم ولآخرين خَلاصٌ من محنتهم، لقوم بلاء وقيامة ولآخرين شفاء وسلامة.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾.

لو شهدوا بما هو به من أوصاف التخصيص وما رقَّاه إليه من المنزلة لظلوا له خاضعين، ولكنهم حُجِبُوا عن معانية وسريرته، وعاينوا منه جسمه وصورته.

قوله جل ذكره: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

العَجلَةُ مذمومةٌ والمُسَارَعَةُ محمودةٌ؛ فالمسارعة البِدارُ إلى الشيء في أول وقته، والعَجَلَةُ استقباله قبل وقته، والعجلةُ نتيجةُ وسوسة الشيطان، والمسارعةُ قضية التوفيق.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾.

اعتادوا تكذيب الأنبياء عليهم السلام فيما وعدوهم، فاستعجلوا حصولَ ما توعدوهم به. ولو علموا ما ينالهم لكان السكونُ منهم، فالفَزَعُ يَدُلُّ على استعجالهم.

قوله جل ذكره: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾.

لأمسكوا اليوم عن الانخراط في عذاب الظنون، والاغترار بمواعيد الشيطان.

---

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٥/ ٤، ٦/ ٨٣)، ومسلم في (الصحيح فضائل الصحابة ب١ رقم ١) وأحمد بن حنبل في (المسند ١/ ٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/ ٦٨)، وابن أبي شيبة في (المصنف ١٤/ ٣٣٣)، وابن حجر في (فتح الباري ٨/ ٣٢٥)، وابن أبي عاصم في (السنة ٢/ ٥٧٦)، وأبو نعيم في (تاريخ أصفهان ١/ ١٤٩)، وابن الجوزي في (زاد المسير ٣/ ٤٤٠)، وصاحب (الأذكار النووية ٢٤٥)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٥/ ٤٣٥، ١١/ ٤٣٤، ١٢/ ١٣٤)، وابن حبان في (المجروحين ١/ ٢٩٥).

قوله جل ذكره: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ .

العقوبة إذا أتت فجاءةً كانت أنكى وأشد. وسُنَّةُ الله في الانتقام أن يُثِيرَ ريحَ البغتةِ في حال الانغماس في النِّعْمة والمِنَّة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ .

تسليةٌ له، وتعريفٌ بوشك الانتصار على الذين كانوا يؤذونه من أعداء الدين؛ أي عن قريبٍ ستجدون وَبالَ ما استوجبوه من العقوبة.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ .

تقرير عليهم بأن ليس بتداخل المخلوقين نجاتهم، وقد جرَّبوا ذلك في أحوال محنتهم، فكيف لا يتبرءون ممن ليس لهم شيء، ومما ليس منه نَفْعٌ ولا ضرٌّ؟ وفي ذلك تنبيه للمؤمنين بأن مآربهم إلى الخيرات من نوعي النفع والدفع من الله عز وجل، فالواجبُ دوامُ اعتكافِهم بقلوبهم بقوة كَرمِه وجُوده.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ .

بسط القول وكرره في تعريفهم استحالة حصول الضر والنفع من الجمادات؛ وأصنامُهم التي عبدوها من تلك الجملة، ولم يَرِدْ منهم ـ على تكرار هذه الألفاظ ـ إلّا عجزٌ وانقطاعُ قولٍ.

قوله جل ذكره: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ .

طولُ الإمتاع إذا لم يكن مقروناً بالتوفيق، مشفوعاً بالعصمة كان مكراً واستدراجاً، وزيادةً في العقوبة. والحقُّ كما يعاقِبُ بالآلام والأهوال يعاقِب بالإملاء والإمهال.

وقال: ﴿**أفلا يرون أنا نأتي الأرض**﴾ تتوالى القسوة حتى لا يَبْقَى أثرٌ، للصفوة؛ فيتعاقبُ الخذلانُ حتى يتواتر العصيان، ويتأدى ذلك إلى الحرمان الذي فيه ذهاب الإيمان.

ويقال تنقص بذهاب الأكابر ويبقى الأراذل ويتعرض الأفاضل.. وفي هذا أيضاً إشارة إلى سقوط قوى العبد بمرور السنين وتطاول العمر، فإن آخر الأمر كما قيل:

آخِرُ الأمرِ ما تـرَى ... القبرُ واللَّحدُ والثرى

وكما قيل:

طوى العصران[1] ما نَشَرَاه مني ... وأبلى جدتي نَشْرٌ وطيُّ

(١) العصران: الليل والنهار، وقيل: الغداة والعشي. (لسان العرب ٤/ ٥٧٦ مادة: عصر).

أراني كلَّ يوم في انتقاص ولا يبقى ـ مع النقصان ـ شيُّ

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾.

أي بأمر الله أُعْلِمكم بموضع المخافة، ويُوحى إليَّ في بابكم أنْ أُخَوِّفكُم بأليم عقابه، ولكنَّ الذي عَدِمَ سمْعَ التوفيقِ.. أنى ينفعه تكرارُ الأمر بالقبول عليه؟!

قوله جل ذكره: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

أي إنهم لا يصبرون على أقلّ شيءٍ من العقوبة؛ وإن الحقَّ إذا شاء أن يؤلِمَ أحداً فلا يحتاج إلى مددٍ وعون.

قوله جل ذكره: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾.

توزن الأعمالُ بميزان الإخلاص فما ليس فيه إخلاصٌ لا يُقبَل، وتوزن الأحوالُ بميزان الصدق فما يكون فيه الإعجابُ لا يُقْبَل، وتوزن الأنفاسُ بميزان (....)[1] فما فيه حظوظ ومساكنات لا يُقْبَل.

ويقال ينتصِفُ المظلومُ من الظالم، وينتقم الضعيفُ من القوي.

ويقال ما كان لغير الله يَصْلُح للقبول.

ويقال يكافىء كلاً بما يليق بعمله فَمَنْ لم يرحم عبادَه في دنياه لا يَرْحَمهُ الله، ومن لم يُحسِن إلى عباده تقاصر عنه إحسانه، ومَنْ ظلم غيره كوفىء بما يليق بسوء فعله.

قوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾: أي يُجازي المظلومين وينتقم من الظالمين، ويُنْصِفُ المظلومَ من مثقال الذرة ومقياس الحَبَّة، وإن عَمِلَ خيراً بذلك المقدار فسيلقى جزاءه، ويجد عِوَضه.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

ما آتاه الحق سبحانه للأنبياء عليهم السلام من الضياء والنُّور، والحُجَّةِ والبرهان يشاركهم المستجيبون من أُمَمِهم في الاستبصار به..

فكذلك الأكابر من هذه الأمة يشاركون نبينا ـ ـ في الاستبصار بنور اليقين.

و«المُتَّقِي» هو المُجَانِبُ لما يشغله ويحجبه عن الله، فيتقي أسبابَ الحجاب وموجِباتها.

---

(١) بياض في الأصل.

قوله جل ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾.

صار لهم في استحقاق هذه البصائرِ والخشية بالغيب إطراقُ السريرة، وفي أوان الحضور استشعارُ الوَجَلِ من جريان سوء الأدب، والحذَرُ من أن يبدو من الغيبِ من خفايا التقدير ما يوجبُ حجبة العبد.

والإشفاق من الساعة على ضربين: خوف قيام الساعة الموعودة للعامة، وخوفُ قيام الساعة التي هي قيامة هؤلاء القوم؛ فإنَّ ما يستأهل الكافة في الحشر مُعَجَّلٌ لهم في الوقت من تقريبٍ ومن تبعيد، ومن مَحْوٍ ومن إثبات.

قوله جل ذكره: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾:

وَصَفَ القرآن بأنه ﴿مبارك﴾، وهو إخبارٌ عن دَوَامِه، من قولهم: بَرَكَ الطائرُ على الماءِ أي دَامَ.

وإنَّ هذا الكتاب لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خَلْفِهِ؛ وما لا ابتداء له ـ هو كلامه القديم ـ فلا انتهاء للكتاب الدالِّ عليه.

قوله جل ذكره: ﴿۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾.

أراد به ما تعرَّف إليه من الهداية حتى لم يقل بما يجوز عليه الزوال والأفول، لولا أنَّه خصَّه في الابتداء بالتعريف.. وإلَّا متى اهتدى إلى التمييز بينه وبين خَلْقِهِ لولا ما أضاء عليه من أنوار التوحيد قبلما حصل منه من النظر في المخلوق؟

ويقال هو ما كاشَفَ به رُوحَهُ قبل إبداعها من تجلِّي الحقيقة.

قوله جل ذكره: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾.

خاطَبَ قومه وأباه ببيان التنبيه طمعاً في استفاقتهم من سَكْرَةِ الغفلة، ورجوعهم من ظلمة الغلظة، وخروجهم من ضيقِ الشُّبْهَة.

ثم سأل الله إعانَتُهم بطلب الهداية لهم. فلمَّا تَبَيَّن له أنهم لا يؤمنون، وعلى كفرهم يُصِرُّون تَبرَّأ منهم أجمعين.

قوله جل ذكره: ﴿قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾.

ما استروحوا في الجواب إلا إلى التقليد، فكان من جوابه الحُكْمُ بالتسوية بينهم وبين آبائهم في الضلال، والحجة المتوجهة على سلفهم لزموها وتوجهت عليهم، فلم يرضوا منه بتخطئة آبائهم حتى قالوا: ﴿أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ فطالبوه بالبرهان إلى ما دعاهم إليه من الإيمان فقال.

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

فأحالَهم على النظر والاستدلال والتعرُّف من حيث أدلة العقول لأنَّ إثبات الصانع لا يُعْرَفُ بالمعجزاتُ، وإنما المعجزاتُ علم بصدق الأنبياء عليهم السلام، وذلك فرع لمعرفة الصانع.

ثم بيَّن لهم أنَّ ما عبدوه من دون الله لا يستحق العبادة، ثم إنه لم يَحْفِلْ بما يُصيبه من البلاء ثقةً منه بأنَّ الله هو المتفرِّدُ بالإبداع، فلا أحد يملك له ضراً من دون الله، فتساءلوا فيما بينهم وقالوا:

﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾(١).

أي يذكرهم بالسوء. ويحتمل أن يكون مَنْ فعله.. فاسألوه، فسألوه فقال: بل فَعَلَه كبيرُهم.

فقالوا كيف ندرك الذنب عليه؟ وكيف تحيلنا في السؤال عليه ـ وهو جماد؟

فقال: وكيف تستجيزون عبادة ما هو جمادٌ لا يدفع عن نَفْسِه السوء؟!

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾(٢).

فقال: شرٌّ وأمرُّ.. كيف تستحق أمثالُ هذه.. العبادة؟!

فلمَّا توجَّهَتْ الحجةُ عليهم ولم يكن لهم جواب دَاخَلَتْهم الأنَفَةُ والحمية فقالوا: سبيلنا أن نقتلَه شَرَّ قتله، وأن نعامِلَه بما يخوفنا به من النار. فقالوا: ﴿ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾(٣) [الصافات: ٩٧]، فلما رموه في النار:

قوله جل ذكره: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

لو عَصَمَه من نار نمرود ولم يمكنه مِنْ رَمْيه في النار من المنجنيق(٤) لكان ـ في الظاهر ـ أقرب من النصر، ولكنَّ حِفْظَه في النار من غير أَنْ يَمَسَّه أَلَمٌ أتمُّ في باب النصرة والمعجزة والكرامة.

ويقال إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان كثيراً ما يقول: أواه من النار!

قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

فلمَّا رُمِيَ في النار، وجعل اللّهُ عليه النارَ بَرْدَاً قيل له: لا تقُلْ بعد هذا. أواه من النار! فالاستعاذةُ بالله مِنَ الله... لا من غيره.

(١) الآيتان (٥٧، ٥٨) لم تردا. (٢) الآيات من (٦١ حتى ٦٤) لم ترد.

(٣) الآيات من (٦٦ حتى ٦٨) لم ترد.

(٤) المنجنيق (مع) (مؤ): آلة قديمة من آلات الحرب وحصار المدن، كانت تُرمى بها الحجارة على الأسوار فتهدمها (ج) منجنيقات ومجانق ومجانيق.

قوله: ﴿وسلاماً﴾: أي وسلامةً عليه وله، فإنه إذا كان للعبد السلامة فالنارُ والبَرْدُ عنده سِيّان.

ويقال إن الذي يحرق في النار مَنْ في النار يقدر على حِفْظِه في النار.

ولمَّا سَلِمَ قلبُه من غير الله بكل وجهٍ في الاستنصار والاستعانة وسَلِمَ من طَلَبِ شيءٍ بكلِّ وجهٍ.. تعرَّض له جبريلُ ـ عليه السلام ـ في الهواء وقد رمي من المنجنيق وقال له:

هل مِنْ حاجة؟

فقال: أمَّا إليكَ.. فَلا!

فجعل اللَّهُ النار عليه برداً وسلاماً؛ إذ لمَّا كان سليمَ القلبِ من الأغيار وَجَد سلامة النَّفْسِ من البلايا والأعلال.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾.

مَنْ حَفَرَ لأوليائه وقع فيما حَفَر، ومَنْ كان مشغولاً بالله لم يَتَوَلَّ الانتقامَ منه سوى الله

قوله جل ذكره: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾.

مَضَتْ سُنَّةُ اللَّهِ في أنبيائه ـ عليهم السلام ـ أنه إذا نَجَّى منهم واحداً أشرك معه مَنْ كان مُسَاهِماً له في ضُرِّه ومُقَاساةِ مشقته.

قوله جل ذكره: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾.

مَنَّ عليه بأن أخرج مِنْ صلبه مَنْ كان عابِداً لله، ذاكراً له، فإنَّ مفاخِرَ الأبناءِ مناقِبُ للآباء، كما أنَّ مناقبَ الآباء شرفٌ للأبناء.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾.

الإمامُ مُقَدَّمُ القوم، واستحقاقُ رتبةِ الإمامة باستجماع الخصال المحمودة التي في الأمة فيه، فَمَنْ لم تتجمعْ فيه مُتَفَرِّقاتُ الخِصالِ المحمودةِ لم يستحق منزلةَ الإمامة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾.

أكمل له الأنعام بعصمته مِنْ مِثْلِ ما امْتُحِنَ به قومُه، ثم بخلاصِه منهم بإخراجه إيَّاه مِنْ بينهم، فميزه عنهم ظاهراً وباطناً.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

بيَّن أنه أدخله في رحمته ثم قال: ﴿إِنَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾؛ فلا محالة مَنْ أدخله في رحمته كان صالحاً.

وقوله: ﴿وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ إخبارٌ عن عين الجمع، وقوله: ﴿إِنَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾: إخبار عن عين الفرق.

قوله جل ذكره: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

كان نوح ـ عليه السلام ـ أطولَهم عمراً، وأكثرهم بلاءً. ففي القصة أنه كان يُضرَبُ سبعين مرةً، وكان الرجل الهرم يحمل حفيده إليه ويقول. لا تقبل قولَ هذا الشيخ وكان يوصيه بمخالفته. وكان نوح ـ عليه ـ يصبر على مقاساة الأذى، ويدعوهم إلى الله، فلمَّا أيِسَ من إيمانهم، وأُوحِيَ إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] دعا عليهم فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] فقال تعالى: **﴿ونوحاً إذ نادى من قبل﴾** فأزهِقَ الشِّرْكُ وأُغرِقَ أهلُه.

قوله جل ذكره: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

أشركهم في حكم النبوة وإن كان بين درجتيهما تفاوت.. ففي مسألة واحدة أثبت لسليمان ـ عليه السلام ـ بها خصوصية؛ إذ مَنَّ عليه بقوله: ﴿فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ﴾ ولم يَمُنْ عليه بشيءٍ من المُلْكِ الذي أعطاه بمثل ما منَّ عليه بذلك، وفي هذه المسألة دلالة على تصويب المجتهدين ـ وإن اختلفوا ـ إذا كان اختلافُهم في فروع الدِّين؛ حيث قال: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ولمن قال بتصويب أحدهما وتخطئة الآخر فله تعلُّقٌ بقوله: ﴿فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾.

أَمَرَ الجبالَ وسخَّرها لتساعدَ داودَ ـ عليه السلام ـ في التسبيح، ففي الأثر، كان داود ـ عليه السلام ـ يمرُّ وصُفَاحُ[1] الجبالِ تجاوبه، وكذلك الطيور كانت تساعده عند تأويبه.

قوله جل ذكره: ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ﴾.

(١) الصفاح: (ج) الصَّفح من الجبل: سفحه.

سخَّر الله ـ سبحانه ـ لداود الحديد وألانه في يده، فكان ينسج الدروع، قال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠] ليتحصن من السهام في الحروب، قال تعالى: ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١] وأحْكِمْ الصنعة وأوثِقْ المسامير. ولكن لما قصدته سِهامُ التقدير ما أصابت إلا حدقَتَه حين نظر إلى امرأة أوريا ـ من غير قصدٍ ـ فكان ما كان.

ولقد خلا ذلك اليوم، وأغلق على نَفْسه بابَ البيت، وأخذ يصلي ساعةً، ويقرأ التوراة مرةً، والزبور أخرى، حتى يمضي وينتهي ذلك اليوم بالسلامة. وكان قد أُوحِيَ إليه أنَّه يومُ فتنةٍ، فأَمَرَ الحُجَّابَ والبواب ألا يُؤْذَنَ عليه أَحَدٌ، فَوَقَعَ مِنْ كَوَّةِ البيتِ طيرٌ لم يَرَ مِثْلَه في الحُسْنِ، فهَمَّ أَنْ يأخذه، فتَبَاعَدَ ولم يَطِرْ كالمُطْمِعِ له في أخذه، فلم يَزَلْ يستأخر قليلاً قليلاً حتى طار من كوَّةِ البيت، فتبعه داودُ ينظرَ إليه من الكوة من ورائه، فوقع بصرهُ على امرأة أوريا، وكانت قد تجرَّدَتْ من ثيابها تغتسلُ في بستانٍ خَلْفَ البيتِ الذي به داود، فحَصَلَ في قلبه ما حصل، وأصاب سَهْمُ التقدير حَدَقَتَه، ولم تَنْفَعْهُ صَنْعَةُ اللَّبوسِ التي كان تعلَّمها لِتُحَصِّنَه من بأسه.

قوله جل ذكره: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ﴾.

سخَّر اللَّهُ له الريحَ غُدُوُّها شَهْرٌ ورواحُها شَهْرٌ، ولو أراد أن يزيد في قَدْر مسافتها شِبْراً لما استطاع، تعريفاً بأنه موقوفٌ على حكم التقدير، فشهود التقدير كان يمنعه عن الإعجاب بما أُكْرِمَ به من التسخير، ولقد نبَّه ـ سبحانه ـ من حيث الإشارة أن الذي مَلَكَه سليمان كالريح إذا مرَّ وفات، أو أنه لا يَبْقَى باليدِ منه شيء.

وفي القصة أنه لاحَظَ ذلك يوماً فمالت الريح بِبَساطِه قليلاً، فقال سليمانُ للريحِ: استو.

فقالت له الريح: استوِ أنت. أي إنما مَيْلِي بِبِسَاطِكَ لميلك بقلبك بملاحظتك فإذا استويتَ أنتَ استويتُ أنا.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾.

إنما كان ذلك أياماً قلائل في الحقيقة. ثم إنه أراد يوماً أن يعودَ إلى مكانه فجاءه مَلَكُ الموتِ فطَالَبَه بروحه، فقال: إليَّ حين أرجع إلى مكاني.

فقال له: لا وجه للتأخير، وقَبضه وهو قائم يتكىء على عصاه وبقي بحالته، ولم تعلم الجِنُّ، إلى أنْ أكَلَتْ دابة الأرض ـ كما في القصة ـ عصاه، فلما خَرَّ سليمان

عَلِمَتْ الشياطينُ بموته، وتحققوا أنَّ الذي بالعصا قِيامُه فَقَهْرُ الموت يلحقه.

قوله جل ذكره: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

أي واذكر أيوبَ حين نادى ربَّه. وسمِّي أيوب لكثرة إيابه إلى الله في جميع أحواله في السرَّاء والضرَّاء، والشِّدَّة والرَّخاءِ.

ولم يَقُلْ: ارحمني، بل حَفِظَ أدب الخطاب فقال: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

ومن علامات الولاية أن يكونَ العبدُ محفوظاً عليه وقتُه في أوانِ البلاء.

ويقال إخبارُه عنه أنه قال: ﴿**مسني الضر**﴾ لم يَسْلُبْه اسمَ الصبرِ حيث أخبر عنه سبحانه بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤] لأنَّ الغالبَ كان من أحواله الصبر، فنادِرُ قالتِه لم يَسْلبْ عنه الغالِبَ من حالته. والإشارة من هذا إلى أنَّ الغالبَ من حال المؤمن المعرفةُ، أو الإيمانُ بالله فهو الذي يستغرِقُ جميعَ أوقاته، ولا يخلو منه لحظةً؛ ونادِرُ زلَّاتِهِ ـ مع دائمِ إيمانِه ـ لا يُزَاحِمُ الوصفَ الغالب.

ويقال؛ لمَّا لم يكن قوله: ﴿مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ على وجه الاعتراض على التقدير ـ بل كان على وجه إظهار العجز ـ فلم يكن ذلك مُنافياً لصفة الصبر.

ويقال استخرج منه هذا القولَ ليكونَ فيه مُتَنَفَّسٌ للضعفاء في هذه الأمة حتى إذا ضَجُّوا في حالِ البلاء لم يكن ذلك منافياً لصفة الصبر.

ويقال لم يكن هذا القولُ منه على جهة الشكوى، وإنما كان من حيث الشكر ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ الذي تخصُّ به أولياءك، ولولا أنك أرحم الراحمين لَمَا خصصتني بهذا، ولكن برحمتك أهَّلْتني لهذا.

ويقال لم يكن هذا القولُ من أيوب ولكنه استغاثةُ البلاء منه، فلم يُطِقْ البلاءُ صُحْبَتَه فضجَّ منه البلاءُ لا أيوبُ ضَجَّ من البلاء... وفي معناه أنشدوا.

صابَرَ الصبرَ فاستغاثَ به الصبرُ   فصاح المحبُّ بالصبر صبرا[١]

ويقال همزة الاستفهام فيه مضمرة، ومعناه: أيمسني الضرُّ وأنت أرحم الراحمين؟ كما قال: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ﴾ [الشعراء: ٢٢] أي أتلك نعمة تمنها عليَّ أن عبدت بني إسرائيل؟

ويقال إن جبريلَ ـ عليه السلام ـ أتى أيوبَ فقال: لِمَ تسكت؟ فقال: ماذا أصنع؟ فقال: إن الله سيان عنده بلاؤك وشفاؤك.. فاسأل الله العافيةَ فقال أيوب: ﴿**أني مسني الضر**﴾ فقال تعالى: ﴿**فكشفنا ما به من ضر**﴾ [الأنبياء: ٨٤] والفاء

---

(١) البيت في الرسالة القشيرية ص١٨٦.

تقتضي التعقيب، فكأنه قال: فعافيناه في الوقت. وكأنه قال: يا أيوب، لو طلبتَ العافيةَ قبل هذا لاستَجبْنَا لك.

ويقال سقطت دودةٌ كانت تأكل من بدنه على الأرض فرفعها أيوبُ ووضعها على موضعها، فعقرته عقرةً عِيلَ صَبْرُه فقال: مسني الضر، فقيل له: يا أيوب: أتصبر معنا؟ لولا أني ضربتُ تحت كل شَعْرَةٍ من شعراتك كذا خيمة من الصبر.. ما صَبَرْتَ ساعةً!

ويقال كانت الدوداتُ التي تأكل منه أكلت ما عَلَا بَدَنَه، فلم يَبْقَ منه إلا لسانُه وقلبه، فصعدت دودة إلى لسانه، وأخرى إلى قلبه فقال:

﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾... فلم يَبْقَ لي إلا لسانٌ به أذكرك، أو قلبٌ به أعرفك، وإذ لم يَبْقَ لي ذلك فلا يمكنني أن أعيشَ وأصبر!

ويقال استعجمت عليه جهةُ البلاء فلم يعلم أنه يصيبه بذلك تطهيراً أو تأديباً أو تعذيباً أو تقريباً أو تخصيصاً أو تمحيصاً... وكذلك كانت صحبته.

ويقال قيل لأيوب عليه السلام سَلْ العافية فقال:

عِشْتُ في النِّعم سبعين سنة فحتى يأتي عليَّ سبعون سنة في البلاء... وعندئذٍ أسألُ الله العافية!

وقيل لمَّا كَشَفَ الله عنه البلاء قيل له: ما أشدُّ ما لقيتَ في أيام البلاء؟ فقال شماتة الأعداء.

وفي القصة أن تلامذة أيوب كسروا أقلامهم، وحرَّقوا ما كتبوه عنه وقالوا: لو كان لك عند الله منزلةٌ لمَا ابْتلاكَ بكل هذا البلاء!

وقيل لم يبقَ معه إلا زوجُه، وكانت من أولاد يوسف النبي عليه السلام، فهي التي بقيت معه وكانت تخدمه وتتعهده.

ويقال إنما بقيت تلك المرأة معه لأنها كانت من أهل البلاء من آل يعقوب ـ عليه السلام.

وقيل إنما قال: مسني الضرُّ لمَّا قال لها الشيطان: إنْ أردتِ أنْ يَشْفَى مريضُكِ فاسجدي لي، ولم تعلم أنه إبليس لأنه ظَهَرَ لها في صورة إنسان، فأخبرت أيوبَ بذلك فقال عندئذٍ: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾.

ويقال لمَّا ظهر به البلاءُ اجتمع قومُه وقالوا لها: أخْرِجي هذا المريضَ من قريتنا، فإننا نخاف العَدْوَى وأنْ يَمَسَّنَا بلاؤه، وأنْ تُعْدَى إلينا عِلَّتُه، فأخْرَجَتْه إلى باب القرية فقالوا: إنا إذا أصبحنا وقعت أبصارُنا عليه، فنتشاءم به، فأبْعِديه عن أبصارنا، فحملَتْه إلى أرضٍ قَفْرٍ، وكانت تدخل البلد، وتَسْتَأْجَر للخَبْزِ والعمل في الدور، فتأخذ

الأجرة وتحملها إليه، فلما عَلِموا أنَّها امرأتُه استقذروها ولم يستعملوها.

ويقال إنها كانت ذات ذوائب[1] وقرون، وكان أيوب يأخذ بذوائبها عند نهوضه، فباعت ذوائبها برغيفٍ أخذته لتحمله إليه، فوسوس له الشيطان بأنها فعلت الفحشاء، وأن شعرها جُزَّ في ذلك فَحَلَفَ أيوبُ أنْ يَجْلِدَها إذا صحَّ حَدْسُه، وكانت المحنةُ على قلبِ تلك المرأة أشَدَّ مما على بَدَنِ أيوب من كل المحن.

وقيل إن امرأته غَابَتْ ودخلَتْ البلدَ، فعافى اللَّهُ أيوبَ عليه السلام، وعاد شاباً طرياً كما قال في قصته قوله: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ [ص: ٤٢]. فلما رجعت امرأته ولم تَرَه حسبت أنه أكله سَبُعٌ أو أصابته آفةٌ، فأخذت تبكي وتولول، فقال لها أيوب ـ وهي لم تعرفه لأنه عاد صحيحاً ـ مالَكِ يا امرأة؟

قالت: كان لي ها هنا مريض فَفَقَدْته. فقال لها أيوب: أنا ذاك الذي تطلبينه!

وفي بعض الأخبار المروية أنه بقي في بلائه سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات.

وقيل تعرَّضَ له إبليسُ فقال: إنْ أردتَ العافيةَ فاسجُدْ لي سجدةً، فقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾.

ويقال إن أيوب ـ عليه السلام ـ كان مُكَاشَفاً بالحقيقة، مأخوذاً عنه، فكان لا يُحِسُّ بالبلاء، فَسَتَرَ عليه مرةً، وردَّه إليه، فقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾.

ويقال أَدْخَلَ على أيوب تلك الحالة، واستخرج منه هذه القالة ليظهر عليه إقامة العبودية.

ويقال أوحى الله إلى أيوب ـ عليه السلام ـ أنَّ هذا البلاء اختاره سبعون نبياً قَبْلَكَ فما اخْتَرْتُه إلا لَكَ، فلمَّا أراد كَشْفَه عنه قال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾.

وقيل كوشف بمعنىً من المعاني فلم يَجِدْ أَلَمَ البلاء فقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ لِفَقْدِي أَلَمْ الضُّرِّ.

وقال جعفر الصادق[2]: حَبَسَ عنه الوحيَ أربعين يوماً فقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾

---

(١) الذوائب: (ج) الذؤابة: ضفيرة الشعر المرسلة.

(٢) هو جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط (٨٠ ـ ١٤٨هـ = ٦٩٩ ـ ٧٦٥م) الهاشمي القرشي، أبو عبد الله، الملقب بالصادق، سادس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية كان من أجلاء التابعين، وله منزلة رفيعة في العلم. أخذ عنه جماعة منهم الإمامان أبو حنيفة ومالك. ولقب بالصادق لأنه لم يعرف عنه الكذب قط. له أخبار مع الخلفاء من بين العباس وكان جريئاً عليهم صداعاً بالحق. له «رسائل» مجموعة في كتاب ورد ذكرها في كشف الظنون. مولده ووفاته بالمدينة. الأعلام ٢/ ١٢٦، ووفيات الأعيان ١/ ١٠٥، وصفة الصفوة ٢/ ٩٤، وحلية الأولياء ٣/ ١٩٢.

لما لِحَقَه من الضعف بقيام الطاعة فاستجاب إليه بأنْ ردَّ عليه قُوَّته ليقوم بحقِّ الطاعة.

ويقال طلب الزيادةَ في الرضا فاستُجِيبَ له بكَشْفِ ما كان به من ضعف الرضا.

ويقال إن الضرَّ الذي شكا منه أنه بقيت عليه بقية، وبليته كانت ببقيته، فلمَّا أُخِذَ عنه بالكلية زال البلاء، ولهذا قال: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء: ٨٤] وكانت نَفْسُه ضُرَّه، ورَدَّ عليه السلامةَ والعافية والأمل ـ في الظاهر ـ لمَّا صار مأخوذاً بالكلية عنه، مُنَقًّىً عن كل بقية، وعند ذلك يستوي البلاء والعافية، والوجود والفقد.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

أي واذكر هؤلاء الأنبياء ثم قال: ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ثم قال:

قوله جل ذكره: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

بيَّنَ الحُكْمَ والمعنى؛ الحكمُ صبرُهم وصلاحُهم، والمعنى إدخالُه إياهم في الرحمة.

قوله جل ذكره: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿مُغَٰضِبًا﴾: على مَلِكِ وقته حيث اختاره للنبوة، وسأله: لِمَ اخترتَني؟ فقال: لقد أوْحَى اللَّهُ إلى نَبِي: أنْ قُلْ لفلانِ المَلِك حتى يختار واحداً لِيُرْسَلَ إلى نينوى(١) بالرسالة. فثَقُلَ على ذي النون لما اختارَه المَلِكُ؛ لأن علم أن النبوةَ مقرونةٌ بالبلاء، فكان غضبُه عليه لذلك.

ويقال مغاضباً على قومه لمَّا امتنعوا عن الإيمان وخرج من بينهم.

ويقال مغاضباً على نفسه أي شديد المخالفة لهواه، وشديداً على أعداء الدين من مُخَالِفيه.

﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي أنْ لن نُضيِّقَ عنيه بطن الحوت، من قوله: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ [الفجر: ١٦] أي ضيَّق.

ويقال فظنَّ أن لن نقدر عليه من حَبْسِه في بَطْنِ الحوت.

وخرج من بين قومه لَمَّا أُخْبِرَ بأنَّ الله يُعَذِّب قومَه، وخرج بأهله.

ويقال إن السبعَ افترس أهله في الطريق، وأخذ النَّمِرُ ابناً صغيراً له كان معه، وجاء موج البحر فأغرق ابنَه الآخر، وركب السفينة، واضطرب البحر، وتلاطمت أمواجُه،

---

(١) نِيْنَوَى: وهي قرية يونُس بن متى عليه السلام، بالموصل؛ وبسواد الكوفة ناحية يقال لها: نينوى منها كربلاء التي قتل بها الحسين رضي الله عنه. (معجم البلدان ٥/ ٣٣٩).

وأشرفَتْ السفينةُ على الغرق، وأخذ الناسُ في إلقاء الأمتعة في البحر تخفيفاً عن السفينة، وطلباً لسلامتها من الغَرَقِ، فقال لهم يونس: لا تُلْقُوا أمْتِعَتَكم في البحر بل أطرحوني فيه فأنا المجرم فيما بينكم لتخلصوا. فنظروا إليه وقالوا: نرى عليكَ سيماء الصلاح، وليست تسمح نفوسُنا بإلقائك في البحر، فقال تعالى مخبراً عنه: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١] أي فقارعهم، فاستهموا، فوقعت القُرْعَةُ عليه.

وفي القصة أنه أتى حَرْفَ السفينة، وكان الحوتُ فاغراً فاه، فجاء إلى الجانب الآخر فجاء الحوت إليه كذلك، حتى جاز كل جانب. ثم لمَّا عَلِمَ أنه مُرَادٌ بالبلاء ألقى نَفْسَه في الماء فابتلعه الحوت «وهو مليم»: أي أتى بما يُلام عليه، قال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢].

وأوحى الله إلى السمك: لا تَخْدِشْ منه لَحماً ولا تَكْسِرْ منه عَظْماً، فهو وديعةٌ عندك وليس بِطُعْمَةٍ لك. فَبَقِي في بطنه ـ كما في القصة ـ أربعين يوماً.

وقيل إن السمك الذي ابتلعه أُمِرَ بأن يطوف في البحر، وخلق الله له إدراك ما في البحر، وكان ينظر إلى ذلك.

ويقال إن يونس عليه السلام صَحِبَ الحوتَ أياماً قلائل فإلى القيامة يقال له: ذا النون، ولم تبطل عنه هذه النسبة.. فما ظَنُّكَ بِعَبْدٍ عَبَدَه ـ سبحانه ـ سبعين سنة، ولازم قلبه محبته ومعرفته طولَ عمره.. ترى أيبطل هذا؟ لا يُظَنُّ بِكَرَمِهِ ذلك!

﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ يقال ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت ـ هذا بيان التفسير، ويحتمل أن تكون الظلمات ما التبس عليه من وقته واستبهم عليه من حاله.

قوله جل ذكره: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

استجبنا له ولم يَجْرِ منه دعاءٌ؛ لأنه لم يصدر عنه أكثر من قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ولم يقر بالظلم إلا وهو يستغفر منه.

ثم قال: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ يعني: كُلُّ مَنْ قال من المؤمنين ـ إذا أصابه غمٌّ، أو استقبله مُهِمٌّ ـ مثلما قال ذو النون نجيناه كما نجينا ذا النون.

قوله جل ذكره: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾

سأل الوَلَدَ، وإنما سأله ليكون له مُعِيناً على عبادةِ ربِّه وليقوم في النبوة مقامَه، ولئلا تنقطعَ بركةُ الرسالة من بيته، ولقد قاسى زكريا من البلاء ما قاسى حتى حاولوا قَطْعَه بالمنشار، ولما التجأ إلى الشجرة انشقت له وتَوَسَّطَها، والتأمت الشجرة، وفطنوا إلى ذلك فقطعوا الشجرة بالمنشار، وصبر لله، وسبحان الله!

كان انشقاق الشجرة له معجزة، وفي الظاهر كان حفظاً له منهم، ثم لو لم يطلعهم عليه لكان في ذلك سلامته، ولعلَّهم ـ لو قتلوه ـ لم يُصِبْه من الألم القدْرُ الذي لحقه من القطع بالمنشار طول إقامته، وإنما المعنى فيه أن انشقاق الشجرة كان له معجزة، فَقَوِي بذلك يقينُه لمَّا رأى عجيبَ الأمر فيه من نَقْضِ العادة، ثم البلاء له بالقتل ليس ببلاء في التحقيق، ولقد قال قائلهم: «إنما يستعذب الأولياء البلوى للمناجاة مع المولى».

قوله جل ذكره: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾.

سمي يحيى لأنه حَيِيَ به عقر أمه.

وقوله: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾: لتكون الكرامةُ لهم جميعاً بالولد، ولئلا يستبدَّ زكريا بفرح الولد دونها مراعاةً لحقِّ صحبتها.. وهذه سُنَّةُ الله في باب إكرام أوليائه، وفي معناه أنشدوا:

إنَّ الكرامَ إذا ما أيسروا ذكروا مَنْ كان يألفهم في المنزل الخشن

ثم قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا﴾ وفي هذا بشارة لجميع المؤمنين، لأن المؤمن لا يخلو من حالة من أحوال الرغبة أو الرهبة؛ إذ لو لم تكن رغبة لكان قنوطاً والقنوط كفر[١]، ولو لم تكن رهبة لكان أمناً والأمن كفر[٢].

قوله: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾ الخشوع قشعريرة القلب عند اطلاع الربِّ، وكان لهم ذلك على الدوام.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾.

يعني مريم، وقد نَفَى عنها سِمَةَ الفحشاء وهجنة الذم.

ويقال فنفخنا فيها من روحنا، وكان النفخُ من جبريل عليه السلام، ولكن لمَّا كان بأمره ـ سبحانه ـ صحَّتْ الإضافةُ إليه، وفي هذا دليل على تأويل خبر النزول، فإنه يكون بإنزال مَلَكٍ فتَصِحُّ الإضافة إلى الله إذ كان بأمره.. وإضافة الروح إلى نفسه على جهة التخصيص، كقوله: (ناقة الله، وبيتي)... ونحو ذلك: **﴿وجعلنا وابنها آيةً للعالمين﴾**: ولم يقل آيتين لأن أمرهما كان معجزة ودلالة، ويصح أن يراد أنَّ كلَّ واحدٍ منهما آيةٌ ـ على طريقة العرب في أمثال هذا.

---

(١) هنا إشارة إلى سورة الحجر آية (٥٦).

(٢) كذلك هنا إشارة إلى سورة الأعراف آية (٩٩).

وفيه نفي لتهمة مَنْ قال إنها حبلت من الله... تعالى الله عن قولهم!

قوله ﴿آية للعالمين﴾: وإن لم يهتد بهما جميعُ الناس... لكنهما كانا آيةً. ومَنْ نَظَرَ في أمرهما، ووضَعَ النظرَ مَوضِعَه لاهتدى، وإذا أعرض ولم ينظر فالآية لا تخرج عن كونها حُجَّةً ودلالةً بتقصير المُقَصِّر في بابها.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾.

أي كلكم خِلْقَتُه، وكلكم اتفقتم في الفقر، وفي الضعف، وفي الحاجة. ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾: وخالقكم على وصفِ التَّفرُّد.

قوله جل ذكره: ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾.

اختلفوا وتنازعوا، واضطربت أمورهم، وتفرَّقَتْ أحوالُهم، فاستأصلتهم البلايا.

قوله: ﴿كل إلينا راجعون﴾: وكيف لا... وهم ما يتقلبون إلاَّ في قبضة التقدير؟

قوله جل ذكره: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾.

مَنْ تَعنَّى لله لم يخسر على الله، ومَنْ تَحمَّلَ لله مشقةً وَجَبَ حقُّه على الله: قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بعد قوله: ﴿يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دليل على أن من لا يكون مؤمناً لا يكون عمله صالحاً ففائدة قوله ها هنا: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ في المآل والعاقبة، فقد يعمل الأعمال الصالحة من لا يُخْتَمُ له بالسعادة، فيكون في الحال مؤمناً وعملُه يكون على الوجه الذي آمن ثم لا ثواب له، فإذا كانت عاقبته على الإسلام والتوحيد فحينئذٍ لا يضيع سَعْيُه.

قوله جل ذكره: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

أي لا نهلك قوماً وإن تمادوا في العصيان إلا إذا علمنا أنهم لا يؤمنون، وأنه بالشقاوة تُخْتَمُ أمورُهم.

قوله جل ذكره: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾.

أي يحق القولُ عليهم، ويتم الأجلُ المضروبُ لهم، فعند ذلك تظهر أيامهم، وإلى القَدْرِ المعلومِ في التقدير لا تحصلُ نجاةُ الناسِ من شرّهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

تأخذهم القيامةُ بغتةً، وتظهر أشراطُ الساعة فجأة، ويُقِرُّ الكاذبون بأنَّ الذنبَ عليهم، ولكن في وقتٍ لا تُقْبَلُ فيه مَعْذِرَتُهم، وأوانٍ لا ينفعهم فيه إيمانهم.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾.

﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي الأصنام التي عبدوها، ولم تدخل في الخطاب الملائكة التي عبدها قومٌ، ولا عيسى وإن عبدَه قومٌ لأنه قال:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ولم يقلْ إنكم ومن تعبدون. فيُحْشَرُ الكافرون في النار، وتُحْشَرُ أصنامُهم معهم. والأصنامُ جماداتٌ فلا جُرْمَ لها، ولا احتراقها عقوبة لها، ولكنه على جهة براءة ساحتها، فالذنبُ للكفار وما الأصنامُ إلا جماداتٌ.

قوله جل ذكره: ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

القوم قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] فعَلِمُوا أن الأصنامَ جماداتُ، ولكن توهموا أن لها عند الله خطراً، وأنَّ مَنْ عبدها يَقْرُبُ بعبادتها من الله، فَبَيَّن اللَّهُ لهم ـ غداً ـ بأنَّها لو كانت تستحق العبادة، ولو كان لها عند الله خطرٌ لَمَا أُلْقِيَتْ في النار، ولَمَا أُحْرِقَتْ.

قوله جل ذكره: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾.

﴿لَهُمْ﴾: أي لِعَبَدَةِ الأصنام، ﴿فِيهَا﴾ أي في النار، ﴿زَفِيرٌ﴾ لحسرتهم على ما فاتهم، ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ مِنْ نداءٍ يبشرهم بانقضاءِ عقوبتهم.

وبعكس أحوالهم عُصاة المسلمين في النار فَهَمْ ـ وإنْ عُذِّبوا حيناً ـ فإنهم يسمعون قَوْلَ مَنْ يُبَشِّرهم يوماً بانقضاء عذابهم ـ وإن كان بعد مدة مديدة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾.

﴿سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾: أي الكلمة بالحسنى، والمشيئة والإرادة بالحسنى، لأن الحسنى فعله، وقوله: ﴿سَبَقَتْ﴾ إخبار عن قِدَمِه، والذي كان لهم في القِدمِ هو الكلمة التي هي صفة تعلَّقتْ بهم في معنى الإخبار بالسعادة.

ثم قال: ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ أي عن النار، ولم يقل متباعدون لِيَعْلَمَ العالِمُون أن المدارَ على التقدير، وسَابقِ الحُكْمِ من الله، لا على تَبَاعُدِ العبد أو بتقرُّبه.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾.

يدل على ذلك أنهم لا يُعَذَّبون فيها بكل وجهٍ. والمراد منه العِبَادُ من المؤمنين الذين لا جُرْمَ لهم.

﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾: مقيمين لا يبرحون.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

قيل الفزَعُ الأكبرُ قول المَلَكِ: ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢].

ويقال إذا قيل: ﴿وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩].

ويقال إذا قيل: يا أهلَ الجنةِ.. خلوداً لا موتَ فيه، ويا أهل النار. خلوداً لا موت فيه!

وقيل إذا: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

وقيل الفزع الأكبر هو الفراق. وقيل هو اليأس من رحمة الله وتعريفهم ذلك.

قوله: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ يقال لهم هذا يومكم الذي كنتم وُعِدْتُم فيه بالثواب؛ فمنهم مَنْ يتلقَّاه المَلَكُ، ومنهم مَنْ يَرِدُ عليه الخطاب والتعريف من المَلِك.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾.

إنما كانت السماءُ سقفاً مرفوعاً حين كان الأولياءُ تحتها، والأرضُ كانت فِراشاً إذ كانوا عليها، فإذا ارتحل الأحبابُ عنها تخرب ديارهم. على العادة بين الخَلْقِ من خراب الديار بعد مفارقة الأحباب.

ويقال نطوي السماء التي إليها عَرَجَت دواوينُ العصاة من المسلمين لئلا تشهدَ عليهم بالإجرام، وتُبَدَّلُ الأرضُ التي عصوا عليها غير تلك الأرض حتى لا تشهد عليهم بالإجرام.

أو نطوي السماء لنُقَرِّبَ قَطْعَ المسافات على الأحباب.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾.

﴿ٱلذِّكْرِ﴾ هنا هو التوراة، و«كَتَبَ»: أي أخبر وحَكَمَ، و﴿ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ أمة محمد ـ ﷺ: أنَّ ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ هم الذين يرثونها.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾[1].

أمَّا مَنْ أسلم فَبِكَ ينجون، وأمَّا مَنْ كَفَرَ فلا نعذبهم ما دُمْتَ فيهم؛ فأنت رحمة مِنَّا على الخلائق أجمعين.

---

(١) الآية (١٠٦) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

واحدٌ في ذاته، واحدٌ في صفاته، واحدٌ في أفعاله، واحد بلا قسيم، واحد بلا شبيه، واحدٌ بلا شريك.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ مخلصون في عقد التوحيد بالتبرّي عن كلِّ غيرٍ في حسبان صَلَاحِيَّتِهِ للألوهية؟

قوله جل ذكره: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾.

إن أعرضوا ولم يؤمنوا فَقُلْ: إني بالالتزام أعلمتُكم، ولكن للإكرام ما ألهمتكم، فتَوَجَّهَتْ عليكم الحجة واستبهمَتْ عليكم المحجة.

قوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ﴾ إنَّ علمي متقاصِرٌ عن تفصيل أحوالكم في مآلكم، ووقت ما توعدون به في القيامة من تحصيل أهوالكم، ولكنَّ حُكْمَ الله غيرُ مستأخرٍ إذا أراد شيئاً من تغيير أحوالكم.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾.

لا يخفى عليه سرُّكم ونجواكم، وحالكم ومآلكم، وظاهركم وباطنكم.. فعلى قَدْرِ استحقاقكم يُجازيكم، وبموجِب أفعالكم يحاسبكم ويكافيكم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

ليس يحيط عِلْمي إلا بما يُعْلِمُني، وإعْلامُه إياي ليس باختياري، ولا هو مقصودٌ على حسب مرادي وإيثاري.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

الرحمن كثير الرحمة عامةً لكل أحد، ومنه يوجد العون والنصر حين يوجد وكيف يوجد.

السورة التي يذكر فيها «الحج»

بسم الله الرحمن الرحيم

سماعُ «بسم الله» يوجب الهيبة والغيبة وذلك وقت محوهم. وسماع «الرحمن الرحيم» يوجب الأُنس والقربة، وذلك وقت صحوهم.. فعند سماع هذه الآية انتظم لهم المحو والصحو في سِلْكٍ واحد.

سماعُ «بسم الله» يوجِب انزعاجَ القلوب وعنده يحصل داء جنونهم، وسماعُ «الرحمن الرحيم» يوجِب ابتهاجَ القلوبِ وبه يحصل شفاءُ فتونهم، فعودة فتونهم في لطف جماله كما أن موجب جنونهم في كشف جلاله.

قوله جل ذكره: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ نداء علامة، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ١٠٤] نداء كرامة، وبكلٍّ واحدٍ من القسمين يفتتح الحقُّ خطابه في السُّوَر، وذلك لانقسام خطابه إلى صفة التحذير مرةً، وصفة التبصير أخرى.

والتقوى هي التحرز والاتقاء وتجنب المحظورات. وتجنب المحظورات فَرْضٌ، وتجنب الفضلات والشواغل ـ وإن كان من جملة المباحات ـ نَفْلٌ، فثوابُ الأول أكثر ولكنه مؤجَّل، وثوابُ النَّفْلِ أقلُّ ولكنه مُعَجَّل.

ويقال خوَّفهم بقوله: ﴿ٱتَّقُواْ﴾. ثم سكَّن ما بهم من الخوف بقوله: ﴿رَبَّكُمْۚ﴾ فإنَّ سماعَ الربوبية يوجب الاستدامة وجميل الكفاية.

قوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾: وتسمية المعدوم «شيئاً» توَسُّعٌ، بدليل أنه ليس في العدم زلزلة بالاتفاق وإن كان مُطْلَقُ اللفظِ يقتضيه، وكذلك القول في تسميته «شيئاً» هو توسُّع.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

لكلِ ذلك اليومَ شُغْلٌ يستوفيه ويستغرقه، وترى الناس سكارى أي من هَوْلِ ذلك

اليوم عقولهم ذاهبة، والأحوال في القيامة وأهوالها غالبة. وكأنهم سكارى وما هم في الحقيقة بسكارى، ولكن عذاب الله شديد، ولشِدَّتِه يحيرهم ولا يبقيهم على أحوالهم. وهم يتفقون في تشابههم بأنهم سُكَارَى، ولكنَّ موجِبَ ذلك يختلف؛ فمنهم مَنْ سُكْرُه لِمَا يُصِيبه من الأهوال، ومنهم من سُكْرُه لاستهلاكه في عين الوصال.

كذلك فَسُكْرُهم اليومَ مختلفٌ؛ فمنهم من سكره سكر الشراب، ومنهم من سكره سكر المحاب. وشتَّان بين سُكْرٍ وسُكْر! سُكْرٌ هو سُكْرُ أهلِ الغفلة، وسُكْرٌ هو سُكْرُ أهل الوصلة[1].

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾.

المجادلة لله ـ مع أعداء الحق وجاحدي الدِّين ـ من موجبات القربة، والمجادلة في الله، والمماراة مع أوليائه، والإصرارُ على الباطل بعد ظهور الدلائل من أمارات الشقوة، وما كان لوساوس الشيطان ونزغاته فقصاراه النار.

قوله جل ذكره: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

مَنْ وافق الشيطان بمتابعة دواعيه لا يهديه إلَّا إلى الضلال، ثم إنه في الآخرة يتبرأ من موافقته ويلعن جملةَ مُتَّبِعيه. فنعوذ بالله من الشيطان ونزغاته، ومن درك الشقاء وشؤم مفاجآته.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾.

التبس عليهم جواز بعثه الخَلْق واستبعدوه غاية الاستبعاد، فلم ينكر الحق عليهم إلا بإعراضهم عن تأمل البرهان، واحتجَّ عليهم في ذلك بما قطع حجتهم، فَمَنْ تَبعَ هُداه رَشِدَ، ومَنْ أصرَّ على غَيِّه تَرَدَّى في مهواة هلاكه.

واحتجَّ عليهم في جواز البعث بما أقروا به في الابتداء أن الله خَلَقَهم وأنه ينقلهم من حال إلى حال أخرى؛ فبدأهم من نطفة إلى علقة ومنها ومنها... إلى أَنْ نَقَلَهم من حال شبابهم إلى زمان شَيْبهم، ومن ذلك الزمان إلى حين وفاتهم.

واحتجَّ أيضاً عليهم بما أشهدهم كيف أنه يحيي الأرض ـ في حال الربيع ـ بعد موتها، فتعود إلى ما كانت عليه في الربيع من الخضرة والحياة. والذي يَقْدِرُ على هذه

---

(١) انظر حديث القشيري عن السكر في الرسالة القشيرية ص ٧١، ٧٢.

الأشياء يقدر على خَلْق الحياة في الرِّمة البالية والعظام النخرة.

قوله: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ [الحج: ٥]: زمان الفترة بعد المجاهدة، وحال الحجبة عقب المشاهدة.

ويقال أرذل العمر السعي للحظوظ بعد القيام بالحقوق.

ويقال أرذل العمر الزلة في زمان المشيب.

ويقال أرذل العمر الإقامة في منازل العصيان.

ويقال أرذل العمر التعريج في أوطان المذلة.

ويقال أرذل العمر العِشْرةُ مع الأضداد.

ويقال أرذل العمر عَيْشُ المرءِ بحيث لا يُعْرَفُ قَدْرُه.

ويقال أرذل العمر بأن يُوكَل إلى نَفْسِه.

ويقال أرذل العمر التطوح في أودية الحسبان أن شيئاً بغير الله.

ويقال أرذل العمر الإخلاد إلى تدبير النَّفْس، والعَمَى عن شهود تقدير الحق.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الله هو الحقُّ، والحق المطلق الوجود، وهو الحق أي ذو الحق.

﴿وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي الأرض التي أصابتها وَحْشَةُ الشتاء يحييها وقتَ الربيع.

ويقال يحيي النفوسَ بتوفيق العبادات، ويحيي القلوبَ بأنوار المشاهدات.

ويقال يحيي أحوال المريدين بحسن إقباله عليهم.

ويقال حياة الأوقات بموافقة الأمر، ثم بجميلِ الرضا وسكونِ الجأش عند جريان التقدير.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾(١).

دليل الخطاب يقتضي جواز المجادلة في الله إذا كان صاحب المجادلة على علِم بالدليل والحجة ليستطيع المناضلة عن دينه، قال سبحانه لنبيِّه: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] ومَنْ لم يُحْسِنْ مذهبَ الخَصْم وما يتعلق به من الشُّبَهِ لم يمكنه الانفصال عن شُبْهَتِه، وإذا لم تكن له قوة الانفصال فلا يُسْتَحَبُّ له أن يجادل الأقوياء منهم، وهذا يدل على وجوب تعلُّم علم الأصول، وفي هذا ردٌّ على مَنْ جَحَدَ ذلك.

---

(١) الآية (٧) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾.

يريد أنه متكبِّر عن قبول الحق، زاهِدٌ في التحصيل، غيرُ واضعِ نظره موضعه؛ إذ لو فعل ذلك لهان عليه التخلُّص من شُبْهتِهِ.

ثم قال: ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ﴾ أي مذلة وهوان، وفي الآخرة عذاب الحريق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾[١].

يعني يكون على جانبٍ، غير مخلص... لا له استجابة توجب الوفاق، ولا جَحْداً يبين الشقاق؛ فإنْ أصابه أَمْنٌ وخير ولينٌ اطمأن به وسَكَنَ إليه، وإن أصابته فتنةٌ أو نالته محنة ارتدَّ على عقبيه ناكساً، وصار لِمَا أظهر من وفاقه عاكساً. ومَنْ كانت هذه صفته فقد خسر في الدارين، وأخفق في المنزلتين.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾.

أي يعبد مَنْ المضَرَّةُ في عبادتِه أكثرُ من النَّفْع منه، بل ليس في عبادته النفع بحالٍ، فالضُّرُّ المُتيَقَّنُ في عِبادتهم الأصنام هو بيانُ ركاكة عقولهم، ورؤيةُ الناسِ خطأَ فِعْلِهم. والنفع الذي يتوهمونه في هذه العبادة ليس له تحصيل ولا حقيقة.

ثم قال: ﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾: أي لبئس الناصرُ الصَّنَمُ لهم، ولبئس القومُ هم للصنم، ولِمَ لا.؟ ولأجْلِه وقعوا في عقوبة الأبد.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: أي صَدَّقُوا ثم حقَّقُوا؛ فالإيمانُ ظاهِرُه التصديق وباطنه التحقيق، ولا يصل العبد إليهما إلا بالتوفيق.

ويقال الإيمان انتسام الحق في السِّرّ.

ويقال الإيمان ما يوجب الأمان، ففي الحال يجب الإيمان وفي المآل يوجب الأمان، فمُعَجَّلُ الإيمان من (...)[٢] المسلمين، ومؤجَّله الخلاصُ من صحبة الكافرين الفاسقين.

وقوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: العمل الصالح ما يصلح للقبول، ويصلح للثواب، وهو أن يكون على الوجه الذي تعلَّق به الإيمان.

---

(١) الآية (١٠) لم ترد.
(٢) بياض في الأصل.

والجنان التي يدخل المؤمنين فيها مؤجلة ومعجلة، فالمُؤَجَّلَة ثواب وتوبة، والمعَجَّلةُ أحوالٌ وقربة، قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

قوله جلّ ذكره: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾.

أي أنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ يرغم أعداءَ رسول الله ﷺ، فَمَنْ لم تَطبْ نفْسُه بشهود تخصيص الله سبحانه بما أفرده به فليقتلْ نَفْسَه من الغيظ خَنقاً، ثم لا ينفعه ذلك، كما قيل:

إنْ كنتَ لا ترضى بما قد ترى فدونَكَ الحَبْلَ به فاخْنق

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾.

﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾: أي دلالات وعلامات نَصبَهَا الحقُّ سبحانه لعباده، فمن الآيات ما هو قضية العقل، ومنها ما هو قضية الخبر والنقل، ومنها ما هو تعريفات في أوقات المعاملات فما يجده العبد في حالاته من انغلاقٍ، واشتدادِ قبضٍ، وحصول خسران، ووجوه امتحان.. لا شكَّ ولا مرية إذا أَخَلَّ بواجبٍ أو أَلَمَّ بمحظور. أو تكون زيادة بَسْطٍ أو حلاوة طاعة، أو تيسير عسيرٍ من الأمور، أو تجدد إنعامٍ عند حصول شيءٍ من طاعاته.

ثم قد يكون آيات في الأسرار، هي خطابُ الحقّ ومحادثةٌ معه، كما في الخبر: «لقد كان في الأمم مُحَدَّثون فإن يك في أمتي فعمر»(١).

ثم يقال الآيات ظاهِرةٌ، والحجج زاهرة، ولكن الشأن فيمن يستبصر.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

أصناف الناس على اختلاف مراتبهم: الوليُّ والعدوُّ، والموحِّد والجاحد يُجْمَعُون يومَ الحشر، ثم الحقُّ ـ سبحانه ـ يعامِل كلاً بما وَعَدَه؛ إما بوصالٍ بلا مَدَى، أو بأحوالٍ بلا منتهى. الوقتُ واحد؛ وكلُّ واحدٍ لما أُعِدَّ له وافد، وعلى ما خُلِقَ له وارد.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري (فضائل الصحابة ٦)، (أنبياء ٥٤)، ومسلم (فضائل الصحابة ٢٣)، والترمذي (مناقب ١٧)، وأحمد بن حنبل (٦، ٥٥).

أهل العرفان يسجدون له سجودَ عبادة، وأربابُ الجحود كُلُّ جزءٍ منهم يسجد له سجودَ دلالة وشهادة.

وفـــي كـــل شـــيءٍ لـــه آيـــةٌ تـــدُلُّ عـــلـــى أنـــه واحـــدُ

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾.

أما الذين كفروا فلهم اليومَ لباسُ الشرْكِ وطِرازُه الحرمان، ثم صدار الإفك وطرازه الخذلان. وفي الآخرة لباسهم القطران[1] وطرازه الهجران، قال تعالى: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

أمَّا أصحابُ الإيمانِ فلِباسُهم اليومَ التقوى، وتنقسم إلى اجتناب الشِّرْكِ ثم مجانبة المخالفة، ثم مباينة الغفلة، ثم مجانبة السكونِ إلى غير الله والاستبشار إلى ما سوى الله. وفي الآخرة لِباسُهم فيها حريرٌ، وآخرون لباسهم صدار المحبة، وآخرون لباسهم الانفراد به، وآخرون هم أصحاب التجريد؛ فلا حالَ ولا مقامَ ولا منزلةَ ولا محلَّ وهم الغُرَباءُ[2]، وهم الطبقة العليا، وهم أحرار من رِقِّ كل ما لَحِقهُ التكوين[3].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

التحلية تحصينٌ لهم، وسَتْرٌ لأحوالهم؛ فهم للجنة زينة، وليس لهم بالجنة زينة:

وإذا الـــدُّرُّ زَانَ حُـــسْـــنَ وجـــوهٍ كـــان لـــلـــدُّرِّ حُـــسْـــنُ وَجْـــهِـــكَ زَيْـــنَـــا

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

الطيبُ من القول ما صَدَر عن قلبٍ خالصٍ، وسِرٍّ صافٍ مما يَرْضَى به علم التوحيد، فهو الذي لا اعتراض عليه للأصول.

ويقال الطيب من القول ما يكون وعظاً للمسترشدين، ويقال الطيبُ من القول هو إرشاد المريدين إلى الله.

---

(١) القطران: مادة سوداء سائلة لزجة تُستخرج من الخشب والفحم ونحوهما بالتقطير الجاف وتستعمل لحفظ الخشب من التسوس والحديد من الصدأ.

(٢) قال القشيري برسالته عند حديثه عن التصوف: سُئل أحمد بن الجلاء: ما معنى صوفي؟ فقال: لا نعرفه في شرط العلم ولكن نعرف فقيراً مجرداً من الأسباب، كان مع الله تعالى بلا مكان، ولا يمنعه الحق سبحانه سن علم كل مكان، فسمي صوفياً. (الرسالة القشيرية ص٢٨٣).

(٣) الآيات (٢٠، ٢١، ٢٢) لم ترد.

ويقال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ويقال الدعاء للمسلمين.

ويقال كلمة حقٍ عند من يُخَافُ ويُرْجَى.

ويقال الشهادتان عن قلبٍ مخلص.

ويقال ما كان قائله فيه مغفوراً وهو مُسْتَنْطَقٌ.

ويقال هو بيان الاستغفار والعبد بريءٌ من الذنوب.

ويقال الإقرار بقوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣].

ويقال أَنْ تَدْعُوَ للمسلمين بما لا يكون لَكَ فيه نصيب.

وأمّا ﴿صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾: فالإضافة فيه كالإضافة عند قولهم: مسجد الجامع أي المسجد الجامع والصراط الحميد: الطريق المرضي وهو ما شهدت له الشريعة بالصحة، وليس للحقيقة عليه نكير.

ويقال الصراط الحميد: ما كان طريق الاتباع دون الابتداع.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

الصدُّ عن المسجد الحرام بإخافة السُّبُل، وبِغَصْبِ المال الذي لو بقي في يد صاحبه لوصل به إلى المسجد الحرام.

قوله: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾ وإنما يعتبر فيه السبق والتقدم.

ومشهد الكِرَام يستوي فيه الإقدام، فَمَنْ وَصَلَ إلى تلك العقوة فلا ترتيبَ ولا ردَّ، وبعد الوصول فلا زَجْرَ ولا صدَّ، أمّا في الطريق فربما يعتبر التقدم والتأخر؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ ولكن في الوصول فلا تفاوتَ ولا تباين، ثم إذا اجتمعت النفوسُ فالموضع الواحد يجمعهم، ولكنْ لكلِّ حالٌ ينفرد بها.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾.

أصلحنا له مكانَ البيت وأَسكنَّاه منه؛ وأرشدناه له، وهديناه إليه، وأَعنَّاه عليه، وذلك أنه رفع البيت إلى السماء الرابعة في زمن طوفان نوح عليه السلام، ثم أمر إبراهيم عليه السلام ببناءِ البيت على أساسه القديم. قوله ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾، أي لا تلاحظ البيتَ ولا بِناءَك له.

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ...﴾ يعني الكعبة ـ وذلك على لسان العلم، وعلى بيان الإشارة فَرِّغْ قَلبَكَ عن الأشياء كلِّها سوى ذِكْرِه ـ سبحانه.

وفي بعض الكتب: «أوحى الله إلى بعض الأنبياء فَرِّغ لي بيتاً أسكنه، فقال ذلك الرسول: إلهي... أي بيت تشغل؟ فأوحى الله إليه: ذلك قلب عبدي المؤمن». والمراد منه ذكر الله تعالى؛ فالإشارة فيه أن يفَرِّغ قلبه لذكر الله. وتفريغ القلب على أقسام: أوله من الغفلة ثم مِنْ توهُّم شيءٍ من الحدثان من غير الله.

ويقال قد تكون المطالبة على قوم بِصَوْنِ القلب عن ملاحظة العمل، وتكون المطالبة على الآخرين بحراسة القلب عن المساكنة إلى الأحوال.

ويقال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾: أي قَلبكَ عن التطلع والاختيار؛ بألا يكون لك عند الله حظٌّ في الدنيا أو في الآخرة حتى تكون عبداً له بكمال قيامك بحقائق العبودية.

ويقال ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾: أي بإخراج كل نصيب لك في الدنيا والآخرة من تطلعِ إكرام، أو تَطَلُّبِ إنعام، أو إرادة مقام، أو سبب من الاختيار والاستقبال.

ويقال طَهِّرْ قلبك للطائفين فيه من موارد الأحوال على ما يختاره الحق. ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ وهي الأشياء المقيمة من مستودعات العرفان في القلب من الأمور المُغْنِيةِ عن البرهان، ويتطلع بما هو حقائق البيان التي هي كالعيان كما في الخبر: «كأنك تراه»(١).

﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾: هي أركان الأحوال المتوالية من الرغبة والرهبة، والرجاء والمخافة، والقبض والبسط، وفي معناه أنشدوا:

لست من جملة المحبين إن لم ... أجعل القلبَ بيتَه والمقاما
وطوافي إجالةُ السِّرِّ فيه ... وهو ركني إذا أردتُ استلاما

قوله: ﴿لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾: لا تلاحظ البيتَ ولا بِناءَكَ للبيت.

ويقال هو شهود البيت دون الاستغراق في شهود ربِّ البيت.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

أَذَّن إبراهيم ـ عليه السلام ـ بالحج ونادى، وأسمع اللَّهُ نداءَه جميعَ الذرية في أصلابِ آبائهم، فاستجاب مَنْ المعلوم مِنْ حاله أنه يحج.

وقدَّم الرِّجالةَ على الركبان لأنَّ الحَمْلَ على المركوب أكثر.

---

(١) هنا الخبر إشارة إلى الحديث: «أعبد الله كأنك تراه وأعدد نفسك في الموتى» أخرجه المنذري في (الترغيب والترهيب ٤/١٠٦ ـ ٢٤٣).
أو إلى حديث «أعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» سبق تخريجه.

ولتلك الجِمالِ على الجمال خصوصية لأنها مركب الأحباب، وفي قريبٍ من معناه أنشدوا:

وإنَّ جِمالاً قد علاها جَمَالُكُم ـ وإن قُطِّعَتْ أكبادنا ـ لحبائب

ويقال ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ هذا على وجه المدح وسبيل الشكر منهم.

وكم قَدْرُ مسافةِ الدنيا بجملتها!؟ ولكنْ لِأَجْلِ قَدْرِ أفعالهم وتعظيمِ صنيعِهم يقول ذلك إظهاراً لفضله وكرمه.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾.

أرباب الأموال منافعهم أموالُهم، وأرباب الأعمال منافعُهم حلاوةُ طاعتهم، وأصحاب الأحوال منافعهم صفاءُ أنفاسهم، وأهلُ التوحيد منافعهم رضاهم باختيارِ الحقِّ ما يبدو من الغيب لهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾.

لأقوامٍ عند التقرُّب بقرابينهم وسوق هَدْيِهم[1]. وآخرون يذكرون اسمه عند ذَبْحِهِم أمانيهِّم واختيارهم بسكاكين اليأس.. حتى يقوموا بالله لله بِمَحْوِ ما سوى الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾.

شَاركُوا الفقراءَ في الأكل من ذبيحتكم ـ الذي ليس بواجب ـ لتلحقكم بركاتُ الفقراء. والإشارة فيه أن ينزلوا ساحةَ الخضوع والتواضع، ومجانبة الزَّهْوِ والتكبُّر.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾.

ليقضوا حوائجهم وليحققوا عهودَهم، وليوفوا نذورهم فيما عقدوه مع الله بقلوبهم، فَمَنْ كان عقدُه التوبة فوفاؤه ألا يرجعَ إلى العصيان. ومَنْ كان عَهْدُه اعتناقَ الطاعةِ فَشَرْطُ وفائه تركُ تقصيره. ومن كان عهدُه ألا يرجع إلى طلب مقامٍ وتطلُّعِ إكرامٍ فوفاؤه استقامته على الجملة في هذا الطريق بألا يرجع إلى استعجالِ نصيبٍ واقتضاءِ حظٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾.

الإشارة في الطواف إلى أنه يطوف بنَفْسه حولَ البيت، وبقلبه في ملكوت السماء، وبِسِرِّه في ساحات الملكوت.

---

(١) الهَدْي: ما يُهدى إلى الحرم من الإبل والبقر والغنم ليُنحر ويذبح هناك ويُتصدق بلحومه. الواحدة هدية.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾.

تعظيم الحرمات بتعظيم أمره؛ وتعظيمُ أمرِهِ بتَرْكِ مخالفته.

ويقال من طلب الرضا بغير رضى الله لم يبارك له فيما آثره من هواه على رضى مولاه، ولا محالةَ سيلقى سريعاً غِبَّه.

ويقال تعظيم حرماته بالغيرة على إيمانه وما فَجَرَ صاحبُ حُرْمَةٍ قط.

ويقال ترك الخدمة يوجب العقوبة، وترك الحرمة يوجِبُ الفُرْقة.

ويقال كلُّ شيءٍ من المخالفات فللعفو فيه مساغ وللأمل إليه طريق، وتَرْكُ الحرمة على خَطَرِ ألا يُغْفر.. وذلك بأن يؤدي ثبوتُه بصاحبه إلى أَنْ يختَلَّ دِينُه وتوحيدُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾.

فالخنزير من جملة المحرمات، وكذلك النطيحة(١) والموقوذة(٢)، وما يجيء تفصيله في نَصِّ الشرع.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾.

«من» ها هنا للجِنس لا للتبعيض، وهوى كلِّ من اتبعه معبودُه، وصنمُ كلِّ أحدٍ نَفْسُه.

﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾: ومن جملة ذلك قول اللسان بما لا يساعده قولُ القلب ونطقه، ومَنْ عاهد اللّهَ بقلبه ثم لا يفي بذلك فهو من جملة قول الزور.

قوله جلّ ذكره: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾.

الحنيف المائلُ إلى الحق عن الباطل في القلبِ والنَّفسِ، في الجهر وفي السِّرِّ، في الأفعال وفي الأحوال وفي الأقوال.

﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾: الشِّركُ جَلِيٌّ وخَفِيٌّ.

قوله ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا...﴾ كيف لا.. وهو يهوي في جهنم وتتجاذبه ملائكة العذاب؟ أو تهوى به الريح من مكان سحيق.. وكذلك غداً في صفة قوم يقول الله تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

---

(١) النطيحة: الشاة المنطوحة تموت فلا يَحِل أكلها. (اللسان ٢/ ٦٢١ مادة: نطح).

(٢) الموقوذة: الشاة ونحوها تُضرب حتى تموت ثم تؤكل. وقيل: المضروبة حتى تموت ولم تُذَكَّ. (اللسان ٣/ ٥١٩ مادة: وقذ).

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾.

يقف المؤمنُ على تعيين شعائر الله وتفصيلها بشهادة العلم جهراً، وبخواطر الإلهام سِرّاً. وكما لا تجوز مخالفةُ شهادة الشرع لا تجوز مخالفة شهادة خواطر الحق فإنّ خاطر الحقّ لا يكذِبُ، وعزيزٌ مَنْ له عليه وقوف. وكما أَنّ النَّفْسَ لا تصدق فالقلب لا يكذب، وإذا خولف القلبُ عَمِيَ في المستقبل، وانقطعت عنه تعريفاتُ الحقيقة، والعبارة والشرح يتقاصران عن ذكر هذا على التعيين والتفسير. ويقوي القلبُ بتحقيق المنازلة؛ فإذا خرست النفوسُ، وزالت هواجسها، فالقلوب تنطق بما تُكاشَفُ به من الأمور.

ومنَ الفَرْقِ بين ما يكون طريقه العلم وما طريقه من الحق أن الذي طريقه العلم يعلم صاحبُه أولاً ثم يعمل مختاراً، وما كان من الحق يجري ويحصل ثم بعده يعلم مَنْ جرى عليه ذلك معناه، ولا يكون الذي يجْرِي عليه ما يُجْرَى مضطراً إلى ما يُجْرَى. وليس يمكن أن يقال إنه ليس له اختيار، بل يكون مختاراً ولكنَّ سببَه عليه مشكلٌ، والعجب من هذا أن العبارة عنه كالبعيد.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾.

لكلٍّ من تلك الجملة منفعةٌ بِقَدْره وحدِّه؛ فلأقوام بركاتٌ في دفع البلايا عن نفوسهم وعن أموالهم، ولآخرين في لذاذاتِ بَسطِهم، ولآخرين في حلاوة طاعاتهم، ولآخرين في أُنسِ أنفاسهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾.

الشرائعُ مختلفةٌ فيما كان من المعاملات، متفقة فيما كان من جملة المعارف، ثم هم فيها مختلفون: فقومٌ هم أصحاب التضعيف[1] فيما أوجب عليهم وجعل لهم، وقومٌ هم أصحاب التخفيف فيما ألزموا وفيما وُعدَ لهم. قوله ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ﴾ وذكر اسم الله على ما رزقهم على أقسام: منها معرفتهم إنعام الله بذلك عليهم.. وذلك من حيث الشكر، ثم يذكرون اسمه على ما وفّقهم لمعرفته بأنه هو الذي يتقبل منهم وهو الذي يُثيبهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾.

أي استَسلموا لِحُكمه بلا تَعبيسٍ ولا استكراهٍ من داخل القلب.

---

(١) قال القشيري برسالته: إن الرخص في الشريعة للمستضعفين وأصحاب الحوائج والأشغال وهؤلاء ليس لهم شغل سوى القيام بحقه سبحانه. (الرسالة القشيرية ص٣٨٠).

والإسلام يكون بمعنى الإخلاص، والإخلاص تصفية الأعمال من الآفات، ثم تصفية الأخلاق من الكدورات، ثم تصفية الأحوال، ثم تصفية الأنفاس. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾: الإخبات استدامة الطاعة بشرط الاستقامة بقدر الاستطاعة. ومنْ أماراتِ الإخباتِ كمالُ الخضوع بشرط دوام الخشوع، وذلك بإطراق السريرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

الوجَلُ الخوفُ من المخافة، والوجَلُ عند الذكر على أقسام: إما لخوفِ عقوبة ستحصل أو لمخافة عاقبة بالسوء تختم، أو لخروجٍ من الدنيا على غفلَةٍ من غير استعدادٍ للموت، أو إصلاحِ أُهْبَةٍ، أو حياءٍ من الله سبحانه في أمورٍ إذا ذكَرَ اطلاعه - سبحانه - عليها لمَا بَدَرَت منه تلك الأمور التي هي غير محبوبة.

ويقال الوجَلُ على حسب تجلي الحق للقلب؛ فإن القلوب في حال المطالعةِ والتجلي تكون بوصف الوجل والهيبة.

ويقال وَجلٌ له سبب وجل بلا سبب؛ فالأول مخافةٌ من تقصير، والثاني معدودٌ في جملة الهيبة[1].

ويقال الوجَلُ خوفُ المَكْرِ والاستدراج، وَأقربُهم من الله قلباً أكثرهُم من الله - على هذا الوجه - خوفاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾.

أي خامدين تحت جريان الحكم من غير استكراهٍ ولا تمني خَرْجةٍ، ولا رَوْمِ فُرْجةٍ بل يستَسلِمُ طوعاً:

ويقال الصابرين على ما أصابهم. أي الحافظين معه أسرارهم، لا يطلبون السلوة بإطلاعِ الخَلق على أحوالهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

أي إذا اشتدت بهم البلوى فزعوا إلى الوقوف في محلِّ النجوى:

إذا ما تمنَّى الناسُ رَوْحاً وراحةً ... تمنَّيْتُ أن أشكو إليك فَتَسمَعَا

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

عند المعاملة من أموالهم، وفي قضايا المنازلة بالاستسلام، وتسليم النفس وكل ما منك وبك لطوارق التقدير؛ فينفقون أبدانَهم على تحمل مطالبات الشريعة، وينفقون قلوبَهم على التسليم والخمود تحت جريان الأحكام بمطالبات الحقيقة.

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص٥٨ - ٦١.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أَقسام الخير فيها كثيرة بالركوب والحَمْل عليها (وشرب ألبانها وأكل لحومها والانتفاع بوبرها ثم الاعتبار بِخِلْقَتِها كيف سُخِّرتْ للناس على قوتها وصورتها، ثم كيف تنقاد للصبيان في البروكِ عند الحَمْل عليها وركوبها والنزول منها ووضع الحمل عنها وصبرها على العطش في الأسفار، وعلى قليل العَلَف، ثم ما في طبْعِها من لُطْفِ الطبع، وحيث تستريح بالحُداءِ[1] مع كثافة صورتها إلى غير ذلك.

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾: أي سقطت على وجه الأرض في حال النَّحْرِ فأطعموا القانع الذي ألقى جلباب الحياء وأظهر فقره للناس، والمُعْتَرَّ الذي هو في تَحَمُّله مُتَحَمِّلٌ، ولمواضِع فاقته كاتم.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

لا عِبْرةَ بأعيان الأفعال سواء كانت بدنيةً محضة، أو ماليةً صِرْفة، أو بما له تعلُّق بالوجهين، ولكن العبرة باقترانها بالإخلاص فإذا انضافَ إلى أكسابِ الجوارح إخلاصُ القصود، وتَجَرُّدَتْ، عن ملاحظة أصحابِها للأغيارَ صَلُحَتْ للقبول.

ويقال التقوى شهودُ الحقِّ بِنَعْتِ التفرُّدِ؛ فلا يُشَابُ تَقَرُّبُكَ بملاحظةِ أحدٍ، ولا تأخذ عِوَضاً على عملٍ من بَشَرٍ.

﴿لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾: أي هداكم وأرشدكم إلى القيام بحقِّ العبودية على قضية الشرع.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: والإحسان كما في الخبر: «أن تعبد الله كأنك تراه..».

وأمارةُ صحته سقوطُ التعبِ بالقلبِ عن صاحبِهِ، فلا يستثقلُ شيئاً. ولا يتبرم بشيءٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾.

يدفع عن صدورِهم نزغاتِ الشيطان، وعن قلوبِهم خطراتِ العصيان، وعن أرواحهم طوارقَ النسيان.

والخيانةُ على أقسام: خيانةٌ في الأموال تفصيلها في المسائل الشرعية، وخيانة في الأعمال، وخيانة في الأحوال؛ فخيانة الأعمال بالرياء والتصنع، وخيانة الأحوال

---

(١) الحُداء: سوق الإبل والغناء لها. (لسان العرب ١٤/ ١٦٨ مادة: حدا).

بالملاحظة والإعجاب والمساكنة، وشرُّها الإعجابُ، ثم المساكنةُ وأخفاها الملاحظة.

ويقال خيانة الزاهدين عزوفهم عن الدنيا على طلب الأعواض ليجدوا في الآخرة حُسْنَ المآل.. وهذا إخلاص الصالحين. ولكنه عند خواص الزهاد خيانة؛ لأنهم تركوا دنياهم لا لله ولكن لوجود العِوَض على تركهم ذلك مِنْ قِبَلِ الله.

وخيانةُ العابدين أن يَدَعُوا شهواتِهم ثم يرجعون إلى الرُّخَص، فلو صدقوا في مرماهم لَمَا انحطُّوا إلى الرخص بعد ترقيهم عنها.

وخيانة العارفين جنوحهم إلى وجود مقام، وتطلعهم لمنال منزلة وإكرام من الحق ونوع تقريب.

وخيانة المحبين روم فرحة مما يمسهم من برحاء المواجيد، وابتغاء خرجة مما يَشْتَدُّ عليهم من استيلاء صَدٍّ، أو غلبات شوقٍ، أو تمادي أيامِ هَجْرٍ.

وخيانة أربابِ التوحيد أن يتحرك لهم للاختيارِ عِرْقٌ، ورجوعُهم ـ بعد امتحائِهم عنهم ـ إلى شظية من أحكام الفَرْقِ، اللهم إلا أن يكونَ ذلك منهم موجوداً، وهم عنه مفقودون.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.

إذا أصابهم ضُرٌّ أو مَسَّهم ـ ما هو في الظاهر ـ ذُلٌّ من الأعادي يجري عليهم ضَيْمٌ، أو يلحقهم من الأجانب استيلاءٌ وظلمٌ.. فالحقُّ ـ سبحانه ـ ينتقِمُ من أعدائهم لأجْلِهم، فهم بنعت التسليم والسكون في أغلب الأحوال، وتفاصيلُ الأقدارِ جاريةٌ باستئصالِ مَنْ يناويهم، وبإحالة الدائرة على أعاديهم. وفي بعض الأحايين ينصبهم الحقُّ سبحانه بنعت الغَلَبَةِ والتمكين من نزولهم بساحات مَنْ يناوئهم بِحُسْنِ الظَّفَر، وتمامِ حصولِ الدائرة على مَنْ نَاصَبَهم، وأخزاهم بأيديهم، وكلُّ ذلك يتفق، وأنواعُ النصرةِ من الله ـ سبحانه ـ حاصلةٌ، واللَّهُ ـ في الجملةِ ـ غالِبٌ على أمره.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾.

المظلومُ منصورٌ ولو بعد حين، ودولة الحق تغلب دولة الباطل، والمظلومُ حميدُ العقبى، والظالمُ وشيك الانتقام منه بشديد البلوى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ [النمل: ٥٢]. وقد يجري من النَّفْسِ وهواجِسها على القلوبِ لبعضِ الأولياءِ وأهلِ القصةِ ـ ظُلْمٌ، ويَحْصُلُ لِسُكَّانِ القلوب من الأحوال الصافية عنها جلاءٌ، وتستولي غَاغَةُ النَّفس، فتعمل في القلوب بالفساد بسبب استيطانِ الغفلة حتى تتداعى القلوبُ للخراب من طوارق الحقائق وشوارق الأحوال، كما قال قائلهم:

أنعي إليكَ قلوباً طالما هَطَلَتْ ... سحائبُ الجودِ فيها أبْحُرَ الحِكَم

فَيَهْزِمُ الحقُّ ـ سبحانه ـ بجنودِ الإقبالِ أَرَاذِلَ الهواجسِ، وينصرُ عَسْكَرَ التحقيقِ بأَمْدَادِ الكشوفات. ويَتَجَدَّدُ دارسُ العهد، وتطْلُعُ شموسُ السَّعْدِ في ليالي الستر، وتُكْنَسُ القلوبُ وتتطهر من آثارِ ظُلْمَةِ النَّفْسِ، كما قيل:

أطلالُ سُعْدَى باللِّوى تَتَجَدَّدُ

فإذا هبَّتْ على تلك القلوب رياحُ العناية، وزال عنها وهج النسيان سقاها الله صَوْبَ[1] التجلِّي، وأنبت فيها أزهارَ البَسْط فيتضح فيها نهارُ الوَصْلِ، ثم يوجد فيها نسيم القرب إلى أن تطلع شموس التوحيد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.

يتجاوز عن الأصاغر لِقَدْرِ الأكابر، ويعفو عن العوام لاحترام الكرام.. وتلك سُنَّةٌ أجراها الله لاستنقاء منازل العبادة، واستصفاء مناهل العرفان. ولا تحويل لِسُنَّتِه، ولا تبديل لكريم عادته.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾.

إذا طالت بهم المدةُ، وساعَدَهم العمرُ لم يستفرغوا أعمالَهم في استجلاب حظوظهم، ولا في اقتناء محبوبهم من الدنيا أو مطلوبهم، ولكن قاموا بأداء حقوقنا.

وقوله: ﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في الظاهر، واستداموا المواصلات في الباطن.

ويقال إقامة الصلاة الوفاء بأدائها؛ فتَعْلَمَ ـ بين يدي الله ـ مَنْ أنت، ومَنْ تناجي، وَمنْ الرقيب عليك، ومن القريب منك.

وقوله: ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: الأغنياء منهم يوفون بزكاة أموالهم، وفقراؤهم يُؤْتُون زكاةَ أحوالهم؛ فزكاة الأموال عن كل مائتين خَمْسَة للفقراء والباقي لهم، وزكاة الأحوال أن يكون من مائتي نَفَسٍ تسعة وتسعون ونصف جزء ومائة لله، ونصف جزء من نَفَسٍ ـ من المائتين ـ لَكَ.. وذلك أيضاً عِلَّةٌ.

قوله: ﴿وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾: يبتدئون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأَنْفُسِهم ثم بأغيارهم، فإذا أخذوا في ذلك لم يتفرغوا من أنفسهم إلى غيرهم.

ويقال «الأمر بالمعروف» حفظ الحواس عن مخالفة أمره، ومراعاة الأنفاس معه إجلالاً لِقَدْرِه.

---

(١) الصَّوْب: المطر بقدر ما ينفع ولا يؤذي.

ويقال الأمر بالمعروف على نَفْسك، ثم إذا فَرَغْتَ من ذلك تأخذ في نهيها عن المنكر. ومنْ وجوهِ المنكرِ الرياءُ والإعجابُ والمساكنةُ والملاحظةُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

في الآيات تسليةٌ للنبي ـ ﷺ، وأمرٌ حَتْمٌ عليه بالصبر على مقاساة ما كان يلقاه من قومه من فنون البلاءِ وصنوفِ الأسواء.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾.

الظلمُ يوجِبُ خرابَ أوطانِ الظالم، فتخرب أولاً أوطان راحة الظالم وهو قلبه، فالوحشةُ التي هي غالبةَ على الظَّلَمَةِ من ضيقِ صدورهم، وسوءِ أخلاقهم، وفَرْطِ غيظ مَنْ يَظْلِمُونَ عليهم.. كل ذلك من خراب أوطان راحاتهم، وهو في الحقيقة من جملة العقوبات التي تلحقهم على ظلمهم.

ويقال خرابُ منازلِ الظَّلَمَةِ ربما يتأخر وربما يتعجل. وخرابُ نفوسهم في تعطلها عن العبادات لِشُؤْم ظُلْمِهم، وخرابُ قلوبهم باستيلاءِ الغفلة عليهم خصوصاً في أوقات صلواتهم وأوان خلواتهم.. نقدٌ غير مستأخر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾.

الإشارة في ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾: إلى العيون المتفجرة التي كانت في بواطنهم، وكانوا يستقون منها، وفي ذلك الاستقاء حياةُ أوقاتِهم من غلبات الإرادة وقوة المواجيد، فإذا اتصفوا بظلمهم غَلَبَ غُثاؤها[1] وانقطع ماؤها بانسداد عيونها.

والإشارة في ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ إلى تعطيل أسرارهم عن ساكنيها من الهيبة والأُنْسِ، وخُلُوُّ أرواحهم من أنوار المحابّ، وسلطان الاشتياق، وصنوف المواجيد.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

كانت لهم قلوبٌ من حيث الخلقة، فلما زايلتها صفاتُها المحمودةُ صارت كأنها لم تكن في الحقيقة. ثم إنه أخبر أن العمى عمى القلب وكذلك الصم. وإذا صَحَّ وصفُ القلبِ بالسمع والبصر صَحَّ وصفُه بسائر صفات الحيِّ من وجوه الإدراكات؛ فكما تبصر القلوبُ بنور اليقين يُدْرِكُ نسيمُ الإقبال بِمَشَامِّ السِّرِّ، وفي الخبر:

---

(١) الغُثاء: ما يحمله السيل من القمش. أو ما يجيء فوق السيل مما يحمله من الزبد والوسخ وغيره. (لسان العرب ١٥/ ١١٥ ـ ١١٦ مادة: غثا).

«إني لأجد نَفَسَ ربكم من قِبَل اليمن»(١) وقال تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩٤] وما كان ذلك إلا بإدراك السرائر دون اشتمام ريح في الظاهر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

عَدَمُ تصديقهم حَمَلَهم على استعمال ما توعدهم به، قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨] ولو آمنوا لصدَّقوا، ولو صدَّقوا لَسَكَنُوا. ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾: أي إنَّ الأيامَ عنده تتساوى، إذ لا استعجالَ له في الأمور؛ فسواء عنده يوم واحد وألف سنة؛ إذ مَنْ لا يَجْرِي عليه الزمانُ وهو يُجْرِي الزمانَ فَسَوَاء عليه وجودُ الزمانِ، وعدم الزمان وقِلة الزمانِ وكَثْرَةُ الزمانِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾.

الإمهال يكون من الله ـ سبحانه وتعالى، والإمهال يكون بأَنْ يَدَعَ الظالمَ في ظُلْمِه حيناً، ويوسِّع له الحَبْل، ويطيل به المهل، فيتوهم أنه انفلت من قبضة التقدير، وذلك ظنه الذي أراده، ثم يأخذه من حيث لا يَرْتَقِب، فيعلوه نَدَمٌ، ولات حينه، وكيف يستبقي بالحيلة ما حق في التقدير عَدَمُه؟

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

أُشابِهُكُم في الصورة ولكني أُبَايِنُكم من حيث السريرة، وأنا لِحُسْنِكم بشير، ولِمُسِيئِكُم نذير، وقد أَيَدْتُ بإقامةِ البراهينِ ما جِئتكم به من وجوهِ الأمر بالطاعة والإحسان.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

الناس ـ في المغفرة ـ على أقسام: فمنهم من يستر عليه زَلَّتَه، ومنهم من يستر عليه أعماله الصالحة صيانةً له عن الملاحظة، ومنهم من يستر حاله لئلا تُصيبَه مِنَ الشهرةِ فتنةٌ، وفي معناه قالوا:

لا تُنْكِرَنْ جُحْدِي هَوَاكَ فإنما ... ذاك الجحودُ عليكَ سِتْرٌ مُسْبَلُ

ومنهم مَنْ يستره بين أوليائه، لذلك وَرَدَ في الكتب: «أوليائي في قبائي، لا يشهد أوليائي غيري».

(١) للحديث رواية أخرى تقول: «إني لأجد نفس الرحمن من قبل..» أخرجه العجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٢٥١ ـ ٣٠٤.

﴿والرزق الكريم﴾ ما يكون من وجه الحلال. ويقال ما يكون من حيث لا يَحْتَسِب العبدُ.

ويقال هو الذي يبدو - من غير ارتقابٍ - على رِفْقٍ في وقت الحاجة إليه.

ويقال هو ما يَحْمِلُ المرزوقَ على صَرْفِه في وَجْهِ القربة. ويقال ما فيه البركة.

ويقال الرزق الكريم الذي يُنال من غير تعب، ولا يتقلد مِنَّةَ مخلوق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِيٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

في الحال في مَعَجَّلِه الوحشةُ وانسدادُ أبوابِ الرشدِ، وتنغصُ العَيْش، والابتلاءُ بمن لا يعطف عليه ممن لا يخافون الله.

وفي الآخرة ما سيلقون من أليم العقوبة على حسب الإجرام.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

الشياطين يتعرَّضون للأنبياء عليهم السلام ولكن لا سلطانَ ولا تأثيرَ في أحوالهم منهم، ونبيُّنا - ﷺ - أفضل الجماعة.

وإنما من الشيطان تخييلٌ وتسويل من التضليل. وكان لنبيِّنا - ﷺ - سَكَتَاتٌ في خلال قراءة القرآن عند انقضاء الآيات، فيتلَفَّظ الشيطانُ ببعض الألفاظ، فَمَنْ لم يكن له تحصيلٌ تَوَهَّمَ أنه كان من ألفاظِ الرسولِ - عليه الصلاة والسلام وصار فتنةً لقومٍ.

أما - الذين أيدهم بقوة العصمة، وأدركتهم العناية فقد استبصروا ولم يُضِرْهُم ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾.

إذا أراد اللَّهُ بِعَبْدِه خيراً أمدَّه بنور التحقيق، وأَيَّده بحسن العصمة، فيميِّز بحسن البصيرة بين الحق والباطل؛ فلا يُظِلُّه غمامُ الرِّيَبِ، وينجلي عنه غطاءُ الغَفْلة، فلا تأثير لضبابِ الغَداةِ في شُعاع الشمس عند متوع النهار، وهذا معنى قوله:

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

لم يتخصص مُلكه ـ سبحانه ـ بيوم، ولم تتحدد له وقتيةُ أَمْرٍ، ولا لجلاله قَدْرٌ، ولكنَّ الدعاوى في ذلك اليوم تنقطعُ، والظنون ترتفع، والتجويزات تتلاشى؛ فللمؤمنين وأهل الوفاق نِعَمٌ، وللكفار وأصحاب الشقاق نِقَم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾:

هؤلاء لهم عذاب مهين، وهؤلاء لهم فضل مبين.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟...﴾: للقلوب حلاوةُ العرفان، وللأرواح حُلَّةُ المحاب، وللأسرار دوام الشهود.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

إدخالاً فوق ما يَتَمَنّونه، وإبقاءً على الوصف الذي يُهْدَوْنه.. ذلك في أوان صحوهم لينالوا لطائفَ الأُنسِ على وصف الكمال، ويتمكنوا من قضايا البَسْطِ على أعلى أحوال السرور.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

نَصْرُه ـ سبحانه ـ للأولياء نَصْرٌ عزيز، وانتقامه بتمام، واستئصالُه بكمال، وإزهاقه أعداءَه بتمحيق جملتهم، وألا يحتاجَ المنصورُ إلى الاحتيالِ أو الاعتضادِ بأشكال.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

كما في أفقِ العَالَم لَيْلٌ ونهار فكذلك للسرائر ليل ونهار؛ فعند التجلي نهار وعند الستر ليل، ولليلِ السِّرِّ ونهاره زيادةٌ ونقصان، فبمقدار القبض ليلٌ وبمقدار البسط نهارٌ، ويزيد أحدُهما على الآخرِ وينقص.. وهذا للعارفين. فأمَّا المحقِّقون فَلَهم الأُنسُ والهيبةُ مكانَ قبضِ قوم وبَسْطِهم، وذلك في حَالَيْ صحوِهم ومحوهم، ويزيد أحدهما وينقص، ومنهم من يدوم نهارُه ولا يدخل له ليلٌ.. وذلك لأهل الأُنس فقط.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَـٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

إذا بدا عِلْمٌ من الحقائق حَصَلَت بمقداره شظية من الفناء لِمَنْ حَصَلَ له التجلي،

ثم يزيد ظهورُ ما يبدو ويغلب، وتتناقصُ آثارُ التفرقة وتتلاشى، قال: ﷺ: «إذا أَقبل النهارُ من ها هنا أدبر الليلُ من ها هنا» فإذا نأى العبدُ بالكليةِ عن الإحساسِ بما دون اللّهِ فلا يشهد أولاً الأشياءَ إلا للحقّ، ثم لا يشهدها إلا بالحقّ، ثم لا يشهد إلا الحق. . فلا إحساسَ له بغير الحق، ومِنْ جملة ما ينساه. . نَفْسُه والكونُ كله.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

ماءُ السماءِ يحيي الأرض بعد موتها، وماءُ الرحمةِ يحيي أحوال أهلِ الزَّلةِ بعد تَرْكِها، وماءُ العناية يحيي أحوال (. . .)[1] بعد زوال رونقها، وماء الصولة يحيي أهل القربة بعد نضوبها.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

المُلْكُ له، وهو عن الجميع غني، فهو لا يستغني بمُلْكه، بل مُلْكه بصير موجوداً بخَلْقِه إياه؛ إذ المعدوم له مقدور والمقدور هو المملوك.

ويقال كما أنه غنيٌّ عن الأجانب ممن أثبتهم في شواهد الأعداء فهو غنيٌّ عن الأكابر وجميع الأولياء.

ويقال إذا كان الغنيُّ حميداً فمعنى ذلك أنه يُعْطِي حتى يُشْكَر.

ويقال الغنيُّ الحميد المستحِقُّ للحمد: أعطى أو لم يُعْطِ؛ فإن أَعْطى استحقَّ الحمدَ الذي هو الشكر، وإنْ لم يُعْطِ استحق الحمد الذي هو المدح.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

أراد به تسخيرَ الانتفاع بها؛ فما للخَلْقِ به انتفاع ومُيَسَّرٌ له الاستمتاع به فهو كالمُسَخَّرِ له على معنى تمكينه منه، ثم يُرَاعَى فيه الإذنُ؛ فَمَنْ استمتع بشيءٍ على وجه الإباحة والإذن والدعاء إليه والأمر به فذلك إنعامٌ وإكرامٌ، ومَنْ كان بالعكس فمكرٌ واستدراج.

وأمَّا السفينة. . فإلهامُ العبد بصنعها ووجوه الانتفاع بها؛ بالحَمْل فيها وركوبها فَمِنْ أعظم إحسان الله وإرفاقه بالعبد، ثم ما يحصل بها من قَطْع المسافات البعيدة، والتوصل بها إلى المضارب النائية، والتمكن من وجوه الانتفاع ففي ذلك أعظمُ نعمة، وأكملُ عافية.

---

(١) بياض في الأصل.

وجعل الأرضَ للخَلْقِ قراراً من غير أن تميد، وجعل السماءَ بناء من غير وقوع، وجعل فيها من الكواكب ما يحصل به الاهتداء في الظلام، ثم هي زينة السماء ـ وفي ذلك من الأدلة ما يوجب ثَلَجَ الصدر وبَرْدَ اليقين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾.

إحياءُ النفوسِ وإماتتها مراتٌ محصورةٌ، وإحياءُ أوقاتِ العُبّاد وإماتتها لا حَصْرَ له ولا عَدَّ، وفي معناه أنشدوا.

أموتُ إذا ذكرتُك ثم أحيا فكم أحيا عليكَ وكم أموتُ

ويقال يُحْيي الآمالَ بإشهادِ تفضله، ثم يميتها بالإطلاع على تَعَزُّزِه.

ويقال هذه صفة العوام منهم، فأمّا الأفاضل فحياتُهم مسرمدة وانتعاشهم مؤبّد. وأنّى يحيا غيرُه وفي وجوده ـ سبحانه ـ غُنْيَةٌ وخَلَفٌ عن كل فائت؟

قوله جلّ ذكره: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾.

جَعَلَ لكلِّ فريقٍ شِرْعةً هم واردوها، ولكلِّ جماعةٍ طريقةً هم سالكوها.

وجعل لكلِّ مقام سُكّانَه، ولكلِّ محلٍّ قُطّانَه، فقد ربط كُلّاً بما هو أهلٌ له، وأوصل كلاً إلى ما جعلَه محلاً له؛ فبِساط التَّعَبُّدِ موطوءٌ بأقدام العابدين، ومشاهد الاجتهاد معمورةٌ بأصحاب التكلف من المجتهدين، ومجالسُ أصحابِ المعارفِ مأنوسةٌ بلزوم العارفين، ومنازلُ المحبين مأهولةٌ بحضور الواجدين.

قوله: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ...﴾ اشهَدْ تصاريفَ الأقدار، واعمل بموجِب التكليف، وانتهِ دون ما أُذِنْتَ له من المناهل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

كِلْهُم إلينا عندما راموا من الجدال، ولا تتكل على ما تختاره من الاحتيال، واحذر جنوحَ قلبك إلى الاستعانة بالأمثال والأشكال، فإنهم قوالبُ خاويةٌ، وأشباحٌ عن المعاني خالية.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

أمّا الأجانب فيقول لهم: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، وأمّا الأولياء فقومٌ منهم يحاسبهم حساباً يسيراً، وأقوام مخصوصون يقول لهم: بيني وبينكم حساب؛ فلا جبريلَ يحكم بينهم ولا ميكائيل، ولا نبيٌّ مرسَلٌ، ولا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ.

﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾ يحكم بينهم فيسأل عن أعماله جميعَ خصمائه، ويأمر بإرضاء جميع غُرَمَائِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾.

يعلم السِّرَّ والنجوى، وما تكون حاجةُ العبدِ له أَمَسَّ وأقوى، وبكلِّ وجهٍ هو بالعبد أَوْلى، وله أن يحمل له النُّعمى، ويزيل عنه البَلْوى، ولا يسمع منه الشكوى، فله الحُكْمُ تبارك وتعالى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ﴾.

الآية تشير أَنَّ مَنْ جملة خواصِّه أفرده ـ سبحانه ـ ببرهان، وأَيَّده ببيان، وأعزَّه بسلطان. ومَنْ لا سلطانَ له يمتد إليه قَهْرُه، ومن لا برهان له ينبسط عنه ـ إلى غيره ـ نورُه، فهو بِمَعْزِلٍ عن جملته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

لِسَمَاع الخطابِ أَثَرٌ في القلوبِ من الاستبشارِ والبهجة، أو الإنكار والوحشةِ. ثم ما تخامره السرائرُ يلوحُ على الأسِرّةِ في الظاهر؛ فكانت الآياتُ عند نزولِها إذا تُلِيَتْ على الكفارِ يلوح على وجوهِهم دُخَانُ ما تنطوي عليه قلوبُهم من ظلماتِ التكذيب، فما كان يقع عليهم طَرْفٌ إلّا نَبَأ عن جحودهم، وعادت إلى القلوب النُّبُوءةُ عن إقلاعهم.

ثم أخبر أنَّ الذي هم بصَدَدِه في الآخرةِ من أليم العقوبةِ شرٌّ بكل وجهٍ لهم مِمَّا يعود إلى الرائين لهم عند شهودهم. وإنّ المناظِرَ الوضيئةَ للرائين مُبْهِجةٌ، والمناظِرَ المُنْكَرةَ للناظرين إليها موحِشَة.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾.

نَبه الأفكارَ المُشتَّتةَ، والخواطرَ المتفرقة على الاستجماع لِسماع ما أراد تضمينه فيها؛ فاستحضرها فقال: ﴿ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ...﴾.

ثم بيَّنَ المعنى فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي وتسمونها آلهة أنها

للعبادة مستحقة لن يخلقوا بأجمعهم مذباباً، ولا دونَ ذلك. وإنْ يسلبهم الذبابُ شيئاً بأن يقع على طعام لهم فليس في وسعهم استنقاذهم ذلك منه، ومَنْ كان بهذه الصفة فَسَاءَ المَثَلُ مَثلُهم، وضَعُفَ وصفُهم، وقَلَّ خَطَرُهم.

ويقال إن الذي لا يقاوم ذباباً فيصير به مغلوباً فأهْون بِقَدْرِه!

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

ما عرفوه حقَّ معرفتِه، ولا وصفوه بجلال ما يستحقه من النعوت. ومَنْ لم يكن في عقيدته نَقْضٌ لِمَا يستحيل في وصفه ـ سبحانه ـ لم تُباشِرْ خلاصةُ التوحيدِ سِرَّه، وهو في تَرَجُّم فِكْرٍ، وتجويز ظنٍ، وخَطَرَ تعَسُّف، يقعُ في كل وهدة من الضلال.

ويقال العوامُ اجتهادُهم في رَفْضِهم الأعمالَ الخبيثةَ خوفاً من الله، والخواص جهدهم في نَقْضِ عقيدتِهم للأوصافِ التي تَجِلُّ عنها الصمدية، وبينهما (. . . .)[1] بعيد.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ قوي أي قادر على أن يُخلقَ مَنْ هو فوقهم في التحصيل وكمال العقول. ﴿عَزِيزٌ﴾: أي لا يُقَدِّرُ أحدٌ قَدْرَه ـ إلا بما يليق بصفة البشر ـ بِقَدرٍ من العرفان.

ويقال مَنْ وَجَدَ السبيلَ إليه فليس النعت له إلا بوصفِ القُصُور، ولكنْ كلٌّ بِوَجْدِه مربوطٌ، وبحدِّه في همته موقوف، والحق سبحانه عزيز.

قوله جلّ ذكره: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

الاجتباء والاصطفاءُ من الحق سبحانه بإثبات القَدْرِ، وتخصيص الطَّوْلِ، وتقديمهم على أشكالهم في المناقب والمواهب.

ثم بعضهم فوق بعضٍ درجاتٍ؛ فالفضيلةُ بحقِّ المُرْسِلِ، لا لخصوصيةٍ في الخِلْقةِ في المُرْسَلِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

يعلم حالَهم ومآلَهم، وظاهرهَم وباطنهم، ويومَهم وغدَهم، ويعلم نَقْضَهم عَهْدَهم؛ فإليه مُنْقَلَبُهم، وفي قبضتِه تَقلُّبُهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

الركوعُ والسجودُ والعبادةُ كُلُّها بمعنى الصلاة؛ لأنَّ الصلاةَ تشتمل على هذه الأفعال جميعها، ولكنْ فَرَّقَها في الذكر مراعاةً لقلبِكَ من الخوف عند الأمر بالصلاة؛

(١) بياض في الأصل.

فَقَسَّمها ليكونَ مع كلِّ لفظةٍ ومعنى نوعٌ من التخفيف والترفيه، ولقلوبِ أهلِ المعرفةِ في كل لفظةٍ راحة جديدة.

ويقال لَوَّنَ عليهم العبادةَ، وأَمَرَهم بها، ثم جميعُها عبادةٌ واحدةٌ، ووَعَدَ عليها من الثوابِ الكثيرِ ما تقْصُرُ عن عِلْمه البصائر.

ويقال عَلِمَ أَنَّ الأحبابَ يُحِبُّون سماعَ كلامِه فَطَوَّلَ عليهم القولَ إلى آخر الآية؛ ليزدادوا عند سماع ذلك أُنساً على أُنسٍ، ورَوْحاً على رَوْح، ومُعَادُ خطابِ الأحبابِ وهو رَوْحُ رُوحهم، وكمالُ راحتهم.

ثم قال بعد هذا: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ فأدخل فيه جميعَ أنواع القُرَبِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾.

﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾: حق الجهاد ما وافق الأمر في القَدْرِ والوقتِ والنوعِ، فإذا حَصَلَتْ في شيءٍ منه مخالفةٌ فليس حَقَّ جهاده.

ويقال المجاهدة على أقسام: مجاهدةٌ بالنَّفْسِ، ومجاهدةٌ بالقلبِ، ومجاهدةٌ بالمال. فالمجاهدةُ بالنفس ألا يَدَّخِرَ العبدُ ميسوراً إلا بَذَلَه في الطاعة بتحمل المشاق، ولا يطلب الرخص والإرفاق. والمجاهدةُ بالقلب صَوْنُه عن الخواطرِ الرديئةِ مثل الغفلة، والعزمُ على المخالفات، وتذكرُ ما سَلَفَ أيام الفترة والبطالات. والمجاهدة بالمال بالبذل والسخاء ثم بالجود والإيثار.

ويقال حق الجهاد الأخذ بالأشق، وتقديم الأشق على الأسهل ـ وإنْ كان في الأَخَفِّ أيضاً حق.

ويقال حق الجهاد ألا يَفْتُرَ العبدُ عن مجاهدةِ النَّفْس لحظةً، قال قائلُهم:

يا رَبُّ إنَّ جهادي غيرُ مُنقطِعٍ فكلُّ أرضٍ لي ثَغرُ طرسوس

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾.

يحتمل أنه يقول مِنْ حَقِّ اجتبائه إياكم أَنْ تُعَظِّموا أَمْرَ مولاكم.

ويحتمل أن يقال هو الذي اجتباكم، ولولا أنه اجتباكم لَمَا جَاهَدْتُم، فلاجتبائه إياك وَفَّقَكَ حتى جاهدتَ.

ويقال عَلِمَ ما كنتَ تفعله قبل أَنْ خَلَقَكَ ولم يمنعه ذلك مِنْ أَنْ يَجْتَبِيَكَ، وكذلك إنْ رأى ما فَعَلْتَ فلا يمنعه ذلك أَنْ يتجاوزَ عنك ولا يعاقبك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾.

الشرع مبناه على السهولة، والذي به تصل إلى رضوانه وتستوجب جزيلَ فضله وإحسانه، وتتخلَّص به من أليم عقابه وامتحانه ـ يسيرٌ من الأمر لا يستغرق كُنْه

إمكانك؛ بمعنى أنَّك إنْ أرَدْتَ فِعْلَه لَقَدَرْتَ عليه، وإنْ لم تِوصَفْ في الحال بأنَّك مستطيعٌ ما ليس بموجودٍ فيك.

قوله جلّ ذكره: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

أي اتَّبِعوا والزَمُوا مِلَّةَ أبيكم إبراهيم عليه السلام في البَذْلِ والسخاء والجود والخلة والإحسان.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾.

اللَّهُ هو الذي اجتباكم، وهو الذي بالإسلام والعرفان سَمَّاكم المسلمين. وقيل إبراهيم هو الذي سماكم المسلمين بقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

قوله: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾، نَصَبَ الرسولَ بالشهادة علينا، وأمره بالشفاعة لأمته، وإنما يشهد علينا بمقدار ما يُبْقى للشفاعة موضعاً ومحلاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

وتلك الشهادة إنما نؤديها لله، ومَنْ كانت له شهادة عند أحد ـ وهو كريم ـ فلا يجرح شاهده، بل يسعى بما يعود إلى تزكية شهوده.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾.

أقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ بحكم الإتمام، ونعت الاستدامة، وجميل الاستقامة.

والاعتصامُ بالله التبري من الحول والقوة، والنهوض بعبادة الله بالله لله. ويقال الاعتصام بالله التمسكُ بالكتاب والسنة. ويقال الاعتصامُ بالله حُسْنُ الاستقامة بدوام الاستعانة.

﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾: سيدكم وناصركم والذي لا خلف عنه.

﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ نِعْمَ المولى: إخبارُ عن عظمته، ونعم النصير: إخبارُ عن رحمته.

ويقال إن قال لأيوب: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ [ص: ٤٤] ولسليمان: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ [ص: ٣٠] فلقد قال لنا: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾، ومدحه لِنفسه أعزُّ وأجلُّ من مدحه لك.

ويقال: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾: بَدَأَكَ بالمحبة قبل أنْ أحببتَه، وقبل أن عَرَفْتَه أو طَلَبْتَه أو عَبَدتَه.

﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾: إذا انصرف عنكَ جمع مَنْ لَكَ فلا يدخل القبرَ معك أحدٌ كان ناصِرَك، ولا عند السؤال أو عند الصراط.

السورة التي يذكر فيها المؤمنون

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

الاسم اشتقاقه من السمو، وللمسمى بهذا الاسم استحقاقُ العلو، فالاسم اسم لسموِّه من القِدَم، والحقُّ حقٌّ لعلوِّه بحق القِدَم.

ويقال مَنْ عرف «بسم الله» سمت هِمَّتهُ عن المرسومات، ومَنْ أَحبَّ بسم الله صَفَتْ حالته عن مساكنة الموهومات.

اسمٌ مَنْ طَلَبَه نَسِيَ من الدارين أَرَبَه، ومَنْ عَرَفَه وَجَدَ بقلبه ما لا يعرِف سَبَبَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾.

ظَفِرَ بالبُغْيَةِ وفاز بالطِّلْبَةِ مَنْ آمَنْ بالله.

و «الفَلَاحُ»: الفوزُ بالمطلوبِ والظَّفَرُ بالمقصود.

والإيمانُ انتسامُ الحقِّ في السريرة، ومخامرةُ التصديقِ خلاصةَ القلب، واستمكانُ التحقيقِ من تأمور[1] الفؤاد.

والخشوعُ في الصلاة إطراقُ السِّرِّ على بِساطِ النَّجوى باستكمالِ نَعْتِ الهيبة، والذوبانِ تحت سلطان الكشف، والامتحاءِ عند غَلَبَاتِ التَّجلِّي.

ويقال أَدْرَكَ ثَمَرَاتِ القُرْبِ وفَازَ بكمالِ الأُنْسِ مَنْ وَقَفَ على بِساط النجوى بنعت الهيبة، ومراعاةِ آداب الحضرة. ولا يَكْمَلُ الأُنْسُ بلقاءِ المحبوب إلا عند فَقْدِ الرقيب. وأشدُّ الرقباء وأكثرهم تنغيصاً لأوان القرب النَّفْسُ؛ فلا راحةَ للمُصَلِّي مع حضورِ نَفْسه، فإذا خنس عن نَفْسِه وشاهِدِه عَدِمَ إحساسَه بآفاتِ نَفْسِه، وطابَ له العيشُ، وتَمَّتْ له النُّعْمَى، وتَجلَّتْ له البُشْرى، ووَجَدَ لذَّةَ الحياةِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾.

ما يَشغَلُ عن الله فهو سَهْوٌ، وما لي لله فهو حَشْوٌ، وما ليس بمسموعٍ من الله أو بمعقولٍ مع الله فهو لَغْوٌ، وما هو غير الحق سبحانه فهو كُفْرٌ، والتعريجُ على شيءٍ من هذا بُعْدٌ وهَجْرٌ.

---

(١) التامور: دم القلب وحبّته وحياته، وقيل: هو القلب نفسه. (لسان العرب ٤/ ٣٣ مادة: أمر).

ويقال ما ليس بتقريظِ الله ومَدْحِه من كلام خُلْقِه فكل ذلك لغو.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾.

الزكاةُ النَّماءُ، ومَنْ عَمَلُه للنماءِ فأمارةُ ذلك أن يكونَ بنقصانه في نفسِه عن شواهده ولا يبلغ العبدُ إلى كمالِ الوصفِ في العبودية إلا بذوبانه عن شاهده.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾.

لفروجِهم حافظون ابتغاءَ نَسْلٍ يقوم بحقِّ اللَّهِ، ويقال ذلك إذا كان مقصودُه التعففَ والتصاونَ عن مخالفاتِ الإثم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾.

أي مَنْ جَاوزَ قَصْدَ إيثار الحقوق، وجَنَحَ إلى جانب استيفاء الحظوظ... فقد تَعدَّى مَحَلَّ الأكابر، وخالف طريقتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾.

الأماناتُ مختلفةٌ، وعند كلِّ أحدٍ أمانةٌ أخرى، فقومٌ عندهم الوظائفُ بظواهرهم، وآخرون عندهم اللطائف في سرائرهم، ولقومٍ معاملاتُهم، ولآخرين منازلاتهُم، ولآخرين مواصلاتهم.

وكذلك عهودهم متفاوتة فمنهم مَنْ عاهده ألا يَعْبُدَ سواه، ومنهم مَنْ عَاهَده ألا يشهدَ في الكونين سواه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

لا تصادفهم الأوقات وهم غير مستعدين، ولا يدْعُوهم المُنَادِي وهم ليسوا بالباب، فهم في الصف الأول بظواهرهم، وكذلك في الصف الأول بسرائرهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

الإرث على حسب النَّسب، وفي استحقاق الفردوسِ بوصف الإرثِ لِنَسَبِ الإيمان في الأصل، ثم الطاعات في الفضل.

وكما في استحقاق الإرث تفاوتٌ في مقدار السهمان: بالفرض أو بالتعصيب ـ فكذلك في الطاعات؛ فمنهم مَنْ هم في الفردوس بنفوسهم، وفي الأحوال اللطيفة بقلوبهم، ثم هم خالدون بنفوسهم وقلوبهم جميعاً لا يبرحون عن منال نفوسهم ولا (...)[1] عن حالات قلوبهم.

---

(١) بياض في الأصل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾.

عَرَّفهم أصلَهم لئلا يُعْجَبُوا بِفعلِهم.

ويقال نَسَبَهُم لئلا يخرجوا عن حَدِّهم، ولا يغلطوا في نفوسهم.

ويقال خَلَقَهم من سُلالَةٍ سُلَّتْ من كل بقعه؛ فمنهم مَنْ طينته من جَرْدَةٍ[1] أو من سَبْخَةٍ أو من سَهْلٍ، أو من وَعْرٍ... ولذلك اختلفت أخلاقهم.

ويقال بَسَطَ عُذْرَه عند الكافة؛ فإنَّ المخلوقَ من سلالة من طين... ما الذي يُنْتَظرُ منه؟!

ويقال خلقهم من سلالة من طين، والقَدْرُ للتربية لا للتربة.

ويقال خلقهم من سلالة ولكنَّ مَعْدِنُ المعرفةِ ومَرْتَعُ المحبةِ ومتعلقُ العناية منه لهم؛ قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾ [المائدة: ٥٤].

ويقال خَلَقَهم، ثم من حالٍ إلى حالٍ نَقَلَهم، يُغَيِّر بهم ما شاء تغييره.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا﴾.

قطرةٌ أجزاؤُها متماثِلةٌ، ونُطْفَةٌ أبعاضُها متشاكِلة، ثم جعل بعضها لحماً وبعضَها عَظْماً، وبعضَها شَعْراً، وبعضها ظُفْراً، وبعضها عَصَباً، وبعضها جِلْداً، وبعضها مُخّاً، وبعضها عِرْقاً. ثم خَصَّ كُلَّ عضوٍ بهيئةٍ مخصوصةٍ، وكلَّ جُزْءٍ بكيفيةٍ معلومةٍ. ثم الصفاتُ التي للإنسان خَلَقَها متفاوتةً، من السَّمْعِ والبَصَرِ والفِكْرِ والغَضَبِ والقدرةِ والعلم والإرادةِ والشجاعةِ والحقد والجودِ والأوصافِ التي يتقاصر عنها الحَصْرُ والعَدُّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾.

في التفاسير أنه صورة الوجه، ويحتمل ما تركب فيه من الحياة، واخْتُصَّ به السَّمْع والبصر والعقل والتمييز، وما تفرَّد به بعضٌ منهم بمزايا في الإلهام العام للعقل وسائر الإدراكات.

ويقال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾: وهو أن هَيَّأهم لأحوالٍ عزيزة يُظْهِرها عليهم بعد بلوغهم، إذا حصل لهم كما التمييز من فنون الأحوال؛ فلقوم تخصيصٌ بزينة العبودية، ولقومٍ تحرُّرٌ من رِقِّ البشرية، ولآخرين تحقُّقٌ بالصفاتِ الصَّمدية بامتحائهم عن الإحساس بما هم عليه وبه من الأحوال التي هي أوصاف البشرية.

---

(١) الجرد: من الأرض: ما لا نبات فيه (ج) أجارد.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

خلق السمواتِ والأرضين بجملتها، والعرشَ والكرسيَّ، مع المخلوقات من الجنة والنار بكليتها ـ ثم لمَّا أخبر بذلك لم يعقبه بهذا التمدح الذي ذكره بعد نعت خَلْقِهِ بني آدم تخصيصاً لهم وتمييزاً، وإفراداً لهم من بين المخلوقات.

ويقال إنْ لم يَقُلْ لَكَ إنَّكَ أحسنُ المخلوقاتِ في هذه الآية فلقد قال في آية أخرى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

ويقال إن لم تكن أنت أحسن المخلوقات وأحسن المخلوقين ـ ولم يُثْنِ عليك بذلك فلقد أثنى على نفسه بقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾، وثناؤه على نفسه وتمدحه بذلك أعزُّ وأجلُّ من أن يثني عليك.

ويقال لما ذكر نعتَك، وتاراتِ حالِكَ في ابتداء خَلْقَك، ولم يكن منك لسانُ شكرٍ ينطق، ولا بيانُ مدحٍ ينطلق... نَابَ عنك في الثناء على نفسه، فقال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾.

أنشدوا:

آخر الأمر ما ترى … القبر واللحد والثرى

وأنشدوا:

حياتُنا عندنا قروضٌ … ونحن بعد الموت في التقاضي
لا بُدَّ مِنْ ردِّ ما اقترضنا … كلُّ غريم بذاك راضي

ويقال نعاك إلى نفسك بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ وكلُّ ما هو آتٍ فقريب.

ويقال كسر على أهلِ الغفلة سطوةَ غفلتهم، وقلَّ دونهم سيفَ صولتِهم بقوله: ثم إنكم بعد ذلك لميتون، وللجمادِ مُضاهون، وعن المكنة والمقدرة والاستطاعة والقوة لَمُبْعَدُون، وفي عِداد ما لا خَطَرَ له من الأمواتِ معدودون.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾.

فعند ذلك يتصل الحسابُ والعقابُ، والسؤالُ والعتابُ، ويتبين المقبولُ من المردودِ، والموصولُ من المهجور.

ويومُ القيامة يومٌ خوَّفَ به العالَم حتى لو قيل للقيامة: ممن تخافين؟ لقالت من القيامة. وفي القيامة ترى الناسَ سُكَارَى حَيَارَى لا يعرفون أحوالَهم، ولا يتحققون بما

تؤول إليه أمورهم، إلى أن يتبيَّنَ لكلِّ واحدٍ أَمْرُه؛ خَيْرُه وشَرُّه: فيثقل بالخيرات ميزانُه، أو يخف عن الطاعاتِ أو يخلو ديوانهُ. وما بين الموت والقيامة: فإمَّا راحاتٌ مُتَّصِلَة، أو آلام وآفاتٌ غير منفصلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾.

الحقُّ ـ سبحانه ـ لا يستتر عن رؤيته مُدْرَكٌ، ولا تخفى عليه ـ من مخلوقاته ـ خافية. وإنما الحُجُبُ على أبصارِ الخَلْقَ وبصائرهم؛ فالعادةُ جاريةٌ بأنه لا يخلق لنا الإدراك لِمَا وراء الحُجُبِ. وكذلك إذا حلَّتْ الغفلةُ القلوبَ استولى عليها الذهول، وانسدَّت بصائرها، وانتفت فهومها.

وفوقنا حُجُبٌ ظاهرة وباطنة؛ ففي الظاهر السمواتُ حجبٌ تحول بيننا وبين المنازل العالية، وعلى القلوب أغشية وأغطية كالمُنْية والشهوة، والإرادات الشاغلة، والغفلات المتراكمة.

أمَّا المريدون فإذا أَظَلَّتْهُم سحائب الفَتْرَةِ، وسَكَنَ هيجانُ إرادتِهم فذلك من الطرائق التي عليهم.

وأما الزاهدون فإذا تحرّكَ بهم عِرْقُ الرغبة انْفَلَّتْ[1] قوة زهدهم، وضَعُفَتْ دعائمُ صَبْرِهم، فَيَتَرَخَّصُون بالجنوح إلى بعضِ التأويلاتِ، فتعودُ رغباتهم قليلاً قليلاً، وتَختَلُّ رتبةُ عزوفهم، وتَنْهَدُّ دعائم زهدهم، وبداية ذلك من الطرائق التي خَلَقَ فوقهم.

وأما العارفون فربما تِظِلُّهم في بعض أحايينهم وَقفةٌ في تصاعد سرِّهم إلى ساحاتِ الحقائق، فيصيرون مُوقَفِين ريثما يتفضّلُ الحقُّ ـ سبحانه ـ عليهم بكفاية ذلك فيجدون نفاذاً، ويرفع عنهم ما عاقهم من الطرائق.

وفي جميع هذا فإنَّ الحقَّ سبحانه غيرُ غافلٍ عن الخلقِ، ولا تاركٍ للعِبادِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾.

أنزل من السماءِ ماءَ المطر الذي هو سببُ حياةِ الأرضين، وذلك بقدرِ معلوم. ثم... البلادُ مختلفةٌ في السَّقْي: فبعضها خِصْبٌ، وبعضها جَدْبٌ، وسَنةٌ يزيد وسَنَةٌ ينقص، سنةٌ يفيض وسنةٌ يغيض.

كذلك أنزلنا من السماءِ ماءَ الرحمة فيحيي القلوب، وهي مختلفة في الشُّرْب:

---

(١) الفَلّ: الثلم في السيف. (اللسان ١١/ ٥٣٠ مادة: فلل).

فمِنْ موسَّعٍ عليه رزقه منه، ومِنْ مُضَيَّقٍ مُقَتَّرٍ عليه. ومِن وقتٍ هو وقت سحٍّ، ومِنْ وقتٍ هو وقت حَبْسٍ.

ويقال ماء هو صوب الرحمة يزيل به دَرنَ العُصاةِ وآثارَ زلَّتِهم وأوضارَ عثرتِهم، وماء هو سقي قلوبهم يزيل به عطَشَ تحيهم، ويحيي به موات أحوالهم؛ فَتَنْبُت في رياض قلوبهم فنونُ أزهار البسط، وَصنوف أنوار الروح. وماءٌ هو شراب المحبة فيخص به قلوباً بساحات القرب، فيزيل عنها به حشمة الوصف، وَيسكن به قلوباً فيعطلها عن التمييز، وَيحملها على التجاسرِ ببذلِ الرُّوح؛ فإذا شربوا طَرِبوا، وإذا طَرِبوا لم يُبالوا بما وَهَبوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

كما يحيي بماءِ السماءِ الغياضَ والرياض، ويصنِّف فيها الأزهارَ والأنوارَ، وتثمر الأشجارُ وتجري الأنهار... فكذلك يَسْقِي القلوبَ بماءِ العرفان فتورق وتثمر بعدما تزهر، وتؤتي أكلَها: من طيب عيش، وكمالِ بسطٍ، ثم وفورِ هيبة ثم رَوْح أُنسٍ، ونتائج تَجَلٍّ، وعوائد قُرْبٍ... إلى ما تتقاصر العباراتُ عن شرحه، ولا تطمع الإشارات في حَصْره.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[1].

الإشارات منه أنَّ الكدوراتِ الهاجمةَ لا عِبْرَةَ بها ولا مبالاة؛ فإنَّ اللَّبنَ الخالصَ السائغَ يخرجُ من أخلاف الأنعام من بين ما تنطوي حواياها عليه من الوحشة، لكنه صافٍ لم يؤثر فيه منها بحُكم الجِوار، وكذلك الصفاءُ يوجد أكثره من عين الكدورة؛ إذ الحقيقة لا يتعلق بها حقٌّ ولا باطل. ومَنْ أشرفَ على سِرِّ التوحيد تحقَّقَ بأنَّ ظهور جميع الحدثان من التقدير، فتسقط عنه كلفة التمييز، فالأسرار عند ذلك تصفو، والوقت لصاحبه لا يجفو.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾: لازمةٌ لكم، ومتعدية منكم إلى كلِّ متصلٍ بكم:

إنّي - على جَفَواتِها - بربِّها ... وبكلِّ متَّصِلٍ بها مُتَوَسِّلُ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

يحفظهم في الفينة في بحار القطْرة، ويحفظهم في سفينة السلامة والعصمة في

(١) الآية (٢٠) لم ترد.

بحار القُدْرة، وإنَّ بحارَ القدرة تتلاطم أمواجها، والناسُ فيها غَرْقَى إلا مَنْ يحفظه الحقُّ ـ سبحانه ـ في سفينة العناية.

وصفةُ أهلِ الفُلكِ إذا مستْهم شِدَّة خوفِ الغَرَقِ ما ذكَر الله في قوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] كذلك مَنْ شاهدَ نفسه على شَفَا الهلاكِ والغرقِ، والتجأ إلى صِدْق الاستعانة ودوام الاستغاثة فعند ذلك يحميه الحقُّ ـ سبحانه ـ من مخلوقات التقدير. ويقال إنَّ وَجهَ الأرضِ بحارُ الغفلة، وما عليه الناسُ من أسباب التفرقة بحارٌ مهلكةٌ والناس فيها غرقى. وكما قال بعضهم:

الناسُ بحرٌ عميقٌ والبعدُ عنهم سفينهْ

وقد نصحتُك فانظر لِنفسِكَ المسكينهْ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

كَرَّرَ قصةَ نوح لِمَا فيها من عظيم الآيات من طولِ مقامه في قومه، وشدةِ مقاساة البلاء منهم، وتمام صبره على ما استقبله في طول عمره، ثم إهلاك الله جميع مَنْ أَصَرَّ على كفرانه، ثم إهلاك الله جميع مَنْ أصَرّ على كفرانه، ثم لم يغادِرْ منهم أحداً، ولم يبال ـ سبحانه ـ بأنْ أهلك جملتهم. ولقد ذكر في القصص أن امرأةً من قومه لما أخذهم الطوفان كان لها مولودٌ، فَحَمَلَتْه وقامت حاملةً له ترفعه عن الطوفان، فلمَّا بلغ الماءُ إلى يدها رفعته إلى ما فوق رأسها ـ قدْرَ ما أمكنها ـ إبقاءً على وَلَدِها، وإشفاقاً عليه من الهلاك، إلى أن غلَبَها الماءُ وتَلِفَتْ وولدها. فأوحى الله إلى نوح ـ عليه السلام ـ لو أني كنتُ أَرْحَمُ واحداً منهم لَرَحِمْتُ تلك المرأة وولدها.

وفي الخبر أن نوحاً كان اسمه يشكر، ولكثرة ما كان يبكي أوحى الله إليه: يا نوح... إلى كم تنوح؟ فسمَّاه نوحاً. ويقال إنّ ذنبَه أنه مرّ يوماً بكلبٍ فقال: ما أوحشه!

فأوحى الله إليه: اخلق أنت أَحْسَنَ من هذا! فكان يبكي معتذراً عن قالته تلك. وكان قومُه يلاحظونه بعين الجنون، وما زاد لهم دعوةً إلا ازدادوا عن إجابته نبوةً، وما زاد لهم صفوةً إلا ازدادوا على طول المدة قسوةً على قسوة.

ولما عمل السفينة ظهر الطوفان، وأدخل في السفينة أَهْلَه، تعرّض له إبليسُ ـ كما جاء في القصة ـ وقال: احْمِلْني معك في السفينة، فأبى نوح وقال: يا شقيُّ... تطمع في حملي إياك وأنت رأسُ الكفَرَةِ؟!

فقال إبليسُ: أَمَا عَلِمْتَ ـ يا نوحُ ـ أَنّ الله أنْظَرني إلى يوم القيامة، وليس ينجو اليومَ أحدٌ إلّا في هذه السفينة؟

فأوحى الله إلى نوح أن احمله فكان إبليسُ مع نوح في السفينة، ولم يكن لابنه معه مكانٌ في السفينة. وفي هذا ظهور عين التوحيد وأن الحكم من الله غير معلول لأنه إن كان المعنى في أن ابنه لم يكن معه له مكان لكُفْرِه فبإبليس يُشكل... ولكنها أحكامٌ غيرُ معلولة، وجاز له ـ سبحانه ـ أن يفعل ما يريد: يَصِلُ مَنْ شاء ويَرُدُّ مَنْ شاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾(١).

الإنزالُ المباركُ أن يكون بالله ولله، وعلى شهودِ الله من غير غفلة عن الله، ولا مخالفاً لأمر الله.

ويقال الإنزال المبارك الاستيعاب بشهود الوصف عنك، ثم الاستغراق باستيلاء سلطان القُرْب عليك، ثم الاستهلاك بإحداق أنوار التجلّي حتى لا تبقى عين ولا أثر، فإذا تَمَّ هذا ودام هذا فهو نزولٌ بساحات الحقيقة مبارك؛ لأنك بلا أنت... بكليتك من غير بقيةٍ أو أثرٍ عنك.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾(٢).

تتابعت القرونُ على طريقةٍ واحدةٍ في التكذيب، وغرّهم طولُ الامهالِ، وما مكنَّهم من رَفَهِ العيش وخَفْض الدّعَةِ، فلم يقيسوا إلا على أنفسهم، ولم يَسْمُ لهم طَرَفٌ إلى مَنْ فوقهم في الحال والمنزلة، فقالوا: أنؤمن بمن يتردد في الأسواق، وينتفع مثلنا بوجوه الأرفاق؟ ولئن أطعنا بشراً مثلنا لَسَلَكنا سبيلَ الغَيِّ، وتَنَكَبْنا سُنَّةَ الرُّشْدِ. فأجراهم اللّهُ في الإهانةِ وإحلال العقوبة بهم مجرًى واحداً، وأذاقهم عذابَ الخزْي. وأعظمُ ما دَاخَلَهم من الشُّبهةِ والاستبعادِ أمرُ الحشْرِ والنشر، ولم يرتقوا للعلم بأنَّ الإعادة كالابتداء في الجواز وعدم الاستحالة، والله يهدي مَنْ يشاء ويُغْوِي مَنْ يريد.

ثم إن الله في هذه السورة ذَكَرَ قصةَ موسى عليه السلام، ثم بعده قصةَ عيسى عليه السلام، وخَصَّ كُلَّ واحدٍ منهم بآياته الباهرة ومعجزاته الظاهرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾(٣).

كلوا من الطيبات مما أَحلَّ لكم وأباح، وما هو محكوم بأنه طيب ـ على شريطة مطابقة رُخْصَةِ الشريعة ـ مما كان حلالاً في وقتهم، مطلقاً مأذوناً لهم فيه. وكذلك

---

(١) الآيات من (٢٤ ـ ٢٨) لم ترد. (٢) الآية (٣٠) لم ترد.
(٣) الآيات (٣٢ ـ ٥٠) لم ترد.

أعمالهم الصالحة ما كان موافقاً لأمر الله في زمانهم بفنون طاعاتهم في أفعالهم وعقائدهم وأحوالهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ .

معبودكم واحدٌ، ونبيُّكم واحد، وشرعكم واحد؛ فأنتم في الأصول شرعٌ سواءٌ، فلا تسلكوا ثِنْيَاتِ الطرق[1] فتطيحوا في أودية الضلالة. وعليكم باتباع سَلَفِكم، واحذروا موافقة ابتداع خَلَفكم.

﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ خافوا مخالفةَ أمري، واعرفوا عظيمَ قَدْرِي، واحفظوا في جريان التقدير سِرِّي، واستديموا بقلوبكم ذكري، تجدوا في مآلكم غفري، وتَحْظَوْا بجميلِ بِرِّي.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ .

فمستقيم على حَقِّه، وتائه في غَيِّه، ومُصِرٌّ على عصيانه وفِسْقِه، ومقيمٌ على إحسانه وصِدْقه، كُلٌّ مربوطٌ بحدِّه، موقوفٌ بما قُسِمَ له في البداية من شأنه، كلٌّ ينتحل طريقَته ويدَّعى بحسن طريقته حقيقةً، وعند صحوِ سماءِ قلوبِ أربابِ التوحيدِ لا غُبارَ في الطريق؛ وهم على يقين معارفهم؛ فلا رَيْبَ يتخالجهم ولا شُبْهة.

وأهل الباطل في عَمَى جَهْلِهم، وغبارِ جُحْدِهم، وظلمة تقليدهم، ومحنة شكهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ .

إنَّ مدةَ أَخْذِهم لقريبةٌ، والعقوبة عليهم ـ إذا أُخِذُوا ـ لشديدة، ولسوف يتبين لهم خطؤهم من صوابهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ .

هذا في شأن أصحاب الاستدراج من مَكْرِ الحقِّ بهم بتلبيس المنهاج؛ رَأَوا سَرَاباً فَظَنّوه شراباً، ودَس لهم في شهْدِهم صاباً فتوهموه عِذَاباً[2]، وحين لقوا عَذَاباً عَلِموا أنهم لم يفعلوا صواباً.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ .

أمارةُ الإشفاق من الخشيةِ إطراقُ السريرة في حال الوقوف بين يدي الله بشواهد الأدب، ومحاذرةُ بَغَتَاتِ الطَّرْد، لا يستقر بهم قرارٌ لِمَا داخَلَهم من الرُّعْبِ، واستولى عليهم من سلطانِ الهيبة.

---

(١) الثني من الوادي: منعطفه.

(٢) العِذاب: (ج) العَذْب: من الشراب والطعام: كل مستساغ. (لسان العرب ١/ ٥٨٣ مادة: عذب).

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

تلك الآياتُ مختلفةٌ؛ فمنها ما يُكاشَفون به في الأقطار من اختلاف الأدوار، وما فيه الناس من فنون الهِمَمَ وصنوفِ المُنى والإرادات، فإذا آمن من العبدُ بها، واعتبر بها اقتنع بما يرى نَفْسَه مطالَباً به.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾.

يَذَرُون جَليَّ الشِّرْكِ وخَفِيَّه؛ والشِّرْكُ الخفيُّ ملاحظةُ الخَلْق في أوانِ الطاعات، والاستبشارُ بمَدْحِ الخَلْقِ وقبولهم، والانكسارُ والذبولُ عند انقطاع رؤية الخلْق.

ويقال الشِّرْكُ الخفيُّ إحالةُ النادرِ من الحالات ـ في المَسَارِّ والمَضَارِّ ـ على الأسباب كقول القائل: «لولا دعاءُ أبيك لهلكت» و«لولا هِمَّةُ فلان لما أفلحت». . . وأمثال هذا؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

وكذلك تَوَهُّمُ حصولِ الشِّفَاءِ من شُرْبِ الدواء.

فإذا أيقن العبدُ بِسرِّه ألا شيء من الحدثان، ولم يتوهم ذلك، وأيقن ألّا شيء إلا من التقدير فعند ذلك يبقى عن الشِّرْكِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾.

يُخْلِصُون في الطاعات من غير إلمام بتقصير، أو تعريج في أوطانِ الكسل، أو جنوحٍ إلى الاسترواح بالرُّخَص. ثم يخافون كأنَّهم ألَمُّوا بالفواحش، ويلاحظون أحوالَهم بعينِ الاستصغار والاستحقار، ويخافون بغتاتِ التقدير، وقضايا السخط، وكما قيل:

يتجنَّبُ الآثامَ ثم يخافها ... فكأنَّما حَسَناتُه آثامُ

قوله جل ذكره: ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾.

مُسارِعٌ بِقَدَمِه من حيث الطاعات، ومُسارِعٌ بِهِمَمِه من حيث المواصلات، ومُسارِعٌ بِنَدَمِه من حيث تجرُّع الحسرات، والكلُّ مصيبٌ، وللكلِّ من إقباله ـ على ما يليق بحاله ـ نصيب.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

المطالباتُ في الشريعةِ مُضَمَّنَةٌ بالسهولة، وأمَّا مطالباتُ الحقيقة فكما قالوا: ليس إلّا بَذْل الروح، ولهذا فهم لا تشغلهم التُّرُّهَات[1]. قال لأهل الرخص والمستضعفين في الحال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وأمَّا أربابُ الحقائق؛

(١) الترهات: الأباطيل، واحدتها تُرهة، وهي في الأصل الطرق الصغار المتشعبة عن الطريق الأعظم. (اللسان ١٣/ ٤٨٠ مادة: تره).

فقال: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] وقال: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥] وقال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨].

قوله: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: لولا غفلتُهم عن مواضع الحقيقة لما خوَّفهم بكتابة المَلَكِ، ولكن غفلوا عن شهود الحق فخوَّفهم باطلاعِ الملائكة، وكتابَتِهم عليهم أعمالهم.

قوله جل ذكره: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾.

لا يَصْلُحُ لهذا الشأن إلا من كان فارغاً من جميع الأعمال، لا شغلَ له في الدنيا والآخرة، فأمَّا مَنْ له شُغْلٌ بدنياه، أو على قلبِه حديثُ عقباه، فليس له نصيبٌ من حديث مولاه، وفي الخبر «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ»(١).

ويقال أصحاب الدنيا مشغولون بدنياهم، وأرباب العُقبى مشغولون بعُقباهم، وأهل النار مشغولون بما ينالهم من بلواهم؛ وإن الذي له في الدنيا والآخرة غير مولاه ـ حين الفراغ ـ عزيز؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ [يس: ٥٥].

قوله جل ذكره: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾.

إنه ـ سبحانه ـ يُمْهِلُ ولكنَّه لا يُهْمِلُ؛ فإذا أخَذَ فَبَطْشُه شديدٌ، قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]... فإذا أخَذَ أصحابُ الكبائرِ ـ حين يحل بهم الانتقامُ ـ في الجوابِ رُدُّوا في الهوان، ويقال لهم:

﴿لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾.

فإذا انفصل من الغيبِ حُكْمٌ فلا مَرَدَّ لتقديره..

ويقال للجناية سراية؛ فإذا أمسك الجاني عن الجناية فلا ينفعه ذلك ما لم يمض حكم السراية.

---

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٨/ ١٠٩)، والترمذي في (السنن ٢٣٠٤)، وابن ماجه في (السنن ٤١٧٠)، وأحمد بن حنبل في (المسند ١/ ٣٤٤)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٣/ ٣٧٠)، وابن أبي شيبة في (المصنف ١٣/ ٢٤٣)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥١٥٥) والهيثمي في (مجمع الزوائد ١٠/ ٢٩٠)، وابن الجوزي في (زاد المسير ٩/ ٢٢٢)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٤/ ٤٤٣)، وابن المبارك في (الزهد ٢)، والذهبي في (الطب النبوي)، وأحمد بن حنبل في (الزهد ٤٣٥)،وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ٢٢٩)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٦٤٤٤)، والسيوطي في (الدر المنثور ٦/ ٣٨٨)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٣/ ٧٤، ٨/ ١٧٤)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ١٦٦).

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾.

ذَكَرَ هذا من باب إملاءِ العُذْرِ، وإلزام الحجة، والقطع بألا ينفعَ ـ الآنَ ـ الجزعُ ولا يُسْمَعُ العُذْرُ، والملوكُ إذا أبرموا حُكْماً، فالاستغاثةُ غيرُ مُؤَثِّرَةٍ في الحاصل منهم، قال قائلهم:

إذا انصرفَتْ نفسي عن الشيء لم تكد إليه بوجهٍ ـ آخِرَ الدهرِ ـ تُقْبِلُ

قوله جل ذكره: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

يعني أنهم لو أنعموا النظر، وسلطوا على أحوالهم صائبَ الفِكْر لاستبصروا في الحال، ولانتفى عن قلوبهم الاستعجامُ والإشكال، ولكنهم استوطنوا مركبَ الكسل، وعرَّجُوا في أوطان التغافل، فتعودوا الجهل، وأيِسوا من الاستبصار.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾.

ذُهِلُوا عن التحقيق فتَطَوَّحُوا في أودية المغاليط، وتَرجَّمَتْ بهم الظنونُ الخاطئةُ، ومَلَكَتْهُم كواذبُ التقديرات، فأخبر اللَّهُ (الرسول)[1] عن أحوالهم؛ فمرةً قابلوه بالتكذيب، ومرةً رَمَوْه بالسِّحرِ، ومرةً عابوه بتعاطيه أفعالَ العادة بما عليه الناس من المآكل والمشارب، ومرةً قَدَحُوا فيه بما هو فيه من الفقر وقِلَّةِ ذات اليد... فأخبر اللَّهُ عن تَشَتُّتِ أحوالِهم، وتَقَسُّم أفكارهم[2].

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾.

وذلك لتضادِّ مُنَاهم وأهوائِهم؛ إذ هم متشاكسون في السؤال والمراد، وتحصيلُ ذلك مُحَالٌ تقديرُه في الوجود. فَبَيَّنَ الله ـ سبحانه ـ أنه لو أجرى حُكْمَه على وفق مرادِهم لاختلَّ أمرُ السمواتِ والأرض، ولَخَرَجَ عن حَدِّ الإحكام والإتقان.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

أي إنَّكَ لا تُطالبهم على تبليغ الرسالة بأجرٍ، ولا بإعطاءِ عِوَضٍ حتى تكونَ بموضع التهمة فيما تأتيهم به من الشريعة. أم لعلَّكَ تريد أن يَعْقِدُوا لكَ الرياسة. ثم قال: والذي لَكَ من الله سبحانه من جزيل الثواب وحسن المآب يُغْنيك عن التصدِّي لنَيْل ما يكون في حصوله منهم مطمع. وهذا كان سُنَّة الأنبياء والمرسلين؛ عملوا لله ولم يطلبوا أجراً من غير الله. والعلماءُ وَرَثَةُ الأنبياء فسبيلُهم التوقِّي عن التَّدَنُّسِ

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.
(٢) الآية (٧٠) لم ترد.

بالأطماع، والأكلِ بالدِّين فإنه رِياءٌ مُضِرٌّ بالإيمان؛ فإذا كان العملُ لله فالأجرُ مُنتَظَرٌ من الله، وهو موعودٌ من قِبَل الله.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

الصراطُ المستقيم شُهودُ الربِّ بنعت الانفراد في جميع الأشياء، وفي الإيجاد، والاستسلام لقضايا الإلزام بمواطأة القلب من غير استكراهِ الحُكْم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾.

زاغوا عن الحجة المُثْلى بقلوبهم فوقعوا في جحيم الفرقة، وستميل وتزل أقدامُهم غداً عن الصراط، فيقعون في نار الحرقة؛ فهم ناكبون في دنياهم وعقباهم.

قوله جل ذكره: ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

أخبر عن صادق علمه بهم، وذلك صادر عن سابق حُكْمِه فيهم، فقال: لو كشفنا عنهم في الحال لم يفوا بما يعدون من أنفسهم من الإيمان في المآل، ولقد عَلِمَ أنهم سيكفرون، وحَكَمَ عليهم بأنهم يكفرون؛ إذ لا يجوز أن يكون حُكْمُه فيهم بخلافِ عِلْمه بهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾.

أذقناهم مقدماتِ العذابِ دونَ شدائِده... تنبيهاً لهم، فما انتبهوا وما انزجروا، ولو أنهم إذ رأوا العذاب فزعوا إلى التضرع والابتهالِ لأسرع اللَّهُ زواله عنهم، ولكنهم أصرُّوا على باطلهم، لِيَقْضِيَ اللَّهُ أمراً كان مفعولاً.

قوله جل ذكره: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾.

لما أحللنا بهم أشدَّ العقوبات ضَعُفُوا عن تَحمُّلِها، وأُخِذُوا بغتةً، ولم ينفعهم ما قدَّموا من الابتهال، فَيَئِسُوا عن الإجابة، وعرَّجوا في أوطان القنوط.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

ذكر عظيمَ مِنَّتِهِ عليهم بأن خَلَقَ لهم هذه الأعضاء، وطالَبَهم بالشكر عليها.

وشُكْرُهُمْ عليها استعمالُها في طاعته؛ فَشُكْرُ السَّمْعِ ألا تسمعَ إلا بالله ولله، وشُكْرُ البَصَر ألا تنظرَ إلا بالله لله، وشكرُ القلب ألَّا تشهدَ غيرَ الله، وألَّا تحبَّ به غيرَ الله.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

الابتداءُ للحادثاتِ من الله بدءاً، والانتهاءُ إليه عوداً، والتوحيد ينتظم هذه المعاني؛ فتعرف أنَّ الحادثات بالله ظهوراً، ولله مِلْكاً، ومن الله ابتداءً، وإلى الله انتهاءً.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

يُحْيي لنفوسَ ويُميتُهَا والمعنى في ذلك معلومٌ، وكذلك يحيي القلوبَ ويميتها؛ فموتُ القلب بالكُفرِ والجُحد، وحياةُ القلبِ بالإيمان والتوحيد، وكما أنَّ للقلوب حياةً وموتاً فكذلك للأوقات موتٌ وحياةٌ، فحياةُ الأوقاتِ بيُمْنِ إقباله، وموتُ الأوقاتِ بمحنة إعراضه، وفي معناه أنشدوا:

أمــوت إذا ذكــرتــك ثــم أحــيــا ... فــكــم أحيــا عــلـيـك وكـم أمـوت

قوله: ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾؛ فليس كلُّ اختلافها في ضيائها وظلمتها، وطولها وقِصَرِها، بل ليالي المحبين تختلف في الطول والقِصَر، وفي الروح والنوح؛ فَمِنَ الليالي ما هو أضوأ من اللآلي، ومن النهار ما هو أشدُّ من الحنادس، يقول قائلهم: ليالِيَّ بعد الظاعنين شُكولُ.

ويقول قائلهم:

وكَمْ لظلامِ الليلِ عِنْدِيَ من يدٍ ... تُخَبِّرُ أَنَّ المانويةَ تكذِبُ

وقريب من هذا المعنى قالوا:

ليالي وصالٍ قد مَضَيْن كأنَّها ... لآلي عقودٍ في نحور الكواعبِ[1]

وأيامُ هَجْرٍ أعقبتها كأنَّها ... بياضُ مشيبٍ في سواد الذوائبِ

قوله جل ذكره: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

سلكوا في التكذيب مَسْلَكَ سَلَفِهم، وأسرفوا في العناد مثل سَرَفِهم، فأصابهم ما أصاب الأولين من هلاكهم وتَلَفِهم.

قوله: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا﴾ لمَّا طال عليهم وقتُ الحشر، وما توعدهم به من العذاب بعد البعث والنَّشر زَادَ ذلك في ارتيابهم، وجعلوا ذلك حُجَّةً في لَبْسِهم واضطرابهم، فقالوا: لقد وُعِدْنا مثل هذا نحن وآباؤنا، ثم لم يكن لذلك تحقيق، فما نحن إلَّا أمثالُهم. فاحتجَّ اللَّهُ عليهم في جواز الحشر بما أقروا به من ابتداء الخَلْق:

فقال جل ذكره: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾.

---

(١) نحور. (ج) نحر: أعلى الصدر، وموضع القلادة منه.
الكواعب: (ج) الكاعب: كعبت الفتاة: نهد ثديها.

أمَرَه ـ عليه السلام ـ أَنْ يُلَوِّنَ عليهم الأسئلة، وعَقَّبَ كُلَّ واحدٍ من ذلك ـ مُخْبِراً عنهم ـ أنهم سيقولون: لله، ثم لم يَكْتَفِ منهم بقالتهم تلك، بل عاتَبَهم على تجرُّدِ قولهم عن التَّذَكُّر والفَهْم والعلم، تنبيهاً على أن القول ـ وإن كان في نفسه صدقاً ـ فلم تكن فيه غنية؛ إذ لم يصدر عن علمٍ ويقينٍ.

ثم نَبَّهَهُمْ على كمالِ قدرته، وأنَّ القدرة القديمة إذا تعلَّقت بمقدورٍ له ضدٌّ تعلَّقت بضدِّه، ويتعلق بمثل متعلقه.

والعَجَبُ من اعترافهم بكمال أوصاف جلاله، ثم تجويزهم عبادةَ الأصنامِ التي هي جماداتٌ لا تحيا، ولا تضرُّ ولا تنفع.

ويقال أولاً قال: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، ثم قال بعده: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ فقدَّمَ التذكُّرَ على التقوى؛ لأنهم بتذكرهم يَصِلُون إلى المغفرة، ثم بعد أن يعرفوه فإنهم يجب عليهم اتقاءُ مخالفته. ثم بعد ذلك: ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾؛ أي بعد وضوح الحجة فأيُّ شكٍّ بَقِيَ حتى تنسبوه إلى السِّحْرِ؟

قوله جل ذكره: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

بَيَّنَ أنهم أصرُّوا على جحودهم، وأقاموا على عُتُوِّهم ونُبُوِّهم، وبعد أن أُزيحت العِلَلُ فلات حين عذر. وليس لتجويز المُسَاهَلَةِ موجِبٌ بَتّاً.

قوله جل ذكره: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾.

اتخاذ الأولاد لا يصحُّ كاتخاذ الشريك، والأمران جميعاً داخلان في حدِّ الاستحالة، لأن الولد أو الشريك يوجب المساواة في القَدْرِ، والصمدية تتقدَّسُ عن جواز أن يكون له مِثْلٌ أو جنس.

قوله جل ذكره: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

كُلُّ أمرٍ نِيطَ[1] باثنين فقد انتفى عنه النظامُ وصحةُ الترتيب، وأدلة التمانع مذكورة في مسائل الأصول.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ تقديساً له، وتنزيهاً عما وصفوه به. ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾: تَنَزَّهَ عن أوهام مَنْ أشرك، وظنون مَنْ أفِك.

قوله جل ذكره: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾.

يقول إن عجلت لهم ما تتوعدهم به فلا تجعلني في جملتهم، ولا توصل إليَّ

---

(١) نيط عليه الشيء: عُهد به إليه.

سوءاً مثلما توصل إليهم من عقوبتهم. وفي هذا دليلٌ على أنَّ للحقّ أن يفعلَ ما يريد، ولو عذَّبَ البريء لم يكن ذلك منه ظلماً ولا قبيحاً[1].

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ﴾.

تدل على صحة قدرته على خلاف ما عَلِمَ؛ فإنه أخبر أنه قادر على تعجيل عقوبتهم ثم لم يفعل ذلك، فَصَحَّتْ القدرةُ على خلاف المعلوم.

قوله جل ذكره: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾.

الهمزة في ﴿أحسن﴾ يجوز ألا تكون للمبالغة؛ ويكون المعنى ادفع بالحسن السيئة. أو أن تكون للمبالغة؛ فتكون المكافأة جائزةً والعفوُ عنها ـ في الحُسْنِ ـ أشدَّ مبالغةً.

ويقال ادفع الجفاءَ بالوفاء، وجُرْمَ أهل العصيانِ بحكم الإحسان.

ويقال ادفع ما هو حظك إذا حصل ما هو حق له.

ويقال اسلك مسلكَ الكَرَم، ولا تجنح إلى طريق المكافأة.

ويقال الأحسنُ ما أشار إليه القَلبُ، والسيئةُ ما تدعو إليه النَّفسُ.

ويقال الأحسنُ ما كان بإشارة الحقيقة، والسيئةُ ما كان بوساوس الشيطان.

ويقال الأحسنُ نورُ الحقائقِ، والسيئةُ ظلمةُ الخلائق.

قوله جل ذكره: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾.

الاستعاذة ـ على الحقيقة ـ تكون بالله من الله كما قال ﷺ: «أعوذ بك منك»[2]، ولكنه ـ سبحانه ـ أراد أن نَعْبُدَه بالاستعاذة به من الشيطان، بل مِنْ كلِّ ما هو مُسَلَّطٌ علينا، والحقُّ عندئذٍ يوصل إلينا مضرتنا بجري العادة. وإلَّا.. فلو كان بالشيطان من إغواء الخَلْقِ شيءٌ لكان يُمْسِكُ على الهدايةِ نَفْسَه! فَمَنْ عَجَزَ عن أنْ يحفَظَ نَفْسَه كان عن إغواءِ غيرِه أشَدَّ عجزاً، وأنشدوا:

جحودي فيك تلبيس ... وعقلي فيك تهويس
فَمَنْ آدم إلَّاكَ ... ومن في (...)[3] إبليس

---

(١) الآية (٩٤) لم ترد.

(٢) أخرجه مسلم (صلاة ٢٢٢)، وأبو داود (صلاة ١٤٨)، (وتر، ٥)، والترمذي (دعوات ١١٢) والنسائي (طهارة ١١٩)، (سهو ٨٩)، وابن ماجه (دعاء ٣)، وأحمد بن حنبل ١، ٩٦، ١١٨، ١٥٠، ٦، ٥٨، ٢٠١.

(٣) بياض في الأصل.

قوله جل ذكره: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

إذا أخذ البلاءُ بخناقهم، واستمكن الضُّرُّ من أحوالهم، وعلموا ألّا محيصَ ولا محيدَ أخذوا في التضرُّع والاستكانة، ودون ما يرومون خرطُ القتادِ! ويقال لهم هلّا كان عُشْرُ عشرِ هذا قبلَ هذا؟ ولقد قيل:

قلتُ للنفسِ: إنْ أردتِ رجوعاً فارجعي قبل أنْ يُسدَّ الطريق

قوله جل ذكره: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾.

يومئذٍ لا تنفع الأنسابُ وتنقطعُ الأسبابُ، ولا ينفع الندم، وسيلقى كلٌّ غِبَّ ما اجترم؛ فَمَنْ ثَقُلَتْ بالخيرات موازينُه لاحَ عليه تزيينُه. ومن ظهرَ ما يشينه فله من البلاء فنونه؛ تلفح وجوههم النار، وتلمح من شواهدهم الآثار، ويتوجه عليهم الحِجاج، فلا جواب لهم يُسْمَع، ولا عُذْر منهم يُقْبل، ولا عذاب عنهم يُرْفَع، ولا عقابُ عنهم يُقْطَع(1).

قوله جل ذكره: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾.

نطقوا بالحقِّ... ولكن في يومٍ لا ينفع فيه الإقرار، ولا يُقْبَلُ الاعتذار، ثم يقولون:

قوله جل ذكره: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾.

والحقُّ يقول: لو رُدُّوا لعادوا لما نُهوا عنه. عِلَمَ أنَّ ردَّهم إلى الدنيا لا يكون، ولكنه عِلم أنّه لو كان فكيف كان يكون.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾.

عند ذلك يتمُّ عليهم البلاء، ويشتدُّ عليهم العناء، لأنهم ما داموا يذكرون الله لم يحصل الفراق بالكلية، فإذا حِيلَ بينهم وبين ذكره تتم لهم المحنة، وهو أحدُ ما قيل في قوله: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

وفي الخبر: «أنهم ينصرفون بعد ذلك فإذا لهم عواءٌ كعواء الذئب». وبعض الناس تغار من أحوالهم؛ لأن الحق يقول لهم: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا﴾، فيقولون: يا ليتنا يقول لنا! أليس هو يخاطبنا بذلك؟! وهؤلاء يقولون: قَدْحُ الأحباب ألذُّ من مَدْح الأجانب، وينشدون في هذا المعنى:

أتاني عنكِ سَبُّكِ لي.. فسُبّي أليس جرى بِفيكِ اسمي؟ فحسْبي

---

(1) الآيات من (١٠٢ حتى ١٠٥) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾.

الحقُّ ـ سبحانه ـ ينتقم من أعدائه بما يطيِّبُ به قلوبَ أوليائه، وتلك خصومةُ الحق، فيقول: قد كان قومٌ من أوليائي يُفْصِحون بمدحي وثنائي، ويتصفون بمدحي وإطرائي، فاتخذتموهم سخرياً... فأنا اليوم أُجازيهم، وأنتقم ممن كان يناويهم.

قوله جل ذكره: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

عددُ سنين الأشياء ـ وإن كانت كثيرة ـ فقد تقصر أو تقل بالإضافة إلى ما يوفي ويُرْبي عليها، كذلك مدة مقامهم تحت الأرض؛ إن كانوا في الراحة فقد تقل بالإضافة إلى الراحات التي يلقونها في القيامة، وإن كانت شدائد فتتلاشى في جنب ما يرونه ذلك اليوم من أليم تلك العقوبات المتوالية.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾.

العبثُ اللهو، واللَّعِبُ والاشتغالُ بما يُلْهِي عن الحقِّ، والله لم يأمر العبادَ بذلك، ولم يَدْعُهم إلى ذلك، ولم يندبهم إليه.

والعابثُ في فِعْلِهِ مَنْ فِعْلُه على غير حدِّ الاستقامة، ويكون هازلاً مُسْتَجْلِباً بفعله أحكامَ اللهوِ إلى نَفْسه، متمادياً في سهوه، مستلذَّ التفرقةِ في قصده. وكلُّ هذا من صفات ذوي البشرية، والحقُّ ـ سبحانه ـ مُنزَّهُ النَّعت عن هذه الجملة، فلا هو يفعل شيءَ عابث، ولا بشيء منَ العَبَث آمِرٌ.

قوله جل ذكره: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾.

الحقُّ ـ بنعوت جلاله ـ متوحِّدٌ، وفي عِزِّ آزاله وعلوِّ أوصافه متفرِّدٌ، فذاتُه حقٌّ، وصفاته حقٌّ، وقولُه صِدْقٌ، ولا يتوجَّه لمخلوق عليه حقٌّ، وما يفعله من إحسان بعباده فليس شيء منها بمستحق.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾: ما تَجمَّلَ بالعرشِ، ولكن تَعزَّزَ العرشُ بأنَّهُ أضافه إلى نَفْسِه إضافة خصوصية.

والكريمُ الحَسَنُ، والكرمُ نَفْيُ الدناءة.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

حسابُه على الله في آجِلِه. وعذابُه من الله له في عاجله، وهو الجهل الذي أودعَ

قلبَه حتى رَضِيَ بأن يَعْبُدَ معه غيرَه. وقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] كلامٌ حاصلٌ من غير دليل عقل، ولا شهادة خبرٍ أو نقل، فما هو إلا إفك وبهتان، وقولٌ ليس يساعده برهان.

قوله جل ذكره: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

اغفرْ الذنوبَ، واسترْ العيوبَ، وأجْزِلْ الموهوب. وارحمْ حتى لا تستولي علينا هواجمُ التفرقة ونوازل الخطوب. والرحمةُ المطلوبةُ بالدعاء من صنوف النعمة، ويسمى الحاصل بالرحمة باسم الرحمة على وجه التوسع وحكم المجاز.

السورة التي يذكر فيها النور

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

بسم الله اسم نذيرُ الوفاةِ فُرْقَتُه، اسم بشيرُ الحياة وصلته، اسم سببُ الرَّوْح عرفانُه، اسم راحةُ الرُّوح إحسانُه، اسم كمالُ الأُنْسِ إقبالُه، اسم فتنةُ قلوبِ المُهَيَّمين جمالُه، اسم مَنْ شَهِدَه دامت سلامته، اسم مَنْ وَجَدَه قامت قيامتُه، اسم لا إليه حظوة، ولا بدونه سلوة.

قوله جل ذكره: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا﴾ [النور: ١].

سورة هي شَرَفٌ لك ـ يا محمد ـ أنزلناها لأن أقلَّ ما ورد به التحدي سورة؛ فكلُّ سورةٍ شَرَفٌ له عليه السلام لأنها له معجزة، بيَّناها وشرعنا فيها من الحلال والحرام، وبيَّنا فيها من الأحكام لكم به اهتداء، وللقلوب من غمرة الاستعجام شفاء.

أنزلنا فيها آياتٍ بيناتٍ، ودلائلَ واضحاتٍ، وحُجَجاً لائحات؛ لتتذكروا تلك الآيات، وتعتبروا بما فيها من البراهين والبينات.

قوله جل ذكره: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾.

والعقوبة على الزنا شديدة أكيدة، ولكن جعل إثباتَ أمره وتقريرَ حُكْمِه والقطعَ بكونه على أكثر الناسِ خصلةً عسيرةً بعيدةً؛ إذ لا تُقْبَلُ الشهادةُ عليه حتى يقولُ: رأيتُ ذلك منه في ذلك منها! وذلك أمرٌ ليس بالهيِّن، فسبحان مَنْ أَعْظَمَ العقوبةَ على تلك الفَعْلَةِ الفحشاء، ثم جعل الأمر في إثباتها بغايه الكدِّ والعناء! وحين اعترف واحدٌ له بذلك قال له ﷺ: «لعلَّك قَبَّلْتَ... لعلَّك لامَسْتَ» وقال لبعض أصحابه: «استنكهوه»[1] وكلُّ ذلك رَوْماً لِدَرْءِ الحدِّ عنه، إلى أن ألحَّ وأصرَّ على الاعتراف.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾.

ما يأمر به الحقُّ فالواجب مقابلته بالسمع والطوع.

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ١/ ٢٣٨ ـ ٢٧٠ ـ ٢٨٩)، والحاكم في (المستدرك ٤/ ٣٦١)، والطبراني في (المعجم الكبير ١١/٣٣٨)، والدارقطني في (السنن ٣/ ١٢١)، والقرطبي في (التفسير ١٩/١٠٥).

والرحمة من موجب الشرع وهو المحمود، فأمّا ما يقتضيه الطَّبعُ والعادة والسوء فمذمومٌ غيرُ محمود. ونهى عن الرحمة على من خَرَقَ الشرعَ، وتَرَكَ الأمرَ، وأساءَ الأدبَ، وانتصبَ في مواطنِ المخالفة.

ويقال نهانا عن الرحمة بهم، وهو يرحمهم بحيث لا يمحو عنهم ـ بتلك الفَعْلة الفحشاء ـ رقم الإيمان، قال رسول الله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»(١) ولولا رحمته لما استبقى عليه حُلّة إيمانه مع قبيح جُرْمِهِ وعصيانه.

قوله جل ذكره: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي لِيَكُونَ عليهم أشَدَّ، وليكون تخويفاً لمتعاطي ذلك الفعل، ثم من حقِّ الذين يشهدون ذلك الموضعَ أن يتذكروا عظيمَ نعمةِ الله عليهم أنهم لم يفعلوا مِثْله، وكيف عَصَمَهم من ذلك. وإن جرى منهم شيءٌ من ذلك يذكروا عظيمَ نعَمةِ الله عليهم؛ كيف سَتَرَ عليهم ولم يفضحهم، ولم يُقِمْهم في الموضع الذي أقام فيه هذا المُبْتَلَى به. وسبيلُ من يشهد ذلك الموضعَ ألا يُعَيِّرَ صاحبَه بذلك، وألا ينسى حُكْمَ الله تعالى في إقدامه على جُرْمِه.

قوله جل ذكره: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

الناسُ أشكالٌ؛ فكلُّ نظيرٍ مع شكله، وكلُّ يُساكِنُ شكله، وأنشدوا:

عن المرء لا تسأل وسَلْ عن قرينه فكلُّ قرينٍ بالمُقَارَنِ يقتدي

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٣/ ١٧٨، ٧/ ١٣٦، ٨/ ١٩٥ ـ ١٩٧)، ومسلم في الصحيح (الإيمان ب٢٤ رقم ١٠٠ ـ ١٠٥)، وأبو داود في (السنن ٤٦٨٩)، والترمذي في (السنن ٢٦٢٥)، والنسائي في (السنن ٨/ ٦٤ ـ ٦٥ ـ ٣١٣)؛ وابن ماجه في (السنن ٣٩٣٦)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٣٧٦، ٣/ ٣٤٦، ٦/ ١٣٩)، وعبد الرزاق في (المصنف ٣٦٨٨) والبيهقي في (السنن الكبرى ١٠/ ١٨٦)، والدارمي في (السنن ٢/ ١١٥)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ١/ ١٠٠ ـ ١٠١ ـ ١٥٢، ٧/ ٢٩٥)، وابن أبي شيبة في (المصنف ٤/ ٤٠٤ ـ ٤٠٥، ٨/ ٦ ـ ٩ ـ ١١، ١٤، ٣٢، ٣٣)، والطبراني في (المعجم الكبير ١١/ ٢٤٤، ١٢/ ٣٤٦)، وابن عبد البر في (التمهيد ٤/ ٢٣٦، ٩/ ٢٤٣ ـ ٢٥٥)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢/ ٢٥٤، ٨/ ٥١١)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٣٠٩ ـ ١٣١٠، ١٣١١ ـ ١٣٢٥، ١٣٢٦ ـ ١٧٣٣)، وابن حجر في (فتح الباري ٥/ ١١٩، ١٢/ ٨١ ـ ١١٤)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٣/ ٢٤٩)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٣/ ١٦٤ ـ ٣٢٢ ـ ٣٦٩ ـ ٢٥٦، ٨/ ١١٧ ـ ٢٥٧) والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥٣)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٣/ ٢٤٧)، والآجري في (الشريعة ١١٣)، وابن أبي شيبة في (الإيمان ٣٩ ـ ٤٠)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٢/ ١٤٢، ٥/ ٢٢٣، ١١٨، ١٠/ ٤٥٦)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ١/ ٢٩٨ ٢/ ٥٠٧ ـ ٥٤٢ ـ ٦٢٧ ـ ٦٣١، ٥/ ١٨٧، ٦/ ٢٢٠٥، ٧/ ٢٧٠٧).

فأهلُ الفسادِ الفسادُ يجمعهم ـ وإنْ تَبَاعَدَ مزارُهم وأهل السدادِ السدادُ يجمعهم ـ وإن تناءت ديارهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

لئلا يستبيحوا أعراضَ المسلمين، ولئلا يهتكوا أستارَ الناس أمَرَ بتأديبهم، وإقامةِ الحدِّ عليهم إذا لم يأتوا بالشهداء.

ثم بالَغ في عدد الشهود، وألَّا تُقبَلَ تلك الشهادةُ إلَّا بالتضرع التام، ثم أكمله بقوله ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾. وفي الخبر المسند قوله عليه السلامَ: «مَنْ أتى منكم بشيءٍ من هذه القاذورات فليستتر بستر الله، فإنَّ مَنْ أبدى لنا صفحته، أقمنا عليه حدَّ الله»[(١)].

قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

جَعَلَ من شرطِ قبولِ شهادتِهِ صِحَّةَ توبته، وجعل علامةَ صحةِ توبته إصلاحَه، فقال: ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾، وهو أن تأتي على توبته مدةٌ تنتشر فيها بالصلاح صفتُه، كما اشتَهَرتْ بِهَتْكِ أعراضِ المسلمين قالتهُ. . كلُّ هذا تشديداً لمن يحفظ على المسلمين ظاهر صلاحه.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

لمّا ضاق الأمرُ على من رأى أهلَه على فاحشة، إذ أن في ذلك قبول نسبٍ غير صحيح ـ فقد نهى الشرعُ عن استلحاقه ولداً مِنْ غيره. وكان أمراً محظوراً هتكُ عِرْضِ المرأة والشهادةُ عليها بالفحشاء، إذ يجوز أن يكون الأمر في المُعيب؛ أي بخلاف ما يدَّعيه الزوجُ. ولأن ذلك أمرٌ ذو خَطَرٍ شَرَعَ اللّهُ حُكْمَ اللعان[(٢)] ليكون للخصومة

---

(١) للحديث روايات أخرى: «من أصاب من هذه القاذورات شيئاً فليستتر بستر الله. .» أخرجه الموطأ (حدود ١٢).
ورواية تقول: «اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله عنها» أخرجه الطحاوي في (مشكل الآثار ١/ ٢٠).

(٢) اللعان: لاعن امرأته في الحكم ملاعنة ولعان، ولاعن الحاكم بينهما لعاناً: حكم، والملاعنة بين الزوجين إذا قذف الرجل امرأته أو رماها برجل أنه زنى بها، فالإمام يُلاعن بينهما ويبد أبا لرجل ويقفه حتى يقول: أشهد بالله أنها زنت بفلان، وإنه لصادق فيما رماها به، فإذا قال ذلك أربع مرات قال في الخامسة: وعليه لعنة الله إن كان من الكاذبين فيما رماها به، ثم تُقام المرأة فتقول أيضاً أربع مرات: أشهد بالله أنه لمن الكاذبين فيما رماني به من الزنا، ثم تقول في الخامسة: وعليَّ غضب الله إن كان من الصادقين، فإذا فرغت من ذلك بانت منه ولم تحل له أبداً، وإن كانت حالاً فجاءت بولد=

قاطعاً، وللمُقْدِم على الفاحشة زاجراً، ففي مثل هذه الأحوال عنها خَرْجَةٌ. ولولا أنَّ الله على كل شيءٍ قدير وإلا ففي عادة الناس.. مَنِ الذي يهتدي لِمِثْلِ هذا الحكم لولا تعريفٌ سماوي وأمر نبوي، من الوحي مُتَلَقَّاهُ، ومِنَ اللَّهِ مُبْتَداهُ وإليه منتهاهُ[١]؟

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾.

لبقيتم في هذه الواقعة المعضلة، ولم تهتدوا للخروج من هذه الحالة المشكلة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

هذه قصة عائشة رضي الله عنها، وما كان من حديث الإفك.

بَيَّنَ اللَّهُ ـ سبحانه ـ أنه لا يُخْلِي أحداً من المحنة والبلاء، في المحبة والولاء؛ فالامتحان من أقوى أركانه وأعظم برهانه وأصدق بيانه، كذلك قال ﷺ «يُمْتَحَنُ الرجلُ على قَدْرِ دينه»، وقال: «أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل».

ويقال إن الله ـ سبحانه ـ غيورٌ على قلوب خواصِّ عباده، فإذا حصلت مساكنةُ بعضٍ إلى بعضٍ يُجْرِي الله ما يَرُدُّ كُلَّ واحدٍ منهم عن صاحبه، ويردُّه إلى نفسه، وأنشدوا:

إذا عَلِقَت روحي بشيءٍ، تعلَّقَتْ ... به غِيَرُ الأيام كي تسلُبَنِّيا

وإن النبي ـ ﷺ ـ لمَّا قيل له: أي الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة»[٢] فساكنها.

وفي بعض الأخبار أن عائشة قالت: «يا رسول الله إني أحبك وأحب قربك»...

= فهو ولدها ولا يلحق بالزوج، لأن السنة نفته عنه سمي ذلك كله لعاناً لقول الزوج: عليه لعنة الله إن كان من الكاذبين، وقول المرأة: عليها غضب الله إن كان من الصادقين. (لسان العرب ١٣/ ٣٨٨ مادة: لعن).

(١) الآيات (٧، ٨، ٩) لم ترد.

(٢) أخرجه البخاري في (الصحيح ٥/ ٦ ـ ٢٠٩)، ومسلم (فضائل الصحابة ٧)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٤/ ٢٠٣)، والبيهقي في (الأسماء الصفات ٦/ ٣٧٠، ٧/ ٢٩٩، ١٠/ ٢٣٣)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٦٠١٤)، وابن سعد في (الطبقات الكبرى ٣/ ١، ١٢٥، ٨/ ٤٦) والهيثمي في (مجمع الزوائد ٨/ ٤٥)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ٢٢٨)، وابن أبي عاصم في (السنة ٢/ ٥٧٧، ٥٧٨)، والبخاري في (التاريخ الصغير ٢/ ١٢٤)، وابن حجر في (فتح الباري ٧/ ١٨، ٨/ ٧٤)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٥٦٣٩، ٣٥٦٤٠ ـ ٣٥٦٥١ ـ ٣٥٦٦٢ ـ ٣٥٦٨٧ ـ ٣٦٤٤٦)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٦/ ٢٤)، وأبو نعيم في (تاريخ أصفهان ٢/ ٩٤ ـ ١٣٢) وابن كثير في (البداية والنهاية ٣/ ٢٣١، ٥/ ٢١٩). والقرطبي في (التفسير ١٤/ ٢١٨)، وابن أبي حاتم الرازي في (علل الحديث ٢٦٥١ ـ ٢٦٦٦).

فأجرى اللَّهُ حديثَ الإفك حتى ردَّ قلبَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ عنها إلى الله، وردَّ قلب عائشة عنه إلى الله؛ حيث قال ـ لما ظَهَرَتْ براءةُ ساحتها: بحمد الله لا بحمدك كشف الله عنها به تلك المحنة، وأزال الشكَّ، وأظهر صِدْقَها وبراءة ساحتها.

ويقال إن النبي ﷺ قال: «اتقوا فراسةَ المؤمن فإنَّ المؤمن ينظر بنور الله»، فإذا كانت الفراسةُ صفة المؤمن فأَوْلى الناس بالفراسةِ كان رسولَ الله ﷺ، ثم لم تظهر له بحكم الفراسة براءةُ ساحتها، حتى كان يقول: «إنْ فَعَلْتِ فتوبي».

والسبب فيه أنه في أوقات البلاء يَسُدُّ اللَّهُ على أوليائه عيونَ الفراسةِ إكمالاً للبلاء. وكذلك إبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يميِّز ولم يعرف الملائكة حيث قَدَّمَ إليهم العِجْلَ الحنيذ[1]، وتوهمهم أضيافاً. ولوط عليه السلام لم يعرف أنهم ملائكة إلى أن أخبروه أنهم ملائكة.

ويقال إنه كان ـ ﷺ ـ يقول لعائشة: «يا حُمَيْرَاء»[2].

فلما كان زمان الإفك، وأرسلها إلى بيت أبويها، واستوحش الأبوان معها، ومَرِضَتْ عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ من الحزن والوجد، كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا رأى واحداً من دار أبي بكر يقول:

«كيف بيتكم؟ لا عائشة ولا حميراء فما كان يطيب بالتغافل عنها، فتعبيره ـ إن لم يُفهَمْ بالتصريح ـ فيُفْقَهُ بالتلويح.

ثم إنه ـ سبحانه ـ قال: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ﴾: فبمقدار جُرْمِهم احتمل كلُّ واحدٍ ما يخصُّه من الوِزْرِ.

قوله جل ذكره: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾.

عاتبهم على المبادرة إلى الاعتراض وبَسْطِ ألسنتهم بالسوء عنها، وتَرْكِهم الإعراض عن حُرَم النبي ﷺ. ثم قال: وهلَّا جاءوا على ما قالوا بالشهداء؟ وإذا لم يجدوا ذلك فَهَلَّا سكتوا عن بَسْطِ اللسان[3]؟

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

---

(١) العجل الحنيذ: المحنوذ المشوي، وقيل: هو الذي يقطر ماؤه وقد شوي. (لسان العرب ٣/ ٤٨٤ مادة: حنذ).

(٢) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥/ ٣٥٥)، وابن حبان في (المجروحين ١/ ٣٥٣)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ٣٨٩).

(٣) الآية (١٣) لم ترد.

لأنه أخبر أن جُرْمَهم ـ وإنْ كان عظيماً ـ فإنه في عِلْم اللَّهِ عنهم غير مُؤَثِّر، ولولا أن الله ـ سبحانه ـ ينتقم لأوليائه ما لا ينتقم لنفسه فلعلَّه لم يذكُرْ هذه المبالغة في أمرهم؛ فإنَّ الذي يقوله الأجانبُ والكفارُ في وصف الحق ـ سبحانه ـ بما يستحيل وجوده وكونه يوفي ويُرْبي على كل سوء ـ ثم لا يقطع عنهم أرزاقهم، ولا يمنع عنهم أرفاقهم، ولكن ما تتعلَّق به حقوقُ أوليائه ـ لا سيما حق الرسول ﷺ ـ فذاك عظيمٌ عند الله.

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

بالَغَ في الشكاية منهم لِمَا أقدموا عليه بما تأذَّى به قلبُ الرسولِ ـ ﷺ ـ وقلوبُ جميع المخلصين من المسلمين.

ثم قال: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾: وسبيلُ المؤمنِ ألا يستصغرَ في الوفاق طاعةً، ولا يستصغرَ في الخلافِ زَلَّةً، فإنَّ تعظيمَ الأمْرِ تعظيمٌ للآمِرِ. وأهل التحقيق لا ينظرون ما ذلك الفعل ولكن ينظرون مَنْ الآمرُ به.

ويقال: يَسيرُ الزَّلَّةِ ـ يلاحِظُها العبدُ بعين الاستحقار ـ فتُحْبِط كثيراً من الأحوال، وتكدِّر كثيراً من صافي المشارب.

واليسير من الطاعة ـ ربما يَسْتَقِلُّها العبدُ ـ ثم فيها نجاتُه ونجاةُ عالَمٍ معه.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾.

استماعُ الغيبةِ نوعٌ من الغيبة، بل مستمِعُ الغيبة شَرُّ المغتابين؛ إذ بسماعه يَتِمُّ قَصْدُ صاحِبه. وإذا سمِع المؤمنُ ما هو سوءُ قالةٍ في المسلمين ـ مما لا صِحَّةَ له في التحقيق ـ فالواجبُ الردُّ على قائله، ولا يكفي في ذلك السكوتُ دون النكير، ويجب ردُّ قائله بأحسنِ نصيحةٍ، وأدقِّ موعظةٍ، ونوعِ تَشَاغُلٍ عن إظهار المشاركة له فيما يستطيب من نَشْرِه من اخجالٍ لقائله موحشٍ، فإن أبى إلا انهماكاً فيما يقول فيرد عليه بما أمكن؛ لأنه إن لم يسْتَحِ قائلهُ من قوله فلا ينبغي أن يستحيَ المستمعُ من الرَّدِّ عليه.

قوله جل ذكره: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

يتعلَّق هذا بأنَّ مَنْ بَسَطَ لسانَه في عائشة ـ رضي الله عنها ـ بعد ذلك لم يكن مؤمناً لظاهر هذه الآية، ولعمري قائلُ ذلك مرتكبُ كبيرةٍ ولكن لا يخرج عن الإيمان بذلك؛ أي ينبغي للمؤمن ألا يتكلم في هذا، وهذا كما يقول القائل: «إذا كُنْتَ أخي

فواسِني عند شِدَّتي؛ فإنْ لم تواسِني لم تخرج عن الأُخوَّةِ بذلك».. ومعنى هذا القول أنَّه ينبغي للأخ أن يواسِيَ أخاه في حال عَثْرَتِه، وتَرْكُ ذلك لا يُبْطِلُ النسبَ[(١)].

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

هؤلاء في استحقاق الذمِّ أقبحُ منزلةً، وأشدُّ وِزراً حيث أحبوا افتضاح المسلمين، ومن أركان الدين مظاهرةُ المسلمين، وإعانةُ أولي الدِّين، وإرادةُ الخير لكافة المؤمنين. والذي يودُّ فتنةً للمسلمين فهو شرُّ الخَلْق، واللَّهُ لا يرضى منه بحاله، ولا يؤهله لمنالِ خلاصة التوحيد.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

كرَّر قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ لِيُبيِّنَ للجميع أنَّ حُسْنَ الدفع عنهم كان بفضله ورحمته وجميل المنح لهم، وكلٌّ يشهد حُسنَ المَنحِ ويشكر عليه، وعزيزٌ عبدٌ يشهد حُسْنَ الدفع عنه فيحمده على ذلك.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ﴾.

إذا تَنَقى القلبُ عن الوساوس، وصفا عن الهواجس بَدَتْ فيه أنوارُ الخواطر، فإذا سما وقتُ العبدِ عن ذلك سَقَطَتْ الخواطر، وبدت فيه أحاديث الحق ـ سبحانه ـ كما قال في الخبر: «لقد كان في الأمم محدَّثون فإن يكن في أمتي فَعُمَر». وإذا كان الحديث منه فذلك يكون تعريفاً يبقى مع العبد، ولا يكون فيه احتمالٌ ولا إشكال ولا إزعاج، وصاحبُه يجب أن يكون أميناً، غيرَ مُظْهِرٍ لِسِرِّ ما كوشِفَ به.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

ردَّهم في جميع أحوالهم إلى مشاهدة ما منَّ الحقُّ في قِسمي النفع والدفع، وحالتي العسر واليسر، والزُّكى من الله، والنُّعمى من الله، والآلاءُ من الله، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ﴾.

تحرَّك في أبي بكر عِرقٌ من البشرية في وصف الانتقام من مسطح[(٢)] حين شرع

---

(١) الآية (١٨) لم ترد.

(٢) هو مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب بن عبد مناف (٢٢ق هـ ـ ٣٤هـ = ٦٠١ ـ ٦٥٤م) من=

وخَاضَ في ذلك الحديث، وكان في رفق أبي بكر فقطع عنه ذلك، وأخبر به الرسول ـ ﷺ ـ وانتظر الأمرَ من الله في ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ فلم يرضَ من الصديق رضي الله عنه أن يتحرك فيه عِرْقٌ من الأحكام النفسية والمطالبات البشرية، فأعاد أبو بكر له ما كان يفعله في ماضي أيامه. والإحسان إلى المحسن مكافأة، وإلى مَنْ لا يسيء ولا يحسن فضل، وإلى الجاني فُتُوَّةٌ وكَرَمٌ، وفي معناه أنشدوا:

وما رضوا بالعفو عن كلِّ زَلَّةٍ حتى أنالوا كَفَّه وأفادوا

قوله: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾: العفو والصفح بمعنىً، فكررهما تأكيداً.

ويقال العفو في الأفعال، والصفح في جنايات القلوب.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

هذا من كمال تلطفه ـ سبحانه. وفي الخبر: أن الله لما أنزل هذه الآية قال أبو بكر ـ رضي الله عنه: «لي، أحِبُّ يا رب»، وعفا عن مسطح. وإن الله يغادر في قلوب أوليائه كراهة من غيرهم، وأنّى بالكراهة مِنَ الخَلْق والمتفرِّدُ بالإيجاد اللَّهُ؟! وفي معناه أنشدوا:

رُبَّ رام لي بأحجار الأذى لم أجِدْ بُدّاً من العطف عليه

فعسَى أن يَطْلعَ اللَّهُ على قَدْحِ القومِ فيُدْنيني إليه

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

بالغ في توعده لهم حيث ذكر لفظ اللعنة في شأنهم.

ووَصَفَ المحصنات بالغفلة: أي بالغفلة عما يُنْسَبْنَ إليه؛ فليس الوصف على جهة الذمِّ، ولكن لبيان تباعدهن عمَّا قيل فيهنَّ.

واستحقاقُ القَذَفَةِ لِلَّعنةِ ـ في الدنيا والآخرة ـ يدل على أنه لشؤم زلتهم تتغير عواقبهم، فيخرجون من الدنيا لا على الإسلام.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

= قريش، أبو عباد، صحابي من الشجعان الأشراف. كان اسمه عوفاً ولقب بمسطح فغلب عليه أمه بنت خالة أبي بكر، وكان أبو بكر يمونه لقرابته منه، فلما كان حديث أهل الإفك في أمر عائشة جلده النبي ﷺ مع من خاضوا فيه، وحلف أبو بكر أن لا ينفق عليه. فنزلت الآية ﴿ولا يأتل...﴾ فعاد أبو بكر إلى الإنفاق عليه، وأطعمه رسول الله ﷺ بخيبر خمسين وسقاً، وهو ممن شهد معه بدراً وأحداً والمشاهد كلها.

الأعلام ٧/ ٢١٥، والإصابة ت ٧٩٣٧، وأسد الغابة ٤/ ٣٥٤، ونسب قريش ٩٥.

تشهد عليهم أعضاؤهم بما عملوا من غير اختيار منهم، ثم كما تشهد بعض أعضائهم عليهم تشهد بعض أعضائهم لهم، فالعين كما تشهد: أنه نَظَر بي، تشهد بأنه بكى بي.. وكذلك سائر الأعضاء.

ويقال شهادةُ الأعضاء في القيامة مُؤجَّلَةٌ، وشهادتها في المحبة اليومَ مُعَجَّلة؛ من صُفْرَةِ الوجهِ إذا بدا المحبوب، وشحوبِ اللون، ونحافةِ الجسم، وانسكابِ الدموع، وخفقان القلب، وغير ذلك.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾.

يجازيهم على قَدْر استحقاقهم؛ للعابدين بالجنان والمثوبة على توفيةِ أعمالِهم، وللعارفين بالوصلة والقربة على تصفيةِ أحوالِهم؛ فهؤلاء لهم عُلوُّ الدرجات، وهؤلاء لهم الأنس بعزيز المشاهدات ودوام المناجاة.

﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾: فتصيرُ المعرفةُ ضروريةً؛ فيجدون المُعافَاةَ من النَّظَر وتَذَكُّرِهِ، ويستريح القلبُ من وَصْفَيْ تَرَدُّدِهِ وتَغَيُّرِه: لاستغنائه ببصائره عن تَبَصُّرِهِ.

ويقال لا يشهدون غداً إلا الحقَّ؛ فهم قائمونَ بالحق للحق مع الحق، يبيِّن لهم أسرار التوحيد وحقائقه، ويكون القائم عنهم، والآخذَ لهم منهم من غير أَنْ يَرُدَّهم إليهم.

قوله جل ذكره: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾.

﴿الْخَبِيثَاتُ﴾: من الأعمال وهي المحظورات ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾: من الرجال المُؤْثِرين لها طوعاً، والذين يجنحون إلى مثل تلك الأعمال فهم لها، كلٌّ مربوطٌ بما يليق به؛ فالفِعْلُ لائقٌ بفاعله، والفاعلُ بِفِعْلِهِ في الطهارة والقذارة، والنفاسة والخساسة، والشرفِ والسَّرَفِ.

ويقال: ﴿الْخَبِيثَاتُ﴾: من الأحوال؛ وهي الحظوظُ والمُنَى والشهواتُ لأصحابها والساعين لها. والساعون لمثلها لها، غيرَ ممنوعٍ أَحَدُهما من صاحبه، فالصفةُ للموصوف مُلازِمة، والموصوفُ لِصِفَتِهِ ملازِمٌ.

ويقال: ﴿الْخَبِيثَاتُ﴾: من الأشياء للخبيثين من الأشخاص، وهم الراضون بالمنازل السحيقة... وإنَّ طعامَ الكلابِ الجِيَفُ.

ويقال ﴿الْخَبِيثَاتُ﴾: من الأموال ـ وهي التي ليست بحلال ـ لمن بها رتبته، وعليها تعتكف هِمَّتُه؛ فالخبيثون من الرجال لا يميلون إلّا لمثل تلك الأموال، وتلك الأموال لا تساعد إلا مثلَ أولئك الرجال.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾.

﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ﴾: من الأعمال هي الطاعات والقُرَبُ للطيبين، والطيبون هم المُؤْثِرُون لها والساعون في تحصيلها.

﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ﴾: من الأحوال ـ وهي تحقيق المواصلات بما هو حقُّ الحق، مُجَرَّداً عن الحظوظ ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ من الرجال، وهم الذين سَمَتْ هِمَّتهم عن كلِّ مُبْتَذَلٍ خسيس، ولهم نفوسٌ تسمو إلى المعالي، وهي التجمُّلُ بالتذلل لِمَنْ له العِزَّةُ.

ويقال الطيبات من الأموال ـ وهي التي لا نكيرَ للشرع عليها، ولا مِنَّةَ لمخلوقٍ فيها ـ للطيبين من الرجال، وهم الأحرار الذين تخلَّصوا من رِقِّ الكون.

ويقال ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ من الأشخاص وهن المُبَرَّاتُ من وهج الخطر، المتنقيات عن سفساف أخلاق البشرية، وعن التعريج في أوطان الشهوات ـ ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ من الرجال الذين هم قائمون بحقِّ الحقِّ؛ لا يصحبون الخلْقَ إلا للتعفُّفِ، دون استجلابِ الشهوات.

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

لهم مغفرةٌ في المآل، ورزقٌ كريم في الحال وهو ما ينالون من غير استشرافٍ، ولا تطلب طمعٍ، ولا ذلِّ مِنَّةٍ ولا تقديم تعَبٍ.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

الخواصُ لا يَرَوْنَ لأنفسِهم مِلْكاً يتفردون به؛ لا مِنَ الأموال المنقولة ولا من المساكن التي تصلح لأن تكون مدخولة، فَمَنْ فاتحهم بشيءٍ منها فلا يكون منهم مَنْعٌ ولا زَجْرٌ، ولا حَجْبٌ لأحدٍ ولا حظْرٌ.. هذا فيما نيط بهم. أمَّا فيما ارتبط بغيرهم فلا يتعرَّضون لمن هي في أيديهم؛ لا باستشرافِ طَمَع، ولا بطريقِ سؤالٍ، ولا على وجهِ انبساطٍ. فإن كان حكمُ الوقت يقتضي شيئاً من ذلك فالحقُّ يُلجِىءُ مَنْ في يده الشيءُ ليحمِلَه إليه بحكم التواضع والتقرُّب، والوليُّ يأخذ ذلك بنعتِ التعزُّزِ، ولا يليق معنى ذلك إلا بأحوال تلك القصة، وأنشد بعضهم في هذا المعنى:

وإني لأستحي مِنَ الله أنْ أُرَى ... أسيرَ بخيلٍ ليس منه بعيرُ
وأنْ أسألَ المرءَ اللئيمَ بعيره ... وبعران ربِّي في البلادِ كثيرُ

قوله جل ذكره: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾.

في هذا حِفْظُ أَمْرِ الله وحِفْظُ حُرْمةِ صاحب الدارِ؛ لأنَّ مَنْ دَخَلَها بغيرِ إذنِ صاحبِها ربما تكون فيها عورةٌ منكشفة، وربما يكون لصاحب الدار أمرٌ لا يريد أن يطَّلِعَ عليه غيرُه، فلا ينبغي أن يدخل عليه من غير استئذان.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

إن قيل لكم: ارجعوا... فارجعوا؛ فقد تكون الأعذارُ قائمةً، وصاحبُ الملكِ بِملكِه أوْلى.

قوله جل ذكره: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾.

رَفَعَ اللَّهُ الجُناحَ والحَرَجَ في الانتفاعِ بما لا يُسْتَضَرُّ به صاحبُه بغير إذْنِهِ؛ كدخولِ أرضٍ للداخلِ فيها أغراضٌ لقضاءِ حاجته - ولا يجد طريقاً غيرَ ذلك - إذا لم يكن في دخوله ضَرَرٌ على صاحبها، وجرى هذا مجرى الاستظلال بظِلِّ حائطٍ إذا لم يكن قاعداً في مِلْكِه، وكالنظر في المرآة المنصوبة في جدار غيره.. وكل هذا إنما يُستباح بالشرع دون قضية العقل - على ما توهمَّه قومٌ.

قوله جل ذكره: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

﴿يَغُضُّواْ﴾: من أبصار الظواهر عن المُحَرَّمات، ومن أبصار القلوب عن الفِكَرِ الرَّدِيّة، ومن تصوُّرِ الغائبات عن المعاينة، ولقد قالوا: إنَّ العينَ سببُ الحَيْن، وفي معناه أنشدوا:

وأنتَ إذا أرسلتَ طَرْفَك رائداً ... لقلبِك - يوماً - أتْعَبَتْكَ المناظرُ

وقالوا: مَنْ أرسل طَرْفَه اقتضى حَتْفَه.

وإن النظرَ إلى الأشياء بالبَصَرِ يوجِبُ تَفْرِقَةَ القلوب.

ويقال إن العدوَّ إبليسَ يقول: قومي القديمُ وسهمي الذي لا يخطىء النظرُ. وأرباب المجاهدات إذا أرادوا صَوْنَ قلوبهم عن الخواطر الردية لم ينظروا إلى المحَسَّات - وهذا أصلٌ كبيرٌ لهم في المجاهدة في أحوال الرياضة.

ويقال قَرَنَ اللَّهُ النهي عن النظر إلى المحارم بذكر حفظ الفَرْجِ فقال: ﴿وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ تنبيهاً على عِظَمِ خَطَرِ النظر؛ فإنه يدعو إلى الإقدام على الفعل.

ويقال قومٌ لا ينظرون إلى الدنيا وهم الزُّهَّاد، وقومٌ لا ينظرون إلى الكون وهم أهل العرفان، وقومٌ هم أهل الحفاظ والهيبة كما لا ينظرون بقلوبهم إلى الأغيار لا يرون نفوسهم أهلاً للشهود، ثم الحق - سبحانه - يكاشفهم من غير اختيارٍ منهم أو تعرُّضٍ أو تكلف.

قوله جل ذكره: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ﴾.

المطالبةُ عليهن كالمطالبة على الرجال لشمولِ التكليف للجنسين، فالواجبُ عليهن تركُ المحظوراتِ، والندبُ والنَّفْلُ لهن صونُ القلب عن الشواغل والخواطر الردية، ثم إنِ ارتَقَيْنَ عن هذه الحالة فالتعامي بقلوبهن عن غيرِ المعبود، والله يختص برحمته من يشاء.

قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ﴾: ما أباح الله ـ سبحانه ـ على بيان مسائل الفقه فمُستثنى من الحظرِ، وما وراء ذلك فالواجبُ عليهن حفظُ أنفسهن عن العقوبات في الآجل، والتصاون عن أن يكون سبباً لفتنة قلوب عباده. والله سبحانه كما يحفظ أولياءه عما يضرهم في الدِّين يصونهم عما يكون سبباً لفتنة غيرهم، فإن لم يتصل منهم نفعٌ بالخَلْق فلا تصيبُ أحداً بهم فتنةٌ.

وفي الجملةِ ما فيه زينة العبد لا يجوز إظهاره؛ فكما أنَّ للنساءِ عورةً ولا يجوز لهن إبداء زينتهن فكذلك مَنْ أظهر للخَلْق ما هو زينة سرائره من صفاء أحواله، وزكاء أعماله انقلب زَيْنُه شَيْناً، إلا إذا ظهر على أحدٍ شيءٌ ـ لا بتعمله ولا بتكلُّفه ـ فذلك مستثنىً لأنه غير مُؤاخَذٍ بما لم يكن بتصرفه وتكلفه، فذوات المحارم على تفصيل بيان الشريعة يُسْتثنى حُكْمُهن عن الحَظْر.

قوله جل ذكره: ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ﴾.

تُراعى في جميع ذلك آدابُ الشرع في الإباحة والحظر.

قوله جل ذكره: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

التوبةُ الرجوعُ عن المذموماتِ من الأفعال إلى أضدادها المحمودة، وجميع المؤمنين مأمورون بالتوبة، فتوبةٌ عن الزَّلَةِ وهي توبة العوام، وتوبة عن الغفلة وهي توبة الخواص.. وتوبةٌ على محاذرة العقوبة، وتوبةٌ على ملاحظة الأمر.

ويقال أَمَر الكافة بالتوبةِ؛ العاصين بالرجوع إلى الطاعة من المعصية، والمطيعين من رؤية الطاعة إلى رؤية التوفيق، وخاصَّ الخاصِّ من رؤية التوفيق إلى مشاهدة الموفِّق.

ويقال أَمَرَ الكلَّ بالتوبة لئلا يخجلَ العاصي من الرجوع بانفراده.

ويقال مساعدة الأقوياء مع الضعفاء ـ رِفْقاً بهم ـ من أمارات الكَرَمِ.

ويقال في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يتبين أنَّه أَمَرَهم بالتوبة لينتفعوا هم بذلك، لا ليكون للحقِّ ـ سبحانه ـ بتوبتهم وطاعتهم تجمُّلٌ.

ويقال أحوجُ الناس إلى التوبة مَنْ تَوَهَّمَ أنَّه ليس يحتاج إلى التوبة.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

إذا كان القصدُ في المناكحة التأدب بآداب الشرع يكفي الله ببركاته مطالبات النفس والطبع، وإنما يجب أن يكون القصدُ إلى التعفُّفِ ثم رجاءِ نسْلٍ يقوم بحقِّ الله.

قوله: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ﴾ يُغْنِيهمُ اللَّهُ في الحال، أولاً بالنفس ثم غِنَى القلب؛ وغنيُّ القلبِ غَنِي عن الشيء، فالغَنِيَ عن الدنيا أتَمُّ من الغني بالدنيا.

ويقال إن يكونوا فقراء في الحال يُغْنِهم الله في المستأنف والمآل.

قوله جل ذكره: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ﴾.

مَنْ تَقاصر وسعهُ عن الإنفاق على العيال فليصبر على مقاساة التحمل في الحال، فَعَنْ قريبٍ تجيبه نَفْسُه إلى سقوط الأرب، أو الحق ـ سبحانه ـ يجود عليه بتسهيل السبب من حيث لا يَحْتَسِب، ولا تخلو حالُ المتعفِّفِ عن هذه الوجوه.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْۚ﴾.

أي إن سَمَحَتْ نفوسكم بإزالة الرِّقِّ عن المماليك ـ الذين هم في الدين إخوانكم ـ من غير عِوَضٍ تلاحظون منهم فلن تخسروا على الله في صفقتكم. وإن أبيتم إلا العوض ودعوا إلى الكتابة، وعلمتم بغالب ظنكم صحة الوفاء بمال الكتابة من قِبَلِهم فكاتبوهم(١)، ثم تعاونوا على تحصيل المقصود بكل وجهٍ؛ من قدْرٍ يحط من مال الكتابة، وإعانةٍ لهم من فروض الزكاة، وإمهالٍ بِقَدْرِ ما يحتمل المكاتب ليكون ترفيهاً له.

وإذا كنا في الشرع مأمورين بكل هذا الرِّفقِ حتى يصل المملوكُ المسكينُ إلى عتقه فبالحريِّ أن يسمو الرجاءُ إلى الله بجميل الظنِّ أن يُعْتِقَ العبدُ من النار بكثرة تضرعه، وقديم سعيه ـ بقدر وسعه ـ من عناءِ قاساه، وفضلٍ من الله ـ عن قديمِ ـ رجاه.

ثم في الخبر: «إن المكاتب عبدٌ ما بقي عليه درهم»(٢): والعبد يسعى بجهده ليصل إلى تحرر قلبه، وما دام تبقى عليه بقية من قيام الأخطار وبقية من الاختيار

(١) معنى الكتاب والمكاتبة: أن يكاتب الرجل عبده أو أمته على مال يُنجّمه عليه، ويكتب عليه أنه إذا أدى نجومه، في كل نجم كذا وكذا، فهو حر، فإذا أدى جميع ما كاتبه عليه، فقد عتق، وولاؤه لمولاه الذي كاتبه. (لسان العرب ١/ ٧٠٠ مادة: كتب).

(٢) أخرجه أبو داود (عتاق ١)، والترمذي (بيوع ٣٥)، والموطأ (مكاتب ١، ٢).

وإرادة شيءٍ من الأغيار فهو بكمال رِقّه وليس في الحقيقة بِحُرّ. فالمكاتَبُ عَبْدٌ ما بقي عليه درهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

حامِلُ العاصي على زَلَّتِه، والداعي له إلى عَثْرَته، والمُعينُ له على مخالفته تتضاعف عليه العقوبة، وله من الوِزرِ أكثرُ مِنْ غيره، وبعكسه لو كان الأمر في الطاعة والإعانة على العبادة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

لم يغادر على وجه الدليل غُبْرَةً، ولم يترك الحقُّ ـ سبحانه ـ للإشكال محلاً؛ بل أَوْضَحَ المنهاج وأضاءَ السِّراجَ، وأنار السبيلَ وألاح الدليل، فَمَنْ أراد أن يستبصر فلا يلحقه نَصَبٌ، ولا يمسُّه تعبٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾.

أي هادي أهلِ السمواتِ والأرض، ومنه نورهما والذي منه الشيء يسمى باسمه الشيء. ومنه نور السموات والأرض خَلْقاً؛ فنظامُ السموات والأرض وإحكامها وترتيبها بوصف إتقانها حاصلٌ بالله تعالى.

ويقال نور السموات والأرض أي منورُها وخلقُ ما فيها من الضياء والزينة، وموجِدُ ما أودعها من الأدلة اللائحة.

ويقال نوَّر اللَّهُ السماءَ بنجومها فقال: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ﴾ [فصلت: ١٢] فكذلك زينَ القلوب بأنوارٍ هي نورُ العقل ونورُ الفهم ونورُ العِلْم ونورُ اليقين ونورُ المعرفة ونورُ التوحيد، فلكلِّ شيءٍ من هذه الأنوار مطرحُ شعاعٍ بقدره في الزيادة والنقصان.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ..﴾: أراد بهذا قلب المؤمن وهو معرفته، فشبَّهَ صدرَه بالمشكاة، وشبَّه قلبه في صدره بالقنديل في المشكاة، وشبَّه القنديل ـ الذي هو قلبه ـ بالكوكب الدريّ، وشبه إمداده بالمعرفة بالزيت الصافي الذي يمدُّ السراج في الاشتعال. ثم وصفَ الزيتَ بأنَّه على كمال إدراك زيتونه من غير نقصان أصابه، أو

خلَلِ مسِّه، ثم وصف ذلك الزيت ـ في صفوته ـ بأنه بحيث يكاد يضيء من غير أن تمسَّه نار.

ويقال إن ضَرْبَ المثل لمعرفة المؤمن بالزيت أراد به شريعة المصطفى ـ ﷺ ـ ودينه الحنيفي، فما كان يهودياً ـ وهم الذين قبلتُهم إلى جانب المغرب، ولا نصرانياً ـ وهم الذين قبلتهم في ناحية المشرق.

وقوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾: نور اكتسبوه بجهدهم بنظرهم واستدلالهم، ونور وجدوه بفضل الله فهو بيان أضافه إلى برهانهم، أو عيان أضافه إلى بيانهم، فهو نور على نور.

ويقال أراد به قلب محمد ـ ﷺ ـ ونورُ معرفته موقدٌ من شجرةٍ هي إبراهيم عليه السلام، فهو ﷺ على دين إبراهيم.

قوله: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ﴾ بحيث تصيبه الشمس بالعشي دون الغداة، ولا غربية بحيث تصيبه الشمس بالغداة دون العشي، بل تصيبه الشمسُ طولَ النهارِ ليتمَّ نضج زيتونه، ويكمل صفاءُ زيته. والإشارة فيه أنه لا ينفرد خوف قلوبهم عن الرجاء فيقرب من اليأس، ولا ينفرد رجاؤهم عن الخوف فيقرب من الأمن، بل هما يعتدلان؛ فلا يغلب أحدهما الآخر؛ تقابل هيبتهم أُنسهم، وقبضُهم بسطَهم، وصحوهُم محوَهم، وبقاؤهم فناءهم، وقيامُهم بآداب الشريعة تحقُّقهم بجوامع الحقيقة.

ويقال ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾: أي أن هِمَمَهم لا تسكن شرقياً ولا غربياً، ولا علوياً ولا سفلياً، ولا جنياً ولا إنسياً، ولا عَرْشاً ولا كرسياً، سطعت عن الأكوان، ولم تجد سبيلاً إلى الحقيقة؛ لأن الحقَّ مُنَزَّهٌ عن اللحوق والدرك، فبقيت عن الحق منفصلة، وبالحق غير متصلة؛ وهذه صفة الغرباء.. «وإن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (الإيمان ٢٣٢)، والترمذي في (السنن ١٦٢٩)، وابن ماجه في (السنن ٣٩٨٨)، وأحمد بن حنبل في (المسند ١/ ٣١٨)، والدارمي في (السنن ٢/ ٣١٢) والدولابي في (الكنى والأسماء ١/ ١٩٣)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٥٣٨٠، ٥٣٨١، ٥٣٨٢، ٥٣٨٣ ـ ٥٣٨٦)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١١٩٢، ١١٩٣ ـ ١١٩٨، ١١٩٩ ـ ١٦٨٩)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ١/ ١٠٦ ـ ١٥٦، ٧/ ٢٥٩ ـ ٢٧٨)، وابن كثير في (التفسير ٣/ ٢٣، ٧/ ٢٣٩) والبغوي في (شرح السنة ١/ ١١٨)، والقرطبي في (التفسير ١٦/ ١٤٠)، والطبراني في (المعجم الصغير ١/ ١٠٤)، والطبري في (التفسير ١٥/ ٧٥)، والشجري في (الأمالي ٢/ ١٥٦)، والسيوطي في (الدر المنثور ٦/ ٣٠)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١/ ٢٦٥)، والطحاوي في (مشكل الآثار ١/ ٢٩٨)، وصاحب (تاريخ واسط ١٤٦)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٢/ ٢١٨)، والألباني في (السلسلة الصحيحة ١٢٧٣)، والطبراني في (المعجم الكبير ٦/ ٢٠٢ ـ ٣١٤، ٨/ =

ويقال نور القلب: ثم موجبه هو دوام الانزعاج فلا يذره يعرِّج في أقطار الكسل، فيصل سَيْرَه بِسُراه في استعمالِ فكرِه، والحقُّ يمده: بنور التوفيق حتى لا يصده عن عوارضِ الاجتهادِ شيءٌ من حُبِّ رياسةٍ، أو ميلٍ لسوءٍ، أو هوادة. فإذا أسفر صُبْحُ غفلته، واستمكن النظر من موضعه حصل العلمُ لا محالة. ثم لا يزال يزداد يقيناً على يقين مما يراه في معاملته من القبض والبسط، والمكافأة والمجازاة في زيادة الكشف عند زيادة الجُهْد، وحصول الوَجْدِ عند أداء الوِرْد.

ثم بعده نور المعاملة، ثم نور المنازلة، ثم متوّع نهار المواصلة. وشموس التوحيد مشرقة، وليس في سماءِ أسرارِهم سحابٌ ولا في هوائِها ضبابٌ، قال تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

ويقال نور المطالبة يحصل في القلب فيحمل صاحبه على المحاسبة، فإذا نَظَرَ في ديوانه، وما أسلفه من عصيانه يحصل له نور المعاينة، فيعود على نفسه باللائمة، ويتجرَّعُ كاساتِ نَدَمِهِ، فيرتقي عن هذا باستدامة قَصْدِه، والتَّنَقِّي عما كان عليه في أوقات فترته. فإذا استقام في ذلك كوشِفَ بنور المراقبة؛ فيعلم أنَّه ـ سبحانه ـ مُطَّلِعٌ عليه. وبعد هذا نور المحاضرة وهي لوائحُ تبدو في السرائر. ثم بعد ذلك نور المكاشفة وذلك بتجلِّي الصفات. ثم بعده نور المشاهدة فيصير ليلُه نهاراً، ونجومُه أقماراً، وأقمارُه بدوراً، وبدورُه شموساً. . ثم بعد هذا أنوار التوحيد، وعند ذلك يتحقق التجريد بخصائص التفريد، ثم ما لا تتناوله عبارةٌ ولا تدركه إشارةٌ، فالعبارات ـ عند ذلك ـ خُرْسٌ، والشواهد طُمْسٌ، وشهود الغير عند ذلك محال. عند ذلك: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ [التكوير: ١ ـ ٤]، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١] وانفطرت. . . فهذه كلها أقسام الكون. وما من العَدَمِ لهم صار إلى العدم. القائمُ عنهم غيرُهم، والكائن عنهم سواهم. وجلَّتْ الأحديةُ وَعَزَّتْ الصمدية، وتَقَدَّسَتْ الديمومية، وتنزهت الإلهية.

قوله جلّ ذكره: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾.

= ١٧٩، ١٠/ ١٢٢، ١١/ ٧٠)، والخطيب البغدادي في (شرف أصحاب الحديث ٣٧، ٣٨، ٣٩)، وابن سعد في (الطبقات الكبرى ١/ ٢، ٨٢)، وابن حجر في (الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ١٤٨)، وابن أبي شيبة في (المصنف ١٣/ ٢٣٦، ٢٣٧)، وأبو نعيم في (تاريخ أصفهان ١/ ٢١٢، ٢/ ٨٣)، والبيهقي في (دلائل النبوة ٢/ ٢٤٤، ٥٢٠)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٣٣٣)، وابن حبان في (المجروحين ٢/ ٢٢٦)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٢/ ٤٦٢، ٤/ ١٦١٥، ٥/ ١٨٢٣).

المساجدُ بيوتَه ـ سبحانه ـ وإنَّ الله أَذِنَ أَنْ تُرْفَعُ الحوائجُ فيها إليه فيقضيها، ورَفَعَ أقدارَ تلك البيوتِ على غيرها من الأبنية والآثار. المساجدُ بيوتُ العبادة والقلوبُ بيوتُ الإرادة؛ فالعابِدُ يَصِلُ بعبادته إلى ثوابِ الله، والقاصدُ يصل بإرادته إلى الله.

ويقال القلوبُ بيوتُ المعرفة، والأرواحُ مَشاهِدُ المحبة، والأسرار محالُّ المشاهدة.

قوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ...﴾ لم يقل: لا يتجرون ولا يشترون ولا يبيعون، بل قال: لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله، فإنْ أمكن الجمع بينهما فلا بأسَ ـ ولكنه كالمتعذر ـ إلَّا على الأكابر الذين تجري عليهم الأمورُ وهم عنها مأخوذون.

ويقال هم الذين يُؤْثِرون حقوقَ الحقِّ على حظوظ النَّفْس.

ويقال إذا سمعوا صوتَ المؤذن: حيَّ على الصلاة تركوا ما هم فيه من التجارة والبيع، وقاموا الأداء حقه.

ويقال هم الخواص والأكابر الذين لا يشغلهم قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠] عن التحقق بذكره من غير ملاحظة عِوَضٍ أو مطالعة سبب.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾.

أقوامٌ ذلك اليومُ مُؤَجَّلٌ لهم، وآخرون: ذلك لهم مُعَجَّلٌ وهو بحسب ما هم فيه من الوقت؛ فإنَّ حقيقةَ الخوفِ تَرَقُّبِ العقوباتِ مع مجاري الأنفاس.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

مَنْ رَفَعَ الحسابَ من الوَسَط يَرْفَعْ معه الحساب، ومَنْ هو في أَسْرِ مطالباته فالوزنُ يومئذٍ الحقُّ.

والرزقُ بغير حسابٍ في أرزاق الأرواح، فأمَّا أرزاقُ الأشباحِ فمحصورةٌ معدودةٌ؛ لأن أرزاقَ الأشباحِ حظوظٌ؛ وهي وجودُ أفضال وفنونُ نوالٍ. وما حَصَرَه الوجودُ مِنَ الحوادثِ فلا بُدَّ أن يأتيَ عليه العَدَدُ، وأما مكاشفةُ الأرواحِ بشهودِ الجمالِ والجَلال فذلك على الدوام.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] وقال: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [المجادلة: ١٨]. ومَنْ أَمَّل السرابَ شراباً فلا يلبث إلا قليلاً حتى يعلمَ أنَّه كان تخييلاً؛ فالعَطَشُ يزداد، والروح تدعو للخروج.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ .

ظلماتُ الحسبان، وغيومُ التفرقة، وليالي الجُحْدِ، وحنادسُ الشَّكِّ إذا اجتمعت فلا سِراجَ لصاحبها ولا نجوم، ولا أقمارَ ولا شموسَ. . . فالويلُ ثم الويل!

قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾: إذا لم يسبق لعبدٍ نورُ القسمة، ولم يساعده تَعَلُّقٌ فجهدُه وكدُّه، وسَعْيُه وجدُّه عقيمٌ من ثمراته، موئِسٌ من نَيْلِ بركاته. والبدايات غالبةٌ للنهايات؛ فالقبولُ لأهْلِه غيرُ مُجْتَلَبٍ، والردُّ لأهله غير مُكْتَسَبٍ. وسعيدٌ مَنْ سَعِدَ بالسعادة في عِلْمِه في آزاله، وأراد كونَ ما عَلِمَ من أفعاله يكونَ، وأخبر أن ذلك كذلك يكون، ثم أجرى ذلك على ما أخبر وأراد وعَلِمَ.

وهكذا القول في الشقاوة؛ فليس لأفعاله عِلَّةٌ، ولا تتوجَّهُ عليه لأحدٍ حُجَّةٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ .

التسبيح على قسمين: تسبيحُ قولٍ ونطقٍ، وتسبيحُ دلالة وخَلْق؛ فتسبيحُ الخَلْقِ عام من كل مخلوقٍ وعينٍ وأثرٍ، منه تسبيحٌ خاصٌّ بالحيوانات، وتسبيحٌ خاصٌّ بالعقلاء وهذا منقسم إلى قسمين: تسبيحٌ صادرٌ عن بصيرة، وتسبيحٌ حاصلٌ من غير بصيرة؛ فالذي قرينته البصيرة مقبولٌ، والذي تجرَّدَ عن العرفان مردود.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ .

المُلْكُ مبالغةٌ من المِلْك، والملك القدرة على الإيجاد؛ فالمقدورات ـ قَبْلَ وجودها ـ للخالق مملوكة، كذلك في أحوال حدوثها بعد عَدَمِها عائدةٌ إلى ما كانت عليه، فَمُلْكهُ لا يحدث ولا يزوال ولا يَؤُولُ شيءٌ منه إلى البطول.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ .

تعرَّف إلى قلوب العلماء بدلالات صُنْعِه في بديع حكمته، وبما يدل منها على كمال قدرته، وشمول علمه وحكمته، ونفوذ إرادته ومشيئته. فَمَنْ أنعم النظرَ وَصَلَ إلى بَرَدِ اليقين، ومَنْ أعرض بقي في وَهْدَةِ الجُحْدِ وظلمات الجهل.

ترتفع بمدرته بخاراتُ البحرِ، وتصعد بتسييره وتقديره إلى الهواء وهو السحاب، ثم يُديرها إلى سَمْتٍ يريد أن ينزل به المطر، ثم ينزل ما في السحاب من ماء البحر قطرةً قطرةً؛ ويكون الماء قبل حصول بخارات البحر غير عَذْبٍ فيقلبه عَذْباً، ويُسِحُه

السحاب سَكْباً، فيوصل إلى كلِّ موضع قَدْراً يكون له مُراداً معلوماً، لا بالجهدِ مِنَ المخلوقين يُمْسَكُ أو يُنَزَّلُ، ولا بالحيلةِ يُسْتَنْزلُ على المكانِ الذي لا يُمْطِره.

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾: وكذلك جميع الأغيار من الرسوم والآثار.. ذلك تقدير العزيز العليم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

يريد خلقَ كُلِّ حيوانٍ من ماء، يخرج من صُلْب الأب وتريبة الأمّ. ثم أجزاءُ الماءِ متساويةٌ متماثِلة، ثم ينقسم إلى جوارح في الظاهر وجوارح في الباطن، فيختصُّ كلُّ عضو وينفرد كل شِلْوٍ[1] بنوع من الهيئة والصورة، وضَرْبٍ من الشكلِ والبِنْيَةِ. ثم اختلاف هيئات الحيوانات في الريش والصوف والوبر والظفر والحافر والمخلب، ثم في القامة والمنظر، ثم انقسام ذلك إلى لحم وشحم وجِلْدٍ وعَظْمٍ وسِنٍّ ومخٍّ وعَصب وعِرْقٍ وشَعْرٍ.

فالنظرُ في هذا ـ مع العبرة به ـ يوجِبُ سجودَ البصيرةَ وقوة التحصيل.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

الآيات بَيِّنةٌ ولكنَّ اللّهَ يهدي إليها قوماً ويُلَبِّس على آخرين، والذي سُدَّ بَصَرُه أنّى ينفعه طلوعُ الشمسِ والنجوم؟ وكذلك الذي سُدَّت بصيرته أنّى تنفعه شواهدُ العلوم ودلائل الفهوم؟ وقالوا في معناه:

وما انتفاعُ أَخي الدنيا بمقلته ... إذا اسْتَوَتْ عِنْدَه الأنوارُ والظُّلَمُ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

يستسلمون في الظاهر ويُقِرُّون باللسان، ثم المخلص يبقى على صدقه.

والذي قال لخوفِ سيفِ المسلمين، أو لِغَرَضٍ له آخر فاسد يتولى بعد ذلك، وينحاز إلى جانب الكفرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

علموا أن افتضاحهم في حكم نيتهم، فيمن عَلم أنه قاسط في خصومته لم يَطِب نَفْساً بحُكْمِه. وكذلك المريبُ يَهْرَبُ من الحقِّ، ويجتهد في الفرار.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾.

---

(١) الشِّلْو: العضو (ج) أشلاء.

منقادين يميلون مع الهوى، ولا يقبلون حُكمه إيماناً. وكذلك شأن المريض الذي يميل بين الصحة والسقم؛ فأرباب النفاق مترددون بين الشك والعلم، فليس منهم نَفْيٌ بالقطع ولا إثباتٌ بالعلم، فهم متطوّحون في أودية الشك، وهذا معنى قوله:

﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

فلمَّا انخرطوا في سلك التجويز ما حصلوا إلا في ظُلَمِ الشك، ولما لم يكن لهم يقينٌ في القلب لم يكن معهم لأهل القلوب ذكر.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

الذين إيمانهم حقيقةً بحكم التصديق شأنُهم قيامُهم بإظهار ما ضمنوه من التحقيق. ومن يُقابِلْ أمرَ الله بالطاعة، ويستقبلْ حُكمه بالاستخذاء.. فأولئك هم الصادقون في الحقيقة، السالكون في الطريقة، الآخذون بالوثيقة(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

أقسموا بالله غاية اليمين، ووعدوا من أنفسهم الطاعة لو أمرهم بالخروج في المستقبل، فقال: لا تَعِدُوا بما هو معلومٌ منكم ألا تفوا به؛ فطاعةٌ في الوقت أولى من تسويفٍ بالوعد.

ثم قال: قُلْ يا محمد أطيعوا الله وأطيعوا الرسول.. فإن أجابوا سَعِدُوا في الدارين، وأحسنوا إلى أنفسهم. وإنْ تَوَلَّوْا عن الإجابة فما أَضَرُّوا إلا بأنفسهم ويكون الندم في المستقبل عليهم، وسوف يَلْقَوْنَ سوء عواقبهم، وليس على الرُّسلِ إلا حُسْنُ البلاغ. ويومَ الحَشْرِ يُعْطَى كُلُّ أحدٍ كتابَه، ويُعامَلَ بمقتضى حساب نفسه(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

وَعْدُ الله حقٌّ وكلامُه صدقٌ، والآية تدل على صحة الخلفاء الأربعة لأنه ـ بالإجماع ـ لم يتقدمهم في الفضيلة ـ إلى يومنا ـ أحدٌ؛ فأولئك مقطوعٌ بإمامتهم، وصدَق وعدُ الله فيهم، وهم على الدين المرضيِّ من قِبلِ الله، ولقد أَمِنُوا بعد خوفهم، وقاموا بسياسة المسلمين، والذَّبِّ عن حوزة الإسلام أحسنَ قيام.

---

(١) الآية (٥٢) لم ترد. (٢) الآية (٥٤) لم ترد.

وفي الآية إشارة إلى أئمة الدين الذين هم أركان المِلَّة ودعائم الإسلام، الناصحون لعباده، الهادون مَنْ يسترشِدُ في الله؛ إذ الخَلَلُ في أمر المسلمين من الولاةِ الظَّلَمَة ضَرَرُه مقصورٌ على ما يتعلَّق بأحكام الدنيا، فأما حفَّاظُ الدين فهم الأئمة من العلماء وهم أصناف:

قومٌ هم حفَّاظ أخبار الرسول عليه السلام وحفّاظُ القرآن وهم بمنزلة الخزنةِ، وقوم هم علماءُ الأصولِ الرادُّون على أهلِ العِناد وأصحابِ البِدَع بواضح الأدلة، وهم بطارِقةُ الإسلام وشجعانُه.

وقوم هم الفقهاء المرجوعُ إليهم في علوم الشريعة من العبادات وكيفية المعاملات وما يتعلق بأحكام المصاهرات وحكم الجراحات والدِّيَّات، وما في معاني الأَيمانِ والنذور والدعاوى، وفصل الحُكم في المنازعات وهم في الدين بمنزلة الوكلاء والمتصرفين في المُلْك.

وقوم هم أهل المعرفة وأصحاب الحقائق وهم في الدِّين كخواصِّ المَلِك وأعيان مجلس السلطان؛ فالذين معمورٌ بهؤلاء ـ على اختلافهم إلى يوم القيامة[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

إنَّ الباطلَ قد تكون له دولةٌ ولكنها تخييل ـ وما لذلك بقاء ـ وأقلُّ لُبْثاً من عارضٍ ينشأ عن الغيظ.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾.

ضيَّق الأمر من وجهٍ ووسَّعَه من وجهٍ، وأمر بمراعاة الاحتياط وحسن السياسة لأحكام الدين ومراعاة أمر الحُرُم، والتحرر من مخاوف الفتنة، وإذا كانت الجوانبُ محروسةً صارت المخاوفُ مأمونة[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

يحدث تأثيرٌ بالمضَرّة لبناتِ الصدور من دواعي الفتنة واستيلاء سلطان الشهوة؛ فإذا سَكنَتْ تلك الثائرة سَهُل البابُ، وأُبيحت الرُّخَصُ وأُمِنَتْ الفتنة.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ﴾.

---

(١) الآية (٥٦) لم ترد.

(٢) الآية (٥٩) لم ترد.

إذا جاءت الأعذار سُهلَ الامتحانُ والاختيارُ، وإذا حصلت القرابةُ سقطت الحشمة، وإذا صدقت القرابة انتفت التفرقة والأجنبية؛ فبشهادة هذه الآية إذا انتفت هذه الشروط صَحَّتْ المباسطة في الارتفاق.

ثم قال: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْۚ﴾ [النور: ٦١]: وعزيزٌ منْ يصدُقُ في الصداقة؛ فيكون في الباطن كما يُرَى في الظاهر، ولا يكون في الوجه كالمرآة ومِنْ ورائِك كالمقْراض(١)، وفي معناه ما قلت:

مَنْ لي بمن يثق الفؤاد بودِّه ... فإذا تَرحَّلَ لم يزغ عن عهده
يا بؤس نفسي من أخ لي باذلٍ ... حسنَ الوفاء بوعده لا نَقْدِه
يُولِي الصفاءَ بنُطقه لا خُلقه ... ويدسُّ صاباً في حلاوة شَهْده
فلسانُه يبدي جواهر عقده ... وجَنانه تغلي مراجلُ حقده
لا هُمَّ إني لا أطيق مِراسَه ... بك أستعيذ من الحسود وكيده

وقوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْۚ﴾ [النور: ٦١] مَنْ تُؤمَنُ منه هذه الخصال وأمثالها.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةًۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

السلامُ الأمانُ، وسبيلُ المؤمن إذا دخل بيتاً أن يُسلِّمَ مِنَ اللّهِ على نَفْسِه؛ أي يطلب الأمانَ والسلامةَ من الله لِتَسَلَم نَفْسُه من الإقدام على ما لا يرضاه الله، إذ لا يحل لمُسلِم أَنْ يفتُرَ لحظةً عن الاستجارة بالله حتى لا يرفع عنه ـ سبحانه ـ ظِلَّ عِصْمَتِه؛ بإدامة حِفْظِه عن الاتصاف بمكروهٍ في الشرع.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

شرطُ الاتباع موافقةُ المتبوع، وألا يتفرقوا فيصيروا أحزاباً كما قال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰۚ﴾ [الحشر: ١٤] و «العلماءُ وَرَثَةُ الأنبياءِ»(٢). والمريدون لشيوخهم

(١) المقراض: المقص، وهو ما يقرض به الثوب أو غيره، وهما مقراضان. والمقراض: آلة تقرض بها تذكرة الراكب في القطار وغيره. (ج) مقاريض.

(٢) أخرجه ابن ماجه في (السنن ٢٢٣)، وابن حجر في (تلخيص الحبير ٣/ ١٦٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١/ ٧١ ـ ٣٣٨ ـ ٤٥٠)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٨٦٧٩) والقرطبي في (التفسير ٤/ ٤١، ١٣/ ١٦٤)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار) والبخاري في (التاريخ الكبير ٨/ ٣٣٧)، والفتني في (تذكرة الموضوعات ٢٠)، والعجلوني في=

كالأُمَّةِ لنبيِّهم؛ فَشَرْطُ المريدِ ألا يَتَنَفَّسَ بِنَفَسٍ إلا بإذن شيخه، ومَنْ خَالَفَ شيخَه في نَفَسٍ ـ سِرّاً أو جَهْراً ـ فإنه يرى غِبَّه سريعاً في غير ما يُحبُّه. ومخالفةُ الشيوخ فيما يستسرونه عنهم أشدُّ مِمَّا يظهر بالجهر بكثير لأن هذا يلتحق بالخيانة. ومَنْ خَالَفَ شيخَه لا يُشمُّ رائحةَ الصِّدقِ، فإن بَدَرَ منه شيءٌ من ذلك فعليه بسرعة الاعتذار والإفصاح عمَّا حَصَلَ منه من المخالفة والخيانة، لِيَهْدِيَه شيخُه إلى ما فيه كفَّارةُ جُرْمِه، ويلتزم في الغرامة بما يحكم به عليه. وإذا رجع المريدُ إلى شيخه بالصدق وَجَبَ على شيخه جبرانَ تقصيره بهمته؛ فإن المريدين عِيالٌ على الشيوخ؛ فُرِضَ عليهم أن يُنْفِقُوا عليهم من قُوَّةِ أحوالهم بما يكون جبراناً لتقصيرهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾.

أي عَظِّموه في الخطاب، واحفظوا في خدمته الأدبَ، وعانِقوا طاعتَه على مراعاةِ الهيبة والتوقير.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

سعادة الدارين في متابعة السنَّة، وشقاوة المنزلين في مخالفة السُّنَّة. ومِنْ أَيْسَرِ ما يُصيب مَنْ خَالَفَ سُنتَه حرمانُ الموافقة، وتَعَذُّرُ المتابعة بعده، وسقوط حشمة الدارين عن قلبه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

إنَّ لليوم غداً، ولِمَا يفعلُ العبدُ حساباً، وسيُطالَبُ المكَلَّفُ بالصغيرِ والكبير، والنقير والقطمير.

= (كشف الخفاء ٢/ ٢٢ ـ ٨٣)، والسهمي في (تاريخ جرجان ٣٣٦)، وابن حجر في (الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ١٢٤)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ١١٤)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ٢٣٠ ـ ٢٤٧).

سورة الفرقان

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

بسم الله اسم جليل شهدت بجلاله أفعالُه، ونَطَقَتْ بجماله أفضالُه. دَلَّتْ على إثباتِه آياتُه، وأَخْبَرَتْ عن صفاتِه مفعولاتُه.

بسم الله اسم عزيز عُرِفَتْ بفعله قدرتُه، اسم كريم شَهِدَتْ بفضله نصرته.

بسم الله اسم عزيز عَرَفَه العقلاءُ بدلالات أفعاله، وعَرَفَه الأصفياءُ باستحقاقه لجلاله وجماله؛ فبلطف جماله عرفوا جودَه، وبكشف جلاله عرفوا وجودَه.

بسم الله اسم عزيز مَنْ دعاه لبَّاه، ومَنْ توكل عليه كفَاه، ومَنْ تَوَسَّلَ إليه أكرمه وآواه، ومن تَنَصَّلَ إليه رَحِمَه وأدناه، ومن شكا إليه أشكاه، ومن سأله خوَّله وأعطاه.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.

يقال بَرَكَ الطيرُ على الماء إذا دام وقوفُه على ظهر الماء. ومَبَارِكُ الإبلِ مَواضِعُ إقامتها بالليل. وتبارك على وزن تَفَاعَل تفيد دوامَ بقائه، واستحقاقَه لِقِدَمِ ثبوته وبقاء وجوده لا عن استفتاحٍ ولا إلى انقطاع.

وفي التفاسير ﴿تَبَارَكَ﴾ أي تعظَّمَ وتَكبَّر. وعند قوم أنه من البركة وهي الزيادة والنفع، فدوامه وجودُه، وتكبره استحقاق ذاته لصفاته العلّية، والبركة أو الزيادة تشير إلى فَضْلِه وإحسانه ولُطْفِه.

فوجوهُ الثناء عليه تنحصر بهذه الأوجه الثلاثة: ثناء عليه بذكر ذاته وحقِّه، وثناء بذكر وصفه وعِزِّه، وثناء بذكر إحسانه وفضله؛ فكلمةُ ﴿تَبَارَكَ﴾ مجمعُ الثناء عليه ـ سبحانه.

﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾، وهو القرآن ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾: فأكرمه بأن نَبَّاه وفَضَّلَه، وإلى الخَلْق أرسله، وبَيَّنَ مُعْجِزَتَه وأمارةَ صِدْقه بالقرآن الذي عليه أنزله، وجعله بشيراًونذيراً، وسراجاً منيراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

تَفَرَّدَ بالمُلْكِ فلا شريكَ يساهمه، وتَوَحَّدَ بالجلالِ فلا نظيرَ يُقاسِمُه؛ فهو الواحد بلا قسيم في ذاته، ولا شريك في مخلوقاتِه، ولا شبيهٍ في حَقِّه ولا في صفاته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾.

اتخذوا من دون اللَّهِ آلهةً لا يملكون قطميراً، ولا يخلقون نقيراً، ولا يدفعون عنهم كثيراً ولا يسيراً، ولا ينفعونهم ولا يُسهِّلُون عليهم عسيراً، ولا يملكون لأحدٍ موتاً ولا نُشوراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَاءُو ظُلْمًا وَزُورًا وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

ظنوه كما كانوا، ولمَّا كانوا بأمثالِهم قد استعانوا فيما عجزوا عنه من أمورِهم، واستحدثوا لأمثالهم واستكانوا ـ فقد قالوا من غير حُجَّةٍ وتَقَوَّلُوا، ولم يكن لقولهم تحصيل، ولأساطيرُ الأولين تُرَّهاتُهم التي لا يُدْرَى هل كانت؟ وإن كانت فلا يُعْرَفُ كيف كانت ومتى كانت؟

ثم قال: يا محمد، إن هذا الكتاب ـ الذي أنزله الذي يعلم السِّرَّ في السموات والأرض ـ لا يَقْدِر أحد على الإتيان بمثله ولو تشاغلوا من الوقت الذي أتى به أعداء الدينِ، وهم على كثرتهم مجتهدون في معارضته بما يوجب مساواته؛ فادَّعوا تكذيبه. وانقطعت الأعصار وانقضت الأعمال، ولم يأتِ أحدٌ بسورة مثله. فانتفى الرَّيْبُ عن صِدْقِه، ووَجَبَ الإقرارُ بحقِّه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾.

لما عجزوا عن معارضته أخذوا يعيبونه بكونه بَشَراً من جنسهم يمْشي في الأسواق، ويأكل الطعام، وعابوه بالفقر وقالوا: هَلَّا نَزَّلَ عليه الملائكةَ فَيَرَوْنَ عياناً؟ وهلَّا جعل له الكنوزَ فاستكثر مالاً؟ وهلَّا خُصَّ بآياتٍ ـ اقترحوها ـ فتَقْطَعَ العُذْرَ وتُزِيلَ عنَّا إشكالاً؟! وما هذا الرجلُ إلا بشرٌ تعتريه مِنْ دواعي الشهوات ما يعتري غيره! فأيُّ خصوصيةٍ له حتى تلْزَمَنا متابَعَتهُ ولن يُظْهِرَ لنا حجةً؟ فأجاب الله عنهم وقال: إنَّ الحقَّ قادرٌ على تمليكك ما قالوا وأضعافَ ذلك، وفي قدرته إظهارُ ما اقترحوه وأضعافُ ذلك، ولكن ليس لهم هذا التخير بعدما أزيح العذرُ بإظهار معجزة

واحدة، واقتراح ما يَهْوَوْنَ تحكُّمٌ على التقدير، وليس لهم ذلك. ثم أخبر أنه لو أظهر تفصيل ما قالوه وأضعافه لم يؤمنوا؛ لأن حُكْمَ الله بالشقاوة سابق لهم، وقال:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾.

فهم في حُكم الله من جملة الكفار، والله أَعَدَّ لهم ولأمثالهم من الكفار وعيدَ الأبدِ.. فلا محالة يُمْتحنون به.

قوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾: دليلٌ على جواز التكليف بما لا يقدر عليه العبدُ في الحالِ؛ لأنه أخبر أنهم لا يستطيعون سبيلاً، وهم معاتَبون مُكَلَّفون.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾.

فوحشةُ النارِ توجد من مسافة بعيدة قبل شهودِها والامتحان بها، ونسيمُ الجنةَ يوجد قبل شهودِها والدخولِ فيها، والنار تُسَجَّر منذ سنين قبل المحترقين بها، والجنة تُزَيَّن منذ سنين قَبْلَ المستَمتِعين بها. وكذَبَ مَنْ أحال وجودهما قبل كون سكانهما وقطانهما من المنتفعين أو المعاقبين، لأن الصادق أخبر عن صفاتهما التي لا تكون إلا بموجود حيث قال:

﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾.

راحةُ الجنة مقرونة بسعتها، ووحشة النار مقرونة بضيقها، فيُضيِّق عليهم مكانَهم، ويضيِّق عليهم قلوبهم، ويضيق عليهم أوقاتهم. ولو كانت حياتُهم تبطل وكانوا يتخلصون منها لم يكن البلاء كاملاً، ولكنها آلام لا تتناهى، ومِحَنٌ لا تنقضي؛ كلما راموا فرجةً قيل لهم: فلن نزيدكم إلا عذاباً.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾.

المتقون أبداً في النعيم المقيم؛ حور وسرور وحبور، ورَوْحٌ وريحان، وبهجة وإحسان، ولطف جديد وفضل مزيد، وألذُّ شرابٍ وكاساتُ محابٍّ، وبسطُ قلبٍ وطيبُ حالٍ، وكمال أُنْسٍ ودوام طرب وتمام جَذَلٍ، لباسهم فيها حرير وفراشهم سندس[1] وإستبرق[2]. والأسماء أسماءٌ في الدنيا والأعيان بخلاف المعهودات فيها.

---

(١) السندس: رقيق الديباج ورفيعه. وقيل: السندس ضرب من البُزيون يُتخذ من المرعزيّ (معرّب). (لسان العرب ٦/ ١٠٧ مادة: سندس).

(٢) الإستبرق: هو الديباج الصفيق الغليظ الحسن، وهو اسم أعجمي أصله بالفارسية استَفْره ونقل من العجمية إلى العربية كما سمي الديباج وهو منقول من الفارسية. (لسان العرب ١٠/ ٥ مادة: إستبرق).

ثم فيها ما يشاؤون، وهم أبداً مقيمون لا يبرحون، ولا هم عنها يخرجون.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾.

ولكن لا يخلق في قلوبهم إلا إرادةَ ما عَلِم أنه سيفعله، فما هو المعلوم لله أنه لا يفعله لا تتعلق به إرادتُهم، ويمنع من قلوبهم مشيئتَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ﴾.

اللّهُ يحشرُ الكفارَ ويحشر الأصنامَ التي عبدوها من دون الله، فَيُحْيِيها ويقول لها: هل أمرتم هؤلاء بعبادتكم؟ فيتبرأون... كلُّه تهويلٌ وتعظيمٌ للشأن، وإلا فهو عليم بما كان وما لم يكن. فالأصنام تُتبرأ منهم، وتقابلهم بالتكذيب، وهم ينادون على أنفسهم بالخطأ والضلالِ، فيُلْقَوْن في النار، ويَبْقَوْنَ في الوعيد إلى الأبد[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾.

أخبر أن الذين تَقَدَّموه من الرسل كانوا بَشَراً، ولم تكن الخصوصية لهم إلا ظهورَ المعجزات عليهم. وفي الجملة الفضائل بالمعاني لا بالصورة، ثم قال:

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾.

فَضَّلَ بعضاً على بعض، وأمر المفضولَ بالصبر والرضاء، والفاضلَ بالشكر على العطاء وخصَّ قوماً بالبلاء وجعلهم فتنة لأهل البلاء، وخصَّ قوماً بالعوافي، وآخرين بالأسقام والآلام، فلا لِمَن نَعَّمَه مناقب، ولا لِمَنْ امتحنه معايب... فبحُكمِه لا بِجُرْمهم، وبفضله لا بفعلهم، وبإرادته لا بعبادتهم، وباختياره لا بأوضارهم، وبأقذاره لا بأوزارهم، وبه لا بهم.

قوله: ﴿أَتَصْبِرُونَ؟﴾ استفهام في معنى الأمر، فَمَنْ ساعَدَه التوفيقُ صبر وشكر، ومن قارنه الخذلان أبي وكفر.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾.

﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾: لا يؤمنون بالحشر والنشر والرجوع إلى الله في القيامة من الدنيا. وكما كانوا لا يخافون العذابَ، ولا ينتظرون الحَشْرَ كذلك كانوا لا يُؤْمِنون لقاءَ الله. فَمُنْكِرُ الرؤيةِ من أهل القِبْلَةِ ـ ممن يؤمن بالقيامة والحشرِ ـ مُشارِكٌ لهؤلاء في

(١) الآيتان (١٨، ١٩) لم ترد.

جُحْدِ ما وَرَدَ به الخبرُ والنقلُ؛ لأن النَّقْلَ كما وَرَدَ بكوْنِ الحَشْرِ وَرَدَ بكون الرؤية لأهل الإيمان.

فالذين لم يؤمنوا قالوه على جهة رؤية المقام لأنفسهم، وأنه مُسَلَّمٌ لهم ما اقترحوه من نزول الملائكة عليهم ورؤية ربهم. وذلك وإن كان في القدرة جائزاً ـ إلا أنه لم يكن واجباً بعد إزاحة عُذْرِهم بظهور معجزات الرسول عليه السلام، فلم يكن اقتراح ما قالوه جائزاً لهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾.

اقترحوا شيئين: رؤيةَ الملائكةِ ورؤيةَ اللَّهِ، فأخبر أنهم يرون الملائكة عند التوفيٌ، ولكن تقول الملائكةُ لهم: ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ!﴾.

﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾: أي حراماً ممنوعاً يعني رؤية الله عنهم، فهذا يعود إلى ما جرى ذكره، وحَمْلُه على ذلك أَوْلى من حَمْلِه على الجنة، ولم يجرِ لها هنا ذكْرٌ. ثم فيه بشارة للمؤمنين بالرؤية لأنهم يرون الملائكة ويبشرونهم بالجنة، قال تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ﴾ [فصلت: ٣٠] فكما لا تكون للكفار بشارةٌ بالجنة وتكون للمؤمنين لا تكون الرؤيةُ للكفار وتكون للمؤمنين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾.

هذه آفة الكفار؛ ضاع سعيُهم وخاب جُهْدُهم، وضاع عمرُهم وخَسِرَتْ صفقتُهم وانقطع رجاؤهم ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]، ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

وأما أصحاب الحقائق وأرباب التوحيد فيلوح لقلوبهم من سماع هذه الآية ما يحصل به كمال رَوْحِهم، وتتأدّى إلى قلوبهم من الراحات ما يضيق عن وصفه شرحهُم، ويتقاصر عن ثنائه نُطْقُهم، حيث يسمعون قوله: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ ولقد ظهرت قيمة أعمالهم حيث قال الحقُّ لأجله: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ...﴾ فَهُمْ إذا سمعوا ذلك وَجَبَ لهم من الأريحية ما يشغلهم عن الاهتمام لقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ ويقولون: يا ليت لنا أعمال أهل الدارين ثم لا تُقْبَلُ منها ذرةٌ وهو يقول بسببها: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ...﴾! لأنهم إذا تخلصوا من مواضع الخلل وموجبات الخجل من أعمالهم عدُّواْ ذلك من أجلّ ما ينالون من الإحسان إليهم، وفي معناه أنشدوا:

سأرجع من حجٍّ عامِيَ مُخْجِلاً لأنَّ الذي قد كان لا يُتَقَبَّلُ

قوله جلّ ذكره: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

أصحابُ الجنةِ هم الراضون بها، الواصلون إليها، والمُكتَفون بوجدانها، فحسُنَتْ لهم أوطانُهم، وطابَ لهم مُستقرُّهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾.

يريدُ يومَ القيامة إذا بَدَتْ أهوالُها، وظَهَرت للمبعوثين أحوالُها عَمِلوا وتحققوا ـ ذلك اليومَ ـ أنَّ المُلْكَ للرحمن، ولم يتخصص ملكُه بذلك اليوم، وإنما علْمُهم ويقينهُم حَصَلَ لهم ذلك الوقت.

ويقال تنقطع دواعي الأغيار، وتنتفي أوهامُ الخلْق فلا يتجدَّدُ له ـ سبحانه ـ وصفٌ ولكن تتلاشى للخلْق أوصاف، وذلك يومٌ على الكافرين عسير، ودليل الخطاب يقتضي أنَّ ذلك اليوم على المؤمنين يسيرٌ وإلا بطل الفرقُ؛ فيجب ألا يكون مؤمن إلَّا وذلك اليوم يكون عليه هيناً(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾.

يندم الكافر على صحبة الكفار. ودليل الخطاب يقتضي سرورَ المؤمنين بمصاحبة أخدانهم وأحبائهم في الله، وأمَّا الكافر فيُضِلُّ صاحبَه فيقع معه في الثبور، ولكن المؤمن يهدي صاحبه إلى الرشد فيصل به إلى السرور(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾.

شكا إلى الله منهم، وتلك سنَّةُ المرسلين؛ أخبر الله عن يعقوب ـ عليه السلام ـ أنه قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] فمنْ شكا من الله فهو جاحد، ومنْ شكا إلى الله فهو عارف واجد.

ثم إنه أخبر أنه لم يُخْلِ نبياً من أنبيائه صلوات الله عليهم إلا سلَّطَ عليه عَدُوّاً في وقته، إلا أنَّه لم يغادِرْ من أعدائِهم أحداً، وأذاقهم وبالَ ما استوجبوه على كفرهم وغيِّهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

كفى بربك اليوم هادياً إلى معرفته، وغداً نصيراً على رؤيته.

ويقال آخر فتنة للمؤمنين ما ورد في الخبر: «أن كل أمة ترى في القيامة الصنم الذي عبدوه يتبعونه فيحشرون إلى النار، فيُلْقَوْن فيها ويبقى المؤمنون، فيقال لهم: ما وقفكم؟ فيقولون: إنهم رأوا معبودهم فتبعوه ونحن لم نرَ معبودنا! فيقال لهم: ولو رأيتموه... فهل تعرفونه؟ فيقولون: نعم. فيقال لهم: بِمَ تعرفونه؟

---

(١) الآية (٢٦) لم ترد. (٢) الآية (٢٩) لم ترد.

فيقولون: بيننا وبينه علامة. فيريهم شيئاً في صورة شخص فيقول لهم: أنا معبودكم. فيقولون: معاذ الله... نعوذ بالله منك! ما عبدناك. فيتجلّى الحقُّ لهم فَيسجدون له».

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾.

أي إنما أنزلناه متفرقاً لِيسُهل عليك حِفْظُه؛ فإنه كان أمياً لا يقرأ الكتب، ولأنه لو كان دفعة واحدة لم يتكرر نزول جبريل عليه السلام بالرسالة إليه في كل وقت وكل حين... وكثرةُ نزوله كانت أوجبَ لسكون قلبه وكمال رَوْحه ودوام أُنْسه، فجبريل كان يأتي في كل وقت بما كان يقتضيه ذلك الوقتُ من الكوائن والأمور الحادثة، وذلك أبلغُ في كونه معجزةً، وأبعدُ عن التهمة من أن يكون من جهة غيره، أو أن يكون بالاستعانة بمن سواه حاصلاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾.

كان الجوابُ لما يوردونه على جهة الاحتجاج لهم مفحماً، ولفساد ما يقولونه موضحاً، ولكن الحقَّ ـ سبحانه ـ أجرى السُّنّة بأنه لم يزد ذلك للمسلمين إلا شِفَاءً وبصيرةً، ولهم إلا عَمىً وشبهة.

ثم أخبر عن حالهم من مآلهم فقال:

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

يحشرون على وجوههم وذلك أمارة لإهانتهم، وإن في الخبر: «الذين أمْشاهم اليومَ على أقدامهم يُمْشيهم غداً على وجوههم»[1] وهو على ذلك قادر، وذلك منه غير مستحيل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾.

قَلَّما يجري في القرآن لنبينا ـ ﷺ ـ ذِكْرٌ إلا ويذكر الله عُقَيْبَه موسى عليه السلام. وتكررت قصته في القرآن في غير موضع تنبيهاً على علو شأنه، لأنه كما أن التخصيص بالذكر يدل على شرف المذكور فالتكرير في الذكر يوجب التفصيل في الوصف؛ لأن القصة الواحدة إذا أعيدت مراتٍ كثيرة كانت في باب البلاغة أتمَّ لا سيما إذا كانت في كل مرة فائدةٌ زائدة.

---

(١) أخرجه البخاري (تفسير سورة ٢٥، ١)، ومسلم (منافقين ٥٤)، والترمذي (تفسير سورة ١٧ ـ ١٢)، وأحمد بن حنبل ٢، ٣٥٤، ٣٦٣.

ثم بيَّن أنه قال لهما:

﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾.

أي فَذَهَبا فَجَحَدَ القومُ فدمرناهم تدميراً أي أهلكناهم إهلاكاً، وفي ذلك تسليةٌ للنبي - ﷺ - فيما كان يقاسيه من قومه من فنون البلاء، ووَعْدٌ له بالجميل في أنه سَيُهْلك أعداءَه كُلَّهم.

قوله جلَّ ذكره: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

أَحْلَلْنا بهم العقوبة كما أحللنا بأمثالهم، وعاملناهم بمثل معاملتنا لقرنائهم. ثم عَقَّبَ هذه الآيات بذكر عادٍ وثمود وأصحاب الرَّسّ[1]، ومَنْ ذكرهم على الجملة من غير تفصيل، وما أهلك به قوم لوطٍ حيث عملوا الخبائث... كل ذلك تطييباً لقلبه ﷺ، وتسكيناً لِسرِّه، وإعلاماً وتعريفاً بأنه سيهلك مَنْ يُعاديه، ويدمِّر مَنْ يناويه، وقد فَعَلَ من ذلك الكثير في حال حياته، والباقي بعد مُضِيِّه - عليه السلام - من الدنيا وذهابه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾[2].

كانت تكون له سلوة لو ذكر حالته وشكا إليه قصته، فإذا أخبر اللَّهُ وقصَّ عليه ما كان يلاقيه كان أَوْجَبَ للسَّلْوَةِ وأقربَ من الأُنس، وغايةُ سلوةِ أربابِ المحن أن يذكروا لأحبائهم ما لقوا في أيام امتحانهم كما قال قائلُهم:

يـودُّ بـأن يـمشي سقيماً لَعَلَّها ... إذا سمعت منه بشكوى تراسله

ويهتزُّ للمعروفِ في طَلَبِ العلَى ... لتُذْكَرَ يوماً عند سلمى شمائلُه

وأخبر أنهم كانوا ينظرون إليه - عليه السلام - بعين الازدراءِ والتصغيرِ لشأنه؛ لأنهم كانوا لا يعرفون قَدْرَه، قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[3] [الأعراف: ١٩٨].

قوله جلّ ذكره: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾.

---

(١) أصحاب الرس: يروى أن الرس ديار لطائفة من ثمود، ويُروى أن الرس قريسة باليمامة يقال لها: فلج، ويروى أنهم كذبوا نبيهم ورسّوه في بئر أي دسّوه فيها حتى مات. (لسان العرب ٦/ ٩٨ مادة: رسس).

(٢) الآيات (٣٨، ٣٩، ٤٠) لم ترد.

(٣) الآية (٤٢) لم ترد.

كانوا يعبدون من الأصنام ما يَهْوَوْن؛ يستبدلون صنماً بصنم، وكانوا يَجْرُون على مقتضى ما يقع لهم. والمؤمنُ بِحُكْمِ اللَّهِ لا بحكم نفسه، وبهذا يتضح الفرقان بين رجلٍ وبين رجل. والذي يعيش على ما يقع له فعابِدُ هواه، وملتحِقٌ بالذين ذكرهم الحقُّ بالسوءِ في هذه الآية.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

كالأنعام التي ليس لها هَمٌّ إلّا في أَكْلَةٍ وشَرْبَة، ومَنْ استجلب حظوظَ نَفْسِه فكالبهائم. وإنَّ الله ـ سبحانه ـ خَلَقَ الملائكةَ وعلى العقلِ جَبَلَهم، والبهائمَ وعلى الهوى فَطَرَهم، وبنى آدم ورَكَّبَ فيهم الأَمْرَيْن؛ فَمَنْ غَلَبَ هواه عَقْلَه فهو شرٌّ من البهائم، ومَنْ غَلَبَ عَقْلُه هواه فهو خيرٌ من الملائكة... كذلك قال المشايخ.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾.

قيل نَزَلَ الرسول ـ ﷺ ـ في بعض أسفاره وقت القيلولة في ظل شجرة وكانوا خَلْقاً كثيراً فَمَدَّ اللَّهُ ظِلَّ تلك الشجرة حتى وسع جميعَهم وكانوا كثيرين، فأنزل الله هذه الآية، وكان ذلك من جملة معجزاته عليه السلام.

وقيل إن الله في ابتداء النهار قبل طلوع الشمس يجعل الأرضَ كلَّها ظلاً، ثم إذا طلعت الشمسُ، وانبسط على وجه الأرض شعاعُها فكلُّ شخصٍ يُبْسَطُ له ظِلٌّ، ولا يُصيب ذلك الموضعَ شعاعُ الشمس، ثم يتناقص إلى وقت الزوال، ثم يأخذ في الزيادة وقت الزوال. وذلك من أماراتِ قدرة الله تعالى؛ لأنه أجرى العادة بخلق الظلّ والضوء والفيء.

قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾: أي دائماً: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾؛ أي حال ارتفاعِ الشمسِ ونُقصانِ الظِّلّ.

ويقال: ألم تر إلى ربك كيف مدَّ ظل العناية على أحوال أوليائه؛ فقومٌ هم في ظل الحماية، وآخرون في ظل الرعاية، وآخرون في ظل العناية، والفقراء في ظل الكفاية، والأغنياء في ظل الراحة من الشكاية.

ظلٌّ هو ظل العصمة، وظل هو ظل الرحمة؛ فالعصمة للأنبياء عليهم السلام ثم للأولياء، والرحمة للمؤمنين، ثم في الدنيا لكافة الخلائق أجمعين. ويقال قوله للنبي ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ثم قوله: ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ ستراً لما كان كاشفة به أولاً، إجراءً للسُّنَّةِ في إخفاء الحال عن الرقيب. قال لموسى عليه السلام: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾

[الأعراف: ١٤٣]. وقال لنبينا عليه السلام: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وشتان ما هما!

ويقال أحيا قلبه بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى أن قال: ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ فجعل استقلاله بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى أن سمع ذكر الظل. ويقال أحياه بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ثم أفناه بقوله: ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ وكذا سُنَّتُه مع عباده؛ يُرَدِّدُهم بين إفناءٍ وإبقاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾[(١)].

جعل الليلَ وقتاً لسكون قوم ووقتاً لانزعاج آخرين؛ فأربابُ الغفلة يسكنون في ليلهم، والمحبون يسهرون في ليلهم إنْ كانوا في رَوْح الوصال، فلا يأخذهم النومُ لكمال أُنسِهم، وإن كانوا في ألم الفراق فلا يأخذهم النوم لكمال قلقهم، فالسّهرُ للأحباب صِفَةٌ: إمَّا لكمال السرور أو لهجوم الهموم. ويقال جعل النومَ للأحباب وقتَ التجلِّي بما لا سبيلَ إليه في اليقظة، فإذا رَأَوْا ربَّهم في المنام يؤثِرون النومُ على السَّهر[(٢)]، قال قائلهم:

وإني لأَستغفي وما بي نَعْسَةٌ   لعلَّ خيالاً منك يلقى خياليا

وقال قائلهم:

رأيتُ سرورَ قلبي في منامي   فأحببتُ التَّنَعُّسَ والمناما

ويقال النوم لأهلِ الغفلة عقوبةٌ ولأهلِ الاجتهادِ رحمةٌ؛ فإن الحقَّ ـ سبحانه ـ يُدْخِلُ عليهم النوم ضرورةً رحمةً منه بنفوسهم ليستريحوا من كَدِّ المجاهدة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾.

يُرْسِلُ رياحَ الكَرَم فتهب على قلوب ذوي الحاجات فتزعجها إلى طلب مبارّه، ويرسل رياحَ الولاية فتهب على قلوب الخواص فتطهرها من جميع الإرادات فتُكْفَى بالله لله، ويرسِلُ رياحَ الخوفِ على قلوبِ العُصَاةِ فتحملهم على النَّدَم، وتطهرها من الإصرار فترجع إلى التوبة، ويرسل رياح الاشتياق على قلوب الأحباب فتزعجها عن المساكنات، وتطهرها عن كل شيء إلا عن اللواعج فلا تستقِرُّ إلا بالكشف والتجلِّي.

---

(١) السُّبات: النوم أو النوم الخفيف أو النوم الثقيل.

(٢) انظر حديث القشيري بالرسالة عن رؤيا القوم ص٣٦٤، ٣٧٧ ففيها ترى الكرامات التي تحققت للأولياء أثناء نومهم.

ويقال إذا تَنَسَّمَ القلبُ نسيمَ القُرْبِ هَامَ في ملكوت الجلال، وامتحى عن كل مرسوم ومعهود.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾.

أنزل من السماء ماء المطرِ فأحيا به الغياضَ والرياضَ، وأنبت به الأزهار والأنوار، وأنزل من السماء ماء الرحمةِ فغَسَلَ العصاةُ ما تلطخوا به من الأوضار، وما تدنَّسوا به من الأوزار.

و﴿**الطَّهُور**﴾ هو الطاهرُ المُطَهِّرُ، وماءُ الحياء يُطهِرُ قلوبَ العارفين عن الجنوح إلى المساكنات وما يتداخلها في بعض الأحيان من الغفلات. وماء الرعاية يُحْيي به قلوبَ المشتاقين بما يتداركها من أنوار التجلِّي حتى يزول عنها عَطَشُ الاشتياق ويحصل فيها من سكينة الاستقلال، ويحيي به نفوساً ميتةً باتباع الشهوات فيردها إلى القيام بالعبادات.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾.

إنَّ الله ـ سبحانه ـ خصَّ نبينا ﷺ بأن فضَّله على الكافة، وأرسله إلى الجملة، وبألا يُنْسَخَ شَرْعُه إلى الأبد. وبهذه الآية أدَّبه بأدقِّ إشارة، حيث قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾ وهذا كما قال: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٨٦].

وَقَصْدُ الحقِّ أن يكون خواصُّ عباده أبداً معصومين عن شواهدهم.

وفي القصة أن موسى عليه السلام تَبَرَّمَ وقتاً بكثرة ما كان يُسْأل، فأوحى الله في ليلة واحدة إلى ألف نبي من بني إسرائيل فأصبحوا رُسلاً، وتفرَّقَ الناسُ عن موسى عليه السلام إليهم عليهم السلام، فضاق قلبُ موسى وقال: يا رب، إني لا أطيق ذلك! فقبض اللَّهُ أرواحهم في ذلك اليوم.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾.

أي كُنْ قائماً بحقِّنا من غير أن يكون منك جنوحٌ إلى غيرنا أو مبالاةٌ بِمَنْ سوانا، فإنَّا نَعْصِمُكَ بكلِّ وجهٍ، ولا نرفع عنك ظِلَّ عنايتنا بحالٍ.

قوله جل ذكره: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾.

البحر المِلْح لا عذوبة فيه، والعَذْبُ لا ملوحة فيه، وهما في الجوهرية واحد، ولكنه سبحانه ـ بقدرته ـ غَايَر بينهما في الصفة، كذلك خَلَقَ القلوبَ؛ بعضُها مَعْدِنُ اليقينِ والعرفانِ؛ وبعضُها مَحَلُّ الشكِّ والكفران.

ويقال أثبت في قلوب المؤمنين الخوف والرجاء، فلا الخوف يغلب الرجاء، ولا الرجاء يغلب الخوف.

ويقال خَلَقَ القلوبَ على وصفين: قلبَ المؤمن مضيئاً مشرقاً وقلبَ الكافر أسود مظلماً، هذا بنور الإيمان مُزَيَّن، وهذا بظلمة الجحود مُعَلَّم.

ويقال قلوبُ العوام في أَسْرِ المطالب ورغائب الحظوظ، وقلوبُ الخواصّ مُعْتَقَةٌ عن المطالب، مُجَرَّدَةٌ عن رِقِّ الحظوظ.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

الخَلْقُ متشاكلون في أصل الخِلْقة، متماثلون في الجوهرية، متباينون في الصفة، مختلفون في الصورة؛ فنفوسُ الأعداء مطاياهم تسوقهم إلى النار، ونفوس المؤمنين مطاياهم تحملهم إلى الجنة. والخلْقُ بَشَرٌ.. ولكن ليس كلُّ بَشَرٍ كبشر؛ واحدٌ عدوٌّ لا يسعى إلا في مخالفته، ولا يعيش إلا بنصيبه وحظِّه، ولا يحتمل الرياضة ولا يرتقي عن حدِّ الوقاحة والخساسة، وواحدٌ وليٌّ لا يَفْتَرُ عن طاعته، ولا يَنْزِل عن هِمَّتِه، فهو في سماء تعززه بمعبوده.

وبينهما للناس مناهل ومشارب؛ فواحِدٌ يكون كما قال:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾.

يكتفي بالمنحوتِ من الخشب، والمصنوعِ من الصَّخْرِ، والمُتَّخَذِ من النحاس، وكلُّها جمادات لا تعقل ولا تسمع، ولا تضر ولا تنفع.

أما المؤمنُ فإنَّ من صفاته أنَّه لا يلتفت إلى العرش ـ وإن علا، ولا ينقاد بقلبه لمخلوقٍ ـ وإنِ لتصف بمناقب لا تُحْصَى.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

رسولاً مِنّا، مأموراً بالإنذار والتبشير، واقفاً حيث وقفناك على نعت التبليغ، غيرَ طالبٍ منهم أجراً، وغير طامعٍ في أن تجد منهم حظّاً.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾.

﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء منقطع؛ إذ ابتغاؤهم السبيل إلى ربِّهم ليس بأجرٍ يأخذه منهم، فهو لِمَنْ أَقْبَلَ بشيرٌ، ولِمَنْ أعرض نذير.

قوله جل ذكره: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾.

التوكلُ تفويضُ الأمور إلى الله. وحقُّه وأصْلُهُ عِلْمُ العبدِ بأنَّ الحادثاتِ كلّها حاصِلةٌ من الله تعالى، وأنه لا يقدر أحدٌ على الإيجاد غيرُه.

فإذا عَرَفَ هذا فهو فيما يحتاج إليه ـ إذا عَلِمَ أن مرادَهُ لا يرتفع إلا مِنْ قِبَلِ الله ـ حصل

له أصل التوكل. وهذا القَدْرُ فَرْضٌ، وهو من شرائط الإيمان، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] وما زاد على هذا القَدْرِ ـ وهو سكون القلب وزوال الانزعاج والاضطرار ـ فهي أحوال تلحق بالتوكل(١) على وجه كماله.

فإن تقرَّرَ هذا فالناس في الاكتفاء والسكون على أقسام، ولكلٍّ درجةٍ من هذه الأقسام اسم: إمَّا من حيث الاشتقاق، أو من حيث الاصطلاح.

فأول رتبة فيه أن يكتفي بما في يده، ولا يطلب زيادة عليه، ويستريح قلبه من طلب الزيادة.. وتسمى هذه الحالة القناعة، وفيها يقف صاحبها حيث وقف، ويقنع بالحاصل له فلا يستزيد ثم اكتفاءُ كلِّ أحدٍ يختلف في القلة والكثرة، وراحة قلوب هؤلاء في التخلص من الحِرصِ وإرادة الزيادة.

ثم بعد هذا سكونُ القلبِ في حالة عَدَمِ وجود الأسباب، فيكون مجرداً عن الشيء، ويكون في إرادته متوكلاً على الله. وهؤلاء متباينون في الرتبة، فواحد يكتفي بوعده لأنه صَدَقَه في ضمانه، فيسكن ـ عند فقد الأسباب ـ بقلبه ثقةً منه بوعد ربه.. ويسمى هذا توكلاً، ويقال على هذا: إن التوكل سكون القلب بضمان الربِّ، أو سكون الجاش في طلب المعاش، أو الاكتفاء بوعده عند عدم نَقْدِه، أو الاكتفاء بالوعد عند فقد النقد.

وألطف من هذا أن يكتفي بِعِلْم أنه يعلم حاله فيشتغل بما أمره الله؛ ويعمل على طاعته؛ ولا يراعي إنجاز ما وَعَدَه؛ بل يكِلُ أمرَه إلى الله.. وهذا هو التسليم.

وفوق هذا التفويض(٢)، وهو أنْ يَكِلَ أمرَه إلى الله، ولا يقترح على مولاه بحالٍ، ولا يختار؛ ويستوي عنده وجودُ الأسباب وعَدَمُها؛ فيشتغل بأداء ما ألزمه الله؛ ولا يفكر في حال نَفْسِه؛ ويعلم أنه مملوكٌ لمولاه؛ والسيِّدُ أوْلى بِعَبْدِهِ من العبد بنفسه(٣).

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص١٦٢ ـ ١٧٣ حديث القشيري عن التوكل.

(٢) قال القشيري برسالته عند حديثه عن التوكل: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: التوكل ثلاث درجات: التوكل ثم التسليم ثم التفويض: فالمتوكل يسكن إلى وعده، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه، وصاحب التفويض يرضى بحكمه. ويقول: التوكل بداية، والتسليم واسطة والتفويض نهاية. وقال: التوكل صفة المؤمنين، والتسليم صفة الأولياء، والتفويض صفة الموحدين، فالتوكل صفة العوام، والتسليم صفة الخواص، والتفويض صفة خواص الخواص وكان يقول: التوكل صفة الأنبياء، والتسليم صفة إبراهيم عليه السلام، والتفويض صفة نبينا محمد ﷺ. (الرسالة القشيرية ص١٦٦، ١٦٧).

(٣) قال القشيري في حديثه عن نفس الموضوع: وقيل: دخل جماعة على الجنيد، فقالوا: أين نطلب الرزق؟ فقال: إن علمتم في أي موضع فاطلبوه، قالوا: فنسأل الله تعالى ذلك، فقال: إن علمتم أنه ينساكم فاذكروه، فقالوا: ندخل البيت فنتوكل، فقال: التجربة شك. قالوا: فما الحيلة؟ فقال: ترك الحيلة. (الرسالة القشيرية ص١٦٨، ١٦٩).

فإذا ارتقى عن هذه الحالة وَجَدَ راحةً في المَنْع؛ واستعذب ما يستقبله من الرَّدِّ. . وتلك هي مرتبة الرضا[١]؛ ويحصل له في هذه الحالة من فوائد الرضا ولطائفه ما لا يحصل لِمَنْ دونَه من الحلاوة في وجود المقصود.

وبعد هذا الموافقة؛ وهي ألا يجد الراحة في المَنْع، بل يجد بَدَلَ هذا عند نسيم القربِ زوائد الأُنس بنسيان كلِّ أَرَبٍ، ونسيان وجود سببٍ أو عدم وجود سبب؛ فكما أنَ حلاوة الطاعة تتصاغر عند بَرْدِ الرضا ـ وأصحاب الرضا يعدون ذلك حجاباً ـ فكذلك أهل الأُنسِ بالله. بنسيانِ كلِّ فَقْدٍ ووَجْدٍ، وبالتغافل عن أحوالهم في الوجود والعدم يعدون النزولَ إلى استلذاذ المنع، والاستقلال بلطائف الرضا نقصاناً في الحال.

ثم بعد هذا استيلاءُ سلطان الحقيقة فيؤخذ العبد عن جملته بالكلية، والعبارة عن هذه الحالة أنه يحدث الخمود والاستهلاك والوجود والاصطلام والفناء. . وأمثال هذا، وذلك هو عين التوحيد، فعند ذلك لا أُنسَ ولا هيبة، ولا لذة ولا راحة، ولا وحشة ولا آفة.

هذا بيان ترتيبهم فأمّا دون ذلك فالخبر عن أحوال المتوكلين ـ على تباين شِرْبِهم ـ يختلف على حسب اختلاف محالّهم.

فيقال شرط التوكل أن يكون كالطفل في المهد؛ لا شيء مِنْ قِبَلِه إلا أن يرضعه مَنْ هو في حضانته[٢].

ويقال التوكل زوال الاستشراف، وسقوط الطمع، وفراغ القلب من تعب الانتظار.

ويقال التوكل السكون عند مجاري الأقدار على اختلافها.

ويقال إذا وثق القلب بجريان القسمة لا يضره الكسب، ولا يقدح في توكله.

ويقال عوامُ المتوكلين إذا أُعْطُوا شكروا، وإذا مُنعُوا صبروا. وخواصُّهم إذا أُعْطُوا آثروا، وإذا مُنِعُوا شكروا.

ويقال الحقُّ يجود على الأولياء ـ إذا توكلوا ـ بتيسير السبب من حيث يُحْتَسَبُ ولا يُحْتَسَبُ، ويجود على الأصفياء بسقوط الأرب. . وإذا لم يكن الأرَبُ فمتى يكون الطلب؟

ويقال التوكل في الأسباب الدنيوية إلى حدٍّ، فأمّا التوكل على الله في إصلاحه ـ سبحانه ـ أمورَ آخرةِ العبدِ فهذا أشدُّ غموضاً، وأكثرُ خفاءً. فالواجبُ في الأسباب

---

(١) انظر حديث القشيري عن الرضا برسالته ص١٩٢ ـ ١٩٧.

(٢) القشيري هنا تأثر بشيوخه حيث قال برسالته بهذا المعنى: قيل: المتوكل كالطفل لا يعرف شيئاً يأوي إليه إلا ثدي أمه، كذلك المتوكل لا يهتدي إلا إلى ربه تعالى. (الرسالة القشيرية ص١٦٨).
وقال دلف الشبلي بهذا المعنى: الصوفية أطفال في حجر الحق. (الرسالة القشيرية ص٢٨٢).

الدنيوية أن يكون السكونُ عن طلبها غالباً، والحركةُ تكون ضرورةً. فأمَّا في أمور الآخرة وما يتعلَّقُ بالطاعةِ فالواجبُ البِدارُ والجِدُّ والانكماشُ، والخروجُ عن أوطان الكسل والجنوحِ إلى الفشل.

والذي يتَّصِفُ بالتواني في العبادات، ويتباطؤ في تلافي ما ضيَّعَه من إرضاء الخصوم والقيام بحقِّ الواجبات، ثم يعتقد في نفسه أنه متوكِّلٌ على الله وأنه ـ سبحانه ـ يعفو عنه فهو مُتَّهَمٌ معلولُ الحالِ، ممكورٌ مُسْتَدْرَجٌ، بل يجب أن يبذل جهده، ويستفرغ وسعه. ثم بعد ذلك لا يعتمد على طاعته، ولا يستنِدُ إلى سكونه وحركته، ويتبرأ بِسِرِّه من حَوْلِهِ وقوَّتِه. ثم يكون حَسَنَ الظنِّ بربِّه، ومع حُسْنِ ظنه بربه لا ينبغي أن يخلوَ من مخافته، اللهم إلا أن يَغْلِبَ على قلبه ما يشغله في الحال من كشوفات الحقائق عن الفكرة في العواقب؛ فإن ذلك ـ إذا حَصَلَ ـ فالوقتُ غالِبٌ، وهو أحد ما قيل في معاني قولهم: الوقت سيف[1].

قـــولـــه جـــل ذكـــره: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

انتظم به الكونُ ـ والعرشُ من جملة الكون ـ ولم يتجمَّل الحقُّ ـ سبحانه ـ بشيءٍ من إظهار بَرِيَّتِه؛ فعلوُّه على العرش بقهره وقدرته، واستواؤه بفعلٍ خص به العرش بتسوية أجزائه وصورته.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾.

أقبل الحقُّ ـ سبحانه ـ بلطفه وبفضله على أقوام فلذلك وجدوه، وأعرض عن آخرين بتكبره وتعزُّزِه فلذلك جحدوه؛ فَطَرَهُم على سِمَةِ البُعْدِ، وعَجَنَ طينتهم بماء الشقاوة والصدِّ، فلما أظهرهم ألبسهم صدار الجهل والجحد.

قوله جل ذكره: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾.

زيَّنَ السماء الدنيا بمصابيح، وخَلَق فيها البروجَ، وبَثَّ فيها الكواكب، وصان عن الفطورِ والتشويش أقطارَها ومناكبَها، وأدار بقدرته أفلاكها، وأدام على ما أراد إمساكها.

وكما أثبت في السماء بروجاً أثبت في سماء قلوب أوليائه وأصفيائه بروجاً؛ فبروج السماء معدودة وبروج القلب مشهودة.

---

(١) قال القشيري عند حديثه عن الوقت بالرسالة: وقالوا: الوقت سيف أي كما أن السيف قاطع فالوقت بما يمضيه الحق ويجريه غالب. وقيل: السيف لين مسّه قاطع حده، فمن لاينه سلم، ومن خاشنه اصطلم، كذلك الوقت من استسلم لحكمه نجا، ومن عارضه انتكس وتردى، ومن ساعده الوقت فالوقت له وقت، ومن ناكده الوقت فالوقت عليه مقت.

وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: الوقت مبرد يسحقك ولا يمحقك. (الرسالة القشيرية ص ٥٥، ٥٦).

وبروجُ السماء بيوتُ شمسها وقمرها ونجومها، وبروجُ القلب مطالعُ أنوارها ومشارِقُ شموسها ونجومها. وتلك النجوم هي نجوم القلوب كالعقل والفهم والبصيرة والعلم، وقمرُ القلوبِ المعرفةُ.

قمرُ السماء له نقصان ومحاق، وفي بعض الأحايين هو بَدْرٌ بوصف الكمال، وقمر المعرفة أبداً له إشراق وليس له نقصان أو محاق، ولذا قال قائلهم:

دع الأقمارَ تخبو أو تنير لها بَدْرٌ تذلُّ له البدور

فأمّا شمسُ القلوب فهي التوحيد، وشمسُ السماءِ تغرب ولكن شمسَ القلوب لا تغيب ولا تغرب، وفي معناه قالوا:

إن شمسَ النهارِ تغرب بالليل وشمسُ القلوب ليست تغيب

ويصحُّ أن يقال إن شمس النهار تغرب بالليل، وشمس القلوب سلطانُها في الضوء والطلوع بالليل أتمّ.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾.

الأوقاتُ متجانِسةٌ، وتفضيلُها بعضها على بعضٍ على معنى أنَّ الطاعة في البعض أفضل والثوابُ عليها أكثر. والليلُ خلفَ النهار والنهارُ خلفَ الليلِ، فَمَنْ وقع له في طاعة الليل خَلَلٌ فإذا حضر بالنهار فذلك وجود جُبْرانه، وإن حصل في طاعة النهار خللٌ فإذا حضر بالليل ففي ذلك إتمامٌ لنقصانه.

قوله جل ذكره: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾.

الذين استوجبوا رحمة الرحمن هم الذين وفِّقوا للطاعات، فبرحمتِه وصلوا إلى التوفيق للطاعة. وعِبادُ الرحمن الذين يستحقون غداً رحمته هم القائمون برحمته؛ فبرحمته وصلوا إلى طاعته.. هكذا بيان الحقيقة، وبطاعتهم وصلوا إلى جَنَّتِه.. هكذا لسان الشريعة.

ومعنى ﴿هَوْنًا﴾ متواضعين متخاشعين.

ويقال شرْطُ التواضع وحَدُّه ألا يستَحْسِنَ شيئاً من أحواله، حتى قالوا[١]: إذا نَظَرَ إلى رِجْلِه لا يستحسن شِسْعَ نَعْلِهِ[٢]، وعلى هذا القياس لا يُساكِنُ أعماله، ولا يلاحظ أحواله.

---

(١) انظر هذا القول للدقاق في الرسالة القشيرية ص١٤٥.

(٢) الشسع: أحد سيور النعل، وهو الذي يدخل بين الاصبعين ويدخل طرفه في الثقب الذي في صدر النعل المشدود في الزمام. (اللسان ٨/ ١٨٠ مادة: شسع).

قوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾: قيل سداد المنطق؛ ويقال مَنْ خاطَبَهم بالقَذْح فهم يجاوبونه بالمدح له.

ويقال إذا خاطبهم الجاهلون بأحوالهم، الطاعنون فيهم، العائبون لهم قابلوا ذلك بالرِّفق، وحُسْنِ الخُلقِ، والقولِ الحَسَنِ والكلام الطيب.

ويقال يخبرون مَنْ جفاهم أنهم في أمانٍ من المجافاة.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا﴾.

يبيتون لربهم ساجدين، ويصبحون واجدين؛ فَوَجْدُ صباحهم ثمراتُ سجودِ أرواحهم، كذا في الخبر: «مَنْ كَثُرَتْ صلاتُه بالليل حَسُنَ وجهه بالنهار»[1] أي عَظُم ماءُ وجهه عند الله، وأحسنُ الأشياء ظاهِرٌ بالسجود مُحَسَّنٌ وباطنٌ بالوجود مُزَيَّنٌ.

ويقال متصفين بالسجود قياماً بآداب الوجود.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

يجتهدون غاية الاجتهاد، ويستفرغون نهاية الوسع، وعند السؤال ينزلون منزلة العصاة، ويقفون موقف أهل الاعتذار، ويخاطبون بلسان التَنَصُّل كما قِيل:

وما رُمْتُ الدخولَ عليه حتى حَلَلْتُ محلة العبد الذليل

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾.

الإسرافُ أن تنفق في الهوى وفي نصيب النَّفس، فأمّا ما كان لله فليس فيه إسراف، والإقتارُ ما كان ادخاراً عن الله. فأمّا التضييقُ على النَّفْس منعاً لها عن اتباع الشهوات ولتتعودَ الاجتراء باليسير فليس بالاقتار المذموم.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾.

﴿إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾: في الظاهر عبادة الأصنام المعمولة من الأحجار، المنحوتة من الأشجار.

وكما تتصف بهذا النفوسُ والأبْشارُ فكذلك توَهُّمُ المبارِّ والمضارِّ من الأغيار شِرْكٌ.

﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ﴾ من النفوس المُحَرَّم قَتْلُها على العبد نَفْسه المسكينةُ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]. وقَتْلُ النفس من غير حقٍّ تمكينُك لها من اتباع ما فيه هلاكُها في الآخرة؛ فإنَّ العبدَ إذا لم يُنْهَ مأمورُ

(١) أخرجه ابن ماجه ١٧٤.

ثم دليل الخطاب أن تقتلها بالحقِّ، وذلك بِذَبْحِها بسكين المخالفات، فما فَلاحُكَ إلا بقتل نَفْسِكَ التي بين جنبيك.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾.

يضاعَفُ لهم العذابُ يومَ القيامة بحسرات الفرقة وزفرات الحرقة. وآخرون يضاعف لهم العذابُ اليومَ بتراكم الخذلان ووشك الهجران ودوام الحرمان. بل مَنْ كان مضاعَفَ العذاب في عقباه فهو الذي يكون مضاعَفَ العذاب في دنياه؛ جاء في الخبر: «مَنْ كان بحالةٍ لقي الله بها».

قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(١).

إلا من تاب من الذنب في الحال؛ وآمن في المآل.

ويقال: ﴿وَءَامَنَ﴾ أن نجاته بفضل الله لا بتوبته، ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ لا ينقض توبتَهُ.

ويقال إن نقَضَ توبته عَمِلَ صالحاً أي جَدَّدَ توبتَه؛ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾. ويخلق لهم التوفيق بدلاً من الخذلان.

ويقال يبدل الله سيئاتهم حسنات فيغفر لهم ويثيبهم على توبتهم.

ويقال يمحو ذِلَّة زَلَّاتِهِم، ويثبت بَدَلَها الخيرات والحسنات، وفي معناه أنشدوا:

ولما رضوا بالعفو عن ذي زلةٍ حتى أنالوا كفَّه وأفادوا

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾(٢).

يستمكنون في مواطن الصدق لا يبرحون عنها ليلاً ونهاراً، وقولاً وفعلاً. وإذا مروا بأصحاب الزلات ومساكن المخالفات مروا متمكنين مُعْرِضين لا يساكِنون أهل تلك الحالة.

ويقال نزلت الآية في أقوام مرُّوا ـ لمَّا دخلوا مكة بأبواب البيوت التي كانوا يعبدون فيها الأصنام مرةً ـ متكرمين دون أن يلاحظوها أو يلتفتوا إليها فَشَكَرَ اللَّهُ لهم ذلك.

ثم قال في صفتهم: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ بل قابلوها بالتفكير والتأمل، واستعمال النظر.

---

(١) الآية (٦٩) لم ترد.

(٢) الآية (٧١) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

قرة العين مَن به حياة الروح، وإنما يكون كذلك إذا كان بحقِّ الله قائماً.

ويقال قرة العين من كان لطاعة ربه معانقاً، ولمخالفة أمره مفارقاً.

﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ الإمام مَنْ يُقْتَدى به ولا يَبْتَدِع.

ويقال إن الله مدح أقواماً ذكروا رتبة الإمامة فسألوها بنوع تضرع، ولم يدَّعوا فيها اختيارهم؛ فالإمامةُ بالدعاء لا بالدعوى، فقالوا: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

قوله جل ذكره: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾.

يعطي ـ سبحانه ـ الكثير من عطائه ويعده قليلاً، ويقبل اليسيرَ من طاعة العبد ويعده كثيراً عظيماً، يعطيهم الجنة؛ قصوراً وحوراً ثم يقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ ويقبل اليسير من العبد فيقول: ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٢].

لَيَرَوْه من غير تكلف نقل، ولا تحمل قطع مسافة.

ويقال: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]: اليومَ يحضر العبدُ بيتَه لأداء العبادة، وينقل أقدامه إلى المساجد، وغداً يجازيهم بأن يكفيهم قطعَ المسافة، فهم على أرائكهم ـ في مستقرِّ عِزِّهم ـ يسمعون كلام الله، وينظرون إلى الله.

قوله: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي صبروا عمَّا نهوا عنه، وصبروا على الأحكام التي أجراها عليهم بِتَرْكِ اختيارهم، وحُسْن الرضا بتقديره.

قوله جل ذكره: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

مقيمين لا يبرحون منازلهم، وفي أحوالهم حَسُنَ مستقرُّهم مستقراً، وحَسُن مقامهم مقاماً.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾.

لولا عبادتكم الأصنامَ ودعاؤكم إياها باستحقاق العبادةِ وتسميتكم لها آلهةً.. متى كان يخلدكم في النار؟

ويقال لولا تضرعكم ودعاؤكم بوصف الابتهال لأدام بكم البلاء، ولكن لما أخذْتُم في الاستكانةِ والدعاء، وتضرَّعتُم رحِمَكم وكَشَفَ الضرَّ عنكم.

السورة التي يذكر فيها الشعراء

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله اسم عزيز يرتضي من الزاهد تَرْكَ دنياه، ومِنَ العابِدِ مخالفة هواه، ومن القاصدِ قَطْعَ مُناه، ولا يَرْضَى مِنَ العارِفِ أنْ يُساكِنَ شيئاً غيرَ مولاه. إنْ خَرَجَ عن كُلِّ مرسوم ـ بالكلية، وانسلخ عن كل معلوم ـ مِنْ غير أن تبقى له منه بقية فلعلَّه يَجِدُ شظيَّة. وإنْ عَرَّجَ على شيءٍ، ولم يَصْفُ مِنَ الكدورات ـ حتى عن يسيرها ـ وإنْ دَقَّ ـ فإنه كما في الخبر: «المُكَاتَبُ عَبْدٌ ما بَقِيَ عليه درهم»[1].

قوله جل ذكره: ﴿طسٓمٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾.

ذَكَرْنَا فيما مضى اختلافَ السَّلَفِ في الحروف المُقَطَّعَة؛ فعند قوم: الطاءُ إشارة إلى طهارة عِزِّه وتَقَدُّسِ عُلُوِّه، والسين إشارةٌ ودلالةٌ على سناء جبروته، والميم دلالةٌ على مَجْدِ جلاله في آزاله.

ويقال الطاء إشارة إلى شجرة طوبى[2]، والسين إلى سِدْرَةِ المُنتهى[3]، والميم إلى اسم محمد ﷺ؛ أي ارتقى محمدٌ ليلةَ الإسراء عن شهوده شجرةَ طوبى حتى بَلَغَ سدرةَ المنتهى، فلم يُسَاكِنْ شيئاً من المخلوقات في الدنيا والعُقْبى.

ويقال الطاء طَرَبُ أربابِ الوصلة على بساط القرب بوجدان كمال الروح، والسين سرورُ العارفين بما كوشفوا به من بقاء الأحدية باستقلالهم بوجوده والميم إشارة إلى موافقتهم لله بِتَرْكِ التخيُّر على الله، وحُسْنِ الرضا باختيار الحق لهم.

ويقال الطاء إشارةٌ إلى طيبِ قلوب الفقراء عند فقد الأسباب لكمال العَيْشِ بمعرفة وجود الرزَّاق بَدَلَ طيب قلوب العوام بوجود الأرْفاق والأرزاق.

ويقال الطاء إشارةٌ إلى طهارة أسرار أهل التوحيد، والسين إشارة إلى سلامة

---

(١) أخرجه أبو داود (عتاق، ١) والترمذي (بيوع ٣٥)، والموطأ (مكاتب ١، ٢).

(٢) الطوبى: الحسنى، والخير، وكل مستطاب في الجنة من بقاء بلا فناء، وعز بلا زوال وغنى بلا فقر.

(٣) سدرة المنتهى: شجرة في الجنة.

قلوبهم عن مساكنة كلِّ مخلوق، والميم إشارة إلى مِنَّةِ الحقِّ عليهم بذلك.

قوله جل ذكره: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

أي لِحِرْصِكَ على إيمانهم ولإشفاقِكَ من امتناعهم عن الإيمان فأنت قريبٌ مِنْ أنْ تقتلَ نَفْسَكَ من الأسفِ على تَرْكِهم الإيمان.

فلا عليكَ ـ يا محمد ـ فإنه لا تبديلَ لِحُكْمِنَا؛ فَمَنْ حَكَمْنَا له بالشقاوة لا يُؤْمِن. ليس عليك إلا البلاغ؛ فإن آمنوا فبها، وإلَّا فكُلُّهُمْ سَيَرَوْنَ يومَ الدِّين ما يستحقون.

قوله جل ذكره: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾.

أخبر عن قدرته على تحصيل مرادِه من عباده، فهو قادرٌ على أن يُؤْمِنوا كَرْهاً؛ لأن التقاصُرَ عن تحصيل المراد يوجِبُ النقصَ والقصورَ في الألوهية.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾.

أي ما نُجَدِّد لهم شَرْعاً، وما نرسل لهم رسولاً.. إلا أعرضوا عن تأمل برهانه، وقابلوه بالتكذيب. فلو أنهم أنعموا النظرَ في آياتِ الرسل لاتضح لهم صِدْقُهم، ولكن المقسوم لهم من الخذلان في سابق الحكم يمنعهم من الإيمان والتصديق. فقد كَذَّبوا، وعلى تكذيبهم أصَرُّوا، فسوف تأتيهم عاقبةُ أعمالِهم بالعقوبة الشديدة، فيذوقون وبالَ شِرْكهم[1].

قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

فنونُ ما ينبت في الأرض وقتَ الربيع لا يأتي عليه الحَصْرُ، ثم اختصاصُ كلِّ شيءٍ منها بلون وطعمٍ ورائحة مخصوصة، ولكلِّ شكلٌ وهيئةٌ ونَوْرٌ مخصوص، وورق مخصوص... إلى ما تَلْطُفُ عنه العبارة، وتَدِق فيه الإشارة. وفي ذلك آياتٌ لِمَن استبصر، ونَظَرَ وفكَّرَ.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: القاهرُ الذي لا يُقْهَر، القادر الذي لا يُقْدَر، المنيعُ الذي لا يُجْبَر. ﴿الرَّحِيمُ﴾: المحسنُ لعباده، المريدُ لسعادة أوليائه.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾.

أخبر أنه لما أمره بالذهاب إلى فرعون لدعوته إلى الله عَلِمَ أن شديد الخصومة، قد غَرَّتْه نَفْسُه فهو لا يبالي بما فعل. وأخَذَ (موسى)[2] يتعلَّلُ ـ لا على جهة الإباء والمخالفة ـ ولكن على وجه الاستعفاء والإقالة إلى أن عَلِمَ أنَّ الأمرَ به جَزْمٌ، والحُكْمَ به عليه حَتْمٌ.

---

(١) الآية (٦) لم ترد. (٢) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾.

سأل موسى ـ عليه السلام ـ أن يَشفَعَه بهارون ويُشركَه في الرسالة. وأخبر أنه قَتَلَ نَفساً، وأنه في حُكم فرعون عليه دَمٌ، فقال: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ إلى أنْ قال له الحقُّ:ـ

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾.

﴿كَلَّا﴾ حرفُ رَدْعٍ وتنبيه؛ أي كلا أن يكون ذلك كما توهمتَ، فارْتَدِعْ عن تجويز ذلك، وانتَبِهْ لغيرِهِ. إني معكما بالنصرة والقوة والكفاية والرحمة، واليدُ ستكون لكما، والسلطانُ سيكون لكما دونَ غيركما، فأنا أسمع ما تقولون وما يقال لكم، وأُبْصِرُ ما يُبْصِرُونَ وما تُبْصِرُون أنتم.

قوله جل ذكره: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ويقال في القصة: إن موسى وهارون كانا يترددان على باب فرعون سنةً كاملةً ولم يجدا طريقاً إليه. ثم بعد سَنَةٍ عَرَضَا الرسالة عليه، فقابلهما بالتكذيب، وكان من القصة ما كان[1].. وقال فرعون لمَّا رأى موسى:

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

فلم يكن لموسى ـ عليه السلام ـ جوابٌ إلا الإقرارَ والاعترافَ، فقال:

﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

قال: كل ذلك قد كان، وفررت منكم لمَّا خفتكم، فأكرمني الله بالنبوة، وبعثني رسولاً إليكم..

ويقال: لم يجحد حقَّ تربيته، والإحسانَ إليه في الظاهر، ولكن بَيَّنَ أنه إذا أمر اللَّهُ بشيءٍ وَجَبَ اتباعُ أمره. ولكن إذا كانت تربية المخلوقين توجِبُ حَقّاً فتربيةُ اللَّهِ أوْلَى بأن يُعَظِّمَ العبدُ قَدْرَها.

قوله: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾: يجوز حَمْلُه على ظاهره، وأنه خاف منهم على نَفْسِه. والفرارُ ـ عند عَدَمِ الطاقة ـ غيرُ مذمومٍ عند كلِّ أحد.

ويقال: فررت منكم لمَّا خِفْتُ أن تنزل بكم عقوبةٌ من الله لِشُؤْمِ شِرْكِكِم، أو من قول فرعون: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

---

(١) الآية (١٧) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

ذَكَرَ فرعونُ ـ من جملة ما عدَّ على موسى من وجوه الإحسان إليه ـ أنه استحياه بين بني إسرائيل، ودفع عنه القتلَ، فقال موسى: أو تلك نعمة تمنها عليَّ؟ هل استعبادُك لبني إسرائيل يَعُدُّ نعمةً؟ إنَّ ذلك ليس بنعمة، ولا لَكَ فيها مِنَّة.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

نَظَرَ اللعينُ بجَهْلِهِ، وسألَ على النحو الذي يليق بِغَيِّه؛ فسأل بلفظ ﴿ما﴾ ـ و«ما» يُسْتَخْبَرُ بها عمَّا لا يعقل، فقال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ولكنَّ موسى أعرض عن لفظه ومقتضاه، وأخبر عمَّا يصحُّ في وصفه تعالى فقال:

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾.

فَذَكَرَ صفتَه ـ سبحانه وتعالى ـ بأنَّه إلهٌ ما في السموات والأرض، فأخذ في التعجب، وقال:

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

قال موسى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فحاد فرعونُ عن سنن الاستقامة في الخطاب، وأخذ في السفاهة قائلاً:

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾.

لأنه يزعم أنَّ هناك إلهاً غيره. ولم يكن في شيءٍ مما يجري من موسى ـ عليه السلام ـ أو مما يتعلَّق به وصفُ جنونٍ. ولم يُشْغَلْ بمجاوبته في السفاهة فقال:

﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

أي إن كنتم من جملة مَنْ له عقلٌ وتمييزٌ. فقال فرعون:

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾.

مضى فرعونُ يقول: لأفعلنَّ، ولأصنعنَّ... إن اتخذتَ إلهاً غيري وجرى ما جرى ذِكْرُه وشَرْحُه في غير موضع.

ثم إنه أظهر معجزته بإلقاء العصا، وقَلَبَها ـ سبحانه ـ ثعباناً كاد يلتقم دار فرعون بمن فيها، ووثَبَ فرعونُ هارباً، واختفى تحت سريره، وهو ينتفض من الخوف، وتَلَطَّخَتْ بِزَّتُه[1] وافتضح في دعواه، واتضحت حالته، فاستغاث بموسى واستجاره، وأخذ موسى الثعبان فردَّه الله عصاً.

(١) البِزَّة: الهيئة والشارة واللبسة (اللسان ٥/ ٣١٢ مادة: بزز).

ولمَّا فَارقَه موسى ـ عليه السلام ـ تداركته الشقاوة، وأدركه شؤمُ الكفر، واستولى عليه الحرمانُ، فجَمَعَ قومَه وكلَّمهم في أمره، وأجمعوا كلُّهم على أنه سحَرَهم. وبعد ظهور تلك الآية عاد إلى غيِّه... كما قيل:

إذا ارعَوَى عَادَ إلى جَهْلِه كَذِي الضَّنَى عاد إلى نُكْسِه

ثم إنه جَمَعَ السَّحَرَة، واستعان بهم، فلمَّا اجتمعوا قالوا: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ [الأعراف: ١١٣]. فنطقوا بخساسة هِمَّتِهم، فَضَمَنَ لهم أجْرَهم. وإنَّ مَنْ يعمل لغيره بأُجْرَةٍ ليس كَمَنْ يكون عملُه لله. ومَنْ لا يكون له ناصِرٌ إلَّا بضمانِ الجَعَالَة وبَذْل الرِّشا فعَنْ قريبٍ سيُخْذَل[١].

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾.

قال فرعون: ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾، ومَنْ طَلَبَ القربةَ عند مخلوقٍ فإنَّ ما يصل إليه من الذُّلِّ يزيد على ما أمَّله من العِزِّ في ذلك التَّقرُّب. والمُقَرَّبون من الله أوَّلُ من يدخل عليه يومَ اللقاء، فهم أولُ مَنْ لهم وصولٌ. والمُقَرَّبون من الله لهم على الله دَخْلَة، والناسُ بوصف الغفلة والخَلْقُ في أسْرِ الحجبة.

ثم لمَّا اجتمع الناسُ، وجاء السَّحَرةُ بما مَوَّهُوا، التقَمَتْ عصا موسى جميعَ ما أتوا به، وعادت عصاً، وتلاشت أعيانُ حِبَالِهم التي جاءوا بها، وكانت أوقاراً، وأُلْقِيَ السحرةُ سُجَّداً، ولم يحتفلوا بتهديد فرعون إياهم بالقَتْل والصَّلْب والقَطْع، فأصبحوا وهم يُقْسِمُون بعِزَّة فرعون، ولم يُمْسُوا حتى كانوا يقولون: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [طه: ٧٢].

ثم لمَّا ساعَدَهم التوفيقُ، وآمنوا بالله كان أهمَّ أمورهم الاستغفارُ لِمَا سَلَفَ من ذنوبهم، وهذه هي غاية هِمَّةِ الأولياء، أن يستجيروا بالله، وأن يستعيذوا من عقوبة الله، فأعْرَفُهُم بالله أخْوَفُهُم مِنَ الله.

ولمَّا أَمَرَ اللَّهُ موسى بإخراج بني إسرائيل، وتَبِعَهم فرعونُ بجَمْعِه، وقال أصحابُ موسى[٢].

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾.

فكان كما قال، إذ هداهم اللَّهُ وأنجاهم، وأغْرَقَ فرعونَ وقومَه وأقصاهم، وقد قال سبحانه: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦] يُنَجِّيهم من كلِّ بلاء، ويَخُصُّهم بكل نعمة[٣].

---

(١) الآيات من (٣٠ حتى ٤١) لم ترد. (٢) الآيات من (٤٣ حتى ٦٠) لم ترد.
(٣) الآيات من (٦٣ حتى ٦٨) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

عاتب إبراهيمُ أباه وقومَه، وطالَبَهُم بالحجة على ما عابَهم به وقال لِمَ تعبدون ما لا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ؛ ولا ينفع ولا يَضُرُّ، ولا يُحِسُّ ولا يَشْعُر؟ فلم يرجعوا في الجواب إلا إلى تقليدهم أسلافَهم، وقالوا:

على هذه الجملة وَجَدْنا أسلافَنَا. فنطق إبراهيمُ ـ عليه السلام ـ بعد إقامة الحجة عليهم والإخبار عن قبيح صنيعهم بمَدْح مولاه والإغراق في وصفه، وقال:

﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ذَكَرَهم بأقلِّ عبارة فلم يقل: فإنهم أعداءٌ لي، بل وَصَفَهم بالمصدر الذي يصلح أن يوصَفَ به الواحد والجماعة فقال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾.

ثم قال: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهذا استثناء منقطع، وكأنه يضرب بلطفٍ عن ذِكْرِهم صفحاً حتى يتوصَّلَ إلى ذكر الله، ثم أخذ في شرح وصفه كأنه لا يكاد يسكت، إذ مضى يقول: والذي. . . والذي. . والذي. . ، ومن أمارات المحبة كَثْرَةُ ذِكْرِ محبوبك، والإعراضُ عن ذكرِ غيرِه، فتَنَزُّهُ المحبين بتقلُّبِهم في رياض ذِكْرِ محبوبهم، والزهَّادُ يعددون أورادهم، وأربابُ الحوائج يعددون مآربَهم، فيطنبون في دعائهم، والمحبون يُسْهِبون في الثناء على محبوبهم.

قوله جل ذكره: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾.

كان مهتدياً، ولكنه يقصد بالهداية التي ذَكَرها فيما يستقبله من الوقت، أي: يهديني إليه به، فإنِّي مَحَقٌّ في وجوده وليس لي خَبَرٌ عنِّي!

والقوم حين يكونون مستغرقين في نفوسهم لا يهتدون من نفوسهم إلى معبودهم، فيهديهم عنهم إلى ربهم، ويصيرون في نهايتهم مستهلكين في وجوده، فانين عن أوصافهم، وتصير معارِفُهم ـ التي كانت لهم ـ واهيةً ضعيفةً، فيهديهم إليه[1].

(١) قال القشيري برسالته عند حديثه عن المعرفة بالله: قال محمد الواسطي: لا تصح المعرفة وفي العبد استغناء بالله تعالى وافتقار إليه، وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري: أراد محمد الواسطي بهذا أن الافتقار والاستغناء من أمارات صحو العبد وبقاء رسومه لأنهما من صفاته. (الرسالة القشيرية ص٣١٣).
وقيل لذي النون المصري: بماذا عرفت ربك؟ قال: عرفت ربي بربي، ولولا ربي لما عرفت ربي. (الرسالة ص٣١٥).

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ﴾.

لم يُشِرْ إلى طعام معهودٍ أو شرابٍ مألوفٍ ولكن أشار إلى استقلاله به من حيث المعرفة بدل استقلال غيره بطعامهم، وإلى شراب محبته الذي يقوم بدل استقلال غيره بشرابهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾.

لم يَقُلْ: وإذا أمرضني لأنه حفظ أدبَ الخطاب.

ويقال لم يكن ذلك مرضاً معلوماً، ولكنه أراد تمارضاً، كما يتمارض الأحبابُ طمعاً في العيادة، قال بعضهم:

إن كان يمنعكَ الوشاةُ زيارتي فادخُلْ عليَّ بِعلَّةِ العُوَّادِ

ويقول آخر:

يَوَدُّ بأن يمشِي سقيماً لَعَلَّها إذا سَمِعَتْ منه بشَكْوى تُرَاسِلُه

ويقال ذلك الشفاءُ الذي أشار إليه الخليلُ هو أن يَبْعَثَ إليه جبريلَ ويقول له: يقول لَكَ مولاك.. كيف كنتَ البارحة؟

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ﴾.

أضاف الموتَ إلى الله؛ فالموتُ فوق المرض، لأن الموتَ لهم غنيمةٌ ونعمةٌ؛ إذ يَصِلُون إليه بأرواحهم.

ويقال: ﴿يُمِيتُنِى﴾ بإعراضه عني وقت تعزُّزِه، ﴿ويحييني﴾ بإقباله عليَّ حين تَفَضُّلِه. ويقال يميتني عني ويحييني به.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾.

خطيئةُ الأحبابِ شهودُهم محنتَهم، وتعنِّيهم عند شدة البلاء عليهم، وشكواهم مما يمُسهم من برحاء[1] الاشتياق، قال بعضهم:

وإذا محاسني ـ اللاتي أُدِلُّ بها ـ كانت ذنوبي.. فَقُلْ لي: كيف أعتذر

قوله جل ذكره: ﴿رَبِّ هَبۡ لِى حُكۡمًا وَأَلۡحِقۡنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

﴿هَبۡ لِى حُكۡمًا﴾: على نفسي، فإنَّ مَنْ لا حُكْمَ له على نفسه لا حُكْمَ له على غيره.

﴿وَأَلۡحِقۡنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾: فأقومَ بحقِّكَ دونَ الرجوع إلى طلب الاستقلال بشيء دون حقك.

---

(١) البُرحاء: الشدة والمشقة. (اللسان ٢/ ٤١٠ مادة: برح).

قوله جل ذكره: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾.

في التفاسير: ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾: أي ثناء حسناً على لسان أمة محمد ﷺ.

ويقال لا أذكرك إلا بك، ولا أعرفك إلا بك.

ويقال أن أذكرك ببيان آلائك[1]، وأذكرك بعد قبض روحي إلى الأبد بذكرٍ مُسرمَدٍ.

ويقال أذكرنيَ على لسان المخبرين عنك.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

على لسان العلماء: قالَه بعد يأسه من إيمان أبيه، وأمَّا على لسان الإشارة فقد ذَكَرَه في وقت غَلَبَاتِ البَسْطِ ويُتَجاوَزُ ذلك عنهم.

وليست إجابةُ العبد واجباً على الله في كل شيء، فإذا لم يُجَبْ فإنَّ للعبد سلوةً في ذكر أمثال هذا الخطاب، وهذا لا يهتدي إليه كلُّ أحدٍ.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾.

أي لا تُخجِلني بتذكيري خلَّتي، فإنّ شهودَ ما مِن العبد ـ عند أرباب القلوب وأصحاب الخصوص ـ أشَدُّ عقوبة.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

قيل: «القلب السليم» اللديغ.

وقيل هو الذي سَلِمَ من الضلالة ثم من البِدعة ثم من الغفلة ثم من الغيبة ثم من الحجبة ثم من المُضاجعة ثم من المساكنة ثم من الملاحظة. هذه كلها آفاتٌ، والأكابرُ سَلِمُوا منها، والأصاغرُ امتُحِنُوا بها.

ويقال: «القلب السليم» الذي سَلِمَ من إرادة نَفْسِه.

قوله جل ذكره: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾.

﴿أزلفت﴾: أي قُرِّبَتْ وأُدنِيَتْ في الوقت، فإنَّ ما هو آتٍ قريبٌ، وبالعين أُحضِرَتْ. وكما تُجَرُّ النارُ إلى المحشر بالسلاسل فلا يَبْعُد إدناءُ الجنة من المتقين.

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ أُظْهِرَتْ؛ فتؤكَّدُ الحُجَّةُ على أرباب الجحود، ويُعْرَضُون على النار، وتُعْرَضُ عليهم منازلُ الأشرار، فَيُكَبْكَبُونَ فيها أجمعين، ويأخذون يُقِرُّون بذنوبهم[2]، ومن جملتها ما أخبر أنهم يقولون:ـ

﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

(١) الآلاء: النِّعم.

(٢) الآيات من (٩٢ حتى ٩٦) لم ترد.

ولا فضيحةَ أقبحُ ولا عيبَ فيهم أشنعُ مما يعترفون به على أنفسهم بقولهم: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإنَّ أقبحَ أبوابِ الشِّرْكِ وأشنعَ أنواعِ الكُفْرِ وأقبحَ أحوالِهم - التشبيهُ في صفة المعبود[١].

قوله جل ذكره: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾.

في بعض الأخبار: يجيء - يومَ القيامة - عَبْدٌ يُحتَسَبُ فتستوي حسناتُه وسيئاته ويحتاج إلى حسنة واحدة يَرْضَى عنها خصومُ، فيقول الله - سبحانه: عبدي... بقيت لك حسنةٌ واحدة، إن كانت أدْخَلْتُكَ الجنةَ.. أُنظُرْ.. وتَطَلَّبْ من الناس لعلَّ واحداً يهب لَكَ حسنةً واحدةً. فيأتي العبدُ في الصفين، ويطلب من أبيه ثم من أمه ثم من أصحابه، ويقول لكلِّ واحدٍ في بابه فلا يجيبه أحدٌ، فالكلُّ يقول له: أنا اليومَ فقيرٌ إلى حسنةٍ واحدةٍ، فيرجع إلى مكانه، فيسأله الحقُّ - سبحانه: ماذا جئتَ به؟

فيقول: يا ربِّ... لم يُعْطِني أحدٌ حسنةً من حسناته.

فيقول الله - سبحانه: عبدي.. ألم يكن لك صديق (فيَّ).

فيتذكر العبدُ ويقول: فلان كان صديقاً لي.

فيدله الحقُّ عليه، فيأتيه ويكلِّمه في بابه، فيقول: بلى، لي عباداتٌ كثيرة قَبِلَها اليومَ فقد وهبتُك منها، فيسير هذا العبدُ ويجيء إلى موضعه، ويخبر ربَّه بذلك، فيقول الله - سبحانه: قد قَبِلْتُها منه، ولن أنقص من حقِّه شيئاً، وقد غفرت لكَ وله، وهذا معنى قوله.

﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾[٢].

قوله جل ذكره: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

ذكر قصة نوحٍ وما لَقِيَ من قومه، وأنهم قالوا:

﴿۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾.

إنَّ أتباعَ كلِّ رسولٍ إنما هم الأضعفون، لكنهم - في حكم الله - هم المتقدِّمون الأكرمون. قال عليه السلام: «نُصِرْتُ بضعفائكم».

وإنَّ اللَّهَ أغرق قومه لمَّا أصرُّوا واستكبروا.

وكذلك فَعَلَ بمن ذَكَرَتْهم الآياتُ في هذه السورة من عادٍ وثمودٍ وقوم لوطٍ وأصحاب مدين. كلٌّ منهم قابلوا رُسُلَهم بالتكذيب، فَدَمَّر اللَّهُ عليهم أجمعين، ونَصَرَ رسولَه على مقتضى سُنَّتِه الحميدة فيهم. وقد ذَكَرَ الله قصةَ كل واحدٍ منهم ثم أعقبها بقوله :-

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

---

(١) الآية (٩٩) لم ترد.

(٢) الآيتان (١٠٢ و١٠٣) لم تردا والآيات من (١٠٦ حتى ١١٠) لم ترد.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: القادر على استئصالهم، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الذي أخَّرَ العقوبة عنهم بإمهالهم، ولم يقطع الرزقَ مع قُبحِ فِعالِهم.

وهو ﴿عزيز﴾ لم يُسْتَضَرّ بقبيح أعمالهم، ولو كانوا أجمعوا على طاعته لمَّا تَجَمَّلَ بأفعالهم[1].

قوله جل ذكره: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أخبر عن كل واحدٍ من الأنبياء أنه قال: ﴿لا أسألكم عليه أجر﴾ ليَعْلَمَ الكافةُ أنّ من عَمِلَ لله فلا ينبغي أن يَطْلُبَ الأجرَ من غير الله. وفي هذا تنبيهٌ للعلماء ـ الذين هم وَرَثَةُ الأنبياء ـ أن يتأدَّبوا بأنبيائهم، وألاّ يطلبوا من الناس شيئاً في بَثّ علومهم، ولا يرتفقون منهم بتعليمهم، والتذكير لهم أنه مَنْ ارتفق في بثّ ما يُذَكِّرُ به من الدِّين وما يَعِظُ به المسلمين فلا يبارِكُ اللَّهُ للناس فيما منه يَسْمَعون، ولا للعلماء أيضاً بركةٌ فيما من الناسِ يَأْخُذُون، إنهم يبيعون دينَهم بعَرَضٍ يسيرٍ، ثم لا بَرَكَة لهم فيه، إذ لا يبتغون به الله، وسيَحْصُلون على سُخْطِ الله[2].

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾.

كلامُ اللَّهِ العزيز مُنَزّلٌ على قلب الرسول ـ ﷺ ـ في الحقيقة بسفارة جبريل عليه السلام. والكلامُ من الله غيرُ منفصل، وبغير الله غير متصل.. وهو ـ على الحقيقة لا على المجاز ـ مُنَزّلٌ. ومعناه أن جبريل ـ عليه السلام ـ كان على السماء. فَسمِعَ من الربِّ، وحَفِظَ ونَزَلَ، وبَلَّغَ الرسولَ. فَمَرّةً كان يُدْخِلُ عليه حالةً تأخذه عنه عند نزول الوحي عليه. ثم يُورِدُ جبريلُ ذلك على قلبه. ومرةً كان يتمثل له المَلَكُ فيُسْمِعهُ. والرسولُ ـ ﷺ ـ يحفظه ويُؤدِّبه. والله ـ سبحانه ضَمِنَ له أنه سيُقْرِؤه حتى لا ينساه. فكان يجمع اللَّهُ الحِفْظَ في قلبه. ويُسَهِّلُ له القراءةَ عند لفظه. ولمَّا عَجَزَ الناسُ بأجمعهم عن معارضته مع تحدِّيه إياهم بالإتيان بمثله.. عُلِمَ صِدقُه في أنّه مِنْ قِبَلِ الله.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

جميعُ ما في هذا الكتاب من الأخبار والقصص، وما في صفةِ الله من استحقاق جلاله ـ موافِقٌ لِما في الكتب المُنَزَّلة من قِبَلِ الله قَبْلَه، فمهما عارضوه فإنه كما قال جلَّ شأنه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢].

ثم أخبر أنه لو نَزَّل هذا الكتابَ بغير لسانهم وبلغةٍ غير لغتهم لم يهتدوا إلى ذلك، ولَقَالوا: لو كان بلساننا لعرفناه ولآمَنّا به، فأزاح عنهم العِلَّةَ، وأكّد عليهم الحُجَّة.

---

(١) الآيات من (١١٢ حتى ١٢٦) لم ترد.

(٢) الآيات من (١٢٨ ـ حتى ١٩١) لم ترد.

ثم أخبر عن صادق عِلْمِه بهم، وسابِق حُكْمِه بالشقاوة عليهم، وهو أنهم لا يؤمنون به حتى يَرَوْا العذابَ في القيامة، حين لا ينفعهم الإيمانُ ولاَ الندامةُ[1].

قوله جل ذكره: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾.

إن أرخينا المُدَّةَ، وأمهلناهم أزمنةً كثيرة ـ وهم بوصف الغفلة ـ فما الذي كان ينفعهم إذا أخَذَهُم العذابُ بغتةً؟!

ثم أخبر أنه لم يُهْلِكَ أهلَ قريةٍ إلّا بعد أن جاءهم النذيرُ وأظهر لهم البيناتِ، فإذا أصَرُّوا على كُفْرِهم عَذّبهم[2].

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾.

وَجَدُوا السمع ـ الذي هو الإدراك ـ ولكن عَدِمُوا الفَهْمَ، فلم يستجيبوا لِمَا دُعُوا إليه. فعند ذلك استوجبوا من الله سوء العاقبة[3].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾.

وذلك تعريفٌ له أنهم لا تنفعهم قَرَابَتُهُم منه، ولا تُقْبَلُ شفاعتُه ـ إنْ لم يؤمِنوا ـ فيهم. فليس هذا الأمر من حيث النّسب، فهذا نوحٌ لمَّا كَفَرَ ابنُه لم تنفعه بُنُوَّتُه، وهذا الخليلُ إبراهيم عليه السلام لما كَفَرَ أبوه لم تنفع أُبُوَّتُه، وهذا محمدٌ ـ عليه الصلاة والسلام ـ كثيرٌ من أقاربه كانوا أشدَّ الناسِ عليه في العداوةِ فلم تنفعهم قرابتُهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أَلِنْ جَانِبَكَ وقارِبْهم في الصحبة[4]، واسحبْ ذيلَ التجاوز على ما يبدر منهم من التقصير، واحتمِلْ منهم سوءَ الأحوال، وعاشِرْهم بجميلِ الأخلاق، وتحمَّلْ عنهم كَلَّهم، وارْحَمْهُم كُلّهم، فإنْ مرضوا فعُدْهم، وإنْ حرموك فأَعْطِهم، وإنْ ظلموك فتجاوَزْ عنهم، وإنْ قصّرُوا في حقي فاعفُ عنهم، واشفع لهم، واستغفِرْ لهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

لا تفعلْ مثلَ فِعْلِهم، وكِلِ حسابَهم إلينا إلا فيما أمرناك بأن تقيم فيه عليهم حَدًّا، فعند ذلك لا تأخذْكَ رأفةٌ تمنعكَ من إقامة حدِّنا عليهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

(١) الآيات من (١٩٧ حتى ٢٠٤) لم ترد. (٢) الآيات من (٢٠٨ ـ ٢١١) لم ترد.
(٣) الآية (٢١٣) لم ترد.
(٤) انظر حديث القشيري عن الصحبة بالرسالة القشيرية ص٢٩٤ ـ ٢٩٨.

انقَطِعْ إلينا، واعتصِمْ بِنا، وتوسَّل إلينا بِنا، وكن على الدوام بنا، فإذا قُلْتَ فَقُلْ بنا، وإذا صُلْتَ فَصُلْ بنا، واشهد بقلبك ـ وهو في قبضتنا ـ تتحققْ بأنك بنا ولنا.

توكّلْ على ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ تَجِدْ العِزّةَ بتوكلك عليه في الدارين، فإنّ العزيز مَنْ وثق بالعزيز.

﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي يقرّبُ مَنْ تَقرَّبَ إليه، ويُجْزِلُ البِرَّ لِمَنْ تَوسَّل به إليه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾.

اقتطعه بهذه الآية عن شهود الخَلْق، فإنّ مَنْ عَلِمَ أنه بمشهدٍ من الحقّ رَاعَى دقائقَ أحواله، وخفايا أموره مع الحقّ[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

هَوَّنَ عليه معاناةَ مشاقِّ العبادة بإخباره برؤيته. ولا مشقّةَ لِمَنْ يَعْلَمُ أنّه بمرأى من مولاه، وإنّ حَمْلَ الجبالِ الرواسي على شَفْر[2] جَفْنِ العينِ لَيهونُ عند مَنْ يشاهد رَبّه.

ويقال ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ بين أصحابك، فهم نجومٌ وأنت بينهم بَدْرٌ، أو هم بدورٌ وأنت بينهم شَمْسٌ، أو هم شموسٌ وأنت بينهم شمس الشمرس.

ويقال: تقلبك في أصلابِ آبائك من المسلمين الذين عرفوا اللَّهَ، فسجدوا له دون مَنْ لم يعرفوه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لأنين المحبين، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحنين العارفين.

﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لأنين المُذْنبين، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوال المطيعين.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾.

بيَّن أن الشياطين تتنزَّلُ على الكفار والكهنة فتوحي إليهم بوساوسهم الباطلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾.

لمّا ذَكَرَ الوحيَ وما يأتي به الملائكةُ من قِبَلِ الله ذكر ما يوسوس به الشياطينُ إلى

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص٣٤٤.
(٢) شُفْر العين: وهو ما ينبت عليه الشعر وأصل منبت الشعر في الجفن. (اللسان ٤/٤١٨).

أوليائه، وألْحَقَ بهم الشعراءَ الذين في الباطل يهيمون، وفي أعراض الناس يقعون، وفي التشبيهات ـ عن حدِّ الاستقامة ـ يخرجون، ويَعِدُون من أنفسهم بما لا يُوفُون، وسبيلَ الكذبِ يسلكون[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ﴾.

فيكون شِعْرُه خالياً من هذه الوجوه المعلولة المذمومة، وهذا كما قيل: الشعرُ كلامُ إنسان؛ فحسنه كحسنه وقبيحه كقبيحه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾.

سيعلم الذين ظلموا سوءَ ما عملوا، ويندمون على ما أسلفوا، ويصدقون بما كَذَّبوا.

---

(١) الآيتان (٢٢٥ ـ ٢٢٦) لم تردا.

السورة التي يذكر فيها النمل

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله اسم عزيز قَصَدَهُ العاصي لِطَلَبِ التخفيف فصار وِزْرُه مغفوراً، اسم كريم قَصَدَهُ العابِدُ لِطَلَبِ التضعيف فصار أجره موفوراً، اسم جليلٌ أَمَّهُ الوليُّ لِطَلَبِ التشريف فصار سَعْيُه مشكوراً، اسم عزيز إن تَعَرَّضَ الفقير لوجوده مَحَقَتْهُ العِزَّةُ، وطَوَّحَتْهُ السَّطْوَةُ، فصار كأن لم يكن شيئاً مذكوراً.

جَلَّتْ الأحديةُ.. فأنى بالوصول! وتَقَدَّسَتْ الصمديةُ.. فَمَنْ ذا الذي عليها يقف[1]؟ ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ [المدثر: ٥٤، ٥٥]:

وكم باسطين إلى وَصْلِنا أَكُفَّهُمو.. لم ينالوا نصيبا!

قوله جلّ ذكره: ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ١].

بطهارةِ قُدْسِي وسناءِ عِزِّي لا أُخَيِّبُ أَمَلَ من أَمَّلَ لطفي.

بوجود بِرِّي تطيب قلوبُ أوليائي، وبشهود وجهي تغيب أسرار أصفيائي.

طَلَبُ القاصدين مُقَابَلٌ بلطفي، وسَعْيُ العاملين مشكورٌ بعطفي.

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾ [النحل: ١]: هذه دلالات كَرَمِنا، وأماراتُ فضلنا وشواهدُ بِرِّنا، نُبَيِّنُ لأوليائنا صِدْقَ وَعْدِنا، ونُحقِّقُ للأصفياء حِفْظَ عَهْدِنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

هذه الآياتُ وهذا الكتابُ بيانٌ وشِفاءٌ، ونورٌ وضياءٌ، وبشرى ودليلٌ لِمَنْ حققنا لهم الإيمان، وأكَّدْنا لهم الضمان، وكفلنا لهم الإحسان.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾.

يديمون المواصلات، ويستقيمون في آداب المناجاة ويؤدون عن أموالهم

(١) انظر حديث القشيري عن التوحيد بالرسالة ص٢٩٨ ـ ٣٠٣.

وأحوالهم وحركاتِهم وسكناتِهم الزكاة، بما يقومون في حقوق المسلمين أحسنَ مقام، وينوبون عن ضعفائهم أحسنَ مناب.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾.

أغشيناهم فَهُم لا يُبْصِرُون، وعَمَّيْنَا عليهم المسالكَ فهم عن الطريقة المُثْلَى يَعْدِلون، أولئك الذين في ضلالتهم يعمهون، وفي حيرتهم يَتَرَدَّدون.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾.

﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ أن يجد الآلامَ ولا يجد التسلِّي بمعرفة المُسَلِّي، ويحمل البلاءَ ولا يحمل عنه ثقلَه وعذابَه شهودُ المُبْلِي.. وذلك للكفار، فأمَّا المؤمنون فيُخَفِّفُ عنهم العذابَ في الآخرةِ حُسْنُ رجائِهم في الله، ثم تضرُّعُهم إلى الله، ثم فَضْلُ الله معهم بالتخفيف في حال البلاء ثم ما وقع عليهم من الغشي والإفاقة ـ كما في الخبر ـ إلى وقت إخراجهم من النار.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾.

أي أن الذي أكرمكَ بإنزال القرآن عليك هو الذي يحفظك عن الأسواء والأعداء وصنوف البلاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

سار موسى بأهله من مدين شعيب متوجهاً إلى مصر، ودَجَا عليه الليلُ، وأخذ امرأتَه الطَّلْقُ وهَبَّت الرياحُ الباردة، ولم يورِ الزَّنْد، وضاق على موسى الأمرُ، واستبهم الوقتُ، وتشتتت به الهمة، واستولى على قلبه الشغل. ثم رأى ناراً من بعيد، فقال لأهله: امكثوا إنِّي أبصرتُ ناراً. وفي القصة: إنه تشتت أغنامُه، وكانت له بقور وثيران تحمل متاعَه فشردت، فقالت امرأتُه:

كيف تتركنا وتمضي والوادي مسبع؟!.

فقال: امكثوا.. فإني لأجلكم أمضي وأتعرف أمرَ هذه النار، لَعَلِّي آتيكم منها إمَّا بِقَبَسٍ أو شعلةٍ، أو بخبرٍ عن قوم نُزُولٍ عليها تكون لنا بهم استعانة، ومن جهتهم انتفاع. وبَدَتْ لعينه تلك النارُ قريبةً، فكان يمشي نحوها، وهي تتباعد حتى قَرُب منها، فرأى شجرةً رطبةً خضراءَ تشتعل كلُّها من أولها إلى آخرها، وهي نار مضيئة، فَجَمَعَ خُشَيْبَاتٍ وأراد أن يقتبس منها، فعند ذلك سمع النداءَ من الله لا من الشجرة كما تَوَهَّم المخالِفون من أهل البدع. وحصل الإجماعُ أنَّ موسى سمع تلك الليلة كلامَ الله، ولو كان النداء في الشجرة لكان المتكلم به الشجرة، ولأجل الإجماع قلنا: لم

يكن النداء في الشجرة وإلا فنحن نجوِّز أن يخلق الله نداءً في الشجرة ويكون تعريفاً، ولكن حينئذٍ يكون المتكلم بذلك الشجرة.

ولا يُنْكر في الجواز أن يكون الله أسمع موسى كلامه بإسماع خلقه له، وخَلَقَ كلاماً في الشجرة أيضاً، فموسى سمع كلامَه القديم وسمع كلاماً مخلوقاً في الشجرة... وهذا من طريق العقل جائز.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

أي بورِكَ مَنْ هو في طلب النار ومَنْ هو حول النار.

ومعنى بورِكَ لَحِقَتْه البركةُ أو أصابته البَرَكةُ.. والبركةُ الزيادةُ والنَّماءُ في الخير.

والدعاء مِنَ القديم ـ سبحانه ـ بهذا يكون تحقيقاً له وتيسيراً به.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

الذي يُخاطِبُكَ أنا اللَّهُ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ في استحقاق جلالي، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في جميع أفعالي.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ﴾.

في آية أخرى بَيَّنَ أنه سأله، وقال له على وجه التقرير: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧] وأجابه بقوله: ﴿هِىَ عَصَاىَ﴾ [طه: ١٧] وذَكَرَ بعضَ ما له فيها من المآرب والمنافع، فقال الله: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۖ﴾، وذلك لأنه أراد أَنْ يُرِيَه فيها من عظيم البرهان ما يجعل له كمالَ اليقين.

وألقاها موسى فَقَلَبَها اللَّهُ ثعباناً، أولاً حيةً صغيرةً ثم صارت حيةً كبيرةً، فأوجس في نفسه موسى خيفةً وولَّى مُدْبِراً هارباً، وكان خوفه من أن يُسَلِّطَهَا عليه لـمَّا كان عارفاً بأن الله يعذِّبَ مَنْ يشاء بما يشاء، فقال له الحقُّ:

﴿يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

أي لا ينبغي لهم أن يخافوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وهذا يدلُّ على جواز الذَّنْبِ على الأنبياء عليهم السلام فيما لا يتعلق بتبليغ الرسالة بشرط تَرْكِ الإصرار. فأمَّا مَنْ لا يُجِيزُ عليهم الذنوبَ فيحمل هذا على ما قبل النبوة(١).

---

(١) بعض الفقهاء لا يستخدم تعبير [الذنب] بالنسبة للأنبياء، وإنما يطلق على ما يبدر منهم فعل خلاف الأولى تأدباً.

قال القشيري في رسالته: فإن قيل: فهل يكون الولي معصوماً، قيل: إما وجوباً كما يقال في الأنبياء فلا، وإما أن يكون محفوظاً حتى لا يصرَّ على الذنوب، إن حصلت آفات أو زلات فلا يمتنع ذلك في وصفهم. (الرسالة القشيرية ص٣٥٩).

فلمَّا رأى موسى انقلابَ العصا عَلِمَ أنّ الحقَّ هو الذي يكاشفه بذلك.

ويقال: كيف عَلِمَ موسى - عليه السلام - أنَّ الذي سمعه كلامُ اللَّهِ؟

والجواب أنه بتعريفٍ منه إياه، ويجوز أن يكون ذلك العلم ضرورياً فيه، ويجوز أن يكون كَسْبياً، ويكون الدليل له الذي به عَلِمَ صِدْقَه في قوله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ هو ما ظهر على يَدِهِ - في الوقت - من المعجزة، من قَلْبِ العصا، وإخراج يده بيضاء[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

من غير سوءٍ أي بَرَصٍ. وفي القصة أن موسى عليه السلام ذَكَرَ اشتغال قلبه بحديث امرأته، وما أصابه تلك الليلة من الأحوال التي أَوْجَبَتْ انزعاجه، وقَصْدَه في طلب النار، فقال الله تعالى: «إنا قد كفيناكَ ذلك الأمرَ، ووكلنا بامرأتِكَ وأسبابك، فجمعنا أغنامَك وثيرانَك، وسَلِمَتْ لَكَ المرأةُ».

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

لم يُظْهِرْ اللَّهُ - سبحانه - آيةً على رسولٍ من أنبيائه - عليهم السلام - إلّا كانت في الوضوح بحيث لو وَضَعوا النظرَ فيها موضعَه لتوَصَّلوا إلى حصول العلم وثلج الصدور، ولكنهم قَصَّروا في بعضها بالإعراض عن النظر فيها، وفي بعضها الآخر عرفوها وقابلوها بالجَحْدِ. قال تعالى وقولُه صِدْقٌ:

﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

وكما يَحْصُلُ من الكافِرِ الجَحْدُ تحصل للعاصي عند الإلمام ببعض الذنوب حالةٌ يعلم فيها - بالقطع - أن ما يفعله غير جائز، وتتوالى على قلبه الخواطرُ الزاجرةُ الداعيةُ له عن فِعْلِها من غير أَنْ يكونَ متغافلاً عنها أوِ ناسياً لها، ثم يُقْدِمُ على ذلك غيرَ مُخْتَفِلٍ بها مُوَافَقَةً لشهوتِه. وهذا الجنسُ من المعاصي أكثرُها شؤماً، وأشدُّها في العقوبة، وأبْعَدُها عن الغفران.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

يقتضي حكمُ هذا الخطاب أنه أفْرَدَهُما بجنسٍ من العلم لم يشارِكْهُما فيه أحدٌ؛ لأنه ذَكَرَه على وجه تخصيصهما به، ولا شكّ أنه كان من العلوم الدينية؛ ويحتمل أنه

---

(١) قال القشيري عند حديثه عن كرامات الأولياء بالرسالة: المعجزات دلالات الصدق - أي صدق الأنبياء -. (للتوسع انظر الرسالة القشيرية ص٣٥٣ - ٣٥٦).

كان بزيادة بيانٍ لهما أغناهما عن إقامة البرهان عليه وتصحيحه بالاستدلال الذي هو مُعَرَّضٌ للشك فيه.

ويحتمل أن يكون علمهما بأحوال أمتهما على وجه الإشراف على ما كانوا يستسرون به، فيكون إخبارُهما عن ذلك معجزةً لهما.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾.

ويحتمل أن يكون علمهما بالله على وجه زيادةٍ لهما في البيان.

وفي الآية دليل على أن التفضيل الذي يحصل بالعلم لا يحصل بغيره من الصفات، فأخبر بأنهما شَكَرَ الله على عظيم ما أنعم به عليهما.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾.

ورث أباه في النبوة، وورثه في أن أقامه مقامه.

قوله: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾: وكان ذلك معجزةً له، أظهرها لقومه ليعلموا بها صِدْقَ إخباره عن نبوته. ومَنْ كان صاحبَ بصيرةٍ وحضور قلبٍ بالله يشهد الأشياءَ كلَّها بالله ومن الله. ويكون مُكَاشَفاً بها من حيث التفهيم، فكأنه يسمع من كل شيء تعريفاتِ الحقِّ ـ سبحانه ـ للعبد مما لا نهاية له، وذلك موجودٌ فيهم مَحْكِيٌّ عنهم. وكما أنَّ ضربَ الطَّبْلِ مثلاً دليلٌ يُعْرَفُ ـ بالمواضعة ـ عند سماعه وقتُ الرحيلِ والنزولِ فالحقُّ ـ سبحانه ـ يخصُّ أهلَ الحضورِ بفنون التعريفاتِ، من سماعِ الأصواتِ وشهودِ أحوال المرئيات في اختلافها، كما قيل:

إذا المرءُ كانت له فِكرةٌ ... ففي كل شيءٍ له عِبْرَةٌ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

سخَّر اللَّهُ لسليمان ـ عليه السلام ـ الجنَّ والطيرَ، فكان الجنُّ مكلَّفين، والطيرُ كانت مُسَخَّرَةً إلا أنه كان عليها شَرْعٌ، وكذلك الحيوانات التي كانت في وقته، حتى النمل كان سليمان يعرف خطابَهم ينفذ عليهم حُكْمه.

قوله جلّ ذكره: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

قيل إن سليمان استحضر أميرَ النملِ الذي قال لقومه: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ وقال له: أَمَا عَلِمْتَ أنّي معصومٌ، وأنّي لن أُمَكِّنْ عسكري مِنْ أَنْ يطؤوكم؟ فأخبره أميرُ النملِ أنّه لا يعلم ذلك؛ لأنه ليس بواجبٍ أن يكون النملُ عالماً بعصمة سليمان. ولو قال: لعلكم أبيح لكم ذلك.. لكان هذا أيضاً جائزاً.

وقيل إن ذلك النمل قال لسليمان: إني أَخمِلُ قومي على الزهد في الدنيا، وخَشِيتُ إِنْ يَرَوْكم في مُلْكِكم أَنْ يرغبوا فيها، فأَمَرْتُهم بدخول مساكنهم لئلا يتشوَّش عليهم زُهْدُهم. ولَئِنْ صَحَّ هذا ففيه دليلٌ على وجوب سياسة الكبار لِمَنْ هو في رعيتهم. وفي الآية دليلٌ على حَسْنِ الاحتراز مِمّا يُخْشَى وقوعُه، وأَنَّ ذلك مما تقتضيه عادةُ النَّفْسِ وما فُطِرُوا عليه من التمييز.

ويقال إن ذلك النمل قال لسليمان: ما الذي أعطاك اللَّهُ من الكرامة؟

فقال: سَخَّرَ لي الريحَ.

فقال: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإشارة فيه أنه ليس بيدك مما أُعْطِيتَ إلا الريح؟

وهكذا بيَّنَه الكبيرُ على لسان الصغير!.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾.

التبسُّمُ من الملوكِ يندر لمراعاتهم حُكْمَ السياسة، وذلك يدلُّ على رضاهم واستحسانهم لما منه يحصل التبسُّم، فلقد استحسن سليمان من كبير النمل حُسْنَ سياسته لرعيته.

وفي القصة أنه استعرض جُنْدَه ليراهم كم هم، فعَرَضَهم عليه، وكانوا يأتون فوجاً فوجاً، حتى مضى شَهْرٌ وسليمان واقفٌ ينظر إليهم مُعْتَبِراً فلم ينتهوا، ومَرَّ سليمانُ عليه السلام.

وفي القصة: أن عظيم النمل كان مثل البغل في عِظَمِ الجثة، وله خرطوم. والله أعلم.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾.

في ذلك دليلٌ على أن نَظَرَه إليهم كان نَظَرَ اعتبارٍ، وأنه رأى تعريفَ الله إياه ذلك، وتنبيهُه عليه من جملة نِعَمِه التي يجب عليها الشكرُ.

وفي قوله: ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ دليلٌ على أَنَّ شُكْرَ الشاكر لله لا يختص بما أَنْعَمَ به عليه على الخصوص، بل يجب على العبد أن يشكر الله على ما خَصَّ وعَمَّ من نِعَمِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

سأل حُسْنَ العاقبة، لأنَّ الصالحَ من عباده مَنْ هو مختوم له بالسعادة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾.

تَطَلَّبَه فَلَمَّا لم يَرَه تَعَرَّفَ ما سبب تأخره وغيبته.

ودلَّ ذلك على تيقظ سليمان في مملكته، وحسن قيامه وتكفله بأمور أمته ورعيته، حيث لم تَخْفَ عليه غيبةُ طيرٍ هو من أصغر الطيور لم يحضر ساعةً واحدةً. وهذا أحسن ما قيل.

ثم تَهَدَّدَه إن لم يكن له عُذْرٌ بعذاب شديدٍ، وذلك يدلُّ على كمال سياسته وعَدْلِه في مملكته.

وقال قومٌ إنما عَرَفَ أن الهدهد[1] يعرف أعماقَ الماء بإلهام خُصَّ به، وأنَّ سليمان كان قد نزل منزلاً ليس به ماء، فطلبَ الهدهد ليهديَهم إلى مواضع الماء، وهذا ممكن؛ لأن في الهدهد كَثْرَةً. وغيبةُ واحدٍ منها لا يحصل منها خَلَلٌ ـ اللهم إلّا إنْ كان ذلك الواحد مخصوصاً بمعرفة مواضع وأعماق الماء. . والله أعلم.

وروي أن ابن عباس سُئِلَ عن ذلك، وأنه قيل له: إنْ كان الهدهدُ يرى الماءَ تحت الترابِ ويعرفه فكيف لا يرى الفَخَّ مخفيًّا تحت التراب؟.

فقال: إذا جاء القضاء عَمِيَ البصر.

ويقال: إن الطير كانت تقف فوق رأس سليمان مُصْطَفَةً، وكانت تستر انبساط الشمس وشعاعها بأجنحتها، فوقع شعاعُ الشمسِ على الأرض، فنظر سليمانُ فرأى موضع الهدهد خالياً منه، فَعَرَفَ بذلك غَيْبَته. . وهذا أيضاً ممكن، ويدل على كمال تَفَقُّدِه، وكمال تَيَقُّظِه ـ كما ذكرنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

في هذه الآية دليل على مقدار الجُرْم، وأنه لا عِبْرَةَ بصغر الجثة وعِظَمِها. وفيه دليل على أن الطير في زمانه كانت في جملة التكليف، ولا يبعد الآن أن يكون عليها شَرْعٌ، وأنَّ لهم من الله إلهاماً وإعلاماً؛ وإن كان لا يُعْرَفُ ذلك على وجه القَطْع.

وتعيين ذلك العذاب الشديدِ غيرُ ممكنٍ قطعاً، إلا تجويزاً واحتمالاً.

وعلى هذه الطريقة يَحْتَمِلُ كلَّ ما قيل فيه.

ويمكن أن يقال فإن وُجِدَ في شيءٍ نَقْلٌ فهو مُتَّبَعٌ.

وقد قيل هو نَتْفُ ريشه وإلقاؤه في الشمس.

---

(١) الهدهد: جنس طير من الجوائم الرقيقات المناقير، أشهر أنواعه الهدهد الشائع، وهو مبذول في لبنان وغيره. ذو خطوط وألوان كثيرة، وهو متوسط الجسم، له منقار مستطيل وقنزعة على رأسه كبيرة القدّ سوداء الأطراف. وذنبه مقطوم الطرف، أسود اللون أبيض الجانبين والوسط، يألف الهدهد الأماكن المبعثرة الأشجار، وقوته الحشرات والديدان (ج) هداهد وهداهيد، الواحدة هدهدة. يقال: (أبصر من هدهد) قيل: لأنه يرى الماء تحت الأرض.

وقيل يفرّق بينه وبين أليفه.
وقيل يشتِّت عليه وقتَه.
وقيل يُلْزِمُه خدمة أقرانه.

والأَوْلَى في هذا أن يقال من العذاب الشديد كيت وكيت، وألا يُقْطَعَ بشيءٍ دون غيره على وجه القطع.

فَمِنَ العذاب الشديد أن يُمْنَعَ حلاوة الخدمة فيجد أَلَمَ المشقة. ومن ذلك أن يقطع عنه حُسْنُ التولي لشأنه ويوكَلَ إلى حَوْلِه ونَفْسِه، ومن ذلك أن يُمْتَحَنَ بالحِرْصِ في الطلب ثم يحال بينه وبين مقصوده ومطلوبه. ومن العذاب الشديد الطمع في اسم العذر ثم لا يرتفع[(١)] ومن ذلك سَلْبُ القناعة، ومنه عَدَمُ الرضا بما يجري. ومن ذلك توهم الحدثان وحسبان شيءٍ من الخَلْق.

ومن ذلك الحاجة إلى الأَخِسَّةِ من الناس. ومن ذلك، ذُلُّ السؤال مع الغفلة عن شهود التقدير. ومن ذلك صحبة الأضداد والابتلاء بمعاشرتهم. ومن ذلك ضعف اليقين وقلة الصبر. ومن ذلك التباس طريق الرُّشد. ومنه حسبان الباطل بصفة الحق، والتباس الحقِّ في صورة الباطل. ومنه أن يطالب بما لا تتسع له ذات يده. ومنه الفقر في الغُرْبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾.

فلم يلبث الهدهدُ أن جاء، وعَلِمَ أن سليمانَ قد تَهدَّده، فقال: أَحَطْتُ علماً بما هو عليك خافٍ، ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾.

ثم ذكر حديث بلقيس، وأنها ملكتهم، وأن لها من المالِ والمُلْكِ والسرير العظيم ما عَدَّه، فلم يتغير سليمانُ ـ عليه السلام ـ لذلك، ولم يستفزّه الطمع فيما سَمِعَ عن هذا كما يحدث من عادة الملوك في الطمع في مُلْكِ غيرهم[(٢)]، فلما قال:

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

فعند ذلك غَاظَ هذا سليمانَ، وغَضِبَ في الله[(٣)]، و:

﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

---

(١) قال القشيري برسالته: وقيل في قوله تعالى: **﴿لأعذبنه عذاباً شديداً﴾** يعني لأسلبنه القناعة ولأبتلينه بالطمع، يعني أسأل الله تعالى أن يفعل به ذلك. (الرسالة القشيرية ص ١٦٢).

(٢) الآية (٢٣) لم ترد.

(٣) الآيتان (٢٥، ٢٦) لم تردا.

وفي هذا دلالة على أن خَبَرَ الواحدِ لا يوجِب العلمَ فيجب التوقفُ فيه على حدِّ التجويز، وفيه دلالة على أنه لا يُطْرَح بل يجب أن يُتَعَرَّفَ: هل هو صدق أم كذب؟

ولـمَّا عَرَفَ سليمان هذا العُذْرَ تَرَكَ عقوبتَه وما تَوَعَّدَه به.. وكذلك سبيلُ الوالي؛ فإنَّ عَدْلَه يمنعه من الحيفِ على رعيته، ويَقْبَلُ عُذْرَ مَنْ وَجَدَهُ في صورة المجرمين إذا صَدَقَ في اعتذاره.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾.

في الآية إشارة إلى أنه لا ينبغي للإنسان أن يذكر بين يدي الملوك كلَّ كلمة، فإنه يَجُرُّ العناءَ بذلك إلى نَفْسِه؛ وقد كان لسليمان من الخَدَم والحَشَم ومَنْ يأتمر بأمره الكثير، ولكنه لم يستعمل واحداً في هذا التكليف إلا الهدهد لأنه هو الذي قال ما قال، فلزمه الخروج من عهدة ما قال.

ويقال لـمَّا صَدَقَ فيما أخبر لِمَلِكهِ عُوِّضَ عليه فَأُهِّلَ للسفارة والرسالة ـ على ضعف صورته.

فمضى الهدهدُ، وألقى الكتابَ إليها كما أُمِرَ، وانتحى إلى جانبٍ ينتظر ماذا يفعلون وبماذا يُجَاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾.

﴿كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ الكَرَمُ نَفْيُ الدناءة، وقيل لأنه كان مختوماً، وقيل لأنَّ الرسولَ كان طيراً؛ فَعَلِمَتْ أَنَّ مَنْ تكون الطيرُ مُسَخَّرة لَهُ لا بُدّ أنه عظيمُ الشأنِ. وقيل لأنه كان مُصَدَّراً ببسم الله الرحمن الرحيم. وقيل لأنه كتب فيه اسم نَفْسِه أولاً ولم يَقُلْ: إنه من سليمان إلى فلانة. ويقال لم يكن في الكتاب ذكر الطمع في المُلْكِ بل كان دُعاءً إلى الله: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾.

ويقال أَخَذَ الكتابُ بمجامع قلبها، وقَهَرَها؛ فلم يكن لها جواب، فقالت: ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ فلمَّا عَرَفَتْ قَدْرَ الكتابِ وصلت باحترامها إلى بقاء مُلكِها، ورُزِقَتْ الإسلامَ وصُحْبَةَ سليمان.

ويقال إذا كان الكتابُ كريماً لما فيه من آية التسمية فالكريمُ من الصلاة ما لا يتجرَّدُ عن التسمية، وإذا تجرَّدت كان الأمرُ فيها بالعكس.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾.

أَخَذَتْ في المشاورة كما تقتضيه الحال في الأمور العظام؛ فإن المَلِكَ لا ينبغي أن يكون مستبداً برأيه، ويجب أن يكون له قومٌ من أهل الرأي والبصيرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾.

أجابوا على شرط الأدب، وقالوا: ليس منا إلّا بَذْلُ الوسع، وليس لنا إلّا إظهارُ النُّصح وما علينا إلا متابعةُ الأمر ـ وتمشيةُ الأمرِ وإمضاؤه. . . إليكِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

ويقال إنَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ مِنْ قَوْلِها.

ويقال: تغييرُ الملوك إذا دخلوا قريةً ـ عن صفتها ـ معلومٌ، ثم يُنْظَر. . . فإن كان الداخِلُ عادلاً أزال سُنَّةَ الجَوْرِ، وأثبت سُنَّةَ العَدْلِ، وإنْ كان الداخلُ جائراً أزال الحَسَنَ وأثبت الباطلَ. هذا معلوم؛ فإنَّ خرابَ البلادِ بولاةِ السُّوءِ، حيث يستولي أسافلُ الناس وأسقاطُهم على الأعزة منهم، وكما قيل:

يا دولةً ليس فيها من المعالي شظيةْ
زولي فما أنتِ إلّا على الكرام بليةْ

وعمارة الدنيا بولاة الرُّشْدِ، يكسرون رقابَ الغاغة[1]، ويُخَلِّصُون الكرامَ من أَسْرِ السُّفْلة، (ويأخذ القوس باريها)، وتطلع شمسُ العدل من برج شرفها. . . كذلك المعرفةُ والخصالُ المحمودة إذا باشَرَتْ قلبَ عبدٍ أخرجت عنه الشهواتِ والمُنى، وسفاسفَ الأخلاقِ من الحقد والحسد والشُّحِّ وصِغَرِ الهمة. . . وغير ذلك من الأوصاف الذميمة وتُثْبِتُ بَدَلَها من الأحوال العَلِيَّةِ والأوصاف المَرْضِيَّةِ ما به نظامُ العبد وتمامُ سعادته. ومتى استولت على قلبِ غاغةُ النَّفسِ والخصالُ المذمومة أزالت عنه عمارته، وأَبْطَلَتْ نضارتَه، فتخرب أوطانُ الحقائق، وتتداعى مساكنُ الأوصاف الحميدة للأفول، وعند ذلك، يَعْظُم البلاءُ وتتراكم المِحَنُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

جاء في القصة أنها بعثت إلى سليمان بهدايا، ومن جملتها لَبِنَةٌ مصنوعةٌ من الفضة وأخرى من الذهب. وأن اللَّهَ أخبر سليمانَ بذلك، وأوحى إليه في معناه. وأَمَرَ سليمانُ الشياطينَ حتى بَنَوْا بساحة منزله ميداناً، وأمرهم أن يفرشوا الميدان بهيئة اللَّبِنِ المصنوع من الذهب والفضة من أوله إلى آخره. وأَمَرَ بأن توقف الدوابُّ على ذلك وألا تُنَظَّفَ آثارُها من رَوْثٍ وغيره، وأن يُتْرَكَ موضعان لِلَبِنَتَيْنِ خالِيَيْن في ممرٍّ

---

(١) الغاغة: من الغوغاء أصلها الجراد حين يخف للطيران ثم استعير للسفلة من الناس والمتسرعين إلى الشر، ويجوز أن يكون من الغوغاء الصوت والجلبة لكثرة لغطهم وصياحهم. (اللسان ٨/ ٤٤٤ مادة: غوغ).

الدخول. وأقبل رُسُلُها، وكانت معهم اللبنتان ملفوفتين، فلمَّا رَأَوْا الأمر، ووقعت أبصارُهم على طريقهم، صَغُرَ في أعينهم ما كان معهم، وخَجِلوا من تقديم ذلك إلى سليمان ووقعوا في الفكرة... كيف يتخلصون مما معهم؟. فلمَّا رأوا موضع اللِّبنَتَيْن فارغا ظنُّوا أن ذلك سُرِق من بينها، فقالوا لو أظهرنا نُسِبْنا إلى أنَّا سرقناهما من هذا الموضع، فطرحاهما في الموضع الخالي، ودَخَلا على سليمان:

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾.

أتهدونني مالاً؟! وهل مثلي يُسْتَمالُ بمثل هذه الأفعال؟ إنكم وأمثالكم تعامِلُون بمثل ما عوملتم! ارجع إليهم: -

﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾.

فلمَّا رجعوا إلى بلقيس، وأخبروها بما شاهدوا وسمعوا علمت أنه لا وَجْهَ لها سوى الاستسلام والطاعة، فَعَزَمَتْ على المسير إلى خدمته، وأوحى الله إلى سليمان بذلك، وأنها خرجت مستسلمةً، فقال: ﴿أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا؟﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾.

بسط اللَّهُ - سبحانه - مُلْكَ سليمان، وكان في مُلْكِه الجِنُّ والإِنسُ والشياطين؛ الجن على جهة التسخير، والإنس على حكم الطوع، والشياطين وكانوا على أقسام.

ولـمَّا قال: ﴿أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا؟﴾ قال عفريت من الجن - وكان أقواهم - ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾، فلم يرغب سليمانُ في قوله لأنه بَنَى القولَ فيه على دعوى قُوَّتِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ﴾.

﴿ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ (قيل هو آصف) وكان صاحب كرامة. وكراماتُ الأولياءِ مُلْتَحِقَةٌ بمعجزات الأنبياء، إذ لو لم يكن النبيُّ صادقاً في نبوته لم تكن الكرامة تظهر على من يُصَدِّقه ويكون من جملة أمته.

ومعلومٌ أنه لا يكون في وُسْعِ البَشَرِ الإتيانُ بالعرش بهذه السرعة، وأن ذلك لا يحصل إلا بخصائص قدرة الله تعالى. وقَطْعُ المسافة البعيدة في لحظةٍ لا يصح تقديره في الجواز إلا بأحد وجهين: إمَّا بأن يُقَدِّم اللَّهُ المسافةَ بين العرش وبين منزل سليمان،

وإمَّا بأن يعدم العرش ثم يعيده في الوقت الثاني بحضرة سليمان. وأيُّ واحدٍ من القسمين كان ـ لم يكن إلّا من قِبَلِ الله، فالذي كان عنده علم من الكتاب دعا الله ـ سبحانه ـ واستجاب له في ذلك، وأحضر العرش، وأمر سليمان حتى غَيَّرَ صورته فجعل أعلاه أسفله، وأسفله أعلاه، وأثبته على تركيبِ آخر غير ما كان عليه.

ولمَّا رأى سليمان ذلك أخذ في الشكر لله ـ سبحانه ـ والاعتراف بِعِظَمِ نِعَمِه، والاستيحاء، والتواضع له، وقال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾: لا باستحقاقٍ مني، ولا باستطاعةٍ من غيري، بل أحمد النعمةَ لربِّي حيث جعل في قومي ومِنْ أمتي مَنْ له الجاهُ عنده فاستجاب دعاءَه.

وحقيقةُ الشكرِ ـ على لسان العلماء ـ الاعترافُ بنعمة المُنْعِم على جهة الخضوع. والأحسنُ أن يقال الشكرُ هو الثناءُ على المُحْسِنِ بِذِكْرِ إحسانه، فيدخل في هذا شكرُ اللَّهِ للعبد لأنه ثناءٌ منه على العبد بذكر إحسان العبد، وشكرُ العبد ثناءٌ على الله بذكر إحسانه... إلّا أَنَّ إحسان الحقِّ هو إنعامُه، وإحسانُ العبد طاعتُه وخدمتُه لله، وما هو الحميد من أفعاله.

فأمَّا على طريقِ أهل المعاملة وبيان الإشارة: فالشكرُ صَرْفُ النعمة في وجه الخدمة.

ويقال الشكر ألَّا تستعينَ بنعمته على معاصيه.

ويقال الشكر شهودُ المنعِم من غير مساكنةٍ إلى النعمة.

ويقال الشكر رؤية العجز عن الشكر.

ويقال أعظمُ الشكرِ الشكرُ على توفيق الشكر.

ويقال الشكر على قسمين: شكر العوام على شهود المزيد، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وشكر الخواص يكون مجرداً عن طلب المزيد، غيرَ متعرض لمنال العِوَض.

ويقال حقيقةُ الشكرِ قيد النعم وارتباطها؛ لأَنَّ بالشكر بقاءَها ودوامَها.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

أراد سليمانُ أن يمتحنَها وأن يختبرَ عقلَها، فأمر بتغيير عرشِها، فلمَّا رأته: ـ ﴿قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾.

فاستدلَّ بذلك على كمالِ عقلها، وكان ذلك أمراً ناقضاً للعادة، فصار لها آية وعلامةً على صحة نبوة سليمان ـ عليه السلام ـ وأسلَمَتْ:

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ

حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

كان ذلك امتحاناً آخرَ لها. فقد أَمَرَ سليمانُ الشياطينَ أن يصنعوا من الزجاج شِبْهَ طبقٍ كبيرٍ صافٍ مضيءٍ، ووَضَعَه فوق بِرْكَةٍ بها ماء كثير عميق، يُرَى الماءُ من أسفل الزجاج ولا يُمَيَّزُ بين الزجاج والماء، وأُمِرَتْ أن تخوضَ تلك البركة، فكَشَفَتْ عن ساقيها؛ لأنها وُصِفَتْ لسليمان بأنها جِنيةُ النَّسَبِ، وأن رجليها كحوافر الدواب، فَتَقَوَّلوا عليها. ولمَّا تَوَهَّمَتْ أنها تخوض الماءَ كَشَفَتْ عن ساقيها، فرأى سليمان رِجْلَيْها صحيحين. وقيل لها: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَۗ﴾: فصار ذلك أيضاً سبباً وموجباً ليقينها. وآمنَتْ وتزوج بها سليمان عليه السلام.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾.

ذكر قصةَ ثمود، وقصة نبيِّهم صالح عليه السلام، وما جرى بينه وبينهم من التكذيب، وطلبهم منه معجزةً، وحديث الناقة وعقرها، وتبرمهم بالناقة بعد أن رأوا فيها من الفعل الذي كانت لهم فيه أعظم آية... إلى قوله:

﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

ومَكْرُهُم ما أظهروا في الظاهر من موافقة صالح، وعقرهم الناقة خفيةً، وتوريك الذَّنبِ على غير جارمه، والتبرِّي من اختيارهم ذلك.

وأمَّا مَكْرُ اللَّهِ جزاؤهم على مَكْرِهم بإخفاء ما أراد بهم من العقوبة عنهم، ثم إحلالها بهم بغتةً. فالمَكْرُ من الله تخليتُه إياهم مع مَكْرِهم بحيث لا يعصمهم، وتزيينُ ذلك في أعينهم، وتَحبيبُ ذلك إليهم... ولو شاء لَعَصَمَهُم. ومن أليم مَكْرِه انتشارُ الصيت بالصلاح، والعمر في السِّرِّ بخلاف ما يتوهم بهم من الصلاح، وفي الآخرة لا يَجُوزُ في سُوقِها هذا النَّقْدُ!.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

أهلكهم ولم يغادر منهم أحداً:

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

وفي الخبر: «لو كان الظلمُ بيتاً في الجنة لَسَلَّطَ اللَّهُ عليه الخرابَ»؛ فالنفوسُ إذا ظَلَمت بِزَلَّاتِها خربت بلحوقها شؤم الذِّلة حتى يتعود صاحبُها الكسلَ، ويستوطن مركبَ الفشل، ويُحْرَم التوفيق، ويتوالى عليه الخذلانُ وقسوةُ القلب وجحودُ العين وانتفاءُ تعظيمِ الشريعة من القلب. وأصحابُ القلوبِ إذا ظلموها بالغفلة ولم يحاولوا

طَرْدَها عن قلوبهمْ. . . خربت قلوبُهم حتى تقسو بعد الرأفة، وتجف بعد الصفوة.

فخرابُ النفوس باستيلاء الشهوة والهفوة، وخرابُ القلوب باستيلاء الغفلة والقسوة، وخراب الأرواح باستيلاء الحجبة والوقفة، وخراب الأسرار باستيلاء الغيبة والوحشة[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

ذَكَرَ قصة لوطٍ وأمته، وما أصَرُّوا عليه من الفاحشةِ، وما أَحَلَّ اللَّهُ بهم من العقوبة، وإحلالَ العقوبة بامرأته التي كانت تطابق القومَ، وتخليص الحقِّ لوطاً من بينهم، وما كان من أمر الملائكة الذين بُعِثُوا لإهلاكهم[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

هم الذين سَلَّم عليهم في آزاله وهم في كتم العَدَم، وفي متناول علمه ومتعلق قدرته، ولم يكونوا أعياناً في العَدَم ولا أفادوا، فلمَّا أظهرهم في الوجود سَلَّم عليهم بذلك السلام، ويُسْمِعُهم في الآخرة ذلك السلام. والذين سَلَّم عليهم هم الذين سَلِمُوا اليومَ من الشكوك والشُّبَهِ، ومن فنون البِدَع، ومن وجوه الألم، ثم من فنون الزَّلَلِ وصنوفِ الخَلَلِ، ثم من الغيبة والحجبة وما ينافي دوام القربة.

ويقال اصطفاهم، ثم هداهم، ثم آواهم، وسَلَّم عليهم قبل أَنْ خَلَقَهم وأبداهم، وبعد أن سَلَّم عليهم بودِّه لَقَّاهم.

ويقال: اصطفاهم بنورِ اليقين وحُلَّةِ الوَصْلِ وكمالِ العَيْش.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾.

فثمراتُ الظاهرِ غذاءُ النفوس، وثمراتُ الباطنِ والأسرار ضياءُ القلوبِ، وكما لا تبقى في وقت الربيع من وحشة الشتاءِ بقيةٌ فلا يبقى في قلوبهم وأوقاتهم من الغيبةِ والحجبةِ والنفرةِ والتهمةِ شَظِيَّة.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾.

نفوسُ العابدين قرارُ طاعتهم، وقلوبُ العارفين قرار معرفتهم، وأرواح الواجدين قرار محبتهم، وأسرار الموحِّدين قرار مشاهدتهم، في أسرارهم أنوار الوصلة وعيون القربة، وبها يسكن ظمأُ اشتياقهم وهيجانُ قَلَقِهم واحتراقِهم.

---

(١) الآية (٥٣) لم ترد.

(٢) الآيات من (٥٦ حتى ٥٨) لم ترد.

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ من الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة.

ويقال ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ اليقين والتوكل.

ويقال الرواسي في الأرض الأبدالُ والأولياء والأوتاد؛ بهم يديم إمساكَ الأرض، وببركاتهم يَدْفَعُ عن أهلها البلاء.

ويقال الرواسي هم الأئمة الذي يَهْدُون المسترشدين إلى الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ﴾ بين القلب والنفس لئلا يغلب أحدُهما صاحبَه.

ويقال بين العبودية وأحكامها، والحقيقة وأحكامها، فلو غَلَبَتْ العبوديةُ كان جَحْداً للحقيقة، ولو غلبت الحقيقةُ العبوديةَ كانت طَيًّا للشريعة.

ويقال: أَلْسِنَةُ المريدين مَقَرُّ ذكره، وأسماعُهم مَحلُّ الإدراك الموصِّل إلى الفهم، والعيون مقر الاعتبار.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾.

فَصَلَ بين الإجابة وبين كَشْفِ السوء؛ فالإجابةُ بالقَولِ والكشفُ بالطَّوْلِ، الإجابة بالكلام والكشفُ بالإنعام. ودعاءُ المضطر لا حجابَ له، وكذلك دعاء المظلوم» ولكن ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨].

ويقال للجناية: سراية؛ فَمَنْ كان في الجناية مختاراً فليس تسلم له دعوى الاضطرار عند سراية جُرْمِه الذي سَلَفَ منه وهو مختارٌ فيه، فأكثر الناس يتوهمون أنهم مضطرون، وذلك الاضطرار سراية ما بَدَرَ منهم في حال اختيارهم.

وما دام العبدُ يتوهم من نفسه شيئاً من الحَوْلَ والحيلة، ويرى لنفسه شيئاً من الأسباب يعتمد عليه أو يستند إليه ـ فليس بمضطرٍ، فالمضطرُّ يرى نَفْسَه كالغريق في البحر، أو الضَّالِّ في المتاهة، وهو يرى عِنَانَه بيد سَيِّدِه، وزِمَامه في قبضته، فهو كالميت بين يدي غاسِله، وهو لا يرى لنفسه استحقاقاً للنجاة؛ لاعتقاده في نفسه أنه من أهل السخط، ولا يقرأ اسمه إلا من ديوان الشقاوة[١].

---

(١) إن العبد إذا اطمأن لنفسه، ولاحظ عمله فقد عنصراً من عناصر السير في طريق الإخلاص وفي هذا قال أبو يعقوب السدوسي: حتى شهدوا الإخلاص في إخلاصهم احتاج إلى إخلاص، ويقول أبو عثمان المغربي: الإخلاص ما لا يكون للنفس فيه حظ بحال، وهذا إخلاص العوام، وأما إخلاص الخواص فهو ما يجري عليهم لا بهم، فتبدو منهم الطاعات، وهم عنها بمعزل، ولا يقع لهم عليها رؤية ولا بها اعتداد، فذلك إخلاص الخواص. (الرسالة القشيرية ص٢٠٨).

ولا ينبغي للمضطر أن يستعين بأحدٍ في أن يدعوَ له، لأنَّ اللَّهَ وَعَدَ الإجابة له.. لا لمن يدعو له.

ثم كما وَعَدَ المضطرَّ الإجابةَ وكَشْفَ السوء وَعَدَه بقوله: ـ

﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾.

فإنَّ مع العسر يسراً، ولم يقل: العسر إزالة، ولكن قال: مع العسرِ يُسْرٌ؛ فنهارُ اليُسْرِ حاصلٌ بعد ظلام العُسْرِ.

ثم قال: ﴿أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ لأنَّ العبدَ إذا زَالَ عُسْرهُ، وكُشِفَ عنه ضُرُّه نَسِيَ ما كان فيه، وكما قال القائل:

كأنَّ الفتى لم يَعْرَ يوماً إذا اكتسى ولـم يَـكُ صـعـلـوكاً إذا مـا تـمَـوَّلَا

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾.

إذا أظلم الوقتُ على صاحبه في متعارض الخواطر عند استبهام وجه الصواب، وضاق الأمرُ بسبب وحشة التدبير وظلمات أحوال التجويز، والتحيُّر عند طلب ترجيح بعض الخواطر على بعضٍ بشواهد العقل.. فَمَنْ الذي يرشدكم لوجه الصواب بِتَرْكِ التدبير، وللاستسلام لحكم التقدير، وللخروج من ظلمات مجوَّزات العقول إلى قضايا شهود التقدير، وتفويض الأمر إلى اختيار الحق، والاستسلام لما جَرَتْ به الأقسامُ، وسبَقَت به الأقدار؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

مَنْ الذي يُرْسِلُ رياحَ فَضْلِه بين يدي أنوار اختياره فيمحوَ آثارَ اختيارِ نَفْسِك، ويعجِّلَ بحُسْن الكفاية لك؟

ويقال: يرسل رياحَ التوكل فيُطَهِّرُ القلوبَ من آثار الاختيار وأوضار التدبير، ثم يُطْلِعُ شموسَ الرضا فيحصلُ بَردُ الكفاية فوق المأمول في حال سكينة القلب.. ﴿أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ﴾؟ ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: من إحالة المقادير على الأسباب.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

يُظِهرُ ما يُظْهِرُ بقدرته على مقتضى سابق حُكْمِه، ويخصص ما تعلقت به مشيئته وحقَّ فيه قولُه، وسَبَقَ به قضاؤه وقَدَرُه فإذا زال وانتفى وانعدم بعضُ ما يظهر

ويخصص.. فَمَنْ الذي يعيده مثلما بدأه؟ ومن الذي يضيِّق الرزقَ ويُوَسِّعُه؟ ومن الذي يقبض في بعض الأوقات على بعض الأشخاص؟ وفي وقت آخر مَنْ الذي يبسط على قوم آخرين؟

هل في قدرة أحدٍ غيرِ اللَّهِ ذلك؟

إِنْ توهمتم شيئاً منذ لك فأَوْضِحُوا عنه حُجَّتَكم.. وإذ قد عجزتم.. فهلَّا صَدَّقْتُم؟ وبالتوحيد أقررتم؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

﴿ٱلْغَيْبَ﴾: ما لا يطلع عليه أحد، وليس عليه للخلْق دليل، وهو الذي يستأثر بعلمه الحقُّ، وعلومُ الخَلْق عنه متقاصرة، ثم يريد اللَّهُ أن يخصَّ قوماً بعلمه أفردهم به.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾: فإنه أخفى علَم الساعة عن كل أحدٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾.

فهم في الجملة يَشُكُّون فيه؛ فلا ينفونه ولا بالقطع يجحدونه.. وهكذا حُكْمُ كلِّ مريضِ القلب، فلا حياةَ له في الحقيقة، ولا راحةَ له من يأسه، إذ هو من البعث في شكٍّ، ومن الحياة الثانية في استبعاد:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

وُعِدَ آباؤنا بذلك من قبل، ثم لم يكن لهم تحقيق، وما نحن إلا مِثْلُهم، وكانوا يسألون متى الساعة؟[1].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

فقال الحقُّ: إنه عن قريبٍ سيحل بهم ميقاته:

﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

ثم قال جلّ ذكره:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾

(١) الآيتان (٦٩ ـ ٧٠) لم تردا.

لأنهم لا يُمَيِّزُون بين مِحَنِهم ومِنَحهم. وعزيزٌ مَنْ يَعْرِفُ الفَرْقَ بين ما هو نعمةٌ من الله له وبين ما هو محنة؛ فإذاً تقاصَرَ عِلْمُ العبدِ عمَّا فيه صلاحه، فعسى أن يحب شيئاً ويظنَّه خيراً وبلاؤه فيه، ورُبَّ شيءٍ يظنُّه العبدُ نعمةً فيشكر عليها ويستديمها، وهي محنةٌ له يجب الصبر عليها والتضرع إلى الله في صَرْفِها! وبعكس هذا كم من شيءٍ يظنه الإنسان بخلاف ما هو به!.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

لا تَلْتَبِسُ على الله أحوالُهم؛ فصادِقٌ يستوي ظاهِرُه وباطنُه يعلمه، ومنافقٌ يخالف باطنُه ظاهرَه يُلَبِّسُ على الناس حالَه.. وهو ـ سبحانه ـ يعلمه، وكافِرٌ يستوي في الجَحْدِ سِرُّه وعَلَنُه يعلمه، وهو يجازي كلاً على ما عَلِمَه.. كيف لا.. وهو قَدَّرَه، وعلى ما عليه قضاه وقَسَمَه؟!.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

ما من شيء إلَّا مُثْبَتٌ في اللوح المحفوظ حُكْمُه، ماضيةٌ فيه مشيئته، متعلِّقٌ به عِلْمُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وهم يُخْفُون بعضاً، وبعضاً يُظْهِرُون، ومع ما يَهْوَوْن يدورون.

وفي هِذ الآية تخصيص لهذه الأمة بأن حفظ الله كتابَهم، وعَصَمَ مِنَ التغيير والتبديل ما به يدينون. وهذه نعمةٌ عظيمةٌ قليلٌ منهم مَنْ عليها يشكرون؛ فالقرآن هدًى ورحمة للمؤمنين، وليس ككتابهم الذي أخبر الصادقُ أنهم له مُحَرِّفون مُبَدِّلُون.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

هو ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ المُعِزُّ للمؤمنين، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يستحقه كلُّ أحدٍ من الثواب العظيم والعذاب الأليم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾.

أي اجتهد في أداء فَرْضِه، وثِقْ بصدق وعده في نصره ورزقه، وكفايته وعَوْنِه. ولا يهولنَّكَ ما يجري على ظواهرهم من أذًى يتصل منهم بك، فإنما ذلك كلُّه بتسليطنا إن كان محذوراً، وبتقييضنا وتسهيلنا إن كان محبوباً. وإنك لَعَلَى حقٍّ وضياءِ صِدْقٍ، وهم على شكٍ وظلمةِ شِركٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾.

الذين أمات اللَّهُ قلوبَهم بالشِّرْكِ، وأَصَمَّهم عن سماع الحق ـ فليس في قُدْرَتِكَ أَنْ تَهْدِيَهم للرُّشْدِ أو تنقذهم من أُسْرِ الشكِّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

أنت تهديهم من حيث الدعاء والدلالة، ولكنك لا تهدي أحداً من حيث إزالة الباطل من القلب وإمالته إلى العرفان، إذ ليست بقُدرَتِكَ الإزالة أو الإمالة.

أنت لا تُسْمِعُ إلّا مَنْ يؤمِن بآياتنا، فلا يَسْمَعُ منك إلّا مَنْ أسعدناه من حيث التوفيق والإرشاد إلى الطريق.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾.

إذا حقَّ الوعدُ بإقامةِ القيامةِ أوضحنا أشراطَها في كلامِ الدَّابةِ المُخْرِجَةِ من الأرضِ وغير ذلك من الآيات.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

وعند ذلك لا ينفع الإيمانُ ولا يُقْبَلُ العُذْرُ(١): ـ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾.

ثم كَرَّرَ ذكر الليل والنهار واختلافهما: ـ

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أي ليكونَ الليلُ وقتَ سكونِهم، والنهارُ وقتَ طلبِ معاشِهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾.

أخبر أن اليومَ الذي يُنْفَخُ فيه في الصور هو يومُ إزهاق الأرواح، وإخراجها عن الأجساد؛ فَمِنْ روحٍ ترقى إلى عِلّيين، ومِنْ روح تذهب إلى سجّين(٢).. أولئك في حواصل طيرٍ تسرحُ في الجنة تأوي بالليلِ إلى قناديلَ معلقةٍ من تحت العرش صفتها التسبيح والرّوْح والراحة، ولبعضها الشهود والرؤية... على مقادير استحقاقهم لِمَا كانوا عليه في دنياهم.

وأمّا أرواحُ الكفار ففي النار تُعَذَّبُ على مقادير أجرامهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

---

(١) الآية (٨٤) لم ترد. (٢) السجّين: وادٍ في جهنم.

وكثيرٌ من الناس اليومَ من أصحاب التمكين، هم ساكنون بنفوسهم سائحون في الملكوت بأسرارهم. . قيل: إن الإشارة اليومَ إليهم. كما قالوا: العارف كائنٌ بائِنٌ؛ كائنٌ مع الناس بظاهره، بائنٌ عن جميع الخَلْق بسرائره.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

يحتمل أن يكون ﴿خير﴾ ها هنا للمبالغة؛ لأن الذي له في الآخرةِ من الثوابِ خيرٌ مِمَّا منه من القُرَب: ويحتمل فله نصيب خيرٌ أو عاقبة خيرٌ أو ثواب خيرٌ منها. وهم آمنون مِنْ فَزَعِ القيامة. ومن جاء بالسيئة: فكما أن حالَهم اليوم من المطيعين بالعكس فَحُكْمُهم غَداً في الآخرة بالضدِّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾.

أخبر أنه أمره بالدين الحنيفيِّ، والتبرّي من الشِّركِ؛ الجليِّ منه والخفيِّ، وبملازمةِ الطريقِ السَّويِّ. وأخبر أنَّ مَنْ اتبعه وصَدَّقَه أوجب الحقُّ ذمامه وحقَّه[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ. . .﴾.

سيريكم ـ عن قريبٍ ـ آياته، فطوبى لِمَنْ رجع قبل وفاته، والويلُ على مَنْ رجع بعد ذهاب الوقت وفواته!.

(١) الآية (٩٢) لم ترد.

سورة القصص

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

بسم الله اسم عزيز من تعرض لجدواه يَسَّر له في دنياه وعُقْباه، اسم عزيز مَنْ اشتاق إلى لُقياه استَعْذَبَ فيه ما يلقاه من بَلْوَاه. ومَنْ طَلَبَ غيره مُؤنِساً في دنياه أو عُقْباه ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧].

قوله جلّ ذكره: ﴿طسٓمٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾.

«الطاء» تشير إلى طهارة نُفُوسِ العابدين عن عبادة غير الله، وطهارة قلوب العارفين عن تعظيم غير الله، وطهارة أرواح الواجدين عن محبة غير الله، وطهارة أسرار الموحِّدين عن شهود غير الله. «والسين» تشير إلى سِرِّ اللَّهِ مع العاصين بالنجاة، ومع المطيعين بالدرجات، ومع المحبين بدوام المناجاة. «والميم» تشير إلى مِنَّتِه على كافة المؤمنين بكفاية الأوقات والثبات في سبيل الخيرات.

قوله جلّ ذكره: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

سماعُ قصةِ الحبيبِ من الحبيب يُوجِبُ سلوةَ القلب، وذهابَ الكَرْبِ، وبهجةَ السِّرِّ، وثَلَجَ الفؤاد. وقد كرَّر ذكر قصة موسى تفخيماً لشأنه وتعظيماً لقَدْرِه، ثم زيادةً في البيان لبلاغة القرآن، ثم إفادةً لزوائدَ في المذكورِ قولُه في كل موضع يتكرر فيه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

تكبَّر فرعونُ بغير حقٍّ فأقماه بحقٍّ، وتجبَّرَ بغير استحقاق فأذَلَّه الله باستحقاق واستيجاب، وجعل أهلها شيعاً يذبِّح أبناءَهم بعد ما استضعفهم، ويستحي نساءَهم، وأفنى منهم من كان (. . .)[1]، وبالفساد حَكَمَ فيهم، واللَّهُ لم يرضَ بِتَرْكِ إتلافهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ﴾.

---

(١) بياض في الأصل.

نريد أن نَمُنَّ على المستَضْعَفِين بالخلاصِ من أيديهم، وأَنْ نجعلَهم أئمةً، بهم يَهْتَدِي الخلْقُ، ومنهم يتعلم الناسُ سلوكَ طريق الصدق، ونبارك في أعمارهم، فيصيرون وارثين لأعمار مَنْ يُنَاويهم، وتصير إليهم مساكنهم ومنازلهم؛ فهم هُدَاةٌ وأعلامٌ، وسادةٌ وقادةٌ؛ بهم يُقْتَدى وبنُورِهم يُهْتَدى.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: نُزِيلُ عنهم الخوفَ، ونرزقهم البسطة والاقتدار، ونمد لَهُمْ في الأجل. ونُرِى فرعونَ وهامانَ وقومهما ما كانوا يحذرون من زوال مُلْكِهم على أيديهم؛ وأنَّ الحقَّ يُعْطِي ـ وإن كان عند الخَلْق أنَّهُ يُبْطي.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

أي ألقينا في قلبها، وأوحينا إليها وحيَ إلهامٍ، فاتخذت خاطرها في ذلك، وجرى منها ذلك وهي مختارة باختيارٍ أُدْخِلَ عليها.

لمَّا وضعت أم موسى كانت تخاف قتله، فإن فرعون قَتَلَ في ذلك اليوم كثيراً من الولدان المولودة لبني إسرائيل، رجاءَ أن يقتلَ مَنْ رأى في النوم ما عُبِّر له أن ذهابَ مُلْكِه على يدي إسرائيلي.. فألقى الله في قلبها أن تفعل ذلك.

ثم إنه ربَّاه في حِجْرِه ذلك اليومَ ـ ليُعْلَمَ أنَّ الأقدارَ لا تُغَالَبُ.

جعلت أم موسى موسى في تابوتٍ، وألقته في نيل مصر، فجاء الماءُ به إلى بِرْكةٍ كان فرعونُ جالساً على حافتها، فأخذوه وحملوه إليه، وفتحوا رأسَ التابوت، فلمَّا رآه فرعون أَخَذَتْ رؤيتُه بمجامع قلبه، وكذلك تمكَّن حُبَّه من قلب امرأةِ فرعون؛ قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾: [طه: ٣٩] حيث خَلَقَ الله ملاحةً في عيني موسى؛ فكان من يقع عليه بَصَرُه لا يتمالك من حُبِّه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾.

أخبر الله تعالى أنه كان عدواً لهم، وقالت امرأةُ فرعون:

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

فلم يكن لهما ولد، وهم لا يشعرون إلى ماذا يؤول أمره.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

لمّا ألقته في الماء سَكَّنَ اللَّهُ قلبَها، وربط عليه، وألهمها الصبر، وأصبح فؤادها

فارغاً إن كادت لتبدي به من حيث ضعف البشرية، ولكن الله ربط على قلبها.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

أَمَرَتْ أُمُّ موسى أختَه أن تتبعَ أثره، وتنظرَ إلى ماذا يؤول أمره، فلمَّا وجدوه واستمكن حُبُّه من قلوبهم طلبوا مَنْ يُرضِعه:

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أبى موسى قبولَ ثدي واحدةٍ ممن عُرِضَ عليهن.. فَمَنْ بالغداة كانوا في اهتمامِ كيف يقتلونه أمسوا ـ وهم في جهدهم ـ كيف يُغَذُّونه!

فلمَّا أعياهم أمرُه، قالت لهم أخته: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾؟ فَقَبِلُوا نصيحتها شفقةً منهم عليه، وقالوا: نعم، فردُّوه إلى أمِّه، فلمَّا وَضَعَت ثَدْيَها في فمه ارتضعها موسى فَسُرُّوا بذلك، وكانوا يَدْعُون أُمَّه حاضنةً ومرضعةً.. ولم يُضِرْها، وكانوا يقولون عن فرعون: إنه أبوه.. ولم ينفعه ذلك!

ولمَّا أخذته أمُّه علمت بتصديق الله ظنها، وسكن عن الانزعاج قلبُها، وجرى من قصة فرعون ما جرى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

لمَّا كَمُلَتْ سِنُّه وتمَّ عقلُه، واستوى كمال خصاله ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾: أي أَتممْنَا له التحصيل، وَوَفَّرنا له العلم، وبذلك جَرَتْ سُنَّتُنا مع الأكابر والأنبياء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ الآية.

قيل: دخل المدينةَ في وقت الهاجرة[١]، وتَفَرُّقِ الناس، فَوَجَدَ فيها رجلين يتخاصمان: أحدهما إسرائيليٌّ من شيعة موسى وعلى دِينه، والآخرُ قِبطيٌّ مخالفٌ لهما، فاستغاث الإسرائيليُّ بموسى على القبطي، فوكَزَه موسى ليَدْفَعَه عن الإسرائيلي، فمات الرجلُ بذلك الوَكْز، ولم يكن موسى يقصد قَتْلَه، فقال موسى:

﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾.

فقد تمنَّى موسى أنْ لو دَفَعَه عنه بأَيْسَرَ مما دفعه، ولم ينسب القتل إلى الشيطان، ولكنَّ دَفْعَهُ عنه بالغلظةِ نَسَبَه إلى الشيطان بأَنْ حَمَلَه على تلك الحِدَّة.

---

(١) الهاجرة: نصف النهار عند اشتداد الحر.

وهكذا.. إذا أرده اللَّهُ أمراً أجرى أسباباً ليَحْصُلَ بها مرادُه، ولو أنه أراد فتنةَ موسى لَمَا قَبَضَ روحَ الرجلِ بمثل تلك الوكزة، فقد يُضرَبُ الرجلُ الكثيرَ من الضَّرْبِ والسياط ثم لا يموت؛ فموتُ القبطي بوكزةٍ إجراءٌ لما قضاه وأراده.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

تاب موسى عَمَّا جرى على يده، واستغفر ربَّه، وأخبر اللَّهُ أنه غَفَرَ له، ولا عتابَ بعد المغفرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.

قال موسى ربِّ بما أنعمت عليَّ من توفيقك لي بالتوبة[1] فلن أعودَ بعد ذلك إلى مثل ما سَلَفَ مني.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُۥ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

أصبح في المدينة خائفاً على نَفْسِه من فرعون لأنه كان يَدَّعي أنه يحكم بالعدل، وخاف موسى أن ينسبه في قَتْلِ القبطيِّ إلى العَمْدِ والقصد. فهو ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ علم فرعون وأن يُخْبَر بذلك في وقته.

وقيل ﴿خَآئِفًا﴾ من الله مما جرى منه. ويقال ﴿خَآئِفًا﴾ على قومه حلولَ العذابِ بهم. وقيل ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ نصرة الله إياه. ويقال ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ مُؤنساً يأنَسُ به.

فإذا الذي استنصره بالأمس يخاصِمُ إنساناً آخَرَ، ويستعين به لِيُعِينَه، فَهَمَّ موسى بأن يعين صاحبَه، فقال الذي يخاصمه: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾؟: قيل لم يعلم ذلك الرجل أن موسى هو الذي قَتَلَ الرجلَ بالأمس، ولكن لمَّا قَصَدَ مَنْعَه عن صاحبه استدلَ على أن موسى هو الذي قتل الرجل بالأمس، فلما ذكر ذلك شاع في أفواه الناس أنَّ موسى هو الذي قتل القبطيَّ بالأمس، فأمسك موسى عن هذا الرجل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّٰصِحِينَ﴾.

جاء إسرائيليٌّ من معارف موسى يسعى، وقال إن القوم يريدون قَتْلَكَ، وأنا واقفٌ

---

(١) انظر حديث القشيري عن التوبة برسالته ص٩١.

على تدبيرهم؛ وقد أرادوا إعلامَ فرعون. . فاخرُجْ من هذا البلد، إني لك من الناصحين.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

خرج[1] من مصر ﴿خائفاً﴾ أن يقتفوا أثَره، ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ أن يدركه الطلب، وقيل ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ الكفايةَ والنصرةَ من الله، ودعا الله فقال: ﴿نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

توجَّه بنفسه تلقاء مدين من غير قصدٍ إلى مدين أو غيره، بل خرج على الفتوح، توجَّه بقلبه إلى ربِّه ينتظر أن يهديَه ربُّه إلى النحو الذي هو خيرٌ له، فقال: عسى ربي أن يهديني إلى أرْشَدِ سبيلٍ لي.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾.

لـمَّا وافى مدينَ شعيب كان وقت الهاجرة، وكانت لهم بئر يستقون منها، فيصبون الماءَ في الحياضِ، ويسقون أغنامهم، وكانوا أهل ماشية.

وكان شعيبُ النبيُّ عليه السلام قد كُفَّ بَصَرُه لكثرة بكائه؛ ففي القصة أنه بكى فذهب بَصَرُه، ثم رَدَّ الله عليه بَصَرَه فبكى، فردَّ الله بصره فبكى حتى ذهب بَصَرُه، فأوحى الله إليه: لِمَ تبكي يا شعيب. .؟ إنْ كان بكاؤك لخوف النار فقد أمَّنْتُكَ، وإن كان لِأجْلِ الجنة فقد أَتَحْتُها لك.

فقال: ربِّ. . إنما أبكي شوقاً إليك. فأوحى الله إليه لأجل ذلك أخْدَمْتُكَ نَبِيِّي وكليمي عَشْرَ حجج.

وكانت لشعيب أغنامٌ، ولم يكن لديه أجير، فكانت بِنْتاه تسوقان الغنَمَ مكانَ الرعاة، ولم يكن لهما قدرة على استقاء الماء من البئر، وكان الرعاة يستقون، فإذا انقضَوْا فإنْ بَقِيَتْ في الحوضِ بقيةٌ من الماء استقت بنات شعيب.

فلمَّا وافى موسى ذلك اليومَ وشاهَدَ ذلك ورآهما يمنعان غنمهما عن الماء رَقَّ قلبُه لهما وقال: ما خطبُكما؟ فقالتا: ﴿لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ وليس لدينا أجير. فلمَّا انصرف الرعاةُ سَقَى لهما، ثم تولّى إلى ظلِّ جدارٍ بعد ذلك. كان الجوع قد أصابه خلال سَفَرِه، ولم يكن قد تعوَّد، قط الرحلةَ والغُرْبَةَ، ولم يكن معه مالٌ، فدعا الله:

---

(١) هذا يذكرنا بأهمية قضية السفر. (انظر الرسالة القشيرية ص٢٨٨ ـ ٢٩٤ وص٣٨٣).

﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

قيل طَلَبَ قوةً تُزيل جوعَه، وقيل طَلَبَ حالاً يستقِلُّ بها. والأحسن أن يقال جاع فَطَلَبَ كِسْرَة يَسُدُّ بها رَمَقَه ـ والمعرفة توجب سؤالَ ما تحتاج إليه من الله قليلاً أو كثيراً. فلمَّا انصرفت ابنتا شعيب خَرَجَ شعيبُ إلى ظاهر الصحراء على طريق الماشية ليمسَّها بيديه فوجَدَ أثرَ الزيادة في تلك الكرَّة، فسألَهما فذَكَرَتا له القصة، وما سمعتا منه حين قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ فقال شعيب: إذاً هو جائع. وبَعَثَ إحداهما لتدعوَه: ـ

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قيل إنما استحيَتْ لأنها كانت تخاطِبُ مَنْ لم يكن لها مَحْرَماً.

وقيل لمّا دَعَتْه للضيافة تكلمتْ مستحيةً ـ فالكريم يستحي من الضيافة.

ويقال لم تَطِبْ نَفْسُ شعيب لمَّا أَحْسَنَ موسى إليه وأنه لم يكافئه ـ وإن كان موسى لم يُرِدْ مكافأةً منهم ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾: لم يَقُلْ: فلما جاءَه قَدَّم السُّفْرَةَ[1] بل قال: وقصَّ عليه القصص.. وهذا طَرَفٌ من قصته.

ويقال: وَرَدَ بظاهرِه ماءَ مدين، ووَرَدَ بقلبه مواردَ الأُنْس والرَّوْح. والموارد مختلفة؛ فمواردُ القلبِ رياضُ البَسطِ بكشوفات المحاضرة فيطربون بأنواع الملاطَفَة، ومواردُ الأرواح مشاهدُ الأرواح فيُكاشَفُون بأنوار المشاهدة، فيغيبون عن كل إحساسٍ بالنَّفسِ، ومواردُ الأسرارِ ساحاتُ التوحيدِ.. وعند ذلك الولاية لله؛ فلا نَفْسَ ولا حِسَّ، ولا قلبَ ولا أُنسَ.. استهلاكٌ في الصمدية وفناءٌ بالكلية!

ويقال كانت الأجنبيةُ والبعد عن المحرميَّة يوجبان إمساكه عن مخاطبتهما، والإعراضَ والسكونَ عن سؤالهما.. ولكن الذي بينهما من المشاكلة والموافقة بالسِّرِّ استنطقه حتى سألهما عن قصتهما، كما قيل:

أَجَارَتَنا إِنَّا غريبان ها هنا وكلُّ غريبٍ للغريبِ نسيبُ

ويقال: لمَّا سألهما وأخبرتا عن ضعفهما لزمه القيامُ بأمرهما؛ لِيُعْلَمَ أنَّ مَنْ تَفَقَّدَ أمرَ الضعفاء ووقف على موضع فاقتهم لزمه إشكاؤُهم.

ويقال مِنْ كمالِ البلاء على موسى أنَّه وافى الناسَ وكان جائعاً، وكان مقتضى الرِّفْقِ أَنْ يُطْعِموه، ولكنه قَبَضَ القلوبَ عنه، واستقبله مِنْ موجباتِ حُكْمِ الوقتِ أَنْ

(١) السُّفرة: طعام يُعد للمسافر أو ما يُحمل فيه الطعام أو المائدة وما عليها من الطعام.

يعملَ عَمَلَ أربعين رجلاً؛ لأن الصخرة التي نَحّاها عن رأس البئر ـ وَحْدَه ـ كان ينقلها أربعون رجلاً، فلمَّا عَمِلَ عَمَلَ أربعين رجلاً، تولَّى إلى الظِّلِّ، وقال: إنْ رأيتَ أنْ تُطْعِمَني بعد مُقَاساة اللتيا والتي.. فذلك فَضْلُكَ!.

قال ذلك بلسان الانبساط، ولا لسانَ أحلى من ذلك. وسُنَّةُ الشكوى أن تكون إليه لا مِنْكَ.. بل منه إليه.

ويقال: تولَّى إلى ظلِّ الأُنْس ورَوْح البسط واستقلال السِّرِّ بحقيقة الوجود.

ويقال قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾: فَزِدْني فقراً؛ فإنَّ فقري إليك يوجِبُ استعانتي بك.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾.

كان شُعيبُ عليه السلام يحتاج إلى أجير، ولكن لا يسكن قلبُ إلى أحدٍ، فلمَّا رأى موسى، وسمع من ابنته وصفةَ بالقوة والأمانة سأل:

عَرَفْتُ قُوَّتَه.. فكيف عرفْتِ أمانتَه؟

فقالت: كنتُ أمشي قُدَّامَه فأَخَّرَني عنه في الطريق قائلاً: سيري ورائي واهديني، لئلا يَقَعَ بَصَرُه عليَّ.. فقال شعيب:

﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾.

فرغب موسى وتزوجها على صداقٍ أن يعمل عشر حججٍ لشعيب.

وفي القصة أن شعيباً قال لموسى: ادخلْ هذا البيتَ وأَخْرِجْ مما فيه من العِصِيِّ عصاً، وكان البيتُ مظلِماً، فَدَخَل وأخرج العصا، تلك التي أظهر الله فيها معجزاته، ويقال: إنها كانت لآدم عليه السلام، ووقعت لشعيب من نبيٍّ إلى نبيٍّ. إذ يقال: إنه لما هَبَطَ آدمُ إلى الأرض صال عليه ما على وجهها من السِّباع، فأنزل عليه الله عصاً، وأمَرَه جبريلُ أنْ يَرُدَّ السباعَ عن نَفْسِه بتلك العصا.

وتوارث الأنبياءُ واحداً بعد الآخر تلك العصا، فلمَّا أخرج موسى تلك العصا، قال شعيب: ردَّها إلى البيت، واطرحها فيه، وأَخْرِجْ عصاً أخرى، فَفَعَلَ غير مرة، ولم تحصل كلَّ مرة في يده إلا تلك العصا، فلمَّ تكرَّرَ ذلك عَلِمَ شعيبُ أنَّ له شأناً فأعطاه إياها.

وفي القصة: أنه في اليومِ الأول ساق غَنَمه، وقال له شعيب: إنَّ طريقَكَ يتشعب شِعْبَيْن: على أحدهما كَلأٌ كثيرٌ.. فلا تَسْلُكْه في الرعي فإنَّ فيه ثعباناً، واسْلُكْ

الشُّعْبَ الآخرَ. فلمَّا بلغ موسى مَفْرِقَ الطريقين، تَفرَّقَتْ أغنامُه ولم تطاوعه، وسامت في الشِّعْبِ الكثيرِ الكَلأ، فَتَبِعَها، ووقع عليه النومُ، فلمَّا انتبه رأى الثعبانَ مقتولاً، فإن العصا قتلته، ولمَّا انصرف أخبر شعيباً بذلك فَسُرَّ به[1]. وهكذا كان يرى موسى في عصاه آياتٍ كثيرة، ولذا قال: ﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

مَضَتْ عَشْرُ حِجَجٍ، وأراد موسى الخروجَ إلى مصر، فَحَمَلَ ابنَه شعيب، وسارَ بأهله متوجِّهاً إلى مصر. فكان أهلُه في تسييره وكان هو في تسيير الحقِّ، ولمَّا ظَهَرَ ما ظهر بامرأته من أمر الطَّلْقِ استصعب عليه الوقتُ، وبينا هو كذلك إذ آنَسَ من جانب الطور ناراً ـ أي أبصر ورأى ـ فكأنه يشير إلى رؤية فيها نوعُ أُنْسٍ: وإنَّ اللَّهَ إذا أراد أمراً أجْرَى ما يليق به، ولو لم تقع تلك الحالةُ لم يخرج موسى عندها بإيناس النار، وقد تَوَهَّمَ ـ أول الأمر ـ أنَّ ما يستقبله في ذلك الوقتِ من جملة البلايا، ولكنه كان في الحقيقة سَبَبَ تحقيقِ النبوة. فلولا أسرار التقدير ـ التي لا يهتدي إليها الخَلْقُ ـ لما قال لأهله: ﴿ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾.

ويقال: أراح له ناراً ثم لَوَّح له نوراً، ثم بدا ما بدا، ولا كان المقصودُ النَّارَ ولا النورَ. وإنما سماع نداء: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن. . .﴾ الآية.

أخفى تعيين قَدَمِ موسى على الظنون بهذا الخطاب حيث قال: «من شاطىء الواد الأيمن»، ثم قال: «في البقعة المباركة» ثم قال «من الشجرة».

وأَخْلِقْ بأن تكون تلك البقعة مباركة، فعندها سَمِعَ خطابَ مولاه بلا واسطة؛ وأعَزُّ الأماكنِ في العالمِ مَشْهَدُ الأحباب:

وإني لأهوى الدارَ ما يستعزني لها الود إلا أنها من دياركا

ويقال كم قَدَمٍ وَطِئَتْ لك البقعة، ولكن لم يسمع أصحابُها بها شيئاً!.. وكم ليلةٍ جَنَّت تلك البقعةَ ولم يظهر من تلك النار فيها شعلة!

ويقال: شتَّان بين شجرة وشجرة؛ شجرة آدم عندها ظهور محنتِه وفتنتِه، وشجرة موسى وعندها افتتاحُ نُبُوَّتِه ورسالتِه!.

---

(١) الآية (٢٨) لم ترد.

ويقال: لم يأتِ بالتفصيل نوعُ تلك الشجرة، ولا يُدْرَى ما الذي كانت تثمره، بل هي شجرة الوصلة؛ وثمرتها القربة، وأصلُها في أرض المحبة وفَرْعُها باسِقٌ في سماء الصفوة، وأوراقها الزلفة، وأزهارها تَنْفَتِقُ عن نسيم الرَّوْح والبهجة:

فلمَّا سمع[1] موسى تغيَّر عليه الحال؛ ففي القصة: أنه غُشِي عليه، وأرسل اللَّهُ إليه الملائكة لِيُرَوِّحوه بمرواح الأُنس، وهذا كان في ابتداء الأمر، والمبتدىء مرفوقٌ به. وفي المرة الأخرى خرَّ موسى صَعِقاً، وكان يفيق والملائكةُ تقول له: يا ابن الحَيْض. أمثلك مَنْ يسأل الرؤية؟!

وكذا الحديث والقصة؛ في البداية لُطفٌ وفي النهاية عُنفٌ، في الأولِ خَتْل وفي الآخرِ قَتْل، كما قيل:

فلمَّا دارت الصهباءُ[2] دعا بالنِّطع[3] والسيفِ
كذا مَنْ يشرب الراحَ[4] مع التِّنِّين[5] في الصيفِ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾.

يا موسى.. اخْلَعْ نعليكَ وألقِ عصاك، وأقِمْ عندنا هذه الليلة، فلقد تَعِبْتَ في الطريق ـ وذلك إن لم يكن في النقل والآثار فهو مما يليق بتلك الحال.

يا موسى.. كيف كُنتَ في الطريق؟ كيف صَعَّدْتَ وكيف صوَّبت وكيف شرَّقْتَ وكيف غَرَّبْتَ؟ ما كنتَ في الطريق وحدَك يا موسى! أحصَيْنا خُطَاكَ ـ فقد أحصينا كلَّ شيءٍ عَدَداً. يا موسى.. تعِبْتَ فاسترِحْ، وبعد ما جِئْتَ فلا تَبْرَحْ ـ كذلك العبدُ غداً إذا قطع المسافةَ في القيامةِ، وتبوَّأَ مَنْزِلَه من الجنة؛ فأقوامٌ إذا دخلوها رجعوا إلى منازلهم ثم يوم اللقاء يستحضرون، وآخرون يمضون من الطريق إلى بساط الزلفة، وكذا العبد أو الخادم إذا دَخَلَ بَلَدَ سلطانِه. يبتدىء أولاً بخدمة السُّدَّةِ العَلِيَّةِ ثم بعدها ينصرف إلى منزله. وكذلك اليوم أمرنا؛ إذا أصبحنا كلَّ يوم: ألا نشتغِلَ بشيءٍ حتى نَفْتَتِحَ النهارَ بالخطاب مع الحقِّ قبل أن نخاطِبَ المخلوق، نحضر بساط الخدمة ـ أي الصلاة ـ بل نحضر بساط الدنوِّ والقربة، قال تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩]: فالمُصَلِّي مُنَاجٍ رَبَّه. ولو عَلِمَ المُصَلِّي مَن يناجي ما التفت؛ أي لم يخرج عن صلاته ولم يلتفت يميناً ولا شمالاً في التسليم الذي هو التحليل.

---

(١) انظر حديث القشيري برسالته عن السماع ص٣٣٥، ٣٥٠.
(٢) الصهباء: من أسماء الخمر أو هي المعصورة من عنب أبيض.
(٣) النطع: بساط من جلد، كثيراً ما كان يقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل (ج) أنطاع ونطوع.
(٤) الراح: الخمر.
(٥) التنين: ضرب من الحيات العظيمة. و ـ (في الأساطير) حيوان أسطوري يجمع بين صفات الزواحف والطير، له مخالب أسد وجناحا نسر، وذنب أفعى، ويتخذ في بعض البلاد رمزاً قومياً.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾.

عندما انقلبت العصا حَيَّةً وَلَّى موسى مُدْبِراً ولم يعقب، وكان موضع ذلك أن يقول: حديثٌ أَوَّلُه تسليطُ ثعبان! مَنْ ذا يُطِيقُ أوَّلَه؟!.

فقيل له: لا تَخَفْ يا موسى؛ إن الذي يَقْدِرُ أنْ يَقْلِبَ العصا حيةً أن يَخْلُقَ لك منها السلامة: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾: ليس المقصودُ مِنْ هذا أنت، إنما أثبت هذا لأسلطَه على عدوِّك، فهذه معجزتُك إلى قومك، وآيتُك على عدوِّك.

ويقال: شتان بين نبيِّنا - ﷺ - وبين موسى عليه السلام؛ رجع من سماع الخطاب وأتى بثعبان سَلَّطَه على عدوِّه، ونبينا - ﷺ - رجع بعد ما أُسْرِيَ به إلى السماء، وأوحى إليه ما أوحى - لِيُوَافِيَ أُمَّتَه بالصلاة التي هي المناجاة، وقيل له: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فقال: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

قيل له: اسلُكْ يَدَكَ في جيبك، لأنَّ المدرعةَ التي كانت عليه لم يكن لها كُم. وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي على المرء للوصول إلى مراده ومقصوده أن يتشمَّر، وأن يجدَّ، وأن يُخْرِجَ يَدَه من كُمِّه. وإنه قال لموسى: أَدْخِلْ يَدَكَ في جيبك تخرج بيضاءَ، وألق عصاكَ نجعلْها ثعباناً، بلا ضَرْبِكَ بها، وبلا استعمالِك لها يا موسى: الأمرُ بِنَا لا بِكَ، وأنا لا أنت.

﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾: يا موسى، في وصف خضوعك تَجِدني، وبتبرِّيك عن حَوْلِكَ وقُوَّتِك تَصِل إليَّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾.

تَعلَّلَ بكلِّ وجهٍ رَجَاءَ أن يُعَافَى من مشقةِ التبليغ ومقاساةِ البلاءِ؛ لأنه عَلِمَ أنَّ النبوةَ فيها مَشَقَّةٌ، فلم يَجِدْ الرُّخصةَ والإعفاءَ مِمَّا كُلِّفَ، وأجاب سُؤْلَه في أخيه حيث سأله أنْ يجعلَ له رِدْءاً، وضمن لهما النصرة.

---

(١) أخرجه الطبراني في (المعجم الكبير ١١/٤٦)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/٥٦)، وصاحب (الأذكار النووية ٢٦).

ثم إنهما لَمَّا أتَيَا فرعونَ قابلهما بالتكذيب والجحد، ورماهما بالخطأ والكذب والسحر، وجاوباه بالحجة، ودَعَواه إلى سَوَاءِ المحجَّة، فأبَى إلَّا الجَحْدَ[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

ادَّعى الانفرادَ بالإلهية فزاد في ضلالِه على عَبَدَةِ الأصنام الذين جعلوا أصنامَهم شركاءَ، ثم قال لهامان: «**ابْنِ لي صَرْحاً لعلّي أطلع إلى إله موسى**» وكان هذا من زيادة ضلاله، حيث تَوَهَّم أن المعبودَ من جهة فوق، وأنه يمكن الوصول إليه. ولعمري لو كان في جهةٍ لأمكن تقدير الوصول إليه وتجويزه!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أَبَى إلا أنْ يدومَ جحودُه، وعُنوده، فأغرقه اللَّهُ في البحرِ، كما أغرق قلبَه في بحر الكُفْر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾.

لا لِشَرَفِهم جعلهم أئمة ولكن لسبب تَلَفِهم قَدَّمَهم في الخزي والهوان على كلِّ أمة، ولكن لم يُرْشِدُوا إلَّا إلى الضلال. ولم يَدُلُّوا الخَلْقَ إلّا على المُحَال، وما حصلوا إلا على سوءِ الحال، وما ذاقوا إلا خِزْيَ الوبال. أفاضوا على مُتَّبِعِهم من ظلمات قلوبهم فافتضحوا في خِسَّةِ مطلوبهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾.

كانوا في الدنيا مُبْعَدين عن معرفته، وفي الآخرة مُبْعَدين عن مغفرته، فانقلبوا من طَرْدٍ إلى طَرْدٍ، ومن هَجْرٍ إلى بُعْدٍ، ومن فراقٍ إلى احتراقٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

إنما تطيب المنازلُ إذا خَلَتْ من الأجانب، وأطيبُ المساكنِ ما كانت زينتُها بِفَقْدِ الرُّقباءِ وغَيْبَتِهم، فلمّا أهلك اللَّهُ فرعونَ وقومَه، وأورث بني إسرائيلَ أموالَهم وديارَهم، ومحا عن جميعِها آثارَهم ـ طابَ لهم العيشُ وطَلَعَتْ عليهم شموسُ السعادة.

---

(١) الآيات من (٣٤ حتى ٣٧) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾.

لم تكن حاضراً فتعرف ذلك مشاهدةً، ولكنهم رأوا أنَّ إخبارَك عنهم بحيث لا يكذبك كتابُهم. وبالضرورة عرفوا حالَكَ، وكيف أنك لم تَعْلَمْ هذا من أحدٍ، ولا قَرَأْته من كتاب، لأنَكَ أُمِّيٌّ لا تُحْسِنُ القراءة، وإذاً فليس إخبارُكَ إلا بتعريفنا إياك، وإطلاعنا لَكَ على ذلك.

ويقال: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾: وما كنت بجانب الطور إذ نادينا موسى، وكَلَّمْنَاه، وخاطبناه في بابِكَ وبابِ أُمَّتِكَ، ولم تقدح غَيْبَتُكم في الحال، وكَوْني لكم خيرٌ من كَوْنِكم لكم.

ويقال: لمَّا خَاطَبَ موسى وكَلَّمَه سأله موسى: إنِّي أرى في التوراة أُمَّةً صفتهم كذا وكذا.. مَنْ هم؟ وسأل عن أوصاف كثيرة، وعن الجميع كان يُجابُ بأنَّها أمة أحمد، فاشتاق موسى إلى لقائنا، فقال له: إنه ليس اليومَ وقتُ ظهورِهم، فإنْ شِئتَ أسمعتُكَ كلامَهم، فأراد أن يسمعَ كلامنا، فنادانا وقال: يا أمةَ أحمد..، فأجاب الكلُّ من أصلاب آبائهم، فَسمِعَ موسى كلامَهم ولم يُدْرِكْهُم. والغنيُّ إذا سأله فقيرٌ وأجابه لا يرضى بأن يردَّه من غير إحسان إليه. (وفي رواية عن ابن عباس)[1] أن الله قال: «يا أمة محمد قد أجبتكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني، ورحمتكم قبل أن تسترحموني».

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا[2] فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾.

ومما كان موسى عليه السلام يتلوه عليهم من الآيات ذِكْرُ نبيِّنا ﷺ بالجميل. وذكر أمته بحسن الثناء عليهم، فنحن في الوجود مُحْدَثٌ مخلوقٌ وفي ذكره متعلق لا باستفتاح. ولم نكن في العَدَمِ أعياناً، ولا أشياء، ولكنا كنا في متعلق القدرة ومتناول العلم والمشيئة. وذكرنا في الخطاب الأزليّ والكلام الصمديّ والقول الأبديّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

ما طلبه موسى لأمته جعلناه لأمتك، وكما نادينا موسى ـ وهو في الوجود والظهور ـ ناديناكم وأنتم في كتم العَدَمِ، أنشدوا:

كُنْ لي كما كُنْتَ   في حالِ لم أكُنِ

(١) انظر ترجمته في الأعلام ٤/ ٩٥، وفي الإصابة ت٤٧٧٢، وفي حلية ١/ ٣١٤ ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) ثاوياً: مقيماً ومستقراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾.

تمنوا في زمانِ الفترة أن يبعث اللَّهُ إليهم رسولاً ليهتدوا به، ووعدوا من أنفسِهم الإيمانَ والإجابة، فلمَّا أتاهم الرسولُ كذَّبوه، وقالوا: هلّا خُصَّ بمثل معجزات موسى في الظهور، وكان ذلك منهم خطأً، واقتراحاً في غير موضع الحاجة، وتَحكُّماً بعد إزاحة العِلَّةِ:

وكذا المملولُ إذا أراد قطيعةً ... مَلَّ الوصالَ وقال كان وكانا

ثم قال: أفلا تَذْكُرُون كيف كفروا بموسى وأخيه ورموهما بالسحر؟

وقال: إنْ ارتبتم أنَّ هذا الكتاب من عند الله فَأْتوا بكتابٍ مِثْلِه، واستعينوا بشركائكم. ومِنْ وقته إلى يومنا هذا لم يأتِ أحدٌ بسورة مِثْلِه، وإلى القيامة لا يأتون بكتابٍ مثله[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

أتبعنا رسولاً بعد رسول، وأردفنا كتاباً بعد كتاب، فما ازدادوا إلا كفراً وثبوراً[2]، وجحداً وعتواً. فلا إلى الحقّ رجعوا، ولا إلى الاستقامة جنحوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾.

مَنْ أكحلنا بصيرتهم بنور الهداية صَدَّقوا بمقتضى مساعدة العناية، ومَنْ أعميناه عن شهود التحقيق ولم تساعده لطائف التوفيق انتكس في غوايته، وانهمك في ضلالته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾.

إذا سمعوا دعوتنا قابلوها بالتصديق، وانقادوا بِحُسْنِ الاستسلام، فلا جَرَمَ يُؤْتَوْن أجرَهم مرتين بما صبروا على الأوامر وصبروا على المحارم في عاجلهم وآجالهم، مرةً في الآخرة وهي المثوبة وأخرى في الدنيا وهي لطائف القربة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

---

(١) الآيتان (٤٩، ٥٠) لم تردا.

(٢) الثبور: الهلاك والويل والخسران.

﴿اللَّغْوَ﴾: ما يُلْهِي عن الله. ويقال﴿اللَّغْوَ﴾ ما لا يوجِب وسيلةً عند الله، ويقال ما لا يكون بالحقِّ للحقِّ، ويقال هو ما صَدَرَ عن قلبٍ غافلٍ، ويقال هو ما يوجِب سماعُه السَّهو.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

الهدايةُ في الحقيقةِ إمالةُ القلبِ من الباطلِ إلى الحقِّ، وذلك من خصائص قدرة الحقِّ ـ سبحانه ـ وتطلق الهداية بمعنى الدعاء إلى الحق ـ توسُّعاً، وذلك جائزٌ بل واجبٌ في صفته ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

ويقال: لَكَ شَرَفُ النبوَّةِ، ومنزلةُ الرسالةِ، وجمالُ السفارةِ، والمقامُ المحمودُ، والحوض المورود، وأنت سيد ولد آدم.. ولكنك لا تهدي من أحببت؛ فخصائصُ الربوبيةِ لا تصلح لِمَنْ وَصْفُه البشرية.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قالوا نخاف الأعرابَ على أنفسنا إنْ صَدَّقْنَاكَ، وآمَنَّا بِكَ، لإجماعهم على خلافنا ولا طاقة لنا بهم فقال الله تعالى: «وكيف تخافونهم وترون اللَّهَ أظفركم على عدوِّكم، وحَكَّمْنا بتعظيم بيتكم، وجعلنا مكةَ تُجْبَى إليها ثمراتُ كل شيءٍ من أقطار الدنيا»؟

ويقال من قام بحقِّ الله ـ سبحانه ـ سَخَّر له الكونَ بجملته، ومَنْ اشتغل برعاية سِرِّه لله، وقام بحقِّ الله، واستفرغ أوقاته في عبادة الله مُكِّنَ من التصرُّف بهمته في مملكة الله؛ فالخَلْقَ مُسَخَّرٌ له، والوقتُ طَوعُ أمرِه، والحقُّ ـ سبحانه ـ متولٍ[1] أيامَه وأعماله يُحَقِّقُ ظنَّه، ولا يُضَيِّعُ حقَّه.

أمَّا الذي لا يطيعه فيهلك في أودية ضلاله، ويتيه في مفازات خِزْيِه، ويبوء بوِزْرِ هواه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾.

لم يعرفوا قَدْرَ نعمتهم، ولم يشكروا سلامة أحوالهم، وانتظامَ أمورهم، فهاموا في أودية الكفران على وجوهِهم، فَخَرُّوا في أدوية الصغار على أذقانهم، وأذاقهم اللَّهُ

(١) انظر حديث القشيري عن الولاية برسالته ص٢٥٩ ـ ٢٦٣.

من كاساتِ الهوان ما كسر خمارَ بَطَرِهم؛ فماكنهم منهم خالية، وسقوفُها عليهم خاوية، وغِربانُ الدمار فيها ناعية.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾: بالتكليف يأمرهم. ويأمر التكوين ـ على ما يريد ـ يقفهم. وهو ـ سبحانه ـ يبعث الرسلَ إنذاراً ويعمي السُّبَلَ عليهم اقتداراً؛ يُوَضِّحُ الحجةَ بحيث لا شبهة، ولكنه لا يهدي إلا مَنْ سَبَقَت له السعادة بحكم القسمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

الدنيا حلوة خَضِرَة، ولكنها في التحقيق مُرَّةٌ مَذِرَة[1]، فَبِشْرُها يُوهِمُ أنها صَفْوٌ ولكن مِن وراءِ صَفْوِها حَسْوٌ[2] ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾.

الدنيا سمومُ حَنْظَلِها تتلو طمومَ عَسَلِها، وتَلَفُ ما يحصل من شربها يغلب لُطْفَ ما يظهر من أربها، وليس من أُكْرِمَ بوجدان نعيم عقباه كَمَنْ مُنِيَ بالوقوع في جحيم دنياه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

إنما يكون ذلك على جهة التهويل وإبطال كيد أهل التضليل.. وإلّا فَمِنْ أين لهم الجوابَ فضلاً عن الصواب! والذي يسألهُم هو الذي على ما شاء جَعَلَهم؛ فما وَرَدَ فِعْلٌ إلا على فِعْلِهِ، وما صَدَرَ ما صَدَرَ إلا من أصْلِه. وإذْ تَبرّأَ بعضُهم من بعض بَيَّنَ أنه لم يكن للأصنام استحقاقُ العبودية ولا لأحدٍ من النفي والإثبات بالإيجاد والإحداثِ ذَرَّةَ أو منه شظيّة.. كلّا بل هو الواحد القهار[3].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

---

(١) مذرت البيضة: إذا غرقلت، فهي مذرة: فسدت، ومذرت نفسه ومعدته: خبثت وفسدت. (اللسان ٥/ ١٦٤ مادة: مذر).

(٢) يقال: يوم كحسو الطير: أي قصير، والعرب تقول: نمت نومة كحسو الطير إذا نام نوماً قليلاً. (اللسان ١٤/ ١٧٦ مادة: حسا).

(٣) الآيتان: (٦٣، ٦٤) لم تردا.

يسألهم سؤالَ هيبةٍ؛ فلا يَبْقى لهم تمييزٌ، ولا قوةُ عقلٍ، ولا مُكْنَةُ جوابٍ، قال جلَّ ذكره:

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾.

إذ استولت عليهم الحَيْرَةُ، واستمكن منهم الدهشُ؛ فلا نُطْقَ ولا عقلَ ولا تمييز ولا فهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

يختار ما يشاء ومَنْ يشاء من جملة ما يخلق. ومَنْ ليس إليه شيءٌ من الخَلْقِ.. فما له والاختيار؟!

الاختيارُ للحقِّ استحقاقُ عِزٍّ يوجِبُ أن يكون ذلك له، لأنَّه لو لم يُنَفِّذْ مشيئتَه واختيارَه لم يكن بوصف العِزِّ، فَمَنْ بَقِيَ عن مُرادِه لا يكون إلَّا ذليلاً؛ فالاختيارُ للحقِّ نعتُ عِزٍّ، والاختيارُ للخَلْقِ صفةُ نَقْصٍ ونعتُ بلاءٍ وقصور؛ فاختيارُ العَبْدِ غيرُ مُبَارَكٍ عليه لأنَّه صفةٌ هو غيرُ مُسْتَحِقٍّ لها، ومَنْ اتصف بما لا يليق به افتضح في نَفْسِه، قال قائلُهم:

ومعـالٍ إذا ادَّعـاهـا سـواه لَـزِمَـتْـه جِـنَـايـةُ الـسُّـرَّاقِ

والطينةُ إذا ادَّعَتْ ما هو صفة الحقِّ أظهرت رعونتَها، فما للإنسان والاختيار؟! وما للمملوكِ والمِلْك؟! وما للعبيدِ والتصدُّر في دَسْتِ[1] الملوك؟!

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

ولِمَ لا وقد قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]؟ فالعِلْمُ ـ الذي لا يَعْزُبُ عنه معلومٌ ـ نعتُ من لم يَزَلْ، والإبداع من العَدَمِ إلى الوجود ينفرَّدُ بالقدرة عليه لم يَزَلْ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: تَوَحَّدَ بِعِزِّ هيبته، وتَفَرَّدَ بجلال ربوبيته، لا شبيهَ يساويه، ولا نظيرَ يُضاهيه. ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ استحقاقاً على عَطِيَّتِه، وله الشكر استيجاباً على نعمته؛ ففي الدنيا المحمودُ اللَّهُ، وفي العقبى المشكورُ اللَّهُ؛ فالإحسان من اللَّهِ لأن السلطانَ

---

(١) الدست: دست الوزارة: منصبها.

للَّهِ، والنعمةُ من اللَّهِ لأنَّ الرحمةَ للَّهِ، والنصرةُ من اللَّهِ لأنَّ القدرةَ للَّهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾.

إن دامت ليالي الفترة فَمَنْ الذي يأتي بنهار التوبة غيرُ اللَّهِ؟

وإنْ دامت ليالي الطَّلَبِ فَمَنْ الذي يأتي بصُبْحِ الوجودِ غيرُ اللَّهِ؟

وإن دامت ليالي القبض فمن الذي يأتي بصبح البسطِ غيرُ اللَّهِ؟

وإن دام ليل الفراق فمن الذي يأتي بصبح الوصالِ غيرُ الله؟

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

إنْ دام في الوصلة نهارُكم فأيُّ سبيل للواشين إلى تنغيص سروركم؟

وإن دام نهارُ معاشِكم ووقتُ اشتغالكم بحظوظكم فَمَنْ إلهٌ غيرُ اللَّهِ يأتيكم بليلٍ تَسْكنُون فيه إلى الله إلا الله، وتستريحون من أشغالكم بالخلوة مع اللَّهِ إلا الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

الأوقات ظروفٌ لما يحصل فيها من الأفعال والأحوال؛ فالظروفُ من الزمان متجانسة، وإنما الاختلافُ راجعٌ إلى أعيان ما يحصل فيها؛ فليالي أهل الوصال ساداتُ الليالي، أهل الفراق أسوأ الليالي؛ فأهلُ القُرْبِ لياليهم قِصَارٌ وكذلك أيامُهم، وأربابُ الفراقِ لياليهم طوال وكذلك جميع أوقاتهم في ليلهم ونهارهم، يقول قائلهم:

والليالي إذا نأيتِ طوالٌ ... وأراها إذا دَنَوْتِ قِصار

وقال آخر:

والليلُ أطولُ وقتٍ حين أفقدها ... والليل أقصر وقتٍ حين ألقاها

وقال ثالث:

يطولُ اليومُ لا ألقاكِ فيه ... وحَوْلٌ نلتقي فيه - قصيرُ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

كلا.. لا حُجَّة لهم، ولا جوابَ يعذرهم، ولا شفيعَ يرحمهم، ولا ناصِرَ يُعينهم.

اشتهرت ضلالتهُم، واتضحت للكافة جهالتهُم؛ فدامَ عذابُ الأبد، وحاقَ بهم وبالُ السَّرْمَد.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

جاء في القصص أنه كان ابن عمِّ موسى، وكان من أعبد بني إسرائيل، وكان قد اعتزل الناسَ، وانفرد في صومعته[1] يتعبَّد، فتصوَّر له إبليسُ في صورة بَشَر، وأخذ في الظاهر يتعبَّدُ معه في صومعته حتى تعجَّب قارونُ من كثرة عبادته، فقال له يوماً: لسنا في شيء؛ عيونُنا على أيدي الناسِ حتى يدفعوا إلينا شيئاً هو ضرورتنا، ولا بُدَّ لنا من أَخْذِه، فقال له قارون: وكيف يجب أن نفعلَه؟

فقال له: أن ندخل في الأسبوع يوماً السوق، ونكتسب، وننفق ذلك القَدْرَ في الأسبوع، فأجابه إليه. فكانا يحضران السوق في الأسبوع يوماً، ثم قال له: لستُ أنا وأنت في شيء، فقال: وما الذي يجب أن نعمله؟

فقال له: نكتسب في الأسبوع يوماً لأنفسنا، ويوماً نكتسب ونتصدَّق به، فأجابه إليه. ثم قال له يوماً آخر: لسنا في شيء، فقال: وما ذاك؟

قال: إنْ مرضنا أو وقع لنا شغل لا نملك قوتَ يوم، فقال: وما نفعل؟

قال: نكتسب في الأسبوع ثلاثة أيام؛ يوماً للنفقة ويوماً للصدقة ويوماً للإدخار، فأجابه إليه.. فلمّا عَلِمَ أن حُبَّ الدنيا استمكن من قلبه وَدَّعَه، وقال:

إنِّي مُفارِقُكَ.. فَدُمْ على ما أنت عليه، فصار من أمره ومالِه ما صار، وحَمَلَه حُبُّ الدنيا على جَمْعِها، وَحَمَلَه جَمْعُها على حُبِّها، وحَمَلَه حُبُّها على البغي عليهم، وصارت كثرةُ مالِه سَبَبَ هلاكِه، وكم وُعِظَ بِتَرْكِ الفَرَحِ بوجود الدنيا، وبِتَرْكِ الاستمتاع بها! وكان لا يأبى إلَّا ضلالاً.

ويقال خَسَفَ اللَّهُ به الأرضَ بدعاءِ موسى عليه السلام، فقد كان موسى يقول:

يا أرضُ خُذِيه.. وبينما كانت الأرض تُخْسَفُ به كان يستعين بموسى بحقِّ القرابة، ولكن موسى كان يقول: يا أرضُ خُذِيه.

وفيما أوحى اللَّهُ إلى موسى: لقد ناداك بحقِّ القرابة وأنت تقول: يا أرض خذيه! وأنا أقول: يا عبدُ، نادِني فأنا أقرب منه إليك، ولكنه لم يَقُلْ.

وفي القصة أنه كان يُخْسَفُ به كل يوم بزيادة معلومة، فلمَّا حَبَسَ اللَّهُ يونسَ في بطن الحوتِ أَمَرَ الحوتَ أن يطوفَ به في البحار لئلا يضيقَ قلبُ يونس، حتى انتهى

---

(١) الصومعة: متعبد الناسك ومنار الراهب إذا كان محله مرتفعاً كأن يكون على جبل.

إلى قارون، فسأله قارونُ عن موسى وحاله، فأوحى الله إلى المَلَك:

لا تَزِدْ في خَسْفِه لحرمة أنه سأل عن ابن عمه، ووَصَلَ به رَحِمَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

وَعْظُ مَنْ حُرِمَ القبولَ كمثل البَذْرِ في الأرض السَّبِخَة؛ ولذا لم ينفَعْه نُصْحُهم إياه، ولم يكن للقبول في مساغ.

﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾: ليس النصيبُ من الدنيا جَمْعَها ولا مَنْعَها، إنما النصيبُ منها ما تكون فيه فائدة بحيث لا يُعْقِبُ ندماً، ولا يُوجِبُ في الآخرةِ عقوبةً.

ويقال النصيبُ من الدنيا ما يَحْمِلُ على طاعته بالنَّفْس، وعلى معرفته بالقلب، وعلى ذِكْرِه باللسان، وعلى مشاهدته بالسِّرِّ.

﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾: إنما كان يكون منه حسنة لو آمن بالله؛ لأنَّ الكافرَ لا حَسَنَة له. والآية تدل على أن لله على الكافر نِعَماً دنيوية.

والإحسانُ الذي أُمِرَ به إنفاقُ النعمةِ في وجوهِ الطاعةِ والخدمة، ومقابلتُه بالشكران لا بالكفران.

ويقال الإحسانُ رؤيةُ الفضلِ دون تَوَهُّم الاستحقاق.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾.

ما لاحَظَ أحدٌ نَفْسَه إلا هَلَكَ بإعجابه.

ويقال السُّمُّ القاتلُ، والذي يطفىء السراجَ المضيءَ النظرُ إلى النَّفْسِ بعين الإثباتِ، وتَوَهُّمُ أَنَّ منك شيئاً من النفي أو الإثبات.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

تمنَّى مَنْ رآه مِمَّن كان في حُبِّ الدنيا ساواه أَنْ يُعْطِيَه اللَّهُ مِثْلَ ما أعطاه.

أَمَّا مَنْ كان صاحياً عن خمار غفلته، مُتَيَقِّظاً بنور بصيرته فكان موقفُهم: ـ

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾.

وبعد أن كان ما كان، وخسفنا به وبداره الأرضَ قال هؤلاء[1]:

---

(١) الآية (٨١) لم ترد.

﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

مَنَّ اللَّهُ علينا فلم نَنْجَرِفْ في نَهْجِه، ولم ننخرط في سِلْكِه، وإذاً لَوَقَعَ بنا الهلاكِ.

أَمَّا المُتَمَنُّون مكانَه فقد نَدِمُوا، وأمّا الراضون بقسمته ـ سبحانه ـ فقد سَلِمُوا؛ سَلِمُوا في العاجل إلى أَنْ تَظْهرَ سعادتُهم في الآجل.

قوله جلّ ذكره: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

قيل «العلو في الدنيا» أَنْ تَتَوهَّمَ أَنَّ على البسيطة أحداً هو شرٌّ منك.

و «الفساد» أن تتحرك لحظِّ نَفْسِك ونصيبك ولو بِنَفَسٍ أو خطوةٍ.. وهذا للأكابر، فأمَّا للأصاغر والعوام فتلك الدار الآخرة ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا﴾ كعُلُوِّ فرعون ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ كفَسَادِ قارون.

ويقال الزهاد لا يريدون في الأرض عُلُوّاً، والعارفون لا يريدون في الآخرة والجنة عُلُوّاً.

ويقال ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ للعُبَّادِ والزُّهاد، وهذه الرحمة الحاضرة لأرباب الافتقار والانكسار.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

ثواب الحسنةِ في التضعيف، وأمرُ السيئةِ بناؤه على التخفيف.

والمؤمنُ ـ وإن كان صاحبَ كبائر ـ فسيئاتُه تَقْصُرُ في جَنْبِ حسناتِه التي هي إيمانُه ومعرفتُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾: في الظاهر إلى مكة.. وكان يقول كثيراً: «الوطن الوطن»، فَحَقَّقَ اللَّهُ سُؤْلَه. وأَمَّا في السِّرِّ والإشارة فإنه ﴿فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي يَسَّرَ لك قراءةَ القرآن، والمَعَادُ هو الوصفُ الذي كانت عليه روحُك قبل حلول شَجِّك من مُلَادغات القُرْبِ ومطالعات الحقِّ.

وقيل الذي ينصبك بأوصاف التفرقة بالتبليغ وبسط الشريعة لرادُّك إلى عين الجمع بالتحقُّق بالحقِّ والفناء عن الخَلْق

ويقال إن الذي أقامك بشواهد العبودية فيما أثبتك به لرادُك إلى الفناء عنك بمحقك في وجود الحقيقة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾.

ما كنت تؤمِّل مَحَلَّ النبوة وشرف الرسالة وتأهيل مخاطبتنا إليك، ولا ما أظهرنا عليكَ من أحوال الوجد وحقائق التوحيد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

لا يصدنَّك بعد إذ أنزلت إليك الآيات ما وجدته بحكم الذَّوْبِ والشهود، والإدراك والوجود. لا تتداخَلَنَّكَ تُهْمةُ التجويز وسؤالاتُ العلماء بما يَدَّعُون من أحكام العقول؛ فَمَا يُدْرَكُ في شعاع الشمس لا يَحْكُمُ ببطلانه خفاؤُه في نور السراج.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

كلُّ عملٍ باطلٌ إلا ما كان لوجه الله وللتقرب به إلى الله.

كلُّ حيٍّ ميت إلا هو، قال تعالى: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ﴾ [النساء: ١٧٦]: أي مات؛ فكلُّ شيءٍ مُعَدٌّ لجواز الهلاك والعَدَم، ولا يبقى إلا ﴿وَجْهَهُۥ﴾: ووَجْهُهُ صفةٌ من صفاته لا تستقل إلا به فإذا بقي وجهُه فَمِنْ شرط بقاء وجهه بقاءُ ذاته؛ لأن الصفة لا تقوم إلا بموجود، ولا يكون هو باقياً إلا بوجود أوصافه الذاتية الواجبة له؛ ففي بقاء وجهه بقاء ذاته وبقاء صفاته.

وفائدة تخصيص الوجه بالذكر هنا أنه لا يُعْرَفُ وجوبُ وجهه إلا بالخبر والنقل دون العقل؛ فخَصَّ الوجه بالذكر لأنَّ في بقاء الوجه بقاء الحقِّ بصفاته.

السورة التي يذكر فيها العنكبوت

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

بسم الله اسم يوجب حُظوة العابدين وَعْداً، وسماعُه يوجب سلوة الواجدين نقداً اسم مَنْ ذَكَرَهُ وَصَلَ إلى مثوبته في آجله، ومَنْ سمعه حظي بقربته في عاجله.

قوله جلّ ذكره: ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾.

«الألف» إشارة إلى تَفَرُّده عن كل غير بوجه الغِنى، وباحتياج كل شيءٍ إليه؛ كالألف تتصل بها كل الحروف ولكنها لا تتصل بحرفٍ.

«واللام» تشير إلى معنى أنه ما من حرفٍ إلا وفي آخره صورة تعويج ما، واللام أقرب الحروف شبهاً بالألف ـ فهي منتصبة القامة مثلها، والفرق بينهما أن الألف لا يتصل بها شيء ولكن اللام تتصل بغيرها ـ فلا جَرَمَ لا يكون في الحروف حرف واحد متكون من حرفين إلا اللام والألف ويسمى لام ألف ويكتب على شكل الاقتناع مثل صورة لام.

أمّا «الميم» فالإشارة فيه إلى الحرف «مِنْ»؛ فَمِنَ الربِّ الخَلْقُ، ومِنَ العبدِ خدمةُ الحق، ومن الربِّ الطَّوْلُ والفضلُ.

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾ بمجرد الدعوى في الإيمان دون المطالبة بالبلوى، وهذا لا يكون، فقيمة كلِّ أحدٍ ببلواه، فَمَنْ زاد قَدْرُ معناه زاد قدر بلواه؛ فعلى النفوس بلاءٌ وهو المطالبة عليها بإخراجها عن أوطان الكسل وتصريفها في أحسن العمل. وعلى القلوب بلاءٌ وهو مطالبتُها بالطلب والفكر الصادق بتطلُّع البرهان على التوحيد والتحقق بالعلم. وعلى الأرواح بلاءٌ وهو التجرُّدُ عن محبة كلِّ أحدٍ والتفرُّد عن كل سبب، والتباعُد عن كل المساكنةِ لشيءٍ من المخلوقات. وعلى الأسرار بلاءٌ وهو الاعتكاف بمشاهد الكشف بالصبر على آثار التجلِّي إلى أن تصير مُسْتَهْلَكاً فيه.

ويقال فتنة العوام في أيام النظر والاستدلال، وفتنة الخواص في حفظ آداب الوصول في أوان المشاهدات. وأشدُّ الفتنِ حفظُ وجود التوحيد لئلا يجري عليك مَكْرٌ في أوقات غَلَبَاتِ شاهد الحقّ فيظن أنه الحق، ولا يدري أنَّه من الحقّ، وأنَّه لا يُقال إِنَّه الحقُّ ـ وعزيزٌ مَنْ يهتدي إلى ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

لم يُخْلِهِم من البلاء والمِحَن لِيُظْهِرِ صبرَهم في البلاءِ أو ضدَّه من الضَجَرِ، وشكرهم في الرخاء أو ضدة من الكفر والبَطَرِ. وهم في البلاءِ ضروب: فمنهم مَنْ يصبر في حال البلاء، ويشكر في حال النَّعماء... وهذه صفة الصادقين. ومنهم مَنْ يضجُّ ولا يصبر في البلاء، ولا يشكر في النعماء.. فهو من الكاذبين. ومنهم مَنْ يؤثِر في حال الرخاء ألّا يستمتعَ بالعطاء، ويستروح إلى البلاء؛ فَيَسْتَعْذِبَ مقاساةَ الضُّرِّ والعناء.. وهذا أَجَلُّهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

يرتكبون المخالفاتِ ثم يحكمون لأنفسهم بالنجاة.. ساءَ حُكْمُهم! فمتى ينجو منَ العذابِ مَنْ ألقى جلبابَ التُّقى؟!

ويقال توهموا أنه لا حَشْرَ ولا نَشْرَ، ولا محاسبة ولا مطالبة.

ويقال اغتروا بإمهالنا اليومَ، وتَوَهَّموا أنهم مِنَّا قد أفلتوا، وظنوا أنهم قد أَمِنُوا.

ويقال ظنوا أنهم باجتراحهم السيئاتِ أَنْ جرى التقديرُ لهم بالسعادة، وأنَّ ذلك يؤخر حُكْمَنا.. كلا، فلا يشقى مَنْ جَرَتْ قسمتُنا له بالسعادة، وهيهات أن يتحول مَنْ سبق له الحُكْمُ بالشقاوة!.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَاتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

مَنْ خاف عذابَه يوم الحساب فَسَيلْقى يومَ الحَشْرِ الأمانَ الموعودَ مِنَّا لأهل الخوف اليومَ. ومَنْ أَمَّلَ الثوابَ يومَ البعثِ فسوف يرى ثوابَ ما أسلفه من العمل. ومَنْ زَجَّى عُمْرَه في رجاء لقائنا فسوف نُبيح له النَّظَرَ إلينا، وسوف يتخلص من الغيبة والفرقة.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأنين المشتاقين، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحنين المحبين الوالهين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

مَنْ أَحْسَنَ فنجاة نفسه طلبها، وسعادة حالة حَصَّلَها. ومن أساء فعقوبة بنفسه جَلَبَها، وشقاوة جَدِّه اكتسبها.

ويقال ثوابُ المطيعين إليهم مصروفٌ، وعذابُ العاصين عليهم موقوفٌ.. والحقُّ عزيزٌ لا يلحقه بالوفاق زَيْن، ولا يَمَسُّه من الشِّقاقِ شَيْنٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

مَنْ رَفَعَ إلينا خطوة نال مِنَّا خطوة، ومَنْ تَرَكَ فينا شهوةً وَجَدَ مِنَّا صفوة، فنصيبهم من الخيرات موفور، وعملهم في الزلَّات مغفور. بذلك أجرينا سُنَّتنا، وهو متناول حُكْمِنا وقضيتنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾.

أَمَرَ اللَّهُ العبادَ برعاية حقِّ الوالدين تنبيهاً على عظم حق التربية. وإذا كانت تربيةُ الوالدين ـ وهي إنْ حَسُنَتْ ـ فإلى حدٍّ يوجِبُ رعايتهما فما الظنُّ برعاية حق الله تعالى، والإحسانِ العميم بالعبد والامتنان القديم الذي خصَّه به مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ؟!.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

إنْ جاهداك على أن تُشرِكَ بالله فإياك أَنْ تطيعَهما، ولكن رُدَّ بِلُطْفٍ، وخالِفْ برفقٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

أي لنلحقنهم بالذين أصلحوا من قبلهم، فإن المعهود من سُنَّتِنا إلحاق الشكلِ بشكله، وإجراء المِثْلِ على حُكْم مِثْلِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾.

المحنُ تُظْهِرُ جواهرَ الرجال، وهي تَدُلُّ على قِيمَهِم وأقدارهم؛ فَقَدْرُ كلِّ أحد وقيمته يَظْهَرُ عند محنته؛ فَمَنْ كانت محنتُه من فوات الدنيا ونقصان نصيبه منها؛ أو كانت محنته بموت قريبٍ من الناس، أو فَقْد حبيبٍ من الخلْقِ فحقيرٌ قَدْرُه، وكثيرٌ في الناس مثْلُه. ومَنْ كانت محنته في الله ولله فعزيزٌ قَدْرُه، وقليلٌ مَنْ كان مثله، فهم في العدد قليلٌ ولكن في القَدْرِ والخَطَرِ جليلٌ: وبقدر الوقوف في البلاءِ تظهر جواهرُ الرجال، وتصفو عن الخَبَثِ نفوسُهم.

والمؤمن مَنْ يكفُّ الأذى، ويتحمل من الخَلْقِ الأذى، ويتشرب ولا يترشح بغير شكوى ولا إظهار؛ كالأرضِ يُلْقَى عليها كلُّ خبيث فتُنْبِتُ كلَّ خضرة وكل نزهة[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾.

إذا اشتبكت دموعٌ في خدود ... تَبَيَّنَ مَنْ بكى ممن تباكى

---

(١) القشيري مما استفاد من قول الجنيد: الصوفي كالأرض، يُطرح عليها كل قبيح، ولا يخرج منها إلا كل مليح، وقال أيضاً: إنه كالأرض يطؤها البر والفاجر، وكالسحاب يُظل كل شيء، وكالقطر يسقي كل شيء. (الرسالة القشيرية ص٢٨١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

ضمنوا بما لم يفوا به، وأخلفوا فيما وَعَدُوا فما حملوا من خطاياهم عنهم شيئاً، بل زادوا على حَمْل نفوسهم؛ فاحتقبوا وِزْرَ ما عَملوا، وطولبوا بوزْر ما به أَمَرُوا، فضاعَفَ عليهم العقوبة، ولم يصل أحدٌ من جهتهم إلى راحة، وما مواعيدهم للمسلمين إلا مواعيد عرقوب[١] أخاه بيثرب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

وسيلحق بهؤلاء أصحاب الدعاوى والمتَشبِّهون بأهل الحقائق:

مَنْ تحلَّى بغير ما هو فيه فَضَحَ الامتحانُ ما يَدَّعيه

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].. وهيهات هيهات!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ فَأَنجَيْنَٰهُ...﴾ الآية.

ما زادهم طولُ مقامه فيهم إلا شَكا في أمره، وجهلا بحاله، ومُرْية في صدقه، ولم يزدد نوح ـ عليه السلام ـ لهم إلّا نُصحاً، وفي الله إلا صبراً. ولقد عرَّفه اللَّهُ أنه لن يؤمِنَ منهم إلا الشِّرْذِمة[٢] اليسيرةُ الذين كانوا قد آمنوا، وأَمَرَهُ باتخاذ السفينة، وأغرق الكفار ولم يغادر منهم أحداً، وَصَدَقَ وَعْدَه، ونَصَرَ عَبْدَه.. فلا تبديلَ لِسُنَّتِه في نصرة دينه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

كَرَّرَ ذِكْرَ إبراهيم في هذا الموضع، وكيف أقام على قومه الحُجَّة، وأرشدهم إلى

(١) عرقوب: اسم رجل من العمالقة؛ قيل: هو عرقوب بن معبد، كان أكذب أهل زمانه، ضربت به العرب المثل في الخُلف، فقالوا: مواعيد عرقوب، وذلك أنه أتاه أخ له يسأله شيئاً فقال له عرقوب: إذا أطلعت هذه النخلة، فلك طلعها، فلما أطلعت أتاه للعدة، فقال له: دعها حتى تصير بلحاً، فلما أبلحت قال: دعها حتى تصير زهواً، فلما أبسرت قال: دعها حتى تصير رطباً، فلما أرطبت قال: دعها حتى تصير تمراً، فلما أتمرت عمد إليها عرقوب من الليل فجدّها، ولم يُعط أخاه منها شيئاً، فصارت مثلاً في إخلاف الوعد. (لسان العرب ١/ ٥٩٥ مادة: عرقب).

(٢) الشرذمة: من الناس: الجماعة القليلة.

سَوَاءِ المحجة، ولكنهم أصروا على ما جحدوا، وتعصبوا لِمَا من الأصنام عبدوا، وكادوا لإبراهيم كيداً. . ولكن انقلب ذلك عليهم من الله مكراً بهم واستدراجاً. ولم يَنجَعْ فيهم نُصْحُه، ولا وَجَد منهم مساغاً وَعْظُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

لا يُدْرَى أيهما أقبح. . هل أعمالكم في عبادة هذه الجمادات أم أقوالكم ـ فيما تزعمون كذباً ـ عن هذه الجمادات؟ وهي لا تملك لكم نفعاً ولا تدفع عنكم ضراً، ولا تملك لكم خيراً ولا شراً، ولا تقدر أن تصيبكم بهذا أو ذاك.

وبيَّنَ أنهم في هذا لم يكونوا خالين عن ملاحظة الحظوظ وطلب الأرزاق(١) فقال: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ لتَصِلوا إلى خير الداريْن.

وابتغاءُ الرزق من الله إدامةُ الصلاة؛ فإن الصلاةَ استفتاحُ بابِ الرزق، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ﴾ [طه: ١٣٢].

ويقال ابتغاء الرزق بشهود موضع الفاقة فعند ذلك تتوجه الرغبة إلى الله تعالى في استجلاب الرزق.

وفي الآية تقديمُ الرزق على الأمر بالعبادة؛ لأنه لا يُمْكِنه القيام بالعبادة إلا بعد كفاية الأمر؛ فبالفوة يمكنه أداء العبادة، وبالرزق يجد القوة، قالوا:

إذا المرءُ لم يطلب معاشاً لنفسه ... فمكروهَ ما يلقى يكون جزاؤه

﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ﴾: حيث كفاكم أمر الرزق حتى تفرغتم لعبادته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

وبالُ التكذيب عائدٌ على المُكَذِّب، وليس على الرسول ـ بعد تبليغه الرسالة بحيث لا يكون فيه تقصير كي يكون مُبيِّناً ـ شيءٌ آخر. وإلا يكون قد خرج عن عهدة الإلزام.

وفيما حلَّ بالمكذِّبين من العقوبة ما ينبغي أن يكون عِبْرَةً لِمَنْ بعدهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

(١) انظر حديث القشيري عن العبودية برسالته ص١٩٧، ٢٠١.

الذي دَاخَلَهم فيه الشَّكُّ كان بعث الخَلْق، فاحتجَّ عليهم بما أراهم من إعادة فصول السَّنَةِ بعد تقضِّيها على الوجه الذي كان في العام الماضي. وبَيَّنَ أن جَمْعَ أجزاءِ المكلَّفين بعد انقضاص البِنية كإعادة فصول السنة؛ فكما أن ذلك سائغٌ في قدرته غيرُ مُستَنكَرٍ فكذلك بعثُ الخَلْق.

وكما في فصول السنة تتكرر أحوالُ العِبادة في الأحوال العامة المشتركة بين الكافة، وفي خواص أحوال المؤمنين من استيلاء شهوات النفوس، ثم زوالها، إلى موالاة الطاعات، ثم حصول الفترة، والعود إلى مثل الحالة الأولى، ثم بعد ذلك الانتباه بالتوبة.. كذلك تتكرر عليهم الأحوال.

وأربابُ القلوبِ تتعاقب أحوالُهم في القبض والبسط ثم في الهيبة والأُنس، ثم في التجلي والسَّتْر، ثم في البقاء والفناء، ثم في السُّكْر والصحو.. وأمثال هذا كثير.

وفي هذا المعنى قوله:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وفي معنى تكرير الأحوال ما أنشدوا:

كلُّ نَهرٍ فيه ماءٌ قد جَرَى ... فإليه الماءُ يوماً سيعود

قوله جلّ ذكره: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾.

أجناسُ ما يعذِّبُ به عبادَه وأنواعُ ما يرحم به عباده.. لا نهاية لها ولا حَصْر؛ فَمِنْ ذلك أنه يعذِّب من يشاء بالخذلان، ويرحم من يشاء بالإيمان. يعذِّب من يشاء بالجحود والعنود، ويرحم من يشاء بالتوحيد والوجود. يعذب من يشاء بالحِرْصِ ويرحم من يشاء بالقناعة. يعذِّب من يشاء بتفرقة الهمِّ ويرحم من يشاء بجَمْعِ الهِمَّة. يعذب من يشاء بإلقائه في ظلمة التدبير، ويرحم من يشاء بإشهاده جريان التقدير. يعذب من يشاء بالاختيار من نَفْسِه، ويرحم من يشاء برضاه بحُكْم ربِّه. يعذب من يشاء بإعراضه عنه، ويرحم من يشاء بإقباله عليه. يعذب من يشاء بأن يَكِلَه ونَفْسَه، ويرحم من يشاء بأن يقوم بحُسْنِ تولِّيه. يعذب من يشاء بحبِّ الدنيا ويمنعها عنه ويرحم من يشاء بتزهيده فيها وبَسْطِها عليه. يعذب من يشاء بأن يثبته في أوطان العادة، ويرحم من يشاء بأن يقيمه بأداء العبادة... وأمثال هذا كثير.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

نُقَلِّب الجملةَ في القبضة، ونُجْري عليهم أحكامَ التقدير: جحدوا أم وَحَّدوا، أقبلوا أم أعرضوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

تعجلت عقوبتهم بأنْ يئسوا من رحمته... ولا عقوبةَ أشدُّ من هذا.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

لمَّا عجزوا عن جوابه ولم يساعدهم التوفيق بالإجابة أخذوا في معارضته بالتهديد والوعيد، والسفاهة والتوبيخ، والله تعالى صرف عنه كَيْدَهم، وكفاه مَكْرَهم، وأفلج عليهم حُجَّته[1]، وأظهر للكافة عجزَهم، وأخبر عما يلحقهم في مآلهم من استحقاق اللَّعْنِ والطردِ، وفنون الهوان والخزْي[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

لا تَصِحُّ الهجرةُ إلى الله إلّا بالتبرّي - بالكمالِ - بالقلبِ عن غير الله. والهجرةُ بالنَّفْسِ يسيرةٌ بالإضافة إلى الهجرة بالقلب - وهي هجرة الخواص؛ وهي الخروج عن أوطان التفرقة إلى ساحات الجَمْعِ. والجمعُ بين التعريجِ في أوطان التفرقة والكوْنِ في مشاهد الجَمْعِ مُتنافٍ[3].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

لمَّا لم يُجِبْ قومُه، وبذل لهم النصح، ولم يدَّخر عنهم شيئاً من الشفقة - حقَّقَ اللَّهُ مرادَه في نَسْلِه، فوهب له أولادَه، وبارك فيهم، وجعل في ذريته الكتابَ، والنبوة، واستخلصهم للخيرات حتى صلحت أعمالُهم للقبول، وأحوالهم للإقبال عليها، ونفوسُهم للقيام بعبادته، وأسرارُهم لمشاهدته، وقلوبهم لمعرفته.

﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ للدنوّ والزلفة والتخصيص بالقربة.

---

(١) أفلج الله حجته: أظهرها وأثبتها. (٢) الآية (٢٥) لم ترد.

(٣) قال القشيري برسالته عند حديثه عن الجمع والفرق: كان الأستاذ الدقاق يقول: الفرق ما نسب إليك والجمع ما سُلب عنك، ومعناه: أن ما يكون كسباً للعبد من إقامة العبودية وما يليق بأحوال البشرية فهو فرق، وما يكون من قبل الحق من إبداء معان وإسداء لطف وإحسان فهو جمع، هذا أدنى أحوالهم في الجمع والفرق، لأنه من شهود الأفعال، فمن أشهده الحق سبحانه أفعاله من طاعاته ومخالفاته فهو عبد يوصف بالتفرقة، ومن أشهده الحق سبحانه ما يوليه من أفعال نفسه سبحانه فهو عبد بشاهد الجمع، فإثبات الخلق من باب التفرقة، وإثبات الحق من نعت الجمع. (الرسالة القشيرية ص٦٤، ٦٥).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

لامَهُم على خصلتهم الشنعاء، وما كانوا يتعاطونه على الله من الاجتراء، وما يُضَيِّعُونه من المعروف ويأتون من المنكر الذي جملته تخليته الفُسَّاق مع فِسقهم، وترك القبض على أيديهم، وقلة الاحتشام من اطّلاع الناس على قبائح أعمالهم. ومن ذلك قلة احترام الشيوخ والأكابر، ومنها التسويف في التوبة، ومنها التفاخر بالزلّة.

فما كان جوابُهم إلا استعجالَ العقوبة، فحلَّ بهم من ذلك ما أهلكهم وأهلك من شاركهم[(١)].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾.

التبس على إبراهيمَ أمرُهم فظَنَّهم أضيافاً؛ فتكلَّفَ لهم تقديم العجل الحنيذ[(٢)] جرياً على سُنَّتِهِ في إكرام الضيف. فلما أخبروه مقصودَهم من إهلاك قوم لوط تكلَّم من باب لوط... إلى أن قالوا: إنَّا مُنَجُّوه. وكان ذلك دليلاً على أن الله تعالى لو أراد إهلاك لوطٍ ـ وإنْ كان بريئاً ـ لم يكن ظلماً؛ إذ لو كان قبيحاً لما كان إبراهيم عليه السلام ـ مع وفرة عِلْمِه ـ يشكل عليه حتى كان يجادل عنه. بل لله أن يعذِّب مَنْ يعذِّب، ويُعَافِي مَنْ يُعَافِي[(٣)].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

لمَّا أن رآهم لوطٌ ضاق بهم قلبُه لأنه لم يعلم أنهم ملائكةٌ، فخاف عليهم من فساد قومه: فكان ضِيقُ قلبِه لأَجْلِ الله ـ سبحانه، فأخبروه بأنهم ملائكة، وأنَّ قومه لن يَصِلُوا إليهم، فعند ذلك سَكَنَ قلبُه، وزال ضيقُ صَدْرِه.

ويقال أقربُ ما يكون العبد في البلاءِ من الفرج إذا اشتدَّ عليه البلاءُ؛ فعند ذلك يكون زوال البلاء، لأنه يصير مُضْطَراً، واللَّهُ سبحانه وَعَدَ المضطرين وشيك الإجابة. كذلك كان لوط في تلك الليلة، فقد ضاق بهم ذَرْعاً ثم لم يلبث أَنْ وَجَدَ الخلاصَ من ضيقه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

---

(١) الآيتان (٢٩، ٣٠) لم تردا.

(٢) العجل الحنيذ: المشوي، وقيل: هو الذي يقطر ماؤه وقد شوي. (اللسان ٣/ ٤٨٤: حنذ).

(٣) الآية (٣٢) لم ترد.

فَمَنْ أراد الاعتبارَ فله في قصتها عِبْرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا...﴾ الآيات.

ذَكَر قصةَ شعيبٍ وقصة عادٍ وثمود وقصة فرعون، وقصة قارون.. وكلهم نَسَجَ بعضُهم على مِنْوال بعضٍ، وسلك مسلكَهم، ولم يَقْبَلوا النصحَ، ولم يُبَالوا بمخالفة رُسلِهم، ثم إن الله تعالى أهلكهم بأجمعهم، إمضاءً لِسُنّتِه في نصرة الضعفاء وقهر الظالمين.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾.

العنكبوت يتخذ لنفسه بيتاً، ولكن كلما زاد نسجاً في بيته ازداد بُعْداً في الخروج منه؛ فهو يبني ولكن على نفسه يبني.. كذلك الكافر يسعى ولكن على نفسه يجني.

وبيتُ العنكبوتِ أكثره في الزوايا من الجدران، كذلك الكافر أمره على التَّقِيّةِ والكتمان، وأمّا المؤمن فظاهِرُ المعاملةِ، لا ستر ولا يُدْخِمس[1].

وبيتُ العنكبوت أوهنُ البيوت لأنه بلا أساسٍ ولا جدران ولا سقف ولا يمسك على أدْوَن دَفْع.. كذلك الكافر؛ لا أصلَ لشأنه، ولا أساسَ لبنيانه، يرى شيئاً ولكن بالتخييل، فأمّا في التحقيق.. فَلا[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾.

الكلُّ يشتركون في سماع الأمثال، ولكن لا يصغي إليها مَنْ كان نَفُورَ القلبِ، كنودَ الحالِ، متعوداً الكسلَ، مُعَرِّجاً في أوطان الفَشَلِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾: أي بالقول الحق والأمر الحق.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾.

أي من شأن المؤمن وسبيله أن ينتهي عن الفحشاء والمنكر، أي على معنى ينبغي للمؤمن أن ينتهي عن الفحشاء والمنكر، كقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] أي ينبغي للمؤمن أن يتوكل على الله، فإن قُدِّرَ أن واحداً

---

(١) الدخمس: الخب الذي لا يبين لك معنى ما يريد، وقد دخمس عليه، وأمر مدخمس إذا كان مستوراً. (لسان العرب ٦/٧٨ مادة: دخمس).

(٢) الآية (٤٢) لم ترد.

منهم لا يتوكل فلا يخرج به ذلك عن الإيمان ـ كذلك من لم ينتهِ عن الفحشاء والمنكر فليست تخرج صلاته عن كونها صلاة.

ويقال بل الصلاةُ الحقيقية ما تكون ناهيةً لصاحبها عن الفحشاء والمنكر؛ فإن لم يكن من العبد انتهاءٌ فالصلاةُ ناهيةٌ على معنى ورود الزواجر على قلبه بألا يفعل، ولكنه يُصِرُّ ولا يطيع تلك الخواطر.

ويقال بل الصلاة الحقيقية ما تنهي صاحبها عن الفحشاء والمنكر. فإن كان ـ وإلا فصورة الصلاة لا حقيقتها.

ويقال الفحشاء هي الدنيا، والمنكر هو النَّفْس.

ويقال الفحشاء هي المعاصي، والمنكر هو الحظوظ.

ويقال الفحشاء الأعمال، والمنكر حسبانُ النجاة بها، وقيل ملاحظتُه الأعواض عليها، والسرور والفرح بمدح الناس لها.

ويقال الفحشاء رؤيتها، والمنكر طلب العِوض عليها.

﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾: ذكر الله أكبر من ذكر المخلوقين؛ لأن ذكره قديم وذكر الخلْق مُحْدَث[1].

ويقال ذكر العبد لله أكبر من ذكره للأشياء الأخرى، لأن ذكره لله طاعة، وذكره لغيره لا يكون طاعة.

ويقال ولِذكْرُ اللَّهِ لَكَ أكبرُ من ذكرك له.

ويقال ذكْرُه لك بالسعادة أكبرُ من ذكْرك له بالعبادة.

ويقال ذكر الله أكبر من أن تبقى معه وحشة.

ويقال ذكر الله أكبر من أن يُبْقِى للذاكر معه ذِكْر مخلوق.

ويقال ذكر الله أبر من أن يُبْقِى للزَّلةِ معلوماً أو مرسوماً.

ويقال ذكر الله أكبر من أن يعيش أحدٌ من المخلوقين بغيره.

ويقال ولذكر الله أكبر من أن يُبْقِى معه للفحشاء والمنكر سلطاناً؛ فلِحُرمة ذكره زَلَّاتُ الذاكر مغفورةٌ، وعيوبه مستورةٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

ينبغي أن يكون منك للخصم تبيين، وفي خطابك تليين، وفي قبول الحق إنصاف، واعتقاد النصرة ـ لما رآه صحيحاً ـ بالحجة، وتَرْك الميل إلى الشيء بالهوى.

(١) انظر حديث القشيري عن الذكر بالرسالة ص٢٢١ ـ ٢٢٦.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

يعني أنهم على أنواع: فمرحوم نظرْنا إليه بالعناية، ومحرومٌ وسمناه بالشقاوة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

أي تَجَرَّد قلبك عن المعلومات، وتقدّس سرّك عن المرسومات، فصادَفك من غير ممازجة طبْع ومشاركةِ كَسْبٍ وتكلف بشرية، فلما خلا قلبك وسرُّك عن كل معلومٍ ومرسومٍ ورَد عليك خطابُنا وتفهيمنا مقرونٍ بهما ما ليس مِنَّا.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

قلوبُ الخواص من العلماء بالله خزائنُ الغيب، فيها أودع براهين حقه، وبينات سِرِّه، ودلائل توحيده، وشواهد ربوبيته، فقانون الحقائق قلوبهم، وكلُّ شيء يطلبُ من موطنه ومحله؛ فالدرُّ يُطلبُ من الصدف لأنّ ذلك مسكنه، والشمس تطلبُ من البروج لأنها مطلعها، والشهد يُطْلبُ من النّحل لأنه عشُه. كذلك المعرفة تُطْلَبُ من قلوب خواصه لأن ذلك قانون معرفته، ومنها (. . . .)[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

خفيَتْ عليهم حالتُكَ ـ يا محمد ـ فطالبوكَ بإقامة الشواهد، وقالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ﴾ أوَ لَم يَكْفِهم ما أوضحنا عليكَ من السبيل، وألَحنا لكَ من الدليل؛ يُتْلَى عليهم ذلك، ولا يمكنهم معارضته ولا الإتيان بشيءٍ من مثله؟! هذا هو الجحود وغاية الكُنود[2]!

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

أنا على حقٍّ واللَّهُ ـ سبحانه ـ يعلمه، وأنتم لستم على حق والله يعلمه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) الكنود: الجاحد لنعم ربه.

الآية (٥١) لم ترد.

لولا أني ضربتُ لكلِّ شيءٍ أَجَلاً لَعجَّلْتُ لهم ذلك، ولَيأتِيَنَّهم العذابُ ـ حين يأتيهم ـ بغتةً وفجأةً[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وإذا أحاطت بهم في جهنم سرادقاتُ العذاب فلا صريح لهم، كذلك ـ اليومَ ـ مَنْ أحاط به العذابُ؛ مِنْ فوقه اللَّعنُ ومن تحته الخَسْفُ، ومن حوله الخِزْيُ، ويُلْبَسُ لباسَ الخذلان، ويوسم بكيِّ الحرمان، ويُسْقَى شرابَ القنوط، ويُتَوَّجُ بتاج الخيبة، ويُقَيَّدُ بقيد السُّخْط، ويُغَلُّ بغُلِّ العداوة، فهُمْ يُسْحَبون في جهنم الفراق حُكْماً، إلى أن يُلْقَوْا في جحيم الاحتراق عيناً.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾.

الدنيا أوسعُ رقعةً من أن يضيقَ بمريدٍ مكانٌ، فإذا نَبَا به منزلٌ ـ لوجهٍ من الوجوه ـ إمَّا لمعلومٍ حصل، أو لقبولٍ من الناس، أو جاهٍ، أو لعلاقةٍ أو لقريبٍ أو لِبَلاءِ ضِدٍّ، أو لوجهٍ من الوجوه الضارة... فسبيلُه أن يرتحل عن ذلك الموضع وينتقل إلى غيره، كما قالوا:

وإذا ما جُفِيتُ كنتُ حَرِيّاً ... أنْ أرى غيرَ مُصْبِحٍ حيثُ أُمْسِي

وكذلك العارف إذا لم يوافق وقتَه مكانٌ انتقل إلى غيره من الأماكن[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

إذا كان الأمرُ كذلك فالراحة معطوفة على تهوين الأمور؛ فسبيلُ المؤمن أن يوطِّن نفسَه على الخروج مستعداً له، ثم إذا لم يحصل الأَجَلُ فلا يستعجل، وإذا حضر فلا يستثقل، ويكون بحُكْمِ الوقت، كما قالوا:

لو قال لي مُتْ مِتُّ سمعاً وطاعةً ... وقلتُ لداعي الموت: أهلاً ومرحبا

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾.

هم ـ اليومَ ـ في غُرَفِ معارفهم على أَسِرَّةِ وَصْلِهم، مُتَوَّجُون بتيجان سيادتهم، يُسْقَوْن كاساتِ الوَجْدِ، ويَحْبَرُون في جِنانِ القُرْب، وعداً كما قال: ـ

---

(١) الآية (٥٤) لم ترد.

(٢) القشيري يجيز السفر للعارف، ولا يجيزه للمريد. يقول: ومن آداب المريد بل من فرائض حاله أن يلازم موضع إرادته، وأن لا يسافر قبل أن تقبله الطريق، وقبل الوصول بالقلب إلى الرب، فإن السفر للمريد في غير وقته سم قاتل، ولا يصل أحد منهم إلى ما كان يرجى له إذا سافر في غير وقته. (الرسالة القشيرية ص٣٨٣).

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

والصبرُ الوقوفُ مع الله بشرط سقوط الفكرة.

الصبرُ العكوفُ في أوطان الوفاء، الصبر حَبْسُ النَّفْسِ على فِطامها.

الصبر تجرُّعُ كاساتِ التقدير من غير تعبيس.

الصبر صفة توجب معيَّةَ الحقِّ.. وأَعْزِزْ بها!

وأولُ الصبرِ تصبُّرٌ بتكلفٍ، ثم صبرٌ بسهولة، ثم اصطبارٌ وهو ممزوج بالراحة، ثم تحقُّقٌ بوصف الرضا؛ فيصير العبدُ فيه محمولاً بعد أن كان مُتَحَمِّلاً.

والتوكلُ انتظارٌ مع استبشار، والتوكلُ سكونُ السِّرِّ إلى الله، التوكلُ استقلالٌ بحقيقة التوكل؛ فلا تتبرَّم في الخلوة بانقطاع الأغيار عنك. التوكل إعراضُ القلب عن غير الربِّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أي لا تدخره، فمن لم يدخر رزقه في كيسه أو خزائنه فاللَّهُ يرزقه من غير مقاساة تعبٍ منه.

ويقال: ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ المقصود بها الطيور والسباع إذ ليس لها معلوم، وليس لها بيت تجمع فيه القوت، وليس لها خازن ولا وكيل.. الله يرزقها وإياكم.

ويقال إرادةُ اللَّهِ في أن يستبقيكَ ولا يقبض رُوحَك أقوى وأتمُّ وأكبرُ من تَعَنِّيك لأَجْلِ بقائك.. فلا ينبغي أَنْ يكونَ اهتمامُكَ بسبب عَيْشِك أتمَّ وأكبرَ من تدبير صانعك لأجل بقائك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

إذا سُئِلوا عن الخالق أقروا بالله، وإذا سُئِلوا عن الرازق لم يستقروا مع الله.. هذه مناقَضَةٌ ظاهرة!

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

الرزق على قسمين: رزق الظواهر ومنه الطعام والشراب، ورزق السرائر ومنه الاستقلال بالمعاني بحيث لا يحصره تكلف الكلام، والناسُ فيهم مرزوقٌ ومُرَفَّهٌ عليه، وفيهم مرزوق ولكنْ مُضَيَّقٌ عليه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

كما عَلِموا أَنَّ حياةَ الأرضِ بعد موتها بالمطر من قِبَل الله فليعلموا أَنَّ حياةَ النفوسِ بعد موتها ـ عند النَّشرِ والبعث ـ بقدرة الله. وكما علموا ذلك فليعلموا أَنَّ حياةَ الأوقات بعد نفرتها، وحياة القلوب بعد فترتها... بماء الرحمة بالله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

الدنيا الأحلام ـ وعند الخروج منها انتباهٌ من النوم. والآخرة هنالك العيش بكماله، والتخلص ـ من الوحشة ـ بتمامه ودوامه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

الإخلاصُ تفريغُ القلب عن الكلّ، والثقةُ بأن الإخلاص ليس إلا به ـ سبحانه، والتحقق بأنه لا يستكبر حالاً في المحمودات ولا في المذمومات، فعند ذلك يعبدونه مخلصين له الدّين. وإذا توالت عليهم الضرورات، وانقطع عنه الرجاء أذعنوا لله متضرعين فإذا كشف الضُّرَّ عنهم عادوا إلى الغفلة، ونَسُوا ما كانوا فيه من الحال كما قيل:

إذا ارعوى عاد إلى جهله كذي الضنى عاد إلى نُكْسِه[1]

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾.

مَنَّ عليهم بدَفْع المحن عنهم وكَوْنِ الحَرَمِ آمناً. وذَكَّرَهم عظيمَ إحسانه عليهم، ثم إعراضهم عن شكرِ ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

أي لا أحدَ أشدُّ ظلماً ممن افترى على الله الكذب، وعَدَلَ عن الصدق، وآثَرَ البهتانَ ولم يتصرف بالتحقق، أولئك هم السُّقّاطُ في الدنيا والآخرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

الذين زَيَّنُوا ظواهرَهم بالمجاهدات حَسُنَتْ سرائرُهم بالمشاهدات. الذين شغلوا ظواهرهم بالوظائف أوصلنا إلى سرائرهم اللطائف. الذين قاسوا فينا التعبَ من حيث الصلوات جازيناهم بالطرب من حيث المواصلات.

ويقال الجهاد فيه: أولاً بترك المحرَّمات، ثم بترك الشُّبُهات، ثم بترك الفضلات، ثم بقطع العلاقات، والتنقِّي من الشواغل في جميع الأوقات.

ويقال بحفظ الحواسِّ لله، وبِعَدِّ الأنفاس مع الله.

تم الجزء الثاني، ويليه الجزء الثالث

وأوله: سورة الروم

(١) الآية (٦٦) لم ترد.

فهرس المحتويات

سورة يوسف

سورة الرعد

سورة إبراهيم

سورة الحجر

سورة النحل

سورة الإسراء
(سورة بني إسرائيل)

سورة الكهف

سورة مريم

سورة طه

سورة الأنبياء

سورة الحج

سورة المؤمنون

سورة النور

سورة الفرقان

سورة الشعراء

سورة النمل

سورة القصص

سورة العنكبوت

تفسير القشيري

المسمّى

لطائف الإشارات

تأليف

الإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك

القشيري النيسابوري الشافعي

المتوفى ٤٦٥ هـ

وضع حواشيه وعلّق عليه

عبد اللطيف حسن عبد الرحمن

الجزء الثالث

المحتوى:

أول سورة الروم - آخر سورة الناس





دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

Title: Tafsīr al-Qušayri
"Laṭā'f al-'išārāt"
(The exegesis of the Holy coran)
classification: Exegesis of the coran
Author: ʿAbdul-Karīm ben Hawāzin al-Qušayri
Editor: ʿAbdul-Laṭīf Ḥasan ʿAbdul-Raḥmān
Publisher: *Dar Al-Kotob Al-ilmiyah*
Pages: 1408 (3volumes)
Year: *2007*
Printed in: *Lebanon*
Edition: 2nd

الكتاب: تفسير القشيري
المسمى: لطائف الإشارات
التصنيف: تفسير قرآن
المؤلف: الإمام عبد الكريم بن هوازن القشيري
المحقق: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن
الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت
عدد الصفحات: 1408 (3 أجزاء)
سنة الطباعة: 2007
بلد الطباعة: لبنان
الطبعة: الثانية





دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان




الطبعة الثانية
٢٠٠٧ م - ١٤٢٨ هـ

دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax:+961 5 804813
P.o.Box:11-9424 Beirut-lebanon
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون ، القبة
مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨١٠/١١/١٢ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨١٣ ٨٠٤ ٥ ٩٦١ +
ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان
رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
sales @al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

السورة التي يذكر فيها الروم

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله اسم عزيز شفيعُ المذنبين جودُه، بلاء المتهمين قصودُه، ضياء الموحِّدين عهوده. وسلوةُ المحزونين ذِكرُه، وحِرفةُ المُمتحنين شكرُه.

اسمٌ عزيزٌ رداؤه كبرياؤه، وجبّارٌ سناؤه بهاؤه، وبهاؤه علاؤه.

العابدون حَسْبُهم عطاؤه، والواجدون حسبُهم بقاؤه.

قوله جلّ ذكره: ﴿الٓمٓ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾.

الإشارة في «الألف» إلى أنه ألِفَ صُحْبتنَا مَنْ عَرف عظمتنا. وأنّه ألَف بلاءنا مَنْ عَرَفَ كبرياءنا.

والإشارة في «اللام» إلى أنه لزمَ بابنا مَنْ ذاق محابّنا، ولزمَ بساطنَا مَنْ شهد جمالنَا.

والإشارة في «الميم» إلى أَنه مُكّنَ منْ قُرْبنَا مَنْ قام على خدمتنا، ومات على وفائنا مَنْ تحقق بولائنا.

قوله ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾: سُرّ المسلمون بظفر الروم على العجم - وإن كان الكفر يجمعهم - إلا أن الروم اختصوا بالإيمان ببعض الأنبياء، فشكر الله لهم، وأنزل فيهم الآية.. فكيف بمن يكون سروره لدين الله، وحُزنُه واهتمامه لدين الله؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿قَبْلُ﴾ إذا أُطْلق انتظم الأزل، «وبَعْدُ» إذا أطلق دلّ على الأبد؛ فالمعنى الأمر الأزليُّ لله، والأمر الأبديُّ لله، لأنَّ الرَّبَّ الأزليّ والسَّيِّدَ الأبديّ اللَّهُ.

لله الأمرُ يومَ العرفان، ولله الأمرُ يومَ الغفران.

لله الأمرُ حين القسمة ولا حين، ولله الأمرُ عند النعمة وليس أي معين.

ويقال: لي الأمرُ ﴿مِن قَبْلُ﴾ وقد علمتُ ما تفعلون، فلا يمنعني أحدٌ من تحقيق

عرفانكم، ولي الأمر ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ وقد رأيتُ ما فعلتم، فلا يمنعني أحدٌ من غفرانكم.

وقيل: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ﴾ بتحقيق ودُكم، والله الأمر من بعد بحفظ عهدكم:

إنـي ـ عـلـى جـفـواتـهـا ـ وبـربـِّهـا وبـكـلِّ مُـتـصـل بـهـا مُـتـوسـلِ

﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾:

الـيـومَ إرجـافُ الـسـرور وإنـمـا يـومَ الـلِّـقـاء حـقـيـقـةُ الإرجـاف

اليومَ ترحٌ وغداً فرح، اليوم عَبرة وغداً حَبرة، اليوم أسف وغداً لطف، اليوم بكاء وغداً لقاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

الكريمُ لا يُخلفُ وعده لا سيما والصدقُ نعته.

يقول المؤمنون: مِنا يومَ الميثاق وعدٌ بالطاعة، ومنه ذلك اليومَ وعدٌ بالجنة، فإن وَقع في وعدنا تقصيرٌ لا يقع في وعده قُصورٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾.

استغراقُهم في الاشتغال بالدنيا، وانهماكهم في تعليق القلب بها.. مَنَعَهم عن العلم بالآخرة. وقيمةُ كلِّ امرىءٍ عِلمه بالله؛ ففي الأثر عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ أنه قال؛ أهل الدنيا عَلَى غفلةٍ من الآخرة، والمشتغلون بعلم الآخرة كذلك بوجودها في غفلة عن الله.

قـولـه جـلّ ذكـره: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾.

إنَّ مَنْ نَظَرَ حقَّ النظر، ووَضَعَ النظر موضعَه أثمر له العلم واجباً، فإذا استبصر بنور اليقين أحكامَ الغائبات، وعَلِمَ موعوده الصادق في المستأنف ـ نجا عن كَدِّ التردد والتجويز فسبيلُ مَنْ صحا عقلُه ألا يجنحَ إلى التقصير فيما به كمال سكونه.

قـولـه جـلّ ذكـره: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

سَيْرُ النفوسِ في أقطار الأرض ومناكبها لأداء العبادات، وسَيْرُ القلوبِ بِجَولَانِ الفِكْرِ في جميع المخلوقات، وغايته الظَّفَرُ بحقائق العلوم التي توجِبُ ثلج الصدر ـ ثم تلك العلوم على درجات. وسير الأرواح في ميادين الغيب بنعت حرق سرادقات الملكوت، وقصاراه الوصولُ إلى محلِّ الشهود واستيلاء سلطان الحقيقة. وسير

الأسرار بالترقي عن الحِدْثان بأَسْرِها، والتحقق أولاً بالصفات، ثم بالخمود بالكلية عمَّا سِوى الحقِّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

مَنْ زَرَعَ الشوكَ لم يحصُدْ الوَرْدَ، ومَنْ استنبت الحشيشَ لم يقطف الثمار، ومَنْ سَلَكَ طريق الغيّ لم يَحْلُلْ بساحة الرشد.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

يبدأ الخلق على ما يشاء، ثم يعيده إذا ما شاء على ما يشاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

شهودِهم ما جحدوه في الدنيا عياناً، ثم ما ينضاف إلى ذلك من اليأس بعد ما يعرفون قطعاً هو الذي يفتت أكبادهم، وبه تتمُّ محنتُهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾.

تغلب العداوةُ مِنْ بعضٍ على بعضٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾.

فريقٌ منهم أهل الوصلة، وفريق هم أهل الفرقة. فريق للجنة والمِنَّة، وفريقٌ للعذاب والمحنة. فريقٌ في السعير، وفريقٌ في السرور. فريقٌ في الثواب، وفريقٌ في العذاب. فريقٌ في الفراقِ، وفريقٌ في التلاقي.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾.

فهم في رياضٍ وغياضٍ.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

فهم في بوارٍ وهلاك.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾.

مَنْ كان صباحُه لله بُورِكَ له في يومه، ومن كان مساؤه بالله بورك له في ليله:

وإنَّ صَبَاحاً نلتقي في مسائه　　صَبَاحٌ على قلبِ الغريبِ حبيبُ

شتَّان بين عبدٍ صباحُه مُفْتَتَحٌ بعبادته ومساؤه مُخْتَتَمٌ بطاعته، وبين عبدٍ صباحه مفتتح بمشاهدته ورواحة مفتتح بعزيز قربته!

ويقال الآية تتضمن الأمر بتسبيحه في هذه الأوقات، والآية تتضمن الصلوات الخمس، وإرادةَ الحقّ من أوليائه بأَنْ يجددوا العهدَ في اليوم والليلة خمْسَ مراتٍ؛ فتقف على بساط المناجاة، وتستدرك ما فاتك فيما بين الصلاتين من طوارق الزلات.

قوله جلّ ذكره: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾: الطيرَ من البيض، والحيوان من النُّطفةِ.

﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾: البيض من الطير، والنطفة من الحيوان.

والمؤمنَ من الكافِر والكافِرَ من المؤمن.

ويُظْهِرُ أوقاتاً من بين أوقات؛ كالقبض من بين أوقات البسط، والبسط من بين أوقات القبض.

﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: يحييها بالمطر، ويأتي بالربيع بعد وحشة الشتاء؛ كذلك يوم النشور يحيي الخلْقَ بعد الموت.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾.

خَلَقَ آدمَ من التراب، ثم من آدم الذُّرِّيَة. فذَكَّرَهم نِسْبَتَهم لئلا يُعْجَبُوا بأحوالهم.

ويقال الأصل تُرْبة ولكن العِبْرَة بالتربية لا بالتربة،القيمةُ لما مِنْه لا لأعيان المخلوقات. اصطفى واختار الكعبة فهي أفضل من الجنة؛ الجنة جواهر ويواقيت، والبيت حجر! ولكن البيت مختارُه وهذا المختار حجر! واختار الإنسانَ، وهذا المختار مَدَرٌ! والغنيُّ غنيٌّ لِذَاتِه، غنيٌّ عن كلِّ غيرٍ من رَسْم وأثر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

رَدَّ المِثْلَ إلى المِثْل، ورَبَطَ الشكلَ بالشكلِ، وجعل سكونَ البعضِ إلى البعضِ، ولكنَّ ذلك للأشباح والصُّوَر، أمَّا الأرواح فصُحْبَتُها للأشباح كرهٌ لا طوعٌ. وأمَّا الأسرار فمُعْتَقَةٌ لا تساكن الأطلال ولا تتدنس بالأعلال.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾.

خَلَقَ السماواتِ في علوِّها والأرضَ في دنوِّها؛ هذه بنجومها وكواكبها، وهذه بأقطارها ومناكبها. وهذه بشمسها وقمرها، وهذه بمائها ومَدَرِها.

ومن آياته اختلافُ لغات أهل الأرض، واختلافُ تسبيحات الملائكة الذين هم

سكان السماء. وإنَّ اختصاصَ كلِّ شيءٍ منها بحُكم ـ شاهدُ عَدْلٍ، ودليلُ صِدْقٍ على أنها تناجي أفكار المتيقظين، وتنادي على أنفسها.. أنها جميعها من تقدير العزيز العليم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

غَلَبُه النومِ بغيرِ اختيارِ صاحبه ثم انتباهُه مِنْ غير اكتسابٍ له بِوُسْعِه يدلُّ على موته وبَعْثِهِ بعد ذلك وقتَ نشوره. ثم في حال منامه يرى ما يسرُّه وما يضرُّه، وعلى أوصافٍ كثيرة أمره.. كذلك الميت في قبره. اللَّهُ أعلمُ كيف حاله في أمره، وما يلقاه من خيره وشرّه، ونفعه وضرّه؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

يُلْقِي في القلوب من الرجاءِ والتوقع في الأمور، ثم يختلف بهم الحال؛ فمِنْ عبدٍ يحصلُ مقصودُه، ومِنْ آخر لا يتفق مرادُه.

والأحوال اللطيفة كالبروق، وقالوا: إنها لوائح ثم لوامع ثم طوالع ثم شوارق ثم متوع النهار[1]، فاللوائح في أوائل العلوم، واللوامع من حيث الفهوم، والطوالع من حيث المعارف، والشوارق من حيث التوحيد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

يُفْنِي هذه الأدوار، ويُغَيِّر هذه الأطوار، ويبدِّل أحوالاً غير هذه الأحوال؛ إماتةٌ ثم إحياءٌ، وإعادةٌ وقبلها إبداءٌ وقبرٌ ثم نَشْر، ومعاتبةٌ في القبر ثم محاسبةٌ بعد النَّشْرِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾.

له ذلك مِلْكاً، ومنه تلك الأشياء بَدْءاً، وبه إيجاداً، وإليه رجوعاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أي في ظنّكم وتقديركم.

وفي الحقيقة السهولةُ والوعورةُ على الحقِّ لا تجوز.

---

(١) مَتَع نهاره: كناية عن استمرار العطاء الإلهي والكشف الرباني بتمديد وقت النهار إلى الليل، حتى ينعدم الليل.

﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾: له الصفةُ العليا في الوجود بحقِّ القِدَم، وفي الجود بنعت الكَرَم، وفي القدرة بوصف الشمول، وفي النصرة بوصف الكمال، وفي العلم بعموم التعلُّق، وفي الحكم بوجوب التحقق، وفي المشيئة بوصف البلوغ، وفي القضية بحكم النفوذ، وفي الجبروت بعين العزِّ والجلال، وفي الملكوت بنعت المجد والجمال.

قوله جلّ ذكره: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

أي إذا كان لكم مماليك لا تَرْضَوْن بالمساواة بينكم وبينهم، وأنتم متشاكلون بكلِّ وجه ـ إلا أنكم بحكم الشرع مالكوهم ـ فَمَا تقولون في الذي لم يَزَلْ، ولا يزال كما لم يزل؟

هل يجوز أن يُقَدَّرَ في وصفه أن يُسَاوِيَه عبيدُه؟ وهل يجوز أن يكون مملوكُه شريكَه؟ تعالى اللَّهُ عن ذلك علواً كبيراً!

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

أشدُّ الظلم متابعةُ الهوى، لأنه قريبٌ من الشِّرْكِ، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]. فَمَنْ اتَّبَعَ هواه خالف رضا مولاه؛ فهو بوضعه الشيءَ غيرَ موضعه صار ظالماً، كما أَنَّ العاصيَ بوضعه المعصيةَ موضعَ الطاعةِ ظالمٌ. كذلك هذا بمتابعة هواه بَدَلاً عن موافقة ومتابعة رضا مولاه صار في الظلم متمادياً.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أَخْلِصْ قَصْدَكَ إلى الله، واحفَظْ عهدك مع الله، وأَفرِدْ عملَكَ في سكناتِك وحركاتِك وجميعِ تصرفاتِك لله.

﴿حَنِيفًا﴾: أي مستقيماً في دينه، مائلاً إليه، مُعْرِضاً عن غيره، والزَمْ ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أي أَثْبَتَهُم عليها قبل أن يُوجَدَ منهم فِعْلٌ ولا كَسْب، ولا شِرْكٌ ولا كُفْر، وكما ليس منهم إيمان وإحسان فليس منهم كفران ولا عصيان. فاعرف بهذه الجملة، ثم افعل ما أُمِرْتَ به، واحذر ما نُهِيتَ عنه.

فعلى هذا التأويل فإن معنى قوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أي اعْرِفْ واعْلَمْ أن فطرة الله التي فطر الناس عليها: تَجَرُّدُهم عن أفعالهم، ثم اتصافهم بما يكسبون ـ وإن كان هذا أيضاً بتقدير الله.

وعلى هذا تكون ﴿فِطْرَتَ﴾ الله منصوبة بإضمار اعْلَمْ ـ كما قلنا.

سبحانه فَطَرَ كلَّ أحدٍ على ما عَلِمَ أنه يكون في السعادة أو الشقاوة، ولا تبديلَ لحُكْمه، ولا تحويلَ لما عليه فَطَرَه. فمَنْ عَلِمَ أنه يكون سعيداً أراد سعادته وأخبر عن سعادته، وخَلَقَه في حُكْمه سعيداً. ومَنْ عَلِمَ شقاوته أراد أن يكون شقياً وأخبر عن شقاوته وخَلَقَه في حكمه شقياً.. ولا تبديل لحُكمه، هذا هو الدين المستقيم والحقُّ الصحيح.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

أي راجعين إلى الله بالكلية من غير أن تبقى بقية، متصفين بوفاته، منحرفين بكل وجهٍ عن خلافه، مُتَّقين صغيرَ الإثم وكبيره، قليلَه وكثيره، مُؤثرين يسيرَ وفاقه وعسيره، مقيمين الصلاة بأركانها وسننها وآدابها جهراً، متحققين بمراعاة فضائلها سِراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

أقاموا في دنياهم في خمار الغفلة، وعناد الجهل والفترة؛ فركنوا إلى ظنونهم، واستوطنوا مركب أوهامهم، وتموَّلوا منْ كيس غيرهم، وظنوا أنهم على شيء. فإذا انكشف ضبابُ وقتهم، وانقشع سحابُ جحدِهم.. انقلب فرحُهم ترحاً، واستيقنوا أنهم كانوا في ضلالة، ولم يعرِّجوا إلّا في أوطان الجهالة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

إذا أظلتهم المحنةُ ونَالتهم الفتنةُ؛ وَمَسَّتْهُم البليّةُ رجعوا إلى الله بأجمعهم مستعينين، وبلطفه مستجيرين، وعن محنتهم مستكشفين.

فإذا جاد عليهم بكشف ما نالهم، ونظر إليهم باللطف فيما أصابهم: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ لا كلُّهم ـ بل فريقٌ منهم بربهم يشركون؛ يعودون إلى عاداتهم المذمومة في الكفران، ويقابلون إحسانه بالنسيان، هؤلاء ليس لهم عهدٌ ولا وفاء، ولا في مودتهم صفاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

أي عن قريبٍ سيحدث بهم مثلما أصابهم، ثم إنهم يعودون إلى التضرع، ويأخذون فيما كانوا عليه بدءاً من التخشع، فإذا أشكاهم وعافاهم رجعوا إلى رأس خطاياهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾.

بَين أنهم بَنوا على غير أصلٍ طريقَهم، واتبعوا فيما ابتدعوه أهواءهم، وعلى غير شَرعٍ من الله أو حجةٍ أو بيانٍ أَسَّسُوا مذاهبَهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾.

تستميلهم طوارقُ أحوالهم؛ فإن كانت نعمة فإلى فرح، وإن كانت شدة فإلى قنوطٍ وَتَرح. وليس وصفُ الأكابر كذلك؛ قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الإشارة فيها إلى أن العبدَ لا يُعلِّقُ قلبه إلا بالله؛ لأنّ ما يسوءهم ليس زواله إلا بالله، وما يسرُّهم ليس وجودُه إلا من الله، فالبسطُ الذي يسرّهم ويؤنسهم منه وجوده، والقبض الذي يسوءهم ويوحشهم منه حصولُه، فالواجبُ لزوم عَقْوَةِ[1] الأسرار، وقطعُ الأفكار عن الأغيار.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

القرابةُ على قسمين: قرابةُ النسب وقرابة الدِّين، وقرابةُ الدين أَمسُّ، وبالمواساة أحقُّ وإذا كان الرجلُ مشتغلاً بالعبادة، غيرَ متفرّغ لطلب المعيشة فالذين لهم إيمانٌ بحاله، وإشرافٌ على وقته يجب عليهم القيام بشأنه بقَدر ما يمكنهم، مما يكون له عونٌ على الطاعة وفراغ القلب من كل علة؛ فاشتغال الرجل بمراعاة القلب يجعل حقَّه آكدَ، وتفَقُّدَه أَوْجَبَ.

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾: المريدُ هو الذي يُؤْثِرُ حقَّ الله على حظِّ نَفْسِه؛ فإيثارُ المريد وَجه اللَّهِ أتمُّ من مراعاته حال نفسه، فهِمَّتُه في الإحسان إلى ذوي القربى والمساكين تتقدم على نَظَرِه لِنَفْسِه وعياله وما يهمه من خاصته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾.

إيتاء الزكاة بأن تريد بها وجهَ الله، وألا تستخدم الفقير لما تَبَرُّه به من رافقه، بل

---

(١) العقوة: الساحة، وما حول الدار والمحلة. (اللسان ١٥/ ٧٩ مادة: عقا).

أفضل الصدقة على ذي رَحم كاشح[1] حتى يكون إعطاؤه للَّهِ مجرداً عن كل نصيبٍ لَكَ فيه، فهؤلاء هم الذين يضاعِفُ أَجْرَهم: قَهرُهم لأنفسهم حيث يخالفونها، وفوزهُم بالعِوَض مِنْ قِبَلَ الله.

ثم الزكاة هي التطهير، وتطهيرُ المالِ معلومٌ ببيان الشريعة في كيفية إخراج الزكاة، وأصناف المال وأوصافه.

وزكاة البَدَنِ وزكاةُ القلبِ وزكاةُ السِّرِّ.. كلُّ ذلك يجب القيام به.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿ثُمَّ﴾ حرفٌ يقتضي التراخي؛ وفي ذلك إشارة إلى أنه ليس من ضرورة خَلْقِه إياك أن يرزقك؛ كنتَ في ضعف أحوالك ابتداءَ ما خَلَقَكَ، فأثبتك وأحياك من غير حاجةٍ لك إلى رزقٍ؛ فإلى أن خرجتَ من بَطْنِ أُمّك: إمَّا أن كان يُغْنِيكَ عن الرزق وأنت جنينٌ في بطن الأم ولم يكن لك أكلٌ ولا شُرْبٌ، وإمَّا أن كان يعطيك ما يكفيك من الرزق ـ إنْ حَقَّ ما قالوا: إن الجنينَ يتَغَذَّى بدم الطمث[2]. وإذا أخرجك من بطن أمك رَزَقَكَ على الوجه المعهود في الوقت المعلوم، فَيَسَّرَ لك أسبابَ الأكل والشرب من لَبنِ الأم، ثم من فنون الطعام، ثم أرزاق القلوب والسرائر من الإيمان والعرفان وأرزاق التوفيق من الطاعات والعبادات، وأرزاق للسان من الأذكار وغير ذلك مما جرى ذكره.

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ بسقوط شهواتكم، ويميتكم عن شواهدكم.

﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بحياة قلوبكم ثم يحييكم بربكم.

ويقال: من الأرزاق ما هو وجود الأرفاق ومنها ما هو شهود الرزاق.

ويقال: لا مُكْنَةَ لك في تبديل خَلْقِكَ، وكذلك لا قدرةَ لَكَ على تَعَسُّر رزقِك، فالمُوَسَّعُ عليه رزقُه ـ بِفَضْلِه سبحانه.. لا بمناقِب نَفْسِه، والمُقَتَّرُ عليه رزقُه بحُكْمِه سبحانه.. لا بمعايب نَفْسِه.

﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾؛ هل من شركائكم الذين أثبتموهم أي من الأصنام أو توهمتموهمْ من جملة الأنام.. مَنْ يفعل شيئاً من ذلك؟ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾ تنزيهاً له وتقديساً.

---

(١) الكاشح: العدو المبغض. (اللسان ٢/ ٥٧٢ مادة: كشح).

(٢) الطمث: دم الحيض.

قوله جلّ ذكره: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

الإشارة من البرّ إلى النَّفْسِ، ومن البحر إلى القلب.

وفسادُ البرّ بأكْلِ الحرام وارتكاب المحظورات، وفسادُ البحر من الغفلة والأوصاف الذميمة مثل سوء العزم والحسد والحقد وإرادة الشَّرّ والفِسْقِ.. وغير ذلك. وعَقْدُ الإصرارِ على المخالفاتِ من أعظمِ فسادِ القلب، كما أنَّ العَزْمَ على الخيرات قبل فِعْلها من أعظم الخيرات.

ومن جملة الفساد التأويلاتُ بغير حقٍّ، والانحطاطُ إلى الرُّخَصِ في غير قيامٍ بِجَدٍ، والإغراق في الدعاوَى من غير استحياءٍ من الله تعالى.

﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: بعض الذي عملوا من سقوط تعظيم الشرع من القلب، وعدم التأسُّف على ما فاته من الحقّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾.

﴿سِيرُوا۟﴾ بالاعتبار، واطلبوا الحقَّ بنعت الأفكار.

﴿فَٱنظُرُوا۟﴾ كيف كانت حال مَنْ تقدَّمكم من الأشكال والأمثال، وقيسوا عليها حُكْمَكُم في جميع الأحوال. ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ كانوا أكثرَهم عدداً، ولكن كانوا في التحقيق أقلَّهم وزناً وقَدْراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾.

أَخْلِص قَصْدَك وصِدْقَ عَزْمِكَ للدين القيِّم بالموافقة والاتباع دون الاستبداد بالأمر على وجه الابتداع. فَمنْ لم يتأدب بِمَنْ هو إمامُ وقته ولم يتلقف الأذكار ممن هو لسان وقته كان خُسْرَانُه أتَمَّ من رِبْحِه، ونقصانُه أعَمُّ من نَفْعه[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

يرسل رياحَ الرجاءِ على قلوب العِباد فتكنس عن قلوبهم غبارَ الخوف وغُثَاء اليأس، ثم يرسل عليها أمطار التوفيق فتحملهم إلى بِساط الجُهْدِ، وتكرمهم بقوى النشاط. ويرسل رياحَ البسطِ على أرواح الأولياء فيطهرها من وحشة القبض، وينشر

(١) الآيتان (٤٤، ٤٥) لم تردا.

فيها إرادة الوصال. ويرسل رياحَ التوحيد فتهب على أسرار الأصفياء فيطهرها من آثار العناء، ويبشرها بدوام الوصال.. فذلك ارتياحٌ به ولكن بعد اجتياحٍ عنك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أرسلنا من قبلك رسلاً إلى عبادنا، فَمَنْ قابلهم بالتصديق وصل إلى خلاصة التحقيق، ومَنْ عارضَهم بالجحود أذقناهم عذابَ الخلود، فانتقمنا من الذين أجرموا، وأخذناهم من حيث لم يحتسبوا، وشوَّشْنا عليهم ما أمَّلوا، ونقضنا عليهم ما استطابوا وتَنَعَّموا، وأخذنا بخناقهم فحاق بهم ما مكروا.

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بتوطئتهم بأعقاب أعدائهم، ولم يلبثوا إلا يسيراً حتى رقيناهم فوق رقابهم، وخرَّبنا أوطانَ أعدائهم، وهدَّمنا بنيانهم، وأخمدنا نيرانَهم، وعَطَّلْنا عنهم ديارَهم، ومَحَوْنا بقَهْرِ التدمير آثارَهم، فظَلَّتْ شموسهُم كاسفة، ومكيدةُ قَهْرِنا لهم بأجمعهم خاسفة.

قوله جلّ ذكره: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

يرسل رياح عَطْفِه وجُودِه مبشراتٍ بوَصْلِه وجوده، ثم يُمْطِر جودَ غيبِه على أسرارهم بلُطْفِه، ويطوي بساطَ الحشمة عن ساحات قُرْبه، ويضرب قبابَ الهيبة بمشاهد كَشْفِه، وينشر عليهم أزهارَ أُنْسِه، ثم يتجلَّى لهم بحقائق قُدْسِه، ويسقيهم بيده شرابَ حُبِّه، وبعد ما محاهم عن أوصافهم أصحاهم - لا بِهِم - ولكنْ بِنَفْسه، فالعبارات عن ذلك خُرْسٌ، والإشارات دونها طُمْسٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

يحيي الأرضَ بأزهارها وأنوارها عند مجيء الأمطار لِيُخْرِجَ زرْعَها وثمارَها، ويحيي النفوس بعد نَفْرَتِها، ويوفقها للخيرات بعد فترتها، فتعمر أوطانُ الرِّفاق بصادق إقدامهم، وتندفع البلايا عن الأنام ببركات أيامهم، ويحيي القلوبَ بعد غفلتها بأنوار المحاضرات، فتعود إلى استدامة الذكر بحُسْنِ المراعاة، ويهتدي بأنوار أهلها أهلُ العسر من أصحاب الإرادات، ويحيي الأرواح بعد حَجْبَتِها - بأنوار المشاهدات، فتطلع شموسُها عن بُرْجِ السعادة، ويتصل بمشامِّ أسرار الكافة نسيمُ ما يفيض عليهم من الزيادات، فلا يبقى صاحبَ نَفَسٍ إلا حَظِيَ منه بنصيب، ويُحْيِي الأسرارَ - وقد تكون لها وَقْفَةٌ في بعض الحالات - فتنتفي بالكلية آثارُ الغيرية، ولا يَبْقَى في الدار ديَّار

ولا من سكانها آثار؛ فسَطَواتُ الحقائق لا تثبت لها ذَرَّةٌ من صفات الخلائق، هنالك الولاية لله.. سقط الماء والقطرة، وطاحت الرسوم والجملة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾.

إذا انسدَّت البصيرةُ عن الإدراك دام العمى على عموم الأوقات.. كذلك مَنْ حَقَّتْ عليهم الشقاوةُ جَرَّته إلى نفسها ـ وإنْ تَبَوَّأَ الجنةَ منزلاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾.

مَنْ فَقَدَ الحياةَ الأصلية لم يَعِشْ بالرُّقَى والتمائم، وإذا كان في السريرة طَرَشٌ عن سماع الحقيقة فَسَمْعُ الظاهر لا يفيده آكَدُ الحُجَّة. وكما لا يُسْمِعُ الصُّمَّ الدعاءَ فكذلك لا يمكنه أن يهدي العُمْيَ عن ضلالتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾.

أظهرهم على ضعف الصغر والطفولية ثم بعده قوة الشباب ثم ضعف الشيب ثم:

آخر الأمر ما ترى القبر واللحد والثرى

كذلك في ابتداء أمرهم يظهرهم على وصف ضعف البداية في نعت التردد والحيرة في الطلب، ثم بعد قوة الوصل في ضعف التوحيد.

ويقال أولاً ضعف العقل لأنه بشرط البرهان وتأمله، ثم قوة البيان في حال العرفان، لأنه بسطوة الوجود ثم بعده ضعف الخمود، لأنه الخمود يتلو الوجود ولا يبقى معه أثر.

ويقال ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾: أي حال ضعف من حيث الحاجة ثم بعده قوة الوجود ثم بعده ضعف المسكنة، قال ﷺ: «أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين»[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾.

إنما كان ذلك لأحد أمرين: إمَّا لأنهم كانوا أمواتاً.. والميت لا إحساسَ له، أو لأنهم عَدُّوا ما لقوا من عذاب القبر بالإضافة إلى ما يَرَوْن ذلك اليوم يسيراً. وإن أهل التحقيق يخبرونهم عن طول لُبْثِهم تحت الأرض. وإن ذلك الذي يقولونه من جملة ما

---

(١) أخرجه الترمذي (زهد ٣٧)، وابن ماجه (زهد ٧).

كانوا يظهرون من جَحْدهم على موجب جهلهم، ثم لا يُسْمَعُ عُذْرُهم، ولا يُدْفَعُ ضُرَّهم.

وأخبر بعد هذا في آخر السورة عن إصرارهم وانهماكهم في غيِّهم، وأن ذلك نصيبهم من القسمة إلى آخر أعمارهم.

ثم خَتَمَ السورة بأمر الرسول عليه الصلاة والسلام باصطباره على مقاساة مسارهم ومضارهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

السورة التي يذكر فيها لقمان

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ مَنْ سمعها أَقَرَّ أنَّه لا يسمع مِثلَها، ومَنْ عَرَفها أَنِفَ أَنْ يسمعَ غيرها. كلمةٌ مَنْ سمعها طابت قِصَّتُه، وزالت بكل وجهٍ غُصَّتُه، وتَمَّتْ من النِّعَم في الدنيا والعقبى حِصَّتُه، وزَهِدَ في دنياه من غيرِ رغبةٍ في عقباه؛ لأنَّها ـ وإنْ جَلَّتْ ـ غيرُ مولاه.

كلمةٌ مَنْ سمعها لم يرغب في عمارة فنائه، ولم يتحشم سرعةَ وفائه.

قوله جلّ ذكره: ﴿الٓمٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

الألف تشير إلى آلائه، واللام تشير إلى لطفه وعطائه، والميم تشير إلى مجده وسنائه؛ فبآلائه يرفع الجَحْدَ عن قلوبِ أوليائه، وبلطفه وعطائه يثبت المَحبة في أسرار أصفيائه، وبمجده وسنائه مستغنٍ عن جميع خَلْقِه بوصف كبريائه.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾: المحروس عن التغيير والتبديل.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

هو هدًى وبيان، ورحمة وبرهان للمحسنين العارفين بالله، والمقيمين عبادةَ اللَّهِ كأنهم ينظرون إلى الله. وشَرْطُ المُحْسِنِ أن يكون محسناً إلى عبادِ الله: دانيهم وقاصيهم، ومطيعِهم وعاصيهم.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: يأتون بشرائطها في الظاهر من ستر العورة، وتقديم الطهارة، واستقبال القِبْلة، والعلم بدخول الوقت، والوقوف في مكانٍ طاهر. وفي الباطن يأتون بشرائطها من طهارة السِّرِّ عن العلائق، وسَتْرِ عورةِ الباطنِ بتنقيته عن العيوب، لأنها مهما تكن فاللَّهُ يراها؛ فإذا أَرَدْتَ ألا يرى اللَّهُ عيوبَك فاحْذَرْها حتى لا تكون. والوقوف في مكان طاهر، وهو وقوف القلبِ على الحدِّ الذي أُذِنْتَ في الوقوف فيه مما لا يكون دعوى بلا تحقيق، وَرَحِمَ اللَّهُ مَنْ وقف عند حدِّه. والمعرفة بدخول الوقت فتعلم وقت التذلُّل والاستكانة. وتميز بينه وبين وقت السرور والبسط، وتستقبل القبلةَ بنَفْسِك، وتعلِّق قلبَكَ بالله من غير تخصيص بقَطْرٍ أو مكان.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

الذين يقومون بشرط صلاتهم وحقّ آداب عبادتهم هم الذين اهتدوا في الدنيا والعُقبى فسلِموا ونَجَوْا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾.

﴿لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾: ما يشغل عن ذكر الله، ويَحْجُبُ عن اللّهِ سماعُه. ويقال: هو لَغْوُ الظاهر الموجِبُ سَهْوَ الضمائر، وهو ما يكون خَوضاً في الباطل، وأخذاً بما لا يعنيك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

المُفتَرِقُ بِهَمِّه، والمُتَشتِّتُ بقلبه لا تزيده كثرةُ الوعظِ إلا نفوراً ونُبُوّاً؛ فسماعُه كَلَا سماع، ووعظه هباءٌ وضياع، كما قيل:

إذا أنا عاتَبْتُ الملولَ فإنما   أُخُطُّ بأقلامي على الماءِ أحرُفا

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

﴿ءَامَنُواْ﴾: صَدَّقوا ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: تَحقَّقُوا؛ فاتصافُ تحقيقِهم راجعٌ إلى تصديقهم، فَنَجَوْا وسَلِمُوا؛ فهم في راحاتهم مقيمون، دائمون لا يَبْرَحُون.

قوله جلّ ذكره: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾.

أمسك السمواتِ بقدرته بغير عِماد، وحَفِظَهَا لا إلى سِناد أو مشدودةً إلى أوتاد، بل بحُكْم الله وبتقديره، ومشيئته وتدبيره.

﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ...﴾ في الظاهر الجبال، وفي الحقيقة الأبدال والأوتاد الذين هم غياث الخلق، بهم يقيهم، وبهم يَصرِف البلاءَ عن قريبهم وقاصيهم.

﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ...﴾ المطر من سماء الظاهر في رياض الخُضْرَة؛ ومن سماء الباطن في رياض أهل الدنوّ والحَضْرَة.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾.

هذا خَلْقُ الله العزيز في كبريائه، فأروني ماذا خَلَقَ الذين عَبدْتم من دونه في أرضه وسمائه؟

قولـه جـلّ ذكـره: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾.

﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ الإصابة في العقل والعقد والنطق. ويقال ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ متابعة الطريق من حيث توفيق الحق لا من حيث هِمةَ النفس. ويقال ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ ألا تكون تحت سلطان الهوىٰ. ويقال ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ الكوْن بحكم من له الحكم. ويقال ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ معرفة قدْر نَفسك حتى لا تمدّ رِجليك خارجاً عن كسائك. ويقال ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ ألا تستعصي عَلَى مَنْ تعلم أَنك لا تقاومه.

﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾: حقيقة الشكر انفراج عين القلب بشهود ملاطفات الرَّبِّ. فهو مقلوب قولهم: كَشَرَتْ عن أنيابها الدابةُ؛ فيقال شكر وكشر مثل جذَب وَجبذَ.

ويقال الشكرُ تحققكَ بعجزك عن شكره. ويقال الشكر ما به يحصل كمالُ استلذاذ النعمة. ويقال الشكر فضلةٌ تظهر عَلَى اللسان من امتلاء القلب بالسرور؛ فينطلق بمدح المشكور. ويقال الشكر نعتُ كلّ غنيّ كما أن الكفرانَ وَصفُ كلّ لَئيم. ويقال الشكر قرْع باب الزيادة. ويقال الشكر قيد الإنعام. ويقال الشكر قصة يمليها صميم الفؤاد بنشر صحيفة الأفضال. ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ [النمل: ٤٠]: لأنه في صلاحها ونصيبها يسعى.

قولـه جـلّ ذكـره: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

الشِّرْكُ عَلَى ضربين: جَليّ وخفيّ؛ فالجليُّ عبادة الأصنام، والخفيّ حسبان شيء من الحدثان من الأنام. ويقال الشِّرْكُ إثباتُ غَيْرٍ مع شهود الغيب. ويقال الشرك ظلم عَلَى القلب، والمعاصي ظلم عَلَى النفس، وظلم النفوس مُعَرَّضٌ للغفران، ولكنّ ظلمَ القلوب لا سبيل إليه للغفران.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾.

أوجب الله شُكرَ نفسه وشكر الوالدين. ولما حصل الإجماع على أن شكر الوالدين بدوام طاعتهما، وألا يُكْتَفى فيه بمجرد النطق بالثناء عليهما عُلِم أنَّ شُكْرَ الحقّ لا يكْفي فيه مجرّدُ القول ما لم تكن فيه موافقةُ العقل؛ وذلك بالتزام الطاعة، واستعمال النعمة في وجه الطاعة دون صَرفِها في الزَّلَّة؛ فشكرُ الحقّ بالتعظيم والتكبير، وشكرُ الوالدين بالإنفاق والتوفير.

قـولـه جـلّ ذكـره: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا

وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

إنْ جاهداك على أن تشرك بالله، أو تسعى بما هو زلة في أمر الله ـ فلا تطعهما، ولكن عاشرهما بالجميل؛ تخشين في تليين، فاجعل لهما ظاهرك فيما ليس فيه حرَجٌ، وانفرد بسرِّك لله، ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾: وهو المنيبُ إليه حقاً من غير أن تبقى بقية في النفس.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

إذا كانت ذرة أو أقل من ذلك وسبقت بها القسمةُ فلا محالةَ تصل إلى المقسوم له بغير مرية.. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾: عالم بدقائق الأمور وخفاياها.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

الأمر بالمعروف يكون بالقول، وأبلغه أن يكون بامتناعك بنفسك عما تُنهى عنه، واشتغالك واتصافك بنفسك بما تأمر به غيرك، ومنْ لا حُكْمَ له عَلَى نَفسه لا ينفذ حكمه على غيره.

والمعروف الذي يجب الأمرُ به هو ما يُوَصِّلُ العبدَ إلى الله، والمنكرُ الذي يجب النهي عنه هو ما يشغل العبدَ عن الله.

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ تنبيهٌ عَلَى أنَّ منْ قام لله بحقِّ امْتُحِنَ في الله؛ فسبيله أنْ يصبرَ لله ـ فإنْ منْ صبرَ لله لا يَخسر عَلَى الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

يعني لا تتكبرْ عَلَى الناسِ، وطالِعْهم من حيث النسبة والتحقق بأنكَ بمشهدٍ منْ مولاك. ومَنْ عَلِمَ أنَّ مولاه ينظر إليه لا يتكبرُ ولا يتطاول بل يتخاضع ويتضاءل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾.

كُنْ فانياً عن شواهدك، مُصْطَلَماً[١] عن صَوْلَتِك، مأخوذاً عن حَوْلِكَ وقوتِك، مُنْتَشِقاً[٢] مما استولى عليك من كشوفات سِرِّك.

---

(١) اصطلم: استأصل.

(٢) انتشق الماء في أنفه واستنشقه: صبه فيه. (اللسان ١٠/٣٥٣).

وانظر مَنْ الذي يسمع صوتَكَ حتى تستفيق من خمار غفلتك؛ ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾: في الإشارة هو الذي يتكلم في لسان المعرفة من غير إذنٍ من الحقِّ. وقالوا: إنه الصوفيُّ يتكلم قبل أوانه.

ويقال إنما ينهق الحمارُ عند رؤية الشيطان فلذلك كان صوته أنكرَ الأصوات.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾.

أثبت في كل شيءٍ منها نَفْعاً لكم، فالسماء لتكونَ لكم سقفاً، والأرض لتكون لكم فِراشاً، والشمس لتكون لكم سراجاً، والقمر لتعلموا به عدد السنين والحساب، والنجوم لتهتدوا بها.

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾: الإسباغُ ما يَفْضُلُ عن قدرة الحاجة ولا تحتاج معه إلى الزيادة.

قوله: ﴿نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾: تكلموا فيه فأكثروا. فالظاهرةُ وجودُ النعمة، والبطانةُ شهودُ المنعِم. والظاهرةُ الدنيوية، والباطنةُ الدينيةُ. والظاهرة حُسْنُ الخَلْق، والباطنة حُسْنُ الخُلُق. الظاهرةُ نَفْس بلا زَلّة، والباطنةُ قلبٌ بلا غفلة. الظاهرةُ العطاء، والباطنة الرضاء. الظاهرة في الأموال ونمائها، والباطنة في الأحوال وصفائها. الظاهرةُ النعمةُ، والباطنةُ العصمةُ. الظاهرةُ توفيقُ الطاعات، والباطنةُ قبولُها. الظاهرة تسوية الخَلْقِ، والباطنة تصفية الخُلُق. الظاهرة صحبة الصالحين، والباطنة حِفْظُ حُرْمَتِهم. الظاهرةُ الزهدُ في الدنيا، والباطنةُ الاكتفاء بالمولى من الدنيا والعقبى. الظاهرة الزهد، والباطنةُ الوَجْدُ. الظاهرة توفيق المجاهدة والباطنة تحقيقُ المشاهدة. الظاهرة وظائف النَّفْس، والباطنة لطائف القلب. الظاهرةُ اشتغالُكَ بنَفْسِك عن الخَلْق، والباطنةُ اشتغالُك بربِّك عن نَفْسِك. الظاهرة طَلَبُه، الباطنةُ وجوده[1]. الظاهرةُ أَنْ تَصِلَ إليه، الباطنة أن تبقى معه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

لم يتخطوا منهم ولا من أمثالهم، ولم يهتدوا إلى مُحَوِّل أحوالهم. فأمّا منْ سَمَتْ نَفْسُه، وخلص في الله قَصْدُه فقد استمسك بالعروة الوثقى، وسَلَكَ المحجّةَ المُثْلَى: ـ

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾.

---

(١) انظر حديث القشيري عن الوجود بالرسالة ص٦١ ـ ٦٤.

وعلى العكس: ـ

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

إلينا إيابُهم، ومِنَّا عذابُهم، وعلينا حسابُهم. ولئن سألتَهم عن خالقهم لأقرُّوا، ولكن إذا عادوا إلى غيِّهم نقضوا وأصروا[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

لله ما في السموات والأرض مِلكاً، ويُجْرِي فيهم حُكْمَه حَقًّا، وإليه مَرْجِعُهم حتماً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

لو أنَّ ما في الأرض من الأشجار أقلامٌ والبحارُ كانت مداداً، وبمقدار ما يقابله تُنفَقُ القراطيسُ[2]، ويتكلَّفُ الكُتَّابُ حتى تتكسر الأقلامُ، وتفنى البحارُ، وتستوفي القراطيسُ، وتفنى أعمارُ الكُتَّاب.. ما نَفِدَت معاني ما لنا مَعَكَ من الكلام، والذي نُسْمِعُك فيما نخاطبك به لأنك معنا أبَدَ الأبد، والأبديُّ من الوصف لا يتناهى.

ويقال إن كان لك معكم كلامٌ كثير فما عندكم ينفد وما عند الله باقٍ:

صحائفُ عندي للعتابِ طَوَيْتُها ستُنْشَرُ يوماً والعتابُ يطول

قوله جلّ ذكره: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

إيجادُ القليل أو الكثير عليه وعنده سيَّان؛ فلا من الكثير مشقة وعُسْر، ولا من القليل راحةٌ ويُسْر، إنما أَمْرُه إذا أراد شيئاً أن يقول له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] يقوله بكلمته ولكنه يكوّنه بقدرته، لا بمزاولة جهد، ولا باستفراغ وُسْعٍ، ولا بدعاءِ خاطرٍ، ولا بطُرُوءِ غَرَضٍ[3].

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

﴿ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾: الكائنُ الموجودُ، مُحِقُّ الحقّ، و﴿مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾: من العَدَمِ ظَهَرَ ومعه جوازُ العَدَم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

---

(١) الآيتان (٢٤، ٢٥) لم تردا.

(٢) القراطيس: (ج) القرطاس: الصحيفة التي يُكتب فيها.

(٣) الآية (٢٩) لم ترد.

في الظاهر سلامتُهم في السفينة، وفي الباطن سلامتُهم من حدثان الكون، ونجاتهم في سفائن العصمة في بحار القدرة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ وَقُوفٍ لا ينهزم من البلايا، شَكُورٍ على ما يصيبه من تصاريف التقدير من جنسي البلايا والعطايا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.

إذا تلاطمت عليهم أمواجُ بحار التقدير تمنوا أن تلفظَهم تلك البحارُ إلى سواحل السلامة، فإذا جاد الحقُّ بتحقيق مُناهم عادوا إلى رأس خطاياهم:

وكم قد جهلتم ثم عُدْنَا بِحِلْمنا أحباءَنا: كم تجهلون ونَحْلُمُ!

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾.

يخوِّفهم مرةً بأفعاله فيقول: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ [البقرة: ٤٨]، ومرةً بصفاته فيقول: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤] ومرةً بذاته فيقول: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾.

يتفرّد بِعلم القيامة، ويعلم ما في الأرحام ذكورَها وإناثها، شقيها وسعيدها، حسنها وقبيحها ويعلم متى يُنزِل الغيث، وكم قطرة يُنزله، وبأي بقعة يُمطرها.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

ما تدري نفسٌ ماذا تكسب غداً من خير وشر، ووفاق وشقاق، وما تدري نفس بأي أرض تموت؛ أتدرك مرادَها أم يفوت؟

سورة السجدة

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

كلمةٌ سماعُها ربيعُ الجميع، من العاصي والمطيع، والشريف والوضيع. مَنْ أصغى إليها بسَمْعِ الخضوعِ ترك طَيِّبَ الهجوع، ومَنْ أصغى إليها بسمع المحابِّ تَرَكَ لذيذَ الطعامِ والشراب.

قوله جلّ ذكره: ﴿الٓمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

الإشارة من الألف إلى أنه أَلِفَ المحبون قربتي فلا يصبرون عني، وأَلِفَ العارفون تمجيدي فلا يستأنسون بغيري.

والإشارة في اللام إلى لقائي المُدَّخرِ لأحبائي، فلا أبالي أقاموا على ولائي أم قصَّروا في وفائي.

والإشارة في الميم: أي تَرَكَ أوليائي مرادَهم لمرادي.. فلذلك آثرتُهم على جميع عبادي.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة: ٢]: إذا تعذَّرَ لقاءُ الأحبابِ فأعَزُّ شيءٍ على الأحباب كتابُ؛ أنْزَلْتُ على أحبابي كتابي، وحَمَلَتْ إليهم الرسالةُ خطابي، ولا عليهم إنْ قَرَعَ أسماعَهم عتابي، فهُمْ في أمانٍ من عذابي.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

الذي لكم منا حقيقة، وإنْ التبس على الأعداء فليس يضيركم، ولا عليكم، فإنَّ صحبةَ الحبيب مع الحبيب أَلَذُّها ما كان مقروناً بفقد الرقيب.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

وتلك الأيام خَلَقَها مِنْ خَلْقٍ غير الأيام، فليس من شرط المخلوق ولا من ضرورته أن يخلقه في وقتٍ؛ إذ الوقتُ مخلوقٌ في غير الوقت وكما يستغني في كونه مخلوقاً عن الوقت استغنى الوقتُ عن الوقت.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾: ليس للعرش من هذا الحديث إلا هذا الخبر، ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ولكن القديم ليس له حدٌّ، استوى على العرش لكن لا يجوز عليه القرب بالذات ولا البُعْد، استوى على العرش ولكنه أشدُّ الأشياء تَعَطُّشاً إلى شظية من الوصال لو كان للعرش حياة؟، ولكنَّ العرشَ جمادٌ.. وأنَّى يكون للجماد مراد؟! استوى على العرش لكنه صَمَدٌ بلا نِدٍّ، أَحَدٌ بلا حَدٍّ.

﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾: إذا لم يُرِدْ بكم خيراً فلا سماءَ عنه تُظِلُّكم، ولا أرضَ بغير رضاه تُقِلُّكم، ولا بالجواهر أحدٌ يناصركم، ولا أحدَ ـ إذا لم يُغْنَ بشأنكم في الدنيا والآخرة ـ ينظر إليكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

خَاطَبَ الخَلْقَ ـ على مقدار أفهامهم ويجوز لهم ـ عن الحقائق التي اعتادوا في تخاطبهم.

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿الْعَزِيزُ﴾ مع المطيعين ﴿الرَّحِيمُ﴾ على العاصين.

﴿الْعَزِيزُ﴾ للمطيعين ليكسِرَ صولتَهم ﴿الرَّحِيمُ﴾ للعاصين ليرفعَ زَلَّتَهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿الَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾:

أَحْسَنَ صورةَ كلِّ أحدٍ؛ فالعرشُ ياقوتةٌ حمراءُ، والملائكة أولو أجنحة مثنى وثُلاثَ ورُبَاع، وجبريلُ طاووس الملائكة، والحور العين ـ كما في الخبر ـ «في جمالها وأشكالها، والجِنانُ» ـ كما في الأخبار ونص القرآن. فإذا انتهى إلى الإنسان قال: و﴿خَلْقَ الْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٧، ٨]... كل هذا ولكن:

وكم أبصرتُ من حُسْنٍ ولكن عليك من الورى وقع اختياري

خَلَقَ الإنسانَ من طين ولكن ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وخلق الإنسان من طين ولكن: ﴿فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البينة: ٨]، وخلق الإنسان من طين ولكن ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾(١) [المائدة: ١١٩]!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوٓا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾.

(١) الآية (٩) لم ترد.

لو كانت لهم ذَرَّةٌ من العرفان، وشَمَّة من الاشتياق، ونَسْمَةٌ من المحبة لَما تَعَصَّبُوا كُلَّ هذا التعصب في إنكار جوازِ الرجوعِ إلى الله ولكن قال: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

لولا غفلةُ قلوبهم وإلا لَما أحال قَبْضَ أرواحهم على مَلَكِ الموت؛ فإنَّ مَلَكَ الموتِ لا أَثَرَ منه في أحدٍ، ولا له تصرفات في نَفْسِه، وما يحصل من التوفِّي فمن خصائص قدرة الحق. ولكنهم غفلوا عن شهود حقائق الربِّ فخاطبَهم على مقدار فهمهم، وعَلَّقَ بالأغيار قلوبَهم، وكلٌّ يُخَاطَبُ بما يَحتَمِلُ على قَدْرِ قُوَّتِه وضعفه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾.

مَلَكَتْهُم الدهشةُ وغَلَبتهم الخَجْلَةُ، فاعتذروا حينَ لا عُذْرَ، واعترفوا ولا حينَ اعتراف.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

لو شئنا لَسَهَّلنا سبيلَ الاستدلال، وأدَمْنا التوفيقَ لكلِّ أحدٍ، ولكن تَعَلَّقَتْ المشيئةُ بإغواءِ قومٍ، كما تعلَّقت بإدناءِ قوم، وأردنا أن يكونَ للنار قُطَّان، كما أردنا أن يكون للجَنَّةِ سُكَّان، ولأنَّا عَلِمْنا يومَ خَلَقْنا الجنَّةَ أنه يسكنها قوم، ويوم خلقنا النارَ أنه ينزلها قومٌ، فَمِنَ المُحَالِ أن نُريدَ ألا يقعَ معلومُنا، ولو لم يحصل لم يكن عِلْماً، ولو لم يكن ذلك عِلْماً لم نكن إلهاً.. ومن المحال أن نريد ألا نكونَ إلهاً.

ويقال: مَنْ لم يتسلَّطْ عليه من يحبه لم يجْرِ في مُلْكِه ما يكرهه.

ويقال: يا مسكين أفنيتَ عُمْرَكَ في الكَدِّ والعناء، وأمضيتَ أيامَك في الجهد والرجاء، غيَّرت صفتك، وأكثرتَ مجاهدتك.. فما تفعل في قضائي كيف تُبَدِّله؟ وما تصنع في مشيئتي بأيِّ وسعٍ تردُّها؟ وفي معناه أنشدوا:

شكا إليك ما وَجَدَ ... من خانَهُ فيك الجَلَدْ
حيرانُ لو شئتَ اهتدى ... ظمآنُ لو شئتَ وَرَدْ

قوله جلّ ذكره: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قاسٍ من الهوانِ ما استوجبتَه بعصيانك، واخلُدْ في دار الخِزْي لما أسلفتَه من كفرانك.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

التصديقُ والتكذيبُ ضدان ـ والضدان لا يجتمعان؛ التكذيب هو جحودٌ واستكبار، والتصديقُ هو سجودٌ وتحقيق، فَمَنْ اتَّصَفَ بأحد، القسمين امَّحى عنه الثاني.

﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾: سجدوا بظواهرهم في المحراب، وفي سرائرهم على ترابِ الخضوع وبِساطِ الخشوع بنعت الذبول وحُكْمِ الخمود.

ويقال: كيف يستكبر مَنْ لا يَجِدُ كمالَ راحتِه ولا حقيقةَ أُنسِه إلا في تَذَلُّلِه بين يدي معبوده، ولا يؤثِرُ آجلَ جحيمه على نعيمه، ولا شقاءَه على شفائه؟!.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

في الظاهر: عن الفِراش قياماً بحقِّ العبادة والجهد والتهجد. وفي الباطن: تتباعد قلوبُهم عن مضاجعات الأحوال، ورُؤية قَدْرِ النفس، وتوهُّم المقَام ـ فإن ذلك بجملته حجابٌ عن الحقيقة، وهو للعبد سُمٌّ قاتل ـ فلا يساكنون أعمالَهم ولا يلاحظون أحوالَهم. ويفارقون مآلَفهم، ويهجرون في الله معَارفَهم.

والليل زمان الأحباب، قال تعالى: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ [يونس: ٦٧]: يعني عن كلّ شُغل وحديثٍ سوء حديث محبوبكم. والنهارُ زمانُ أهل الدنيا، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١١]، أولئك قال لهم: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠].

إذا ناجيتمونا في ركعتين في الجمعة فعودوا إلى متجركم، واشتغلوا بحرفتكم.

وأما الأحبابُ فالليلُ لهم إمَّا في طرَب التلاقي وإما في حَرَب الفراقِ، فإن كانوا في أُنسِ القربة فَلَيْلُهم أقصرُ من لحظة، كما قالوا:

زارني مَنْ هَوِيتُ بعد بعادِ ... بوصال مُجَدَّدٍ ووِدادِ
ليلة كاد يلتقي طرفاها ... قِصَراً وهي ليلة الميعادِ

وكما قالوا:

وليلةٍ زَيْنُ ليالي الدهر ... قابلتُ فيها بدرها ببدر

لم تَسْتَبِن عنْ شقَقٍ وفجرٍ حتى تولَّت وهي بِكْرُ الدهرِ

وأمَّا إن كان الوقتُ وقتَ مقاساةِ فُرقة وانفرادٍ بكُرْبة فَلَيْلُهم طويل، كما قالوا:

كم ليلةٍ فيك لا صباحَ لها أفنَيْتُها قابضاً على كبدي

قد غُصَّت العينُ بالدموع وقد وضعتُ خدي على بنان يدي

قوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]: قومٌ خوفاً من العذاب وطمعاً في الثواب، وآخرون خوفاً من الفراقِ وطمعاً في التلاقي، وآخرون خوفاً من المكر وطمعاً في الوَصْلِ.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾: يأتون بالشاهد الذي خصصناهم به؛ فإنْ طَهَّرْنا أحوالَهم عن الكدورات حضروا بأحوالٍ مُقَدَّسة، وإنْ دَنَّسْنا أوقاتهم بالآفاتِ شهدوا بحالاتٍ مُدَنَّسَة، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾؛ فالعبدُ إنما يتجر في البضاعة التي يودعها لديه سَيِّدُه:

يفديكَ بالروح صَبٌّ لو يكون له أعزّ من روحه شيء فداك به

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

إنما تَقَرُّ عينُكَ برؤية مَنْ تحبه، أو ما تحبه؛ فطالبْ قلبكَ وراعِ حالك، فيحصل اليومَ سرورُك، وكذلك غداً.. وعلى ذلك تحشر؛ ففي الخبر:

«مَنْ كان بحالة لقي الله بها».

ثم إنّ وصفَ ما قال الله سبحانه إنه لا يعلمه أحدٌ ـ مُحَالٌ، اللهم أن يُقال: إنها حال عزيزة، وصفةٌ جَليلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾.

أفمنْ كان في حال الوصال يَجرّ أذيالَه كنتْ هو في مَذلةِ الفراق يقاسي وبالَهَ؟

أفمن كان في رَوْحِ القربة ونسيم الزلفة كمن هو في هوْل العقوبة يعاني مشقة الكلفة؟

أفمن هو في رَوْح إقبالنا عليه كمن هو محنة إعراضنا عنه؟

أفمن بقي معنا كمنْ بقي عَنَّا؟

أَفمنْ هو في نهار العرفان وضياء الإحسان كمن هو في ليالي الكفران ووحشة العصيان؟

أَفمن أُيِّدَ بنور البرهان وطلعت عليه شموسُ العرفان كمن ربطَ بالخذلان ووُسم بالحرمان؟ لا يستويان ولا يلتقيان!

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: صدّقوا، و﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: بما حققوا ـ فلهم حُسْنُ الحال، وحميدُ المآلُ وجزيلُ المنال، وأما الذين كذّوا وجحدوا، وفي معاملاتهم أساءوا وأفسدوا، فقصاراهم الخزيُ والهوان، وفنونٌ من المحن وألوان.. كلما راموا من محنتهم خلاصاً ازدادوا فيها انتكاساً، ولكما أمّلوا نجاةً جُرّعوا وزيدوا ياساً[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

قومٌ عذابهم الأدنى مِحَنُ الدنيا، والعذابُ الأكبر لهم عقوبة العنبي[٢].

وقومٌ العذاب الأدنى لهم فترةٌ تتداخلهم في عبادتهم، والعذاب الأكبر لهم قسوةٌ في قلوبهم تصيبهم.

وقومٌ العذاب الأدنى لهم وقفة في سلوكهم تُنِيبهم، والعذابُ الأكبرُ لهم حجةٌ عن مشاهدهم تنالهم، قال قائلهم:

أدّبتني بانصرافِ قلبك عنّي فانظرْ إليّ فقد أحسنت تأديبي

ويقال العذاب الأدنى الخذلان في الزلة، والأكبر الهجران في الوصلة.

ويقال العذاب الأدنى تكدّرُ مشاربهم بعد صفوها، كما قالوا:

لقد كان ما بيني زماناً وبينه كما بين ريح المسك والعنبر الورد

ويقال العذاب الأكبر لهم تطاولُ أيامِ الغياب من غير تبين آخِرِ لها، كما قيل:

تطاول نأينا يا نور حتى كأن نسجتْ عليه العنكبوتُ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

إذا نُبِّهَ العبدُ بأنواع الزَّجر، وحُرِّكَ ـ لتَرْكِهِ حدودَ الرقاق ـ بصنوفٍ من التأديب ثم لم يرتدع عن فعله، واغترّ بطول سلامته، وأمِنَ من هواجم مَكْرِه، وخفايا سِرِّه.. أَخَذَه بغتةً بحيث لا يجد خرجةً مِنْ أخذته، قال تعالى: ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٥].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

---

(١) الآية (٢٠) لم ترد.

(٢) العنبة: بثرة تخرج بالإنسان تعدي، تسمند، فترم، وتمتلئ ماء، وتوجع، تأخذ الإنسان في عينه وحلقه. (اللسان ١/ ٦٣٠ مادة: عنب).

فلا تكن في مرية من لقائه غداً لنا ورؤيته لنا.

﴿وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾:

وهذا محمد ﷺ جُعِلَ رحمةً للعالمين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

لمّا صبروا على طلبنا سَعِدوا بوجودنا، وتعدّى ما نالوا من أفضالنا إلى مُتبعيهم، وانبسط شعاعُ شموسهم على جميع أهلِهم؛ فهم للخلْق هُداةٌ، وفي الدين عيون، وللمسترشدين نجوم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

يحكم بينهم، وعند ذلك يتبين المردودُ من المقبول، والمهجور من الموصول، والرضيّ من الغوّي، والعدو من الوليّ.. فكم من بهجةٍ دامت هنالك! وكم من مهجةِ ذابت عند ذلك!.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾.

أو لم يعتبروا بمنازلِ أقوامٍ كانوا في حَبرَةٍ فصاروا عِبْرَةً، كانوا في سرورٍ فآلوا إلى ثبور؛ فجميع ديارهم ومزارِهم صارت لأغيارهم، وصنوفُ أموالهم عادت إلى أشكالهم، سكنوا في ظلالهم ولم يعتبروا بمن مضى من أمثالهم، وكما قيل:

نعمةٌ كانت على قوم زماناً ثم بانت
هكذا النعمةُ والإحسانُ مذ كان وكانت

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَـٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾(١).

الإشارة فيه: تُسقى حدائقُ وَصْلِهم بعد جفاف عُودِها، وزوال المأنوسِ من معهودِها، فيعود عودُها مورقاً بعد ذبوله، حاكياً بحاله حال حصوله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَـٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

استبعدوا يومَ التلاقي وجحدوه، فأخبرهم أنه ليس لهم إلا الحسرة والمحنة إذا شهدوه.

---

(١) الأرض الجزر: قيل: إنها أرض اليمن وقيل: أرض جزر لا نبات بها كأنه انقطع عنها أو انقطع عنها المطر. (اللسان ٥/ ٣١٧ مادة: جرز).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾.

أعْرِض عنهم باشتغالك بنا، وإقبالك علينا، وانقطاعك إلينا.

﴿وَٱنتَظِرۡ﴾ زوائدَ وَصْلِنا، وعوائدَ لطفنا.

﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ هواجِمَ مقتنا وخفايا مكرنا.. وعن قريب يجد كلٌّ منتظرَه محتضراً.

سورة الأحزاب

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله شهود وجودِه يوجِبُ لَكَ تلفاً في تَلَفٍ، ووجودُ جودِه يوجِبُ لَكَ شرفاً في شرف، ففي تَلَفِكَ يكون (هو) عَنكَ الخلف، وفي شرفك تصل إلى كلِّ لُطَف.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

يا أيها المُشَرَّفُ حالاً، المُفَخَّمُ قَدْراً مِنَّا، المُعَلَّى رُتْبَةً من قِبَلِنا.. يا أيها المُرَقَّى إلى أعلى الرُّتَبِ بأسنى القُرَبِ.. يا أيها المُخَبَّرُ عنا، المأمونُ على أسرارنا، المُبَلِّغُ خطابَنا إلى أحبابنا.. اتقِ الله أن تلاحِظَ غيراً معنا، أو تساكِنَ شيئاً من دوننا، أو تُثْبِتَ أحداً سوانا، أو تَتَوَهَّمَ شظيةً مِنَ الحدثان من سوانا. ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأحزاب: ١] إشفاقاً منك عليهم، وطمعاً في إيمانهم بنا لو وافَقْتَهم في شيء أرادوه منك.

والتقوى رقيبٌ على قلوب أوليائه يمنعهم في أنفاسهم، وسَكَناتِهم، وحَرَكاتهم أن ينظروا إلى غيره ـ أو يُثْبِتوا معه غيره ـ إلا منصوباً لقدرته، مصرَّفاً بمشيئته، نافذاً فيه حُكْمُ قضيته.

التقوى لجامٌ يكبحك عمَّا لا يجوز، زمامٌ يقودك إلى ما تحب، سوطٌ يسوقك إلى ما أُمِرْتَ به، شاخصٌ يحملك على القيام بحقِّ الله، حِرْزٌ يعصمك مِنْ توَصل أعدائك إليك، عُوذَةٌ تشفيك من داء الخطأ.

التقوى وسيلةٌ إلى ساحات كَرمه، ذريعةٌ تتوسل بها إلى عقوبة جوده.

قوله جل ذكره: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

اتبعْ ولا تبتدع، واقتدِ بما نأمرك به، ولا تهتدِ باختيارك غير ما نختار لك، ولا تُعرِّج أوطان الكسل، ولا تجنح إلى ناحية التواني، وكن لنا لا لكَ، وقم بنا لا بِكَ.

قوله جل ذكره: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

انسلخْ عن إيابك، واصدق في إيابك إلينا، وتشاغل عن حسبانك معنا، واحذر ذهابك عنا، ولا تُقَصِّرْ في خطابك معنا.

ويقال التوكل تحقُّقٌ ثم تَخَلُّقٌ ثم توثق ثم تملق؛ تحققٌ في العقيدة، وتخلقٌ

بإقامة الشريعة، وتوثق بالمقسوم من القضية، وتملّقٌ بين يديه بحُسْنِ العبودية.

ويقال التوكلُ تحققٌ وتعلقٌ وتخلقٌ؛ تحققٌ بالله وتعلّقٌ بالله ثم تخلقٌ بأوامر الله.

ويقال التوكل استواءُ القلب في العدم والوجود.

قوله جل ذكره: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾.

القلبُ إذا اشتغل بشيء شُغِلَ عما سواه، فالمشتغلُ بما مِنَ العَدَم منفصلٌ عمن له القِدَمُ، والمتصل بقلبه بمن نعته القِدَم مشتغلٌ عمَّا من العدَم.. والليل والنهار لا يجتمعان، والغيبُ والغيرُ لا يلتقيان.

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾.

اللائي تظاهرتم منهن لَسْنَ أمهاتكم، والذين تبنيتم ليسوا بأبنائكم، وإن الذي صرتم إليه من افترائكم، وما نسبتم إلينا من آرائكم فذلك مردودٌ عليكم، غيرُ مقبولٍ منكم، وإن أمسكتم عنه بعد البيان نجوتم، وإن تماديتم بعد ما أعْلِمْتم أطلت المحنةُ عليكم.

قوله جل ذكره: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

راعُوا أنسابهم، فإن أردتم غير النسبة فالأخوّةُ في الدِّين تجمعكم، وقرابةُ الدِّين والشكلية أولى من قرابة النَّسَبِ، كما قالوا:

وقالوا قريبٌ من أبٍ وعمومةٍ ... فقلتُ: وإخوانُ الصفاء الأقاربُ
نُناسبهم شكلاً وعِلماً وأُلفةً ... وإن باعدتهم في الأصول المناسبُ

قوله جل ذكره: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾.

الإشارة من هذا: تقديم سُنته على هواك، والوقوفُ عند إشارته دون ما يتعلقُ به مُناك، وإيثار من تتوسل به سبباً ونسباً على أعِزّتِكَ ومَن والاكَ.

﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾:

ليكن الأجانبُ منك على جانب، ولتكن صلتك بالأقارب. وصلةُ الرحِم ليست بمقاربة الديار وتعاقب المزار، ولكن بموافقة القلوب، والمساعدة في حالتي المكروه والمحبوب:

أرواحنا في مكانٍ واحدٍ وغدت أشباحُنا بشآمٍ أو خراسان

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾.

أخذَ ميثاق النبيين وقتَ استخراج الذرية من صُلب آدم ـ فهو الميثاق الأول، وكذلك ميثاق الكلِّ. ثم عند بَعْثِ كلِّ رسول ونُبُوَّةِ كلِّ نبيٍّ أخذ ميثاقه، وذلك على لسانِ جبريل عليه السلام، وقد استخلص الله سبحانه نبيَّنا عليه السلام، فأسمعه كلامَه ـ بلا واسطة ـ ليلةَ المعراج. وكذلك موسى عليه السلام ـ أخذ الميثاق منه بلا واسطة ولكن كان لنبينا ـ ﷺ ـ زيادة حال؛ فقد كان له مع سماع الخطاب كشفُ الرؤية.

ثم أخذ المواثيق من العُبَّاد بقلوبهم وأسرارهم بما يخصهم من خطابه، فلكلٍّ من الأنبياء والأولياء والأكابر على ما يُؤهلهم له، قال ﷺ «لقد كان في الأمم مُحدَّثون فإن يكن في أمتي فَعُمَر»[1] وغيرُ عمر مشارِكٌ لعمر في خواص كثيرة، وذلك شيء يتمُّ بينهم وبين ربِّهم.

قوله جل ذكره: ﴿لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

يسألهم سؤال تشريفٍ لا سؤال تعنيف، وسؤال إيجابٍ لا سؤال عتاب. والصدقُ ألا يكون في أحوالِكَ شَوْبٌ ولا في اعتقادك رَيْبٌ، ولا في أعمالك عَيْبٌ. ويقال من أمارات الصدق في المعاملة وجودُ الإخلاص من غير ملاحظة مخلوق. والصدقُ في الأحوال تصفيتُها من غير مداخلة إعجاب.

والصدق في الأقوال سلامتها من المعاريض فيما بينك وبين نفسك، وفيما بينك وبين الناس التباعدُ عن التلبيس، وفيما بينك وبين الله بإدامة التبرِّي من الحَوْلِ والقوة، ومواصلة الاستعانة، وحفظ العهود معه على الدوام.

والصدق في التوكل عَدَمُ الانزعاج عند الفَقْدِ، وزوال الاستبشار بالوجود[2].

---

(١) أخرجه البخاري (فضائل الصحابة ٦)، (أنبياء ٥٤)، ومسلم (فضائل الصحابة ٢٣) والترمذي (مناقب ١٧)، وأحمد بن حنبل ٦، ٥٥.

(٢) ربما كان (الموجود) وبذلك يكون القشيري قد استفاد من قول أبو عبد الله بن خفيف بهذا المعنى: القناعة ترك التشوّف إلى المفقود والاستغناء عن الموجود. (الرسالة القشيرية ص١٦٠) والشاكر الذي يشكر على المفقود. (الرسالة القشيرية ص١٧٥). وقد وردت في قول أحمد النوري (الوجود) حيث قال: نعت الصوفي السكون عند العدم والإيثار عند الوجود. (الرسالة القشيرية ص٢٨١).
فهنا الوجود ضد العدم، أي وجود الأشياء وفقدانها. لكن يُستحسن أن يقتصر اصطلاح الوجود على أنه هو بعد الارتقاء عن الوجد، ولا يكون وجود الحق إلا بعد خمود البشرية لأنه لا يكون للبشرية بقاء عند ظهور سلطان الحقيقة. (الرسالة القشيرية ص٦٢).

والصدق في الأمر بالمعروف التحرُّز من قليل المداهنة[١] وكثيرها، وألا تتركَ ذلك لِفَزَعٍ أو لِطَمَعٍ، وأن تَشْرَبَ مما تَسْقِي، وتتصف بما تأمر، وتنهي (نَفْسَك)[٢] عما تَزْجُر.

ويقال الصدق أن يهتدي إليكَ كلُّ أحد، ويكون عليك فيما تقول وتظهر اعتماد. ويقال الصدق ألا تجنحَ إلى التأويلات.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

ذكرُ نعمة الله مُقابَلَتُها بالشكر، ولو تذكرتَ ما دَفَعَ عنك فيما سَلَفَ لهانت عليك مقاساةُ البلاءِ في الحال، ولو تذكرتَ ما أولاكَ في الماضي لَقَرُبَتْ من قلبك الثقةُ في إيصال ما تؤمِّله في المستقبل.

ومن جملة ما ذكَّرهم به: ﴿إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ﴾ كم بلاءٍ صَرَفَه عن العبدِ وهو لم يشعر! وكم شُغْلٍ كان يقصده فصَدَّه ولم يعلم! وكم أمرٍ عَوَّقه والعبدُ يَضِجُّ وهو ـ (سبحانه) ـ يعلم أن في تيسيره له هلاكَ العبد فمَنَعَه منه رحمةً به، والعبدُ يتَّهِمُ ويضيق صَدْرُه بذلك!

قوله جل ذكره: ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾.

أحاط بهم سُرَادقُ البلاء، وأحدقَ بهم عَسْكرُ العدوِّ، واستسلموا للاجتياح، وبلغت القلوبُ الحناجرَ، وتَقَسَّمَتْ الظنونُ، وداخَلَتْهُم كوامِنُ الارتياب، وبدا في سويدائهم جَوَلانُ الشكِّ.

﴿هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾.

ثم أزال عنهم جملتها، وقَشَعَ عنهم شِدَّتها، فانجاب عنهم سحابُها، وتفرَّقَتْ عن قلوبهم همومُها، وتَفَجَّرَتْ ينابيعُ سكينتهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا﴾.

صَرَّحوا بالتكذيب ـ لما انطوت عليه قلوبُهم ـ حين وجدوا للمقال مجالاً.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا﴾.

---

(١) المداهنة: المصانعة.

(٢) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

تواصَوْا فيما بينهم بالفرار عندما سَوَّلَتْ لهم شياطينُهم من وشك ظَفَرِ الأعداء.

قوله: ﴿وَيَسْتَـْذِنُ فَرِيقٌ﴾ يتعلّلون بانكشافِ بيوتهم وضياع مُخَلَّفَاتِهِم، ويكذبون فيما أظهروه عُذراً، وهم لم يَحْمِلْهم على فعلهم غيرُ جُبْنِهِم وقلّةُ يقينهم[(١)].

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾.

ولكن لما عزم الأمر، وظهر الجدّ لم يساعدهم الصدقُ، ولم يذكروا أنهم سَيُسألون عن عهدهم، ويُعاقبون على ما أسلفوه من ذنبهم.

قوله جل ذكره: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

لأن الآجالَ لا تأخيرَ لها ولا تقديم عليها، وكما قالوا: «إنّ الهاربَ عمّا هو كائن في كفّ الطالب يتقلبُ».

﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾: فإنّ ما يدّخره العبدُ عن الله من مالٍ أو جاهٍ أو نَفيسٍ أو قريب لا يُبارَك له فيه، ولا يجدُ به مَنْعَةً، ولا يُرزقُ منة غبطة.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

من الذي يحققُ لكم من دونه مَرْجُوًّا؟ ومن الذي يصرف عنكم دونه عَدُوًّا؟

قوله جل ذكره: ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

هم الذين كانوا يمتنعون بأنفسهم عن نصرة النبي عليه السلام، ويمنعون غيرهم ليكون جمعُهم أكثرَ وكيدُهم أخفى، وهم لا يعلمون أنّ الله يُطْلِعُ رسولَه عليه السلام عليهم ثم ذَكَرَ وَصْفَهم فقال:

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾.

إذا جاء الخوفُ طاشت من الرعبِ عقولهم، وطاحت بصائرهم، وتعطلت عن النصرة جميعُ أعضائهم. وإذا ذهبَ الخوْفُ زَيَّنوا كلامَهم، وقدّموا خداعهم، واحتالوا في أحقاد خِستهم.. أولئك هذه صفاتهم؛ لم يباشر الإيمانُ قلوبهم، ولا صدقوا فيما أظهروا من ادعائهم واستسلامهم.

---

(١) الآية (١٤) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

يحسبون الأحزابَ لم يذهبوا، ويخافون من عَوْدهم، ويفزعون من ظلّ أنفسهم إذا وقعوا على آثارهم، ولو اتفق هجومُ الأعداءُ عليكم ما كانوا إلا في حرز سيوفهم ودرية[1] رماحهم.

قوله جل ذكره: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

«كان» صلة ومعناها: لكم في رسول الله أسوة حسنة، به قدوتكم، ويجب عليكم متابعته فيما يرسمه لكم. وأقوال الرسول ﷺ وأفعاله على الوجوب إلى أن يقوم دليل التخصيص، فأما أحواله فلا سبيلَ لأحدٍ إلى الإشراف عليها، فإن ظَهَرَ شيء من ذلك بإخباره أو بدلالة أقواله وأفعاله عليه فإن كان ذلك مُكْتَسَباً مِن قِبَلِه فيُلحق في الظاهر بالوجوب بأفعاله وأقواله، وإن كان غير مكتسبٍ له فهي خصوصيةٌ له لا ينبغي لأحد أن يتعرّض لمقابلته لاختصاصه ـ ﷺ ـ بعلوّ رتبته.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾.

كما أنّ المنافقين اضطربت عقائدُهم عند رؤية الأعداء، فالمؤمنون وأهلُ اليقين ازدادوا ثِقَةً، وعلى الأعداء جرأةً، ولحكم الله استسلاماً، ومن الله قوةً.

قوله جل ذكره: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾.

شَكَرَ صنيعَهم في المراس[2]، ومدح يقينهم عند شهود الباس، وسماهم رجالاً إثباتاً لخصوصية رتبتهم وتمييزاً لهم من بين أشكالهم بعلوّ الحالة والمنزلة، فمنهم مَنْ خرج من دنياه على صدْقه ومنهم مَنْ ينتظر حكم الله في الحياة والممات، ولم يزيغوا عن عهدهم، ولم يراوغوا في مراعاة حدِّهم؛ فحقيقةُ الصدق حِفْظُ العهد وتَرْكُ مجاوزة الحدِّ.

ويقال: الصدقُ استواءُ الجهر والسِّرّ.

---

(١) الدّرية: دابة يستتر بها الصائد الذي يرمي الصيد ليصيده، فإذا أمكنه رمى. (لسان العرب ١٤/ ٢٥٥ مادة: دري).

(٢) المراس: القوة على ممارسة الأمور.

ويقال: هو الثباتُ عندما يكون الأمرُ جِدًّا.

قوله جل ذكره: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

في الدنيا يجزي الصادِقين بالتمكين والنصرة على العدو وإعلاء الراية، وفي الآخرة بجميلِ الثواب وجزيلِ المآب والخلودِ في النعيم المقيم والتقديمِ على الأمثال بالتكريم والتعظيم.

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ﴾ على الوجه الذي سَبق به العلم، وتَعَلَّقت به المشيئة.

ويقال: إذا لم يجزم بعقوبة المنافق وعَلَّقَ القولَ فيه بالرجاء فبالحريّ ألا يُخَيِّبَ المؤمنَ في رجائه.

قوله جل ذكره: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾.

لم يُشمت بالمسلمين عَدُوًّا، ولم يُوصِّلْ إليهم مَنْ كيدهم سوءاً، ووضع كيدهم في نحورهم، واجتثَّهم من أصولهم، وبيّن بذلك جواهر صِدْقهم وغير صدقهم، وشكَر مَنْ استوجب شكره مِنْ جملتهم، وفضحَ مَنْ استحقّ الذمّ من المدلسِّين منهم.

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾.

إنّ الحقّ ـ سبحانه ـ إذا أجمل أكمل، وإذا شفى كفى، وإذا وفى أوفى. فأظفر المسلمين عليهم، وأورثهم معاقلَهم، وأذلّ مُتعزِّزَهم، وكفاهم بكلّ وجهِ أمرهم، ومكّنهم من قَتْلِهم وأسرِهم ونهبِ أموالهم، وسَبى ذراريهم(١).

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

لم يُرِدْ أنْ يكونَ قلبُ أحد من المؤمنين والمؤمنات منه في شُغل، أو يعود إلى أحد منه أذى أو تعب، فخيَّرَ ـ ﷺ ـ نساءَه، ووفقَ اللَّهُ سبحانه عائشةَ أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ حتى أخبرت عن صِدْقِ قلبها، وكمالِ دينها ويقينها، وبما هو المنتظر

(١) الذراري: (ج) الذرية: النسل.
الآية (٢٧) لم ترد.

من أصلها وتربيتها، والباقي جرين على منهاجها، ونَسَجْنَ على مِنوالهَا.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾.

زيادةُ العقوبة على الجُرْم من أمارات الفضيلة، ولذا فضل حدُّ الأحرار على العبيد وتقليل ذلك من أمارات النَقص؛ فلما كانت منزلتُهن في الشرف تزيد على منزلة جميع النساء ضاعَفَ عقوبتهن على أجرامهن، وضاعف ثوابهن على طاعتهن. وقال:

﴿۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾.

ثم قال:

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾.

نهاهن عن التبذُّل، وأمَرَهُنَّ بمراعاةِ حُرْمَةِ الرسول ﷺ، والتصاون عن تَطَمُّعِ المنافقين في مُلاينتهن.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾.

«الرجس»: الأفعالُ الخبيثةُ والأخلاقُ الدنيئة؛ فالأفعال الخبيثة الفواحش ما ظهرَ منها وما بطن، وما قلّ وما جلّ. والأخلاقُ الدنيئةُ الأهواءُ والبِدَعُ كالبخل والشحِّ وقَطْعِ الرَّحِم، ويريد بهم الأخلاقَ الكريمةَ كالجُودِ والإيثار والسخاء وصِلَةِ الرَّحِم، ويديم لهم التوفيق والعصمة والتسديد، ويُطهرهم من الذنوب والعيوب.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾.

أذْكُرْنَ عظيمَ النعمة وجليل الحالةِ التي تجري في بيوتكن؛ من نزول الوحي ومجيء الملائكة، وحُرْمَةِ الرسول ـ ﷺ ـ والنور الذي يقتبس في الآفاق، ونور الشمس الذي يَنبسط على العالم، فاعرفن هذه النعمة، وارعين هذه الحُرمة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ﴾.

الإسلام هو الاستسلام، والإخلاص، والمبالغة في المجاهدة والمكابدة.

﴿وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾.

الإيمان هو التصديق وهو مجمع الطاعات، ويقال هو التصديق والتحقيق، ويقال هو انتسامُ الحقيقةِ في القلب. ويقال هو حياة القلب أولاً بالعقل، ولقومٍ بالعلم، ولآخرين، بالفهم عن الله، ولآخرين بالتوحيد، ولآخرين بالمعرفة، ولآخرينَ إيمانُهم حَياةُ قلوبهم بالله.

﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾.

القنوتُ طولُ العبادة.

﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾.

في عهودهم وعقودهم ورعاية حدودهم.

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾.

على الخصال الحميدة، وعن الصفات الذميمة، وعند جريان مفاجآت القضية.

﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾.

الخشوعُ إطراقُ السريرة عند بوادِهِ الحقيقة.

﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾.

بأموالهم وأنفسهم حتى لا يكون لهم مع أحدٍ خصومة فيما نالوا منهم، أو قالوا فيهم[(١)].

﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾.

الممسكين عمَّا لا يجوز في الشريعة والطريقة.

﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾.

في الظاهر عن الحرام، وفي الإشارة عن جميع الآثام.

﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾.

بألسنتهم وقلوبهم وفي عموم أحوالهم لا يَفْتُرُون، ولا يَتَدَاخَلُهم نسيان.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

فهؤلاء لهم جميلُ الحُسْنَى، وجزيلُ العُقْبَى.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾.

الافتياتُ عليه في أمره والاعتراضُ عليه في حُكْمِه وتَرْكُ الانقيادِ لإشارته. قَرْعٌ لبابِ الشِّرْكِ، فَمَنْ لم يُمْسِكْ عنه سريعاً وَقَعَ في وهدته.

---

(١) هذا من أمارات الفتوة. (انظر الرسالة القشيرية ص٢٢٦ ـ ٢٣١.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

أنعم الله عليه بأن ذَكَرَه وأفرده من بين الصحابة باسمه.

ويقال: أنعم اللَّهُ عليه بإقبالِكَ عليه وتَبَنِّيك له. ويقال: بأن أَعْتَقْتَه، ويقال: بالإيمان والمعرفة. وأنعَمْتَ عليه بالعتق وبأن تَبَنَّيْتَه. ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ إقامةً للشريعة مع عِلْمِك بأن الأمر في العاقبة إلى ماذا يؤول؛ فإنَّ اللَّهَ أَطْلَعَكَ عليه، وقلت له: «اتق». قوله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾: أي لم تُظهِرْ لهم أنَّ الله عَرَّفَكَ ما يكون من الأمر في المستأنف.

﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾ مِنْ مَيْلِكَ ومحبتك لها لا على وجهٍ لا يَحِلُّ. ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي وتخشى عليهم أن يقعوا في الفتنة من قصة زيد، وكانت تلك الخشية إشفاقاً منكَ عليهم، ورحمةً بهم.

ويقال: وتستحي من الناسِ ـ واللَّهُ أحقُّ أن تَسْتَحِيَ منه.

ويقال: تخشى الناسَ ألا يطيقوا سماعَ هذه الحالة ولا يَقْوَوا على تَحَمُّلِها، فربما يخطر ببالهم ما يَنْفِي عنهم وُسْعَهم.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ لكي لا يكونَ عليك حَرَجٌ، ولكي لا يكونَ على المؤمنين حرج في الزواج بزوجات أدعيائهم، فإنما ذلك يُحَرَّمُ في الابن إذا كان من الصُّلْبِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾.

لا يُعَارَضُ ولا يُنَاقَضُ، ولا يُرَدُّ ولا يُجْحَد. وما كان على النبيِّ من حَرَجٍ بوجهٍ لكونه معصوماً.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾.

«ويخشونه»: علماً منهم بأنه لا يُصِيبُ أحداً ضررٌ ولا محذورٌ ولا مكروهٌ إلا بتقديره؛ فيفردونه بالخشية إذ عَلِموا أنه لا شيءَ لأحدٍ مِنْ دونه.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

لم يكن مضافاً إلى ولدٍ فله عليكم شفقة الآباء.. ولكن ليس بأبيكم.

ويقال نَسَبُه ظاهرٌ.. ولكن إنما يُعْرَفُ بي لا بنَسَبِه؛ فقلَّما يقال: محمدُ بن عبد الله، ولكن إلى أبد الأبد يقال: محمد رسول الله. وشعارُ الإيمانِ وكلمةُ التوحيدِ ـ بعد لا إله إلا الله ـ محمدٌ رسولُ الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾.

الإشارة فيه أَحِبُّوا الله؛ لأنَّ النبي ـ ﷺ قال: «مَنْ أحبَّ شيئاً أكثر من ذكره» فيجب أن تقول: الله، ثم لا تنسَ الله بعد ذكرك الله.

ويقال: اذكروا الله بقلوبكم؛ فإنَّ الذكرَ الذي تمكن استدامته ذكرُ القلب؛ فأمَّا ذِكْرُ اللسانِ فإدامته مُسْرَمَداً كالمتعذر.

﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾: التسبيحُ من قبيل الذكر، ولكنه ذَكَرَه بلفظين لئلا تعتريك سآمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

الصلاةُ في الأصلِ الدعاءُ؛ فصلاتُه ـ سبحانه ـ دعاؤه لنا بالتقريب، وصلاةُ الملائكة دعاؤهم إليه لنا: بالغفرانِ للعاصي، وبالإحسانِ للمطيع.

ويقال الصلاةُ من الله بمعنى الرحمة، ومن الملائكة بمعنى الشفاعة.

﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ﴾: من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

ويقال ليخرجكم من الظلمات إلى النور أي يعصمكم من الضلال بَرْوح الوصال.

ويقال ليخرجكم من ظلمات التدبير إلى فضاء شهود التقدير.

ويقال ليخرجكم من ظلمات نفوسكم إلى أنوار البصائر في قلوبكم.

ويقال ليخرجكم من أسباب التفرقة إلى شهود عين التوفيق، والتحقق بأوصاف الجمع.

ويقال يصونكم من الشِّرْكِ، ويُثبِّتكم بشواهد الإيمان.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾.

التحيةُ إذا قُرِنَتْ بالرؤية، واللقاءُ إذا قُرِنَ بالتحية فلا يكون ذلك إلا بمعنى رؤية البَصَر.

والسلام خطاب يفاتح به الملوك إخباراً عن عُلُوِّ شأنهم ورتبتهم، فإلقاؤه حاصِلٌ وخطابُه مسموعٌ، ولا يكون ذلك إلا برؤية البصر.

﴿أَجْرًا كَرِيمًا﴾: الكَرَمُ نَفْيُ الدناءة، وكريماً أي حسناً.

وفي الإشارة أجرهم موفور على عملٍ يسير؛ فإنَّ الكريم لا يستقصي عند البيع والشراء في الأعداد، وذلك تعريف بالإحسانِ السابق في وقت غيبتك.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾.

يأيها المُشرَّفُ مِنْ قِبَلِنا إنّا أرسلناكَ شاهداً بوحدانيتنا، وشاهداً تُبَشِّر بمتابعتنا، وتحذِّرُ من مخالفة أَمْرِنا، وتُعْلِمُ الناسَ مواضعَ الخوف مِنَّا، وداعياً إلينا بنا، وسراجاً يستضيئون به، وشمساً ينبسط شعاعُها على جميع مَنْ صَدَّقَكَ، وآمَنَ بك، فلا يصل إلينا إلَّا مَنْ اتبَّعَكَ وخَدَمَك، وصَدَّقك وقَدَّمَك.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بفضلِنا معهم، ونَيْلِهم طَوْلَنا عليهم، وإحسانِنا إليهم. ومَنْ لم تُؤَثِرْ فيه بَرَكَةُ إيمانه بك فلا قَدْرَ له عندنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

لا توافِقْ مَنْ أعرضنا عنه، وأضللنا به من أهلَ الكفر والنفاق، وأهل البِدَع والشِّقاق. وتوكلْ على الله بدوام الانقطاع إليه، وكفى بالله وكيلاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

إذا آثرتُم فراقَهُنَّ فَمَتِّعوهن ليكونَ لهن عنكم تذكرة في أيام الفرقة في أوائلها إلى أَنْ تتوطَّنَ نفوسُهن على الفرقة.

﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾: لا تذكروهن بعد الفراق إلا بخير، ولا تستردوا منهن شيئاً تخلَّفتُم به معهن، فلا تجمعوا عليهن الفراقَ بالحال والأضرارَ من جهة المال.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

وسَّعْنَا الأمرَ عليكَ في باب النكاح بكم شِئْتَ؛ فإنك مأمونٌ من عيب عدم التسوية بينهن وعدم مراعاة حقوقهن، ومن الحَيْفِ عليهن. والتَّوْسِعةُ في بابِ النكاحَ تَدُلُّ على الفضيلة كالحُرِّ والعبد.

قوله جلّ ذكره: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾.

﴿مَن تَشَاءُ﴾: على ما تتعلَّق به إرادتُك، ويقع عليه اختيارُك، فلا حَرَج عليك ولا جُنَاح.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾.

لمَّا اختَرْنَهُنَّ أثبت اللَّهُ لهن حُرْمة، فقال: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ﴾ فكما اخترْنَكَ فلا تَخْتَرْ عليهن امرأةً أخرى تطييباً لقلوبهن، ونوعاً للمعادلة بينه وبينهن، وهذا يدل على كَرَمِه ـ والحِفَاظُ كَرَمٌ ودَيْن.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾ الآية.

أَمَرَهم بحفظ الأدب في الاستئذان، ومراعاة الوقت، ووجوب الاحترام؛ فإذا أُذِنَ لكم فادخلوا على وجه الأدب، وحِفْظِ أحكام تلك الحضرة، وإذا انتهت حوائجكم فاخرجوا، ولا تتغافلوا عنكم، ولا يَمْنَعَنَّكُم حُسْنُ خُلُقِه من حِفْظِ الأدب، ولا يحملنَّكم فرطُ احتشامِه على إبرامه.

﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ﴾: حُسْنُ خُلُقِه ـ ﷺ ـ جَرَّهم إلى المباسطة معه، حتى أنزل اللَّهُ هذه الآية.

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾: نَقَلَهم عن مألوفِ العادة إلى معروف الشريعة ومفروض العبادة، وبَيَّنَ أن البَشَرَ بَشَرٌ ـ وإن كانوا من الصحابة، فقال:

﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾.

فلا ينبغي لأحدٍ أن يأمن نفسه ـ ولهذا يُشَدَّدُ الأمرُ في الشريعة بألا يخلوَ رجلٌ بامرأة ليس بينهما مَحْرَمَة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾.

وهذا من خصائصه ـ ﷺ، وفي هذا شبه رخصة لمن يلاحظ شيئاً من هذا، فيهتم بالاتصال مَنْ له مَيْلٌ إليهنَّ بغيرهن بعد وفاته ـ وإنْ كان التحرُّزُ عنه ـ وعن أمثال هذا مِنْ تَرْكِ الحظوظ ـ أتمَّ وأعلى.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾.

حِفظُ القلبِ مع الله، ومراعاةُ الأمر ـ بينه وبين الله ـ على الصِّحَةِ في دوام الأوقات لا يَقْوى عليه إلا الخواصُّ من أهل الحضور.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ الآية.

لما نزلت آيةَ الحجابِ شقَّ عليهن وعلى النسوان وعلى الرجال في الاستتار، فأنزل اللَّهُ عزَّ وجلَّ هذه الآية للرخصة في نظر هؤلاء إلى النساء، ورؤية النساء لهم على تفصيل الشريعة.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾.

أراد الله ـ سبحانه ـ أن تكون للأمة عنده ـ ﷺ ـ يَدُ خدمةٍ كما له بالشفاعة عليهم يَدُ نعمةٍ، فأمَرَهم بالصلاة عليه، ثم كافأ ـ سبحانه عنه؛ فقال ﷺ: «مَنْ صَلّى عليَّ مرةً صلى اللَّهُ عليه عشر مرات»(١) وفي هذا إشارة إلى أن العبدَ لا يستغني عن الزيادة من الله في وقتٍ من الأوقات؛ إذ لا رتبةَ فوق رتبةِ الرسولِ، وقد احتاج إلى زيادةِ صلواتِ الأمَّةِ عليه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

يُؤذون اللَّهَ ورسولَه بعمل المعاصي التي يستحقون بها العقوبة، ويؤذون أولياءه. ولـمَّا قال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] فكذلك مَنْ آذى رسولَه وأنبياءَه عليهم السلام والمؤمنين فقد آذاه، ومعناه تخصيص حالتهم وإثبات رتبتهم.

ثم ذكر قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ..﴾ وذكر عقوبتهم، فجعل إيذاءَ الرسولِ مقروناً بما ذكر من إيذاء الله، ثم ذكر إيذاء المؤمنين، ويدلُّ ذلك على أن رتبة المؤمنين دون رتبة الرسول ﷺ.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

هذا تنبيهٌ لهن على حِفظِ الحُرمة وإثبات الرُّتْبَة، وصيانةٌ لهن، وأمرٌ لهن

(١) أخرجه النسائي (أذان ٣٧)، (سهو ٥٥)، وأحمد بن حنبل ٢، ١٦٨، ٣٧٢، ٣٧٥، ٤٨٥.

بالتصاونِ والتعفُّفِ. وقَرَنَ بذلك تهديده للمنافقين في تعاطيهم ما كان يشغل قلبَ الرسول ﷺ من الإرجاف[١] في المدينة: -

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

إنهم إنْ لَمْ يمتنعوا عن الإرجاف وأمثال ذلك لأجرينا معهم سُنَّتَنا في التدمير على مَنْ سَلَف من الكفار.

ثم ذَكَرَ مسألة القوم عن قيام الساعة وتكذيبهم ذلك، ثم استعجالهم قيامَها من غير استعدادٍ لها، ثم أخبر بصعوبة العقوبة التي علم أنه يُعَذِّبهم بها، وما يقع عليهم من الندامة على ما فَرَّطوا[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾.

نسبوه إلى الأُدْرَة[٣]، وأنَّ به عيباً في الخِلْقَة، ولكنه كان رجلاً حَيِيًّا، وكان إذا اغتسل لا يتجرَّد (من ثوبه)[٤]، فتوهموا به ذلك. وذات يوم خلا ليغسلَه، ووضع ثيابَه على حَجَرٍ فأمشى اللَّهُ الحَجَرَ بثيابه، وموسى يعدو خَلْفَه حتى تَوَسَّطَ بني إسرائيل، وشاهدوا خِلْقَتَه سليمةً، فوقف الحجرُ، وأخذ موسى ثيابه ولبسها، وهذا معنى قوله: ﴿فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ في القَدْرِ والمنزلةِ. والوجاهة النافعة ما كان عند الله لا عند الناس، فقبولُ الناسِ لا عِبْرَةَ به ولا خَطَرَ له، لا سيما العوامُ فإنهم يَقْبَلُون بلا شيء، ويَرُدُّون بلا شيء قال قائلهم:

إنْ كنتُ عندك يا مولاي مطرحاً ... فعند غيرك محمولٌ على الحدق

وقالوا: فإنْ أَكُ في شِرَارِكُم قليلاً ... فإني في خِيارِكُم كثيرٌ

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

القول السديد كلمةُ الإخلاص، وهي الشهادتان عن ضميرٍ صادق.

---

(١) الإرجاف: الخبر الكاذب المثير للفتن والاضطراب (ج) أراجيف.
(٢) الآيات من (٦٣ حتى ٦٨) لم ترد.
(٣) الأُدْرَةُ: نفخة في الخصية. (اللسان ٤/ ١٥ مادة: أدر).
(٤) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

ويقال سدادُ أقوالِكم سدادُ أعمالِكم، ولقد هَوَّن عليكم الأمرَ فَمَنْ رضي بالقالة ـ وهي الشهادة بأن تَرَك الشِّرْك ـ وقالها بِصِدْقٍ أصلح اللَّهُ له أعمالَه الدنيوية من الخَلَل، وغَفَرَ له في الآخرة الزَّلَل؛ أي حصلت له سعادةُ الدارين.

ويقال ذَكَرَ ﴿أَعْمَٰلَكُمْ﴾ بالجمع، وقدَّمها على الغُفران؛ لأنه ما لم يُصْلِح لك في حالِكَ أعمالَكَ وإنْ لم يَكْفِكَ ما أَهَمَّكَ من أشغالك.. لم تتفرغْ إلى حديث آخِرَتِكَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

هنا إضمار أي: أهل السموات والأرض والجبال.

وقيل أحياها وأعقلها، وهو كقوله: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾: أي أبين أنْ تَخُنَّ فيها، ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾: أي خان فيها. وهم مراتب: فالكفار خانوا في الأصل الأمانة ـ وهي المعرفة ـ فكفروا. ومَنْ دُونَهم خانوا بالمعاصي، وبعضهم أشَدُّ وبعضهم أهون، وكلٌّ احتقب من الوِزْرِ مقدارَه.

ويقال «أبين» إباءَ إشفاقٍ لا إباء استكبارٍ، واستعفين... فعفا عنهن، وأعفاهن مِنْ حَمْلها.

﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾: قَبِلَها ثم ما رعوها حقَّ رعايتها.. كلٌّ بقدره.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ بصعوبة حَمْلِ الأمانة في الحال، والعقوبة التي عليها في المآل. وقومٌ قالوا عَرَضَ الأمانةَ على السمواتِ والأرضِ وعَرَضَها على الإنسان، فهن استعفين وهؤلاء لم يستعفوا ولم يراعوا.

ويقال: الأمانة القيام بالواجباتِ أصولها وفروعها.

ويقال: الأمانة التوحيد عقداً وحفظ الحدود جهداً.

ويقال: لمَّا حَمَلَ آدمُ الأمانة وأولاده قال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٧٠].. وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

ويقال حمل الإنسانُ بالله لا بنَفْسِه. ويقال ظَلَمَ نَفْسَه حيث لم يُشْفِقْ مما أشفقت منه السمواتُ والأرضون. والظُّلْمُ وَضْعُ الشيءِ في غير موضعه.

ويقال كاشَفَ السمواتِ والأرضَ بوصف الربوبية والعظمة فأشفقوا، وكاشَفَ آدَمَ وذُرِّيَّته بوصف اللطفِ فقَبِلوا وحملوا، وفي حال بقاء العبد بالله يحمل السمواتِ والأرضَ بشعرة من جَفْنِه. ويقال كانت السموات والأرض أصحاب الجثث والمباني فأشفقوا من حَمْل الأمانة. والحِمْلُ إنما تحمله القلوب. وآدم كان صاحبَ معنًى فَحَمل، وأنشدوا:

حملت جبال الحكم فوقي وإنني لأَعْجَزُ عن حمل القميص وأضعفُ

ويقال لما عَرَضَ الحقُّ الأمانةَ على الخَلْقِ عَلَّقَ آدمُ بها هِمَّتَه، فصرف بهمته جميع المخلوقات عنها، فلمَّا أبوا وأشفقوا حَمَلَها الإنسانَ طوعاً لا كرهاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

اللام في «ليعذب» للصيرورة والعاقبة؛ أي صارت عاقبةُ هذا الأمرِ عذابَ المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات بالمغفرة والتجاوز. (تَمَّت السورة) قد يقال: المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات والعاصون من المؤمنين والمؤمنات وَرَدَ ذكرهم.. فأين العابدون وذكرهم؟

ولكنهم في جملة مَنْ مضى ذِكْرُهم، وليسوا في المشركين ولا في المنافقين، فلا محالة في جملة العاصين الذين تاب عليهم.

فيأيها العاصي، كنت تحذر أَنْ يُخْرِجَك العابدون من جملتهم، فاشهد الجبَّارَ - في هذا الخطاب - كيف أدرجك في جملتهم؟!

سورة سبأ

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله كلمةٌ سَلَّابةٌ غلّابة، نهّابةٌ، وهابةٌ؛ تسلب القلوب.. ولكن لا كل قلب، وتغلب الألبابَ ولكن ليس كل لب، وتنهب الأرواح ولكن مِنَ الأحباب، وتَهَبُ الارتياح.. ولكن لقوم مخصوصين مَنْ الطلّاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

افتتح السورة بذكر الثناء على نفسه، ومَدْحُه لنفسه إخبارٌ عن جلالِه، واستحقاقه لنعوت عزِّه وجمالِه، فهو في الأزل حامدٌ لنفسِه محمودٌ، وواحدٌ موجود، في الآزال معبود، وبالطلبات مقصود.

﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: المُلْكُ لا يكون بالشركة؛ فلا مَلِكَ إلا الله. وإنْ أجرى هذا الاسمَ على مخلوق بالزنجيُّ لا يتغير لونُه وإنْ سُمِّيَ كافوراً!

﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ مِنَ الذين أَعتقهم، وفي النعمة أغرقهم.

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ بتخليد قومٍ في الجنة، وتأبيد قومٍ في النار.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ من الحَبِّ تحت الأرض، والماءِ يرسب فيها، والأشياءِ التي تُلْقَى عليها، والناس يُقْبَرُون في الأرض..

﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من النبات والأزهار، والموتى يُبعثون.

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من القَطْرِ والمَلَكِ، والبركة والرزق، والحُكْمِ.

﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الصحف، وحوائج الناس: وهِمَمِ الأولياء.

﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ﴾ بعباده، ﴿الْغَفُورُ﴾ لجميع المذنبين من المسلمين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا

يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

كرّر في القرآن تكذيبهم بالساعة، واستبعادهم لذلك، والردَّ عليهم. وأخبر عن سابق عِلمه بهم، وأنه لا يخرج شيء من معلوماته عن علمه، فأثبت علمه بكل شيءٍ وشموله لكل شيء.. لأنه لو لم يكن له علم لكان نقصاً، ولأنه لو خرَجَ معلومٌ واحدٌ عن علمهِ لكان بقدرته نقصٌ، والنقصُ ـ بأي وصفٍ كان ـ لا يجوز في صفته بحالٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ الآياتَ..

المحسنون منهم يجازيهم بالخيرات المتصلة، والكافرون منهم يكافئهم على كفرهم بالعقوبات غيرَ منفصلة.

ويرى الذين أوتوا العلم كتابك الذي أَتَيْتَ به حَقاً وصِدْقاً. والذين كفروا قال بعضهم لبعض: إنَّهم يرون أن هذا الذي تقول به من النشر والحساب والبعث كذبٌ، أو أنَّ بِك جِنَّةً، ثم أقام عليهم حُجة التجويز بما أجرى به سُنَّته في الخلق والإبداع.. فما زادهم ذلك إلا جحوداً، وما قابلوه إلا عنوداً[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِۖ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

«داود» اسم أعجمي، وقيل سمي داود لأنه داوى جَرْحه، وَرَدَ في القصة أنه قال في إحدى مناجاته: يا رب، إني أرى في التوراة ما أعطيتَ لأوليائك وأنبيائك من الرتب فأعطنيها فقال: إني ابتليتهم فصبروا، فقال: إني أصبر على بلائك، فأعطني ما أعطيتهم، فأبلاه، فوقف، فأعطاه ما أعطاهم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًاۖ﴾: تكلموا في هذا الفضل؛ فمنهم مَنْ أراد ما ذكره بعده وهو قوله للطير: ﴿أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾: وكذلك الجبال، وكان في ذلك تنفيس في وقت حُزْنِه وبكائه. وقيل ذلك الفضلُ رجوعُه إلى الله ـ في حال ما وقع له ـ بالتنصل والاعتذار. ويقال هو شهودُه موضِعَ ضرورته وأنه لا يُصْلِحُ أمرَه غيرُه. ويقال طيب صوته عند قراءة الزبور حَتى كان ليرْغبُ في متَابعته مَنْ يسمع إليه. ويقال حلاوةُ صوته في المناجاة. ويقال حُسْنُ خُلقه مع أمته الذين اتبعوه، ويقال توفيقه للحكم بين أمته بالعدل...

---

(١) الآيات من (٥ حتى ٩) لم ترد.

قوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ أمرَ الجبالَ والطيرَ بمجاوبته حتى خرَجَ إلى الجبال والصحارى ينوح على نفسهِ.

ويقال أوحى الله له: يا داود، كانت تلك الزَّلَّةُ مباركةً عليك! فقال. يا رب، وكيف؟ فقال: كنتَ تجيء قبلها كما يجيء المطيعون والآن تجيء كما يجيء أهل الذنوب!

يا داود، إن أنينَ المذنبين أحبُّ إليّ من صُراخ العابدين!

ويقال، كان داود يقول. اللهمّ لا تَغفرْ للخاطئين، غيرةً منه وصلابةً في الدين... فلما وقع له ما وقع كان يقول. اللهم اغفر للمذنبين، فعسى أن تغفرَ لداود فيما بينهم.

ويقال لمَّا تاب الله عليه، واجتمع الإنسُ والجنُّ والطير بمجلسه، وَرفع صوتَه، وأداره في حَنَكِه على حسب ما كان من عادته تفرّقت الطيور وقَالوا. الصوتُ صوتُ داود والحال ليست تلك! فأوحَى اللَّهُ إليه هذه وَحْشةُ الزّلة، وتلك كانت أُنسَ الطاعة.. فكان داودُ يبكي وينوح ويصيح والطير والجبالُ معه.

وَيقال ليس كلُّ مَنْ صاح وراءه معنى، فالمعنى كان مع داود لا مع الجبال والطير...

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾. ألان له الحديدَ، وجعل ذلك معجزةً له، وجعل فيه توسعةَ رزقه، ليجدَ في ذلك مكسباً، لِيَقْطَعَ طَمَعَه عن أُمته في ارتفاقه بهم ليباركَ لهم في اتّباعِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾.

أي آتينا سليمانَ الريح أي سَخّرناها له، فكانت تحمل بساطة بالغدو مسيرة شهر؛ وبالرواح مسيرةَ شهر.

وفي القصة أنه لاحظ يوماً مُلْكَه، فمال الريحُ ببساطه، فقال سليمان للريح: استوِ، فقالت الريح: استوِ أنت، فما دمتَ مستوياً بقلبك كنتُ مستوياً بك، فلما مِلْتَ مِلتُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

أي وآتيناه ذلك، فكانت الشياطينُ مُسَخَّرةً له، يعملون ما يشاء من الأشياء التي ذكرها سبحانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾.

أي اعملوا يا آل داود للشكر، فقوله: «شكراً» منصوب لأنه مفعول له.

ويقال شكراً؛ منصوب لأنه مفعول به مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [المؤمنين: ٤].

وقد مضى طَرَفٌ من القول في الشكر. والشكور كثير الشكر، والأصل في الشكر الزيادة، والشكيرة اسم لما ينبت تحت الأشجار منها، ودابة شكور إذا أظهرت من السِّمَن فوق ما تُعطَى من العَلَفِ؛ فالشكور الذي يشكر على النعمة فوق ما يشكر أمثالُه وأضرابُه. وإذا كان الناسُ يشكرونه على الرخاء فالشكور يشكره في البلاء.

والشاكر يشكر على البَذْلِ، والشكور على المنع[1]... فكيف بالبذل؟

والشكور يشكر بقلبه ولسانه وجوارحه ومالِه، والشاكر ببعض هذه.

ويقال في ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ قليلٌ مَنْ يأخذ النعمة مني ولا يحملها على الأسباب؛ فلا يشكر الوسائطَ ويشكرني. والأكثرون يأخذون النعمة من الله، ويَجِدُون الخيرَ مِنْ قِبَلِه ثم يتقلدون المِنَّةَ من غير الله، ويشكرون غيرَ الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾.

كان سليمانُ ـ عليه السلام ـ يتكىء على عصاه وقتما قُبِضَ، وبقي على ذلك الوصف مدةً، والشياطين كانوا مُسَخَّرين يعملون ما أمرهم به، ويتصرفون على الوجه الذي رَسَمَ لهم، وينتهون عمَّا زَجَرَهم، فقد كانوا يتوهمُّون أنه حيٌّ. ثم إنَّ الأَرَضَة[2] أكلت عصاه فَخَرَّ سليمانُ فَعلِمَ الشياطينُ عندئد أنه مات، فرجعوا إلى أعمالهم الخبيثة، وانفكَّ عنهم ما كانوا عليه من التسخير؛ وهكذا المَلِكُ الذي يقوم مُلْكه بغيره، ويكون استمساكه بعصا. فإنه إذا سَقَطَ سَقَطَ بسقوطه، ومَنْ قام بغيره زال بزواله.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

كانوا في رَغَدٍ من العَيْش وسلامة الحال ورفاهته، فأُمِروا بالصبر على العافية

---

(١) جاءت العبارة بالرسالة القشيرية ص١٧٥: الشاكر الذي يشكر عند البذل، والشكور الذي يشكر عند المطل.

(٢) الأرضة: ضربان: ضرب صغار مثل كبار الذر وهي آفة الخشب خاصة، وضرب مثل كبار النمل ذوات أجنحة وهي آفة كل شيء من خشب ونبات، غير أنها لا تعرض للرطب وهي ذات قوائم، والجمع أرضٌ. (اللسان ٧/ ١١٣ مادة: أرض).

والشكر على النعمة، وهذا أمرٌ سهلٌ يسيرٌ، ولكنهم أعرضوا عن الوفاق، وكفروا بالنعمة، وضيَّعوا الشكر، فَبَدَّلوا وبُدِّلَ بهم الحال، كما قالوا:

تبدلت وتبدلنا يا حسرةً لِمَن ابتغى عِوَضاً لِسَلْمَى فلم يَجِدِ

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ[1] وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٍ[2] وَأَثۡلٍ[3] وَشَيۡءٍ مِّن سِدۡرٍ[4] قَلِيلٍ﴾.

كذلك من الناس من يكون في رَغَدٍ من الحال، واتصالٍ من التوفيق، وطَرَبٍ من القلب، ومساعدةٍ من الوقت، فيرتكبُ زَلَّةً أو يسيء أدباً أو يتبع شهوةً، ولا يعرف قَدْرَ ما هو به، فيتغير عليه الحالُ؛ فلا وقتَ ولا حالَ، ولا طربَ ولا وصالَ؛ يُظْلِمُ عليه النهارُ وقد كانت لياليه مضيئةً، كما قلنا.

ما زلت أختال في زمانٍ وحالٍ حتى أَمِنْتُ الزمانَ مَكْرَه

حال عليَّ الصدودُ حتى لم تَبْقَ مما شَهِدْتَ ذرَّة

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾.

ما عوملوا إلا بما استوجبوا، ولا سُقُوا إلَّا مِمَّا ثَبِطوا[5]، وما وقعوا إلَّا في الوَهْدَةِ التي حَفَرُوا، وما قُتِلُوا إلا بالسيف الذي صَنَعُوا!

﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى...﴾: ما كان من شأنهم إلا التمادي في عصيانهم، والإصرار على غيهم وطغيانهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾.

فرَّقناهم تفريقاً حتى اتخذهم الناسُ مثلاً مضروباً؛ يقولون: ذهبوا أيدي سبأٍ،

---

(١) العرم: السيل الشديد الذي لا يُطاق دفعه.

(٢) الخمط: ضرب من الأراك له حَمْل يؤكل، وقيل: هو شجر قاتل أو سم قاتل، وقيل: شجر مثل السدر وحمله كالتوت، وقيل: يقال لكل نبت قد أخذ طعماً من مرارة حتى لا يمكن أكله خمط، وقيل غير ذلك. (اللسان ٧/ ٢٩٦ مادة: خمط).

(٣) الأثل: شجر يشبه الطرفاء إلا أنه أعظم منه وأجود عوداً تسوىٰ به الأقداح الصفر الجياد. (اللسان ١١/ ١٠ مادة: أثل).

(٤) السدر: شجر شائك من فصيلة النبقيات مهده فلسطين، ينمو برياً وزراعياً، وخشبه شديد الصلابة شائع الاستعمال، وله ثمر فيه حلاوة. واحدته سدرة (ج) سدر.

(٥) ثبطه: عوّقه وشغله وبطأ به عنه.

وتفرَّقوا أيادي سبأ. وفي قصتهم آياتٌ لكل صبَّار على العاقبة، شكور على النعمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾.

صدَّق عليهم إبليس ظنّه ـ وإنْ كان لا يملك لنفسه أمراً، فإبليس مُسَلَّطٌ على أتباعه من الجنّ والإنس، وليس به من الإضلال شيء، ولو أمكنه أن يَضُرَّ غيرَه لأمكنه أن يمسكَ على الهداية نَفْسَه، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥].

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾: يهدي من يشاء ويضل من يشاء. ثم أخبر ـ سبحانه وتعالى ـ أنه بمُلْكِه متفرّدٌ، وفي الألوهية متوحّدٌ، وعن الأضداد والأنداد متعزّزٌ، وأنهم لا يملكون مثقالَ ذرّةٍ، ولا مقياسَ حَبَّةٍ، وليس منهم نصير، ولا شريك ولا ظهير، لا في الدنيا ولا في الآخرة، وأن الملائكة في السماءِ بوصف الهيبة فَزِعون، وفي الموقف الذي أثبتهم الحقُّ واقفون، لا يفترون عن عبادته ولا يعصون[1].

ثم قال جلّ ذكره: ﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

لم يَقُلْ أحدٌ ـ مع شِرْكِه ـ إنه يُحِيلُ في الرزق على أحدٍ غيره، فكما لا شريكَ له في الرزق ولا شريكَ له في الخَلْق فلا شريكَ له في استحقاق العبادة والتعظيم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

ولا تسألون عما أجرمنا ولا نحن نسأل عن إجرامكم... ويوم الجمع يحاسِب اللَّهُ كُلًّا على أعماله، ويُطَالِبُ كُلاً بشأنه، لا يؤاخِذُ أحداً بعمل غيره، وكلٌّ يُعْطَى كتابَه، ويَطْلُبُ اللَّهُ مِنْ كلِّ واحدٍ حسابَه.

وقد أجرى الله سُنَّتَه بأن يجمع بين عباده، ثم يعاملهم في حال اجتماعهم بغير ما يعاملهم في حال افتراقهم. فللاجتماع أثرٌ كبيرٌ في الشريعة، وللصلاة بالجماعة أثر مخصوص. وقد عاتب اللَّهُ ـ سبحانه ـ الذين يتفرقون عن النبي ﷺ، ومَدَحَ مَنْ لا يتفرَّق إلا عن استئذان.

---

(١) الآيتان (٢٢، ٢٣) لم تردا.

والشيوخُ ينتظرون في الاجتماع زوائد، ويستروحون إلى هذه الآية:
﴿قُلْ يَجْمَعُ . . .﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيكَ لا شريك لكَ، هو لك، تملكه وما ملك، لانهماكهم في ضلالتهم. وبعد تحققهم بأنها جمادات لا تفقه ولا تقدر، ولا تسمع ولا تُبصر، وقعت لهم شبهةُ استحقاقها العبادة، فإذا طولبوا بالحجة لم يذكروا غير أنهم يُقلدون أسلافهم. . . وهذا هو الضلال البعيد والخُسران المبين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أَرسلناكَ مُؤيَّداً بالمعجزات، مُشرَّفاً بجميع الصفات، سيداً في الأرضين والسموات، ظاهراً لأهل الإيمان، مستوراً عن بصائر أهل الكفران ـ وإن كنتَ ظاهراً لهم من حيث العيان، قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾.

لكثرة ما يقولون هذا كرّره اللّهُ في كتابه خبراً عنهم، والجواب إن لكم ميعاد يومٍ، وفي هذا الميعاد لا تستأخرون ساعةً ولا تستقدمون.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾.

لو رأيتهم يومذاك لرأيتَ منظراً فظيعاً؛ يرجعُ بعضهم إلى بعضِ القولَ، ويُحيل بعضهم على بعضِ الجُرمَ؛ يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا: أنتم أضللتمونا، ويُنكرُ الذين استكبروا ويقولون: بل أنتم اتبعتمونا. . . وهكذا أصحابُ الزلاتِ الأخلاءُ في الفساد، قال تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وكذلك الجوارحُ والأعضاء غداً يشهد بعضها على بعض؛ فاليدُ تقول للجملة أخذت، والعين تقول أبصرت، والاختلاف في الجملة عقوبة، ومَنْ عمل بالمعاصي أخرج الله عليه كل من هو أطوع له، ولكنهم لا يعلمون ذلك، ولو علموا لاعتبروا، ولو اعتبروا لتابوا ووفّقوا. . . ولكن ليقضي اللّهُ أمراً كان مفعولا[1].

---

(١) الآيتان (٣٢، ٣٣) لم تردا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ .

أي قابلوا رُسُلَنا بالتكذيب، وصَبَر رُسُلُنا... وماذا على هؤلاء الكفار لو آمنوا بهم؟ فهم لنجاتهم أرسلوا، ولصلاحِهم دَعَوا وبلغُّوا، ولو وافقوهُم لسعدوا... ولكنّ أقساماً سبقت، وأحكاماً حقت، والله غالبٌ على أمره.

﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ .

ليس هذا بكثرة الأموال وَالأولاد، وإنما هي بصائرُ مفتوحةٌ لقوم، وأخرى مسدودةٌ لقوم[١] .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ .

لا تستحقّ الزّلفى عند الله؛ بالمال والأولاد، ولكن بالأعمال الصالحة والأحوال الصافية والأنفاس الزاكية، بلْ بالعناية السابقة، وَالهداية اللاحقة، والرعاية الصادقة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾: يضاعف على ما كان لِمَنْ تقدمهم من الأمم ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ مِنْ تكّدر الصفوة والإخراج من الجنة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ .

هم الذين لا يحترمون الأولياء، ولا يراعون حقّ اللّهِ في السرّ، فهم في عذاب الاعتراض على أولياء الله، وعذاب الوقوع بشؤم ذلك في ارتكاب محارم الله، ثم في عذاب السقوط من عين الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ .

منَ الخَلَف في الدنيا الرضا بالعَدَم والفقد، وهو أتمّ من السرور بالموجود؛ ومن ذلك الأنسُ بالله في الخلوة؛ ولا يكون ذلك إلا مع التجريد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ .

قومٌ كانوا يعبدون الملائكة فيختبرهم عنهم؛ فيتبرأون منهم وينزّهون الله ويسبحونه، فيفتضح هؤلاء ـ والافتضاحُ عند السؤال من شديد العقوبة، وفي بعض الأخبار:

أنّ غداً منْ يسألهم الحقّ فيقعُ عليهم من الخجل ما يجعلهم يقولون: عذِّبنا ربنا بما شئت من ألوان العقوبة ولا تعذبنا بهذا السؤال![٢]

---

(١) الآية (٣٦) لم ترد.   (٢) الآية (٤١) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

الإشارة في هذا أنّ مَن علقَ قلبه بالأغيار؛ وظنّ صلاحَ حاله بالاحتيال؛ والاستعانة بالأمثال والأشكال ينزعُ اللّهُ الرحمةَ من قلوبهم؛ ويتركهم، ويشوشُ أحوالهم، فلا لهم من الأمثال والأشكال معونة، ولا لهم مِنْ عقولهم في أمورهم استبصار، ولا إلى الله رجوع، وإنْ رجعوا لا يرحمهم ولا يجيبهم، ويقول لهم: ذوقوا وبالَ[1] ما به استوجبتم هذه العقوبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

الحكماء، والأولياء ـ الذين هم الأئمة في هذه الطريقة ـ إذا دَلوا الناسَ عَلَى الله. قال بعض إخوان السوء ـ مثل بعض المتنصحين من أهل الغفلة وأبناء الدنيا لمريدٍ: ما هذا؟ من الذي يطيق كل هذا؟ ربما لا تُتمّمُ الطريق!

لا بُد من الدنيا ما دُمت تعيش!... وأمثال ذلك، حَتى يميل هذا المسكينُ عند قبول النصح، وربما كان له هذا من خواطره الدنية... فيهلك ويضلّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾.

الإشارة من هذا إلى أهل الغفلة؛ يعارضون أصحابَ القلوب فيما يجري من الأمور، بما تشوِّش إليهم نفوسُهم، ويخطر ببالهم من هواجسهم عن مُقْتَضَى تفرقةِ قلوبهم ـ على قياس ما يقع لهم ـ مِنْ غيرِ استنادٍ إلى إلهامٍ، أو اعتمادٍ على تقديرٍ من الله وإفهام.

وأهلُ الحقائق ـ الذين هم لسانُ الوقت ـ إذا قالوا شيئاً أو أطلقوا حديثاً، فلو طولبوا بإقامة البرهان عليه لم يمكنهم؛ لأن الذي يتكلم عن الفراسة[2] أو عن الإلهام، أو كان مُسْتَنْطَقاً فليس يمكن لهؤلاء إقامة الحجة على أقوالهم. وأصحابُ الغفلة ليس لهم إيمان بذلك، فإذا سمعوا شيئاً منه عارضوهم فيهلكون، فسبيلُ هؤلاء الأكابر عند ذلك أن يسكتوا، ثم الأيام تجيب أولئك[3].

---

(١) ذاق فلان وبال عمله؛ أي ثقل فعله وعاقبته السيئة وجزاءه الوخيم.

(٢) الفِراسة: مأخوذة من التفرس وهو التثبت والنظر، ويطلق أيضاً على التوسم من السمة وهي العلامة، والفراسة قد تكون عادية تُعرف بقرائن الأحوال. وقد تكون وهيبة إلهامية يخلقها الله في القلب وهي المراد غالباً عند القوم.

(٣) الآية (٤٥) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

يقول: إذا سوَّلَتْ لكم أنفسُكم تكذيبَ الرسولِ فأنعموا النظرَ... هل تَرَوْنَ فيه آثار ما رميتوه به؟ هذا محمد ﷺ. قُلْتُم إنه ساحر ـ فأين آثار السحر على أحواله وأفعاله وأقواله؟ قلتم إنه شاعر ـ فمن أي قسم من أقسام الشعر كلامه؟ قلتم إنه مجنون ـ فأيّ جنونٍ ظهر منه؟

وإذ قد عجزتم عن ذلك... فهلَّا عرفتم أنه صادق[1]؟!

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

يقذف بالحقِّ على باطل أهل الغفلة فتزول حِيَلُهم، ويظهر عَجْزُهم. ويقذف بالحقِّ على أحوال أهل الخِلاف فيضمحل اجتراؤهم، ويحيق بهم شؤمُ معاصيهم.

ويقذف بالحقِّ ـ إذا حضر أصحاب المعاني ـ على ظُلُماتِ أصحاب الدعاوى فيخمد ثائرتَهم، ويفضحهم في الحال، ويفضح عوارُهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾.

الباطلُ على مَمَرِّ الأيام لا يزيد إلا زهوقاً، والحقُّ على مَمَرِّ الأيام لا يزداد إلا قوةً وظهوراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾.

إنْ كنتُ مهتدياً فبربِّي لا بجهدي. وإنْ كنت عندكم من أهل الضلال فوبالُ ضلالتي عائدٌ عليَّ، ولن يضرَّكم ذلك. فانظروا أنتم إلى أنفسكم... أين وقعتم؟ وأي ضرر يعود عليكم لو أطعتموني؟ لا في الحال تخسرون، ولا في أنفسكم تتعبون، ولا في جاهكم تنقصون.

وما أخبركم به نَقْصِ أصنامكم فبالضرورة أنتم تعلمون! فما لكم لا تُبْصِرون؟ ولا لأنفسكم تنظرون؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.

أي لو رأيتَ ذلك لرأيتَ فظيعاً، وأمراً عظيماً؛ إذا أخذهم بعد الإمهال فليس إلا الاستئصال.

﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾.

---

(١) الآية (٤٧) لم ترد.

إذا تابوا ـ وقد أُغْلِقَتْ الأبواب، وندمُوا ـ وقد تقطَّعَت الأسباب. . . فليس إلا الحسرات والندم، ولات حين ندامة!

كذلك من استهان بتفاصيل فترته، ولم يَسْتَفِقْ من غَفْلَتِه يُتَجَاوَزُ عنه مرةً، ويُعْفَى عنه كَرَّةً، فإذا استمكنت منه القسوةُ وتَجَاوَزَ سوءُ الأدبِ حَدَّ الغفلة، وزاد على مقدار الكثرة. . . يحصل له من الحقِّ رَدٌّ، ويستقبله حجاب، وبعد ذلك لا يُسْمَعُ له دعاء، ولا يُرْحَمُ له بكاء[1]، كما قيل:

فَخَلِّ سبيلَ العينِ بعدك للبُكَا ... فليس لأيام الصفاءِ رجوعُ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾.

التوبة يشتهونها في آخر الأمر وقد فات الوقت، والخَصْمُ يريد إرضاءه فيستحيي أن يذكر في ذلك الوقت، وينسدُّ لسانه ويعتقل؛ فلا يمكنه أن يُفْصِحَ بما في قلبه، ويودُّ أَنْ لو كان بينه وبين ما أسلفه بُعْدٌ بعيد، ويتمنى أن يُطِيعَ فلا تساعده القوةُ، ويتمنى أن يكون له ـ قبل خروجه من الدنيا ـ نَفَسٌ. . . ثم لا يتفق.

(١) الآية (٥٣) لم ترد.

سورة فاطر

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ سماعُها يوجب رَوْحاً لمنْ كان يشاهد الإتقان، ويُوجِبُ لَوْحاً لمن كان بوصف البيان؛ فالرَّوْحُ من وجود الإحسان، واللوحُ من شهود السلطان، وكلٌّ مُصيب، ولكلٍّ من الحقِّ نصيب.

قوله جلّ ذكره: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾.

استحق المدحَ والثناءَ على انفراده بالقدرة على خلق السموات والأرض.

﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾:

تَعرَّف إلى العباد بأفعاله، ونَدَبَهم إلى الاعتبار بها، فمنها ما نعلم منه ذلك معاينةً كالسموات والأرض وغيرها، ومنها ما سبيلُ الإيمانِ به الخبرُ والنقلُ ـ لا بدليل العقل ـ والملائكةُ مِنْ ذلك؛ فلا نتحقق كيفيّة صُوَرِهم وأجنحتهم، وكيف يطيرون بأجنحتهم الثلاثة أو الأربعة، ولكن على الجملة نعلم كمال قدرته، وصِدْقَ كلمته.

قوله: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾: قيل الخُلُقُ الحَسَنُ، وقيل الصوتُ الحَسَنُ، وقيل الصوتُ الحَسَنُ وقيل مَلَاحَةُ العينين، وقيل الكياسة في الخِيَرَة، وقيل الفصاحة في المنطق، وقيل الفهم عن الله، ويقال السخاء والجود، ويقال الرضا بالتقدير، ويقال علو الهمة، ويقال التواضع، ويقال العفة عند الفقر. ويقال الظرف في الشمائل، ويقال أن تكون مُحَبَّباً إلى القلوب، ويقال خفة الروح، ويقال سلامة الصدر من الشرور، ويقال المعرفة بالله بلا تأمُّل برهان[1]، ويقال الشوق إلى الله، ويقال التعطُّف على الخَلْقِ بجملتهم، ويقال تحرُّر القلوب من رِقِّ الحدثنان بجملته، ويقال ألا يَطْلُبَ لنفسه منزلةً في الدارين.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

---

(١) انظر حديث القشيري عن المعرفة بالله بالرسالة القشيرية ص٣١١ ـ ٣١٧.

المُوَسَّعُ عليه رِزْقهُ لا يُضَيِّقُ عليه غيرُ الله، والمحرومُ لا يُوَسِّعُ عليه غيرُ الله.

ويقال: ما يلج في قلوب العارفين من أنوار التحقيق لا سحابَ يستره، ولا ضياءَ يقهره.

ويقال: ما يلزم قلوبَ أوليائه من اليقين فلا مُزِيلَ له، وما يُغْلَق على قلوب الأعداء من أبواب الذكر فلا فاتحَ له غيره ـ سبحانه.

ويقال الذي يقرنه بقلوب أوليائه وأحوالهم من التيسير فلا مُمْسِكَ له، والذي يمنعه عن أعدائه ـ بما يُلْقيهم فيه من انغلاق الأمور واستصعابها ـ فلا مُيَسِّرَ له من دونه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

مَنْ ذَكَرَ النِّعمةَ فصاحبُ عبادةٍ، ونائِلُ زيادة، ومَنْ ذَكَرَ المُنْعِمَ فصاحبُ إرادةٍ، ونائِلُ زيادة... ولكنْ فرقٌ بين زيادة وزيادة؛ ذلك زيادته في الدارين عطاؤه، وهذا زيادته لقاؤه: اليوم سِرّاً بِسِرٍّ من حيث المشاهدة، وغداً جَهْراً بِجَهْرٍ من حيث المعاينة.

والنعمة على قسمين: ما دَفَعَ عنه من المِحَن، وما نَفَعَ به من المِنَن؛ فَذِكْرُه لما دَفَعَ عنه يوجِبُ دوامَ العصمة، وذكره لما نَفَعَه به يوجب تمام النعمة.

﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ...﴾؟ وفائدة هذا التعريف أنه إذا عَرَفَ أنه لا رازقَ غيره لم يُعلِّقْ قلبَه بأحدٍ في طلب شيءٍ، ولم يتذلل في ارتفاقٍ لمخلوقٍ، وكما لا يرى رِزْقَه من مخلوقٍ لا يراه من نفسه أيضاً؛ فيتخلَّصُ من ظلمات تدبيره واحتياله، ومن تَوَهُّم شيءٍ من أمثاله وأشكاله، ويستريح لشهود تقديره، ولا محالة يُخْلِصُ في توكله وتفويضه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

هذه تسليةٌ للرسول ﷺ، وتسهيلٌ للصبر عليه؛ فإذا عَلِمَ أن الأنبياء عليهم السلام استقبلهم مثلما استقبله، وأنَّهم صَبَرُوا وأنَّ اللَّهَ كفاهم، فهو يسلك سبيلَهم ويقتدي بهم، وكما كفاهم عَلِمَ أنه أيضاً يكفيه. وفي هذا إشارة للحكماء وأرباب القلوب في موقفهم من العوامِّ والأجانبِ عن هذه الطريقة، فإنهم لا يقبلون منهم إلا القليل، بينما أهل الحقائق أبداً منهم في مقاساة الأذى إلا بستر حالهم عنهم.

والعوامُّ أقرب إلى هذه الطريقة من القُرّاءِ المتقشفين، ومن العلماء الذين هم لهذه الأصول ينكرون.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

وَعْدُ اللَّهِ حقٌ في كل ما أخبر به أنه يكون، فَوعْدُه في القيامة حقٌّ، ووعده لِمَنْ أطاعه بكفاية الأمور والسلامة حقٌّ، ووعده للمطيعين في الآخرة بوجود الكرامة حقٌّ، وللعاصين بالندامة حقٌّ، فإذا عَلِمَ العبدُ ذلك استعدَّ للموت، ولم يهتم بالرزق، فيكفيه اللَّهُ شُغْلَه، فينشط العبدُ في استكثار الطاعة ثقةً بالوعد، ولا يُلِمُّ بالمخالفاتِ خوفاً من الوعيد.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

عدواةُ الشيطان بدوام مخالفته؛ فإنَّ مِنَ الناس مَنْ يعاونه بالقول ولكن يوافقه بالفعل، ولن تقوى على عداوته إلا بدوام الاستغاثة بالربِّ، وتلك الاستغاثة تكون بصدق الاستعانة. والشيطانُ لا يفتر في عداوتك، فلا تَغْفَلْ أنت عن مولاك لحظةً فيبرز لك عدوُّك؛ فإنه أبداً متمكِّنٌ لك.

﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ﴾ وحِزْبه هم المُعرِضون عن الله، المشتغلون بغير الله، الغافلون عن لله. ودليلُ هذا الخطاب: إن الشيطانَ عدوُّكم فأبغضوه واتخذوه عدواً، وأنا وَلِيُّكم وحبيبُكم فأَحِبُّوني وارْضَوْا بي حبيباً.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

الذين كفروا لهم عذابٌ مُعَجَّلٌ وعذابٌ مُؤَجَّلٌ، فَمُعَجَّلُه تفرقةُ قلوبهم وانسداد بصائرهم ووقاحة هِمَّتِهم حتى أنهم يرضون بأن يكون الصنمُ معبودَهم. وأمَّا عذاب الآخرة فهو ما لا تخفى على مسلم ـ على الجملة ـ صعوبتُه.

وأمَّا ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فلهم مغفرةٌ أي سَتْرٌ لذنوبهم اليومَ، ولولا ذلك لافتضحوا، ولولا ذلك لَهلَكوا.

﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾: والأجرُ الكبيرُ اليومَ سهولةُ العبادةِ ودوامُ المعرفة، وما يناله في القلب من زوائد اليقين وخصائص الأحوال. وفي الآخرة: تحقيقُ السُّؤْلِ ونَيْلُ ما فوق المأمول.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

معنى الآية: أفمن زين له سوءُ عمله فرآه حسناً كمن ليس كذلك؟ لا يستويان!

ومعنى ﴿زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أن الكافرَ يَتَوَهَّمُ أَنَّ عملَه حَسَنٌ، قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

ثم الراغبُ في الدنيا يجمع حلالَها وحرامَها، ويحوّش(١) حُطَامها، ولا يفكر في زوالها، ولا في ارتحاله عنها قبل كمالها؛ فلقد زين له سوء عمله والذي يتبع شهواته ويبيع مؤبّد راحاته في الجنة بساعةٍ فلقد زين له سوء عمله. وإن الذي يُؤثِرُ على ربِّه شيئاً من المخلوقات لَهُوَ من جملتهم. والذي يتوهَّمُ أنه إذا وَجَدَ نجاتَه ودرجاتِه في الجنة ـ وأنَّ هذا يكفيه.. فقد زُيِّن له سوءُ عمله حيث يتغافل عن حلاوة المناجاة. والذي هو في صحبة حظوظه ولا يُؤْثِرُ حقوق اللّهِ فلقد زين له سوء عمله فرآه حسناً.

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾: يعني إذا عَرَفْتَ حقَّ التقدير، وعَلِمْتَ أنهم سقطوا من عين الله، ودَعَوْتَهم جَهْراً، وَبذلَتْ لهم نُصْحاً، فاستجابتُهم ليست لك، فلا تَجْعَلْ على قلبك من ذلك مشقةً ولا عناءً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾.

أجرى سُنَّتَه بأنه يُظْهِرُ فَضْلَه في إحياء الأرض بالتدريج؛ فأولاً يرسل الرياح ثم يأتي بالسحاب، ثم يوجِّه ذلك السحاب إلى الموضع الذي يريد له تخصيصاً كيف يشاء، ويُمْطِرُ هناك كيف يشاء. كذلك إذا أراد إحياءَ قلبِ عبدٍ بما يسقيه وينزل عليه من أمطار عنايته، فيُرْسِلُ أولاً رياحَ الرجاء، ويزعج بها كوامنَ الإرادة، ثم ينشىء فيها سُحُبَ الاهتياج، ولوعةَ الانزعاج، ثم يجود بمطرٍ يُنْبِتُ في القلب أزهارَ البَسْطِ، وأنوارَ(٢) الرَّوْح، فيطيب لصاحِبه العَيْشُ إلى أن تمَّ لطائفُ الأُنْسِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾.

مَنْ كان يريد العزة بنفسه فَلْيَعْلَمْ أَنَّ العزةَ بجملتها لله، فليس للمخلوق شيءٌ من العِزَّة. ويقال مَنْ كان يريد العزةَ لنفسه فللّه العِزَّةُ جميعاً، أي فليطلبها من الله، وفي آية أخرى أثبت العزة للّهِ ولرسوله وللمؤمنين، وقال هاهنا ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾؛ وَوَجْهُ الجميع بينها أن عِزَّ الربوبية لله وَصْفاً، وعزَّ الرسول، وعزّ المؤمنين لهم فضلاً من الله ولطفاً؛ فإذاً العِزَّةُ لله جميعاً. وعزُّه سبحانه ـ قُدْرَتُه. أو ويقال العزيز هو القاهر الذي لا يُقْهَرُ؛ فيكون من صفات فعله على أول القولين.. ومن صفات ذاته على القول الآخر. ويقال العزيز هو الذي لا يُوصَلُ إليه مِنْ قولهم: أرضٌ عَزاز إذا لم تستقر عليها الأقدام، فيرجع معناه إلى جلال سلطانه.

---

(١) حوّش المال: جمعه.

(٢) أنوار: (ج) النور: الزهر أو الأبيض منه. الواحدة: نورة.

ويقال العزيز الذي لا مِثْلَ له؛ من قولهم؛ عَزَّ الطعام في اليد. فيرجع إلى استحقاقه لصفات المجد والعلو.

قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾: الكلم الطيب هو الصادرُ عن عقيدةٍ طيبةٍ ـ يعني الشهادتين ـ عن إخلاص. وأراد به صعودَ قَبُولٍ، لأنَّ حقيقةَ الصعود في اللغة بمعنى الخروج ـ ولا يجوز في صفة الكلام.

﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾: أي يقبله. ويقال العملُ الصالحُ يرفع الكَلِمَ الطيب. ويقال الكَلِمُ الطيبُ ما يكون موافقاً للسُّنَّة، ويقال هو ما يشهد بِصِحَّتِه الإذنُ والتوقيف. ويقال هو نُطْقُ القلبِ بالثناء على ما يستوجبه الربُّ. ويقال هو ما يكون دُعاءً للمسلمين. ويقال ما يتجرد حقاً للحقِّ ولا يكون فيه حَظٌّ للعبد. ويقال ما هو مُسْتَخْرَجٌ من العبد وهو فيه مفقود. ويقال هو بيانُ التنصُّل وكلمة الاستغفار.

ويقال العمل الصالح ما يصلح للقبول، ويقال الذي ليس فيه آفة ولا يُطْلَبُ عليه عِوَضٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾.

أي يَقْلِبُ عليهم مَكْرَهم فيما يتوهمونه من خيرٍ لهم يَقْلِبُه محنةً عليهم. ويقال: تَخْلِيَتُه إياهم ومَكْرَهم ـ مع قدرته على عصمتهم، وكَوْنُه لا يعصمهم هي عذابهم الشديد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

ذَكَّرَهم نِسْبَتَهم لئلا يُعْجَبوا بحالتهم، ثم إن ما يُتَّخَذُ من الطين سريعُ التغيُّر، قليلُ القوة في المُكث، لكنه يَقْبَلُ الانجبار بالماء إذ تنجبر به طينته؛ فإذا جاد الحقُّ عليه بماء الجودِ أعاده بعد انكساره بالذنوب.

وإذا كان لا يَخْفى عليه ـ سبحانه ـ شيءٌ من أحوالهم في ابتداء خَلْقَتِهم، فَمَنْ يُبالِ أَنْ يَخْلُقَ مَنْ يعلم أنه يَعْصي فلا يبالي أَنْ يغفرَ لِمَنْ رآه يعصي.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

لا تستوي الحالتان: هذه إقبالٌ على الله، واشتغالٌ بطاعته، واستقلال بمعرفته.. وهذه إِعْراضٌ عن الله، وانقباضٌ عن عبادته، واعتراض ـ على الله ـ في قسمته وقبضته.

هذه سبب وصاله، وهذه سببُ هَجْرِه وانفصاله، وفي كلّ واحدةٍ من الحالتين يعيش أهلها، ويُزْجِي أصحابُها وقتَها. ولا يستوي الوقتان: هذا بَسْطٌ وصاحبُه في رَوْح، وهذا قبضٌ وصاحبه في نَوْح. هذا خوفٌ وصاحبه في اجتياح، وهذا رجاءٌ وصاحبه في ارتياح. هذا فَرْقٌ وصاحبُه بوصف العبودية، وهذا جَمْعٌ وصاحبُه في شهود الربوبية.

﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾: كذلك كُلٌّ يتقرّبُ في حالته لربِّه، ويتزَيَّنُ على بابه، وهو حِلْيَتُه التي بها يتحلّى من طَرَبٍ أو حَرَبٍ، من شَرَفٍ أو تَلَفٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾.

تغلب النَّفْسُ مرةً على القلب، ويغلب القلبُ مرةً على النَّفْس. وكذلك القبضُ والبسط فقد يستويان، ومرةً يغلب القبضُ على البسط، ومرةً يغلب البسطُ على القبض، وكذلك الصحو والسُّكْرُ، وكذلك الفناء والبقاء.

وَسَخَّرَ شموسَ التوحيد وأقمارَ المعرفة على ما يريد من إظهاره على القلوب.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾: فأروني شظيةً من النفي أو الإثبات لما تدعونه من دونه! وإذْ لم يُمْكِنْكُم ذلك.. فَهَلَّا أَقْرَرْتُم، وفي عبادته أخلصتم، وعن الأصنام تبرَّأتُم؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

إنْ استعنتُم بأصنامكم لا يُعينوكم، وإنْ دَعَوْتُموهم لا يسمعوا دعاءكم، ولو سَمِعُوا ـ على جهة ضَرْبَ المَثَلِ ـ لا يستجيبون لكم؛ لأنهم لا يَمْلِكُون نَفْعَ أنفسِهم. فكيف يَمْلِكون نَفْعَ غيرهم؟!

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾: لا يؤمنون إلا في ذلك الوقت، ولكن لا ينفعهم الإيمانُ بعد زوال التكليف.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

الفقر[1] على ضربين: فقر الخِلْقَة وفقر الصفة؛ فأمّا فقر الخِلْقَة فهو عامٌّ لكلّ أحدٍ؛ فكلُّ مخلوقٍ مفتقرٌ إلى خالقه، فهو قد حَصَلَ من العَدَم، فهو مفتقر إليه ليبديه

(١) انظر حديث القشيري عند الفقر في الرسالة ص٢٧١ ـ ٢٧٩.

وينشيه، ثم بعد ذلك مفتقرٌ ـ في حال بقائه إليه ـ لِيُديمَه ويقيه. فاللَّهُ ـ سبحانه ـ غنيٌّ، والعبدُ فقير؛ العبدُ فقيرٌ بعينه واللَّهُ غنيٌّ بعينه.

وأمَّا فقر الصفة فهو التجرُّد، ففقرُ العوامِ التجرُّدُ من المال، وفقر الخواص التجرد من الأعلال لِيَسْلَمَ لهم الفقر.

والفقر على أقسام: فقر إلى الله، وفقر إلى شيء هو من الله؛ معلوم أو مرسوم وغير ذلك. ومَنْ افتقر إلى شيءٍ استغنى بوجود ذلك الشيء؛ فالفقيرُ إلى الله هو الغنيُّ بالله، والافتقار إلى الله لا يخلو من الاستغناء بالله، فالمفتقر إلى الله مُسْتَغْنٍ بالله، والمستغني بالله مفتَقِرٌ إلى الله(١).

ومن شرف الفقر اقترانه بالتواضع والخضوع، ومن آفات الغنى امتزاجُه بالتكُّبر، وشَرَفُ العبد في فقره، وكذلك ذُلُّه في توهمه أنه غنيٌّ: ـ

وإذا تـذلَّـلَـتْ الـرِّقـابُ تَـقَـرُّبـاً   مِـنَّـا إلـيـكَ فـعِـزُّهـا فـي ذُلِّـهـا

ومن الفقر المذموم، أن يَسْتُرَ الحقُّ على صاحبه مواضعَ فقره إلى ربِّه، ومن الفقر المحمود أن يُشْهِدَه الحقُّ مواضعَ فَقْرِه إليه.

ومن شرط الفقير المخلص ألا يملكَ شيئاً ويملك كلَّ شيءٍ.

ويقال: الفقير الصادق الذي لا يملكه شيء.

ومن آداب الفقير الصادق إظهارُ التَّشَكُّرِ عند كمالِ التكَسُّر. ومن آداب الفقر كمال المعنى وزوال الدعوى. ويقال الشكر على البلوى والبعد عن الشكوى.

وحقيقة الفقر المحمود تجرُّد السِّرِّ عن المعلولات وإفراد القلب بالله.

ويقال: الفقر المحمود العَيْشُ مع الله براحة الفراغ على سَرْمَدِ الوقتِ من غير استكراه شيءٍ منه بكلِّ وجْهٍ.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾: الإشارة منه أن يُعْطِي حتى يُحْمَد.

ويقال الغنيُّ إذا أظهر غِنَاه لأحدٍ فإمَّا للمفاخرة أو للمكاثرة ـ وجَلَّ قَدْرُ الحقِّ عن ذلك ـ وإمَّا ليجود ويتفضَّل على أحدٍ.

ويقال: لا يقول لنا أنتم الفقراءُ للإزرار بنا ـ فإنَّ كَرَمَه يتقدَّسُ عن ذلك ـ وإنما المقصود أنه إذا قال: والله الغني، وأنتم الفقراء أنه يجود علينا.

---

(١) قال القشيري برسالته: سُئل الجنيد عن الافتقار إلى الله سبحانه وتعالى: أهو أتم أم الاستغناء بالله تعالى؟ فقال: إذا صح الافتقار إلى الله عز وجل، فقد صح الاستغناء بالله تعالى، وإذا صح الاستغناء بالله تعالى كمل الغنى به، فلا يقال: أيهما أتم الافتقار أم الغنى؟ لأنهما حالتان لا تتم إحداهما إلا بالأخرى. (الرسالة القشيرية ص٢٧٣).

ويقال إذا لم تَدَّعِ ما هو صفته ـ من استحقاق الغِنَى ـ أولاك ما يُغْنِيك، وأعطاكَ فوق ما يكفيك.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

عَرَّفَكَ أنه غنيٌّ عنك، وأشهدك موضع فقرك إليه، وأنه لا بُدَّ لك منه، فما القصد من هذا لا إرادته لإكرامك وإيوائك في كَنَفِ إنعامه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

كُلٌّ مُطَالَبٌ بعمله، وكلٌّ محاسَبٌ عن ديوانه، ولكلٌّ معه شأن، وله مع كلِّ أحدٍ شأن. ومن العبادات ما تجري فيه النيابة ولكن في المعارف لا تجري النيابة؛ فلو أن عبداً عاصياً منهمكاً في غوايته فاتته صلاةٌ مفروضةٌ، فلو قضى عنه ألفُ وليٍّ وألفُ صَفِيٍّ تلك الصلاةَ الواحدةَ عن كل ركعةٍ ألفَ ركعةٍ لم تُقْبَلْ منه إلّا أنْ يجيءَ هو: معاذ الله أن نأخذ إلا مِمَّن وجدنا متاعنا عنده! فعتابُك لا يجري مع غيرِك والخطابُ الذي معك لا يسمعه غيرُك:

فَسِرْ أو أَقِمْ وَقْفٌ عليكَ محبتي مكانُكَ من قلبي عليكَ مصونُ

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

الإنذار هو الإعلام بموضع المخافة، والخشيةُ هي المخافة؛ فمعنى الآية، لا ينفع التخويف إلّا لمن صَاحَبَ الخوفَ ـ وطيرُ السماءِ على أشكالها تَقَعُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾.

كما لا يستوي الأعمى والبصير لا تستوي الظلمات والنور، ولا يستوي الظلُّ والحرور، ولا الأحياء والأموات.. وكذلك لا يستوي الموصول بنا والمشغول عنّا، والمجذوبُ إلينا، والمحجوبُ عنّا، ولا يستوي مَنْ اصطفيناه في الأزل ومن أشقيناه بحكم الأزل، ولا يستوي من أشهدناه حقّنا ومن أغفلنا قلبه عن ذِكْرِنا:

أحبابنا شتان: وافٍ وناقِضُ ولا يستوي قطُّ مُحِبٌّ وباغِضُ

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

أي وما من أمةٍ ممن كانوا من قبلك إلّا بعثنا فيهم نذيراً، وفي وقتك أرسلناك إلى جميع الأمم كافةً بالحقّ.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾: تضمنت الآية بيانَ أنه لم يُخلِ زماناً ولا قوماً مِنْ شَرْع. وفي وقته ﷺ أفرده بأنْ أرسله إلى كافة الخلائق، ثم قال على جهة التسلية والتعزية له:

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾.

أي لو قابلوك بالتكذيب فتلك سُنّتُهم مع كلِّ نبيٍّ؛ وإن أَصَرُّوا على سُنَّتِهم في الغيِّ فلن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تبديلاً في الانتقام والخزي(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾.

بيَّنَ في هذه الآية وأمثالها أن تخصيصَ الفعلِ بهيئاته وألوانه من أدلة قصد الفاعل وبرهانه، وفي إتقانِ الفعلِ وإحكامه شهادة على عِلْمِ الصانِع وإعلامِه.

وكذلك ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾: بل جميع المخلوقات متجانس الأعيان مختلف، وهو دليل ثبوت مُنْشِيها بنعت الجلال.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾.

«إنما» كلمة تحقيق تجري من وجهٍ مجرى التحديد أي التخصيص والقَصْر، فَمَنْ فَقَدَ العِلْمَ بالله فلا خشيةَ له من الله.

والفرق بين الخشية والرهبة أنَّ الرهبةَ خوفٌ يوجِبُ هَرَبَ صاحبه فيجري في هربه، والخشية إذا حصلت كَبَحَت(٢) جماحَ صاحبها فيبقى مع الله، فقدمت الخشية على الرهبة في الجملة.

والخوف قضية الإيمان، قال تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] فالخشية قضية العلم، والهيبة توجب المعرفة.

ويقال خشية العلماء من تقصيرهم في أداء حقِّه. ويقال من استحيائهم من اطلاع الحق.

ويقال حَذَراً من أن يحصلَ لهم سوءُ أدبٍ وتَرْكُ احترامٍ، وانبساطٌ في غير وقته بإطلاق لَفْظٍ، أو تَرَخُّصٍ بتَرْكِ الأَوْلى.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾.

---

(١) الآية (٢٦) لم ترد.

(٢) كبح فلاناً عن حاجته: رده عنها. وجمع الرجل: ركب هواه فلا يمكن رده.

الذين يستغرق جميعَ أوقاتِهم قيامُهم بذكر الله وبحقِّه، وإتيانُهم بأنواع العبادات وصنوف القُرَبِ فَلَهم القَدْرُ الأجَلُ من التقريب، والنصيبُ الأوفر من الترحيب. وأما الذين أحوالهم بالضدِّ فَمَنَالُهم على العكس. أولئك هم الأولياءُ الأعِزَّةُ، وهؤلاء هم الأعداءُ الأذِلَّة(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾.

ما عَرَّفْنَاكَ ـ من اختيارنا لك وتخصيصنا إياك، وتقديمنا لك على الكافة ـ فعلى ما أخبرناك، وأنشدوا:

لا أبتغي بَدَلاً سواكِ خليلةً فَثِقِي بقولي والكِرَامُ ثِقَاتُ

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾.

﴿أَوۡرَثۡنَا﴾: أي أعطينا الكتابَ ـ أي القرآن ـ الذين اصطفينا من عبادنا، وذَكَرَ الإعطاءَ بلفظِ الإرثِ توسُّعاً.

﴿ٱصۡطَفَيۡنَا﴾: أي اخترنا. ثم ذكر أقسامَهم، وفي الخبر أنه لمَّا نزلت هذه الآية قال عليه السلام: «أمتي وربِّ الكعبة»(٢) ثلاث مرات.

وفي الآية وجوهٌ من الإشارة: فمنها أنه لمَّا ذكر هذا بلفظ الميراثِ فالميراثُ يقتضي صحة النَّسَبِ على وجهٍ مخصوص، فَمَنْ لا سبَبَ له فلا نَسَبَ له، ولا ميراثَ له.

ومحلُّ النَّسبِ ها هنا المعرفة، ومحلُّ السبب الطاعة. وإن قيل محلُّ النَّسبِ فَضْلُه، ومحل السبب فِعْلُك: فهو وَجْهٌ. ويصحُّ أن يقال محلُّ النسبِ اختياره لك بدءاً ومحلُّ السببِ إحسانُه لك تالياً.

ويقال أهلُ النسب على أقسام: ـ الأقوى، والأدنى كذلك في الاستحقاق.

ويقال جميع وجوه التملُّك لا بُدَّ فيها من فِعْلٍ للعبد كالبيع، أمَّا ما يُمْلَكُ بالهِبَةَ فلا يحصل إلا بالقبول والقسمة، ولا يحصل الاستحقاق إلا بالحضور والمجاهدة وغير ذلك. والوصية لا تُسْتَحَقُّ إلا بالقبول، وفي الزكاة لا بُدَّ من قبول أهل السُّهْمَانِ، والميراث لا يكون فيه شيء من جهة الوارث وفعله، والنَّسبُ ليس من جملة أفعاله.

---

(١) الآية (٣٠) لم ترد.

(٢) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٤٩٠).

ويقال الميراث يُسْتَحقُّ بوجهين: بالفرض والتعصيب، والتعصيبُ أقوى من الفرض؛ لأنه قد يستحق به جميع المال، ثم الميراث يبدأ بذوي الفروض ثم ما يتبقى فللعَصَبَةِ(١).

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: تكلموا في الظالم، فمنهم من قال هو الأفضل، وأرادوا به من ظَلَمَ نَفْسَه لكثرة ما حَمَّلَها من الطاعة.

والأكثرون: إنَّ السابقَ هو الأفضل، وقالوا: التقديم في الذكر لا يقتضي التقديم في الرتبة، ولهذا نظائر كثيرة.

ويقال قَرَنَ باسم الظالم قرينةً وهي قوله: «لنفس»، وقرن باسم السابق قرينةً وهي قوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ فالظالمُ كانت له زَلَّة، والسابق كانت له صولة، فالظالم رَفَعَ زلَّتَه بقوله: لنفسه، والسابق كَسَرَ صولتَه بقوله: بإذن الله.

كأنه قال: يا ظالمُ ارفعْ رأسَك، ظَلَمْتَ ولكن على نفسك، ويا سابقُ اخفض رأسَك؛ سَبَقْتَ ـ ولكن بإذن الله.

ويقال إنَّ العزيزَ إذا أرى ظالماً قَصَمَه، والكريمَ إذا رأى مظلوماً أَخَذَ بيده، كأنه قال: يا ظالم، إنْ كان كونُكَ ظالماً يوجِبُ قَهْرَك، فكوْنُكَ مظلوماً يوجِبُ الأخذَ بيدك.

ويقال الظالمُ مَنْ غَلَبَتْ زَلَّاتُه، والمقتصدُ مَنْ استوت حالاته، والسابقُ مَنْ زادت حسناته.

ويقال الظالمُ مَنْ زهد في دنياه، والمقتصدُ مَنْ رغب في عقباه، والسابقُ مَنْ آثر على الدارين مولاه.

ويقال الظالمُ مَنْ نَجَمَ كوكبُ عقله، والمقتصدُ مَنْ طَلَعَ بَدْرُ عِلْمه، والسابقُ من ذَرَّتَ شمسُ معرفته.

ويقال الظالمُ مَنْ طَلَبَه، والمقتصدُ مَنْ وَجَدَه، والسابق مَنْ بقي معه.

ويقال الظالِمُ مَنْ تَرَكَ المعصية، والمقتصد مَنْ تَرَكَ الغفلة، والسابق مَنْ تَرَكَ العلاقة.

ويقال الظالمُ مَنْ جاد بمالِه، والمقتصد مَنْ لم يبخلْ بِنَفْسِه، والسابق مَنْ جاد بروحه.

ويقال الظالمُ مَنْ له علم اليقين، والمقتصد مَنْ له عين اليقين، والسابق مَنْ له حق اليقين.

---

(١) العَصَبَة: الذين يرثون الرجل عن كلالة، من غير والد ولا ولد. فأما في الفرائض فكل من لم تكن له فريضة مسماة. فهو عَصبة، إن بقي شيء بعد الفرائض أخذ. (اللسان ١/ ٦٠٥ مادة: عصب).

ويقال الظالم صاحب المودة، والمقتصد الخلّة، والسابق صاحب المحبة.

ويقال الظالم يترك الحرام، والمقتصد يترك الشُّبهة، والسابق يترك الفضل[١] في الجملة.

ويقال الظالمُ صاحبُ سخاء، والمقتصد صاحب جود، والسابق صاحب إيثار.

ويقال الظالم صاحب رجاء، والمقتصدُ صاحبُ بَسْط، والسابق صاحب أُنس.

ويقال الظالم صاحب خوف، والمقتصد صاحب خشية، والسابق صاحب هيبة.

ويقال الظالم له المغفرة، والمقتصد له الرحمة والرضوان، والسابق له القربة والمحبة.

ويقال الظالم صاحب الدنيا، والمقتصد طالب العُقْبى، والسابق طالب المولى.

ويقال الظالم طالب النجاة، والمقتصد طالب الدرجات، والسابق صاحب المناجاة.

ويقال الظالم أَمِنَ من العقوبة، والمقتصد فاز بالمثوبة، والسابق متحقق بالقربة.

ويقال الظالم مضروبٌ بسَوْطِ الحِرْصِ، مقتول بسيف الرغبة، مضطجعٌ على باب الحسرة. والمقتصدُ مضروبٌ بسوط الندامة، مقتولٌ بسيف الأسف، مضطجع على باب الجود.

والسابقُ مضروبٌ بسوط التواجد، مقتول بسيف المحبة، مُضْطَجِعٌ على باب الاشتياق.

ويقال الظالم صاحب التوكل، والمقتصد صاحب التسليم، والسابق صاحب التفويض.

ويقال الظالم صاحبُ تواجد، والمقتصد صاحب وَجْد، والسابق صاحب وجود.

ويقالُ الظالم صاحبُ المحاضرة، والمقتصد صاحب المكاشفة، والسابق صاحب المشاهدة.

ويقال الظالم يراه في الآخرة بمقدار أيام الدنيا في كل جمعة مرةً، والمقتصد يراه في كل يوم مرةً، والسابق غير محجوبٍ عنه ألبتةَ.

ويقال الظالم مجذوبٌ إلى فِعْلِه الذي هو فضله، والمقتصد مكاشَفٌ بوصفه الذي هو عِزُّه، والسابقُ المستهلَكُ في حقِّه الذي هو وُجُودُه.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ لأنه ذكر الظالم مع السابق.

---

(١) الفضل: هنا الزيادة. يقول سهال بن عبد الله عن الحلال الصافي: هو الذي لا يُعصى الله تعالى فيه، وهو الذي لا يُنسى الله تعالى فيه. (الرسالة القشيرية ص١١٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾.

نَبّهَ على أن دخولهم الجنة لا باستحقاقٍ بل بفضله، وليس في الفضل تمييز.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ﴾.

تحققوا بحقائق الرضا، والحَزَنُ سُمِّي حَزَناً لُحزُونةِ[1] الوقتِ على صاحبه وليس في الجنة حزونة وإنما هو رضاً واستبشار.

ويقال ذلك الحزن حزن خوف العاقبة. ويقال هو دوام المراعاة خشية أن يحصل سوءُ الأدب. ويقال هو سياسة النفس.

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ﴾ للعصاة، ﴿شَكُورٌ﴾ للمطيعين. قَدَّمَ ما للعاصين رفقاً بهم لضعف أحوالهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾.

﴿دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ﴾: أي دار الإقامة، لا يبغون عنها حولا، ولا يتمنون منها خروجاً.

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾: إذا أرادوا أن يَرَوْا مولاهم لا يحتاجون إلى قَطْع مسافةٍ، بل غُرَفِهم يلقون فيها تحيةً وسلاماً، فإذا رأوه لم يحتاجوا إلى تقليب حدقةٍ أو تحديق مقلة في جهة؛ يرَوْنه كما هُمْ بلا كيفية.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ﴾.

لا حياة يَتَمَتَّعُون بها، ولا موتَ يستريحون به، وهم مقيمون في العذاب والحجاب، لا يفتر عنهم العذاب، وتُرْفَعُ عنهم العقوبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾، فيقال لهم أو لم نعمركم...؟

(١) حزن المكان حزونة: خشن وغلظ، فهو حزن.

أَمَا جاءكم النذيرُ قبل أن تبلغوا زمان المشيب؟

ويقال: ألم تستوفوا مدةَ الإمهالِ في النظر؟

﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾: الرسل، ويقال ضعف الشيخوخة، ويقال سقوط السِّنِّ، ويقال تَقَوُّسُ الظَّهر.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

أي عالِم بإخلاص المخلصين، وصدق الصادقين، ونفاق المنافقين، وجَحْدِ الكافرين.

عالِمٌ بِمَنْ يريد بالناس السوءَ وبِمَنْ يُحْسِنُ باللَّهِ الظنَّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾.

أهلُ كلِّ عصرٍ خليفُ عَمَن تقدمهم؛ فَمِنْ قوم هم لِسَلَفِهم حَمَال[1]، ومِنْ قوم هم أراذل وأنذال؛ فالأفاضلُ زمانهم لهم محنة، والأراذل هم لزمانهم محنة. وقد قالوا:

يومٌ وحَسْبُ الدهرِ من أَجْلِه حَيًّا غدٌ والْتَفَتَ الأمسُ

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾.

كَرَّرَ إشهادَهم عَجْزَ أصنامهم، ونَقْصَ مَنْ اتخذوهم آلهة من أوثانهم؛ لِيُسَفِّهَ بذلك آراءَهم، ولِيُنَبِّهَهُم إلى ذميم أحوالِهم وأفعالِهم، وخِسَّةِ هِمَمِهم، ونُقْصانِ عقولهم.

ثم أخبر أنهم لا يأتون بشيءٍ مما به يُطَالَبُون، وليس لهم صواب عمَّا يُسْأَلُون.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾

---

(١) الحمال: ما يتحمله الإنسان عن غيره من دية أو غرامة مثل أن تقع حرب بين فريقين تسفك فيها الدماء، فيدخل بينهم رجل يتحمل ديات القتلى ليصلح ذات البين. (لسان العرب ١١/ ١٨٠ مادة: حمل).

أمسكها بقدرته، وأتقنهما بحكمته، ورتّبهما بمشيئته، وخلَقَ أهلَهما على موجب قضيته، فلا شبيهَ في إبقائهما وإفنائهما يُسَاهِمُه، ولا شريكَ في وجودِهما ونظامهما يُقَاسِمُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾.

ليس لقولهم تحقيق، ولا لِعَهدِهِم وضمانهم توثيق، وما يَعِدُون من أنفسهم فصريحُ زُورٍ، وما يُوهِمُون مِنْ وفائهم فَصِرْفُ تغريرٍ.. وكذلك المريدُ في أوان نشاطه تُمَنِّيه نَفْسُه فتظاهر أمام مَنْ تقدَّمه حالاً بأنه عاهد الله، وأنه أكَّدَ عقده مع الله.. فإذا عَضَّتْه شهوتُه، وأراد الشيطانُ أن يكذبه صَرَعَه بكيده، وأركسه[1] في هوة غَيِّه، ومُنْيَةِ نَفْسِه؛ فيسودُّ وَجْهُه، وتذهب عند اللَّهِ وجاهتُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾.

في الجملة ما خاب له وليٌّ، وما ربح له عدوٌّ، ولا ينال الحقيقةَ مَنْ انعكس قَصْدُه، بل يرتدُّ عليه كَيْدُه؛ وهو سبحانه يُدَمِّر على أعدائه تدميراً ويوسع لأوليائه فضلاً كبيراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا﴾.

لو عَجَّلَ لهم ما يستوجبونه من الثواب والعقاب لم تَفِ أعمارُهم القليلةُ به، وما اتسعت أيامُهم القصيرة له، فأَخَّرَ ذلك ليوم الحَشْرِ.. فإنَّه طويلٌ. واللَّهُ على كل شيءٍ قديرٌ، وبأمورِ عبادِه خبيرٌ بصير.

---

(١) أركسه: ركسه أي رد أوله على آخره، وقلَبَه على رأسه.

سورة يس

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» آيةٌ افتتح بها خطابَه؛ فَمَنْ عَلِمَها أجزل ثوابَه، وَمَنْ عَرَفَها أكثر إيجابَه، ومَنْ أكْبَرَ قَدْرَها أكْرَمَ مآبَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يسٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾.

يقال معناه: يا سيد. ويقال: الياء تشير إلى يوم الميثاق، والشين تشير إلى سِرِّه مع الأحباب؛ فيقال بحقِّ يوم الميثاق وسِرِّي مع الأحباب، وبالقرآن الحكيم: ـ

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

أي إنَّكَ ـ يا محمد لَمِنَ المرسلين، وإنَّكَ لَعَلَى صراطٍ مستقيم.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

أي هذا الكتاب تنزيل (العزيز): المتكبر الغني عن طاعة المطيعين، (الرحيم): المُتَفَضِّل على عباده المؤمنين.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾.

أي خَصَصْنَاكَ بهذا القرآن، وأنزلنا عليكَ هذا الفُرقان لِتُنْذِرَ به قوماً حصلوا في أيام الفترة، وانقرض أسلافُهم على هذه الصِّفَةِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

أي حقَّ القول بالعقوبة على أكثرهم لأنهم أصرُّوا على جَحْدِهم، وانهمكوا في جهلهم، فالمعلومُ منهم والمحكومُ عليهم أنَّهم لا يُؤمنون.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ﴾.

سَنَجُرُّهُم إلى هوانهم وصغرهم، وسنذيقهم وبالَ أمرهم.

﴿وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾.

أغرقناهم اليومَ في بحار الضلالة وأحطنا بهم سرادقات الجهالة. وفي الآخرة سنُغْرِقُهم في النار والأنكال، ونضيِّقُ عليهم الحال، بالسلاسل والأغلال.

﴿فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ﴾: أعميناهم اليومَ عن شهود الحُجَّة، ونُلَبِّسُ عليهم في الآخرة سبيلَ

المَحَجَّة، فَيتَعَثَّرُون في وَهَدَاتِ جهنم داخرين، ويبقون في حُرُقَاتها مهجورين، مطرودين ملعونين، لا نَقْطَعُ عنهم ما بْه يُعَذَّبُون، ولا نَرْحمهم مما منه يَشْكُون؛ تَمَادَى بهم حِرْمانُ الكفر، وأحاطت بهم سرادقاتُ الشقاء، وَوقعت عليهم السِّمَةُ بالفراق.

قوله جل ذكره: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

مهجورُ الحقّ لا يَصِلُه أحدٌ، ومردودُ الحقّ لا يَقْبَلُه أحد. والذي قَصَمَتْه المشيئةُ وأقْمَتْهُ القضيةُ لا تنجعُ فيه النصيحة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾.

أي إنما ينتفع بإنذارك مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ؛ فإنَّ إنذارك ـ وإن كان عاماً في الكُلِّ وللكُلِّ ـ فإنَّ الذين كفروا على غيِّهم يُصِرُّون.. ألَا سَاء ما يحْكُمون، وإن كانوا لا يعلمون قُبْحَ ما يفعلون. أمَّا الذين اتبعوا الذكر، واستبصروا، وانتفعوا بالذي سمعوه منك، وبه عملوا ـ فقد استوجبوا أنْ تُبَشِّرَهم؛ فَبَشِّرْهُم، وأخبِرْهم على وجهٍ يظهر السرور بمضمون خبرك عليهم.

﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: كبيرٍ وافرٍ على أعمالهم ـ وإن كان فيها خَلَلٌ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾.

نُحيي قلوباً ماتت بالقسوة بما نُمْطِرُ عليها من صَوْبِ الإقبال والزلفة، ونكتب ما قدَّموا.

﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾: خُطَاهم إلى المساجد، ووقوفهم على بساط المناجاة معنا، وتَرَقْرُق[1] دموعهم على عَرَصَات[2] خدودهم، وتَصَاعُدَ أنفاسهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

أثبتنا تفصيله في اللوح المحفوظ.. لا لتناسينا لها ـ وكيف وقد أحصينا كل شيءٍ عدداً؟ ـ ولكننا أحْبَبْنا إثبات آثار أحبائنا في المكنون من كتابنا.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

انقرض زمانُهم ونُسِيَ أوانُهم وشأنُهم! ولكننا نتذكر أحوالهم بعد فوات أوقاتهم، ولا نرضى بألا يجري بين أحبائنا وعلى ألْسِنَةِ أوليائنا ذِكْرُ الغائبين والماضين، وهذا مخلوقٌ يقول في صفة مخلوق:

إذا نَسِيَ النـاسُ إخوانَهم ... وخَانَ المودَّةَ خِلَّانُها

---

(١) ترقرق الدمع: دار في العين.

(٢) عرصات: (ج) عرصة: البقعة الواسعة بين الدور ليس فيها بناء.

فعندي لإخوانِيَ الغائبين صحائفُ ذِكْرُكَ عنوانُها

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾[1].

قال الرسل: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ وليس عِلْمُنا إلَّا بما أُمِرْنا به من التبليغ والإنذار[2].

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

لنرجمنَّكم، ولنَصْنَعَنَّ، ولنفعَلَنَّ.. فأجابهم الرسل: إنكم لجهلكم ولجحدكم سوف تَلْقَوْن ما تُوعَدُون[3].

قوله جل ذكره: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

في القصة أنه جاءُ من قرية فسمَّاها مدينة، وقال من أقصى المدينة، ولم يكن أقصاها وأدناها لِيَتَفَاوَتَا بكثيرٍ، ولكنه ـ سبحانه ـ أجرى سُنَّتَه في استكثار القليل من فِعْلِ عَبْدِهِ إذا كان يرضاه، ويستنزرُ الكثيرَ من فَضْلِه إذا بَذَلَه وأعطاه.

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾ فأبْلَغَ الوَعْظَ وَصَدَقَ النُّصْحَ. ولكن كما قالوا:

وكم سُقْتُ في آثارِكم من نصيحةٍ وقد يستفيد البغضةَ المتنصِّحُ

فلمَّا صَدَقَ في حاله، وصَبَرَ على ما لَقِيَ من قومه، ورجع إلى التوبة، لقَّاه حُسْنَ أفضالِه، وآواه إلى كَنَفِ إقبالِه، ووَجَدَ ما وَعَدَه ربُّه من لُطْفِ أفضالِه[4].

﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾.

تَمَنَّى أن يعلم قومُه حاله، فَحَقَّقَ اللَّهُ مُناه، وأخبر عن حاله، وأنزل به خطابه، وعَرَفَ قومُه ذلك. وإنما تمنَّى وأراد ذلك إشفاقاً عليهم، ليعملوا مثلما عَمِلَ لِيَجِدُوا مثلما وَجَدَ.

قوله جل ذكره: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾.

ما كانت إلا قضية مِنَّا بعقوبتهم، وتغييراً لِمَا كانوا به من السلامة إلى وصف البلاء.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

---

(١) الآية (١٤) لم ترد.
(٢) الآية (١٧) لم ترد.
(٣) الآية (١٩) لم ترد.
(٤) الآيات من (٢٢ حتى ٢٥) لم ترد.

إن لم يتحسَّروا هم اليوم فَلَهُم موضع التحسُّر؛ وذلك لانخراطهم في سِلكٍ واحد من التكذيب ومخالفة الرسل، ومناوءة أوليائه ـ سبحانه.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

ألم يروا ما فعلنا بمن قبلهم من القرون الماضية، وما عاملنا به الأمم الخالية، فلم يرجع إليهم أحد، فكلُّهم في قبضة القدرة، ولم يَفُتنا أحدٌ، ولم يكن لواحدٍ منهم علينا عونٌ ولا مَدَدٌ، ولا عن حكمنا ملتحد.

قوله جل ذكره: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾.

لـمَّا كان أمرُ البعث أعظمَ شُبَهِهِمْ، وكَثُرَ فيه إنكارُهم كان تكرارُ الله سبحانه لحديث البعث، وقد ضَرَبَ ـ سبحانه ـ المَثَلَ له بإحياء الأرض بالنبات في الكثير من الآيات. والعَجَبُ مِمَّنْ يُنْكِر علومَ الأصول ويقول ليس في الكتاب عليها دليل! وكيف يشكل ذلك وأكثر ما في القرآن من الآيات يحت على سبيل الاستدلال، وتحكيم أدلة العقول؟ ولكن يَهْدِي اللَّهُ لنورِه من يشاء. ولو أنهم أنصفوا من أنفسهم، واشتغلوا بأهم شيءٍ عندهم لَمَا ضَيَّعوا أصول الدِّين، ولكنهم رضوا فيها بالتقليد، وادَّعَوْا في الفروع رتبةَ الإمامة والتصَدُّر.. ويقال في معناه:

يا مَنْ تَصَدَّرَ في دستَ الإمامة في ... مسائل الفقه إملاءً وتدريسا
غَفَلْتَ عن حججِ التوحيد تُحْكِمها ... شيَّدتَ فرعاً وما مَهَّدَتَ تأسيسا

قوله جل ذكره: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

تُنَبِّه هذه الآيةُ على التفكُرِ في بديع صُنْعِهِ؛ فقال: تنزيهاً لِمَنْ خَلَقَ الأشياء المتشاكلةَ في الأجزاء والأعضاء، من النبات، ومن أنفسهم، ومن الأشياء الأخرى التي لا يعلمون تفصيلها، كيف جعل أوصافَها في الطعوم والروائح، في الشكل والهيئة، في اختلاف الأشجار في أوراقها وفنون أغصانها وجذوعها وأصناف أنوارها وأزهارها، واختلاف أشكال ثمارها في تفرُّقِها واجتماعها، ثم ما نيط بها من الانتفاع على مجرى العادة مما يسميه قومٌ: الطبائع؛ في الحرارة والبرودة، والرطوبة واليبوسة، واختلاف الأحداث التي يخلقها اللَّهُ عقيب شراب هذه الأدوية وتناول هذه الأطعمة على مجرى

---

(١) الآيتان (٣٤، ٣٥) لم تردا.

العادة من التأثيرات التي تحصل في الأبدان. ثم اختلاف صور هذه الأعضاء الظاهرة والأجزاء الباطنة، فالأوقات متجانسة، والأزمان، متماثلة، والجواهر متشاكلة.. وهذه الأحكام مختلفة، ولولا تخصيصُ حُكْمِ لكل شيءٍ بما اختصَّ به لم يكن تخصيصٌ بغير ذلك أولى منه. وإنَّ مَنْ كحَّلَ اللّهُ عيونَ بصيرته بيُمْن التعريف، وقَرَنَ أوقاته بالتوفيق، وأتَمَ نَظَره، ولم يصده مانع. فما أقوى في المسائل حُجَّتَه! وما أوْضَحَ في السلوكِ نَهْجَه!.

إنَّها لأقْسَامٌ سَبَقَت على مَنْ شاءَه الحقُّ بما شاء.

قوله جل ذكره: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾.

نُبْطِلُ ضوءَ النهارِ بهجومِ الليلِ عليه، وتزيلُ ظلامَ الليل بهجوم النهار عليه، كذلك نهارُ الوجود يدخل على ليالي التوقف، ويقود بيد كَرَمِه عصاً مَنْ عَمِيَ عن سلوكِ رُشْدِه فيهديه إلى سَوَاءِ الطريق.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾.

على ترتيبٍ معلوم لا يتفاوت في فصول السنة، وكل يومٍ لها مشرِقٌ جديد ولها مغرِبٌ جديد.. وكل هذا بتقدير العزيز العليم.

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

الإشارة منه أن العبد في أوان الطلب رقيقُ الحال، ضعيفٌ، مختصرُ الفَهْم.. ثم يُفكِّر حتى تزداد بصيرته.. إنه كالقمر يصير كاملاً، ثم يتناقَصُ، ويدنو من الشمس قليلاً قليلاً، وكُلَّمَا ازداد من الشمس دُنوًّا ازداد في نفسه نقصاناً حتى يتلاشى ويختفي ولا يُرَى.. ثم يَبْعُدُ عن الشمس فلا يزال يتباعد ويتباعد حتى يعود بدراً ـ مَنْ الذي يُصَرِّفه في ذلك إلَّا أنه تقدير العزيز العليم؟ وشبيهُ الشمسِ عارِفٌ أبداً في ضياء معرفته، صاحبُ تمكينٍ غيرُ مُتَلَوِّنٍ[1]، يشرق من برج سعادته دائماً، لا يأخذه كسوفٌ، ولا يستره سحابٌ.

وشبيهُ القمر عبدٌ تتلون أحوالُه في تنقله؛ فهو في حال من البسط يترقَّى إلى حَدِّ الوصال، ثم يُرَدُّ إلى الفترة، ويقع في القبض مما كان به من صفاء الحال، فيتناقص، ويرجع إلى نقصان أمره إلى أن يرفع قلبه عن وقته، ثم يجود الحقُّ ـ سبحانه ـ فيُوَفِّقُه لرجوعه عن فترته، وإفاقته عن سَكْرَتِه، فلا يزال يصفو حاله إلى أنْ يَقْرُبَ من الوصال، ويرزقَ صفة الكمال، ثم بعد ذلك يأخذ في النقص

(١) انظر حديث القشيري عن التلوين والتمكين بالرسالة القشيرية ص٧٨ ـ ٨٠.

والزوال.. كذلك حاله إلى أن يَحَقَّ له بالمقسوم ارتحاله، كما قالوا:

ما كنت أشكو ما على بَدَني من كثرة التلوين من بُدَّتِه[1]

وأنشدوا:

كُلَّ يومٍ تتلون غيرُ هذا بكَ أجمل

قوله جل ذكره: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾.

الإشارة إلى حَمْلِ الخَلْقِ في سفينة السلامة في بحار التقدير عند تلاطم أمواجها بفنونٍ من التغيير والتأثير. فكَمْ من عبدٍ غرق في اشتغاله في ليلة ونهاره، لا يستريح لحظةً من كَدِّ أفعاله، ومقاساةِ التعب في أعماله، وجَمْع ماله.

فجَرَّه ذلك إلى نسيانِ عاقبته ومآلِه، واستيلاء شُغْلِه بوَلَدِه وعيالِه على فِكْرِه وبالِه ـ وما سَعْيُه إلَّا في وَبَالِه!

وكم من عَبْدٍ غرق في لُجَّةِ هواه، فجَرَّتْه مُناه إلى تَحَمُّلِ بلواه، وخسيسٍ من أمر مطلوبه ومُبْتَغَاه.. ثم لا يَصِلُ قط إلى منتهاه، خَسِرَ دنياه وعقباه، وبَقِيَ عن مولاه!

ومن أمثال هذا وذاك ما لا يُحْصَى، وعلى عقلِ مَنْ فكَّرَ واعتبر لا يَخْفَى.

أمَّا إذا حفظ عبداً في سفينة العناية أفرده ـ سبحانه ـ بالتحرُّرِ من رِقِّ خسائس الأمور، وشَغَلَه بظاهره بالقيام بحقِّه، وأكرمه في سرائره بفراغ القلب مع ربِّه، ورقَّاه إلى ما قال: «أنا جليسُ مَنْ ذكرني».. وقُلْ في عُلُوِّ شأنِ مَنْ هذه صفته.. ولا حَرَجَ!

قوله جل ذكره: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

لولا جُودُه وفَضْلُه لحَلَّ بهم من البلاء ما حَلَّ بأمثالهم، لكنه بِحُسْنِ الأفضال، يحفظهم في جميع الأحوال.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الآيات.

هذه صفاتُ مَنْ سَيَّبَهم[2] في أودية الخذلان، وَوَسَمهم بِسِمَةِ الحرمان، وأصَمَّهم عن سماع الرُّشد، وصَدَّهم بالخذلان عن سلوكِ القصد، فلا تأتيهم آيةٌ في الزَّجْرِ إلا قابلوها بإعراضهم، وتجافوا عن الاعتبار بها على دوام انقباضهم، وإذا أُمِرُوا بالإنفاقِ والإطعام عارضوا بأنَّ الله رازقُ الأنام، وإن يَشَأْ نَظَرَ إليهم بالإنعام[3]:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾.

---

(١) البدة: النصيب من كل شيء.

(٢) سيّبه: أطلقه وتركه وخلّاه يسيب حيث شاء.

(٣) الآية (٤٦) لم ترد.

ثم قال جل ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾.

يستعجلون هجومَ الساعة، ويستبطئون قيامَ القيامة ـ لا عن تصديقٍ يُريحهم من شَكِّهم، أو عن خوفٍ يمنعهم عن غَيِّهم، ولكن تكذيباً لدعوة الرسل، وإنكاراً لِصِحة النبوة، واستبعاداً للنشر والحشر.

ويومَ القيامةِ هم في العذاب مُحْضَرُون، ولا يُكْشَفُ عنهم، ولا يُنْصَرُون.

قوله جل ذكره: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

يموتون قَهْراً، ويُحْشَرُونَ جَبْراً، ويلقون أمراً، ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً.

﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ يموتون على جهلٍ، لا يعرفون ربَّهم، ويُبْعَثُون على مِثْلِ حالِهم، لا يعرفون مَنْ بَعَثَهم، ويعدون ما كانوا فيه في قبورهم من العقوبة الشديدة ـ بالإضافة إلى ما سَيَلْقَوْنَ من الآلام الجديدة ـ نوماً ورقاداً، وسيطئون من الفراق المبرح والاحتراق العظيم الضخم مهاداً، لا يذوقون بَرْداً ولا شراباً إلا حميماً وغَسَّاقاً، ولقد عوملوا بذلك استحقاقاً[1]: فقد قال جل ذكره:ـ

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾.

إنما يضافُ العبدُ إلى ما كان الغالبَ عليه ذِكْرُه بمجامع قلبِه، فصاحبُ الدنيا مَنْ في أسْرِها، وأصحابُ الجنة مَنْ هم طُلَّابُها والساعون لها والعاملون لِنَيْلِها؛ قال تعالى مخبراً عن أقوالهم وأحوالهم: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١]. وهذه الأحوال ـ وإن جَلَّتْ منهم ولهم ـ فهي بالإضافة إلى أحوال السادة والأكابر تتقاصر، قال ﷺ: «أكثر أهل الجنة البُلْه»[2] ومَنْ كان في الدنيا عن الدنيا حُرّاً فلا

(١) الآية (٥٣) لم ترد.

(٢) أخرجه الهيثمي في (مجمع الزوائد ٨/ ٧٩، ١٠/ ٢٦٤ ـ ٤٠٢)، وصاحب (ميزان الاعتدال ١٣٦١) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/ ١٥٧، ٢٤٤، ٦٢٧، ٩/ ٢٣٦)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٢٨٦)، والفتني في (تذكرة الموضوعات ٢٩)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٩٢٨٣)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٣/ ١١٦٠)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ١٧)، وابن الجوزي في (العلل المتناهية ٢/ ٤٥٢) يقال: رجل أبله بيّن البله والبلاهة: وهو الذي غلب عليه سلامة الصدر وحُسن الظن بالناس لأنهم أغفلوا أمر دنياهم فجهلوا حذق التصرف فيها، وأقبلوا على آخرتهم فشغلوا أنفسهم بها، فاستحقوا أن يكونوا أكثر أهل الجنة. (لسان العرب ١٣/ ٤٧٧ مادة: بله).

يبعد أن يكون في الجنة عن الجنة حراً، والله يختص برحمته من يشاء.

وقيل إنما يقول هذا الخطاب لأقوام فارغين، فيقول لهم: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ وهم أهل الحضرة والدنو، لا تشغلهم الجنة عن أُنس القربة، وراحات الوصلة، والفراغ للرؤية.

ويقال: لو عَلِمُوا عمَّن شُغِلُوا لَمَا تَهنَّأوا بما شُغِلُوا.

ويقال بل إنما يقول لأهل الجنة: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ كأنه يخاطبهم مخاطبة المُعاينة إجلالاً لهم كما يقال: الشيخ يفعل كذا، ويُرَادُ به: أنت تفعل كذا.

ويقال: إنما يقول هذا لأقوام في العرصة أصحاب ذنوب لم يدخلوا النار، ولم يدخلوا الجنة بَعْدُ لِعِصْيانِهِم؛ فيقول الحق: عبدي.. أهلُ النار لا يتفرغون إليك لأهوالهم، وما هم فيه من صعوبة أحوالهم، وأهل الجنة وأصحابها اليومَ في شُغْلٍ عنك لأنهم في لذَّاتهم، وما وجدوا من أفضالهم مع أهلهم وأشكالهم؛ فليس لك اليوم إلا نحن!

وقيل شغلهم تأهبهم لرؤية مولاهم، وذلك من أتم الأشغال، وهي أشغالٌ مؤنِسَةٌ مريحةٌ لا مُتْعِبَةٌ موحِشَةٌ.

ويقال: الحقُّ لا يتعلَّق به حقٌّ ولا باطل؛ فلا تَنَافِيَ بين اشتغالهم بأبدانهم مع أهلهم، وشهودهم مولاهم، كما أنهم اليومَ مشغولون مستديمون لمعرفته بأي حالةٍ هم، ولا يَقْدَحُ اشتغالهم ـ باستيفاء حُظُوظِهم ـ في معارفهم.

ويقال شَغَلَ نفوسهم بشهواتها حتى يخلص الشهود لأسرارهم على غيبةٍ من إحساس النَّفس الذي هو أصعب الرُّقَباء، ولا شيء أعلى من رؤية الحبيب مع فَقْدِ الرقيب.

قوله جل ذكره: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾.

﴿وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾: قيل أشكالهم في الحال والمنزلة، كقوله: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] وقيل حَظَاياهم[1] من زوجاتهم.

﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾.

﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾: أي نصيب أنفسهم. ويقال الإشارة فيها إلى راحات الوقت دون حظوظ النفس.

﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾: ما يريدون، ويقال تسلم لهم دواعيهم، والدعوى ـ إذا كانت بغير حقٍّ ـ معلولة.

(١) حظيت المرأة عند زوجها: تمكنت من قلبه وأحبها.

قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾.

يسمعونَ كلامَه وسلامَه بلا واسطة، وأكَّد ذلك بقوله: «قولاً».

وبقوله: ﴿مِّن رَّبٍّ﴾ ليعلم أنه ليس سلاماً على لسان سفير.

﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ والرحمةُ في تلك الحالة أن يرزقَهم الرؤية في حال ما يُسَلِّم عليهم لِتَكْمُلَ لهم النعمة. ويقال الرحمة في ذلك الوقت أن يُنَقِّيَهم في حال سماع السلام وحال اللقاء لئلا يصحبهم دهش، ولا تلحقهم حيرة.

ويقال إنما قال: ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ ليكون للعصاة من المؤمنين فيه نَفَسٌ، ولرجائهم مساغ؛ فإن الذي يحتاج إلى الرحمة العاصي.

ويقال: قال ذلك ليعلم العبدُ أنه لم يصل إليه بفعله واستحقاقه، وإنما وصل إليه برحمة ربه.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

غيبةُ الرقيب أتمُّ نعمةٍ، وإبعادُ العدوِّ مِنْ أجَلِّ العوارف[1]؛ فالأولياءُ في إيجاب القربة، والأعداء في العذاب والحجبة.

قوله جل ذكره: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾.

لو كان هذا القول من مخلوقٍ إلى مخلوقٍ لَكانَ شِبْهَ اعتذار؛ أي لقد نصحتُكم ووعظتُكم، ومن هذا حَذَّرتُكم، وكم أوصلتُ لكم القولَ، وذكَّرتُكم فلم تقبلوا وَعْظِي، ولم تعملوا بأمري، فأنتم خالَفْتُم، وعلى أنفسكم ظَلَمْتُم، وبذلك سبَقَت القضيةُ مِنَّا لكم[2].

قوله جل ذكره: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

اليومَ سَخَّرَ الله أعضاءَ بَدَنِ الإنسان بعضها لبعض، وغداً ينقض هذه العادة، فتخرج بمضُ الأعضاء على بعض، وتجري بينها الخصومة والنزاع؛ فأمَّا الكفار فشهادةُ أعضائهم عليهم مُبيدةٌ، وأمَّا العُصَاةُ من المؤمنين فقد تشهد عليهم بعضُ أعضائهم بالعصيان، ولكن تشهد لهم بعض أعضائهم أيضاً بالإحسان، وكما قيل:

بيني وبينك يا ظلومُ الموقِفُ والحاكم العَدْلُ الجوادُ المُنصِفُ

(١) العوارف: (ج) العارفة: العطية والإحسان.

(٢) الآيات من (٦٢ حتى ٦٤) لم ترد.

وفي بعض الأخبار المروية المُسْنَدَةِ أنَّ عَبْداً تشهد عليه أعضاؤه بالزَّلَّة فيتطاير شَعره من جفن عينيه، فيستأذن بالشهادة له فيقول الحق: تكلمي يا شعرة جَفْنِ عبدي واحتَجِّي عن عبدي، فتشهد له بالبكاء من خوفه، فيغفر له، وينادي منادٍ: هذا عتيقُ الله بِشَعْرَة[١].

قوله جل ذكره: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾.

يَرُدُّه إذا استوى شبابُه وقُوَّتُه إلى العكس، فكما كان يزداد في القوة يأخذ في النقصان إلى أن يبلغَ أرذلَ العمر في السن فيصير إلى مثل حال الطفولية في الضعف، ثم لا يَبْقَى بعد النقصان شيءٌ، كما قيل:

طوى العصران ما نشراه مني ... وأبلى جدتي نَشْرٌ وطيُّ
أراني كلَّ يومٍ في انتقاصٍ ... ولا يَبْقَى مع النقصان شيُّ

هذا في الجثث والمباني دون الأحوال والمعاني؛ فإن الأحوال في الزيادة إلى أن يبلغ حَدَّ الخَرَفِ[٢] فيَخْتَلُّ رأيُه وعَقْلُه. وأهل الحقائق تشيب ذوائبُهم ولكنَّ محابَّهم ومعانيَهم في عنفوان[٣] شبابها، وطراوة جدَّتها.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾.

كلامه ﷺ كان خارجاً عن أوزان الشِّعر، والذي أتاهم به من القرآن لم يكن من أنواع الشعر، ولا من طرق الخطباء.

تَحَيَّرَ القومُ في بابه؛ ولم تكتحل بصائرهم بكحل التوحيد فعموا عن شهود الحقائق[٤].

قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

ذَكَرَ عظيمَ مِنَّتِه عليهم، وجميلَ نعمته لديهم بما سخر لهم من الأنعام التي ينتفعون بها بوجوه الانتفاع.

ولفظ ﴿أَيْدِينَآ﴾ تَوَسُّع؛ أي مما عملنا وخلقنا، وذلك أنهم ينتفعون بركوبها وبأكل لحومها وشحومها، وبشرْبِ ألبانها، وبالحَمْلِ عليها، وقَطْعِ المسافاتِ بها، ثم بأصوافها وأوبارها وشَعْرِها ثم بِعَظْمِ بعضها.. فطَالَبَهم بالشكرَ عليها، ووصَفَهم بالتقصير في شُكْرِهم.

---

(١) الآيتان (٦٦، ٦٧) لم تردا.
(٢) الخرف: فساد العقل من الكبر أو المرض.
(٣) يقال: هو في عنفوان شبابه؛ أي: في نشاطه وحدّته.
(٤) الآية (٧٠) لم ترد.

ثم أظهرَ ـ ما إذا كان في صفة المخلوقين لكان شكاية ـ أنهم مع كل هذه الوجوه من الإحسان:ـ

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُحْضَرُونَ﴾.

اكتفوا بأمثالهم معبوداتٍ لهم، ثم سَلَّى نبيَّه ـ ﷺ بأنْ قال له:ـ

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

وإذا عَلِمَ العبدُ أنه بمرأى من الحقِّ هَانَ عليه ما يقاسيه، ولا سيما إذا كان في الله.

قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾.

أي شَدَدْنا أسْرَهم، وجمعنا نَشْرَهم، وسَوَّينا أعضاءهم، ورَكَّبْنَا أجزاءهم، وأودعناهم العقل والتمييزَ... ثم إنه ﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾: ينازعنا في خطابه، ويعترض علينا في أحكامنا بِزَعْمِه واستصوابه، وكما قيل:

أُعَلِّمُه الرمايةَ كُلَّ يومٍ فلمَّا اشتدَّ ساعِدُه رماني

قوله جل ذكره: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾.

مَهَّد لهم سبيل الاستدلال، وقال إن الإعادة في معنى الإبداء، فأي إشكالٍ بقي في جواز الإعادة في الانتهاء؟ وإنَّ الذي قدر على خَلْقِ النارِ في الأغصان الرَّطبة من المرخِ[1] والعَفَار[2] قادرٌ على خَلْقِ الحياةِ في الرِّمة[3] البالية، ثم زاد في البيان بأن قال: إن القدرة على مِثْلِ الشيء كالقدرة عليه لاستوائهما بكلِّ وجه، وإنه يحيي النفوسَ بعد موتها في العرصة كما يُحْيي الإنسانَ من النطفة، والطيرَ من البيضة، ويحيي القلوبَ بالعرفان لأهل الإيمان كما يميت نفوسَ أهل الكفر بالهوى والطغيان[4].

(١) المرخ: من العضاه وهو ينفرش ويطول في السماء حتى يستظل فيه، وليس له ورق ولا شوك وعيدانه سِلبة قضبان دقاق، وينبت من شعب وفي خشب، ومنه يكون الزناد الذي يقتدح به. (اللسان ٣/ ٥٤ مادة: مرح).

(٢) العفار: شجر فيه نار، يسوّى من أغصانه الزناد فيقتدح بها (اللسان ٤/ ٥٨٩ مادة: عفر).

(٣) الرِّمة: العظام البالية (ج) رمم ورمام.

(٤) الآية (٨١) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ يَخلِقه وقدرته. وأخبرنا أنه تتعلَّق بالمكوَّن كلمتُه على ما يجب في صفته، وسيَّان عنده خَلْقُ الكثيرِ في كثرته والقليلِ في قِلَّته.

قوله جل ذكره: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

أي بقدرته ظهورُ كلِّ شيء: فلا يحدث شيء ـ قَلَّ أو كثُرَ ـ إلا بإبداعه وإنشائه، ولا يبقى منها شيءٌ إلا بإبقائه، فمنه ظهور ما يُحْدِث، وإليه مصير ما يخلق.

سورة الصافات

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ إذا استولت على قلب أزالت عنه أولاً من الدارين أرَبَه، ثم ألزمت على وجه التبعية حَرَبه، ثم شَرَّفَت من حيث الهمة طَلَبَه.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾..

افتتح اللَّهُ هذه السورة بالقَسَم بالصافات، وهم الملائكة المصطفَّةُ في السماء وفي الهواء، وفي أماكنهم على ما أمرهم الحق ـ سبحانه ـ من المكان يلازمونه، والأمر يعانقون؛ يُسَبِّحونه ويُقَدِّسونه، وبما يأمرهم به يطيعونه.

﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا﴾.

عَطَفهم على ما تَقَدَّمَ بحرف الفاء وهم الملائكة الذين يزجرون السحابَ. ويقال يزجرون الناس عن المعاصي. ويقال هي الخواطرُ الزاجرةُ عن المناهي.

﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾.

يقال «الصافات» الطيورُ المصطفَّةُ في السماء، ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ الملائكة يتلون كتاب الله، ويتلون الوحيَ على الأنبياء عليهم السلام.

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾.

هذا هو المقسومُ عليه.

أخبر أنه سبحانه واحدٌ في مُلْكِه، وذلك لأنهم تَعَجَّبُوا أن يقوم الواحِدُ بجميع أحوال العالم. ومعنى كونه واحداً تَفَرُّدُه في حقِّه عن القسمة، وتَقَدُّسُه في وجوده عن الشيبة، وتَنَزُّهُه في مُلْكِه عن الشريك؛ واحد في جلاله، واحدٌ في استحقاق جماله، واحدٌ في أفعاله، واحدٌ في كبريائه بنعت علائه، ووصف سنائه.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾.

مالِكُ السمواتِ والأرضِ وما بينهما، وخالقهما، وأكسابُ العبادِ داخِلةٌ في هذا ﴿وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ مشارق النجوم والشمس والقمر، ومشارق القلوب بشموسها وأقمارها ونجومها.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴾.

زَيَّنَ السماءَ الدنيا بالنجوم، وقلوبَ أوليائه بنجوم المعارف والأحوال، وحفظ السمواتِ بِأَنْ جعل النجومَ للشياطين رجوماً، وكذلك زَيَّن القلوبَ بأنوار التوحيد، فإذا قَرُبَ منها الشيطان رَجَمها بنجوم معارفهم[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾.

كذلك إذا اغتنم الشيطانُ من الأولياء أن يُلْقِيَ إليهم شيئاً من وساوسه تَذَكَّرُوا، فإذا هم مُبْصِرون، ورجعوا.. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟﴾ [الأعراف: ٢٠١].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾.

عَرّفهم عَجْزَهم عن الإثبات، وضعفهم في كل حال، ثم ذكرهم نسبتهم أنها إلى الطين اللازب[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾.

حقيقة التعجب تغير النفس مما لم تجر العادةُ بحدوث مثله. وَتقرأ ﴿عَجِبْتَ﴾ بالفتح خطاباً بالرسول ﷺ ـ وبالضم فكأن الحقّ يقول ذلك مِنْ قبلَ نفسه بل عجبتُ، وَيقال ذلك بمعنى إكبار ذلك الشيء، إما في القدر، أو الإكثار في الذمِّ أو في المدح.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ﴾.

إذا ذُكروا بآياته يُعرضون عن الإيمان بها والتفكّر فيها، ويقولون: ليس هذا الذي أتى به محمدٌ إلا سِحراً ظاهراً[٣].

قوله جلّ ذكره: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾.

قالوا: أئذا متنا، تفرّقت أجزاؤنا، وَصرنا رميماً.. أئنا لمبعوثون؟ أَوَ آباؤنا الأولون يُبعثون كذلك؟ قالوه على جهة الاستبعاد؛ فالمعرفة لهم مفقودة، والبصائر لهم مسدودة، وقلوبهم عن التوحيد مصدودة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾.

قل لهم يا محمد؛ نعم، وعلى وصْف الصغر ما يبعثكم، وبزجرة واحدة يحشركم، بعد أن يُقيم القيامة على جميعكم.

---

(١) الآيتان (٨، ٩) لم تردا.

(٢) لزب الطين: لصق وصلب أو لزق. (اللسان ١/ ٧٣٨ مادة: لزب).

(٣) الآيتان (١٤، ١٥) لم تردا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُواْ يَـٰوَيْلَنَا هَـٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾.

دَوا بالويل على أنفسهم! ويقال لهم: هذا يَومُ الفصل الذي كنتم تكذبون به، وقد عاينتموه اليومَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾.

أراد بأزواجهم قرناءَهم وأشكالهم ومَنْ عمل مثل أعمالهم، ومن أعانهم على ظلمهم بقليل أو كثير.. وكذلك في هذه الطريقة: من أعان صاحبَ فترة في فترته، أو صاحب زَلة على زلته ـ كان مُشاركاً له في عقوبته، واستحقاق طرده وإهانته.

قوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾: مقامُ السؤالِ مقامٌ صعبٌ؛ قوم يسألهم المَلَكُ وقومٌ يسألهم المَلِكُ؛ فالذين تسألهم الملائكةُ أقوامٌ لهم أعمالٌ صالحةٌ تصلح للعرض والكشف، وأقوامٌ لهم أعمالٌ لا تصلح للكشف، وهم قسمان: الخواصّ يسترهم الحقّ عن اطلاع الخلق عليهم في الدنيا والآخرة، وأقوامٌ هم أربابُ الزلات يرحمهم اللَّهُ فلا يفضحهم، ثم إنهم يكونون في بعض أحوالهم بنعت الهيبة، وفي بعض أحوالهم بنعت البسط والقربة، وفي الخبر: «أن قوماً يسترهم بيده ويقول تذكر غداً ربك» وهؤلاء أصحاب الخصوص في التحقيق: فأما الأغيار والأجانب والكفار فيقال لهم: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، فإذا قَرؤوا كتابهم يقال لهم: من عمل هذا؟ وما جزاؤه؟ فيقولون: جزاؤه النار. فيقال لهم: أدخلوها بحكمكم.

ثم يقال لهم في بعض أحوال استيلاء الفزَع عليهم:

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾.

يُورِّك بعضُهم الذنبَ على بعض؛ فهذا يتبرأ من صاحبه، وصاحبهُ يتبرأ منه، إلى أن يحكم الله عليهم بالخزي والهوان، ويجمعهم في اللعن والإبعاد(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

يشتركون في العذاب ولكن تتفاوت أنصباؤهم، كما أنهم يشترِكون في الزّلة ولكن تختلف مقادير زلاتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

احتجابُهم بقلوبهم أوقعهم في وهدة عذابهم؛ ذلك لأنهم استكبروا عن الإقرار بربوبيته. ولو عرفوه لافتخروا بعبوديته؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ

(١) الآيات من (٢٨ حتى ٣٢) لم ترد.

عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وقال: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٣] فإنَّ مَنْ عَرفَ اللَّهَ فلا لذة له إلا في طاعته، قال قائلهم:

ويظهرُ في الهوى عزُّ الموالي فيلزمني له ذُلُّ العبيد

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾.

لمَّا لم يحتشموا من وَصفه ـ سبحانه ـ بما لا يليق بجلاله لم يُبالوا بما أطلقوه من المثالب في وصف أنبيائه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

الاستثناء راجعٌ إلى قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾.

ويقال الإخلاصُ إفرادُ الحقِّ ـ سبحانه ـ بالعبودية، والذي يشوبُ عمله رياءٌ فليس بمخلص.

ويقال: الإخلاص تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين، وفي الخبر: «يا معاذ، أخلص العملَ يكفيك القليل منه».

ويقال: الإخلاصُ فقدُ رؤية الأشخاص.

ويقال: هو أن يلاحظ محل الاختصاص.

ويقال: هو أن تنظر إلى نفسك بعين الانتقاص.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾.

لهم رزقٌ معلومٌ لأوقاتٍ مُعينة، وفي وقت الرسول عليه السلام: «مَنْ كان له رزقٌ معلومٌ كان من جملة المياسير، وهذه صفة أهل الجنة؛ فلهُمْ في الآخرة رزقٌ معلوم لأبشارهم ولأسرارهم، فالأغنياء لهم رزقٌ معلوم لأنفسهم والفقراء لهم رزق معلوم لقلوبهم وأسرارهم.

﴿فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾: من ذلك ورود الرسول عليهم من قِبَلِ الله في كل وقت، وكذلك اليومَ الخطابُ واردٌ من الله على قلوب الخواص في كل وقت بكلِّ أمر.

قوله جلّ ذكره: ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾.

يستأنِسُ بعضُهم برؤية بعضٍ، ويستروح بعضُهم إلى لقاء بعض.

قوله جلّ ذكره: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾.

شراب يوجِبُ لهم الطَّرَدَ ولا وحشةَ هناك، شراباً يُحْضِرَهم ولا يُسْكِرُهم، لأنه قال: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾.

فلا تغتالُ عقولَهم، ولا تُزيل حِشْمَتَهم، ولا تَرْفَعُ عنهم هَيْبَتَهم؛ فقومٌ يشربون وهم بوصف الستر، وآخرون يُسْقَوْن في الحضور ـ وهم على نعت القُرْب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾.

لا يَنْظُرْنَ إلى غير الوليّ، ثم الوليُّ قد ينظر إليهن، وفيهم مَنْ لا ينظر إليهن:

جُنِنَّا بِلَيْلَى وهي جُنَّتْ بغيرنا وأخرى بنا مجنونةٌ لا نريدها

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ...﴾.

يتذاكرون فيما بينهم، ويذكرون مِنْ معارفهم مَنْ لا يُؤْمِن باللَّهِ، وما آمن به المؤمنون فيخلق اللَّهُ لهم إطلاعاً عليه وهم في النار يحترقون[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾.

نَطَقَ الوليُّ بالحقِّ ولكنه لم يُصَرِّحْ بعين التوحيد؛ إذ جَعَلَ الفَضْلَ واسطةً، والأَوْلى أن يقول: ولولا ربي لكنتُ من المحضرين[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾.

يقال: بل الملائكةُ يقولون لهم هذا، ويقال: الحقُّ ـ سبحانه ـ إذا أراهم مقامَهم في الجنة يقول لهم: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾.

ويقال إنْ كان العابدُ يقول هذا، أو يقال له هذا إذا ظهرت الجنة فإنه إذا بَدَتْ شظيةٌ من الحقائق وتباشير الوصلة، أو ذَرَّةٌ من نسيم القربة فبالحريِّ أن يقول القائلون: لِمِثْلِ هذه الحالة تُبْذَلُ الأرواحُ.

على مِثْلِ سَلْمَى يَقْتُلُ المرءُ نَفْسَه وإن بات من سَلْمَى على اليأس طاويا

وها هنا تضيق العبارات، وتتقاصر الإشارات.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾.

ذَكَرَ صفة هوان الأعداء، وما هم به من صفة المذلة والعذاب في النار؛ من أَكْلِ الضريع، ومن شراب الزقوم التي هي في قُبْح صورة الشياطين، ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم... إلى آخر القصة[٣].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

لمَّا أَصَابه مِنْ الأذى مِنْ قومه حِين كذَّبوهُ، ولم يسمعوا منه ما كان يقول مِنْ حَديثنا.. رَجعَ إلينا، فخاطبنا وخاطبناه، وكلمنا وَكلمناه، وَنادانا فناديناه، وكان لنا

(١) الآيات من (٥١ حتى ٥٥) لم ترد. (٢) الآيتان (٥٨، ٥٩) لم تردا.
(٣) الآيات من (٦٣ حتى ٧٤) لم ترد.

فكُنا له، وأجابنا فأجبناه.. فَلَنِعْمَ المجيبُ كان لنا ولنعمَ المجيبون كُنَّا له!

﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾: شتان بين كَرْبِ نوحٍ وبيْن كَرْب أهله!

وما يبكون مثلَ أخي ولكن أُعَزِّي النَّفس عنه بالتأَسي

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾.

لأنَّ الناس كلهم مِن أَولاد نوح، فإنَّ مَنْ كان معه في السفينة لم يتناسلوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾.

يريدُ به قول الناس عنه إلى يوم القيامة(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

يعني أَنَّ إبراهيم مِنْ شيعة نوح عليه السلام في التوحيد ـ وإنْ اختلفنا في فروع شرعيهما.

﴿قلب سليم﴾: لا آفة فيه. ويقال لديغ مِنَ المحبة. ويقال: سليم من محبة الأغيار. ويقال سليم من حُظوظ نفسه وإرادته. ويقال: مستسلم لله في قضائه واختياره.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ؟﴾.

سأَلهم على جِهة الإنكار عليهم، والتنبيه لهم على موضع غلطتهم(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ؟﴾.

إذا لقيتموه ـ وقد عَبَدتم غيرَه.. فما الذي تقُولون له؟ وكيف بكم في مقام الخجلة مما بين أيديكم وإن كنتم اليوم ـ غافلين عنه؟

قوله جلّ ذكره: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾.

قيل أراد «إلى» النجوم فأقام «في» مقامَ «إلى».

﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾: كانت تأتيه الحمَّى في وقت معلوم، فقال: قرُبَ الوقتُ الذي أسقم فيه مَنْ أَخذِ الحمَّى إياي، فكأنه تعلل بذلك ليتأخرَ عنهم عند ذهابهم إلى عيدهم لتمشية ما كان في نَفْسه من كسر الأصنام.

ويقال كان ذلك من جملة المعاريض. وقيل أرى من نفسه موافقة قَوْلهم في القول بالنجوم لأنهم كانُوا يقولون بالنجوم، فتأخر بهذا السبب عنهُمْ.

وكان إبراهيم في زمان النبوة فلا يبعد أنَّ اللَّهَ ـ عزّ وجلّ ـ قد عرّفه بطريق الوحي أنه يخلق ـ سبحانه ـ باختياره أفعالاً عند حركات الكواكب.

---

(١) الآيات من (٧٩ حتى ٨٢) لم ترد. (٢) الآية (٨٦) لم ترد.

ثم لمَّا ذَهبوا إلى عيدهم كَسَّرَ أصنامهم، فلمَّا رجعوا قالوا ما قالوا، وأجابهَمْ بما أجابهم به[١] إلى قوله:

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾.

رَدّ اللَّهُ كيدهُم إلى نُحورهم. وقد تعرَّضَ له جبريلُ ـ عليه السلام ـ وهُوَ في الهواء وَقَدْ رُمي من المنجنيق[٢] فعرَضَ عليه نفسه قائلاً: هل مِنْ حاجة؟

فأجابَ: أَمَّا إليكَ... فلا!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

يقال إنه طلبَ هداية مخصوصة؛ لأنه كان صاحب هداية، إذْ لو لم تكن له هداية لَمَا ذَهبَ إلى رَبِّه. ويحتمل أنه كان صاحبَ هدايةٍ في الحال وطلبَ الهداية في الاستقبال أي زيادةً في الهداية، ويقال طلبَ الهداية على كيفية مراعاة الأدَب في الحضور، ويقال طلبَ الهداية إلى نفسه لأنه فقدَ فيه قلبه ونفسه؛ فقال سيهديني إليَّ لأقومَ بحقِّ عبُوديته؛ فإن المستهلكَ في حقائق الجمع لا يصحُّ منه أداء العبادة إلَّا بأن يُردَّ إلى حَالة التفرقة والتمييز.

ومعنى ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾ أي إلى المكان الذي يُعْبدُ فيه ربي.

ويقال أخبر عن إبراهيم أنه قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾: فأخْبر عن قوله.

وأخبر عن موسى فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فأخبر عن صفته لا عن قوله...

وقال في صفة نبينا ﷺ: ﴿سُبْحَٰنَ الَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ...﴾ [الإسراء: ١]. [فأخبر عن ذاته سبحانه][٣].

وفصلٌ بَينَ هٰذِه المقامات؛ فإبراهيم كان بعين الفرق، وموسى بعينِ الجمع؛ ونبينا كان بعين جمع الجمع.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّٰلِحِينَ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾.

لمّا قال «حليم» نبَّهَ على أنه سيلقى من البلاء ما يحتاج إلى الحلم في تحمله.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَٰٓأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ اللَّهُ مِنَ الصَّٰبِرِينَ﴾.

---

(١) الآيات من (٩٠ حتى ٩٦) لم ترد.

(٢) المنجنيق: آلة قديمة من آلات الحرب وحصار المدن، كانت تُرمى بها الحجارة على الأسوار فتهدمها (ج) منجنيقات ومجانق ومجانيق.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ إشارة إلى وقت توطين القلب عَلَى الوَلد، رأى إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنه يُؤمرُ بذبح ابنه إسماعيل ليلةَ التروية، وسميت كذلك لأنه كان يُروِّي في ذلك طولَ يومه. هَلْ هُو حقٌّ أم لا؟ ثم إنه رأى في الليلة التالية مثل ذلك فَعرف أن رؤياه حق، فسمي يوم عرفة.

وكان إسماعيل ابنَ ثلاث عشرة سنة، ويقال إنه رأى ذلك في النوم ثلاث مرات.

أن اذبح ابنك، فقال لإسماعيل: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ؟﴾ فقال إسماعيل: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ﴾: أي لا تحكم فيه بحكم الرؤيا، فإنها قد تصيب وقد يكون لها تأويل، فإن كان هَذا أمراً فافعل بمقتضاه، وإن كان له تأويل فتثبت، فقد يمكنك ذبح ابنك كلّ وقتٍ ولكن لا يمكنك تلافيه.

ويقال بل قال: أُتركْ حَديثَ الرؤيا واحمله عَلَى الأمر، واحملْ الأمر عَلَى الوجوب، ثم احمله عَلَى الفور ولا تُقصِّرْ.

ويقال قال له: إن كان يطيب قلبكَ بأن تذبح ابنك لأجل الله فأنا يطيب قلبي أن يذبحني أبي لأجل الله.

ويقال قال إسماعيل لأبيه: أنتَ خليلُ الله وتنام.. أَلَمْ تعلَمْ أن الخليلَ إذا نام عن خليله يُؤمَرُ بِذَبْح ابنه؟ مَالَكَ يا أَبَتِ والنوم؟

ويقال في القصة: إنه رآه ذات يوم راكباً على فَرَسٍ أشهب فاستحسنه، ونَظَرَ إليه بقلبه، فأُمِرَ بِذَبْحِه، فلمَّا أخرجه عن قلبه، واستسلم لذبحه ظَهَرَ الفداء، وقيل له كان المقصودُ من هذا فراغَ قلبك عنه.

ويقال في القصة: أَمَرَ إسماعيلُ أباه أن يَشُدَّ يديه ورِجْلَيه لئلا يضطربَ إذا مَسَّهُ أَلمُ الذَّبح فَيُعاتَب، ثم لمَّا همَّ بِذَبْحِه قال: افتحْ القيدَ عني حتى لا يقال لي: أمشدودَ اليد جئتني؟ وإني لن أتحركَ:

ولو بيدِ الحبيبِ سُقِيتُ سُمّاً   لكان السُّمُّ من يدِهِ يطيب

ويقال أيهما كان أشدَّ بلاءً؟ قيل: إسماعيل؛ لأنه وَجَد الذَّبحَ من يد أبيه، ولم يتعوَّد من يده إلا التربية بالجميل، وكان البلاءُ عليه أشدَّ لأنه لم يتوقع منه ذلك.

ويقال بل كان إبراهيم أشدَّ بلاءً لأنه كان يحتاج أن يذبح ابنه بيده ويعيش بعدَه.

﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فلم يأتِ إسماعيل بالدعوى بل تأدّب بلفظ الاستثناء.

ويقال لو قال إسماعيل إمَّا لا تَقُلْ: «يا بُنَيَّ» بهذه اللطافة، وإمَّا لا تَقُلْ: ﴿أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ فإنَّ الجمعَ بينهما عجيب!

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

قيل في التفاسير إنه كان يمرُّ بالسكين على حَلْقِه والسكين لا يُقطَع، فتعجَّبَ إبراهيمُ، فنودي: يا إبراهيم، كان المقصودُ من هذا استسلامكما.

ويقال إن الله سَتَرَ عليهما عِلْمَ ما أُريد منهما في حال البلاء، وإنما كَشَفَ عنهما بعد مُضِيّ وقت المحنة لئلا يَبْطُلَ معنى الابتلاءَ... وهكذا يكون الأمر عند البلاء؛ تَنْسَدُّ الوجوهُ في الحال؛ وكذلك كانت حالة النبيّ ﷺ في حال حديث الإفك[١]، وكذلك حالة أيوب عليه السلام؛ وإنما يتبيَّنُ الأمرُ بعد ظهور آخر المحنة وزوالها، وإلّا لم تكن حينئذٍ محنة [إلّا أنه يكون في حال البلاء إسبالٌ يُولَى مع مخامرة المحنة] ولكن مع استعجام الحال واستبهامه، إذ لو كشف الأمر على صاحبه لم يكن حينئذٍ بلاءً؛ قال تعالى:

﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾.

قيل كان فداء الذبيح يُرَبَّى في الجنة قبله بأربعين خريفاً.

والناس في «البلاء» على أقسام: فبلاءٌ مستعصب وذلك صفة العوام، وبلاء مستعذب وذلك صفة مَنْ يستعذبون بلاياهم، كأنهم لا ييأسون حتى إذا قُتِلُوا[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَ﴾.

وكلُّ هذا بعد البلاء؛ قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٦].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾.

مَنَّ عليهما بالنبوة، وبالنجاة من فرعون وقومه، وبنصرته عليهم[٣].

﴿وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾.

يعني التوراة.

﴿وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

بالتبري عن الحوْلِ والقوة، وشهود عين التوحيد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾.

ثم قال جل ذكره: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[٤].

---

(١) الإفك: الكذب أو أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء.
(٢) الآيات من (١٠٨ حتى ١١١) لم ترد.
(٣) الآيتان (١١٥، ١١٦) لم تردا. (٤) الآيتان (١٢١، ١٢٢) لم تردا.

«إلياس»: قيل هو إدريس، وقيل غيره، وكان بالشام، واسمُ صَنَمِهم «بَعْل»، ومدينتهم بعلبك.. أنذر قومَه فكذّبوه، ووَعظَهم فما صَدَّقُوه، فأهلَكَ قومَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

مضت قصتهُ وكيف نجّى أَهلَه إلا امرأته التي شارَكَتْهم في عصيانهم، فحقَّ العذاب عليها مثلما عليهم[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

فكان في أول أمره يطلب الاستعفاء من النبوة، ولكن لم يُعْفَ، ثم استقبله ما استقبله، فلم يلبث حتى رأى نَفْسَه في بطن الحوت في الظلمة[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾.

أي بما يُلَامُ عليه، والحقُّ ـ سبحانه ـ مُنَزَّهٌ عن الحيفِ في حُكْمِه؛ إذ الخَلْقُ خَلْقُه، ثم اللَّهُ رَاعَى حقَّ تَعَبُّدِه، وحَفِظَ ذِمامَ ما سَلَفَ له في أداء حقِّه فقال: ـ

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

فإن كَرَمَ العَهْدِ فينا من الإيمان، وهو مِنّا من جملة الإحسان، «فالمؤمن قد أخذ من اللَّهِ خُلُقاً حسناً» ـ بذلك ورد الخبر.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِالْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾.

«سقيم»: في ضعفِ من الحال لِمَا أَثَّر مِنْ كَوْنِهِ قضى وقتاً في بطن الحوت.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾.

لِتُظِلَّه، فإنه كان في الصحراء وشعاعُ الشمسِ كان يَضُرُّه، وقَيَّضَ له اللَّهُ ظبيةً ذات وَلَدٍ كانت تجيء فيرضع من لبنها، فكأنَّ الحقَّ أعاده إلى حال الطفولية. ثم إنه رَحِمه، ورجع إلى قومه، فأكرموه وآمنوا به، وكان اللَّهُ قد كَشَفَ عنهم العذاب، لأنهم حينما خَرَجَ يونس من بينهم ندموا وتَضَرَّعوا إلى الله لمَّا رَأَوْا أوائلَ العذاب قد أظلَّتْهم، فَكَشَفَ الله عنهم العذاب، وآمنوا بالله، وكانوا يقولون: لو رأينا يونسَ لَوَقَّرْناه، وعظَّمْناه، فرجع يونسُ إليهم بعد نجاته من بطن الحوت، فاستقبله قومُه، وأدخلوه بَلَدَهم مُكرَماً.

ويقال: الذَّنْبُ والجُرْمُ كانا من قومه، فهم قد تُوُعِدُوا بالعذاب. وأمَّا يونس فلم يكن قد أذنب ولا أَلَمَّ بمحظور، وخرج من بينهم، وكَشَفَ اللَّهُ العذابَ عنهم، وسَلِمُوا.. واستقبل يونس ما استقبله بل أنه قاسى اللتيا والتي[3] بعد نجاته؛ ويا عجباً

---

(١) الآيات من (١٣٤ حتى ١٣٨) لم ترد.

(٢) الآيتان (١٤٠، ١٤١) لم تردا.

(٣) يقال: اللتيا والتي: يكنون بهما عن الشدة.

من سِرِّ تقديره! فقد جاء في القصة أن الله سبحانه ـ أوحى إلى يونس بعد نجاته أَنْ قُلْ لفلانِ الفخَّار حتى يَكْسِرَ الجِرارَ التي عملها في هذه السنة كلَّها! فقال يونس: يا رب، إنه قَطَعَ مدةً في إنجاز ذلك، فكيف آمُرُه بأن يَكْسِرَها كُلَّها؟

فقال له: يا يونس، يَرِقُّ قلبُكَ لِخَزّافٍ يُتْلِفُ عَمَلَ سنةٍ.. وتريدني أن أُهْلِكَ مائةَ ألفٍ من عبادي؟! يا يونس، إنك لم تخلقهم، ولو خَلَقْتَهم لَرَحِمْتَهم[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾.

لمَّا قالوا في صفة الملائكة إنهم بناتُ الله بَيَّنَ اللَّهُ قُبحَ قولِهم، فقال: سَلْهُم من أين قالوا؟ وبأي حُجَّةٍ حكموا بما زعموا؟ وأي شُبْهَةٍ داخَلَتْهم. ثم إنهم كانوا يستنكفون من البنات، ويُؤْثِرون البنين عليهن.. ومع كُفرهم وقبيح قولِهم وصفوا القديمَ ـ سبحانه ـ بما استنكفوا منه لأنْفُسهم[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

أي ما أنتم بفاتنين من الناس إلَّا من أَغْوَيْتُه بحُكْمِي، فبه ضَلُّوا لا بإضلالكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾.

الملائكة لهم مقام معلوم لا يَتَخطَّوْنَ مقامَهم، ولا يتعدَّوْن حدَّهم، والأولياءُ لهم مقام مستورٌ بينهم وبين الله لا يُطْلِعُ عليه أحداً، والأنبياءُ لهم مقام مشهورٌ مُؤَيَّدٌ بالمعجزات الظاهرة؛ لأنهم للخَلْقِ قدوة فأَمْرُهُم على الشَّهْرِ، وأَمْرُ الأولياءِ على السَّتْرِ[٣].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

أي سبقت كلمتنا لهم بالسعادة، وتقدَّمَ حُكْمنَا لهم بالولاية والرعاية، فَهُم من قِبَلِنا منصورون:

﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

مَنْ نَصَرَه لا يُغْلَبُ، ومَنْ قَهَرَه لا يَغْلِبُ.

وجُنْدُه الذين نَصَبَهم لنَشْرِ دينه، وأقامَهم لِنَصْرِ الحقِّ وتبيينه. مَنْ أراد إذلالَهم فَعَلَى أذقانه يخرُّ، وفي حبل هلاكه ينجرُّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾.

تَوَلَّ عنهم ـ يا محمد ـ إلى أن تنقضيَ آجالُهم، وتنتهيَ أحوالُهم. وانتظِرْ انقضاءَ أيامِهم، فإنه سينصرم حديثهم وشيكاً:

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾.

---

(١) الآيتان (١٤٧، ١٤٨) لم تردا.
(٢) الآيات من (١٥٠ حتى ١٦٠) لم ترد.
(٣) الآيات من (١٦٥ حتى ١٧٠) لم ترد.

وإنما قال ذلك فيما كانوا يتمنون قيام الساعة، وكانوا يستعجلون ذلك لِفَرْطِ جهلهم، ثم لقلة تصديقهم. فإذا نزل العذابُ بساحتهم، وأناخ البلاءُ بعقوتهم فساء صباحهم. فتولَّ عنهم فَعَنْ قريبٍ سيحصل ما منه يَحْذَرون[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ﴾: تقديساً له، وسلامٌ على أنبيائنا، ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: أي هو المحمود على ما ساءَ أم سَرَّ، نَفَعَ أم ضَرَّ.

(١) الآيات (١٧٧، ١٧٨، ١٧٩) لم ترد.

سورة صٓ

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

اسمٌ عزيزٌ اعترفت المعارفُ بالقصور عن إدراكه، اسمٌ جليلٌ تَقَنَّعَتْ العلومُ خَجَلاً من الطمع في إحاطته، اسمٌ كريمٌ صَغُرَتْ الحوائج عند ساحات جوده، اسمٌ رحيمٌ تلاشت قطرات زلَّات عباده في تلاطم أمواج رحمته.

قوله جلّ ذكره: ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾.

الصَّادُ مفتاحُ اسمه الصادق والصبور والصمد والصانع... أقسم بهذه الأشياء وبالقرآنِ. وجواب القسم: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾.

ويقال: أقسم بصفاءِ مودةِ أحبابه والقرآنِ ذي الذكر أي: ذي الشرف... وشَرَفُه أنه ليس بمخلوق.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾.

في صلابةٍ ظاهرة، وعداوة بيِّنة، وإعراضٍ عن البحث للأدلة، والسَّرِّ للشواهد.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾.

بادوا حين هَجَمَ البلاءُ مستغيثين، وقد فات وقتُ الإشكاء والإجابة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

عَجِبُوا أن جاءَهم مُنْذِرٌ منهم، ولم يعجبوا أن تكون المنحوتاتُ آلهةً، وهذه مناقضة ظاهرة. فلمَّا تحيَّروا في شأن أنبيائهم رَمَوْهم بالسحر، وقسَّموا فيهم القول.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

لم تباشر خلاصةُ التوحيد قلوبَهم، وبعدوا عن ذلك تجويزاً، فضلاً عن أن يكون إثباتاً وحُكْماً، فلا عَرَفُوا الإلهَ ولا معنى الإلهية؛ فإنَّ الإلهيةَ هي القدرة على الاختراع. وتقديرُ قادِرَيْنِ على الاختراع غيرُ صحيح لِما يجب من وجود التمانع بينهما وجوازه، ثم إنَّ ذلك يمنع من كمالهما، ولو لم يكونا كامِلي الوصفِ لم يكونا إِلَهَيْن، وكلُّ أمرٍ جرى ثبوتُ سقوطِ فهو مطروحٌ باطل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾.

إذا تواصى الكفارُ فيما بينهم بالصبر على آلهتهم، فالمؤمنون أَوْلى بالصبر على عبادة معبودهم والاستقامة في دينهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾.

ركنوا إلى السوء والعادة، وما وجدوا عليه أسلافَهم من الضلالة، واستناموا إلى التقليد والهوادة.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾.

أي لو استبصروا في دينهم لَمَا أَقدموا على ما أسرفوا فيه من جحودهم، ولولا أَنَّا أَدَمْنا لهم العوافيَ لَمَا تَفرَّغُوا إلى طغيانهم.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾.

أي: هؤلاء الكفار الذين عارضوا أو نازعوا، وكَذَّبوا واحتجُوا... أعندهم شيءٌ من هذه الأشياء؟ أم هل هم يقدرون على شيءٍ من هذه الأشياء فيفعلوا ما أرادوا، ويعطوا من شاؤوا، أو يرتقوا إلى السماء فيأتوا بالوحي على مَنْ أرادوا[1]؟

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾.

بل هم جُند من الأحزاب المتحزبين. كُلُّهم عَجَزَةٌ لا يقدرون على ذلك، مهزومون. شَبَّهَهُم في بقائهم عن مرادهم بالمهزومين؛ فإن هؤلاء الكفار ليس معهم حُجَّةٌ، ولا لهم قوة، ولا لأصنامهم أيضاً من النفع والضر مُكْنَة، ولا في الردِّ والدفع عن أنفسهم قدرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ...﴾ الآيات.

ذَكَرَ هؤلاء الأقوام في هذا الموضع على الجمع، وفي غير هذا الموضع على الإفراد، وفي كل موضع فائدة زائدة في الفصاحة والإفادة بكل وجه[2]. ثم قال:

﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾.

أي ما كان منهم أحدٌ إلَّا كَذَّبَ الرسلَ فحقَّت العقوبةُ عليه، واستوجَبَ العذابَ. ثم قال:

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾.

أي ليسوا ينتظرون إلا القيامة، وما هي إلا صيحة واحدة، وإذا قامت فإنها لا تسكن.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

---

(١) الآية (١٠) لم ترد.
(٢) الآية (١٣) لم ترد.

اصْبِرْ ـ يا محمد ـ على ما يقولون، فإنه لن تطولَ مُدَّتُهم، ولن نَمُدَّ ـ في مقاساتِكَ أَذَاهم ـ لُبْثَكَ ومُكْثَكَ، وعن قريبٍ سينزل اللَّهُ نَصْرَه، ويصدق لك بالتحقيقِ وَعْدَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ أي ذا القوة، ولم تكن قُوَّتُه قوةَ نَفْسٍ، وإنما كانت قوته قوةَ فِعْلٍ؛ كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ـ وهو أشدُّ الصوم، وكان قوياً في دين الله بِنَفْسِه وقلبه وهمته.

﴿أَوَّابٌ﴾ رَجَّاع.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

كان داود يُسَبِّح، والجبالُ تُسَبِّح، وكان داود يفهم تسبيحَ الجبالِ على وجهِ تخصيصٍ له بالكرامة والمعجزة.

وكذلك الطير كانت تجتمع له فتسبِّح الله، وداود كان يعرف تسبيحَ الطير؛ وكلُّ مَنْ تَحقَّقَ بحاله ساعَدَه كلُّ شيءٍ كان بقُرْبِه، ويصير غيرُ جِنْسِه بحُكْمِه، وفي معناه أنشدوا:

رُبَّ ورقاءَ[1] هتوفٍ بالضُّحى ... ذات شجوٍ صَرَخَتْ في فَنَنِ[2]
ذَكَرَتْ إلفاً ودهراً صالحاً ... وبَكَتْ شوقاً فهاجَتْ حَزَني
فبُكائي رُبَّما أَرَّقَها ... وبكاها ربما أَرَّقني
ولقد تشكو فما أفهمها ... ولقد أشكو فما تفهمني
غير أني بالجوى[3] أعرفها ... وهي أيضاً بالجوى تعرفني

قوله جلّ ذكره: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾.

أي قوَّيْنا مُلْكَه بأنصاره، وفي التفسير: كان يحفظ مُلْكَه كلَّ ليلةٍ ثلاثةٌ وثلاثون ألفَ رجلٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾.

أي شددنا مُلْكَه بنصرنا له ودَفْعِنا البلاءَ عنه.

ويقال شدنا مُلْكَه بالعدل في القضية، وحُسْنِ السيرة في الرعية.

---

(١) الورقاء: الحمامة أو التي لونها كالرماد فيه سواد (ج) ورق.

(٢) الفنن: الغصن الفض الورق أو المستقيم.

(٣) الجوى: الحرقة وشدة الوجد من عشق أو حزن.

ويقال شددنا ملكه بقبض أيدي الظَّلَمَةِ.

ويقال شددنا ملكه بدعاء المستضعفين.

ويقال شددنا مُلْكَه بأن رأى النصرةَ مِنَّا، وَتَبرَّأَ من حَوْلِه وقُوَّتِه.

ويقال بوزراء ناصحين كانوا يدلُّونه على ما فيه صلاح مُلْكه.

ويقال بِتَيَقُّظِه وحُسْنِ سياسته. ويقال بقبوله الحق من كلِّ أحد.

ويقال برجوعه إلينا في عموم الأوقات.

﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾: أي أعطيناه الرُّشْدَ والصوابَ، والفَهْمَ والإصابة.

ويقال العلم بنفْسِه وكيفية سياسة أمته.

ويقال الثبات في الأمور والحكمة، وإحكام الرأي والتدبُّر.

ويقال صحبة الأبرار، ومجانبة الأشرار.

وأمَّا ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ فهو الحكم بالحق، وقيل: البينة على مَنْ ادَّعىَ واليمين على مَنْ أنكر. ويقال: القضاء بين الخصوم.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾ الآيات.

أرسل اللَّهُ إلى داود عليه السلام مَلَكَيْنِ من السماء على صورة رجلين فتحاكَمَا إليه تنبيهاً له على ما كان منه من تَزَوُّجِه بامرأة أوريا، وكان تَرْكُ ذلك أَوْلَى ـ هذا على طريق مَنْ رأى تنزيهَ الأنبياءِ عليهم السلام من جميع الذنوب.

وأمَّا مَنْ جَوَّزَ عليهم الصغائر فقال: هذا من جملته. وكنَّى الخَصْمان باسم النعجة عن النساء.

وكان داود عليه السلام قال لله سبحانه وتعالى: إنِّي لأَجِدُ في التوراة أنَّكَ أعطيتَ الأنبياءَ الرُّتَبَ فأعْطِنِيها، فقال: إنهم صبروا فيما ابتَلَيْتُهم به، فوعد داودُ من نَفْسِه الصبرَ إذا ابتلاه طمعاً في نَيْلِ الدرجات، فأخبر اللَّهُ تعالى أنه يبتليه يومَ كذا، فجعل داودُ ذلك اليوم يوم عبادة، واختلى في بيته، وأَمَرَ حُرَّاسَه ألا يؤذِيَه أحدٌ بالدخول عليه، وأغلق على نَفْسِه البابَ، وأخذ يُصَلِّي زماناً، ويقرأ التوراةَ زماناً يتعبَّد. أغلق على نفسه الباب ولكن لم يمكنه غَلْق بابِ السماء. وأَمَرَ حَرَسَه أن يدفعوا عنه الناسَ وكانوا ثلاثين ألف رجل ـ ويقال أربعة آلاف ـ ولكن لم يُمْكِنْهم أَنْ يدفعوا عنه حُكْمَ القضاء، ولقد قال الحكماء: الهاربُ مما هو كائن في كَفِّ الطالبِ يتقلب.

وكانت في البيت كوَّةٌ يدخل منها الضوء، فَدَخَلَ طيرٌ صغيرٌ من الذهب، ووقع قريباً منه، وكان لداود ابنٌ صغيرٌ فَهَمَّ أن يأخذَه ليدفعَه إلى ابنه، فتباعَدَ عنه. وجاء في

التفاسير: أنه كان إبليس، قد تصوَّر له في صورة طير، فَتَبِعَه داود، ولم يزل الطائرُ يتباعد قليلاً قليلاً، وداود يتبعه حتى خَرَجَ من الكوة، وَنَظَر داود في إثره فَوَقَعَ بَصَرُه على امرأة أوريا وهي تغتسل متجردةً، فعاد إلى قلبه منها شيء، فكان هذا السبب.

ويقال لم يَزَعَ الاهتمامَ بسبب وَلَدِه حتى فعل به ما فعل، وفي ذلك لأُولي الأبصار عِبْرَةٌ.

ويقال لم يكن أوريا قد تزوَّجَ بها بَعْدُ، وقد كان خَطَبَها، وأجابَتْه في التزوج به، فَخَطَبَ داود على خِطْبَتِه. وقيل بل كانت امرأَته وسأله أن ينزل عنها، فَنَزَلَ على أمره وتزوجها. وقيل بل أرسل أوريا إلى قتال الأعداء فقُتِلَ وتزوَّج بها. فلمَّا تَسَوَّرَ الخصمان عليه، وقيل دَخَلَا من سور المحراب أي أعلاه ولذلك: ـ

﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾.

نحن خصمان ظَلَمَ بعضُنا بعضاً، فاحكُمْ بيننا بالعدل:

﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾.

﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي انزلْ عنها حتى أكفلَها أنا، ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾. أي غلبني، فقال داود:

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾.

فضحك أحدهما في وجه صاحبه، وصَعِدَ إلى السماء بين يديه، فَعَلِمَ داودُ عند ذلك أنه تنبيهٌ له وعتابٌ فيما سَلَفَ منه، وظنَّ واستيقن أنه جاءَتْه الفتنةُ الموعودة:

﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾.

أخذ في التضرع، وجاء في التفسير أنه سجد أربعين يوماً لا يرفع رأسَه من السجود إلا (للصلاة)[1] المكتوبة عليه، وأخذ يبكي حتى نَبَتَ العُشْبُ من دموعه، ولم يأكل ولم يشرب في تلك المدة، حتى أوحى اللهُ إليه بالمغفرة، فقال: يا رب، فكيف بحديث الخصم؟ فقال: إني استوهبْتُك منه، وقال تعالى:

﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾.

إن له عندنا لَقُربةً وحُسْنَ رجوع، وقيل: كان لا يشرب الماء إلا ممزوجاً بدموعه. ويقال لمَّا التجأ داود عليه السلام في أوائل البلاء إلى التوبة والبكاء والتضرع والاستخذاء وَجَدَ المغفرةَ والتجاوز... وهكذا مَنْ رجع في أوائل الشدائد إلى الله

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

فاللَّهُ يكفيه مما ينوبه، وكذلك مَنْ صَبَرَ إلى حين طالت عليه المحنة. ويقال إنَّ زَلّةً أَسَفُكَ عليها يوصلك إلى ربِّك أَجْدَى عليك من طاعةٍ إعجابُكَ بها يُقْصِيكَ عن ربِّك.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾.

﴿جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً﴾ أي بعد مَنْ تَقَدَّمَكَ من الأنبياء عليهم السلام. وقيل حاكماً من قِبَلِي لتحكمَ بين عبادي بالحقِّ، وأوصاه بألا يتبعَ في الحكم هواه تنبيهاً على أنَّ أعظمَ جنايات العبد وأقبحَ خطاياه متابعةُ الهوى.

ولما ذَكَرَ اللَّهُ هذه القصة أعقبها بقوله:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

«باطلاً» أي وأنا مُبْطِلٌ في خلقهما، بل كان لي ما فعلْتُ وأنا فيه مُحِقٌّ.

ويقال ما خلقتهما للبطلان بل لأمرهما بالحقِّ(١).

ثم أخبر أنه لا يجعل المفسدين كالمحسنين قط، ثم قال:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

﴿مُبَٰرَكٌ﴾ وهو القرآن، ومبارك أي كبيرُ النفْع، ويقال مباركٌ أي دائمٌ باقٍ لا ينسخه كتابٌ؛ مِنْ قولهم بَرَكَ الطيرُ على الماء. ويقال مباركٌ لِمَنْ آمَنَ به وصَدَّقَ. ثم إنه بَيَّنَ أَنَّ البركةَ في تَدَبُّرِهِ والتفكُّرِ في معانيه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُۖ﴾ لأنه كان أَوَّاباً إلى الله، راجعاً إليه في جميع الأحوال؛ في النعمة بالشكر، وفي المحنة بالصبر.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾.

﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ جمع صافنة وهي القائمة، وفي التفاسير هي التي تقوم على ثلاث قوائم؛ إذ ترفع إحدى اليدين على سُنْبُكِها. وجاء في التفاسير أن سليمان كان قد غَزَا أهلَ دمشق، وأصابَها منهم، وقيل وَرِثَهَا عن أبيه داود وكان قد أصابها من العمالقة، وقيل كانت خيلاً لها أجنحة خرجت من البحر.

وفي بعض التفاسير عُرِضَ عليه عشرون ألف فرسٍ فَشَغَلَتْه عن بعض أذكاره لله.

﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾: في آخر النهار، وقيل كان ذلك صلاة العصر.

---

(١) الآية (٢٨) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾.

قيل أقبل يمسح سوقها وأعناقها بيده إكراماً منه لها بعد لها بعد أن فرَغَ من صلاته.

وقيل عَرْقَبَها (ليذبحها فَحَبَسَها بالعرقبة عن النفار)[1]، وقيل وَضَعَ عليها الكيَّ فَسَبَّلَها[2]، وإيش ما كان فكلُّ ذلك كان جائزاً في شرعه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾.

أي لَصِقْتُ بالأرض لحُبِّ المال. ويقال لمَّا سَبَّلَ هذه الأفراس عَوَّضَه الله ـ سبحانه ـ بأن سَخَّرَ له الريح، وهذا أبلغ، وكلُّ مَنْ تَرَكَ شيئاً لله لم يخسر على الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾.

اختلف الناسُ في هذه الفتنة؛ ومنها أنه كانت له مائة امرأة فقال: «لأطوفَنَّ على هؤلاء فيولد من كل واحدةٍ منهن غلام يقاتل في سبيل الله»[3] ولم يَقُلْ إن شاء الله، ولم تَحْمِلْ إلا امرأةٌ واحدةٌ جاءت بشق مولود، فألقته على كرسيِّه، فاستغفر ربه من تَرْك الاستثناء، وكان ذلك ترك ما هو الأَوْلَى.

وقيل كان له ابن، وخافت الشياطين أن يبقى بعد موت أبيه فيرثه، فَهَمُّوا بقَتْلِه، فاستودعه الريح في الهواء لئلا تصل إليه الشياطين، فمات الولد، وألقته الريح على كرسيه ميتاً. فالفتنة كانت في خوفه من الشياطين وتسليمه إلى الهواء، وكان الأَوْلَى به التوكل وتَرْك الاستعانة بالرِّيح.

وقيل في التفاسير: إنه تزوج بامرأة كانت زوجة مَلِكٍ قهره سليمان، وسَبَاها، فقالت له: إن أَذِنْتُ لي أن اتَّخِذَ تمثالاً على صورةِ لأبي لأتسلَّى بنظري إليه؟ فأَذِنَ لها، فكانت (تعظمه وتسجد له مع جواريها أربعين يوماً)، وكانت تعبده سِرًّا، فعوقب عليه.

وقيل كان سبب بلائه أن امرأة كانت مِنْ أَحَبِّ نسائه إليه، وكان إذا أراد دخول الخلاء نَزَعَ خاتمه ودَفَعَه إليها، وهي على باب الخلاء، فإذا خَرَجَ استردَّه. وجاء يوماً شيطانٌ يُقَال له «صخر» على صورة سليمان وقال لامرأته: ادفعي إليَّ الخاتم فدفعته، ولبسه، وقعد على كرسيه، يُمَشِّي أمورَه ـ إلا التصرفَ في نسائه ـ فقد منعه اللَّهُ عن

---

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) سبّل المال: جعله في سبيل الخير وأنواع البر.

(٣) أخرجه البخاري (نكاح ١١٩)، (كفارات ٩)، ومسلم (أيمان ٢٢، ٢٤، ٢٥)، (نذور، ٧)، والنسائي (أيمان ٤٣)، وأحمد بن حنبل ٢/ ٢٢٩، ٢٧٥، ٥٠٦.

ذلك. فلمَّا خرج سليمانُ طَالَبَ المرأة بالخاتم، فقالت: الساعةَ دَفَعْتُه إليك. فظَنَّ أنه فُتِنَ، وكان إذا أخبر الناسَ أنه سليمان لا يُصَدِّقُونه، فخرج (هارباً إلى ساحل البحر)، وأصابته شدائد، وحمل سَمَكَ الصيادين بأجرةٍ حتى يجدَ قُوتاً.

ولما اتهم (بنو إسرائيل) الشيطانَ (واستنكروا حُكْمَه) نشروا التوراة بين يديه، ففرَّ ورمى بالخاتم في البحر، وطار في الهواء. ولمَّا أَذِنَ اللَّهُ رَدَّ مُلْكِ سليمان إليه، ابتلعت سمكةٌ خاتمه، ووقعت في حبال الصيادين، ودفعوها إلى سليمان في أجرته، فلمَّا شقَّ بَطْنَهَا ورأى خاتَمه لبسه، وسَجَدَ له الملاحون، وعاد إلى سرير مُلْكِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾.

أي مُلْكاً لا يسلبه أحدٌ مني بعد هذا كما سُلِبَ مني في هذه المرة.

وقيل أراد انفراده به ليكونَ معجزةً له على قومه.

وقيل أراد أنه لا ينبغي لأحدٍ من بعدي أن يسأل المُلْكَ، بل يجب أن يَكِلَ أمرَه إلى الله في اختياره له.

ويقال لم يقصد الأنبياء، ولكن قال لا ينبغي من بعدي لأحدٍ من الملوك.

وإنما سأل المُلْكَ لسياسة الناس، وإنصافِ بعضهم من بعض، والقيام بحقِّ الله، ولم يسأله لأَجْلِ مَيْلِه إلى الدنيا... وهو كقول يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

ويقال لم يطلب المُلْكَ الظاهرَ، وإنما أراد به أن يَمْلِكَ نَفْسَه، فإن المَلِكَ ـ على الحقيقة ـ مَنْ يَمْلِكُ نَفْسَه، ومَنْ مَلَكَ نَفْسَه لم يَتَّبِعْ هواه.

ويقال أراد به كمالَ حالِهِ في شهود ربِّه حتى لا يَرَى معه غيرَه.

ويقال سأل القناعةَ التي لا يبقى معها اختيار.

ويقال علم أن سِرَّ نبيِّنا ـ ﷺ ـ ألا يلاحِظَ الدنيا ولا ملكَها فقال: ﴿لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص: ٣٥] لا لأنه بَخِلَ به على نبيِّنا ﷺ ولكن لِعِلْمِه أنه لا ينظر إلى ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾.

شكَرَ اللَّهُ سَعْيَه، وسَخَّرَ له الريحَ بَدَلاً من الأفراس؛ فلا يحتاج في إمساكها إلى العَلَفِ والمُؤَنِ.

﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

كما سخَّرنا له الشياطين.

ثم قال: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا...﴾ أي فأعْطِ أو أَمسِكْ، واحفظْ وليس عليك حساب.

والمشيُ في الهواء للأولياء، وقَطْعُ المسافاتِ البعيدة في مدة يسيرة مما يعلم وجوده قطعاً في هذه الأمة ـ وإنْ لم يعلمه الأفراد والآحاد على التعيين. وإظهاره على خَدَمِ رسول الله ﷺ لشرفه يَدُلُّ على أن مقامه ـ ﷺ ـ أشرف[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.

أي بما كان يوسوس إليه بتذكيره إياه ما كان به من البَلِيَّة، وقيل لما كان قال (أي الشيطان) لامرأته: اسجدي لي حتى أردَّ عليكم ما سلبتكم.

ويقال إن سبب ابتلائه أنه استعان به مظلومٌ فلم يَنْصُرْه... فابتُلِيَ.

ويقال استضافَ الناسَ يوماً فلمَّا جاءَه ابنُ فقيرٍ مَنَعَه من الدخول.

ويقال كان يغزو مَلِكاً كافراً، وكان لأيوب غَنَمٌ في ولايته، فداهَنَه لأَجْلِ غَنَمِه في القتال.

ويقال حَسَدَه إبليسُ، فقال: لَئِنْ سَلَّطْتني عليه لم يشكر لك.

ويقال كان له سبع بنات وثلاثة بنين في مكتب واحدٍ، فَجَرَّ الشيطانُ الاسطوانة فانهدم البيت عليهم.

ويقال لبث أيوب في البلاء ثماني عشرة سنة، وقيل أربعين سنة، وقيل سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾.

لمَّا أراد اللَّهُ كَشْفَ البلاءِ عنه قال له: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾، فركض، فظَهَرت عينُ ماءٍ باردٍ فاغتسل به، فعاد إليه جمالُه وكمالُه. وقيل الأولى كانت عيناً حارةً والثانية باردة، واغتسل، وردَّ الله وشَعْرَه وبشره، وأحيا أولاده وأهله، وقيل بل يردُّهم إليه في الجنة في الآخرة[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

الضِغْث الحزمة من القضبان، وقيل كانت مائة، وأُمِرَ بأن يضرب بها دفعةً على امرأته لئلا يحنث في يمينه، فإنه كان قد حلف أن يضربها مائةَ خشبةٍ إنْ صحَّ (أنها أخطأت). فَشَكَرَ اللَّهُ لها لبراءةِ ساحتِها، وصبرِها على خدمته. وسببُ يمينه أنه لما قال لها إبليسُ: اسجدي لي؛ أخبرته أيوبَ بذلك، فغاظه حيث سمعت من إبليس

---

(١) الآية (٤٠) لم ترد.

(٢) الآية (٤٣) لم ترد.

ذلك وظنّتْ أنه صادقٌ. وقيل باعت ذوائبها برغيفين حملتهما إليه فتوهَّمَ في ذلك رِيبةً، وكان أيوب يتعلّق بذوائبها (إذا أراد القيام). وقيل رابه شيءٌ منها فَحَلَف (أن يضربها بعد شفائه).

﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا . . .﴾: والصبرُ ألا تعترضَ على التقدير.

ويقال الصبر الوقوف تحت الحُكْم. ويقال التلذُّذ بالبلاء، واستعذابُه دون استصعابه. ويقال الصبر الوقوف مع الله بحسن الأدب.

ولم يَنْفِ قولُه ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣] اسمَ الصبرِ عنه؛ لأنَّ ذلك لم يكن على وجه الشكوى، ولأنه كان مرة واحدة، وقد وقف الكثيرَ من الوقت ولم يَقُلْ مَسَّني الضُّرُّ؛ فكان الحُكْمُ للغالب.

﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ لم يشغلْه البلاءُ عن المُبْلِي. ونِعْمَ العبدُ لأنه خرج من البلاء على الوجه الذي دخل فيه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾.

﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى﴾: أي القوة. ﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي البصائر.

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ﴾: أي بفضيلة خالصة وهي ذكر الجنة والنار، أو بدعاء الناس إلى الجنة والهرب مِنَ النار. ويقال بسلامة القلب من ذكر الدارين؛ فلا يكون العمل على ملاحظة جزاء. ويقال تجردوا لنا بقلوبهم عن ذكري الدار، ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾.

﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾: قيل كان تَكَفَّلَ لله بعمل رجلٍ صالحٍ مات في وقته، وقيل كَفَلَ مائةً من بني إسرائيل هربوا من أمير لهم ظالمٍ، فكان يُنْفِقُ عليهم.

ويقال كان اليسعُ وذو الكفل أَخَوَيْن.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

أي هذا القرآن فيه ذِكْرُ ما كان، وذِكْرُ الأنبياء والقصص.

ويقال إنّه شرفٌ لك؛ لأنه معجزةٌ تدل على صِدْقِك، وإن للذين يتقُون المعاصِيَ لَحُسْنَ المُنقلَب.

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾.

أي إذا جاؤوها لا يلحقهم ذُلُّ الحجاب، ولا كُلْفَةُ الاستئذان، تستقبلهم

الملائكةُ بالترحاب والتبجيل. متكئين فيها على أرائكهم، يدعون فيها بفاكهةٍ كثيرة وشرابٍ على ما يشتهون، وعندهم حورٌ عين قاصراتُ الطَّرْفِ[(١)] عن غير أزواجهن، (أتراب): لِدَاتٌ مُستَوِيَاتٌ في الحُسْنِ والجمال والشكل[(٢)].

قوله جلّ ذكره: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ﴾.

لَشَرَّ مَرْجع ومُنْقَلَبٍ؛ وهي جهنم يدخلونها فيبقون مُعَذَّبين فيها، وبِئْس المكانُ ذلك[(٣)]!

﴿هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ﴾.

«حميم»: هو الماء الحلو، و «غسّاق» هو عصارة أهل النار، ويقال هو زمهرير[(٤)] جهنم.

﴿وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ﴾.

أي فنون أخرى من مثل ذلك العذاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾.

هؤلاء قومٌ يقتحمون النارَ معكم وهم أتباعكم، ويقول الأتباع للمتبوعين: لا مرحباً بكم؛ أنتم قدمتموه لنا بأمركم فوافقناكم[(٥)]، ويقولون:

﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ﴾.

فيقال لهم كُلُّكم فيها، ولن يفترَ العذابُ عنكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ﴾.

يقول الكفار عندما يدخلون النار: ما لنا لا نرى رجالاً كُنَّا نعدهم في الدنيا من الأشرار والمستضعفين... فَلَسْنَا نراهم ها هنا؟ أهم ليسوا هنا أم زاغت عنهم أبصارُنا؟ يقوله أبو جهلٍ وأصحابه يعنون بلالاً والمستضعفين، فيُعَرَّفون بأنهم في الفردوس، فتزداد حسراتُهم[(٦)].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ﴾.

أي إن مخاصمةَ أهلِ النارِ في النار لَحَقٌّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾.

---

(١) يقال: امرأة قاصرة الطرف: خجلة حَيِيّة، لا تمد عينها إلى غير زوجها.
(٢) الآيات من (٥١ حتى ٥٤) لم ترد.
(٣) الآية (٥٦) لم ترد.
(٤) الزمهرير: شدة البرد.
(٥) الآية (٦٠) لم ترد.
(٦) الآية (٦٣) لم ترد.

قل يا محمد: إنما أنا مُنْذِرٌ مخوِّفٌ، مُبَلِّغٌ رسالةَ ربي، وما من إلهٍ إلا الله الواحد الذي لا شريك له.

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

أي الذي أَتَيْتُكم به من الأخبار عن القيامة والحَشْرِ، والجنة والنار، وما أخبرتكم به عن نُبُوَّتي وصِدْقي هو نبأ عظيمٌ، وأنتم أعرضْتُم عنه.

وما كان لي من عِلْم بالملأ الأعلى واختصامهم فيه لولا أَنَّ الله عَرَّفني، وإلا ما كُنتُ عَلِمْتُه. والملأ الأعلَى قومٌ من الملائكة في السماء العليا، واختصامهم كان في شأن آدم حيث قالوا: أتجعل فيها مَنْ يُفْسِد فيها؟

وقد ورد في الخبر: «أن جبريل سأل الرسولَ ﷺ عن هذا الاختصام فقال: لا أدري. فقال جبريل: في الكفارات والدرجات؛ فالكفارات إسباغُ الوضوء في السَّبَرَات[1]، ونَقْل الأقدام إلى الجماعات، وأما الدرجات فإفشاءُ السلام، وإطعامُ الطعام، والصلاةُ بالليل والناسُ نيام»[2]. وإنما اختلفوا في بيان الأجر وكميَة الفضيلة فيها ـ فيجتهدون ويقولون إن هذا أفضل من هذا، ولكنهم في الأصل لا يجحدون.

... وهذا إنما يُوحى إليَّ وأنا منذر مبين.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾.

إخباره الملائكة بذلك إنما يَدُلُّ على تفخيم شأن آدم؛ لأنه خَلَقَ ما خَلَقَ من الكونين، والجنة والنار، والعرش والكرسي، والملائكة، ولم يقل في صفة شيءٍ منها ما قال في صفة آدم وأولاده. ولم يأمر بالسجود لأحَدٍ ولا لشيءٍ إلا لآدم، وسبحان الله! خَلَقَ أعزَّ خَلْقِه من أذَلِّ شيءٍ وأخَسِّه وهو التراب والطين.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾.

روحُ آدم ـ وإنْ كانت مخلوقة ـ فلَها شَرَفٌ على الأرواح لإفرادها بالذكر، فلمَّا سوَّى خَلْقَ آدم، ورَكَّبَ فيه الروح جلَّلَه بأنوار التخصيص، فوقعَتْ هيبته على الملائكة، فسجدوا لأمره، وظهرَتْ لإبليسَ شقاوتهُ، ووقع ـ بامتناعه ـ في اللعنة[3].

---

(١) السبرات: جمع سبرة، وهي الغداة الباردة. (اللسان ٤/ ٣٤١ مادة: سبر).

(٢) للحديث رواية أخرى «سألني ربي فقال: يا محمد فيم اختصم الملأ الأعلى» أخرجه القرطبي في (التفسير ١٥/ ٢٢٦).

(٣) الآيتان (٧٣، ٧٤) لم تردا.

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾.

من هنا وقع في الغلط؛ تَوَهَّمَ أَنَّ التفضيل من حيث البنية والجوهرية، ولم يعلم أن التفضيلَ من حيث القسمة دون الخِلْقَة.

ويقال ما أودع اللَّهُ ـ سبحانه ـ عند آدم لم يوجد عند غيره، ففيه ظهرت الخصوصية.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

قال فاخرج من الجنة، ومن الصورة التي كنت فيها، ومن الحالة التي كنتَ عليها، ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾ مَرْمِيٌّ باللَّعنِ مني، وبالشُّهب من السماء، وبالرجوم من قلوب الأولياء إنْ تَعَرَّضْتَ لهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾.

من كمال شقاوته أنه جرى على لسانه، وتعلَّقت إرادتُه بسؤال إنظاره، فازداد إلى القيامة في سبب عقوبته، فأَنْظَرَهُ اللَّهُ، وأجابه، لأنه بلسانه سأل تمامَ شقاوته.

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾.

ولو عَرَفَ عِزَّتَه لَمَا أقسم بها على مخالفته.

ويقال تجاسُرُه في مخاطبة الحقِّ ـ حيث أَصَرَّ على الخلاف وأقسم عليه ـ أَقْبَحُ وأَوْلى في استحقاق اللعنة من امتناعه للسجود لآدم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾.

وختم الله سبحانه السورة بخطابه إلى الرسول ﷺ:

﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾.

ما جئتكم من حيث أنا، ولا باختياري، وإنما أُرسِلْتُ إليكم.

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ يعني القرآن، عظة لكم.

﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾ وعُلِمَ صِدْقُه بعد ما استمرت شريعتُه، فإن مثل ذلك إذا كان باطلاً لا يدوم.

سورة الزمر

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله كلمةٌ سماعُها يوجِبُ للقلوب شفاءَها، وللأرواح ضياءَها، وللأسرار سناءَها وعلاءَها.

كلمةٌ مَنْ سَمِعَها بِسَمْع العلم ازداد بصيرةً على بصيرة، ثم بلطائف من التعريف غير محصورة. ومَنْ سمعه بِسَمْعِ الوَجْدِ ظلَّتْ ألبابُه مبهورة، وأسراره بقهر الكشوفات منشورة.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

أي هذا كتابٌ عزيزٌ نَزَلَ من ربٍّ عزيز على عبدٍ عزيز بلسان مَلَكٍ عزيز في شأنِ أمةٍ عزيزة بأمرٍ عزيز. وفي ورود الرسولِ به من الحبيب الأول نزهةٌ لقلوب الأحباب بعد ذبول غصن سرورها، وارتياحٌ عند قراءة فصولها.

وكتابُ موسى في الألواح التي كان منها يقرأ موسى، وكتابُ نبيِّنا ﷺ نَزَلَ به الروحُ الأمينُ على قلبِ المصطفى صلوات الله عليه... وفَضْلٌ بين من يكون كتابُ ربِّه مكتوباً في ألواحه، وبين من يكون خطابُ ربِّه محفوظاً في قلبه، وكذلك أمته، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾.

أي أنزلنا عليك القرآن بالدين الحق والشرع الحق، وأنا مُحِقٌّ في إنزاله.

والعبادة الخالصة معانقة الأمر على غاية الخشوع، وتكون بالنَّفْس والقلب والروح؛ فالتي بالنفس فالإخلاص فيها التباعد عن الانتقاص، والتي بالقلب فالإخلاص فيها العمى عن رؤية الأشخاص، والتي بالروح فالإخلاص فيها التنقِّي عن طلب الاختصاص.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾.

الدين الخالص ما تكون جملته لله؛ فما للعبد فيه نصيب فهو من الإخلاص بعيد، اللهم أن يكون بأمره؛ إذا أَمَرَ العبدَ أن يحتسب الأجرَ على طاعته فإطاعته لا

تخرجه عن الإخلاص باحتسابه ما أمره به، ولولا هذا لَمَا صحَّ أَنْ يكونَ في العَالَم مُخْلِصٌ.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ...﴾ أي الذين عبدوا الأصنام قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾، ولم يقولوا هذا من قِبَلِ الله ولا بأمره ولا بإذنه، وإنما حكموا بذلك من ذات أنفسهم، فَرَدَّ اللَّهُ عليهم. وفي هذا إشارة إلى أن ما يفعله العبد من القُرَبِ بنشاطِ نَفْسِه من غير أن يقتضيه حُكْمُ الوقت، وما يعقد بينه وبين الله مِنْ عقودٍ ثم لا يَفِي بها... فكل ذلك اتباعُ هوًى، قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾.

لا تَهديهم اليومَ لدينه، ولا في الآخرة إلى ثوابه. والإشارة فيه إلى تهديد مَنْ يتعرَّض لغير مقامه، ويدَّعي شيئاً ليس بصادقٍ فيه، فاللَّهُ لا يهديه قط إلى ما فيه سَدادُه ورُشْدُه. وعقوبتُه أَنْ يَحْرِمَه ذلك الشيءَ الذي تصدَّى له بدعواه قبل تَحققِه بوجوده وذَوْقِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

خاطَبَهم على قَدْرِ عقولهم وعقائدهم حيث قالوا: المسيحُ ابن اللَّهِ، وعُزَيْرُ وَلَدُ اللَّهِ؛ فقال: لو أراد أن يتَّخِذَ وَلَداً للتبنِّي والكرامة لاخْتَارَ من الملائكة الذين هم مُنَزَّهون عن الأكل والشرب وأوصاف الخَلْقِ.

ثم أخبر عن تَقَدُّسِه عن ذلك فقال: ﴿سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ تنزيهاً له على اتخاذ الأولاد... لا في الحقيقة لاستحالة معناه في نَعْتِه، ولا بالتبنِّي لِتَقَدُّسِه عن الجنسية والمحالات، وإنما يذكر ذلك على جهة استبعاد؛ إذ لو كان ذلك فيكف كان يكون حُكْمُه؟ كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾.

أي خَلَقَهما وهو مُحِقٌّ في خلقهما.

﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

يُدْخِلُ الليلَ على النهارِ، ويدخل النهارَ على الليل في الزيادة والنقصان، وسَخَّرَ الشمسَ والقمرَ. وقد مضى فيما تقدم اختلافُ أحوالِ العبد في القبض والبسط، والجَمْع والفَرْق، والأخذ والرد، والصحو والسُّكْرِ، ونجوم العقل وأقمار العلم،

وشموس المعرفة ونهار التوحيد، وليالي الشَّكِّ والجَحْدِ ونهار الوصل، وليالي الهجر والفراق وكيفية اختلافها، وزيادتها ونقصانها.

﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾.

«العزيز» المتعزِّز على المحبين، «الغفار» للمذنبين.

قوله جلّ ذكره: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾.

﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١] يعني آدم وحواء.

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي خلق لكم، ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ فمن الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، ومن الضأن اثنين، ومن المواشي اثنين.

﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾: أي يصورّكم، ويُرَكِّب أحوالكم.

﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾: ظلمة البطن، وظلمة الرَّحِم، وظلمة المشيمة[1]. ذَكَّرَهم نسبتهم لئلا يُعْجَبُوا بأحوالهم.

ويقال بَيَّنَ آثار أفعاله الحكيمة في كيفية خِلْقَتِك ـ من قطرتين ـ أمشاجاً[2] متشاكلةَ الأجزاء، مختلفةَ الصُّوَرِ في الأعضاء، سَخَّرَ بعضَها مَحَالاً للصفات الحميدة كالعلم والقدرة والحياة... وغير ذلك من أحوال القلوب، وسَخَّرَ بعضها مَحَالاً للحواس كالسمع والبصر والشَّمِّ وغيرها.

ويقال هذه كلها نِعَمٌ أنعم اللّهُ بها علينا فَذَكَّرَنا بها ـ والنفوسُ مجبولةٌ، وكذلك القلوبُ على حُبِّ مَنْ أحسن إليها ـ استجلاباً لمحبتنا له.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ...﴾ أي إن الذي أحسن إليكم بجميع هذه الوجوه هو ربُّكم. أي: أنا خلقتكم وأنا رزقتكم وأنا صَوَّرتُكم فأحسنت صُوَرَكم، وأنا الذين أسبَغْتُ عليكم إنعامي، وخصصتكم بجميل إكرامي، وأغرقتكم في بحار أفضالي، وعرفتكم استحقاق جمالي وجلالي، وهديتكم إلى توحيدي، وألزمتكم رعايةَ حدودي... فما لكم لا تَنْقَطِعون بالكلية إليّ؟ ولا ترجون ما وَعَدْتُكم لديّ؟ وما لكم في الوقت بقلوبكم لا تنظرون إليّ؟

قوله جلّ ذكره: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

---

(١) المشيمة: ظاهر الغشاء الذي يكون فيه الجنين في البطن، ويخرج معه عند الولادة (ج) مشايم.
(٢) الأمشاج: هي الأخلاط، ماء الرجل وماء المرأة والدم والعلقة. (اللسان ٢/ ٣٦٧ مادة: مشج).

إنْ أعرضتم وأَبَيْتُم، وفي جحودكم تماديتم. . . فَمَا نَفْتَقِرُ إليكم؛ إذ نحن أغنياء عنكم، ولكنّي لا أرضى لكم أن تبقوا عني!

يا مسكين. . . أنت إنْ لم تكن لي فأنا عنكَ غنيٌّ، وأنا إن لم أكنْ لك فمن تكون أنت؟ ومَنْ يكون لك؟ مَنْ الذي يُحْسِنُ إليك؟ مَنْ الذي ينظر إليك؟ من الذي يرحمك؟ منْ الذي ينثر الترابَ علىٰ جراحِك؟

من الذي يهتم بشأنك؟ بمن تسلو إذا بَقِيتَ عنّي؟ مَنْ الذي يبيعك رغيفاً بمثاقيل ذهب؟!.

عَبْدي. . . أنا لا أرضى ألا تكونَ لي وأنت ترضى بألا تكون لي! يا قليلَ الوفاء، يا كثيرَ التجنّي!

إن أطَعْتَنِي شَكَرْتُك، وإن ذكَرْتَنِي ذكرتُك، وإن خَطَوْتَ لأَجْلِي خطوةً ملأتُ السمواتِ والأرضين من شكرك:

لــو عَــلِــمْــنــا أنَّ الــزيــارةَ حــقٌّ　　　لَــفَــرَشْــنَــا الــخــدودَ أرضــاً لــتــرضــى

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾.

إذا مَسَّه ضُرٌّ خَشَعَ وخَضَع، وإلى قُرْبه فزع، وتملَّق بين يديه وتضرع. فإذا أزال عنه ضُرَّه، وكفاه أمرَه، وأصلح شغْلَه نَسِيَ ما كان يدعو إليه من قبل، وجعل لله أنداداً، فيعود إلى رأس كفرانه، وينهمك في كبائر عصيانه، ويُشْرِكَ بمعبوده. هذه صِفَتُه. . . فَسُحْقاً له وبُعْداً، ولسَوف يَلْقى عذاباً وخِزْياً.

قـولـه جـلّ ذكـره: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ. . .﴾.

«قانتاً»: القنوتُ هو القيامُ، وقيل طول القيام. والمراد هو الذي يقوم بحقوق الطاعةِ أوقاتَ الليل والنهار؛ أي في جميع الأوقات.

والهمزة للاستفهام أي أمن هو قانت كمن ليس بقانت؟ أمن هو قانت كالكافر الذي جرى ذِكْرُه؟ أي ليس كذلك.

ويقال القنوتُ القيامُ بآداب الخدمة ظاهراً وباطناً من غير فتور ولا تقصير. «يَحْذَرُ» العذابَ الموعودَ في الآخرة، «ويرجو» الثوابَ الموعودَ. وأراد بالحَذَرِ الخوف.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾.

أي هل يستويان؟ هذا في أعلى الفضائل وهذا في سوء الرذائل! ﴿ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾: العِلْمُ في وصف المخلوق على ضربين: مجلوبٌ مُكْتَسَبٌ للعبد، وموهوبٌ مِنْ قِبَلِ الربِّ. ويقال مصنوع وموضوع. ويقال علمُ برهانٍ وعلمُ بيان؛ فالعلومُ الدينية كلُّها برهانية إلَّا ما يحصل بشرط الإلهام.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

أطيعوه واحذروا مخالفةَ أمره. ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ بأداء الطاعات، (والإحسان هو الإتيان بجميع وجوه الإمكان).

﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾: أي لا تَتَعَلَّلوا بأذى الأعداء؛ إنْ نَبَا بِكُم منزلٌ فتعَلُّلُكم بمعاداة قوم ومَنْعِهم إياكم ـ لا يُسْمَع، فأرضُ اللَّهِ واسعةٌ، فاخْرُجُوا منها إلى موضع آخر تتم لكم فيه عبادتُكم[1].

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. والصبر حَبْسُ النَّفْس على ما تكرهه. ويقال هو تجرُّعُ كاسات التقدير من غير استكراهٍ ولا تعبيس.

ويقال هو التهدُّفُ[2] لسهام البلاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾.

مضى القولُ في معنى الإخلاص. وفي الخبر: إن الله يقول: «الإخلاص سِرٌّ بين الله وعَبْدِه»[3].

ويقال الإخلاصُ لا يُفْسِدُه الشيطان، ولا يطَّلِعُ عليه المَلَكان.

﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ في وقتي وفي شرعي. والإسلامُ الانقيادُ لله بكل وجه.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

أخاف أصنافَ العذابِ التي تحصل في ذلك اليوم.

---

(١) قال القشيري برسالته حاثاً على السفر: إن ابتلي مريد بجاه أو صحبة حدث أو ميل إلى امرأة، وليس هناك شيخ يدلّه على حل لذلك، فعند ذلك يحلّ له السفر والتحول عن ذلك الموضع. (الرسالة القشيرية ص٣٦٣).

(٢) التهدف: الدنو والاستقبال. (اللسان ٩/ ٣٤٥ مادة: هدف).

(٣) ورد الحديث في الرسالة القشيرية ص٢٠٨: سُئل النبي ﷺ عن الإخلاص ما هو؟ قال: «سألت جبريل عليه السلام عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت ربّ العزة عن الإخلاص ما هو؟ قال: سرّ من سري استودعته قلب من أحببته من عبادي». أخرجه القزويني في مسلسلاته عن حذيفة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾.

هذا غاية الزجر والتهديد، ثم بيَّنَ أن ذلك غاية الخسران، وهو الخزي والهوان. والخاسِرُ ـ على الحقيقة ـ مَنْ خَسِرَ دنياه بمتابعة الهوى، وخَسِرَ عُقْباه بارتكابه ما الربُّ عنه نَهى، وخَسِرَ مولاه فلم يستحِ منه فيما رأى.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾.

أحاط بهم سُرَادقُها؛ فهم لا يخرجون منها، ولا يَفْتُرُونَ عنها. كما أنهم اليومَ في جهنم عقائدِهم؛ يستديم حجابُهم، ولا ينقطع عنهم عقابهم.

﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ...﴾ إنْ خِفْتَ اليومَ كُفِيتَ خوفَ ذلك اليوم وإلَّا فبين يديك عقبة كَؤُود.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾.

طاغوتُ كلِّ إنسانٍ نَفْسُه؛ وإنما يجتنبُ الطاغوتَ مَنْ خالف هواه، وعانَقَ رضا مولاه. وعبادةُ النَّفْس بموافقة الهوى ـ وقليلٌ مَنْ لا يعبد هواه، ويجتنب حديث النَّفس.

﴿وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾: أي رجعوا إليه في كل شيء.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾ يقتضي أن يكون الاستماع لكل شيء، ولكن الاتباع يكون للأحسن. «أحسنه»: وفيه قولان؛ أحدهما أن يكون بمعنى الحَسَن ولا تكون الهمزة للمبالغة، كما يقال مَلِكٌ أعَزُّ أي عزيز. والثاني: الأحسن على المبالغة، والحَسَنُ ما كان مأذوناً فيه في صفة الخَلْقِ ويعْلَمُ ذلك بشهادة العلم، والأحسن هو الأَوْلى والأصوب. ويقال الأحسن ما كان لله دون غيره، ويقال الأحسن هو ذكر الله خالصاً له. ويقال مَنْ عَرَفَ الله لا يسمع إلا بالله.

ويقال إن للعبد دواعيَ من باطنه هي هواجسُ النفس ووساوسُ الشيطانِ وخوَاطرُ المَلَكِ وخطابُ الحقِّ يُلْقَى في الرَّوْع؛ فوساوسُ الشيطان تدعو إلى المعاصي، وهواجسُ النفس تدعو إلى ثبوت الأشياء من النَّفْس وأَنَّ لها في شيءٍ نصيباً، وخواطرُ المَلَكِ تدعو إلى الطاعاتِ والقُرَب، وخطابُ الحقِّ في حقائق التوحيد.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: ـ

أولئك الذين هداهم الله لتوحيده، وأولئك الذين عقولهم غير معقولة.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾.

الذين حَقَّتْ عليهم كلمةُ العذابِ فريقان: فريقٌ حقت عليهم كلمةٌ بعذابهم في النار، وفريقٌ حقت عليهم كلمةُ العذابِ بالحجاب اليومَ، فهم اليومَ لا يخرجون عن حجاب قلوبهم، ولا يكون لهم بهذه الطريقة إيمان ـ وإن كانوا من أهل الإيمان.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

وَعَدَ المطيعين بالجنَّةِ ـ ولا محالةَ لا يُخْلِف، وَوَعَدَ التائبين بالمغفرة ـ ولا محالةَ يغفر لهم، وَوَعَدَ المريدين بالوجود والوصول ـ وإذا لم تقع لهم فترة فلا محالةَ مُصْدِقٌ وَعْدَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

أخبر أنه يُنْزِلُ من السماءِ المطرَ فيُخْرِجُ به الزرعَ فيخضرّ، ثم يأخذ في الجفاف، ثم يصير هشيماً... والإشارةُ من هذا إلى الإنسان، يكون طفلاً ثم شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً ثم يصير إلى أرذل العمر ثم في آخره يخترم.

ويقال إن الزَّرْعَ ما لم يأخذ في الجفاف لا يُؤْخَذُ منه الحَبُّ، فالحبُّ هو المقصود منه. كذلك الإنسان ما لم يحصلْ من نَفْسِه وصولٌ لا يكون له قَدْرٌ ولا قيمةٌ.

ويقال إن كَوْنَ المؤمنِ بقوة عقله يوجِبُ استفادةً له بعلمه إلى أَنْ يبدوَ منه كمالٌ يُمكِّنُ من أنوار بصيرته، ثم إذا بدت لائحةٌ من سلطان المعارف تصير تلك الأنوار مغمورة. فإذا بَدَتْ أنوارُ التوحيد استهلكت تلك الجملة، قالوا:

فلمَّا استبان الصبحُ أدرج[1] ضوءُه ... بأنواره أنوارَ تلك الكواكبِ

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

جوابُ هذا الخطابِ محذوفٌ... أي أفمن شرح اللَّهُ صَدْرَه للإسلام كمن ليس كذلك؟

---

(١) أدرج الشيء في الشيء: لفّه وطواه.

لمَّا نزلت هذه الآيةُ سُئِلَ الرسولُ ـ ﷺ ـ عن الشرح المذكور فيها، فقال: «ذلك نورٌ يُقْذَفُ في القلب، فقيل: وهل لذلك أَمارة؟

قال: «نعم؛ التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله»[١].

والنورُ الذي مِنْ قِبَلِهِ ـ سبحانه ـ نورُ اللّوائح بنجوم العلم، ثم نورُ اللوامع ببيان الفَهْم، ثم نورُ المحاضرة بزوائد اليقين، ثم نورُ المكاشفة بتَجلي الصفات، ثم نور المشاهدة بظهور الذات، ثم أنوار الصمدية بحقائق التوحيد. . . وعند ذلك فلا وَجْدَ ولا فقد، ولا قُرْب ولا بُعْدَ. . . كلّا بل هو الله الواحد القهار.

﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾: أي الصلبة قلوبهم، لم تقرعها خواطرُ التعريف فبقيت عَلَى نَكْرَةِ الجَحْد. . . أُولئك في الضلالة الباقية، والجهالة الدائمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ لأنه غير مخلوق.

﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ في الإعجاز والبلاغة.

﴿مَّثَانِىَ﴾: يثني فيها الحكم ولا يُمَلُّ بتكرار القراءة، وَيشتمل عَلَى نوعين: الثناء عليه بذكر سلطانه وإحسانه، وصفات الجنة والنار والوعد والوعيد.

﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ إذا سمعوا آيات الوعيد.

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِۚ﴾ إذا سمعوا آيات الوعد.

ويقال: تقشعر وتلين بالخوف والرجاء، ويقال بالقبض والبسط، ويقال بالهيبة والأُنس، ويقال بالتجلّي والاستتار.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

أي فَمنْ يتقي بوجهه سوءَ العذاب كَمَنْ ليس كذلك؟ وقيل إنَّ الكافرَ يَلْقَى النارَ أَوَّلَ ما يلقاها بوجهه؛ لأنه يُرمَى فيها منكوساً. فأمَّا المؤمِن فيُوقَى ذلك؛ وإنما يُلَقَّى النضرة والسرور والكرامة؛ فوجهُهُ ضاحكٌ مُستَبْشِرٌ.

---

(١) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٩/ ٣٢٧، ٣٢٨، ١٠/ ٢٥٥)، والسيوطي في (الدر المنثور ٣/ ٤٤، ٥/ ٣٢٥)، وابن كثير في (التفسير ٣/ ٣٢٨)، والقرطبي في (التفسير ٢/ ١٠٤، ٧/ ٨١).

قوله جلّ ذكره: ﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

أَشدُّ العذابِ ما يكون بغتةً، كما أَنَّ أتمَّ السرور ما يكون فلتةً(١).

ومن الهجران والفراق ما يكون بغتةً غير متوقع، وهو أنكى للفؤاد وأشدُّ وأوجعُ تأثيراً في القلب، وفي معناه قلنا:

فَبِتُّ بخيرٍ والدُّنى مطمئنةٌ … وأَصبحتَ يوماً والزمانُ تَقَلَّبَا

وأتمُّ السرورِ وأعظمه تأثيراً ما يكون فجأة، قال قائلهم:

بينما خاطر المُنى بالتلاقي … سابح في فؤاده وفؤادي

جَمَع اللَّهُ بيننا فالتقينا … هكذا صُدْفَةً بلا ميعادِ(٢)

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾.

أي أوضحنا لهم الآيات، ووقفناهم على حقائق الأشياء.

﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾: فلا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خَلْفِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

مَثَّلَ الكافرَ ومعبوديه بعبدٍ اشترك فيه متنازعون.

﴿فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾: فالصنم يدعي فيه قومٌ وقوم آخرون؛ فهذا يقول: أنا صَنَعْتُه، وذلك يقول: أنا استعملْتُه، وثالث يقول: أنا عَبَدْتُه.

أمّا المؤمن فهو خالِصٌ لله عزَّ وجل، يشبه «عبداً سَلَماً لرجل» أي ذا سلامة من التنازع والاختلاف.

ويقال: ﴿رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ تتجاذبه أشغال الدُّنيا، شُغْلُ الوَلدِ وشغل العيال، وغيرُ ذلك من الأشغالِ المختلفةِ والخواطرِ المُشَتَّتَةِ.

أمَّا المؤمِن فهو خالصٌ لله ليس لأحدٍ فيه نصيب؛ ولا للدنيا معه سبب إذ ليس منها شيء، ولا للرضوان معه شُغل، إذْ ليس له طاعات يُدِلُّ بها، وعلَى الجملة فهو خالص لله، قال تعالى لموسى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه: ٤١] أي أبقيتُكَ لي حتى لا تصلح لغيره.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: الثناءُ له، وهو مُستَحِقٌّ لصفات الجلال.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾.

---

(١) الفلتة: يقال: خرج الرجل فلتة؛ أي: بغتةً، وحدث الأمر فلتة أي: فجأة بلا روية (ج) فلتات.

(٢) الآية (٢٦) لم ترد.

نَعَاه ـ عليه السلام ـ إليه. ونَعَى المسلمين إليهم فَفزِعُوا بأجمعهم من مآثمهم، ولا تعزية في العادة بعد ثلاث. ومَنْ لم يَتفرَّغْ من مآثم نفسه وأنواع همومه، فليس له من هذا الحديث شمّة، فإذا فرغ قلْبُه من حديث نَفْسِه، وعن الكون بجملته فحينئذٍ يجد الخيرَ من ربِّه، وليس هذا الحديث إلا بعد فنائهم عنهم، وأنشد بعضهم:

كتابي إليكم بعد موتي بليلةٍ ولم أدرِ أني بعد موتي أكتب

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

الإشارة فيه إلى من أشار إلى أشياء لم يَبْلُغها، وادَّعى وجودَ أشياء لم يَذُقْ شيئاً منها، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠].

ويقال: لا بل هؤلاء هم الكفار، وأمَّا المُدَّعِي الذي لم يَبْلُغْ ما يَدَّعِيه فليس يكذب على ربِّه إنما يكذب على نَفْسِه؛ حيث ادَّعى لها أحوالاً لم يَذُقْها ولم يَجِدْها، فأمَّا غيرُ المتحقق الذي يكذب على الله فهو الجاحد والمبتدع الذي يقول في صفة الحقِّ ـ سبحانه ـ ما يتقدَّسُ ويتعالى عنه(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

الذي جاء بالصدق في أفعاله من حيث الإخلاص، وفي أحواله من حيث الصدق، وفيّ أسراره من حيث الحقيقة.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: «الإحسانُ ـ كما جاء في الخبر ـ أن تعبد الله كأنك تراه»(٢). فَمَنْ كانتْ ـ اليومَ ـ مشاهدتُه على الدوام كانت رؤيتهٌ غداً على الدوام، ومَنْ لا فلا.

---

(١) قال القشيري برسالته: ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال، وادّعوا أنهم تحرروا عن رق الأغلال، وتحققوا بحقائق الوصال وأنهم قائمون بالحق، تجري عليهم أحكامه، وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم، وأنهم لو كوشفوا بأسرار الأحدية، واختطفوا عنهم بالكلية، وزالت عنهم أحكام البشرية، وبقوا بعد فنائهم عنهم بأنوار الصمدية، والقائل عنهم غيرهم إذا نطقوا، والنائب عنهم سواهم فيما تصرفوا بل صرفوا.
هذهِ هي الصور التي يصور بها القشيري بعض متصوفي زمانه، وهي أشبه بالصورة التي صوّر بها الكلاباذي بعض متصوفي زمانه، ولكنها أحلك سواداً وأكثر إيلاماً. (الرسالة القشيرية ص٣٧).

(٢) أخرجه البخاري في (الصحيح ٦/ ١٤٤)، والبيهقي في (السنن الكبرى ١٠/ ٢٠٣) وابن خزيمة في (الصحيح ٢٢٤٤)، والهيثمي في (موارد الظمآن ١٦)، وابن حجر في (فتح الباري ٨/ ٥١٣)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ٤٣٤، ١٠/ ٩٤)، وابن كثير في (التفسير ٦/ ٣٥٦)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٢٤٩ ـ ٥٢٥٤).

قوله جلّ ذكره: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

مَنْ لا يكون مؤمناً فليس من أهل هذه الجملة. ومَنْ كان معه إيمان: فإذا كُفِّرَ عنه أسوأ ما عَمِلَه فأسوَأُ أعمالِه كبائرُه؛ فإنْ غُفِرَتْ يَجْزِهِم بأحسن أعمالهم. وأحْسَنُ أعمالِ المؤمنِ الإيمانُ والمعرفة، فإن كان الإيمانُ مؤقتاً كان ثوابُه مؤقتاً، وإن كان الإيمان على الدوام فثوابُه على الدوام. ثم أحسنُ الأعمال عليها أحسنُ الثوابِ، وأحسنُ الثوابِ الرؤيةُ فيجب أن تكون على الدوام ـ وهذا استدلالٌ قوي.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾.

استفهام والمراد منه التقرير؛ فاللَّهُ كافِ عَبْدَه اليومَ في عرفانه بتصحيح إيمانه ومَنعِ الشِّركِ عنه، وغداً في غفرانه بتأخير العذاب عنه، وما بينهما فكفايتهُ تامة وسلامته عامة(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

قَرَّرَ عليهم عُلُوَّ صفاته، وما هو عليه من استحقاق جلاله فأقرُّوا بذلك، ثم طالَبَهم بِذِكْرِ صفاتِ الأصنام التي عبدوها من دونه، فلم يمكنهم في وصفها إلا بالجمادية، والبُعَدِ عن الحياة والعِلْم والقدرةِ والتمكُّنِ من الخَلْقِ، فيقول: كيف أشركتم به هذه الأشياء؟ وهلّا استحيَيْتُم من إطلاق أمثال ذلك في صفته؟.

قُلْ ـ يا محمد ـ حَسْبِيَ الله، عليه يتوكل المتوكلون؛ كافِيَّ اللَّهُ المتفرِّدُ بالجلالِ، القادرُ على ما يشاء، المتفضِّلُ عليَّ بما يشاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

سوف ينكشف رِبْحُنا وخسرانكم، وسوف تظهر زيادتنا ونقصانكم، وسوف نطالبكم فلا جوابَ لكم، ونُعَذِّبُكم فلا شفيعَ لكم، ونُدَمِّرُ عليكم فلا صريخَ لكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

(١) الآية (٣٧) لم ترد.

مَنْ أحسن فإحسانهُ إلى نَفْسِه اكتَسبه ومَنْ أساء فبلاؤه على نفسه جَلَبَه ـ والحقُّ غنيٌّ عن التجمُّلِ بطاعةِ مَنْ أقبل والتنقُّصِ بزَلَّةِ مَنْ أعرض.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

يقبض الأرواح[١] حين موتها، والتي لم تَمُتْ من النفوس في حال نومها، فإذا نامت فيقبض أرواحها. وقبضُ الأرواح في حال الموت بإخراج اللطيفة التي في البدن وهي الروح، ويخلق بَدَلَ الاستشعارِ والعِلْم الغفلَة والغيبةَ في مَحَالِّ الإحساس والإدراك. ثم إذا قَبضَ الأرواحَ عند الموت خَلَقَ في الأجزاء الموتَ بَدَلَ الحياة، والموتُ ينافي الإحساسَ والعلمَ. وإذا ردَّ الأرواح بعد النوم إلى الأجسادِ خَلَقَ الإدراكَ في محل الاستشعار فيصير الإنسان متيقظاً، وقَبْضُ اللّهِ الأرواحَ في حال النوم وردت به الأخبار، وذلك على مراتب؛ فإنَّ روحاً تُقْبَضُ على الطهارة تُرْفَعُ إلى العرش وتسجد لله تعالى، وتكون لها تعريفات، ومعها مخاطبات «والله أعلم»[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾.

أي أنهم ـ وإن اتخذوا على زعمهم من دون الله شفعاء بِحُكْمِهِمْ لا بتعريفٍ من قِبَلِ الله أو إخبار ـ فإنَّ اللّهَ تعالى لا يقبل الشفاعةَ من أحدٍ إلَّا إذا أَذِنَ بها، وإنَّ الذي يقولونهْ إنما هو افتراءٌ على الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

اشمأزّت[٣] قلوبُ الذين جحدوا ولم تسكن نفوسُهم إلى التوحيد، وإذا ذُكِرَ الذين مِنْ دونه استأنسوا إلى سماعه: ـ

---

(١) القشيري هنا لا يكاد يميز بين النفس والروح. لكنه بالرسالة يميز بينهما حيث يقول: ويُحتمل أن تكون النفس لطيفة مودعة في هذا القالب هي محل الأخلاق المعلولة، كما أن الروح لطيفة في هذا القالب هي محل الأخلاق المحمودة، وتكون (بشكل عام) مسخراً بعضها لبعض، والجميع إنسان واحد، وكون الروح والنفس من الأجسام اللطيفة في الصورة ككون الملائكة والشياطين بصفة اللطافة. (الرسالة القشيرية ص٨٧).

ثم يقول: اختلف أهل التحقيق من أهل السنة في الأرواح فمنهم من يقول: إنها الحياة، ومنهم من يقول: إنها أعيان مودعة في هذه القوالب، لطيفة، أجرى الله العادة بخلق الحياة في القالب ما دامت الأرواح في الأبدان. (الرسالة القشيرية ص٨٨).

(٢) الآية (٤٤) لم ترد.

(٣) اشمأز: انقبض واقشعرّ ونفر.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

عَلَّمَه ـ ﷺ ـ كيف يثني عليه ـ سبحانه.

وتشتمل الآيةُ على الإشارة إلى بيان ما ينبغي من التنصُّل والتذلُّل، وابتغاءِ العَفْو والتفضُّل، وتحقيقِ الالتجاء بِحُسْنِ التوكل. ثم أخبر عن أحوالهم في الآخرة فقال:

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

لافتدوا به.. ولكن لا يُقْبَلُ منهم، واليومَ لو تصدَّقوا بمثقال ذرة لَقُبِلَ منهم. كما أنهم لو بَكَوْا في الآخرة بالدماء لا يُرْحَمُ بكاؤهم، ولكنهم بدمعة واحدةٍ ـ اليومَ ـ يُمْحَى الكثيرُ من دواوينهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾.

في سماع هذه الآية حَسَراتٌ لأصحاب الانتباه.

وفي بعض الأخبار أن قوماً من المسلمين من أصحاب الذنوب يُؤْمَرُ بهم إلى النار فإذا وافوها يقول لهم مالِكٌ: مَنْ أنتم؟ إن الذين جاؤوا قَبْلَكُمْ من أهل النار وجوهُهم كانت مُسْوَدَّة، وعيونُهم كانت مُزْرَقَّة... وأنتم لستم بتلك الصفة، فيقولون: ونحن لم نتوقع أن نلقاك، وإنما انتظرنا شيئاً آخر! قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

حاق بهم وبالُ استهزائهم وجزاءُ مَكْرِهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

في حال الضُرِّ يتبرَّؤون من الاستحقاق والحوْلِ والقوة، فإذا كَشَفَ عنهم البلاءَ وقعوا في مغاليطهم، وقالوا: إنما أوتينا هذا باستحقاقٍ مِنَّا، قال تعالى: ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ ولكنهم لم يعلموا، ثم أخبر أن الذين مِنْ قَبْلِهم مثلَ هذا قالوا وحسبوا، ولم يحصلوا إلا على مغاليطهم، فأصابهم شؤمُ ما قالوا، وهؤلاء سيصيبهم أيضاً مِثْلُ ما أصاب أولئك[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

---

(١) الآيتان: (٥٠، ٥١) لم تردا.

أو لم يَرَوْا كيف خالف بين أحوال الناس في الرزق: فَمِنْ مُوَسَّع عليه رِزْقُه، ومِنْ مُضَيَّقٍ عليه، وليس لواحدٍ منهم شيءٌ مِمَّا خُصَّ به من التقليل أو التكثير.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

التسمية «بياعبادي» مَدْحٌ[١]، والوصفُ بأنهم «أسرفوا» ذَمٌ. فلمَّا قال: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ طمع المطيعون في أن يكونوا هم المقصودين بالآية، فرفعوا رؤوسَهم، ونكَّسَ العُصَاةُ رؤوسَهم وقالوا: مَنْ نحن... حتى يقول لنا هذا؟!

فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ فانقلب الحالُ؛ فهؤلاء الذين نكَّسوا رؤوسهم انتعشوا وزالت ذِلَّتُهُم، والذين رفعوا رؤوسَهم أطرقوا وزالت صَوْلَتُهم.

ثم أزال الأُعجوبةَ عن القبسمة بما قَوي رجاءَهم بقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني إنْ أَسْرَفْتَ فعلى نَفْسِكَ أسرفت.

﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾: بعد ما قطعْتَ اختلافَكَ إلى بابنا فلا ترفَعْ قلبك عَنَّا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ الألف واللام في «الذنوب» للاستغراق والعموم، والذنوب جمع ذنب، وجاءت «جميعاً» للتأكيد؛ فكأنه قال: أَغْفِرُ ولا أترك، وأعفو ولا أُبْقِي.

ويقال إنْ كانت لكم جِناية كثيرة عميمة فلي بشأنكم عناية قديمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

الإنابة الرجوع بالكلية. وقيل الرق بين الإنابة وبين التوبة أن التائبَ يرجع من خوف العقوبة، وصاحبُ الإنابة يرجع استحياءً لِكَرَمِه[٢].

---

(١) قال القشيري برسالته: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: ليس شيء أشرف من العبودية، ولا اسم أتم للمؤمن من الاسم له بالعبودية، ولذلك قال سبحانه في وصف النبي ﷺ ليلة المعراج، وكان أشرف أوقاته في الدنيا ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى**﴾، وقال تعالى: ﴿**فأوحى إلى عبده ما أوحى**﴾ فلو كان اسم أجل من العبودية لسمّاه به. (الرسالة القشيرية ص٢٠٠).

(٢) قال القشيري بهذا الخصوص برسالته: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول: التوبة على ثلاثة أقسام: أولها التوبة، وأوسطها الإنابة، وآخرها الأوبة، فجعل التوبة بداية والأوبة نهاية والإنابة أوسطهما. فكل من تاب لخوف العقوبة فهو صاحب توبة، ومن تاب طمعاً في الثواب فهو صاحب إنابة، ومن تاب مراعاة للأمر، لا لرغبة في الثواب أو رهبة في العقاب فهو صاحب أوبة.

ويقال أيضاً: التوبة صفة المؤمنين. قال الله تعالى: ﴿**وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون**﴾ والإنابة صفة=

﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ : وأخلِصوا في طاعتكم، والإسلامُ ـ الذي هو بعد الإنابة ـ أَنْ يعلمَ أَنَّ نجاتَه بفَضْلِه لا بإنابته؛ فبفضله يصل إلى إنابته. . . لا بإنابته يصل إلى فضله.

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ قبل الفراق. ويقال هو أن يفوتَه وقتُ الرجوعِ بشهود الناس ثم لا يَنْصَرِفُ عن ذلك[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّٰخِرِينَ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

يقال هذا في أقوامٍ يَرَوْن أمثالَهم تقدموا عليهم في أحوالهم، فيتذكرون ما سَلَفَ من تقصيرهم، ويَرَوْن ما وُفِّقَ إليه أولئك من المراتب فيعضون بنواجذ الحسرة[٢] على أنامل الخيبة.

أو يقول: لو أنَّ الله هداني لكُنْتُ كذا، ويقول آخر: لو أنَّ لي كَرَّةً فأكون كذا، فيقول الحقُّ ـ سبحانه:

﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَٰفِرِينَ﴾.

فَذُقْ من العذابِ ما على جُرْمِك استوجَبْتَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

هؤلاء الذين ادَّعوا أحوالاً ولم يَصْدُقُوا فيها، وأظهروا المحبةَ لله ولم يتحققوا بها، وكفاهم افتضاحاً بذلك! وأنشدوا:

ولـمَّا ادَّعَيْتُ الـحُبَّ قالت كَذَبْتَني فما لي أرى الأعضاءَ منك كواسيا؟!
فما الحُبُّ حتى تنزف العين بالبكا وتخرس حتى لا تجيب المناديا[٣]

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

كما وَقَاهم ـ اليومَ ـ عن المخالفات، حماهم ـ غداً ـ من العقوبات، فالمتقون

= الأولياء المقربين، قال الله تعالى: ﴿**من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب**﴾ والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين، قال الله تعالى: ﴿**نعم العبد إنه أواب**﴾. (الرسالة القشيرية ص٩٤).

(١) الآية (٥٥) لم ترد.

(٢) عضوا عليه بالنواجذ؛ أي حرصوا عليه.

(٣) البيتان في الرسالة القشيرية ص٣٢٤. رواية البيت الثاني فيها:

فما الحب حتى يلصق القلب بالحشا وتذبل حتى لا تجيب المناديا

فازوا بسعادة الدارين؛ اليومَ عصمة، وغداً نعمة. اليومَ عناية وغداً حماية وكفاية.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٖ﴾.

تدخل أكسابُ العباد في هذه الجملة، ولا يَدْخُل كلامُه فيه؛ لأن المخاطِبَ لا يدخل تحت الخطاب ولا صفاته.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

﴿مَقَالِيدُ﴾ أي مفاتيح، والمرادُ منه أنه قادر على جميع المقدورات، فما يريد أَنْ يُوجِدَه أَوْجَدَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾.

أي متى يكون لكم طَمَعٌ في أن أعبدَ غيره... وبتوحيده ربَّاني، وبتفريده غَذَاني، وبِشَرَابِ حُبِّه سَقَاني؟!.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

لَئِنْ لاحظْتَ غيري، وأثْبَتَّ معي في الإبداع سِوَايَ أحْبَطْتَ عَمَلكَ، وأبطلْتَ سعيَكَ، بل اللَّهَ ـ يا محمد ـ فاعْبُدْ، وكُنْ من جملة عبادي الشاكرين[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

ما عرفوه حَقَّ معرفته، وما وصفوه حقَّ وصفه، وما عظَّموه حَقَّ تعظيمه؛ فَمَن اتصف بتمثيل، أو جَنَحَ إلى تعطيل حَادَ عن السُّنَّةِ المُثْلَى وانحرف عن الطريقة الحسنى. وصفوا الحقَّ بالأعضاء، وتَوَهَّموا في نَعْتِه الأجزاء، فما قدروه حَقَّ قَدْره؛ فالخَلْقُ في قبضة قدرته، والسموات مطويات بيمينه، ويمينهُ قُدْرَتُه. ولأنه أقسم أن يُفْنِيَ السمواتِ ويطويَها فهو قادر على ذلك.

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾ تنزيهاً له عما أشركوا في وصفه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾.

في النفخة الأولى تموتون، ثم في النفخة الثانية تُحْشَرُون، والنفختان متجانستان؛ ولكنه يخلق عند إحداهما إزهاق الأرواح، وفي الأخرى حياة النفوس،

---

(١) الآية (٦٦) لم ترد.

لِيُعْلَمَ أن النفخةَ لا تعمل شيئاً لعينها، وإنما الجبَّارُ بقدرته يخلق ما يشاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

نور يخلقه في القيامة فتشرق القيامةُ به، وذلك عند تكوير[1] الشمس وانكدار[2] النجوم، ويستضيء بذلك النور والإشراق قومٌ دون قوم. الكُفَّارُ يَبْقَوْن في الظلمات، والمؤمنون نورُهم يسعى بين أيديهم.

ويقال اليومَ إشراق، وغداً إشراق، اليومَ إشراقُ القلبِ بحضوره، وغداً إشراقُ الأرض بنور ربها. ويقال غداً أنوار التولِّي للمؤمنين، واليومَ أنوار التجلِّي للعارفين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

إن كان خيراً فَخَيْرٌ، وإن كان غير خَيْر فغيرُ خير.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

الكفار يُساقُون إلى النار عنفاً، والمؤمنون يُساقون إلى الجنة لُطفاً؛ فالسَّوْقُ يجمع الجنسين... ولكن شتان بين سَوْقٍ وسَوْق!.

فإذا جاء الكفارُ قابَلهم خَزَنَةُ النار بالتوبيخ والعتاب والتأنيب؛ فلا تكريمَ ولا تعظيم، ولا سؤال ولا استقبال... بل خِزْيٌ وهوانٌ، ومن كل جنسٍ من العذاب ألوان[3].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾.

سَوْقٌ ولكن بغير تعبٍ ولا نَصَبٍ، سَوْقٌ ولكن برَوْحٍ وطَرَبٍ.

«زمراً» جماعاتٍ، وهؤلاء هم عوامُّ أهل الجنة، وفوق هؤلاء: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥] وفوقهم مَنْ قال فيهم: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١] وفَرْقٌ بين مَنْ يُساقُ إلى الجنة، وبين مَنْ تُقَرَّبُ منه الجنة... هؤلاء الظالمون، والآخرون المقتصدون، والآخرون السابقون.

---

(١) كوّرت الشمس: جمع ضوءها وصار كالكرة، أو اضمحلت وذهب ضوءها.

(٢) انكدرت النجوم: تناثرت أو انحدرت وتساقطت أو أظلمت وذهب نورها.

(٣) الآية (٧٢) لم ترد.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا. . .﴾ وإذا وافوا الجنة تكون الأبوابُ مُفَتَّحَةً لئلا يصيبهم نَصَبُ الانتظار.

ويقال إذا كان حديث الجنة فالواجب أن يبادر إليها ولا يحتاج أن يُسَاق، ولعلَّ هؤلاء لا رغبةَ لهم في الجنة بكثير؛ فَلَهُم معه في الطريق قَوْلُ ﴿طِبْتُمْ﴾؛ أي أنهم يُساقون إلى الجنة بلطف دون عنف.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾.

صَدَقَنا وعده بإدخالنا الجنة، وإكمال المِنَّة.

﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ أي أرضَ الجنة؛ نتبوأ منها حيث نشاء. وهؤلاء قوم مخصوصون، والذين هم قومُ «الغُرَف» أقوام آخرون.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

يُسَبِّحون بحمد ربهم في عموم الأوقات. . . هذا هو عملُ الملائكة الذين من حول العرش.

وقُضِيَ بين أهل الجنة وأهل النار بالحقِّ، لهؤلاء دَرَكات ولأولئك درجات. . . إلى غير ذلك من فنون الحالات. وقُضِيَ بين الملائكة أيضاً في مقاماتهم على ما أراده الحقُّ في عباداتهم.

سورة المؤمن

قوله جل ذكره: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ مَنْ تحقَّقَ بها شَرُفَ من الحقِّ مَنَالُه، وصفت عنده أحواله، وخَلَعَ عَلَى نَفسِه رداءَ الأفضال، وألبَسَ قلبَه جلالَ الإقبال، وأفرد رُوحَه بروْحِ لُطْفِ الجمال، واستخلص سِرَّه بِكَشفِ وصفِ الجلال.

قوله جل ذكره: ﴿حمٓ﴾.

أي حُمَّ أمْرٌ كائن.

ويقال «الحاء» إشارة إلى حِلْمِه، «والميم» إشارة إلى مجده أي: بحِلْمي ومجدي لا أُخَلِّدُ في النار مَنْ آمنَ بي.

ويقال هذه الحروف مفاتح أسمائه.

﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾.

«العزيز»: المُعزّ لأوليائه، «العليم» بما كان ويكون منهم، فلا يمنعه عِلمُه بما سَلَفَ منهم عن قضائه.

قوله جل ذكره: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

كتابٌ مُعَنْوَنٌ بقبول توبته لِعِبادَه؛ عَلِمَ أنّ العاصيَ مُنكَسِرُ القلبِ فأزال عنه الانكسارَ بأن قدَّمَ نصيبه، فقدَّم اسمَه على قبول التوبة. فَسَكَّنَ نفوسَهم وقلوبَهم باسْمَيْنِ يُوجِبَان الرجاء؛ وهما قولُه: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾.

ثم عقبهما بقوله: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ ثم لم يرض حتى قال بعدئذٍ ﴿ذِى ٱلطَّوۡلِۖ﴾.

فيُقَابِلُ قوْلَه: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ قَوْلُه: ﴿ذِى ٱلطَّوۡلِۖ﴾.

ويقال: غافرُ الذنبِ لِمَنْ أصرَّ واجْتَرَمَ، وقابلُ التوبِ لمن أقرَّ ونَدِمَ، شديد العقاب لِمَنْ جَحَدَ وعَنَدَ، ذِي الطول لمن عَرَفَ ووَحَد.

ويقال غافر الذنب للظالمين، وقابل التوب للمقتصدين، شديد العقاب للمشركين، ذي الطول للسابقين.

ويقال: سُنَّةُ الله أنه إذا خَوَّفَ العبادَ باسمٍ أو لفظٍ تدارَكَ قلوبهم بأن يُبشِّرَهم باسْمَيْن أو بوَصْفين.

﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾: وإذا كان إليه المصير فقد طاب إليه المسير.

قوله جل ذكره: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾.

إذا ظَهر البرهانُ واتَّضَحَ البيانُ استسلمَتْ الألبابُ الصاحيةُ للاستجابة والإيمان.

فأمَّا أهلُ الكفرِ فلهم عَلَى الجمود إصرارٌ، وشُؤْمُ شِرْكِهم يحولُ بينهم وبين الإنصاف.. وكذلك من لا يحترمون أولياء الله، ويُصِرُّون على إنكارهم، ويعترضون عليهم بقلوبهم، ويجادلون في جَحْدِ الكرامات، وما يخصُّ اللَّهُ به عباده من الآيات.. فهؤلاء يميزون بين رجحانهم ونقصانهم، وسيفتضحون كثيراً.

قوله جل ذكره: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

كذلك مَنْ انقرض مِنَ الكفار كان تكذيبُ الرُّسُلِ دَأْبَهم، ولكنَّ الله ـ سبحانه ـ انتقم منهم، وعلى كُفْرِهم احترمهم.

والمُنْكِرُ لهذا الطريق يدين بإنكاره، ويتقرّبُ إلى الله به، ويعد وقيعته في أولياء الله من جملة إحسانه وخيراته، ولكن الله ـ سبحانه ـ يعذبهم في العاجل بتخليتهم فيما هم فيه، وصَدِّ قلوبهم عن هذه المعاني، وحرمانهم منها.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

إذا انختم على عبدٍ حُكْمُ الله بشقاوته فلا تنفعه كَثْرَةُ ما يوردُ عليه من النُّصح. والله على أمره غالبٌ. ومَنْ أَسَرَتْه يَدُ الشقاوة فلا يُخَلِّصه مِنْ مخالبها جُهْدٌ ولا سعاية.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾.

حَمَلَةُ العرش من حَوْلَ العرش من خواص الملائكة، مأمورون بالتسبيح لله، ثم بالاستغفار للعاصين ـ لأنَّ الاستغفار للذنبِ والتوبةُ إنما تحصل من الذنب ـ ويجتهدون في الدعاء لهم على نحو ما في هذه الآية وما بعدها؛ فيدعون لهم بالنجاة، ثم بِرفع الدرجات، ويحيلون الأمر في كل ذلك على رحمة الله.

قوله جل ذكره: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ

وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

﴿وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾: فلئن سلَّطَ عليك أراذل من خَلْقه ـ وهُم الشياطين ـ فلقد قيَّض بالشفاعة أفاضلَ من خَلْقِه ومن الملائكة المقرَّبين.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾.

أَشَدُّ العقوباتِ التي يُوصلها الحقُّ إليهم آثارُ سُخْطِه وغَضَبِه، وأَجَلُّ النِّعَم التي يغروهم بها آثارُ رضاه عنهم. فإذا عَرَفَ الكافرُ في الآخرة أنَّ ربَّه عليه غضبانُ فلا شيءَ أصعبُ على قلبه من ذلك؛ لأنه عَلِمَ أنه لا بُكاء ينفعه، ولا عناءَ يزيل عنه ما هو فيه ويدفعه، ولا يُسْمَعُ له تضرُّعٌ، ولا تُرْجَى له حيلة.

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾.

الإماتةُ الأولى إماتَتُهم في الدنيا ثم في القبر يحييهم، ثم يميتهم فهي الإماتةُ الثانية. والإحياء الأول في القبر والثاني عند النشر.

﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾: أقروا بذنوبهم ـ ولكن في وقتٍ لا ينفعهم الإقرار.

﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ مما نحن فيه من العقوبة، وإنما يقولون ذلك حين لا ينفعهم الندمُ والإقرارُ. فيُقال لهم:ـ

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾

أي تُصَدِّقوا المشركين لكفرهم. وهؤلاء إماتَتُهم محصورة، فأمَّا أهلُ المحبةِ فلهم في كلِّ وقتٍ حياةٌ وموتٌ، قال قائلُهم:

أمـوت إذا فَـقَـدْتُـكَ ثـم أحـيـا ... فـكـم أحـيـا عـلـيـك وكـم أمـوت!

فإنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ يُرَدِّدُ أبداً الخواصَّ من عباده بين الفناء والبقاء، والحياة والموت، والمحو والإثبات.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾.

يُريهم آياتِ فَضْلِه فيما يُلاطِفُهم، ويريهم آياتِ قَهْرِه فيما يكاشفهم، ويريهم آياتِ عَفْوِه إذا تَنَصَّلُوا، وآياتِ جوده إذا توسَّلُوا، وآياتِ جلالِه إذا هابوا فغابوا، وآياتِ

جمالِه إذا آبوا واستجابوا. ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ لأبدانكم وهو توفيق المجاهدات، ولقلوبكم وهو تحقيق المشاهدات، ولأسراركم وهو فنون المواصلات والزيادات.

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾: يرجع من العادة إلى العبادة، ومن الشَّكِّ إلى اليقين، ومن الخَلْقِ إلى الحقِّ، ومن الجهل إلى العِلْم، ومن النَّكرة إلى العرفان.

قوله جل ذكره: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

شَرْطُ الدعاء تقديم المعرفة لتعرفَ من الذي تدعوه، ثم تدعو بما تحتاج إليه مِمَّا لا بُدَّ لك منه، ثم تنظر هل أعطاكَ ما تطلب وأنت لا تدري؟ والواجبُ ألا تطلب شيئاً تكون فيه مخالفةٌ لأمره، وأن تتباعد عن سؤالك الأشياء الدَّنِيَّة والدنيوية، وأن ترضى بما يختاره لك مولاك. ومن الإخلاص في الدعاء ألا ترى الإجابة إلّا منه، وألا ترى لنفسك استحقاقاً إلا بفضله، وأن تعلم أنه إن بقيت سؤالك عن مطلوبك ـ الذي هو حَظُّكَ ـ لا تَبْق عن عبادة ربِّك ـ التي هي حَقُّه «فإنَّ الدعاء مُخُّ العبادة»[1] ومن الإخلاص في الدعاء أن تكون في حال الاضطرار لما لا يكون ابتداؤه جُزماً لك، وتكون ضرورتُك لسراية جنايتك.

قوله جل ذكره: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾.

رافعُ الدرجات للعُصاةِ بالنجاة، وللمطيعين بالمثوبات، وللأصفياء والأولياء بالكرامات، ولذوي الحاجات بالكفايات، وللعارفين بتنقيبهم عن جميع أنواع الإرادات.

ويقال درجاتُ المطيعين بظواهرهم في الجنة، ودرجاتُ العارفين بقلوبهم في الدنيا؛ فيرفع درجاتهم عن النظر إلى الكَونيْن دون المساكنة إليهما. وأمَّا المحبون فيرفع درجاتِهم عن أن يطلبوا في الدنيا والعُقبى شيئاً غيرَ رضاءِ محبوبهم.

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾: ذو المُلْكِ الرفيع. ويقال العرش الذي هو قِبْلَةُ الدعاء، خَلَقَه أرفعَ المخلوقاتِ وأعظمَها جُثة.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في (السنن ٣٨٢٧)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٤/ ٢٦٧، ٢٧١، ٢٧٦) والحاكم في (المستدرك ١/ ٤٩٠)، وابن حجر في (فتح الباري ١/ ٤٩)، والبغوي في (شرح السنة ٥/ ١٨٤)، والساعاتي في (منحة المعبود ١٢٥٢)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ١٢/ ٢٧٩)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/ ٣٠٦)، والشجري في (الأمالي ١/ ٢٢٣ ـ ٢٣٥) والطبري في (التفسير ٢/ ٩٤، ٢٤/ ٥١)، والبخاري في (الأدب المفرد ٧١٤).

﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ روحٌ بها ضياءُ أبدانهم ـ وهو سلطانُ عقولهم، وروحٌ بهاء ضياء قلوبهم ـ وهو شفاءُ علومهم، وروحٌ بها ضياء أرواحهم ـ والذي هو للرُّوح رَوْحٌ ـ بقاؤهم بالله.

ويقال: روحٌ هو روح إلهام، وورح هو روح إعلام، وروح هو روح إكرام.

ويقال: روح النبوة، وروح الرسالة، وروح الولاية، وروح المعرفة.

ويقال: روح بها بقاءُ الخلق، وروح بها ضياء الحق.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾.

يعلم الحاصل الموجود، ويعلم المعدوم المفقود، والذي كان والذي يكون، والذي لا يكون مما عَلِمَ أنه لا يجوز أن يكون، والذي جاز أن يكون أن لو كان كيف كان يكون.

﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

لا يتقيد مُلْكه بيوم، ولا يختصُّ مُلْكه بوقتٍ، ولكنَّ دَعَاوَى الخَلْقِ ـ اليومَ ـ لا أصلَ لها؛ إذ غداً تنقطع تلك الدعاوى وترتفع تلك الأوهام.

قوله جل ذكره: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

يجازيهم على أعمالهم بالجنان، وعلى أحوالهم بالرضوان، وعلى أنفاسهم بالقربة، وعلى محبتهم بالرؤية.

ويجازي المذنبين على توبتهم بالغفران، وعلى بكائهم بالضياء والشفاء.

﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾: أي أنه يستحيل تقديرُ الظلم منه، وكل ما يفعل فله أن يفعله. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ مع عباده؛ لا يشغله شأنٌ عن شأنٍ، وسريعُ الحساب مع أوليائه في الحال؛ يطالبهم بالصغير والكبير، والنقير والقطمير.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾.

قيامةُ الكُلِّ مؤجَّلة، وقيامةُ المحبين مُعَجَّلة؛ فَلَهم في كلِّ نَفَسٍ قيامةٌ من العقاب والعذاب والثواب، والبُعَاد والاقتراب، وما لم يكن لهم في حساب، وتشهد عليهم الأعضاء؛ فالدمعُ يشهد، وخَفَقَانُ القلبِ ينطق، والنحولُ يُخبِر، واللونُ يُفصِح... والعبدُ يَسْتُرُ ولكن البلاء يَظْهَرُ:

يا مَنْ تَغَيَّرُ صورتي لَمَّا بَدَا لجميع ما ظَنُّوا بنا تصديقا

وأنشدوا:

لي في محبته شهودٌ أربعٌ وشهودُ كلِّ قضيةٍ اثنانِ

ذوبانُ جسمي وارتعادُ مفاصلي وخفوقُ قلبي واعتقالُ لساني

وقلوبُهم - إذا أزِفَ[1] الرحيلُ بَلَغت الحناجر، وعيونهم شَرِقَتْ بدموعها إذا نودي بالرحيل وشُدَّت الرواحل.

قوله جل ذكره: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾.

فخائنةُ أعين المحبين استحسانهم شيئاً، ولهذا قالوا:

يا قُرَّة العينِ: سَلْ عيني هل اكتحلت بمنظرٍ حَسَنٍ مُذْ غِبْتَ عن بَصَرِي

ولذلك قالوا:

فعيني إذا استحسنَتْ غيرَكم أمَرْتُ السُّهادَ[2] بتعذيبها

ومن خائنة أعينهم أن تأخذهم السِّنَةُ والسُّبات في أوقات المناجاة؛ وقد جاء في قصة داود عليه السلامة: كَذَبَ مَنْ ادَّعَى محبتي، فإذا جَنَّهُ الليلُ نام عَنِّي!

ومن خائنة أعين العارفين أن يكون لهم خَبَرٌ بقلوبهم عمَّا تقع عليه عيونُهم.

ومن خائنة أعين الموحِّدين أن تخرج منها قطرةُ دمعٍ تأسُّفاً على مخلوقٍ يفوت في الدنيا والآخرة، ولا على أنفسهم.

ومن خائنة أعين المحبين النظرُ إلى غير المحبوب بأي وجهٍ كان، ففي الخبر: «حُبُّكَ الشيء يعمي ويصم»[3].

﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾: فالحقُّ به خبير.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

---

(١) أزف: دنا واقترب أو عجل. (٢) السهاد: الأرق.

(٣) أخرجه أبو داود في (السنن ٥١٣٠)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٥/ ١٩٤، ٦/ ٤٥٠)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/ ٢٧٦، ٩/ ٦٨٤)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٤٩٠٨) والدولابي في (الكنى والأسماء ١/ ١٠١)، وأبو حنيفة في (المسند ١٦٨)، وفي (جامع مسانيد ١/ ٢٣، ٨٧)، وابن كثير في (التفسير ١/ ١٨١، ٣/ ٤٧٣)، والقرطبي في (التفسير ١/ ٣٠٧)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٣/ ١١٧)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣/ ٣١) وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٣/ ٣٢٥، ٤/ ٢٣٤، ٥/ ٨٩، ١٠/ ٣٩٢)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٤١٠)، والفتني في (تذكرة الموضوعات ١٩٩)، وابن عراق في (تنزيه الشريعة ١/ ٤٠٣)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ١٧٧).

يقضي للأجانب بالبعاد، ولأهل الوصال بالوداد، ويقضي يومَ القدوم بعَزْلِ عمال الصدود، وإذا ذُبِحَ الموتُ غداً بين الجنة والنار على صورة كَبْشٍ أملح فلا غرابة أن يُذْبَحَ الفراقُ على رأسِ سكة[١] الأحبابِ في صورة شخصٍ منكر ويصلب على جذوع العِبرة لينظرَ إلى أهلُ الحَضْرَة.

قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾.

أو لم يسيروا في أقطار الأرض بنفوسهم، ويطوفوا مشارقها ومغاربها ليعتبروا بها فيزهدوا فيها؟ أو لم يسيروا بقلوبهم في الملكوت بجولان الفكر ليشهدوا أنوارَ التجلّي فيستبصروا بها؟ أو لم يسيروا بأسرارهم في ساحات الصمدية ليستهلكوا في سلطان الحقائق، وليتخلَّصُوا من جميع المخلوقات قاصيها ودانيها؟

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

إن بغى من أهل السلوك قاصدٌ لم يصل إلى مقصوده فَلْيَعْلَمْ أنَّ مُوجِبَ حَجْبِهِ اعتراضٌ خَامَرَ قلبَه على بعض شيوخه في بعض أوقاته؛ فإنَّ الشيوخَ بمحلِّ السفراء للمريدين. وفي الخبر: «الشيخُ في قومه كالنبيِّ في أمته»[٢].

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

أكْرَمُ خَلْقِهِ في وقته كان موسى عليه السلام، وأخَسُّ خَلْقِه وأذلُّهم في حُكْمِه وأشدُّهم كفراً كان فرعون؛ فما قال أحدٌ غيره: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

فَبَعَثَ اللَّهُ ـ أخصَّ عباده إلى أخسِّ عباده، فقابله بالتكذيب، ونَسَبَه إلى السِّحر، وأنَّبَهُ بكل أنواع التأنيب. ثم لم يُعَجِّلْ اللَّهُ عقوبته، وأمهله إلى أن أوصل إليه شِقْوَتَه ـ إنه سبحانه حليمٌ بعباده.

---

(١) السكة: الطريق المستوي.

(٢) أخرجه المتقي الهندي في (كنز العمال ٤٢٦٣٣)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/ ٨٢)، وابن القيسراني في (تذكرة الموضوعات ١٠٨٢)، والسيوطي في (اللآلىء المصنوعة ١/ ٨٠)، والعجلوني في (كشف الخفاء ٢/ ١٢)، وابن الجوزي في (الموضوعات ١/ ١٥٣)، والشوكاني في (الفوائد المجموعة ٤٨٨)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ٢٢٩، ٣٣٩).

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

عَزَم على إهلاكه وإهلاك قومه، واستعان على ذلك بجُنْدِه وخَيْلِه ورَجْلِه، ولكن كان كما قال الله: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾، لأنه إذا حفَرَ أحدٌ لِوَلِيٍّ من أولياء الله تعالى حُفْرةً ما وقع فيها غيرُ حَافِرِها.. بذلك أجرى الحقُّ سُنَّتَه.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾.

﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ أي لِيَسْتَعِنْ بربه، وإني أخاف أن يبدل دينكم، وأخاف أن يُفْسِدَ في الأرض، وكان المفْسِدُ هو فرعون، وهو كما قيل في المثل: «رمَتْنِي بدائها وانْسَلَّتْ» ولكن كادَ له الكيد، والكائد لا يتخلص من كيده.

فاستعاذ موسى بربه، وانْتُدِبَ في الردِّ عليهم مؤمِنٌ بالله وبموسى كان يكتم إيمانه عن فرعون وقومه[1]:-

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.. الآيات.

نَصَحَهُم واحتَجَّ عليهم فلم ينجح فيهم نُصْحٌ ولا قَوْلٌ. وكم كَرَّرَ ذلكَ المؤمن من آل فرعون القولَ وأعاد لهم النُّصْحَ! فلم يستمعوا له، وكان كما قيل:

وكم سُقْتُ في آثاركم من نصيحةٍ وقد يستفيد البغضة المتنصِّحُ[2]

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾.

بَيَّنَ أنَّ تكذيبَهم كتكذيب آبائهم وأسلافهم من قبل، وكما أهلك أولئك قديماً كذلك يفعل بهؤلاء[3].

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾.

السببُ ما يُتَوَصَّلُ به إلى الشيء؛ أي لعلِّي أصل إلى السماء فأطَّلِعَ إلى إله

(١) الآية (٢٧) لم ترد.
(٢) الآيات من (٢٩ حتى ٣٣) لم ترد.
(٣) الآية (٣٥) لم ترد.

موسى. ولو لم يكن من المضاهاة بين مَنْ قال إن المعبودَ في السماء وبين الكافر إلا هذا لكفي به خِزْياً لمذهبهم. وقد غَلِطَ فرعونُ حين تَوَهَّمَ أنَّ المعبودَ في السماء، ولو كان في السماء لكان فرعونُ مُصيباً في طَلَبِه من السماء.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾.

أخبر أنَّ اعتقادَه بأنَّ المعبودَ في السماء خطأٌ، وأنَّه بذلك مصدودٌ عن سبيل الله.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾.

أصَرَّ على دعائه لهم وأصَرُّوا على جحودهم وعُنُودِهم.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾: في المقدار لا في الصفة؛ لأن الأولى سيئة، والمكافأةُ من الله عليها حسنةٌ وليست بسيئة.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ يعني في الحال، لأنَّ مَنْ لا يكون مؤمناً في الحال لا يكون منه العملُ الصالح، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: أي رزقاً مؤبَّداً مُخَلَّداً، لا يخرجون من الجنة ولا مِمَّا هم عليه من المآل.

﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾

وهذا كُلُّه مِنْ قَوْلِ مؤمنِ آل فرعونَ، يقوله على جهة الاحتجاج لقومه، ويلزمهم الحجة به.

﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾.

تدعونني لأكفر بالله وأشرك به من غير علم لي بصحة قولكم، وأنا أدعوكم إلى الله وإلى ما أوضحه بالبرهان، وأقيم عليه البيان.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

لا جَرَمَ أنَّ ما تدعونني إليه باطل؛ فليس لتلك الأصنامِ حياةٌ ولا عِلْمٌ ولا قُدْرَةٌ، وهي لا تنفع ولا تَضُرُّ. ولقد علمنا ـ بقول الذين ظهر صِدْقُهم بالمعجزاتِ ـ كَذِبَكم فيما تقولون.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

أفوض أمري إلى الله، وأتوكل عليه، ولا أخاف منكم، ولا من كيدكم.

قوله جل ذكره: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

والآية تدلُّ على عذاب القبر.

ويقال إنَّ أرواح الكفار في حواصل طير سُودٍ تُعْرَضُ على النار غدواً وعشياً إلى يوم القيامة حيث تدخل النار.

﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾: أي يا آل فرعون أُدخُلوا أشدَّ العذاب، فَنَصَبه على النداء المضاف. ويقرأ «أَدْخِلوا» على الأمر.

﴿أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾: أي أصعبه، وأصعبُ عذابٍ للكفار في النار يأسُهم من الخروج عنها. أمَّا العصاةُ من المؤمنين فأشدُّ عذابهم في النار إذا علموا أن هذا يومُ لقاء المؤمنين، فإذا عرفوا ذلك فذلك اليومُ أشدُّ أيام عذابهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾.

يقول الضعفاء للذين استكبروا: أنتم أضللتمونا، ويقول لهم المستكبرون: أنتم وافقتمونا باختياركم؛ فمحاجةُ بعضهم لبعضٍ تزيد في غيظ قلوبهم، فكما يُعَذَّبون بنفوسهم يعذبون بضِيقِ صدورهم وببُغْضِ بعضهم لبعض.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

وهذه أيضاً من أمارات الأجنبية، فهم يُدْخِلُونَ واسطةً بينهم وبين ربِّهم. ثم إن الله ينزع الرحمة عن قلوب الملائكة كي لا يستشفعوا لهم.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾.

ننصرهم بالآياتِ وفنونِ التعريفات حتى يعرفوا ويشهدوا أن الظَّفَرَ وضِدَّه من الله، والخيرَ والشرَّ من الله.

ويقال ننصرهم على أعدائهم بكيدٍ خفيٍّ ولطفٍ غيرِ مرئيٍّ، من حيث

يحتسبون ومن حيث لا يحتسبون؛ ننصرهم في الدنيا بالمعرفة وباليقين بأنَّ الكائنات من الله، وننصرهم في الآخرة بأن يشهدوا ذلك، ويعرفوا ـ بالاضطرار ـ أنَّ التأثيرَ من الله، وغاية النصرة أن يَقْتُلَ الناصرُ عدوَّ مَنْ ينصره، فإذا أراد حَتْفَه تحقَّق بأن لا عَدُوَّ على الحقيقة، وأنَّ الخَلْقَ أشباحٌ تجري عليهم أحكامُ القدرة؛ فالوليُّ لا عدوَّ له، ولا صديق له إلا الله، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧].

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

دليلُ الخطابِ أن المؤمنين ينفعهم تَنَصُّلُهم، ولهم من الله الرحمة، ولهم حُسْنُ الدار، وما بقي من هذه الدنيا إلا اليسير.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾.

مضى طَرَفٌ من البيان في قصة موسى.

قوله جل ذكره: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾.

الصبرُ في انتظار الموعود من الحقِّ على حسب الإيمان والتصديق؛ فَمَنْ كان تصديقهُ ويقينُه أتمَّ وأقوى كان صبرُه أتمَّ وأوفى.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾: وهو ـ سبحانه ـ يُعْطِي وإن توَهَّمَ العبدُ أنه يُبْطِي.

ويقال الصبر على قسمين: صبرٌ على العافية، وصبرٌ على البلاء، والصبرُ على العافية أشدُّ من الصبر على البلاء، فصبرُ الرجال على العافية وهو أتمُّ الصبر(١).

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾. وفي هذا دليل على أنه كانت له ذنوب، ولم يكن جميعُ استغفاره لأمته لأنه قال في موضع آخر: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ [محمد: ١٩] وهنا لم يذكر ذلك. ويمكن حَمْلُ الذَّنْبِ على ما كان قبل النبوة؛ إذ يجوز أن يكون العبد قد تاب من الزَّلَّة ثم يجب عليه الاستغفار منها كلما ذكرها، فإن تجديد التوبة يجب كما يجب أصلُ التوبة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

﴿بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ﴾: أي بغير حجة.

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص١٨٣ ـ ١٨٩.

﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ أي ليس في صدورهم إلا كِبْرٌ يمنعهم عن الانقياد للحق، ويبقون به عن الله، ولا يصلون إلى مرادهم.

قوله جل ذكره: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي خَلْقُ السموات والأرضِ أكبرُ من بعثهم وخَلْقهم مرةً أخرى بعد أن صاروا رميماً؛ فالقوم كانوا يُقِرُّون بخلْقِ السموات والأرض، وينكرون أمرَ البعث.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

أراد به: ما يستوي المؤمنُ والكافرُ، ولا المربوطُ بشهوته كالمبسوط بصفوته، ولا المجذوبُ بقربته كالمحجوب بعقوبته، ولا المُرَقّي إلى مشاهدته كالمُبقّي في شاهده، ولا المجدود بسعادته كالمردود لشقاوته.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

إنَّ ميقاتَ الحسابِ لكائنٌ وإن وقعت المدةُ في أوانه.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

معناه: أدعوني أستجب لكم إن شِئتُ؛ لأنه قال في آية أخرى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ [الأنعام: ٤١].

ويقال ادعوني بشرطِ الدعاء، وشرطُ الدعاء الأكلُ من الحلال؛ إذ يقال الدعاء مفتاحُه الحاجة، وأسبابُه اللقمةُ الحلال.

ويقال كلُّ مَنْ دعاه استجاب له إمّا بما يشاء له، أو بشيء آخر هو خيرٌ له منه.

ويقال الكافر ليس يدعوه؛ لأنه إنما يدعو مَنْ له شريك، وهو لا شريكَ له.

ويقال: إذا ثبت أن هذا الخطاب للمؤمنين فما مِنْ مؤمنٍ يدعو الله ويسأله شيئاً إلا أعطاه في الدنيا، فأما في الآخرة فيقول له: هذا ما طلبْتَه في الدنيا، وقد ادخرتُه لك لهذا اليوم حتى ليتمنى العبدُ أنه ليته لم يُعطَ شيئاً في الدنيا قط.

ويقال ادعوني بالطاعات استجبْ لكم بالثواب والدرجات.

ويقال ادعوني بلا غفلة أستجب لكم بلا مهلة. ويقال ادعوني بالتنصل أستجب لكم بالتفضُّل. ويقال ادعوني بحسَبِ الطاقة أستجب لكم بكشف الفاقة.

ويقال ادعوني بالسؤال أستجب لكم بالنّوال والأفضال.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ أن يستكبرون عن دعائي، سيدخلون جهنم صاغرين.

قوله جل ذكره: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ الآيات.

سكونُ الناسِ في الليل على أقسام: أهلُ الغفلة يسكنون إلى غفلتهم، وأهل المحبة يسكنون بحكم وصلتهم، وشتّان بين سكونِ غفلةٍ وسكونِ وصلة!

قومٌ يسكنون إلى أمثالهم وأشكالهم، وقومٌ يسكنون إلى حلاوة أعمالهم؛ لبسطهم واستقلالهم، وقومٌ يعدِمون القرار في ليلهم ونهارهم وأولئك أصحابُ الاشتياق.. أبداً في الاحتراق.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الذي جعل سكونكم معه، وانزعاجكم له، واشتياقكم إليه، ومحبتكم فيه، وانقطاعكم إليه.

قوله جل ذكره: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾.

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾: خَلقَ العرشَ والكرسيّ والسموات والأرضين وجميعَ المخلوقاتِ ولم يقُلْ هذا الخطاب، وإنما قال لنا: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ وليس الحَسَنُ ما يستحسنه الناسُ بل الحَسنُ ما يستحسنه الحبيبُ:

ما حطك الواشون عن رتبةٍ عندي ولا ضَرّك مُعتابُ
كأنهم أثنَوْا ـ ولم يعلموا ـ عليكَ عندي بالذي عابوا

لم يَقُلْ للشموس في علائها، ولا للأقمار في ضيائها: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾.

ولما انتهى إلينا قال ذلك، وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

ويقال إن الواشين قَبّحوا صورتكم عندنا، بل الملائكةُ كتبوا في صحائفكم قبيحَ ما ارتكبتم.. ومولاكم أحسن صوركم، بأن محا من ديوانكم الزّلات، وأثبت بدلاً منها الحسناتِ، قال تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩]، وقال: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].

قوله جل ذكره: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

ليس الطيبُ ما تستطيبه النفسُ إنما الطيب ما يستطيبُه القلبُ، فالخبزُ القفار أطيب للفقير الشاكر من الحلواء للغنيّ المتَسخّط.

ورزقُ النفوسِ الطعامُ والشرابُ، ورزقُ القلوبِ لذاذات الطاعات.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾: الذي لا يموت، ولا فضلُه يفوت، فادعوه بلسان القوت، وذلك عليه لا يفوت.

قوله جل ذكره: ﴿۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قُلْ ـ يا محمد ـ إني نهيت عن عبادة ما تدعون من دون الله، أي أُمِرْتُ بالتبرّي عمّا عبدتم، والإعراض عمّا به اشتغلتم، والاستسلام للذي خلقني، وبالنبوة استخصّني.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾.

فمن تُرْبةٍ إلى قَطْرَةٍ؛ ومن قطرةٍ إلى عَلَقَةٍ.. ثم من بطون أُمهاتكم إلى ظهوركم في دنياكم.. ثم من حال كونكم طفلاً ثم شاباً ثم شيخاً.

وهو الذي يحيي ويميت، ثم يبعث في أُخرى الدارين[١].

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾.

في آيات الله يتبلّدُون؛ فلا حُجة يوردُون، ولا عذاب عن أنفسهم يردُّون، سيعلمون حين لا ينفعهم عِلمُهم، ويعتذرون حين لا يُسمَع عُذْرهم، وذلك عندما[٢].

﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ الآيات.

يُسحبُون في النار والأغلالُ في أعناقهم، ثم يُذاقون ألوانَ العذاب.. فإذا أُقرُّوا بكفرهم وذنوبهم يقال لهم: أدخلوا جهنم خالدين فيها، فبئس مثواهم ومصيرهم، وساء ذهابُهم ومسيرهم[٣].

قوله جل ذكره: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

كُنْ بِقلبكَ فارغاً عنهم، وانظر من بعدُ إلى ما يُفعلُ بهم، واستيقن بأنه لا بقاء

(١) الآية (٦٨) لم ترد. (٢) الآية (٧٠) لم ترد.
(٣) الآيات من (٧٣، ٧٦) لم ترد.

لجولة باطلهم.. فإن لقيت بعض ما نتوعدُهم به وإلّا فلا تكُ في ريبٍ من مقاساتهم ذلك بَعْدُ. ثم أكّدَ تسليتَه إياه وتجديدَ تصبيره وتعريفه بقوله:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

قصصنا عليك قصصَ بعضهم، ولم نخبرك عن قصص الآخرين.

ولم يكن في وسع أحدِ الإتيان بمعجزة إلا إذا أظهرنا نحن عليه ما أردنا إذا ما أردنا. فكذلك إن طالبُوك بآيةٍ فقد أظهرنا عليك من الآيات ما أزحنا به العُذْر، وأوضحنا صِحّةَ الأمر.. وما اقترحُوه.. فإن شئنا أظْهَرْنا، وإن شِئنا تَرَكنا.

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ﴾.

ذكّرهم عظيمَ إنعامه بتسخير الأنعام؛ فقال جعلها لكم لتنتفعوا بها بالركوب والحمل والعمل، ولتستقوا ألبانها، ولتأكلوا لحومها وشحومَها، ولتنتفعوا بأصوافها وأوبارها وأشعارها، ولتقطعوا مسافة بعيدةً عليها.. فعلى الأنعام وفي الفُلْكِ تنتقلون من صُقْعٍ[1] إلى صُقعٍ.. وأنا الذي يَسَّرْتُ لكم هذا، وأنا الذي ألهمتكم الانتفَاع به؛ فثقُوا في ذلك واعرفوه.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.. الآيات

أمَرَهم بالاعتبار بِمَنْ كانُوا قبلهُمْ؛ كانوا أشدّ قوةً وأكثر أموالاً وأطولَ أعماراً، فانجرُوا في حِبَالِ آمالهم، فوقعوا في وهْدَة غرورهم، وما بقي الحقُّ عن مراده فيهم، واغتروا بسلامتهم في مُدّةٍ ما أرخينا لهم عنان إمهالهم، ثم فاجأناهُم بالعقوبة، فلم يُعْجِزُوا الله في مُرادِه منهم.

فلمّا رأوا شِدَّةَ البأسِ، ووقعوا مذلّةِ الخيبة واليأس تمنّوا أن لو أُعيدُوا إلى الدنيا من الرأس.. فقابلهم الله بالخيبة؛ وخرطهم في سِلكِ مَن أبادهم من أهل الشِّرْكِ والسَّخْطِ.

(١) الصقع: الناحية من البلاد.

سورة فصلت

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

أفلح مَنْ عرف «بسم الله»، وما ربح مَنْ بقي عن «بسم الله».

مَنْ صحب لسانُه «بسم الله» وصحب جَنانُه «بسم الله» كفى له شفيعاً «بسم الله» إلى مَنْ يُعِيذُنا بِذِكْرِ «بسم الله».

قوله جل ذكره: ﴿حمٓ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

بحقي وحياتي، ومجدي في صفاتي وذاتي.. هذا تنزيلٌ من الرحمن الرحيم.

قوله جل ذكره: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

بُيِّنَتْ آياته ودلالاته.

﴿وقُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: الدليل منصوبٌ للكافة ولكنَّ الاستبصار به للعالِمين ـ دون المُعْرِضين الجاحدين.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

﴿بَشِيرًا﴾: لِمَنْ اخترناهم واصطفيناهم.

﴿وَنَذِيرًا﴾: لِمَنْ أقميناهم، وعن شهودِ آياتنا أعميناهم.

﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ عند دعائنا إياهم، فهم مُثْبَتُون فيما أردناهم، وعلى ذلك (الوصف) عَلِمْناهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾.

قالوا ذلك على الاستهانة والاستهزاء، ولو قالوه عن بصيرةٍ لكان ذلك منهم توحيداً، فمُنُوا بالمَقْتِ لِما فقدوا من تحقيق القلب.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

إنما أنا بَشَرٌ مثلكم في الصورة والبِنْية، والذات والخِلقة. والفرقانُ بيني وبينكم أنَّه يُوحَى إليَّ أنما إلهكم إله واحد؛ فالخصوصية مِنْ قِبَلِه لا مِنْ قِبَلِي، ولقد بَقِيتُ

فيكم عمراً، ولقيتموني دهراً. . فما عثرتم مني على غير صواب، ولا وجدتم في قولي شوب كذاب. وأمري إليكم أن استقيموا في طاعته، واستسلموا لأمره. . . وطوبى لِمَن أجاب، والويلُ لِمَنْ أصرَّ وعاب!.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

﴿ءَامَنُوا۟﴾: شاهدوا، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: لازموا بِساط العبودية.

﴿ءَامَنُوا۟﴾: شهدوا الحضرة، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: وقفوا بالباب.

﴿ءَامَنُوا۟﴾: حضروا، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: بعد ما حضروا لم ينصرفوا.

﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾: غير منقوص؛ فأجرُ النفوسِ الجنةُ، وأجرُ القلوب الرضا بالله، وأجرُ الأرواح الاستئناسُ بالله، وأجرُ الأسرار دوام المشاهدة لله.

قوله جل ذكره: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

خَلَقَ الزمانَ ولم يكن قبله زمان، وخَلَقَ المكان، ولم يكن قبله مكان؛ فالحقُّ ـ سبحانه ـ كان ولا مكان ولا زمان، فهو عزيزٌ لا يُدرِكُه المكانُ، ولا يَمْلِكُه الزمان.

﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾. . . وكيف يكون الذي لم يكن ثم حصل نِدًا للذي لم يَزَلْ. . ولا يزال كما لم يزل؟! ذلك ربُّ العالمين.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾.

الجبالُ أوتادُ الأرضِ في الصورة، والأولياءُ أوتادٌ ورواسٍ للأرض في الحقيقة.

﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾: البركةُ الزيادة. . فيأتيهم المطرُ ببركاتِ الأولياء، ويندفع عنهم البلاء ببركات الأولياء.

﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾: وجعلها مختلفةً في الطَّعْمِ والصورةِ والمقدار. وأرزاقُ القلوبِ والسرائر كما مضى ذكره فيما تقدم.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ أي قَصَدَ، وقيل فعل فعلاً هو الذي يعلم تعيينه.

ويقال رتَّبَ أقطارها، وركَّبَ فيها نجومَها وأزهارَها.

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾: هذا على ضرب المَثَل؛ أي لا يتعسَّر عليه شيءٌ مما خلقه، فله مِنْ خَلْقِه ما أراده. وقيل بل أحياهما وأعقلهما

وأنطقهما فقالتا ذلك. وجعل نفوسَ العابدين أرضاً لطاعته وعبادته، وجعل قلوبهم فَلَكاً لنجومِ علمه وشموسِ معرفته.

وأوتادُ النفوسِ الخوفُ والرجاءُ، والرغبةُ والرهبة. وفي القلوب ضياءُ العرفانِ، وشموس التوحيد، ونجوم العلوم والعقولِ والنفوسِ. والقلوبُ بيده يُصَرِّفُها على ما أراد من أحكامه.

قوله جل ذكره: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

زَيَّنَ السماء الدنيا بمصابيح، وزيَّنَ وجهَ الأرضِ بمصابيحَ هي قلوب الأحباب؛ فأهلُ السماء إذا نظروا إلى قلوب الأولياء بالليل فذلك متنزههم كما أن أهل الأرض إذا نظروا إلى السماء استأنسوا برؤية الكواكب.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾.

أي أَخبِرْ المُكَذِّبين لَكَ أنَّ لكم سَلَفاً.. فإن سلكتم طريقهم في العناد، وأبيتم إلّا الإصرار ألحقناكم بأمثالكم.

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

ركنوا إلى قوة نفوسهم فخانتهم قواهم، واستمكنت منهم بلواهم.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾.

فلم يغادر منهم أحداً.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

قيل إنهم في الابتداء آمنوا وصدَّقوا، ثم ارتدُّوا وكذَّبوا، فأجراهم مجرى إخوانهم في الاستئصال.

﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: منهم من نجّاهم من غير أن رأوا الناس؛ فعبروا القنطرة ولم يعلموا، وقومٌ كالبرق الخاطف وهم أعلاهم، وقومٌ كالراكض.. وهم أيضاً من الأكابر، وقومٌ على الصراط يسقطون ويردُّهم الملائكة على الصراط. فبعد وبعد.. قومٌ بعدما دخلوا النار فمنهم من تأخذه إلى كعبيه ثم إلى ركبتيه ثم إلى حَقْوَيه[1]، فإذا

(١) الحقو: الخصر.

ما بلغت النار القلب قال الحقُّ لها: لا تحرقي قلبه؛ فإنه محترقٌ فيَّ. وقومٌ يخرجون من النار بعدما امْتُحِشوا[١] فصاروا حُمَماً.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

شهدت عليهم أجزاؤهم، ولم يكن في حسابهم أن الله سيُنْطِقها وهو الذي أنطق كلَّ شيء، ولم يَذُرْ بخَلدهم ما استقبلهم من المصير الأليم.

﴿ذلكم ظنكم﴾: وكذا مَنْ قعد في وصف الأقوال، ووَسَمَ موضِعَه، وحَكَمَ لنفسه أنه مُقَدَّمُ بلده. فلا يُسْمَعُ منه إلا ببرهانٍ ودليلٍ من حاله، فإن خالف الحالُ قولَه فلا يُعتمد عليه بعد ذلك.

والظنُّ بالله إذا كان جميلاً فلعمري يُقَابَلُ بالتحقيق، أمَّا إذا كان نتيجةَ الغرورِ وغيرَ مأذونٍ به في الشرع فإنه يُرْدِي صاحبه.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾.

فإن يصبروا على موضع الخسف فسينقلبون إلى النار، وإن يستعتبوا ـ فعلى ما قال ـ فما هم بمعتبين.

﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾.

إذا أراد الله بعَبْدٍ خيراً قَيَّضَ له قرناءَ خيرٍ يُعِينونه على الطاعات، ويَحْمِلونه عليها، ويدعونه إليها. وإذا كانوا إخوانَ سوءٍ حملوه على المخالفات، ودَعَوْه إليها.. ومن ذلك الشيطانُ؛ فإنهُ مُقَيَّضٌ مُسَلَّطٌ على الإنسان يوسوس إليه بالمخالفات. وشرٌّ من ذلك النَّفْسُ. فإنها بئس القرين!! فهي تدعو العبدَ ـ اليومَ ـ إلى ما فيه هلاكه، وتشهد عليه غداً بفعل الزلَّةِ. فالنفسُ ـ وشرُّ قرينٍ للمرءِ نفسُه ـ والشياطينُ وشياطينُ الإنسِ.. كلها تُزيِّن لهم ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من طول الأمل، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من نسيان الزَّلَلِ، والتسويف في التوبة، والتقصير في الطاعة.

---

(١) محشت النار جلده: أحرقته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾.

استولى على قلوبهم الجَحْدُ والإنكارُ، ودام على العداوة فيهم الإصرارُ؛ فاحتالوا بكل وجهٍ، وتواصَوْا فيما بينهم بألا يستمعوا لهذا القرآن لأنه يغلب القلوب، ويسلب العقول، وكل مَنْ استمع إليه صَبَا إليه.

وقالوا: إذا أَخَذَ محمدٌ في القرآن فأكْثِرُوا عند قراءته اللَّغوَ واللغطَ حتى يقع في السهو والغَلَط.

ولم يعلموا أن الذي نُوِّرَ قلبُه بالإيمان، وأُيِّدَ بالفهم، وأُمِّدَ بالنصرة، وكوشف بسماع السِّرِّ من الغيب هو الذي يسمع ويؤمن. والذي هو في ظلمات جهله لا يدخل الإيمانُ قلبَه، ولا يباشر السماعُ سِرَّه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

اليومَ بإدامة الحرمان الذي هو الفراق، وغداً بالتخليد في النار التي هي الاحتراق.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

لهم فيها الخزي والهوان بلا انقطاع ولا انصرام.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾.

من الجنِّ إبليس. ومن الإنس قابيل بن آدم فهو أول منْ سَنَّ المعصية (حين قتل أخاه)[١].

﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾؛ هذه الإرادة وهذا التمني زيادة في عقوبتهم أيضاً؛ لأنهم يتأذون بتلك الإرادة وهذا التمني؛ فهم يجدون أنه لا نَفْعَ لهم من ذلك إذ لن يُجَابوا في شيء، ولن يُمْنَعَ عنهم العذاب.

ويفيد هذا الإخبار عنهم عن وقوع التبرِّي فيما بينهم، فبعضهم يتبرأ من بعض، كما يفيد بأن الندمَ في غير وقته لا جدوى منه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

---

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

«ثم» استقاموا: ثم حرف يقتضي التراخي، فهو لا يدل على أنهم في الحال لا يكونون مستقيمين، ولكنه معناه استقاموا في الحال، ثم استقاموا في المآل بأن استداموا إيمانَهم إلى وقت خروجهم من الدنيا، وهو آخرُ أحوالِ كونِهم مُكَلَّفين.

ويقال: قالوا بشرط الاستجابة أولاً، ثم استبصروا بموجب الحجة، ولم يثبتوا على وصف التقليد، ولم يكتفوا بالقالة دون صفاء الحالة.

«استقاموا»: الاستقامة هي الثباتُ على شرائط الإيمان بجملتها من غير إخلالٍ بشيءٍ من أقسامها. ويقال: هم على قسمين:

مستقيم (في أصول) التوحيد والمعرفة.. وهذه صفة جميع المؤمنين.

ومستقيم في الفروع من غير عصيان.. وهؤلاء مختلفون؛ فمنهم.. ومنهم، ومنهم.

﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ﴾: الذي لهم البشارة هم كل من استقام في التوحيد، ولم يشرك. فله الأمان من الخلود. ويقال: مَنْ كان له أصل الاستقامة أَمِنَ من الخلود في النار، ومن كمال الاستقامة أَمِنَ من الوعيد من غير أن يلحقه سوءٌ بحالٍ.. ثم الاستقامة لهم على حسب أحوالهم؛ فمستقيمٌ في عهده، ومستقيم في عقده، ومستقيم في جهده ومراعاة حدِّه، ومستقيم في عقده وجهده وحدِّه وحبِّه. ووِدِّه.. وهذا أتمُّهم.

ويقال: استقاموا على دوام الشهود وعلى انفراد القلب بالله.

ويقال: استقاموا في تصفية العقد ثم في توفية العهد ثم صحة القصد بدوام الوجد.

ويقال: استقاموا بأقوالهم ثم بأعمالهم، ثم بصفاء أحوالهم في وقتهم وفي مآلهم.

ويقال: أقاموا على طاعته، واستقاموا في معرفته، وهاموا في محبته، وقاموا بشرائط خدمته.

ويقال: استقامةُ الزاهدِ ألا يرجعَ إلى الدنيا، وألا يمنعَه الجاهُ بين الناس عن الله. واستقامةُ العارفِ ألا يشوبَ معرفتَه حظٌ في الدارَيْن فيحجبه عن مولاه. واستقامةُ العابدِ ألا يعودَ إلى فترته واتباع شهوته، ولا يتداخله رياءٌ وتصنُّع واستقامة المُحِبِّ ألا يكون له أَرَبٌ من محبوبه، بل يكتفي من عطائه ببقائه، ومن مقتضى جوده بدوام عِزِّه ووجوده.

﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾: إنما يكون الخوف في المستقل من الوقت، من حلولِ

مكروهٍ أو فوات محبوبٍ فالملائكةُ يبشرونهم بأن كل مطلوبٍ لهم سيكون، وكل محذورٍ لهم لا يكون.

والحزن من حُزُونه الوقت، ومن كان راضياً بما بجري فلا حزنَ له في عيشه. والملائكة يبشرونهم بأنهم لا حزونه في أحوالهم، وإنما هم الرَّوْح والراحة.

﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ﴾: أي بحسن المآب، وبما وَعَدَ اللَّهُ من جميل الثواب.

والذي هو موعودٌ للأولياء بسفارة المَلَكِ موجودٌ اليومَ لخواصِّ عباده بعطاء المَلِكِ؛ فلا يكون لأحدهم مطالعةٌ في المستقبل من حاله بل يكون بحكم الوقت؛ فلا يكون له خوفٌ؛ لأن الخوف ـ كما قلنا من قبل ـ ينشأ من تطلع إلى المستقبل إمَّا من زوالِ محبوبٍ أو حصولِ مكروه، وإن الذي بصفة الرضا[1] لا حزونة في حاله ووقته.

ويمكن القول: ﴿**لا تخافوا**﴾ من العذاب، ﴿**ولا تحزنوا**﴾ على ما خلفتم من الأسباب، ﴿**وأبشروا**﴾ بحسن الثواب في المآب.

ويقال: ﴿**لا تخافوا**﴾ من عزل الولاية، ﴿**ولا تحزنوا**﴾ على ما أسلفتم من الجناية، «وأبشروا» بحسن العناية في البداية.

ويقال: ﴿**لا تخافوا**﴾ مما أسلفتم، ﴿**ولا تحزنوا**﴾ على ما خلفتم، ﴿**وأبشروا**﴾ بالجنة التي لها تكلفتم.

ويقال: ﴿**لا تخافوا**﴾ المذلَّة، ﴿**ولا تحزنوا**﴾ على ما أسلفتم من الزلَّة، ﴿**وأبشروا**﴾ بدوام الوصلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾.

الولاية من الله بمعنى المحبة، وتكون بمعنى النصرة.

وهذا الخطاب يحتمل أن يكون من قِبَلِ الملائكة الذين تنزلوا عليهم، ويحتمل أن يكون ابتداءَ خطابٍ من الله.

والنصرة تصدر من المحبة؛ فلو لم تكن المحبة الأزلية لم تحصل النصرة في الحال.

ويقال: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بتحقيق المعرفة، ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ بتحصيل المغفرة.

ويقال ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالعناية، ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ بحسن الكفاية وجميل الرعاية.

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص١٩٢، ١٩٧.

﴿وفِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالمشاهدة، ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ بالمعاينة.

في الدنيا الرضاء بالقضاء، وفي الآخرة باللقاء في دار البقاء.

في الدنيا بالإيمان، وفي الآخرة بالغفران.

في الدنيا بالمحبة، وفي الآخرة بالقربة.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾: الولايةُ نقدٌ، وتحصيل الشهوات وعدٌ، فَمَنْ يشتغل بنقده قلَّما يشتغل بوعده.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾: أي ما تريدون، وتدعون الله ليُعطيَكم.

﴿نُزُلًا﴾: أي فضلاً وعطاءً، وتقدمةً لما يستديم إلى الأبد من فنون الأفضال ووجوه المبارّ.

﴿مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾: وفي ذلك مساغٌ لآمال المذنبين؛ لأنهم هم الذين يحتاجون إلى المغفرة، ولولا رحمته لما وصلوا إلى مغفرته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

أي لا أحدَ أحسنُ قولاً منه، ويكون المراد منه النبي ﷺ ويحتمل أن يكون جميع الأنبياء عليهم السلام.

ويقال هم المؤمنون. ويقال هم الأئمة الذين يدعون الناس إلى الله.

وقيل هم المؤذنون. ويقال الداعي إلى الله هو الذي يدعو الناس إلى الاكتفاءِ بالله وتَرْكِ طالب العِوَضِ من الله، ويَكِلُ أمره إلى الله، ويرضى من الله بقسمة الله.

﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾: أي كما يدعو الخَلْقَ إلى الله يأتي بما يدعوهم إليه.

ويقال هم الذين عرفوا طريقَ الله، ثم سلكوا طريقَ الله، ثم دعوا الناسَ إلى الله.

ويقال بل سلكوا طريق الله؛ فبسلوكهم وبمنازلاتهم عرفوا الطريق إلى الله، ثم دعوا الخَلْق إليه بعدما عرفوا الطريق إليه.

﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: المسلمون لحكمه هم الراضون بقضائه وتقديره.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.

ادفعْ بالخصلة التي هي أحسن السيئةَ يعني بالعفو عن المكافأة، وبالتجاوز والصفح عن الزلة، وترك الانتصاف[1].

---

(١) هذا من أمارات الفتوة. (انظرحديث القشيري عن الفتوة برسالته ص٢٢٦، ٢٣١).

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ يُشْبِه الوليَّ الحميمَ ـ ولم يَصِرْ ولياً مخلصاً. . وهذا من جملة حُسْنِ الأدب في الخدمة في حقِّ صحبتك مع الله؛ تحلم مع عباده لأَجْلِه.

ومن جملة حُسْن الخُلُق في الصحبة مع الخَلْقِ ألا تنتقم لنفسك، وأَنْ تعفوَ عن خصمك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

لا يقوم بحق هذه الأخلاق إلّا مَنْ أُكرِم بتوفيق الصبر، ورُقِّي عن سفساف الشيم إلى معالي الأخلاق. ولا يصل أحسنَ الدرجاتِ إلا مَنْ صبر على مقاساة الشدائد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

إذا اتصلَتْ بقلبك نزغاتُ الشيطان فبادِرْ بذكر ربِّك، وارجعْ إليه قبل أية خطوة[1]. . فإنك إن لم تخالف أولَ هاجسٍ من هواجس الشيطان صار فكرة، ثم بعد ذلك يحصل العزم على ما يدعو إليه الشيطان. . فإذا لم تتداركْ ذلك تجري الزلَّة، وإذا لم تتداركْ ذلك بحُسْنِ الرُّجعي صار فسقاً. . وبتمادي الوقت تصبح في خَطَرِ كل آفة.

ولا يتخلص العبدُ من نزغات الشيطان إلا بصدق الاستعانة وصدق الاستغاثة وبذلك ينجو من الشيطان، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥]؛ فكلما ازداد العبدُ في تبرِّيه من حَوْلِه وقوته، وأخلص بينْ يدي الله بتضرعه واستعانته واستعاذته زاد اللَّهُ في حِفْظه، ودَفعَ الشيطان عنه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

أَوْضَحَ الآياتِ، وأَلاحَ البينَاتِ، وأزاحَ عِلَّةَ مَنْ رام الوصول. واختلَافُ الليل والنهار، ودورانُ الشمسِ والقمرِ من جملة أمارات قدرته، ودلالات توحيده.

﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ﴾ في علائها، ﴿وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ في ضيائه، ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ فقد غار[2] عليك أن تسجد لغيره.

---

(١) ربما كانت (خطرة) فالقشيري يقول برسالته عند حديثه عن الخواطر: الخواطر خطابات ترد على الضمائر، فقد يكون الخطاب بإلقاء ملك أو إلقاء شيطان أو أحاديث نفس أو من الحق سبحانه وقالوا: كل خاطر لا يشهد له ظاهره فهو باطل. (الرسالة القشيرية ص٨٣، ٨٤).

(٢) قال القشيري برسالته عند حديثه عن الغيرة: الغيرة كراهية مشاركة الآخرين، وإذا وصف الحق سبحانه بالغيرة، فمعناه: أنه لا يرضى بمشاركة غيره معه، فيما هو حق له من طاعة عبده. (الرسالة القشيرية ص٢٥٥).

والشمسُ ـ وإنْ عَلَتْ، والقمر ـ وإنْ حَسُنَ. . فلأجْلِكَ خلقناهما، فلا تسجدْ لهما، واسجُدْ لنَا.

ويقال: خَلقَ الملائكة ـ ومع كثرة عبادتهم، ومع تقدمهم في الطاعة ـ قال لهم: اسجدوا لآدم، وحين امتنع واحدٌ منهم لُعِنَ إلى الأبد. وقال لأولاد آدم العصاةِ المذنبين: ﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ فشتّان ما هما!!.

والحقُّ ـ سبحانه وتعالى ـ يأمرك بصيانة وجهك عن الشمس والقمر. . وأنت لأَجْلِ كلِّ حظِّ خَسِيسٍ تنقل قَدَمَكَ إلى كلِّ أحدٍ؛ وتدخل بمحياك عَلى كلِّ أحدٍ!!

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾.

أي إنْ تَرَفَّعَ الكفارُ فلا خَلَلَ؛ لأن الحقَّ غنيٌّ عن كل أحد، ثم إن الملائكة ـ الذين هم سكان الآخر ـ يسجدون له بالليل والنهار، وهم لا يسأمون من عبادته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الأرضُ تكون جَذْبةً يابسةً في الشتاء، فإذا نزل عليها المطرُ اهتزت بالنبات واخضرّت وكذلك القلوب إذا خشعت لاستشعارها بما ألمَّتْ به من الذنوب أقبل عليها الحق سبحانه، فظهرت فيها بركاتُ الندم، وعفا عن أربابها ما قصرُّوا في صِدْق القدَم. وكذلك إذا وقعت للعبد فترةٌ في معاملاته، أو غيبةٌ عن بساط طاعاته، ثم تغمَّده الحقُّ ـ سبحانه ـ بما يدخل عليه من التذكر تظهر في القلب أنوارُ الوفاق، فيعود إلى مألوف مقامه، ويرجع عود سداده غضًّا طرياً، ويصير شجر وفاقه ـ بعد ما أصابته الجدوبة ـ بماء العناية مستقياً.

وكذلك إذا بدت لأهل العرفان وقفة، أو حدثت لهم من جرَّاء سوء أدبٍ بَدَرَ منهم حجبةٌ ثم نظر الحقُّ ـ سبحانه ـ إليهم بالرعاية. . اهتزّت رياضُ أُنْسِهم، واخضرَّت مشاهدُ قربهم، وانهزمت وفودُ وقفتهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾: إن الذي أحيا الأرضَ بعد موتها قادرٌ على إحياء النفوس بالحشر والنشر. وكذلك هو قادر على إحياء القلوب بنور العناية بعد الفترة والحجبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

سيلقون من العذاب ما يستوجبونه. . فَلْيَعْمَلوا ما شاءوا. . فليسوا. . يَسْعَون إلَّا في ذَمِّهم، وليسوا يمشون إلا إلى هلاكهم بأقدامهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ﴾.

الجواب محذوف ومعناه: بقوا عنَّا، ووقعوا في هوانهم وشقوا إلى الأبد.

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ﴾: كتابٌ عزيزٌ لا مِثْلَ له حيث قد عجزوا عن الإتيان بمثله. كتابٌ عزيز غالبٌ لِشُبَهِ المبتدعين والكفار.

عزيزٌ لا يقدر على معارضته أحدٌ.. من قولهم أرض عزاز.

كتاب عزيزٌ لأنه كلامُ ربٌ عزيز إلى رسولٍ عزيزٍ بسفارة مَلَكٍ عزيزٍ إلى أُمَّةٍ عزيزة.

كتاب عزيزٌ على المؤمنين لأنه كتابُ حبيبِهم.. وكتابُ الحبيبِ إلى الحبيب عزيزٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

أي لا ينقضه كتابٌ آخر لا مما تقدَّمه من الكتب، ولا مما يأتي من بعده.. أي لا كتابَ بعده، ولا نسخَ له.

ويقال لا يدفع[١] معناه لفظَه، ولا يخالف لفظُه معناه..

ويقال لا يقدر أحدٌ أنْ يأتيَ بمثله.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾.

أصولُ التوحيدِ لا تختلف بالشرائع؛ فجوهرُها في الأحكام واحد: هو أنه تجب موافقة أوامره، واجتناب مزاجره. ثم إن الله تعالى قال في كل كتابٍ، وشَرَعَ لكل أمة أنْ يعرفوا أنه للمطيعين مُثيبٌ، وللكافرين ذو عذابٍ شديد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾.

أخبر أنه أزاح العِلَّةَ أَنْ يعرفَ صِدْقَ الدعوة، وصحة الشريعة.

ثم وصفَ الكتابَ بأنه شفاءٌ للمؤمنين، وسببُ شقاء للكافرين.

وهو شفاءٌ حيث استراحوا به عن كَدِّ الفكر وتحيُّر الخواطر.

وهو شفاءٌ لضيق صدور المريدين لما فيه من التنعم بقراءته، والتلذُّذ بالتفكُّر فيه.

---

(١) دفع الشيء: نحّاه ورده بقوة أو شاقه.

وهو شفاءٌ لقلوب المحبين من لواعِج الاشتياق لما به مَن لُطْفِ المواجيد.

وهو شفاءٌ لقلوب العارفين بما يتوالى عليها من أنوار التحقيق، وآثار خطاب الرب العزيز.

﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾: هم لا يسمعون بقلوبهم من الحق، ولا يستجيبون.. بقوا في ظلمات الجحد والجهل.

﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾: لا يزدادون على مر الأيام إلا ضلالاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾.

آتينا موسى التوراةَ، وأرسلناه إلى قومه، فاختلفوا في أمره.. فَمَنْ كَحَّلْنا سرَّه بنور التوحيد صَدَّقه، ومَنْ أعميناه عن مواقع البيان قابله بالتكذيب وجحده.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي أن عقوبتَهم في النار بعد قيام القيامة لَعَجَّلنا استئصالهم، ولأذقناهم في الحال وبالَهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

«فلنفسه» لأن النفعَ عائدٌ إليه. ومَنْ عمل عملاً سيئاً فإنما ظلَمَ نَفْسَه، وأساء إليها؛ لأنه هو الذي يقاصي ضرَّه ويلاقي شرَّه.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾.

لمَّا استعجلوا وقالوا: متى تقوم هذه القيامةُ التي يَتوَعَّدنا بها؟ قال الله تعالى: إنَّ علمَ القيامة ينفرد به الحقُّ فلا يعلمه غيره، فكما لا يعلم أحدٌ ما الذي يخرج من الأشجار من الثمار، وما الذي تنطوي عليه أرحامُ النساءِ من أولادها ذكوراً وإناثاً، وما هم عليه من أوصاف الخِلْقة، وما يحصل من الحيوانات من نتاجها ـ فلا يعلم هذه الأشياء إلا الله ـ فكذلك لا يعلم أحدٌ متى تقوم القيامة.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾: يتبرؤون من شركائهم، ولكن في وقت لا تنفعهم كثرةُ نَدَمِهم وبكائهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾.

لا يَمَلُّ الإنسانُ من إرادة النفع والسلامة، وإنْ مَسَّه الشرُّ فيئوسٌ لا يرجو زوالَه لِعَدَمِ علمه بربه، وانسداد الطريق على قلبه في الرجوع إليه[1].

(١) الآية (٤٨) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

لئن كَشَفْنا عنه البلاءَ، وأوجبنا له الرجاء لادَّعاه استحقاقاً أو اتفاقاً، وما اعتقد أن ذلك مِنَّا فضلٌ وإيجاب.

ويقول: لو كان حشرٌ ونشرٌ لكان لي من الله لطفٌ وخير، وغداً يعلم الأمر، وأنه بخلاف ما تَوَهَّمَ.. وذلك عندما نذيقه ما يستوجبه من عذاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾.

هو لا يميز بين البلاء والعطاء؛ فكثيرٌ مما يتوهمه عطاءً هو مكرٌ واستدراجٌ.. وهو يستديمه. وكثيرٌ مما فضلٌ وصَرْفٌ وعطاءٌ يظنه من البلاء فيعافُه ويكرهه.

ويقال إذا أنعمنا عليه صاحَبَه بالبَطَر، وإذا أبليناه قابَلَه بالضجر.

ويقال إذا أنعمنا عليه أُعجِبَ بنفسه، وتكبَّر مختالاً في زَهْوِه، لا يشكر ربَّه، ولا يذكر فضلَه، ويتباعد عن بِساط طاعته.

والمستغني عنَّا يهيم على وجهه، وإذا مسَّه الشرُّ فذو دعاءٍ كثيرٍ، وتضرُّعٍ عريض، وابتهالٍ شديد، واستكشافٍ دائم.

ثم إذا كشفنا عنه ذلك فله إلى عُتُوِّه ونُبُوِّه عَوْدٌ، ولسوء طريقته في الجحود إعادة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾.

﴿سَنُرِيهِمْ﴾: السين للاستقبال؛ أي سيُظهر لهم من الآيات، ومن الأحداث التي تجري في أحوال العالَم، وما سيحِلُّ بهم من اختلاف الأمور ما يتبيَّن لهم من خلاله أنَّ هذا الدِّين حقٌّ، وأنَّ هذا الكتابَ حقٌّ، وأن محمداً - ﷺ - حقٌّ، وأن المُجْرِيَ لهذه الآياتِ والأحداثِ والأمورِ والمنشِئ له هو الحقُّ - سبحانه.

ومن تلك الآيات ما كان من قَهْرِ الكفار، وعُلُوِّ الإسلام، وتلاشي أعداء الدين.

ويقال من تلك الآيات في الأفاق اختلافُ أحكام الأعين مع اتفاق جواهرها في

التجانس. . وهذه آيات حدوثِ العالَم، واقتضاء المُحدَثِ لصفاته.

﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾: من أمارات الحدوثِ واختلافِ الأوصاف ما يمكنهم إدراكه.

ويقال: ﴿فِي ٱلۡأٓفَاقِ﴾ للعلماء، ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ لأهل المعرفة مما يجدونه من العقاب إذا أَلَمُّوا بذَنْبٍ، ومن الثواب إذا أخلصوا في طاعة.

وكذلك ما يحصل لهم من اختلاف الأحوال من قبضٍ وبسط، وجمع وفَرْقٍ، وحجبٍ وجذبٍ. . وما يجدونه بالضرورة في معاملاتهم ومنازلاتهم.

﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾: هو الكافي، ولكنهم ـ أي الكفار ـ في مِرْيةٍ من لقاء ربهم في القيامة. والإشارة فيه: أن العوامَّ لَفي شكٍ من تجويز ما يُكَاشَفُ به أهلُ الحضورِ من تعريفات السرِّ.

﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾: عالِمٌ لا يَخْفَى عليه شيءٌ.

سورة الشورى

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

سلوةُ العاصين في سماع رحمةِ الله، وحظوةُ العابدين في رجائهم نعمةَ الله، وراحةُ الفقراء في رضاهم بقسمةِ الله. لكلٍ من حاله نصيب، وكلٌّ في مُتنَفَّسِه مُصيب.

قوله جلّ ذكره: ﴿حمٓ عٓسٓقٓ﴾.

الحاء مفتاح اسمه: حليم وحافظ وحكيم، والميم مفتاح اسمه: مَلِك وماجد ومجيد ومنَّان ومؤمن ومهيمن، والعين مفتاح اسمه: عالم وعدل وعالٍ، والعين مفتاح اسمه: سيِّد وسميع وسريع الحساب، والقاف مفتاح اسمه قادر وقاهر وقريب وقدير وقدوس.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أقسم بهذه الأسماء وهذه الحروف إنه كما أوحى إلى الذين مِنْ قَبْلِكَ كذلك يوحِي إليك العزيز الحكيم، كما أوحى إليهم العزيز الحكيم.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾.

له ما في السموات وما في الأرضِ مُلْكاً.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾: عُلُوُّه وعظمتُه استحقاقُه لأصاف المجد؛ أي وجوب أن يكون بصفات المجد والجلال.

قوله جلّ ذكره: (﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾

أي تكاد السموات تتشقق مِنْ عظمة مَنْ فوقهن وهو الله تعالى، والفوقية هنا فوقية رتبة؛ وذلك من شدة هيبتهن من الله.

ويقال مِنْ ثِقَلِ الملائكةِ الذين هم فوق السموات لكثرتهم. وفي الخبر: «أطت[1] السماء أطاً وحق لها أن تئط؛ ما مِنْ موضع قَدَمٍ في السموات إلا وعليه قائم أو راكع أو ساجد»[2].

---

(١) الأطيط: صوت الرحل والإبل من ثقل أحمالها. (اللسان ٧/ ٢٥٦ مادة: أطط).

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في المسند ٥/ ١٧٣).

ويقال إنه على عادة العرب إذا أخبروا عن شيء قالوا كادت السموات تنشقُّ له.. وهنا لُقبحِ قول المشركين ولجرأتهم على الله تعالى، ولعِظَم قولهم كادت السموات تنشقُّ. قال تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٩ ـ ٩١] وعلى هذا التأويل: ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي إلى أسفلهن، أي تتفطر جملتُها.

ومع أنَّ أولادَ آدم بهذه الصفة إلا أن الملائكة يسبحون بحمد ربهم لا يفترون، ويستغفرون لمن في الأرض.. ثم قال: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾: أي يغفر لهم مع كثرة عصيانهم. وفي الوقت الذي يرتكب فيه الكفارُ هذا الجُرْمَ العظيمَ بسبب شِرْكهم فإنه ـ سبحانه ـ لا يقطع رِزْقه ونَفْعَه عنهم ـ وإنْ كان يريد أنْ يعذِّبهم في الآخرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

المشركون اتخذوا الشياطينَ أولياءَ مِنْ دونه، وذلك بموافقتهم لها فيما توسوس به إليهم. وليس يخفى على الله أمرُهم، وسيعذبهم بما يستوجبونه. ولستَ ـ يا محمد ـ بمُسَلَّطٍ عليهم.

وفي الإشارة: كلُّ مَنْ يعمل بمتابعة هواه ويترك لله حدّاً أو ينقض له عهداً فهو يتخذ الشياطينَ أولياءَ، والله يعلمه، ولا يخفى عليه أمره، وعلى الله حسابه.. ثم إنْ شاء عذَّبه، وإن شاء غَفَرَ له.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾.

أنزلنا عليكَ قرآناً يُتْلَى بلغة بالعرب لتخوِّفَ به أهلَ مكة والذين حولَها. وجميعُ العالَم مُحْدِقٌ بالكعبة ومكة لأنها سُرَّةُ الأرضِ.

﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ تنذرهم بيوم القيامة. والإنذارُ الإعلامُ بموضع المخافة. ويوم الجمع ـ وهو اليوم الذي يُجْمَعُ فيه الخَلْقُ كلُّهم، ويُجْمَعُ بين المرءِ وعمله، وبين الجسد وروحه وبين المرء وشكله في الخير والشرّ ـ لا شكَّ في كَوْنه. وفي ذلك اليومِ فريقٌ يُبْعَثُ إلى الجنة وفريقٌ يحصل في السعير. وكما أنهم اليومَ فريقان؛ فريق في راحة الطاعات وحلاوة العبادات، وفريق في ظلمة الشِّرْكِ وعقوبة الجحد.. فكذلك غداً؛ فريقٌ هم أهل اللِقاء، وفريقٌ هم أهل الشقاء والبلاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

إنْ أراد أن يجمعَهم كلَّهم على الهدى والرشاد لم يكن مانع. . وإذاً لازَيْنَ لهم. ولو شاء أن يجمعَهم كُلَّهم على الفساد والعناد لم يكن دافع ـ وإذاً لاشينَ منه. وحيث خَلَقَهم مختلفين ـ على ما أراد ـ فلا مبالاة بهم. . إنه إله واحدٌ جبَّارٌ غيرُ مأمور، متولٍ جميع الأمور؛ من الخير والشر، والنفع والضر. هو الذي يحيي النفوسَ والقلوبَ اليومَ وغداً، ويميت النفوسَ والقلوبَ اليومَ وغداً. . وهو على كل شيءٍ قدير[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾: أي إلى كتاب الله، وسُنَّةِ نبيه ﷺ، وإجماعِ الأئمة، وشواهِد القياس. والعبرةُ بهذه الأشياء فهي قانون الشريعة، وجملتها من كتاب الله؛ فإنَّ الكتابَ هو الذي يدلُّ على صحة هذه الجملة.

ويقال: إذا لم تهتدوا إلى شيءٍ وتعارضت منكم الخواطر فَدَعُوا تدبيركم، والتجِئوا إلى ظلِّ شهود تقديره، وانتظِروا ما ينبغي لكم أن تفعلوه بحُكم تيسيره.

ويقال إذا اشتغلت قلوبكم بحديث أنفسكم؛ لا تدرون أبا لسعادة جَرَى حُكْمُكم أم بالشقاوة مضى اسمُكم؟ فَكِلُوا الأمرَ فيه إلى الله، واشتغلوا في الوقت بأمر الله دون التفكُّر فيما ليس لكم سبيل إلى عِلْمِه عن عواقبكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

خَلَقَ لكم من أنفسكم «أزواجاً»: أي أَشكالاً؛ فَخَلَقَ حواءَ مِنْ آدم. وخَلَقَ ـ بسبب بقاء التناسل ـ جميعَ الحيواناتِ أجناساً.

﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾: يُكثِر خَلْقَكم. «فيه» الهاء تعود إلى البطن أي في البطن، وقيل: في الرَّحِم، وقيل: في التزويج.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾: لأنه فاطر السموات والأرض، ولأنه لا مِثْلَ يُضارِعهُ، ولا شكلَ يشاكله. والكاف في ليس «كمثله» صلة أي ليس مثله شيء. ويقال: لفظ «مثل» صلة؛ ومعناه ليس كهُوَ شيءٌ. ويقال معناه ليس له مثل؛ إذ لو كان له مثل لكان كمثله شيء وهو هو، فلمَّا قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فمعناه ليس له مثل، والحقُّ لا شبيهَ له في ذاته ولا في صفاته ولا في أحكامه.

وقد وقع قومٌ في تشبيه ذاته بذات المخلوقين فوصفوه بالحدِّ والنهاية والكون في

---

(١) الآية (٩) لم ترد.

المكان، وأقبحُ قولاً منهم مَنْ وصفوه بالجوارح والآلات؛ فظنوا أن بَصَرَه في حدقة، وسَمْعَه في عضوٍ، وقدرته في يدٍ.. إلى غير ذلك.

وقومٌ قاسوا حُكْمَه على حُكْم عباده؛ فقالوا: ما يكون من الخَلْقِ قبيحاً فمنه قبيح، وما يكون من الخَلْق حسناً فمنه حَسَنٌ!! وهؤلاء كلهم أصحاب التشبيه ـ والحقُّ مستحِقٌّ للتنزيه دون التشبيه، مستحق للتوحيد دون التحديد، مستحق للتحصيل دون التعطيل والتمثيل.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

«مقاليد» أي مفاتيح، والمفاتيح للخزائن، وخزائنه مقدوراته. وكما أن في الموجودات معادن مختلفة فكذلك القلوب معادن جواهر الأحوال؛ فبعض القلوب معادن المعرفة، وبعضها معادن المحبة، وبعضها للشوق، وبعضها للأُنس.. وغير ذلك من الأحوال كالتوحيد والتفريد والهيبة والرضا. وفائدة التعريف بأن المقاليد له: أَنْ يقطع العبدُ أفكارَه عن الخَلْق، ويتوجَّه في طلب ما يرد من الله الذي ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾، والذي هو ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾: يوسِّع ويضيِّق أرزاقَ النفوسِ وأرزاقَ القلوب حسبما شاء وحَكَمَ وعَلِمَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾.

﴿شَرَعَ﴾: أي بَيَّنَ وأظهر. ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ أراد به أصول الدين؛ فإنها لا تختلف في جميع الشرائع، وأمَّا الفروع فمختلفة، فالآية تدلُّ على مسائلَ أحكامُها في جميعِ الشرائعِ واحدَةٌ.

ثم بيَّن ذلك بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾.. وفي القصة أن تحريم البنات والأخوات إنما شُرِعَ في زمان نوح عليه السلام.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾.

يعني أنهم أَصَرُّوا على باطلهم بعد وضوح البيان وظهور البرهان حين لا عُذْرَ ولا شكَّ. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾.. وهو أنه حَكَمَ بتأخيرِ العقوبةِ إلى يومِ القيامة لعَجَّل لهم ما يتمنونه..

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ

بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

أي أُدْعُ إلى هذا القرآن، وإلى الدين الحنيفي، واستقِمْ في الدعاء، وفي الطاعة. أَمَرَ الكُلَّ منَ الخَلْقِ بالاستقامة، وأفرده بذكر التزام الاستقامة.

ويقال: الألف والسين والتاء في الاستقامة للسؤال والرغبة؛ أي سَلْ مني أن أقيمك، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُۖ﴾: أمرت بالعدل في القضية، وبأن أُعْلِمَ أنَّ اللَّهَ إلهُ الجميع، وأنَّه يحاسِب غداً كلاً بعمله، وبأن الحجةَ لله على خَلْقِه، وبأن الحاجةَ لهم إلى مولاهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

يجادلون في الله من بعد ما استُجِيبَ لدعاء محمدٍ ﷺ يومَ بدرٍ على المشركين.

حُجَّةُ هؤلاء الكفار داحضة عند ربهم لأنهم يحتجون بالباطل، وهم من الله مستوجِبون للعنة والعقاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾.

أنزلَ الكتابَ، وأنزل الحُكْمَ بالميزان أي بالحق.

ويقال ألهمهم وزنَ الأشياء بالميزان، ومراعاةَ العدل في الأحوال.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾: يزجرهم عن طول الأمل، وينبههم إلى انتظار هجوم الأجَل.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾.

المؤمنون يؤمِنون بالبعث وما بعده من أحكام الآخرة، ويَكِلُون أمورَهم إلى الله؛ فلا يتمنون الموتَ حَذَرَ الابتلاء، ولكن إذا وَرَدَ الموتُ لم يكرهوه، وكانوا مستعدين له.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾.

﴿لَطِيفٌ﴾ أي عالم بدقائق الأمور وغوامضها. واللطيف هو المُلْطِف المحسن.. وكلاهما في وصفه صحيح. واللطف في الحقيقة قدرة الطاعة، وما يكون سبب إحسانه للعبد اليومَ هو لُطْفٌ منه به.

وأكثرُ ما يستعمل اللطف ـ في وصفه ـ في الإحسان بالأمور الدينية.

ويقال: خَاطَبَ العابدين بقوله: ﴿لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾: أي يعلم غوامضَ أحوالهم من دقيق الرياء والتصنُّع لئلا يُعْجَبُوا بأحوالهم وأعمالهم. وخاطَبَ العُصاةَ بقوله: «لطيف»: لئلا ييأسوا من إحسانه.

ويقال: خاطَبَ الأغنياءَ بقوله: «لطيف»: ليعلموا أنه يعلم دقائقَ معاملاتهم في جمع المال من غير وجهه بنوع تأويل، وخاطَبَ الفقراءَ. بقوله: «اللطيف» أي أنه مُحْسِنٌ يرزق من يشاء.

ويقال: سماعُ قوله: «اللَّهُ» يوجِبَ الهيبةَ والفزع، وسماعُ «لطيفٌ» يوجِبُ السكونَ والطمأنينة. فسماعُ قوله: «اللَّهُ» أوجب لهم تهويلاً، وسماع قوله: «لطيفٌ» أوجب لهم تأميلاً.

ويقال: اللطيفُ مَنْ يعطي قَدْرَ الكفاية وفوق ما يحتاج العبدُ إليه.

ويقال: مَنْ لُطفِه بالعبد عِلْمُه بأنه لطيف، ولولا لُطفُه لَمَا عَرَفَ أنه لطيف.

ويقال: مِنْ لُطْفِه أنه أعطاه فوق الكفاية، وكَلَّفَه دون الطاقة.

ويقال: مِنْ لطفه بالعبد إبهام عاقبته عليه؛ لأنه لو علم سعادتَه لاتَّكَلَ عليه، وأَقَلَّ عملَه ولو عَلِمَ شقاوتَه لأيِسَ ولَتَرَكَ عَمَلَه. . فأراده أن يستكثرَ في الوقت من الطاعة.

ويقال: من لطفه بالعبد إخفاءُ أَجَلِه عنه؛ لئلا يستوحش إن كان قد دنا أَجَلُه.

ويقال: من لطفه بالعبد أنه يُنْسِيَه ما عمله في الدنيا من الزلّة؛ لئلا يتنغَّص عليه العَيْشُ في الجنة.

ويقال: اللطيفُ مَنْ نَوَّر الأسرارَ، وحفظ على عبده ما أَوْدَعَ قلبَه من الأسرار، وغفر له ما عملَ من ذنوبٍ في الإعلان والإسرار.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ﴾: نَزِدْه ـ اليومَ ـ في الطاعات توفيقاً، وفي المعارف وصفاء الحالات تحقيقاً. ونَزِدْه في الآخرة ثواباً واقتراباً وفنونَ نجاةٍ وصنوفَ درجاتٍ.

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾: مكتفياً به نؤتِه منها ما يريد، وليس له في الآخرةِ نصب.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾: أي ليس ذلك مما أمَرَ به، وإنما هو افتراءٌ منهم.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾.. أي ما سبق به الحُكْمُ بتأخير العقوبة إلى القيامة..

قوله جلّ ذكره: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾.

إذا حصل الإجرام فإلى وقتٍ ما لا يُعَذِّبُهم الله في الغالب، ولكنه لا محالةَ يعذبهم. وربما يَثْبُتُ ذلك لبعض أصحاب القلوب فيتأسَّفون، ويعلمون أنَّ ذلك من الله لهم مُعَجَّلٌ قد أصابهم، أمَّا الكفار.. فغداً يُشْفِقُون مما يقع بهم عند ما يقرؤونه في كتابهم، لأنَّ العذابَ ـ لا محالةَ ـ واقعٌ بهم.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾: في الدنيا جنان الوصلة، ولذاذة الطاعة والعبادة، وطيب الأُنْسِ في أوقات الخلوة. وفي الآخرة في روضات الجنة: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: إنْ أرادوا دوامَ اللطفِ دامَ لهم، وإنْ أرادوا تمامَ الكشف كان لهم.. ذلك هو الفضلُ الكبير.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

ذلك الذي يُبَشِّرُ اللَّهُ عبادَه قد مضى ذِكْرُه في القرآن متفرقاً؛ من أوصاف الجنة وأطايبها، وما وَعَدَ اللَّهُ من المثوبة.. ونحو ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾.

قُلْ ـ يا محمد ـ لا أسألكم عليه أجراً. مَنْ بَشَّرَ أحداً بالخير طَلَبَ عليه أجراً، ولكنَّ اللَّهَ ـ وقد بَشَّرَ المؤمنين على لسان نبيِّه بما لهم من الكرامات الأبدية ـ لم يطلب عليه أجراً؛ فاللَّهُ ـ سبحانه ـ لا يطلب عِوَضاً، وكذلك نبيُّه ـ ﷺ ـ لا يسأل أجراً؛ فإن المؤمنَ قد أخذ من الله خُلُقَاً حَسَناً.. فمتى يطلب الرسولُ منهم أجراً؟! وهو ـ صلوات الله عليه ـ يشفع لكلِّ مَنْ آمن به، والله ـ سبحانه ـ يعطي الثوابَ لكل مَنْ آمن به.

﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾: أراد أن تثبت مودتك في القربى؛ فتودّ منْ يتقرَّب إلى الله في طاعته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

تضعيف الثواب في الآخرة للواحدِ من عَشَرَة إلى سبعمائة.. هذه هي الزيادة.

ويقال: الزيادة هي زيادة التوفيق في الدنيا.

ويقال: إذا أتى زيادة في المجاهدة تفضّلْنا بزيادة.. وهي تحقيق المشاهدة.

ويقال مَنْ يقترِفْ حسنةَ الوظائف نَزِدْ له فيها حُسْنَ اللطائف.

ويقال: تلك الزيادة لا يصل إليها العبدُ بوسعه؛ فهي مما لا يدخل تحت طَوْقِ البَشَر.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

أي أنَّك إنْ افترَيْته خَتَمَ اللَّهُ على قلبِكَ، ولكنكَ لم تكذِبْ على ربِّكَ.

ومعنى الآية أنَّ اللَّهَ يتصرَّف في عباده بما يشاء: مِنْ إبعادٍ وتقريب، وإدناء وتبعيد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

﴿وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الألف واللام للجنس مطلقاً، وهي هنا للعهد؛ أي تلك السيئات التي تكفي التوبةُ المذكورةُ في الشريعة لقبولها؛ فإنه يعفو عنها إذا شاء. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾: من الأعمال على اختلافها.

وهو «الذي»..: الذي من الأسماء الموصولة التي لا يتم معناها إلا بِصِلَةٍ، فهو قد تعرَّف إلى عباده على جهة المدح لنفسه بأنه يقبل توبة العبد؛ فالزَّلَّةُ ـ وإن كانتْ توجِبُ للعبد ذميمَ الصِّفَةِ ـ فإنَّ قبولَها يوجِبُ للحقِّ حميدَ الاسم.

ويقال: قوله: «عباده» اسم يقتضي الخصوصية (لأنه أضافه إلى نفسه)(١) حتى تمنَّى كثير من الشيوخ أن يحاسبه حسابَ الأولين والآخرين لعلّه يقول له: عبدي. ولكن ما طلبوه فيما قالوه موجود في ﴿ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾؛ وإذاً فلا ينبغي لهم أن يتمنوا كذلك، وعليهم أن يتوبوا لكي يَصِلوا إلى ذلك.

ويقال لمَّا كان حديثُ العفوِ عن السيئات ذكَرَها على الجمع والتصريح فقال: ﴿وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾. ثم لمَّا كان حديثُ التهديد قال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ فذكره على التلويح؛ فلم يقل: ويعلم زلَّتك ـ بل قال ويعلم «ما» تفعلون، وتدخل في ذلك الطاعةُ والزّلّةُ جميعاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ﴾.

(أي إذا دَعَوْه استجابَ لهم)(٢) بعظيم الثواب في الآخرة.

﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ﴾ يقول المفسرون من أهل السُّنَّة في هذه الزيادة إنها الرؤية.

---

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

ذَكَرَ التوبة وأهلها، وذكر العاصين بوصفهم، ثم ذكر المطيعين الذين آمنوا وعملوا الصالحات. . فلمَّا وصل إلى الزيادة ـ التي هي الرؤية ـ قال: «ويزيدهم» على الجمع؛ والكناية إذا تَلَتْ مذكوراتٍ رجعت إليها جميعاً؛ فيكون المعنى أن الطاعاتِ في مقابلها الدرجات، وتكون بمقدارها في الزيادة والنقصان، وأَمَّا الرؤية فسبيلها الزيادة والفضل. . والفضلُ ليس فيه تمييز.

ويقال: لِمَّا ذكر أنَّ التائبين تُقْبَلُ توبتُهم، ومَنْ لم يَتُبْ غفر زلَّته، وأنَّ المطيعين لهم الجنة. . فلربما خَطَرَ ببالِ أَحَدٍ: وإذاً فهذه النارُ لِمَنْ هي؟! فقال جل ذكره:

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

فالعصاةُ من المؤمنين لهم عذابٌ. . أمَّا الكافرون فلهم عذابٌ شديدٌ؛ لأنَّ دليلَ الخطاب يقتضي هذا وذاك؛ يقتضي أن المؤمنين لهم عذابٌ. . ولكنْ ليس بشديد، وأمَّا عذابُ الكافرين فشديدٌ.

ويقال: إن لم يَتُبْ العبدُ خوفاً من النار، ولا طمعاً في الجنة لَكَان من حقِّه أن يتوب ليَقْبَلَ الحقُّ ـ سبحانه.

ويقال إن العاصي يكون أبداً منكسرَ القلب، فإذا عَلِمَ أن اللَّهَ يَقْبَلُ الطاعة من المطيعين يتمنى أَنْ ليت له طاعةٌ مُيَسَّرَةً ليقبلَها، فيقول الحقُّ: عبدي، إنْ لم تَكُنْ لك طاعةٌ تصلح للقبول فَلَكَ توبةٌ إنْ أتيتَ بها تصلح لقبولها.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾.

هذا الخطاب في الظاهر يشبه الاعتذار في تخاطب الآدميين. والمعنى: أنني لم أبسط عليكَ أيها الفقيرُ في الدنيا لِمَا كان لي من العلم أنني لو قَسَمْتُ عليك الدنيا لَطَغَيْتَ، ولسَعَيْتَ في الأرض بالفساد.

ويقال: قوله: «ولكن. .»: لكن كلمة استدراك، فالمعنى: لم أُوَسِّعْ عليكَ الرزقَ بمقدار ما تريد؛ ولم أمنع عنك (الكُلَّ)؛ لأني أُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما أشاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

الله ـ سبحانه مُحْيِي القلوب؛ فكما أنه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾، فبعدما أصابت الأرضَ جدوبةٌ، وأبطأ نزولُ الغيثِ، وقَنِطَ الناسُ من مجيء المطر، وأشرفَ الوقتُ على حدِّ الفَواتِ يُنَزِّلُ اللَّهُ بفضله الغيثَ، ويحيي الأرضَ بعد قنوطِ أهلها. . فكذلك العبد؛ إذا ذَبُلَ غُصْنُ وقته، وتكدَّرَ صَفْوُ وِدِّه،

وكسفت شمسُ أُنسِه، وبَعُدَ عن الحضرةِ وساحاتِ القرب عَهْدُه فلربما ينظر إليه الحقُّ برحمته؛ فينزل على سِرِّه أمطارَ الرحمة، ويعود عودُه طريًّا، ويُنْبِتُ في مشاهد أُنْسِه ورداً جَنِيًّا. . وأنشدوا:

إنْ راعني منك الصدود فلعلَّ أيامي تعود
ولعلَّ عهدك باللِّوى يحيا فقد تحيا العهود
والغصن ييبس تارة وتراه مُخْضرًا يميد[1]

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾.

جعل اللَّهُ في كلِّ شيءٍ من المخلوقات دلالةً على توحُّدِه في جلاله، وتفرُّدِه بنعت كبريائه وجماله.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾: والإشارة منها أَنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ يغار على أوليائه أن يَسْكَنَ بعضُهم بقلبه إلى بعضٍ؛ فأبداً يُبَدِّدُ شمْلَهم، ولا تكاد الجماعةُ من أهل القلوب تتفق في موضعٍ واحد إلا نادراً، وذلك لمدةٍ يسيرة. . كما قالوا:

رمى الدهرُ بالفتيان حتى كأنَّهم بأكنافِ أطرافِ السماءِ نجومُ

وفي بعض الأحايين قد يتفضَّل الحقُّ عليهم فتدنو بهم الديار، ويحصل بينهم ـ في الظاهر ـ اجتماعٌ والتقاءٌ، فيكون في ذلك الوقت قد نظر الحقُّ ـ سبحانه ـ بفضله إلى أنَّ في اجتماعهم بركاتٍ لحياة العالَم.

وهذا ـ وإن كان نادراً ـ فإنه على جَمْعِهم ـ إذا يشاء ـ قدير.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾.

إذا تحقَّق العبدُ بهذه الآية فإنه إذا أصابته شظيةٌ أو حالةٌ مما يسوءُه، وعلِمَ أن ذلك جزاءٌ له، وعقابٌ على ما بَدَرَ منه من سوءِ الأدب لاستحيى بخجلته مِنْ فِعْلِه، ولَشغَلَه ذلك عن رؤية الناس، فلا يحاول أن ينتقمَ منهم أو يكافئَهم أو يدعوَ عليهم، وإنما يشغله تلافي ما بَدَرَ منه من سوءِ الفعلِ عن محاولة الانتصاف لنفسه ممن يتسلَّط عليه من الخَلْق. . تاركاً الأمرَ كلَّه لربِّه.

ويقال: إذا كَثُرَت الأسبابُ من البلايا على العبد، وتوالى عليه ذلك. . فَلْيُفَكِرْ في أفعاله المذمومة. . كم يحصل منه حتى يبلغَ جزاء ما يفعله ـ مع العفو الكثير ـ هذا!

---

(١) يميد: يتمايل.

المبلغ؟! فعند ذلك يزداد حُزْنه وتأسُّفه؛ لِعِلْمِه بكثرة ذنوبه ومعاصيه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾.

يريد بها السفن التي تجري في البحار؛ يرسل اللَّهُ الريحَ فتُسَيِّرها مرةً، ويُسَكِّنها أخرى، وما يريهم خلال ذلك من الهلاك أو السلامة.. وهو بهذا يَحُثُّهم على التفكُّر والتنبُّه دائماً.

والإشارة في هذا إلى إمساك الناس في خلال فَتْرَةِ الوقت عن الأنواء المختلفة، وحفظهم في إيواء السلامة، فالواجبُ الشكرُ في كل حالة، وإذا خَلُصَ الشكرُ استوجب جزيلَ المزيد(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

يعني أنَّ الراحاتِ في الدنيا لا تصفو، ومن المشائب لا تخلو. وإنْ اتفق وجودُ البعض منها في أحايين فإنها سريعة (الزوال)، وشيكة الارتحال.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب الموعود «خيرٌ» من هذا القليل الموجود.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾.

﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾: الشِرْك. و ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾: ما دون ذلك من الزلَّات. فإذا تركوها لا يتجرَّعون كاساتِ الغضب بل تسكن لديهم سَوْرَةُ النَّفْسِ؛ لأنهم يتوكلون على ربهم في عموم الأحوال.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

﴿ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾: فيما دعاهم إليه وما أَمَرَهم به من فنون الطاعات؛ فهؤلاء هم الذين لهم حُسْنُ الثوابِ وحميدُ المآبِ.

والمستجيبُ لربِّه هو الذي لا يبقى له نَفَسٌ إلا على موافقة رضاه، ولا تَبْقَى منه لنَفْسِه بقية.

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾: لا يستبدُّ أحدُهم برأيه؛ لأنه يَتَّهِمُ أمرَه ورأيَه أبداً ثم إذا أراد القطعَ بشيءٍ يتوكل على الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾.

«البغيُ»: الظلمُ، فيعلم أحدهم أن الظلمَ الذي أصابه هو من قِبَلِ نَفْسِه، فينتصر

---

(١) الآيات من (٣٣ حتى ٣٥) لم ترد.

على الظالم وهو نفسه؛ بأَنْ يكبحَ عنانها عن الركض في ميدان المخالفات.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

(يعني لا تجاوزوا حدَّ ما جنى الجاني عليكم في المكافأة أو الانتقام).

﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾: مَنْ عفا عن الجاني، وأصلح ما بينه وبين الله ـ أَصلَح اللَّهُ ما بينه وبين الناسِ. ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾: فالذي للعبد من الله وعلى الله، وعند الله خيرٌ مما يعمله باختياره.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

عَلِمَ الله أن الكُلَّ من عباده لا يجد التحررَ من أحكام النَّفْس، ولا يتمكن من محاسن الخُلُق فرخَّص لهم في المكافأة على سبيل العدل والقسط ـ وإنْ كان الأَوْلى بهم الصفح والعفو.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ..﴾: السبيلُ بالملامة لِمَنْ جاوز الحدَّ، وعدا الطَّوْرَ، وأتى غيرَ المأذونِ له من الفعل.. فهؤلاء لهم عذابٌ أليم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾.

صَبَرَ على البلاءِ من غير شكوى، وغَفَرَ ـ بالتجاوز عن الخَصْم ـ ولم تبقَ لنَفْسِه عليه دعوى، بل يُبرىء خَصْمَه من كل دعوى، في الدنيا والعُقبى... فذلك من عزم الأمور.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾.

إنَّ الذين أضلَّهم اللَّهُ، وأعمى أبصارَهم وبصائرَهم، وأوقعهم في كدِّ عقوبتهم، وحَرَمَهم بَرْدَ الرضا لحكْم ربِّهم ليس لهم وليٌّ من دون الله، ولا مانعَ لهم من عذابه. وتراهم إذا رأوا العذابَ يطلبون منه النجاة فلا ينالونها.

وتراهم يُعْرَضُون على النار وهم خاشعون من الذُّلِّ؛ لا تنفعهم ندامةٌ، ولا تُسْمَعُ منهم دعوةٌ، ويُعَيِّرُهم المؤمنون بما ذَكَّروهم به فلا يسمعون، فاليومَ لا ناصرَ ينصرهم، ولا راحمَ يرحمهم(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ﴾.

---

(١) الآيتان (٤٥، ٤٦) لم تردا.

الاستجابةُ لله الوفاءُ بعهده، والقيامُ بحقِّه، والرجوعُ عن مخالفته إلى مرافقته، والاستسلام.

في كل وقتٍ لحُكْمِهِ. والطريقُ اليومَ إلى الاستجابة مفتوحٌ. وعن قريبٍ سيُغْلَقُ البابُ على القلب بغتةً، ويُؤْخَذُ فلتةً.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾.

فإن أعرضوا عن الإجابة فليس عليك إلا تبليغُ الرسالة، ثم نحن أعلمُ بما نعاملهم به.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾.

إذا أذقنا الإنسان مِنَّا رفاهيةً ونعمةً فَرِحَ بتلك الحالة، وقابلها بالبَطَرِ، وتوصَّل بتمام عافيته إلى المخالفة، وجعل السلامةَ ذريعةً للمخالفة. وإنْ أصابته فتنةٌ وبلية، ومَسَّتْهُ مصيبةٌ ورزية فإنه كفورٌ بنعمائنا، جحودٌ لآياتنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ . . .﴾.

يهب لمن يشاء الذكور، ولمن يشاء الإناث، ولمن يشاء الجنين، ويجعل من يشاء عقيماً، فلا اعتراضَ عليه في تقديره، ولا افتياتَ في اختياره، فهو أَوْلَى بعباده من عباده[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.

لله بحقِّ مُلْكِه أن يفعل ما يشاء، ويعطي مَنْ يشاء مِنْ عباده ما يشاء، ولكن أجرى العادة وحَكَم بأنه لا يفعل إلا ما وَرَدَ في هذه الآية؛ فلم يُكَلِّم أحداً إلا بالوحي، أو من وراء حجاب؛ يعني وهو لا يرى الحقَّ، فالمحجوبُ هو العبد لا الرب، والحجابُ أن يخلق في محل الرؤية ضد الرؤية.. تعالى اللَّهُ عن أن يكونَ من وراء حجاب؛ لأن ذلك صفةُ الأجسام المحدودة التي يُسْبَلُ عليها ستر. إنه «عَلِيٌّ»: في شأنه وقَدْرِه، «حكيمٌ»: في أفعاله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

---

(١) الآية (٥٠) لم ترد.

أي ذلك مثلما أوحينا إليك «روحاً» من أمرنا يعني القرآن؛ سَمَّاه روحاً لأنه مَنْ آمن به صار به قلبُه حَيًّا.

ويقال: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾: أي جبريل عليه السلام، ويسمى جبريل روح القدس.

﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ..﴾: ما كنت تدري قبل هذا ما القرآن، «ولا الإيمان»: أي تفصيل هذه الشرائع.

﴿وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ﴾: أي القرآن «نوراً» نهدي به مَنْ نشاء من عبادنا المؤمنين.

﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾: لأن منه ابتداء الأمور.

سورة الزُّخرف

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

بسم «الله»: اسمٌ عزيزٌ مَنْ وَثِقَ بجُودِه وكَرَمِه لم يُعَلِّقْ بغيره صواعدَ هِمَمِه، ولم يَقِف على سُدَّةِ مخلوقٍ بِقَدَمِهِ في ابتغاءِ كَرَمِهِ. اسمٌ عزيزٌ مَنْ عَوَّدَه خفايا لُطْفِه لم يتذلّلْ في طَلَب شيءٍ مِنْ غيرِه، ولم يَرْجِع إلى غيره في شَرِّه وخَيْرِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿حمٓ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾.

الحاءُ تدل على حياته والميمُ على مجده.. وهذا قَسَمٌ؛ ومعناه: وحياتي ومجدي وهذا القرآنِ إنَّ الذي أخبرْتُ عن رحمتي بعبادي المؤمنين حقٌ وصِدْقٌ. وجعلناه قرآناً عربياً ليتيسَّرَ عليكم فَهْمُ معناه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.

﴿فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا﴾: أي أنه مكتوب في اللّوح المحفوظ.

﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ لِعَلِيُّ القَدْرِ، حكيمُ الوصفِ؛ لا تبديلَ له ولا تحويل.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ﴾.

أي أننا لا نفعل ذلك؛ (فيكون معنى الاستفهام)[1] أفنقطع عنكم خطابَنا وتعريفَنا إنْ أسرفتم في خلافكم؟ لا... إننا لا نرفع التكليفَ بِأَنْ خالَفْتُم، ولا نهجركم ـ بِقَطْع الكلام عنكم ـ إنْ أسرفتم.

وفي هذا إشارةٌ لطيفةٌ وهو أنه لا يقطع الكلامَ ـ اليومَ ـ عَمَّنْ تمادَى في عصيانه، وأسرف في أكثر شأنه. فأحرى أنَّ مَنْ لم يُقَصِّرْ في إيمانه ـ وإنْ تَلَطَّخَ بعصيانه، ولم يَدْخُلْ خَلَلٌ في عِرفانه ـ ألا يَمْنَعَ عنه لطائفَ غفرانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

ما أتاهم من رسولٍ فقابلوه بالتصديق، بل كَذَّبَ به الأكثرون وجحدوا، وعلى غَيِّهم أَصَرُّوا...

---

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾.

أي لم يُعجِزْنا أحدٌ منهم، ولم نعادِرْ منهم أحداً، وانتقمنا مِنَ الذين أساؤوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

كانوا يُقِرُّون بأنَّ اللَّهَ خالقُهم، وأنه خَلَقَ السمواتِ والأرضَ، وإنما جحدوا حديثَ الأنبياءِ، وحديثَ البعثِ وجوازه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

كما جَعَلَ الأرضَ قراراً لأشباحهم جَعَلَ الأشباحَ قراراً لأرواحهم؛ فالخَلْقُ سُكَّانُ الأرضِ، فإذا انتهت المدةُ ـ مدةُ كَوْنِ النفوسِ على الأرضِ ـ حَكَمَ اللَّهُ بخرابها.. كذلك إذا فارقت الأرواحُ الأشباحَ بالكُلِّيَّة قضى اللَّهُ بخرابها.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

يعني كما يُحْيي الأرضَ بالمطرِ يُحْيي القلوبَ بحُسن النَّظَر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾.

أي الأصنافَ من الخَلْق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾.

كذلك جَنَّسَ عليكم الأحوالَ كلها؛ فمِنْ رغبةٍ في الخيرات إلى رهبةٍ مما توعدُكم به من العقوبات. ومن خوفٍ يحملكم على تَرْكِ الزلَّات إلى رجاءٍ يبعثكم على فعل الطاعات طمعاً في المثوبات.. وغير ذلك من فنون الصِّفات.

﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾.

يعني الفُلْكَ والأنعام..

﴿ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾.

مطيعين، وكما سَخَّرَ لهم الفُلْكَ في البحر، والدوابَّ للركوب، وأعظم عليهم المنة بذلك فكذلك سَهَّلَ للمؤمنين مركب التوفيق فَحَمَلَهم عليه إلى بساط الطاعة، وسَهَّلَ للمريدين مركبَ الإرادة فَحَمَلَهم عليه إلى عَرَصَات الجود، وسَهَّل للعارفين مركبَ الهِمَمِ فأناخوا بعِقْوةِ العِزَّةِ. وعند ذلك مَحَطُّ الكافة؛ إذ لم تخرق سرادقاتِ

العزَّةِ هِمَّةُ مخلوقٍ: سواء كان مَلَكاً مُقرَّباً أو نبيًّا مُرْسَلاً أو وليًّا مُكَرَّماً، فعند سطواتِ العِزَّةِ يتلاشى كلُّ مخلوقٍ، ويقف وراءَها كلُّ مُحْدَثٍ مسبوق[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾.

هم الذين قالوا: الملائكةُ بناتُ الله؛ فجعلوا البناتِ لله جزءاً على التخصيص من جملة مخلوقاته.. تَعَساً لهم في قولهم ذلك وخِزياً!! فردَّ عليهم ذلك قائلاً:

﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾.

قال لهم على جهة التوبيخ، وعابهم بما قالوا؛ إذ ـ على حدّ قولهم ـ كيف يُؤْثِرُهم بالبنين ويجعل لنفسه البنات؟! ففي قولهم ضلالٌ؛ إذ حكموا للقديم بالوَلَد. وفيه جهلٌ؛ إذ حكموا له بالبنات ولهم بالبنين ـ وهم يستنكفون من البنات.. ثم.. أي عيب في البنات؟ ثم.. كيف يحكمون بأن الملائكة إناثٌ ـ وهم لم يشاهدوا خِلْقَتَهم؟

كلُّ ذلك كان منهم خطأً محظوراً[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

إنما قالوا ذلك استهزاءً واستبعاداً لا إيماناً وإخلاصاً فقال تعالى: ﴿مَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ ولو عَلِمُوا ذلك وقالوه على وجه التصديق لم يكن ذلك منهم معلولاً.

ثم قال: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾.

أي ليس كذلك، حتى أخبر أنهم ركنوا إلى تقليدٍ لا يُفْضي إلى العلم، فقال:

﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾.

فنحن نقتدي بهم، ثم قال:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾.

سلكوا طريقَ هؤلاء في التقليد لأسلافهم، والاستنامةِ إلى ما اعتادوه من السِّيرة والعادة.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾.

---

(١) الآية (١٤) لم ترد.

(٢) الآيات من (١٧ حتى ١٩) لم ترد.

فلم ينجعْ فيهم قولُه، ولم ينفعهم وَعْظُه، وأَصرُّوا عَلَى تكذيبِهم، فانتقمَ الحقُّ - سبحانه - منهم كما فعل بالذين من قبلهم[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾.

أخبر أَنَّ إبراهيمَ لمَّا دعا أباه وقومَه إلى الله وتوحيده أَبَوْا إلَّا تكذيبَه؛ فتبرَّأَ منهم بأجمعِهم، وجعلَ اللَّهُ كلمةَ التوحيدِ باقيةً في عَقِبِه وقومه[٢].

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾

أَرْخَيْنَا عنانَ إمهالهم مدةً، ثم كان أمرُهم أَنْ انتصرْنا منهم، ودَمّرْناهم أجْمعين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

إمّا أبي مسعود الثقفي[٣] أو أبي جهل، وهذا أيضاً من فرْط جهلهم.

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

أهم يَقْسمون - يا محمد - رحمةَ ربك في التخصيص بالنبوة؟ أيكون اختيارُ اللَّهِ - سبحانه - عَلَى مقتضى هواهم؟ بئس ما يحكمون!

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم....﴾ فلم نجعل القسمة في الحياة الدنيا لهم... فكيف نجعل قسمة النبوة إلى هؤلاء؟!...

والإشارة من هذا: أن الحقَّ - سبحانه - لم يجعل قسمةَ السعادةِ والشقاوةِ إلى أحد، وإنما المردودُ مَنْ ردّه بحكمه وقضائه وقَدَرِه، والمقبولُ - من جملة عباده - مَنْ أراده وقَبِلَه... لا لِعلَّةٍ أَو سبب، وليس الردُّ أو القبولُ لأمرٍ مُكتَسب...

ثمَّ إنه قَسَمَ لِبعْضِ عِباده النعمةَ والغنى، وللبعض القلّةَ والفقر، وجعل لكلِّ واحدٍ منهم سكناً يسكنون إليه يستقلون به؛ فللأغنياء وجودُ الإنعام وجزيل الأقسام.. فشكروا واستبشروا، وللفقراء شهودُ المُنعم والقَسّام.. فَحَمدوا وافتخروا. الأغنياءُ وجدوا النعمة فاستغنوا وانشغلوا، والفقراء سمعوا قوله: «نحن» فاشتغلوا.

---

(١) الآية (٢٥) لم ترد. (٢) الآيتان (٢٧، ٢٨) لم تردا.

(٣) هو عروة بن مسعود بن معتب الثقفي (...- ٩ هـ = ... - ٦٣٠م) صحابي مشهور، كان كبيراً في قومه بالطائف، ولما أسلم استأذن النبي ﷺ أن يرجع إلى قومه يدعوهم للإسلام، فقال: أخاف أن يقتلوك. قال: لو وجدوني نائماً ما أيقظوني، فأذن له، فرجع، فدعاهم إلى الإسلام فخالفوه، ورماه أحدهم بسهم فقتله.
الأعلام ٤/ ٢٢٧، والإصابة ت٥٥٢٨، ورغبة الآمل ٥/ ٣٠.

وفي الخبر أن النبي ﷺ قال للأنصار: «أما ترضون أن يرجع الناس بالغنى؛ وأنتم ترجعون بالنبي إلى أهليكم؟».

﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا..﴾: لو كانت المقاديرُ متساويةً لتَعطَّلت المعايشُ، ولَبَقِيَ كلٌّ عندَ حاله؛ فجعل بعضَهُم مخصوصين بالرَّفَه والمال، وآخرين مخصوصين بالفقر ورقة الحال.. حتى احتاج الفقيرُ في جَبْرِ حاجته إلى أَنْ يعملَ للغنيِّ كي يرتفق من جهته بأجرته فيَصْلُحُ بذلك أمرُ الغنيِّ والفقير جميعاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾.

معنى الآية أنه ليس للدنيا عندنا خطر؛ فالذي يبقى عنَّا لو صَبَبْنا عليه الدنيا بحذافيرها لم يكن ذلك جبراناً لمصيبته. ولولا فتنة قلوب المؤمنين لجعلنا لبيوتهم سُقُفاً من فضة ومعارجَ من فضة، وكذلك ما يكون شبيهاً بهذا.

ولو فعلنا.. لم يكن لِمَا أعطيناه خَطَرٌ؛ لأنَّ الدنيا بأَسْرِها ليس لها عندنا خطر(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾.

مَنْ لم يعرف قَدْرَ الخلوة مع اللّهِ فحادَ عن ذكره، وأَخلدَ إلى الخواطر الرديَّة فيَّضَ اللّهُ له مَنْ يَشْغَلُه عن الله ـ وهذا جَزاءُ مَنْ تَرَك الأدبَ في الخلوة. وإذا اشتغل العبدُ في خلوته بربِّه.. فلو تعرَّض له مَنْ يشغله عن الله ـ وهذا جَزاءُ مَنْ تَرَكَ الأدبَ في الخلوة. وإذا اشتغل العبدُ في خلوته بربِّه. فلو تعرَّض له مَنْ يشغله عن ربه صَرَفه الحق عنه بأي وجهٍ كان، وصَرَفَ دواعيه عن مفاتحته بمَا يشغله عن الله.

ويقال: أصعبُ الشياطين نَفْسُكَ؛ والعبدُ إذا لم يَعْرِفْ خَطَرَ فراغ قلبه، واتَّبَعَ شهوته، وفتح ذلك البابَ عَلَى نَفْسه بقي في يد هواه أسيراً لا يكاد يتخلَّصُ عنه إلا بعد مُدَّة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾.

الذي سوّلت له نَفْسُه أمراً يَتَوَهَّمُ أنه على صواب، ثم يحمل صاحبَه على موافقته في باطله، ويدّعي أنه على حقٍّ. وهو بهذا يَضُر بنَفْسِه ويضر بغيره. ثم إذا ما انكشف ـ غداً ـ الغطاء تبيَّن صاحبُه خيانَته، ونَدِمَ على صُحْبَتِه، ويقول: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ

(١) الآيتان (٣٤، ٣٥) لم تردا.

﴿فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٨] و ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾. ولكنَّ هذه الندامة لا تنفعُ حينئذٍ؛ لأنّ الوقتَ يكونُ قد فات، لهذا قال تعالى:

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِي ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

هذا الاستفهام فيه معنى النفي؛ أي أنه ليس يمكنُكَ هداية مَنْ سَدَدْنا بصيرته، ولبَّسْنا عليه رُشْدَه، ومَنْ صَبَبْنا في مسامع فَهمه رصاصَ الشقاء والحرمان... فكيف يمكنك إسْمَاعه؟!

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾.

يعني: إنْ انقضى أَجَلُكَ ولم يتفق لكَ شهودُ ما نتوّعَدُهم به فلا تتوَهَّمْ أَنَّ صِدْقَ كلامنا يشوبه مَيْنٌ، فإنّ ما أخبرناك عنه ـ لا محالة ـ سيكون.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾.

أَثبتَهُ عَلَى حدِّ الخوفِ والرجاء، ووقَفَهُ عَلَى وصفِ التجويز لاستبداده ـ سبحانه بعلم الغيب. والمقصود كذلك أن يكونَ كلُّ أحد بالنسبة لأمر الله من جملة نظارة التقدير ـ فاللّهُ يفعل ما يريد.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

اجتهِدْ من غير تقصير وتوكّلْ على اللّهِ من غير فُتور، وقِفْ حيثما أُمِرْتَ، وثِقْ بأنك على صِراطٍ مستقيم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾.

أي إنَّ هذا القرآن لَذِكْرٌ لك؛ أي شرفٌ لك، وحُسْنُ صيتٍ، واستحقاقُ منزلةٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾.

حَشَرَ أرواحَ الأنبياءِ ـ عليهم السلام ـ ليلةَ الإسراء، وقيل له ـ ﷺ: «سَلْهم: هل أَمَرْنا أحداً بعبادة غيرنا؟ فلم يَشُكّ النبي ـ ﷺ ـ ولم يسأل»(١).

ويقال: الخطابُ له، والمرادُ به غيره.. فَمَنْ يرتاب في ذلك؟ ويقال: المراد منه سَلْ أقوامهم، لكي إذا قالوا إن الله لم يأمر بذلك كان هذا أبلغ في إبرام الحجة عليهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ...... إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾.

---

(١) للحديث رواية أخرى: «لا أسأل قد اكتفيت» أخرجه ابن الجوزي في (زاد المسير ٧/ ٣١٩).

كرَّر قصةَ موسَى غيرَ مرةٍ في القرآن، وأعادَها هنا مجملةً؛ أرسلناه بدلائلنا، أرسلناه بحجةٍ ظاهرةٍ قاهرةٍ، أرسلناه بالمعجزات إلى فرعون وقومه من القبط، فقوبل بالهزء والضحك والتكذيب. ومع أنَّ اللَّهَ سبحانه لم يُجْرِ عليه من البيِّنات شيئاً إلا كان أوضحَ مما قبله إلا أنهم لم يقابلوه إلا بجفاءٍ أَوْحَشَ مما قبله. فلمَّا عضَّهم الأمرُ قالوا: يا أيها الساحرُ، ادْعُ لنا ربَّك ليكشف عنَّا البليَّةَ لنؤمِنَ بك، فدعا موسى.. فكشف اللَّهُ عنهم، فعادوا إلى كفرهم، ونقضوا عَهْدَهُم[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

تعزَّزَ بمُلْكِ مصر، وجَرى النيل بأمره! وكان في ذلك هلاكه؛ ليُعْلَمَ أَنَّ مَنْ تعزَّزَ بشيء من دون الله فحتفُه وهلاكُه في ذلك الشيء.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾.

استصغر موسى وحديثَه، وعابَه بالفقر.. فَسَلَّطه اللَّهُ عليه، وكان هلاكه بيديه، فما استصغر أحدٌ أحداً إلا سَلَّطه اللَّهُ عليه[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾.

أطاعوه طاعةَ الرهبة، وطاعةُ الرهبةِ لا تكون مخلصةً، وإنما تكون الطاعةُ صادقةً إذا صَدَرَتْ عن الرغبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿ءَاسَفُونَا﴾ أغضبونا، وإنما أراد أغضبوا أولياءَنا، فانتقمنا منهم. وهذا له أصل في باب الجَمْعِ؛ حيث أضاف إيسافَهم لأوليائه إلى نَفْسِه... وفي الخبر: أنه يقول: «مَرِضْتُ فلم تَعُدْني»[3].

وقال في قصة إبراهيم عليه: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا...﴾ [الحج: ٢٧].

وقال في قصة نبيِّنا ـ ﷺ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾.

وضَرْبُ المَثَلِ بعيسى هو قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩]؛ خَلَقَ عيسى بلا أب كما خلق آدم بلا أبوين. فجحدوا بهذه الآية.

---

(١) الآيات (٤٨، ٤٩، ٥٠) لم ترد. (٢) الآية (٥٣) لم ترد.

(٣) للحديث رواية أخرى: «مرضت فلم يعدني ابن آدم» أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٤٠٤).
الآية (٥٦) لم ترد.

وقيل هو قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] فقالوا: رضينا بأن نكون في النار مع عيسى وعُزَيْر والملائكة، وليس لهم في الآية موضع ذِكر؛ لأنه سبحانه قال: «وما» تعبدون، ولم يقل «ومن» تعبدون.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾: وذلك أنهم قالوا: إن قال آلهتكم خيرٌ فقد أقرَّ بأنها معبودة، وإن قال: عيسى خيرٌ من آلهتكم فقد أقرَّ بأن عيسى يصلح لأن يُعْبد، وإن قال: ليس واحدٌ منهم خيراً فقد نفى ذلك عن عيسى عليه. وهم راموا بهذا الكلام أن يجادلوه، ولم يكن سؤالهم للاستفادة. فكان جواب النبي ﷺ عليهم: «أن عيسى عليه السلام خيرٌ من آلهتكم ولكنه لا يستحق أن يُعْبَد؛ إذ ليس كلُّ ما هو خيرٌ من الأصنام بمستحق أن يكون معبوداً من دون الله وهكذا بيَّن الله ـ سبحانه ـ لنبيِّه أنهم قوم جَدِلون، وأنَّ حُجَتَهم داحضةٌ عند ربهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

فليس عيسى إلا عبدٌ أنعمنا عليه بالنبوَّة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾.

ولو شِئْنا لأنزلنا ملائكةً من السماء حتى يكونوا سُكَّانَ الأرض بَدَلَكم.

ثم قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾: يعني به عيسى عليه السلام إذا أنزله من السماء فهو علامةٌ للساعة، ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ﴾ بنزوله بين يديّ القيامة[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

ولا يصدنكم الشيطانُ عن الإيمان بالساعة، وعن اتِّباع الإيمانِ بهُداي.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

ذكرَ مجيءَ عيسى عَلَيْه السلام أول مرة؛ حيث أتى قومَه بالشرائع الواضحة،

---

(١) في الموسوعة قال رسول الله ﷺ: «لينزلن ابن مريم حكماً عادلاً فليكسرن الصليب» أخرجه مسلم في الصحيح (الإيمان ب٧١ رقم ٢٤٣)، والطحاوي في (مشكل الآثار ١/ ٢٨) والآجري في (الشريعة ٣٨٠)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٩٧٢٢)، والقرطبي في (التفسير ١٠/ ٣١٥، ١٨/ ٨٦).

ودعاهم إلى دين الله، ولكنهم تحزَّبوا عليه، وإن الذين كفروا به لمستحقون للعقوبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

ما كان لغيرِ اللَّهِ فمآلُه إلى الضياع. والأخلاءُ الذين اصطحبوا عَلَى مقتضى الهوى بعضهم لبعض عدو؛ يتبرَّأ بعضُهم من بعضَ، فلا ينفع أحدٌ أحداً.

وأمَّا الأخلاءُ في الله فيشفع بعضهم في بعض، ويتكلم بعضهم في شأن بعض، أولئك هم المتقون الذين استثناهم الله بقوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

وشرط الخلَّة[1] في الله؛ ألا يستعمل بعضُهم بعضاً في الأمور الدنيوية، ولا يرتفق بعضهم ببعضٍ؛ حتى تكونَ الصحبةُ خالصةً لله لا لنصيبٍ في الدنيا، ويكون قبولُ بعضهم بعضٍ لأَجْلِ الله، ولا تجري بينهم مُداهَنَةٌ، وبقَدْرِ ما يرى أحدُهم في صاحبه من قبولٍ لطريقِ اللَّهِ يقبله، فإنْ عَلِمَ منه شيئاً لا يرضاه اللَّهُ لا يَرْضَى ذلك من صاحبه، فإذا عاد إلى تركه عاد هذا إلى مودته، وإلّا فلا ينبغي أن يُساعدَه عَلَى معصيته، كما ينبغي أن يتقيه بقلبه، وألا يسكنَ إليه لغرضٍ دنيوي أو لطمعٍ أو لِعِوَض.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

يقال لهم غداً: ﴿**يا عبادي لا خوفٌ عليكم اليوم**﴾ مما يلقاه أهل الجمع من الأهوال، ولا أنتم تحزنون فيما قَصَّرْتُم من الأعمال...

أمَّا الذنوب.. فقد غفرناها، وأمَّا الأهوال.. فكفيناها، وأمَّا المظالم.. فقضيناها. فإذا قال المنادي: هذا الخطاب يُطْمِعُ الكلَّ قالوا: نحن عباده، فإذا قال:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾.

أَيِسَ الكفارُ، وقَوِيَ رجاءُ المسلمين.

قوله جل ذكره: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾.

في رياض الجنة، وترْتَعون.

ويقال: ﴿تُحْبَرُونَ﴾ من لذة السماع.

قوله جل ذكره: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

العُبَّاد لهم فيها ما تشتهي أنفُسهم لأنهم قاسوا في الدنيا ـ بحُكم المجاهدات ـ الجوعَ والعطشَ، وتحمَّلوا وجُوهَ المشاقِّ، فيُجازون في الجنةَ بوجوهٍ من الثواب.

وأمَّا أهل المعرفة والمحبّون فلهم ما يلذ أعينهم من النظر إلى الله لطول ما

(١) يصلح هذا يُضاف إلى حديثه ـ أي القشيري ـ عن الصحبة بالرسالة ص٢٩٤.

قاسوه من فَرْطِ الاشتياق بقلوبهم؛ وما عالجوه من الاحتراق لشدة غليلهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أي يقال لهم ـ والخطاب للمطيعين غداً ـ: أنتم يا أصحاب الإخلاص في أعمالكم؛ والصدق في أحوالكم:

﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

من الفاكهة الكثيرة تأكلون، وفي الأُنس تتقبلون.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾.

هؤلاء هم الكفار المشركون، فهم أهل الخلود، لا يُفتَّرُ عنهم العذاب ولا يُخَفَّف.

وأمّا أهل التوحيد: فقد يكون منهم قومٌ في النار. ولكن لا يخلدون فيها. ودليلُ الخطابِ يقتضي أنه يُفتَّرُ عنهم العذاب. ورد في الخبر الصحيح: أنه لا يُميتهم الحقُّ ـ سبحانه ـ إماتةً إلى أن يُخرِجَهم من النار ـ والميت لا يحسُّ ولا يتألم[1].

﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾.

الإبلاس[2] من الخيبة، ويدل ذلك على أن المؤمنين لا يأس لهم فيها، وإن كانوا في بلائهم فهم على وصف رجائهم؛ يعدون أيامهم إلى أن ينتهي حسابهم.

ولقد قال الشيوخ: إنَّ حالَ المؤمن في النار ـ من وجهٍ ـ أرْوَحُ لقلبه من حاله في الدنيا؛ فاليومَ ـ خوفُ الهلاكِ، وغداً ـ يقينُ النجاة، وأنشدوا:

عيبُ السلامةِ أنَّ صاحبَها ... متوقِّعٌ لقواصم الظَّهْرِ
وفضيلةُ البلوى تَرَقُّبُ أهلِها ... ـ عقبَ الرجاء ـ مودةَ الدهر

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

هذا الخطاب يُشْبِهُ كلمة العُذْر ـ وإن جلّ قَدْرُه ـ سبحانه ـ عن ذلك.

قوله جل ذكره: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾.

لو قالوا: «يا مَلِك» لعلَّ أقوالهم كانت أقربَ إلى الإجابة، ولكنَّ الأجنبيةَ حالت بينهم وبين ذلك، فكان الجوابُ عليهم:

---

(١) الحديث: «فأماتهم إماتة حتى إذا كانوا فحماً [...]». أخرجه مسلم (إيمان ٣٠٦)، وابن ماجه (زهد ٣٧).

(٢) أبلس فلان: سكت غمًّا (اللسان ٦/ ٣٠ مادة: بلس).

﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ فيها.. نُصِحْتم فلم تنتصحوا، ولم تقبلوا القولَ في حينه، وكان أكثرهم للحق كارهين.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾.

بل أمورُهم مُنْتَقَضةٌ عليهم؛ فلا يتمشّى لهم شيء مما دبَّروه، ولا يرتفع لهم أمرٌ على نحو ما قدَّروه ـ وهذه الحالُ أوضحُ دليل على إثبات الصانع.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

إنما خوَّفهم بسماع المَلَك، وبكتابتهم أعمالهم عليهم لغفلتهم عن الله ـ سبحانه، ولو كان لهم خبرٌ عن الله لما خَوَّفهم بغير الله، ومَنْ عَلِمَ أنَّ أعمالَه تُكْتَبُ عليه، وأنه يُطالَبُ بمقتضى ذلك ـ قَلَّ إلمامُه بما يخاف أن يُسألَ عنه..

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾.

أي إن كان في ضميركم وفي حُكْمِكم وفي اعتقادكم أنَّ للرحمن ولداً فأنا أَوَّلُ مَنْ يستنكِفُ من هذه القالة.

قوله جل ذكره: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

تنزَّه الله تنزيهاً، وتقدَّس تقديساً عمَّا قالوه. وفي هذه الآيات وأمثالِها دليلٌ على جوازِ حكاية قول المبتدعة ـ فيما أخطأوا فيه من وصف المعبود ـ قصداً للردِّ عليهم، وإخباراً بتقبيح أقوالهم، وبطلانِ مزاعمهم.

ثم قال جلَّ ذكره: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾.

إذ ليس يفوت أمرُهم، وهم لا محالة سيلقون صغرهم.

وفي هذا دليلٌ على أنه لا ينبغي للعبد أن يَغْتَرَّ بطول السلامة فإنَّ العواقبَ غيرُ مأمونة.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

المعبودُ ـ في السماء ـ الله، والمقصودُ ـ في طلب الحوائج في الأرض ـ الله.

أهلُ السماءِ لا يعبدون غير الله، وأهل الأرض لا يَقْضِي حوائجهم غير الله.

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في إمهاله للعُصاة، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالِ العِباد.

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

تعالى وتقدَّس وتنزَّه وتكبَّرَ الذي له مُلْكُ السموات والأرض.

السمواتُ والأرضُ بقدرته تظهر.. لا هو بظهورها يتعزَّز.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

أي شهد ـ اليوم ـ بالتوحيد، فيثبت له الحقُّ حقَّ الشفاعة. وفي الآية دليل على أن جميع المسلمين شفاعتهم تكون غداً مقبولة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

فكيف لا يعتبرون؟ وكيف يتكبَّرون عن طاعة الله.

﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

أي يعلم علم الساعة ويعلم **﴿قيله يا رب﴾**.

﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أي أمهِلْهم، وقل لكم مني سلامٌ.. ولكن سوف تعلمون عقوبة ما تستوجبون.

سورة الدّخان

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ مَنْ ذَكَرَها نال في الدنيا والعُقْبى بهجتَه، ومَنْ عَرَفَها بَذَلَ في طلبها مُهْجَتَه.

كلمةٌ إذا استولت على قلبِ عَطَّلَته عن كلِّ شُغْل، كلمةٌ إذا واظَبَ على ذِكْرِها عَبْد أمَّنَتْه من كلِّ هَوْل.

قوله جل ذكره: ﴿حمٓ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾.

الحاء تشير إلى حقِّه؛ والميم تشير إلى محبته. ومعناه: بحقي وبمحبتي لِعبادي، وبكتابي العزيز إليهم: إنّي لا أُعَذِّبُ أهل معرفتي بفرقتي.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾.

﴿فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾: قيل هي ليلة القَدْر، وقيل هي النصف من شعبان وهي ليلة الصَّك. أَنْزَلَ القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا كلَّ سَنَةٍ بمقدار ما كان جبريلُ ينزل به على الرسول ﷺ.

وسمَّاها: ﴿لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ لأنها ليلة افتتاح الوصلة. وأشدُّ الليالي بركةً ليلةٌ يكون العبدُ فيها حاضراً، بقلبه، مشاهداً لربِّه، يتَنَعَّمُ فيها بأنوار الوصلة، ويجد فيها نسيم القربة.

وأحوال هذه الطائفة في لياليهم مختلفة، كما قالوا:

لا أَظْلِمُ الليلَ ولا أَدَّعي ... أَنَّ نجومَ الليلِ ليست تزولُ
لَيْلِي كما شاءت: قصيرٌ إذا ... جادَتْ، وإن ضَنَّتْ فَلَيْلِي طويلُ

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ يكتب من أمِّ الكتاب في هذه الليلة ما يحل في السنة كلِّها من أقسام الحوادث في الخير والشرِّ، في المحن والمِنَنِ، في النصر والهزيمة، في الخصب والقحط.

ولهؤلاء القوم (يعني الصوفية) أحوالٌ من الخصب والجدب، والوصل والفصل، والوفاق والخلاف، والتوفيق والخذلان، والقبض والبسط. فكم مِنْ عبدٍ ينزل له الحكم والقضاء بالبُعْدِ والشقاء، وآخر ينزل حكمه بالرِّفد والوفاء.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ : وهي الرسولُ ـ ﷺ، قال صلوات الله عليه : «أنا رحمة مهداة»[(١)].

ويقال : ﴿إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ رحمةً لنفوسِ أوليائنا بالتوفيق، ولقلوبهم بالتحقيق.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ : «السميع» لأنين المشتاقين، «العليم» بحنين المحبين.

قوله جل ذكره: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾.

مالك السموات والأرضين، ومالك ما بينهما ـ وتدخل في ذلك أكسابُ العباد.

وتَمَلُّكُها بمعنى القدرة عليها، وإذا حَصَلَ مقدورٌ في الوجود دَلَّ على أنه مفعولُه؛ لأن معنى الفعل مقدورٌ وجِدَ.

قوله جل ذكره: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

هذه الكلمة فيها نَفْيُ ما أثبتوه بجهلهم، وإثباتُ ما نَفَوْه بجحدهم.

﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ : مُرَبّي أصْلِكُم ونَسْلِكُمْ.

قوله جل ذكره: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ﴾.

اللَّعِبُ فِعْلٌ يجري على غير ترتيبٍ تشبيهاً باللُّعاب الذي يسيل لا على نظام مخصوص؛ فَوَصَفَ المنافقَ باللَّعبِ؛ وذلك لتردُّدِه وتحيُّرِه نتيجةَ شكِّه في عقيدته.

قوله جل ذكره: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾.

هذا من أشراط الساعة؛ إذ يتقدم عليها.

وقيامة هؤلاء (يقصد الصوفية) معجَّلة (أي تتم هنا في هذه الدنيا) فيومُهم الذي تأتي السماء فيه بدخان مبين هو يومُ غيبةِ الأحباب، وانسداد ما كان مفتوحاً من الأبواب، أبوابِ الأنسِ بالأحباب وفي معناه قالوا:

فما جانبُ الدنيا بسَهْلٍ ولا الضُّحى ... بطَلْقٍ ولا ماءُ الحياةِ ببارِدِ

قوله جل ذكره: ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

وعذابُ هؤلاء (يقصد الصوفية) مقيمٌ في الغالب، وهو عذابٌ مُسْتَعذَبٌ، أولئك يقولون:

﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾.

وهؤلاء يستزيدون ـ على العكس من الخَلْق ـ العذاب، وفي ذلك يقول قائلهم:

فكلُّ مآربي قد نِلْتُ منها ... سوى ملذوذِ وجدي بالعذاب

فهم يسألون البلاءَ والخَلْقُ يستكشفونه، ويقولون:

أنت البلاءُ فكيف أرجو كَشْفَه ... إنَّ البلاءَ إذا فَقَدْتُ بلائي

---

(١) أخرجه المتقي الهندي في (كنز العمال ٣١٩٩٥)، والقرطبي في (التفسير ٤/ ٦٣).

قوله جل ذكره: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾.

إن خالفوا دواعي قلوبهم من الخواطر[١] التي تَرِدُ من الحقِّ عليهم عوقبوا ـ في الوقت بما لا يتَّسعُ لهم ويُسْعِفهم، فإذا أخذوا في الاستغاثة يقال لهم: أنَّى لكم الذكرى وقد جاءكم الرسول على قلوبكم فخالفتم[٢]؟!

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾.

حيث نورثكم حزناً طويلاً، ولا تجدون في ظلال انتقامنا مقيلاً.

قوله جل ذكره: ﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.

فتَنَهم بعد ما أصَرُّوا على جحودهم ولم يرجعوا إلى طريق الرشد من نفرة[٣] عنودهم.

﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾: يطالبهم بإزالة الظلم عن بني إسرائيل، وأن يستبصروا، واستنفرهم لله، وأظهر الحُجَّةَ من قِبَلِ الله[٤].

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾.

أمَرَه بأن يَسْرِيَ بعباده المؤمنين، وعرَّفهم أنهم سيُنْقَذون، وأنَّ عدوَّهم ﴿جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾.

ما خلفوه من أحوالهم ومن رياشهم، وما تركوه من أسباب معاشهم استلبناه عنهم.

﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾.

وأسْكنَّا قوماً آخرين في منازلهم ودورهم.

قوله جل ذكره: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾.

لم يكن لهم من القَدْرِ والخَطَرِ ما يتحرك في العالَم بِسببَهم ساكنٌ، أو يسكن متحركٌ فلا الخضراء بسببهم اغبرَّتْ، ولا الغبراءُ لغيبتهم اخضَّرتْ. لم يبقَ منهم عينٌ

---

(١) انظر حديث القشيري عن الخواطر في الرسالة ص٨٣، ٨٥.

(٢) الآية (١٤) لم ترد.

(٣) نفر من الشيء: فزع وانقبض غير راضٍ به، ونفرت المرأة من زوجها: أعرضت وصدّت ونفر من المكان: تركه إلى غيره.

(٤) الآيات من (١٩ حتى ٢٢) لم ترد.

ولا أثر، ولم يظهر مِنْ قِبَلِهم على قلبِ أحدٍ من عبادِنا أثرٌ. وكيف تبكي السماءُ لفَقْدِ من لم تستبشر به من قَبْلُ؟ بعكس المؤمن الذي تُسَرُّ السماءُ بصعودِ عمله إليها، فإنها تبكي عند غيابه وفَقْدِه.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

نجَّاهم، وأقمى عدوَّهم، وأهلكه.

﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾ أي عَلِمنا ما يحتقبون من أوزارهم، فرفعنا ـ باختيارنا ـ من أقدارِهم ما وَضَعَه فِعْلُهم وتدنسُّهم بأوضارهم.

ويقال: «على علم منا» بأحوالهم أنهم يُؤثِرون أمرنا على كل شيء.

ويقال: «على علم منا» بمحبة قلوبهم لنا مع كثرة ذنوبهم فينا.

ويقال: «على علم منا» بما نودع عندهم من أسرارنا، وما نكاشفهم به من حقائق حقًّنا.

قوله جل ذكره: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾.

من مطالبته بالشكر عند الرخاء، والصبر عند الكَدَرِ والعناء.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

اقترح أبو جهلٍ على النبي ـ ﷺ ـ أن يحييَ لهم نَفْساً:

«لتخبرنا: هل أنت صادق أم لا؟» فأخبر الله ـ سبحانه ـ أنهم اقترحوا هذا بعد قيامِ الحُجَّةِ عليهم، وإظهار ما أزاح لهم من العُذْر:

ثم قال جل ذكره: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

«تُبّع» هو ملك لليمن، وكان مسلماً، وكان في قومه كثرة، وأهلك الله سبحانه قومَه على كثرة عددهم، وكمال قُوَّتِهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

ما خلقناهما إلا بالحقِّ، بالحُكْمِ الحقّ؛ وبالأمرِ الحقّ.. «فأنا مُحِقٌّ في خَلْقِهما»: أي كان لي خَلْقُهما.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

يومئذٍ لا يُغْني ناصرٌ عن ناصر ولا حميمٌ عن حميم، ولا نسيبٌ عن نسيبٍ. . شيئاً. ولا ينالهم نصرٌ إلا من رَحِمَه الله؛ وبفَضْلِه ونِعْمته.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾.

«الأثيم» مرتكبُ الذنوب. «المهل» المذاب. «الحميم»: الماء الحار.

قوله جل ذكره: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾.

ادفعوا به إلى وسط الحميم. ويقال له:

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾.

أنت كذلك عند قومك، ولكنك عندنا ذليلٌ مَهينٌ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ فِي جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ﴾.

آمنين من المحن من جميع الوجوه، لِباسُهم من حرير، وفراشُهم من سندسٍ واستبرق[1]، «متقابلين»: لا يبرحون ولا يبغون عنها حِوَلا[2].

قوله جل ذكره: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾.

تُباح لهم صُحْبَتُهن، ولا يكون في الجنة عقد تزويج ولا طلاقٌ، ويمكّن الوليُّ بهذه الأوصاف من هذه الألطاف. ثم قد يُخْتطفُ قومٌ من بين هذه الأسباب، فيتحررون عن هذه الجملة؛ فكما أنهم في الدنيا مُختَطَفُون عن كلِّ العلائق فإنهم في الآخرة تطمع الحورُ العينُ في صحبتهم فيستلبهم الحقُّ عن كلِّ شيء.

الزاهدُ في الدنيا يحميه منها، والعارفُ في الجنة يحميه من الجنة[3].

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

الموتة الأولى هي بقبض أرواحهم في الدنيا، ويقيهم الله في الآخرة العذاب بفضله، وذلك هو الظَّفَرُ بالبغية، ونجاح السُّؤل[4].

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ﴾.

يا محمد، ليتذكر به أهلُك، فارتقِبْ العواقب تَرَ العجائب. إنهم يرتقبون، ولكن لا يرون إلا ما يكرهون[5].

---

(١) السندس: ضرب من رقيق الديباج أو الحرير المنسوج الذي يتلون ألواناً والاستبرق: الديباج الغليظ أو ثياب من حرير وذهب (مع).

(٢) الآية (٥٣) لم ترد.

(٣) الآية (٥٥) لم ترد.

(٤) الآية (٥٧) لم ترد.

(٥) الآية (٥٩) لم ترد.

سورة الجاثية

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» باسم مَلِكٍ لا يستظهر بجيشه، أحدٍ لا يستمسك بعيشه، جبارٍ ارتدى بكبريائه، قهّارٍ اتصف بعزّ سنائه.

«بسم الله» باسم كريم صَمَدَ، لا يستغرقُ وجودَه أمَد، أبديُّ عظيمِ أحَد، لا يوجَدُ من دونه مَفَرٌّ ولا ملتحَد.

قوله جل ذكره: ﴿حمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: في جلاله، ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾: في أفعاله.

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: في آزاله، ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾: في لطفه بالعبد بوصف إقباله.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

شواهد الربوبية لائحةٌ، وأدلةُ الإلهية واضحةٌ؛ فَمَنْ صحا مِنْ سَكْرَةِ الغفلة، ووضعَ سِرَّه في محالِّ العِبرة حَظِيَ ـ لا محالةَ ـ بحقائق الوصلة.

قوله جل ذكره: ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

إذا أنعم العبدُ نَظَرَه في استواء قدِّه وقامته، واستكمال عقله وتمام تمييزه، وما هو مخصوص به في جوارحه وحوائجه، ثم فكَّرَ فيما عداه من الدواب؛ في أجزائها وأعضائها.. ثم وقف على اختصاص وامتياز بني آدم من بين البريَّة من الحيوانات في الفهم والعقل والتمييز والعلم، ثم في الإيمان والعرفان ووجوهِ خصائص أهل الصفوة من هذه الطائفة في فنون الإحسان ـ عَرَفَ تخصُّصَهم بمناقبهم، وانفرادَهم بفضائلهم، فاستيقن أن الله كَرَّمهم، وعلى كثيرٍ من المخلوقات قدَّمَهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

جَعَلَ اللَّهُ العلومَ الدينية كسبيةً مُصَحَّحةً بالدلائل، مُحَقَّقةً بالشواهد. فَمَنْ لم يَسْتَبْصِرْ بها زَلَّتْ قَدَمُه عن الصراط المستقيم، ووقع في عذاب الجحيم؛ فاليومَ في ظلمة الحيرة والتقليد، وفي الآخرة في التخليد في الوعيد.

قوله جل ذكره: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾.

فَمَنْ لا يؤمن بها فبأي حديثٍ يؤمن؟ ومن أي أصل يستمد بعده؟ ومن أي بَحْرٍ في التحقيق يغترف؟ هيهات! ما بقي للإشكال في هذا مجال.

قوله جل ذكره: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

كلُّ صامتٍ ناطقٌ، يصمت عن الكلام والقول وينطق بالبرهان في الحكم.

فَمَنْ استمع بسمع الفهم، واستبصر بنور التوحيد فاز بذُخْرِ الدارين، وتصدَّى لِعزِّ المنزلين. ومَنْ تصامم بحكم الغفلة وقع في وهدة الجهل، ووُسِم بكيِّ الهَجْر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

قابله بالعناد، وتأوَّله عَلَى ما يقع له من وجوه المراد مِنْ دون تصحيحِ بإسناد... فهؤلاء ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: مُذِلٌ.

وقد يُكاشَفُ العبدُ من بواطن القلب بتعريفاتٍ لا يتداخله فيها ريبٌ، ولا يتخالجه منها شكٌّ فيما هو به من حاله... فإذا استهان بها وقع في ذُلِّ الحجبة وهوانِ الفرقة.

قوله جلّ ذكره: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

فعند هذه الفترة، وفي وقت هذه المحنة فلا عُذْرَ يُقْبَلُ منهم، ولا خطابَ يُسْمَعُ عنهم، ولهم عذابٌ متصل، ولا يُرَدُّونَ إلى ما كانوا عليه من الكشف:

فَخَلِّ سبيلَ العينِ بعدكَ للبكا فليس لأيام الصفاءِ رجوعُ[1]

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

عندما يركبون البحرَ فلربما تَسْلَمُ السفينةُ ولربما تغرق.

وكذلك العبد في فلك الاعتصام في بحار التقدير، تمشي به رياح العناية، وأَشْرِعَةُ التوكل مرفوعةٌ، والسُّبُلُ في بحر اليقين واضحة. وطالما تهب رياحُ السلامة فالسفينةُ ناجيةٌ. أمَّا إنْ هبَّت نكباتُ الفتنةِ فعندئذٍ لا يبْقى بيد الملَّاحِ شيءٌ، والمقاديرُ غالبةٌ، وسرعان ما تبلغ قلوبُ أهلِ السفينةِ الحناجرَ.

---

(١) الآية (١١) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾: كلُّ ما خَلَقَ من وجوه الانتفاع بها ـ كلُّه منه سبحانه؛ فما من شيءٍ من الأعيان الظاهرة إلّا ـ ومن وجهٍ ـ للإنسان به انتفاع.. وكلها منه سبحانه؛ فالسماءُ لهم بناء، والأرضُ لهم مهاد.. إلى غير ذلك. ومِنَ الغَبْنِ أن يستسخرَك ما هو مُسَخَّرٌ لك! وَلْيتأملْ العبدُ كلَّ شيءٍ.. كيف إنْ كان خَلَلٌ في شيءٍ منها ماذا يمكن أن يكون؟! فلولا الشمسُ.. كيف كان يمكن أن يتصرَّف في النهار؟ ولم لم يكن الليلُ كيف كان يسكن بالليل؟ ولو لم يكن القمر.. كيف كان يهتدي إلى الحساب والآجال؟... إلى غير ذلك من جميع المخلوقات.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

نَدَبَهم إلى حُسْنِ الخُلق، وجميلِ العِشْرَة، والتجاوزِ عن الجهل، والتنقي من كدورات البشرية. ومقتضياتِ الشُّحُ.

وَبيَّنَ أَنَّ اللَّهَ ـ سبحانه ـ لا يفوته أحدٌ. فَمَنْ أراد أَنْ يعرفَ كيف يحفظ أولياءَه، وكيف يُدَمِّر أعداءَه. فَلْيَصبِرْ أياماً قلائلَ ليَعْلَمَ كيف صارت عواقبُهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

مَنْ عَمِلَ صالحاً فله مَهْناه، ومن ارتكب سيئةً قاسى بلواه.. ثم مرجعه إلى مولاه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

كَرَّر في غير موضعٍ ذِكْرِ موسى وذِكْرَ بني إسرائيل.. بعضه على الجملة وبعضه على التفصيل. وهنا أَجْمَلَ في هذا الموضِع، ثم عقبه حديث نبيِّنا ﷺ[1]، فقال:

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أفردناك بلطائفَ فاعرفْها، وسَنَنَّا لكَ طرائقَ فاسلُكْها، وأثبتنا لك حقائقَ فلا تتجاوزْها، ولا تجنحْ إلى متابعة غيرك:

---

(١) الآية (١٧) لم ترد.

﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ .

إن أرادَ بكَ نعمةً فلا يمنعها أحدٌ، وإن أراد بك فتنةً فلا يَصْرِفها عنك أحدٌ. فلا تُعَلِّقْ بمخلوقٍ فكْرَك، ولا تتوجهْ بضميرك إلى شيء، وثِقْ بربِّك، وتوكَّلْ عليه.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ .

أنوارُ البصيرةِ إذا تلألأتْ انكشفت دونها تهمةُ التجويز.

ونَظَرُ الناسِ على مراتب: فَمِنْ ناظرٍ بنور نجومه ـ وهو صاحب عقل، ومن ناظرٍ بنو فراسته وهو صاحب ظنٍّ يُقوِّيه لَوْحٌ ـ ولكنه من وراء السِّرِّ[١]، ومن ناظرٍ بيقين عِلْمٍ بحكم برهانٍ وشَرْطِ فكْرٍ، ومِنْ ناظرٍ بعين إيمان بوصف اتِّباع، ومن ناظرٍ بنور بصيرةٍ هو على نهار، وشمسُه طالعة وسماؤه من السحاب مصحية.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ .

أَمَنْ خفضناه في حضيض الضَّعةِ كَمَنْ رفعناه إلى أعالي المَنَعَة؟

أَمَنْ أخذنا بيده ورحمناه كَمَنْ داسَه الخذلانُ فرجمناه؟

أَمَنْ وهبناه بَسْطَ وقتٍ وأُنْسَ حالٍ ورَوْحَ لُطْفٍ حتى خَصَصْناه ورَقَّيْناه، ثم قَرَّبْناه وأَدْنَيْناه كَمَنْ ترك جُدَه واستفراغَ وسعه وإسبالَ دَمْعِه واحتراق قلبه.. فما أنعشناه[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ .

مَنْ لم يَسْلُكْ سبيلَ الاتباع، ولم يستوفِ أحكامَ الرياضة، ولم يَنْسلِخْ عن هواه بالكليَّة، ولم يؤدِّبْه إمامٌ مُقْتَدَىً فهو ينجرفُ في كل وَهْدَةٍ، ويهيمُ في كلِّ ضلالة، ويضلُّ في كل فجٍّ، خسرانُه أكثر من ربْحِه!! أولئك في ضلالٍ بعيد؛ يعملون القُرَبَ على ما يقع لهم من نشاطِ نفوسهم، زمامُهم بيد هواهم، أولئك أهل المكر.. اُسْتدْرِجُوا وما يَشْعُرون!.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ .

لم يَعْتَبِروا بما وجدوا عليه خَلَفَهم وسَلَفَهم، وأَزْجَوْا في البهيمية عَيْشَهم

(١) انظر حديث القشيري عن الفراسة برسالته ص٢٣١ ـ ٢٤١.
(٢) الآية (٢٢) لم ترد.

وعُمْرَهم، وأعفوا عن كَدِّ الفكرة قلوبهم... فلا بالعلم استبصروا، ولا من التحقيق استمدوا. رأسُ مالِهم الظنُّ ـ وهم غافلون.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

طلبوا إحياءَ موتاهم، وسوف يَرَوْن ما استبعدوا.

ثم أخبر أنَّ مُلْكَ السمواتِ والأرضِ لله، وإذا أقام القيامةَ يُخْسَرُ أصحابُ البطلان، فإذا جاءهم يومُ الخصام:

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

كلٌّ بحسابه مطالَبٌ... فأمَّا الذين آمنوا فلقد فازوا وسادوا، وأمَّا الذين كفروا فهلكوا وبادوا.. ويقال لهم: أأنتم الذين إذا قيل لكم حديثُ عُقباكم كَذَّبتم مولاكم؟ فاليومَ ـ كما نسيتمونا ـ ننساكم، والنارُ مأواكم[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

لله الحمدُ على ما يُبْدي ويُنْشي، ويحيي ويُفْني، ويُجْرِي ويُمْضِي.. إذ الحكْمُ لله، والكبرياءُ لله، والعظمةُ والسَّناءُ لله، والرفعة والبهاءُ لله.

---

(١) الآيات من (٢٩ حتى ٣٥) لم ترد.

سورة الأحقاف

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ للقلوب سالبة، للعقول غالبة، للمطيعين واهبة، للعارفين ناهبة.. فالذين يهبهم فلهم لُطْفُه، والذين ينهبهم فَمَنْ مَحَقه فهو عنه خَلَفُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿حمٓ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

حَمَيْتُ قلوبَ أهلِ عنايتي فَصَرَفْتُ عنها خواطرَ التجويز، وَثَبَّتُها في مشاهدِ اليقين بنور التحقيق؛ فلاحت فيها شواهدُ البرهان، فأضَفْنا إليها لطائفَ الإحسان؛ فكَمُلَ منالُها من عين الوصلة، وغذيناهم بنسيم الأُنْس في ساحات القربة.

﴿الْعَزِيزِ﴾: المُعزّ للمؤمنين بإنزال الكتاب عليهم.

﴿الْحَكِيمِ﴾، المُحْكِم لكتابِه عن التبديل والتحويل.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾.

الكافرون مُعْرِضُون عن موضع الإنذار، مقيمون على حَدِّ الإصرار.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

أروني.. أي أثرٍ فيهم في الملك، أو القدرة على النفع والضر؟ إن كانت لكم حُجَّةٌ فأَظْهِرُوها، أو دلالة فَبَيِّنوها.. وإذا قد عَجَزْتُم عن ذلك فهلّا رجعتم عن غيّكم وأقلعتم؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾.

مَنْ أشدُّ ضلالاً مِمَّنْ عَبَدَ الجمادَ الذي ليس له حياة ولا له في النفع أو الضر إثبات؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

إذا حُشِرَ الناسُ للحساب وقعت العداوةُ بين الأصنام وعابديها.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

رموا رُسُلَنا بالسِّحر ثم بالافتراء والمكر.. قُلْ ـ يا محمد ـ كفى بالله بيني وبينكم شهيداً؛ أنتم أشركتم به، وأنا أخلصت له توحيداً. وما كنت بدعاً من الرسل؛ فلستُ بأول رسولٍ أُرْسِل، ولا بغير ما جاءوا به من أصول التوحيد جئتُ، إنما أمرتكم بالإخلاص في التوحيد، والصدقِ في العبودية، والدعاءِ إلى محاسن الأخلاق(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

وهذا قبل أن نزل قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

وفي الآية دليلٌ على فساد قول أهل القَدَرِ والبدع حيث قالوا: «إيلامُ البريء قبيحٌ في العقل». لأنه لو لم يَجُزْ ذلك لكان يقول: أَعْلَمُ ـ قطعاً ـ أني رسول الله، وأني معصومٌ... فلا محالةَ يغفر لي، ولكنه قال: وما أدري ما يُفْعَلُ بي ولا بكم؛ لِيُعْلَمَ أن الأمرَ أمرُه، والحكمَ حكمُه، وله أن يفعلَ بعباده ما يريد.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

تبيَّنَ له أنه لا عُذْرَ لهم بحال، ولا أمانَ لهم من عقوبةِ الله. وما يستروحون إليه من حُجَجِهم عند أنفسهم كلُّها ـ في التحقيق ـ باطلٌ. وأخبر أن الكفار قالوا: لو كان هذا الذي يقوله من الحشر والنشر حقٌّ لم تتقاصر رتبتُنا عند الله عن رتبة أحدٍ، ولتَقَدَّمْنا ـ في الاستحقاق ـ على الكُلِّ. ولمَّا لم يجدوا لهذا القول دليلاً صرَّحوا:

﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾.

ولقد بَعَثَ اللَّهُ أنبياءَه ـ عليهم السلام ـ وأنزل عليهم الكتب، وبيَّنَ في كلِّ كتابٍ، وعلى لسانِ كلِّ رسولٍ بأنه يبعث محمداً رسولاً، ولكن القومَ الذين في عصر نبيِّنا ـ ﷺ ـ كتموه، وحسدوه(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

مضى تفسيرُ الاستقامة، وإنَّ مَنْ خرج على الإيمان والاستقامة حَظِيَ بكلِّ كرامة، ووصل إلى جزيل السلامة.

(١) الآية (٨) لم ترد.
(٢) الآية (١٢) لم ترد.

وقيل: السين في «الاستقامة» سين الطَّلَب؛ وإن المستقيم هو الذي يبتهل إلى الله تعالى في أن يُقيمَه على الحق، ويُثبِّته على الصدق[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾.

أَمَرَ الإنسانَ برعاية حقِّ والديه على جهة الاحترام، لما لهما عليه من حق التربية والإنعام، وإذا لم يُحْسِنْ الإنسانُ حُرْمةَ مَنْ هو مِنْ جنسه فهو عن حُسْنِ مراعاة سيِّده أبعد. ولو لم يكن في هذا الباب إلا قوله ـ ﷺ: «رضا الرب من رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما»[٢] لكان ذلك كافياً. ورعايةُ حق الوالد من حيث الاحترام، ورعاية حق الأم من حيث الشفقة والإكرام. ووَعَدَ اللَّهُ الوالدين قبولَ الطاعة بقوله جلَّ ذكره:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

فقبولُ الطاعةِ وغفران الزَّلَّة مشروطان ببرِّ الوالدين. وقد ذمَّ اللَّهُ ـ سبحانه ـ الذي يتصف في حقهما بالتأفُّفِ، وفي ذلك تنبيهٌ على ما وراء ذلك من أي تعنُّف، وعلى أنَّ الذي يَسْلكُ ذلك يكونُ من أهل الخسران، وبالتالي يكون ناقصَ الإيمان.

وسبيلُ العبدِ في رعاية حق الوالدين أن يُصْلِحِ ما بينه وبين الله، فحينئذٍ يَصْلُحُ ما بينه وبين غيره ـ على العموم، وأهله ـ على الخصوص.

وشَرُّ خصَال الولد في رعاية حق والديه أَنْ يتبرَّم بطول حياتهما، ويتأذَّى بما يحفظ من حقهما. وعن قريب يموت الأصلُ ويبقى النسلُ، ولا بدَّ من أن يتبع النسلُ الأصلَ، وقد قالوا في هذا المعنى:

رويدك إن الدهرَ فيه كفايةٌ لتفريق ذات البيْنِ.. فانتظر الدهرا[٣]

قوله جلَّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾.

سبيلُ العبد ألا ينسى في كل حالٍ معبودَه، وأَنْ يتذكرَ أنه معه في همِّه وسروره،

---

(١) الآية (١٤) لم ترد.

(٢) أخرجه الترمذي في (السنن ١٨٩٩)، والحاكم في (المستدرك ٤/ ١٥٢)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ٨/ ١٣٦)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ٣٣٠)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٥٢٠)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ٨٨)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٣/ ٣٢٢).

(٣) الآيات / ١٧، ١٨، ١٩) لم ترد.

وفي مناجاته عند رخائه وبلائه. فإن اتفق أنْ حَصَلَ له أُنْسٌ، وغَلَبَ عليه رجاءٌ وبسطٌ ثم هجم على قلبه قَبْضٌ أو مَسّهُ خوف.. فليخاطبْ ربَّه حتى لا يكونَ من جملة مَنْ قيل له: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ[١] وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

أخبر[٢] بالشرح عن قصة هود وقومه عاد وما جرى بينهم من الخطاب، وتوجّه عليهم من العتاب، وأَخْذِهم بأليم العذاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾.

فلم يُغْنِ عنهم ما آتيناهم.. وانظروا كيف أهلكناهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾.

كان رسولُ الله ﷺ مبعوثاً إلى الجنّ كما كان مبعوثاً إلى الإنس. وإن قوماً أتوه ليلة الجن وآمنوا به، ورجعوا إلى قومهم فأخبروهم، وآمن قومٌ منهم؛ فاليومَ في الجن مؤمنون، وفيهم كافرون.

﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾ الصيحةُ على الباب وفوق البساط غيبةٌ؛ ولهذا لما حضر الجنُّ بساطَ خدمته ـ ﷺ ـ تواصوا فيما بينهم بحفظ الأدب، وقالوا لما حضروا بساطَه: ﴿أَنصِتُوا﴾، فأهلُ الحضور صفتُهم الذبولُ والسكونُ، والهيبة والوقار. والثورانُ أو الإنزعاجُ يدل على غيبة أو قِلّةِ تيقُّظٍ أو نقصان اطلاع. ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ يعني الوحي ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ وأخبروهم بما رأوه وسمعوه[٣].

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

يقال الإجابة على ضربين: إجابةٌ لله، وإجابة للداعي؛ فإجابة الداعي بشهود الوساطة ـ وهو الرسول ﷺ ـ. وإجابةُ الله بالجهرِ إذا بَلَغَتْهُ الرسالةُ على لسان السفير، وبالسِّرِّ إذا حصلت التعريفاتُ من الواردات على القلب؛ فمستجيبٌ بنفسه ومستجيبٌ

---

(١) الأحقاف (ج) الحقف: من الرمل المعوج. وقيل: الأحقاف: ديار عاد وقيل: واحدها حقف وهو المستطيل المشرف. وقيل: الأحقاف في القرآن: جبل محيط بالدنيا من زبرجدة خضراء تلتهب يوم القيامة فتحشر الناس من كل أفق. (اللسان ٩/ ٥٢ مادة: حقف).

(٢) الآيات من (٢٢ حتى ٢٨) لم ترد.

(٣) الآية (٣٠) لم ترد.

بقلبه ومستجيبٌ بروحه ومستجيبٌ بسرِّه. ومن توقف عن دعاء الداعي إيَّاه، ولم يبادز بالاستجابة هُجِرَ فيما كان يُخاطب به[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الرؤيةُ هنا بمعنى العلم.

﴿وَلَمْ يَعْيَ﴾ أي ولم يعجز ولم يَضْعفُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾.

ثم يقال لهم على سبيل تأكيد إلزام الحجة:

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾.

جزاءً لكم على كُفركم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾.

أولو الجد والصبر والحزم. وجاء في التفسير أنهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد ﷺ. وقيل: هود وصالح وشعيب ومحمد عليهم السلام. وقيل: منهم يعقوب وأيوب ويونس.

والصبرُ هو الوقوفُ لحُكْم الله، والثباتُ من غير بثٍ ولا استكراهٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ﴾.

ويقال مُدّةُ الخلْقِ: من مبتدأ وقتهم إلى مُنتَهى آجالهم بالإضافة إلى الأزليّة كلحظةٍ بل هي أقلُّ؛ إذ الأزلُ لا ابتداء له ولا انتهاء.. وأي خَطَرٍ لما حصل في لحظةٍ.. خيراً كان أو شرّاً؟!

---

(١) الآية (٣٢) لم ترد.

سورة محمد ﷺ

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

مَنْ ذَكَرَ «بسم اللَّهِ» جَلَّتْ رُتْبَتُه، ومَنْ عَرَفَ «بسم الله» صَفَتْ حالتُه، ومَن أحبَّ «بسم الله» أشلكت قصتُه، ومَن صَحِبَ «بسم الله» امتحقت أَنِّيَتُه، وتلاشت - بالكلية - جُمْلَتُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: امتنعوا، وصَدُّوا فَمُنِعُوا؛ فلأنهم امتنعوا عن سبيل الله استوجبوا الخَجْبَةَ والغيبة.

﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾: أي أحبطها.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بما نُزِّلَ على محمد، ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾.

أصلح حالَهم، فالكفرُ للأعمالِ مُحْبِطٌ، والإيمانُ للتخليد مُسْقِط.

ويقال: الذين اشتغلوا بطاعةِ اللَّهِ، ولم يعملوا شيئاً ما خَالَفَ اللَّهَ - فلا محالةَ - نقوم بكفاية اشتغالهم بالله.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾.

أي يضرب أمثالَ هؤلاء لحسناتهم، وأمثال هؤلاء لسيئاتهم.

ويكون اتباعُ الحقِّ بموافقة السُّنَّةِ، ورعاية حقوق الله، وإيثار رضاه، والقيام بطاعته ويكون اتباعُ الباطلِ بالابتداع، والعملِ بالهوى، وإيثارِ الحظوظ، وارتكابِ المعصية.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ﴾.

إذا حَصَلَ الظَّفَرُ بالعدوِّ فالعفو عنهم وتَرْكُ المبالغةِ في التشديد عليهم - للندم مُوجِبٌ، وللفرصةِ تضييعٌ؛ بل الواجبُ إزهاقُ نفوسِهم، واستئصالُ أصولِهم، واقتلاعُ شَجَرِهم من أصله.

وكذلك العبدُ إذا ظفر بنفسه فلا ينبغي أن يُبْقِيَ بعد انتفاش شوكها بقيةً من الحياة، فَمَنْ وضع عليها إصبعاً بَثَّتْ سُمَّها فيه.

﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ ذلك إذا رجا المسلمون في ذلك غبطةً أو فائدةً؛ مثل إفراجِ الكفَّارِ عن قومٍ من المسلمين، أو بسبب ما يؤخذ من الفِداء.. وأمثال هذا، فحينئذٍ ذلك مُسَلَّمٌ علَى ما يراه الإمام.

كذلك حال المجاهدة مع النَّفس: حيث يكون في إغفاءِ ساعةٍ أو في إفطارِ يوم ترويحٌ للنفس من الكَدِّ، وتقويةٌ على الجهد فيما يستقبل من الأمر ـ فذلك مطلوبٌ حسبما يحصل به الاستصوابُ من شيخ المريد، أو فتوى لسانِ الوقت، أو فراسة صاحب المجاهدة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾.

إذا قُتِل أحدٌ في سبيل الحقِّ تولَّى وَرَثَةَ المقتولِ بأحسنَ مِنْ تولية المقتول.

وكذلك يَرْفَعُ درجاتِه؛ فيُعْظِمُ ثوابَه، ويُكْرِمُ مآبه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

نصرةُ الله من العبد نصرةُ دينه بإيضاح الدليل وتبيينه.

ونصرةُ اللَّهِ للعبد بإعلاء كلمته، وقَمْعِ أعداء الدين ببركاتِ سَعْيه وهمَّتِه.

﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ بإدامةِ التوفيقِ لئلا ينهزم من ضولةِ أعداءِ الدين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

تعساً لهم: لعناً وطرداً، وقَمْعاً وبُعداً!

﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾: هَتَكَ أستارَهم، وأَظْهَرَ للمؤمنين أسرارَهم، وأَخْمَدَ نارَهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

وكيف أهلكهم وأبادهم وأقماهم؟

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾.

المولى هنا بمعنى الناصر؛ فاللَّهُ ناصرٌ للذين آمنوا، وأمَّا الكافرون فلا ناصرَ لهم.

أو المولى من الموالاة وهي ضد المعاداة، فيكون بمعنى المحب؛ فهو مولى الذين آمنوا أي مُحِبُّهم، وأما الكافرون فلا يحبهم الله.

ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ويصح أن يقالَ إنَّ هذه أرجى آية في القرآن؛ ذلك بأنه سبحانه يقول: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ولم يقل: مولى الزهَّادِ والعُبَّادِ وأصحاب الأورادِ والاجتهادِ؛ فالمؤمنُ ـ وإنْ كان عاصياً ـ من جملة الذين آمنوا، (لا سيما و «آمنوا» فعل، والفعل لا عمومَ له).

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾.

مضى الكلامُ في هذه الآية.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾.

الأنعامُ تأكل من أي موضع بلا تمييز، وكذلك الكافرُ لا تمييزَ له بين الحلال والحرام. [كذلك الأنعام ليس لها وقت لأكلها؛ بل في كل وقت تقتات وتأكل، وكذلك الكافر، وفي الخبر: «إنه يأكل في سبعة أمعاء»[1]. أمَّا المؤمن فيكتفي بالقليل كما في الخبر: «إن كان ولا بُد فثُلُثٌ للطعام وثُلُثٌ للشراب وثلث للنفس»[2] و «ما ملأ ابن آدم وعاءً شرّاً من بطنه»][3].

ويقال: الأنعامُ تأكل على الغفلة؛ فَمَنْ كان في حال أكله ناسياً ربَّه فأكْلُه كأكلِ الأنعام.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾.

﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾: يعني بها مَنْ أهلكهم من القرون الماضية في الأعصر الخالية.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾.

«البيِّنة»: الضياء والحُجَّة، والاستبصار بواضح المحجة: فالعلماءُ في ضياء برهانهم، والعارفون في ضياءِ بيانهم؛ فهؤلاء بأحكام أدلة الأصول يُبْصِرون، وهؤلاء بحكم الإلهام والوصول يستبصرون.

---

(١) أخرجه الموطأ (صفة النبي ٩، ١٠)، وأحمد بن حنبل ٢/ ٢١، ٤٣، ٧٤.

(٢) أخرجه ابن ماجه (أطعمة ٥٠)، والترمذي (زهد ٤٧).

(٣) أخرجه الترمذي في (السنن ٢٣٨٠)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٤/ ١٣٢)، والدارمي في (السنن ٢١٣)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/ ٣٨٧)، والقاضي عياض في (الشفا ١/ ١٨٦)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ٢٨٨، ١٣/ ٢٤٨)، والعجلوني في (كشف الخفاء ٢/ ٢٧٨)، وابن الجوزي في (تلبيس إبليس ٢١٤).

قوله جلّ ذكره: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

كذلك اليومَ شأنُ الأولياء، فلهم شرابُ الوفاء، ثم شرابُ الصفاء، ثم شرابُ الولاء، ثم شرابٌ حالَ اللقاء.

ولكلٍّ من هذه الأشربة عَمَلٌ، ولصاحبه سُكْرٌ وصحو؛ فَمَنْ تحسَّى شرابَ الوفاء لم ينظر إلى أحدٍ في أيام غيبته من أحبابه:

وما سَرَّ صدري مُنْذ شطَّ بك النوى أنيسٌ ولا كأس ولا متصرف

ومَنْ شَرِبَ كأسَ الصفاء خَلُصَ له عن كل شَوْبٍ، فلا كدورةَ في عهده، وهو في كلِّ وقتٍ صافٍ عن نَفْسِه، خالٍ من مُطَالَباته، قائمٌ بلا شُغلٍ ـ في الدنيا والآخرة ـ ولا أرَبٍ.

ومَنْ شَرِبَ كأسَ الولاء عَدِمَ فيه القرار، ولم يَغِبْ بِسرِّه لحظةً في ليلٍ أو نهار.

ومَنْ شَرِبَ في حال اللقاء أَنِسَ على الدوام ببقائه؛ فلم يطلب ـ مع بقائه ـ شيئاً آخَرَ من عطائه؛ لاستهلاكه في علائه عند سطوات كبريائه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

هم المنافقون الذين كرهوا ما أنزل اللَّهُ؛ لِمَا فيه من افتضاحِهم.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾

﴿ٱهْتَدَوْا۟﴾: بأنواع المجاهدات، «فزادهم هدًى»: بأنوار المشاهدات.

﴿ٱهْتَدَوْا۟﴾: بتأمل البرهان، «فزادهم هدى» بِرَوح البيان.

﴿ٱهْتَدَوْا۟﴾: بعلم اليقين، «فزادهم هدًى»: بحقِّ اليقين.

﴿ٱهْتَدَوْا۟﴾: بآداب المناجاة، «فزادهم هدًى»: بالنجاة ورَفْع الدرجات.

﴿ٱهْتَدَوْا۟﴾: إلى ما فيه من الحقِّ ولم يختلفوا في أنه الحق، «فزادهم هدًى» بالاستقامة على طرق الحق.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

كان عالماً بأنه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فأمره بالثبات عليها؛ قال (ص): «أنا أعلمكم بالله، وأخشاكم له»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٨/ ٣١، ٩/ ١٢٠)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٦/ ١٢٢، ١٨١)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٤/ ١٥٣)، وابن حجر في (فتح الباري ١٠/ ٥١٣).

ويقال: كيف قيل له: ﴿. . . فَٱعۡلَمۡ﴾ ولم يقل: عَلِمْتُ، وإبراهيم قيل له: ﴿أَسۡلِمۡۖ﴾ [البقرة: ١٣١] فقال: «سلمت. . .»؟ فيُجاب بأنَّ إبراهيمَ لمَّا قال: «اسلمت» ابْتُلِيَ، ونبيُّنا ﷺ لم يقل: علمت فعُوفِيَ.

وإبراهيم عليه السلام أتى بَعْدَه شَرْع كَشَفَ سِرَّه، ونبيُّنا ﷺ لم يأتِ بعدَه شرعٌ.

ويقال: نبيُّنا ﷺ أخبر الحقُّ عنه بقوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ. . .﴾ [البقرة: ٢٨٥] والإيمان هو العلم ـ وإخبارُ الحقِّ سبحانه عنه أتَمُّ من إخباره بنفسه عن نفسه: «عَلِمْتُ».

ويقال: فرقٌ بين موسى عليه السلام لمَّا احتاج إلى زيادةِ العلم فأُحيلَ على الخضر، ونبيُّنا ﷺ قال له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤]. . . فكم بين مَنْ أُحيلَ في استزادة العلم على عَبْدٍ وبين مَنْ أُمِرَ باستزادة العلم من الحق!!.

ويقال لمَّا قال له: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ كان يأمره بالانقطاع إليه عن الخَلْق، ثم بالانقطاع منه ـ أي من الرسول ـ إليه. . . أي إلى الحق سبحانه. والعبدُ إذا قال هذه الكلمةَ على سبيلِ العادةِ والغفلةِ عن الحقيقة ـ أي كان بصفة النسيان ـ فليس لقوله كثيرُ قيمةٍ؛ كأن تُقال عند التعجب من شيء. . . فليس لهذا قَدْرٌ. أمَّا إذا قالها مخلصاً فيها، ذاكراً لمعناها، متحققاً بحقيقتها. . . فإنْ كان بنفسه فهو في وطن التفرقة. . . وعندهم هذا من الشِّرْكِ الخفِّي، وإن قالها بحقٍّ فهو الإخلاص. فالعبد يعلم أولاً ربَّه بدليلٍ وحُجَّةٍ؛ فعِلْمُه بنفسه كَسْبيٌّ. . . وهو أصل الأصول، وعليه ينبني كل علم استدلالي! ثم تزداد قوةُ علمه بزيادة البيان وزيادة الحجج، ويتناقص علمُه بنفسه لغَلَبَاتِ ذِكْرِ اللَّهِ على القلب. فإذا انتهى إلى حال المشاهدة، واستيلاء سلطان الحقيقة عليه صار عِلْمُه في تلك الحالة ضرورياً. ويقلُّ إحساسُه بنفسه حتى يصير علمه بنفسه كالاستدلاليّ وكأنه غافلٌ عن نفسه أو ناسٍ لنفسه.

ويقال: الذي على البحر يغلب عليه ما يأخذه من رؤية البحر، فإذا ركب البحر قويت هذه الحالة، حتى إذا غرق في البحر فلا إحساسَ له بشيء سوى ما هو مستغرقٌ فيه ومستهلك[١].

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾: أي إذا عَلِمْتَ أنك علمت فاستغفِرْ لذنبك من هذا؛ فإن الحقَّ ـ على جلال قدْرِه ـ لا يعلمه غيره.

(١) استفاد القشيري هنا من الدقاق حين أوضح مراحل التواجد فالوجد فالوجود قال في رسالته: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: التواجد يوجب استيعاب العبد، والوجود يوجب استغراق العبد، والوجود يوجب استهلاك العبد، فهو كمن شهد البحر، ثم ركب البحر، ثم غرق في البحر، وترتيب هذا الأمر قصود ثم ورود ثم شهود ثم وجود ثم جمود، وبمقدار الوجود يحصل الخمود. (الرسالة القشيرية ص٦٣).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ. . .﴾.

كان المسلمون تضيق قلوبهم بتباطؤ الوحي، وكانوا يتمنون أن ينزل الوحيُ بسرعةٍ فقال تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ رأيت المنافقين يكرهون ذلك لِمَا كان يشق عليهم من القتال، فكانوا يفتضحون عندئذٍ، وكانوا ينظرون إلى النبي ﷺ ـ بغاية الكراهة.

﴿. . . فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾.

تهديد.

قوله جلّ ذكره: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾.

وهو قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ. . .﴾.

ويقال: فأولى لهم طاعةٌ منهم لله ولرسوله. ﴿وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ بالإجابة لما أُمِرُوا به عن الجهاد.

ويقال: طاعةٌ وقولٌ معروفٌ أَمثَلُ بهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

إذا عزم الأمرُ ـ أي جَدَّ وفُرِضَ القتالُ ـ فالصدقُ والإجابةُ خيرٌ لهم من كذبهم ونفاقِهم وتقاعدِهم من الجهاد.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾.

أي فلعلكم إنْ أَعرضتم عن الإيمان ـ بمحمدٍ ﷺ ـ ورجعتم إلى ما كنتم عليه أن تفسدوا في الأرض، وتسفكوا الدماءَ الحرامَ، وتقطعوا أرحامكم، وتعودوا إلى جاهليتكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾.

أصمَّهم عن سماعِ الحقِّ وقبولِه بقلوبهم، وأعمى بصائرَهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾.

أي إن تدَّبروا القرآن أفضى بهم إلى العرفان، وأراحهم من ظلمة التحيُّر.

﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾: أقفلَ الحقُّ على قلوب الكفار فلا يُدَاخِلُها زاجرُ التنبيه، ولا ينبسط عليها شعاعُ العلم، فلا يحصل لهم فَهْمُ الخطاب؛ فالبابُ إذا كان مُقفَلاً. . . فكما لا يدخل فيه شيءٌ لا يخرج منه شيء؛ كذلك قلوبُ الكفار مقفلةٌ، فلا الكفرُ الذي فيها يَخرُجُ، ولا الإيمانُ الذي هم يُدْعَوْن إليه يدخل في قلوبهم.

وأهلُ الشِّرْكِ والكفرِ قد سُدَّت بصائرهم وغُطِّيَتْ أسرارهم، ولُبِّسَ عليهم وجهُ التحقيق.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾.

الذي يطلع فجرُ قلبه، ويتلألأ نورُ التوحيد فيه، ثم قَبْلَ متوع نهارِ إيمانه انكسفت شمسُ يومِهِ، وأظلم نهارُ عرفانه، ودَجا ليلُ شَكِّه، وغابت نجومُ عقله... فحدِّث عن ظُلُماتِه...! ولا حرج!.

ذلك جزاؤهم على ممالأتهم مع المنافقين، وتظاهرهم... فإذا تَوَفَّتْهُم الملائكةُ تتصل آلامُهم، ولا تنقطع بعد ذلك عقوباتُهم[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾.

ليس الأمرُ كما تَوَهَّموه، بل الله يفضحهم ويكشف تلبيسَهم، ولقد أخبر الرسولَ عنهم، وعرَّفه أعيانهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾.

أي في معنى الخطاب، فالأَسِرَّةُ تَدُلُّ على السريرة، وما يخامر القلوبَ فَعَلى الوجوهِ يلوحُ أثرُه:

لستُ ممن ليس يدري ما هوان من كرامة
إنَّ للحبِّ وللبغضِ على الوجه علامة

والمؤمنُ ينظر بنور الفراسة، والعارفُ ينظر بنورِ التحقيق، والموحِّدُ ينظر بالله فلا يستتر عليه شيء.

ويقال: بصائرُ الصديقين غيرُ مُغَطَّاة، قال رسول الله ﷺ: «سدوا كل خوخة غير خوخة أبي بكر»[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾.

بالابتلاء والامتحان تتبين جواهرُ الرجال، فيظهر المخلصُ، ويفتضح الماذقُ، وينكشف المنافق، فالذين آمنوا وأخلصوا نجوا وتخلصوا، والذين كفروا ونافقوا وقعوا في الهوان وأُذِلُّوا، ووسِموا بالشقاوة وقُطعوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾.

---

(١) الآيات (٢٦، ٢٧، ٢٨) لم ترد.

(٢) أخرجه ابن كثير في (البداية والنهاية ١٢/١٣٦).

﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾: بالرياء والإعجاب والملاحظة.

﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾: بالمساكنة إليها. ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ بطلب الأعواض عليها.

﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾: بتوهمكم أنه يجب بها شيء دون فضل الله[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾.

أي لا تميلوا إلى الصلح مع الكفار وأنتم الأعلون بالحجة.

أنتم الأعلون بالنصرة. قوله: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾. أي بالنصرة ويقال: لا تضعفوا بقلوبكم، وقوموا بالله؛ لأنكم ـ والله معكم ـ لا يخفى عليه شيءٌ منكم، فهو على الدوام يراكم. ومَنْ عَلِمَ أنَّ سَيِّدَه يراه يتحمل كلَّ مشتغلاً برؤيته:

﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾.

أي لا ينقصكم أَجْرَ أعمالكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾.

تجنبوا الشِّركَ والمعاصي حتى يَفِيَكُم أجورَكم.

واللّهُ لا يسألكم من أموالكم إلا اليسير منها وهو مقدار الزكاة.

﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾.

«الإحفاء» الإلحاح في المسألة... وهذا إنما يقوله لمن لم يُوقَ شُحَّ نَفْسه، فأمَّا الإخوان ومَنْ عَلَتْ رتبتُهم في باب حرية القلب فلا يُسامَحون في استيفاءِ ذَرَّةٍ، ويُطالَبون ببذل الرُّوح، والتزام الغرامات.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾.

البخلُ مَنْعُ الواجب، وإذا بخل فإنما يبخل عن نفسه لأنه لو لم يفعل ذلك لَحَصَلَ له الثراء ـ هكذا يظن.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾.

«غنيٌّ» بنفسه على قول، وغنيٌّ بوصفه على القول الثاني. وغناه كونه لا تتقيد مراداتُه. أمَّا البعدُ فهو فقيرٌ بنفسه؛ لأنه لا يستغني عن مولاه؛ في الابتداء منذ خَلْقه إلى الانتهاء، وهو في دوام الأوقات مفتقرٌ إلى مولاه.

---

(١) الآية (٣٤) لم ترد.

والفقيرُ الصادقُ مَنْ يشهد افتقارَه إلى الله. وصِدْقُ الفقير في شهود فقره إلى الله. ومَنْ افتقر إلى الله استغنى بالله، ومَنْ افتقر إلى غير الله وقع في الذُّلِّ والهوان.

ويقال: اللَّهُ غنيٌّ عن طاعتِكم، وأنتم الفقراءُ إلى رحمتِه.

ويقال: اللَّهُ غنيٌّ لا يحتاج إليكم، وأنتم الفقراءُ لأنكم لا بديلَ لكم عنه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾.

يستبدل قوماً غيركم يكونون أشدَّ منكم طاعةً، وأصدقَ منكم وفاءً؛ فهو قادرٌ على خَلْق أمثالَكم ثم لا يكونون أمثالكم في العصيانِ والإعراضِ وتَرْكِ الشكرِ والوفاءِ... بل سيكونون خيراً منكم.

سورة الفتح

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» تشير إلى سُمُوِّه في أزَلِه، وعُلُوِّه في أبَدِه؛ وسُمُوُّه في أزله نَفيُ البداية عنه بحقِّ القِدَم، وعُلُوُّه في أبده نَفيُ الانتهاء عنه باستحالة العَدَم؛ فمعرفةُ سُمُوِّه توجِبُ للعبد سُمُوًّا، ومعرفةُ عُلُوِّه توجِبُ للعبدِ عُلُوًّا.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾.

قضينا لك قضاءً بَيِّناً، وحكمنا لكَ بتقويةِ دينِ الإسلام، والنصرةِ على عدوِّك، وأكرمناكَ بفتح ما انغلق على قلبِ مَنْ هو غيرك ـ مِنْ قَبْلِك ـ بتفصيلِ شرائعِ الإسلام، وغير ذلك من فتوحات قلبه صلوات الله عليه.

نزلت الآيةُ في فتحِ مكة، ويقال في فتح الحُدَيبية[1].

ويقال: هديناك إلى شرائع الإسلام، ويَسَّرْنا لك أمورَ الدين.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

كلا القسمين ـ المتقدِّم والمتأخِّر ـ كان قبلَ النبوة.

ويقال: ﴿مَا تَقَدَّمَ﴾ من ذَنْبِ آدمِ بحُرمتك، ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾: من ذنوب أُمَّتك.

وإذا حُمِلَ على تَرْكِ الأوْلَى فقد غفر له جميع ما فعل من قبيل ذلك، قبل النبوة وبعدها.

ولمَّا نزلت هذه الآية قالوا: هنيئاً لك! فأنزل الله تعالى: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.. ويقال: حسناتُ الأبرارِ سيئاتُ المقربين.

﴿وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾.

يتم نعمته عليك بالنبوة، وبوفاء العاقبة، وببسط الشريعة، وبشفاعته لأمته، وبرؤية الله غداً، وبإظهار دينه على الأديان، وبأنه سيد ولد آدم، وبأنه أقْسَمَ بحياتِه، وخصَّه بالعيان. وبسماعِ كلامه سبحانه ليلةَ المعراج، وبأن بَعَثَه إلى سائرِ الأمم.. وغير ذلك من مناقبه.

---

(١) الحديبية: قرية متوسطة ليست بالكبيرة، سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله ﷺ تحتها. (معجم البلدان ٢/ ٢٢٩).

﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ يثبتك على الصراط المستقيم، ويزيدك هدايةً على هداية، ويهدي بك الخَلْقَ إلى الحقِّ.

ويقال: يهديك صراطاً مستقيماً بترك حَظِّك.

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾.

لا ذُلَّ فيه، وتكون غالباً لا يَغْلِبُكَ أحَدٌ:

ويقال: ينصرك على هواك ونَفْسِك، وينصرك بحُسْنِ خُلُقِك ومقاساةِ الأذى من قومك.

ويقال نصراً عزيزاً: مُعِزّاً لك ولمن آمن بك.

وهكذا اشتملت هذه الآية على وجوهٍ من الأفضال أكْرَمَ بها نبيَّه ـ ﷺ ـ وخصَّه بها من الفتح والظَّفَرِ على النَّفْس والعدو، وتيسير ما انغلق على غيره، والمغفرة، وإتمام النعمة والهداية والنصرة.. ولكلٍّ من هذه الأشياء خصائصُ عظيمةٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

السكينةُ ما يسكن إليه القلبُ من البصائر والحُجَج، فيرتقي القلبُ بوجودِها عن حدِّ الفكرة إلى رَوْحِ اليقين وثَلَج الفؤاد، فتصير العلومُ ضروريةً.. وهذا للخواصِّ.

فأمّا عوامُّ المسلمين فالمرادُ منها: السكون والطمأنينةُ واليقين.

ويقال: من أوصافِ القلب في اليقين المعارف والبصائر والسكينة.

وفي التفاسير: السكينة ريح هفَّافة. وقالوا: لها وجهٌ كوجه الإنسان. وقيل لها جناحان.

﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾.

أي يقيناً مع يقينهم وسكوناً مع سكونهم. تطلع أقمارُ عين اليقين على نجوم علم اليقين، ثم تطلع شمسُ حقِّ اليقين على بَدْرِ عين اليقين.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقيل: هي جميع القلوب الدالَّةِ على وحدانية الله.

ويقال: مُلْكُ السمواتِ والأرضِ وما به من قوىً تقهر أعداءَ اللّهِ.

ويقال: هم أنصارُ دينه.

ويقال: ما سلَّطه الحقُّ على شيءٍ فهو من جنوده، سواء سلَّطه على وليِّه في الشدة والرخاء، أو سلَّطه على عدوِّه في الراحة والبلاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

يَسْتُرُ ذنوبَهم ويحطها عنهم. . وذلك فوزٌ عظيم، وهو الظَّفَرُ بالبغية.

وسُؤْلُ كلِّ أحدٍ ومأمولُه، ومُبْتغاه ومقصودُه مختلِفٌ. . وقد وَعَدَ الجميعَ ظَفَراً به.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾.

يعذبهم في الآجل بعذابهم وسوء عقابهم.

و ﴿ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾: هو ما كان بغير الإذن؛ ظنوا أنَّ الله لا ينصر دينَه ونَبيَّه عليه السلام.

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾: عاقبته تدور عليهم وتحيقُ بهم.

﴿وَلَعَنَهُمْ﴾: أبعدهم عن فضله، وحقت فيهم كلمتُه، وما سبقت لهم - من الله سبحانه - قِسْمتُه[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

﴿أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾: على أُمَّتِكَ يوم القيامة. ويقال: شاهداً على الرُّسُلِ والكتب.

ويقال: شاهداً بوحدانيتنا وربوبيتنا. ويقال: شاهداً لأمتك بتوحيدنا.
﴿وَمُبَشِّرًا﴾: لهم مِنَّا بالثواب، ﴿وَنَذِيرًا﴾ للخَلْق؛ زاجِراً ومُحَذِّراً من المعاصي والمخالفات.

ويقال: شاهداً مِنْ قِبَلنا، ومُبَشِّراً بأمرنا، ونذيراً من لَدُنَّا ولنا ومِنَّا.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

قرىء: «ليؤمنوا» بالياء؛ لأن ذكر المؤمنين جرى، أي ليؤمن المؤمنون بالله ورسوله ويعزروه وينصروه أي الرسول، ويوقروه: أي: يُعَظِّموا الرسولَ. وتُسَبِّحوه: أي تُسَبِّحوا الله وتنزهوه بكرة وأصيلاً[2].

وقرىء: «لتؤمنوا» - بالتاء - أيها المؤمنون بالله ورسوله وتُعَزروه - على المخاطَبة. وتعزيرُه يكون بإيثاره بكلِّ وجه على نَفْسك، وتقديمِ حُكْمهِ على حُكمِك. وتوقيرُه يكون باتباع سُنَّتِه، والعلم بأنه سيِّدُ بَرِيَّته.

---

(١) الآية (٧) لم ترد.

(٢) البُكرة: الغُدوة وهي أول النهار إلى طلوع الشمس.
الأصيل: الوقت حين تصفر الشمس لمغربها.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾.

وهذه البيعة هي بيعة الرضوان بالحديبية تحت سَمُرَة[1].

وذلك أن رسول الله ـ ﷺ ـ بعث عثمانَ رضي الله عنه إلى قريش ليُكلِّمَهم فأرجفوا بقَتْلِه. وأتى عروة بن مسعود إلى النبي ﷺ وقال:

جئتَ بأوشاب الناس لتفضَّ بَيْضَتَكَ بيدك، وقد استعدت قريش لقتالك، وكأنّي بأصحابك قد انكشفوا عنك إذا مسَّهم حرُّ السلاح! فقال أبو بكر: أتظن أنّا نسلم رسولَ الله ﷺ؟

فبايعهم النبيُّ ﷺ على أن يُقاتِلوا وألا يهربوا، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾: أي عقدُك عليهم هو عقد الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.

أي ﴿يَدُ ٱللَّهِ﴾: في المنة عليهم بالتوفيق والهداية: ﴿فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ بالوفاء حين بايعوك.

ويقال: قدرة الله وقوته في نصرة دينه ونصرة نبيِّه ﷺ فوقَ نَصْرِهم لدين الله ولرسوله.

وفي هذه الآية تصريحٌ بعين الجمع كما قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾.

أي عذابُ النكثِ عائدٌ عليه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أي من قام بما عاهد الله عليه على التمام فسيؤتيه أجراً عظيماً.

وإذا كان العبد بوصف إخلاصِه، يعامِل اللَّهَ في شيءٍ هو به متحقِّقٌ، وله بقلبه شاهدٌ فإنَّ الوسائطَ التي تُظْهِرُها أماراتُ التعريفاتِ تجعله محواً في أسرارِه.. والحكم عندئذ راجعٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾.

لمَّا قَصَدَ رسولُ الله ﷺ التوجه إلى الحديبية تخلَّفَ قومٌ من الأعراب عنه. قيل: هم أسلم وجهينة وغفار ومزينة وأشجع، وقالوا: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ وليس لنا مَنْ يقوم

---

(١) السمرة: هي الشجرة (شجرة طلح) التي كانت عندها بيعة الرضوان عام الحديبية. (اللسان ٤/ ٣٧٩ مادة: سمر).

بشأننا وقالوا: انتظروا ماذا يكون؛ فما هم من قريشٍ إلّا أَكَلَةُ رأسٍ. فلما رجع رسول الله ﷺ جاءوه مُعْتَذِرين بأنه لم يكن لهم أحدٌ يقوم بأمورهم! وقالوا: استغفر لنا.

فأطلعه الله ـ سبحانه ـ على كذبهم ونفاقهم؛ وأنهم لا يقولون ذلك إخلاصاً، وعندهم سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، فإنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾.

فضَحَهم. ويقال: ما شغل العبد عن الله شُؤمٌ عليه.

ويقال: عُذْرُ المماذِقِ وتوبةُ المنافِق كلاهما ليس حقائق.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾.

حسبتم أن لن يرجعَ الرسول والمؤمنون من هذه السفرة إلى أهليهم أبداً، وزَيَّنتْ لكم الأماني ألا يعودوا، وأنَّ الله لن ينصرهم. ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي هالكين فاسدين.

ويقال: إنَّ العدوَّ إذا لم يقدر أن يكيدَ بيده يتمنَّى ما تتقاصر عنه مُكنتُهُ، وتلك صفةُ كلِّ عاجز، ونعتُ كلِّ لئيم. ثم إن الله ـ سبحانه ـ يعكس ذلك عليه حتى لا يرتفع مراده ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

ويقال: من العقوبات الشديدة التي يعاقِبُ اللَّهُ بها المُبْطِل أنْ يتصوَّرَ شيئاً يتمنَّاه ويوطِّن نَفْسَه عليه لفرط جَهْله. ويُلقى الحقُّ في قلبه ذلك التمني حتى تسول له نفسهُ أن ذلك كالكائن.. ثم يعذبه الله بامتناعه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾.

وما هو آتٍ فقريب.. وإنَّ الله ليرخي عنانَ الظَّلَمةِ ثم لا يفلتون من عقابه. وكيف ـ وفي الحقيقة ـ ما يحصل منهم هو الذي يجريه عليهم؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

يغفرُ ـ وليس له شريك يقول له: لا تفعل، ويعذّب من يشاء ـ وليس هناك مانعٌ عن فعله يقول له: لا تفعل.

قوله جلّ ذكره: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾.

وذلك أن النبي ﷺ والمؤمنين لما رجعوا من الحديبية وعدهم اللَّهُ خيبرَ، وأنَّ فيها سيظفرُ بأعدائه، فلمَّا هَمَّ بالخروج أراد هؤلاء المخلفون أن يتبعوه لما علموا في ذلك من الغنيمة، فقال النبي ﷺ: «إنما يخرج معي إلى خيبر من خرج إلى الحديبية، والله بذلك حكم ألا يخرجوا معنا».

فقال المتخلفون: إنما يقول المؤمنون ذلك حَسداً لنا؛ وليس هذا من قول الله! فأنزل اللَّهُ تعالى ذلك لتكذيبهم، ولبيان حكمه ألا يستصحبَهم فهم أهل طمع. وكانت عاقبتُهم أنهم لم يجدوا مرادَهم ورُدُّوا بالمذلة وافتضح أمرهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

جاء في التفاسير أنهم أهلُ اليمامة أصحاب مسيلمة[1] ـ وقد دعاهم أبو بكر وحاربهم، فالآية تدل على إمامته.. وقيل هم أهل فارس ـ وقد دعاهم عمر بن الخطاب وحاربهم؛ فالآيةُ تدل على صحة إمامته. وصحة إمامته تدل على صحة إمامة أبي بكر. ﴿أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أولي شدَّة. فإنْ أطعتُم استوجبتم الثواب، وإن تخلَّفتم استحقَقْتُم العقاب. ودلت الآيةُ على أنه يجوز أن تكون للعبد بدايةٌ غيرُ مُرضية ثم يتغير بعدها إلى الصلاح ـ كما كان لهؤلاء وأنشدوا:

إذا فَسَدَ الإنسانُ بعد صلاحه فَرَجِّ له عَوْدَ الصلاح.. لعلَّه

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

هؤلاء أصحاب الأعذار.. رفع عنهم الحَرَج في تخلفهم عن الوقعة في قتال المشركين.

وكذلك مَنْ كان لهُ عذرٌ في المجاهدة مع النفس. «فإنَّ الله يحبُّ أن تؤتى رُخصَهُ كما يحب أن تؤتى عزائمه»[2].

---

(١) انظر ترجمته في الأعلام ٧/ ٢٢٦، وفي الكامل لابن الأثير ٢/ ١٣٧ ـ ١٤٠، وفي شذرات الذهب ١/ ٢٣، وفي الروض الأنف ٢/ ٣٤٠.

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ١٠٨)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٣/ ١٤٠)، والهيثمي في (موارد الظمآن ٥٤٥، ٩١٣، ٩١٤)، والألباني في (إرواء الغليل ٣/ ٩)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ٣/ ١٦٢)، وابن خزيمة في (الصحيح ٩٥٠)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٢/ ١٠١، ٦/ ٢٧٦)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٢/ ١٣٥)، وابن كثير في (التفسير ٣/ ٢٦)، والسيوطي في (الدر المنثور ١/ ١٩٣)، وابن الجوزي في (زاد المسير ٢/ ٢٨٩) والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ١٠/ ٣٤٧)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٥١٩٨، ٥١٩٩، ٥٢٠٠) والمتقي الهندي في (كنز=

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

هذا بيعة الرضوان، وهي البيعة تحت الشجرة بالحديبية، وسميت بيعة الرضوان لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ . . . ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وكانوا ألفاً وخمسمائة وقيل وثلاثمائة وقيل وأربعمائة. وكانوا قصدوا دخولَ مكة، فلما بلغ ذلك المشركين قابلوهم صادِّين لهم عن المسجد الحرام مع أنه لم يكن خارجاً لحرب، فقصده المشركون، ثم صالحوه على أن ينصرفَ هذا العام، ويقيم بها ثلاثاً ثم يخرج، (وأن يكون بينه وبينهم صلح عشرة أعوام يتداخل فيها الناس ويأمن بعضهم بعضاً)[1] وكان النبي قد رأى في منامه أنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين، فبشر بذلك أصحابه، فلما صدهم المشركون خامر قلوبَهم شيءٌ، وعادت إلى قلوب بعضهم تهمةٌ حتى قال الصِّدِّيقُ: لم يَقُلْ العام! فسكنت قلوبهم بنزول الآية؛ لأن الله سبحانه علم في قلوبهم من الاضطراب والتشكك. فأنزل السكينة في قلوبهم، وثبَّتهم باليقين. ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو فتحُ خيبر بعد مدة يسيرة، وما حصلوا عليه من مغانم كثيرةٍ من خيبر. وقيل ما يأخذونه إلى يوم القيامة.

وفي الآية دليلٌ على أنه قد تخطر ببال الإنسان خواطرُ مُشكِّكة، وفي الرِّيب موقعة، ولكن لا عبرة بها؛ فإنّ الله سبحانه إذا أراد بعبد خيراً لازم التوحيدُ قلبَه، وقارن التحقيق سِرَّه فلا يضرُّه كيدُ الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ ويدخل في ذلك جميعُ ما يغنمه المسلمون إلى القيامة فعجَّل لكم هذه ـ يعني خيبر، وقيل: الحديبية.

﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ لما خرجوا من المدينة حرسهم اللّهُ، وحفظ عيالهم، وحمى بَيْضَتهم حين هبَّ اليهود في المدينة بعد خروج المسلمين، فمنعهم اللّهُ عنهم.

أو يقال: كفَّ أيدي الناس من أهل الحديبية.

﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

لتكون هذه آيةً للمؤمنون وعلامةً يَسْتدلُّون بها على حراسة الله لهم.

= العمال ٥٣٣٤، ٥٣٣٥، ٥٣٧٢)، وابن حجر في (الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ١٣٠)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ١٧١٨/٥، ٢٣٦٣/٦) والألباني في (السلسة الصحيحة ١٩٤)، والشهاب في (المسند ١٠٧٨، ١٠٧٩).

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾: في التوكل على الله والثقة به.

ويقال: كفُّ أيدي الناس عن العبد هو أنْ يَرْزُقَه من حيث لا يحتسب، لئلا يحتاجَ إلى أن يتكفَّفَ الناس.

ويقال: أنْ يَرْفَعَ عنه أيدي الظَّلَمة.

ويقال: ألا تحمله المطالبةُ بسبب كثرة العيال ونفقتهم الكبيرة على الخطر بدينه؛ فيأخذ من الأشياء ـ برخصة التأويل ـ ما ليس بطيِّب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

قيل: فتح الروم وفارس. وقيل: فتح مكة.

وكان الله على كل شيءٍ قديراً: فلا تُعلِّقوا بغيره قلوبكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

يعني: خيبر وأسد وغطفان وغيرهم ـ لو قاتلوكم لانهزموا، ولا يجدون من دون الله ناصراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

أي سُنَّةُ اللَّهِ خذلانُهم ولن تَجد لسنة الله تحويلاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

قيل إن سبعين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين يريدون قتله (فأخذناهم سِلْماً فاستحييناهم) فأنزل اللَّهُ هذه الآيةَ في شأنهم.

وقيل أخذ اثني عشر رجلاً من المشركين ـ بلا عَهْدٍ ـ فَمنَّ عليهم الرسولُ ﷺ وقيل: هم أهلُ الحديبية كانوا قد خرجوا لمنع المسلمين، وحصل ترامي الأحجار بينهم؛ فاضطرهم المسلمون إلى بيوتهم، فأنزل اللَّهُ هذه الآية يمن عليهم حيث كف أيدي بعضهم عن بعض عن قدرة من المسلمين لا من عجزٍ؛ فأما الكفار فكفُّوا أيديهم رُعْباً وخوفاً؛ وأمّا المسلمون فَنَهياً مِنْ قِبَلِ الله، لما في أصلابهم من المؤمنين ـ أراد اللَّهُ أن يخرجوا، أو لِمَا عَلِمَ أن قوماً منهم يؤمنون.

والإشارة فيه: أن من الغنيمة الباردة والنعم السنية أن يَسْلَم الناسُ منك، وتسلم منهم. وإن الله يفعل بأوليائه ذلك، فلا من أَحد عليهم حَيف، ولا منهم على أحد

حيفٌ ولا حسابٌ ولا مطالبة ولا صلحٌ ولا معاتبة، ولا صداقة ولا عداوة. وكذا من كان بالحق ـ وأنشدوا:

فلم يبْقَ لي وقتٌ لِذكرِ مُخَالِفِ ولم يبق لي قلبٌ لذكر موافق

قوله جلّ ذكره: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾.

﴿كَفَرُوا۟﴾ وجحدوا، ﴿وَصَدُّوكُمْ﴾ ومنعوكم عن المسجد الحرام سنة الحديبية.

﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا﴾: أي منعوا الهَدْيَ أن يبلغَ مَنحرَه، فمعكوفاً حالٌ من الهدي أي محبوساً.

وكان النبي ﷺ قد ساق تلك السَّنَة سبعين بَدَنَةً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

لو تسلطتم عليهم لأصابتهم معرة ومضرّة منكم بغير علم لَسَلَّطناكم عليهم ولأظفرناكم بهم. وفي هذا تعريفٌ للعبد بأن أموراً قد تنغلق وتَتَعَسَّر فيضيق قلب الإنسان.. ولله في ذلك سِرٌّ، ولا يعدم ما يجري من الأمر أن يكون خيراً للعبد وهو لا يدري.. كما قالوا:

كم مرة حفَّت بك المكاره خير لك اللّهُ.. وأنت كاره

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾.

يعني الأنفة؛ أي دَفَعْتهم أنفةُ الجاهلية أن يمنعوكم عن المسجد الحرام سَنَةَ الحديبية، فأنزل اللّهُ سكينته في قلوب المؤمنين حيث لم يقابلوهم بالخلاف والمحاربة، ووقفوا واستقبلوا الأمر بالحِلْم.

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ وهي كلمةُ التوحيد تَصْدُرُ عن قلبٍ صادق: فكلمةُ التقوى يكون معها الاتقاءُ من الشِّرْك.

﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا﴾ حسب سابق حُكْمِه وقديم علمه.. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾.

ويقال: الإلزامُ في الآية هو إلزامُ إكرامٍ ولطف، لا الإلزام إكراهٍ وعُنْفٍ؛ وإلزامُ برّ لا إلزام جبر...

وكم باسطين إلى وَصْلنا أكفهمو. لم ينالوا نصيبا!

ويقال كلمة التقوى: التواصي بينهم بحفظ حق الله.

ويقال: هي أن تكون لك حاجةٌ فتسأل الله ولا تُبديها للناس.

ويقال: هي سؤالك من الله أن يحرُسَك من المطامع.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

أي صدقه في رؤياه ولم يكذبه؛ صدقه فيما أراه من دخول مكة ﴿ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ كذلك أراه لما خرج إلى الحديبية وأَخبر أصحابه. فوطَّن أصحابه نفوسهم على دخول مكة في تلك السنة. فلمَّا كان من أمر الحديبية عاد إلى قلوب بعض المسلمين شيء، حتى قيل لهم لم يكن في الرؤيا دخولهم في هذا العام، ثم أذن الله في العام القابل، فأنزل الله: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ فكان ذلك تحقيقاً لما أراه، فرؤياه صلوات الله حق؛ لأن رؤيا الأنبياء حق.

وكان في ذلك نوعُ امتحانٍ لهم: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟﴾ أنتم من الحكمة في التأخير.

وقوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ معناه إذ شاء الله كقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وقيل قالها على جهة تنبيههم إلى التأدُّب بتقديم المشيئة في خطابهم.

وقيل يرجع تقديم المشيئة إلى: إن شاء الله آمنين أو غير آمنين.

وقيل: يرجع تقديم المشيئة إلى دخول كلِّهم أو دخول بعضهم؛ فإنَّ الدخول كان بعد سنة، ومات منهم قومٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

أرسل رسولَه محمداً ﷺ بالدين الحنفي، وشريعة الإسلام ليظهره على كل ما هو دين؛ فما من دينٍ لقوم إلا ومنه في أيدي المسلمين سِرٌّ؛ وللإسلام العزة والغلبة عليه بالحجج والآيات.

وقيل: ليظهره وقت نزول عيسى عليه السلام.

وقيل: في القيامة حيث يظهر الإسلامُ على كل الأديان.

وقيل: ليظهره على الدين كله بالحجة والدليل.

قوله جلّ ذكره: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾.

﴿أَشِدَّآءُ﴾ جمع شديد، أي فيهم صلابةٌ مع الكفار.

﴿رُحَمَآءُ﴾ جمع رحيم، وصَفَهم بالرحمة والتوادّ فيما بينهم.

﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ﴾.

تراهم راكعين ساجدين يطلبون من الله الفضل والرضوان.

﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾.

أي علامة التخشع التي على الصالحين.

ويقال: هي في القيامة يوم تَبْيَضُّ وجوهٌ، وأنهم يكونون غداً محجلين.

وقد قال ﷺ: «من كثرت صلاته بالليل حَسُنَ وجهُهُ بالنهار»[1].

ويقال في التفسير: «معه» أبو بكر، و ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ عمر؛ و ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾. عثمان، و ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ عليٌّ رضي الله عنهم.

وقيل: الآيةُ عامةٌ في المؤمنين.

﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ﴾.

هذا مثلهم في التوراة، وأما مثلهم في الإنجيل فكزرع أخرج شطأه أي: فراخه.

يقال: أشطأ الزرعُ إذا أخرج صغاره على جوانبه. ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أي عاونه. ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ أي غلظُ واستوى على سوقه؛ وآزرت الصغار الكبار حتى استوى بعضه مع بعض. يعجب هذا الزرعُ الزرّاع ليغيظ بالمسلمين الكفار؛ شَبَّهَ النبي (ﷺ) بالزرع حين تخرج طاقة واحدة ما ينبت حولها فتشتد، كذلك كان وحده في تقوية دينه بمن حوله من المسلمين.

فمَنْ حملِ الآية على الصحابة: فمن أبغضهم دخل في الكفر، لأنه قال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي بأصحابه الكفارَ. ومَنْ حمله على المسلمين ففيه حُجَّة على الإجماع، لأنَّ من خالف الإجماع ـ فالله يغايظ به الكفارَ ـ فمخالفُ الإجماع كافرٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾.

وَعد المؤمنين والمؤمنات مغفرة للذنوب، وأجراً عظيماً في الجنة فقوله: «منهم» للجنس أو للذين ختم لهم منهم بالإيمان.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (إقامة ١٧٤).

سورة الحجرات

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ كريمٌ مَنْ تنصَّلَ إليه من زَّلاته تَفَضَّلَ عليه بنجاته، ومَنْ تَوَسَّلَ إليهُ بطاعاته تطوَّل عليه بدرجاته.

«بسم الله» اسم عزيز مَنْ تقرَّب إليه بمناجاته قَابَلَه بلطف أفضاله، ومَنْ تحبَّبَ إليه بإيمانه أقبلَ عليه بكشف جلاله وجماله.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: شهادةٌ للمنادَى بالشَّرف.

﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾ أَمْرٌ بتحمُّل الكُلَف. قدَّمَ الإكرام بالشرف على الإلزام بالكُلَف أي لا تقدموا بحكمكم ﴿بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾: أي لا تقضوا أمراً من دون الله ورسوله أي لا تعملوا من ذات أنفسِكم شيئاً.

ويقال: قفوا حيثما وُقِفْتم، وافعلوا ما به أُمِرْتُم، وكونوا أصحابَ الاقتداءِ والاتّباع.. لا أربابَ الابتداءِ والابتداع.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾.

أَمَرَهم بحفظِ حرمته، ومراعاةِ الأدب في خدمته وصحبته، وألَّا ينظروا إليه بالعين التي ينظرون بها إلى أمثالهم. وأنه إذا كان بخُلُقهِ يُلاينُهم فينبغي ألا يتبسَّطوا معه متجاسرين، ولا يكونوا مع ما يعاشرهم به مِنْ تَخَلُّقِه عن حدودِهم زائدين.

ويقال: لا تبدأوه بحديثٍ حتى يُفَاتِحَكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾.

هم الذين تقع السكينةُ عليهم من هيبة حضرته، أولئك هم الذين امتحن اللَّهُ قلوبَهم للتقوى بانتزاع حُبِّ الشهوات منها، فاتقوا سوءَ الأخلاقِ، وراعوا الأدبَ.

ويقال: هم الذين انسلخوا من عادات البشرية.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي لو عرفوا قَدْرَكَ لَمَا تركوا حُرْمَتَك، والتزموا هَيبَتَك.

ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم ولم يستعجلوا، ولم يوقظوك وقت القيلولة بمناداتهم لكان خيراً لهم.

أمَّا أصحابه ـ صلواتُ الله عليه وسلامه ـ الذين يعرفون قدْره فإنَّ أحدهم ـ كما في الخبر: «كأنه يَقْرَعُ بابَه بالأظافر».

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾.

دلَّت الآية على تَرْكِ السكونِ إلى خَبَرِ الفاسق إلى أن يظهر صِدْقُه.

وفي الآية إشارة إلى تَرْكِ الاستماعِ إلى كلامِ الساعي والنَّمامِ والمغتابِ للناس.

والآيةُ تَدُلُّ على قبول خبرِ والواحدِ إذا كان عَدْلاً.

والفاسقُ هو الخارجُ عن الطاعة[١]. ويقال هو الخارج عن حدِّ المروءة.

ويقال: هو الذي ألقى جِلبابَ الحياء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾.

أي لو وافقكم محمدٌ رسولُ اللّهِ ﷺ في كثير مما تطلبون منه لوقعتم في العَنَتِ[٢] ـ وهو الفساد. ولو قَبِلَ قولَ واحدٍ (قَبْلَ وضوحِ الأمر) لأَصابتكم من ذلك شدة.

والرسول صلوات الله عليه لا يطيعكم في أكثر الأمور إذا لم يَرَ في ذلك مصلحة لكم وللدين.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾: الإسلام والطاعة والتوحيد، وزيَّنها في قلوبكم.

---

(١) مشتق من فسقت الرطبة من قشرها، وكأن الفأرة إنما سميت فويسقة لخروجها من حجرها على الناس. (لسان العرب ١٠/٣٠٨ مادة: فسق).

(٢) العنت: دخول المشقة على الإنسان، ولقاء الشدة. وقيل: العنت: الفجور والزنا وقيل: الجور والإثم والأذى. (لسان العرب ٢/٦١، ٦٢ مادة: عنت).

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾: هذا من تلوين الخطاب.

وفي الآية دليلٌ على صحة قول أهل الحقّ في القَدَر، وتخصيص المؤمنين بألطافٍ لا يشترك فيها الكفارُ. ولولا أنّه يوفِّر الدواعي للطاعات لَحَصَلَ التفريط والتقصير في العبادات.

﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾: أي فَعَلَ هذا بكم فضلاً منه ورحمةً ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

تدل الآية على أن المؤمن بفسقه ـ والفسق دون الكفر ـ لا يخرج عن الإيمان لأن إحدى الطائفتين ـ لا محالة ـ فاسقة إذا اقتتلا.

وتدل الآية على وجوب نصرة المظلوم؛ حيث قال: ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾.

والإشارة فيه: أن النفس إذا ظَلَمتْ القلب بدعائه إلى شهواتها، واشتغالها في فسادها فيجب أن يقاتلها حتى تثخن بالجراحة بسيوف المجاهدة. فإن استجابت إلى الطاعة يُعفى عنها لأنها هي المطيَّةُ إلى باب الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

إيقاعُ الصلح بين المتخاصمين مِنْ أوْكَد عزائم الدِّين.

وإذا كان ذلك واجباً فإنه يدل على عِظَمِ وِزْرِ الواشي والنَّمام؛ والمَصْدَرِ في إفساد ذات البَيْن.

(ويقال إنما يتم ذلك بتسوية القلب مع الله فإن الله إذا علم صِدْق هِمةِ عبدٍ في إصلاح ذات البيْن) فإنه يرفع عنهم تلك العصبيَّة.

فأما شرط الأخوة: فَمِنْ حقِّ الأُخُوةِ في الدِّين ألا تُحْوِجَ أخاك إلى الاستعانة بك أو التماس النصرة عنك، وألا تُقصِّرَ في تَفَقُّدِ أحواله بحيث يشكل عليك موضع حاجته فيحتاج إلى مساءلتك.

ومن حقِّه ألا تُلْجِئَه إلى الاعتذار لك بل تبسط عُذْرَه؛ فإنْ أُشْكِلَ عليكَ وَجْهُه عُدْت باللائمة على نفسك في خفاء عُذْرِه عليك ومن حقه أنْ تتوبَ عنه إذا أذْنَبَ، وتَعودَه إذا مرض. وإذا أشار عليك بشيءٍ فلا تُطَالِبْه بالدليل عليه وإبراز الحُجَّة ـ كما قالوا:

إذا اسْتُنْجِدُوا لم يسألوا مَنْ دعاهم ... لأيَّةِ حَرْبٍ أم لأي مكان

ومِنْ حقِّه أَنْ تَحفظَ عَهْدَه القديم، وأَنْ تُراعِيَ حقَّه في أهله المتصلين به في المشهد والمغيب، وفي حال الحياة وبعد الممات ـ كما قيل:

وخليل إن لم يكن منصفاً كُنْتَ منصفا
تتنحَّى له الأمرَّ ين وكُنْ ملاطفا
إنْ يَقُل لكَ استوِ احترفْـ ـتَ رضَى لا تكلُّفا

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

نهى اللّهُ ـ سبحانه وتعالى ـ عن ازدراءِ الناس، وعن الغَيْبَةِ، وعن الاستهانةِ بالحقوق، وعن تَرْكِ الاحترام.

﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾: أي لا يَعِيبَنَّ بعضُكم بعضاً، كقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

ويقال: ما استصغر أحدٌ أحداً إلا سُلِّطَ عليه. ولا ينبغي أن يُعْتَبَر بظاهر أحوال الناس فإنَّ في الزوايا خبايا. والحقُّ يستر أولياءَه في حجابِ الضّعَة[1]؛ وقد جاء في الخبر:

«رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين لا يُؤْبَهُ له لو أقسم على الله لأَبَرَّه»[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾.

النَّفْسُ لا تَصْدُقُ، والقلبُ لا يَكْذِبُ. والتمييز بين النفس والقلب مُشْكِلٌ ومَنْ بَقِيَتْ عليه من حظوظه بقيَّةٌ ـ وإنْ قَلَّتْ ـ فليس له أن يَدَّعي بيانَ القلب بل هو بنفسه ما دام عليه شيءٌ من نَفْسِه، ويجب أن يَتَّهِمَ نَفْسَهُ في كل ما يقع له من نقصان غيره.. هذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال وهو يخطب. «كلُّ الناس أفقهُ من عمر.. امرأةٌ أفقهُ من عمر».

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾. والعارف لا يتفرغ من شهود الحقِّ إلى شهود الخَلْق.. فكيف

---

(١) الضّعة: خلاف الرفعة في القدر. (لسان العرب ٨/ ٣٩٧ مادة: وضع).

(٢) أخرجه الهيثمي في (مجمع الزوائد ١٠/ ٢٦٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ٢٣٤، ٢٣٥)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٣/ ٢٠٣).

يتفرغ إلى تجَسُّسِ أحوالهم؟ وهو لا يتفرغ إلى نَفْسِه فكيف إلى غيره؟ ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾: لا تحصل الغيبة للخَلق إلّا من الغيبةِ عن الحقّ.

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ جاء في التفسير أن المقصود بذلك الغيبة، وعلى ذلك يدل ظاهر الآية. وأَخَسُّ الكفّار وأَقَلُّهم قَدْراً مَنْ يأكل الميتةَ.. وعزيزٌ رؤيةُ مَنْ لا يغتاب أحداً بين يديك.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

إنَّا خلقناكم أجمعكم من آدمَ وحواء، ثم جعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارفوا لا لتُكَاثروا ولا لتنافسوا. فإذا كانت الأصولُ تربةً ونطفةً وعَلَقَةً.. فالتفاخر بماذا؟ أبا لحمأ المسنون؟[1] أم بالنطفة في قرار مكين؟ أم بما ينطوي عليه ظاهرك مما تعرفه؟! وقد قيل:

إنَّ آثارَنا تَدُلُّ علينا فانظُروا بَعْدَنا إلى الآثارِ

أم بأفعالك التي هي بالرياء مَشُوبة؟ أم بأحوالك التي هي بالإعجاب مصحوبة؟ أم بمعاملاتك التي هي ملأى بالخيانة؟

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ﴾؟ أتقاكم أي أبْعَدكم عن نَفْسِه، فالتقوى هي التحرُّر من النفس وأطماعها وحظوظها. فأكرمُ العبادِ عند اللّهِ مَنْ كان أبْعد عن نَفْسِه وأقرَبَ إلى الله تعالى.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾.

الإيمانُ هو حياة القلب، والقلب لا يحيا إلا بعد ذَبْح النَّفس، والنفوسُ لا تموت ولكنها تغيب، ومع حضورها لا يَتمُّ خيرٌ، والاستسلامُ في الظاهر إسلام. وليس كلُّ مَنْ استسلَمَ ظاهراً مخلصٌ في سِرِّه.

﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْۖ﴾.

في هذا دليلٌ على أن محلَّ الإيمانِ القلبُ. كما أنه في وصف المنافقين قال تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠] ومَرَضُ القلبِ والإيمانُ ضدان.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾.

جَعَلَ اللّهُ الإيمانَ مشروطاً بخصالٍ ذَكَرَها، ونَصَّ عليها بلفظ ﴿إِنَّمَا﴾ وهي

(١) الحمأة والحمأ: الطين الأسود المنتن. (لسان العرب ١/ ٦١ مادة: حمأ).

للتحقيق الذي يقتضي طَرْدَ العَكْسِ؛ فَمَنْ خَرَج عن هذه الشرائط التي جَعَلَها للإيمان فمردودٌ عليه قَوْلُه.

والإيمانُ يوجِبُ للعبد الأَمان، فما لم يكن الإيمان موجِباً للأَمانِ فصاحبُه بغيره أَوْلَى.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾.

تدل الآية على أَنَّ الوقوف في المسائل الدينية يُعْتَبرُ واجباً؛ فالأسامي منه تُؤخَذ، والأحكامُ منه تُطْلَب، وأوامره مُتَّبعة.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.

مَنْ لاحظ شيئاً من أعماله وأحواله فإنْ رآها مِنْ نَفْسه كان شِرْكاً، وإنْ رآها لنفسه كان مكراً فكيف يمن العبد بما هو شِرْكٌ أو بما هو مكر؟!

والذي يجب عليه قبول المِنَّة.. كيف يرى لنفسه على غيره مِنَّة؟! هذا لعمري فضيحة! بل المِنَّةُ لله؛ فهو وليُّ النعمة. ولا تكون المنةُ منةً إلا إذا كان العبدُ صادقاً في حاله، فأمَّا إذا كان معلولاً في صفة من صفاته فهي محنةٌ لصاحبها لا مِنَّة.

والمِنَّةُ تُكَدِّرُ الصنيعَ إذا كانت من المخلوقين، ولكن بالمِنَّةِ تطيب النعمة إذا كانت من قبل الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

ومَنْ وُقِف ها هنا تكدَّرَ عليه عَيْشُه؛ إذ ليس يدري ما غيبه فيه، وفي معنى هذا قول القائل:

أبكي.. وهل تدرين ما يبكيني؟
أبكي حذاراً أن تفارقيني
وتقطعي وَصْلي وتهجريني

سورة قٓ

«بسم الله» اسم جَبَرَ أحوالَ مَنْ رَحِمَه، متجبِّرُ بكبريائه على من أقماه فَقَهَرَه وحَرَمه.

«بسم الله» لطيفٌ يعلم خفايا تصنُّع العابدين، غافرٌ لجلائلِ ذنوبِ العاصين.

قوله جلّ ذكره: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾.

قٓ مفتاح أسمائه: «قوي وقادر وقدير وقريب».. أقسم بهذه الأسماءِ وبالقرآن المجيد.

وجوابُ القَسَم محذوف ومعناه لَتُبْعَثُنَّ في القيامة.

ويقال جوابه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾ أي لقد علمنا.. وحذفت اللام لمَّا تطاول الخطاب.

ويقال: جوابه قوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾.

﴿مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾: هو محمد ﷺ.

والتعجُّبُ نوعٌ من تعبير النَّفْسِ عن استبعادها لأمرٍ خارج العادة لم يقع به عِلْمٌ من قَبْل. وقد مضى القولُ في إنكارهم للبعث واستبعادهم ذلك:

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾.

أي يَبْعُدُ عندنا أَنْ نُبْعثَ بعد ما مِتْنا. فقال جل ذكره:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾.

في هذا تسليةٌ للعبد فإنه إذا وُسِّدَ التراب، وانصرف عنه الأصحاب، واضطرب لوفاته الأحباب. فَمَنْ يَتَفَقَّدُه ومَنْ يَتَعَهَّدُه... وهو في شفير قبره، وليس لهم منه شيءُ سوى ذكرِه، ولا أحدَ منهم يدري ما الذي يقاسيه المسكين في حُفْرته؟ فيقول الحقُّ ـ سبحانه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ ولعلَّه يخبر الملائكة قائلاً: عَبدي الذي أخرَجته من دنياه ـ ماذا بقي بينه مَنْ يهواه؟ هذه أجزاؤه قد تَفرّقَتْ، وهذه عِظامُه بَلِيَتْ، وهذه أعضاؤه قد تَفَتَّتَتْ!

﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾: وهو اللَّوحُ المحفوظ؛ أَثْبَتنا فيه تفصيل أحوالِ الخَلْقِ من غير نسيانٍ، وبيَّنَّا فيه كلَّ ما يحتاج العبدُ إلى تَذكُّره.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾.

﴿مَّرِيجٍ﴾ أي مختلط ومُلتبس؛ فهم يتردَّدون في ظُلُمات تحيُّرهم، ويضطربون في شكِّهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾.

أَوَ لَمْ يعتبروا؟ أَوَ لَمْ يَسْتَدِلُوا بما رفعنا فوقهم من السماء، رفعنا سَمْكها فَسَوَّيْناها، وأثبتنا فيها الكواكبَ وبها زَيَّناها، وأَدَرْنا فيها شَمْسَها وقمرَها؟ أو لم يروا كيف جَنَّسْنا عَيْنَها ونَوَّعْنا أَثَرَها؟

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾.

والأرض مددناها؛ فجعلناها لهم مِهاداً، وجَعَلْنا لها الجبالَ أوتاداً، وأَنْبَتْنا فيها أشجاراً وأزهاراً وأنواراً.. كل ذلك:

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾.

علامةً ودلالةً لكل من أناب إلينا، ورجع من شهودِ أفعالنا إلى رؤية صفاتنا، ومن شهود صفاتنا إلى شهودِ حقِّنا وذاتنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾.

أنزلنا من السماءِ ماءً مباركاً كثيرَ النفعِ والزيادة، فأنبتنا به ﴿جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾: أي الذي يُحْصَد ـ كما تقول مسجد الجامع.

الأجزاء متجانسة.. ولكنَّ أوصافَها في الطعوم والروائحِ والألوانِ والهيئاتِ والمقادير مختلفة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾.

والنخلُ باسقاتٌ: طويلاتٌ، لها طَلْعٌ منضود بعضُه فوق بعض لكثرة الطَّلْع أو لما فيها مِن الثمار. وكيف جعلنا بعض الثمار متفرقة كالتفاح والكمثرى[1] وغيرهما، وكيف جعلنا بعضها مجتمعة كالعنب والرطب[2] وغيرهما.. كلُّ ذلك جعلناه رزقاً للعباد ولكي ينتفعوا به.

---

(١) الكُمَّثْرَى: معروف من الفواكه هذا الذي تسميه العامة الإجّاص، مؤنث لا ينصرف. (لسان العرب ٥/ ١٥٢ مادة: كمثر).

(٢) الرُّطَب: نضيج البُسر قبل أن يُتمر، واحدته رطبة. (اللسان ١/ ٤٢٠ مادة: رطب).

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾.

وكما سقنا هذا الماء إلى بلدةٍ جفَّ نباتُها، وكما فَعلْنا كُلَّ هذه الأشياء ونحن قادرون على ذلك ـ كذلك نجمعكم في الحشر والنشر، فليس بَعْثُكُم بأبعدَ من هذا.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَـٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾.

إنّا لم نَعْجَزْ عن هؤلاء ـ الذين ذكر أسماءَهم ـ وفيه تهديدٌ لهم وتسليةٌ للرسول.

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

أي إنّا لم نعجز عن الخَلْق الأول.. فكيف نعجز عن الخلق الثاني ـ وهو الإعادة؟ لم يعتص علينا فعلُ شيءٍ، ولم نتعب من شيء.. فكيف يشق علينا أمر البعث؟ أي ليس كذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾.

نعلم ما توسوس به نَفْسُه من شهواتٍ تطلب استنفاذها، مثل التصنُّع مع الخَلْق، وسوءِ الخُلُق، والحقد.. وغير ذلك من آفات النَّفس التي تُشَوِّش على القلب والوقت.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ فَحَبْلُ الوريد أقربُ أجزاءِ نَفْسِه إلى نَفْسِه، والمرادُ من ذلك العلم والقدرة، وأنه يسمع قولهم، ولا يشكل عليه شيءٌ من أمرهم.

وفي هذه الآية هَيْبَةٌ وفَزَعٌ وخوفٌ لقوم، ورَوْحٌ وسكونٌ وأُنسُ قلبٍ لقوم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾.

خوَّفهم بشهود الملائكة وحضور الحَفَظَة، وبكتابتهم عليهم أعمالَهم، فهما قَعيدا كلِّ أحدٍ: ويقال: إذا كان العبدُ قاعداً فواحدٌ عن يمينه يكتب خيراتِه، وواحدٌ على يساره يكتب معاصيه، وإذا قام فواحدٌ عند رأسِه وواحد عند قَدَمِه، وإذا كان ماشياً فواحدٌ قائم بين يديه وآخرُ خَلْفَه.

ويقال: هما اثنان بالليل لكلِّ واحدٍ، واثنان بالنهار.

ويقال: بل الذي يكتب الخيراتِ اليومَ يكون غيره غداً، وأمّا الذي يكتب الشر والمعصية بالأمس فإنه يكون كاتباً للطاعة غداً حتى يشهد طاعتك.

ويقال: بل الذي يكتب المعصية اثنان؛ كل يوم اثنان آخران وكل ليلةٍ اثنان آخران لئلا يُعْلَمَ من مساويك إلا القليل منها، ويكون عِلْمُ المعاصي متفرقاً بهم[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾.

---

(١) الآية (١٨) لم ترد.

إذا أشرفت النَّفْسُ على الخروجِ من الدنيا فأحوالُهم مختلفة؛ فمنهم مَنْ يزداد في ذلك الوقت خوفُه ولا يَتَبيَّنُ إلا عند ذهابِ الروح حالُه. ومنهم مَنْ يُكاشَفُ قبلَ خروجه فيسكن رَوْعُه، ويُحْفَظُ عليه عَقْلُه، ويتم له حضورُه وتمييزُه، فيُسْلِمَ الرُّوحَ على مَهَلٍ مِنْ غير استكراهٍ ولا عبوس.. ومنهم، ومنهم.. وفي معناه يقول بعضهم:

أنا إنْ مِتُّ ـ والهوى حشو قلبي ـ فبداءِ الهوى يموت الكرامُ

ثم قال جلّ ذكره: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٍ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾.

سائقٌ يسوقها إمّا إلى الجنة أو إلى النار، وشهيدٌ يشهد عليها بما فعلت من الخير والشرّ.

ويقال له: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾.

المؤمنون ـ اليومَ بَصَرُهم حديد؛ يُبْصرون رُشْدَهم ويحذرون شرَّهم.

والكافر يقال له غداً: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ أي: ها أنت عَلِمْتَ ما كنتَ فيه من التكذيب؛ فاليومَ لا يُسْمَعُ منكَ خطابٌ، ولا يُرْفَعُ عنكَ عذابٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾.

لا يَخفَى من أحوالهم شيءٌ إلا ذُكِرَ، إنْ كان خيراً يُجَازون عليه، وإن كان غير خيرٍ يُحَاسَبون عليه: إمَّا برحمةٍ منه فيغفر لهم وينجون، وإمَّا على مقدار جُرْمِهم يُعَذَّبون.

﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ﴾.

منّاع للزكاة المفروضة.

ويقال: يمنع فَضْلَ مائِه وفَضْلَ كَلَئِه عن المسلمين.

ويقال: يمنع النابسَ من الخيرِ والإحسانِ، ويسيءُ القول فيهما حتى يُزَهِّدَ الناسَ فيهما.

ويقال: المناعُ للخير هو المِعْوانُ على الشَّرِّ.

ويقال: هو الذي قيل فيه: ﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٧].

﴿مُّرِيبٍ﴾: أي يُشَكِّكُ الناسَ في أمره لأنه غير مخلص، ويُلَبِّسُ على الناس حالَه لأنه منافق.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾.

يقول المَلَكُ من الحَفظَةِ المُوَكَّلُ به: ما أَعْجَلْتُه على الزَّلَّة.

وإنما كَتَبْتُها بعدما فَعَلَها ـ وذلك حين يقول الكافر: لم أفعلْ هذا، وإنما أعجلني بالكتابة عليّ، فيقول المَلَكُ: ربَّنا ما أعجلته.

ويقال: هو الشيطانُ المقرونُ به، وحين يلتقيان في جهنم يقول الشيطانُ: ما أكرهته على كفره، ولكنه فعل ـ باختياره ـ ما وسوسْتُ به إليه.

فيقول جلّ ذكره: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

لا تختصموا لديَّ اليومَ وقد أَمَرْتُكم بالرُّشْدِ ونَهَيْتُكم عن الغيّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾.

﴿نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾ ﴿وَتَقُولُ﴾: القولُ هنا على التوسُّع؛ لأنه لو كانت جهنم ممن يجيب لقالت ذلك بل يُحْيِيها حتى تقولَ ذلك.

﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾: على جهة التغليظ، والاستزادة من الكفار.

ويقال: بل تقول ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾: أي ليس فيَّ زيادة كقوله عليه السلام لمَّا قيل له: يومَ فتح مكة: هل ترجع إلى دارك؟ فقال: «وهل ترك لنا عقيل داراً»؟![1] أي لم يترك، فإن الله ـ تعالى ـ يملأ جهنمَ من الكفارِ والعصاةِ، فإذا ما أُخرِجَ العصاةُ من المؤمنين ازدادَ غيظُ الكفارِ حتى تمتلىء بهم جهنم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾.

يقال: إنَّ الجنَّةَ تُقَرَّبُ من المتقين، كما أَنَّ النار تُجَرُّ بالسلاسل إلى المحشر نحو المجرمين.

ويقال: بل تقرب الجنة بأن يسهل على المتقين حشرهم إليها... وهم خواص الخواص.

ويقال: هم ثلاثةُ أصناف: قوم يُحْشَرون إلى الجنة مشاةً وهم الذين قال فيهم: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣] ـ وهم عوام المؤمنين وقوم يحشرون إلى الجنة ركبانا على طاعاتهم المصوَّرة لهم بصورة حيوان، وهم الذين قال فيهم جَلَّ وعلا: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥] ـ وهؤلاء هم الخواص وأمَّا خاص الخاص فهم الذين قال عنهم: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي تُقَرَّبُ الجنةُ منهم.

وقوله: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾: تأكيدٌ لقوله: «وأزلفت».

ويقال: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾: من العاصين تطييباً لقلوبهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾.

---

(١) أخرجه البيهقي في (السنن الكبرى ٦/ ٣٤)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٠٤٢٩، ٣٠٦٨٥).

الأوَّابُ: الراجعُ إلى الله في جميع أحواله.

﴿حَفِيظٌ﴾: أي محافظ على أوقاته، (ويقال محافظ على حواسه في الله حافظ لأنفاسه مع الله).

قوله جلّ ذكره: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾.

الخشيةُ من الرحمنِ هي الخشية من الفراق. (والخشية من الرحمن تكون مقرونة بالأُنس؛ ولذلك لم يقل: من خشي الجبَّار ولا من خشي القهَّار».

ويقال الخشية من الله تقتضي العلم بأنه يفعل ما يشاء وأنه لا يسْألُ عمَّا يفعل.

ويقال: الخشيةُ ألطفُ من الخوف، وكأنها قريبةٌ من الهيبة[(١)].

﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾: لم يقل بَنفْسٍ مطيعة بل قال: بقلبٍ منيب ليكونَ للعصاةِ في هذا أملٌ؛ لأنهم ـ وإن قصَّروا بنفوسهم وليس لهم صِدْقُ القَدَمِ ـ فلهم الأسفُ بقلوبهم وصدق الندَّم.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾.

أي يقال لهم: ادخلوها بسلامةٍ من كل آفةٍ، ووجودِ رضوان ولا يسخطُ عليكم الحقُّ أبداً.

ومنهم مَنْ يقول له المَلَكُ: ادخلوها بسلامٍ، ومنهم من يقول له: لكم ما تشاؤون فيها ـ قال تعالى:

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

لم يقل: «لهم ما يسألون» بل قال: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾: فكلُّ ما يخطر ببالهم فإنَّ سؤلَهم يتحقق لهم في الوَهْلة، وإذا كانوا اليوم يقولون: ما يشاء الله فإنَّ لهم غداً منه الإحسان... وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾: اتفق أهل التفسير على أنه الرؤية، والنظر إلى الله سبحانه وقومٌ يقولون: المزيد على الثواب في الجنة ـ ولا منافاة بينهما.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾.

---

(١) قال القشيري برسالته عند حديثه عن الخوف: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: الخوف على مراتب: الخوف والخشية والهيبة. فالخوف من شروط الإيمان وقضاياه. قال الله تعالى: **﴿وخافون إن كنتم مؤمنين﴾**. والخشية: من شروط العلم. قال الله تعالى: **﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾**. والهيبة: من شروط المعرفة، قال الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾. وقال أبو القاسم الحكيم: الخوف على نوعين: رهبة وخشية، فصاحب الرهبة يلتجىء إلى الهرب إذا خاف، وصاحب الخشية يلتجىء إلى الرب. (الرسالة القشيرية ص١٢٥، ١٢٦).

أي اعتَبِروا بالذين تَقَدَّموكم؛ انهمكوا في ضلالتهم، وأَصَرُّوا، ولم يُقْلِعوا. . . فأهلكناهم وما أَبْقَيْنَا منهم أحداً.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

قيل: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾: أي من كان له عقل. وقيل: قلب حاضر. ويقال قلبٌ على الإحسان مُقْبِل. ويقال: قَلْبٌ غيرُ قُلَّب.

﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾: استمع إلى ما يَنادى به ظاهرُه من الخَلْق وإلى ما يعود إلى سِرِّه من الحق. ويقال: لمن كان له قلبٌ صاح لم يَسْكر من الغفلة. ويقال: قلبٌ يعد أنفاسَه مع الله. ويقال: قلبٌ حيٌّ بنور الموافقة. ويقال: قلبٌ غيرُ مُعْرِضٍ عن الاعتبار والاستبصار.

ويقال: «القلبُ ـ كما في الخبر ـ بين إصبعين من أصابع الرحمن»[1]: أي بين نعمتين؛ وهما ما يدفعه عنه من البلاء، وما ينفعه به من النَّعماء، فكلُّ قلبٍ مَنَعَ الحقُّ عنه الأوصافَ الذميمةَ وأَلْزَمَه النعوتَ الحميدةَ فهو الذي قال فيه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾.

وفي الخبر: «إن لله أوانيَ ألَا وهي القلوب، وأقربها من الله مارقَّ وصفا»[2]. شبَّه القلوب بالأواني؛ فقلبُ الكافرِ منكوسٌ لا يدخل فيه شيء، وقلبُ المنافقِ إناء مكسور، ما يُلْقى فيه من أوّله يخرج من أسفله، وقلبُ المؤمنِ إناءٌ صحيح غير منكوس يدخل فيه الإيمانُ ويَبْقَى.

ولكنَّ هذه القلوبَ مختلفةٌ؛ فقلبٌ مُلَطَّخٌ بالانفعالات وفنون الآفات؛ فالشرابُ الذي يُلْقَى فيه يصحبه أثر، ويتلطخ به.

وقلبٌ صفا من الكدورات وهو أعلاها قَدْراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾.

وأنى يَمَسُّه اللُّغوبُ. وهو صَمَدٌ لا يحدث في ذاته حادث؟!

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾.

إنْ تَأَذَّ سَمْعُكَ بما يقولون فيَّ من الأشياء التي يتقدّس عنها نَعْتي فاصبِرْ على ما يقولون، واستروِحْ عن ذلك بتسبيحك لنا.

---

(١) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/ ٣٠٢).

(٢) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/ ٢٠٩)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٢/ ١٧٣).

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾.

فالليلُ وقتُ الخلوة ـ والصفاءُ في الخلوة أتَمُّ وأصْفَى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ﴾.

النداءُ من الحق ـ سبحانه ـ واردٌ عليهم، كما أنَّ النجوى تحصل دائماً بينهم. والنداءُ الذي يَردُ عليهم يكون بغتةً ولا يكون للعبد في فِعْلِه اختيارٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ﴾.

إلينا مَرْجِعُ الكُلِّ ومصيرُهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ﴾.

هذا يسيرٌ علينا: سواء خلقناهم جملةً أو فرادى؛ قال تعالى: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۗ﴾ [لقمان: ٣١].

قوله جلّ ذكره: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

ما أنت عليهم بُمتَسَلِّطٍ تكْرِههم.

وإنما يُؤَثِّرُ التخويفُ والإنذارُ والتذكيرُ في الخائفين، فأمّا مَنْ لا يخاف فلا ينجحُ فيه التخويفُ ـ وطيرُ السماء على أُلَّافها تقعُ.

سورة الذّاريَات

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله كلمةٌ عزيزةٌ مَنْ ذَكَرها عزَّ لسانُه، ومَنْ عَرَفَها اهتزَّ بصحبتها جنانه. «بسم الله» كلمةٌ للألبابِ غلَّابةٌ، كلمة لأرواح المحِبين سلَّابةٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾.

والذارياتُ: أي الرياح الحاملات ﴿وِقْرًا﴾ أي السحاب ﴿فَالْجَارِيَاتِ﴾ أي السفن. ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ أي الملائكة... أقسم بربِّ هذه الأشياء وبقدرته عليها. وجواب القسم: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ...﴾ والإشارة في هذه الأشياء أن من جملة الرياح. الرياح الصيحية تحمل أنينَ المشتاقين إلى ساحات العزّةِ فيأتي نسيمُ القربةِ إلى مَشَامِّ أسرارِ أهل المحبة... فعندئذٍ يجدون راحةً من غَلَبَات اللوعة، وفي معناه أنشدوا:

وإني لأستهدي الرياحَ نسيمكم ... إذا أقبلَتْ من أرضكم بهبوب
وأسألُها حمْلَ السلام إليكمو ... فإنْ هي يوماً بَلَّغتْ... فأجيبي

ومن السحاب ما يُمطر بعتاب الغيبة، ويُؤذن بهواجم النَّوى والفُرْقة. فإذا عَنَّ لهم من ذلك شيء أبصروا ذلك بنور بصائرهم، فيأخذون في الابتهال، والتضرُّع في السؤال استعاذةً منها... كما قالوا:

أقول ـ وقد رأيتُ لها سحاباً ... من الهجران مقبلة إلينا
وقد سحّت عزاليها[1] بِبَيْنٍ ... حوالينا الصدودُ ولا علينا

وكما قد يَحْملُ الملّاحُ بعضَ الفقراء بلا أجرة طمعاً في سلامة السفينة ـ فهؤلاء يرجُون أن يُحمَلُوا في فُلْكِ العناية في بحار القدرة عند تلاطم الأمواج حول السفينة.

ومِنَ الملائكةِ مَنْ يتنزّلُ لتفقد أهل الوصلة، أو لتعزية أهل المصيبة، أو لأنواعِ

(١) الأعزل: سحاب لا مطر فيه. (اللسان ١١/ ٤٤٣ مادة: عزل).

من الأمور تتصل بأهل هذه القصة، فهؤلاء القوم يسألونهم عن أحوالهم: هل عندهم خيرٌ عن فراقهم ووصالهم ـ كما قالوا:

بربِّكما يا صاحبيَّ قِفَا بيا أسائلكم عن حالهم وآسألانيا.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾: الحقُّ ـ سبحانه ـ وَعَدَ المطيعين بالجنة، والتائبين بالرحمة، والأولياءَ بالقربة، والعارفين بالوصلة، ووَعَدَ أرباب المصائب بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٦، ١٥٧]، وهم يتصدون لاستبطاء حُسْنِ الميعاد ـ واللَّهُ رؤوفٌ بالعباد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾.

﴿ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ أي ذات الطرائق الحسنة ـ وهذا قَسَمٌ ثانٍ، وجوابه: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ يعني في أمر محمدٍ ﷺ فأحدهم يقول: إنه ساحر، وآخر يقول: مجنون، وثالث يقول: شاعر... وغير ذلك.

والإشارة فيه إلى القسم بسماء التوحيد ذات الزينة بشمس العرفان، وقمر المحبة، ونجوم القُرب... إنكم في باب هذه الطريقة لفي قولٍ مختلف؛ فَمِنْ مُنْكِرٍ يجحد الطريقة، ومِنْ مُعترِضٍ يعترض على أهلها يتوهَّم نقصانهم في القيام بحق الشريعة، ومن متعسِّفٍ لا يخرج من ضيق حدود العبودية ولا يعرف خبراً عن تخصيص الحقِّ أولياءَه بالأحوال السنية، قال قائلهم:

قد سَحبَ الناسُ أذيال الظنون بنا وفَرَّقَ الناسُ فينا قولهم فِرقَا
فكاذبٌ قد رمى بالظنِّ غَيرتكم وصادقٌ ليس يدري أنه صَدَقَا

قوله جلّ ذكره: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾.

أي يُصْرَفُ عنه مَنْ صُرِف، وذلك أنهم كانوا يصدُّون الناسَ عنه ويقولون: إنه لمجنون.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾.

لُعِنَ الكذَّابون الذين هم في غمرة الضلالة وظلمة الجهالة ساهون لاهون.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

يسألون أيان يومُ القيامة؟؛ يستعجلون بها، فلأَجْلِ تكذيبهم بها كانت نفوسُهم لا تسكن إليها. ويوم هم على النار يُحْرَقون ويُعَذَّبون يقال لهم: قاسوا عقوبتكم، هذا الذي كنتم به تَسْتَعْجِلون.

والإشارة فيه إلى الذين يَكْذِبون في أعمالهم لِمَا يتداخلهم من الرياء، ويكذبون في أحوالهم لِمَا يتداخلهم من الإعجاب، ويكذبون على الله فيما يدَّعونه من الأحوال... قُتِلُوا ولُعِنوا... وسيلقون غِبَّ تلبيسهم بما يُحْرَمون من اشتمام رائحة الصدق.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾.

في عاجلهم في جنّاتِ وَصْلِهم، وفي آجلهم في جنّاتِ فَضْلِهم؛ فغداً درجات ونجاة، واليومَ قُرُبات ومناجاة، فما هو مؤجَّلٌ حظُّ أنفسِهم، وما هو معجّلٌ حقُّ ربِّهم. هم آخذين اليوم ما آتاهم ربهم؛ يأخذون نصيبه منه بِيَدِ الشكر والحمد، وغداً يأخذون ما يعطيهم ربُّهم في الجنة من فنون العطاء والرِّفد.

ومَنْ كان اليومَ آخذه بلا واسطة من حيث الإيمان والإتقان، وملاحظة القسمة في العطاء والحرمان. كان غداً آخذه بلا واسطة في الجنان عند اللقاء والعيان. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾؛ كانوا ولكنهم اليوم بانوا[1] ولكنهم بعد ما أعدناهم حصلوا واستبانوا... فهم كما في الخبر: «أعبد الله كأنك تراه...»[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

المعنى إمَّا: كانوا قليلاً وكانوا لا ينامون إلا بالليل كقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] أو: كان نومُهم بالليل قليلاً، أو: كانوا لا ينامون بالليل قليلاً.

﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾: أخبر عنهم أنهم ـ مع تهجدهم ودُعائهم ـ يُنْزِلون أنفسَهم في الأسحار منزِلَةَ العاصين، فيستغفرون استصغاراً لِقدْرِهم، واستحقاراً لِفعْلهم.

والليلُ... للأحباب في أُنْس المناجاة، وللعصاة في طلب النجاة. والسهرُ لهم

(١) قال القشيري في رسالته عند حديثه عن المعرفة بالله: سُئل يحيى بن معاذ عن العارف فقال: رجل كائن بائن، وقال مرة: كان فبان. (الرسالة القشيرية ص٣١٧).

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ١٣٢)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ٢/ ٤٠، ٤/ ٢١٨) وابن حجر في (المطالب العالية ٣٠٩٦، ٣٠٩٧)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ١/ ٢٦٨، ٣/ ٥٩٢، ٤/ ٢٤٧)، وابن كثير في (التفسير ٢/ ١٧٩)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٦/ ١١٥) وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ٢٣٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢/ ١٢٤، ٧/ ٤٥٣، ١٠/ ٥٩)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣/ ١٠٦)، والسيوطي في (الدر المنثور ١/ ٢٩٩) والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٢٥٠، ٥٢٥١، ٥٢٥٦، ٥٢٧٩، ٤٤١٥٤)، وابن أبي شيبة في (المصنف ١٣/ ٢٢٥).

في لياليهم دائماً؛ إمّا لفَرْطِ أَسَفٍ أو لِشدَّةِ لَهَفٍ، وإمَّا لاشتياقٍ أو لفراقٍ ـ كما قالوا:

كم ليلةٍ فيك لا صباحَ لها ... أفنيتُها قابضاً على كبدي
قد غُصَّت العينُ بالدموعِ وقد ... وَضَعْتُ خدي على بنان يدي

وإمّا لكمال أُنسٍ وطيب روح ـ كما قالوا:

سقى اللّهُ عيشاً قصيراً مضى ... زمانَ الهوى في الصبا والمجون
لياليه تحكي انسدادَ لحاظٍ ... لَعينيَّ عند ارتداد الجفون

قوله جلّ ذكره: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾.

السائلُ هو المُتَكفِّف، والمحرومُ هو المتعفِّف ـ ويقال هو الذي يحرم نفسه بترك السؤال... هؤلاء هم الذين يُعْطَون بشرط العلم، فأمَّا أصحابُ المروءة: فغير المستحق لمالهم أَوْلَى من المستحق. وأما أهل الفترة فليس لهم مالٌ حتى تتوجه عليهم مطالبة؛ لأنهم أهل الإيثار ـ في الوقت ـ لكلِّ ما يُفْتَحُ عليهم به.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾.

كما أَنَّ الأرضَ تحمل كلَّ شيء فكذلك العارف يتحمَّل كلَّ أحد.

ومَنْ استثقل أحداً أو تبرَّمَ برؤية أحدٍ فلِغَيْبته عن الحقيقة، ولمطالعته الخَلْقَ بعين التفرقة ـ وأهلُ الحقائق لا يتصفون بهذه الصفة.

ومن الآيات التي في الأرض أنها يُلْقَى عليها كلُّ قذارةٍ وقمامة ـ ومع ذلك تُنْبِتُ كلَّ زَهْرٍ ونَوْرٍ... كذلك العارف يتشرب كلَّ ما يُسْقَى من الجفاء، ولا يترشح إلَّا بكل خُلُقٍ عَلِيّ وشيمةٍ زكيَّة[1].

ومن الآيات التي في الأرضِ أنَّ ما كان منها سبخاً يُتْرَكُ ولا يُعَمَّر لأنه لا يحتمل العمارة ـ كذلك الذي لا إيمانَ له بهذه الطريقة يُهْمَل، فمقابلته بهذه الصفة كإلقاء البذر في الأرض السبخة.

﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾: أي وفي أنفسكم أيضاً آيات، فمنها وقاحتها في همتها، ووقاحتها في صفتها، ومنها دعاواها العريضة فيما ترى منها وبها، ومنها أحوالها المريضة حين تزعم أنَّ ذَرّةً أو (...)[2] بها أو منها.

---

(١) قال القشيري في رسالته عند حديثه عن التصوف: قال الجنيد: الصوفي كالأرض، يُطْرَح عليها كل قبيح، ولا يخرج منها إلا كل مليح، وقال أيضاً إنه كالأرض يطؤها البر والفاجر وكالسحاب يُظل كل شيء، وكالقطر يسقي كل شيء، وقال: إذا رأيت الصوفي يعني بظاهره فاعلم أن باطنه خراب. (الرسالة القشيرية ص٢٨١).

(٢) بياض في الأصل.

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾: أي قسمة أرزاقكم في السماء، فالملائكة الموكَّلون بالأرزاق ينزلون من السماء.

ويقال: السماء ها هنا المطر، فبالمطر ينبت الحَبُّ والمرعى.

ويقال: على رب السماء أرزاقكم لأنه ضَمِنَها.

ويقال: قوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ وها هنا وقف ثم تبتدىء: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾.

أي: إنَّ البعثَ والنشرَ لَحَقٌّ.

ويقال: إنَّ نصري لمحمدٍ ولديني، وللذي أتاكم به من الأحكام ـ لحقٌّ مثل ما أنَّكم تنطقون.

كما يقال: هذا حقٌّ مثل ما أنك ها هنا.

ويقال: معناه: «أنَّ اللَّهَ رازقُكم» ـ هذا القولُ حقٌّ مثلما أنكم إذا سُئِلْتُم: مَنْ ربُّكم؟ ومَنْ خالقكم؟ قلتم: الله... فكما أنكم تقولون: إن الله خالق ـ وهذا حقٌّ... كذلك القولُ بأنَّ اللَّهَ رازقٌ ـ هو أيضاً حقٌّ.

ويقال: كما أنَّ نُطْقَكَ لا يتكلم به غيرُك فرزقُكَ لا يأكله غيرك.

ويقال: الفائدة والإشارة في هذه الآية أنه حال برزقك على السماء، ولا سبيلَ لك إلى العروج إلى السماء لتشتغلَ بما كلفك ولا تتعنَّى في طلب ما لا تصل إليه.

ويقال: في السماء رزقكم، وإلى السماء يُرْفَعُ عَمَلُكم... فإنْ أرَدْتَ أنْ ينزلَ عليكَ رزقُك فأَصْعِدْ إلى السماءِ عمَلكَ ـ ولهذا قالوا: الصلاةُ قَرْعُ باب الرزق، وقال تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ﴾ [طه: ١٣٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾.

قيل في التفاسير: لم يكن قد أتاه خبرُهم قبل نزول هذه الآية.

وقيل: كان عددُهم اثني عشر مَلَكاً. وقيل: جبريل وكان معه سبعة. وقيل: كانوا ثلاثة.

وقوله: ﴿ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ قيل لقيامه ـ عليه السلام ـ بخدمتهم. وقيل: أكرم الضيفَ بطلاقة وجهه، والاستبشار بوفودهم.

وقيل: لم يتكلَّف إبراهيمُ لهم، وما اعتذر إليهم ـ وهذا هو إكرام الضيف ـ حتى لا تكون من المضيف عليه مِنَّةٌ فيحتاج الضيف إلى تحملها.

ويقال: سمّاهم مكرمين لأن غير المدعوِّ عند الكرام كريم.

ويقال: ضيفُ الكرام لا يكون إلا كريماً.

ويقال: المكرمين عند الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾.

أي سلّمنا عليك ﴿سَلَامًا﴾ فقال إبراهيم: لكم مني ﴿سَلَامًا﴾.

وقولُهم: ﴿سَلَامًا﴾ أي لك منّا سلام، لأنَّ السلامَ: الأمانُ.

﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾: أي أنتم قوم منكرون؛ لأنه لم يكن يعرف مِثْلَهم في الأضياف. ويقال: غُرَبَاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾.

أي عَدَلَ إليهم من حيث لا يعلمون وكذلك يكون الروغان.

﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ فشواه، وقرَّبه منهم وقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ؟﴾ وحين امتنعوا عن الأكل:

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾.

تَوَهَّمَ أنهم لصوص فقالوا له: ﴿لَا تَخَفْ﴾.

﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾: أي بَشَّروه بالوَلد، وببقاء هذا الوَلَدِ إلى أن يصير عليماً؛ والعليم مبالغة من العلم، وإنما يصير عليماً بعد كبره.

﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾.

﴿فِي صَرَّةٍ﴾ أي في صيحة شديدة، ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي فضربت وجهها بيدها كفعل النساء ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾: أي أنا عجوز عقيم. وقيل: إنها يومَها كانت ابنةَ ثمانٍ وتسعين سنة، وكان إبراهيمُ ابنَ تسع وتسعين سنة.

﴿قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾.

أي قلنا لكِ كما قال ربُّكِ لنا، وأنْ نُخبِرَكِ أنَّ اللَّهَ هو المُحْكِمُ لأفعالِه، ﴿الْعَلِيمُ﴾ الذي لا يخفى عليه شيء.

﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ؟﴾.

سألهم: ما شأنكم؟ وما أمرُكم؟ وبماذا أُرسِلتُم؟

﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

هم قوم لوط، ولم نجد فيها غيرَ لوطٍ ومَنْ آمن به.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

تركنا فيها علامةً يعتبر بها الخائفون ـ دون القاسية قلوبهم[1].

(١) الآيات من (٣٩ حتّى ٤٦) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

أي بحجة ظاهرة باهرة.

. . . إلى قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]: أي جعلنا بينها وبين الأرض سعة، «وإنا لقادرون»: على أن نزيد في تلك السعة.

﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾.

أي جعلناها مهاداً لكم ثم أثنى على نَفسه قائلاً: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾.

دلَّ بهذا كلِّه على كمال قدرته، وعلى تمام فضله ورحمته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

أي صنفين في الحيوان كالذَّكرِ والأنثى، وفي غير الحيوانِ؛ كالحركة والسكون، والسواد والبياض، وأصناف المتضادات.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

أي فارجِعوا إلى الله ـ والإنسان بإحدى حالتين؛ إمَّا حالة رغبةٍ في شيءٍ، أو حالة رهبة من شيء، أو حال رجاء، أو حال خوف، أو حال جَلْبِ نَفعٍ أو رفع ضُرٍّ. . . وفي الحالتين ينبغي أَنْ يكونَ فِرارُه إلى الله؛ فإنَّ النافعَ والضارَّ هو اللَّهُ.

ويقال: مَنْ صَحَّ فِرارُه إلى اللَّهِ صَحَّ قَرارُه مع الله.

ويقال: يجب على العبد أَنْ يفرَّ من الجهل إلى العلم، ومن الهوى إلى التُّقى، ومن الشكِّ إلى اليقين، ومن الشيطانِ إلى الله.

ويقال: يجب على العبد أَنْ يفرَّ من فعله ـ الذيْ هو بلاؤه إلى فعله الذي هو كفايته، ومن وصفه الذي هو سخطه إلى وصفه الذي هو رحمته، ومن نفسه ـ حيث قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨] إلى نفسه حيث قال: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

أُخَوِّفُكم أليمَ عقوبته إنْ أشركتُم به ـ فإنَّه لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ به.

ثم بيَّنَ أنه على ذلك جرَت عادتُهم في تكذيب الرُّسُل، كأنهم قد توصوا فيما بينهم بذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾.

فأَعْرِضْ عنهم فليست تلحقك ـ بسوء صنيعهم ـ ملامةٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ذَكِّر العاصين عقوبتي ليرجعوا عن خالفةِ أمري، وذَكِّر المطيعين جزيلَ ثوابي ليزدادوا طاعةً وعبادةً، وذَكِّرْ العارفين ما صَرَفْتُ عنهم من بلائي، وذكِّرْ الأغنياء ما

أَتَحتُ لهم من إحساني وعطائي، وذَكَّر الفقراء ما أوجبْتُ لهم من صَرْفِ الدنيا عنهم وأَعْدَدْتُ له من لقائي.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾.

الذين اصطفيتُهم في آزالي، وخَصَصْتُهم ـ اليومَ ـ بحسْنِ إقبالي، ووعدْتُهم جزيلَ أفضالي ـ ما خَلَقْتُهم إلّا ليعبدونِ.

والذين سخطت عليهم في آزالي، وربطتهم ـ اليوم ـ بالخذلان فيما كلّفتهم من أعمالي، وخَلَقْتُ النارَ لهم ـ بحُكْم إلهيتي ووجوب حُكْمي في سلطاني ـ ما خلقتهم إلا لعذابي وأنكالي، وما أَعْدَدْتُ لهم من سلاسلي وأغلالي.

ما أريد منهم أَنْ يُطْعِموا أو يرزقوا أحداً من عبادي فإنَّ الرزّاقَ أنا.

وما أريد أن يطعمونِ فإنني أنا اللّهُ ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾: المتينُ القُوَى.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾.

لهم نصيبٌ من العذابِ مثلَ نصيبِ مَنْ سَلَفَ من أصحابهم من الكفار فلِمَ استعجالُ العذابِ ـ والعذابُ لن يفوتَهم؟.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾.

وهو يوم القيامة.

سورة الطُّور

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ ما استولت على قلبِ عارفٍ إلّا تَيَّمَتْه بكشف جلاله، وما استولت على قلب مُتَأَفِّفٍ إلّا أكرمته بلطف أفضاله. . . فهي كلمةٌ قهّارةٌ للقلوب. . ولكن لا لكلِّ قلب، مُذْهِبَةٌ للكروب. . . ولكن لا لكلِّ كرب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾.

أقسم الله بهذه الأشياء (التي في مطلع السورة)، وجواب القَسَم قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾. والطورُ هو الجبلُ الذي كُلِّم عليه موسى عليه السلام؛ لأنه مَحَلُّ قَدَم الأحبابِ وقتَ سماع الخطاب. ولأنه الموضعُ الذي سَمِعَ فيه موسى ذِكْرَ محمدٍ ﷺ وذِكْرَ أُمَّته حتى نادانا ونحن في أصلاب آبائنا فقال: أعطيتكم قبل أن تسألوني ﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾ مكتوب في المصاحف، وفي اللوح المحفوظ.

وقيل: كتاب الملائكة في السماء يقرؤون منه ما كان وما يكون.

ويقال: ما كتب على نفسه من الرحمة لعباده.

ويقال ما كتب من قوله: «سبقت رحمتي غضبي»(1).

ويقال: هو قوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

ويقال: الكتاب المسطور فيه أعمال العباد يُعْطَى لعباده بأيْمانهم وشمائلهم يوم القيامة. ﴿فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾(2) يرجع إلى ما ذكرنا من الكتاب.

﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾.

---

(١) أخرجه الحميدي في (المسند ١١٢٦)، وابن أبي عاصم في (السنة ١/ ٢٧٠)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ٥٥٦، ١٠/ ٥٥٨)، وابن أبي الدنيا في (حسن الظن ١٣) والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ٩٦).

(٢) الرَّق: الصحيفة البيضاء أو هو ما يُكتب فيه وهو جلد رقيق. وقيل: الرق الصحائف التي تخرج إلى بني آدم يوم القيامة فآخذ كتابه بيمينه وآخذ كتابه بشمال. (لسان العرب ١٠/ ١٢٣ مادة: رقق).

في السماء الرابعة ويقال: هو قلوب العابدين العارفين المعمورة بمحبته ومعرفته. ويقال: هي مواضع عباداتهم ومجالس خلواتهم. وقيل: الكعبة.

﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾.

هي السماء. وقيل سماء هِمَمِهم في الملكوت.

﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾.

البحار المملوءة.

أقسم بهذه الأشياء: ﴿إنّ عذابَه لواقع﴾ وعذابُه في الظاهر ما توعَّدَ به عبادَه العاصين، وفي الباطن الحجابُ بعد الحضور، والسترُ بعد الكشف، والردُّ بعد القبول.

﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾.

إذا رَدَّ عَبْداً أبرمَ القضاءَ بردِّه:

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكن إليـه بـوجـه آخَـر ـ الـدهـر ـ تُـقْـبِـلُ

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾.

﴿تَمُورُ﴾: أي تدور بما فيها، وتسير الجبالُ عن أماكنها، فتسير سيراً.

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾.

الويلُ كلمة تقولها العرب لمن وقع في الهلاك.

﴿فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾: في باطل التكذيب يخوضون.

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾.

يومَ يُدْفَعون إلى النارِ دَفْعاً، ويقال لهم: هذه هي النار التي كنتم بها تكذِّبون...

ثم يسألون: أهذا من قبيل السحر على ما قلتم أم غُطِّيَ على أبصاركم؟!

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

والصبرُ على الجزاء في العاقبة لا قيمة له، لأنَّ عذابَهم عقوبةٌ لهم:

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

المتقون في جنات ونعيم عاجلاً وآجلاً. ﴿فَٰكِهِينَ﴾ أي مُعْجَبِين بما آتاهم ربهم وما أعطاهم.

ويقال: فاكهون: أي ذوو فاكهة: كقولهم رجل تامر أي ذو تمر، ولابنٌ أي ذو لَبن.

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قوم يصير لهم ذلك هنيئاً بطَعْمِه ولَذَّتِه، وقومٌ يصير هنيئاً لهم سماعُ قولهم عنه ـ سبحانه ـ هنيئاً، وقوم يصير لهم ذلك هنياً ليِّناً وهم بمشهد منه:

فاشرب على وجهها كغُرَّتِها مُدامةً في الكؤوس كالشَّررِ[1]

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾.

يظلُّون في سرور وحبور، ونصيب من الأنس موفور.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

يُكملُ عليهم سرورهم بأَنْ يُلْحِق بهم ذُرِّياتِهم؛ فإنَّ الانفرادَ بالنعمة عَمَّنْ القلبُ مشتغِلٌ به من الأهل والولد والذرية يوجِب تَنَغص العيش.

وكذلك كلُّ مَن قلبُ الوليِّ يلاحِظه من صديقٍ وقريب، ووليِّ وخادم، قال تعالى في قصة يوسف: ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٩٣].

وفي هذا المعنى قالوا:

إنيِّ على جفواتها ـ فبربِّها وبكلِّ مُتَّصلٍ بها متوسِّلِ
لأُحبها، وأُحِبُّ منزلَها الذي نزلت به وأحب أهل المنزلِ

﴿وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾.

أي ما أنقصنا من أجورهم من شيءٍ بل وفينا ووفَّرنا. وفي الابتداء نحن أَوْلَيْنا وزدنا على ما أعطينا.

﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ مُطالَبٌ بعمله، يوفىَّ عليه أَجره بلا تأخير، وإنْ كان ذنباً فالكثيرُ منه مغفور، كما أنه اليوم مستور.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝ يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾.

أي لا يجري بينهم باطلٌ ولا يؤثمهم كما يجري بين الشَّربِ[2] في الدنيا، ولا يَذْهبُ الشُّرْبُ بعقولهم فيجري بينهم ما يُخْرِجهم عن حَدِّ الأدبِ والاستقامة.

وكيف لا يكون مجلِسهم بهذه الصفة ومِن المعلوم من يسقيهم، وهم بمشهد منه وعلى رؤية منه؟.

---

(١) المُدامة: الخمر، الشرر: ما تطاير من النار، واحدته شررة.

(٢) الشَّرْب: القوم يشربون، ويجتمعون على الشراب. (لسان العرب ١/٤٨٨ مادة: شرب).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾.

والقومُ عن الدارِ وعمَّن في الدار مُخْتَطَفُون لاستيلاء ما يستغرقهم؛ فالشرابُ يؤنِسُهم ولكن لا بِمَنْ يجانسهم؛ وإذا كان ـ اليومَ ـ للعبد وهو في السجن في طول عمره ساعةُ امتناع عن سماع خطاب الأغيار، وشهود واحدٍ من المخلوقين ـ وإنْ كان ولداً عزيزاً، أو أخاً شفيقاً ـ فمِنَ المحال أنْ يُظَنّ أنه يُرَدُّ من الأعلى إلى الأدنى. . . إنْ كان من أهل القبول والجنة، ومن المحال أن يظن أنه يكون غداً موسوماً بالشقاوة.

وإذا كان العبدُ في الدنيا يقاسي في غُرْبته من مُقَاساة اللتيا والتي ـ فماذا يجب أن يقال إذا رجع إلى منزله؟ أيبقى على ما كان عليه في سفرته؟ أم يلقى غير ما كان يقاسي في سَفرته، ويتجرع غير ما كان يُسْقى من كاسات كُرْبته؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾.

لولا أَنهم قالوا: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ لكانوا قد لاحظوا إشفاقَهم، ولَكن الحقّ ـ سبحانه ـ اختطفهم عن شُهود إِشفاقهم؛ حيث أَشهدهم مِنَّته عليهم حتى قالوا: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾.

أي أنهم يعلمون أَنّكَ ليست بك كَهانةٌ ولا جُنونٌ، وإنما قالوا ذلك على جهة التسفيه؛ فالسّفيهُ يبسط لسانُه فيمن يَسُبُّه بما يعلم أنه منه بريء.

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾.

نتربص به حوادث الأيام؛ فإنّ مِثْل هذا لا يدوم، وسيموت كما مات مِنْ قبْله كُهّانٌ وشعراء.

ويقال: قالوا: إنَّ أباه مات شاباً، ورَجَوْا أَنْ يموت كما مات أبوه، فقال تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا. . .﴾ فإننا منتظرون، وجاء في التفسير أَنّ جميعَهم ماتوا. فلا ينبغي لأحدٍ أن يُؤَمِّلَ موتَ أحدٍ. فقَلّ مَنْ تكون هذه صَنعتُه إلّا سَبقَتْه المَنِيَّةُ ـ دون أَنْ يُدْرِكَ ما يتمنّاه مِنْ الأمنيّة.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾.

أتأمرهم عقولهم بهذا؟ أَم تحملهم مجَاوزة الحدّ في ضلالهم وطغيانهم عَلَى هذا؟

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾.

إذا كانوا يزعمون أنك تقول هذا القول من ذاتِ نَفْسك فليأتوا بحديثٍ مثلِه إنْ كانوا صادقين فيما رَمَوْك به!

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ .

كلّا ليس الأمرُ كذلك، بل اللّهُ هو الخالق وهم المخلوقون[1] .

أم هم الذين خلقوا السمواتِ والأرضَ؟ ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ .

ـ أي خزائن أرزاقه ومقدوراته؟ ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ المُتسلِّطون عَلَى الناس؟ .

أم لهم سُلّمٌ يرتقون فيه فيستمعون ما يجري في السموات؟ ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ثم إنه سفهَ أحلامهم فقال:

﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ .

أم تسألهم عَلَى تبليغ الرسالة أجراً فهم مثقلون من الغُرْم والإلزام في المال (بحيث يزهدهم ذلك في اتباعك؟).

﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ذلك؟

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ أي أن يمكروا بك مكراً ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ .

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يفعل شيئاً مما يفعل الله؟ تنزيهاً له عن ذلك! .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ .

أي إنْ رأوْا قطعةً من السماء ساقطةً عليهم قالوا: إنه سحابٌ مركوم رُكم بعضه عَلَى بعض والمقصود أنهم مهما رَأَوْا من الآيات لا يُؤمِنون. ولو فتحنا عليهم باباً من السماء حتى شاهدوا بالعين لقالوا: إنما سُكرَتْ أبصارنا، وليس هذا عياناً ولا مشاهدةً.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ .

أي فأعرضْ عنهم حتى يُلاقوا يومَهم الذي فيه يموتون، يوم لا يُغْني عنهم كيدُهم شيئاً، ولا يُمنَعون من عذابنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

دونَ يوم القيامة لهم عذابُ القَتْلِ والسَّبْيِ، وما نَزَلَ بهم من الهوان والخزي يوم بدر وغيره.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ : أنَّ اللَّهَ ناصرٌ لدينه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ .

أنت بمرأىً مِنَّا، وفي نصرةٍ منَّا.

---

(١) الآية (٣٦) لم ترد.

﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾: في هذا تخفيفٌ عليه وهو يقاسي الصبر.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾.

أي تقومُ للصلاةِ المفروضةِ عليك.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾.

قيل: المغرب والعشاء وركعتا الفجر.

وفي الآيةُ دليل وإشارة إلى أنه أَمَرَه أَنْ يَذْكُرَه في كلِّ وقت، وألا يخلوَ وقتٌ من ذِكْرِه.

والصبرُ لحُكمِ اللَّهِ شديدٌ، ولكن إذا عَرَفَ اطلاعَ الربِّ عليه سَهُلَ عليه ذلك وهان.

سورة النَّجْم

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ حليمٌ رحيمٌ، يحلم فيما يعلم، ويستر ما يبصر ويغفر، وعَلَى العقوبة يقْدِرُ، يَرَى ويُخْفى، ويَعْلم ولا يُبْدِي.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾.

والثريا إذا سقط وغرب. ويقال: هو جِنْسُ النجوم أقسم بها.

ويقال: هي الكواكب. ويقال: أقسم بنجوم القرآن عَلَى النبي ﷺ ويقال هي الكواكب التي تُرمَى بها الشياطين.

ويقال أقسم بالنبي ﷺ عند مُنَصرفهِ من المعراج.

ويقال: أقسم بضياء قلوب العارفين ونجوم عقولِ الطالبين.

وجوابُ القسَم قوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾: أي ما ضَلَّ عن التوحيد قط، ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾: الغيُّ: نقيضُ الرُّشد.. وفي هذا تخصيصٌ للنبي ﷺ حيث تولَّى ـ سبحانه ـ الذّبَّ عنه فيما رُميَ به، بخلاف ما قال لنوحٍ عليه السلام وأذِنَ له حتى قال: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ [الأعراف: ٦١]، وهود قال: ﴿لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ [الأعراف: ٦٧]. وغير ذلك، وموسى قال لفرعون: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]. وقال لنبينا ﷺ: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾: معناه ما ضلَّ صاحبُكم، ولا غَفَلَ عن الشهود طَرْفَةَ عينٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.

أي ما ينطق بالهوى، وما هذا القرآنُ إلا وحيٌ يُوحَى. وفي هذا أيضاً تخصيصٌ له بالشهادة؛ إذ قال لداود: ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ [ص: ٢٦].

وقال في صفة نبيِّنا ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾.

﴿ومتى ينطق عن الهوى﴾ وهو في محل النجوى؟ في الظاهر مزمومٌ بِزِمام التقوى، وفي السرائر في إيواء المولى، مُصَفًّى عن كدورات البشرية، مُرَقًّى إلى شهود الأَحَدِية، مُكاشَفٌ بجلالِ الصمدية، مُختَطفٌ عنه بالكُلِّيَّة، لم تبقَ منه إلا للحقِّ بالحقِّ بقية... ومَنْ كان بهذا النعت... متى ينطق عن الهوى؟

قوله جلّ ذكره: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾.

أي جبريل عليه السلام. و ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾: أي ذو قوة وهو جبريل. ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي جبريل.

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾.

دنا جبريلُ من محمدٍ عليه السلام، فتدلَّى جبريلُ: أي نَزَلَ من العُلُوّ إلى محمد.

وقيل: «تدلَّى» تفيد الزيادةَ في القُرْب، وأَنَّ محمداً عليه السلام هو الذي دنا من ربِّه دُنُوَّ كرامة، وأَنَّ التدلِّي هنا معناها السجود.

ويقال: دنا محمدٌ من ربِّه بما أُودِعَ من لطائفِ المعرفة وزوائِدها، فتدلَّى بسكون قلبه إلى ما أدناه.

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾: فكان جبريل ـ وهو في صورته التي هو عليها ـ من محمد ﷺ بحيث كان بينهما قَدْرُ قوسين أو أدنى.

ويقال: كان بينه ـ ﷺ ـ وبين الله قَدْر قوسين: أراد به دُنُوَّ كرامة لا دُنُوَّ مسافة.

ويقال: كان من عادتهم إذا أرادوا تحقيقَ الأُلْفَةِ بينهم إلصاقُ أحدِهم قوسَه بقوس صاحبه عبارةً عن عقد الموالاة بينهما، وأنزل اللَّهُ ـ سبحانه ـ هذا الخطابَ على مقتضى معهودهم. ثم رفع اللَّهُ هذا فقال: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي بل أدنى.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾.

أي أوحى اللَّهُ إلى محمدٍ ما أوحى. ويقال: أَحْمَلَه أحْمَالاً لم يَطَّلِعْ عليها أحدٌ.

ويقال: قال له: ألم أجدك يتيماً فآويتُك؟ ألم أجدك ضالاً فهديتُك؟

أَلم أجدك عائلاً فأغنيتك؟ أَلم أشرح لك صدرك؟

ويقال: بَشَّرَه بالحوض والكوثر.

ويقال: أوحى إليه أَنَّ الجنَّةَ مُحَرَّمةٌ عَلَى الأنبياءِ حتى تدخلها، وعلى الأمم حتى تدخلها أُمتُّك. والأَوْلَى أن يقال: هذا الذي قالوه كله حَسَنٌ، وغيره مما لم يَطَّلِعْ أحدٌ... كله أيضاً كان له في تلك الليلة وحدَه؛ إذ رقَّاه إلى ما رقَّاه، ولقَّاه بما لقَّاه، وأدناه حيث لا دنوٌ قبله ولا بعده، وأخذه عنه حيث لا غيرٌ، وأصحاه له في عين ما محاه عنه، وقال له ما قال... دون أن يَطَّلِعَ أحدٌ على ما كان بينهما من السِّرِّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾.

ما كذَّبَ فؤادُ محمدٍ ﷺ ما رآه ببصره من الآيات. وكذلك يقال: رأى ربَّه تلك الليلة على الوصف الذي عَلِمَه قبل أن يراه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾.

أفتجادلونه على ما يرى؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾.

أي جبريلُ رأى اللَّهَ مرةً أخرى حين كان محمدٌ عند سدرة المنتهى؛ وهي شجرة في الجنة، وهي منتهى الملائكة، وقيل: تنتهي إليها أرواحُ الشهداء. ويقال: تنتهي إليها أرواحُ الخَلْقِ، ولا يَعْلم ما وراءها إلا الله تعالى ـ وعندها ﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ وهي جنة من الجِنان.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾.

يغشاها ما يغشاها من الملائكة ما الله أعلمُ به.

وفي خبر: «يغشاها رفرف طير خُضْرٍ».

ويقال: يغشاها فَرَاشٌ من ذَهَبٍ.

ويقال: أُعْطِيَ رسول الله (ﷺ) عندها خواتيم البقرة، وغُفِرَ لمن مات من أُمَّتِه لا يشرك بالله شيئاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾.

ما مَالَ ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ ببصره عمَّا أُبيح له من النظر إلى الآيات، والاعتبارِ بدلائلها.

فما جَاوَزَ حَدَّه، بل رَاعَى شروطَ الأدبِ في الحَضْرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾.

أي «الآية» الكبرى، وحَذَفَ الآية... وهي تلك التي رآها في هذه الليلة. ويقال: هي بقاؤه في حال لقائه ربَّه بوصفِ الصَّحْوِ، وحَفِظَه حتى رآه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾.

هذه أصنامٌ كانت العرب تعبدها؛ فاللات صنمٌ لثقيف، والعُزَّى شجرةٌ لغطفان، ومناة صخرة لهذيل وخزاعة.

ومعنى الآية: أَخْبِرونا... هل لهذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله من القدرة أن تفعل بعائذٍ بها ما فَعَلْنا نحن لمحمدٍ ﷺ من الرُّتب والتخصيص؟.

ثم وبَّخهم فقال: أرأيتم كيف تختارون لأنفسكم البنين وتنسبون البنات إلى الله؟ تلك إذاً قسمةٌ ناقصةٌ!

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾.

أنتم ابتدعتُم هذه الأسماءَ من غير أنْ يكونَ اللَّهُ أَمَركم بهذا، أو أذِن لكم به.

فأنتم تتبعون الظنَّ، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾: فأعرضوا عنه، وكما أنَّ ظنَّ الكفار أوْجبَ لهم الجهلَ والحَيْرةَ والحُكْمَ بالخطأ ـ فكذلك في هذه الطريقة: مَنْ عَرَّجَ على أوصاف الظنِّ لا يَحظَى بشيءٍ من الحقيقة؛ فليس في هذا الحديث إلا القطعُ والتحقُّق، فنهارُهم قد مَتَعَ، وشمسُهم قد طلعت، وعلومُهم أكثرها صارت ضرورية.

أمَّا الظنُّ الجميلُ بالله فليس من هذا الباب، والتباسُ عاقبةِ الرجلِ عليه ليس أيضاً من هذه الجملة ذات الظن المعلول في الله، وفي صفاته وأحكامه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾.

أي ليس للإنسان ما يتمنَّاه؛ فإنَّه يتمنى طولَ الحياةِ والرفاهيةَ وخِصْبَ العَيْشِ... وما لا نهاية له، ولكنَّ أحداً لا يبلغ ذلك بتمامه.

ويقال: ما يتمنَّاه الإنسانُ أنْ يرتفعَ مرادُه واجباً في كل شيء ـ وأَن يرتفعَ مرادُ عَبْدٍ واجباً في كل شيءٍ ليس من صفات الخَلْقِ بل هو الله، الذي له ما يشاء:

﴿فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾.

له الآخرةُ والأُولى خَلْقاً ومِلْكاً، فهو المَلِكُ المالك صاحبُ المُلْكِ التام. فأمَّا المخلوقُ فالنقصُ لازِمٌ للكُلِّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾.

وهذا ردٌّ عليهم حيث قالوا: إنَّ الملائكةَ شفعاؤنا عند الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾.

هذه التَّسْمِيةُ من عندهم، وهم لا يتبعون فيها علماً أو تحقيقاً... بل ظَنًّا ـ والظنُّ لا يفيد شيئاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾.

أي أَعْرِض عمَّن أعرض عن القرآنِ والإيمان به وتدبُّرِ معانيه، ولم يُرِدْ إلا الحياةَ الدنيا. ذلك مبلغهم من العلم؛ وإنما رضوا بالدنيا لأنهم لم يعلموا حديث الآخرة، وإنَّ ربَّك عليمٌ بالضالِّ، عليمٌ بالمهتدِي... وهو يجازي كلاً بما يستحق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾.

يجزي الذين أساؤوا بالعقوبات، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾.

الذنوبُ كلُّها كبائر لأنها مخالِفةٌ لأمر الله، ولكن بعضَها أكبرُ من بعضٍ. ولا شيءَ أعظمُ من الشِّرك. ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ المعاصي.

﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾: تكلموا فيه، وقالوا: إنه استثناء منقطع، واللمم ليس بإثم ولا من جملة الفواحش.

ويقال: اللمم من جملة الفواحش ولكن فيها اشتباهاً ـ فأخبر أنه يغفرها.

ويقال: اللمم هو أن يأتيَ المرءُ ذلك ثم يُقْلِعَ عنه بالتوبة.

وقال بعضُ السَّلَفِ: هو الوقعة من الزِّنا تحصل مرةً ثم لا يعود إليها، وكذلك شرب الخمر، والسرقة... وغير ذلك، ثم لا يعود إليها.

ويقال: هو أن يهم بالزَّلّة ثم لا يفعلها.

ويقال: هو النَّظَر. ويقال: ما لا حدَّ عليه من المعاصي، وتُكَفِّر عنه الصلوات. (والأصحُّ أنه استثناء منقطع وأن اللمم ليس من جملة المعاصي).

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾.

﴿إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾: يعني خَلْقَ آدم.

ويقال: تزكيةُ النَّفْسِ من علامات كَوْنِ المرءِ محجوباً عن الله؛ لأنَّ المجذوب إلى الغاية والمستغرق في شهود ربِّه لا يُزكِّي نفسه.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾: لأنه أعلمُ بكم منكم.

ويقال: مَنْ اعتقد أنَّ على البسيطة أحداً شرٌّ منه فهو مُتَكبِّرٌ.

ويقال: المسلمُ يجب أنْ يكونَ بحيث يرى كلَّ مسلمٍ خيراً منه: فإن رأى

شيخاً، قال: هو أكثرُ منّي طاعةً وهو أفضلُ منّي، وإنْ رأى شاباً قال: هو أفضلُ مني لأنه أقلُّ منّي ذَنباً.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾.

أعرض عن الحقّ، وتصدَّق بالقليل. ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ أي قطع عطاءه.

﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾.

﴿فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾: فهو يعلم صِحَّةَ ذلك. يقال: هو المنافق الذي يُعين على الجهاد قليلاً ثم يقطع ذلك:

﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ﴾: فهو يرى حاله في الآخرة؟

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾.

أم لم يُنَبَّأ هذا الكافرُ بما في صحف موسى، وصحف إبراهيم الذي وفّى؛ أي أتمّ ما طُولِبَ به في نَفْسِه ومالِه ووَلدِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾.

الناسُ في سَعْيِهم مختلِفون؛ فَمَنْ كان سعيُهُ في طلب الدنيا خَسِرت صفقتُه، ومن كان سعيُهُ في طَلَبِ الجنة ربحت صفقته، ومن كان سعيُهُ في رياضة نَفْسِه وصل إلى رضوان الله، ومَنْ كان سعيه في الإرادة شَكَرَ اللَّهُ سَعْيَه ثم هداه إلى نَفْسِه.

وأمَّا المُذْنِبُ ـ فإذا كان سعيُهُ في طلب غفرانه، ونَدَمِ القلبِ على ما اسودَّ من ديوانه، فسوف يجد من الله الثوابَ والقربة والكرامة والزلفة.

ومَنْ كان سَعْيُه في عَدِّ أنفاسِه مع الله؛ لا يُعَرِّج على تقصير، ولا يُفَرِّط في مأمور فسيرى جزاءَ سَعْيِهِ مشكوراً في الدنيا والآخرة، ثم يشكره بأَنْ يُخاطِبَه في ذلك المعنى بإسماعهِ كلامَه من غير واسطة: عبدي، سَعْيُك مشكور، عبدي، ذَنْبُكَ مغفور.

﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾: هو الجزاءُ الأكبرُ والأَجَلُّ، جزاءٌ غير مقطوعٍ ولا ممنوعٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾.

إليه المرجعُ والمصيرُ، فابتداءُ الأشياءِ من الله خَلْقاً، وانتهاءُ الأشياءِ إلى الله مصيراً.

ويقال: إذا انتهى الكلامُ إلى اللهِ تعالى فاسْكُتُوا.

ويقال: إذا وَصَلَ العبدُ إلى معرفةِ الله فليس بعدَه شيءٌ إلا ألطافاً من مالٍ أو منالٍ أو تحقيق آمالٍ أو أحوالٍ... يُجْريها على مرادِه ـ وهي حظوظٌ للعباد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾.

أراد به الضحك والبكاء المتعارَف عليهما بين الناس؛ فهو الذي يُجْريه ويَخْلُقُه.

ويقال: أضحك الأرضَ بالنباتِ، وأبكى السماءَ بالمطرِ.

ويقال: أضحك أهلَ الجنة بالجنة، وأبكى أهل النار بالنار.

ويقال: أضحك المؤمنَ في الآخرة وأبكاه في الدنيا، وأضحك الكافرَ في الدنيا وأبكاه في الآخرة.

ويقال: أضحكهم في الظاهر، وأبكاهم بقلوبهم.

ويقال: أضحك المؤمنَ في الآخرة بغفرانه، وأبكى الكافرَ بهوانه.

ويقال: أضحك قلوبَ العارِفين بالرضا، وأبكى عيونهم بخوف الفراق.

ويقال: أضحكهم برحمته، وأبكى الأعداءَ بسخطه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾.

أماته في الدنيا، وأحياه في القبر؛ فالقبر إما للراحة وإما للإحساس بالعقوبة.

ويقال: أماته في الدنيا، وأحياه في الحشر.

ويقال: أمات نفوسَ الزاهدين بالمجاهدة، وأحيا قلوبَ العارفين بالمشاهدة.

ويقال: أمات نفوسَهم بالمعاملات، وأحيا قلوبهم بالمواصلات.

ويقال: أماتها بالهيبة، وأحياها بالأُنْس.

ويقال: بالاستتار، والتجلِّي.

ويقال: بالإعراض عنه، والإقبال عليه.

ويقال: بالطاعة، والمعصية.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾.

سماهما زوجين لازدواجهما عند خلْقهما من النُّطْفة(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾.

﴿أَغۡنَىٰ﴾: أعطى الغِنَى، ﴿وَأَقۡنَىٰ﴾: أكثر القنية أي المال. وقيل ﴿وَأَقۡنَىٰ﴾: أي أحوجه إلى المال ـ فعلى هذا يكون المعنى: أنه خَلَقَ الغِنَى والفقر.

ويقال: ﴿وَأَقۡنَىٰ﴾ أي أرضاه بما أعطاه.

ويقال: ﴿أَغۡنَىٰ﴾ أي أقنع، ﴿وَأَقۡنَىٰ﴾: أي أرضى.

(١) الآيتان (٤٦، ٤٧) لم تردا.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾.

(الشِّعرى: كوكبٌ يطلع بعد الجوزاء[١] في شدة الحر، وكانت خزاعة تعبدها فأعْلَمَ اللّهُ أنه ربُّ معبودهم هذا).

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾.

عاد الأولى هم قوم هود، وعاد الأخرى هي إرَم ذات العماد، كما أهلك ثموداً فما أبقى منهم أحداً. وأهْلَكَ مِنْ قَبْلِهم قومَ نوحٍ الذين كانوا أظلمَ من غيرهم وأغوى لِطُولِ أعمارهم، وقوة أجسادهم.

﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾.

أي المخسوف بها، وهي قرى قوم لوط، قَلَبَها جبريل عليهم، فهي مقلوبة معكوسة.

وقوله: ﴿أَهۡوَىٰ﴾ أي: أسقطها اللّهُ إلى الأرض بعدما اقتلعها من أصلها، ثم عَكَسَها وألقاها في الأرض، فغشاها ما غشاها من العذاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾.

فبأي آلاء ربك ـ أيها الإنسان ـ تتشكك؟ وقد ذكر هذا بعد ما عدَّ إنعامَه عليهم وإحسانَه إليهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ﴾.

هو محمد ﷺ، أرسلناه نذيراً كما أرسلنا الرُّسُلَ الآخرين.

﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾.

أي قَرُبَت القيامة. ولا يقدر أحدٌ على إقامتها إلا الله، وإذا أقامها فلا يقدر أحدٌ على ردِّها وكَشْفِها إلا الله.

ويقال: إذا قامت قيامة هذه الطائفة ـ اليومَ ـ فليس لها كاشفٌ غيره. وقيامتُهم تقوم في اليومِ غيرَ مَرَّةٍ. تقوم بالهَجْرِ والنَّوى والفراق.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ﴾.

أفمن هذا القرآن تعجبون، وتكونون في شكٍّ، وتستهزئون؟

﴿وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ﴾: أي لاهون..

﴿فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ وَٱعۡبُدُواْ﴾: فاسجدوا لله ولا تعبدوا سواه.

---

(١) الجوزاء: أحد بروج السماء. ونطاق الجوزاء: ثلاثة نجوم نيرة مصطفة في وسط الجوزاء.

سورة القمر

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: كلمة بها نور القلوب والأبصار، وبعرفانها يحصل سرورُ الأرواح والأسرار. كلمة تدلُّ على جلاله ـ الذي هو استحقاقه لأوصافه. كلمة تدل على نعته الذي هو غاية أفضاله وألطافه.

قوله جلّ ذكره: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾.

أجمع أهلُ التفسير على أنَّ القمرَ قد انشقَّ على عهد الرسول ﷺ.

قال ابن مسعود[1]: «رأيت حراء بين فلقتي القمر»[2] ولم يوجد لابن مسعود مخالف في ذلك؛ فقد روي أيضاً عن أنس[3] وابن عمر[4] وحذيفة[5] وابن عباس[6] وجبير بن مطعم[7].. كلهم رووا هذا الخبر.

---

(١) هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي (... ـ ٣٢ هـ = ... ـ ٦٥٣م) أبو عبد الرحمن، صحابي. من أكابرهم، فضلاً وعقلاً، وقرباً من رسول الله ﷺ وهو من أهل مكة، ومن السابقين إلى الإسلام، وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة. وكان خادم رسول الله الأمين وصاحب سره. ورفيقه في حله وترحاله وغزواته. وولي بعد وفاة النبي ﷺ بيت مال الكوفة ثم قدم المدينة في خلافة عثمان فتوفي فيها عن نحو ستين عاماً.
الأعلام ٤/ ١٣٧، والإصابة ت٤٩٥٥، وغاية النهاية ١/ ٤٥٨، وحلية الأولياء ١/ ١٢٤.

(٢) هناك روايات أخرى للحديث: «إذا انفلق، انشق، فانشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين أو فلقتين...» أخرجه مسلم (منافقين ٤٤، ٤٥)، والترمذي (تفسير سورة ٥٤، ١)، وأحمد بن حنبل ١، ٤٤٧.

(٣) هو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم البخاري الخزرجي الأنصاري (١٠ ق.هـ ـ ٩٣ هـ = ٦١٢ ـ ٧١٢م) أبو ثمامة أو أبو حمزة. صاحب رسول الله ﷺ وخادمه. روى عنه رجال الحديث ٢٢٨٦ حديثاً مولده بالمدينة وأسلم صغيراً وخدم النبي ﷺ إلى أن قبض. ثم رحل إلى دمشق، ومنها إلى البصرة، فمات فيها. وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة.
الأعلام ٢/ ٢٤، ٢٥، وطبقات ابن سعد ٧/ ١٠، وصفة الصفوة ١/ ٢٩٨، وتهذيب ابن عساكر ٣/ ١٣٩.

(٤) انظر ترجمته في الأعلام ٤/ ١٠٨، والإصابة ت٤٨٢٥، وحلية ١/ ٢٩٢، وصفة الصفوة ١/ ٢٢٨.

(٥) انظر ترجمته في الأعلام ٢/ ١٧١، وتهذيب التهذيب ٢/ ٢١٩، وحلية ١/ ٢٧٠، وصفة الصفوة ١/ ٢٤٩.

(٦) انظر ترجمته في الأعلام ٤/ ٩٥، وصفة الصفوة ١/ ٣١٤، وحلية ١/ ٣١٤، والإصابة ت٤٧٧٢.

(٧) هو جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف القرشي (... ـ ٥٩ هـ = ... ـ ٦٧٩م) أبو عدي صحابي، كان من علماء قريش وسادتهم. توفي بالمدينة. وعده الجاحظ من كبار النسابين. له ٦٠ حديثاً. =

وفيه إعجازٌ من وجهين: أحدهما رؤية مَنْ رأى ذلك، والثاني خفاء مثل ذلك على مَنْ لم يَرَه؛ لأنه لا ينكتم مثله في العادة فإذا خفي كان نقض العادة.

وأهل مكة رأوا ذلك، وقالوا: إنَّ محمداً قد سحر القمر.

ومعنى ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾: أي ما بقي من الزمانِ إلى القيامةِ إلا قليلٌ بالإضافةِ إلى ما مضى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾.

يعني أن أهل مكة إذا رأوا آية من الآيات أعرضوا عن النظر فيها، ولو نظروا لحصل لهم العلمُ واجباً.

﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾: أي دائمٌ قويٌّ شديد.. ويقال إنهم قالوا: هذا ذاهب لا تبقى مدته فاستمر: أي ذهب.

﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾: التكذيب واتباع الهوى قريبان؛ فإذا حَصَل اتباعُ الهوى فمِنْ شُؤمِه يحصل التكذيب؛ لأنَّ اللَّهَ يُلَبِّس على قلب صاحبه حتى لا يستبصر الرشد.

أما اتباع الرضا فمقرونٌ بالتصديق؛ لأنَّ اللَّهَ ببركاتِ اتباع الحقّ يفتح عينَ البصيرة فيحصل التصديق.

وكلُّ امرىءٍ جَرَتْ له القِسْمةُ والتقدير فلا محالةَ يستقر له حصولُ ما قُسِمَ وقدِّر له.

﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾: يستقر عملُ المؤمنِ فتُوجَبُ له الجنة، ويستقر عملُ الكافرِ فيُجازَى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾.

جاءهم من أخبارِ الأنبياءِ والأممِ الذين مِنْ قَبْلِهم والأزمنةِ الماضية ما يجب أَنْ يحصلَ به الارتداعُ، ولكنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ أَسْبَلَ على بصائرهم سُجُوف[1] الجهلِ فعَموا عن مواضع الرشد.

﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ..﴾: بدل من (ما) فيما سبق: (ما فيه مزدجر).

= الأعلام ٢/ ١١٢، والإصابة ١/ ٢٣٥ وفيه: مات سنة سبع أو ثمان أو تسع وخمسين.

(١) السجوف: (ج) السجف: أحد السترين المقرونين بينهما فرجة.

والحكمة البالغة هي الصحيحة الظاهرة الواضحة لمن تفكّر فيها.

﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾: وأي شيء يغني إنذارُ النذيرِ وقد سَبَقَ التقديرُ لهم بالشقاء؟

قوله جلّ ذكره: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ﴾.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾: ها هنا تمام الكلام - أي فأعرِضْ عنهم، وهذا قبل الأمر بالقتال. ثم استأنف الكلامَ: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ..﴾ والجواب: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ - أراد به يوم القيامة.

ومعنى ﴿نُّكُرٍ﴾: أي شيءٌ ينكرونه (بِهَوْله وفظاعته)[1] وهو يوم البعث والحشر.

وقوله: ﴿خُشَّعًا﴾ منصوب على الحال، أي يخرجون من الأجداث - وهي القبور - خاشعي الأبصار.

﴿... كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

كأنهم كالجراد لكثرتهم وتفرقهم، ﴿مُّهْطِعِينَ﴾: أي مُديمي النظر إلى الداعي - وهو إسْرافيل.

﴿يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾: لتوالي الشدائد التي فيه.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾.

كذب قوم نوح نبيَّهم، وقالوا: إنه مجنون، وزجروه وشتموه.

وقيل: ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾: أي استطار عَقْلَهُ، أي قومُ نوحٍ قالوا له ذلك.

فدعا ربَّه فقال: إِني مغلوب؛ أي بتسلُّطِ قومي عليَّ؛ فلم يكن مغلوباً بالحُجّة لأنَّ الحُجَّةَ كانت عليهم، فقال نوح لله: اللهمَّ فانتَصِرْ منهم أي انْتَقِمْ.

ففتحنا أبواب السماء بماءٍ مُنْصَبٌ، وشَقَقْنَا عيوناً بالماء، فالتقي ماء السماءِ وماءُ الأرضِ على أمرٍ قد قُدِّرَ في اللوح المحفوظ، وَقُدِرَ عليه بإهلاكهم!

وفي التفاسير: أن الماء الذي نَبَعَ من الأرضِ نَضَبَ. والماء الذي نزل من السماء هو البخارُ اليومَ.

﴿وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾.

وحملنا نوحاً على ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ﴾ أي سفينة، ﴿وَدُسُرٍ﴾ يعني المسامير وهي جمع دسار أي مسمار.

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾.

﴿بِأَعْيُنِنَا﴾: أي بمرأى مِنَّا. وقيل: تجري بأوليائنا.

ويقال: بأعين ملائكتنا الذين وكلناهم لحفظهم.

ويقال: بأعين الماء الذي أنبعناه من أوجه الأرض.

﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾: أي الذين كفروا بنوح.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

جعلنا أَمْرَ السفينةِ علامةً بَيِّنَةً لِمَنْ يعتبر بها.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾: فهل منكم من يعتبر؟. أمَرَهم بالاعتبار بها.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾.

قالها على جهة التعظيم لأمره.

وقد ذَكَرَ قصة نوح هنا على أفصح بيانٍ وأقصرِ كلام وأتَمِّ معنًى.

وكان نوحٌ ـ عليه السلام ـ أطولَ الأنبياء عمراً، وأشدَّهم للبلاءِ مقاساةً.

ثم إن اللَّهَ ـ سبحانه ـ لما نَجَّى نوحاً متَّعه بعد هلاك قومه ومتع أولادَه، فكلُّ مَنْ على وجه الأرض من أولاد نوح عليه السلام. وفي هذا قوةٌ لرجاء أهل الدين، إذا لقوا في دين الله محنةً؛ فإنَّ الله يُهلِكُ ـ عن قريب ـ عَدوَّهم، ويُمكِّنُهم من ديارهم وبلادهم، ويورثهم ما كان إليهم.

وكذلك كانت قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه، وسنةُ اللَّهِ في جميع أهل الضلال أن يُعِزَّ أولياءَه بعد أن يزهق أعداءَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

يَسَّرنا قراءَته على ألسنةِ الناسِ، ويسَّرنا عِلْمه على قلوبِ قومٍ، ويسَّرنا فَهْمَه على قلوب قوم، ويَسَّرْنا حِفْظَه على قلوبِ قومٍ، وكلُّهم أهلُ القرآن، وكلُّهم أهلُ القرآن، وكلُّهم أهلُ الله وخاصته.

ويقال: كاشَفَ الأرواحَ من قومٍ ـ بالقرآن ـ قبل إدخالها في الأجساد.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ لهذا العهد الذي جرى لنا معه.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾.

كَذَّبوا هوداً، فأرسلنا عليهم ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي: باردةً شديدة الهُبوب، يُسْمَعُ لها صوت.

﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ أي: في يوم شؤم استمرَّ فيه العذابُ بهم، ودام ذلك فيهم

ثمانيةَ أيام وسَبْعَ ليالٍ. وقيل: دائم الشؤم تنزع رياحُه الناسَ عن حُفَرِهم التي حفروها حتى صاروا كأنهم أسافلُ نخلٍ مُنْقَطِع. وقيل: كانت الريح تقتلع رؤوسهم عن مناكبهم ثم تُلْقي بهم كأنهم أصول نخلٍ قطعتْ رؤوسُها.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

هَوَّنا قراءَتَه وحِفْظَه؛ فليس كتابٌ من كُتُبِ الله تعالى يُقْرَأُ ظاهراً إلَّا القرآن.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾.

هم قوم صالح. وقد مضى القولُ فيه، وما كان من عقرهم للناقة.. إلى أن أرسل الله عليهم صيحةً واحدةً أوجبت هذا الهلاك، فَصيَّرَهم كالهشيم، وهو اليابس من النبات، ﴿ٱلْمُحْتَظِرِ﴾: أي: المجعول في الحظيرة، أو الحاصل في الحظيرة[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾.

فأرسلنا عليهم ﴿حَاصِبًا﴾: أي: حجارةً رُمُوا بها.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾: أي: جعلنا إنجاءَهم في إهلاك أعدائهم.

وهكذا نجزي من شكر؛ فمثل هذا نعامِلُ به مَن شَكَرَ نعمتنا.

والشُّكْرُ على نِعَم الدفع أتمُّ من الشكر على نِعَم النفع ـ ولا يَعْرِفُ ذلك إلا كلُّ مُوَفَّق كَيِّس[٢].

﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾.

جاء جبريلُ ومَسَحَ بجناحه عَلَى وجوههم فَعمُوا، ولم يهتدوا للخروج ـ وكذلك أجرى سُنَّتَه في أوليائه أنْ يَطْمِسَ على قلوبِ أعدائهم حتى يلبس عليهم كيف يؤذون أولياءَه ثم يُخَلِّصُهم من كيدهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾.

أخبر أنه يفعل هذا بأعداء الرسول ﷺ، وحقَّق ذلك يوم بَدر، فصار ذلك معجزاته صلوات الله عليه وسلامه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾.

سَحْبُهم على الوجوهِ أمارةٌ لإذْلالهم، ولو كان ذلك مرةً واحدةً لكانت عظيمة ـ فكيف وهو التأبيد والتخليد؟!

وكما أنّ أمارةَ الذُّلِّ تظهر على وجوههم فعلامةُ إعزازِ المؤمنين وإكرامهم تظهر

---

(١) الآيات من (٢٥ حتى ٣٢) غير موجودة.

(٢) الآية (٣٦) لم ترد.

على وجوههم، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢]. وقال: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾.

أي بِقَدَرٍ مكتوب في اللوح المحفوظ.

ويقال: خلقناه بقدر ما عَلِمْنا وأردْنا وأخبرْنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾.

أي إذا أردنا خَلْقَ شيءٍ لا يتعسَّرُ ولا يتعَذَّرُ علينا، نقول له: كُنْ ـ فيكون بقدرتنا. ولا يقتضي هذا استئناف قولٍ في ذلك الوقت ولكن استحقاق أن يقال لقوله القدم أن يكون أمراً لذلك المكون إنما يَحصل في ذلك الوقت.

﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾: أي كما أن هذا القَدْرَ عندكم أي قَدْرَ ما يلمح أحدُكم ببصره لا تلحقكم به مشقةٌ ـ كذلك عندنا: إذا أردنا نخلق شيئاً ـ قلّ أو كَثُرَ، صَغُرَ أو كَبُرَ ـ لا تلحقنا فيه مشقة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

أي أهلكنا القرونَ التي كانت قبلكم فكلُّهم أمثالكم من بني آدم...

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾.

في اللوح المحفوظ مكتوبٌ قبل أن يعمله. وفي صحيفة الملائكة مكتوب. لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها..

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾.

كلُّ صغيرٍ من الخَلْق، وكلُّ كبيرٍ من الخَلْقِ ـ تخترمه المنيَّةُ.

ويقال: كلُّ صغيرٍ من الأعمال وكبيرٍ مكتوبٌ في اللوح المحفوظ، وفي ديوان الملائكة.

وتعريف الناس عما يكتبه الملائكة هو على جهة التخويف؛ لئلا يتجاسر العبدُ على الزَّلَّةِ إذا عرف المحاسبة عليها والمطالبة بها.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

لهم بساتين وأنهار، والجمعُ إذا قوبل بالجمع فالآحادُ تُقابَلُ بالآحاد.

فظاهرُ هذا الخطاب يقتضي أن يكون لكل واحدٍ من المتقين جنةٌ ونَهرٌ.

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾: أي في مجلس صِدْقٍ.

﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾: أراد به عِنْديَّةَ القُرْبة والزلفة.

ويقال: مقعد الصدق أي مكان الصدق، والصادق في عبادته مَنْ لا يتعبَّدُ على ملاحظة الأطماع ومطالعة الأعواض.

ويقال: مَنْ طلب الأعواض هَتَكَتْه الأطماع، ومَنْ صَدَقَ في العبوديَّة تحرَّرَ عن المقاصد الدَّنِيَّة.

ويقال: مَنْ اشتغل بالدنيا حَجَبَتْه الدنيا عن الآخرة، ومَنْ أَسَرَه نعيمُ الجنة حُجِبَ عن القيام بالحقيقة، ومَنْ قام بالحقيقة شُغِلَ عن الكوْن بجملته.

سورة الرحمن

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: إخبارٌ عن عِزّه وعظمته.

«الرحمن الرحيم»: إخبارٌ عن فضله ورحمته.

فبشهود عظمته يكمل سرورُ الأرواح، وبوجود رحمته يحصل نعيم الأشباح. ولولا عظمته لما عَبَدَ الرحمنَ عابدٌ ولولا رحمتُه لما أحبَّ الرحمنَ واحدٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾.

أي الرحمن الذي عَرَفَه الموحِّدون وجَحَدَه الكافرون هو الذي علَّم القرآن. ويقال: الرحمن الذي رحمهم، وعن الشِّرك عَصَمَهم، وبالإيمان أكرمهم، وكلمةَ التقوى ألزمهم ـ هو الذي عرَّفهم بالقرآن وعلَّمهم.

ويقال: انفرد الحقُّ بتعليم القرآن لعِباده.

ويقال: أجرى اللَّهُ سُنَّتَه أنه إذا أعطى نبينا ﷺ شيئاً أَشْرَكَ أُمتَّه فيه على ما يليق بصفاتهم؛ فلمَّا قال له (ﷺ): ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ﴾ [النساء: ١١٣].

قال لأمته: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾.

ويقال: علَّم الله آدمَ الأسماءَ كلَّها ثم أمره بِعَرْضها على الملائكة وذكر آدمُ ذلك لهم ـ قال تعالى: **﴿أنبئني بأسماء هؤلاء﴾** [البقرة: ٣٣] يا آدم، وعلَّمَ (نبيَّنا ﷺ)(١) المسلمين القرآنَ فقال ﷺ: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب، والمُصَلِّي مُناجٍ ربه»(٢) قال لآدم: أُذْكرْ ما علَّمْتُكَ للملائكة. وقال لنا: ناجِني يا عبدي بما عَلَّمْتُك. وقد يُلاطَفُ مع أولاد الخَدم بما لا يُلاطَفُ به آباؤهم.

ويقال: لمَّا علَّم آدمَ أسماءَ المخلوقاتِ قال له: أَخْبِرْ الملائكة بذلك، وعلَّمَنا كلامَه وأسماءَه فقال: اقْرَأوا عليَّ وخاطِبوا به معي.

---

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٣/ ٤٧، ٤٨)، وابن حجر في (فتح الباري ٢/ ٢٥٢)، وأبو عوانة في (المسند ٢/ ١٢٥)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٧/ ١٢٤)، وصاحب (الأذكار النووية ٤٦)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٤/ ١٤٣٧).

ويقال: علَّم الأرواحَ القرآن ـ قَبْلَ تركيبها في الأجساد بلا واسطة، والصبيانُ إنما يُعَلَّمُونَ القرآن ـ في حالِ صِغَرِهم ـ قبل أَنْ عَرَفَتْ أرواحُنا أحداً، أو سَمِعْنا من أحدٍ شيئاً. علَّمَنَا أسماءَه:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادَفَ قلبي فارغاً فَتَمَكَّنَا

ويقال: سقياً لأيامٍ مضت ـ وهو يُعلِّمنا القرآن.

ويقال: برحمته علَّمَهم القرآن؛ فبرحمته وصلوا إلى القرآن ـ لا بقراءة القرآن يَصِلُون إلى رحمته.

قوله جلّ ذكره: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾.

﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾: ها هنا جِنسُ الناس؛ عَلَّمَهم البيانَ حتى صاروا مُمَيَّزِين ـ فانفصلوا بالبيان عن جميع الحيوان. وعَلَّمَ كُلَّ قومٍ لسانَهم الذي يتكلمون ويتخاطبون به.

والبيانُ ما به تبينُ المعاني ـ وشَرْحُه في مسائل الأصول.

ويقال: لمَّا قال أهلُ مكة إنما يُعلِّمه بَشَرٌ ردَّ الله ـ سبحانه ـ عليهم وقال: بل عَلَّمَه اللَّهُ؛ فالإنسانُ على هذا القول هو محمدٌ ﷺ. وقيل هو آدم عليه السلام.

ويقال: البيان الذي خُصَّ به الإنسان (عموماً) يعرِفُ به كيفيةَ مخاطبةِ الأغيار من الأمثال والأشكال. وأمَّا أهل الإيمان والمعرفة فبيانُهم هو عِلْمُهم كيفيةَ مخاطبةِ مولاهم ـ وبيانُ العبيدِ مع الحقِّ مختلفٌ: فقومٌ يخاطِبونه بلسانهم، وقومٌ بأنفاسهم، وقوم بدموعهم:

دموعُ الفتى عمَّا يحسُّ تترجمُ وأشواقه تبدين ما هو يكتم

وقومُ بأنينهم وحنينهم:

قُلْ لي بألسنة التنفُّس كيف أنت وكيف حالك؟

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾.

يعني يجري أمرهما على حدٍّ معلومٍ من الحساب في زيادة الليل والنهار، وزيادة القمر ونقصانه، وتُعْرَفُ بجريانهما الشهورُ والأيامُ والسنون والأعوام. وكذلك لهما حساب إذا انتهى ذلك الأَجَلُ.. فالشمسُ تُكوَّرُ والقمرُ يَنْكَدِر.

وكذلك لشمسِ المعارفِ وأقمارِ العلوم ـ في طلوعها في أوج القلوبِ والأسرار ـ في حكمة الله حسابٌ معلومٌ، يُجْريها على ما سَبَق به الحُكْمُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾.

ويقال: النجمِ من الأشجار: ما ليس له ساق، والشجر: ما له ساق.

ويقال: النجومُ الطالعةُ والأشجارُ الثابتةُ ﴿يَسْجُدَانِ﴾ سجودَ دلالة على إثبات الصانع بنعت استحقاقه للجلال.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾.

سَمَكَ السماءَ وأعلاها، وعلى وصفِ الإتقانِ والإحكام بناها، والنجومَ فيها أجراها، وبثَّ فيها كواكبَها، وحفظ عن الاختلالِ مناكِبَها، وأثبت على ما شاءَ مشارقَها ومغاربَهَا.. وخَلَقَ الميزانَ بين الناس ليعتبروا الإنصافَ في المعاملات بينهم.

ويقال: الميزانُ العَدْلُ.

﴿أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾.

احفظوا العَدْل في جميع الأمور؛ في حقوق الآدميين وفي حقوق الله، فيعتبرُ العدلُ، وتَرْكُ الحَيْفِ ومجاوزةُ الحدِّ في كل شيءٍ؛ ففي الأعمال يُعْتَبَرُ الإخلاصُ، وفي الأحوال الصدقُ، وفي الأنفاس الحقائقُ ومساواةُ الظاهرِ والباطنِ وتَرْكُ المداهنةِ والخداعِ والمكرِ ودقائق الشِّرك وخفايا النفاق وغوامض الجنايات.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾.

وأقيموا الوزن بالمكيال الذي تحبون أن تُكَالوا به، وعلى الوصف الذي ترجون أن تنالوا به مطعمكم ومشربكم دون تطفيف.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾.

خلق الأرض وَجعلَها مهاداً ومثوى للأنام.

ويقال: وضعها على الماء وبسط أقطارها، وأنبت أشجارها وأزهارها، وأجرى أنهارها وأغطش ليلها وأوضح نهارَها.

﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ..﴾ يعني ألوانُ الفاكهة المختلفة في ألوانها وطعومها وروائحها ونفعها وضررها، وحرارتها وبرودتها.. وغير ذلك من اختلافِ في حَبِّها وشجرها، وورقها ونَوْرها.

﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ وأكمام النخل ليفها وما يُغِطِّيها من السَّعف.

﴿وَٱلْحَبُّ﴾: حَبُّ الحنطة والشعير والعدس وغير ذلك من الحُبوب.

﴿ذُو ٱلْعَصْفِ﴾: والعصف ورق الزرع[١].

---

(١) العصف: ما كان على ساق الزرع من الورق الذي ييبس فيتفتت، وقيل: هو ورقه من غير أن يُعيّن بيُبس ولا غيره، وقيل: ورقه وما لا يؤكل. وفي التنزيل: ﴿والحب ذو العصف والريحان﴾ يعني=

﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ الذي يُشَمُّ.. ويقال: «الرزق لأن العرب تقول: خرجنا نطلب ريحانَ الله».

ذكَّرهم عظِمَ مِنَّتِه عليهم بما خَلَقَ من هذه الأشياء التي ينتفعون بها من مأكولاتٍ ومشمومات وغير ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

فبأي آلاء ربكما تجحدان؟ والآلاءُ النَّعماء.

والتثنيةُ في الخطاب للمُكلَّفين من الجِنّ والإِنس.

ويقال: هي على عادة العرب في قولهم: خليليَّ، وقِفَا، وأرحلاها بأغلام، وأزجراها بأغلام.

قوله جلّ ذكره: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾.

﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾: يعني آدم، والصلصالُ الطينُ اليابس الذي إذا حُرِّكَ صَوَّتَ كالفخار. ويقال: طين مخلوط بالرمل.

ويقال: مُنْتِنٌ؛ من قولهم صَلَّ وأَصَلَّ إذا تغيرَّ.

﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾.

المارج: هو اللهب المختلط بسواد النار.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

يُذَكِّرُ الخَلْقَ من الجن والإنس كما سبق ـ وكرَّر اللَّهُ سبحانه هذه الآية في غير موضع على جهة التقرير بالنعمة على التفصيل، أي نعمةً بعد نعمة.

ووجُه النعمة في خلق آدم من طين أنه رقاه إلى رتبته بعد أن خلقه من طين.

ويقال ذَكَّرَ آدمَ نِسبتَه وذكَّرنا نسبَتنا لئلا نُعجبَ بأحوالنا.

ويقال عَرَّفَه قدَرَه لئلا يتعدَّى طَوْرَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾: مشرق الصيف ومشرق الشتاء وكذلك مغربيهما.

ووجه النعمة في ذلك جريانهما على ترتيب واحدٍ حتى يكمل انتفاع الخَلْقِ بهما.

ويقال: مشرق القلب ومغربه، وشوارق القلب وغوار به إنما هي الأنوار والبصائر التي جرىَ ذِكْرُ بعضها فيما مضى.

= بالعصف ورق الزرع وما لا يؤكل منه، وأما الريحان فالرزق وما أُكل منه، وقيل: العصف التبن وقيل: هو ما على حب الحنطة ونحوها من قشور التبن. (اللسان ٩/٢٤٧ مادة: عصف).

قوله جلّ ذكره: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾.

﴿بَرْزَخٌ﴾ أي حاجز بقدرته لئلا يغلب أحدهما الآخر، أراد به البحر العذب والبحر الملح. ويقال: لا يبغيان على الناس ولا يغرقانهم[١].

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾.

اللؤلؤ: كبار الدُّرّ، والمَرجان: صغار الدُّرّ. ويقال: المرجان النَّسْل.

وفي الإشارة: خَلَقَ في القلوب بحرين: بحر الخوف وبحر الرجاء. ويقال القبض والبسط. وقيل الهيبة والأنس. يُخرج منها اللؤلؤ والجواهر وهي الأحوال الصافية واللطائف المتوالية.

ويقال: البحران. إشارة إلى النفس والقلب، فالقلب هو البحر العَذْب والنفس هي البحر الملح.. فمن بحر القلب كلُّ جوهرٍ ثمين، وكلُّ حالة لطيفة.. ومن النفس كل خلق ذميم. والدرُّ من أحد البحرين يخرج، ومن الثاني لا يكون إلا التمساح مما لا قَدْرَ له من سواكن القلب. ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾: يصون الحقُّ هذا عن هذا، فلا يَبْغي هذا على هذا[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾.

﴿**الجواري**﴾: واحدها جارية، وهي السفينة.

﴿كَالْأَعْلَامِ﴾: الجبال.

له هذه السفن التي أنشئت وخلقت في البحر كأنها الجبال العالية[٣].

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾.

كل من على وجه الأرض في حكم الفناء من حيث الجواز. ومن حيث الخبر: «ستفنى الدنيا ومن عليها ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام» «والوجه»: صفة لله ـ سبحانه ـ لم يدلّ عليه العقل قطعاً ودلَّ عليه جَوازاً، وورد الخبر بكونه قطعاً.

ويقال: في بقاءِ الوجه بقاءُ الذات، لأن الصفة لا تقوم بنفسها، ولا محالة شَرطها قيامها بنفسه وذاته. وفائدة تخصيص الوجه بالذكر أن ما عداه يُعْرَفُ بالعقل، والوجه لا يُعْلَمُ بالعقل، وإنما يُعْرَفُ بالنقل والأخبار. و «يبقى»: وفي بقائه. سبحانه خَلَفٌ عن كلِّ تلفٍ، وتسليةٌ للمسلمين عمَّا يصيبهم من المصائب، ويفوتهم من المواهب[٤].

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

---

(١) الآية (٢١) لم ترد.
(٢) الآية (٢٣) لم ترد.
(٣) الآية (٢٥) لم ترد.
(٤) الآيتان (٢٧ ـ ٢٨) لم تردا.

أهلُ السمواتِ يسألون أبداً المغفرة، وأهل الأرض يسألونه الرزق والمغْفرَة، أي لا بُدَّ لأحدٍ منه (سبحانه).

وفي السموات والأرض مَنْ لا يسأله: وهم مَنْ قيل فيهم: «مَنْ شَغَلَه ذِكْري عن مسألتي أعطيته أفضلَ ما أُعطي السائلين»[(١)].

ويقال: ليس كلُّ مَنْ في السمواتِ والأرض يسألونه مِمَّا في السموات والأرض ولكن:

بين المحبين سِرٌّ ليس يُغْشيه قَوْلٌ ولا قَلَمٌ للخَلْق يحكيه

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ مِنْ إحياء وإماتة، وقبضِ قوم وبَسْطِ قومٍ.. وغير ذلك من فنون أقسام المخلوقات، وما يُجْريه عليها من اختلاف الصفات.

وفي الآية ردٌ على اليهود حيث قالوا: إنَّ اللَّهَ يستريح يومَ السبت لا يفعل شيئاً، فأخبر أنه كل يوم هو في شأن، ولو أُخْلِيَ العالَم لحظةً من حِفْظِه لتلاشى وبَطُلَ.

(ومن شأنه أن يغفرَ ذنباً، ويَسْتُرَ عيباً، ويُذْهِبَ كرباً)، ويُطَيِّب قلباً، ويُقْصِي عَبْداً ويُدْنِي عبداً.. إلى غير ذلك من فنون الأفعال. وله مع عباده كلَّ ساعَةٍ بِرٌّ جديدٌ، وسِرٌّ بينه وبين عبده ـ عن الرقباء ـ بعيد.

ويقال: كل يوم هو في شأنِ سَوْقِ المقادير إلى أوقاتها.

ويقال: كل يوم هو في شأنِ إظهارِ مستورٍ وسَتْرِ ظاهرٍ، وإحضارِ غائبٍ وتغييبِ حاضرٍ[(٢)].

قوله جلّ ذكره: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾[(٣)].

أي للحساب يومَ القيامة ـ وليس به اشتغالٌ... تعالى اللَّهُ عن ذلك.

ومعنى الآية: سنقصد لحسابكم[(٤)].

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾.

أقطارُ السمواتِ والأرضِ نواحيها. أي إنْ قدرتم أن تخرجوا من مُلْكِه فاخرجوا.

---

(١) أخرجه الترمذي (ثواب القرآن ٢٥)، والدارمي (فضائل القرآن ٦).

(٢) الآية (٣٠) لم ترد.

(٣) الثقلان: الجن والإنس سُمِّيا بذلك لتفضيل الله تعالى إياهما على سائر الحيوان المخلوق في الأرض بالتمييز والعقل الذي خُصّا به، وقيل: لأنهما كالثقل للأرض وعليها. (لسان العرب ١١/٨٨ مادة: ثقل).

(٤) الآية (٣٢) لم ترد.

ثم قال: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾. أي لا تَصِلون إلى موضع إلَّا وهناك سلطاني ومُلْكي ولا تنفذون في قُطرٍ إلا وهناك عليكم حجة[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾.

أي فلا تنتقمان. والشواظُ: اللَّهَبُ من النار لا دخانَ معه. والنحاس: الصُّفْرُ[٢] المذاب[٣].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾.

ينفكُّ بعضها عن بعض وتصير في لون الورد الأحمر. ويقال: بها الفُرُش الموردة كالدهان وهو جمع دهن. أي كدهن الزيت وهو دردي[٤] الزيت.

ويقال: كما أن الوردة يتلوّن لونُها؛ إذ تكون في الربيع إلى الصُّفرة، فإذا اشتدت الوردة كانت حمراء، وبعد ذلك إلى الغبرة ـ فكذلك حالُ السماء تتلون من وصفٍ إلى وصفٍ في القيامة[٥].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾.

أراد في بعض أحوال القيامة لا يُسألون، ويُسْألون في البعض... فيومُ القيامة طويلٌ.

ويقال: لمَّا كانت لهم يومئذٍ علامات: فللكفارِ سوادُ الوجه وزُرْقَةُ العين، وللمسلمين بياض الوجه وغير ذلك من العلامات ـ فالملائكة لا يحتاجون إلى سؤالهم: من أنتم؟ لأنهم يعرفون كُلاًّ بسيماهم.

ويقال: لا يُسْأَلونِ سؤالاً يكون لهم ويُسْأَلون سؤالاً يكون عليهم[٦].

قوله جلّ ذكره: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾.

المؤمنون غُرٌّ مُحَجَّلُون[٧]، والكفَّارُ سود الوجوهِ زُرْقُ العيون، فيعرف الملائكة

---

(١) الآية (٣٤) لم ترد.

(٢) الصفر: النحاس الجيد، وقيل: الصفر ضرب من النحاس، وقيل: هو ما صفر منه. (اللسان ٤/ ٤٦١ مادة: صفر).

(٣) الآية (٣٦) لم ترد.

(٤) الدردي: ما رسب أسفل الزيت والعسل ونحوهما.

(٥) الآية (٣٨) لم ترد.

(٦) الآية (٤٠) لم ترد.

(٧) الغرّ المحجلون: أي بيض مواضع الوضوء من الأيدي والوجه والأقدام، استعار الوضوء في الوجوه واليدين والرجلين للإنسان من البياض الذي يكون من وجه الفرس ويديه ورجليه. (لسان العرب ١١/ ١٤٤ مادة: حجل).

هؤلاء فيأخذون بنواصيهم[١] ويَجُرُّونهم مرة بها ومرةً بأقدامهم ثم يلقونُهم في النار، ويطرحونهم في جهنم[٢]:

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾.

يقال لهم: هذه جهنم التي كنتم بها تكذبون!

﴿حَمِيمٍ﴾: ماءٌ حارٌ. ﴿ءَانٍ﴾ تناهى في النضج[٣].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾.

يقال: لِمَنْ خاف قُرْبَ ربِّه منه واطلاعه عليه.

ويقال: لمن خاف وقوفَه غداً بين يدي الله ـ جنتان، ولفظة التثنية هنا على العادة في قولهم: خليليَّ ونحوه.

وقيل: بل جنتان على الحقيقة، مُعَجَّلة في الدنيا من حلاوة الطاعة وروح الوقت، ومؤجَّلة في الآخرة وهي جنة الثواب. ثم هم مختلفون في جنات الدنيا على مقادير أحوالهم كما يختلفون في الآخرة على حسب درجاتهم[٤].

﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾.

دلَّ على أن الجنتين في الآخرة. والأفنانِ الأغصان. وهي جمع فنن.

ويقال: ذواتا ألوانٍ من كلِّ صنفٍ ولونٍ تشتهيه النَّفْسُ والعينُ ـ وتكون جمع فن. ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ إحداهما التسنيم، والأخرى السلسبيل.

ويقال: عينان تجريان غداً لمن كان له ـ اليومَ ـ عينان تجريان بالدموع[٥].

﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾.

زوجان أي صِنفان وضَرْبان؛ كالرطب واليابس، والعنب والزبيب.

ويقال: إنها في نهاية الحسن والجودة[٦].

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾.

بطائنها من استبرق فكيف بظهائرها؟ «والبطائن»: ما يلي الأرض. «والاستبرق»: الديباج الغليظ. وإنما خاطَبَهم على قَدْرِ فَهْمِهم؛ إذ يقال إنه ليس في الجنة شيء مما يُشْبِه ما في الدنيا، وإنما الخطاب مع الناس على قَدْرِ أفهامهم.

---

(١) النواصي: (ج) الناصية: ما يبرز من الشعر في مقدم الرأس يكون حداء الجبهة.
(٢) الآية (٤٢) لم ترد.
(٣) الآية (٤٥) لم ترد.
(٤) الآية (٤٧) لم ترد.
(٥) الآية (٥١) لم ترد.
(٦) الآية (٥٣) لم ترد.

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾: أي ما يجتنى من ثمرها - إذا أرادوه - دنا إلى أفواههم فتناولوه من غير مَشَقَّةٍ تنالهم. وفي الخبر المسند: «مَنْ قال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر غَرَسَ الله له شجرةً في الجنة أصلها الذهب وفرعها الدر وطلعها كثدي الأبكار ألين من الزبد وأحلى من العسل، كلما أخذ منها شيئاً عاد كما كان»[١] - وذلك قوله: ﴿ودنا الجنتين دان﴾.

ويقال: ينالها القائم والقاعد والنائم[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾.

أي في الجنان حورٌ قَصَرْن عيونَهن عن غير أزواجهن.

وإذا كانت الزوجاتُ قاصراتِ الطَّرْفِ عن غير أزواجهن فأَوْلى بالعبد إذ رجا لقاءَه - سبحانه - أن يقصر طَرْفَه ويَغُضّه عن غير مُبَاحٍ.

بل عن الكُلِّ . . . إلى أن يلقاه.

ويقال: من الأولياء مَنْ لا يَنْظُرُ إليهن - وإنْ أُبيح له ذلك لتحرُّره عن الشهوات، ولعلوِّ همته عن المخلوقات - وأنشدوا:

جِئنَا بَلَيْلَى وهي جُنَّتْ بغيرنا ... وأخرى بنا مجنونة لا نريدها

ويقال: هُنَّ لمن قصرت يدُه عن الحرام والشبهة، وطرفُه عن الرِّيَبِ.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾: لم يصحبهن غيرُ الوليّ ولم يَحْزُنَ غيرَه، وفي الخبر: «اشتاقت الجنة لثلاثة»[٣][٤].

﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾.

أي: في صفاء الياقوت ولون المرجان[٥].

قوله جلّ ذكره: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾.

يقال: الإحسانُ الأول من الله والثاني من العبد؛ أي: هل جزاء مَنْ أحسنَّا إليه بالنصرة إلّا أن يُحْسِن لنا بالخدمة؟ وهل جزاء مَنْ أحسنَّا إليه بالولاء إلا أن يحسن لنا بالوفاء؟

---

(١) أخرجه البخاري (أيمان ١٩)، ومسلم (طهارة ١) وأبو داود (صلاة ١٣٥)، (تطوع ١٤)، والترمذي (وتر ١٩)، والدارمي (استئذان ٥٣)، والموطأ (قرآن ٢٣)، وأحمد بن حنبل ١/٧١، ٢/١٥٨، ٢١٠، ٢١١، ٣/٣٥، ١٥٢، ٤٤٣، ٤/٢٣٧، ٣٥٣، ٣٥٦، ٣٨٢، ٥/١٠، ١١، ٢٠، ٢١، ١٦٨، ١٧٣، ٢٥٣، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٦٦).

(٢) الآية (٥٥) لم ترد.

(٣) أخرجه ابن الجوزي في (العلل المتناهية ١/٢٨٣).

(٤) الآية (٥٧) لم ترد.

(٥) الآية (٥٩) لم ترد.

ويصح أن يكون الإحسانُ الأول من العبد والثاني من الله؛ أي: هل جزاء من أحسن من حيث الطاعة إلا أن يُحْسَنَ إليه من حيث القبول والثواب؟

وهل جزاء من أحسن من حيث الخدمة إلا أن يُحْسَنَ إليه من حيث النعمة؟

ويصح أن يكون الإحسانان من الحقّ؛ أي: هل جزاء مَنْ أحسنَّا إليه في الابتداء إلا أن نُحْسِنَ إليه في الانتهاء؟ وهل جزاء مَنْ فاتحناه باللُّطف إلا أن نُرْبِيَ له في الفضل والعطف؟

ويصحُّ أن يكون كلاهما من العبد؛ أي: هل جزاء من آمن بنا إلّا أن يَثْبت في المستقبل على إيمانه؟ وهل جزاء مَنْ عَقَدَ معنا عقد الوفاء إلا أنْ يقوم بما يقتضيه بالتفصيل؟

ويقال: هل جزاء مَنْ بَعُدَ عن نَفْسِه إلّا أَنْ نُقرِّبَه مِنَّا؟

وهل جزاء مَنْ فَنِيَ عَن نَفِسه إلّا أَنْ يبقى بنا؟

وهل جزاء مَنْ رَفَعَ لنا خطوة إلّا أَن نكافِئَه بكل خطوة ألف حظْوَة، وهل جزاء من حفظ لنا طَرْفَه إلا أن نُكْرِمَه بلقائنا[١]؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾.

هما جنتان غير هاتين اللتين ذُكِرَتا؛ جنتان أُخْرَيان. وليس يريد دونهما في الفضل، ولكن يريد ﴿جَنَّتَانِ﴾ سواهما[٢].

﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾.

أي: خضراوان خُضْرةً تضرب إلى السواد. فالدهمة السواد والفعل منه ادهامَّ والاسم منه مُدْهامٌّ. وللمؤنث مدهامَّة، ولتثنية المؤنث مدهامتان[٣].

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾.

والنَّضْخُ فَوَرانُ العينِ بالماء[٤].

﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾.

الأسماء متشابهة.. والعيون فلا[٥].

﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾.

أي: حورٌ خَيِّرات الأخلاق حِسانُ الوجوه. واحدها خَيِّرة والجمع خيِّرات وهذا هو الأصل ثم خُفِّف فصارت خيرات[٦].

---

(١) الآية (٦١) لم ترد.
(٢) الآية (٦٣) لم ترد.
(٣) الآية (٦٥) لم ترد.
(٤) الآية (٦٧) لم ترد.
(٥) الآية (٦٩) لم ترد.
(٦) الآية (٧١) لم ترد.

﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾.

محبوسات على أزواجهن. وهُنَّ لِمَنْ هو مقصورٌ الجوارح عن الزَّلَّات، مقصورُ القلب عن الغفلات، مقصور السِّرِّ عن مساكنة الأشكال والأعلال والأشباه والأمثال.

وفي بعض التفاسير: أن الخيمة من دُرَّةٍ مجوفة فرسخ[1] في فرسخ لها ألف باب.

ويقال: قصرت أنفسهن وقلوبهن وأبصارهن على أزواجهن. وفي الخبر: «أنهن يقلن: نحن الناعمات. فلا نبؤس، الخالدات فلا نبيد، الراضيات فلا نسخط»[2].

وفي خبر عن عائشة رضي الله عنها: «أن المؤمنات أجَبْنَهُنَّ: نحن المصلياتُ وما صَلَّيْتُنَّ، ونحن الصائماتُ وما صُمْتُنَّ، ونحن المتصدِّقاتُ وما تَصَدَّقْتُنَّ» قالت عائشة يغلبهن[3] قولُه:

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾[4].

قوله جلّ ذكره: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ﴾.

قيل: رياض الجنة، وقيل: المجالس، وقيل: الزرابيّ[5] والوسائد ـ وهي خُضْرٌ ﴿وعبقريٍ حسان﴾: العبقري عند العرب كلُّ ثوبٍ مُوَشًّى[6].

قوله جلّ ذكره: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾.

مضى تفسيره.

---

(١) الفرسخ: فرسخ الطريق: مسافة تبلغ ثلاثة أميال هاشمية، والميل الهاشمي ٥٧٦٠ متراً (ج) فراسخ (مع) فارسي.

(٢) أخرجه الترمذي (جنة ٢٤)، وأحمد بن حنبل ١، ١٥٦.

(٣) الآية (٧٣) لم ترد.

(٤) الآية (٧٥) لم ترد.

(٥) الزرابي: (ج) الزربية: البساط أو السجادة، أو الوسادة تُبسط ليُتكأ عليها.

(٦) الآية (٧٧) لم ترد.

سورة الواقعة

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بِسْمِ الله»: اسم جبَّار مَنْ اعتنى بشأنه أحضره بإحسانه، فإنْ أَبى إلَّا تمادياً في عصيانه حَالَ بينه وبين اختياره بقَهْرِ سلطانه، وإنْ لم يلازم هذه الطاعة أَلْجَأه بالبلاءِ فيأتيها باضطراره.

اسم عزيزٌ أزليٌّ، جبَّارٌ صَمَدِيّ، قهَّارٌ أحديّ، للمؤمنين وليّ، وبالعاصين حَفِيّ، ليس لجماله كَفِيّ، ولا في جلاله سميّ، لكنه للعُصَاةِ من المؤمنين وليّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾.

إذا قامت القيامة لا يردُّها شيءٌ.

﴿كَاذِبَةٌ﴾ هاهنا مصدر: كالعافية، والعاقبة: أي: هي حقَّةٌ لا يردها شيءٌ، وليس في وقوعها كذب.

ويقال: إذا وقعت الواقعة فَمَنْ سَلَكَ منهاج الصحة والاستقامة وَصَلَ إلى السلامة ولقي الكرامة، ومَنْ حادَ عن نهج الاستقامة وَقَعَ في الندامة والغرامة، وعند وقوعها يتبين الصادق من المماذق:

إذا اشتبكت دموعٌ في خدودٍ ... تَبَيَّنَ مَنْ بكى مِمَّن تباكى

﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ﴾.

﴿خَافِضَةٞ﴾: لأهل الشقاوة، ﴿رَّافِعَةٌ﴾: لأهل الوفاق.

﴿خَافِضَةٞ﴾: لأصحاب الدعاوى، ﴿رَّافِعَةٌ﴾: لأرباب المعاني.

﴿خَافِضَةٞ﴾: للنفوس، ﴿رَّافِعَةٌ﴾: للقلوب.

﴿خَافِضَةٞ﴾: لأهل الشهوة، ﴿رَّافِعَةٌ﴾: لأهل الصفوة.

﴿خَافِضَةٞ﴾: لمن جَحَد، ﴿رَّافِعَةٌ﴾: لمن وَحَدَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا﴾.

حُرِّكت حركةً شديدة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا﴾.

فُتِّتت فكانت كالهباء الذي يقع في الكوّة عند شعاع الشمس.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾.

﴿مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾؟ على جهته التفخيم لشأنهم والتعظيم لِقَدْرهم وهم أصحاب اليمن والبركة والثواب.

﴿مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾: على جهة التعظيم والمبالغة في ذَمِّهم، وهم أصحاب الشؤم على أنفسهم ويقال: أصحاب الميمنة هم الذين كانوا في جانب اليمين من آدم عليه السلام يومَ الذَّرِّ[١]، وأصحاب المشأمة هم الذين كانوا على شماله.

ويقال: الذين يُعْطَوْن الكتابَ بأَيْمانهم، والذين يُعْطَوْن الكتاب بشمائلهم.

ويقال: هم الذين يُؤْخَذُ بهم ذات اليمين. . إلى الجنة، والذين يُؤْخَذُ بهم ذات الشمال. . إلى النار.

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾: وهم الصف الثالث. وهم السابقون إلى الخصال الحميدة، والأفضال الجميلة.

ويقال: السابقون إلى الهجرة. ويقال: إلى الإسلام. ويقال: إلى الصلوات الخمس.

ويقال: السابقون بصدْق القَدَم. ويقال: السابقون بعُلُوّ الهِمَم. ويقال: السابقون إلى كل خير. ويقال السابقون المتسارعون إلى التوبة من الذنوب فيتسارعون إلى النَّدمَ إن لم يتسارعوا بصدق القَدَم.

ويقال: الذين سبقت لهم من الله الحسنى فسبقوا إلى ما سبق إليه:

﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾.

ولم يقل: ﴿المتقربون﴾ بل قال: أولئك المُقَرَّبون ـ وهذا عين الجَمْع، فعَلِمَ الكافة أنهم بتقريب ربهِّم سبقوا ـ لا بِتقَرُّبهم.

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

أي: في الجنة. ويقال: مقربون إلا من الجنة فمحال أن يكونوا في الجنة ثم يُقَرَّبون من الجنة، وإنما يُقَرَّبون إلى غير الجنة: يُقَرَّبون من بِساط القربة. .

وأنّى بالبساط ولا بساط؟! مقربون. . ولكن من حيث الكرامة لا من حيث المسافة؛ مُقَرَّبةٌ نفوسُهم من الجنة وقلوبهُم إلى الحقّ.

---

(١) الذر: أي بني آدم.

مُقَرَّبةٌ قلوبهُم من بساط المعرفة، وأرواحُهم من ساحات الشهود ـ فالحقُّ عزيز.. لا قُرْبَ ولا بُعْدَ، ولا فَصْلَ ولا وَصْلَ.

ويقال: مقربون ولكن من حظوظِهم ونصيبِهم. وأحوالُهم ـ وإنْ صَفَتْ ـ فالحقُّ وراء الوراء.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾.

الثُّلَّة: الجماعة. ويقال: ثلة من الأولين الذين شاهدوا أنبياءهم وقليل من الآخرين الذين شاهدوا نبيَّنا ﷺ.

ويقال: ثُلَّةٌ من الأولين: من السلف وقليل من المتأخرين: من الأمة.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾[1].

أي منسوخة نسيج الدرع من الذهب. جاء في التفسير: طولُ كل سريرٍ ثلاثمائة ذراع، إنْ أراد الجلوسَ عليه تواضع، وإن استوى عليه ارتفع.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ﴾.

أي لا يرى بعضُهم قفا بعضٍ. وَصَفَهم بصفاء المودة وتَهَذُّب الأخلاق.

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾.

يطوف عليهم وهم مقيمون لا يبرحون ولدانٌ في سِنٍّ واحدة.. لا يهرمون.

وقيل: مُقَرَّطون (الخَلدة. القُرْط).

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾.

﴿بِأَكْوَابٍ﴾ جمع كوب وهي آنية بلا عروة ولا خرطوم، ﴿وَأَبَارِيقَ﴾: جمع إبريق وهو عكس الكوب (أي له خرطوم وعروة).

ولا صداع لهم في شربهم إياها، كما لا تذهب عقولهم بسببها.

ولهم كذلك فاكهة مما يتخيرون، ولحم طيرٍ مما يشتهون، وحُورٌ عين، كأمثال اللؤلؤ المكنون، أي: المصون، جزاءً بما كانوا يعملون[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا﴾.

اللغو: الباطل من القول، والتأثيم: الإثم والهذيان.

ولا يسمعون إلا قيلاً سلاماً، وسلاماً: نعت للقيل.

---

(١) الموضونة: المنسوجة أي منسوجة بالدر والجوهر، بعضها مداخل في بعض. (لسان العرب ١٣/ ٤٥٠ مادة: وضن).

(٢) الآيات من (٢٠ حتى ٢٤) لم ترد.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾: لا شوكَ فيه، ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾: والطلح شجر الموز، متراكم نضيد بعضه على بعض.

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ كما بين الإسفار إلى طلوع الشمس. وقيل: ممدود أي دائم.

﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾: جَارٍ لا يتعبون فيه.

﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾: لا مقطوعة عنهم ولا ممنوعة منهم(١).

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ لهم. وقيل: أراد بها النساء.

﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ أي الحُور العين.

﴿عُرُبًا﴾ جمع عَرُوب وهي الغَنِجَةُ المتحببةُ إلى زَوْجِها. ويقال عرباً: أي مُتَشَهيّات إلى أزواجهن.

﴿أَتْرَابًا﴾: جمع تِرْب، أي: هُنَّ على سِنٍّ واحدة.

﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾: أي خلقناهن لأصحاب اليمين.

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾: أي: ثلة من أُولى هذه الأمة، وثلة من أُخراها.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾: والسَّموم فيحُ جهنم وحَرُّها. والحميم: الماءُ الحار.

﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾، وهو الدُّخان الأسود.

﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾: لا بارد: أي لا راحةَ فيه. ولا كريمٍ: ولا حَسَنٍ لهم؛ (حيث لا نفع فيه).

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ أي: كانوا في الدنيا مُمَتَّعين.

﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي الذَّنْبِ العظيم.

﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾؟ أي: أنهم يُكَذِّبون بالبعث(٢).

ثم يقال لهم: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ اليومَ ﴿لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ وجاء في التفسير: أن الزقوم شجرة في أسفل جهنم إذا طُرِحَ الكافرُ في جهنم لا يصل إليها إلا بعد أربعين خريفاً.

﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ شرابٌ لا تهنأون به ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾: وهي الإبل العِطاش. ويقال: الهيم أي الرَّمْلُ ينضب فيه كلُّ ما يُصَبُّ عليه.

---

(١) الآية (٣٣) لم ترد.

(٢) الآيات (٤٨، ٤٩، ٥٠) لم ترد.

﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ : يوم القيامة .

قوله جلّ ذكره: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ .

نحن خلقناكم: يا أهلَ مكة ـ فهلَّا آمَنْتُم لتتخلصوا؟ توبَّخون وتُعَاتَبون . . واليومَ تَعْتَذِرون! ولكن لا ينفعكم ذلك ولا يُسْمَعُ منكم شيء .

وإن أشدَّ العقوبات عليهم يومئذٍ أنهم لا يتفرَّغون من آلامِ نفوسِهم وأوجاعِ أعضائهم إلى التَحسُّر على ما فاتهم في حقِّ الله .

ويقال: أشدُّ البلاء ـ اليوم ـ على قلوب هذه الطائفة خوفُهم من أنْ يَشْغَلَهم ـ غداً ـ بمقاساة آلامهم عن التحسُّر على ما تكدَّرَ عليهم من المشارب في هذا الطريق . وهذه محنةٌ لا شيءَ أعظمُ على الأصحاب منها . وإنَّ أصحابَ القلوبِ ـ اليومَ ـ يبتهلون إليه ويقولون: إنْ حَرَمْتَنا مشاهدَ الأُنْس فلا تَشْغَلْنا بلذَّاتٍ تشغلنا عن التحسُّر على ما فاتنا، ولا بآلامٍ تشغلنا عن التأسُّف على ما عَدِمْنا منك .

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ .

يقال: مَنىَ الرجلُ وأَمْنَى . والمعنى: هل إذا باشَرْتُم وأنزلتم وانعقد الولد . . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون؟ والخَلْقُ ها هنا: التصوير؛ أي: أأنتم تجمعون صُوَرَ المولود وتُرَكِّبون أعضاءَه . . أم نحن؟

وهم كانوا يُقِرُّون بالنشأة الأولى فاحتجَّ بهذا على جواز النشأة الأخرى عند البعث الذي كانوا ينكرونه . وهذه الآية أصلٌ في إثبات الصانع؛ فإن أصلَ خِلْقَةِ الإنسان من قطرتين: قطرة من صُلْبِ الأب وهو المني وقطرة من تربية الأم، وتجتمع القطرتان في الرَّحِم فيصير الولد . وينقسم الماءان المختلطان إلى هذه الأجزاء التي هي أجزاء الإنسان من العَظْم والعَصَبِ والعرقِ والجِلْدِ والشَّعْرِ . . ثم يركبها على هذه الصور في الأعضاء الظاهرة وفي الأجزاء الباطنة حيث يُشَكِّلُ كل عضوٍ بشكلٍ خاص، والعِظام بكيفية خاصة . . إلى غير ذلك .

وليس يخلو: إمَّا أَنْ يكونَ الأبوَان يصنعانه ـ وذلك التقديرُ محالٌ لتقاصر عِلْمِها وقُدْرتهما عن ذلك وتمَنِّيهما الولَدَ ثم لا يكون، وكراهتهما الولدَ ثم يكون!

والنُّطفة أو القَطْرةُ مُحَالٌ تقديرُ فِعْلها في نَفْسِها على هذه الصورة لكونها من الأموات بَعْدُ، ولا عِلْمَ لها ولا قدرة .

أو مِنْ غيرِ صانعٍ . . وبالضرورة يُعْلَمُ أنه لا يجوز .

فلم يَبْقَ إلَّا أن الصانعَ القديمَ المَلِكَ العليمَ هو الخالق .

قوله جلّ ذكره: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

يكون الموتُ في الوقت الذي يريده؛ منكم مَنْ يموت طفلاً ومنكم من يموت شابًا، ومنكم من يموت كهلاً، وبِعِللٍ مختلفة وبأسبابٍ متفاوتةٍ وفي أوقاتٍ مختلفة.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ في تقديرنا فيفوتنا شيءٌ ولَسْنا بعاجزين عن أن نَخْلُقَ أمثالَكم، ولا بعاجزين عن تبديلَ صُوَركم التي تعلمون؛ إن أردنا مَسْخَكُم وتبديلَ صُوَركم فلا يمنعنا عن ذلك أحدٌ.

ويقال: وننشئكم فيما لا تعلمون من حكم السعادة والشقاوة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

أي: أنتم أقررتم بالنشأة الأولى.. فهلّا تذكَّرون لتعلموا جَوازَ الإعادة؛ إذ هي في معناها.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾.

أي: إذا ألقيتم الحَبَّ في الأرض.. أأنتم تُنْبِتُونه أم نحن المُنبِتون؟ وكذلك وُجوهُ الحكمةِ في إنبات الزَّرْع، وانقسام الحَبَّةِ الواحدةِ على الشجرة النابتةِ منها في قِشْرِها ولحائها وجِذْعِها وأغصانها وأوراقها وثمارها ـ كل هذا:

﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾.

لو نشاء لجعلناه حطاماً يابساً بعد خُضْرَته، فصِرْتُم تتعجبون وتندمون على تعبكم فيه، وإنفاقكم عليه، ثم تقولون:

﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾.

أي: لَمُلْزَمون غرامةَ ما أنفقنا في الزَّرع، وقد صار ذلك غُرْماً علينا ـ فالمغرم مَنْ ذَهَبَ إنفاقُه بغير عِوَضٍ.

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ بل نحن محرومون بعد أن ضاع مِنَّا الرزق.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾.

أأنتم أنزلتموه من السحاب.. أم نحن نُنْزِلُهُ متى نشاء أنّى نشاء كما نشاء على من نشاء وعلى ما نشاء؟ ونحن الذين نجعله مختلفاً في الوقت وفي المقدار وفي الكيفية، في القِلّة وفي الكثرة.

ولو نشاء لجعلناه ملحاً. . أفلا تشكرون عظيمَ نعمةِ اللّهِ ـ سبحانه ـ عليكم في تمكينكم من الانتفاع بهذه الأشياء التي خَلَقَها لكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾.

وَرَى الزَّنْدَ يُرَى فهو وارٍ. . وأوْراه يُورِيه أي يَقْدَحُه.

يعني: إذا قدحتم الزند. . أرأيتم كيف تظهر النار ـ فهل أنتم تخلقون ذلك؟

أأنتم أنشأتم شجرتها ـ يعني المَرْخ[1] والعَفَار[2] ـ أم نحن المنشئون؟

﴿نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً﴾: أي يمكن الاستدلالُ بها.

﴿وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾: يقال: أقوى الرجلُ إذا نزل بالقواء أي: الأرض الخالية.

فالمعنى: أن هذه النار ﴿تَذْكِرَةً﴾ يتذكّر بها الإنسان ما توعده به في الآخرة من نار جهنم، و ﴿وَمَتَـٰعًا﴾: يستمتع بها المسافر في سفره في وجوه الانتفاع المختلفة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾.

أي: اسبحْ بفكرك في بحار عقلك، وغُصْ بقوة التوحيد فيها تَظْفَرْ بجواهر العلم، وإيَّاك أَنْ تُقَصِّرَ في الغوص لسببٍ أو لآخر، وإياكَ أن تتداخَلَكَ الشُّبَهُ فيتلفَ رأسَ مالِك ويخرجَ من يدك وهو دينُك واعتقادُك. . وإلّا غرقتَ في بحار الشُّبَه، وضَلَلْتَ.

وهذه الآيات التي عَدَّها الله ـ سبحانه ـ تُمَهِّدُ لسلوكِ طريقِ الاستدلالِ، فكما في الخبر «فِكْرُ ساعةٍ خيرٌ من عبادةِ سَنَةٍ»[3] ـ وقد نبَّه الله سبحانه بهذا إلى ضرورة التفكير.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

---

(١) المَرْخ: من العضاه وهو ينفرش ويطول في السماء حتى يستظل فيه، وليس له ورق ولا شوك وعيدانه سِلبة قضبان دقاق، وينبت في شعب وفي خشب، ومنه يكون الزناد الذي يقتدح به، واحدته مرخة. (لسان العرب ٣/ ٥٤ مادة: مرخ).

(٢) العَفار: شجر يُتخذ منه الزناد. (لسان العرب ٤/ ٥٨٩ مادة: عفر).

(٣) للحديث رواية تقول: «فكرة ساعة خير من عباده ستين سنة» أخرجه السيوطي في (الدر المنثور ٢/ ١١١)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٧١٠)، والشوكاني في (الفوائد المجموعة ٢٤٢) وابن عراق في (تنزيه الشريعة ٢/ ٣٠٥)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٣٧٠ ـ ٣٧١) والفتني في (تذكرة الموضوعات ١٨٨)، والسيوطي في (اللآلىء المصنوعة ٢/ ١٧٥)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ١٦٣)، والألباني في (السلسلة الضعيفة ١٧٣)، وابن الجوزي في (الموضوعات ٣/ ١٤٤).

قيل: هي مواقع نجوم السماء. ويقال: مواقع نجوم القرآن على قلب الرسول ﷺ.

﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾: والكَرَمُ نَفيُ الدناءة - أي: أنه غير مخلوق ويقال: هو ﴿لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾: لأنه يدل على مكارم الأخلاق.

ويقال هو قرآن كريمٌ لأنه من عند ربٍّ كريم على رسولٍ كريم، على لسان مَلَكٍ كريم. ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾: يقال: في اللوح المحفوظ. ويقال: فيّ المصاحفَ. وهو محفوظ عن التبديل. ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ عن الأدناس والعيوب والمعاصي.

ويقال: هو خَبَرٌ فيه معنى الأمر: أي لا ينبغي أَنْ يَمَسَّ المصحفَ إلا مَنْ كان مُتَطهِّراً من الشِّرْكِ وعن الأحداث(١).

ويقال: لا يجد طَعْمَه وبَرَكَته إلَّا مَنْ آمَنَ به.

ويقال: لا يقربه إلَّا الموَحِّدون، فأمَّا الكفَّار فيكرهون سماعَه فلا يقربونه.

وقرىء المُطَهِّرون: أي الذين يُطَهِّرون نفوسَهم عن الذنوب والخُلُقِ الدَّنيّ.

ويقال: لا يَمَسُّ خبره إلَّا من طُهِّر يومَ القسمة عن الشقاوة.

ويقال: لا يَفْهَم لطائفَه إلَّا مَنْ طَهَّر سِرَّه عن الكون.

ويقال: المطهَّرون سرائرَهم عن غيره.

ويقال: إلا المُحْتَرِمون له القائمون بحقِّه.

ويقال: إلا مَنْ طُهِّرَ بماء السعادة ثم بماء الرحمة.

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: مُنَزَّل من قِبَلِهِ - سبحانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

أبهذا القرآن أنتم تُنافِقون، وبه تُكَذِّبون.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾: كانوا إذا أُمطِروا يقولون: أُمْطِرْنا بِنَوْءِ كذا.

يقول: أتجعلون بَدَلَ إنعامِ اللَّهِ عليكم بالمطر الكفرانَ به، وتتوهمون أن المطرَ - الذي هو نعمةٌ من الله - من الأنواء والكواكب؟!.

ويقال: أتجعلون حظَّكم ونصيبَكم من القرآنِ التكذيبَ؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾.

---

(١) الأحداث: (ج) الحدث (عند الفقهاء): ما ينقض الطهارة.

يخاطِبُ أولياء الميت فيقول: هَّلا إذا بَلَغتْ روحُه الحلقوم، وأنتم تنظرون إلى هذا المريض، رجعتم إلى الله تعالى وتحققتم به؟ فنحن أقرب إليه منكم بالعلم والرؤية والقدرة.. ولكن لا تبصرون!

ويقال: أقرب ما يكون العبدُ من الحقِّ عندما يتم استيلاءُ ذِكْرِه وشهودِه عليه، فينتفِي إحساسُ العبدِ بغيره، وعلى حسب انتفاءِ العلمِ والإحساسِ بالأغيار ـ حتى عن نفسه ـ يكون تحقُّقُ العبد في سِرِّه حتى لا يرى غير الحَقّ.

فالقرب والبعد معناهما: أنَّ العبدَ في أوان صحوه وأنه لم يُؤْخَذْ ـ بَعْدُ ـ عن نفسه؛ فإذا أُخِذَ عنه فلا يكون إلا الحق.. لأنه حينئذٍ لا قُرْب ولا بُعْدِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

ليس لكم من أمر الموت شيء.

﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ أي: تردُّون الروح إلى الجسد.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: في أنه لا بعث.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾.

المقَرَّبون هم الذين قرَّبهم اللَّهُ بفضله، فلهم ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾.

ويقال: الرَّوْح الاستراحة، والريحانُ الرزقُ.

وقيل: الرَّوْح في القبر، والريحانُ: في الجنة.

ويقال: لا يخرج مؤمنٌ في الدنيا حتى يُؤْتَى بريحانٍ من رياحين الجنة فيشمه قبل خروج روحه، فالرَّوْح راحةٌ عند الموت، والريحان في الآخرة.

وقيل: كانت قراءة النبي ﷺ «الرُّوح» بضم الراء أي لهم فيها حياة دائمة.

ويقال: الرَّوْحُ لقلوبهم، والرياح لنفوسهم، والجنَّةُ لأبدانهم.

ويقال: رَوْحٌ في الدنيا، وريحانٌ في الجنة، وجنَّةُ نعيمٍ في الآخرة.

ويقال: رَوْحٌ وريحان مُعَجَّلان، وجنة نعيم مؤجلة.

ويقال: رَوْحٌ للعابدين، وريحان للعارفين، وجَنَّةُ نعيم لعوام المؤمنين.

ويقال: رَوْحٌ نسيم القرب، وريحان كمال البسط، وجنة نعيمٍ في محل المناجاة.

ويقال: رَوْح رؤية الله، وريحانُ سماع كلامه بلا واسطة، وجنة نعيم أن يدوم هذا ولا ينقطع.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾.

أن نخبرك بسلامة أحوالِهم.

ويقال: سترى فيهم ما تحب من السلامة.

ويقال: أمانٌ لك في بابهم؛ فلهم السلامة. ولا تُشْغِلْ قلبَك بهم.

ويقالْ: فسلامٌ لك ـ أيها الإنسان ـ إنك من أصحاب اليمين، أو أيها الإنسانُ الذي من أصحاب اليمين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾.

إن كان من المكذبين لله، الضالّين عن دين الله فله إقامةٌ في الجحيم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

هذا هو الحقّ اليقين الذي لا محالةَ حاصلٌ.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾.

أي قَدِّسْ اللَّهَ عَمَّا لا يجوز في وصفه.

ويقال: صلِّ لله. ويقال: اشكرْ اللَّهَ على عصمة أُمَّتِكَ من الضَّلال، وعلى توفيقهم في اتِّباعِ سُنَّتِكَ.

سورة الحديد

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

سماعُ بسم الله الرحمن الرحيم شَرَابٌ يَسْقِي به الحقُّ ـ سبحانه وتعالى ـ قلوبَ أحبّائه، فإذا شَرِبوا طَرِبُوا، وإذا طَرِبوا انبسطوا[1]، ثم لشهود حقِّه تعرَّضوا، وبنسيم قُرْبه استأنسوا، وعند الإحساس بهم غابوا.. فعقولُهم تُسْتَغرقُ في لُطْفِه، وقلوبهم تُسْتَهلَكُ في كَشْفِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

التسبيحُ التقديسُ والتنزيه، ويكون بمعنى سباحة الأسرار في بحار الإجلال، فيظفرون بجواهر التوحيد ويَنْظِمونها في عقود الإيمان، ويُرَصِّعونها في أطواق الوصلة:

وقله ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ المرادُ به «من» في السموات والأرض، يسجدون لله طوعاً وكرهاً؛ طوعاً تسبيحَ طاعةٍ وعبادة، وكرهاً تسبيح علامة ودلالة.

وتُحْملُ «ما» على ظاهرها فيكون المعنى: ما من مخلوقٍ من عينٍ أو أَثَرٍ إلا ويَدُلُّ على الصانع، وعلى إثبات جلاله، وعلى استحقاقه لنعوت كبريائه.

ويقال: يُسبح لله ما في السموات والأرض، كلٌّ واقفٌ على الباب بشاهدِ الطّلَبِ... ولكنه ـ سبحانه عزيزٌ.

ويقال: ما تَقَلّب أحدُ من جاحدٍ أو ساجدٍ إلا في قبضة العزيز الواحد، فما يُصَرِّفهم إلا مَنْ خَلَقَهم؛ فمِنْ مُطيعٍ أَلْبَسَه نطاق وفاقه ـ وذلك فَضْلُه، ومِنْ عاصٍ رَبَطَه بمثقلة الخذلان ـ وذلك عَدْلُه.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: العزيز: المُعِزُّ لِمَنْ طَلَبَ الوصول، بل العزيز: المتقدِّسُ عن كل وصول.. فما وَصَلَ مَنْ وَصَلَ إلا حظَّه ونصيبه وصفته على ما يليق به.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

---

(١) قال القشيري في رسالته عند حديثه عن القبض والبسط: هما حالتان بعد ابتعاد العبد عن حالتي الخوف والرجاء، فالقبض للعارف بمنزلة الخوف للمستأنف، والبسط للعارف بمنزلة الرجاء للمستأنف. وكذلك المبسوط: قد يكون فيه بسط يسع الخلق فلا يستوحش من أكثر الأشياء، ويكون مبسوطاً لا يؤثر فيه شيء بحال من الأحوال. (الرسالة القشيرية ص٥٨).

المُلْك مبالغةٌ من المِلْك، وهو القدرة على الإبداع، ولا مالكَ إلا الله. وإذا قيل لغيره: مالك فعلى سبيل المجاز؛ فالأحكام المتعلقة في الشريعة على مِلْكِ الناس صحيحةٌ في الشرع، ولكنَّ لفظَ المِلْك فيها توسُّعٌ كما أن لفظَ التيمم في استعمال التراب ـ عند عدم الماء ـ في السفر مجازٌ، فالمسائل الشرعية في التيمم صحيحة، ولكن لفظ التيمم في ذلك مجاز.

﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾: يحيي النفوس ويميتها. ويُحْيي القلوبَ بإقباله عليها، ويميتها بإعراضه عنها. ويقال: يحييها بنظره وتفضُّله، ويميتها بقهره وتعزُّزه.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿**الأول**﴾: لاستحقاقه صفة القِدَم، و ﴿**الآخر**﴾ لاستحالة نعت العدَم.

و ﴿**الظاهر**﴾ بالعلو والرفعة، و ﴿**الباطن**﴾: بالعلم والحكمة.

ويقال: ﴿**الأول**﴾ فلا افتتاحَ لوجوده و ﴿**الآخِر**﴾ فلا انقطاعَ لثبوته.

﴿**الظاهر**﴾ فلا خفاءَ في جلال عِزِّه، ﴿**الباطن**﴾ فلا سبيل إلى إدراك حقِّه.

ويقال ﴿**الأول**﴾ بلا ابتداء، و ﴿**الآخِر**﴾ بلا انتهاء، و ﴿**الظاهر**﴾ بلا خفاء، و ﴿**الباطن**﴾ بنعت العلاء وعِزِّ الكبرياء.

ويقال ﴿**الأول**﴾ بالعناية، و ﴿**الآخِر**﴾ بالهداية، و ﴿**الظاهر**﴾ بالرعاية، و ﴿**الباطن**﴾ بالولاية.

ويقال: ﴿**الأول**﴾ بالخَلْق، و ﴿**الآخِر**﴾ بالرزق، و ﴿**الظاهر**﴾ بالإحياء، و ﴿**الباطن**﴾ بالإماتة والإفناء.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم: ٤٠].

ويقال: ﴿**الأول**﴾ لا بزمان، و ﴿**الآخر**﴾ لا بأوان، و ﴿**الظاهر**﴾ بلا اقتراب، و ﴿**الباطن**﴾ بلا احتجاب.

ويقال: ﴿**الأول**﴾ بالوصلة، و ﴿**الآخر**﴾ بالخلّة، و ﴿**الظاهر**﴾ بالأدلة، و ﴿**الباطن**﴾ بالبعد عن مشابهة الجملة.

ويقال: ﴿**الأول**﴾ بالتعريف، ﴿**والآخر**﴾ بالتكليف، ﴿**والظاهر**﴾ بالتشريف ﴿**والباطن**﴾ بالتخفيف.

ويقال: ﴿**الأول**﴾ بالإعلام، ﴿**والآخر**﴾ بالإلزام، ﴿**والظاهر**﴾ بالإنعام ﴿**والباطن**﴾ بالإكرام.

ويقال: ﴿**الأول**﴾ بأن اصطفاك ﴿**والآخر**﴾ بأن هداك، ﴿**والظاهر**﴾ بأن رعاك، ﴿**والباطن**﴾ بأن كفاك.

ويقال: مَنْ كان الغالبُ عليه اسمه ﴿الأول﴾ كانت فكرته في حديثِ سابقته: بماذا سمَّاه مولاه؟ وما الذي أجرى له في سابق حُكْمه؟ أبسعادته أم بشقائه؟

ومَنْ كان الغالبُ على قلبه اسمه ﴿الآخِر﴾ كانت فكرته فيه: بماذا يختم له حالَه؟ وإلام يصير مآلُه؟ أعَلَى التوحيد يَخْرُجُ من دنياه أو ـ والعياذُ بالله ـ في النارِ غداً ـ مثواه؟

ومن كان الغالبُ على قلبه اسمُه ﴿الظاهر﴾ فاشتغاله بشكر ما يجري في الحال من توفيق الإحسان وتحقيق الإيمان وجميل الكفاية وحُسْنِ الرعاية.

ومَنْ كان الغالبُ على قلبه اسمه ﴿الباطن﴾ كانت فكرتُه في استبهام أمره عليه فيتعثَّر ولا يدري.. أَفَضْلٌ ما يعامله به ربُّه أم مَكْرٌ ما يستدرجه به ربُّه؟

ويقال: ﴿الأول﴾ علم ما يفعله عبادُه ولم يمنعه عِلْمُه من تعريفهم، ﴿والآخِر﴾ رأى ما عَمِلوا ولم يمنعه ذلك من غفرانهم ﴿والظاهر﴾ ليس يَخْفَى عليه شيءٌ من شأنهم، وليس يَدَعُ شيئاً من إحسانهم ﴿والباطن﴾ يعلم ما ليس لهم به عِلْمٌ من خسرانهم ونقصانهم فيدفع عنهم فنونَ مَحَنهم وأحزانهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

مضى الكلام في ذلك.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾.

أي ما يدخل فيها من القَطْرِ، والكنوزِ، والبذورِ، والأمواتِ الذين يُدْفَنون فيها، ﴿وما يخرج منها﴾ من النبات وانفجار العيون وما يُسْتَخْرَجُ من المعادن.

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

من المطر والأرزاق. أو ما يأتي به الملائكةُ من القضاء والوحي.

﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾.

أي وما يصعد إليها من الملائكة، وطاعاتِ العِباد، ودعوات الخَلْقِ، وصحف المُكَلَّفين، وأرواح المؤمنين.

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿وهو معكم﴾ بالعلم والقدرة.

ويقال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إذا دُفِنَ العَبْدُ فاللَّه سبحانه يعلم ما الذي كان في قلبه من إخلاصٍ في توحيدِه، ووجوهِ أحزانه خسرانه، وشَكِّه وجحوده، وأوصافه المحمودة والمذمومة.. ونحو ذلك مما يخفى عليكم.

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على قلوب أوليائه من الألطاف والكشوفات وفنون الأحوال العزيزة.

﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من أنفاس الأولياء إذا تصاعدت، وحسراتهم إذا عَلَت[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾.

مضى معناه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

صَدِّقوا باللَّهِ ورسولِهِ، وتَصَدَّقوا ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ بتمليككم ذلك وتصييره إليكم. والذين آمنوا منكم وتصدَّقوا على الوجه الذي أُمروا به لهم ثوابٌ عظيمٌ؛ فإنَّ ما تحويه الأيدي مُعَرَّضٌ للزوال فالسَّعيدُ مَنْ قَدَّمَ في دنياه مَالَه في الآخرة عمارة حاله، والشقيُّ من سار فيما له في الآخرة وَبالُ مآله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أي شيء لكم في تَرْكِكُم الإيمان بالله وبرسوله، وما أتاكم به من الحشر والنشر، وقد أزاح العِلَّةَ بأنْ ألاحَ لكم الحُجَّة، وقد أخذَ ميثاقَكم وقتَ الذَّرِّ، وأوجب عليكم ذلك بحُكم الشَّرْع.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

ليخرِجَكم من ظلماتِ الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات الشكِّ إلى نور اليقين.

وكذلك يُريهم في أنفسهم من الآياتِ بكشوفاتِ السِّرِّ وما يحصل به التعريف مما يجدون فيه النفع والخيرَ؛ فيخرجهم من ظلمات التدبير إلى سعة فضاء التفويض، وملاحظة فنون جريان المقادير.

وكذلك إذا أرادت النَّفْس الجنوحَ إلى الرُّخَصِ والأخذِ بالتخفيف وما تكون عليه المطالبةُ بالأشَقِّ ـ فإن بادرَ إلى ما تدعوه الحقيقةُ إليه وَجَدَ في قلبه من النور ما يَغْلِمُ به ظلمةَ هواجس النَّفْسِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

---

(١) الآية (٥) لم ترد.

ما في أيديكم ميراثُه الله، وعن قريبٍ سيُنْقَلُ إلى غيركم ولا تبقون بتطاول أحمالكم. وهو بهذا يحثهم على الصدقةِ والبدارِ إلى الطاعة وتَرْكِ الإخلاد إلى الأمل.. ثم قال:

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

لا يستوي منكم من أنفق قبل فتح مكة والحديبية والذين أنفقوا من بعد ذلك. بل أولئك أعظم ثواباً وأعلى درجةً من هؤلاء؛ لأنَّ حاجة الناسِ كانت أكثر إلى ذلك وكان ذلك أشقَّ على أصحابه.

ثم قال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ إلَّا أنَّ فضيلة السَّبْقِ لهم، ولهذا قالوا:

السابقَ السابقَ قولاً وفعلاً   حذِّرِ النَّفْسَ حَسْرَةَ المسبوقِ

قوله جلّ ذكره: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

المراد بالقرض الصدقة، وإنما ذكرها سبحانه كذلك تطييباً لقلوبهم، فكأن المتصدِّق وهو يقرض شيئاً كالذي يقطع شيئاً من ماله ليدفعه إلى المُسْتَقْرِض.

ويقال: ﴿يُقْرِضُ﴾ أي يفعل فعلاً حسناً، وأراد بالقرض الحسن ها هنا ما يكون من وجهِ حلالٍ ثم عن طِيبِ قلبٍ، وصاحبُه مخلِصٌ فيه، بلا رياء يشوبه، وبلا مَنٍّ على الفقير، ولا يُكَدِّره تطويلُ الوعد ولا ينتظر عليه كثرة الأعواض.

ويقال: أن تقرضه وتقطع عن قلبك حُبَّ الدارين، ففي الخبر: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنًى»[1] ومَنْ لم يتحرَّز من شيء فخروجُه عنه تكلُّفٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٢/ ١٣٩، ٧/ ٨١)، ومسلم في (الصحيح الزكاة ب٣٢ رقم ٩٥) وأبو داود في (السنن الزكاة ب٤٠)، والنسائي في (السنن ٥/ ٦٢)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٢٧٨، ٤٠٢، ٤٧٦، ٥٢٤، ٣/ ٤٣٤)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٤/ ١٥٤، ١٧٧، ١٨٠، ٧/ ٤٦٦)، والطبراني في (المعجم الكبير ٣/ ٢٢٤)، والدولابي في (الكنى والأسماء ١/ ١٠٨)، والزيلعي في (نصب الراية ٢/ ٤١٢)، والسيوطي في (الدر المنثور ١/ ٢٥٣، ٢٥٤)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ١/ ٥٨٨)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ١٩٢٩)، والبغوي ١/ ٢١٣، والألباني في (إرواء الغليل ٣/ ٤١٥) وابن حجر في (فتح الباري ٩/ ٥٠٠)، والبغوي في (شرح السنة ٦/ ١٧٨)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٦٢٣١، ١٦٢٦٤، ١٦٢٦٦، ١٦٢٦٧)، وابن خزيمة في (الصحيح ٢٤٣٩)، وابن كثير في (التفسير ١/ ٣٧٤)، والقرطبي في (التفسير ٧/ ١١١، ١٩/ ١٣٤)، والدارقطني في (السنن ٣/ ٢٩٦)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٤/ ١٥٨٦)، وعبد الرزاق في (المصنف ١٦٤٠٤).

وهو نورٌ يُعْطَى للمؤمنين والمؤمنات بقَدْر أعمالهم الصالحة، ويكون لذلك النور مطارحُ شعاع يمشون فيها والنورُ يسعى بين أيديهم، ويحيط جميع جهاتهم.

ويقال: ﴿وَبِأَيْمَانِهِم﴾ كتبهم.

﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ﴾ أي بشارتكم اليومَ ـ من الله جنات. وكما أن لهم في العرصة هذا النور فاليومَ لهم في قلوبهم وبواطنهم نورٌ يمشون فيه، ويهتدون به في جميع أحوالهم، قال ﷺ: «المؤمن ينظر بنور الله»[1] وقال تعالى: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

وربما ينبسط ذلك النورُ على مَنْ يَقْربُ منهم. وربما يقع من ذلك على القلوب قَهْراً ـ ولأوليائه ـ لا محالةَ ـ هذه الخصوصية.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾.

انتظرونا فنلحق بكم لنقتبسَ من نوركم. وذلك لأن المؤمنين والمنافقين يُعْطَوْن كُتُبهم وهم في في النور، فإذا مَرُّوا... انطفأ النور أمام المنافقين وسَبَقَ المؤمنون، فيقول المنافقون للمؤمنين: انتظرونا حتى نقتبسَ من نوركم. فيقول المؤمنون:

﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾.

أي إلى الدنيا وأَخلِصوا! ـ تعريفاً لهم أنهم كانوا منافقين في الدنيا.

ويقال: ارجعوا إلى حُكْم الأزلِ فاطلبوا هذا من القِسْمة! ـ وهذا على جهة ضربِ المَثل والاستبعاد.

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾.

﴿بِسُورٍ﴾: وهو جَبَلُ أصحاب الأعراف، يستر بينهم وبين المنافقين، فالوجهُ الذي يلي المؤمن فيه الرحمة وفي الوجه الآخر العذابُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

ألم نكن معكم في الدنيا في أحكام الإيمان في المناكحة والمعاشرة؟.

قالوا: بلى، ولكنكم فتنتم أنفسكم..

﴿وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي (تفسير سورة ١٥، ١٦).

تربصتم عن الإخلاص، وشككتم، وغرَّكم الشيطان، وركنتم إلى الدنيا.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

النارُ مأواكم ومصيرُكم ومُتَقَلَّبُكم.

و ﴿**هي مولاكم**﴾ أي هي أَوْلَى بكم، وبئس المصير!

ويقال: مخالفة الضمائر والسرائر لا تنكتم بموافقة الظاهر، والأسرار لا تنكتم عند الاختبار.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

ألم يَحِنْ للذين آمنوا أن تتواضعَ قلوبُهم وتلين لذِكْر اللَّهِ وللقرآنِ وما فيه من العِبَرِ؟ وألا يكونوا كالذين أوتوا الكتابَ من قبل؟ وأراد بهم اليهودَ، وكثيرٌ من اليهود فاسقون كافرون.

وأراد بطول الأمَدِ الفترةَ التي كانت بين موسى ونبيِّنا ﷺ، وفي الخبر: «أن أصحاب رسول الله ﷺ أصابتهم ملالةٌ فقالوا: لو حَدّثْتنا»[1].

فأنزل اللَّهُ تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣] فبعد مُدَّةٍ قالوا: لو قَصَصْتَ علينا!

فأنزل اللَّهُ تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ [الكهف: ١٣] فبعد مدةٍ قالوا: لو ذَكَّرتَنا ووَعَظْتَنا!

فأنزل الله تعالى هذه السورة.

وفي هذه الآية ما يشبه الاستبطاء.

وإن قسوة القلب تحصل من اتباع الشهوة، والشهوة والصفة لا تجتمعان؛ فإذا حَصَلت الشهوةُ رَحَلت الصفوة. وموجِبُ القسوة هو انحرافُ القلب عن مراقبة الربِّ. ويقال: موجب القسوة أوَّلُه خَطْرة ـ فإلَمّ تُتَدارَكْ صارت فكرة، وإلَمّ تُتَدَارَكْ صارت عزيمة، فإن لم تُتَدَارَكْ جَرَت المخالفة، فإن لم تُتدارَكْ بالتلافي صارت قسوةً وبعدئذ تصير طَبعاً ورَيْناً[2].

---

(١) أخرجه أبو داود في (السنن ١٨٩٦).

(٢) الرين: الطبع والدنس، ران الثوب ريناً: تطبّع. ران الذنب على قلبه: غلب عليه وغطاه. (لسان العرب ١٣/ ١٩٢ مادة: رين).

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾.

يُحْيِي الأرضَ بعد موتها بإنزال المطرِ عليها وإخراج النَّبتِ منها. ويُحيي القلوبَ الميتةَ ـ بعد إعراضِ الحقِّ عنها ـ بحسن إقباله عليها.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾.

أي المتصدقين والمتصدقات.

﴿وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾: يعني في النوافل.

﴿يُضَٰعَفُ لَهُمۡ﴾ في الحسنات، الحسنةُ بعَشر أمثالها.. إلى ما شاء اللّهُ.

﴿وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾: ثوابٌ كبيرٌ حَسَنٌ. والثوابُ الكريمُ أنّه لا يضن بأقصى الأجْرِ على الطاعةِ ـ وإنْ قَلَّتْ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ﴾.

الصدِّيقون: مبالغة في الصدق، والشهداء: الذين استشهدوا في سبيل الله، فالمؤمنون بمنزلة الصديقين والشهداء ـ لهم أجرهم في الجنة ونورهم في القيامة.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

والصدِّيق مَنْ استوى ظاهرُه وباطنُه.

ويقال: هو الذي يحمل الأمرَ على الأشقِّ، ولا ينزلُ إلى الرُّخَصِ، ولا يجنح للتأويلات.

والشهداءُ: الذين يشهدون بقلوبهم مواطن الوصلة، ويعتكفون بأسرارهم في أوطان القربة، ﴿وَنُورُهُمۡۖ﴾: ما كحل الحقُّ به بصائرهم من أنوار التوحيد.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾.

الحياةُ الدنيا مُعَرَّضَةٌ للزوال، غيرُ لابثةٍ ولا ماكثة، وهي في الحال شاغلةٌ عن الله، مُطْمِعةٌ وغير مُشْبِعة، وتجري على غير سَنن الاستقامة كجريان لَعِب[1] الصبيان، فهي تُلْهي عن الصوابِ واستبصارِ الحقِّ، وهي تفاخرٌ وتكاثرٌ في الأموال والأولاد.

﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ﴾.

---

(١) اللُّعَاب: ما سال من الفم. (اللسان ١/ ٧٤١ مادة: لعب).

الكفار: الزُّرّاع.

هو في غاية الحُسْنِ ثم يهيج فتراه يأخذ في الجفاف، ثم ينتهي إلى أنْ يتحطّم ويتكسّر.

﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

لأهله من الكفّار.

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾.

لأهله من المؤمنين.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾.

الدنيا حقيرةٌ ـ وأحقرُ منها قَدْراً طالبُها وأقلُّ منه خَطَراً المزاحم فيها، فما هي إلا جيفة؛ وطالِبُ الجيفةِ ليس له خطرٌ. وأخس أهل الدنيا مَنْ بَخِلَ بها.

وهذه الدنيا المذمومة هي التي تَشْغَلُ العبدَ عن الآخرة!

قوله جلّ ذكره: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾.

أي سارِعوا إلى عَمَلٍ يوجب لكم مغفرةً من ربكم، وذلك العملُ هو التوبة.

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا﴾ ذَكر عَرْضها ولم يذكرْ طولها؛ فالطول على ما يوافيه العَرْضُ.

﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾: وفي هذا دليلٌ على أنَّ الجنةَ مخلوقة.

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

وفي ذلك ردٌّ على من يقول: «إن الجنة مُسْتَحقَّةٌ على الطاعات، ويجب على الله إيصالُ العبدِ إليها»... لأن الفضلَ لا يكون واجباً.

ويقال: لمَّا سمعت أسرار المؤمنين هذا الخطاب ابتدرت الأرواحُ مُقْتَضِيةً المسارعة من الجوارح، وصارت الجوارحُ مستجيبةً للمُطالَبةِ، مُستبشرة برعاية حقوق الله؛ لأنها علمت أن هذا الاستدعاءَ من جانب الحقِّ سبحانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

المصيبة خَصْلةٌ تقع وتحصل. فيقول تعالى: لا يحصل في الأرض ولا في أنفسكم شيءٌ إلا وهو مُثْبَتٌ في اللوح المحفوظ على الوجه الذي سبق به العِلْم، وحقٌّ فيه الحكم؛ فقبل أن نخلق ذلك أثبتناه في اللوح المحفوظ.

فكلُّ ما حصل في الأرض من خصبٍ أو جدبٍ، من سعة أو ضيق، من فتنة أو

استقامة وما حصل في النفوس من حزن أو سرور، من حياةٍ أو موت كلُّ ذلك مُثبت في اللوح المحفوظ قبل وقوعه بزمان طويل.

وفي قوله: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ دليلٌ على أن أكساب العباد مخلوقة لله سبحانه. وللعبدِ في العلم بأنَّ ما يصيبه: من بسطٍ وراحةٍ وغير ذلك من واردات القلوب من اللّهِ ـ أشدُّ السرور وأتمُّ الإنسِ؛ حيث عَلِمَ أنه أُفرِدَ بذلك بظهر غيبٍ منه، بل وهو في كنز العَدَم، ولهذا قالوا:

سقياً لمعهدك الذي لو لم يكن ... ما كان قلبي للصبابة معهدا

قوله جلّ ذكره: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾.

عَدَمُ الفرحة بما آتاهم هو من صفات المتحررين من رِقّ النَّفس، فقيمةُ الرجالِ تتبين بتغيُّرِهم ـ فَمَنْ لم يتغيرْ بمِا يَرِدُ عليه ـ مما لا يريده ـ من جفاءٍ أو مكروهٍ أو محنة فهو كاملٌ، ومَنْ لم يتغيَّرْ بالمسارّ كما لا يتغير بالمضارّ، ولا يَسُرُّه الوجودُ كما لا يُحْزِنُه العَدَمُ ـ فهو سَيِّد وقته[(١)].

ويقال: إذا أردتَ أن تعرفَ الرجلَ فاطلبْه عند الموارد؛ فالتغيُّرُ علامةُ بقاء النَّفْس بأيِّ وجهٍ كان:

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾.

فالاختيال من علامات بقاء النفس ورؤيتها، والفخرُ (ناتجٌ)[(٢)] عن رؤيةِ ما به يفتخر.

قوله جل ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾.

بخلوا بكتمان صفة نبيِّنا ﷺ وأمروا أتباعَهم بذلك، وذلك لما خافوا من كسادِ سُوقِهم وبطلان رياستهم.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن الإيمان، أو إعطاء الصَدَقة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾.

والبخلُ ـ على لسان العلم ـ مَنْعُ الواجب، فأمّا على بيان هذه الطائفة فقد قالوا:

البخلُ رؤية قَدْر للأشياء، والبخيلُ الذي يُعْطِي عند السؤال، وقيل: مَنْ كَتَبَ على خاتمه اسمه فهو بخيل[(٣)].

---

(١) انظر حديث القشيري في الرسالة عن التلوين والتمكين. ص٧٨ ـ ٨٠.

(٢) ما بين القوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) قال القشيري: أصل الفتوة أن يكون العبد دائماً في أمر غيره. (انظر الرسالة القشيرية ص٢٢٦، ٢٣١).

قوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.

أي أرسلناهم مُؤيَّدين بالحُجَج اللائحة والبراهين الواضحة، وأزَحْنا العِلَّةَ لِمَنْ أراد سلوكَ الحُجَّةِ المُثلى، ويَسَّرنا السبيل على مَنْ آثَرَ اتِّباعَ الهُدَى. وأنزلنا معهم الكُتُبَ المُنَزَّلةَ، و﴿الميزان﴾: أي الحُكْمَ بالقرآن، واعتبار العَدْلِ والتسويةِ بين الناس.

﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾: فلا يَظْلِمُ أحدٌ أحداً.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

﴿أنزلنا الحديد﴾: أي خلقنا الحديد.

ونصرة الله هي نصرةُ دينه، ونصرةُ الرسولِ باتِّباعِ سُنَّتِه.

﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾: أقوى من أن يُنازَعَه شريكٌ، أو يضارِعَه في المُلْكِ مليك، وأعزُّ من أن يحتاج إلى ناصر.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾.

أي: أرسلنا نوحاً، ومن بعده إبراهيم، وجعلنا في نَسْلِهما النبوَّةَ والكتاب.

﴿فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ﴾.

أي: مستجيبٌ.

﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

خرجوا عن الطاعة.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾.

أي: أرسلنا بعدهم عيسى ابن مريم.

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾.

بيَّن أنّه لم يأمرهم بالرهبانيّة[1] بل هم الذين ابتدعوها ثم قال:

﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾.

---

(١) الرهبانية: مصدر الراهب، والاسم الرهبانية من الرهبة: الخوف؛ فالنصارى كانوا يترهبون بالتخلي من أشغال الدنيا، وترك ملاذها، والزهد فيها، والعزلة عن أهلها، وتعهد مشاقها، حتى أن منهم من كان يخصي نفسه ويضع السلسلة في عنقه. (لسان العرب ١/ ٤٣٧، ٤٣٨ مادة: رهب).

هم الذين انفردوا بما عقدوه معنا أن يقوموا بحقّنا.

﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

نزلت في قوم من أهل الكتاب أسلموا.

﴿كِفْلَيْنِ﴾: أي نَصِيبَيْنِ؛ نصيباً على الإيمان بالله، وآخَرَ على تصديقهم وإيمانهم بالرُّسُل.

قوله جل ذكره: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

ومعناه: يعلم أهل الكتاب، و«لا» صلة. أي: ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله، فإن الفضل بيد الله. و«اليد» هنا بمعنى: القدرة، فالفضلُ بقدرة الله.

والإشارة في هذا: اتَّقُوا الله بحِفْظِ الأدبِ معه، ولا تأمنوا مَكْرَه أن يَسْلَبكم ما وَهَبَكم من أوقاتكم. وكونوا على حَذَرٍ من بَغَتَاتِ تقديره في تغيير ما أذاقكم من أُنْسِ محبته.

واتَّبِعوا السُّفَراء والرُّسُلَ، وحافظوا على اتِّباعهم حتى يُؤْتِيَكُم نصيبين من فضله: عصمةً ونعمةً؛ فالعصمة من البقاء عنه، والنعمة هي البقاء به.

ويقال: يؤتكم نصيبين: نصيباً من التوفيق في طَلَبِه، ونصيباً من التحقيق في وجوده[١].

---

(١) الوجود هنا لم يقصد به ضد العدم. انظر الرسالة القشيرية ص٦٣: فالتواجد بداية والوجود نهاية، والوجد واسطة بين البداية والنهاية.

سورة المجادلة

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ مَنْ عَرَفها بَذَلَ الرُّوحَ في طلبها ـ وإن لم يَحْظَ بوصولها، كلمةٌ مَنْ طلبها اكتفى بالطلب من قبولها.

كلمة جبَّارة لا تنظر إلى كلِّ أحد، كلمة قهّارةٌ لا يُوجَدُ من دونها مُلْتَحَد.

كلمةٌ منها بلاء الأحباب ـ لكن بها شفاء الأحباب.

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾.

لمَّا صَدَقَت في شكواها إلى الله وأيِسَتْ من استكشاف ضُرِّها من غير الله ـ أنزل الله في شأنها: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾.

تَضَرَّعَتْ إلى الله، ورَفَعَتْ قِصَّتَها إلى الله، ونَشَرَت غُصَّتَها بين يدي الله ـ فنَظرَ إليها الله، وقال: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾.

ويقال: صارت فرجةً ورخصةً للمسلمين إلى القيامة في مسألة الظِّهار[1]، وليعلم العالِمون أنَّ أحداً لا يخسر عَلَى الله.

وفي الخبر: أنها قالت: «يا رسول الله، إنَّ أوساً تزوَّجنِي شابَّةً غنيةً ذات أهلٍ، ومالٍ كثير، فلما كبرت سِنِّي، وذَهَبَ مالي، وتَفرَّق أهلي جعلني عليه كظَهْرِ أُمِّه، وقد ندِم وندِمت، وإنَّ لي منه صبيةً صِغَاراً إن ضَمَمْتُهم إليه ضاعوا، وإن ضممتُهم إليَّ جاعوا.

فقال لها الرسول ﷺ ـ في رواية ـ: «ما أُمِرْتُ بشيءٍ في شأنك»[2].

وفي رواية أخرى أنه قال لها: «بنتِ عنه» (أي حرمت عليه).

---

(١) الظِّهار: من النساء، وظاهر الرجل امرأته، ومنها، مظاهرة وظهاراً إذا قال: هي عليّ كظهر ذات رحم، وقد تظهّر منها وتظاهر. (اللسان ٤/ ٥٢٨ مادة: ظهر).

(٢) أخرّجه الهيثمي في (مجمع الزوائد ٩/ ١١٥)، والسيوطي في (الدر المنثور ٢/ ٢٠٤)، والطبري في (التفسير ٤/ ٢٨، ٥/ ١٤٥).

فترددت إلى رسول الله ﷺ في ذلك، وشكت. . إلى أن أنزل الله حُكم الظِّهار.

قوله جل ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

قَوْلُ الذين يقولون لنسائهم ـ جرياً على عادة أهل الشِّرْكِ ـ أنتِ عليَّ كظهر أمي. . هذا شيءٌ لم يَحْكُمْ الله به؛ ولا هذا الكلامُ في نَفْسِه صِدْقٌ، ولم يثبت فيه شَرْعٌ، وإنما هو زورٌ مَحْضٌ وكَذِبٌ صِرْفٌ.

فَعَلِمَ الكافةُ أن الحقائق بالتلبيسِ لا تتعزّز؛ والسَّبَبُ إذا لم يكن صحيحاً فبالمعاودةِ لا يثبت؛ فالمرأةُ لمَّا سمعت من رسول الله ﷺ قولَه «بِنْتِ عنه» ـ كان واجباً عليها السكونُ والصبرُ؛ ولكنَّ الضرورةَ أنطقتها وحَمَلتْهَا على المعاودة، وحصلت من ذلك مسألة: وهي أن كثيراً من الأشياء يحكم فيها ظاهرُ العلمِ بشيء؛ ثم تُغيِّر الضرورة ذلك الحُكْمَ لصاحبها.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

الظِّهار ـ وإن لم يكن له في الحقيقة أصل، ولا بتصحيحه نطق أو دلالة شرع، فإنه بعد ما رُفِعَ أمرُه إلى الرسول ﷺ ولوَّح بشيء ما، وقال فيه حُكمه، لم يُخِلْ الله ذلك من بيانٍ ساق به شَرعه؛ فقضى فيه بما انتظم جوانب الأمر كلِّه.

فارتفاعُ الأمر حتى وصوله إلى مجلس النبي ﷺ، والتحاكُم لديه حَمَّل المتعدِّي عناء فعلته، وأعاد للمرأة حقَّها، وكان سَبيلاً لتحديد المسألة برُمَّتها. . . وهكذا فإنَّ كلَّ صعبٍ إلى زوالٍ. . وكلُّ ليلة ـ وإنْ طالَتْ ـ فإلى إسفار[1].

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

الذين يخالفون أمر الله ويتركون طاعةَ رسولِ الله أُذِلُّوا وخُذِلوا، كما أُذِلَّ الذين من قَبْلهم من الكفَّار والعُصَاة.

وقد أجرى اللَّهُ سُنَّتَه بالانتقام من أهل الإجرام؛ فَمَنْ ضَيَّعَ للرسولِ سُنَّةً،

(١) الآية (٤) لم ترد.

وأحدَثَ في دينه بدعة انخرط في هذا السلك، ووقع في هذا الذُّلِّ.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

يقال: إذا حُوسِبَ أحدٌ في القيامة على عمله تصور له ما فعله وتذكَّره، حتى كأنه قائمٌ في تلك الحالة عن بِسَاط الزَّلَّةِ، فيقع عليه من الخَجَلِ والنَّدَم ما يَنْسى في جَنْبِه كُلَّ عقوبة.

فسبيلُ المسلم ألا يحومَ حول مخالفة أمر مولاه، فإنْ جَرَى المقدورُ ووقَعَ في هجنة التقصير فلتكن زَلَّتُه على بال، وليتضرع إلى الله بحُسْن الابتهال.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

مَعِيَّةُ الحقِّ ـ سبحانه ـ وإن كانت على العموم بالعلم والرواية، وعلى الخصوص بالفضل والنصرة ـ فلهذا الخطاب في قلوب أهل المعرفة أثرٌ عظيمٌ، ولهم إلى أنْ ينتهيَ الأمرُ بهم إلى التولُّه فالوَلَهِ فالهيمان في غمار سماع هذا عيش راغد.

ويقال: أصحابُ الكهف ـ وإن جَلَّتْ رتبتُهم واختصت من بين الناس مرتبتهم ـ فالحقُّ سبحانه يقول: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢] ولمَّا انتهى إلى هذه الآية قال: **﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة﴾** فشتَّان بين مَنْ رابِعُهُ كَلْبُه وبين من رابِعُه ربُّه!!

ويقال: أهلُ التوحيد، وأصحابُ العقولِ من أهلِ الأصولِ يقولون: اللَّهُ واحدٌ لا من طريق العدد، والحقُّ يقول: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ ويقال حيثما كنتَ فأنا معك؛ إن كنت في المسجد فأنا معك، وإن كنت في المصطبة فأنا معك، إن طَلَبَ العلماء التأويلَ[1] وشوَّشوا قلوبَ أُولي المواجيد فلا بأس ـ فأنا معهم.

---

(١) قال القشيري في رسالته عند حديثه عن الوصية للمريدين: فإن حجج هؤلاء في مسائلهم أظهر من حجج كل واحد وقواعد مذاهبهم أقوى من قواعد كل مذهب. والناس إما أصحاب النقل والأثر، وإما أرباب العقل والفكر، وشيخ هذه الطائفة ارتقوا عن هذه الجملة فالذي للناس غيب فهو لهم ظهور، والذي للخلق من المعارف مقصود، فلهم من الحق سبحانه موجود، فهم أهل الوصال، والناس أهل الاستدلال. (الرسالة القشيرية ص٣٧٨).

إن حضرْتَ المسجد فأنا معك بإسباغ النعمة ولكن وَغداً، وإن أتيتَ المصطبة فأنا معك بالرحمة وإسبالِ ستر المغفرة ولكن نَقْداً:

هَبْكَ تباعَدْتَ وخالَفْتَني تقدِرُ أن تخرجَ عن لُطْفي

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾.

آذَوْا قلوبَ المسلمين بما كانوا يتناجون به فيما بينهم، ولم تكن في تناجيهم فائدةٌ إلا قصدهم بذلك شَغْلَ قلوبِ المؤمنين، ولم ينتهوا عنه لمَّا نهُوا عنه، وأصَرُّوا على ذلك ولم ينزَجِروا، فتَوَعَّدهم اللَّهُ على ذلك، وتكون عقوبتُهم بأن تتغامز الملائكةُ في باب فيما بينهم، وحين يشاهدون ذلك تتَرَجَّمُ ظنونُهم، ويتعذَّبون بتَقَسُّم قلوبهم، ثم لا ينكشف الحالُ لهم إلَّا بما يزيدهم حزناً على حزنٍ، وأسفاً على أسفٍ.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

إنما قَبُحَ ذلك منهم وعَظُمَ الخطرُ لأنه تضمَّن إفسادَ ذات البَيْن، وخيرُ الأمورِ ما عاد بإصلاح ذات البَيْن، وبعكسه إذا كان الأمر بضدِّه.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

النجوى من تزيين الشيطان ليحزن الذين آمنوا. وإذا كانت المشاهدةُ غالبةً، والقلوبُ حاضرةً، والتوكلُ صحيحاً؛ والنظرُ من موضعه صائباً فلا تأثيرَ لمثل هذه الحالات، وإنما هذا للضعفاء.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟﴾.

لكمال رحمته بهم وتمام رأفته عليهم، علَّمَهم مراعاة حُسنِ الأدب بينهم فيما كان من أمور العادة دون أحكام العبادة في التفسُّح في المجالس والنظام في حال الزَّحمة والكثرة... وأعززْ بأقوامٍ أمَرهم بدقائق الأشياء بعد قيامهم بأصول الدين وتحقُّقِهم بأركانه!.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

لمّا كان الإذنُ في النجوى مقروناً ببذْلِ المالِ امتنعوا وتركوا، وبذلك ظَهَرت جواهر الأخلاق ونقاوةُ الرجال ـ ولقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾(1) [محمد: ٣٧].

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾.

مَنْ وافقَ مغضوباً عليه أشرَكَ نفْسَه في استحقاقِ غضبِ مَنْ هو الغضبان؛ فَمَنْ تَولَّ مغضوباً عليه مِنْ قِبَلِ الله استوجبَ غَضبَ الله وكفى بذلك هواناً وخسراناً.

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

هذا وصفٌ للمنافقين.

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ أي وقايةً وستراً؛ ومَنْ استتر بجُنَّةِ طاعته لتَسْلَم له دنياه فإنَّ سهامَ التقدير من ورائه تكشفه من حيث لا يشعر. فلا دِينُه يبقى، ولا دنياه تَسْلَم، ولقد قال تعالى: ﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾(2) [آل عمران: ١٠].

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾.

عقوبتُهم الكبرى ظَنُّهم أنَّ ما عَمِلوا مع الخَلْقِ يتمشَّى أيضاً في مُعَاملةِ الحقِّ، ففَرْطُ الأجنبية وغايةُ الجهلِ أكبَّتهم على مناخرهم في وَهْدَةِ نَدَمِهم.

قوله جل ذكره: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

إذا استحوذ الشيطانُ على عَبْدٍ أنْسَاه ذِكْرَ الله.

والنَّفْسُ إذا استولَتْ على إنسان أنْسَتْهُ الله.

ولقد خَسِرَ حزبُ الشيطان، وأخْسَرُ منه مَنْ أعان نَفْسَه ـ التي هي أعدى عدوِّه، إلَّا بأن يسعى في قَهْرِها لعلَّه ينجو مِنْ شَرِّها.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾.

مَنْ أرمَتْهُ شِقْوَتُه لم تُنعِشْهُ قُوَّتُه، ومَنْ قَصَمَهُ التقديرُ لم يَعْصِمه التدبير، ومَنْ استهانَ بالدِّين انخرطَ في سِلْكِ الأذَلِّين.

---

(١) الآية (١٣) لم ترد.

(٢) الآية (١٧) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾.

الذي ليس له إلا التدبير.. كيف تكون له مقاومة مع التقدير؟

قوله جل ذكره: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

مَنْ جَنَحَ إلى منحرفٍ عن دينه، أو داهَنَ مُبْتَدِعاً في عهده نزَعَ اللَّهُ نورَ التوحيدِ من قلبه فهو في خيانته جائرٌ على عقيدته، وسيذوق قريباً وَبَالَ أمره.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾.

خلق الله الإيمان في قلوب أوليائه وأثبته، ويقال: جعل قلوبهم مُطَرَّزَةً باسمه. وأعْزِز بِحُلَّةٍ لأسرار قومٍ طرازُها اسمُ «الله»!!

سورة الحشر

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ عزيزٌ ـ الكونُ بجملته في طلبه.. وهو عزيز.

الشموسُ والأقمارُ والنجومُ، والليلُ والنهارُ، وجميع ما خَلَقَ اللَّهُ من الأعيان والآثار متناديةٌ على أنفُسِها: نحن عبيدُه.. نحن عبيدُ مَنْ لَمْ يَزَلْ.. نريد مَنْ لم يَزَلْ.

قوله جل ذكره: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

قدَّس الله ونزَّهَهُ كُلُّ شيءٍ خَلَقه؛ فكلُّ ما خَلَقَه جَعَلَه على وحدانيته دليلاً، ولِمَنْ أراد أن يَعْرِفَ إلهيتَه طريقاً وسبيلاً.

أتقن كلَّ شيءٍ وذلك دليلُ عِلْمِه وحكمته، ورَتَّبَ كُلَّ شيءٍ، وذلك شاهِدٌ على مشيئته و(إرادته).

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فلا شبيه يساويه، ولا شريكِ له في المُلْكِ ينازِعُه ويُضاهيه.

﴿الْحَكِيمُ﴾ الحاكم الذي لا يُوجَدُ في حُكْمِه عَيْبٌ، ولا يتوجَّه عليه عَتْبٌ.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾.

هم أهل النضير، وكانوا قد عاهدوا النبيَّ ﷺ ألّا يكونوا عليه، ثم بعد أُحُد نقضوا العَهْدَ، وبايعوا أبا سفيان[1] وأهل مكة، فأخبر اللَّهُ تعالى رسولَه بذلك، فبعثَ صلوات الله عليه إليهم محمد بن مسلمة[2]، فأوهم أنه يشكو من الرسول في أخذ

---

(١) هو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف (٥٧ ق هـ ـ ٣١ هـ = ٥٦٧ ـ ٦٥٢م) صحابي، من سادات قريش في الجاهلية. وهو والد معاوية رأس الدولة الأموية. كان من رؤساء المشركين في حرب الإسلام عند ظهوره. قاد قريشاً وكنانة يوم أحد والخندق لقتال رسول الله ﷺ، وأسلم يوم فتح مكة (٨ هـ) وأبلى بعد إسلامه البلاء الحسن، وشهد حنيناً والطائف. ففقئت عينه يوم الطائف ثم فقئت الأخرى يوم اليرموك فعمي. ولما توفي رسول الله ﷺ كان أبو سفيان عامله في نجران، ثم أتى الشام، وتوفي بالمدينة، وقيل: بالشام.

الأعلام ٣/ ٢٠١، والأغاني ٦/ ٨٩، والإصابة ت٤٠٤١، وابن عساكر ٦/ ٣٨٨.

(٢) هو محمد بن مسلمة الأوسي الأنصاري (٣٥ ق هـ ـ ٤٣ هـ = ٥٨٩ ـ ٦٦٣ م) الحارثي أبو عبد الرحمن، صحابي من الأمراء، من أهل المدينة، شهد بدراً وما بعدها إلا غزوة تبوك. واستخلفه=

الصَّدَقَة. وكان رئيسهم كعب بن الأشرف[١] فقتله محمد بن مسلمة (غيلةً)، وغزاهم رسول الله ﷺ وأجلاهم عن حصونهم المنيعة وأخرجهم إلى الشام، وما كان المسلمون يَتَوَقَّعون الظَّفَرَ عليهم لكثرتهم، ولِمَنَعَةِ حصونهم.

وظلُّوا يهدمون دورَهم بأيديهم ينقبون ليخرجوا، ويقطعون أشجارهم ليسدوا النقب، فسُمُّوا أولَ الحشر، لأنهم أول من أُخْرِجَ من جزيرة العرب وحُشِرَ إلى الشام.

قال جل ذكره: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

كيف نَصَرَ المسلمين - مع قِلَّتهم - عليهم - مع كثرتهم. وكيف لم تمنعهم حصونُهم إذا كانت الدائرةُ عليهم. وإذا أراد اللَّهُ قَهْرَ عدوٍّ استنوق[٢] أَسَدُه.

ومن مواضع العِبْرةِ في ذلك ما قاله: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾ بحيث داخلتكم الرِّيبةُ في ذلك لِفَرْطِ قُوَّتِهم - فصَانَهُم بذلك عن الإعجاب.

ومن مواضع العبرة في ذلك أيضاً ما قاله ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فلم يكن كما ظنُّوه - ومَنْ تَقَوَّ بمخلوقٍ أسْلَمَه ذلك إلى صَغَارِه[٣] ومذَلَّتِه.

ومن الدلائلة الناطقة ما أُلْقِي في قلوبهم من الخوفِ والرُّعب، ثم تخريبُهم بيوتهم بأيديهم علامةُ ضَعْفِ أحوالهم، وبأيدي المؤمنين لقوة أحوالهم، فتمت لهم الغلبةُ عليهم والاستيلاء على ديارهم وإجلاؤهم.

هذا كلُّه لا بُدَّ أن يحصل به الاعتبارُ - والاعتبارُ أحَدُ قوانين الشَّرْع.

ومَنْ لم يَعْتَبِرْ بغيره اعتَبَرَ به غيرُه.

= النبي ﷺ على المدينة في بعض غزواته، وولاه عمر على صدقات جهينة، واعتزل الفتنة في أيام عليّ فلم يشهد الجمل ولا صفين، وكان عند عمر مُعداً لكشف أمور الولاة في البلاد مات بالمدينة.
الأعلام ٧/ ٩٧، والإصابة ت٧٨٠٨، والبدء والتاريخ ٥/ ١٢٠، والكامل ٣/ ٢.

(١) هو كعب بن الأشرف الطائي (... - ٣ هـ = ... - ٦٢٤م) من بني نبهان، شاعر جاهلي. كانت أمه من «بني النضير» فدان باليهودية، وكان سيداً في أخواله. أدرك الإسلام ولم يُسلم، وأكثر من هجو النبي ﷺ وأصحابه، وتحريض القبائل عليهم وإيذائهم، والتشبيب بنسائهم، وخرج إلى مكة بعد وقعة «بدر» فندب قتلى قريش فيها، وحض على الأخذ بثأرهم، وعاد إلى المدينة. وأمر النبي ﷺ بقتله فانطلق إليه خمسة من الأنصار، فقتلوه في ظاهر حصنه، وحملوا رأسه في مخلاة إلى المدينة.
الأعلام ٥/ ٢٢٥، وإمتاع الأسماع ١/ ١٠٧ - ١٠٩، وابن الأثير ٢/ ٥٣، والطبري ٣/ ٢ والجمحي ٢٣٨.

(٢) استنوق: صار كالناقة في ذلِّها. (اللسان ١٠/ ٣٦٢ مادة: نوق).

(٣) الصَّغار: الذل والضيم. (اللسان ٤/ ٤٥٩ مادة: صفر).

ويقال: يُخَرِّبون بيوتهم بأيديهم، وقلوبهم باتِّباع شهواتِ نفوسِهم، ودِينهم بما يمزجونه به من البِدَع.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾.

لولا أن قضى اللّهُ عليهم أن يخرجوا لعذَّبهم اللّهُ بالقتل والاستئصال، ثم في الآخرة لهم عذابُ النار.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

ذلك بأنهم خالفوا أمرَ الله. والمشاقة أن يتحول المرء إلى شِقٍّ آخر.

فالعاصي إذا انتقل من المطيعين إلى العاصين فقد شاقَّ الله، ولِمَنْ شاقَّ الله عذابُ النار.

قوله جل ذكره: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

اللِّينة: كلُّ نوعٍ من النخيل ما عدا العجوة(١) والبَرْنِيّ(٢).

لمَّا أمر رسولُ الله ﷺ بقَطْعِ بعض نخيل بني النضير قالت اليهود: ما فائدة هذا؟!

فبقي المسلمون عن الجواب، فأنزل الله تعالى هذه الآية ليوضِّح أن ذلك بإذن الله.. فانقطعَ الكلامُ.

وفي هذا دليلٌ على أن الشريعةَ غيرُ مُعَلّلةٍ، وأنَّ الأمرَ الشرعيَّ إذا جاء بَطَلَ التعليلُ، وسَكَتَتْ الألسنةُ عن المطالبة بـ «لِمَ؟» وخُطُورُ الاعتراضِ أو الاستقباحِ خروجٌ عن حَدِّ العرفان. والشيوخُ.

قالوا: مَنْ قال لأستاذِه وشيخه: «لِمَ؟» لا يفلح. وكلُّ مريدٍ يكون لأمثالِ هذه الخواطر في قلبِه جَوَلان لا يجيءُ منه شيءٌ. ومَنْ لم يتجرَّدْ قلبُه من طَلَبِ التعليل، ولم يباشِرْ حُسْنَ الرضا بكلِّ ما يجري واستحسانَ ما يبدو من الغيب لِسِرِّه وقلبِه ـ فليس من الله في شيء.

---

(١) العجوة: ضرب من أجود أنواع التمر بالمدينة أكبر من الصيحاني يضرب إلى السواد من غرس النبي ﷺ ونخلتها تسمى لينة. (اللسان ١٥/ ٣١ مادة: عجا).

(٢) البرني: ضرب من التمر أحمر مشرب بصفرة كثير اللحاء عذب الحلاوة. (اللسان ١٣/ ٥٠ مادة: برن).

قوله جل ذكره: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

يريد بذلك أموالَ بني النضير، فقد كانت من جملة الفَيْء لا من الغنيمة؛ فالفيءُ ما صار إلى المسلمين من أموالِ الكفَّارِ من غيرِ قتالٍ ولا إيجافِ خَيْلٍ وركابٍ، وتدخل في جملته أموالُهم إذا ماتوا وصاروا إلى بيت المال. والغنيمة ما كانت بقتالٍ وإيجاف خيلٍ وركابٍ. وقد خَصَّ رسولُ الله ﷺ بأموالِ هؤلاء فقراء المهاجرين، واستأثر لنفسه بما شاء، فطابت نفوسُ الأنصارِ بذلك، وشَكَرَ الله لهم. ذلك لأن تحرُّرَ القلب من الأعواضِ والأملاكِ صِفَةُ السادة والأكابر، ومَنْ أسَرَتْهُ الأخطارُ وبقي في شُحِّ نَفْسِه فهو في تضييقه وتدنيقه، وهو في مصادقته ومعاملته ومطالبته مع الناس دائماً يبحث في استيفاء حظوظه ـ وهذا ليس له من مذاقات هذه الطريقة شيءٌ.

وأهلُ الصفاء لم تَبْقَ عليهم من هذه الأشياء بقيةٌ، وأمَّا مَنْ بَقِيَ عليه منها شيءٌ فمُتَرسِّمٌ[1] سُوقِيٌ.. لا مُتَحقِّقٌ صوفيٌّ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾.

هذا أصل من أصولِ وجوبِ متابعتِه، ولزومِ طريقته وسيرته ـ وفي العِلْم تفصيلُه.

والواجبُ على العبدِ عَرْضُ ما وقع له من الخواطر وما يُكاشَفُ به من الأحوالِ على العلم ـ فما لا يقبله الكتابُ والسُّنَّة فهو في ضلال[2].

قوله جل ذكره: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾.

يريد أن هذا الفيء لهؤلاء الفقراء الذين كانوا مقدارَ مائةِ رجلٍ.

﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهو الرزق ﴿وَرِضۡوَٰنٗا﴾ بالثواب في الآخرة.

وينصرون دين الله، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾: والفقيرُ الصادقُ هو الذي يترك كلَّ سببٍ وعلاقة، ويفرغ أوقاته لعبادة الله، ولا يعطف بقلبه على شيء سوى الله، ويَقِفُ مع الحقِّ راضياً بِجَرَيَانِ حُكْمه فيه.

---

(١) القشيري يربط بين الصفاء والتصوف. (انظر الرسالة القشيرية ص٢٧٩ ـ ٢٨٣).

(٢) اللقاء بين الحقيقية والشريعة عنصر أساسي في مذهب القشيري. (انظر الرسالة ص٨٢، ٨٣).

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

نزلت هذه الآية في الأنصار. ﴿تَبَوَّءُو الدَّارَ﴾ أي سكنوا المدينة قبل المهاجرين.. ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ من أهل مكة.

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾ مما خُصِّصَ به المهاجرون من الفيء، ولا يحسدونهم على ذلك، ولا يَعْترضون بقلوبهم على حُكْمِ الله بتخصيص المهاجرين، حتى لو كانت بهم حاجةٌ أو اختلالُ أحوالٍ.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

قيل نزلت الآية في رجلٍ منهم أُهْدِيَتْ له رأسُ شاةٍ فطاف على سبعة أبيات حتى انتهى إلى الأول.

وقيل نزلت في رجلٍ منهم نزل به ضيفٌ فقرَّب منه الطعامَ وأطفأ السراجَ ليُوهِمَ ضيفَه أنه يأكل، حتى يؤثِرَ به الضيفَ عَلَى نفسه وعَلَى عياله، فأنزل الله الآية في شأنه.

ويقال: الكريمُ مَنْ بنى الدار لضيفانه وإخوانه (واللئيمُ من بناها لنفسه).

وقيل: لم يقل اللَّهُ: ومَنْ يتَّقِ شحَّ نفسه بل قال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾

ويقال: صاحبُ الإيثارِ يُؤْثر الشبعانَ على نفسه ـ وهو جائع.

ويقال: مَنْ مَيَّزَ بين شخصٍ وشخصٍ فليس بصاحبِ إيثارٍ حتى يؤثِرَ الجميع دون تمييز.

ويقال: الإيثار أنْ تَرَى أنَّ ما بأيدي الناسِ لهم، وأن ما يحصل في يدك ليس إلا كالوديعة والأمانة عندك تنتظر الإذنَ فيها.

ويقال: مَنْ رأى لنفسه مِلْكاً فليس من أهل الإيثار.

ويقال: العابدُ يؤثِر بدنياه غيرَه، والعارفُ يؤثِر بالجنة غيرَه.

وعزيزٌ مَنْ لا يطلبُ مِنَ الحقِّ لنَفْسِه شيئاً: لا في الدنيا من جاهٍ أو مالٍ، ولا في الجنّة من الأفضال، ولا منه أيضاً ذَرّةً من الإقبال والوصال وغير ذلك من الأحوال.

وهكذا وصفُ الفقير؛ يكون بسقوطِ كلِّ أرَبٍ.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي والذين هاجروا من بعدهم، ثم أجيالُ المؤمنين من بعد هؤلاء إلى يوم القيامة.. كلهُم يَتَرَحَّمون على السلف من المؤمنين الذين سبقوهم، ويسلكون طريقَ

الشفقة على جميع المسلمين، ويستغفرون لهم، ويستجيرون من الله أن يجعلَ لأحدٍ من المسلمين في قلوبهم غِلًا أي حِقْداً. ومَنْ لا شفقةَ له على جميع المسلمين فليس له نصيبٌ من الدِّين.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

يريد بهم منافقي المدينة؛ ظاهروا بني النضير وقريظة، وعاهَدوهم على الموافقة بكلِّ وَجْهٍ، فأخبر اللهُ ـ سبحانه ـ أنهم ليسوا كما قالوا وعاهدوا عليه، وأخبرَ أنَّهم لا يتناصرون، وأنَّهم يتخاذلون، ولئنْ ساعدوهم في بعضِ الحروب فإنهم يتخاذلون إن رأوهم ينهزمون أمام مَنْ يجاهدونهم(١).

قوله جل ذكره: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

أخبر ـ سبحانه ـ أن المسلمين أشدُّ رهبةً في صدورهم من الله، وذلك لِقلَّةِ يقينهم، وإعراضِ قلوبِهم عن الله.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾.

أخبر أنهم لا يجسرون على مقاتلة المسلمين إلّا مُخاتلةً، أو من وراء جدرانٍ.
وإنما يشتدُّ بأسُهم فيما بينهم، أي إذا حارب بعضُهم بعضاً، فأمّا معكم.. فلا.

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

اجتماعُ النفوس ـ مع تنافرُ القلوب واختلافها ـ أصلُ كلِّ فساد، وموجِبُ كُلِّ تخاذُل، ومقتضى تجاسُرِ العدوِّ.

واتفاقُ القلوبِ؛ والاشتراكُ في الهِمَّةِ؛ والتساوي في القَصْدِ يُوجِبُ كُلَّ ظَفَرٍ وكلَّ سعادة.. ولا يكون ذلك للأعداء قطّ؛ فليس فيهم إلا اختلالُ كلِّ حالٍ، وانتقاضُ كلِّ شَمْلٍ.

قوله جل ذكره: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

مَثَلُ بني قُرَيظة كمثل بني النضير؛ ذاق النضير وَبالَ أمرِهم قبل قريظة بِسَنَةٍ؛ وذاق قريظة بغَدْهم وبال أمرهم.

---

(١) الآية (١٢) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي مَثَلُ هؤلاء المنافقين مع النضير ـ في وَعْدِهم بعضهم لبعض بالتناصر ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ﴾.

وكذلك أربابُ الفترة وأصحاب الزَّلَّة وأصحاب الدعاوى.. هؤلاء كلُّهم في درجة واحدة في هذا الباب ـ وإن كان بينهم تفاوت ـ لا تنفع صُحْبَتُهم في الله؛ قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] وكلُّ أحدٍ ـ اليومَ ـ يألَفُ شَكْلَه؛ فصاحبُ الدعوى إلى صاحب الدعوى، وصاحبُ المعنى إلى صاحب المعنى[1].

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

التقوى الأولى على ذكر العقوبة في الحال والفِكْرِ في العملِ خَيْرِه وشَرِّه[2].

والتقوى الثانية تقوى المراقبة والمحاسبة، ومَنْ لا محاسبة له في أعماله ولا مراقبة له في أحواله.. فعَنْ قريب سيفتضح[3].

وعلامةُ مَنْ نَظَرَ لِغدِه أن يُحْسِنَ مراعاةَ يومِه؛ ولا يكون كذلك إلّا إذا فَكَّرَ فيما عَمِلَه في أمْسِه والناس في هذا على أقسام: مُفَكِّرٌ في أمْسِه: ما الذي قُسِمَ له في الأزل؟ وآخر مفكِّر في غده: ما الذي يلقاه؟؟ وثالثٌ مُسْتَقِلٌّ بوقته فيما يلزمه في هذا الوقت فهو مُصْطَلَمٌ عن شاهده موصولٌ بربِّه، مُنْدَرِجٌ في مذكوره؛ لا يتطلَّعُ لماضيه ولا لمستقبله، فتوقيتُ الوقتِ يشغله عن وقته[4].

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

تركوا طاعتَه فتَرَكَهم في العذاب؛ وهو الخذلان حتى لم يتوبوا ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

---

(١) الآية (١٧) لم ترد.

(٢) انظر الرسالة القشيرية ص٦٩ (الغيبة والحضور).

(٣) انظر حديث القشيري عن المراقبة بالرسالة القشيرية ص ١٨٩، ١٩٢.

(٤) قال القشيري برسالته عند حديثه عن الوقت: يقولون: الصوفي ابن وقته، يريدون بذلك أنه مشتغل بما هو أولى به في الحال، قائم بما هو مطالب به في الحين، ويقولون: فلان بحكم الوقت أي أنه مستسلم بما يبدو له من الغيب من غير اختيار له. ومن ساعده الوقت فالوقت له وقت، ومن ناكده الوقت فالوقت عليه مقت. (الرسالة القشيرية ص٥٥، ٥٦).

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾.

لا يستوي أهلُ الغفلةِ مع أهل الوصلة.

وأصلُ كلِّ آفةٍ نسيانُ الربِّ، ولولا النسيان لما حَصَلَ العصيان، والذي نسِيَ أمرَ نَفْسِه فهو الذي لا يجتهد في تحصيل توبته، ويُسَوِّفُ فيما يُلْزِمَهُ به الوقتُ من طاعته.

قوله جل ذكره: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي لو كان للجبلِ عقلٌ وصلاحُ فِكْرٍ وسِرٍّ، وأنزلنا عليه هذا القرآن لخَضَعَ وخَشَعَ. ويجوز أن يكون على جهة ضرب المثل كما قال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٩٠] ويدل عليه أيضاً قوله.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾: ليعقلوا ويهتدوا، أي بذلك أمَرْناهم، والمقصود بيان قسوة قلوبهم عند سماع القرآن.

ويقال: ليس هذا الخطابُ على وَجْهِ العتابِ معهم، بل هو على سبيل المدح وبيان تخصيصه إيَّاهم بالقوة؛ فقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ لم يُطِقْ ولخَشَع - وهؤلاء خَصَصْتُهم بهذه القوة حتى أطاقوا سماع خطابي.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿ٱلْغَيْبِ﴾: ما لا يُعْرَفُ بالضرورة، ولا يُعْرَف بالقياس من المعلومات. ويقال: هو ما استأثر الحقُّ بعِلْمِه، ولم يجعل لأحدٍ سبيلاً إليه.

﴿وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾: ما يَعرفُه الخَلْقُ.

وفي الجملة: لا يَعْزُبُ عن عِلْمِه معلومٌ.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿ٱلْمَلِكُ﴾: ذو القدرة على الإيجاد.

﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾: المُنَزَّهُ عن الآفة والنقص.

﴿ٱلسَّلَـٰمُ﴾: ذو السلامة من النقائص، الذي يُسَلِّمُ على أوليائه، والذي سَلِمَ المؤمنون من عذابه.

﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾: الذي يُصَدق عَبْدَه في توحيده فيقول له: صَدَقْتَ يا عبدي.

والذي يُصَدِّق نفسه في إخباره أي يعلم أنه صادق.

ويكون بمعنى المصدق لوعده. ويكون بمعنى المخبر لعباده بأنه يُؤمِّنهم من عقوبته.

﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾: الشاهد، وبمعنى الأمين، ويقال مؤيمن (مُفَيْعِل) من الأمن قلبت همزته هاءً وهو من الأمان، ويقال بمعنى المؤمِن.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: الغالبُ الذي لا يُغْلَب، والذي لا مثيلَ له، والمستحق لأوصاف الجلال، وبمعنى: المُعِزّ لعباده. والمَنِيعَ الذي لا يَقْدِرُ عليه أحد.

﴿ٱلْجَبَّارُ﴾: الذي لا تصل إليه الأيدي. أو بمعنى المُصْلِح لأمورهم من: جَبَرَ الكَسْرَ. أو بمعنى القادر على تحصيل مراده مِنْ خَلْقِه على الوجه الذي يريده من: جَبَرْتُه على الأمر وأجبرته.

﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾: المتقدِّس عن الآفات.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

هو المنشىء للأعيان والآثار.

﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ المُسَمَّيات الحِسَان.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: مضى معناهما، وقد استقصينا الكلام في معاني هذه الأسماء (في كتابنا المسمَّى: «البيان والأدلة في معاني أسماء الله تعالى»).

سورة الممتحنة

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسم مَلِكٍ لا أصلَ لمُلْكِه عند حَدَث ولا نَسْلَ له، فعَنْهُ يَرِث. ملكٍ لا يَسْتَظْهِرُ بجيشٍ وعُدَد، ولا يتعزَّزُ بقَوْم وعَدَد. ملكٍ للخَلْقِ بأجمعِهِم ـ لكنه اختار قوماً ـ لا لينتفِعَ بهم ـ بل لِنَفْعِهم، وردَّ آخَرين وأذلَّهم بمَنْعِهم ووَضْعِهم:

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾.

قال ﷺ: «أعدى عدوِّك نَفْسُك التي بين جنبيك»[1] وأوحى الله سبحانه إلى داود عليه السلام: «عادِ نَفْسَك فليس لي في المملكة مُنَازِعٌ غيرها». فَمَنْ عادَى نَفسَه فقد قام بحقِّ الله، ومَنْ لم يعادِ نفسه لَحِقَتْه هذه الوصمة[2]. وأصلُ الإيمانِ الموالاةُ والمعاداةُ في الله ومَنْ جَنَحَ إلى الكفار أو إلى الخارجين عن دائرة الإسلام انحاز إلى جانبهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

أنا أعلم ﴿بِمَا أَخْفَيْتُمْ﴾ من دقائقِ التصنُّع وخَفِيَّات الرياء.

﴿وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾ من التزيُّن للناس.

﴿بِمَا أَخْفَيْتُمْ﴾ من الاستسرار بالزَّلة، ﴿وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾، من الطاعة والبرِّ.

﴿بِمَا أَخْفَيْتُمْ﴾ من الخيانة ﴿وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾ من الأمانة.

---

(1) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/ ٢٠٦، ٩/ ٣٣)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣/ ٤).

قال القشيري في رسالته عند حديثه عن النَّفْس: ليس المراد من إطلاق لفظ النفس الوجود ولا القالب الموضوع، إنما أرادوا بالنفس ما كان معلولاً من أوصاف العبد، ومذموماً من أخلاقه وأفعاله. (الرسالة القشيرية ص٨٦، ٨٧).

(2) الوصمة: العيب والعار.

﴿بِمَآ أَخْفَيْتُمْ﴾ من الغِلِّ والغِشِّ للناس، ﴿وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ من الفضيحةِ للناس.

﴿بِمَآ أَخْفَيْتُمْ﴾ من ارتكاب المحظورات، ﴿وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ من الأمرِ بالمعروف.

﴿بِمَآ أَخْفَيْتُمْ﴾ من تَرْكِ الحشمة مني وقلة المبالاة باطِّلاعي، وما أعلنتم من تعليم الناسِ ووَعْظِهِمْ.

﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ فقد حاد عن طريق الدين، ووَقَعَ في الكفر.

قوله جل ذكره: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾.

إنْ يَظْفَروا بكم وصادَفوكم يكونوا لكم أعداء، ولن تَسْلَموا من أيديهم بالسوءِ ولا من ألسنتهم بالذمِّ وذكْرِ القبيح.

﴿وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾: ولن يَنفَعَكم تَوَدُّدُكم وتَقَرُّبُكم إليهم، ولا ما بينكم وبينهم من الأرحام. ثم عقوبة الآخرةَ تُدْرِكُكُم.

وكذلك صفة المخالِف، ولا ينبغي للمرء أن يتعطَّش إلى عشيرته ـ وإن داهَنَتْه في قالَةٍ، ولا أن ينخدعَ بتغريرها ـ وإنْ لا يَنْتَه في حالة.

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾.

أي لكم قُدْوَةٌ حسنة بإبراهيم ومَنْ قبله من الأنبياء حيث تبرَّؤوا من الكفار من أقوامهم؛ فاقْتَدُوا بهم.. إلَّا استغفار إبراهيم لأبيه ـ وهو كافر ـ فلا تقتدوا به.

ولَا تَسْتَغْفِروا للكفار. وكان إبراهيمُ قد وعده أبوه أنه يُؤمِن فلذلك كان يستغفر له، فَلَمَّا تَبَيَّنَ له أنه لن يُؤمِنَ تَبرَّأ منه.

ويقال: كان منافقاً.. ولم يَعْلَمْ إبراهيم ذلك وقتَ استغفاره له.

ويقال: يجوز أنه لم يعلم في ذلك الوقت أنَّ الله لا يغفر للكفار.

والفائدةُ في هذه الآية تخفيفُ الأمر على قلب الرسول ﷺ والمؤمنين بتعريفهم أنَّ مَنْ كانوا قبلهم حين كَذَّبوا بأنبيائهم أهلكهم الله، وأنهم صبروا، وأنه ينبغي لذلك أن يكونَ بالصبرِ أمرُهم.

قوله جل ذكره: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

أخبر أنهم قالوا ذلك.

ويصحُّ أن يكون معناه: قولوا: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾.

وقد مضى القولُ في معنى التوكل والإنابةُ.

قوله جل ذكره: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

ربَّنا لا تُظفِرهم بنا، ولا تُقوِّهم علينا.

والإشارة في الآية: إلى الأمرِ بِسُنَّةِ إبراهيم في السخاء وحُسْنِ الخُلُقِ والإخلاصِ والصدقِ والصبرِ وكلُّ خصلةٍ له ذَكَرَها لنا[1].

قوله جل ذكره: ﴿۞ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقفهم في مقتضى قوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ﴾ عند حدِّ التجويز.. لا حُكْماً بالقَطْعِ، ولا دَفْعَ قلبٍ باليأس.. ثم أمَرَهم بالاقتصاد في العداوة والولاية معهم بقلوبهم، وعرَّفهم بوقوع الأمر حسب تقديره وقدرته، وجَرَيانِ كلِّ شيءٍ على ما يريد لهم، وصَدَّق هذه الترجية بإيمان مَنْ آمَنَ منهم عند فتح مكة، وكيف أسلم كثيرون، وحصل بينهم وبين المسلمين مودةٌ أكيدة.

قوله جل ذكره: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

أمَرَهُم بشدة العداوة مع أعدائهم على الوجه الذي يفعلونه، وأمّا من كان فيهم ذا خُلُقٍ حَسَنٍ، أو كان منه للمسلمين وجهُ نَفْعٍ أو رِفْقٍ ـ فقد أمَرَهم بالملاينة معه. والمُؤلَّفَةُ قلوبهم[2] شاهدٌ لهذه الجملة، «فإنَّ الله يحب الرِّفق في جميع الأمور»[3].

---

(١) الآية (٦) لم ترد.

(٢) المؤلفة قلوبهم: قوم من سادات العرب أمر الله تعالى نبيه ﷺ في أول الإسلام بتألفهم أي بمقاربتهم وإعطائهم ليرغبوا من وراءهم في الإسلام فلا تحملهم الحمية مع ضعف نياتهم على أن يكونوا إلْباً مع الكفار على المسلمين، وقد نفّلهم النبي ﷺ يوم حُنين بمائتين من الإبل تألفاً لهم. منهم الأقرع بن حابس والعباس بن مرداس وغيرهما. (لسان العرب ٩/ ١١ مادة: ألف).

(٣) أخرجه البخاري في (الصحيح ٨/ ١٤، ٧١، ١٠٤)، ومسلم في الصحيح (السلام ١٠)، والترمذي في (السنن ٢٧٧١)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٦/ ٣٦، ٣٧، ٨٥، ١٩٩)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٩/ ٢٠٣) والدارمي في (السنن ٢/ ٣٢٣)، والطبراني في (المعجم الكبير ٢٨/ ١٠)، والهيثمي في (مجمع الزوائد٨/ ١٩)، وابن حجر في (فتح الباري ١٠/ ٤٤٩، ١١/ ٤١، ١٩٤)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٥١٩٤) والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٣٣٣)، والخطيب البغدادي=

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾.

كان النبيُّ ﷺ يمتحنهن باليمين، فَيَحْلِفْنَ إنَّهن لم يخرجن إلّا لله، ولم يخرجن مغايظةً لأزواجهن، ولم يخرجن طمعاً في مالٍ.

وفي الجملة: الامتحانُ طريقٌ إلى المعرفة، وجواهرُ الناس تتبيَّن بالتجربة. ومَنْ أقْدَمَ على شيءٍ من غير تجربة تَحَسَّى كأسَ الندم.

﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾.

لا توافِقوا مَنْ خالَفَ الحقَّ في قليل أو كثير[1].

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

إذا جاءك النساء يبايعنك على الإسلام فطالِبْهُنَّ وشارِطْهُنَّ بهذه الأشياء:

تَرْك الشِّرك، وترك السرقة والزنا وقتل الأولاد والافتراء في إلحاق النَّسبِ، وألا يعصينك في معروفٍ؛ فلا يخالفنك فيما تأمرهن به، ويدخل في ذلك تَرْكُ النياحةِ وشقُّ الجيوب ونَتْفُ الشَّعْرِ عند المصيبة وتخميش[2] الوجوه والتبرُّجُ[3] وإظهارُ الزينة.. وغير ذلك مما هو من شعائر الدِّين في الجملة.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾.

الذين غضب الله عليهم هم الكفار. يئسوا من الآخرة كما يئِسَ أصحاب القبور أن يعودوا إلى الدنيا ويُبْعثوا (بعد ما تبينوا سوء منقلبهم).

ويقال: كما يئس الكفار حين اعتقدوا أن الخَلْقَ لا يُبْعَثُون في القيامة.

= في (تاريخ بغداد ٤/ ١٠)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ٤٥، ١٦٤)، والبغوي في (شرح السنة ١٣/ ٧٣) وعبد الرزاق في (المصنف ٩٨٣٩، ١٩٤٦٠)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٢/ ٢٦) والبخاري في (التاريخ الكبير ٤/ ٨٤)، والبخاري في (الأدب المفرد ٤٦٢)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٦/ ٣٥٠).

(١) الآية (١١) لم ترد.

(٢) الخمش: الخدش يظهر في الوجه وغيره (ج) خموش.

(٣) التبرّج: إظهار المرأة زينتها ومحاسنها للرجال. (اللسان ٢/ ٢١٢ مادة: برج).

سورة الصف

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة مَنْ وقفه اللَّهُ لعرفانها لم يَصْبِرْ عن ذكرها بلسانه ثم لا يفتر حتى يصلَ إلى المُسَمَّى بها بِجِنَانِه: في البداية بتأمُّل برهانه لمعرفة سلطانه، ثم لا يزال يزيده في إحسانه حتى ينتهي في شأنه بالتحقق مما هو كعِيانِه.

قوله جل ذكره: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

مَنْ أراد أنْ يصفوَ له تسبيحُه فَلْيُصَفِّ قلبَه من آثار نَفْسِه، ومَنْ أراد أن يَصْفُوَ له في الجنَّةِ عَيشُه فَلْيُصَفِّ من أوضارِ[1] ذَنْبِهِ نَفْسَه.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

جاء في التفاسير أنهم قالوا: لو عَلِمْنا ما فيه رضا الله لَفَعَلْنا ولو فيه كل جهد.. ثم لمَّا كان يومُ أُحُدُ لم يثبتوا، فنزلت هذه الآية في العتاب.

وفي الجملة: خلفُ الوعدِ مع كلِّ أَحَدٍ قبيحٌ، ومع الله أقبح.

ويقال إظهارُ التجلُّدِ من غير شهود مواضِع الفقر إلى الحقِّ في كلِّ نَفَسٍ يؤذِنُ بالبقاء عمَّا حصل بالدعوى.. والله يحب التبرِّي من الحوْلِ والقوة.

ويقال: لم يتوعَّد ـ سبحانه ـ زَلَّةٍ بِمثْلِ ما على هذا حين قال: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾.

المحبةُ توجِبُ الإِيثارَ، وتقديم مُرَادِ حبيبك عَلَى مُرَادِ نَفْسِك، وتقديم محبوب حبيبك على محبوبِ نَفْسِك. فإذا كان الحقُّ تعالى يحبُّ من العبدِ أن يُقاتِلَ على الوجه الذي ذكره فَمَنْ لم يُؤثِرْ محبوبَ الله على محبوب نَفْسِه ـ أي

(١) الأوضار: (ج) الوضر: الوسخ من الدسم أو غيره.

على سلامته ـ انسلخ من محبته لربِّه، ومَنْ خلا من محبةِ الله وَقَعَ في الشِّق الآخر، في خسرانه.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

لمَّا زاغوا بِتَرْكِ الحدِّ أزاغ اللَّهُ قلوبهم بنقض العهد.

ويقال: لمَّا زاغوا عن طريق الرُّشْدِ أزاغ الله قلوبَهم بالصدِّ والردِّ والبُعْدِ عن الوُدِّ.

ويقال: لما زاغوا بظواهرهم أزاغ الله سرائرَهم.

ويقال: لمَّا زاغوا عن خدمة الباب أزاغ اللَّهُ قلوبهم عن التشوُّق إلى البساط.

ويقال: لمَّا زاغوا عن العبادة أزاغ اللَّهُ قلوبَهم عن الإرادة.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

بَشَّرَ كلُّ نبيٍّ قومَه بنَبِيِّنا ﷺ، وأفرد الله ـ سبحانه ـ عيسى بالذِّكرِ في هذا الموضع لأنه آخِرُ نبيٍّ قبل نبيِّنا ﷺ: فبيَّن بذلك أن البشارة به عَمَّتْ جميعَ الأنبياء واحداً بعد واحد حتى انتهت بعيسى عليه السلام[1].

قوله جل ذكره: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

فَمَنْ احتال لوَهنه، أو رامَ وهْيَه انعكس عليه كَيْدُه، وانتقض عليه تدبيرُه.

﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾: كما قالوا:

ولله سِـرٌّ فـي عُـلاهُ وإنـمـا ... كـلامُ الـعِـدَى ضَـرْبٌ مـن الـهَـذَيـانِ

كأنه قال: مَنْ تمنَّى أن يُطْفِىءَ نورَ الإسلام بكيده كمن يحتال ويزاول إطفاء شعاعِ الشمس بنَفْثه ونَفْخِه فيه ـ وذلك من المُحال.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

لمَّا تقاعد قومُه عن نصرته، وانبرى أعداؤه لتكذيبه، وجحدوا ما شاهدوه من صِدْقِه قَيَّض الله له أنصاراً من أمته هم: نُزَّاعُ القبائل، والآحادُ الأفاضل، والساداتُ الأماثل، وأفرادُ المناقب ـ فبذلوا في إعانته ونصرة دينه مُهَجَهم، ولم يُؤْثِروا عليه شيئاً من كرائمهم، ووقوه بأرواحهم، وأمَدَّهم اللَّهُ سبحانه بتوفيقه كي ينصروا

(١) الآية (٧) لم ترد.

دينه، أولئك أقوامٌ عَجَنَ الله بماء السعادة طِينَتَهم، وخَلَقَ من نور التوحيد أرواحهم وأهَلَّهم يومَ القيامة للسيادة على أضرابهم.

ولقد أرسل الله نبيَّه لدينه مُوَضِّحاً، وبالحقِّ مُفْصِحاً، ولتوحيده مُعْلِناً، ولجهده في الدعاء إليه مستفرِغاً.. فأقْرَعَ بنُصْحِه قلوباً نُكْراً، وبصَّرَ بنور تبليغه عيوناً عُمْياً.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

سمَّى الإيمانَ والجهادَ تجارةً لِمَا في التجارة من الرِّبح والخسران ونوعِ تَكسُّبٍ من التاجر ـ وكذلك: في الإيمان والجهاد رِبْحُ الجنَّة وفي ذلك يجتهد العبد، وخسرانها إذا كان الأمرُ بالضِّدِّ.

وقوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي في ذلك جهادُكم وإيمانُكم واجتهادُكم، وهو خيرٌ لكم.

ثم بَيَّن الربحَ على تلك التجارة ما هو فقال:

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

قدَّم ذِكْرَ أهمِّ الأشياء ـ وهو المغفرة. ثم إذا فرغَتْ القلوبُ عن العقوبة قال:

﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ﴾ فبعد ما ذَكَرَ الجنَّةَ ونعيمَهَا قال: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾، وبماذا تطيب تلك المساكن؟ لا تطيب إلَّا برؤية الحقِّ سبحانه، ولذلك قالوا:

أجيرانَنَا ما أوحشَ الدارَ بعدكم ... إذا غِبْتُمو عنها ونحن حضورُ
نحن في أكمل السرورِ ولكن ... ليس إلا بكم يتمُّ السرورُ
عيبُ ما نحن فيه يا أهلَ ودِّي ... أنكم غُيَّبٌ ونحن حضورُ

قوله جل ذكره: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي ولكم نعمة أخرى تحبونها: نصرٌ من الله؛ اليومَ حِفْظُ الإيمان وتثبيتُ الأقدام على صراط الاستقامة، وغداً على صراط القيامة.

﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾: الرؤية والزلفة. ويقال الشهود. ويقال: الوجود أبدَ الأبَد.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: بأنهم لا يبقون عنك في هذا التواصل.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ

أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ .

أي كونوا أنصاراً لدينه ورسوله كما أنَّ عيسى لمَّا استعانَ واستنصرَ الحواريين نصروه. فانصروا محمداً إذا استنصركم.

ثم أخبر أنَّ طائفةً من بني إسرائيل آمنوا بعيسى فأُكْرِموا، وطائفةً كفروا فأُذِلُّوا، وأظفرَ أولياءَه على أعدائه.. لكي يعرف الرسولُ ﷺ أنَّ الله سبحانه يُظْفِرُ أولياءَه على أعدائه.

سورة الجمعة

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسم عزيز إذا تجلّى لقلبِ عَبْدٍ بوصفِ جمالِه تجمعت أفكارُه على بساط جُودِهِ فلم يتفرّق بسواه(١).

ومَنْ تجلَّى لِسِرِّه بنعت جلالِه اندرجت جملتُه، واستُهْلِكَ في وجوده فلم يشعر بكرائم دُنْياه ولا بعظائم عُقْباه.

وكم له من إنعام! وكم له من إحسان! وكم في أمثالهم: «جرى الوادي فطمَّ على القَرِيِّ»(٢).

قوله جل ذكره: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

تَسْبَحُ في بحارِ توحيد الحقِّ أسرارُ أهلِ التحقيق، وبَحْرُهم بلا شاطىء؛ فبعد ما حصلوا فيها فلا خروجَ ولا براحَ، فحازت أيديهم جواهرَ التفريد فرصَّعوها في تاج العرفان كي يَلْبَسُوه يومَ اللِّقاء.

﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

﴿الْمَلِكِ﴾: الملك المتفرِّد باستحقاق الجبروت.

﴿الْقُدُّوسِ﴾: المُنزَّهُ عن الدرك والوصول: فليس بيد الخَلْقِ إلَّا عرفان الحقائق بنعت التعالي، والتأمل في شهود أفعاله، فأمَّا الوقوف على حقيقة أنِّيته ـ فقد جَلَّتْ الصمديةُ عن إشرافٍ عليه، أو طمعِ إدراكٍ في حالِ رؤيته، أو جواز إحاطةٍ في العِلْم به.. فليس إلا قالة بلسانٍ مُسْتَنْطقٍ، وحالة بشهودِ حقٍّ مستغرق.

وقُلْنَ لنا: نحن الأهِلَّة إنما ... نُضيءُ لِمَنْ يَسْرِي بليلٍ ولا نَقْرِي

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

---

(١) انظر حديث الجمع والفرق للقشيري برسالته ص ٦٤، ٦٧.

(٢) القَرِيُّ: مجرى الماء في الروض (ج) أقرية وقُريان. (اللسان ١٥/١٧٩ مادة: قرا).

جرَّده عن كلِّ تكلُّفٍ لِتَعَلُّمٍ، وعن الاتصافِ بتطَلُّبٍ. ثم بَعَثَه فيهم وأظْهَرَ عليه من الأوصاف ما فاق الجميع.

فكما أيْتَمَهُ في الابتداء عن أبيه وأمِّه، ثم آواه بلُطْفِه ـ وكان ذلك أبلغَ وأتمَّ ـ فإنه كذلك أفرده عن تكلُّفِه العلم ـ ولكن قال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

وقال: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾ [الشورى: ٥٢] ألبسه لباسَ العِزَّة، وتوجَّه بتاجِ الكرامة، وخلَعَ عليه حُسْنَ التولِّي. لتكونَ آثارُ البشرية عنه مندرجة، وأنوارُ الحقائقِ عليه لائحة.

﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

أي بَعَثَه في الأميين، وفي آخرين منهم وهم العجم، ومن يأتي.. إلى يوم القيامة؛ فهو ﷺ مبعوثٌ إلى الناس كافَّة.

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

يقصد به هنا النبوة، يؤتيها ﴿مَن يَشَاءُ﴾؛ وفي ذلك ردٌّ على مَنْ قال: إنها تُسْتَحَقُّ لكثرة طاعة الرسول ـ وردٌّ على من قال: إنها لتخصيصهم بطينتهم؛ فالفضل ما لا يكون مُسْتَحَقًّا، والاستحقاق فَرضٌ لا فضل.

ويقال: ﴿فَضْلُ اللَّهِ﴾ هنا هو التوفيق حتى يؤمِنوا به.

ويقال: هو الأُنْسُ بالله، والعبدُ يَنْسَى كلَّ شيء إذا وَجَدَ الأُنْسَ.

ويقال: قَطَعَ الأسباب، ـ بالجملة ـ في استحقاق الفضل، إذ أحاله على المشيئة.

قوله جل ذكره: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾: ثم لم يعملوا بها.

ويُلْحَقُ بهؤلاء في الوعيد ـ من حيث الإشارة ـ الموسومون بالتقليد في أي معنى شِئتَ: في علم الأصول، وممَّا طريقُه أدلةُ العقول، وفي هذه الطريقة ممَّا طريقُه المنازلات.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

هذا من جملة معجزاته ﷺ، فَصَرْفُ قلوبِهم عن تمنِّي الموتِ إلى هذه المدة دَلَّ على صِدْقِه صلوات الله عليه.

ويقال: من علامات المحبة الاشتياقُ إلى المحبوب؛ فإذا كان لا يَصِلُ إلى لقائه

إلا بالموتِ فتمنِّيه ـ لا محالة ـ شرطٌ، فأخبر أنهم لا يتمنونه أبداً. . وكان كما أخبر.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

الموتُ حَتْمٌ مَقْضِيٌّ. وفي الخبر: «مَنْ كَرِهَ لقاء الله كَرِهَ الله لقاءه»[1]. والموتُ جِسْرٌ والمقصدُ عند الله. . ومَنْ لم يَعِشْ عفيفاً فَلْيَمُتْ ظريفاً.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أوْجَبَ السَّعْيَ يومَ الجمعة إذا نودِيَ لها، وأمَرَ بتَرْكِ البيع.

ومنهم من يحمله على الظاهر؛ أي تَرْك المعاملة مع الخَلْق، ومنهم من يحمله عليه وعلى معنىً آخر: هو تَرْكُ الاشتغال بملاحظة الأعراض، والتناسي عن جميع الأغراض إلا معانقة الأمر؛ فمنهم مَنْ يسعى إلى ذِكْرِ الله، ومنهم من يسعى إلى الله، بل يسعون إلى ذِكْرِ الله جَهْراً بجَهْرٍ، ويسعون إلى الله تعالى سِرًّا بسِرٍّ.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

إنما ينصرف مَنْ كان له جَمْعٌ يرجع إليه، أو شغْلٌ يقصده ويشتغل به ـ ولكن. . مَنْ لا شُغْلَ له ولا مأوى. . فإلى أين يرجع؟ وإنما يقال: ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ إذا كان له أرَبٌ. . فأمّا مَنْ سَكَنَ عن المطالبات، وكُفِيَ داءَ الطَّلَبِ. . فما له وابتغاء ما ليس يريده ولا هو في رِقِّه؟!

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

مَنْ أسَرَتْهُ أخطارُ الأشياء استجاب لكلِّ داعٍ جَرّه إليه لَهْوٌ أو حَمَلَه عليه سهوٌ ومَنْ مَلَكَه سلطانُ الحقيقة لم ينحرف عن الحضور، ولم يلتفت في حال الشهود. ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ وما عند الله للعُبَّاد والزُّهَّاد ـ غداً ـ خيرٌ مما نالوه في الدنيا نقداً. وما عند الله للعارفين ـ نقداً ـ من واردات القلوب وبواده[2] الحقيقة خيرٌ مما يُؤمّل المستأنِف في الدنيا والعُقْبى.

---

(١) أخرجه البخاري (رقاق ٤١)، ومسلم (ذكر ١٤ ـ ١٨)، والترمذي (زهد، ٦)، والنسائي (جنائز ١٠)، وابن ماجه (زهد ٣١)، والدارمي (رقاق ٤٣)، وأحمد بن حنبل ٢/ ٤٢٠، ٣/ ١٠٧، ٤/ ٢٥٩، ٥/ ٣١٦، ٣٢١، ٦/ ٤٤، ٤٥، ٢٠٧، ٢١٨، ٢٣٦).

(٢) انظر حديث القشيري عن البواده والهجوم بالرسالة القشيرية ص٧٨.

سورة المنافقون

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسم مَنْ تحقَّق به صَدَقَ في أقوالِه، ثم صَدَقَ في أعمالِه، ثم صدق في أخلاقِه ثم صَدَقَ في أحواله، ثم صَدَقَ في أنفاسه.. فصِدْقُه في القول ألّا يقولَ إلّا عن برهان، وصِدْقُه في العمل ألا يكونَ للبِدْعةِ عليه سلطانٌ، وصِدْقُه في الأخلاقِ ألّا يُلاحِظَ إحسانَه مع الكافَّة بعين النقصان، وصِدْقُه في الأحوال أن يكونَ على كَشْفٍ وبيان، وصِدْقُه في الأنفاس ألا يَتَنفَّسَ إلا على وجودٍ كالعيان.

قوله جل ذكره: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾.

كذَّبهم فيما قالوا وأظهروا، ولكنهم لم يشهدوا عن بصيرة ولم يعتقدوا تصديقك، فهم لم يكذبوا في الشهادة ولكنَّ كِذْبَهم في قولهم: إنَّهم مخلصون لك، مُصَدِّقون لك. فصِدْقُ القالة لا ينفع مع قُبْح الحالة.

ويقال: الإيمان ما يوجِبُ الأمان؛ فالإيمانُ يوجِبُ للمؤمن إذا كان عاصياً خلاصَه من العذاب أكثره وأقلّه.. إلّا ما ينقله من أعلى جهنم إلى أسفلها.

قوله جل ذكره: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

تَسَتَّرُوا بإقرارهم، وتكَشَّفوا بنفاقهم عن أسْتارِهم فافتضحوا، وذاقوا وبالَ أحوالهم.

قوله جل ذكره: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

استضاؤوا بنورِ الإجابة فلم يَنْبَسِطْ عليهم شعاعُ السعادة، فانطفأ نورُهم بقَهرِ الحرمان، وبقوا في ظلمات القسمة السابقة بحُكْم الشقاوة.

قوله جل ذكره: ﴿۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

أي هم أشباحٌ وقوالبٌ وليس وراءهم ألبابٌ وحقائق ـ فالجوزُ الفارغُ مُزَيَّنٌ ظاهِرُه ولكنه للعب الصبيان.

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ وذلك لِجُبْنِهم؛ إذ ليس لهم انتعاشٌ بربِّهم؛ ولا استقلالٌ بغيرهم.

﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ هم عدوٌّ لك ـ يا محمد ـ فاحْذَرهم، ولا يَغُرَّنْكَ تَبَسُّطُهم في الكلام على وجهِ التودُّدِ والتقرُّب.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾.

سمعوا إلى ما يقال لهم على وجه التكبُّر، وإظهار الاستغناء عن استغفارك لهم.. فخَلِّ سبيلهم؛ فليس للنُّصح فيهم مساغٌ، ولن يُصْحِيَهم من سَكْرَتهم إلّا حَرُّ ما سيلقونه من العقوبة، فما دام الإصرارُ من جانبهم فإنهم:

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾.

فقد سبق العِلْمُ بذلك:

قوله جل ذكره: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

كأنهم مربوطون بالأسباب، محجوبون عن شهود التقدير، غيرُ متحقّقين بتصريف الأيام، فأنْطَقَهُم بما خَامَرَ قلوبَهم مِنْ تَمَنّي انطفاء نورِ رسول الله، وانتكاث شَمْلِهم، فتواصَوْا فيما بينهم بقولهم: ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾.

وليس استقلالُك ـ يا محمد ـ ولا استقلالُ أصحابِك بالمرزوقين.. بل بالرازق؛ فهو الذي يمسككم.

قوله جل ذكره: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

إنما وقع لهم الغَلَطُ في تعيين الأعزّ والأذلّ؛ فتوَهَّموا أنَّ الأعزَّ هم المنافقون، والأذلَّ هم المسلمون، ولكن الأمر بالعكس، فلا جَرَمَ غَلَبَ الرسولُ ﷺ والمسلمون، وأُذِلَّ المنافقون بقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾: لله عِزُّ الإلهية، وللرسول عِزُّ النبوّة، وللمؤمنين عِزُّ الولاية. وجميعُ ذلك لله؛ فعِزُّه القديم صِفَتُه، وعِزُّ الرسولِ وعِزُّ المؤمنين له فِعْلاً ومِنَّةً وفَضْلاً، فإذاً لله العِزَّةُ جميعاً.

ويقال: كما أنَّ عِزَّةَ الله ـ سبحانه ـ لا زوالَ لها فعِزَّة الأنبياء بأن لا عَزْلَ لهم، وعِزَّةُ المؤمنين بألا يَبْقَى منهم مُخَلَّدٌ في النار.

ويقال: مَنْ كان إيمانُه حقيقياً فلا زوالَ له.

ويقال: مَنْ تعزَّزَ بالله لم يلحقه تَغَيُّرٌ عن حاله بغير الله.

ويقال: لا عِزَّ إلَّا في طاعةِ الله، ولا ذُلَّ إلَّا في معصية الله.. وما سوى هذا فلا أصلَ له.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

لا تُضَيِّعوا أمورَ دينكم بسبب أموالكم وأولادكم بل آثروا حقَّ الله، واشتَغِلوا به يَكْفِكُم أمور دنياكم وأولادكم؛ فإذا كُنتَ لله كان اللَّهُ لك.

ويقال: حقُّ الله مما ألزمكَ القيامَ به، وحقُّك ضمن لك القيام به؛ فاشتغِلْ بما كُلِّفْتَ لا بما كُفِيت.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

لا تَغْتَرُّوا بسلامةِ أوقاتِكم، وتَرَقَّبوا بَغَتاتِ آجالِكم، وتأهَّبوا لما بين أيديكم من الرحيل، ولا تُعَرِّجوا في أوطان التسويف[1].

---

(١) الآية (١١) لم ترد.

سورة التغابن

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ عزيزةٌ مَنْ ذَكَرَها يحتاج إلى لسانٍ عزيز في الغيبة لا يُبْتَذَلُ، وفي ذِكْرِ الأغيار لا يُسْتَعْمَل. ومَنْ عَرَفها يحتاج إلى قلبٍ عزيزٍ ليس في كلِّ ناحية منه خليط، ولا في كلِّ زاوية زبيط[1].

قوله جل ذكره: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

المخلوقاتُ كلُّها بجملتها لله سبحانه مُسَبِّحةٌ.. ولكن لا يَسْمَعُ تسبيحَها مَنْ به طَرَشُ النكرة.

ويقال: الذي طَرأَ صَمَمُه فقد يُرْجَى زواله بنوعِ معالجة، أمَّا مَنْ يولَدُ أصَمَّ فلا حيلةَ في تحصيلِ سماعه. قال تعالى: **﴿فإنك لا تسمع الموتى﴾** [الروم: ٥٢] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣].

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

منكم كافرٌ في سابق حُكْمِه سَمَّاه كافراً، وعَلِمَ أنه يكفر وأراد به الكفر.. وكذلك كانوا. ومنكم مؤمنٌ في سابق حُكْمِه سمَّاه مؤمناً، وعَلِمَ في آزاله أنه يُؤمِن وخَلَقَه مؤمناً، وأراده مؤمناً.. والله بما تعملون بصير.

قوله جل ذكره: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾: أي وهو مُحِقٌّ في خَلْقِه.

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ لم يَقُلْ لشيءٍ من المخلوقات هذا الذي قال لنا، صوَّر الظاهرَ وصوَّر الباطنَ؛ فالظاهر شاهدٌ على كمال قدرته، والباطن شاهدٌ على جلال قربته.

---

(١) الزبيط: صياح البطة. (اللسان ٧/ ٣٠٧ مادة: زبط).

قوله جل ذكره: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

قصِّروا حِيَلكُم عن مطلوبكم، فهو تتقاصر عنه علومُكم، وأنا أعلمُ ذلك دونكم.. فاطلبوا منِّي، فأنا بذلك أعلم، وعليه أقدر.

ويقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾. فاحذروا دقيقَ الرياء، وخَفِيَّ ذات الصدور ﴿وَمَا تُعْلِنُونَۚ﴾: فاحذروا أن يخالِفَ ظاهرُكم باطنكم.

في قوله: ﴿مَا تُسِرُّونَ﴾ أمرٌ بالمراقبة بين العبد وربه.

وفي قوله: ﴿ما تعلنون﴾ أمرٌ بالصدق في المعاملة والمحاسبة مع الخَلْق.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾.

المراد من ذلك هو الاعتبار بِمَنْ سَلَفَ، ومَنْ لم يعتبِرْ عَثَرَ في مَهْوَاةٍ من الأَمَلِ، ثم لا يَنتَعِشُ إلّا بعد فواتِ الأمرِ من يده.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم﴾. شاهدوا الأمر من حيث الخَلْق فتَطَوَّحوا في متاهاتِ الإشكالِ المختلفةِ الأحوال. ولو نظروا بعين الحقيقة لتخلَّصوا من تفرقة الأباطيل، واستراحوا بشهود التقدير من اختلاف الأحوال ذات التغيير.

قوله جل ذكره: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

الموتُ نوعان: موتُ نَفْسٍ، وموتُ قلب، ففي القيامة يُبْعَثون من موت النَّفْس، وأمّا موتُ القلبِ فلا بَعْثَ منه ـ عند كثيرٍ من مخلصي هذه الطائفة، قال تعالى مُخْبِراً عنهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ﴾[يس: ٥٢] فلو عرفوه لَمَا قالوا ذلك؛ فموتُ قلوبِهم مُسَرْمَدٌ إلى أنْ تصيرَ معارفُهم ضروريةً، فهذا الوقتُ وقتُ موتِ قلوبهم.

قوله جل ذكره: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿النور الذي أنزلنا﴾: القرآن. ويجوز أن يكون ما أنزل في قلوب أوليائه من السكينة وفنون الألطاف.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

المطيعُ ـ يومئذٍ ـ في غبن لأنه لم يستكثر من الطاعة، والعاصي في غبن لأنه استكثر من الزلّة.

وليسَ كلُّ الغبنِ في تفاوت الدرجات قلّةً وكثرة، فالغبن في الأحوال أكثر[١].

قوله جل ذكره: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أيُّ خصْلةٍ حصَلت فمِنْ قِبَلِه خَلْقاً، وبعلمه وإرادته حُكماً.

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ﴾ حتى يهتدي إلى الله في السَّراء والضَّراء ـ اليومَ ـ وفي الآخرة يهديه إلى الجنة.

ويقال: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ﴾ للأخلاق السنيّة، والتنقّي من شُحِّ النَّفْس.

ويقال: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ﴾ لاتّباع السُّنَّةِ واجتنابِ البِدْعة.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

طاعةُ الله واجبة، وطاعةُ الرُّسُلِ ـ الذين هم سفراءُ بينه وبين الخَلْقِ ـ واجبةٌ كذلك. والأنوار التي تظهر عليك وتطالِبُ بمقتضياتها كلُّها حقٌّ، ومن الحقِّ.. فتجب طاعتُها أيضاً[٢].

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

إذا دَعَوْكَ لتجمَع لهم الدنيا فهم عدوٌّ لك، أمّا إذا أخذتم منها على وجه العفاف فليسوا لكم أعداء.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿فِتْنَةٌۚ﴾: لأنهم يشغلونكم عن أداء حقِّ الله؛ فما تَبْقَ عن الله مشغولاً بجمعه فهو غيرُ ميمونٍ عليك.

ويقال: إذا جمعتم الدنيا لغير وَجْهِه فإنكم تُشغَلُون بذلك عن أداءِ حقِّ مولاكم، وتشغلكم أولادُكم، فتبقون بهم عن طاعة الله ـ وتلك فتنةٌ لكم.. ترومون إصلاحَهم. فتفسدون أنتم وهم لا يُصْلَحون!

قوله جل ذكره: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

أي ما دمتم في الجملة مستطيعين ويتوجه عليكم التكليف فاتقوا الله. والتقوى

(١) الآية (١٠) لم ترد.
(٢) الآية (١٣) لم ترد.

عن شهود التقوى بعد ألا يكونَ تقصيرٌ في التقوى غايةُ التقوى.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ حتى ترتفعَ الأخطارُ عن قلبه، ويتحرَّر من رِقِّ المكونات، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾.

يتوجَّه بهذا الخطاب إلى الأغنياء لِبَذْلِ أموالهم، وللفقراء في إخلاءِ أيامهم وأوقاتهم من مراداتهم وإيثارِ مرادِ الحقِّ على مرادِ أنفسِهم.

فالغنيُّ يُقال له: آثِرْ حُكْمي على مرادك في مالِك، والفقيرُ يقال له: آثِرْ حُكْمي في نَفْسِك وقلبك ووقتك وزمانك.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

جلَّ شأنه.

سورة الطَّلاق

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمُ مَنْ لا سبيلَ إلى وِصاله، ولا غُنْيةَ ـ في غيره ـ عن فِعاله، اسمٌ مَنْ عَلِمَه وقع في كل سكونٍ وراحة، اسمٌ مَنْ عرفه وقع في كل اضطراب وإطاحة[1]، العلماءُ بسراب علمهم استقلوا فاستراحوا، والعارفون بسلطانِ حُكمِه اصْطُلِموا عن شواهدِهم... فبادوا وطاحوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ...﴾.

الطلاقُ ـ وإنْ كان فراقاً ـ فلم يجعله الحقُّ محظوراً... وإن كان من وجهٍ مكروهاً.

وللطلاق وقتية: سُنِّية وبِدْعية، ومباحة، لا سنية ولا بدعية؛ فالسنية: أَنْ تطلَّقَ في طُهْرٍ لم تُباشَر فيه طلقةً واحدة، والبدعية: في حال الحيض وطُهْرٍ جُومعت فيه، والمباحة: في طهر بعد حيض ثم يطلقها من قبل أن يجامعها ـ والطلاق أكثر من واحدة.

والعِدَّةُ ـ وإن كانت في الشريعة لتحصين ماء الزوج محاماةً على الأنساب لئلا يدخل على ماء الزوج ماءٌ آخر ـ فالغالبُ والأقوى في معناها أنها للوفاء للصحبة الماضية في وصلة النكاح.

والإشارة في الآيات التالية إلى أنه بعد أن انتهت الوصلة فلا أقلَّ من الوفاء مدةً لهذه الصغيرة التي لم تحِضْ، وهذه الآيسة من الحيض، وتلك التي انقطع حَيْضُهَا، والحُبْلَى حتى تلد... كل ذلك مراعاةٌ للحرمة: وعِدَّةُ الوفاة تشهد على هذه الجملة في كونها أطول؛ لأن حُرْمَةَ الميت أعظم وكذلك الإمداد في أيام العِدَّة... المعنى فيه ما ذكرنا من مراعاة الوفاء والحرمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾.

---

(١) أطاح ماله: أفناه وأذهبه.

العبوديةُ: الوقوف عند الحدِّ، لا بالنقصان عنه ولا بالزيادة عليه، ومَنْ راعى مع اللَّهِ حَدَّه أخلص اللَّهُ له عَهْدَه. . .

﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾.

قالوا: أراد نَدَماً، وقيل: وَلَداً، وقيل: مَيْلاً إليها، أولها إليه؛ فإن القلوبَ تتقلب:

والإشارة في إباحة الطلاق إلى أنه إذا كان الصبرُ مع الأشكال حقًّا للحرمة المتقدمة فالخلاصُ من مُسَاكنة الأمثال، والتجرُّدُ لعبادة الله تعالى أوْلَى وأحَقُّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾.

إذا صَدَقَ العبدُ في تقواه أخرجه من بين أشغاله كالشعرة تُخْرَجُ من بين العجِين لا يَعْلَقُ بها شيءٌ. ويضربُ الله تعالى على المُتَّقِي سرادقاتِ عنايته، ويُدْخِلُه في كنف الإيواء، ويَصْرِفُ الأشغال عن قلبه، ويُخْرِجُه من ظلمات تدبيره، ويُجَرِّدُه من كل أمر، وينقله إلى شهود فضاء تقديره.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾.

لم يقل: ومَنْ يتوكل على الله فتوكُّله حَسْبُه، بل قال: ﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾؛ أي فاللَّهُ حَسْبُه أي كافيه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾.

إذا سَبَقَ له شيءٌ من التقدير فلا محالةَ يكون، وبتَوَكُّله لا يتغير المقدور ولا يستأخر، ولكنَّ التوكُّلَ بنيانه على أنْ يكونَ العبدُ مُرَوَّحَ القلب غيرَ كارهٍ. . . وهذا من أَجَلِّ النِّعم.

قوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ﴾. . . إلى قوله:

﴿يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾.

التوكلُ: شهود نَفْسِك خارجاً عن المُنَّة[1] تجري عليكَ أحكامُ التقديرِ من غير تدبيرٍ منك ولا اطّلاع لكَ على حُكمِه، وسبيلُ العبدِ الخمودُ والرضا دونَ استعلام الأمر، وفي الخبر: «أعوذ بك من عِلْم لا ينفع»[2]: ومن العلم الذي لا ينفع ـ ويجبُ أنْ تستعيذَ منه ـ أن يكون لك شُغْلٌ أو يستقبلك مُهِمٌ من الأمر ويشتبه عليك وجهُ التدبيرِ فيه، وتكون مُطَالَباً بالتفويض ـ فَطَلَبُكَ العلم وتمنِّيكَ أنْ تعرفَ متى يصلح هذا

---

(١) المُنَّة: القوة (ج) منن.

(٢) أخرجه صاحب (ميزان الاعتدال ٤١١٩)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١/ ٢٢٧).

الأمرُ؟ ولأي سبَبٍ؟ ومِنْ أيِّ وجهٍ؟ وعلى يد مَنْ؟... كل هذا تخليطٌ، وغيرُ مُسَلَّمٍ شيءٌ منه للأكابِرِ.

فيجب عليك السُّكونُ، وحُسْنُ الرضا. حتى إذا جاء وقتُ الكَشْف فسترى صورة الحال وتعرفه، وربما ينتظر العبدُ في هذه الحالة تعريفاً في المنام أو ينظر في (...)[1] من الجامع، أو يرجو بيان حاله بأن يجري على لسان مستنطق في الوقت... كلُّ هذا ترْكٌ للأدب، واللَّهُ لا يَرْضَى بذلك من أوليائه، بل الواجبُ السكونُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾.

إذا اتسع رزقُ العبد فعلى قَدْرِ المُكنَةِ يُطَالَبُ بالإعطاء والنفقة فمن قدر عليه رزقه ـ أي ضيِّق ـ فلينفق مما آتاه الله أي من متاع البيت، ومن رأسِ المال ـ إن لم يكن من الربح، ومن ثمنِ الضيعة ـ إن لم يكن من الغَلَّة.

ومَنْ ملك ما يكفيه للوقت، ثم اهتمَّ بالزيادة للغد فذلك اهتمامٌ غيرُ مرضيٍّ عنه، وصاحبُه غير مُعَان. فأمَّا إذا حصل العجزُ بكلِّ وجهٍ، فإن الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ وسيجعل الله بعد عسرٍ يسراً. هذا من أصحاب المواعيد ـ وتصديقه على حسب الإيمان، وذاك على قَدْرِ اليقين ـ ويقينه على حسب القِسْمة. وانتظارُ اليُسْرِ من اللَّهِ صفةُ المتوسطين في الأحوال، الذين انحطُّوا عن حدِّ الرضا واستواءِ وجودِ السبب وفَقْدِه، وارتقوا عن حدِّ اليأس والقنوط، وعاشوا في أفياء الرجال يُعَلِّلون بحُسْنِ المواعيد... وأبداً هذه حالتهم وهي كما قلنا:

إنْ نَابَكَ الدهرُ بمكروهه ... فعِشْ بتهوين تصانيفه

فَعنْ قريبٍ ينجلي غَيْمُه ... وتنقضي كلُّ تصاريفه

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾.

مَنْ زرع الشوكَ لم يَجْنِ الوردَ، ومَنْ أضاع حقَّ اللَّهِ لا يُطَاع في حظِّ نَفْسه. ومن اجترأ بمخالفةِ أمرِ الله فليصبر على مقاساة عقوبة الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

---

(١) بياض في الأصل.

إنَّ كتابَ اللَّهِ فيه تبيانٌ لكلِّ شيءٍ. . . فَمَنْ استضاءَ بنوره اهتدى، ومَنْ لجأ إلى سعة فنائه وَصَلَ من داءِ الجهل إلى شِفائه.

ومَنْ يؤمِنْ بالله، ويعملْ صالحاً لله، وفي الله، فله دوامُ النُّعمى من الله. . . قال تعالى:

﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾.

والرزقُ الحسنُ ما كان على حدِّ الكفاية؛ لا نقصانَ فيه تتعطَّلُ الأمورُ بسببه، ولا زيادةَ فيه تَشْغَلُه عن الاستمتاع بما رُزِق لِخرصِه.

كذلك أرزاقُ القلوبِ. أحسنُها أن يكون له من الأحوال ما يشتغل به في الوقت؛ من غير نقصانٍ يجعله يتعذَّب بتعَطُّشِه، ولا تكون فيه زيادة فيكون على خَطَرٍ من مغاليطَ لا يَخْرُجُ منها إلَّا بتأييدِ سماويٍّ من الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾.

خَلَقَ سبعَ سمواتٍ، وخَلَقَ ما خَلَقَ وهو مُحِقٌّ فيما خَلَقَ وأمر، حتى نعلم استحقاقَ جلالهِ وكمالَ صفاته، وأنه أمضى فيما قضى حُكماً، وأنه أحاط بكل شيء علماً.

سورة التَّحريم

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله». اسمٌ عزيزٌ يُمْهِل مَنْ عصاه، فإذا رجع وناداه... أجابه ولبَّاه فإنْ لم يتوسَّل بِصِدْق قَدَمِه في ابتداء أمره ثم تَنَصَّلَ بصِدْقِ نَدَمِه في آخر عمره أوْسَعَه غفراً، وقبل منه عُذْراً، وأَكْمَلَ له ذُخْراً، وأجْزَلَ له بِرًّا.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

جاء في القصة: أن النبي ﷺ حَرَّم على نفسه مارية القبطية[1]، وفي الحال حَلَفَ ألا يطأها شهراً مراعاةً لقلب حفصة[2] حيث رأت النبي ﷺ معها في يومها.

وقيل: حَرَّمَ على نَفْسِه شرْبَ العسل لمَّا قالت له زوجاته، إنَّا نشم منك ريح المغافير!

- والمغافير صمغ في البادية كريه الرائحة، ويقال: بقلة كريهة الرائحة... فعاتَبه اللَّهُ على ذلك.

وهي صغيرةٌ منه على مذهب مَنْ جَوَّزَ الصغائر عليه، وتَرْكٌ للأَوْلَى على مذهب مَنْ لم يجوِّز.

---

(١) هي مارية بنت شمعون القبطية (... - ١٦ هـ = ... - ٦٣٧م) أم إبراهيم، من سراري النبي (ﷺ) مصرية الأصل، بيضاء، ولدت في قرية «حفن» بمصر، وأهداها المقوقس القبطي إلى النبي ﷺ هي وأخت لها تدعى «سيرين» فولدت له «إبراهيم» فقال: أعتقها ولدها. وأهدى أختها سيرين إلى حسان بن ثابت - الشاعر - فولدت له عبد الرحمن، فلما علم الحسن بن علي أن مارية من قرية حفن كلم معاوية، فوضع عن أهل القرية خراج أرضهم، ولما توفي النبي ﷺ تولى الإنفاق عليها أبو بكر، ثم عمر، وماتت في خلافة عمر بالمدينة، ودفنت بالبقيع.
الأعلام ٥/ ٢٥٥، والسمط الثمين ١٣٩، ومعجم البلدان (حفن)، وأسد الغابة (٥/ ٥٤٣).

(٢) هي حفصة بنت عمر بن الخطاب (١٨ ق هـ = ٦٠٤ - ٦٦٥م) صحابية جليلة صالحة من أزواج النبي ﷺ ولدت بمكة وتزوجها خنيس بن حذافة السهمي، فكانت عنده إلى أن ظهر الإسلام، فأسلما وهاجرت معه إلى المدينة فمات عنها، فخطبها رسول الله ﷺ من أبيها فزوجه إياها، واستمرت في المدينة بعد وفاة النبي ﷺ إلى أن توفيت بها. روى لها البخاري ومسلم في الصحيحين ٦٠ حديثاً.
الأعلام ٢/ ٢٦٥، والإصابة ٤/ ٢٧٣، وطبقات ابن سعد ٨/ ٥٦، وصفة الصفوة ٢/ ١٩، وحلية ٢/ ٥٠.

وقيل: إنه طَلَّقَ حفصة طلقةً واحدة، فأمره الله بمراجعتها، وقال له جبريل: إنها صوَّامَةٌ قوَّامَة.

وقيل: لم يطلقها ولكن هَمَّ بتطليقها فَمَنَعه اللَّهُ عن ذلك.

وقيل: لمَّا رأته حفصة مع مارية في يومها قال لها: إنِّي مُسِرٌّ إليك سِرًّا فلا تخبري أحداً: إنَّ هذا الأمر يكون بعدي لأبي بكر ولأبيك.

ولكن حفصة ذكرت هذا لعائشة، وأوحى الله له بذلك، فسأل النبيُّ حفصة: لِمَ أخبرتِ عائشة بما قلت؟

فقالت له: ومَنْ أخبرك بذلك؟ قال أخبرني الله، وعَرَّفَ حفصةَ بعضَ ما قالت، ولم يصرِّحْ لها بجميع ما قالت، قال تعالى: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾، فعاتبها على بعضٍ وأعْرَضَ عن بعض ـ على عادة الكِرام.

ويقال: إن النبي ـ ﷺ ـ لمَّا نزلت هذه الآية كان كثيراً ما يقول: «اللهم إني أعوذ بك من كلِّ قاطعٍ يقطعني عنك».

وظاهرُ هذا الخطاب عتاب على أنّه مراعاةٌ لقلب امرأته حَرَّمَ على نفسه ما أحلَّ اللَّهُ له.

والإشارةُ فيه: وجوبُ تقديم حقِّ الله ـ سبحانه ـ على كل شيء في كل وقت.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أنزل الله ذلك عنايةً بأمره عليه السلام، وتجاوزاً عنه. وقيل: إنه كَفَّرَ بعتق رقبة، وعاوَدَ مارية.

واللَّهُ ـ سبحانه ـ أجرى سُنَّتَه بأنه إذا ساكَن عَبْدٌ بقلبه إلى أحدٍ شَوَّشَ على خواصِّه محلَّ مساكنته غَيْرَةً على قلبه إلى أَنْ يُعَاوِدَ رَبَّه، ثم يكفيه ذلك ـ ولكن بعد تطويل مدةٍ، وأنشدوا في معناه:

إذا عُلِّقَت روحي حبيباً تعلَّقت ... بـه غَـيـرُ الأيـام كـل تَـسْـلُـبَـنْـيَـهْ

وقد ألقى الله في قلبِ رسوله ﷺ تناسياً بينه وبين زوجاته فاعتزلهن، وما كان من حديث طلاق حفصة، وما عاد إلى قلب أبيها، وحديث الكفاية، وإمساكه عن وطء مارية تسعاً وعشرين ليلة... كل ذلك غَيْرَةً من الحق عليه، وإرادتُه ـ سبحانه ـ تشويشُ قلوبهم حتى يكون رجوعُهم كلُّهم إلى الله تعالى بقلوبهم[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾.

(١) الآية (٣) لم ترد.

عاتبهما على السير من خَطَراتِ القلب، ثم قال: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ . . .﴾.

﴿وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ مَنْ لم يكن منهم في قلبه نفاق، مثل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

وجاء: أن عمر بن الخطاب لما سَمِعَ شيئاً من ذلك قال لرسول الله:

لو أمرتني لأضربنَّ عُنُقَها!

والعتاب في الآية مع عائشة وحفصة رضي الله عنهما إذ تكلمتا في أمر مارية.

ثم قال تعالى زيادةً في العتاب وبيان القصة:

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾.

أي: فَقِّهوهم، وأدِّبوهم، وادعوهم إلى طاعة الله، وامنعوهم عن استحقاق العقوبة بإرشادهم وتعليمهم.

ودلَّت الآيةُ: على وجوبِ الأمرِ بالمعروف في الدِّين للأقرب فالأقرب.

وقيل: أظْهِرُوا من أنفسكم العبادات ليتعلَّموا منكم، ويعتادوا كعادتكم.

ويقال: دلُّوهم على السُّنَّةِ والجماعة.

ويقال: عَلِّموهم الأخلاقَ الحِسان.

ويقال: مُرُوهم بقبول النصيحة.

﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾: الوقود: الحطب.

ويقال: أمر الناس يصلح بحجرة أو مَدَرَة[1]، فإن أصل الإنسان مدرة، ولو أنه أقام حَجَرَةً مقامَ مَدَرة فلا غروَ من فَضْلِ الله.

اللهمَّ فألْقِ فيها بَدَلنا حَجَراً وخلِّصْنا منها.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

إذا فاتَ الوقتُ استفحل الأمرُ، وانغلق البابُ، وسقطت الحِيَلُ. . . فالواجبُ البِدارُ والفرارُ لتصل إلى رَوْحِ القَرار.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾.

التوبةُ النصوحُ: هي التي لا يَعقُبها نَقْضٌ.

---

(١) المدرة: واحدة المدر: قطع الطين اليابس المتماسك. أو التراب المتلبد.

ويقال: هي التي لا تراها من نَفْسِك، ولا ترى نجاتَكَ بها، وإنما تراها بربِّك.

ويقال: هي أنْ تجدَ المرارةَ في قلبك عند ذكر الزَّلَّة كما كُنْتَ تجد الراحةَ لنفسِك عند فِعْلِها.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

لا يُخزِي اللَّهُ النبيَّ بِتَرْكِ شفاعته، والذين آمنوا معه بافتضاحِهم بعد ما قَبِلَ فيهم شفاعته.

﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ عبَّر بذلك عن أنَّ الإيمانَ من جميع جهاتهم.

ويقال: بأَيمانهم كتابُ نجاتهم: أراد نور توحيدهم ونور معرفتهم ونور إيمانهم، وما يخصُّهم اللَّهُ به من الأنوارِ في ذلك اليوم.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾: يستديمون التضرُّعَ والابتهالَ في السؤال.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

أَمَرَه بالمُلايَنَةِ في وقت الدعوة، وقال: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] ثم لمَّا أصرُّوا ـ بعد بيان الحُجَّةِ ـ قال: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾: لأن هذا في حالِ إصرارهم، وزوالِ أعذارهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾.

لمَّا سَبَقَتْ لهما الفُرْقةُ يومَ القِسْمة لم تنفعْهما القربةُ يومَ العقوبةُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قالوا: صغرت هِمَّتُها حيث طلبت بيتاً في الجنة، وكان من حقِّها أنْ تطلب الكثير... ولا كما توهمُّوا: فإنها قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ﴾ فطلبَتْ جوارَ القربة، ولَبَيْتٌ في الجِوار أفضلُ من ألف قصرٍ في غير الجوار. ومن المعلوم أنَّ العِنديَّةَ هنا عِنديَّةُ القربة والكرامة... ولكنه على كل حال بيت له مزية على غيره، وله خصوصية. وفي معناه أنشدوا:

إنـي لأحْسُـد جـارَكـم لـجـواركـم   طُـوبـى لِـمَـن أضـحـى لـدارِكَ جـارا
يـا لـيـت جـارَكَ بـاعـنـي مـن داره   شِـبْـراً لأُعـطـيـه بِـشِـبْـر دارا

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾.

خَتَم السورة بِذكْرها بعد ما ذكر امرأةُ فرعون، وهما من جملة النساء، ولمَّا كثُر في هذه السورة ذكْرُ النساء أراد الله سبحانه ألّا يُخلَى السورة من ذكرها تخصيصاً لقدْرِها.

سورة المُلْك

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمُ مَنْ لم تَتَعطَّرْ القلوبُ إلّا بنسيم إقبالِهِ، ولم تتقطَّرْ الدموعُ إلّا للوعة فراقه أو روْح وصاله؛ فدموعُهم في كلتا الحالتَين مُنْسِكبة، وقلوبهُم في عموم أحوالهم مُلْتَهِبَة وعقولُهم في غالب أوقاتهم مُنْتَهَبَة.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

تَقَدَّسَ وتعالَى، مَنْ إحسانُه تَواتَرَ وتَوالَى، فهو المتكبِّرُ في جلالِ كبريائه، المتجرِّد في علاءِ بهائه ودوامِ سنائه.

﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾: بقدرته إظهارُ ما يريد، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾.

خَلَقَ الموتَ والحياةَ، ابتلاءً للخَلْق، يختبرهم ليَظْهَرَ له شكرانهُم وكفرانُهم، كيف يكونان عند المحنة في الصبر وعند النعمة في الشكر - ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾.

عَرَّفَهم كمالَ قدرتِه بدلالات خَلْقِه، فَمسَكَ السماءَ وأمسكها بلا عَمدَ، وركَّبَ أجزاءَها غيرَ مُستعينٍ بأحدٍ في خَلْقِها، وبالنجومِ زَيَّنَهَا، ومِنَ استراقِ سمعِ الشياطين حَصَّنها، وبغيرِ تعليمِ مُعلِّم أحكمها وأتقنها.

﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ؟﴾: لا ترى فيما خَلَقَ تفاوتاً ينافي آثارَ الحكمة ولا يدل على كمال القدرة.

ويقال: ما ترى فيها تفاوتاً، في استغنائه عن الجميع... ما ترى فيها تفاوتاً في الخَلْق؛ فَخلْقُ الكثير واليسير عنده سيَّان، فلا يَسْهُلُ عنده القليلُ ولا يَشُقُّ عليه الكثير؛ لأنه مُتَنَزِّهٌ عن السهولة عليه ولحوقِ المشقة به.

فأنْعِمْ النظرَ، وكَرِّر السَّبْرَ والفِكْرَ... فلن تجد فيها عيباً ولا في عِزِّه قصوراً[1].

---

(١) الآية (٤) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾.

زَيَّنَ السماءَ بالكواكب والنجوم، وزَيَّنَ قلوبَ أوليائه بأنواعٍ من الأنوار والنجوم؛ فالمؤمنون قلوبُهم مُزَيَّنةٌ بالتصديق والإيمان ثم بالتحقيق بتأمُّلِ البرهان، ثم بالتوفيق لطلب البيان. والعارفون قلوبهم مُزَيَّنةٌ بشمسِ التوحيد، وأرواحُهم مُزَيَّنةٌ بأنوار التفريد، وأسرارُهم مزينةٌ بآثارِ التجريد... وعلى القياس: «الكلِّ طائفةٍ أنوارٌ».

﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾: فمن النجوم ما هو للشياطين رجوم، ومنها ما هو للاهتداء به معلوم... فأخبر أن هذا القَدْرَ من العقوبة بواسطة الرجوم لا يكفي، وإنما يُعَذِّبهم مؤبَّدين في السعير.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾.

أخبر: أنهم يختجُّ عليهم بإرسال الرسل، فتقول لهم الملائكةُ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾.

﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ...﴾ فأخبر أنهم لم يكن لهم سمع قبول، فاستوجبوا العقوبة لأجلِه، لم يسمعوا نصيحةَ الناصحين ولا وَعْظَ الواعظين، ولا ما فيه لقلوبهم حياة.

وفي الآية للمؤمنين بشارة؛ لأنهم يسمعون ويعقلون ما يسمعون؛ فإنَّ مَنْ سَمِعَ بالحقِّ سمع كل ما يقال عن الحق مِنْ كل مَنْ يقول عن الحق، فيحصل له الفهم لما يسمع، لأنه إذا كان من أهل الحقائق يكون سَمْعُه من الله وبالله وفي الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

اعترفوا بذنبهم ولكن في غير وقت الاعتراف... فلا جَرَمَ يقال لهم: ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

الخشيةُ توجِب عدمَ القرار فيكون العبدُ أبداً ـ لانزعاجه ـ كالحَبِّ على المَقْلَى؛ لا يَقَرُّ ليلَه أو نهارَه، يتوقَّعُ العقوباتِ مع مجاري الأنفاس، وكلمَّا ازداد في الله طاعةً ازداد لله خشيةً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

خوَّفَهم بِعلْمِه، ونَدَبَهم إلى مراقبته، لأنه يعلم السِّرَّ وأخفى، ويسمع الجَهْرَ والنجوى... ثم قال مُبيِّناً:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

وفي كل جُزْءٍ مِنْ خَلْقِه ـ من الأعيانِ والآثارِ ـ أدِلةٌ على علمه وحكمته.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾.

أي إذا أردتم أن تضربوا في الأرضِ سَهَّلَ عليكم ذلك.

كذلك جعل النَّفْسَ ذلولاً؛ فلو طَالَبْتَها بالوفاقِ وَجَدْتَها مُساعدةً مُوافقة، مُتَابِعةً مُسَابِقة... وقد قيل في صفتها:

هي النَّفْسُ ما عَوَّدْتها تتعودُ ‏ ‏ ‏ وللدهرِ أيامٌ تُذَمُّ وتُحْمَدُ

قوله جلّ ذكره: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾.

﴿مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أراد بهم الملائكة الذين يسكنون السماء، فهم مُوَكَّلون بالعذاب.

وخوَّفهم بالملائكة أن يُنْزِلوا عليهم العقوبةَ من السماء، أو يخسفوا بهم الأرض، وكذلك خَوَّفَهم أنْ يُرْسِلوا عليهم حجارةً كما أرسلوا على قوم لوط. وبيَّن أنَّ مَنْ كذَّب قَبْلَ هؤلاءِ رُسُلَهم كيف كانت عقوبتهم، ثم زاد في البيان[1] وقال:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾.

أو لم يروا كيف خَلَقَ الطيور على اختلاف أجناسها، واختصاصها بالطيران لأن لها أجنحة ـ بخلاف الأجسام الأخر... مَنْ الذي يمسكهن ويحفظهن وهن يقبضن ويبسطن أجنحتهن في الفضاء؟ وما الذي يوجبه العقل حفظ هذه الطيور أم بقية الأجسام الأُخر؟.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾.

إنْ أراد الرحمنُ بك سوءاً.. فَمَنْ الذي يُوَسِّعُ عليكم ما قَبَضَه، أو يمحو ما أثبته، أو يُقَدِّمُ ما أَخَّرَه، أو يُؤَخِّرُ ما قدَّمَه؟[2].

---

(١) الآية (١٨) لم ترد.

(٢) الآية (٢١) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾.

وخَصَّكم بالسمع والبصر والأفئدة، وأنتم لا تشكرون عظيمَ نِعَمه[1].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ؟﴾.

وأجاب عنه حيث قال: لا تستعجلوا العذاب، وبيَّن أنهم إذا رأوه كيف يخافون وكيف يندمون[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا . . .﴾.

وإليه أمورنا ـ جملةً ـ فوَّضْنا.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾.

مَنْ الذي يأتيكم بالماء إذا صار غائراً في الأرض لا تناله الأيدي.

وهذه الآيات جميعها على وجه الاحتجاج عليهم. . . ولم يكن لواحدٍ عن ذلك جواب.

---

(١) الآية (٢٤) لم ترد.
(٢) الآيتان (٢٦، ٢٧) لم تردا.

سورة القَلَم

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ كريمٌ مَنْ شهد لُطْفَه لم يتَذلَّلْ بعده لمخلوق، ولم يَسْتعِنْ فيما نابَه مِن ضُرٍّ أصابه أو خيرٍ أراده بمُحْدَثٍ مرزوق.

إنْ أعطاه قابله بالشُّكرِ، وإن منعه استجابَهُ بجميل الحمد.

قوله جلّ ذكره: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾.

﴿نٓ﴾ قيل: الحوت الذي على ظهره الكون، ويقال: هي الدواة.

ويقال: مفتاح اسمه ناصر واسمه نور.

ويقال: إنه أقسم بنُصْرَة الله تعالى لعبادِه المؤمنين.

وأقسم بالقلم ـ وجوابُ القسم قولُه:

﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾.

ما أوجب لصدره من الوحشة من قول الأعداء عنه:

إنه مجنون، أزاله عنه بنفيه، ومحقِّقاً ذلك بالقَسَم عليه... وهذه سُنَّةُ الله تعالى مع رسوله ﷺ؛ فما يقوله الأعداءُ فيه يردُّه ـ سبحانه ـ عليهم بخطابه وعنه ينفيه.

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾: أي غير منقوص... لمّا سَمَتْ هِمَّتُه ﷺ عن طلب الأعواض أثبت اللّهُ له الأجر، فقال له: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ ـ وإنْ كُنْتَ لا تريده.

ومن ذلك الأَجْر العظيم هذا الخُلُق، فأنت لستَ تريدُ الأجْرَ ـ وبِنَا لَسْتَ تريد؛ فلولا أنْ خَصَصْناكَ بهذا التحرُّر لكنتَ كأمثالِك في أنهم في أَسْرِ الأعواض.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

كما عرَّفه اللّهُ سبحانه أخبارَ مَنْ قبْلَه من الأنبياء عرَّفه أنه اجتمعت فيه متفرقاتُ أخلاقهم فقال له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

ويقال: إنه عَرَضَ عليه مفاتيحَ الأرضِ فلم يقبلْها، ورقّاه ليلةَ المعراج، وأراه جميع المملكة والجنة فلم يلتفتْ إليها، قال تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:

١٧] فما التفت يميناً ولا شمالاً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.. ويقال: ﴿على خلق عظيم﴾: لا بالبلاءِ تنحرف، ولا بالعطاءِ تنصِرف؛ احتمل صلوات الله عليه في الأذى شَجَّ رأسِه وثَغْرِه، وكان يقول:

«اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[١]. وغداً كلٌّ يقول: نفسي نفسي وهو صلوات الله عليه يقول: «أمتي أمتي»[٢].

ويقال: عَلَّمه محاسنَ الأخلاق بقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

سأل صلواتُ الله عليه جبريل: «بماذا يأمرني ربي؟ قال: يأمرك بمحاسن الأخلاق؛ يقول لك: صِلْ مَنْ قَطَعَكَ وأعْطِ مَنْ حَرَمك واعفُ عمَّن ظَلَمَك»[٣]، فتأدَّبَ بهذا؛ فأثنى عليه وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

المفتون: المجنون لأنه فُتِنَ أي مُحِنَ بالجنون.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

معبودُكَ واحدٌ فليكن مقصودُك واحداً... وإذا شهدت مقصودك واحداً فليكنْ مشهودك واحداً.

﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾.

مَنْ أصبح عليلاً تمنَّى أَنْ يكونَ الناسُ كلُّهم مَرْضَى.. وكذا مَنْ وُسِمَ بكيِّ الهجران ودَّ أَنْ يُشارِكه فيه مَنْ عاداه.

---

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٤/ ٢١٤)، وأحمد بن حنبل في (المسند ١/ ٤٤١)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ٦/ ١١٧)، والطبري في (التفسير ١/ ١٣)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٣/ ٤١٩)، والقرطبي في (التفسير ٤/ ١٩٩، ٨/ ٤٧٣، ١٤/ ١٥٦)، والقاضي عياض في (الشفا ١/ ٢٢٢)، والطحاوي في (مشكل الآثار ٣/ ١٨٩)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/ ٣١٣، ٣/ ٦٨، ٢٨٣)، (مناهل الصفا ١٦)، والآجري في (الشريعة ٤٦٠)، والسيوطي في (الدر المنثور ٣/ ٩٥)، والطبراني في التفسير ٦/ ١٤٦، ٢٠١)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥/ ٥٤، ٧/ ٩٣ـ١٠٨، ٣٦٠، ٨/ ٢٥٨)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٩٨٨٣، ٣٥٥٦٣)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٩٧٩٩، ٩٨٧٢)، وابن حجر في (فتح الباري ٧/ ٢٧٣، ١٢/ ٢٨٢)، والبيهقي في (دلائل النبوة ٣/ ٢١٥).

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ١/ ٢٨٢)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٤/ ٥١٠) والسيوطي في (الدر المنثور ٥/ ٦٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٤٨٧)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ٤٢٨، ٤٤٣)، وابن أبي عاصم في (السنة ٢/ ٣٨٠)، وابن أبي شيبة في (المصنف ١١/ ٣١).

(٣) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٤/ ١٤٨، ١٥٨).

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾.

وهو الذي سقط من عيننا، وأقميناه بالبعد عنا.

﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾.

محجوبٍ عنّا مُعَذَّبٍ بخذلان الوقيعة في أوليائنا.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾.

مُهانٍ بالشُّحِّ، مسلوب التوفيق.

﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾.

ممنوعِ الحياءِ، مُشَتَّتٍ في أودية الحرمان.

﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾.

لئيمِ الأصل، عديم الفضل، شديد الخصومة بباطله، غير راجعٍ في شيءٍ منْ الخير إلى حاصله.

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

أي: لا تطعه لأن كان ذا مالٍ وبنين... ثم استأنف الكلام فقال: إذا تتلى... قابَلَها بالتكذيب، وحَكَمَ أنَّ القرآن من الأساطير.

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾.

أي سنجعل له في القيامة على أنفهِ تشويهاً لصورته كي يُعْرَفَ بها.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾.

أي امتحنّاهم... حين دعا عليهم النبي ﷺ، فابتلاهم الله بالجوع، حتى أكلوا الجِيَف ـ كما بلونا أصحاب الجنة، قيل: إن رجلاً من أهل اليمن كانت له جنة مثمرة وكان له ثلاثة بنين، وكان للمساكين كل ما تَعدّاه المِنْجل فلم يجذه من الكَرْم، فإذا طُرح على البساط فكل شيء سقط عن البساط فهو أيضاً للمساكين، فما أخطأه القطافُ من نخله وكَرْمه يَدَعه للمساكين، وكان يجتمع منه مال، فلما مات هو قال وَرَثَتُه: إنَّ هذا المالَ تفرّق فينا، وليس يمكننا أن نفعلَ ما كان يفعله أبونا، وأقسموا ألا يُعْطوا للفقراء شيئاً، فأهلكَ اللّهُ جَنَّتَهم؛ فندموا وتابوا.

وقيل: أَبدَلَهم اللّهُ جنةً حسنة، فأقسموا ليصرمُنّ جنَّتهم وقت الصبح قبلَ أنْ تفطِنَ المساكينُ، ولم يقولوا: إن شاء الله[١]:

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾.

---

(١) الآية (١٨) لم ترد.

أرسل عليها من السماء آفةً فأحرقت ثمارهم. وأصبحت ﴿كَٱلصَّرِيمِ﴾ أي كالليل المسودِّ، فنادى بعضُهم بعضاً وقت الصبح: أن اغدوا على حرثكم إن أردتم الصرام، فانطلقوا لا يرفعون أصواتهم فيما بينهم لئلا يسمعَهم أحدٌ. وقصدوا إلى الصرام[1] ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ أي: قادرين عند أنفسهم، ويقال: على غضبٍ منهم على المساكين.

فلمّا رأوا الجنةَ وقد استؤصلَتْ قالوا: ليست هذه جنتنا!!

ثم قالوا: بل هذه جَنّتُنا... ولكنّا حُرِمْنا خيرَها.

قال أوسطُهم: أي أعدلُهم طريقةً وأحسنُهم قولاً[2]:

﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ؟﴾.

أي: تستثنون وتقولون: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٧٠].

﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ﴾.

ثم أقبل بعضُهم على بعض يتلاومون، ويقولون[3]:

﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾.

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ لأهل مكة ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾

وهكذا تكون حالُ مَنْ له بدايةٌ حسنةٌ ويجدُ التوفيق على التوالي، ويجتنبُ المعاصي، فيُعَوضه اللّهُ في الوقتِ نشاطاً، وتلوحُ في باطنه الأحوالُ... فإذا بَدَرَ منه سوءُ دعوى أو تَرْكَ أدبٍ من آداب الخدمة تَنْسَدُّ عليه تلك الأحوالُ ويقع في قرْةٍ[4] من الأعمال فإذا حَصَلَ منه بالعبادات إخلالٌ، ولبعض الفرائض إهمالٌ ـ انقلب حالُه، ورُدَّ من الوصال إلى البعاد، ومن الاقتراب إلى الاغتراب عن الباب، فصارت صفوتُه قسوةً. وإن كان له بعد ذلك توبة، وعلى مَا سَلَفَ منه ندامة ـ فقد فات الأمْرُ من يده، وقلّما يصل إلى حاله.

ولا يبعد أن ينظر إليه الحقُّ بأفضاله، فيقبله بعد ذلك رعايةً لما سَلَفَ في بدايته من أحواله... فإنَّ الله تعالى رؤوفٌ بعباده.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

الذين يتقون الشِّرْكَ والكُفْر، ثم المعاصيَ والفِسْقَ، لهم عند الله الثوابُ والأجْر.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَمْ لَكُمْ كِتَـٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾.

---

(١) الآيات من (٢١ حتى ٢٤) لم ترد. (٢) الآيتان (٢٦ ـ ٢٧) لم تردا.
(٣) الآيتان (٣٠، ٣١) لم تردا.
(٤) قرة جلده: تقشّر أو اسود من شدة الضرب. (اللسان ١٣/ ٥٣٠ مادة: قرة).

كيف تحكمون؟ هل لديكم حجة؟ ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾؟ أم لكم منا عهود فيها تحكمون؟ والمقصود من هذه الأسئلة نفي ذلك[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

﴿عَن سَاقٍ﴾: أي عن شِدَّةٍ يومَ القيامة.

ويقال في التفسير عن ساقِ العرش.

يُؤمَرون بالسجود؛ فأمَّا المؤمنون فيسجدون، وأمَّا الكفار فتُشَدُّ أصلابُهم فلا تنحني.

وقيل: يكشف المريضُ عن ساقه ـ وقت التوفِّي ـ ليُبْصِرَ ضعفَه، ويقول المؤذِّنُ: حيٌ على الصلاة ـ فلا يستطيع.

وعلى الجملة فقد خوَّفَهم بهذه القالة: إمَّا عند انتهائهم في الدنيا أو ابتدائهم في الآخرة.

﴿. . . وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾.

يذكرهم بذلك ليزدادوا حسرةً، ولتكونَ الحجةُ عليهم أبلغَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

سنُقَرِّبُهم من العقوبة بحيث لا يشعرون.

والاستدراجُ: أَنْ يريد الشيءَ ويَطْوِي عن صاحبه وَجْهُ القَصْدِ فيه، ويُدْرِجُه إليه شيئاً بعد شيء، حتى يأخذه بغتةً.

ويقال: الاستدراج: التمكين من النِّعم مقروناً بنسيان الشكر.

ويقال: الاستدارجُ: أنهم كلما ازدادوا معصيةً زادهم نعمةً.

ويقال: أَلَّا يُعاقِبَه في حالِ الزَّلَّة، وإنما يؤخِّر العقوبَة إلى ما بعدها..

ويقال: هو الاشتغال بالنعمة مع نسيان المنعم.

ويقال: الاغترارُ بطول الإمهال.

ويقال: ظاهرٌ مغبوط وباطنٌ مُشَوَّش.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾.

أُمهِلُهم... ثم إذا أَخَذْتُهم فأخْذِي أليمٌ شديدٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾.

أي: ليس عليهم كُلْفة مقابلَ ما تدعوهم إليه، وليست عليهم غرامة إنْ هم اتبعوك... فأنت لا تسأل أجراً... فما موجِباتُ التأخُرِ وتركُ الاستجابة؟

---

(١) الآيات من (٣٨ ـ ٤١) لم ترد.

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ؟﴾.

أم عندهم شيءٌ من الغيب انفردوا به وأوجب لهم ألا يستجيبوا؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾.

صاحب الحوت: هو يونس عليه السلام: ﴿نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾: مملوء بالغيظ على قومه. فلا تستعجلْ ـ يا محمد ـ بعقوبة قومك كما استعجل يونس فلقي ما لقي، وتَثَبَّتْ عند جريان حكمنا، ولا تُعارِضْ تقديرنا.

﴿لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾.

أي: لولا أنَّ اللَّهَ رَحِمَه بفَضْلِه لَطُرِحَ بالفضاء وهو مذموم ولكن:

﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

فاصطفاه واختاره، وجعله من الصالحين بأن أَرسله إلى مائة أَلف أَو يزيدون.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾.

كانوا إذا أرادوا أَنْ يُصيبوا شيئاً بأعينهم جاعوا ثلاثةَ أَيام، ثم جاؤوا ونظروا إلى ذلك الشيء قائلين: ما أَحسنه من شيء! فكان يسقط المنظورُ في الوقت. وقد فعلوا ذلك بالنبي صلوات الله عليه، فقالوا: ما أَفصحه من رجل! ولكنَّ الله سبحانه حفظه، ومَنَّ بذكره عليه(١).

---

(١) الآية (٥٢) لم ترد.

سورة الحاقة

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ عزيزةٌ تحتاج في سماعها إلى سَمْعٍ عزيزٍ لم يُسْتَعملْ في سماع الغيبة، وتحتاج في معرفتها إلى قلبٍ عزيزٍ لم يَتَبذَّلْ في الغفلة والغيبة، لم ينظرْ صاحبُه بعينه إلى ما فيه رُتبة، ولم تتبع نَفْسُه اللُّبْس والطُّبّة[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلْحَآقَّةُ مَا ٱلْحَآقَّةُ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾.

«الحاقة»: اسمٌ للقيامة لأنها تَحُقُّ كلَّ إنسانٍ بعملهِ خَيْرِه وشَرِّه.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ استفهام يفيد التعظيم لأمرها، والتفخيمَ لشأنها.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾.

ذَكَرَ في هذه السورة: الذين كَذَّبوا رُسُلَهم من الأمم، وأصرُّوا على كُفْرِهم، ولم يقبلوا النصيحةَ من أنبيائهم، فأهلكهم، وانتقم لأنبيائه منهم.

والفائدةُ في ذِكْرِهم: الاعتبارُ بهم، والتحرُّزُ عمَّا فعلوا لئلا يُصيبَهم ما أصابهم.

وعقوبةُ هذه الأمةِ مُؤَجَّلةٌ مُؤَخَّرَةٌ إلى القيامة، ولكنَّ خواصَّهم عقوبتُهم مُعجَّلة؛ فقومٌ من هذه الطائفة إذا أشاعوا سِرًّا، أو أضاعوا أدباً يعاقبهم برياحِ الحجبة، فلا يَبْقَى في قلوبهم أثرٌ من الاحتشام للدِّين، ولا مِمَّا كان لهم من الأوقات، ويصيرون على خَطَرٍ في أحوالهم بأنْ يُمْتَحنوا بالاعتراض على التقدير والقِسْمة.

وأمَّا فرعون وقومُه فكان عذابُهم بالغَرَقِ... كذلك مَنْ كان له وقتٌ فارغٌ وهو بطاعة ربِّه مشتغِلٌ، والحقُّ عليه مُقْبِلٌ - فإذا لم يشكرْ النعمةَ، وأساءَ أدبَه، ولم يَعْرِفْ قَدْرَ ما أنعم اللَّهُ به عليه رَدَّه الحقُّ إلى أسباب التفرقة، ثم أغرقه في بحار الاشتغال فيتكدر مَشْرَبُه، ويصير على خَطَرٍ بأن يُدْرِكَه سُخْطُ الحقِّ وغضبُه[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾.

وكذلك تكون مِنَّتُه على خواصِّ أوليائه حين يسلمهم في سفينة العافية، والكون يتلاطم في أمواجِ بحارِ الاشتغالِ على اختلاف أوصافها، فيكونون بوصف السلام، لا

---

(١) الطب: الحذق والمهارة. (٢) الآيات من (٥ حتى ١٠) لم ترد.

مُنَازَعَةَ ولا محاسبةَ لهم مع أحد، ولا تَوَقُّعَ شيءٍ من أحدٍ؛ سالمون من الناسِ، والناسُ منهم سالمون[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ . . .﴾.

بدأ في وصف القيامة والحساب[٢] . . .

قوله جلّ ذكره: ﴿. . . يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

وفي كلِّ نَفَسٍ مع هؤلاء القوم محاسبَةٌ ومطالَبةٌ، منهم مَنْ يستحق المعاتبة، ومنهم من يستحق المعاقبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾.

يسلم له السرورُ بنعمة الله، ويأخذ في الحمد والمدح.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾.

القومُ ـ غداً ـ في عيشةٍ راضية أي مَرْضِيَّةٍ لهم، وهؤلاء القوم ـ اليومَ ـ في عيشةٍ راضية، والفرق بينهما أنهم ـ غداً ـ في عيشة راضية لأنه قد قُضِيَتْ أوطارُهم، وارتفعت مآربُهم، وحصلت حاجاتُهم، وهم ـ اليومَ ـ في عيشةٍ راضية إذ كَفُّوا مآربَهم فَدَفَعَ عن قلوبِهم حوائجَهم؛ فليس لهم إرادةُ شيءٍ، ولا تَمَسُّهم حاجةٌ. وإنما هم في رَوْح الرضا. . . فعَيْشُ أولئك في العطاء، وعَيْشُ هؤلاء في الرضاء؛ لأنه إذا بدا عِلْمٌ من الحقيقة أو معنًى من معانيها فلا يكون ثمة حاجة ولا سؤال. ويقال لأولئك غداً[٣].

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾.

ويقال لهؤلاء: اسمعوا واشهدوا. . . اسمعوا منَّا. . . وانظروا إلينا، واستأنِسوا بقُرْبنا، وطالعوا جمالَنا وجلالَنا. . . فأنتم بنا ولنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ: يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾.

هناك ـ اليومَ ـ أقوامٌ مهجورون تتصاعد حسراتُهم، ويتضاعف أنينُهم ـ ليلَهم ونهارَهم ـ فليلُهم ويلٌ ونهارهم بُعَاد؛ تكدَّرتْ مشاربُهم، وخربت أوطانُ أُنْسِهم، ولا بكاؤهم يُرْحَم، ولا أنينُهم يُسْمَع. . . فعِنْدَهم أنهم مُبْعَدون. . . وهم في الحقيقة من اللَّهِ مرحومون، أسبلَ عليهم السترَ فَصَغَّرَهم في أعينهم ـ وهم أكرمُ أهل القصة! كما قالوا[٤]:

لا تُنْكِرنْ جحدي هواكَ فإنما ذاك الجحودُ عليك سترٌ مُسْبَلُ

---

(١) الآية (١٢) لم ترد.
(٢) الآيات من (١٤ حتى ١٧) لم ترد.
(٣) الآيات (٢٢ ـ ٢٣) لم تردا.
(٤) الآيات من (٢٨ حتى ٣٧) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾.

«لا»: صلة والمعنى: أُقْسِم؛ كأنه قال: أقسم بجميع الأشياء، لأنه لا ثالثَ لما يبصرون وما لا يبصرون. وجوابُ القَسَم:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾.

أي وجيهٍ عند الله. وقولُ الرسولِ الكريم هو القرآنُ أو قراءةُ القرآن[1].

وما هو بقول شاعر ولا بقول كاهن أي أن محمداً ليس شاعراً ولا كاهناً بل هو:

﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ﴾.

أي لو كان محمدٌ يكذب علينا لمنعناه منه وعصمناه عنه، ولو تعمَّد لعذَّبناه. والقول بعصمة الأنبياء واجب. ثم كان لا ناصرَ له منكم ولا من غيركم، وهذا القرآن[2]:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾.

حقُّ اليقين هو اليقين فالإضافة هكذا إلى نفس الشيء.

وعلوم الناس تختلف في الطرق إلى اليقين خفاءً وجلاءً؛ فما يقال عن الفرق بين علم اليقين وعين اليقين وحقِّ اليقين يرجع إلى كثرة البراهين، وخفاء الطريق وجلائه، ثم إلى كون بعضه ضرورياً وإلى بعضه كسبياً، ثم ما يكون مع الإدراكات[3].

---

(١) الآيتان (٤١، ٤٢) لم تردا.

(٢) الآية (٤٧) لم ترد.

(٣) انظر حديث القشيري عن علم وعين وحق اليقين برسالته ص٨٥.
الآية (٥٢) لم ترد.

سورة المَعَارج

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ من قالها وَجَدَ جمالَها، ومَنْ شهدها شهد جلالَها.

وليس كلُّ مَنْ قالَها نالَها، ولا كلُّ من احتالها عَرَفَ جلالَها.

كلمةٌ رفيعة عن إدراكِ الألبابِ منيعة، كلمةٌ على الحقيقة الصمدية دالَّة، كلمة لا بُدَّ للعبدِ من ذِكْرِها في كل حالة.

قوله جلّ ذكره: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾.

الباء في ﴿بِعَذَابٍ﴾ بمعنى عن، أي سأل سائلٌ عن هذا العذاب لِمَنْ هو؟ فقال تعالى:

﴿لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾.

هذا العذاب للكافرين ليس له دافع ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾؛ فهذا العذابُ من الله.

ومعنى ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ ذي الفضل ومعالي الدرجات التي يُبْلِغُ إليها أولياءَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

﴿وَٱلرُّوحُ﴾ أي جبريل، في يومٍ كان مقداره ألف سنة من أيام الدنيا يعني به يوم القيامة.

ويقال: معناه يحاسِبُ الخَلْقَ في يومٍ قصيرٍ ووقتٍ يسير ما لو كان الناسُ يشتغلون به لكان ذلك خمسين ألف سنة، واللَّهُ يُجْرِي ذلك ويُمضيه في يومٍ واحد.

ويقال: من أسفلِ المخلوقاتِ إلى أعلاها مسيرةُ خمسين ألف سنة للناس؛ فالملائكة تعرج فيه من أسفله إلى أعلاه في يومٍ واحد.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾.

فاصبرْ ـ يا محمد ـ على مقاساةِ أذاهم صبراً جميلاً. والصبرُ الجميلُ ما لا شكوى فيه.

ويقال: الصبر الجميل ألا تَسْتَثْقِلَ الصبرَ بل تستعذبه.

ويقال: الصبرُ الجميلُ ما لا ينْتَظِرُ العبدُ الخروجَ منه، ويكون ساكناً راضياً.

ويقال: الصبرُ الجميل أن يكون على شهود المُبْلي.

ويقال: الصبرُ الجميل ما تجرَّد عن الشكوى والدَّعْوى.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾.

إنَّ ما هو آتٍ فقريبٌ، وما اسْتَبْعَدَ مَنْ يستَبْعِد إلّا لأنّه مُرْتابٌ؛ فأمّا الواثِقُ بالشيءِ فهو غيرُ مُسْتَبْعِدٍ له.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾.

الإشارة فيه أنه في ذلك اليوم مَنْ كان في سُمُوّ نخوته ونُبُوّ صولته يلين ويستكين ويَضْعُفُ مَنْ كان يَشْرُفُ، ويَذَلُّ مَنْ كان يُذِلُّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾.

لا يَتَفَرَّغُ قريبٌ إلى قريبٍ؛ فلكلِّ امرىءٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغْنيه.

ولا يَتَعَهَّدُ المساكينَ - في ذلك اليوم - إلا الله.

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾.

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي يعرفون أقاربهم، ولكن لا تَرِقُّ قلوبُ بعضهم على بعض.

ويتمنَّى المجرمُ يومئذٍ أَنْ يُفتدىَ من عذاب جهنم بأعز مَنْ كان عليه في الدنيا من قريبٍ ونسيبٍ وحميمٍ وولدٍ، وبكلِّ من الأرض حتى يخلص من العذاب.

﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾.

اسم من أسماء جهنم.

﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾(١).

قَلَّاعةٌ للأطراف. تكشط الجِلْدَ عن الوجه وعن العَظْم.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

تقول جهنمُ للكافرِ والمنافقِ: يا فلان... إليَّ إليَّ.

والإشارة فيه: أنَّ جهنمَ الدنيا تعلق بقلبِ المرءِ فتدعوه بكلابِ الحِرْصِ إلى نَفْسِه وتجرُّه إلى جمعها حتى يؤثرها على نَفْسه وكلِّ أحد له؛ حتى لقد يَبْخَلُ بدنياه على أولاده وأعِزَّتِه... وقليلٌ مَنْ نجا من مكر الدنيا وتسويلاتها(٢).

---

(١) الشَّوى: اليدان والرجلان وأطراف الأصابع وقحف الرأس، وجلدة الرأس يقال لها: شواة وما كان غير مقتل فهو شوىً، وقيل: الشوى: (ج) الشواة: وهي جلدة الرأس. (الرسالة القشيرية ص٤٤٧ مادة: شوا).

(٢) الآية (١٨) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ .

وتفسيره ما يتلوه:

﴿ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ .

والهَلَعُ شِدَّةُ الحِرصِ مع الجزع. ويقال هلوعاً: متقلِّباً في غمرات الشهوات.

ويقال: يُرْضيه القليلُ ويُسْخِطه اليسير.

ويقال: عند المحنة يدعو، وعند النعمة ينسى ويسهو.

﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ .

استثنى منهم المصلين ـ وهم الذين يُلازِمون أبداً مواطنَ الافتقار؛ مِنْ صَلِيَ بالمكان[1] .

﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ .

وهم المُتَكفِّف والمُتَعَفِّف.

وهم على أقسام: منهم مَنْ يُؤْثر بجميع مالِه؛ فأموالُهم لكلِّ مَنْ قَصَدَ، لا يخصُّون سائلاً من عائل. ومنهم مَن يعطي ويمسك ـ وهئلاء منهم ـ ومنهم مَنْ يرى يَدَه يَدَ الأمانة فلا يتكلّف باختياره، وإنما ينتظر ما يُشَار عليه به من الأمر؛ إمَّا بالإمساك فيقف أو ببذْلِ الكُلِّ أو البعضِ فيستجيب على ما يُطَالَبُ به وما يقتضيه حُكْمُ الوقت... وهؤلاءِ أَتَمُّهُم.

﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ .

وأمارتهُم الاستعدادُ للموتِ قبل نزوله، وأن يكونوا كما قيل:

مستوفزون على رِجْلٍ كأنهمو ... فقد يريدون أن يمضوا فيرتحلوا[2]

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ .

وإنما تكون صحبتُهم مع أزواجهم للتَّعفُّفِ وصَوْنِ النَّفْسِ، ثم لابتغاء أن يكونَ له وَلَدٌ من صلبه يذكر الله. وشَرْطُ هذه الصحبة: أن يعيش معها على ما يهون، وألا يجرَّها إلى هَوَى نَفسِه ويحملها على مرادِه وهواه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ .

---

(١) أصلت الناقة: إذا وقع ولدها في صلاها وقَرُب نتاجها. (اللسان ١٤/٤٦٦ مادة: صلا).

(٢) الآيتان (٢٧، ٢٨) لم تردا.

يحفظون الأمانات التي عندهم للخَلْق ولا يخونون فيها. وأمانات الحق التي عندهم أعضاؤهم الظاهرة ـ فلا يُدَنِّسُونها بالخطايا؛ فالمعرفة التي في قلوبهم أمانة عندهم من الحق، والأسرارُ التي بينهم وبين الله أماناتٌ عندهم. والفرائضُ واللوازمُ والتوحيدُ... كل ذلك أماناتٌ.

ويقال: من الأمانات إقرارُهم وقتَ الذَّرِّ. ويقال: من الأمانات عند العبد تلك المحبة التي أودعها اللَّهُ في قلبه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾.

شهادتهم لله بالوحدانية، وفيما بينهم لبعضهم عند بعض ـ يقومون بحقوق ذلك كله[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾.

والإهطاع أن يُقْبِلَ ببصره إلى الشيءِ فلا يرفعه عنه، وكذلك كانوا يفعلون عند النبي ﷺ ﴿عِزِينَ﴾: أي خَلْقاً خَلْقاً، وجماعةً جماعة.

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾.

كلا... إنك لا تدعو عن هذا! وليس هذا بصوابٍ؛ فإنهم ـ اليومَ ـ كفار، وغداً يعاملون بما يستوجبون.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَٰرِقِ وَالْمَغَٰرِبِ﴾ لا ـ هنا صلة، والمعنى أقسم. وقد مضى القولُ في المشارق والمغارب ـ ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ على ذلك[٢].

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ غاية التهديد والتوبيخ لهم.

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ كأنهم يسرعون إلى أصنامهم، شبَّه إسراعهم حين قاموا من القبور بإسراعهم إلى النُّصُبِ ـ اليومَ ـ كي يقوموا بعبادتهم إياها[٣]

---

(١) الآيتان (٣٤، ٣٥) لم تردا.

(٢) الآية (٤١) لم ترد.

(٣) الآية (٤٤) لم ترد.

سورة نوح

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ لِمَنْ قامت السمواتُ والأرض بقدرته واستقامت الأسرارُ والقلوبُ بنصرته.. دَلَّتْ الأفعالُ على جلالِ شأنه، وذَلَّت الرِّقابُ عند شهودِ سلطانه. أشرقت الأقطارُ بنوره في العُقبى، وأشرقت الأسرارُ بظهوره في الدنيا، فهو المقدَّس بالوصف الأعلى.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أرسلنا نوحاً بالنبوَّةِ والرسالة. ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ أي بأن أنذرهم وإرسالُ الرُّسُل من الله فضلٌ، وله بحق مُلْكه أن يفعل ما أراد، ولم يجبْ عليه إرسالُ الرُّسُلِ لأن حقيقته لا تقبل الوجوب.

وإرسالُ الرسل إلى مَنْ عَلِمَ أنه لا يَقْبَل جائز، وتكليفُهم من ناحية العقل جائز فنوحٌ ـ عَلِمَ منهم أنهم لا يقبلون.. ومع ذلك بَلَّغ الرسالة وقال لهم: ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿يغفر لكم من ذنوبكم﴾ مِنْ هنا للجنس لا للتبعيض كقوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠].

ويقال: ما عملوه دون ما هو معلوم أنهم سيفعلونه؛ لأنه لو أخبرهم بأنه غفر لهم ذلك كان إغراءً لهم.. وذلك لا يجوز. فأبوا أن يَقْبَلوا منه، فقال:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾.

بيّنَ أنّ الهداية ليست إليه، وقال: إنْ أَرَدْتَ إيمانَهم فقلوبُهم بقدرتك ـ سبحانك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾.

وإنِّي ما ازدَدْتُ لهم دعاءً إلا ازدادوا إصراراً واستكباراً.

ويقال: لمَّا دام بينهم إصرارُهم تولَّدَ من الإصرار استكبارُهم، قال تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾.

ليعلمَ العالِمون: أنَّ الاستغفار قَرْعُ أبوابِ النعمة، فمن وقعت له إلى اللَّهِ حاجةٌ فلن يَصِلَ إلى مرادِه إلّا بتقديم الاستغفار.

ويقال: مَنْ أراد التَّفضُّل فعليه بالعُذْر والتنصُّل.

قوله: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم﴾: كان نوح عليه السلام كلمّا ازداد في بيان وجوه الخير والإحسان زادوا هم في الكفر والنسيان.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾.

ما لَكُم لا تخافون للَّهِ عَظَمَةً؟ وما لكم لا ترجون ولا تؤمِّلون على توقيركم للأمرِ من اللَّهِ لُطفاً ونعمة؟[1].

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾.

ثم نَبَّهَهُم إلى خَلْقِ السموات والأرض وما فيهما من الدلالات على أنها مخلوقة، وعلى أنَّ خالقَها يستحقُّ صفاتِ العُلُوِّ والعِزَّة[2].

ثم شكا نوحٌ إلى الله وقال:

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا﴾.

يعني كبراءَهم وأغنياءَهم الذين ضلُّوا في الدنيا وهلكوا في الآخرة[3].

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾.

وذلك بتعريفِ اللَّهِ تعالى إيَّاه أنَّه لن يؤمِنَ من قومك إلّا من قد آمن. فاستجاب الله فيهم دعاءَه وأهلكهم[4].

---

(١) الآية (١٤) لم ترد.
(٢) الآيات من (١٧، ٢٠) لم ترد.
(٣) الآيات من (٢٣، ٢٥) لم ترد.
(٤) الآيتان (٢٧، ٢٨) لم تردا.

سورة الجن

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسم عزيز به أَقَرَّ مَنْ أَقَرَّ بربوبيته، وبه أَصَرَّ مَنْ أَصَرَّ على معرفته، وبه استقرَّ من استقرَّ من خليقته، وبه ظَهَرَ ما ظهر من مقدوراته، وبه بَطَنَ ما بطَنَ من مخلوقاته، فَمَنْ جَحَدَ فبخذلانه وحرمانه، ومن وَحَدَ فبإحسانه وامتنانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾.

قيل: إن الجنَّ كانوا يأتون السماءَ فيستمعون إلى قولِ الملائكة، فيحفظونه، ثم يلقونه إلى الكهنة، فيزيدون فيه وينقصون.. وكذلك كانوا في الفترة التي بين نبيِّنا ﷺ وبين عيسى عليه السلام. فلمَّا بُعِثَ نبيُّنا ﷺ ورُجِمُوا بالشُّهُبِ عَلِمَ إبليس أنه وقع شيءٌ ففرَّ جنوده، فأتى تسعةٌ منهم إلى بطن نخلة واستمعوا قراءته ﷺ فآمنوا، ثم آتوا قومهم وقالوا: إنَّا سمعنا قرآنا عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به... إلى آخر الآيات[1].

(وجاءه سبعون منهم وأسلموا وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ..﴾ [الأحقاف: ٢٩].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾.

الجَدُّ العظمة، والعظمةُ استحقاقُ نعوتِ الجلال..

﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾.

أراد بالسفيه الجاهل بالله يعني إبليس. والشطط السَّرَف.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

في كفرهم وكلمتهم بالشِّرك.

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

أَي ذِلة وصغاراً؛ فالجنُّ زادوا للإنس ذِلَّةً ورهقاً فكانوا إذا نزلوا يقولون: نعوذ بربِّ هذا الوادي فيتوهم الجنُّ أنهم على شيء ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ حيث استعاذوا بهم.

---

(١) الآية (٢) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾.

أي ظنُّوا كما ظنَّ الكفارُ من الجن أَلّا بعثَ ولا نشور ـ كما ظننتم أيها الإنس.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾.

يعني حين مُنِعوا عن الاستماع.

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾.

فالآن قد مُنِعْنا[1].

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾.

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾.

الاستقامة على الطريقة تقتضي إكمالَ النعمةِ وإكثارَ الراحةِ. والإعراضُ عن الله يُوجِب تَنَغُّصَ العَيْشِ ودوامَ العقوبة[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾.

للمسجد فضيلة، ولهذا خصَّه الله سبحانه وأفرده بالذكر من بين البقاع؛ فهو محلُّ العبادة.. وكيف يُحلُّ العابد عنده إذا حلَّ محلَّ قَدَمِه؟!.

ويقال: أراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها، أخبر أنها لله، فلا تعبدوا بما لِلّهِ غَيْرَ الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾.

لما قام عبد الله يعني محمداً عليه السلام يدعو الخَلْقَ إلى الله كاد الجنُّ والإنس يكونون مجتمعين عليه، يمنعونه عن التبليغ[3] قل يا محمد:

﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾.

لا أقدر أن أدفع عنكم ضرًّا، أو أسوق لكم خيراً.. فكل شيء من الله. ولن أجد من دونه ملتجأً:

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾.

فلن يُنَجِّيني من الله إلا تبليغي رسالاته بأمره.

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾[4].

---

(١) الآيات من (١١ حتى ١٥) لم ترد.
(٢) الآية (١٧) لم ترد.
(٣) الآية (٢٠) لم ترد.
(٤) الآية (٢٤) لم ترد.

أَي: لا أَدْري ما تُوعَدون من العقوبة، ومن قيام الساعة أَقريب أم بعيد؟ فكونوا على حذرٍ. ويجب أنْ يتوقَّع العبدُ العقوبات أبداً مع مجاري الأنفاس ليَسلم من العقوبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾.

فيطلعه بقَدْرِ ما يريده.

﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾.

أرسل مع الوحي ملائكةَ قُدَّامه وخَلْفه.. هم ملائكةٌ حَفَظَه، يحفظون الوحيَ من الكهنة والشياطين، حتى لا يزيدوا أو ينقصوا الرسالاتِ التي يحملها... والله يعلم ذلك، وأحاط عِلْمُه به.

سورة المزمل

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: الحادثاتُ بالله حَصَلَت، فقلوبُ العارِفين بالله عَرَفَتْ ما عرفت وأرواحُ الصِّدِّيقين بالله أَلِفَتْ مَنْ أَلِفت وفُهُومُ الموحِّدينِ بساحاتِ جلاله وقَفَت، ونفوسُ العابدين بالعجز عن استحقاق عبادته اتَّصَفَت وعقولُ الأولين والآخرين بالعجز عن معرفة جلاله اعترفت.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أي: المتزمل المتلفِّف في ثيابه. وفي الخبر: «أنه كان عند نزول هذه الآية عليه مِرْطٌ[1] من شَعْرٍ وَبَرٍ، وقالت عائشة رضي الله عنها: كان نصفُه عليَّ وأنا نائمة، ونصفه على رسول الله وهو يُصَلِّي، وطولُ المِرْطِ أربعةُ عشر ذراعاً».

﴿نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾.

﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ نصفَه بَدَلٌ منه؛ أي: قم نصف الليل، وأَنْقِصْ من النصف إلى الثلث أو زِدْ على الثلث، فكان عليه الصلاة والسلام في وجوب قيام الليل مُخَيَّراً ما بين ثلث الليل إلى النصف وما بين النصف إلى الثلث. وكان ذلك قبل فَرْضِ الصلوات الخمس، ثم نُسِخَ بعد وجوبها على الأمة ـ وإن كانت بقيت واجبة على الرسول ﷺ.

ويقال: يا أيها المتزمل بأعباء النبوّة.. ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾.

ويقال: يا أيها الذي يُخْفِي ما خصصناه به قُمْ فأنذِرْ.. فإنّا نصرناك.

ويقال: قُمْ بنا.. يا مَنْ جعلنا الليل ليسكن فيه كلُّ الناس.. قُمْ أنت.

فليسكنْ الكلُّ.. ولْتَقُمْ أنت.

ويقال: لمَّا فَرَضَ عليه القيام بالليل أخبر عن نَفْسِه لأجل أُمَّته وإكراماً لشأنه وقدره.

---

(١) المرط: كساء من خَزّ أو صوف أو كتّان. (لسان العرب / ٤٠١ مادة: مرط).
وقيل: هو الثوب الأخضر، وجمعه مروط.

وفي الخبر: «أنه ينزل كلَّ ليلة إلى السماء الدنيا...»[(١)] ولا يُدْرَى التأويل للخبر، أو أنَّ التأويل معلوم.. وإلى أن ينتهي إلى التأويل فللأحبابِ راحاتٌ كثيرة، ووجوهٌ من الإحسان موفورة.

قوله جلّ ذكره: ﴿عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾.

ارْتَعْ بِسِرِّك في فَهْمِه، وَتأَنَّ بلسانِك في قراءته.

﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾.

قيل: هو القرآن. وقيل: كلمة لا إلَهَ إلا الله.

ويقال: الوحي؛ وسمَّاه ثقيلاً أي خفيفاً على اللسان ثقيلاً في الميزان.

ويقال: ثقيل أي: له وزن وخطر. وفي الخبر «كان إذا نزل عليه القرآن ـ وهو على ناقته ـ وضعت جِرانها[(٢)]، ولا تكاد تتحرك حتى يُسرَّى عنه»[(٣)].

وروى ابن عباس: أنَّ سورة الأنعامِ نَزَلَتْ مرةً واحدةً فَبَرَكَت ناقةُ رسول الله ﷺ من ثقل القرآن وهيبته.

ويقال ﴿ثَقِيلًا﴾ سماعه على مَنْ جحده.

ويقال: «ثقيلاً بِعِبئِه ـ إلّا على من أُيِّدِ بقوةِ سماوية، ورُبِّي في حِجْرِ التقريب».

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾.

أي: ساعات الليل، فكلُّ ساعةٍ تحدث فهي ناشئة، وهي أشد وطئاً أي: مُوَطَّأة أي: هي أشدُّ موافقةً للسانِ والقلبِ، وأشدُّ نشاطاً.

ويحتمل: هي أشدُّ وأغلظُ على الإنسان من القيام بالنهار.

﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي: أَبْيَنُ قولاً.

ويقال: هي أشدُّ مواطأةً للقلب وأقوم قيلاً لأنها أبعدُ من الرياء، ويكون فيها حضورُ القلبِ وسكونُ السِّرِّ أبلغَ وأتمّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾.

أي: سبحاً في أعمالك، والسبح: الذهاب والسرعة، ومنه السباحة في الماء.

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٥٠٤، ٤/ ٨١)، وصاحب (الإتحافات السنية ٣٢٦)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/ ٢٢١).

وللحديث رواية أخرى «إذا مضى شطر الليل أو ثلثاه ينزل الله...» أخرجه ابن أبي عاصم في (السنة ١/ ٢١٨).

(٢) الجران: باطن العنق. (اللسان ١٣/ ٨٦ مادة: جرن).

(٣) أخرجه الترمذي (وصايا، ٥) وأحمد بن حنبل (٤/ ١٨٧، ٢٣٨، ٢٣٩).

فالمعنى: مذاهبُك في النهار فيما يَشغَلُك كثيرةٌ ـ والليلُ أخلَى لك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾.

أي: انقَطِعْ إليه انقطاعاً تاماً.

﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾.

الوكيلُ مَنْ تُوكَلُ إليه الأمورُ؛ أي: تَوَكَّلْ عليه وكِلْ أمورَكَ إليه، وثِقْ به.

ويقال: إنك إذا اتخذْتَ من المخلوقين وكيلاً اختزلوا مالَكَ وطالبوك بالأجرة، وإذا اتخذتني وكيلاً أُوَفِّرُ عليكَ مالَكَ وأُعطيكَ الأجر.

ويقال: وكيلُك ينفق عليك من مالِك، وأنا أرزقك وأنفق عليك من مالي.

ويقال: وكيلُك مَنْ هو في القَدْرِ دونَك، وأنت تترفَّعُ أن تكلِّمَه كثيراً. وأنا ربُّكَ سَيِّدُك وأحبُّ أَنْ تكَلمَني وأكلِّمَكَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾.

الهَجْرُ الجميلُ: أن تعاشِرَهم بظاهرك وتُبايِنَهم بِسِرِّك وقلبك.

ويقال: الهجرُ الجميل ما يكون لحقِّ ربِّك لا لِحَظِّ نَفْسِك.

ويقال: الهجرُ الجميلُ ألا تُكلِّمَهم، وتكلمني لأجْلهم بالدعاء لهم.

وهذه الآية منسوخة بآية القتال.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾.

أي: أُولِي التَّنعُّم وأنْظِرْهم قليلاً، ولا تهتمْ بشأنهم، فإني أكفيكَ أمرَهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾.

ثم ذكر وصف القيامة فقال:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾.

ثم قال:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾.

يعني: أرسلنا إليكم محمداً ﷺ شاهداً عليكم ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾، ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ ثقيلاً.

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا﴾ من هَوْله يصير الولدانُ شيباً ـ وهذا على ضَرْبِ المثل.

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ أي بذلك: اليوم لهوله.

ويقال: مُنْفَطِرٌ بالله أي: بأمره.

﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾: فما وَعَدَ اللّٰهُ سيصدقه.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾: يعني هذه السورة، أو هذه الآيات مَوْعِظَةٌ؛ فَمَنْ اتعظ بها سَعِدَ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ من المؤمنين.

﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ فهو خالقهما ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ وتطيعوه.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: خَفَّفَ عنكم ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ من خمس آيات إلى ما زاد. ويقال: من عَشْرِ آيات إلى ما يزيد.

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يسافرون، ويعلم أصحاب الأعذار، فَنَسخَ عنهم قيامَ الليل.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة.

﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ مضى معناه.

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ﴾ أي: ما تقدِّموا من طاعة تجدوها عند الله ثواباً هو خيرٌ لكم من كلِّ متاع الدنيا.

سورة المدثر

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ سماعُها نزهةُ قلوبِ الفقراء، كلمةٌ سماعُها بهجة أسرارِ الضعفاء، راحةُ أرواحِ الأحِبَّاء، قوةُ قلوبِ الأولياء، سَلْوَةُ صدورِ الأصفياء، قُرَّةُ عيونِ أهلِ البلاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ﴾.

يا أيها المتدثر بثوبه.

وهذه السورة من أول ما أُنزِلَ من القرآن. قيل: إنَّ رسولَ الله ﷺ ذَهَبَ إلى حِرَاء قبل النُّبُوة، فَبَدا له جبريلُ في الهواء، فرجع الرسول إلى بيت خديجة[1] وهو يقول «دثِّروني دثِّروني»[2] فَدُثِّرَ بثوبٍ فنزل عليه جبريل وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ﴾.

وقيل: أيها الطالبُ صَرْفَ الأذى عنك بالدثار اطلبْه بالإنذار.

ويقال: قُمْ بنا، وأَسْقِطْ عنك ما سوانا، وأَنْذِر عبادَنا؛ فلقد أقمناك بأشرف المواقف، ووقفناك بأعلى المقامات.

ويقال: لمَّا سَكَنَ إلى قوله ﴿قُمْ﴾ وقام قَطَعَ سِرَّه عن السُّكونِ إلى قيامِه، ومن الطمأنينة في قيامه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾.

---

(١) هي خديجة بنت خويلد بن أسعد بن عبد العزى (٦٨ ـ ٣ ق هـ = ٥٥٦ ـ ٦٢٠ م) من قريش زوجة رسول الله ﷺ الأولى، وكانت أسنّ منه بخمس عشرة سنة. ولدت بمكة، ونشأت في بيت شرف ويسار، ومات أبوها يوم الفجار، وتزوجت بأبي هالة بن زرارة فمات عنها وكانت ذات مال كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام، فلما بلغ الرسول ﷺ الخامسة والعشرين خرج في تجارة لها إلى سوق بصري وعاد رابحاً، فدست له من عرض عليه الزواج بها فأجاب وتزوجها فولدت له القاسم وعبد الله وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، ولما بُعث رسول الله ﷺ دعاها إلى الإسلام، فكانت أول من أسلم من الرجال والنساء. توفيت بمكة.
الأعلام ٢/ ٣٠٢، وطبقات ابن سعد ٨/ ٧ ـ ١١، وصفة الصفوة ٢/ ٢، والدر المنثور ١٨٠.

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٣/ ٣٧٧)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٥٥٢٨) وابن أبي شيبة في (المصنف ٣/ ٧٤)، والطبري في (التاريخ ٢/ ٣٠٤)، وابن حجر في (الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ١٧٩).

كَبِّره عن كلِّ طَلَبٍ، ووَصْلٍ وفَصْلٍ، وعِلَّةٍ وخَلْقٍ.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾.

طَهِّرْ قلبك عن الخلائق أجمع، وعن كلِّ صفةٍ مذمومة.

وطَهِّرْ نَفْسَك عن الزَّلَّات، وقلبَك عن المخالفات، وسِرَّك عن الالتفاتات.

ويقال: أَهْلَكَ طَهِّرْهم بالوعظ؛ قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فيعبر عنهن ـ أحياناً ـ بالثياب واللِّباس.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾.

أي: المعاصي. ويقال: الشيطان. ويقال: طهِّرْ قلبَك من الخطايا وأشغال الدنيا.

ويقال: مَنْ لا يَصِحُّ جِسْمُه لا يجد شهوةَ الطعام كذلك مَنْ لا يَصِحُّ قلبُه لا يجد حلاوةَ الطاعة.

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾.

لا تُعْطِ عطاءً تطلب به زيادةً على ما تعطيه.

ويقال: لا تستكثِرْ الطاعةَ من نفسك.

ويقال: لا تمنُنْ بعملك فتَسْتكثِرَ عملك، وتُعْجَبَ به.

﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾.

أي: أنت تُؤْذَى في اللّهِ. فاصبِرْ على مقاساةِ أذاهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾.

يعني: إذا قامت القيامةُ، فذلك يومٌ عسيرٌ على الكافرين غيرُ هيِّنٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾.

أي: لا تهتمْ بشأنهم، ولا تَحْتَفِلْ؛ فإنِّي أكفيكَ أمرَهم.

إنِّي خَلَقْتُه وحدي؛ لم يشارِكْني في خلقي إيَّاه أحدٌ.

ويحتمل: خَلَقْتُه وَحْدَه لا ناصرَ له.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا﴾.

حضوراً معه لا يحتاجون إلى السَّفرِ.

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا﴾.

أراد: تسهيلَ التصرُّف، أي: مكَّنْتُهُ من التصرُّف في الأمور.

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾.

يطمع أن أزيده في النعمة:

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾.

جَحوداً.

﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾.

سأحمله على مشقَّةٍ من العذاب.

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾.

أي: لُعِنَ كيف فكَّر، وكيف قدَّر، ويعني به: الوليد بن المغيرة[1] الذي قال في النبي ﷺ: إنَّه ليس بشاعرٍ ولا بمجنونٍ ولا بكذَّاب، وإنه ليس ساحر، وما يأتي به ليس إلا سحرٌ يُرْوَى:

﴿ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾.

لا تُبقي لَحْماً، ولا تَذَرُ عَظْماً، تحرق بشرة الوجه وتُسَوِّدها، من لاحته الشمسُ ولوَّحته.

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾.

قال المشركون: نحن جَمْعٌ كثير.. فما يفعل بنا تسعة عشر؟! فأنزل الله سبحانه:

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

فيزداد المؤمنون إيماناً، ويقول هؤلاء: أي فائدة في هذا القَدْر؟ فقال تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

ثم قال:

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾.

أي: تقاصرت علومُ الخَلْقِ فلم تتعلَّقْ إلا بمقدار دون مقدار، والذي أحاط بكل شيء علماً هو الله ـ سبحانه

﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ﴾.

---

(١) هو الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم (٩٥ هـ ـ ١ هـ = ٥٣٠ ـ ٦٢٢م) أو عبد شمس، من قضاة العرب في الجاهلية، ومن زعماء قريش، ومن زنادقتها. يقال له «العدل» لأنه كان عدل قريش كلها، كان ممن حرم الخمر في الجاهلية، وأدرك الإسلام وهو شيخ هرم، فعاداه وقاوم دعوته. هلك بعد الهجرة بثلاثة أشهر، ودفن بالحجون وهو والد سيف الله خالد بن الوليد.
الأعلام ٨/ ١٢٢، والكامل لابن الأثير ٢/ ٢٦، ورغبة الآمل ٥/ ٢٩، واليعقوبي ١/ ٢١٥.

كلّا ـ حرفُ ردعٍ وتنبيه؛ أي: ارتدعوا عما أنتم عليه، وانتبهوا لغيرِه.

وأقسم بهذه الأشياء ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ﴾: أي بالقمر، أو بقدرته على القمر.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ وقُرِىءَ «ودَبَرَ» أي: مضى، ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ أي: تجلّى.

﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾.

أي: النار لإحدى الدواهي الكُبَر.

ويقال في ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ﴾ إشارةٌ إلى أقمار العلوم إذا أخذ هلالُها في الزيادة بزيادة البراهين، فإنها تزداد، ثم إذا صارت إلى حدِّ التمام في العلم وبلغت الغاية تبدو أعلام المعرفة، فالعلم يأخذ النقصان، وتطلع شمسُ المعرفة، فكما أنه إذا قَرُبَ القمرُ من الشمس يزداد نقصانه حتى إذا قرب من الشمس تماماً صار محاقاً ـ كذلك إذا ظَهَرَ سلطانُ العرفانِ تأخذ أقمارُ العلوم في النقصان لزيادة المعارف؛ كالسراج في ضوء الشمس وضياء النهار. ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ أي إذا انكشفت ظُلَمُ البواطن، ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ وتجلّت أنوار الحقائق في السرائر.. إنها لإحدى العظائم! وذلك من باب التخويف من عودة الظُّلَم إلى القلوب.

﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾.

في هذا تحذيرٌ من الشواغل التي هي قواطع عن الحقيقة، فيحذروا المساكنةَ والملاحظةَ إلى الطاعات والموافقات.. فإنّها ـ في الحقيقة ـ لا خطرَ لها.

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ عن الطاعات.. وهذا على جهة التهديد.

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾.

أي: مرتهنة بما عملت، ثم استثنى:

﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾.

فقال: إنهم غير مرتهنين بأعمالهم، ويقال: هم الذين قال الله تعالى في شأنهم: «هؤلاء في الجنة ولا أُبالي»!

وقيل: أطفال المؤمنين.

﴿فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

هؤلاء يتساءلون عن المجرمين، ويقولون لأهل النار إذا حَصَلَ لهم إشرافٌ عليهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾؟ ﴿قالوا ألم نك من المصلين﴾ ألم نكُ نُطْعِمُ المسكين؟

وهذا يدل على أنَّ الكفارَ مُخاطَبون بتفصيل الشرائع.

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾: نشرع في الباطل، ونكذِّب بيوم الدين.

﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾.

وهو معاينة القيامة.

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾.

أي: لا تنالهم شفاعةُ مَنْ يشفع.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾.

والتذكرة: القرآن:

﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾.

كأنهم حُمُرٌ نافرة فرَّت من أَسَدٍ.

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾.

بل يريد كلُّ منهم أن يُعْطَى كتاباً منشوراً.

﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾.

أي: كَلَّا لا يُعْطَوْن ما يتمنَّون لأنهم لا يخافون الآخرة.

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾.

إلَّا أنْ يشاءَ اللَّهُ - لا أنْ تشاؤوا.

﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

أهل لأن يُتَّقىٰ.

﴿وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾.

وأهلٌ لأَنْ يغفِرَ لمن يَتَّقِي - إن شاء.

سورة القيامة

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة عزيزة مَنْ سمعها بشاهد العِلْم استبصر، ومن سمعها بشاهد المعرفة تحيَّر.. فالعلماءُ في سكون برهانه، والعارفون في دَهَش سلطانه.. أولئك في نجوم علومهم، فأحوالُهم صَحْوٌ في صَحْو، وهؤلاءِ في شموسِ معارفهم: فأوقاتُهم محوٌ في محو.. فشتان ما هما!!

قوله جلّ ذكره: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

أي: أقسم بيوم القيامة.

﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾.

أي: أقسم بالنفس اللَّوَّامة، وهي النَّفْسُ التي تلوم صاحبَها، وتعرِف نقصانَ حالِها.

ويقال: غداً.. كلُّ نَفْسٍ تلوم نَفْسَها: إمَّا على كُفْرِها، وإمَّا على تقصيرها ـ وعلى هذا فالقَسَمُ يكون بإضمار «الرَّب» أي: أقسم بربِّ النفس اللوامة. وليس للوم النَّفْسِ في القيامةِ خطرٌ ـ وإنْ حُمِلَ على الكُلِّ ولكنَّ الفائدة فيه بيان أنَّ كلَّ النفوس غداً ـ ستكون على هذه الجملة. وجوابُ القَسَم قولُه: ﴿بَلَىٰ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾.

أيظن أنّا لن نبعثَه بعد موته؟

﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾.

﴿قَٰدِرِينَ﴾ نصب على الحال؛ أي بلى، نسوي بنانه في الوقت قادرين، ونقدر أي نجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً كخُفِّ[1] البعير وظلف[2] الشاة.. فكيف لا نقدر على إعادته؟!

---

(١) الخُفُّ للبعير: كالحافر للفرس (ج) أخفاف.

(٢) الظِّلْف: الظفر المشقوق لكل حيوان مجترّ كالبقرة والشاة والظبي ونحوها، وهو بمنزلة الحافر للفرس (ج) أظلاف. وظلوف.

﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾.

يُقدِّم الزلّةَ ويؤخر التوبة. ويقول: سوف أتوب، ثم يموت ولا يتوب. ويقال: يعزم على ألا يستكثر من معاصيه في مستأنف وقته، وبهذا لا تَنْحَلُّ ـ في الوقت ـ عقدةُ الإصرار من قلبه، وبذلك لا تصحُّ توبتُه؛ لأن التوبة من شرطها العزم على ألا يعودَ إلى مثل ما عَمِل. فإذا كان استحلاءُ الزلّةِ في قلبه، ويفكر في الرجوع إلى مثلها ـ فلا تصح ندامتُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

على جهة الاستبعاد، فقال تعالى:

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾.

﴿بَرِقَ﴾ بكسر الراء معناها تحيَّرَ، ﴿وَبَرَقَ﴾ بفتح الراء شَخَصَ (فلا يَطْرِف) من البريق، وذلك حين يُقَاد إلى جهنم بسبعين ألف سلسلة، كل سلسلة بيد سبعين ألف مَلَك، لها زفير وشهيق، فلا يَبْقى مَلَكٌ ولا رسول إلّا وهو يقول: نفسي نفسي!

﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ كأنهما ثوران عقيران.

ويقال: يجمع بينهما في ألّا نورَ لهما.

﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾؟ والمفرّ موضع الفرار إليه، فيقال لهم:

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾[١].

اليومَ، ولا مَهْربَ من قضاءِ الله.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾.

أي: لا مَحِيدَ عن حُكْمِه.

﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾.

أي: يَعْرِف ما أسْلَفَه من ذنوب أحصاها اللّهُ ـ وإن كان العبدُ نسيَها.

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾.

للإنسان على نفسه دليل علامة وشاهد؛ فأعضاؤه تشهد عليه بما عملِه.

ويقال: هو بصيرةٌ وحُجّةٌ على نفسه في إنكار البعث.

ويقال: إنه يعلم أنه كان جاحداً كافراً، ولو أتى بكلّ حجةٍ فلن تُسْمع منه ولن تنفعه.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾.

---

(١) الوَزَر: الملجأ يُعتصم به.

لا تستعجِلْ في تَلَقُّفِ القرآنِ على جبريل، فإنَّ علينا جَمْعَه في قلبك وحِفْظَه، وكذلك علينا تيسيرُ قراءته على لسانك، فإذا قرأناه أي: جمعناه في قلبك وحفظك فاتبع بإقرائك جَمْعَه.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾.

نُبيِّنُ لك ما فيه من أحكام الحلال والحرام وغيرها. وكان رسول الله ﷺ يستعجل في التلقفِ مخافةَ النسيان، فنُهِيَ عن ذلك، وضمن اللهُ له التيسير والتسهيل.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾.

أي: إنما يحملهم على التكذيب للقيامة والنشر أنهم يحبون العاجلة في الدنيا، أي: يحبون البقاء في الدنيا.

﴿وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾: أي: تتركون العملَ للآخرة. ويقال: تكفرون بها.

قوله جلّ ذكره: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

﴿نَّاضِرَةٌ﴾: أي مشرقة حسنة، وهي مشرقة لأنها إلى ربها «ناظرة» أي رائية لله. والنظر المقرون بـ «إلى» مضافاً إلى الوجه لا يكون إلّا الرؤية، فالله تعالى يخلق الرؤية في وجوههم في الجنة على قَلْبِ العادة، فالوجوه ناظرة إلى الله تعالى.

ويقال: العين من جملة الوجه فاسم الوجه يتناوله.

ويقال: الوجهُ لا ينظر ولكنَّ العينَ في الوجهِ هي التي تنظر؛ كما أنَّ النهرَ لا يجري ولكنَّ الماءَ في النهر هو الذي يجري، قال تعالى: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥].

ويقال: في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ دليل على أنهم بصفة الصحو، ولا تتداخلهم حيرة ولا دَهَش؛ فالنضرة من أمارات البسط لأن البقاء في حال اللقاء أتمُّ من اللقاء.

والرؤية عند أهل التحقيق تقتضي بقاء الرائي، وعندهم استهلاكُ العبدِ في وجود الحقِّ أتمُّ؛ فالذين أشاروا إلى الوجود رأوا الوجود أعلى من الرؤية.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾.

﴿بَاسِرَةٌ﴾: أي كالحةٌ عابسة. ﴿فَاقِرَةٌ﴾ أي: داهية وهي بقاؤهم في النار عَلَى التأبيد. تظن أن يخلق في وجوههم النظر.

ويحتمل أن يكون معنى ﴿تَظُنُّ﴾: أي يخلق ظنًّا في قلوبهم يظهر أَثَرُه على وجوههم.

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾.

أي ليس الأمر على ما يظنون؛ بل إذا بلغت نفوسُهم التراقيَ[١]، ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ﴾؟ أي يقول مَنْ حولَه: هل أحدٌ يَرْقِيه؟ هل طبيبٌ يداويه؟ هل دواءٌ يشفيه؟

ويقال: مَنْ حَوْله من الملائكة يقولون: مَنْ الذي يَرْقى برُوحه؛ أملائكةُ الرحمة أو ملائكة العذاب؟.

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾: وعلم الميت أنه الموت!.

﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾: ساقا الميت. فتقترنُ شِدَّةُ آخرِ الدنيا بشدَّة أوَّلِ الآخرة.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ أي الملائكة يسوقون روحه إلى الله حيث يُؤمرون بأن يحملوها إليه: إمّا إلى عليين ـ ثم لها تفاوت درجَات، وإمّا إلى سجِّين[٢] ـ ولها تفاوت دَرَكات.

ويقال: الناسُ يُكَفِّنون بَدنَ الميت ويغسلونه، ويُصَلُّون عليه.. والحقُّ سبحانه يُلْبِسُ روحَه ما تستحق من الحُلَلِ، ويغسله بماء الرحمة، ويصلي عليه وملائكتُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

يعني: الكافر ما صدَّق اللَّهَ ولا صلَّى له، ولكن كذَّب وتولَّى عن الإيمان. وتدل الآيةُ على أنَّ الكفارَ مُخَاطَبون بتفصيل الشرائع.

﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾.

أي: يتبختر ويختال.

﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾.

العَربُ إذا دَعَتْ على أحدٍ بالمكروه قالوا: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾ وهنا أتبع اللفظَ اللفظَ على سبيل المبالغة.

ويقال: معناه الويلُ لَكَ يومَ تحيا، والويلُ لكَ يوم تَموت، والويلُ لكَ يومَ تُبْعَث، والويل لكَ يوم تدخل النار.

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾.

مُهمَلاً لا يُكلَّفُ!؟. ليس كذلك.

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾.

---

(١) التراقي: (ج) الترقوة: هي عظم وصل بين ثغرة النحر والعاتق من الجانبين. (لسان العرب ١٠/ ٣٢ مادة: ترق).

(٢) سجّين: وادٍ في جهنم.

﴿مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ أي تُلْقى في الرَّحم ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ أي: دماً عبيطاً[1]، فسوَّى أَعضاءَه في بطن أُمه، وركَّبَ أجزاءَه على ما هو عليه في الخِلْقة، وجعل منه الزوجين: إن شاء خَلَقَ الذَّكَرَ، وإن شاء خَلَقَ الأنثى، وإن شاء كليهما.

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

أَليس الذي قدر على هذا كلِّه بقادر على إحياء الموتى؟ فهو استفهام في معنى التقرير.

(١) العبيط: من اللحم: الطري غير النضيج. (لسان العرب ٧/٣٤٧ مادة: عبط).

سورة الإنسان

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ جبَّارٌ تَوَحّد في آزالِه بوصف جبروته، وتَفَرَّدَ في آباده بنعت ملكوته؛ فأَزَلُه أَبَدُه، وأَبَدُه أَزَلُه، وجبروتُه ملكوتُه، وملكوته جبروتُه.

أحديُّ الوصفِ، صَمَدِيُّ الذات، مُقَدَّسُ النَّعْتِ، واحدُ الجلالِ، فَرْدُ التعالي، دائمُ العِزِّ، قديمُ البقاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾.

في التفسير: قد أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً له خَطَرٌ ومقدار. قيل: كان آدم عليه السلام أربعين سنة مطروحاً جَسَدُه بين مكة والطائف. ثم من صلصالٍ[1] أربعين سنة، ثم من حمإٍ مسنون أربعين سنة، فتمّ خَلْقُه بعد مائة وعشرين سنةٍ.

ويقال: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ...﴾: أي لم يأتِ عليه وقتٌ إلا كان مذكوراً إليَّ.

ويقال: هل غَفَلْتُ ساعةً عن حِفْظِك؟ هل ألقيتُ ـ لحظةً ـ حَبْلَكَ على غارِبِك؟ هل أخليتُك ـ ساعةً ـ من رعاية جديدة وحمايةٍ مزيدة.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾: أي من قطرة ماءٍ، ﴿أَمْشَاجٍ﴾: أَخلاط من بين الرجل والمرأة.

ويقال: طوراً نطفة، وطوراً عَلَقَة، وطوراً عَظْماً، وطوراً لَحْماً.

﴿نَّبْتَلِيهِ﴾: نمتحنه ونختبره. وقد مضى معناه.

﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

أي: عَرَّفْناه الطريقَ؛ أي طريقَ الخيرِ والشرِّ.

---

(١) الصلصال: الطين اليابس، أو الطين الحر خُلط بالرمل فصار يتصلصل (يصوّت) إذا جف فإذا طبخ بالنار فهو الفجار.

وقيل: إمَّا للشقاوة، وإمَّا للسعادة، إمَّا شاكراً من أوليائنا، وإما أن يكون كافراً من أعدائنا؛ فإنْ شَكَرَ فبالتوفيق، وإنْ كَفَرَ فبالخذلان.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾.

أي: هَيَّأنا لهم سلاسلَ يُسْحَبون فيها، ﴿وَأَغْلَٰلًا﴾ لأعناقهم يُهانون بها، ﴿وَسَعِيرًا﴾: ناراً مستعرة.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾.

قيل: البَرُّ: الذي لا يُضمِرُ الشَّرَّ، ولا يؤذي الذَّرّ.

وقيل: ﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾: هم الذين سَمَتْ هِمَّتُهم عن المستحقرات، وظهرت في قلوبهم ينابيع الحكمة فاتّقوا عن مُسَاكنةِ الدنيا.

﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ رائحتها كرائحة الكافور(١)، أو ممزوجة بالكافور.

ويقال: اختلفت مشاربهُم في الآخرة؛ فكلٌّ يُسْقَى ما يليق بحاله... وكذلك في الدنيا مشاربهُم مختلفة؛ فمنهم مَنْ يُسقَى مَزْجاً، ومنهم من يُسقَى صِرْفاً، ومنهم من يسقى على النُّوَب، ومنهم من يُسقى بالنُّجُب ومنهم من يُسْقى وحدَه ولا يُسقي مما يُسقى غيره، ومنهم مَنْ يسقى هو والقوم شراباً واحداً.. وقالوا:

إن كنت من ندماي فبالأكبر اسْقِني ... ولا تَسْقِني بالأصغر المتثلم

وفائدة الشرابِ ــ اليومَ ــ أن يشغلهم عن كل شيءٍ فيريحُهم عن الإحساس، ويأخذهم عن قضايا العقل.. كذلك قضايا الشراب في الآخرة، فيها زوالُ الأرَبِ، وسقوطُ الطلبِ، ودَوَامُ الطَّرَب، وذَهَابُ الحَرَب، والغفلة عن كلِّ سبب.

ولقد قالوا:

عاقِرْ عقارك واصْطبِخ ... واقْدَحْ سرورَك بالقَدحَ
واخلع عذارك(٢) في الهوى ... وأَرِحْ عذولَك واسترِحْ
وافرَحْ بوقتِك إنما ... عُمْرُ الفتى وقتُ الفَرَح

قوله جلّ ذكره: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾.

---

(١) الكافور: هنا قيل: نبات له نور أبيض كنور الأقحوان. والكافور عين ماء في الجنة طيب الريح، والكافور من أخلاط الطيب. (لسان العرب ٥/١٤٩، ١٥٠، مادة: كفر).

(٢) يقال: خلع فلان عذاره؛ أي: انهمك في الغيء ولم يستح منه واتبع هواه.

يُشَقِّقونها تشقيقاً، ومعناه أَن تلك العيون تجري في منازلهم وقصورهم على ما يريدون. واليومَ ـ لهم عيونٌ في أَسرارهم من عين المحبة، وعين الصفاء، وعين الوفاء، وعين البسط، وعين الروح.. وغير ذلك، وغداً لهم عيون.

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾.

ثم ذكر أحوالهم في الدنيا فقال: يوفون بالعهد القديم الذي بينهم وبين الله على وجهٍ مخصوص.

﴿وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾.

قاسياً، منتشراً، ممتداً.

﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا﴾.

أي: على حُبِّهم للطعام لحاجتهم إليه. ويقال: على حُبِّ الله، ولذلك يُطْعِمون.

ويقال: على حُبِّ الإطعام.

وجاء في التفسير: أَن الأسير كان كافراً ـ لأنَّ المسلَم ما كان يُستأسَرُ في عهده ـ فطاف على بيت فاطمة رضي الله عنها وقال: تأسروننا ولا تطعموننا!

﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾.

إنما نطعمكم ابتغاءَ مرضاةِ الله، لا نريد من قِبلكُم جزاءً ولا شكراً.

ويقال: إنهم لم يذكروا هذا بألسنتهم، ولكن كان ذلك بضمائرهم.

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا﴾.

أي: يوم القيامة.

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ﴾.

﴿وَلَقَّىٰهُمۡ﴾ أي: أعطاهم ﴿نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا﴾.

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا﴾.

كافأهُم على ما صبروا من الجوع ومقاساته جنَّةً وحريراً.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾.

واحدها أريكة، وهي السرير في الحجال[1].

﴿لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا﴾.

---

(١) الحجال: (ج) الحجلة: مثل القبة، وحجلة العروس: بيت يُزين بالثياب والأسرّة والستور. (لسان العرب ١١/ ١٤٤ مادة: حجل).

أي: لا يتأذون فيها بحرٍ ولا بَرْدٍ.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾.

يتمكنون من قطافها على الوجه الذي هم فيه من غير مشقة؛ فإن كانوا قعوداً تُدلَّى لهم، وإن كانوا قياماً ـ وهي على الأرض ـ ارتقت إليهم.

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾.

الاسم فضة، والعين لا تشبه العين.

﴿وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾.

أي: في صفاء القوارير وبياض الفضة.. قَدَّرَ ذلك على مقدار إرادتهم.

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾.

المقصود منه الطِّيب، فقد كانوا (أي العرب) يستطيبون الزنجبيل[1]، ويستلذون نكهته، وبه يشبِّهون الفاكهة، ولا يريدون به ما يقرص اللسان.

﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾.

أي: يُسْقَوْنَ من عينٍ ـ أثبت المَسْقِيَّ وأَجْمَلَ مَنْ يسقيهم؛ لأنَّ منهم من يسقيه الحقُّ ـ سبحانه ـ بلا واسطة.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾.

أي: يخدمهم ﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ وصفا لا يجوز واحد منهم حدَّ الوصائف.

وجاء في التفسير: لا يَهْرَمون ولا يموتون. وجاء مُقَرَّطون.

إذا رأيتهم حسبتهم من صفاء ألوانهم لؤلؤاً منثوراً.

وفي التفسير: ما من إنسانٍ من أهل الجنة إلا ويخدمه ألف غلام.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾.

﴿ثَمَّ﴾: أي في الجنة.

﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾: في التفاسير أن الملائكة تستأذن عليهم بالدخول.

وقيل: هو قوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ [ق: ٣٥] ويقال: أي لا زوالَ له.

﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾.

---

(١) الزنجبيل: مما ينبت في بلاد العرب بأرض عُمان، وهو عروق تسري في الأرض، ونباته شبيه بنبات الراسن وليس منه شيء بريًا، وليس بشجر، يؤكل رطباً كما يؤكل البقل، ويستعمل يابساً وأجوده ما يؤتى به من الزنج وبلاد الصين.
وقيل: الزنجبيل: العود الحرِّيف الذي يحذي اللسان. (لسان العرب ١١/ ٣١٢ مادة: زنجبيل).

يحتمل أن يكون هذا الوصف للأبرار. ويصح أن يكون للولدان وهو أَوْلَى، والاسم يوافق الاسم دون العين.

﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾: الشراب الطهورُ هو الطاهر في نفسِه المُطَهِّرُ لغيره.

فالشراب يكون طهوراً في الجنة ـ وإنْ لم يحصل به التطهيرُ لأن الجنة لا يُحتاجُ فيها إلى التطهير.

ولكنه ـ سبحانه ـ لمَّا ذَكَرَ الشرابَ ـ وهو اليومَ في الشاهد نجَسٌ ـ أخبر أنَّ ذلك الشرابَ غداً طاهرٌ، ومع ذلك مُطَهِّر؛ يُطَهِّرُهم عن محبة الأغيار، فمن يَحْتسِ من ذلك الشرابِ شيئاً طَهَّرَه عن محبة جميع المخلوقين والمخلوقات.

ويقال: يُطَهِّرُ صدورهم من الغِلِّ والغِشِّ، ولا يُبْقِي لبعضهم مع بعض خصيمة ولا عداوة ولا دَعْوَى ولا شيء.

ويقال: يُطهِّرُ قلوبهم عن محبة الحور العين.

ويقال: إن الملائكة تعرض عليهم الشرابَ فيأبون قبولَه منهم، ويقولون:

لقد طال أَخْذُنا مِنْ هؤلاء، فإذا هم بكاساتٍ تُلاقِي أفواهَهَم بغير أكُفٍّ؛ من غيبٍ إلى عَبْدٍ.

ويقال: اليومَ شرابٌ وغداً شراب. . اليوم شرابُ الإيناس وغداً شرابُ الكاس، اليوم شرابٌ من اللُّطْفِ وغداً شرابٌ يُدار على الكفّ.

ويقال: مَنْ سقاه اليومَ شرابَ محبَّتِه آنَسَه وشَجَّعَه؛ فلا يستوحِش في وقته من شيء، ولا يَضِنُّ بروحه عن بَذْل. ومن مقتضى شُرْبه بكأسِ محبته أن يجودَ على كلِّ أحدٍ بالكونين من غير تمييز، ولا يَبْقَى على قلبه أثرٌ للأخطار.

ومن آثارِ شُرْبِه تذلُّلُه لكلِّ أحدٍ لأجل محبوبه، فيكون لأصغرِ الخَدم تُرَابَ القَدَم، لا يتحرَّكُ فيه للتكبُّر عِرْقٌ.

وقد يكون من مقتضى ذلك الشراب أيضاً في بعض الأحايين أَنْ يَتِيه على أهل الدارين.

ومن مقتضى ذلك الشراب أيضاً أَنْ يمْلِكَه سرورٌ ولا يَتَمَالَكُ معه من خَلْعِ العذار وإلقاء قناع الحياء ويظهر ما هو به من المواجيد:

يخلع فيك العذارَ قومٌ ... فكيف مَنْ ما لَه عِذارُ؟

ومن موجِبات ذلك الشراب سقوط الحشمة، فيتكلم بمقتضى البسط، أو بموجب لفظ الشكوى، وبما لا يَستخرجُ منه ـ في حال صَحْوه ـ سفيهٌ

بالمناقيش[١]. . . وعلى هذا حَمَلُوا قول موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فقالوا: سَكِرَ من سماع كلامِه، فَنَطَقَ بذلك لسانُه. وأمَّا مَنْ يسقيهم شرابَ التوحيد فَيَنْفي عنهم شهودَ كلِّ غَيْرٍ فيهيمون في أودية العِزِّ، ويتيهون في مفاوزِ[٢] الكبرياء، وتتلاشى جملتهُم في هواء الفردانية. . فلا عقلَ ولا تمييزَ ولا فَهْمَ ولا إدراك. . فكلُّ هذه المعاني ساقطة.

فالعبدُ يكون في ابتداء الكَشْفِ مُستوْعَباً ثم يصير مستغرقاً ثم يصيرُ مُسْتَهْلَكا. . ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾.

يقال لهم: هذا جزاءٌ لكم، ﴿مَّشۡكُورًا﴾: وشُكْرُه لسعيهِمْ تكثيرُ الثوابِ على القليل من العمل ـ هذا على طريقة العلماء، وعند قومٍ شُكْرُهم جزاؤهم على شكرهم.

ويقال: شُكْرُه لهم ثناؤه عليهم بذكر إحسانهم على وجه الإكرام.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا﴾.

في مُدَّةِ سنين.

﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾.

أي: ارضَ بقضائه، واستسلمْ لِحُكْمِه.

﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾: أي: ولا كفوراً، وهذا أمرٌ له بإفرادِ ربِّه بطاعته.

﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾.

الفَرْضُ في الأول، ثم النَّفل.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ. .﴾.

أي كفَّار قريش:

﴿يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾.

أي: لا يعملون ليوم القيامة.

قوله جلّ ذكره: ﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا﴾.

---

(١) المناقيش: (ج) المنقاش: ما يُنقش به.

(٢) المفاوز: (ج) المفازة: الصحراء الواسعة التي لا ماء فيها، وهي كذلك الموضع المهلك.

أعدمناهم، وخلقنا غيرَهم بدلاً عنهم. ويقال: أخذنا عنهم الميثاق.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ . . .﴾.

أي: القرآن تذكرة.

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾.

بطاعته.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

أي: عذاباً أليماً موجِعاً يخلص وَجَعُه إلى قلوبهم.

سورة المرسلات

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ مَنْ سمعها بسمع الوَجْدِ وَفَى له فلم ينظرْ إلى أحد، ومَنْ سمعها بسمع العِلْمِ جَادَ له فلم يبخلْ بروحه على أحد.

ومن سمعها بسمع التوحيد جَرَّدَ سِرَّه عن إيثارِ ما سواه في الدنيا والعُقبى عيناً وأَثَراً فما كان هذا كله إلا حاصلاً به كائناً منه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾.

﴿**المرسلات**﴾: الملائكة، ﴿**عرفاً**﴾ أي: أرسلوا بالمعروف من الأمر، أو كثيرين كعُرْفِ الفَرس.

﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾.

الرياحُ الشديدة (العواصف تأتي بالعصف وهو ورق الزرع وحطامه).

﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾.

الأمطار (لأنها تنشر النبات. فالنشر بمعنى الإحياء). ويقال: السُّحُبُ تنشر الغيث. ويقال: الملائكة.

﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾.

الملائكة؛ تفرق بين الحلال والحرام.

﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾.

الملائكة: تُلقِي الوحيَ على الأنبياء عليهم السلام؛ إعذاراً وإنذاراً. .

وجوابُ القَسَم:

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾.

فأقسم بهذه الأشياء: إنَّ القيامة لحقٌّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾.

إنما تكون هذه القيامة. و ﴿**طمست**﴾: ذهب ضَوؤُها[1].

---

(١) الآية (٩) لم ترد.

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾.

ذَهَبَ بها كلِّها بسرعة، حتى لا يَبْقَى لها أَثَرٌ.

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾.

أي: جَعَلَ لها وقتاً وأَجَلاً لفَصْلِ القضاءِ يومَ القيامة.

ويقال: أُرْسِلَتْ لأوقاتٍ معلومة.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾.

على جهة التعظيم له.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

مضى تفسيرُ معنى الويل.

ويقال في الإشارات: فإذا نجومُ المعارف طمست بوقوع الغيبة.

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ القلوبُ الساكنة بيقين الشهود حُرِّكَتْ عقوبةً على ما هَمَّتْ بالذي لا يجوز. فويلٌ يومئذٍ لأرباب الدعاوَى الباطلةِ الحاصلةِ من ذوي القلوب المُطبقة الخالية من المعاني.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ﴾.

الذين كذَّبوا رُسُلَهم، وجحدوا آياتنا؛ فمثلما أهلكنا الأولين كذلك نفعل بالمجرمين إذا فعلوا مثلَ فِعْلِهم[١].

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ الذين لا يستوي ظاهرُهم وباطنهم في التصديق.

وهكذا كان المتقدمون من أهل الزَّلَّة والفَترة في الطريقة، والخيانة في أحكام المحبة فعُذِّبوا بالحرمان في عاجلهم، ولم يذوقوا من المعاني شيئاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾.

أي: حقير. وإذ قد علمتم ذلك فلِمَ لم تقيسوا أمر البعث عليه؟

ويقال: ذَكَّرَهم أصلَ خلقتم لئلا يُعْجَبوا بأحوالهم؛ فإنه لا جِنْسَ من المخلوقين والمخلوقاتِ أشدَّ دعوى من بني آدم. فمن الواجب أَنْ يَتَفَكَّرَ الإنسانُ في أَصلِه... كان نطفةً وفي انتهائه يكون جيفة، وفي وسائط حالِه كنيفٌ[٢] في قميص!! فبالحريِّ أَلَّا يُدِلَّ ولا يفتخر:

كيف يزهو مَنْ رجيعُهُ أَبَدَ الدهرِ ضجيعُه

---

(١) الآية (١٨) لم ترد.

(٢) الكنيف: الساتر أو المرحاض.

فهو منه وإليه وأخوه ورضيعُه
وهو يدعوه إلى الحُشِّ[(١)] بصغر فيطيعه؟!!

ويقال: يُذكِّرهم أصلَهم.. كيف كان كذلك... ومع ذلك فقد نقلهم إلى أحسن صورة، قال تعالى:

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾، والذي يفعل ذلك قادرٌ على أن يُرقِّيَكَ من الأحوال الخسيسة إلى تلك المنازل الشريفة[(٢)].

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾.

﴿كِفَاتًا﴾ أي: ذات جَمْع؛ فالأرض تضمهم وتجمعهم أحياءً وأمواتاً؛ فهم يعيشون على ظهرها، ويُودَعونَ بعد الموت في بطنها..

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾.

أي: جبالاً مرتفعات، وجعلنا بها الماء سقياً لكم. يُذكِّرهم عظيم مِنَّتهِ بذلك عليهم. والإشارةُ فيه إلى عظيم مِنَّته أنّه لم يخسف بكم الأرض ـ وإن عملتم ما عملتم[(٣)].

﴿انْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

يقال لهم: انطلقوا إلى النار التي كذَّبتم بها.

﴿انْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾.

كذلك إذا لم يعرفْ العبدُ قَدْرَ انفتاحِ طريقه إلى الله بقلبه، وتعزُّزِه بتوكله.. فإذا رجع إلى الخَلْقِ عند استيلاءِ الغفلة نَزَعَ اللّهُ عن قلبه الرحمةَ، وانسدَّت عليه طُرُقُ رُشْدِه، فيتردد من هذا إلى هذا إلى هذا.

ويقال لهم: انطلقوا إلى ما كنتم به تكذّبون. والاستقلالُ بالله جنّة المأوى، والرجوعُ إلى الخَلْقِ قَرْعُ باب جهنم.. وفي معناه أنشدوا:

ولم أرَ قبلي مَنْ يُفارِقُ جنَّةً ويقرع بالتطفيل بابَ جهنم[(٤)]

ثم يقال لهم إذا أخذوا في التنصُّل والاعتذار:

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾.

فإلى أنْ تنتهيَ مُدّةُ العقوبة فحينئذٍ: إنْ استأنَفْتَ وقتاً استؤنِفَ لك وقتٌ. فأمّا الآن.. فصبراً حتى تنقضِيَ أيامُ العقاب[(٥)].

---

(١) الحُشّ: البستان: أو مكان قضاء الحاجة.

(٢) الآيات من (٢١ ـ ٢٤) لم ترد.

(٣) الآية (٢٨) لم ترد.

(٤) الآيات من (٣٢ ـ ٣٤) لم ترد.

(٥) الآية (٣٧) لم ترد.

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾.

فعلنا بكم ما فعلنا بهم في الدنيا من الخذلان، كذلك اليوم سنفعل بكم ما نفعل بهم من دخول النيران(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾.

اليومَ.. في ظلال العناية والحماية، وغداً.. هم في ظلال الرحمة والكلاءة.

اليومَ.. في ظلال التوحيد، وغداً.. في ظلال حُسْن المزيد.

اليومَ.. في ظلال المعارف، وغداً.. في ظلال اللطائف.

اليومَ.. في ظلال التعريف، وغداً.. في ظلال التشريف(٢).

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

اليومَ تشربون على ذِكْره.. وغداً تشربون على شهوده، اليوم تشربون بكاسات الصفاء وغداً تشربون بكاسات الولاء(٣).

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

والإحسانُ من العبد تَرْكُ الكلِّ لأجْله! كذلك غداً: يجازيك بترك كلِّ الحاصل عليك لأجْلِك.

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾.

هذا خطابٌ للكفار، وهذا تهديد ووعيد، والويل يومئذٍ لكم(٤).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾.

كانوا يُصِرُّون على الإباء والاستكبار فسوف يقاسون البلاء العظيم.

[ذكر في التفسير: أن المتقين دائماً في ظلال الأشجار، وقصور الدرِّ مع الأبرار، وعيون جارية وأنهار، وألوانٍ من الفاكهة والثمار.. من كل ما يريدون من الملِك الجبَّار. ويقال لهم في الجنة: كلوا من ثمار الجنات، واشربوا شراباً سليماً من الآفات. ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الطاعات. ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ من الكرامات. قيل: كلوا واشربوا ﴿هَنِيٓـًٔۢا﴾: لا تبعة عليكم من جهة الخصومات، ولا أذيَّة في المأكولات والمشروبات.

وقيل: الهنيء الذي لا تَبِعَةَ فيه على صاحبه، ولا أَذِيَّةَ فيه من مكروهٍ لغيره(٥).

---

(١) الآيتان (٣٩، ٤٠) لم تردا.
(٢) الآية (٤٢) لم ترد.
(٣) الآية (٤٥) لم ترد.
(٤) الآية (٤٧) لم ترد.
(٥) الآيتان (٤٩، ٥٠) لم تردا.

سورة النبأ

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمُ مَلِكٍ تجمَّلَ عِبادُه بطاعته، وتَزَيَّنَ خَدَمُه بعبادته وهو سبحانه لا يتجمَّلُ بطاعة المطيعين، ولا يتزيَّنُ بخدمة العابدين؛ فزينة العابدين صُدار طاعتهم، وزينة العارفينَ حُلَّةُ معرفتهم، وزينة المحبِّين تاجُ ولايتهم.. وزينة المذنبين غَسْلُ وجوهِهم بصَوْبِ عَبْرَتِهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ٱلَّذِى هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾.

مختلفون بشدة إنكارهم أمرَ البعث، ولالتباسِ ذلك عليهم، وكثرةِ مُساءَلتهم عنه، وكثرة مراجعتهم إلى الرسول ﷺ في معناه.

تكرَّر من الله إنزالُ أمرِ البعث، وكم استدلَّ عليهم في حوازِه بوجوهٍ من الأمثلة.. فهذا من ذلك، يقول: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾: عن الخبر العظيم ﴿ٱلَّذِى هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾ قال الله تعالى على جهة الاحتجاج عليهم[1]:

﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدًا﴾.

ذَلَّلْناها لهم حتى سَكَنوها.

﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادًا﴾.

أوتاداً للأرضِ حتى تَميدَ بِهم.

﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجًا﴾.

ذَكَراً وأنثى، وحَسَناً وقبيحاً.. وغير ذلك.

﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتًا﴾.

أي راحةً لكم، لتَنْقَطِعوا عن حركاتِكم التي تعبتم بها في نهاركم.

﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا﴾.

تُغَطِّي ظُلْمتُه كلَّ شيءٍ فتسكنوا فيه.

---

(١) الآيتان (٤، ٥) لم تردا.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾.

أي وقتَ معاشِكم.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾.

أي سبع سموات.

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾.

أي الشمس، جعلناها سراجاً وقَّاداً مشتعلاً.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾.

﴿ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ الرياح التي تعْصِرُ السحاب.

﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾ مطراً صَبَّاباً.

﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾.

﴿حَبًّا﴾ كالحنطة والشعير، ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ بساتين يَلْتَفُّ بعضُها ببعض.

وإذا قد علمتم ذلك فهلّا علمتم أنّي قادرٌ على أَنْ أُعيدَ الخَلْقَ وأُقيمَ القيامة؟

فبعدَ أن عَدَّ عليهم بعضَ وجوهِ إنعامه، وتمكينهم من منافعهم.. قال:

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾.

مضى معناه.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾.

أي في ذلك اليوم تأتون زُمراً وجماعاتٍ.

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾.

أي: تَشَقَّقَتْ وانفطرت.

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾.

أي كالسراب.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾.

أي ممراً. ويقال: ذات ارتقابٍ لأهلها.

﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾.

أي مرجعاً.

﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾.

أي دهوراً، والمعنى مُؤَبَّدين.

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ .

مضى معناه. ثم يُعَذَّبون بعد ذلك بأنواعٍ أُخَرَ من العذاب.

﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ .

أي: جُوزُوا على فرق أعمالهم. ويقال: على وفق ما سَبَقَ به التقديرُ، وجرى به الحكم.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ .

لا يؤمنون فيرجعون الثواب ويخافون العقاب.

﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا﴾ .

أي: تكذيباً.

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا﴾ .

يأي: كتبناه كتاباً، وعلمناه عِلْماً.

والمسبِّحُ الزاهدُ يحصي تسبيحَه، والمهجورُ البائسُ يحصي أيامَ هجرانه، والذي هو صاحب وصالٍ لا يتفرَّغ من وَصْلِه إلى تذكُّرِ أيامه في العدد، أو الطول والقصر.

والملائكة يُحصون زلّات العاصين، ويكتبونها في صحائفهم. والحق سبحانه يقول:

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا﴾ فكما أحصى زَلَّاتِ العاصين وطاعات المطيعين فكذلك أَحْصَى أيامَ هجرانِ المهجورين وأَيَامَ مِحَنِ الممتحَنين، وإِنَّ لهم في ذلك لَسَلْوَةً ونَفَساً:

ثمانٍ قد مضينَ بلا تلاقٍ وما في الصبر فَضْلٌ عن ثمانِ

وكم من أقوامٍ جاوزت أيامُ فترتهم الحدَّ! وأَرْبَتْ أوقاتُ هجرانهم على الحَصْر!

قوله جلّ ذكره: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ .

يا أيها المُنَعَّمون في الجنة.. افرحوا وتمتعوا فلن نزيدكم إلا ثواباً.

أيها الكافرون.. احترقوا في النار.. ولن نزيدكم إلا عذاباً.

ويا أيها المطيعون.. افرحوا وارتعوا فلن نزيدكم إلا فَضْلاً على فَضْل.

يا أيها المساكين.. ابكوا واجزعوا فلن نزيدكم إلّا عَزْلاً على عَزْل.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا وَكَأْسًا دِهَاقًا لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ .

مُسَلَّمٌ للمتقين ما وعدناهم به.. فهنيئاً لهم ما أعددنا لهم من الفوزِ بالبُغْية

والظَّفَرِ بالسُّؤْلِ والمُنْيَة: من حدائق وأَعناب، ومن كواعبَ أَترابٍ وغير ذلك.

فيا أيها المُهَيَّمون المتيَّمون هنيئاً لكم ما أنتم فيه اليومَ في سبيل مولاكم من تجرُّدٍ وفقر، وما كلَّفكم به من توكل وصبر، وما تجرعتم من صَدٍّ وهجر.

أحرى الملابسِ ما تَلْقَى الحبيبَ به   يومَ التزاورِ في الثوب الذي خَلَعا

قوله: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ آذانُهم مصونةٌ عن سماع الأغيار، وأبصارهم محفوظةٌ عن ملاحظة الرسوم والآثار.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾.

وكيف تكون للمُكَوَّن المخلوقِ الفقيرِ المسكينِ مُكْنَةٌ أَنْ يملك منه خطاباً؟ أو يتنفَّسَ بدونه نَفَساً؟ كلّا.. بل هو اللّهُ الواحدُ الجبَّار.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾.

إنما تظهر الهيبةُ على العموم لأهل الجمع في ذلك اليوم، وأمَّا الخواص وأصحابُ الحضور فهُم أبداً بمشهدِ العِزِّ بنعت الهيبة، لا نَفَسَ لهم ولا راحة؛ أحاط بهم سرادُقها واستولت عليهم حقائقها.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾.

هم بمشهد الحقِّ، والحَكَمُ عليهم الحقُّ، حكم عليهم بالحق، وهم مجذوبون بالحقِّ للحقِّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾.

وهو عند أهلِ الغفلة بعيدٌ، ولكنَّه في التحقيق قريبٌ.

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾.

مضوا في ذُلِّ الاختيار والتعنِّي، وبُعِثوا في حسرة التمنِّي، ولو أنهم رضوا بالتقدير لتخلَّصوا عن التمنِّي.

سورة النازعات

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ عزيزٌ لربٍّ عزيز، سماعُه يحتاج إلى سَمْعٍ عزيز، وذِكْرُه يحتاج إلى وقتٍ عزيز، وفهمُه يحتاج إلى قلبٍ عزيز.

وأنّى لصاحبِ سَمْعٍ بالغيبة مُبْتَذَل، ووقتٍ مُعَطَّلٍ في الخسائسِ مُسْتَغْرق، وقلبٍ في الاشتغال بالأغيار مستعمل.. أنّى له أنْ يَصْلُح لسماع هذا الاسم؟!.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾.

أي الملائكة؛ تنزعُ أرواحَ الكفّارِ من أبدانهم.

﴿غَرۡقٗا﴾: أي إغراقاً كالمُغرِق في قَوْسِه.

ويقال: هي النجوم تنزع من مكانٍ إلى مكان.

﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾.

هي أنفس المؤمنين تَنْشَط للخروج عند الموت.

ويقال: هي الملائكة تنشِطُ أرواحَ الكفار، وتنزعها فيشتدُّ عليهم خروجُها.

ويقال: هي الوحوش تنشط من بلدٍ إلى بلدٍ.

ويقال: هي الأوهاق[1].

ويقال: هي النجوم تنشط من المشارق إلى المغارب ومن المغارب إلى المشارق.

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾.

الملائكة تسبح في نزولها.

ويقال: هي النجوم تسبح في أفلاكها.

ويقال: هي السفن في البحار.

ويقال: هي أرواح المؤمنين تخرج بسهولة لشوقها إلى الله.

﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾.

---

(١) الأوهاق: (ج) الوهق: الحبل المُغاريرُ من فيه أنشوطة فتؤخذ فيه الدابة والإنسان. (لسان العرب ١٠/ ٣٨٥ مادة: وهق).

الملائكة يسبقون إلى الخير والبركة، أو لأنها تسبق الشياطين عند نزول الوحي، أو لأنها تسبق بأرواح الكفار إلى النار.

ويقال: هي النجوم يسبق بعضها بعضاً في الأفول.

﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾.

الملائكة تنزل بالحرام والحلال.

ويقال: جبريل بالوحي، وميكائيل بالقَطْرِ والنبات، وإسرافيل بالصُّور، ومَلَكُ الموت يَقْبِضِ الأرواح.. عليهم السلام.

وجوابُ القَسم قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾.

قوله جلّ ذِكره: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾.

تتحركُ الأرضُ حركةً شديدة.

﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾.

النفخة الأولى في الصُّور. وقيل: الراجفة النفخة الأولى والرادفة النفخة الثانية.

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾.

خائفة.

﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾.

أي إلى أول أمرِنا وحالنا، يعني أئِذا متنا نبعث ونُرَدُّ إلى الدنيا (ونمشي على الأرض بأقدامنا)؟. قالوه على جهة الاستبعاد.

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾.

أي بالية.

﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾.

رَجْعَةٌ ذات خسران (ما دام المصيرُ إلى النار).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾.

جاء في التفسير إنها أرض المحشر، ويقال: إنها أرضٌ بيضاء لم يُعْصَ الله فيها.

ويقال: ﴿الساهرة﴾ نَفْخَةُ الصُّور تذهب بنومهم وتسهرهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾.

أي الأرض المطهرة المباركة. ﴿طُوًى﴾ اسم الوادي هناك.

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾.

قلنا له: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾، فقل له: هل يقع لك أَنْ تؤمِنَ وتتطهر من ذنوبك.

وفي التفسير: لو قُلْتَ لا إله إلا الله فَلَكَ مُلْكٌ لا يزول، وشبابكَ لا يهرم، وتعيش أربعمائة سنةٍ في السرورة والنعمة.. ثم لك الجنة في الآخرة.

﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾.

أُقَرِّرُ لك بالآيات صِحَّةَ ما أقول، وأعرفك صحة الدين.. فهل لك ذلك؟ فلم يَقْبَلْ.

ويقال: أظهر له كل هذا التلطُّفَ ولكنه في خَفِيِّ سِرِّه وواجبِ مَكْرِه به أنه صَرَفَ قلبَه عن إرادة هذه الأشياء، وإيثار مرادِه على مراد ربِّه، وألقى في قلبه الامتناعَ، وتَرْكَ قبولِ النُّصح.. وأيُّ قلبٍ يسمع هذا الخطاب فلا ينقطع لعذوبة هذا اللفظ؟ وأيُّ كَبِدٍ تعرف هذا فلا تَتَشَقَّقُ لصعوبة هذا المكر؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾.

جاء في التفسير: هي إخراجُ يده بيضاءَ لها شعاعٌ كشعاع الشمس. فقال فرعون: حتى أشاوِرَ هامانَ، فشاوَرَه، فقال له هامان: أبعد ما كُنتَ ربًّا تكون مربوباً؟! وبعد ما كنت مَلِكاً تكون مملوكاً؟

فكذَّبَ فرعونُ عند ذلك، وعَصَى، وجَمَعَ السَّحَرَة، ونادى[1]:

﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

ويقال: إنَّ إبليس لمَّا سَمِع هذا الخطابَ فرَّ وقال: لا أطيق هذا!

ويقال قال: أنا ادَّعَيْتُ الخيرية على آدم فلقيت ما لقيت.. وهذا يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾.

أي في إهلاكنا فرعون لَعِبْرَةً لمن يخشى.

قوله جلّ ذكره: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾.

﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ جعلها مستوية. ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أظلم ليلها. ﴿ضُحَىٰهَا﴾ ضوؤُها ونهارها. ﴿دَحَىٰهَآ﴾ بَسَطَها ومدَّها[3].

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾.

---

(١) الآيات من (٢١ ـ ٢٣) لم ترد.
(٢) الآية (٢٥) لم ترد.
(٣) الآية: (٣٠) لم ترد.

أخرج من الأرض العيون المتفجرة بالماء، وأخرج النبات..

﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾.

أثبتها أوتاداً للأرض.

﴿مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ﴾.

أي أخرجنا النبات ليكون لكم به استمتاع، وكذلك لأنعامِكم.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾.

الداهية العُظمى.. وهي القيامة.

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا سَعَىٰ﴾.

وبرزت الجحيم لمن يرى، فأمّا من طغى وكَفَرَ وآثر الحياة الدنيا فإنَّ الجحيمَ له المأوى والمُسْتَقَرُّ والمثوى[1].

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾.

﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾: وقوفه غداً في محل الحساب. ويقال: إقبالُ الله عليه وأنّه راءٍ له.. وهذا عينُ المراقبة، والآخر محلُّ المحاسبة.

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي لم يتابع هواه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾.

أي متى تقوم؟

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾.

مِنْ أين لك عِلْمُها ولم نعلمك ذلك.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾.

أي إنما يعلم ذلك ربُّكَ.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾.

أي تخوِّف، فيقبل تخويفَك مَنْ يخشاها ويؤمن.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾.

كأنهم يومَ يَرَوْن القيامة ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ فلشدة ما يرون تقل عندهم كثرةُ ما لبثوا تحت الأرض.

---

(١) الآيات من (٣٦ ـ ٣٩) لم ترد.

سورة عبس

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسم كريم بَسَطَ للمؤمنين بساطَ جوده، اسم عزيز انسدَّ على الأولين والآخرين طريقُ وُجُودِه.. وأنَّى بذلك ولا حَدَّ له؟ مَنْ الذي يدركه بالزمانِ والزمانُ خَلْقُه؟ ومن الذي يحسبه في المكانِ والمكانُ فِعْلُه؟ ومَنْ الذي يعرفه ـ إلَّا وبه يعرفه؟ ومَنْ الذي يَذْكُره ـ إلا وبه يذكره؟

قوله جلّ ذكره: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾.

نَزَلَت في ابن أمِّ مكتوم[1]، وكان ضريراً.. أتى النبيَّ ﷺ وكان عنده العباس بن عبد المطلب[2] وأمية بن خلف الجُمَحي[3] ـ يرجو الرسولُ ﷺ إيمانَهما، فَكَرِه أَنْ يَقْطَعَ حديثَه معهما، فأعرض عن ابن أمِّ مكتوم، وعَبَسَ وَجْهُه، فأنزل اللَّهُ هذه الآية.

وجاء في التفسير: أن النبيَّ ﷺ خرج على أثرِه، وأَمَرَ بطلبِه، وكان بعد ذلك يَبَرُّه ويُكْرِمُه، فاستخلفه على المدينة مرتين.

---

(١) هو عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم (... ـ ٢٣ هـ = ... ـ ٦٤٣ م) ابن أم مكتوم، صحابي شجاع كان ضرير البصر. أسلم بمكة، وهاجر إلى المدينة بعد وقعة بدر، وكان يؤذن لرسول الله ﷺ في المدينة، مع بلال، وكان النبي يستخلفه على المدينة، يصلي بالناس، في عامة غزواته وحضر حرب القادسية ومعه راية سوداء وعليه درع سابغة، فقاتل وهو أعمى ورجع بعدها إلى المدينة، فتوفي فيها قبيل وفاة عمر بن الخطاب.
الأعلام ٥/ ٨٣، وابن سعد ٤/ ١٥٣، وصفة الصفوة ١/ ٢٣٧.

(٢) هو العبّاس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف (٥١ ق هـ ـ ٣٢هـ = ٥٧٣ ـ ٦٥٣م) أبو الفضل، من أكابر قريش في الجاهلية والإسلام، وجدّ الخلفاء العباسيين، وهو عم النبي ﷺ كان محسناً لقومه، سديد الرأي، واسع العقل، مولعاً بإعتاق العبيد، كارهاً للرق، اشترى ٧٠ عبداً وأعتقهم، وكانت له سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، أسلم قبل الهجرة وكتم إسلامه وأقام بمكة يكتب إلى رسول الله ﷺ أخبار المشركين. ثم هاجر إلى المدينة، وشهد وقعة حنين، وشهد فتح مكة، وعمي في آخر عمره، كانت وفاته في المدينة، وله في كتب الحديث ٣٥ حديثاً.
الأعلام ٣/ ٢٦٢، ونكت الهميان ١٧٥، وصفة الصفوة ١/ ٢٠٣، وذيل المذيل ١٠.

(٣) انظر ترجمته في الأعلام ٢/ ٢٢، وسيرة ابن هشام ٢/ ٥٢، والكامل لابن الأثير ٢/ ٤٨ وعيون الأثر ١/ ٢٥٩.

وجاء في التفسير: أنه ﷺ لم يَعْبَسْ ـ بعد هذا ـ في وجهِ فقيرٍ قط، ولم يُعْرِضْ عنه.

ويقال: في الخطاب لُطْفٌ... وهو أنه لم يواجهه بل قالَه على الكنايَة، ثم بعده قال:

﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾.

أي يتذكر بما يتعلم منك أو.

﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾.

أمّا مَنْ استغنى عن نَفْسِه فإنه استغنى عن الله.

ويقال: استغنى بما له فأنت له تصدَّى، أي تُقْبِلُ عليه بوجهك.

﴿وَمَا عَلَيۡكَ﴾ فأنت لا تُؤَاخَذُ بألا يتزكّى هو فإنما عليكَ البلاغ.

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ﴾.

لطَلَبِ العِلْم، ويخشى الله فأنت عنه تَتَلَهّى، وتتشاغل... وهذا كله مِنْ قبيلِ العتاب معه لأَجلِ الفقراء(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾.

القرآن تذكرة؛ فَمَنْ شاء الله أن يَذْكُرَه ذَكَرَه، ومَنْ شاء الله ألا يَذْكُرَه لم يُذَكِّرْه؛ أي بذلك جرى القضاءُ، فلا يكون إلا ما شاء اللّهُ.

ويقال: الكلامُ على جهة التهديد؛ ومعناه: فَمَنْ أراد أن يذكره فليذكره، ومن شاء ألا يذكره فلا يذكره! كقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال سبحانه: ﴿ذَكَرَهُۥ﴾ ولم يقل «ذَكَرَها» لأنه أراد به القرآن.

قوله جلّ ذكره: ﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ﴾.

أي صحف إبراهيم وموسى وما قبل ذلك، وفي اللوح المحفوظ.

﴿مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ﴾.

مرفوعة في القَدْر والرتبة، مطهرة من التناقض والكذب.

﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ﴾.

أي: الملائكة الكَتَبَة.

---

(١) الآيتان (٩، ١٠) لم تردا.

﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾.

كرامٍ عند الله بَرَرَة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾.

لُعِنَ الإنسان ما أعظم كُفْره!.

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾.

خَلَقَه وصَوَّرَه وقَدَّره أطواراً: من نطفةٍ، ثم عَلَقَةٍ، ثم طوراً بعد طور.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾.

يَسَّرَ عليه السبيلَ في الخير والشرّ، وألهمه كيف التصرُّف.

ويقال: يَسَّرَ عليه الخروجَ من بطن أُمِّه يخرج أولاً رأسه منكوساً.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾.

أي: جعل له قَبْراً لئلا تفترِسَه السِّباعُ والطيورُ ولئلا يفتضح.

﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾.

بَعَثَه من قبره.

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾.

أي: عصى وخالَفَ ما أُمِرَ به.

ويقال: لم يقضِ الله له ما أمره به، ولو قضى عليه وله ما أمره به لَمَا عصاه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾.

في الإشارة: صَبَبْنا ماءَ الرحمةِ على القلوب القاسية فَلانَتْ للتوبة، وصببنا ماءَ التعريف على القلوب فنبتت فيها أزهارُ التوحيد وأنوارُ التجريد.

﴿وَقَضْبًا﴾ أي القَتّ[1].

﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ متكاثفةً غلاظاً.

﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾.

الفاكهة: جمع الفواكه، و ﴿وَأَبًّا﴾: المرعى.

﴿مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ...﴾.

---

(١) القَتّ: الفصفصة، وخص بعضهم به اليابسة منها، وقيل: الفسفسة، ويكون رطباً ويكون يابساً. (لسان ٢/ ٧١ مادة: قتت).

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ أي: القيامة؛ فيومئذٍ يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، ثم بيَّن ما سبب ذلك فقال[1].

﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

لا يتفرّغ إلى ذاك، ولا ذاك إلى هذه. كذلك قالوا: الاستقامةُ أَنْ تشهدَ الوقتَ قيامةً، فما من وليٍّ ولا عارفٍ إلّا وهو ـ اليومَ ـ بقلبه يَفِرُّ من أخيه وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه.

فالعارفُ مع الخَلْق ولكنه يُفَارقهم بقلبه ـ قالوا:

فلقد جعلتك في الفؤادِ مُحَدِّثي وأَبَحْتُ جسمي مَنْ أراد جلوسي

قوله جلّ ذكره: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾.

وسببُ استبشارهم مختلفٌ؛ فمنهم مَنْ استبشاره لوصوله إلى جنّته، ومنهم لوصوله إلى الحور العين من حظيته.. ومنهم ومنهم، وبعضهم لأنه نظر إلى ربِّه فرآه.

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾.

وهي غَبَرةُ الفُسّاق. ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾. وهي ذُلُّ الحجاب.

(١) الآيات من (٣٤ ـ ٣٦) لم ترد.

سورة التَّكْوِير

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ أَثْلَجَتْ من قوم قلوباً، وأوهجت من آخرين قلوباً؛ من المطيعين أَثْلَجَتْها، ومن العاصين أَوْهَجَتْها، ومَن المريدين أبهجتها، ومن العارفين أزعجتها.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾.

ذَهَبَ ضَوْؤُها.

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾.

تناثرت وسقطت عَلَى الأرض.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾.

أُزِيلَتْ عنها مناكبُها.

﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾.

وهي النُّوق الحواملُ التي أتى حَمْلُها عَشَرَةَ أشهر... أهملت في ذلك اليوم لشدة أهواله، (واشتغال الناس بأنفسهم عنها).

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾.

أُخْيِيَتْ، وجُمِعَتْ في القيامة لِيُقْتَصّ لبعضها من بعض؛ فيقتصّ للجّماء[1] من القَرْناء ـ وهذا على جهة ضَرْبِ المثل؛ إذ لا تكليف عليها.

ولا يبعد أن يكون بإيصال منافع إلى ما وصل إليه الألم ـ اليومَ ـ على العِوَضِ... جوازاً لا وجوباً على ما قالَه أهلُ البِدَع.

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾.

أُوقدت ـ مِنْ سَجَرْتُ التنور أَسْجُرُه سَجْراً، أي: أَحْمَيْتُه.

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾.

بالأزواج.

---

(١) شاة جمّاء: إذا لم تكن ذات قرن بيّنة الجمم. (اللسان ١٢/١٠٨ مادة: جمم).

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾.

نُشِرَتْ، أي: بُسِطَت.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾.

أي: نُزِعَتْ وطُوِيَتْ.

﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾.

أُوقِدَت.

﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾.

أي: قُرِّبَتْ من المتقين.

قوله جلّ ذكره: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾.

هو جوابٌ لهذه الأشياء، وهذه الأشياء تحصل عند قيام القيامة.

وفي قيام هذه الطائفة (يقصد الصوفية) عند استيلاء هذه الأحوال عليهم، وتجلّي هذه المعاني لقلوبهم توجد هذه الأشياء.

فمن اختلاف أحوالهم: أنّ لشموسهم في بعض الأحيان كسوفاً وذلك عندما يُرَدُّون.

ونجومُ علومِهم قد تنكدر لاستيلاء الهوى على المريدين في بعض الأحوال، فعند ذلك ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾.

أي: أُقْسِمُ، والخُنَّس والكُنَّس هي النجوم إذا غربت.

ويقال: البقر الوحشي.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾.

عسعس: أي جاءَ وأقبل. ﴿تَنَفَّسَ﴾: خرج من جوف الليلِ.

أقسم بهذه الأشياء، وجواب القسم:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾.

إن هذا القرآنَ لقولُ رسولٍ كريمٍ، يعني به جبريل عليه السلام.

﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾.

﴿مَكِينٍ﴾ من المكانة، وقد بلغ من قوته أنه قلع قرية آلِ لوطٍ وقلَبَها[1].

---

(١) الآية (٢١) لم ترد.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾.

وهذا أيضاً من جواب القَسَم.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾.

رأى محمدٌ جبريلَ عليه السلام بالأفق المبين ليلةَ المعراج.

ويقال: رأى ربَّه وكان ﷺ بالأفق المبين.

﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾.

بمُتَّهَم[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾.

إلى متى تتطوحون في أودية الظنون والحسبان؟

وإلى أين تذهبون عن شهود مواضع الحقيقة؟

وهلّا رجعتم إلى مولاكم فيما سرَّكم أو أساءكم؟

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾.

ما هذا القرآن إلّا ذكرى ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾... وقد مضى القولُ في الاستقامة.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

أنْ يشاؤوا.

---

(١) الآية (٢٥) لم ترد.

سورة الانفِطَار

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ منيعةٌ ليس يسمو إلى فَهمها كلُّ خاطر؛ فإذا كان الخاطِرُ غيرَ عاطرٍ فهو عن عِلْمِ حقيقتها مُتقاصِر.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾.

أي: انشقت.

﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾.

تساقطت وتهافتت.

﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ﴾.

أي: فُتِحَ بعضها على بعض.

﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾.

أي: قُلِبَ ترابُها، وبُعِثَ الموتى الذين فيها، وأُخْرِجَ ما فيها من كنوزٍ وموتى.

﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾.

جوابٌ لهذه الأمور؛ أي إذا كانت هذه الأشياء: عَلِمَتْ كلُّ نَفْس ما قدّمت من خيرها وشرِّها.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾.

أي: ما خَدعَكَ وما سَوَّلَ لكَ حتى عَمِلْتَ بمعاصيه؟

ويقال: سَأَلَه وكأنما في نَفْسِ السؤال لقَّنَه الجوابَ يقول: غرّني كَرَمُكَ بي، ولولا كَرَمُكَ لَمَا فَعَلْتُ؛ لأنَّك رأيتَ فَسَتَرْتَ، وقدَرْتَ فأَمْهَلْتَ.

ويقال: إن المؤمِنَ وثِقَ بِحُسْن إفضالِه فاغترَّ بطولِ إمهالِهِ فلم يرتكبْ الزلَّة لاستحلاله، ولكنّ طولَ حِلمه عنه حَمَله على سوء خصالِه، وكما قلت:

يقول مولاي: أمَا تستحي ... مما أرى من سوء أفعالِكَ
قلت: يا مولاي رفقاً فقد ... جَرَّأني كثرةُ أفضالِك

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾.

أي: ركّبَ أعضاءَك على الوجوه الحكميّة ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ﴾، من الحُسْنِ والقُبْح، والطولِ والقِصَر. ويصح أن تكون الصورة هنا بمعنى الصِّفَة، و «في» بمعنى «على»؛ فيكون معناه: على أي صفة شاء ركَّبَكَ؛ من السعادة أو الشقاوة، والإيمان أو المعصية. . .

قوله جلّ ذكره: ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾.

أي: القيامة.

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾.

هم الملائكة الذين يكتبون الأعمال. وقد خوّفهم برؤية الملائكة وكتابتهم الأعمال لتقاصر حشمتهم من اطِّلاع الحق، ولو علموا ذلك حقَّ العلم لَكانَ تَوقيهم عن المخالفاتِ لرؤيته ـ سبحانه، واستحياؤهم من اطلّاعه ـ أتَمّ من رُؤية الملائكة.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾.

﴿ٱلۡأَبۡرَارَ﴾: هم المؤمنون؛ اليومَ في نعمة العصمة، وغداً هم في الكرامة والنعمة ﴿ٱلۡفُجَّارَ﴾: اليومَ في جهنم باستحقاق اللعنة والإصرار على الشِّرْكِ الموجِبِ للفُرقة، وغداً في النارِ على وجه التخليد والتأبيد.

ويقال: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ﴾. في رَوْحِ الذِّكْر، وفي الأُنْسِ في أوان خَلْوَتهم.

﴿وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾. في ضيق قلوبهم وتَسَخُّطِهم على التقدير، وفي ظُلُمات تدبيرهم، وضيق اختيارهم.

﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ﴾.

﴿يَصۡلَوۡنَهَا﴾ أي النار. ﴿يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾. يوم القيامة.

﴿وَمَا هُمۡ عَنۡهَا﴾ عن النار. ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ قالها على جهة التهويل[1].

﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾.

الأمر لله يومئذٍ، ولله من قبله ومن بعده، ولكن ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ تنقطع الدعاوَى، إذ يتضح الأمرُ وتصير المعارفُ ضرورية.

---

(١) الآية (١٨) لم ترد.

سورة المُطَفِّفِين

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ عزيزٌ رداؤه كبرياؤه، وسناؤه علاؤه، وعلاؤه بهاؤه، وجلالُه جمالُه، وجمالُه جلالُه. الوجودُ له غيرُ مُسْتَفْتَح، والموجودُ منه غيرُ مُسْتَقْبَح. المعهودُ منه لُطْفُه، المأمولُ منه لُطْفه... كيفما قَسَمَ للعبدِ فالعبدُ عَبْدُه؛ إنْ أقصاه فالحُكمُ حكمه، وإنْ أدناه فالأمر أمرُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.

﴿وَيْلٌ﴾: الويلُ كلمةٌ تُذْكَر عند وقوع البلاء، فيقال: ويلٌ لك، وويلٌ عليك! و «المطفّف»، الذي يُنقِصُ الكيْلَ والوزنَ، وأراد بهذا الذين يعامِلون الناس فإذا أخذوا لأنفسهم استوفوا، وإذا دفعوا إلى من يعاملهم نقصوا، ويتجلّى ذلك في: الوزن والكيْلِ، وفي إظهار العيب، وفي القضاء والأداء والاقتضاء؛ فَمَنْ لم يَرْضَ لأخيه المسلم ما لا يرضاه لنفسه فليس بمنصف. وأمّا الصِّدِّيقون فإنهم كما ينظرون للمسلمين فإنهم ينظرون لكلِّ مَنْ لهم معهم معاملة ـ والصدقُ عزيزٌ، وكذلك أحوالهم في الصُّحْبَةِ والمعاشرة... فالذي يرى عَيْبَ الناسِ ولا يرى عيبَ نَفْسِه فهو من هذه الجملة ـ جملة المطففين ـ كما قيل:

وتُبْصِرُ في العينِ منّي القَذَى[1] وفي عينِكَ الجِذْعَ لا تُبْصِرُ

ومَنْ اقتضى حقَّ نَفْسه ـ دون أن يَقْضِيَ حقوق غيره مثلما يقتضيها لنفسه ـ فهو من جملة المطففين.

والفتى مَنْ يقضي حقوق الناس ولا يقتضي من أحدٍ لنفسه حقًّا.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ؟ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: ألا يستيقن هؤلاء أنهم مُحَاسَبون غداً، وأنهم مُطَالَبون بحقوق الناس؟.

ويقال: مَنْ لم يَذْكُرْ ـ في حال معاملةِ الناسِ ـ معاينة القيامة ومحاسبتها فهو في خسرانٍ في معاملته.

(١) القذى: ما يتكوّن في العين من رمص وغمص وغيرهما.

ويقال: مَنْ كان صاحبَ مراقبة لله ربِّ العالَمين استشعر الهيبةَ في عاجلِهِ، كما يكون حالُ الناسِ في المحشر؛ لأنَّ اطلاعَ الحقِّ اليومَ كاطلاعه غداً.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ؟ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾.

﴿سِجِّينٍ﴾ قيل: هي الأرض السابعة، وهي الأرض السفلى، يُوضَع كتابُ أعمالِ الكفار هنالك إذلالاً لهم وإهانة، ثم تُحْمَلُ أرواحُهم إلى ما هنالك.

ويقال: «السِّجين» جُبٌّ في جهنم. وقيل: صخرةٌ في الأرض السفلى، وفي اللغة السِّجين: فعيلٌ من السجن.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾. استفهامٌ على جهة التهويل.

﴿كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾. أي مكتوب؛ كَتَبَ اللّهُ فيه ما هم عاملون، وما هم إليه صائرون. وإنما المكتوبُ على بني آدم في الخير والشر، والشقاوة والسعادة فهو على ما تعلّق به علمه وإرادته، وإنما أخبر على الوجه الذي علم أن يكون أو لا يكون، وكما علم أنه يكون أو لا يكون أراد أن يكون أو لا يكون. ثم إنه سبحانه لم يُطْلِعْ أحداً على أسرار خَلْقِهِ إلّا مَنْ شاءَ من المقربين بالقَدْرِ الذي أراده؛ فإنه يُجْرِي عليهم في دائم أوقاتهم ما سَبَقَ لهم به التقدير.

ثم قال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾.

ويلٌ للذين لا يُصَدِّقون بيوم الدين، وما يُكذِّبُ به إلا كل مُجَاوِزٍ للحَدِّ الذي وُضِعَ له؛ إذا يُتْلَى عليه القرآن كَفَرَ به[1].

﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾.

أي: غَطَّى على قلوبهم ما كانوا يكسبون من المعاصي... وكما أنهم ـ اليومَ ـ ممنوعون عن معرفته فهم غداً ممنوعون عن رؤيته. ودليلُ الخطابِ يوجِبُ أن يكونَ المؤمنون يَرَوْنَه غداً كما يعرفونه اليوم[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾.

﴿عِلِّيِّينَ﴾ أعلى الأمكنة، تحمل إليه أرواح الأبرار تشريفاً لهم وإجلالاً.

ويقال: إنها سِدْرة المنتهى[3]. ويقال: فوق السماء السابعة. كتابٌ مرقوم فيه أعمالهم مكتوبة يشهده المقربون من الملائكة[4].

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾.

---

(١) الآية (١٣) لم ترد.
(٢) الآيتان (١٦، ١٧) لم تردا.
(٣) سدرة المنتهى: شجرة في الجنة.
(٤) الآيات (١٩، ٢٠، ٢١) لم ترد.

اليومَ وغداً: ٱليومَ في رَوْح العرفان، وراحةِ الطاعة والإحسان، ونعمةِ الرضا وأُنسِ القُربة وبَسْطِ الوصلة. وغداً ـ في الجنة وما وُعِدوا به من فنون الزلفة والقربة.

قوله جلّ ذكره: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾.

أثبَتَ النظرَ ولم يُبَيِّنْ المنظور إليه لاختلافهم في أحوالهم؛ فمنهم من ينظر إلى قُصُوره. ومنهم من ينظر إلى حُورِه، ومنهم ومنهم. . . ومنهم الخواصُّ فهم على دوامِ الأوقات إلى الله ـ سبحانه ـ يَنظُرون.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾.

مَنْ نظر إليهم عَلِمَ أنَّ أثَرَ نَظَرِه إلى مولاه ما يلوح على وجه من النعيم؛ فأحوال المحبِّ شهودٌ عليه أبداً. فإنْ كان الوقتُ وقتَ وصالٍ فاختيالُه ودلالُه، وسرورُه وحبورُه، ونشاطُه وانبساطُه. وإنْ كان الوقتُ وقتَ غيبةٍ وفراق فالشهودُ عليه نحولُه وذبولُه، وحنينُه وأنينُه، ودموعُه وهجوعُه. . . وفي معناه قلت:

يا مَنْ تَغَيُّرُ صورتي لَمَّا بدا ـ لجميع ما ظنوا بنا ـ تحقيقُ

وقلت:

ولمَّا أتى الواشين أنّي زُرْتُها جَحَدْتُ حذاراً أنْ تَشِيعَ السرائرُ
فقالوا: نرى في وجهِك اليومَ نضرةً كَسَتْ مُحيَّاك[1] . . وهاذاك ظاهِرُ!
وبُرْدُكَ لا ذاكَ الذي كان قبلَه به طِيبُ نَشْرٍ لم تُشِعْهُ المجامِرُ
فما كان منّي من بيانٍ أُقيمه وهيهات أن يخفي مُريبٌ مساتِرُ!

قوله جلّ ذكره: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾.

﴿مَّخْتُومٍ﴾ أي رحيقٌ لا غِشَّ فيه.

ويقال: عتيقٌ طَيِّبٌ.

ويقال: إنهم يشربون شراباً آخره مِسْكٌ.

ويقال: بل هو مختومٌ قبل حضورهم.

ويقال: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾. ممنوعٌ من كلِّ أحدٍ، مُعَدٌّ مُدَّخَرٌ لكلِّ أحدٍ باسمه.

﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾. وتنافُسُهم فيه بالمبادرة إلى الأعمال الصالحة، والسباقُ إلى القُرْب، وتعْليقُ القلبِ بالله، والانسلاخُ عن الأخلاقِ الدَّنِيَّة، وجَوَلانُ الهِمَمِ في الملكوت، واستدامةُ المناجاة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾.

---

(١) المُحَيا: جماعة الوجه أو حُرُّه، يقال: فلان طلق المحيا؛ أي: بشوش الوجه.

﴿تَسْنِيمٍ﴾: أي: عينٌ تسنَّمُ عليهم من عُلُوّ.

وقيل: ميزابٌ يَنْصَبُّ عليهم من فوقهم.

ويقال: سُمِّي تسنيماً؛ لأن ماءَه يجري في الهواء مُتَسَنِّماً فينصبُّ في أواني أهل الجنة؛ فمنهم مَنْ يُسْقَى مَزْجاً، ومنهم مَنْ يُسْقى صِرْفاً... الأولياء يُسْقَون مزجاً، والخواصُ يُسْقَون صِرْفاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾.

كانوا[1] يضحكون استهزاءً بهم ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾!

﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

﴿هَلْ...﴾ استفهام يراد منه التقرير.

ويقال: إذا رأوا أهلَ النارَ في النار يُعذَّبون لا تأخذهم بهم رأفة، ولا تَرِقُّ لهم قلوبُهم، بل يضحكون ويستهزئون ويُعَيِّرونهم.

---

(١) الآيات (٣١ ـ ٣٣) لم ترد.

سورة الانشقاق

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمٌ جليلٌ جلاله لا بالأشكال، وجماله لا على احتذاء أمثال، وأفعالُه لا بأغراضٍ وأعلال، وقدرته لا باجتلابٍ ولا احتيال، وعلمه لا بضرورة ولا استدلال، فهو الذي لم يزل ولا يزال، ولا يجوز عليه فناءٌ ولا زوال.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾.

﴿انشَقَّتْ﴾: انصدعت.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾.

أي قابَلَتْ أمرَ ربِّها بالسمع والطاعة... وحقَّ لها أن تفعل ذلك.

﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾.

بُسِطَتْ باندكاكِ آكامها وجبالِها حتى صارت ملساء، وألقت ما فيها من الموتى والكنوز وتخلّت عنها... وقابلت أمر ربها بالسمع والطاعة[1].

وجواب هذه الأشياء في قوله: ﴿فَمُلَاقِيهِ﴾ أي يَلْقَى الإنسانُ ما يستحقه على أعماله.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ﴾: يأيها المُكلَّفُ... إنك ساعٍ بما لَكَ سَعْياً ستلقى جزاءَه؛ بالخير خيراً وبالشَّرِّ شرًا.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾.

وهو المؤمن المحسن.

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾

أي حساباً لا مَشَقَّة فيه. ويقال: ﴿حِسَابًا يَسِيرًا﴾ أي يُسْمِعُه كلامَه ـ سبحانه ـ بلا واسطة، فيُخَفِّفُ سماعُ خطابِه ما في الحساب من عناءٍ.

ويقال: ﴿حِسَابًا يَسِيرًا﴾: لا يُذَكِّرُه ذنوبَه. ويقال: يقول: ألم أفعل كذا؟ وألم أفعل كذا؟ يعُدُّ عليه إحسانَه... ولا يقول: ألم تفعل كذا؟ لا يُذَكِّرُه عصيانَه.

---

(١) الآيتان (٤، ٥) لم تردا..

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ .

أي بالنجاة والدرجات، وما وَجَدَ من المناجاة، وقبول الطاعات، وغفران الزّلّات.

ويقال: بأن يُشفِّعَه فيمن يتعلّق به قلبُه. ويقال: بألا يفضحه.

ويقال: بأن يَلْقى ربّه ويُكَلِّمَه قبل أَنْ يُدْخِلَه الجنة فيَلْقى حَظِيّتَه من الحورِ العين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ .

وهو الكافر.

﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا﴾ .

أي وَيْلاً.

﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ .

جهنم.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ .

من البَطَرِ والمدح.

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ .

أنه لن يرجعَ إلينا، ولن يُبْعَثَ(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ .

بالحُمْرَةِ التي تعقب غروبَ الشمس.

﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ .

وما جَمَعَ وضمّ.

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ .

تَمّ واستوى واجتمع.

ويقال: الشَّفَقُ حين غربت شمسُ وصالهم، وأُذيقوا الفراقَ في بعض أحوالهم، وذلك زمانُ قبضٍ بعد بَسْطٍ، وأوانُ فَرْقٍ عُقَيْبَ جَمْعٍ(٢). ﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾: ليالي غيبتهم وهم بوصف الاستياقِ؛ أو ليالي وصالهم وهم في روح التلاقي، أو ليالي طَلَبِهم وهم بنعتِ القَلَبِ والاحتراقِ.

---

(١) الآية (١٥) لم ترد.

(٢) انظر حديث القشيري (عن الجمع والفرق) في رسالته ص٦٤ ـ ٦٧.

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾: إذا ظَهَرَ سلطانُ العرفان على القلوب فلا بَخْسَ ولا نُقْصان.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾.

أي حالاً بعد حال. وقيل: من أطباق السماء. ويقال: شِدَّةً بعد شدَّة.

ويقال: تاراتُ الإنسانِ طفلاً ثم شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً.

ويقال: طالباً ثم واصلاً ثم مُتَّصِلاً.

ويقال: حالاً بعد حالٍ، من الفقر والغِنَى، والصحة والسَقَم.

ويقال: حالاً بعد حالٍ في الآخرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ؟﴾.

أي فما الكُفَّارِ أُمَّتِكَ لا يُصَدِّقون... وقد ظهرت البراهين؟

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾.

﴿يُوعُونَ﴾ أي تنطوي عليه قلوبُهم ـ من أَوْعَيْتُ المتاعَ في الظَّرْفِ أي جعلته فيه.

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ فإنهم ليسوا منهم، ولهم أجرٌ غيرُ مقطوع.

سورة البُرُوج

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمُ مَنْ لا عقل يَكْتَنِهُه، اسمُ مَنْ لا مِثْلَ يُشْبِهُه، اسمُ من لا فَهْمَ[1] يرتقي إليه بالتصوير، اسمُ مَنْ لا علمَ ينتهي إليه بالتقدير، اسمُ مَنْ لم يَرَه بَصَرٌ إلّا واحدٌ ـ وهو أيضاً مُخْتَلَفٌ فيه، اسمُ مَنْ لا يَجْسُرُ أحدٌ أنْ يتكلَّمَ بغير ما إِذْنٍ فيه، اسمُ مَنْ لا قُطْرَ يحويه، ولا سِرَّ يُخفيه، ولا أحدَ يصل إلى معرفته إلّا مَنْ يرتضيه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾.

أراد البروج الاثني عشر[2].

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾.

يوم القيامة.

وجوابُ القَسَمِ قوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾.

يقال: الشاهدُ اللّهُ، والمشهودُ الخَلْقُ.

ويقال: الشاهدُ الخَلْقُ، والمشهودُ اللّهُ؛ يشهدونه اليومَ بقلوبهم، وغداً بأبصارهم.

ويقال: الشاهدُ محمدٌ ﷺ، والمشهودُ القيامة، قال تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، وقال في القيامة: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

وقيل: الشاهد يومُ الجمعة، والمشهود يومُ عَرَفة[3].

---

(١) ربما كانت: لا وهم أو لا خيال. فمن أقوال ذي النون المصري: وليس في السموات العلا ولا في الأرضين السفلى مدبر غير الله، وكل ما تصوّر في خيالك فالله بخلاف ذلك. (الرسالة القشيرية ص٤٣).

(٢) قيل: ذات الكواكب؛ وقيل: ذات القصور في السماء، وقيل: هي النجوم، وقالوا: هي البروج المعروفة اثنا عشر برجاً، وقالوا: هي القصور في السماء، والله أعلم بما أراد. (اللسان ٢/ ٢١٢ مادة: برج).

(٣) يوم عرفة: عرفة: جبل قرب مكة يقف عليه الحجاج يوم التاسع من ذي الحجة ويوم عرفة غير منون ولا تدخله الألف واللام.

ويقال: الشاهدُ المَلَكُ الذي يكتب العمل، والشاهدُ الإنسانُ يشهد على نفسه، وأعضاؤه تشهد عليه؛ فهو شاهد وهو مشهود.

ويقال: الشاهدُ يومُ القيامة، والمشهودُ الناس.

ويقال: المشهودُ هم الأمة لأنه ﷺ يشهد لهم وعليهم.

ويقال: الشاهدُ هذه الأمة، والمشهودُ سائر الأمم.

ويقال: الشاهدُ الحجرُ الأسود(١) لأنَّ فيه كتابَ العهد.

ويقال: الشاهدُ جميعُ الخَلْق؛ يشهدون لله بالوحدانية، والمشهود الله.

ويقال: الشاهدُ الله؛ شهد لنفسه بالوحدانية، والمشهودُ هو لأنه شهد لنفسه.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾.

أي لُعِنوا. والأخدودُ: الحُفرةُ في الأرض إذا كانت مستطيلةً، وقصتهم في التفسير معلومة و «الوقود» الحطب.

وهم أقوامٌ كتموا إيمانَهم فلمَّا عَلِمَ مَلِكُهم بذلك أضرم عليهم ناراً عظيمة، وألقاهم فيها. وآخِرُ مَنْ دَخَلَها امرأةٌ كان معها رضيعٌ، وهَمَّت أن ترجع، فقال لها الولد: قِفي واصبري . . . فأنت على الحقِّ.

وألقوها في النار، واقتحمتها، وبينا كان أصحابُ الملك قعوداً حوله يشهدون ما يحدث ارتفعت النارُ من الأخدود وأحرقتهم جميعاً، ونجا من كان في النار من المؤمنين وسَلِموا(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

ما غَضبوا منهم إلَّا لإيمانهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾.

أي أحرقوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا عن كفرهم ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾: نوعٌ من العذاب، ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾: نوع آخر.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

---

(١) الحجر الأسود: حجر في الكعبة يستلمه الحُجّاج عند طوافهم. يُقال: ما بيدك غير الحجر ويُكنى به عن الحرمان والخيبة.

(٢) الآيتان (٦، ٧) لم تردا.

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ﴾: النجاة العظيمة.

﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾.

البَطْشُ الأخذ بالشدة.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ﴾.

يُبدىءُ الخَلْق ثم يُعيدُهم بعد البعث.

ويقال: يبدىء بالعذاب ثم يُعيد، وبالثواب ثم يُعيد.

ويقال: يبدىء على حُكْم العداوة والشقاوة ثم يعيد عليه، ويبدىء على الضعف ويعيدهم إلى الضعف.

ويقال: يبدي الأحوال السَّنيَّة فإذا وقعت حجبة يعيد ثانية.

ويقال: يبدي بالخذلان أموراً قبيحة ثم يتوب عليه، فإذا نَقَضَ توبتَه فلأنه أعاد له من مقتضى الخذلان ما أجراه في أول حاله.

ويقال: يبدي لطائفَ تعريفه ثم يعيد لتبقى تلك الأنوار أبداً لائحةً، فلا يزال يبدي ويعيد إلى آخر العمر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ﴾.

«الغفور» كثيرُ المغفرة، «الودود» مبالغة من الوَادّ، ويكون بمعنى المودود؛ فهو يغفر له كثيراً لأنه يَوَدُّهم، ويغفرُ لهم كثيراً لأنهم يودُّونه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ﴾.

ذو المُلْكِ الرفيع، والمَجْد الشريف.

﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

لأنه مالِكٌ على الإطلاق؛ فلا حَجْر عليه ولا حَظْرَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ﴾.

الجموع من الكفار.

﴿فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ﴾.

وقد تقدم ذكر شأنهما.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني مُشركي مكة؛ ﴿فِي تَكۡذِيبٖ﴾ للبعث والنشر.

﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾.

عالمٌ بهم.

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾.

﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ مكتوبٍ فيه. وجاء في التفسير: أنَّ اللوحَ المحفوظ خُلِقَ من دُرَّةٍ بيضاء، دِفَّتَاه[1] من ياقوتة حمراء عَرْضُها بين السماء والأرض، وأعلاه متعلِّقٌ بالعرش، وأسفله في حِجْرِ مَلَكٍ كريم.

والقرآن كما هو محفوظ في اللوح كذلك محفوظ في قلوب المؤمنين، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩] فهو في اللوح مكتوبٌ، وفي القلوبِ محفوظٌ.

---

(١) الدفة من كل شيء: جنبه أو صفحته.

سورة الطارِق

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمٌ عزيزٌ إذا أراد إعزازَ عبدٍ وَفَّقه لعرفانه، ثم زيَّنَه بإحسانه، ثم استخلصه بامتنانه؛ فعَصَمَه من عِصيانه، وقام بحسن التولّي - في جميع أحواله - بشأنِه، ثم قَبَضَه على إيمانه، ثم بَوَّأَه في جنانه، وأكرمه برضوانه، ثم أكمل عليه نِعْمتَه برؤيته وعيانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾.

أقسم بالسماءِ، وبالنجمِ الذي يَطْرُق ليلاً.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾.

استفهامٌ يراد منه تفخيم شأن هذا النجم.

﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾.

المضيءُ العالي. وقيل: الذي ترمى به الشياطين.

ويقال: هي نجوم المعرفة التي تدل على التوحيد يستضيءُ بنورها ويهتدي بها أولو البصائر.

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾.

ما مِنْ نَفْسٍ إلا عليها حافِظٌ من الملائكة، يحفظ عليه عملَه ورزقَه وأجلَه، ويحمله على دوامِ التيقُّظ وجميلِ التحفُّظ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾.

يخرج من صُلْبِ الأب، وتربيةِ الأم.

وهو بذلك يحثُّه على النَّظَرِ والاستدلال حتى يعرف كمال قدرته وعلمه وإرادته - سبحانه.

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾.

إنه على بَعْثِه، وخَلْقِه مرةً أخرى لقادِرٌ؛ لأنه قادر على الكمال - والقدرةُ على الشيءِ تقتضي القدرةَ على مِثْلِه، والإعادَة في معنى الابتداء.

﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾.

يوم تُمتَحنُ الضمائر.

﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾.

أي ما لهذا الإنسان ـ يومئذٍ ـ من مُعينٍ يدفع عنه حُكْمَ الله.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾.

أي المطر.

﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾.

«الصدع»: الانشقاقُ بالنباتِ للزرع والشجر.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾.

أي: إن القرآن لقولٌ جَزْمٌ.

﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾.

الهزل ضد الجِدّ، فليس القرآنُ بباطلٍ ولا لَعِب.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا﴾.

أي يحتالون حيلةً.

﴿وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾.

هم يحتالون حيلةً، ونحن نُحكِمُ فِعْلاً ونُبْرِمُ خَلْقاً، ونجازيهم على كيدهم، بما نعاملهم به من الاستدراج والإمهال.

﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾.

أي أَنظِرهم، وأمهِلهم قليلاً، وأزوِدْهم رويداً.

سورة الأعلى

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمٌ عزيزٌ مَنْ قَصَدَه وَجَدَه، ومَنْ استسعفه حَمِدَه. مَنْ طَلَبَهَ عَرَفَه، ومَنْ عَرَفَه لاطَفَه، فإذا وَجَدَ لُطْفَه أَلِفَه، وإذا أَلِفَه أَنِف أنْ يخَالِفه.

قوله جلّ ذكره: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾.

أي سَبِّحْ ربَّك بمعرفة أسمائه، واسبح بسِرِّك في بحار علائه، واستخرِجْ من جواهر عُلوِّه وسنائه ما ترصِّعُ به عِقْدَ مَدْحِه وثنائه.

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾.

خَلق كلَّ ذي روحٍ فسوَّى أجزاءَه، ورَكَّبَ أعضاءَه على ما خَصّه به من النظم العجيب والتركيب البديع.

﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾.

أي قدَّر ما خَلَقَه، فجَعَلَه على مقدار ما أراده، وهدى كلَّ حيوانٍ إلى ما فيه رشده من المنافع، فيأخذ ما يُصْلِحه ويترك ما يضره ـ بحُكم الإلهام.

ويقال: هَدَى قلوبَ الغافلين إلى طلب الدنيا فعمروها، وهدى قلوبَ العابدين إلى طلب العقبى فآثروها، وهدى قلوبَ الزاهدين إلى فناء الدنيا فرفضوها، وهدى قلوبَ العلماءِ إلى النظر في آياته والاستدلال بمصنوعاته فعرفوا تلك الآيات ولازموها.

وهدى قلوبَ المريدين إلى عِزِّ وَصْفِه فآثروه، واستفرغوا جُهْدَهم فطلبوه، وهدى العارفين إلى قُدْس نعتِه فراقبوه ثم شاهدوه، وهدى الموحِّدين إلى علاء سلطانه في توحد كبريائه فتركوا ما سواه وهجروه، وخرجوا عن كلِّ مألوفٍ لهم ومعهود حتى قصدوه. فلمّا ارتقوا عن حدِّ البرهان ثم عن حدِّ البيان ثم عمّا كالعيان عَلِموا أنَّه عزيزٌ، وأنَّه وراءَ كلِّ فَصْلٍ ووَصْلٍ، فرجعوا إلى موطنِ العَجْزِ فتوسَّدوه.

﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ﴾.

أي النبات.

﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ﴾.

جعله هشيماً[١] كالغثاء، وهو الذي يقذفه السيل. و «أحوى» أسود.

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾.

سنجمع القرآن في قلبك ـ يا محمد ـ حِفْظاً حتى لا تنسى لأنا نحفظه عليك.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾.

مما لا يدخل تحت التكليف فتنساه قبل التبليغ ولم يجب عليه أداؤه.

وهو ـ سبحانه ـ يعلم السِّرَّ والعَلَن[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾.

والذِّكرى تنفع لا محالة، ولكنْ لِمَنْ وَفَّقَه اللَّهُ للاتعاظِ بها، أمّا مَنْ كان المعلومُ من حاله الكفرَ والإعراضَ فهو كما قيل:

وما انتافعُ أخي الدنيا بِمُقْلَتِهِ ... إذا استوَتْ عنده الأنوارُ والظُّلَمُ

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾.

الذي يخشى الله ويخشى عقوبته.

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾.

أي يتجنّبُ الذِّكرَ الأشقى الذي يَصْلَى النارَ الكبرى، ثم لا يموت فيها موتاً يريحه، ولا يحيا حياةً تَلَذُّ له.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾.

مَنْ تَطَهَّرَ من الذنوبِ والعيوبِ، ومشاهدة الخَلْقِ وأدَّى الزكاة ـ وَجَدَ النجاة، والظَّفَرَ بالبُغْيَة، والفَوزَ بالطِّلبة.

﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾.

ذَكَرَ اسمَ ربِّه في صلاته. ويقال: ذَكَره بالوحدانية وصَلَّى له.

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾.

تميلون إليها؛ فتُقَدِّمون حظوظكم منها على حقوق الله تعالى.

﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

والآخرة للمؤمنين خيرٌ وأبقَى ـ من الدنيا ـ لطُلّابها.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾.

إن هذا الوعظَ لفي الصحف المتقدمة، وكذلك في صحف إبراهيم وموسى وغيرهما؛ لأنَّ التوحيدَ، والوعدَ والوعيدَ... لا تختلف باختلاف الشرائع.

---

(١) الهشيم: النبت اليابس المتكسر. أو المتكسر من كل شيء.

(٢) الآية (٨) لم ترد.

سورة الغَاشِيَة

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ من سمعها وفي قلبه عرفانُه تلألأت أنوارُ قلبه، وتَفَرَّقَتْ أنواعُ كُرَبِه، وتضاعَفَتْ في جماله طوارقُ حُبِّه، وتحيَّرت في جلالهِ شوارقُ لُبِّه.

كلمةٌ مَنْ عَرَفَها ـ وفي قلبه إيمانُه ـ أَحَبَّها من داخل الفؤاد، وهَجَرَ ـ في طَلَبِها ـ الرُّقاد، وتَرَكَ ـ لأجْلِها ـ كلَّ همٍّ ومراد.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾.

«الغاشية» المُجَلِّلَةُ، يريد بها القيامة تَغْشَى الخَلْقَ، تَغْشَى وجوهَ الكفَّار.

﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ﴾.

وجوهٌ ـ إذا جاءت القيامة ـ خاشعة أي ذليلة. عاملة ناصبة: النَّصَب التعب.

جاء في التفسير: أنهم يُجَرُّون على وجوههم.

﴿تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ﴾ تلزم ناراً شديدة الحرِّ.

ويقال: «عاملة» في الدنيا بالمعاصي، «ناصبة» في الآخرة بالعذاب.

ويقال: «ناصبة» في الدنيا «عاملة» لكن من غير إخلاص كعمل الرهبان، وفي معناه عملُ أهل النفاق.

﴿تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ﴾.

تناهى حَرُّها.

﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ﴾.

نَبْتٌ ينمو بالحجاز له شَوْكٌ، وهو سمٌّ لا تأكله الدواب، فإذا أكلوا ذلك في النار يُغَصُّون، فَيُسْقَوْنَ الزقُّوم.

وإن اتصافَ الأبدانِ ـ اليومَ ـ بصورة الطاعات مع فَقْدِ الأرواح وجدانَ المكاشفات (وفقدِ)[1] الأسرارِ أنوارَ المشاهدات، (وفقدِ) القلبِ الإخلاصَ

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

والصدق في الاعتقادات لا يجدي خيراً، ولا ينفع شيئاً ـ وإنما هي كما قال: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾.

أي: مُتَنَعِّمة، ذات نعمةٍ ونضارةٍ.

﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾.

حين وَجَدَتْ الثوابَ على سعيها، والقبول لها.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾.

عالية في درجتها ومنزلتها وشرفها. هم بأبدانهم في درجاتهم، ولكن بأرواحهم مع الله في عزيز مناجاتهم.

﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾.

لأنهم يسمعون بالله؛ فليس فيها كلمةُ لغوٍ.

قومٌ يسمعون بالله، وقومٌ يسمعون لله، وقومٌ يسمعون من الله، وفي الخبر: «كنت له سمعاً وبصراً فبي يَسْمَعُ وبي يُبْصِرُ»(١).

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾.

أراد عيوناً؛ لأن العين اسم جنس، والعيون الجارية هنالك كثيرة ومختلفة.

ويقال: تلك العيون الجارية غداً لِمَنْ له ـ اليومَ ـ عيونٌ جارية بالبكاء، وغداً لهم عيونٌ ناظرةٌ بحُكم اللقاء.

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾.

النمارق المصفوفة في التفسير: الطنافس المبسوطة.

الزرابي المبثوثة في التفسير: البُسُط المتفرقة.

وإنما خاطبهم على مقادير فُهومهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾.

لمَّا ذَكَرَ وصفَ تلك السُّرُرِ المرفوعة المشيَّدة قالوا: كيف يصعدها المؤمن؟ فقال: أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت؟ كيف إذا أرادوا الحَمْلَ عليها أو ركوبها تنزل؟ فكذلك تلك السُّرُرُ تتطامن حتى يركبها الوليُّ.

---

(١) رواية الحديث: «ما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت عينه التي يبصر بها، وسمعه الذي يسمع به...» أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ٤٧٧، ٩/ ٦١٠)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ٣٤١).

والحديث بالرسالة القشيرية ص٣١٨ بغير هذه الرواية انظره.

وإنما أنزلت هذه الآيات على وجه التنبيه، والاستدلال بالمخلوقات على كمال قدرته ـ سبحانه.

فالقومُ كانوا أصحابَ البوادي لا يرون شيئاً إلا السماءَ والأرضَ والجبالَ والجِمالَ... فأَمَرَهم بالنظر في هذه الأشياء.

وفي الإبل خصائص تدل على كمال قدرته وإنعامه جل شأنه؛ منها: ما في إمكانهم من الانتفاع بظهورها للحَمْلِ والركوب، ثم بنَسْلِها، ثم بلحمها ولبنها ووَبَرِها... ثم من سهولة تسخيرها لهم، حتى ليستطيع الصبيُّ أنْ يأخذَ بزِمامها، فتنجرّ وراءه. والإبل تصبر على مقاساة العَطَش في الأسفار الطويلة، وهي تَقْوَى على أن تحمِلَ فوق ظهورها الكثيرَ من الحَمولات... ثم حِرَانُها إذا حقدت، واسترواحُها إلى صوتِ مَنْ يحدوها عند الإعياء والتعب، ثم ما يُعَلِّل المرءُ بما يناط بها من بِرِّها[1].

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾.

لستَ عليهم بمُسَلَّطٍ؛ فذَكِّر ـ يا محمد ـ بما أمرناك به، فبذلك أمرناك.

﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾.

إلا مَنْ تولَّى عن الإيمان وكفر فيعذبه اللَّهُ بالخلودِ في النار.

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾.

إن إلينا رجوعَهم، ثم نجازيهم على الخير والشرّ.

---

(١) الآيات (١٨، ١٩، ٢٠) لم ترد.

سورة الفجر

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

بسم الله كلمةٌ ما استولت على قلبِ فقير فأقلقته، وما تمكّنت من سِرِّ مُتَيَّم فَشَتَّتْه، وما استولت على روح محبٍّ فرحمته. كلمةٌ قهّارة للقلوب.. ولكن لا لكلِّ قلب، كلمةٌ لا سبيل لها لكلِّ عقل، كلمة تكتفي من العابدين بقراءتهم لها، ولكنها لا ترضى من المحبين إلا ببَذْلِ أرواحهم فيها.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾.

الفجرُ انفجارُ الصُّبح وهو اثنان: مستطيلٌ وقصير؛ ففي التفسير: إنه فَجْرُ المحرَّم لأنه ابتداء السنة كلها، وقيل: فجر ذي الحجة.

ويقال: هو الصخور ينفجر منها الماء.

ويقال: أقسم به لأنّه وقتُ عبادة الأولياء عند افتتاحهم النهار.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ قيل: هي عَشْرُ ذي الحجة، ويقال: عَشْرُ المحرم؛ لأن آخرها عاشوراء. ويقال: العَشْرُ الأخيرة من رمضان.

ويقال: هي العَشْرُ التي ذكرها اللَّهُ في قصة موسى عليه السلام تمَّ به ميعاده بقوله: ﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾.

ويقال: هو «فجرُ» قلوبِ العارفين إذا ارتقوا عن حدِّ العلم، وأسفر صُبْحُ معارِفِهم، فاستغنوا عن ظلمة طلب البرهان بما تجلَّى في قلوبهم من البيان.

﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾.

جاء في التفاسير: الشفعُ يومُ النَّحْرِ(١)، والوتر يوم عَرَفَة.

ويقال: آدم كان وتراً فشُفِعَ بزوجته حواء.

وفي خبرٍ: إنها الصلوات منها وتر (كصلاة المغرب) ومنها شفع كصلاة الصُّبْح.

ويقال: الشفع الزوج من العَدَد، والوتر الفَرْدُ من العدد.

---

(١) يوم النحر: اليوم العاشر من ذي الحجة لنحرهم فيه.

ويقال: الشفع تضادُّ أوصاف الخَلْق: كالعلم والجهل، والقدرة والعجز، والحياة والموت. والوتر انفرادُ صفاتِ الله سبحانه عمَّا يضادُّها؛ علم بلا جهلٍ، وقدرة بلا عجزٍ، وحياة بلا موتٍ.

ويقال: الشفعُ الإرادة والنية، والوتر الهِمَّة؛ لا تكتفي بالمخلوق ولا سبيل لها إلى الله ـ لتَقَدُّسِه عن الوَصْلِ والفَصْل.. فبقيت الهِمَّةُ غريبةً.

ويقال: الشفع الزاهد والعابد، لأن لكل منهما شكلاً وقريناً، والوترُ المريْدُ فهو كما قيل:

فريدٌ من الخِلَّانِ في كل بلدةٍ إذا عَظُمَ المطلوبُ قَلَّ المساعدُ

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾

«يسري» يمضي.

قوله جل ذكره: ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ﴾.

«حِجْرٍ». لُبٌّ. وجوابُ القَسَم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾.

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾.

ذكر(١) قصص هؤلاء المتقدمين.. إلى قوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ﴾. أي: شدة العذاب.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾.

لا يفوته شيءٌ.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾.

﴿**فيقول ربي أكرمني**﴾: أي: شَكَرَه.

﴿فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾. أي: ضيَّق، ﴿**فيقول ربي أهانني**﴾. أي: أذلَّني. كلا.. ليس الإذلالُ بالفقر إنما الإذلالُ بالخذلانِ للعصيان.

قوله جل ذكره: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾.

أي: أنتم تستحقون الإهانة على هذه الخصال المذمومة؛ فلا تُكْرِمون اليتيمَ.

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾.

لمَّا. أي شديداً.

---

(١) الآيات من (٨ ـ ١٢) لم ترد.

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ .

جمًّا أي كثيراً.

قوله جل ذكره: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ .

أي: قامت القيامة.

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أي الملائكة بأمره.

ويقال: يفعل فعلاً فيُسميه مجيئاً.

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ .

يقال: تُقَاد جهنم بسبعين ألف زمام[1].

وفي ذلك اليوم يتذكر الإنسانُ.. ولا يَنفَعه التذكُّر، ولا يُقبَلُ منه العُذْرُ.

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ .

أي: أطَعتُ ربِّي ونظرت لنفسي.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ .

أي: لا يعذِّب في الدنيا أحدٌ مثلما يعذِّبه الله في ذلك اليوم.. إذا قرئت الذال بالكسر.

أما إذا قرئت بالفتح ﴿لا يعذب﴾ فالمعنى: لا يُعَذَّبُ أحدٌ مثلما يُعَذَّبُ هذا الكافر.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ .

الروحُ المطمئنةُ إلى النفس.

ويقال: المطمئنةُ بالمعرفة: ويقال: المطمئنة بذكر الله.

ويقال: بالبشارة بالجنة. ويقال: النفس المطمئنة: الروح الساكنة.

﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ .

راضيةً عن الله، مَرْضيةً من قِبَلِ الله.

﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ .

أي: في عبادي الصالحين.

---

(١) «تُقَاد جهنم بسبعين ألف زمام كل زمام يقوده...» أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٥١٨).

سورة البلد

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ تُخبر عن جلالٍ أزليّ، وجمالٍ سرمديّ، جلالٍ ليس له زوال، وجمالٍ ليس له انتقال، جلالٍ لا بأغيارٍ وأمثال، جمالٍ لا بصورةٍ ومثال، وجلالٍ وهو استحقاقُه لجبروته وجمالٍ وهو استيجابُه لملكوته، جلالِ مَنْ كاشَفَه به فأوصافُه فناءٌ في فناء، وجمالِ مَنْ لاطَفَه به فأحوالُه بقاءٌ في بقاء.

قوله جل ذكره: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾.

أي: أُقسِم بهذا البلد، وهو مكة.

﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾

وإنما أُحِلَّتْ له ساعةً واحدةً.

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾

كلِّ والدٍ وكلِّ مولود. وقيل: آدم وأولاده.

وجواب القسم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾.

ويقال: أُقسم بهذا البلد لأنك حِلٌّ به.. وبَلَدُ الحبيبِ حبيبٌ.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾.

أي: في مشقة؛ فهو يقاسي شدائد الدنيا والآخرة.

ويقال: خَلَقه في بطن أمه (منتصباً رأسُه) فإذا أذِنَ الله أن يخرج من بطن أمّه تنكّس رأسُه عند خروجه، ثم في القِماط[1] وشدِّ الرِّباط.. ثم إلى الصِّراط هو في الهِياط والمِياط[2].

قوله جل ذكره: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾.

أي: لقوّته وشجاعته عند نَفْسِه يقول:

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾.

---

(١) القِماط: خرقة عريضة يُلف بها المولود (ج) أقمطة وقمط.

(٢) يقال: ما زال في هياط ومياط أي في ضجاج وشر وجلبة، وقيل: في دنو وتباعد. (لسان العرب ٧/ ٤٢٤ مادة: هيط).

﴿لبداً﴾ كثيراً، في عداوة محمد ﷺ.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾.

أليس يعلم أنَّ الله يراه، وأنه مُطَّلِعٌ عليه؟

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾.

أي: ألم نخلقه سميعاً بصيراً متكلِّماً.

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾.

ألهمناه طريق الخيرِ والشرِّ.

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾.

أي: فهلّا اقتحم العقبة ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾ استفهام على التفخيم لشأنها.

ويقال: هي عَقَبَةٌ بين الجنة والنار يجاوزها مَنْ فَعَلَ ما قاله: وهو فكُّ رقبة؛ أي: إعتاقُ مملوك، والفكُّ الإزالة. وأطعم في يوم ذي مجاعةٍ وقحطٍ وشدَّةٍ يتيماً ذا قرابة، أو ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾: لا شيء له حتى كأنّه قد التصق بالتراب من الجوع.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾.

أي: من الذين يرحم بعضُهم بعضاً.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾.

أي: أصحاب اليُمْنِ والبركة.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾.

هم المشائيمُ على أنفسهم، عليهم نارٌ مُطْبِقَة؛ يعني أبواب النيران (عليهم مغلقة).

والعقبة التي يجب على الإنسان اقتحامها: نَفْسُه وهواه، وما لم يَجُزْ تلك العقبة لا يفلح و﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ هو إعتاقُ نَفْسِه من رِقِّ الأغراض والأشخاص.

ويكون فك الرقبة بأن يهدي مَنْ يفكُّه ـ من رق هواه ونفسه ـ إلى سلامته من شُحِّ نفسه، ويرجعه إليه، ويخرجه من ذُلِّه.

ويكون فكُّ الرقبة بالتَّحرُّزِ من التدبير، والخروج من ظلمات الاختيار إلى سعة الرضاء.

ويقال: يطعم من كان في متربة ويكون هو في مسغبة[1].

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي تكون خاتمته على ذلك.

---

(١) المتربة: الفقر الشديد والمسكنة، والمسغبة: المجاعة.

سورة الشمس

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» إخبارٌ عن وجودِ الحقِّ بنعتِ القِدَم. «الرحمن الرحيم»: إخبارٌ عن بقائه بوصف العَلاءِ والكَرَم.

كاشَفَ الأرواحَ بقولِهِ: «بسم الله» فهيَّمها، وكاشَفَ النفوسَ بقوله: «الرحمن الرحيم» فتَيَّمها؛ فالأرواحُ دَهْشَى في كَشْفِ جلاله، والنفوسُ عَطْشَى إلى لُطْفِ جماله.

قوله جل ذكره: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾.

ضُحَا الشمسِ صَدْرُ وقت طلوعها.

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾.

أي: تَبِعَها؛ وذلك في النصف الأول من الشهر.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾.

إذا جلَّى الشمسَ وكَشَفَها.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾.

أي: يَغْشَى الشمس (فيذهب بضوئها).

﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾.

أي وبنائها. ويقال: ومَنْ بناها.

﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾.

أي: وطَحْوِها. ويقال: ومَنْ طحاها (أي بسطها أو قسمها أو خلقها).

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾.

ومن سوَّى أجزاءها وأعضاءها.

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾.

أي: بأن خذَلَها ووَفَّقَها.

ويقال: فجورها: حركتها في طلب الرزق، وتقواها: سكونها بِحُكْمِ القدير.

وقيل: طريق الخير والشر.

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾.

هذا جواب القَسَم. أي «لقد أفلح من زكاها».

ويقال: مَنْ زكّاه اللّهُ عزّ وجلّ.

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾.

أي: دسَّاها الله. وقيل: دسَّها في جملة الصالحين وليس منهم.

وقيل: خاب مَنْ دسَّ نَفْسَه بمعصية الله. وقيل دسَّاها: جعل خسيسةً حقيرةً. وأصل الكلمة دسسها.

قوله جل ذكره: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾.

﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾: لطغيانها، وقيل: إن صالحاً قد مات، فكَفَر قومُه، فأحياه اللّهُ، فدعاهم إلى الإيمان، فكذَّبوه، وسألوه علامةً وهي الناقة، فأتاهم صالح بما سألوا.

﴿إِذِ انۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾.

«أشقاها» عاقِرُها.

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾.

أي: احذروا ناقةَ اللّهِ، واحذروا سقياها: أي لا تتعرَّضوا لها.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾.

أي كذَّبوا صالحاً، فعقروا الناقة.

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾.

أي: أهلكهم بجُرْمِهم «فسوَّاها»: أي أطبق عليهم العذاب.

ويقال: سَوَّى بينهم ربُّهم في العذاب لأنهم كلهم رضوا بعقر الناقة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾.

أي: أن الله لا يخاف عاقبة ما فَعَلَ بهم من العقوبة.

ويقال: قد أفلح مَنْ دَاوَمَ على العبادة، وخابَ مَنْ قصَّرَ فيها.

وفائدة السورة: أنه أفلح مَنْ طَهَّرَ نَفْسَه عن الذنوبِ والعيوبِ، ثم عن الأطماع في الأعواض والأغراض، ثم أبْعَدَ نَفْسَه عن الاعتراض على الأقسام، وعن ارتكاب الحرام. وقد خابَ من خانَ نَفْسَه، وأهملها عن المراعاة، ودَنَّسَهَا بالمخالفات؛ فلم يرضَ بعَدَمِ المعاني حتى ضمَّ إلى فَقْرِها منها الدعاوى المظلمة.. فغرقت في بحرِ الشقاء سفينَتُه.

سورة الليل

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله كلمةٌ تُخْبِرُ عن إلهيةِ الله؛ وهي استحقاقُه لنعوتِ المجد والتوحُد، وصفاتِ العِزِّ والتفرُّد؛ فَمَنْ تجرَّدَ في طَلَبِه عن الكسلِ، ولم يستوطن مركبَ العجزِ والفشلِ، ووَضَعَ النظر موضعَه وَصَلَ بدليل العقل إلى عرفانه، ومَنْ بَذَلَ روحَه ونَفْسَه ووَدَّعَ في الطلبِ راحته وأُنْسَه، ولم يُعَرِّجْ في أوطان الوقفة ظفر بحكم الوصل إلى شهود سلطانه، والناسُ فيه بين مُوَفَّقٍ ومخذول، أو مؤيَّدٍ ومردود.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾.

يغشى الأفقَ، وما بين السماء والأرض فيستره بظُلْمتِه.

والليلِ لأصحاب التحيُّر يستغرِق جميعَ أقطار أفكارهم فلا يهتدون الرشد.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾.

أنارَ وظَهرَ، ووَضح وأسفر.

ونهارُ أهلِ العرفان بضياء قلوبهم وأسرارهم، حتى لا يَخْفَى عليهم شيءٌ، فسكنوا بطلوعِ الشمس عن تكلُّف إيقاد السراجِ.

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾.

أي: «من» خَلَقَ الذكر والأنثى؛ وهو الله سبحانه:

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾.

هذا جوابُ القَسَم، والمعنى: إنَّ عملكم لمختلف؛ فمنكم: مَنْ سَعْيُه في طلب دنياه، ومنكم مَنْ سعيهُ في شهواتِ نَفْسِه واتباع هواه، ومنكم مَنْ سعيُه في شهواتِ، ومنكم مَنْ في طَلَبِ جاهِه ومُناه، وآخر في طلب عقباه، وآخر في تصحيح تقواه، وآخر في تصفية ذكراه، وآخر في القيام بحُسْنِ رضاه، وآخر في طلب مولاه.

ومنكم: من يجمع بين سعي النَّفْس بالطاعة، وسَعْي القلب بالإخلاص، وسعي البَدَن بالقُرَب، وسعي اللسان بذكر الله، والقول الحَسَنِ للناس، ودعاء الخَلْقِ إلى الله والنصيحة لهم.

ومنهم مَنْ سعيُه في هلاكِ نَفْسِه وما فيه هلاك دنياه.. ومنهم.. ومنهم.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ من مالِه، ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ مخالفةَ ربِّه..

ويقال: ﴿أعطى﴾ الإنصافَ من نَفْسِه، ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ طَلَبَ الإنصافِ لنفسِه..

ويقال: «اتقى» مساخِطَ الله. ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾: بالجنة، أو بالكَرَّةِ الآخرة، وبالمغفرةِ لأهل الكبائر، وبالشفاعة من جهة الرسولِ ﷺ، وبالخَلَفِ من قِبَلِ الله... فسَنُيَسِّرُه لليُسْرَى: أي نُسَهِّلُ عليه الطاعاتِ، ونُكَرِّهُ إليه المخالفاتِ، ونُشَهِّي إليه القُرَبَ، ونُحبِّبُ إليه الإيمان، ونُزَيِّن في قلبه الإحسان.

ويقال: الإقامة على طاعته والعود إلى ما عمله من عبادته.

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾.

أما من مَنَعَ الواجبَ، واستغنى في اعتقاده، وكَذَّبَ بالحسنى: أي بما ذَكَرْنا، فسنيسره للعسرى؛ فيقع في المعصية ولم يُدَبِّرْها، ونوقف له أسبابَ المخالفة.

ويقال: «أعطى» أَعْرَضَ عن الدارين، «واتَّقى» أن يجعل لهما في نفسه مقداراً.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾.

يعني: إذا مات.. فما الذين يغني عنه ماله بعد موته؟

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾.

لأوليائنا، الذين أرشدناهم. ويقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ بنصيب الدلائل.

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾.

مُلْكاً، نعطيه من نشاء.

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾.

أي: تتلظَّى.

﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾.

أي: لا يُعذَّبُ بها إلّا الأشقى، وهو:

﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

يعني: كَفَرَ.

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾.

يُعْطى الزكاة المفروضة.

ويقال يَتَطهَّر من الذنوب.

ونزلت الآية في أبي بكر رضي الله عنه. والآية عامة.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ﴾.

حتى تكون هذه مكافأةً له. ولا يفعل هذا ليَتَّخِذَ عند أحدٍ يَداً، ولا يطلب منه مكافأةٍ:

﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾.

أي: ليتقرَّبَ بها إلى الله.

﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾.

يَرْضَى اللهُ عنه، ويرضى هو بما يعطيه.

سورة الضحى

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ لا يُشْبِهُه كُفْوٌ في ذاتِه وصفاتِه، ولا يستفزُّه لَهْوٌ في إثباتِ مصنوعاته، ولا يعتريه سَهْوٌ في عِلْمِه وحكمتِه، ولا يعترضه لَغْوٌ في قوله وكلمته.

فهو حكيمٌ لا يلهو، وعليمٌ لا يسهو، وحليمٌ يُثْبِتُ ويمحو؛ فالصدق قَوْلُه، والحقُّ حُكْمُه، والخَلْقُ خَلْقُه والمُلْكُ مُلْكُه.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلضُّحَىٰ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾.

«والضحى»: ساعةٌ من النهار. أو النهارُ كلُّه يُسَمّى ضُحَى. ويقال: أقسم بصلاة الضُّحى.

ويقال: الضحى الساعةُ التي كَلَّم فيها موسى عليه السلام.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ أي: ليلة المعراج، و«سجا»: أي سَكَن، ويقال: هو عامٌّ في جِنْسِ الليل.

ويقال: «الضحى» وقت الشهود. ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ الذي قال: إنه ليُغَانُ على قلبي[1]..

ويقال: ﴿الليل إذا سجا﴾ حين ينزل اللَّهُ فيه إلى السماء الدنيا ـ على التأويل الذي يصحُّ في وصفه.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.

ما قَطَعَ عنك الوحيَ وما أبغضك.

وكان ذلك حين تأخَّر جبريلُ ـ عليه السلام ـ عنه أياماً، فقال أهل مكة: إن محمداً قد قلاه ربُّه. ثم أنزل اللَّهُ هذه السورة.

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (الذكر ٤١)، وأبو داود في (السنن ١٥١٥)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٤/ ٢١١ ـ ٢٦٠)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٧/ ٥٢)، والطبراني في (المعجم الكبير ١/ ٢٨٠)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٢٣٢٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥/ ٥٧، ٨/ ٢٩٩، ٥١٧، ٩/ ٥٩، ٦٢٨)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٢/ ٤٣) (البغوي ٦/ ١٨٠)، والسيوطي في (الدر المنثور ٦/ ٦٣)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ١٠١) والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٠٧).

وقيل: احتبس عنه جبريل أربعين يوماً، وقيل: اثني عشر يوماً، وقيل: خمسة وعشرين يوماً.

ويقال: سبب احتباسه أن يهودياً سأله عن قصة ذي القرنين وأصحاب الكهف، فوَعَدَ الجوابَ ولم يقل: إن شاء الله.

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾.

أي: ما يعطيك في الآخرة خيرٌ لَكَ مما يعطيك في الدنيا.

ويقال: ما أعطاك من الشفاعة والحوض، وما يُلْبِسُك من لباس التوحيدِ ـ غداً ـ خيرٌ مما أعطاكَ اليومَ.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾.

قيل: أفترضى بالعطاء عن المُعْطِي؟ قال: لا.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾.

قيل: إلى عمِّه أبي طالب.

ويقال: بل آواه إلى كَنَفِ ظِلِّه، وربَّاه بلطف رعايته.

ويقال: فآواكَ إلى بِساطِ القربة بحيث انفردْتَ بمقامِك، فلم يُشَاركْكَ فيه أحدٌ.

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾.

أي: ضللْتَ في شِعابِ مكة، فَهَدَى إليك عَمَّك أبا طالبٍ في حال صباك.

ويقال: «ضالّاً» فينا متحيِّراً.. فهديناك بنا إلينا.

ويقال: «ضالّاً» عن تفصيل الشرائع؛ فهديناك إليها بأن عرَّفناك تفصيلها.

ويقال: فيما بين الأقوام ضلالٌ فهداهم بك.

وقيل: «ضالّاً» للاستنشاء فهداك لذلك.

ويقال: «ضالّاً» في محبتنا، فهديناك بنور القربة إلينا.

ويقال: «ضالّاً» عن محبتي لك فعرَّفتك أنّي أُحِبُّك.

ويقال: جاهلاً بمحلِّ شرفِكَ، فعرَّفْتُك قَدْرَكَ.

ويقال: مستتراً في أهل مكة لا يعرفك أحدٌ فهديناهم إليك حتى عرفوك.

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾.

في التفسير: فأغناكَ بمال خديجة.

ويقال: أغناك عن الإرادة والطلب بأن أرضاك بالفَقْد.

ويقال: أغناك بالنبوّة والكتاب. ويقال: أغناك بالله.

ويقال: أغناك عن السؤال حينما أعطاك ابتداءً؛ بلا سؤالٍ منك.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾.

فلا تُخِفْه، وارفقْ به، وقرِّبْه.

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾.

أي: إمَّا أنْ تُعْطِيَه.. أو تَرُدَّه برِفْقٍ، أو وعدٍ.

ويقال: السائلُ عنَّا، والسائلُ المتحيِّرُ فينا ـ لا تنهرهم، فإنَّا نهديهم، ونكشف مواضع سؤالهم عليهم.. فلاطِفْهم أنت في القول.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

فاشكُرْ، وصَرِّحْ بإحسانه إليك، وإنعامه عليك.

سورة ﴿ألم نشرح﴾

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ عزيزٌ عَزَّ مَنْ التجأ إليه، وجَلَّ مَنْ توكَّلَ عليه، وفاز في الدنيا والعُقْبَى مَنْ تَوَسَّلَ به إليه؛ فَمَنْ تَقَرَّبَ منه قَرَّبَه ومَنْ شكا إليه حَقَّقَ له مَطْلَبَه، ومَنْ رَفَعَ قصتَّه إليه قَضَى مأربَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.

أَلَمْ نُوَسِّعْ قَلْبَكَ للإسلام؟ ألم نُلَيِّنه للإيمان؟

ويقال ألم نوسع صدرك بنور الرسالة؟ ألم نوسِّع صدرك لقَبُولِ ما نورِدُ عليك.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾.

أي: إثمَكَ قبل النبوّة.

ويقال: عصمناكَ عن ارتكابِ الوِزْرِ؛ فَوضْعُه عنه بأنّه لم يستوجبْه قطّ.

ويقال: خفضنا عنك أعباءَ النبوّة وجعلناكَ محمولاً لا متحمِّلاً.

ويقال: قويناك على التحمُّل من الخَلْق، وقوّيناك لمشاهدتنا، وحفظنا عليك ما استحفظت، وحرسناكَ عن ملاحظة الخَلْقِ فيما شرَّفناك به.

﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾: أثقله، ولولا حَمْلُنا عنك لَكُسِرَ.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.

بِذِكْرِنا؛ فكما لا تَصِحُّ كلمةُ الشهادة إلا بي، فإنها لا تَصِحُّ إلا بك.

ويقال: رفعنا لك ذكرك بقول الناس: محمد رسول الله!

ويقال: أثبتنا لك شرف الرسالة.

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

وفي الخبر: «لن يغلب عُسْرٌ يُسْرَيْن»[1] ومعناه: أن العسر بالألف واللام في

---

(١) أخرجه الحاكم في (المستدرك ٢/٥٢٨)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٩٤٦)، وابن حجر في (فتح الباري ٧/٧١٢)، والطبري في (التفسير ٣٠/١٥١)، والقرطبي في (التفسير ٢٠/١٠٧) والعجلوني في (كشف الخفاء ٢/٢١٣)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة ١٣٢).

الموضعين للعهد ـ فهو واحد، واليُسْر مُنكَّرٌ في الموضعين فهما شيئان. والعُسْر الواحد: ما كان في الدنيا، واليسران: أحدهما في الدنيا في الخصب، وزوال البلاء، والثاني في الآخرة من الجزاء وإذاً فعُسْرُ جميع المؤمنين واحد ـ وهو ما نابهم من شدائد الدنيا، ويُسْرُهم اثنان: اليومَ بالكَشْفِ والصَّرْفِ، وغداً بالجزاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾.

فإذا فَرَغْتَ من الصلاة المفروضة عليك فانْصَبْ في الدعاء.

ويقال: فإذا فرغت من العبادة فانصب في الشفاعة.

ويقال: فإذا فرغت من عبادة نَفْسِك فانْصَبْ بقلبك.

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾.

في جميع الأحوال.

ويقال: فإذا فرغت من تبليغ الرسالة فارغب في الشفاعة.

سورة التين

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

اسم «الله» يدلُّ على جلالِ مَنْ لم يَزَلْ، ويُخْبِرُ عن جمالِ مَنْ لم يَزَلْ، ينبه على إقبالِ مَنْ لم يَزَلْ، يشير إلى إفضال من لم يَزَلْ؛ فالعارف شهد جلالَه فطَاش، والصفيُّ شهد جمالَه فعاش، والوليُّ شهد إقباله فارتاش، والمريدُ يشهد إفضالَه فلا يطلب مع كفايته المعاش.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾.

أقسم بالتين لما به من عظيم المِنَّةِ على الخَلْقِ حيث لم يجعل فيه النَّوى، وخَلَّصَه من شائب التنغيص، وجعله على مقدار اللُّقْمة لتكمل به اللذَّة. وجعل في «الزيتون» من المنافع مثل الاستصباح والتأدُّم والاصطباغ به.

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾.

الجبل الذي كَلَّمَ الله موسى عليه. ولموضعِ قَدَمِ الأحبابِ حُرْمةٌ.

﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾.

يعني: مكة، ولهذا البلد شرف كبير، فهي بلدُ الحبيب، وفيها البيت؛ ولبيتِ الحبيبِ وبَلَدِ الحبيبِ قَدْرٌ ومنزلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

في اعتدال قامتِه، وحُسْنِ تركيب أعضائه. وهذا يدل على أنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ ليس له صورة ولا هيئة؛ لأنَّ كلَّ صفةٍ اشترك فيها الخَلْقُ والحقُّ فالمبالغةُ للحقِّ.. كالعلم، فالأعلمُ اللّهُ، والقدرة: فالأقدَرُ اللّهُ فلو اشترك الخَلْقُ والخالقُ في التركيب والصورة لكانَ الأحسن في الصورة اللّهُ... فلمّا قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ عُلِمَ أنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ مُنَزَّهٌ عن التقويم وعن الصورة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾.

أي: إلى أرذل العمر وهو حال الخَرَفِ[1] والهَرَم.

---

(١) الخَرَف: فساد العقل من الكبر أو المرض.

ويقال: ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾: إلى النار والهاوية في أقبح صورة؛ فيكون أوّلُ الآيةِ عامًّا وآخرها خاصًّا بالكفّار.. كما أنّ التأويلَ الأولَ ـ الذي هو حال الهَرَم ـ خاصٌّ في البعض؛ إذ ليس كلُّ الناسِ يبلغون حالَ الهَرَم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

أي: غير منقوص.

ويقال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أي: إلى حال الشقاوة والكفر إلّا المؤمنين.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾.

أيها الإنسانُ.. مع كل هذا البرهان والبيان؟

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

سورة العلق

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ سماعُها يوجِبُ أحدَ أمرين: «إمَّا صَحْواً وإمَّا مَحْواً»؛ صحواً لِمَنْ سمعها بشاهد العلم فيستبصر بواضح برهانه، أو محواً لمن سمعها بشاهد المعرفة لأنه يتحيَّر في جلال سلطانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.

هذه السورة من أوّلِ ما نَزَلَ على المصطفى ﷺ لما تعرَّض له جبريل في الهواء، ونَزَلَ عليه فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾. فالناسُ كُلُّهم مريدون ـ وهو ﷺ كان مُرَاداً. فاستقبل الأمر بقوله: «ما أنا بقارىء»، فقال له: اقرأ، فقال: ما أنا بقارىء، فقال له: «اقرأ كما أقول لك؛ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾»[1] أي خلقهم على ما هم به.

﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾.

العَلَق جمع عَلَقَة؛ كشجَرٍ وشجرة.. (والعَلَقةُ الدمُ الجامد فإذا جرى فهو المسفوح).

﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾.

«الأكرم»: أي الكريم.

ويقال: الأكرم من كلِّ كريم.

﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

عَلَّمهم ما لم يعلموا: الضروريَّ، والكسبيَّ.

---

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ١/ ١٣، ٦/ ٢٠٢، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٨/ ٥٩، ٩/ ٣٧)، ومسلم في الصحيح (الإيمان ب٧٣ رقم ٢٥٢)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٧/ ٥١، ٩/ ٦)، وعبد الرزاق في (المصنف ٩٧١٩)، (البغوي ٧/ ٢٦٨)، والحاكم في (المستدرك ٣/ ١٨٣)، والبغوي في (شرح السنة ١٣/ ٣١٧)، وأبو عوانة في (المسند ١/ ١١٠)، والبيهقي في (دلائل النبوة ٢/ ١٣٥)، والسيوطي في (الدر المنثور ٦/ ٣٦٨)، وابن حجر في (فتح الباري ١/ ٢٢، ٨/ ٧١٥)، وأبو نعيم في (دلائل النبوة ١/ ٦٨)، والقرطبي في (التفسير ٢٠/ ١١٨) وابن كثير في (التفسير ٨/ ٤٥٨).

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾.

أي: يتجاوز حَدَّه إذا رأى في نفسه أنه استغنى؛ لأنه يَعْمَى عن مواضع افتقاره.

ولم يقل: إن استغنى بل قال: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ فإذا لم يكن مُعْجَباً بنفسه، وكان مشاهداً لمحلِّ افتقاره ـ لم يكن طاغياً.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾.

أي: الرجوع يوم القيامة.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾.

أليس لو لم يفعل هذا كان خيراً له؟ ففي الآية هذا الإضمار.

﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ﴾.

لكان خيراً له؟

﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾. كذَّب بالدِّين، وتولَّى عن الهداية.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾.

أي: ما الذي يستحقُّه مَنْ هذه صفته؟

والتخويفُ برؤية الله تنبيه على المراقبة ـ ومَنْ لم يَبْلُغْ حالَ المراقبة لم يَرْتَقِ منه إلى حال المشاهدة.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ﴾.

لنأخُذَنَّ بناصيته (وهي شَعْرُ مُقَدَّم الرأس) أَخْذَ إذلالٍ. ومعناه لنُسَوِّدَنَّ وَجهَهُ.

وقوله: ﴿نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ﴾ بدلٌ من قوله: ﴿لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾.

﴿فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾.

فليدعُ أهلَ ناديَه وأهلِ مجلسه، وسندعو الزبانيةَ ونأمرهم بإهلاكه.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾.

أي: اقتربْ من شهود الربوبية بقلبك، وقِفْ على بِساط العبودية بنَفْسك.

ويقال: فاسجُدْ بنفسِك، واقترِبْ بسِرِّك.

سورة القدر

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ تُحضِرُ قلوبَ العلماءِ لتأمُّل الشواهد، وتُسْكِرُ قلوبَ العَارفين إذا وردوا المشَاهِد.. فهؤلاء أحضرهم فَبَصَّرَهم، وعلى استدلالهم نصرهم.

وهؤلاء بشرابِ محابّه أَسكَرَهم، وفي شهودِ جلالِه حَيَّرَهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾.

في ليلةِ قَدَّرَ فيها الرحمةَ لأوليائه، في ليلةٍ يجد فيها العابدون قَدْرَ نفوسِهم، ويشهد فيهَا العارفون قَدْرَ معبودهم.. وشتان بين وجودِ قَدْرٍ وشهودِ قَدْرٍ! فلهؤلاء وجودُ قَدْرٍ ولكن قدر أنفسهم، ولهؤلاء شهود قدرٍ ولكن قدر معبودهم.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾.

استفهامٌ على جهة التفخيم لشأن تلك الليلة.

﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾.

أي: هي خيرٌ من ألف شهر ليست فيها ليلة القدر. هي ليلةٌ قصيرةٌ على الأحباب لأنهم فيها في مسَامرةٍ وخطاب.. كما قيل:

يا ليلة من ليالي الدهرِ ... قابلت فيها بَدْرَها بِبَدْرِ

ولم تكن عن شَفَقٍ وفَجرٍ ... حتى تولّت وهي بَكْرُ الدهرِ

قوله جلّ ذكره: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾.

﴿وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾: قيل جبريل. وقيل: مَلَكٌ عظيم.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾: أي بأمر ربهم

﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ سَلَٰمٌ﴾: أي مع كل مامورٍ منهم سلامي عَلَى أوليائي.

﴿هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾: أي هي باقية إلى أن يطلع الفجر.

سورة البينة

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمٌ عزيزٌ تَنَصَّل إليه المذنبون فَغَفَرَ لهم وجَبرَهم: وتوسّلَ إليه المطِيعون فوَصَلَهم ونَصَرَهم.

تعرَّفَ إليه العالِمون فَبَصَّرَهم، وتَقَرَّب منه العَارفون فَقَرَّبهم... لكنه ـ سبحانه ـ في جلاله حَيَّرَهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾.

«منفكين»: مُنْتَهين عن كفرهم حتى تأتيهم البيِّنة: وهي رسول الله ﷺ، أي لم يزالوا مجتمعين عَلَى تصديقه؛ لِمَا وَجَدوه في كُتُبهم إلى أنْ بَعَثَه الله تعالى. فلمّا بَعَثَه حسدوه وكفروا.

﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾.

أي حتى يأتيهم رسول من الله يقرأ كُتُباً مُطَهَّرَةً عن تبديل الكفار.

﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾: مستوية ليس فيها اعوجاج.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾.

يعني: القرآن.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾.

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي موحِّدين لا يُشرِكون بالله شيئاً؛ فالإخلاصُ ألّا يكونَ شيءٌ من حركاتك وسَكَنَاتك إلّا لله.

ويقال: الإخلاصُ تصفيةُ العملِ من الخَلَلِ.

«حنفاء»: مائلين إلى الحقّ، عادلين عن الباطل.

﴿وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ.. وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾: أي دينُ المِلَّةِ القيمة، والأمة القيِّمة، والشريعة القيِّمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾: مقيمين. ﴿ٱلْبَرِيَّةِ﴾: الخليقة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾.

أي: خير الخَلْق، وهذا يدل عَلَى أنهم أفضلُ من الملائكة.

قوله جلّ ذكره: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

﴿جَزَآؤُهُمْ﴾: أي ثوابهم في الآخرة عَلَى طاعاتهم.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: من تحت أَشجارها الأنهار.

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾.

فلم تَبْقَ لهم مطالبةٌ إلّا حَقَّقَها لهم.

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾.

أي: خافَهُ في الدنيا.

والرضا سرورُ القلب بمرِّ القضَا.

ويقال: هو سكونُ القلبِ تحت جَرَيان الحُكْم.

سورة الزلزلة

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ مَنْ تأمَّلَها بمعانيهَا وَوقَفَ عَلَى ما أُودِعَ فيها رَتَعَتْ أسرارُه في رياضٍ من الأُنس مونِقة، وأينعت أفكارُه بلوائح من اليقين مُشْرِقة، فهي عَلَى جَلال الحقِّ شَاهدة، وهي على ما يحيط به الذِّكْرُ ويأتي عليه الحَصْرُ زائدة.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾.

أي: أمواتَها، وما فيها من الكنوز والدفائن.

﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾.

يعني الكافرُ الذي لا يُؤْمِنُ بها أي بالبعث.

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾.

يومئذٍ تُخبر الأرضُ:

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾.

أي: إنما تفعَل ذلك بأمر الله.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

﴿أَشْتَاتًا﴾: متفرِّقين. ﴿لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ﴾ ليُحاسَبوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾.

فيُقَاسي عناءَه.

سورة العاديات

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ غَيورٌ لا يَصْلُحُ لذكرها إلَّا لسانٌ مصونٌ، عن اللَّغْوِ والغيبة، ولا يصلح لمعرفتها إلَّا قلبٌ محروسٌ عن الغفلة والغيبة[1] ولا يصلح لمحبتها إلَّا رُوحٌ محفوظةٌ عن العلاقة والحجبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾.

﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾: الخيلُ التي تعدو[2].

﴿ضَبْحًا﴾ أي إذا ضَبحن ضبحاً، والضبحُ: هو صوتُ أجوافها إذا عَدَوْنَ. ويقال: ضبحُها هو شِدةُ نَفَسِها عند العَدْوِ.

وقيل: ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾؛ الإبل.

وقيل: أقسم الله بأفراسِ الغزاة.

﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾.

تورى بحوافرها النار إذا عَدَتْ وأصابَتْ سنابِكُها[3] الحجارة بالليل.

ويقال: الذين يورون النار بعد انصرافهم من الحرب.

ويقال: هي الأسِنَّة.

﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾.

تُغِير على العدوّ صباحاً.

﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾.

أي: هَيَّجْنَ به غباراً.

﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾.

أي: تَوَسَّطْنَ المكان، أي: تتوسط الخيل بفوارسها جَمْعَ العَدُوِّ.

---

(١) انظر حديث القشيري عن الغيبة برسالته ص٦٩، ٧٠.

(٢) العَدْو: الجري. (٣) السنابك: (ج) السنبك: طرف مقدم الحافر.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾.

هذا هو جوابُ القَسَم.

﴿لَكَنُودٌ﴾: أي لكَفُور بالنعمة.

﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾.

أي: وإنه على كنوده لشهيد.

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾.

أي: وإنه لبخيلٌ لأجل حُبِّ المال.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾.

أي: بُعِثَ الموتى.

﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

بُيِّنَ ما في القلوب من الخير والشرّ.

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾.

أفلا يعلم أن اللَّهَ يُجازيهم ـ ذلك اليومَ ـ على ما أسلفوا، ثم قال عَلَى الاستئناف: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾.

ويقال في معنى الكَنُود: هو الذي يَرَى ما إليه مِنَ البَلْوَى، ولا يرى ما هو به مِنَ النُّعْمَى.

ويقال: هو الذي رأسُه على وسادة النعمة، وقَلبُه في ميدان الغفلة.

ويقال: الكَنُود: الذي ينسى النِّعَم ويَعُدُّ المصائب.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾، يحتمل: وإنَّ اللَّهَ على حاله لشهيد.

سورة القارعة

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ إذا سمعها العاصون نَسُوا زَلَّتهم في جنب رحمته، وإذا سمعها العابدون نسوا صولتَهم في جنب إلهيته.

كلمةٌ مَنْ سمعها ما غادرَتْ له شُغْلاً إلَّا كَفَتْه، ولا أمراً إلَّا أصلحَتْه، ولا ذنباً إلَّا غَفَرَتْه، ولا أَرَباً إلَّا قَضَتْه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلۡقَارِعَةُ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾.

القارعةُ: اسمٌ من أسماء القيامة، وهي صيغة «فاعلة» من القَرْع، وهو الضربُ بشدَّة. سُمِّيت قارعة لأنها تقرعهم.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾.

تهويلاً لها.

﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ﴾.

أي: المُتَفرِّق... وعند إعادتهم يركب بعضهم بعضاً.

﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾.

أي: كالصوف المصبوغ.

والمعنى فيه: أن أصحابَ الدعاوى وأرباب القوة في الدنيا يكونون ـ في القيامة إذا بُعِثُوا ـ أضعفَ من كلِّ ضعيف؛ لأن القُوى هنالك تسقط، والدعاوى تَبْطُل.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ﴾.

مَنْ ثقلت موازينهُ بالخيرات فهو في عيشة راضية؛ أي مَرْضية.

ووزنُ الأعمالِ يومئذٍ يكون بوزن الصحف. ويقال: يخلق بَدَلَ كلِّ جزءٍ من أفعاله جوهراً، وتُوزَنُ الجواهر ويكون ذلك وزن الأعمال.

﴿وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ﴾.

مَنْ خَفَّتْ موازينه من الطاعات ـ وهم الكفارُ ـ فمأواه هاوية.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾.

سؤالٌ على جهة التهويل. ولم يَرِدْ الخبرُ بأن الأحوال توزَن، ولكن يُجازَى كلٌّ بحالةٍ مما هو كَسْبٌ له، أو وَصَلَ إلى أسبابها بكَسْبٍ منه.

سورة التكاثر

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمٌ عزيزٌ تقدَّسَ في آزالِه عن كل مكان، ولم يَحْتَجْ في آباده إلى زمانٍ أو إلى مكان؛ لا يقطعه حدٌّ فأنّى يجوز في وَصْفِه المكان؟ ولا يقطعه عَدٌّ فأنّى تجوز في وَصْفِه الزيادةُ والنقصان؟

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾.

أي: شَغَلَكم تَفَاخُرُكم فيما بينكم إلى آخر أعماركم إلى أَنْ مِتُّم.

ويقال: كانوا يفتخرون بآبائهم وأسلافهم؛ فكانوا يشيدون بذكر الأحياء، وبمن مضى من أسلافهم.

فقال لهم: شَغَلكم تفاخركم فيما بينكم حتى عَدَدْتم أمواتكم مع أحيائِكم. وأنساكم تكاثركم بالأموال والأولاد طاعةَ الله.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

على جهة التهويل.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾.

أي: لو علمتم حقَّ اليقين لارتدعتم عمَّا أنتم فيه من التكذيب.

﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾.

أراد جميعَ ما أعطاهم اللّهُ من النعمة، وطالَبهم بالشكر عليها.

ومن النعيم الذي يُسأَلُ عنه العبد تخفيفُ الشرائع؛ والرُّخَصُ في العبادات.

ويقال: الماء الحار في الشتاء، الماء البارد في الصيف.

ويقال: منه الصحَّةُ في الجسد، والفراغ.

ويقال: الرضاءُ بالقضاء. ويقال: القناعة في المعيشة.

ويقال: هو المصطفى ﷺ.

سورة العصر

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

كلمةٌ مَنْ سَمِعَها لم يَدَّخِرْ عنها مَالَه؛ لأنّه عَلِمَ أنه ـ سبحانه ـ يُحْسِنُ مآلَه، ومَنْ عَرَفَها لم يُؤْثِرْ عليها نَفْسَهُ؛ لأنّه لم يجد بدونها أُنْسَه.

كلمةٌ مَنْ صَحِبَهَا لم يمنعْ عنها روحَه؛ إذ وَجَدَ الحياةَ الأبدية له ممنوحة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلْعَصْرِ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾.

﴿العصر﴾: الدهر ـ أقسم به.

ويقال: أراد به صلاةَ العصر. ويقال: هو العَشِيّ.

﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾: أراد به جِنْسَ الإنسان. «والخُسْر»: الخسران.

والمعنى: إن الإنسان لفي عقوبةٍ من ذنوبه. ثم استثنى المؤمنين فقال:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

الذين أخلصوا في العبادة وتواصوا بما هو حقٌّ، وتواصوا بما هو حَسَنٌ وجميلٌ، وتواصوا بالصبر.

وفي بعض التفاسير: قوله: ﴿الذين آمنوا﴾ يعني أبا بكر، ﴿وعملوا الصالحات﴾: يعني عمر.

و ﴿تواصوا بالحقّ﴾ يعني عثمان، و ﴿تواصوا الصبر﴾ يعني عليًا ـ رضي الله عنهم أجمعين.

والخسرانُ الذي يلحق الإنسان على قسمين: في الأعمال ويتبيَّن ذلك في المآل، وفي الأحوال ويتبيَّن ذلك في الوقت والحال؛ وهو القبضُ بعد البسط، والحجبةُ بعد القربة، والرجوعُ إلى الرُّخَصِ بعد إيثار الأَشَقّ والأَوْلَى.

﴿وتواصوا بالحقّ﴾: وهو الإيثارُ مع الخَلْق، والصدقُ مع الحقّ.

﴿وتواصوا بالصبر﴾: على العافية... فلا صبرَ أَتَمُّ منه.

ويقال: بالصبر مع الله.. وهو أشدُّ أقسام الصبر[1].

---

(١) انظر حديث القشيري عن الصبر برسالته ص١٨٣ ـ ١٨٩.

سورة الهمزة

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمُ مَنْ لا غَرَضَ له في أفعاله، اسمُ من لا عِوَضَ عنه في جلالِه وجمالِه. اسمُ مَنْ لا يصبِرُ العبدُ عن مختاراً، اسمُ مَنْ لا يَجِدُ الفقير من دونه قَراراً، اسمُ مَنْ لا يَجِدُ أحدٌ من حُكْمِه فِراراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾.

يقال: رجلٌ هُمَزَةٌ لُمَزة: أي كثيرُ الهَمْزِ واللَّمْزِ للناس وهو العيب والغيبة.

ويقال: الهُمَزَة الذي يقول في الوجه، واللُّمزة الذي يقول مِنْ خَلْفِه.

ويقال: الهَمْزُ الإشارةُ بالرأس والجَفْنِ وغيره، واللَّمْزُ باللسان.

ويقال: الهُمَزة الذي يقول ما في الإنسان، واللُّمَزَة الذي يقول ما ليس فيه.

قوله جلّ ذكره: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾.

«جمّع» بالتشديد على التكثير، وبالتخفيف.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾.

أي: يُبْقِيه في الدنيا.. كلًّا ليس كذلك:

﴿كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾.

ليُطْرَحَنَّ في جهنّم. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾؟ على جهة التهويل لها.

فهم في نار الله الموقدة التي يبلغ أَلَمُها الفؤاد.

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾.

مُطْبَقة.

﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾.

«عَمَد»: جمع عماد. وقيل: إنها عُمُدٌ من نارٍ تُمدَّدُ وتُضْرَبُ عليهم؛ كقوله: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩].

ويقال: الغِنَى بغيرِ اللّهِ فَقْرٌ، والأُنْسُ بغيره وَحْشَة، والعِزُّ بغيره ذُلٌّ.

ويقال: الفقيرُ مَنْ استغنى بمالِه، والحقيرُ: مَنْ استغنى بجاهِه، والمُفْلِسُ: مَنْ استغنى بطاعته، والذليلُ: من استغنى بغير الله، والجليلُ: من استغنى بالله.

ويقال: بَيَّنَ أن المعرفة إذا اتَّقَدتْ في قلب المؤمن أحرقت كلَّ سُؤْلٍ وأَرَبٍ فيه، ولذلك تقول جهنّمُ ــ غداً ــ للمؤمن: «جُزْ، يا مؤمن.. فإنّ نورَك قد أَطْفَأَ لَهَبي»!

سورة الفيل

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمُ غَنِيٍّ مَنْ أطاعَهُ أغناه، ومَنْ خالَفَهُ أَضَلَّه وأعماه.

اسمُ عزيز مَنْ وافقه رَقَّاه إلى الرتبة العليا، ومَنْ خالَفَهُ ألقاه في المحنة الكبرى.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ﴾.

أَلَمْ يَنْتِهِ إليكَ فيما أنزل عليك عِلْمُ ما فَعلَ ربُّكَ بأصحاب الفيل؟:

وفي قصة أصحاب الفيل دلالة على تخصيصِ اللّهِ البيتَ العتيقَ[1] بالحِفْظِ والكِلاءة[2]. وذلك: أنَّ أَبرهة[3] ـ مَلِكَ اليمن ـ كان نصرانياً، وبنى بيعةً لهم بصنعاء، وأراد هَدْمَ الكعبة ليصرفَ الحجَّ إلى بيعتهم.

وقيل: نزل جماعةٌ من العرب ببلاد النجاشي، وأوقدوا ناراً لحاجةٍ لهم، ثم تغافلوا عنها ولم يُطْفِئوها، فهبّت الريحُ وحَمَلَتْ النارَ إلى الكنيسة وأحرقتها، فَقَصَد أبرهةُ الكعبةَ لِيَهْدِمها بجيشه.

فلمّا قَرُبَ من مكة أصاب مائتي جَمَلٍ لعبد المطلب، فلمّا أُخْبِرَ بذلك ركب إليهم، فَعَرَفَهُ رجلان، فقالا له:

ارجعْ.. فإنَّ المَلِكَ غضبان.

فقال: واللاتِ والعُزَّى لا أَرْجِعُ إلّا بإبلي.

فقيل: لأبرهة: هذا سَيِّدُ قريشٍ ببابِك؛ فأَذِنَ له، وسأله عن حاجته؛ فأجاب أبرهة: إنها لك غداً، إذا تقدَّمْتُ إلى البيت.

فعاد عبد المطلب إلى قريش، وأخبرهم بما حدث، ثم قام وأخذ بحلْقِه باب الكعبة، وهو يقول:

---

(١) البيت العتيق: الكعبة. (٢) الكلاءة: الحراسة والحفظ.

(٣) هو أبرهه بن الصباح من ملوك اليمن في الجاهلية، حبشي لا صلة له بالعرب، ذكر ابن الأثير ـ في خبر الفيل ـ أنه حين تكلم مع عبد المطلب كان بينهما ترجمان.
الأعلام ١/ ٨٢.

لا هُـمَّ إِنَّ الـعَـبْـدَ يـمـ ـنـعُ رَحْـلَـه فـامـنـعْ حَـلَالِـكَ
لا يَـغْـلِـبَـنَّ صـلـيـبُـهـمْ ومِـحَـالُـهـم عَـدْواً مِـحـالَـكْ
إِنْ يـدخـلـوا الـبـلـدَ الـحـرا مَ فـأمـرٌ مـا بـدالـك

فأرسل اللَّهُ عليهم طيراً أخضرَ من جهة البحر طِوالَ الأعناق، في مناقر كل طائرٍ حَجَرٌ وفي مخلبه حجران.

قيل: الحجَرةُ منها فوق العدس دون الحمص.

وقيل: فوق الحمص دون الفستق، مكتوب على كل واحدة اسم صاحبها.

وقيل: مُخَطَّطةٌ بالسَّواد. فأُمْطِرَتْ عليهم، وماتوا كُلُّهم.

وقيل: كان الفيلُ ثمانيةً؛ وقيل: كان فيلاً واحداً.

وفي رواية: إنه كان قبل مولده ﷺ بأربعين سنة.

وقيل: بثلاثة وعشرين سنة. وفي رواية «وُلِدْتُ عامَ الفيل»[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾.

أي: مَكرَهم في إبطال.

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾.

﴿أَبَابِيلَ﴾: مجمعةً ومتفرِّقةً.

﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾.

قيل بالفارسية: سنگل أو گل ـ أي طينٌ طُبِخَ بالنار كالآجُر.

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾.

﴿كَعَصْفٍ﴾: كأطرافِ الزرع قبل أن يدرك. «مأكول» أي ثَمرَهُ مأكول.

ويقال: إذا كان عبد المطلب ـ وهو كافرٌ ـ أخلص في التجائه إلى الله في استدفاع البلاءِ عن البيت ـ فاللَّهُ لم يُخَيِّبْ رجاءَهُ..، وسَمِعَ دُعاءَهُ... فالمؤمِنُ المخلصُ إذا دعا ربَّه لا يردُّهُ خائباً.

ويقال: إنما أُجيب لأنّه لم يسألْ اللَّهَ لِنَفْسِه، وإنما لأجْلِ البيت.. وما كان لله لا يضيع.

---

(١) أخرجه الترمذي (مناقب، ٢)، وأحمد بن حنبل ٤/ ٢١٥.

سورة قريش

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم»: الباء في «بسم» تشير إلى براءة سِرِّ الموحدِّين عن حسبان الحِدثان[1]، وعن كلِّ شيءٍ ممَّا لم يكن فكان، وتشير إلى الانقطاع إلى اللَّهِ في السَّرَّاء والضرَّاءِ، والشِّدَّةِ والرخاء.

والسين تشير إلى سكونهم في جميع أحوالهم تحت جريان ما يبدو من الغيب بشرط مراعاة الأدب.

والميم تشير إلى مِنَّةِ اللَّهِ عليهم بالتوفيق لِمَا تحقَّقُوا به من معرفته، وتخلَّقوا به مِنْ طاعته.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾.

«الإيلاف»: مصدر آلَفَ، إذا جَعَلْتَهُ يَأْلَف.. وهو أَلِفَ إلفاً.

والمعنى: جعلهم كعصفٍ مأكولٍ لإيلافِ قريشٍ، أي لِيَأْلَفوا رحلتهم في الشتاء والصيف.

وكانت لهم رحلتان للامتيار[2]: رحلةٌ إلى الشام في القيظ[3]، ورحلة إلى اليمن في الشتاءِ والمعنى: أنعم اللَّهُ عليهم بإهلاكِ عدوِّهم ليؤلِّفَهم رحلتيهم.

وقيل: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾ ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ كأنه أَعْظَمَ المِنَّةَ عليهم. وأَمَرَهم بالعبادة:

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾.

فليعبدوه لِمَا أنعم به عليهم.

وقيل: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ بعد ما أصابهم من القحط حينما دعا عليهم الرسولُ ﷺ[4].

---

(١) الحِدثان: حدثان الأمر والشباب: أوله وابتداؤه.

(٢) امتار لأهله: تطلّب لهم الميرة، أتاهم بالميرة وهي الطعام من الحب والقوت.

(٣) القيظ: شدة الحر أو صميم الصيف.

(٤) قال: «اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف» أخرجه البخاري في (الصحيح ٢/ ٢٣، ٨/ ٥٥ ـ=

﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾.

حين جعَلَ الحرَمَ آمِناً، وأجارَهم من عدوِّهم.

ويقال: أنعم عليهم بأن كفاهم الرحلتين بجلْبِ الناسِ الميرةَ إليهم من الشام ومن اليمن.

وَوجْهِ المِنَّةِ في الإطعام والأمان هو أن يتفرّغوا إلى عبادة الله؛ فإنَّ مَنْ لم يكن مكْفِيَّ الأمور لا يتفرَّغُ إلى الطاعة، ولا تساعده القوة ولا القلبُ ـ إلّا عند السلامة بكلِّ وجهٍ وقد قال تعالى:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ﴾ [البقرة: ١٥٥] فقدَّم الخوف على جميع أنواع البلاءِ.

= ١٠٤)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٢/١٩٨)، وابن كثير في (التفسير ٢/٣٤٤) والقرطبي في (التفسير ٣/٢٦٤، ٧/٢٦٣، ٢٠/٢٠٩)، وابن حجر في (فتح الباري ١٠/٥٨٠، ١١/١٩٤).

سورة الدين

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ سماعُها غِذاءُ أرواحِ المحبِّين، ضياءُ أسرار الواجدين، شفاءُ قلوبِ المُتيَّمين؛ بلاءُ مُهج المساكين، دواءُ كلِّ فقيرٍ مسكين.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَرَءَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾.

نزلت الآية على جهة التوبيخ، والتعجُّبِ من شأن تظلُّم اليتيمِ من الكفار.

فقال: ﴿أَرَءَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾، وبالحساب والجزاء؟

﴿فَذَٰلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾.

يدفعه بجفوة، ويقال: يدفعه عن حقِّه.

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾.

أي: لا يَحُثُّ على إطعام المسكين، وإنما يدعُّ اليتيم؛ لأنَّ اللَّهَ تعالى قد نزع الرحمةَ من قلبه «ولا تنزع الرحمة إلّا من قلبِ شقيٍّ»(١).

وهو لا يحث على طعام المسكين، لأنه في شُحِّ نَفْسِه وأَمْرِ بُخْلِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾.

السّاهي عن الصلاة الذي لا يُصَلِّي. ولم يقل: الذين هم في صلاتهم ساهون.. ولو قال ذلك لكان الأمرُ عظيماً.

---

(١) أخرجه الترمذي في (السنن ١٩٢٣)، وأبو داود في (السنن ٤٩٤٢)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٣١٠، ٤٤٢، ٤٦١، ٥٣٩)، والدولابي في (الكنى والأسماء ٢/ ٣)، والبخاري في (الأدب المفرد ٣٧٤)، وابن أبي شيبة في (المصنف ٨/ ٣٣٩)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٤٩٦٨)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٣/ ٢٠٣)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٩٧٣)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ٤٧٨)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٧/ ١٨٣)، والعجلوني في (كشف الخفا ٢/ ٥٢٧).

﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ﴾: أي يصلون ويفعلون ذلك على رؤية الناس ـ لا إخلاصَ لهم.

﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾.

الماعون: مثل الماء، والنار، والكلأ، والفأس، والقِدْر وغير ذلك من آلةِ البيت.

ويدخل في هذا: البُخْلُ، والشُّحُّ بما ينفع الخَلْقَ مما هو مُمْكِنٌ ومُسْتَطاع.

سورة الكوثر

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ يُجَلُّ العبدُ بإجلاله ولا يجل هو إلا باستحقاقِ عُلُوِّه في آزالِه.

اسمٌ عزيزٌ أَعَزَّ مَنْ شاء بأفضالِه وإقبالِه؛ وأَذَلَّ أعداءَه بسلاسله وأغلالِه، والتخليدِ في جحيمِه وأنكالِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾.

﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾: أي الخير الكثير. ويقال: هو نَهْرٌ في الجنة.

ويقال: النبوّةُ والكتابُ. وقيل: تخفيف الشريعة.

ويقال: كثرةُ أُمَّتِه.

ويقال: الأصحابُ والأشياع. ويقال: نورٌ في قلبه.

ويقال: معرفته بربوبيته.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾.

أي صَلِّ صلاةَ العيد ﴿وَٱنْحَرْ﴾ النُّسُك.

ويقال: جمع له في الأمر بين: العبادة البدنية، والمالية.

ويقال «وانحر» أي استقبِلْ القبلة بنحرك. أو ارفع يديك في صلاتك إلى نحرك.

ويقال: ضَعْ يمينك على يسارك في الصلاة واجعلها تحت نَحْرِك.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾.

أي: لا يُذْكَرُ بخيرٍ، مُنْقَطِعٌ عنه كل خير.

سورة الكافرون

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ مَنْ آمَن بها أَمِنَ مِنْ زوال النُّعمى، وحَظِيَ بنعيم الدنيا والعُقبى، وسَعِدَ سعادةً لا يَشْقى، ووَجَدَ مُلكاً لا يَفْنى، وبَقِيَ في العزِّ والعُلَى.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾.

من أصنامكم.

﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾.

«ما» أعبد أي «من» أعبد.

﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾.

في زمانكم.

﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾.

كَرَّرَ اللفظ على جهة التأكيد.

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

أي: لكم جزاؤكم على دينكم، ولي الجزاءُ على ديني.

والعبودية[1] القيام بأمره على الوجه الذي به أَمَرَ، وبالقَدْر الذي به أَمَرَ، وفي الوقت الذي فيه أَمَر.

---

(١) القشيري هنا يشير إلى العبودية لكن الآيات تتحدث عن العبادة لكن هناك صلة وثيقة بينهما وبين العبودة وهذا يتضح من خلال حديث القشيري بالرسالة عن العبودية قال: سمعت الأستاذ أبا عليّ الدقاق رحمه الله يقول: العبودية أتم من العبادة فأولاً عبادة ثم عبودية ثم عبودة، فالعبادة للعوام المؤمنين، والعبودية للخواص، والعبودة لخواص الخواص وسمعته يقول: العبادة لمن له علم اليقين، والعبودية لمن له حق عين اليقين، والعبودة لمن حق اليقين وسمعته يقول: العبادة لأصحاب المجاهدات، والعبودية لأرباب المكابدات، والعبودة صفة أهل المشاهدات، فمن لم يدخر عنه نفسه فهو صاحب عبادة، ومن لم يضن عليه بقلبه فهو صاحب عبودية، ومن لم يبخل عليه بروحه فهو صاحب عبودة. (الرسالة القشيرية ص١٩٧، ١٩٨).

ويقال: صِدْقُ العبودية في تَرْكِ الاختيار، ويظهر ذلك في السكون تحت تصاريف الأقدار من غير انكسار.

ويقال: العبودية انتفاء الكراهية بكلِّ وجهٍ من القلب كيفما صَرَّفَك مولاك.

سورة النصر

قوله جل ذكره: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمٌ كريمٌ يُبْصِرُ ويَسْتُرُ، ويَعْلَمُ ويَحْلُم، ويمدح ولا يَفْضَح، ويعفو عن جميع ما يجترم العبدُ ويصفح؛ يَعْصَى العبدُ على التوالي، ويَغْفِرُ الحقُّ ولا يُبالي.

قوله جل ذكره: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾.

النصرُ الظَّفَرُ بالعدوِّ، و﴿الفتح﴾ فتح مكة.

﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾.

يُسْلِمون جماعاتٍ جماعاتٍ.

﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾.

أكْثِرْ حَمْدَ ربِّكَ، وصلِّ له، وَقَدِّسْه.

ويقال: صَلِّ شكراً لهذه النعمة.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ وسَلْ مغفرته.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾.

لِمَنْ تاب؛ فإنه يقبل توبته.

ويقال: نصرة الله ـ سبحانه ـ له بأنْ أفناه عن نَفْسِه، وأبعد عنه أحكامَ البشرية، وصفَّاه من الكدورات النفسانية. وأمَّا «الفتح»: فهو أنْ رقَّاه إلى محلِّ الدنو، واستخلصه بخصائص الزلفة، وألبسه لِباسَ الجمع، واصطلمه عنه، وكان له عنه، ولنَفْسِه ـ سبحانه ـ منه، وأظهر عليه ما كان مستوراً من قَبْلُ من أسرارِ الحقِّ، وعَرَّفه ـ من كمال معرفته به ـ ما كان جميعُ الخَلْقِ متعطشاً إليه.

سورة المسد

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة جبّارة للمذنبين، تجبر أعمالَهم، وتحقّق آمالَهم، وهي للعارفين تُصَغِّر في أعينهم أحوالَهم، وتُكَمِّل ـ عن شواهدِهم ـ امتحاءهم واستئصالهم، وتحقّق لهم ـ بعد فنائهم عنهم ـ وصالهم.

قوله جل ذكره: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

أي: خَسِرَت يداه.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾.

ما أغنى عنه مالُه ولا كَسْبُه الخبيثُ ـ شيئاً.

وقيل: ﴿ما كسب﴾: وَلَدُه.

قوله جل ذكره: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾.

يلزمها إذا دَخَلَها؛ فلا براحَ له منها. وامرأتُه أيضاً سَتَصْلَى النارَ معه.

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾.

«مَسَدٌ» شيءٌ مفتول، وكانت تحمل الشوك وتنقله وتبثه في طريقِ رسول الله عليه الصلاة والسلام.

ويقال: سُحْقاً لِمَنْ لا يعرف قَدْرَكَ ـ يا محمد. وبُعْداً لِمَنْ لم يشهد ما خصصناكَ به مِنْ رَفْعِ محلِّك، وإكبارِ شأنِك.. ومَنْ ناصبَكَ كيف ينفعه مالُه؟ والذي أقميناه لأجلِكَ وقد (أساء)[1] أعماله.. فإنَّ إلى الهوانِ والخِزْيِ مآله، وإنَّ على أقبحِ حالٍ حالَ امرأتِه وحالَه.

---

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

سورة الإخلاص

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة عزيزة عَزَّ لسانٌ ذَكَرَها، وأعَزُّ منه قلبٌ عَرَفها، وأعزُّ من هذا رُوحٌ أحبَّها، وأعزُّ من هذا سِرٌّ شهدها.

ليس كلُّ مَنْ قصدها وَجَدَها، ولا كلُّ مَنْ وَجَدَها بَقِيَ معها.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

لمَّا قال المشركون: أُنسُبْ لنا ربَّكَ. أنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فمعنى «هو» أي: الذي سألتُم عنه «هو» الله. ومعنى «أحد» أي: هو أحدٌ.

ويقال: «هو» مبتدأ، «والله» خبره و«أحد» خبرٌ ثانٍ كقولهم: هذا حلوٌ حامض.

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾.

﴿الصمد﴾: السيِّدُ الذي يُصْمَدُ إليه في الحوائج، ويُقْصَدُ إليه في المطالب. ويقال: الكاملُ في استحقاق صفات المدح.

ويرجِّح تحقيقُ قولِ مَنْ قال: إنه الذي لا جوفَ له إلى أنه واحدٌ لا.(. . .)[1] في ذاته.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾.

ليس بوالدٍ ولا مولود.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

تقديره لم يكن أحدٌ كفواً له.

و«أحد» أصله وَحْدٌ، ووِحَدٌ، وواحد بمعنًى، وكونه واحداً: أنه لا قسيمَ له ولا شبيهَ له ولا شريكَ له.

ويقال: السورة بعضها تفسيرٌ لبعض؛ مَنْ هو الله؟ هو الله. مَنْ الله؟ الأحد، مَنْ الأحد؟ الصمد، مَنْ الصمد؟ الذي لم يلد ولم يولد، مَنْ الذي لم يلد ولم يولَد؟ الذي لم يكن له كفواً أحد.

---

(١) بياض في الأصل.

ويقال: كاشَفَ الأسرارَ بقوله: «هو». وكاشَفَ الأرواحَ بقوله: «الله» وكاشَفَ القلوبَ بقوله: «أحد». وكاشَفَ نفوسَ المؤمنين بباقي السورة.

ويقال: كاشَفَ الوالهين بقوله: «هو»، والموحِّدين بقوله: «الله» والعارفين بقوله: «أحد» والعلماء بقوله: «الصمد»، والعقلاء بقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾.. إلى آخره.

ويقال: لمَّا بسطوا لسانَ الذمِّ في الله أمَرَ نبيَّنا بأنْ يَرُدَّ عليهم فقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾. أي ذُبَّ عني ما قالوا، فأنت أولى بذلك. وحينما بسطوا لسان الذمِّ في النبيِّ ﷺ تولَّى الحقُّ الردَّ عليهم، فقال: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ١، ٢] وقال: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١، ٢] أي أنا أذبُّ عنك؛ فأنا أولى بذلك منك.

ويقال: خاطَبَ الذين هم خاص الخواص بقوله: «هو» فاستقلوا، ثم زاد لمن نزل عنهم فقال: «الله»، ثم زاد في البيان لمن نزل عنهم.

فقال: «أحدٌ» ثم لمن نزل عنهم فقال: «الصمد».

ويقال: الصمدُ الذي ليس عند الخَلْقُ منه إلا الاسم والصفة.

ويقال: الصمدُ الذي تقدَّس عن إحاطةِ عِلْمِ المخلوقِ به وعن إدراك بَصَرهم له، وعن إشرافِ معارفهم عليه.

ويقال: تقدَّسَ بصمديته عن وقوف المعارف عليه.

ويقال: تنَزَّه عن وقوف العقول عليه.

سورة الفلق

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمٌ عزيزٌ إذا تجلَّى لقلبٍ فإن لاطفَهُ بجماله أحياه، وإن كاشفَه بجلاله أباده وأفناه؛ فالعبدُ في حالتي: بقاءٍ وفناءٍ، ومحوٍ وإثباتٍ، ووَجْدٍ وفَقْدٍ.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾.

أي امتنع واعتصم بربِّ الفَلَق. والفلقُ الصُّبْحُ.

ويقال: هو الخَلْقُ كلُّهم وقيل الفَلَقُ وادٍ في جهنم.

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾.

أي من الشرور كلِّها.

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾.

قيل: الليلُ إذا دخَلَ. وفي خبرٍ، أنه ﷺ أخذ بيد عائشة ونَظَرَ إلى القمر فقال: «يا عائشة، تَعَوَّذِي بالله من شرِّ هذا فإنه الغاسقُ إذا وقب»(١).

﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾.

وهن السواحر اللواتي ينفخن في عُقَد الخيط (عند الرُّقية)(٢) ويوهمنَّ إدخال الضررِ بذلك.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

والحَسَدُ شرُّ الأخلاق.

وفي السورة تعليمُ استدفاع الشرور من الله. ومَنْ صَحَّ توكُّلُه على الله فهو الذي صحَّ تحقُّقُه بالله، فإذا توكَّلَ لم يُوَفِّقه اللَّهُ للتوكُّلِ إلَّا والمعلومُ من حاله أنه يكفيه ما توكَّلَ به عليه؛ وإنَّ العبدَ به حاجةٌ إلى دَفْعِ البلاء عنه ـ فإن أخَذَ في التحرُّز من تدبيره وحَوْله وقُوَّته، وفَهْمِه وبصيرته في كلِّ وقتٍ استراح من تعب تردُّدِ القلبِ في التدبير، وعن قريبٍ يُرَقَّى إلى حالة الرضا.. كُفِيَ مُرَادَه أم لا. وعند ذلك الملكُ الأعظم، فهو بظاهره لا يفتر عن الاستعاذة، وبقلبه لا يخلو من التسليم والرضا.

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٦/ ٢٠٦)، والطبري في (التفسير ٣٠/ ٢٢٧).

(٢) الرقية: كلام يطلب به شفاء المريض ونحوه (ج) رُقًى.

سورة الناس

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله الذي قصرت عنه العقولُ فوقفت، وعَجَزت العلومُ فتحيَّرت، وتقاصَرَت المعارفُ فَخَجِلَت، وانقطعت الفُهُومُ فدهشت.. وهو بنعت علائِه ووصفِ سنائه وبهائه وعِزِّ كبريائه يُعْلَمُ ولكنَّ الإحاطةَ في العلمِ به مُحالٌ، ويُرَى ولكنَّ الإدراكَ في وصفه مستحيلٌ، ويُعْرَف ولكنَّ الإشرافَ في نعته غَير صحيح.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾.

أعتصِمْ بربِّ الناسِ خالقِهِم وسيِّدِهم.

﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾.

أي مالكهم جميعهم.

﴿إِلَٰهِ النَّاسِ﴾.

القادِر على إيجادهم.

﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾.

من حديثِ النَّفسِ بما هو كالصوتِ الخفيِّ.

ويقال: مِنْ شرِّ ذي الوسواس.

ويقال: من شرِّ الوسوسة التي تكون بين الجِنَّةِ والناس.

«والخنَّاس» الذي يغيب ويخنس عن ذِكْرِ الله. وهو من أوصاف الشيطان.

﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾.

قيل: «الناس» يقع لفظها على الجنّ والإنْسِ جميعاً ـ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الأحقاف: ٢٩] فسمَّاهم نفراً، وكما قال:

﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ٦] فسمَّاهم رجالاً.. فعلى هذا استعاذ من الشيطان الذي يوسوس في صدور الناس، والشيطانُ الذي له تسلُّطٌ على الناسِ كالوسواس؛ فللنَّفْس من قِبَلِ العبد هواجسُ، وهواجِسُ النَّفْسِ ووساوسُ الشيطانِ يتقاربان؛ إذ إن ما يدعو إلى متابعة الشهوة أو الضلالة في الدين أو

إلى ارتكاب المعصية، أو إلى الخصال الذميمة ـ فهو نتيجة الوساوس والهواجس.

وبالعلم يُمَيَّزُ بين الإلهام وبين الخواطرِ الصحيحة وبين الوساوس[١].

(ومما تجب معرفته)[٢] أن الشيطان إذا دعا إلى محظورٍ فإن خالَفْتَه يَدَعْ ذلك (ثم) يدعوك إلى معصيةٍ أخرى؛ إذ لا غَرَضَ له إلا الإقامة على دعائك (. . .)[٣] غير مختلفة.

تم الكتاب بعونه تعالى

---

(١) قال القشيري عند حديثه عن الخواطر بالرسالة: والخواطر خطابات ترد على الضمائر، وقد يكون الخطاب بإلقاء ملك أو إلقاء شيطان أو أحاديث نفس أو من الحق سبحانه فإذا كان من الملك فهو الإلهام، وإذا كان من قِبل النفس قيل له الهواجس، وإذا كان من الشيطان فهو الوسواس، وإذا كان من الله سبحانه وكان إلقاؤه في القلب فهو خاطر حق وجملة ذلك من قبيل الكلام، فإذا كان من الملك فإنما يُعلم صدقة بموافقة العلم. (الرسالة القشيرية ص٨٣، ٨٤).

(٢) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) بياض في الأصل.

فهرس المحتويات

سورة فاطر

سورة يٰس

سورة الصافات

سورة صٓ

سورة الزمر

سورة غافر (سورة المؤمن)

سورة فصّلت

سورة الشورى

سورة الزخرف

سورة الدخان

سورة الجاثية

سورة الأحقاف

سورة محمد ﷺ

سورة الفتح

سورة الحجرات

سورة قٓ

سورة الذاريات

سورة الطور

سورة النجم

سورة القمر

سورة الزمر

سورة الواقعة

سورة الحديد

سورة المجادلة

سورة الحشر

سورة الممتحنة

سورة الصف

سورة الجمعة

سورة المنافقون

سورة التغابن

سورة الطلاق

سورة التحريم

سورة الملك

سورة القلم

سورة الحاقة

سورة المعارج

سورة نوح

سورة الجن

سورة المزمل

سورة المدثر

سورة القيامة

سورة الإنسان

سورة المرسلات

سورة النبأ

سورة النازعات

سورة عبس

سورة التكوير

سورة الانفطار

سورة المطففين

سورة الانشقاق

سورة البروج